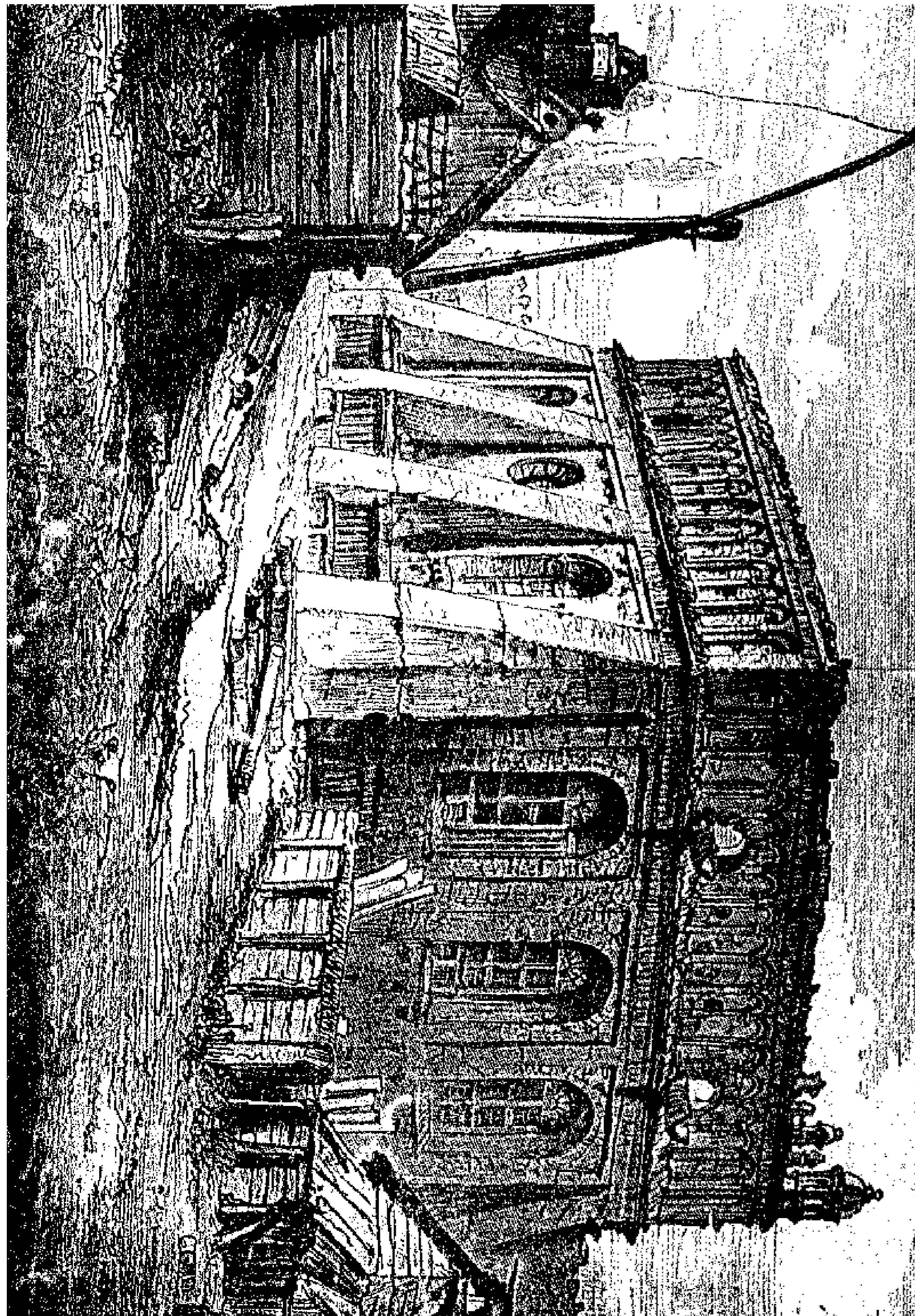
موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية

عبد الوهاب المسيرى

دار الشروق



الغلاف الداخلي :

المعبد/ القلعة في لتسك . كان أعضاء الجماعة اليهودية موضع كراهية الجماهير لأنهم كانوا يمثلون النبلاء الإقطاعيين البولنديين في أوكرانيا ، ويستغلون شعبها لحساب هؤلاء النبلاء . ولهذا السبب كان عليهم أن يعيشوا في حالة تأهب دائم ، خوفاً من هجمات الفلاحين وفرسان القوزاق ، فاكتسبت حياتهم طابعاً عسكرياً تبدى بشكل مثير في المعبد/ القلعة .

اليهود
واليهودية
والصهيونية

الطبعـة الأولـى

١٩٩٩

رقم الإيداع :- ١٥٥٦٠/٩٨

الترقيم الدولى : ISBN: 977 - 09 - 0515 -1

© دار الشروق

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر

' البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

وت : ص. ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣

فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

موســـوعة

اليهود واليهودية والصهيونية

نموذج تفسيري جديد

عبد الوهاب محمد المسيري

٦

دار الشروق

JEWISH BATTALIONS
IN PALESTINE

PUBLIS

المجلد السادس

الصهيونيـــــة

غلاف كتاب الفرق اليهودية العسكرية في فلسطين (١٩١٨) .

يضم المجلد الثامن دليلاً لاستخدام الموسوعة («آليات الموسوعة») ومفتاحاً للمفاهيم والمصطلحات («تعريفات المفاهيم والمصطلحات الأساسية [مرتبة موضوعياً]»)، وثبتاً تاريخياً بأهم الأحداث الإنسانية وتلك التي تخص الجماعات اليهودية وفلسطين. كما يضم المجلد فهرساً موضوعياً شاملاً بكل المجلدات والأجزاء والأبواب والمداخل، وآخر ألفبائي عربي، وثالث ألفبائي إنجليزي.

المحتويات

الجزء الأول : إشكاليات وموضوعات أساسية

الجزء الثاني : تاريخ الصهيونية

الجزء الثالث : الحركة الصهيونية

الجزء الرابع : الصهيونية والجماعات اليهودية

الجزء الأول

إشكاليات وموضوعات أساسية

١
التعريف بالصهيونية

الصهيونية : إشكالية التعريف ـ الصهيونية : تاريخ المفهوم والمصطلح ـ الصهيونية : تعريف ـ المادة البشرية المستهدفة ـ الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ـ الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة : تاريخ ـ الصهيونية البنيوية ـ الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المُهوَّدة ـ أرض بلا شعب لشعب بلا أرض ـ القومية اليهودية ـ الوطن القومي اليهودي ـ الدولة اليهودية ـ الصهيونية العالمية

الصهيونية : إشكالية التعريف

Zionism : The Problem of Definition

كلمة «صهيونية» يصعب تعريفها بشكل مباشر للأسباب التالية :

١ ـ التعريفات الشائعة في المعاجم الغربية تشير إلى "الأمل الصهيوني" وليس إلى الظاهرة الصهيونية ، فتُعرَّف الصهيونية ، على سبيل المثال بأنها "الحركة الرامية إلى عودة اليهود إلى وطن أجدادهم إرتس يسرائيل حسبما جاء في الوعد الإلهي والآمال المشيحانية لليهود!" وغني عن القول أن الأمل الصهيوني أو المتتالية المفترضة أو المتوقعة تختلف كثيراً عن الواقع الصهيوني أو المتتالية المتحققة .

٢ ـ تختلط التعريفات بالاعتذاريات والمنظورات المختلفة بحيث لا تمكن التفرقة بين الواحد والآخر ، فالصهيونية قد تكون من منظور البعض هي تحقيق الآمال المشيحانية ، ولكنها من منظور البعض الآخر مخطط استعماري استيطاني .

٣ ـ يشير المصطلح إلى نزعات وحركات ومنظمات سياسية غير متجانسة ، بل متناقضة أحياناً ، في أهدافها ومصالحها ورؤيتها للتاريخ ، أو في أصولها الإثنية أو الدينية أو الطبقية .

٤ ـ قد يُستخدَم المصطلح مع صفة تحدُّ من حقله الدلالي أو تُوسِّعه كأن نقول «الصهيونية العمالية» و«الصهيونية المسيحية» . بل هناك أيضاً «صهاينة صهيون» وهم معارضو مشروع شرق أفريقيا باعتبار أن دعاة هذا المشروع هم صهاينة بدون صهيون (كما أشار بعض دعاة الصهيونية الإثنية العلمانية إلى صهيونية هرتزل باعتبارها «صهيون بلا صهيونية») .

وإذا كانت الصهيونية تعني "تهجير بعض أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين وتوطينهم فيها" ، فبأي معنى إذن يمكننا الحديث عن «صهيونية الدياسبورا» أو «الشتات» (الجماعات اليهودية في العالم) ، أي صهيونية اليهودي الذي يرفض أن يشترك في عملية الاستيطان الصهيوني وإن كان في الوقت نفسه يرى أن هذا الاستيطان هو الحل الوحيد لمشاكل اليهود ؟ ولعل هذا هو الذي حدا بالمفكر الصهيوني العمالي بوروخوف إلى أن ينحت مصطلحاً في غاية الأهمية اختفى من الأدبيات والتواريخ الصهيونية وهو «صهيونية الصالونات» ، ويعني صهيونية الطبقة الوسطى التي تهتم بالجوانب الحضارية والثقافية والإثنية (أي ما يُسمَّى «الوعي اليهودي») ولا تهتم كثيراً بالاستيطان . كما نحت آخر (بعد تأسيس الدولة الصهيونية) مصطلح «صهيونية دفتر الشيكات» وهي صهيونية اليهودي الذي يُحدث أصواتاً صهيونية عالية ولكنه يكتفي بدفع مبلغ من المال للمنظمة الصهيونية . ولذا ، فإن الصفة هنا في الواقع لا تُعدِّل دلالة المصطلح وحسب ، وإنما تغير معناه تغييراً جوهرياً .

٥ ـ وهنا يجب أن نثير قضية تتصل بالمجال الدلالي . فإن قَبلنا بأن الصهيوني "هو من يدعو إلى تهجير اليهود إلى فلسطين وتوطينهم فيها" ، فهل يمكن أن نُطلق المصطلح على دعوة المعادين لليهود بطرد اليهود من أوطانهم وتوطينهم في فلسطين ؟ بل هل يمكن أن نُطلق المصطلح على المشاريع النازية المختلفة للتخلص من اليهود ؟ وهل يمكن الحديث عن النازيين كصهاينة ؟ وعلى كل حال ، فإن هذا ما فعله أدولف أيخمان أثناء محاكمته . فقد أشار إلى نفسه باعتباره صهيونياً يحاول أن يضع شيئاً من الأرض الراسخة تحت أقدام اليهود (باعتبار أن اليهود شعبٌ بلا أرض ، أما الأرض الراسخة فهي فلسطين ، أرض بلا شعب) .

الصهيونية : تاريخ المفهوم والمصطلح

Zionism : The History of the Concept and the Term

لم يُسك مصطلح «الصهيونية» إلا في القرن التاسع عشر ، ولكنه مع هذا يُستخدَم للإشارة إلى بعض النزعات في التاريخ الغربي ، بل داخل النسق الديني اليهودي قبل هذا التاريخ . وسنحاول فيما يلي أن نرصد بعض استخدامات المصطلح ونوردها ـ

على قدر المستطاع ـ في تسلسلها التاريخي ، مع العلم بأن كل دلالة جديدة لا تنسخ بالضرورة ما سبقها ، وإنما تُضاف إليها فتزيد المجال الدلالي اتساعاً وتناقضاً وتجعل المصطلح تركيباً جيولوجياً تراكمياً :

١ ـ الصهيونية بالمعنى الديني : تشير كلمة «صهيون» في التراث الديني اليهودي إلى جبل صهيون والقدس ، بل إلى الأرض المقدَّسة ككل ، ويُشير اليهود إلى أنفسهم باعتبارهم «بنت صهيون» . كما تُستخدَم الكلمة للإشارة إلى اليهود كجماعة دينية . والواقع أن العودة إلى صهيون فكرة محورية في النسق الديني اليهودي ، إذ أن أتباع هذه العقيدة يؤمنون بأن الماشيح المخلِّص سيأتي في آخر الأيام ليقود شعبه إلى صهيون (الأرض ـ العاصمة) ويحكم العالم فيسود العدل والرخاء . ولكلمة «صهيون» إيحاءات شعرية دينية في الوجدان الديني اليهودي ، فقد جاء في المزمور رقم ١٣٧/ ١ على لسان جماعة يسرائيل بعد تهجيرهم إلى بابل : "جلسنا على ضفاف أنهار بابل وذرفنا الدمع حينما تذكرنا صهيون" . وقد وردت إشارات شتى في الكتاب المقدَّس إلى هذا الارتباط بصهيون الذي يُطلَق عليه عادةً «حب صهيون» ، وهو حب يعبِّر عن نفسه من خلال الصلاة والتجارب والطقوس الدينية المختلفة ، وفي أحيان نادرة على شكل الذهاب إلى فلسطين للعيش فيها بغرض التعبد . ولذا ، كان المهاجرون اليهود الذين يستقرون هناك لا يعملون ويعيشون على الصدقات التي يرسلها أعضاء الجماعات اليهودية في العالم . وقد كان العيش في فلسطين يُعَد عملاً من أعمال التقوى لا عملاً من أعمال الدنيا ، وجزاؤه يكون في الآخرة أو في آخر الأيام ، ولذا فإنه لا تربطه رابطة كبيرة بالاستيطان الصهيوني ، وخصوصاً أن اليهودية الحاخامية (الأرثوذكسية) تُحرِّم محاولة العودة الجماعية الفعلية إلى فلسطين وتعتبرها تجديفاً وهرطقة ومن قبيل «دحيكات هاكتس» أي «التعجيل بالنهاية» . فاليهودية تؤمن بأن العودة إلى أرض الميعاد ستتم في الوقت الذي يحدده الرب وبطريقته ، وأنها ليست فعلاً بشرياً يتم على يد البشر . وهذه النزعة الصهيونية الدينية (التي تؤكد عنصر تجاوز المادة) لا علاقة لها بالاستيطان الصهيوني الفعلي والمادي في فلسطين ولا حتى بما يُسمَّى «الصهيونية الدينية» في الوقت الحالي .

٢ ـ يُطلَق اصطلاح «الصهيونية» أيضاً على نظرة محددة لليهود ظهرت في أوربا (وخصوصاً في الأوساط البروتستانتية في إنجلترا ابتداءً من أواخر القرن السادس عشر) وترى أن اليهود ليسوا جزءاً عضوياً من التشكيل الحضاري الغربي ، لهم ما لبقية المواطنين وعليهم ما عليهم ، وإنما تنظر إليهم باعتبارهم شعباً عضوياً مختاراً وطنه المقدَّس في فلسطين ولذا يجب أن يُهجَّر إليه . وقد استمر هذا التيار المنادي بتوطين اليهود في فلسطين حتى بعد أن خمد الحماس الديني الذي صاحب حركة الإصلاح الديني . ويُطلَق على هذه النزعة اسم «الصهيونية المسيحية» ، وهي تمارس في الولايات المتحدة الآن بعثاً جديداً وخصوصاً في بعض الأوساط البروتستانتية (الأصولية) المتطرفة .

٣ ـ مع تَزايُد معدلات العلمنة في المجتمعات الغربية ، ظهرت نزعات ومفاهيم صهيونية في أوساط الفلاسفة (ولا سيما الرومانسيين) والمفكرين السياسيين والأدباء ، تنادي بإعادة توطين اليهود في فلسطين باعتبار أنهم شعب عضوي منبوذ تربطه علاقة عضوية بها استناداً لأسباب تاريخية وسياسية بل "علمية" . ويُطلَق على هذا الضرب من الصهيونية «صهيونية غير اليهود» أو «صهيونية الأغيار» .

٤ ـ يُلاحَظ حتى الآن أن مصطلح «صهيونية» نفسه لم يكن قد تم سكه بعد ، ومع هذا كان مفهوم الصهيونية مفهوماً مُتداولاً على نطاق واسع بين الفلاسفة والمفكرين والشعراء والمهووسين الدينيين . ولكن مع تبلور الهجمة الإمبريالية الغربية على الشرق ، وبخاصة الشرق الإسلامي ، ومع تبلور الفكر المعادي لليهود في الغرب (بسبب ظهور الدولة العلمانية المركزية التي همَّشت اليهود كجماعة وظيفية) ، ومع تصاعد معدلات العلمنة بدأ مفهوم الصهيونية نفسه في التبلور والتخلص من كثير من أبعاده الغيبية الدينية أو الرومانسية وانتقل إلى عالم السياسة والمنفعة المادية ومصالح الدول .

٥ ـ ليس من الغريب إذن أن نجد أن نابليون بونابرت أول غاز غربي للشرق الإسلامي في العصر الحديث وواحد من أهم المعادين لليهود في العالم الغربي (كما يدل على ذلك سجله في فرنسا) وواحد من أهم دعاة العلمانية الشاملة هو أيضاً صاحب أول مشروع صهيوني حقيقي ، إذ دعا الصهاينة إلى الاستيطان في "بلاد أجدادهم" !

٦ ـ أصبح مفهوم الصهيونية مفهوماً أساسياً في الخطاب السياسي الغربي عام ١٨٤١ مع نجاح أوربا في بلورة مشروعها الاستعماري ضد العالم العربي والإسلامي الذي حقق أول نجاح حقيقي له في القضاء على مشروع محمد علي في تحديث مصر والدولة العثمانية ، ومع تفاقم المسألة اليهودية التقت المسألة الشرقية بالمسألة اليهودية وساد التصوُّر القائل بإمكان حل المسألتين من خلال دمجهما .

٧ ـ تمت بلورة المفاهيم الصهيونية وملامح المشروع الصهيوني بشكل كامل في الفترة بين منتصف القرن التاسع عشر وعام ١٨٨٠ على يد المفكرين الصهاينة غير اليهود لورد شافتسبري ولورانس

أوليفانت . وقد لخص شافتسبري التعريف الغربي لمفهوم الصهيونية في عبارة أرض بلا شعب ، لشعب بلا أرض (في كلمات تقترب كثيراً من الشعار الصهيوني) . وقد حاول أوليفانت أن يضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ .

٨ ـ يُلاحَظ أننا نضع تاريخ تطوُّر مفهوم الصهيونية في سياق التاريخ الفكري والسياسي والعسكري الغربي ، ولا نعود إلى العهد القديم أو ما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» (إلا في محاولة دراسة الديباجات) . فحتى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر لم يكن يربط اليهود أو اليهودية علاقة كبيرة بالصهيونية كفكرة أو مفهوم أو مشروع سياسي واقتصادي عسكري . وقد كان هذا هو الرأي السائد في الأوساط الصهيونية حتى عهد قريب . فأول تاريخ رسمي للصهيونية ، كُتب بتكليف من المنظمة الصهيونية وكتبه ناحوم سوكولوف (الذي تولى رئاسة المنظمة الصهيونية بعض الوقت) مكوَّن من جزأين كرَّس معظمها لتاريخ الصهيونية بين غير اليهود .

٩ ـ بدأت النزعات الصهيونية تظهر بين اليهود أنفسهم في أواخر القرن التاسع عشر مع تفاقم المسألة اليهودية ، وعبَّرت عن نفسها في بادئ الأمر عن طريق المساعدات التي كان أثرياء اليهود في الغرب يدفعونها للجمعيات التوطينية المختلفة التي كانت تهدف إلى توطين يهود شرق أوربا في أي بلد (ويشمل ذلك فلسطين) حتى لا يهاجروا إلى غربها فيعرِّضوا مكانتهم الاجتماعية وأوضاعهم الطبقية للخطر .

١٠ ـ عبَّرت النزعة الصهيونية في شرق أوربا عن نفسها من خلال جماعات أحباء صهيون التي حاولت التسلل إلى فلسطين للاستيطان فيها . وتُوصَف هذه النزعات أيضاً بأنها «صهيونية» رغم اختلاف الدوافع بين الفريقين الأول والثاني .

١١ ـ وقد نحت المصطلح نفسه المفكر اليهودي النمساوي نيثان بيرنباوم في أبريل ١٨٩٠ في مجلة **الانعتاق الذاتي** وشرح معناه في خطاب بتاريخ ٦ نوفمبر ١٨٩١ قال فيه إن الصهيونية هي إقامة منظمة تضم الحزب القومي السياسي بالإضافة إلى الحزب ذي التوجه العملي (أحباء صهيون) الموجود حالياً . وفي مجال آخر (في المؤتمر الصهيوني الأول [١٨٩٧]) صرَّح بيرنباوم بأن الصهيونية ترى أن القومية والعرْق والشعب شيء واحد ، وهكذا أعاد بيرنباوم تعريف دلالة مصطلح «الشعب اليهودي» الذي كان يشير فيما مضى إلى جماعة دينية إثنية ، فأصبح يشير إلى جماعة عرْقية (بالمعنى السائد في ذلك الوقت) ، وتم استبعاد الجانب الديني منه تماماً . وأصبحت الصهيونية الدعوة القومية اليهودية التي جعلت السمات العرْقية اليهودية (ثم السمات الإثنية في مرحلة لاحقة) قيمة نهائية مطلقة بدلاً من الدين اليهودي ، وخلَّصت اليهودية من المعتقدات المشيحانية والعناصر العجائبية الأخروية ، وهي الحركة التي تحاول أن تصل إلى أهدافها من خلال العمل السياسي المنظم لا من خلال الصدقات . ورغم أن بيرنباوم كان يهدف إلى الدعوة إلى ضرب جديد من التنظيم السياسي مقابل جهود أحباء صهيون التسللية ، فإن المصطلح استُخدم للإشارة إلى الفريقين معاً .

وبعد المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) في بازل ، تحدَّد المصطلح وأصبح يشير إلى الدعوة التي تبشر بها المنظمة الصهيونية وإلى الجهود التي تبذلها ، وأصبح الصهيوني هو من يؤمن ببرنامج بازل (في مقابل المرحلة السابقة على ذلك ، أي مرحلة أحباء صهيون بجهودها التسللية المتفرقة) .

١٢ ـ بعد ذلك ، بدأت دلالات الكلمة تتفرع وتتشعب ، فهناك «صهيونية سياسية» (يُشار إليها أحياناً بعبارة «الصهيونية الدبلوماسية») ، وأخرى «عملية» ، وتبعتها «الصهيونية التوفيقية» . وكل صهيونية لها توجُّهها وأسلوبها الخاص وإن كانت جميعاً لا تختلف في الهدف النهائي . وتذهب الصهيونية التوفيقية إلى أن كل الاتجاهات الصهيونية غير متناقضة بل يكمل الواحد منها الآخر ، ومن ثم يَسهُل التوفيق بينها .

١٣ ـ تَبلور المفهوم الغربي للصهيونية تماماً في وعد بلفور الذي مُنح "للشعب اليهودي" (أُسقطت عبارة "العرْق اليهودي") والذي أشار للعرب باعتبارهم الجماعات غير اليهودية ، أي أن اليهود أصبحوا شعباً بلا أرض وفلسطين أصبحت أرضاً بلا شعب .

١٤ ـ ثم ظهرت بعد ذلك «الصهيونية الثقافية» و«الدينية» التي أضافت إلى الصهيونية البعد الإثني (الديني والعلماني) .

١٥ ـ ثم ظهرت «الصهيونية الديموقراطية» و«الصهيونية العمالية» و«الصهيونية التصحيحية» و«الصهيونية الراديكالية» .

١٦ ـ وبعد عام ١٩٤٨ ، ظهرت «صهيونية الدياسبورا» .

ونحن نذهب إلى أنه يوجد في الواقع صهيونيتان لا صهيونية واحدة (صهيونية توطينية وصهيونية استيطانية) . ومع هذا ، فإنهما يُشار إليهما بدالٍّ واحد : «صهيونية» . وذلك برغم أنهما ظاهرتان مختلفتان تماماً ، لهما جذور مختلفة وقيادات وأهداف مختلفة .

١٧ ـ ويُشبِّه يوري أفنيري الصهيونية بالبيوريتانية (بالإنجليزية : بيوريتانيزم Puritanism) في أمريكا ، فهي أيديولوجيا الأصول التي أدَّت إلى ظهور المجتمع الأمريكي ، ولكنها ماتت ولم تَعُد لها فعالية في هذا المجتمع . ويرى الكاتب الإسرائيلي بوعز إفرون أن على الإسرائيلي في علاقته بالصهيونية أن يكون مثل الأمريكي في علاقته

بالبيوريتانية . وبذا ، تصبح الدوافع الأيديولوجية أو الاقتصادية التي دفعت الرواد الأوائل (الصهاينة أو البيوريتان) إلى الاستيطان (في فلسطين أو الولايات المتحدة) موضوعاً ذا أهمية تاريخية أو أكاديمية محضة ، وليس موضوعاً أساسياً .

ويتحدث الكاتب الإسرائيلي أبراهام يهوشاوا عن الصهيونية بوصفها حركة إنقاذ عملية ظهرت حلاً للمأزق اليهودي منذ قرن (أي المسألة اليهودية في شرق أوربا) ، وهو يعتقد أن العملية قد وصلت إلى نهايتها ، أي أن الصهيونية كانت ولم تَعُد .

١٨ ـ وهناك مصطلح «الصهيونية الجغرافية» الذي ورد في رسالة بعث بها يوسف ضياء الدين الخالدي رئيس بلدية القدس إلى حاخام فرنسا الأكبر صادوق كاهن (الصديق المقرب لكلٍّ من هرتزل ونوردو) يُذكِّره بأن فلسطين جزء لا يتجزأ من الإمبراطورية العثمانية ويسكنها غير اليهود ، ويتنبأ بقيام حركة شعبية ضد الصهيونية فيما لو استمرت الحال على ما هي عليه ، ولذا فقد نصح الصهاينة بالتخلي عن «الصهيونية الجغرافية» ، أي الربط بين صهيون وفلسطين وبضرورة البحث عن أرض أو بلاد أخرى . ولعل هذا المصطلح هو المحاولة العربية الوحيدة لسك مصطلح مستقل لوصف الظاهرة . وهو مصطلح دقيق إلى حدٍّ كبير ، فهو يفصل بين الصهيونية وبين أية ديباجات دينية أو علمانية ، ويبين أن المستهدف هو الأرض الفلسطينية . كما أن التركيز على عنصر الجغرافيا يبين أن عنصر التاريخ الحي قد استُبعد ، ولذا فقد أشار الخالدي في خطابه إلى أن فلسطين هي بلاد اليهود "تاريخياً" ، بمعنى أن جزءاً من تاريخهم مرتبط بها ، ولكنه تاريخ متحفي بائد ، إذ أن فلسطين أصبحت الآن جزءاً من التاريخ العربي الإسلامي . والواقع أن كلمة «جغرافية» تبين شراهة المشروع الصهيوني واستعماريته وإنكاره تاريخ المنطقة ووجود أهلها .

١٩ ـ وفي الوقت الحاضر ، فإن كلمة «صهيونية» تعني في العالم العربي "الاستعمار الاستيطاني الإحلالي في فلسطين الذي تَرسَّخ بدعم من الغرب" . وتحمل الكلمة إيحاءات دينية لدى كثير من العرب المسلمين أو المسيحيين الذين يرون أن الصراع العربي/ الإسرائيلي صراع ديني .

٢٠ ـ لا تحمل الكلمة أي معنى ديني في بلاد العالم الثالث ، ولا تشارك شعوب العالم الثالث في الديباجات الصهيونية المختلفة عن "حق" اليهود بسبب اضطهادهم في أوربا أو عن الرابطة الأزلية بأرض الميعاد . وتحمل الكلمة تقريباً الدلالات نفسها التي تحملها في العالم العربي .

٢١ ـ وحتى نُبيِّن مدى خلل المجال الدلالي ، يمكن أن نشير إلى أن الصهيونية حركة عنصرية حسب أحد قرارات هيئة الأمم وأنها ليست كذلك حسب قرارات أخرى .

٢٢ ـ يُلاحَظ أن أزمة الصهيونية عبَّرت عن نفسها من خلال عدد لا ينتهي من المصطلحات تناولناها في الباب المعنون «أزمة الصهيونية» .

وقد حاولنا في هذه الموسوعة أن نحدِّد معنى لفظ «صهيونية» ومجاله الدلالي من خلال ما سميناه «الصيغة الصهيونية الأساسية» التي تحولت إلى «الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة» والتي تم تهويدها وأصبحت «الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة اليهودية» أو «المُهوَّدة» . وقد عرَّفنا الديباجات والانقسامات المختلفة التي تعطي مضموناً للكلمة .

ويمكن اشتقاق فعل من كلمة «صهيونية» فنقول «صَهْيَنَ» (بالإنجليزية : زايونايز zionize) . ويُستخدَم المصدر من هذا الفعل عادةً بشكل شبه مجازي فيُقال «صهينة يهود العالم» بمعنى أن تسيطر العقيدة الصهيونية على بعض جوانب وجودهم لا كلها ، ويُقال «صهينة اليهودية» بمعنى أن الرؤية الصهيونية للكون تصبح هي القيمة الحاكمة داخل النسق الديني اليهودي . وصهينة اليهود واليهودية هي الشكل الخاص الذي تتخذه عملية علمنتها .

الصهيونية : تعريف

Zionism : Definition

تتسم التعريفات الشائعة في المعاجم الغربية للصهيونية بضعف مقدرتها التفسيرية . فإن كانت الصهيونية هي حركة القومية اليهودية وعودة اليهود لأرض الأجداد (كما تقول بعض المعاجم) ، فكيف نُفسِّر أن أغلبية هذا الشعب اليهودي الساحقة لا تزال تعيش في «المنفى» متمسكة به ، تدافع عن حقوقها فيه ؟ وكيف تُفسِّر امتلاء مخيمات اللاجئين بملايين الفلسطينيين ؟ كيف نُفسِّر ما يقومون به من مقاومة ؟ ولذا لابد من طرح تعريفات جديدة أكثر تركيبية وشمولاً وتفسيرية تتجاوز كل الاعتذاريات والديباجات (الصهيونية والعربية) لنصل إلى بعض الثوابت الكامنة . وسنحاول إنجاز هذا من خلال عملية تفكيك لما هو ظاهر واكتشاف لما هو كامن وبلورته ثم نعيد التركيب ونطرح تعريفاً جديداً ، له مقدرة تفسيرية أعلى .

ونحن نذهب إلى أن ثمة صيغة صهيونية أساسية شاملة تُشكل التعريف الحقيقي للصهيونية ، وثمة عقد صامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية ، كامن في هذه الصيغة ، وثمة مادة بشرية

مُستهدَفة (أعضاء الجماعات اليهودية خارج فلسطين والعرب الذين يعيشون فيها) .

المادة البشرية المستهدفة

Targeted Human Material

«المادة البشرية المُستهدَفة» اصطلاح نستخدمه للإشارة إلى المادة البشرية اليهودية التي تشير إليها الصيغة الصهيونية الأساسية باعتبار أنها شعب عضوي منبوذ نافع سيتم نقله خارج أوربا لتوظيفه ، أي أن المصطلح يشير إلى اليهود باعتبارهم جماعة وظيفية استيطانية . واصطلاح «المادة البشرية» ليس من ابتداعنا فقد ورد في كتابات هرتزل الزعيم الصهيوني وفي تصريحات أيخمان الموظف النازي .

ويُلاحَظ وجود مادة بشرية أخرى مُستهدَفة هي «العرب» . ولكن مع هذا لم يأت لهم ذكر في العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية ، ومن ثم لا تشير إليهم التعريفات الصهيونية من قريب أو بعيد ، ولكن من المعروف أن السكان الأصليين المغيبين يكون مصيرهم ، في المخططات الاستعمارية الغربية ، هو عادةً الإبادة أو الطرد .

الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة

Underlying Zionist Premises

«الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة» مصطلح قمنا بصكه للإشارة إلى الثوابت والمسلمات النهائية الكامنة في الاتجاهات الصهيونية كافة مهما اختلفت دوافعها وميولها ومقاصدها وطموحاتها وديباجاتها واعتذارياتها . ولا يمكن وصف أي قول أو اتجاه بأنه صهيوني إن لم يتضمن هذه المسلمات ، فهي بمنزلة البنية العامة الكامنة وهي التي تُشكِّل الأساس الكامن للإجماع الصهيوني . ويمكن تلخيصها فيما يلي :

أ) اليهود شعب عضوي منبوذ غير نافع ، يجب نقله خارج أوربا ليتحولَّ إلى شعب عضوي نافع .

ب) يُنقل هذا الشعب إلى أي بقعة خارج أوربا [استقر الرأي ، في نهاية الأمر ، على فلسطين بسبب أهميتها الإستراتيجية للحضارة الغربية وبسبب مقدرتها التعبوية بالنسبة للمادة البشرية المستهدفة] ليُوطَّن فيها وليحل محل سكانها الأصليين ، الذين لابد أن تتم إبادتهم أو طَرْدهم على الأقل [كما هو الحال مع التجارب الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية المماثلة] .

جـ) يتم توظيف هذا الشعب لصالح العالم الغربي الذي سيقوم بدعمه وضمان بقائه واستمراره ، داخل إطار الدولة الوظيفية في فلسطين .

وهذه الصيغة الشاملة لم يُفصح عنها أحد بشكل مباشر ، إلا بعض المتطرفين في بعض لحظات الصدق النماذجية النادرة . ولكن عدم الإفصاح عنها لا يعني غيابها ، فهي تشكل هيكل المشروع الصهيوني والبنية الفكرية التي أدرك الصهاينة الواقع من خلالها .

ويُلاحَظ أن كثيراً من الأُسس التي تستند إليها الصيغة الشاملة قد اختفى بفعل التطورات التاريخية . فيهود العالم الغربي قد تناقص عددهم واندمجوا بشكل شبه تام في مجتمعاتهم ، ولم يَعُد هناك مجال للحديث عن "عدم نفعهم" . كما أن عملية نَقْل اليهود ونفي العرب اكتملت معالمها إلى حدٍّ كبير ، وخصوصاً أن الترانسفير بعد تأسيس الدولة أصبح عملية هجرة تتم في ظلال قانون العودة . أما بالنسبة للسكان الأصليين فقد تم نفي غالبيتهم عام ١٩٤٨ ، ولكن بعد عام ١٩٦٧ أصبح من الصعب التخلص منهم . وما تبقَّى من الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة هو دولة وظيفية يدعمها الغرب ويضمن بقاءها وتقوم هي على خدمته وعلى تجنيد يهود العالم وراءها لخدمتها وخدمة العالم الغربي ، وهذا ما يُشكِّل أساس الإجماع الصهيوني .

وعلى كلٍّ ما يتم الإفصاح عنه هو الصياغة المهوَّدة للصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ، فهي أكثر صقلاً ، وتبدو أكثر إنسانية ، ولذا فإنها تحقق القبول الذي لا يمكن أن تحققه الصيغة غير المهودة بسبب إمبرياليتها وماديتها الشاملة .

الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة : تاريخ

Underlying Zionist Premises : History

لم تظهر الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة كاملةً بين يوم وليلة ، وإنما ظهرت بالتدريج ، وكان يُضاف لكل مرحلة عنصر جديد إلى أن اكتملت مع صدور وعد بلفور وتحولَّت إلى الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة . والواضح أن الصيغة الصهيونية الأساسية تضرب بجذورها في الحضارة الغربية . وفيما يلي تاريخ موجز لمراحل تشكُّلها واكتمالها :

١ ـ تضرب الصيغة بجذورها في موقف الحضارة الغربية من الجماعات اليهودية وفي وضعهم داخلها ، وهو موقف صهيوني ومعاد لليهود في آن واحد ؛ أو صهيوني لأنه معاد لليهود . فاليهود شعب مختار عضوي متماسك (شعب شاهد ـ جماعة وظيفية) ، ووجوده في مجتمع ما ليس له أهمية في حد ذاته وإنما بمقدار ما يخدم

الوظيفة الموكلة إليه . وحين يفقد الشعب وظيفته ، لابد من التخلص منه عن طريق نَقْله (أو ربما إبادته) . ومن هنا ، فإن نقطة الانطلاق (الشعب العضوي المنبوذ) هي الرقعة المشتركة بين معاداة اليهود والصهيونية ، وهي صيغة خروجية تصفوية إذ تطالب بإخراج اليهود من أوربا وتصفيتهم ، فالعنصر الأول بشقيه هو جوهر عداء اليهود وهو أيضاً المقدمة الأساسية للصهيونية .

٢ ـ وأضيف لهذه الصيغة العنصر الثاني (الكامن تاريخياً وبنيوياً في العنصر الأول) وهو اكتشاف نفع اليهود ، ومن ثم إمكانية توظيفهم خارج أوربا (وإصلاحهم) . وقد اكتُشف هذا الجزء أو تم تأكيده ابتداءً من القرن السابع عشر ، عصر ظهور الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية . ويُلاحَظ أن ما يميِّز الصهيونية عن معاداة اليهود هو هذا الجزء . فكلاهما يرى اليهود عنصراً غير نافع يوجد داخل الحضارة الغربية ولكنه لا ينتمي إليها ولا حل للمشكلة إلا بإخراج اليهود . وبينما يلجأ أعداء اليهود إلى إخراج اليهود بشكل عشوائي عن طريق طردهم أو إبادتهم دون تخطيط أو ترشيد ، فإن الصهاينة يرشِّدون العملية كلها ويرون إمكانية إخراج اليهود بشكل منهجي وتحويلهم إلى عنصر نافع . كما يُلاحَظ أن مكونات هذين العنصرين (المنبوذين ـ النافعين الذين يمكن توظيفهم) هي ذاتها السمات الأساسية للجماعة الوظيفية . ومن ثم ، فإن اكتشاف نفع اليهود كان أمراً متوقعاً ، إذ أن ذلك لصيق ببنية الجماعة الوظيفية وهو سر وجودها وبقائها ، إذ أنها لا يمكن أن يكتب لها البقاء في مجتمع إلا إذا كانت "نافعة" و"تلعب دوراً ضرورياً" .

٣ ـ تظل الصيغة الصهيونية حتى نهاية القرن التاسع عشر مجرد فكرة ، ولكنها تتحول إلى حركة منظمة بعد مرحلة هرتزل وبلفور ومضمونها أن يتم التوظيف من خلال دولة وظيفية على أن تشرف على العملية إحدى الدول الاستعمارية الكبرى في الغرب التي تُؤمِّن للمستوطنين موطئ قدم وتضمن بقاء واستمرار الدولة الوظيفية الاستيطانية . ومع وعد بلفور ، يصبح المكان الذي ستقام فيه الدولة الوظيفية هو فلسطين وتتحول الصيغة الأساسية إلى الصيغة الشاملة .

ولنا أن نلاحظ أن المفهوم الكامن وراء الصيغة الأساسية الشاملة في الصهيونية الغربية مفهوم محوري في الحضارة الغربية ، فلم يتم إدراك اليهود وحدهم من خلاله وإنما تم إدراك كل المنحرفين اجتماعياً ، فمثلاً كان يتم نَقْل المساجين إلى أستراليا وتوظيفهم هناك بحيث يتحولّون إلى عناصر صالحة ؛ أعضاء في الحضارة التي نبذتهم ونقلتهم .

والصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة محايدة تماماً ، فهي صيغة علمانية نفعية مادية تماماً ، رغم كل ما قد يحيط بها من ديباجات مسيحية أو رومانسية ، فهي ترى اليهود ، في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير ، باعتبارهم مادة نافعة لا قداسة لها . وهي تنظر لوجود اليهود في العالم الغربي نظرة سلبية لابد من وضع نهاية له . ولذا ، فهي صيغة تدعو اليهود إلى إنهاء السلبية الدينية والعودة المادية العلمانية إلى فلسطين دون انتظار أي أمر إلهي (الأمر الذي يتنافى مع العقيدة المسيحية الكاثوليكية واليهودية الأرثوذكسية) .

والصيغة تُعلمن اليهود (فهم مادة نافعة تُنقَل) ، كما تُعلمن المكان الذي سيُنقَلون إليه (فهو مجرد حيز) ، وتُعلمن سكانه الأصليين (فمصيرهم إما النقل أو الإبادة) ، وتُعلمن وسيلة النقل (فهي الإمبريالية) .

والصيغة الأساسية الشاملة هي القاسم المشترك الأعظم بين كل الصهيونيات : صهيونية اليهود ـ صهيونية غير اليهود ـ صهيونية اليهود المتدينين ـ صهيونية اليهود العماليين ـ صهيونية اليهود المتمسكين بإثنيتهم ـ صهيونية اليهود غير اليهود ، وذلك بغض النظر عن الديباجات والاعتذاريات وزوايا الرؤية . ولا شك في أنها تصلح أساساً تصنيفياً للتفرقة بين الصهيونية وغيرها من الحركات التي توجهت للقضايا نفسها .

والصيغة الشاملة تصلح أيضاً إطاراً لكتابة تاريخ عام للصهيونية ، باعتبارها حركة فكرية سياسية اقتصادية اجتماعية في الحضارة الغربية (لا بين أعضاء الجماعات اليهودية وحسب) ، بحيث لا يتم الفصل بين صهيونية اليهود وصهيونية غير اليهود كما هو متَّبع ، وإنما يُنظَر إليهما كمراحل مترابطة في سياق تاريخي حضاري واحد .

والصيغة الشاملة هي الأساس الذي يستند إليه ما نسميه «العقد الصهيوني الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن يهود الغرب» ، فهذا العقد يتيح الفرصة أمام يهود الغرب لأن يحققوا من خلال الخروج من العالم الغربي ما فشلوا في تحقيقه من خلال البقاء فيه . وعلى المستوى السياسي ، يمكن القول بأن الصيغة الشاملة تعني ربط حل المسألة اليهودية (المادة البشرية المستهدفة) بالمسألة الشرقية (المجال الذي ستُنقل فيه لتُوظَّف لصالح الحضارة الغربية) . وقد تم تهويد الصيغة الشاملة من خلال مجموعة من الديباجات بحيث أصبحت «الصيغة الشاملة المُهوَّدة» ، وذلك حتى يتحقق لليهود استبطانها .

ويُلاحَظ أنه في الوقت الحاضر بعد أن استقرت أوضاع

الجماعات اليهودية في الغرب ، وبعد دمجهم وتَناقُص أعدادهم أصبحت العناصر الأخيرة في الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة هي العنصر الأساسي (دولة وظيفية يدعمها الغرب ويضمن بقاءها وتقوم هي على خدمته وعلى تجنيد يهود العالم وراءها لخدمتها وخدمة العالم الغربي) . وأصبح هذا هو أساس الإجماع الصهيوني .

الصهيونية البنيوية

Structural Zionism

«الصهيونية البنيوية» هي تَشكُّل بنية المجتمع وعلاقاته بحيث يضطر أعضاء الجماعة اليهودية إلى الهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها . و«الصهيونية البنيوية» مرتبطة تمام الارتباط بـ «المعاداة البنيوية للسامية» . بل إن المعاداة البنيوية لليهود واليهودية (أي أن تلفظ بنية المجتمع نفسها أعضاء الجماعات اليهودية الأمر الذي يجعل حياتهم مستحيلة داخل هذا المجتمع ويجعلهم "شعباً عضوياً منبوذاً") هي الشرط الأساسي لظهور الصهيونية البنيوية . ومن ثم فالصهيونية البنيوية لا تختلف كثيراً عن الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة . فإذا كانت "الصيغة الشاملة" تشكل النموذج ، فالصهيونية البنيوية هي تَحقُّق هذه الصيغة من خلال بنية المجتمع نفسه ، حتى تصبح الجماعة اليهودية شعباً عضوياً منبوذاً غير نافع . ولكن حينما ننظر لبقية الصيغة الشاملة (نقل اليهود خارج أوربا ـ توظيفهم لصالح أوربا) نجد أنها ليست جزءاً من بنية المجتمع وإنما نتيجة مخطط صهيوني ، أي أن البنيوي ليس الصهيونية وإنما «معاداة اليهود واليهودية» .

وقد استخدم أحد المراجع مصطلح «صهيونية بنيوية» للإشارة لما حدث في كوبا بعد اندلاع ثورة كاسترو فقد كان القائمون بالثورة متعاطفين جداً مع أعضاء الجماعة اليهودية ويسَّروا لهم كل السُبل ليحققوا ذاتهم الدينية والإثنية . ومع هذا قامت حكومة الثورة بتأميم كثير من المصانع وإغلاق الكازينوهات وقطاع البغاء ، وهي قطاعات كان يوجد فيها أعضاء الجماعة اليهودية بشكل ملحوظ . ولذا بدأ نزوح اليهود عن كوبا ، حتى اختفت الجماعة اليهودية تماماً . ووُصف هذا الوضع بأنه صهيونية بنيوية ، وهو ينم عن عدم فَهْم للواقع وفشل في إدراكه . فما حدث هو عملية تأميم نتج عنها تصفية بعض القطاعات الاقتصادية ، وتصفية القائمين عليها يهوداً كانوا أم غير يهود . كما أن أعضاء الجماعة اليهودية الذين "خرجوا" لم "يعودوا" إلى فلسطين المحتلة ، وإنما اتجه معظمهم إلى الولايات المتحدة ، كما فعلت الآلاف غيرهم من المواطنين الكوبيين الذين رفضوا المشاركة في الثورة أو ممن فقدوا وظائفهم نتيجة التوجهات الاشتراكية للثورة .

الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهودة

Underlying Judaized Zionist Premises

«الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المُهوَّدة» هي «الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة» بعد أن اكتسبت ديباجات ومسوغات يهودية جعل بإمكان المادة البشرية المستهدفة استبطانها . فالصيغة الشاملة تُعلمن اليهود تماماً وتُحوْسلهم إلى أقصى حد ، وهي أيضاً تُعلمن الهدف من نقلهم والأرض التي سيُنقَلون إليها . وليس من السهل على المرء قبول أن يتحول إلى وسيلة وأن يُنقَل كما لو كان شيئاً لا قيمة له إلى أرض (أي أرض) . ولذا ، نجد أن المقدرة التعبوية للصيغة الشاملة تكاد تكون منعدمة ، إذ أنها تفترض أن ينظر اليهود إلى أنفسهم بشكل براني ، وهذا أمر مستحيل بطبيعة الحال .

وقد طوَّر هرتزل الخطاب الصهيوني المراوغ الذي فتح الأبواب المغلقة أمام كل الديباجات اليهودية المتناقضة التي غطت ، بسبب كثافتها ، على الصيغة الأساسية الشاملة وأخفت إطارها المادي النفعي حتى حلَّت ، بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية في الغرب بل بالنسبة لمعظم قطاعات العالم الغربي ، محل الصيغة الأساسية الشاملة .

وقد تم إنجاز هذا بأن قامت الصهيونية الإثنية (الدينية والعلمانية) بإسقاط ديباجات الحلولية الكمونية (التي تلغي الحدود بين الإله والأرض والشعب وتخلع القداسة على كل ما هو يهودي) على الصيغة الشاملة بحيث يتحول اليهود من مادة نافعة إلى كيان مقدَّس له هدف وغاية ووسيلة ورسالة . وتجعل عملية نقله مسألة ذات أبعاد صوفية أو شبه صوفية نبيلة . لكل هذا أصبح من السهل على المادة البشرية أن تستبطن الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة وأصبح من السهل التحالف بين الدينيين والعلمانيين : الجميع يتفق على قداسة الشعب ورسالته (ومطلقيته) ويختلفون حول مصدر القداسة وتجلياتها . ورغم كثافة الديباجات وإغراقها في الحلولية ، تظل الثوابت كما هي ، وتظل الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة كما هي .

وتذهب الصيغة المُهوَّدة إلى أن العالم هو «المنفى» وأن اليهود يشكلون «شعباً عضوياً واحداً» لابد أن يُنقَل من المنفى (فهو شعب عضوي منبوذ) إلى فلسطين «أرض الميعاد» . ورغم هذا الاتفاق

المبدئي إلا أن الديباجات تختلف ، فالشعب العضوي المنبوذ لا يُنبَذ بسبب كونه جماعة وظيفية فقدت دورها أو لأنه قاتل المسيح ، وإنما لعدد من الأسباب تتغيَّر بتغيُّر صاحب الديباجة منها أنه شعب مقدَّس مكروه من الأغيار في كل زمان ومكان بسبب قداسته (الصهيونية الإثنية الدينية) أو بسبب تركيبه الطبقي غير السوي (الصهيونية العمالية) أو لأن هويته الإثنية العضوية لا يمكن أن تتحقق إلا في أرضه (الصهيونية الإثنية العلمانية [الثقافية]) أو لأنه شعب ليبرالي عادي يود أن يكون مثل كل الشعوب ، وخصوصاً الشعوب الغربية (الصهيونية السياسية) . ومهما اختلفت الأسباب ، فإن هذا الشعب ينظر إلى نفسه فيرى كياناً عضوياً مطلقاً له قيمة إيجابية ذاتية (بل يجد أنه المطلق وموضع الحلول والكمون) .

أما الهدف من النقل فليس التخلص من اليهود أو تأسيس دولة وظيفية تقوم على خدمة الغرب وإنما هو إصلاح الشخصية اليهودية وتطبيعها وتأسيس دولة اشتراكية تحقق مُثُل الاشتراكية (الصهيونية العمالية) أو الاستجابة للحلم الأزلي في العودة وتحقيق رسالة اليهود الإلهية وتأسيس دولة تستند إلى الشريعة اليهودية (الصهيونية الدينية) أو تحقيق الهوية اليهودية وتأسيس دولة يهودية بالمعنى العلماني تكون بمنزلة مركز روحي وثقافي ليهود العالم (الصهيونية الإثنية العلمانية) أو تحقيق مُثُل الحرية وتأسيس دولة ديموقراطية غربية (الصهيونية السياسية) . كما اكتسب المكان الذي سيُنقل إليه الشعب معنى داخلياً إذ تصبح الأرض هي الأرض الوحيدة التي تَصلُح للخلاص (المشيحاني أو الاشتراكي أو الليبرالي) ، فهي «أرض الميعاد» الإثنية الدينية أو العلمانية ، بل إن خلاص الشعب هو خلاص الأرض ، وهو نفسه مشيئة الإله .

وآليات الانتقال ليست الاستعمار الغربي أو العنف والإرهاب وإنما هي "القانون الدولي العام" متمثلاً في وعد بلفور (في الصياغة الصهيونية السياسية) أو "تنفيذاً للوعد الإلهي والميثاق مع الإله" (في الصياغة الدينية) أو بسبب قوة اليهود الذاتية (في الصياغة الصهيونية التصحيحية) . كما أن النتيجة النهائية واحدة وهي تحويل اليهود إلى مستوطنين صهاينة وطرد الفلسطينيين من وطنهم وتحويلهم إلى مهاجرين . وعلى هذا ، فإن عملية نقل اليهود من المنفى إلى فلسطين (سواء بسبب الوعد الإلهي أو بسبب وعد بلفور) تؤدي إلى نقل الفلسطينيين خارج وطنهم (إلى المنفى) .

ويُلاحَظ أن الصهيونية التصحيحية هي أكثر التيارات الصهيونية صراحة ، فهي تُفصح عن الارتباط بالاستعمار ووظيفية الدولة وضرورة اللجوء للعنف ، فهي تقترب من الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ولا تختفي إلا وراء الحد الأدنى من الديباجات .

وقد اتجهت الصيغة المُهوَّدة لقضية يهود الغرب المندمجين في مجتمعاتهم والذين لا ينوون (لعدة أسباب خاصة بهم) الانتقال إلى أرض الميعاد الاشتراكية أو الرأسمالية أو اليهودية . فقبلت قرارهم هذا نظير تلقِّي دعمهم والتفافهم حولها على أن تلزم الحركة الصهيونية الصمت تجاه فضيحة الصهاينة الذين لا يهاجرون ومن هنا ولدت الصهيونيتان : الاستيطانية والتوطنيه .

وقد تنبَّه كثير من المفكرين الصهاينة إلى وجود الصيغة الشاملة المُهوَّدة أو اليهودية من وجهة نظرهم (رغم أن أحداً منهم لم يُسمِّها) ، فيشير حاييم لانداو ، على سبيل المثال ، إلى أن البرنامج الصهيوني يدور حول فكرة ثابتة واحدة "وكل القيم الأخرى إن هي إلا أداة في يد المطلق" ، ثم يحدد هذا المطلق على أنه "الأمة" . وقد وافقه موشيه ليلينبلوم ، وكان ملحداً ، على قوله هذا : "إن الأمة كلها أعز علينا من كل التقسيمات المتصلبة المتعلقة بالأمور الأرثوذكسية أو الليبرالية في الدين . فلا مؤمنين وكفار ، فإن الجميع أبناء إبراهيم وإسحق ويعقوب . . . لأننا كلنا مقدَّسون سواء كنا غير مؤمنين أو كنا أرثوذكسيين" . والمعنى أن الشعب كله هو مركز الحلول ، تجري في عروقه هذه القداسة بشكل متوارث . أما كلاتزكين ، فإنه يوضح القضية بما ينم عن الذكاء في مقاله «الحدود» حيث يبين أن اليهودية تعتمد على الشكل لا على المضمون (الشكل يعني في واقع الأمر بنية العلاقات الكامنة وليس الشكل بالمعنى الدارج للكلمة) . وهذا الشكل الأساسي ـ كما يقول ـ هو تخليص "الشعب اليهودي" للأرض . أما المضامين الروحية أو الفكرية ، فهي تختلف بشكل جذري ، ولكن هذا لا يهم لأن مضمون الحياة نفسه (أي واقعها) سيصبح قومياً عندما تصبح أشكالها قومية . وقد تنبَّه هؤلاء المفكرون الصهاينة ـ وأولهم ديني متطرف في تَديُّنه والآخران علمانيان ـ إلى أن ثمة فكرة ثابتة ، جوهراً ما ، "مطلقاً" على حد قول الأول ، و"شكلاً أساسياً" أو "قداسة معيَّنة" على حد قول المفكرين الآخرين . كما تنبهوا إلى أن هذا الجوهر هو الثابت وأنه يُغيِّر ما عداه ويُحوِّره ويسمه بميسمه . وقد حددوه بأنه مفهوم الأمة اليهودية .

أرض بلا شعب لشعب بلا أرض

A Land without a People for People without a Land

شعار صهيوني يصعب معرفة تاريخ ظهوره . ولكن يمكن القول بأنه صياغة معلمنة للرؤية الإنجيلية القائلة بأن فلسطين هي أرض الميعاد والأرض المقدَّسة ، وأن اليهود هم الشعب المقدَّس ، ومن ثم فالشعب المقدَّس لابد أن يعود للأرض المقدَّسة ، فهو صاحبها .

ولعل أول من قام بعلمنة الصياغة هو اللورد شافتسبري الذي تحدث في منتصف القرن التاسع عشر عن "الأرض القديمة للشعب القديم" . ثم اكتملت عملية العلمنة في الصياغة الحالية «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» . ويبدو أن إسرائيل زانجويل هو صاحب الصياغة الأخيرة .

ومهما كان الأمر فهذا الشعار السوقي الساذج هو إفراز طبيعي للخطاب الحضاري الغربي الحديث ، الذي ينبع من الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية التي قامت بعلمنة الرؤى الإنجيلية وحولتها من صياغات مجازية تتحقق في آخر الأيام بمشيئة الإله إلى شعارات استيطانية حرفية تتحقق الآن وهنا بقوة السلاح . وهذه الرؤية للكون (الطبيعة والبشر) باعتباره مادة استعمالية ، تضع الإنسان الغربي في المركز ومن ثم يصبح العالم كله فراغاً بلا تاريخ وبلا بشر ، وإن وُجد بشر فهم مادة استعمالية عرضية لا قيمة لها ، ومن ثم تصبح فلسطين أرضاً مأهولة بلا شعب . ويصبح الفلسطينيون مادة استعمالية لا قيمة لها في حد ذاتها .

ويخضع أعضاء الجماعات اليهودية لنفس العملية فهم بدلاً من أن يكونوا الشعب المقدَّس بالمعنى المجازي يصبحون الشعب اليهودي بالمعنى الحرفي ، وحيث إنهم شعب ، فهم إذن لا ينتمون للحضارة الغربية التي لا تضم سوى الشعوب الغربية ومن ثم لا أرض لهم .

لا يبقى بعد هذا إلا عملية الحوسلة والتوظيف التي تأخذ شكل ترانسفير مزدوج : تحريك اليهود من المنفى إلى الأرض ، وتحريك السكان الأصليين من الأرض إلى المنفى ، وكل هذا يتم تحت رعاية الحضارة الغربية ولخدمة مصالحها ، وهذا هو المشروع الصهيوني .

ويتسم شعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» بتناسقه اللفظي الساحر ، فهو ينقسم إلى قسمين متساويين يستخدم كل قسم القدر نفسه من الكلمات . وكلمة «بلا» في القسمين هي المركز الثابت والعنصر المشترك ، وما يتحرك هو كلمتا «الأرض» و«الشعب» فيتبادلان مواقعهما تماماً كما سيتبادل اليهود والعرب مواقعهم .

ويتسم الشعار بالتماسك العضوي والوحدة الكاملة ، فلا يوجد حرف زائد ولا توجد كلمة ليست في موضعها ، وهو تعبير جيد عن الرؤية العضوية المغلقة التي تسم الخطاب الغربي الحديث ، الذي يُفضِّل الصيغ الجميلة المتماسكة لفظياً ، بحيث تصبح الصيغة مرجعية ذاتها مكتفية بذاتها كالأيقونة . وقد ينبهر المرء بجمال العبارة فينسى أنها عبارة إبادية ، تعني اختفاء العرب وتغييبهم . والترجمة السياسية للعبارة في وعد بلفور هي الإشارة للعرب باعتبارهم «الجماعات غير اليهودية» . وقد عبَّر الشعار عن نفسه فيما نسميه مقولة «العربي الغائب» في الخطاب الصهيوني العنصري . ونحن نذهب إلى أن إدراك العالم الغربي للفلسطينيين لا يزال يتحرك في إطار مقولة «أرض بلا شعب» ومن هنا سلوكه الذي قد يبدو لا عقلانياً بالنسبة لنا .

والصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة هي تنويع تفصيلي على شعار أرض بلا شعب . فالشعب العضوي المنبوذ هو الشعب بلا أرض الذي سيُنقل لأرض يتم إبادة شعبها أو طردهم ، وبذلك يصبح الشعب المنبوذ شعباً نافعاً داخل إطار الدولة الوظيفية .

وغني عن القول أن هذه الصيغة الصهيونية السوقية التي تكشف المضمون الحقيقي للصهيونية وتبيِّن نزعتها العنصرية الإبادية الشرسة ، قد اختفت تماماً من الخطاب الصهيوني ، وحل محلها صيغ أكثر صقلاً وتركيباً ، مثل «الحقوق المطلقة للشعب اليهودي» التي تعني في واقع الأمر أن حقوق الآخرين (العرب) نسبية عرضية ومن ثم يمكن تهميشها ، وفي نهاية الأمر إلغاءها . كما أن الخطاب الصهيوني بعد عام ١٩٦٧ وبعد ضم الأراضي الفلسطينية التي تحوي كثافة بشرية عالية اضطر أن يعترف بوجود شعب على الأرض ، فلجأ لعملية تحايل كي يفرض الشعار القديم على الواقع . فمفهوم الحكم الذاتي الإسرائيلي يعني حقوق الفلسطينيين دون أن يكون لهم أي حقوق على الأرض (أي أن الفلسطينيين أصبحوا شعباً بلا أرض) . كما أن الطرق الالتفافية هي تعبير عن اعتراف ضمني بوجود الشعب الفلسطيني الذي لا يملك المستعمرون إلا "الالتفاف" حوله .

القومية اليهودية

Jewish Nationalism

«القومية اليهودية» عبارة مرادفة لمصطلح «الصهيونية» وهي تفترض أن اليهود يشكلون جماعة قومية أو شعباً يهودياً . فالنسق الديني اليهودي ، من حيث هو تركيب جيولوجي ، يحوي داخله تياراً قومياً قوياً جداً يرتبط ارتباطاً تاماً بالبنية الحلولية ، إذ يرى اليهود

أنفسهم كياناً دينياً متماسكاً يُسمَّى «بنو يسرائيل» يتمتع بعلاقة خاصة مع الإله الذي يحل فيهم ويمنحهم درجة عالية من القداسة ويتولى قيادتهم وتوجيه تاريخهم القومي المقدَّس الفريد الذي بدأ بخروجهم من مصر . وقد أرسل الإله التوراة إليهم باعتبارهم شعبه المختار . ولذا ، فإن اليهودية ، من هذا المنظور ، قومية دينية ، وهي بذلك لا تختلف كثيراً عن الأديان الوثنية الحلولية حيث يقتصر الدين والإله على شعب واحد دون غيره من الشعوب . وتتلخص مهمة هذا الشعب اليهودي المقدَّس في أنه يقف شاهداً على التاريخ وعلى وجود الإله أمام الشعوب الأخرى .

اليهودية ، إذن ، من هذا المنظور ، هي دين قومي عرْقي ، أو قومية دينية مقدَّسة تمزج الوجود التاريخي المتعيِّن والتصور الديني المثالي . ولذلك ، فهي ديانة حلولية تعرف ثنوية الأنا والآخر ولكنها لا تعرف الثنائية الفضفاضة الناجمة عن الإيمان بإله واحد منزَّه . ولذا فاليهودية لا تفرِّق بين الإله والتاريخ أو بين الأرض والسماء . ولذلك ، فإننا نجد أن الملكوت السماوي وآخر الأيام يكتسبان في اليهودية الحلولية طابعاً قومياً ، فهما مرتبطان بمجيء الماشيَّح الذي يأتي ليعود بشعبه إلى أرض الميعاد . وقد عرَّفت الشريعة اليهودية اليهودي بأنه من وُلد لأم يهودية أو من تهوَّد ، وقد اعتمدت بذلك تعريفاً قومياً دينياً للهوية .

هذا من ناحية الرؤية . أما من ناحية الواقع التاريخي المتعيِّن ، فنحن نرى أنه لا تُوجَد قومية يهودية أو شعب يهودي وإنما جماعات يهودية منتشرة في العالم تحكَّمت في صياغتها حركيتان أساسيتان متكاملتان :

١ ـ فالجماعات اليهودية لم تكن قط تشكل كتلة بشرية متماسكة تتبع مركزاً ثقافياً أو دينياً واحداً يحدد معايير مثالية أو واقعية يصوغ أعضاء هذه الجماعات رؤيتهم لأنفسهم وأسلوب حياتهم تبعاً لها ، بل لم يكن لديهم ميراث ثقافي أو ديني واحد . فالجماعات اليهودية كانت منتشرة في كثير من بقاع الأرض داخل معظم التشكيلات الحضارية المعروفة وداخل البنَى التاريخية والقومية المختلفة ، تتفاعل معها وتساهم فيها وترقى برقيها وتتخلف بتخلفها . فاليهودي في الأندلس كان عربياً ، واليهودي في روسيا كان روسياً ، وفي اليمن كان يمنياً ، وهو أمريكي في الولايات المتحدة . وقد أدَّى هذا إلى تحوُّل أعضاء الجماعات اليهودية إلى تركيب جيولوجي غير متجانس ، ولا يختلف ذلك عن العقيدة اليهودية بخاصيتها الجيولوجية .

٢ ـ وقد كان معظم الجماعات اليهودية يشكل جماعات وظيفية ، وهي جماعات تحافظ على عزلتها وانفصالها ، ويساعدها المجتمع على ذلك حتى يتيسر لها أن تلعب دورها الوظيفي . فهي ، إذن ، ذات سمات إثنية خاصة تميِّز كل واحدة منها عن أعضاء الأغلبية في المجتمعات التي يعيش اليهود بين ظهرانيها . ولكن هذه السمات الإثنية لم تكن قط سمات قومية عامة تسم كل اليهود أينما كانوا . فرغم أن كل جماعة يهودية كانت منفصلة عن محيطها ، فإنها كانت تحدِّد هويتها من خلاله ، كما أن انفصالها عن محيطها لا يعني بالضرورة اتصالها بأعضاء الجماعات اليهودية الأخرى . فاليديشية الجرمانية كانت تَعزل أعضاء الجماعة اليهودية عن محيطهم الثقافي السلافي في بولندا . ولكنها ، مع هذا ، لم تكُن لها أية علاقة باللادينو (اللاتينية) التي كانت تَعزل يهود السفارد عن محيطهم العربي الإسلامي في الدولة العثمانية . أما العبرية (وهي اللغة الوحيدة المشتركة) ، فقد ظلت من ناحية الأساس لغة الصلاة واللغة التي كُتبت بها النصوص الدينية وحسب ، أي أن العنصر المشترك لم يتعد في جوهره الصلوات والعبادات وبعض المؤلفات . وظلت العلاقة بين أعضاء الجماعات اليهودية علاقة دينية أو وظيفية باعتبارهم أعضاء في الجماعة الدينية نفسها أو أعضاء في جماعات تضطلع بالوظيفة نفسها في كثير من المجتمعات . وعلى كلٍّ ، لم تكن الرابطة الدينية بمعزل عن الوظيفة الاقتصادية أو الاجتماعية تماماً إذ أن الجماعة الوظيفية تضرب حول نفسها العزلة ويساعدها في ذلك المجتمع المضيف . وتُعدُّ العقائد الحلولية من أهم آليات العزلة .

لكن المجتمع الغربي استغنى عن الجماعات الوظيفية ، وأخذ في تصفيتها بعدة طرق منها مساعدة أعضاء هذه الجماعات (ومن هؤلاء اليهود) على التخلص من خصوصيتهم الإثنية ، وفي دمجهم في المجتمع أو تشجيعهم على الاندماج . واستجابةً لذلك ، ظهرت حركة التنوير وحركة اليهودية الإصلاحية اللتان قامتا بتعريف ما يُسمَّى «الهوية اليهودية» تعريفاً دينياً .

وقد عارضت الصهيونية هاتين الحركتين ، وراحت تعمل على تحويل كلٍّ من الإحساس بالانتماء الديني إلى جماعة دينية واحدة والارتباط العاطفي بأرض الميعاد إلى شعور قومي وبرنامج سياسي . كما قامت الصهيونيةبعلمنة المفاهيم الدينية . فبعد أن كانت كلمة «شعب» تعني أن اليهود جماعة دينية قومية ، أصبحت الكلمة في المعجم الصهيوني تعني «الشعب» بالمعنى القومي والعرْقي الذي كان سائداً في أوربا في القرن التاسع عشر . وقد تأثر الفكر الصهيوني بفكرة الشعب العضوي ، أي الفولك ، فنظر الصهاينة إلى اليهود كشعب عضوي قوميته عضوية وعناصره كافة (الأرض والتراث والشخصية واللغة . . . إلخ) مترابطة عضوياً . وقد تعمقت هذه

الفكرة في كتابات دعاة الصهيونية الإثنية العلمانية الذين نادوا بأن الانتماء القومي لليهود يستند إلى ما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» و«التراث اليهودي» ، وما العقيدة اليهودية سوى جزء عضوي من هذا التراث . أما دعاة الصهيونية الإثنية الدينية ، فإنهم يرون أن اليهودية دين قومي أو قومية دينية ، وأن ما يربط اليهود كشعب هو دينهم القومي أو قوميتهم الدينية .

وقد انطلق المشروع الصهيوني من هذا الافتراض ، وأُسِّست الدولة الصهيونية تحقيقاً لفكرة القومية اليهودية . ولكن من الواضح أن القومية اليهودية هي رؤية غير واقعية وبرنامج إصلاحي ليس له ما يسنده في الواقع التاريخي ، فقد كان اليهود في القرن التاسع عشر ، عند ظهور الصهيونية ، خليطاً هائلاً غير متجانس : بينهم يهود اليديشية من الإشكناز ، ويهود العالم العربي ، ويهود العالم الإسلامي من السفارد ، واليهود المستعربة . كما كان هناك القرّاءون والحاخاميون الذين انقسموا بدورهم إلى أرثوذكس ومحافظين وإصلاحيين ، هذا غير عشرات الانقسامات الدينية والإثنية والعرْقية الأخرى . وقد أطلق الصهاينة على كل هؤلاء اسم «الشعب الواحد» أو «أين فولك» حسب تعبير هرتزل . لقد طرحوا شعارهم ، ونجحوا في تهجير نسبة مئوية محدودة وحسب إلى إسرائيل . بل إن الهجرة في كثير من الأحيان ، لم تكن تتم لأسباب قومية وإنما لأسباب نفعية محضة . ويواجه الصهاينة أزمة في المصادر البشرية نتيجة لأن سلوك أعضاء الجماعات اليهودية في العالم لا يَصدُر عن إيمانهم بمقولة «القومية اليهودية» . ومن هنا ، فإن الهجرة اليهودية ما زالت متجهة إلى الولايات المتحدة من ناحية الأساس . وهكذا ، فإننا نجد أن أغلبية أتباع القومية اليهودية لا يزالون في المنفى يرفضون العودة إلى وطنهم القومي . ويتضح زيف مقولة «القومية اليهودية» في فشل الدولة اليهودية في تعريف اليهودي ، أي في تعريف ما يُسمَّى «الهوية اليهودية» . وحينما يهاجر أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة إلى أمريكا اللاتينية ، فإنهم يكتشفون عدم تجانسهم ، إذ أن اليهودي الألماني يكتشف أن الصفات الإثنية المشتركة بينه وبين المهاجر الألماني غير اليهودي أكثر من السمات المشتركة بينه وبين أعضاء الجماعات اليهودية الآخرين . وقد ظهرت هذه القضية في أمريكا اللاتينية أكثر من أية منطقة أخرى في العالم . وفي الولايات المتحدة ، وفي دول الهجرة الأخرى مثل كندا وأستراليا ، تُطرَح على المهاجرين هوية قومية جديدة عليهم تَبنِّيها . وقد فعل المهاجرون اليهود ذلك بكفاءة شديدة ، واحتفظوا بشيء من يهوديتهم ، ولكن هذه الملامح اتضح أنها مجرد ملامح يهودية داخل شخصية أمريكية واضحة . أما في أمريكا اللاتينية ، فلا توجد هوية قومية جديدة ، وإن وُجدَت فهي كاثوليكية أي استمرار للموروث الأوربي للقارة . وقد امتثل المهاجرون اليهود لهذا النمط ، فأكدت كل جماعة يهودية مهاجرة ميراثها الإثني السابق ، الأمر الذي أدَّى إلى تبعثر اليهود تماماً وانقسامهم إلى عشرات الجماعات وإلى ظهور انعدام تجانسهم بحدة . ويوجد في المكسيك ، على سبيل المثال ، عشرات الجماعات اليهودية من بينها جماعتان سوريتان ، أي من أصل سوري ، إحداهما دمشقية والأخرى حلبية ! لكلٍّ منهما مؤسساتها . وفي الآونة الأخيرة ، بدأت الحواجز تَسقُط ، ولكن هذا يتم داخل إطار أمريكي لاتيني لا داخل إطار يهودي .

وتحاول الدولة الصهيونية بذل محاولات جاهدة لدمج المهاجرين الوافدين إليها . ولكن ، مع هذا ، يتضح عدم تجانسهم في انقسامهم الحاد . وحتى لو قُدِّر النجاح لمحاولة إسرائيل مَزْج أعضاء الجماعات اليهودية ، فإن ثمرة هذه المحاولة لن تكون «الشعب اليهودي» وتحقيق «القومية اليهودية» وإنما ستكون كياناً جديداً يمكن تسميته «الشعب الإسرائيلي» و«القومية الإسرائيلية» .

ويرفض كثير من المفكرين اليهود ، وكذلك التنظيمات اليهودية ، فكرة القومية اليهودية ، إما من منظور ديني أو من منظور ليبرالي أو اشتراكي ، فيرون أن اليهود ليسوا شعباً وإنما أقلية دينية ، كما يرون أنهم ينتمون إلى الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها . ويرفض دعاة قومية الجماعات (الدياسبورا) فكرة القومية اليهودية العالمية المجردة والمرتبطة بفلسطين ، ويرون أنه إذا كان ثمة انتماء قومي يهودي فهو عبارة عن انتماءات قومية مختلفة متنوعة مرتبطة بمجتمعات سواء أكانت هذه المجتمعات في شرق أوربا أم كانت في الولايات المتحدة . ومن ثم ، يمكننا أن نتحدث عن «الجماعة اليهودية القومية في شرق أوربا» التي لا تختلف عن الأقليات القومية الأخرى ، ولكن لا يمكننا أن نتحدث عن «الشعب اليهودي» بشكل عام . وثمة تيار فكري داخل إسرائيل يُسمَّى «الحركة الكنعانية» (نسبة إلى أرض كنعان) يرفض فكرة القومية اليهودية ويطرح بدلاً منها فكرة «القومية الإسرائيلية» .

وتتواتر كلمة «الشعب» في الكتابات الدينية عند اليهود ، ولكن المقصود بهذه الكلمة هو جماعة دينية ذات عقيدة دينية وانتماء ديني واحد . كما نجد مصطلحات دينية مماثلة ، مثل «الشعب المختار» و«أمة الروح» و«الشعب المقدَّس» ، وهي مصطلحات تهدف إلى الإشارة إلى تجمُّع ديني أو أخلاقي وحسب .

ولكن الصهيونية تستخدم التشابه بين المصطلح الديني

والمصطلح القومي الشائع كدليل على أن اليهود أول شعب ظهر على الأرض وأول قومية في التاريخ . ومن ثم ، فلابد أن يبتعد الباحث العربي عن استخدام مصطلحات مثل «الشعب اليهودي» و «القومية اليهودية» أو حتى «الصراع العربي اليهودي» لأنه لا يوجد بين الدين الإسلامي والقومية العربية من ناحية والدين اليهودي من ناحية أخرى أي صراع سياسي مسلح أو غير مسلح ، وإنما الصراع عربي إسرائيلي ، أي صراع بين العرب والمستوطنين الصهاينة الذين استوطنوا فلسطين عن طريق العنف .

وفي بطاقة تحقيق الشخصية عند الإسرائيليين ، توجد ثلاثة بنود : المواطنة ، والدين ، والقومية . فجميع المواطنين «إسرائيليون» ومن ذلك العرب . أما الدين ، فيختلف فيه مواطن عن آخر ، فهو الإسلام بالنسبة إلى المسلمين ، والمسيحية بالنسبة إلى المسيحيين ، واليهودية بالنسبة إلى اليهود . أما القومية ، فهي عربية عند العرب ، وبالنسبة إلى الإسرائيليين اليهود فلابد أن تكون القومية هي «اليهودية» ، إذ لابد أن يتفق بندا الدينِ والقومية (في حالة اليهود) حسب الرؤية الصهيونية .

الوطن القومي اليهودي

Jewish National Home

«الوطن القومي» مصطلح يتواتر في الكتابات الصهيونية والمعادية لليهود ، ويعني أن اليهود لا ينتمون إلى أوطانهم وإنما إلى وطن قومي واحد هو فلسطين التي يُشار إليها أيضاً باسم «إرتس يسرائيل» ، أو «إسرائيل» أو «أرض الميعاد» أو «الأرض المقدَّسة» أو «الأرض» وحسب . كما يعني المصطلح أن البلاد التي يقيم اليهود فيها إنما هي منفى أو مَهْجَر أو بابل (بإيحاءات السبي البابلي) أو مصر (بإيحاءات العودة والخروج) . ويعني المصطلح أيضاً أن اليهود في حالة شتات يشكلون دياسبورا ، وهي حالة يشعرون بها منذ هَدْم الهيكل على يد تيتوس . وقد ورد المصطلح في وعد بلفور ، رغم احتجاجات قيادة الجماعة اليهودية في إنجلترا ، واكتسب شرعية سياسية منذ ذلك التاريخ .

لكن مصطلح «الوطن القومي» مصطلح ليست له مقدرة تفسيرية عالية ، إذ أن كثيراً من الوقائع التاريخية لا تسانده . ومن الثابت تاريخياً أن عدد اليهود خارج فلسطين فاق عددهم داخلها قبل هدم الهيكل . كما أن من الثابت أن أكبر الهجرات في تواريخ الجماعات اليهودية ، والتي بدأت في أواخر القرن التاسع عشر ، اتجهت إلى الولايات المتحدة (ولو كانت فلسطين وطن اليهود القومي لاتجهوا إليها) . وقد بلغت نسبتهم نحو ٨٠٪ من جملة المهاجرين اليهود ، بل لم يَعُد يُشار في الأدبيات الصهيونية إلى الولايات المتحدة باعتبارها منفى وإنما أصبح يُشار إليها باعتبارها وطناً قومياً آخر لليهود ، وباعتبارها أيضاً «البلد الذهبي» (باليديشية : جولدن مدينا) الذي يحقِّق تطلعات المهاجرين المادية . ولا ندري هل هي وطن قومي ثان أم هي وطن قومي أول بالنسبة إلى اليهود ؟ ففيْ الخطاب السياسي يأتي مصطلح «الوطن القومي» دائماً في صيغة المفرد إذ لا معنى له في صيغة المثنى أو الجمع . وعلى كلٍّ ، فقد حسم يهود الولايات المتحدة القضية بأن حوَّلوا إسرائيل (فلسطين) من وطن قومي إلى مسقط الرأس والوطن الأصلي السابق ، أما الولايات المتحدة فهي الوطن القومي الحالي الذي يعيشون فيه بالفعل ، وبذا أصبح الأمريكيون اليهود أمريكيين يهوداً على غرار الأمريكيين العرب أو الأمريكيين الأيرلنديين . ولكن هذا يعني أن أسطورة الذات الجديدة تصفي الأسطورة الصهيونية ، إذ أن مسقط الرأس (إسرائيل) هو البلد الذي يهاجر اليهودي منه لا إليه !

الدولة اليهودية

The Jewish State

«الدولة اليهودية» اصطلاح مرادف لمصطلح «الدولة الصهيونية» . ونحن نفضل المصطلح الأخير لدقته إذ يفترض المصطلح الأول أن دولة إسرائيل هي استمرار للمملكة العبرانية المتحدة التي يُشار إليها بـ «الكومنولث الأول» . كما أن الاصطلاح يفترض وحدة اليهود في العالم ، وأن هذه الدولة دولتهم التي تعبِّر عن إرادتهم وتطلعاتهم ، وهذا أبعد ما يكون عن الصحة إذ لا تزال دولة إسرائيل هي دولة ٢٠٪ من يهود العالم وحسب .

وعلاوة على كل هذا ، يفترض المصطلح أيضاً يهودية هذه الدولة ، وهذا أمر محل نقاش حتى في إسرائيل نفسها . فالدولة الصهيونية لا ترتبط بأية قيم أخلاقية يهودية ، بل تسلك حسبما تملي عليها مصلحتها العملية . ولعل إيمانها بمصلحتها العملية هو الذي جعلها تحوِّل نفسها إلى ثكنات عسكرية يصعب وصفها باليهودية . ويُلاحَظ أن سكان إسرائيل من الصابرا لا يشعرون بالانتماء اليهودي ، بل إن بعضهم يُكن الاحتقار ليهود العالم (الدياسبورا) الهامشيين . ولعله أمر طريف حقاً أن هذه الدولة التي تصف نفسها باليهودية لم تصل بعد إلى تعريف لليهودي .

ولذا ، يظل مصطلح «الدولة الصهيونية» أكثر دقة وتحدداً في وصف الكيان الصهيوني ، فهو يؤكد استيطانية الكيان القائم الآن في

الشرق العربي وطموحاته الإحلالية ، ويفصله عن أية تصورات دينية أو عاطفية .

الصهيونية العالمية

World Zionism

«الصهيونية العالمية» ترجمة للمصطلح الإنجليزي «ورلد زايونيزم World Zionism» . وقد شاع المصطلح في اللغة العربية . ويفترض هذا المصطلح أن الصهيونية حركة عالمية ، أي تمارس نشاطها في أنحاء العالم بين جميع أعضاء الجماعات اليهودية في كل البلاد . وثمة خلل أساسي في المصطلح يعود إلى ما يلي :

١ ـ نشأت الصهيونية في الغرب في البلاد الاستعمارية (البروتستانتية) في بداية الأمر ، ثم تبناها يهود العالم الغربي (في شرق أوربا ثم غربها) لأغراض مختلفة . فالصهيونية ليست عالمية من ناحية النشأة ، وخصوصاً أن ٩٠٪ من يهود العالم كانوا يوجدون داخل التشكيل الحضاري الغربي مع نهاية القرن التاسع عشر وهي المرحلة التي نشأت فيها الصهيونية .

٢ ـ كانت الصهيونية ولا تزال جزءاً من التاريخ الاقتصادي والسياسي والحضاري ، والإمبريالية الغربية هي الآلية الأساسية لتحويل الصهيونية من مجرد فكرة إلى دولة استيطانية .

وعلى هذا ، فإن الصهيونية لم تنشأ في العالم ككل أو داخل التاريخ العالمي بشكل مطلق ، أو حتى بين كل أعضاء الجماعات الدينية والإثنية اليهودية المتناثرة في العالم ، وإنما هي إفراز تشكيل حضاري محدَّد في لحظة زمنية محددة ولا يمكن دراستها خارج هذا التشكيل ، ولا يمكن فهمها دون الرجوع إلى مراحل تطوره وأزماته والطريقة التي يحل بها هذه الأزمات . لكن هذا لا يعني ، بطبيعة الحال ، إسقاط السمات التي تُشكِّل خصوصية الحركة الصهيونية الغربية .

ولعل الإنسان الغربي أطلق صفة «العالمية» على الصهيونية للأسباب التالية :

١ ـ ينظر الخطاب الإنجيلي إلى اليهود باعتبارهم شعباً مختاراً وجزءاً من الدراما الكونية التي يتحرك في إطارها تاريخ العالم والعالمين . والتاريخ اليهودي ـ حسب الرؤية الإنجيلية ـ تاريخ مستقل عن تاريخ الأغيار . ومع هذا ، يشكل هذا التاريخ الركيزة الأساسية لتاريخ العالم . وهذا الخطاب الإنجيلي متغلغل تماماً في الوجدان الغربي .

٢ ـ بعد أن ظهرت الصهيونية بين يهود الغرب ، قامت بصهينة معظم يهود العالم ، خصوصاً بعد إنشاء الدولة الصهيونية ، ومن ثم فهي حركة عالمية بهذا المعنى . ولابد أن نسارع بالقول بأن الغالبية الساحقة من يهود العالم توجد الآن إما داخل التشكيل الحضاري الغربي (فرنسا ـ إنجلترا ـ روسيا) أو داخل التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي (الولايات المتحدة ـ كندا ـ أستراليا ونيوزيلندا ـ أمريكا اللاتينية ـ جنوب أفريقيا ـ إسرائيل) ، وعلى وجه التحديد داخل التشكيل الاستعماري الاستيطاني الأنجلو ساكسوني .

٣ ـ الحركة الإمبريالية التي حوَّلت الصهيونية إلى كيان استيطاني هي حركة عالمية رغم أصولها الغربية ، فقد جعلت العالم كله مجالاً لحركتها والتهامها وافتراسها . والإمبريالية عالمية لا لأنها حركة نشأت بين كل البشر وإنما لأنها حوَّلت البشر كلهم إلى مستعمِر أو مستعمَر . وتكتسب الصهيونية صفة العالمية من ارتباطها بالإمبريالية الغربية العالمية .

٤ ـ يُلاحَظ أن الأدبيات السياسية الغربية ، الصهيونية وغير الصهيونية ، تستخدم كلمة «عالمي» بمعنى «غربي» . ولعل هذا يعود إلى أن الإنسان الأبيض في الغرب في القرن التاسع عشر كان يتصوَّر أنه مركز العالم وقمة رقيِّه ، وأن الحضارات الأخرى حضارات متخلفة ستتطور لتلحق به وتصل إلى النموذج الحضاري العالمي نفسه . ويُلاحَظ في كتابات هرتزل أنه حينما يتحدث عن ضرورة إقامة المشروع الصهيوني "بضمان القانون الدولي العام" ، فإن عبارة «القانون الدولي العام» تعني هنا «القانون الغربي» . ولذا ، والتزاماً بالدقة ، يجب أن نتحدث عن «الصهيونية الغربية» أو عن «الصهيونية» وحسب دون وصفها ليكون مفهوماً أنها حركة غربية وليست عالمية .

٢
التيارات الصهيونية

التناقضات الأساسية الثلاثة بين التيارات الصهيونية المختلفة ـ الصهيونيتان : التوطينية والاستيطانية ـ بعض الاختلافات الصهيونية بشأن الدولة الصهيونية ـ الصراع بين الإثنيين الدينيين والإثنيين العلمانيين ـ مواطن الاختلاف بين التيارات الصهيونية ـ التيارات الصهيونية : إطار تصنيفي ـ الصهيونية التوفيقية ـ الصهيونية : القيم السياسية

التناقضات الأساسية الثلاثة بين الحركات الصهيونية المختلفة

Three Basic Contradictions between Different Zionist Trends

قَبِل كل الصهاينة الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة (والعقد الصامت بين الحضارة الغربية والمنظمة الصهيونية بشأن يهود العالم) ثم تم تهويد هذه الصيغة حتى يمكن تجنيد المادة البشرية المستهدفة . وقد ظهرت مجالات عديدة للخلاف بين الصهاينة قد تبدو لأول وهلة عميقة ولكنها في واقع الأمر سطحية إلى حدٍّ كبير ، إذ أن رقعة الاختلاف تظل محكومة بالقبول المبدئي والجوهري للصيغة الأساسية الشاملة .

وحتى يمكننا طرح إطار تصنيفي جديد للتيارات الصهيونية المختلفة سنحاول حَصْر مصادر الخلاف وكيف تبدت في عدة نقاط محدَّدة .

وفي تصوُّرنا توجد ثلاثة مصادر أساسية للخلاف :

١ ـ الخلاف بين الصهاينة التوطينيين والاستيطانيين وهو ما نسميه «إشكالية الصهيونيتين» .

٢ ـ الخلافات الأيديولوجية المختلفة بين الصهاينة ، وهي الخلافات التي تعبِّر عن نفسها في عدة نقاط أهمها الخلاف بشأن الدولة الصهيونية (موقفها ـ حدودها ـ توجُّهها الأيديولوجي . . إلخ) .

٣ ـ الخلاف بين الصهاينة الإثنيين الدينيين والإثنيين العلمانيين .

الصهيونيتان : التوطينية والاستيطانية

Two Zionisms : Settlement and Settler Colonial Zionism

تُستخدَم كلمة «صهيونية» للإشارة إلى عدة مدلولات مختلفة يمكن أن تضمها جميعاً الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ، وهي الصيغة التي تم تهويدها بحيث أصبحت صالحة كإطار لكلٍّ من الصهاينة اليهود والصهاينة غير اليهود . وتوجد داخل هذه الوحدة العامة عدة انقسامات لعل أهمها ما نسميه «الصهيونيتين» . فنحن نذهب إلى أنه يوجد ضربان أساسيان من الصهيونية : صهيونية توطينية وأخرى استيطانية ، لكلٍّ اتجاهه وتاريخه وجماهيره :

١ ـ صهيونية توطينية . وقد ظهرت في بداية الأمر بين الصهاينة غير اليهود (من المسيحيين والعلمانيين) وبين يهود الغرب المندمجين ، وعلى وجه الخصوص أثرياؤهم . ثم عبَّرت الصهيونية التوطينية عن نفسها في الصهيونية الدبلوماسية وصهيونية الدياسبورا . وجمهور هذه الصهيونية هم مؤيدو المشروع الصهيوني في العالم الغربي ويهود الغرب الذين يؤيدون المشروع الصهيوني ولكنهم لا ينوون الهجرة ، وهم يشكلون غالبية يهود وصهاينة العالم ، وكذلك كل يهود غرب أوربا والولايات المتحدة تقريباً .

٢ ـ صهيونية استيطانية : وقد ظهرت في بداية الأمر على هيئة صهيونية تسللية ثم تحوَّلت إلى صهيونية استيطانية بعد مرحلة هرتزل وبلفور . وأهم التيارات الاستيطانية التيار العمالي ، ويأتي معظم الصهاينة الاستيطانيين من يهود شرق أوربا .

وتقسيم «توطيني/ استيطاني» ينصرف إلى المجال الذي يختاره كل صهيوني ليمارس نشاطه . ولنا أن نلاحظ وجود انقسامات فرعية داخل كل تيار بشأن التوجه السياسي (اشتراكي/ رأسمالي) والموقف من التراث والهوية (ديني/ علماني) . ويجب ألا نتصور أن هناك فصلاً قاطعاً بين الفريقين ، فثمة تشابك وتداخُل بين الصهيونيتين (التوطينية والاستيطانية) قد يتبدَّى في الشخص الواحد نفسه ، كما هو الحال مع وايزمان الذي قضى معظم حياته يقوم بنشاط في الخارج نيابة عن الداخل ، ولكنه عاد بعد إعلان الدولة ليترأسها ويصبح من المستوطنين (وإن كان قد عاش في عزلة نظراً لأن زعيم الصهاينة الاستيطانيين ـ بن جوريون ـ لم يكن يرغب في أن يشاركه وايزمان السلطة) . ويظهر هذا التداخل في شخصية آحاد هعام ، فيلسوف الصهيونية الإثنية العلمانية ، الذي قام بجهود دبلوماسية ثم استوطن فلسطين نهائياً ، ولكنه مع هذا ظل يشعر بالغربة فيها وبالحنين إلى المنفى والشتات !

ويظهر التداخل في الوقت الحاضر حين يقرر يهودي من دول الكومنولث المستقلة (الاتحاد السوفيتي سابقاً) الهجرة إلى إسرائيل فيبدأ بالحديث عن هويته اليهودية ورغبته العارمة في الهجرة إلى وطنه القومي المزعوم ، ثم يحصل على تأشيرة على أساس نيته الصهيونية الاستيطانية . ولكنه يغيِّر رأيه في النمسا ويقطع مسار هجرته ويتجه إلى الولايات المتحدة بدلاً من إسرائيل لينخرط في صفوف صهاينة الخارج التوطينيين . وهناك بطبيعة الحال الصهاينة الاستيطانيون الذين يتركون إسرائيل ليستوطنوا الولايات المتحدة ويستمروا في تأييد المشروع الصهيوني (ولكن من منظور توطيني هذه المرة) .

والجدير بالذكر أن للاتجاهات الصهيونية المختلفة فروعاً في الداخل والخارج . فهناك فروع للأحزاب العمالية مثل الماباي والمابام في الولايات المتحدة ، ولكن الأساس التصنيفي يظل هو الأساس الذي نقترحه . فمثلاً ، رغم أن التنظيم الذي يُقال له الماباي في الخارج مرتبط بتنظيم المابای في الدولة الصهيونية من الناحية التنظيمية ، فإن التنظيمين يؤديان وظيفتين مختلفتين تماماً ، ولا يشتركان بالتالي إلا في الاسم والديباجات السياسية والعقائدية التي تتسم بالعمومية الشديدة (مثل الإيمان بأزلية الشعب اليهودي وعدم التفريط في شبر من أرض إسرائيل الكبرى والإيمان بالاقتصاد الاشتراكي ، وهكذا) . ويكتفي أعضاء عمال صهيون في الولايات المتحدة أو إنجلترا بإرسال الأموال والتوقيعات وبرقيات التأييد ، كما يحضرون كل المهرجانات الصهيونية ويرسلون الرسائل إلى الصحف المحلية وإلى أعضاء الكونجرس دفاعاً عن الدولة الصهيونية . وأما أعضاء الحزب المماثل في إسرائيل فهم الذين يقومون بالنشاط الاستيطاني من استيلاء على الأرض وقتال ضد السكان الأصليين وغزو أراضي الدول المجاورة .

ولا يعني هذا أن الصهيونية أصبحت وحدة متكاملة ، بين التوطينيين والاستيطانيين ، بل العكس . فقد ظلت التوترات تعبِّر عن نفسها بحدة ، وكل ما حدث أنه تم امتصاصها (وليس استيعابها) من خلال الخطاب الصهيوني المراوغ . وأهم هذه التوترات الصراع الذي نشب على قيادة المنظمة الصهيونية بين الصهاينة التوطينيين والصهاينة الاستيطانيين بعد إنشاء الدولة . وقد حُسم الخلاف باستيلاء الاستيطانيين على المنظمة تماماً . وحتى بعد إنشاء الدولة تظهر صراعات ، فبعض الصهاينة التوطينيين لا يقنع بالعمل في مجاله في الخارج ويحاول أن يفرض توجهات بعينها على الداخل كما حدث في حالة برانديز . ويحدث أحياناً أن الصهاينة الاستيطانيين لا يقتنعون بالدعم المالي والسياسي ويطلبون من الصهاينة التوطينيين أن يتخذوا مواقف أكثر راديكالية كما حدث في المؤتمر الثامن والعشرين (١٩٧٢) حينما تقدَّم بعض الصهاينة الاستيطانيين بمشروع قرار ينص على أن القادة الصهاينة الذين لا يستوطنون في إسرائيل بعد فترتين من الخدمة يفقدون الحق في ترشيح أنفسهم مرة أخرى ، فانسحب كل مندوبي الهاداساه (أكبر تنظيم صهيوني في العالم والذي يمثل أكثر من نصف الوفد الأمريكي) احتجاجاً على الاقتراح . وحدث الشيء نفسه تقريباً حينما وقعت الأزمة بين الدينيين والعلمانيين في إسرائيل مؤخراً إذ قامت جماعة من العلمانيين بحرق معبد يهودي ، وقامت جماعة من الدينيين برش الإعلانات الإباحية في محطات الأتوبيس ، فألقى المفكر الإسرائيلي العلماني شلومو أفنيري بالتبعة على يهود الولايات المتحدة ، الإصلاحيين والمحافظين المندمجين التوطينيين (والذين لا يكفون عن الشكوى من التزمت الديني في إسرائيل) قائلاً لهم إنه لو هاجر منهم ١٠٠ ألف وحسب ، فإن هذا سيرجِّح كفة العلمانيين وسيتم تكوين الحكومة دون الحاجة إلى أصوات الأحزاب الدينية .

والعكس يحدث أحياناً ، إذ يجد الصهاينة التوطينيون أن سلوك حكومة المستوطنين تسبب لهم كثيراً من الحرج في مجتمعاتهم الديموقراطية ، كما يحدث عادةً بعد ارتكاب المذابح الواضحة (مثل مذبحة صبرا وشتيلا) وبعد الغزوات الفاضحة (غزو لبنان) ، إذ يصبح من الصعب الحفاظ على أساطير كثيرة مثل «إسرائيل المُحاصَرة» أو «إسرائيل الباحثة عن السلام» وكما يحدث بعد حادثة مثل حادثة بولارد (المواطن الأمريكي اليهودي الذي قام بالتجسُّس على حكومة بلده لصالح الدولة اليهودية) .

ولكن معظم هذه الخلافات خلافات سطحية إذ تظل الصهيونية بشقيها التوطيني والاستيطاني متسمة بالوفاق . وقد عاد وفد الهاداساه المنسحب إلى قاعة المؤتمر بعد أن قرر منظمو المؤتمر أن مشروع القرار المقدم لم يكن دستورياً ، ولا يزال معظم الصهاينة التوطينيين يؤيدون الدولة الصهيونية علناً ويقفون وراءها رغم كل توسعاتها . وتتولى المؤسسة الصهيونية القضاء على معظم الجماعات اليهودية والصهيونية المنشقة ، وقد فعلت ذلك مع بريرا ، وتحاول الشيء نفسه الآن مع التنظيمات اليهودية التي لا تقبل الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ، أو توجِّه لها بعض النقد .

بعض الاختلافات الصهيونية بشأن الدولة الصهيونية

Some Zionist Disagreements Regarding the Zionist State

«الدولة الصهيونية» مفهوم صهيوني محوري . والمشروع الصهيوني ، في أهم صوره ، يرى أن الحل الوحيد للمسألة اليهودية هو إنشاء "دولة يهودية ذات سيادة" (شعار المؤتمر الصهيوني الأول [١٨٩٧]) . ويُلاحَظ أن ثمة ترادفاً في الخطاب الصهيوني بين عبارتي «الدولة الصهيونية» و«الدولة اليهودية» . وقد أصبحت الصيغة الصهيونية الأساسية صيغة أساسية شاملة بعد أن تم تحديد الدولة الصهيونية إطاراً لعملية التوظيف . وقد قام هرتزل بصياغة المفهوم والعقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية الذي تتعهد بمقتضاه الحضارة الغربية بأن تقوم بنقل اليهود إلى فلسطين وتأسيس دولة وظيفية لهم فيها ، ورعايتها وحمايتها وضمان بقائها واستمرارها نظير أن يقوم اليهود على خدمة مصالح الغرب . ومع صدور وعد بلفور ، يستقر المفهوم تماماً وتتحدد ملامحه وآليات تطبيقه .

ومع هذا ، بدأت الدعوة لإنشاء الدولة قبل هذا التاريخ بين الصهاينة غير اليهود من المفكرين والزعماء أصحاب المطامع الاستعمارية في الشرق . وكانت هذه الدعوة غريبة على الجماهير اليهودية وعلى المفكرين اليهود ، لأنهم كانوا إما متدينين ينتظرون مقدم الماشيَّح المخلِّص ليعود بهم ليؤسس هو الدولة (دون أي تَدخُّل بشري) ، أو علمانيين يدافعون عن الاندماج في أوطانهم . وقد طرح المفكر الصهيوني موسى هس الفكرة في منتصف القرن التاسع عشر في كتابه ذي الطابع الاستعماري الواضح **روما والقدس** ، ولكن الكتاب لم يُتداول بين أعضاء الجماعات اليهودية ولم يكن معروفاً لديهم . وقد عالج ليو بنسكر الفكرة نفسها في كتابه **الانعتاق الذاتي** ، غير أن فكره ظل مقصوراً على بعض قطاعات المثقفين في شرق أوربا ، ثم تعرَّض هرتزل للموضوع نفسه في كتابه **دولة اليهود** وجعلها فكرة أساسية . وقد أدرك هرتزل حتمية الاعتماد على الإمبريالية كآلية لتحقيق المشروع الصهيوني ، وضرورة أن تكون الدولة الصهيونية دولة وظيفية تابعة تستند شرعيتها إلى الوظيفة التي تضطلع بها وتحصل الدعم الاستعماري بسببها .

وقد أصبحت الدولة بعد مرحلة هرتزل وبلفور جزءاً من الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة . وكما هو الحال عادةً ، نجد أن الإجماع الصهيوني لا ينصرف إلا إلى هذه الصيغة الأساسية الشاملة ، أما ما عدا ذلك فهو موضع خلاف وصراع (دون قتال) بسبب الطبيعة المراوغة للخطاب الصهيوني . وقد واجهت الفكرة معارضة من اليهود الإصلاحيين ، وبعض اليهود الأرثوذكس ودعاة القومية اليديشية ، وحزب البوند والاشتراكيين ، وذلك لأسباب مختلفة . كما أن الصهاينة التوطينيين عارضوا فكرة الدولة في بداية الأمر خوفاً من أن يُتهَموا بازدواج الولاء . ولم يُكتَب للفكرة أن تتحقق إلا حينما تبنَّت الدول الإمبريالية المشروع الصهيوني ثم فرضت التجمع الاستيطاني على الواقع العربي .

والفكر الصهيوني يشبه في بنيته بنية العقائد العلمانية الشاملة في التشكيل الحضاري الغربي الحديث . فمع تزايد معدلات العلمنة ، تزايدت أهمية الدولة حتى أصبحت الركيزة الأساسية للمجتمع ومصدر تماسكه الوحيد (بدلاً من القيم الدينية) ، ثم أصبحت الدولة المطلق موضع التقديس الذي يحل محل الكنيسة والإله وأصبحت مصلحة الدولة العليا الإطار المرجعي للمنظومة القيمية . ومع ظهور القومية العضوية ، أصبحت الدولة الإطار الذي يعبِّر الشعب العضوي من خلاله عن ذاته ويحقق تماسكه العضوي . ثم يصل هذا التيار إلى ذروته مع الفكر الهيجلي إذ أصبحت الدولة الأداة التي تتوسل بها «الفكرة المطلقة» لتحقيق ذاتها ، بل أصبحت تجسد الفكرة المطلقة في التاريخ .

والفكر الصهيوني لا يختلف ، إلا في التفاصيل ، عن الفكر الغربي ، فالدولة اليهودية هي الإطار الذي سيعبِّر الشعب العضوي المنبوذ (أي المادة البشرية التي سيتم نقلها) عن هويته من خلاله . وتكتسب الدولة في الفكر الصهيوني دلالة أخرى هي فكرة الدولة الراعية الغربية . فقد أدرك الصهاينة من اليهود في مرحلة هرتزل أنهم لن يتأتى لهم تحقيق مشروعهم القومي إلا من داخل مشروع استعماري غربي . ومن هنا كان البحث عن دولة غربية عظمى تقوم بعملية نقل اليهود وتوطينهم وتأمين موطئ قدم لهم والدفاع عنهم ضد السكان الأصليين .

وبالتدريج ، اكتسبت الدولة اليهودية أبعاداً دينية مطلقة وأصبحت هي آلية تَحقُّق الحلم المشيحاني بل مركز الحلول . وبعد إعلان الدولة الصهيونية بدأ كثير من اليهود ينظرون إليها باعتبارها الكنيس المركزي وإلى رئيس وزرائها باعتباره الحاخام الأعظم . ومع انتشار لاهوت موت الإله بين اليهود ، أصبحت الدولة حرفياً هي تَجسُّد المطلق في العالم ، الآن وهنا ، فهي على حد قول أحد المفكرين اليهود «العجل الذهبي» (وقد تراجع هذا التيار نحو تقديس الدولة مع الانتفاضة وظهور لاهوت التحرير بين اليهود) .

وقد نشأت عدة صراعات بين الصهاينة حول عدة قضايا نوجزها فيما يلي :

١ ـ موقع الدولة :

دارت أولى الصراعات حول موقع الدولة ، وهو صراع دار بين الاستيطانيين والتوطينيين (قبل مرحلة هرتزل وبلفور) . فالتوطينيون الذين كان همهم التخلص من اليهود كانوا في عجلة من أمرهم ، ولذا كانوا على استعداد "لأن يلقوا باليهود في أي مكان" (عبارة نوردو وجابوتنسكي) سواء في فلسطين أو خارجها . ومن هنا المشاريع الصهيونية المختلفة (العريش ـ شرق أفريقيا ـ الأحساء ـ ليبيا ـ مدغشقر . . إلخ) . وقد حُسم الأمر بعد بلفور فوُضعت فلسطين تحت الانتداب ودخلت الفلك الاستعماري وتقرَّر تحويلها إلى مكان لتوطين اليهود ومن ثم توقَّف الحديث عن موقع الدولة .

٢ ـ آليات إنشاء الدولة :

يختلف الصهاينة فيما بينهم حول أسلوب إنشاء الدولة . ففي البداية كان هناك الصهيونية التسللية التي وقعت أسيرة وهم كبير ، إذ تصوَّر التسلليون أن بإمكانهم الاستيطان دون مساعدة الإمبريالية الغربية وقد اختفى هذا التيار مع تأسيس المنظمة الصهيونية .

ولكن حتى بعد تأسيس المنظمة وقبول المظلة الإمبريالية اختلف الصهاينة فيما بينهم . فدعاة الصهيونية الدبلوماسية (الاستعمارية) كانوا يرون أن الطريق الأسلم هو التفاوض مع القوى الاستعمارية والتأكد من ضمانها للدولة . أما دعاة الصهيونية الإثنية العلمانية ، فقد كانوا يرون ضرورة اتباع أسلوب العمل الثقافي البطيء بين جماهير اليهود في العالم وفي فلسطين . أما الصهاينة العماليون الاستيطانيون ، فكانوا يرون أن خير وسيلة هي خَلْق الحقائق الاستيطانية في فلسطين . وكان بعض التصحيحيين (التوطينيين) ممن ضاقوا ذرعاً بالوجود اليهودي في المنفى يجدون أن خير وسيلة هي التحالف الفوري مع القوى الإمبريالية وفَرْض أغلبية يهودية على الفلسطينيين بالقوة العسكرية لإنشاء وطن يهودي على ضفتي نهر الأردن . وكان جوزيف ترومبلدور يحلم باختزال كل المسافات الزمانية والمكانية بتكوين جيش يهودي جرار قوامه ١٠٠ ألف يهودي يقتحم فلسطين ويستوطن فيها ، ثم عدل عن خطته «الرهيبة» وأخذ يفكر في جيش قوامه عشرة آلاف . لكنه لم يتمكن من تحقيق حلمه العسكري الضخم الأول ولا حلمه العسكري الهزيل الثاني . ولا تزال الإشكالية تعبِّر عن نفسها وإن أصبحت تنصرف إلى آليات إدارة الدولة وإلى كيفية التعامل مع العرب .

٣ ـ حدود الدولة :

ظهر خلاف عنيف بين الصهاينة حول حدود الدولة . وهذا يعود إلى عدة أسباب ، من بينها أن إرتس إسرائيل ليست ذات حدود معروفة ، كما أن الدولة العبرانية القديمة لم تكن لها حدود مستقرة . وكان هناك من الصهاينة مَنْ يدرك أهمية الموازنات الدولية ويقتَنع بحدود تتفق مع قرار الدولة الراعية . ولكن كان هناك أيضاً مَنْ لا يدرك هذه الموازنات ويظل يدور في إطار الرؤى الحلولية الدينية والتاريخية القديمة وأحلام النيل والفرات . وبعد إنشاء الدولة ، لم تُحسَم المسألة قط . فهناك من يحاول ربط حدود الدولة بالكثافة البشرية اليهودية . ومع تصاعد الأزمة السكانية الاستيطانية ظهر دعاة ما يُسمَّى «الصهيونية السوسيولوجية» أو «الصهيونية السكانية» المهتمون بالطابع اليهودي للدولة ، وهم يطالبون بحد أدنى على عكس دعاة ما يُسمَّى «الصهيونية العضوية الحلولية» و«صهيونية الأراضي» ، فهؤلاء يصرون على الحد الأقصى . وتعبِّر الإشكالية عن نفسها في الوقت الحاضر من خلال الحديث عن الحدود الآمنة للدولة ، إذ تتغير الرؤية للحدود بتغيُّر الرؤية لأمن الدولة ومقوماته .

٤ ـ التوجُّه الأيديولوجي للدولة :

لم تتعرض الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة بعد بلفور للتوجُّه الأيديولوجي للدولة ، إذ يبدو أن الصهاينة التوطينيين كانوا واعين بحقائق الموقف في فلسطين ، وبصعوبات الاستيطان . كما لم يكن توجُّه الدولة الصهيونية يعنيهم من قريب أو بعيد مادامت تؤدي الأغراض المطلوبة منها ، مثل إبعاد يهود شرق أوربا عنهم ، والقيام بدور المدافع عن المصالح الإمبريالية . ولذلك ، فإنهم لم يمانعوا قط في تأييد بعض الأفكار والممارسات الصهيونية التي ترتدي زياً اشتراكياً . ولعل الصيغة المراوغة التي توصلت إليها المنظمة الصهيونية العالمية بشأن الاستيطان كانت محاولة للتوفيق بين كل الصهاينة والجمع بينهم وراء الحد الأدنى الصهيوني ، فقد تحدَّد هدف الحركة الصهيونية في الحصول على أراض في فلسطين كي تكون ملكاً للشعب اليهودي ولا يمكن التفريط فيها ، وأن يكون الصندوق القومي اليهودي قائماً كلياً على تبرعات تلقائية من اليهود في جميع أنحاء العالم . فالهدف هنا لم يحدد شكل الدولة الصهيونية ، ولا شكل ملكية الأرض ، ولا المُثل الاجتماعية أو العقائدية الظاهرة أو الكامنة ، وإنما تحدَّث فقط عن الحصول على أرض فلسطين كي تكون ملكاً للشعب اليهودي بشكل مبهم ومجرد . ولهذا ، يَصعُب الحديث عن يمين أو يسار داخل الحركة الصهيونية ، فمن الناحية البنيوية يتفق الجميع على الحد الأدنى .

أما الشكل الاجتماعي والمضمون الطبقي لهذه الدولة ، فهو أمر متروك لكل فريق بحيث يستمر الحوار بشأنه أو الصراع حوله دون قتال . بل إننا نجد أن الرأسماليين الصهاينة يقبلون بعض الأشكال

الاشتراكية وأن الاشتراكيين يقبلون كثيراً من الممارسات الرأسمالية ، كما أن المتدينين يغضون الطرف عن كثير من ممارسات أعضاء النخبة الإلحادية . وكثير من أعضاء النخبة يؤدون بعض الشعائر الدينية رغم إلحادهم ، إذ يدرك الجميع أن ثمة صيغة أساسية تنتظمهم جميعاً .

٥ ـ التكوين السكاني للدولة :

نشأ صراع حول التكوين السكاني للدولة ، إذ تنبَّه بعض الصهاينة منذ البداية إلى أن طبيعة الدولة الصهيونية كدولة إحلالية شاملة ستُؤلِّب السكان الأصليين ضدها وتجعلها تعيش في صراع دائم ، ومن ثم ظهرت فكرة الدولة ثنائية القومية التي دعا إليها بوبر وماجنيس وجماعة إيحود وحزب المابام . ولكن معظم الصهاينة أصروا على الطبيعة الإحلالية الشاملة للدولة الصهيونية . وقد خمد الصراع بين الفريقين ولكنه عاد إلى الظهور في أشكال أخرى ، من بينها الصراع بين دعاة الصهيونية السوسيولوجية ودعاة صهيونية الأراضي .

٦ ـ نطاق سيادة الدولة :

طُرح سؤال بشأن نطاق سيادة الدولة الصهيونية : هل هي دولة الشعب اليهودي بأسره ، داخل حدودها وخارجها ، أم أنها دولة المستوطنين الصهاينة (وهو الصراع نفسه بين التوطينيين والاستيطانيين) . ويحاول الاستيطانيون أن يؤكدوا أن الدولة هي دولة الشعب اليهودي بأسره ، ولذا تم إعلان قيام الدولة عن طريق مجلس قومي يتحدث باسم كل اليهود ، سواء في فلسطين أو في خارجها .

وقد أصدرت الدولة الصهيونية قوانين كثيرة ، وأقامت هيئات مختلفة بهدف ترجمة مفهوم الشعب اليهودي إلى واقع قائم . ومن أهم هذه القوانين قانون العودة الذي يمنح جميع اليهود حق مغادرة مسقط رأسهم والعودة إلى "وطنهم القومي" . وتعمل المنظمة الصهيونية العالمية على تكريس الوحدة اليهودية دون أية مراعاة للحدود الوطنية للدول المختلفة . ويحدد ميثاق المنظمة مهمتها بأنها "لمُّ شمل المنفيين في أرض إسرائيل التاريخية ، وتدعيم وحدة الشعب اليهودي" .

وتأسيساً على هذا الهدف الصهيوني/ الإسرائيلي ، وعلى أساس هذا الأسلوب في العمل ، فإن ميثاق المنظمة الصهيونية العالمية يتحدث عن واجبات المنظمة تجاه الدولة ، مثل "تقوية دولة إسرائيل" ، و"تعبئة الرأي العام العالمي" لتأييدها ، ووردت بالميثاق أيضاً إشارة إلى "الأنشطة التي تتم خارج إسرائيل" ، وقد أدّى هذا المفهوم إلى درجة من التوتر . فالتوطينيون حاولوا ، من خلال المنظمة ، فَرْض سيطرتهم على الدولة ، ولكن الاستيطانيين نجحوا في عزلهم والهيمنة على المنظمة . وقد استمر الصراع بعد انتصار الاستيطانيين ، إذ يحاول التوطينيون أن يؤكدوا أن الدولة ليست لها سيادة عليهم وإنما على مواطنيها وحسب . وهذا اتجاه له صداه في إسرائيل إذ توجد جماعات ترى أن الدولة الصهيونية هي دولة الإسرائيليين وحسب (الحركة الكنعانية وغيرها) .

وهكذا نرى أن الاختلافات بين الاتجاهات الصهيونية المختلفة إنما ينصرف إلى موقع الدولة والآليات المتبعة في إنشائها (وإدارتها) أو حدودها أو توجُّهها الأيديولوجي أو تكوينها السكاني أو نطاق سيادتها . ولكن ثمة اتفاقاً على المبدأ نفسه ، أي ضرورة إنشاء الدولة . كما أن هناك قبولاً للعقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن وظيفية الدولة . ومن هنا كانت الوحدة الأساسية بين كل الصهاينة .

ومع هذا ، لجأت الحركة الصهيونية إلى أسلوب التدرج لتعلن عن حدها الأدنى الصهيوني بسبب الموازنات الدولية ، وبسبب العلاقة المتوترة بين الاستيطانيين والتوطينيين ، وبسبب الخوف من السكان المحليين . ويمكننا متابعة هذا التدرج بتأمل قرارات المؤتمرات الصهيونية المختلفة . فإذا ما نظرنا إلى قرارات المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، ثم إلى قرارات مؤتمر بلتيمور (١٩٤٢) ، ثم إلى قرارات المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين الذي عُقد في القدس (١٩٦٨) ، للاحظنا التباين الشاسع ولرأينا كيف أن الحركة صاعدة من الحد الأدنى إلى الحد الأقصى . فقد صيغت قرارات المؤتمر الأول بشكل لا يزعج الأغيار (المطلوب عونهم في ذلك الوقت) ولا يزعج حكومة سويسرا (التي عُقد على أرضها المؤتمر) ولا يزعج يهود الغرب المندمجين (المطلوب دعمهم) ولا ينبه السكان الأصليين (المطلوب تصفيتهم) . ولذلك طلب المؤتمر إقامة «وطن قومي» (وليس دولة) في فلسطين يضمنه «القانون العام» (وليس الاستعمار الغربي ولا العنف أو الإرهاب) . كما دعا المؤتمر إلى تقوية الوعي والعواطف اليهودية وحسب دون أن يؤدي هذا إلى أي ازدواج في الولاء . ولم تصبح فكرة الدولة الصهيونية الشعار الرسمي للحركة الصهيونية إلا عام ١٩٤٢ في مؤتمر بلتيمور ، غير أن المُؤتمرين الصهاينة عبَّروا في قرارات هذا المؤتمر عن أملهم في انتصار الإنسانية والديموقراطية وما شابه ذلك ، كما رحبوا بالتعاون مع العرب وبالبعث العربي اليهودي المشترك . وبرغم أن المطلقات الحلولية بدأت في الظهور ، فإن الصياغة ظلت ديموقراطية ليبرالية إلى حدٍّ كبير . أما قرارات المؤتمر السابع والعشرين الذي عُقد بعد حرب يونية

وبعد "توحيد" القدس على الطريقة الصهيونية وبعد ضم أراض عربية ، فقد جعلت حدود الدولة الصهيونية تقترب بعض الشيء من تصوراتهم عن الحدود التاريخية أي المقدَّسة . ونحن هنا نجد الحلولية العضوية تسفر عن وجهها وأن الأهداف المعلنة قد قطعت شوطاً كبيراً في رحلتها إلى المطلق ، فأصبحت أهداف الصهيونية هي وحدة الشعب اليهودي ، ومركزية دولة إسرائيل في حياته ، وتجميع المنفيين من الشعب اليهودي في وطنه التاريخي عن طريق الهجرة من جميع البلاد ، وتدعيم دولة إسرائيل القائمة على مُثُل الأنبياء في العدل والسلام ، والمحافظة على أصالة الشعب اليهودي بتنمية التعليم اليهودي واللغة العبرية اليهودية والثقافة اليهودية وتقوية التحالف الإستراتيجي مع الحضارة الغربية .

الصراع بين الإثنيين الدينيين والإثنيين العلمانيين

Conflict between Religious and Secular Ethnic Zionists

نشب صراع حاد بين الصهاينة الإثنيين الدينيين والإثنيين العلمانيين . ولفهم طبيعة الصراع بإمكان القارئ أن يعود للأبواب التالية : «الصهيونية والعلمانية الشاملة» ـ «الصهيونية الإثنية الدينية» ـ «الصهيونية الإثنية العلمانية» .

مواطن الاختلاف بين التيارات الصهيونية المختلفة

Points of Disagreement between Various Zionist Trends

قد يكون من المفيد حصر بعض الموضوعات الأساسية التي يختلف الصهاينة بشأنها ، وكل موضوع سيأخذ شكل سؤال يجيب عنه كل تيار صهيوني بطريقته . ويُلاحَظ أن طريقة الإجابة على السؤال تُحدِّدها ثلاثة عناصر أساسية : هل الصهيوني توطيني أو استيطاني ؟ هل الصهيوني إثني ديني أو إثني علماني ؟ هل الصهيوني اشتراكي أو رأسمالي . . . إلخ ؟ (كان هناك تساؤلات تُطرَح قبل مرحلة هرتزل وبلفور تم حسمها فيما بعد وقد استبعدناها من قائمة الأسئلة على قدر المستطاع) .

١ ـ ما الموقف من اليهودية ؟

* عقيدة الشعب اليهودي التي يجب اتباعها .
* فلكلور الشعب اليهودي الذي يجب الحفاظ عليه .
* تراث ميت يشكل عبئاً على الشعب اليهودي لابد من التخلص منه .

٢ ـ من هو اليهودي ؟

* إشكنازي وحسب .
* كل يهود العالم .
* من يؤمن باليهودية .
* من وُلد لأم يهودية .
* من تهود حسب الشريعة (أي على يد حاخام أرثوذكسي) .
* من يشعر في قرارة نفسه أنه يهودي .
* من يكتشف أن جده كان يهودياً .

٣ ـ ما الموقف من ظاهرة العداء لليهود ؟

* ظاهرة حتمية أزلية .
* ظاهرة سلبية يمكن القضاء عليها أو تخفيف حدتها .
* ظاهرة سببها اليهود أنفسهم (باعتبار أنهم شعب مختار أو شعب طفيلي أو شعب يرفض الاندماج أو شعب ذو وضع طبقي متميِّز) .

٤ ـ ما طبيعة هذا الشعب اليهودي ؟

* شعب مقدَّس .
* شعب مختار .
* طبقة وسطى هرمها الإنتاجي مقلوب .
* مجموعة من الطفيليين .
* شعب مثل كل الشعوب .
* قومية عضوية .

٥ ـ من ينبغي نقله من أعضاء هذا الشعب ؟

* كل اليهود (وتصفى الدياسبورا) .
* الفائض اليهودي البشري وحسب .
* فقراء اليهود .
* يهود اليديشية .
* أي يهودي غير مندمج .

٦ ـ ما سبب النقل (نظرية الحقوق) ؟

* كي يعود الشعب المختار لأرض الميعاد ليؤسس دولته .
* كي يعود اليهود (الشعب الشاهد) إلى أرض الميعاد حيث يتم تنصيره تعجيلاً بالخلاص .
* طفيلية اليهود التي لابد من القضاء عليها (أي تطبيع الشخصية اليهودية) .
* فائض بشري لابد من التخلص منه .
* ضحايا دائمون للأغيار .
* مادة استيطانية جيدة .
* رُسُل الحضارة الغربية البيضاء الذين سيأتون بالتقدم ويشكلون قاعدة للاستعمار الغربي .
* تثوير المنطقة على يد الاشتراكيين اليهود عن طريق إقامة مجتمع اشتراكي .

* مساعدة الإمبريالية الغربية .

٧ـ ما طبيعة الدولة الصهيونية ؟

* وطن قومي وحسب .

* دولة رأسمالية .

* دولة اشتراكية .

* دولة دينية .

* دولة فاشية .

* دولة مستقلة عن الغرب .

* دولة تابعة للغرب .

٨ـ ما حدود الدولة ؟

* قرار التقسيم .

* حدود ٤٨ .

* ضفتا نهر الأردن .

* من النيل إلى الفرات .

* حدود عملية تتحدد حسب عدد المهاجرين المستوطنين .

* حدود جغرافية آمنة .

* حدود تحددها القوة الذاتية للدولة .

٩ـ ما وظيفة الدولة ؟

* دولة قومية للشعب اليهودي .

* واحة للديموقراطية الغربية .

* مكان لتطبيع اليهود وتخليصهم من طفيليتهم .

* قاعدة للمصالح الغربية (ضد الوحدة العربية وفي مواجهة القومية العربية والشيوعية) .

* مكان يحقق اليهود فيه هويتهم الدينية والإثنية .

* مكان يحقق اليهود فيه مستوى معيشياً مرتفعاً .

* مركز ثقافي لكل يهود العالم .

* قاعدة للنظام العالمي الجديد (ضد الإسلام) .

١٠ ـ ما علاقة يهود العالم بالدولة ؟

* هي الدولة التي يستوطنون فيها والتي عليهم أن يستوطنوا فيها .

* دعم الاستيطان .

* تكوين مراكز قوة وضغط (لوبي) في بلادهم لدعم الدولة .

* التبعية للدولة اليهودية .

* تبعية الدولة اليهودية لهم .

* الدولة هي مجرد مركز ثقافي لهم .

١١ ـ ما فلسطين ؟

* أرض الميعاد .

* موقع إستراتيجي بين آسيا وأفريقيا .

* بقعة جيدة للاستثمار .

١٢ ـ ما مصير العرب ؟

* لابد من رحيلهم من خلال الإقناع .

* لابد من رحيلهم من خلال العنف .

* دولة مزدوجة الجنسية .

إن شقة الخلاف واسعة حيث يجيب كل تيار صهيوني عن الأسئلة بطريقة مختلفة . ومع هذا ، تظل البنية الكامنة هي الصيغة الشاملة التي تفترض أن المادة البشرية اليهودية سيتم نقلها إلى فلسطين لإقامة دولة وظيفية بمساعدة الاستعمار الغربي . ثم تضاف إليها أية ديباجات تروق للصهيوني . فالمادة البشرية يمكن أن تكون الشعب المختار أو طليعة الطبقة العاملة . . . إلخ .

التيــــارات الصهيونيـــــة : إطـــار تصنيـــفي

Zionist Trends : Framework for Classification

نستخدم مصطلح «التيارات الصهيونية» للإشارة إلى التيارات الفكرية والتنظيمية داخل الحركة الصهيونية . ويُلاحَظ أننا لم نستخدم كلمة «مدارس» لأن هذه الكلمة قد توحي بأن ثمة اختلافات عميقة وجوهرية بين تلك التيارات ، وهو أمر مناف للحقيقة . أما الصراعات داخل التيارات المختلفة فنشير إليها باعتبارها «اتجاهات» .

وتعود الوحدة الأساسية بين التيارات الصهيونية المختلفة إلى أنها تدور في إطار الصيغة الصهيونية الأساسية بعد أن تحولت إلى صيغة أساسية شاملة وبعد تهويدها . فمهما احتدم الصراع بين تيار وآخر ، يظل هناك الاتفاق المبدئي على الأهداف النهائية وعلى آليات تنفيذها . ومع هذا ، تحدُث بعض الانقسامات داخل التيارات الصهيونية يمكن تصنيفها على النحو التالي :

أولاً : التقسيم على أساس مجال النشاط الصهيوني .

ينقسم الصهاينة من هذا المنظور إلى صهاينة استيطانيين يمارسون نشاطهم في فلسطين ، وإلى آخرين توطينيين في الخارج (انظر : «الصهيونيتان» ـ «الصهيونية التوطينية» ـ «الصهيونية الاستيطانية») .

ثانياً : التقسيم على أساس إثني (ديني/ علماني) .

ينقسم الصهاينة من المنظور الإثني إلى تيارين : صهيونية إثنية دينية وأخرى إثنية علمانية (انظر : «الصهيونية الإثنية الدينية» ـ «الصهيونية الإثنية العلمانية») . والتقسيمان السابقان يتعاملان مع اليهود على مستويين مختلفين ، ومن ثم فهما لا يتداخلان ولا يوجد

بينهما أي تناقض . وثمة تكامل بينهما ، فيمكن أن تبذل الصهيونية التوطينية (التي استوعبت الصهيونية الدبلوماسية والسياسية الاستعمارية وصهيونية يهود الغرب المندمجين) الجهود المكثفة وتقوم بالمحاولات الدائبة لتأمين الدعم الاستعماري وإيجاد آليات إخلاء أوربا من اليهود ونَقْلهم خارجها . وتصوغ الصهيونية الإثنية (الدينية والعلمانية) المصطلح اللازم لإثارة حماس الجماهير المطلوب نقلها ، وذلك بإطلاق اسم «الشعب اليهودي» عليها وبربطها عاطفياً بفلسطين ، أو «إرتس يسرائيل» كما يسمونها . أما الصهيونية العمالية الاستيطانية ، فإنها تُقدِّم المظلة العسكرية والسياسية الواقعية واللازمة لعملية الاستيطان في بيئة معادية . وفي تصوُّرنا أن هذه الطريقة لتصنيف التيارات الصهيونية ذات قيمة تفسيرية عالية وتشكل الإطار الحقيقي للانقسامات الصهيونية .

ثالثاً : التقسيم على أساس إثني (إشكنازي/ سفاردي ، وغربي/ شرقي) .

فرغم عدم اشتراك يهود البلاد العربية في إفراز الفكر الصهيوني أو الحركة الصهيونية ، ورغم أن الصهيونية (بشقيها الشرقي الاستيطاني والغربي التوطيني) لم تتوجه إليهم بشكلٍ خاص ولم تحاول تجنيدهم بشكل عام وواسع قبل عام ١٩٤٨ ، إلا أن إنشاء الدولة قد خلق حركيات تتخطى إرادتهم . كما أن حاجة الدولة الصهيونية إلى طاقة بشرية (بعد عزل يهود الشرق أو اختفائهم ، وبعد رفض يهود الغرب الهجرة) ، جعلها تهتم بهم وتجندهم وتفرض عليهم في نهاية الأمر مصيراً صهيونياً ، أي الخروج من أوطانهم . كما أن رغبتهم في الحراك الاجتماعي (فيما نسميه الصهيونية النفعية) قد ساعدت على ذلك . وقد استقرت أعداد كبيرة منهم في الدولة الصهيونية ، وإن كان من الملحوظ أن أعداداً أكبر قد استقرت خارجها .

والانقسام على أساس إثني (إشكنازي/ سفاردي ، وغربي/ شرقي) هو انقسام مهم وخطير ، فرغم أنه لم يؤثر في الأطروحات الفكرية النظرية الصهيونية الأساسية إلا أنه ترك أعمق الأثر في حركيات الدولة الصهيونية .

رابعاً : التقسيم على أساس العقيدة السياسية .

ينقسم الصهاينة من المنظور السياسي إلى قسمين أساسيين : اشتراكي (عمالي) ورأسمالي ليبرالي من دعاة المشروع الحر . وهو تقسيم ذو قيمة تفسيرية ضعيفة ، وذلك بسبب طبيعة الدولة الصهيونية الوظيفية وقيام الإمبريالية الغربية بتمويلها بكل قطاعاتها الرأسمالية والاشتراكية . وهناك تصنيفات سياسية أخرى مثل انقسام الصهاينة إلى ديموقراطيين وفاشيين ، وهكذا . لكن هذا التقسيم لا يقل في ضعفه من ناحية مقدرته التفسيرية عن التقسيم على أساس اشتراكي/ رأسمالي للسبب السابق نفسه . ولعله ، بعد تَساقُط المنظومة الاشتراكية في العالم ، لم تَعُد لهذا التقسيم قيمة كبيرة . وهناك أيضاً الانقسام على أساس حدود الدولة ومستقبلها .

ونحن نقترح هذا الإطار كأساس تصنيفي لكل التيارات الصهيونية إذا نظرنا إليها من منظور الصهيونية ككل لا من منظور إسرائيل وحسب . ولذا ، فإننا نذهب إلى أن الصهيوني لابد أن يكون واحداً من أربعة انتماءات محتملة :

١ـ أ) صهيوني توطيني ديني .
ب) صهيوني توطيني علماني .
٢ـ أ) صهيوني استيطاني ديني .
ب) صهيوني استيطاني علماني .

وخريطة الأحزاب في التجمُّع الصهيوني تعكس هذه الاختلافات ، فتُقسَّم الأحزاب حسب الأيديولوجية (مشروع حر مثل الليكود و"عمالية" مثل المعراخ) . وحسب ازدواجية الديني/ العلماني (أحزاب دينية مثل مزراحي وأحزاب علمانية مثل ميرتز) . وحسب ازدواجية الشرقي والغربي (حزب جيشر السفاردي وحزب إسرائيل بعاليا الروسي) . وحسب الموقف من حدود إسرائيل وتكوينها السكاني (موليديت وميرتس) . ويمكن أن يعكس حزب واحد كثيراً من هذه الازدواجيات أو يتأرجح بينها (شاس السفاردي الديني الذي يؤيد التوسع وضم الأراضي أحياناً ويتراجع عن ذلك أحياناً) . ولكن الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة تظل في البداية العقد الاجتماعي الصامت والمرجعية النهائية التي يتقبلها الجميع .

الصهيونية التوفيقية
Synthetic Zionism

مصطلح «الصهيونية التوفيقية» تعبير آخر عما يُسمَّى «الصهيونية التركيبية» (بالإنجليزية : سينثيتيك زايونيزم Synthetic Zionism) . وهو مصطلح استخدمه وايزمان في المؤتمر الصهيوني الثامن (١٩٠٧) حين طالب الصهاينة العمليين والصهاينة الدبلوماسيين بمزج أساليبهم في العمل . وقد أكد وايزمان أنه لا يرفض الأساليب الدبلوماسية (الاستعمارية) ولكنه يجدها غير كافية في حد ذاتها إذ لابد أن يساعدها نشاط استيطاني ، وهو بذلك يكون قد قَبِل الصهيونية الاستيطانية والصهيونية التوطينية .

وقد عبَّر أتو ووربورج ، رئيس المنظمة منذ عام ١٩١١ وحتى عام ١٩٢٠ ، عن هذه الصهيونية التوفيقية بشكل أدق إذ قال : إن "الحق التاريخي الذي تستند إليه ملكيتنا لفلسطين . . . لا تأثير له وحده وفي حد ذاته على الدول الكبرى . بل يتوجب علينا إيجاد صيغة عصرية لذلك الحق تضاف إليه . وهذه الصيغة تقوم على برهنتنا ، إن لم يكن شرعياً أو حقوقياً (دي جوري de jure) فبحكم الواقع الفعلي (دي فاكتو de facto) ، على أن فلسطين تخضع اقتصادياً لنفوذنا ، وأن جميع ما أحرزته تلك البلاد من تَقدُّم كبير وملموس يرجع في الأصل إلى مبادرتنا وقوة وسائلنا الاقتصادية وفعاليتها ولم ينشأ إلا بفضلها" . وهو هنا لا يشير إلى الصهيونية الدبلوماسية التوطينية وحسب ، أو إلى الصهيونية الاستيطانية وحسب ، وإنما يشير أيضاً إلى الصهيونية الإثنية (الحق التاريخي) ، كما أنه ينظر إلى فلسطين من منظور التيارات الصهيونية الثلاثة وإن كان يؤكد أهمية الاستيطان وسياسة خلق الحقائق .

ولعل كلمات أوسيشكين (بعد وفاة هرتزل) هي أدق التصريحات ، فقد اقترح العودة لا إلى صهيونية أحباء صهيون الاستيطانية ولا إلى الصهيونية الروحية (الصهيونية الإثنية) ولا إلى الصهيونية الدبلوماسية (التوطينية) وإنما إلى مزيج من هذه التيارات الثلاثة معاً ، أي إلى الصهيونية السياسية كما نص عليها برنامج بازل . وهي ، إذن ، دعوة إلى الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المُهوَّدة وإلى وحدة كل التيارات الصهيونية داخل إطار هذه الوحدة .

وقد حقق الصهاينة قدراً كبيراً من الوحدة عبر تاريخهم . فأثناء المحادثات بشأن وعد بلفور ، نجد أن وايزمان التوطيني يبذل جهوداً دبلوماسية غير عادية ويستفيد من التغيرات الدولية من أجل تحقيق هدف استيطاني (استصدار ضمان دولي لعملية الاستيطان الصهيوني في فلسطين) ، وفي خلفية هذه النشاطات كان يوجد آحاد هعام (أستاذ وايزمان ومؤسِّس التيار الصهيوني الإثني العلماني) يزودهم منذ عام ١٩٠٨ بالمشورة وينصحهم بأن يبحثوا عن موافقة وتأييد بريطانيا لمشاريعهم الاستيطانية المختلفة . ثم يَصدُر وعد بلفور بالفعل على هيئة رسالة موجهة إلى أحد أثرياء الغرب المندمجين الذين غيَّروا موقفهم من رفض المشروع الصهيوني إلى قبوله .

ويمكننا أن نقول إن الصهيونية الحقة ، شأنها في هذا شأن إسرائيل ، هي الصهيونية التي تمزج جميع التيارات الصهيونية ؛ عمالية كانت أو رأسمالية ، راديكالية أو تصحيحية ، دينية أو علمانية ، توطينية أو استيطانية ، ذلك أن صهاينة الخارج يتحركون على الصعيد السياسي لصالح المُستوطَن الصهيوني ويقومون بتجنيد يهود العالم وراءه ويجمعون الضرائب لدعمه (الصهيونية التوطينية ، أي كل التيارات الصهيونية في الخارج) . ويقوم المستوطنون بخلق حقائق جديدة (الصهيونية الاستيطانية ، أي التيارات الصهيونية المختلفة في الداخل) . وتصر الصهيونية في الداخل على وحدة الهوية اليهودية (صهيونية إثنية) ، وهي هوية نابعة من التراث الديني (صهيونية إثنية دينية) وفق أحد التيارات الدينية ، أو لا علاقة لها بالدين وإنما تنبع من التراث (صهيونية إثنية علمانية) حسب تصوُّر التيار العلماني . ومع ذلك ، وبغض النظر عن كل هذه التصنيفات ، نجد أن جميع التيارات الصهيونية تشترك في الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المُهوَّدة ، وفي الاعتماد شبه الكامل على الدعم الإمبريالي من خلال الراعي الإمبريالي والجماعة اليهودية في الغرب . ولذا ، فيمكننا أن نزعم أن جميع الصهاينة ، في نهاية الأمر ، توفيقيون .

الصهيونية : القيم السياسية

Zionism : Political Values

يجتمع في الإطار السياسي النظري للصهيونية نظم أساسية ومختلفة من القيم : اليهودية التي تمت صهينتها ، والعنصرية ، والقومية السياسية ، والقومية العضوية ، والاشتراكية ، والليبرالية ، الأمر الذي يجعل مبدأ "القوة" كأساس للمشروعية السياسية – ولا نقول للشرعية (المبدئية) – المبدأ الأساسي الذي يحكم مدركات التعامل السياسي الإسرائيلي . ولذا يتحكَّم هذا المبدأ في الحياة والمستقبل الإسرائيليين تحكُّماً يتجاوز في مداه وعمقه تأثير طاقات أيٍّ من تلك النظم المختلفة من القيم . ولإيضاح هذا ، يتوجب تحديد ما نعنيه هنا بتلك النظم من القيم ، وبمبدأ القوة كأساس للتعامل السياسي ، وذلك في إطار تناولنا الصهيونية باعتبارها تلك العقيدة السياسية التي تدعو يهود العالم للتجمُّع في فلسطين لتكوين وبناء الدولة الإسرائيلية .

ويمكن القول بأن المنهجية "التلفيقية" هي السمة البارزة في خطاب الصهيونية ، لا ينهض الجانب الدعوي من هذا الخطاب بدونها ، سواء في التعامل مع القوى غير اليهودية ، أو في التعامل مع الجماعات اليهودية نفسها ، أو في بناء فكرها نفسه . ولبيان ذلك علينا ملاحظة أن أياً من نظم القيم السياسية إنما يتكون ، كغيره من نظم القيم الأخرى ، من قيمة جماعية عليا (كالديموقراطية : احتراماً للكرامة الإنسانية ، في نسق قيم الحضارة الغربية الحديثة) ، يرتبط بها ويعبِّر عنها نسق من القيم السياسية الفردية .

وعَبْر هذا النسق من القيم السياسية الفردية ، يتميَّز أيُّ نسق من القيم عن أنساق القيم الأخرى تميُّزاً لا يتحدد بالضرورة بهذه القيم كمفردات ، بل يتحدد بالعلاقة فيما بينها في نسق القيم الذي يجمعها . فنسق القيم الشيوعي ، في رفضه نسق القيم الغربي الليبرالي ، لا يرفض مفردات قيمه السياسية الفردية ، من حرية ومساواة وعدالة ، ولكنه في الأساس يرفض أولوية قيمة الحرية على المساواة والعدالة ؛ ويتبنَّى المساواة كقيمة سياسية عليا في نسق قيمه ، جاعلاً لها الأولوية على الحرية مثلاً ، منطلقاً في ذلك من فهم الشيوعية للعلاقة بين الظاهرة السياسية والظاهرة الاقتصادية ، التي تعتبر مفهوم "الكفاف الاقتصادي" أساساً للديموقراطية السياسية . بل تمضي أبعد من ذلك لتعتبر أن تحقُّق "العدالة" مرهون بتحقُّق المساواة الفعلية في الأوضاع الاقتصادية .

ولكن الأمر جدُّ مختلف بالنسبة للصهيونية إذ نجد أنفسنا أمام إطار من القيم تتداخل فيه أنساق من القيم ، وليس مجرد مفردات من القيم . وهي بطبيعتها أنساق مختلفة ، غير منسجمة مع بعضها البعض . وهو ما يجعل محاولة تبيُّن سمات نسق قيم الصهيونية عملية صعبة ، بل قد تكون غير ممكنة ، ما لم نلحظ السمة التلفيقية فيها بين أنساق من القيم وليس بين مفردات .

وأول تلك الأنساق هي اليهودية التي تمت صهينتها أو الصهيونية ذات الديباجات الدينية اليهودية ، ونعني بها تلك المعتقدات من اليهودية التي توظِّفها الصهيونية في مشروعها لبناء الدولة الصهيونية . ولا نقصد بذلك أن هذا التوظيف يتوافر على رؤية معرفية كلية ، على درجة من الثبات المنهجي ، تفسر الوجود السياسي ، وتقيِّم الحركة السياسية ، بصورة منطقية ومتجانسة . فاليهودية بوصفها تركيباً جيولوجياً تراكمياً عاجزة وعصيَّة تماماً على الانصهار في مثل تلك الرؤية المعرفية المحددة . غير أن هذه السمة الجيولوجية التراكمية نفسها ، بما تشتمل عليه من أنساق وأفكار ومعتقدات ومفاهيم متعددة ومختلفة ومتناقضة ، جعلت من اليسير على الصهيونية أن تختار الإطار المعتقدي أو المنطلق القيمي المناسب والمطلوب ، لتقييم كل حركة أو مرحلة سياسية أو تبريرها ، والتعامل معها ؛ كما أنها (أي السمة التركيبية الجيولوجية التراكمية) تسمح بتفسير أو تبرير كل حالة سياسية ، أو حتى الوجود السياسي نفسه ، وذلك كله تبعاً لتغيُّر الإطار - أو حتى الظرف - التاريخي والسياسي والاجتماعي ، أو تبعاً لاختلاف طبيعة التوظيف المعتقدي المطلوب سواء كان دعوياً يتجه إلى تأكيد رابطة الولاء والانتماء اليهودي للكيان الصهيوني ، أو دعائياً يرمي إلى كسب التعاطف والتأييد الخارجي (الدولي) لهذا الكيان . ومع أن مثل هذا التوظيف التلفيقي يعمل على صبغ الصهيونية وشحنها بالمفاهيم والأطروحات المتناقضة الأمر الذي يدفعها في النهاية للانفجار والتفتت الفكري ، إلا أنه يهيئ لها من جهة أخرى ، وبخاصة في ظل ظروف وتحالفات دولية مواتية ، استمراراً مرحلياً ما دامت تواجه بيئة سياسية واهنة أو مسترخية فكرياً وسياسياً ، كما هو الحال في البيئة الثقافية والسياسية العربية الراهنة ، وذلك بغض النظر عن الطاقات والإمكانات الفكرية والسياسية الكامنة لهذه البيئة (العربية) .

إن مقولة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» مثلاً ، إنما تعبِّر في توظيفها ، الدعوي والدعائي ، عن تلك المنهجية الصهيونية التلفيقية ، حيث يتم إحياء مفاهيم وتقاليد معينة في هذا التراث وتجاهُل أخرى ، وذلك تبعاً لما يتطلبه الإطار التاريخي أو الظرف السياسي والاجتماعي ، الذي تجرى فيه عملية التوظيف التلفيقية تلك . فعلى المستوى الدعوي المعني بتأكيد الانتماء والولاء اليهودي ، وبخاصة نحو المشروع الصهيوني ، يمكن توظيف المفاهيم الحلولية في التراث اليهودي كما يمثلها الثالوث الحلولي : الإله والأرض والشعب ، فيحل الإله في فلسطين لتصبح أرضاً مقدَّسة ، ويحل في يهود العالم ليصبحوا شعباً مقدَّساً ، ومختاراً من الإله للتمركز في الأرض المقدَّسة ، من أجل خلاصهم وخلاص العالم بأن ويتولوا قيادته حضارياً . ويمكن في مستهل المشروع الصهيوني ، وعَبْر هذا التوظيف ، اعتبار الأرض المقدَّسة أرضاً بلا شعب ، فالأغيار (من عرب فلسطين) يمكن اعتبارهم مستباحين ومدنَّسين (بخلاف الشعب المقدَّس) ، فيستوي بذلك وجودهم وعدمه .

وعندما يؤدي نضال عرب فلسطين إلى أن يصبح وجودهم وانتماؤهم لأرضهم حقيقة عصيّة أمام التوظيف الدعائي (لهذا الطرح الدعوي) ، فيمكن حينئذ - وعند اللزوم - تخفيف الطابع العنصري والحلولي الفج لمفهوم الاختيار ، والاستعاضة عنه بمفهوم «البروليتاري الأزلي» كتصور لليهودي الذي أختير منذ الأزل لتأدية رسالة أزلية اشتراكية (كما هو الحال عند المفكر الصهيوني الاشتراكي نحمان سيركين) ثم يوظِّف هذا المفهوم لكسب تأييد الاشتراكيين ومعسكرهم من جهة ، ومن جهة أخرى لخلق وتأكيد علاقة انتماء فعلية بين اليهودي وأرض فلسطين . كما يمكن أيضاً توظيف مفهوم اليهودي باعتباره «الديموقراطي الأزلي» الذي تحدَّث عنه لويس برانديز باعتبار أن اليهودي هو الجدير بحمل رسالة الديموقراطية (وخصوصاً في الوسط العربي الغريب عنها) ما دام الإله قد اختار اليهود للحوار الحق معه دون باقي أمم الأرض . وبالطبع ، يمكن أن

تجد هذه المفاهيم سندها داخل التركيب الجيولوجي التراكمي لليهودية، وذلك عبر إحياء فكرة "الاختيار الرسالي" التي دعت إليها اليهودية الإصلاحية ، إلى جانب حركة التنوير اليهودية ، وكلتاهما تمردت على فجاجة الطابع العنصري للرؤية اليهودية الحلولية لمفهوم الاختيار .

هذا على صعيد تبرير وإضفاء المشروعية على الوجود الصهيوني السياسي نفسه ، وهو تبرير يتم التعبير عنه ، دعوياً ودعائياً، على مستوى مفكري وقادة المشروع الصهيوني أنفسهم . غير أن بإمكاننا تتبُّع هذه السمة التلفيقية ، على مستوى تقييم تيارات وقوى يهودية في الكيان الصهيوني ، لمشروعية هذا الكيان ، وذلك في إطار مسيرته السياسية ومدى نجاحه في فَرْض وجوده الإقليمي والدولي . ويمكن أن نأخذ مثلاً على ذلك رؤية مثل تلك التيارات أو القوى للمشروع الصهيوني ، في ضوء العقيدة المشيحانية التي تؤمن بأن خلاص اليهود وجَمْعهم من الشتات إنما يكون بقدوم الماشيَّح في آخر الأيام .

لقد ظلت أكثرية التيارات والجماعات الدينية اليهودية تحافظ على موقف غير صهيوني من المشروع الصهيوني (الانتظار لمشيئة الإله) . ولكن هذه التيارات بدأت بعد إعلان الدولة الصهيونية تنقاد بالتدريج للتعايش مع المفهوم الصهيوني للعودة . وبعد حرب ١٩٦٧ ، بدأت أحزاب دينية صهيونية عديدة تنظر إلى نتائج هذه الحرب باعتبارها معجزة و "إشارة ربانية" إلى بداية الخلاص ، وأن دولة إسرائيل ما هي إلا مقدمة مجيء الماشيَّح المخلِّص ، مضفية بذلك على دولة إسرائيل سمات دينية مشيحانية . بل اعتبرها البعض استجابة لنداء الرب ، بل هي "الإرادة الإلهية نفسها" (على حد تعبير الحاخام كوك الأب الروحي لحركة جوش إيمونيم) .

كذلك تتضح هذه المنهجية التلفيقية على صعيد مبادئ وأُسس النظام السياسي والاجتماعي في الكيان الصهيوني ، وسواء أتعلَّق ذلك بتصور الصهيونية لهذه المبادئ والأُسس أم تعلَّق بتعاملها معها . وهكذا ، فإن الصهيونية توظف فكرة العودة مثلاً لحث أكبر عدد من يهود العالم على الهجرة إلى فلسطين ، بينما يظل التساؤل حول المعيار المحدد للهوية اليهودية (من هو اليهودي ؟) بغير جواب حاسم من مؤسسة دولة إسرائيل ، لئلا يقود - كما رأت جولدا مائير مثلاً - تبنِّي معيار متساهل لتحديد الهوية اليهودية إلى اندماج يهود الخارج في مجتمعاتهم ، بينما يقود التشدد في ذلك إلى عواقب وخيمة على بنية الكيان الصهيوني نفسه في فلسطين ؛ وعبر مثل هذا التوظيف (العملي) الذي تمارسه هنا جولدا مائير أحد أقطاب الصهيونية العمالية لأطروحات الصهيونية الإثنية ، يظل تحديد من هو اليهودي خاضعاً ، عن وعي وتصميم ، لاعتبارات ظرفية غير عقائدية ، وذلك رغم المحورية المركزية الطاغية لصفة اليهودي في المشروع الصهيوني .

ويخضع تحديد مبادئ وأُسس الحياة الاجتماعية والسياسية في الكيان الصهيوني لتوازن معقد بين التيارات والقوى والأحزاب التي يُقال لها "علمانية" من جهة ، ومن جهة أخرى التيارات ذات الديباجات الدينية فيها . ومع هذا لا يمكن الاكتفاء بإرجاع غياب الحسم العقائدي ، في قضية مركزية في محوريتها ، تهيمن على تعريف "المواطنة" نفسه ، إلى غَلَبة إرادة العلماني على إرادة الديني في مركز القرار الإسرائيلي . فمن المعروف أن تشريعات "اليهودية الحاخامية" (كما تعبِّر عنها التشريعات التلمودية) ، تسيطر على تنظيم الأحوال الشخصية في الكيان الصهيوني ، وذلك رغم أن الإحصاءات الاستطلاعية تشير (عام ١٩٨٧) إلى أن ٨٤٪ من يهود هذا الكيان لم يطَّلعوا على التلمود قط . كما نجحت الأحزاب الدينية (عام ١٩٥٠) ، على سبيل المثال، في فرض إرادتها في أن تكون لها اليد الطولى في الإشراف على النظام التعليمي في معسكرات المهاجرين اليهود في فلسطين ، وذلك بالرغم مما يفرضه هذا من تأثير داخلي جذري على مستقبل النظام السياسي والاجتماعي في الكيان الصهيوني .

إن ما سبق من أمثلة يُظهر أن المعوَّل عليه في نهاية المطاف ، بالنسبة للصهيونية ، ليس إطاراً معتقدياً معيناً مستمداً من إحدى طبقات التركيب الجيولوجي التراكمي للعقيدة اليهودية ، يتم تبنِّيه والثبات عليه ؛ وإنما تفرض كل مرحلة حلاً مؤقتاً كل ما يُشترَط فيه أن يكفُل التميُّز ، ولكنه تميُّز لا مضمون له وإنما هو تميُّز وكفى . ولذلك ، فحينما يعني التمسك بهوية (صلبة) للتميُّز (تحدِّد مثلاً من هو اليهودي ؟) ، فإن التميُّز من حيث هو اختلاف عن الآخر ، يصبح مصدر تهديد ، ومن ثم يتم العدول عنه ، ويتم تبنِّي تعريف للهوية يسمح بقدر من السيولة . وهي ظاهرة تتبدى في الحيرة والصراع داخل الكيان الصهيوني ، حول الخيارات المستقبلية لمضمون تميُّزه ، وهي قضية وثيقة الصلة بالصراع العربي الصهيوني : القبول بدولة فلسطينية مستقلة في سبيل نقاء الكيان الصهيوني ؟ أم السماح بالوجود العربي داخل إطار الدولة الصهيونية ، في سبيل إسرائيل الكبرى ؟ إن الصراع هنا هو صراع بين الرؤية الصهيونية التقليدية (الحلولية المادية الصلبة) التي تتمسك بمفاهيم مثل إسرائيل الكبرى جغرافياً ، والرؤية الإسرائيلية البرجماتية (الحلولية الشاملة السائلة) التي لا تُمانع في التنازل عن هذا المفهوم في سبيل الوصول

إلى إسرائيل العظمى اقتصادياً . وهو ما يعكسه توجُّه اتفاقيات أسلو (١٩٩٣) وما بعدها ، التي تمت بقيادة تيار فاعل في المؤسسة الإسرائيلية تنَّبه قبل عقود من هذه الاتفاقيات (وبخاصة عبر شيمون بيريز) إلى عناصر الحيرة والصراع التي تكتنف عملية حَسْم هوية المشروع الصهيوني . فكانت اتفاقيات أوسلو إيذاناً بتكريس توجُّه إسرائيل كبرى مختلفة : يعمل ، وذلك بعد أن واتته الفرصة بعد حرب الخليج الثانية (١٩٩١) ، على إرساء نظام شرق أوسطي متمركز اقتصادياً حول الكيان الصهيوني ؛ أي أنه توجُّه يعمل ، عن وعي وإرادة ، على تمييز الكيان الصهيوني بسطوة سائلة حلولية صهيونية اقتصادية ، وذلك على حساب تميُّزه بهويته الحلولية الصهيونية العنصرية الصلبة .

وباختصار ، فإن المنهجية التلفيقية تهيمن بالضرورة ، على تصوُّر الصهيونية لأسس تبرير مشروعية الوجود الصهيوني السياسي نفسه ، فضلاً عن مبادئ وأُسس النظام السياسي والاجتماعي في الكيان الصهيوني ؛ والاصطدام (الكامن دوماً والمتفجر دورياً) ، الذي يقع بين هذه المنهجية التلفيقية من جهة ، وبين حقائق الواقع والحقيقة الصلبة من جهة أخرى ، لا يقودها إلى إعادة النظر في عناصر رؤيتها المعرفية (اليهودية الحلولية التراكمية) ؛ بل يدفعها (متأثرة طبعاً بحلوليتها اليهودية التراكمية هذه) إلى إعادة تشكيل مبادئها وأُسسها بنفس المنهجية التلفيقية . إنها تلفيقية مسكونة بهدف البقاء المتميِّز ، تجعل مبدأ القوة المادية أساساً لتبرير مشروعيتها وتقييم، ثم إعادة تشكيل ، مبادئ وأُسس حركتها ونُظُمها . ويُبرز وصف ديفيد بن جوريون للجيش الإسرائيلي بأنه "خير مفسِّر للتوراة" ، هذه التلفيقية بجلاء وهي التلفيقية التي كانت تجعل بن جوريون يُفسِّر التوراة والتلمود ، فضلاً عن الواقع والتاريخ ، من خلال توظيف انتصارات جيش الدفاع الإسرائيلي . إن قيم اليهودية التي تمت صهينتها كرافد أصيل في تركيب إطار قيم الصهيونية ، إنما تجعل مبدأ القوة مثاليتها وقيمتها العليا المحددة .



٣
العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية

العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن يهود العالم ـ الوعود البلفورية ـ وعد بلفور ـ عقد بلفور ـ جيمس آرثر بلفور ـ مارك سايكس

العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن يهود العالم

Silent Contract between Western Civilization and the Zionist Movent regarding Western Jewry

«العقد» هو اتفاق بين طرفين يلتزمان بمقتضاه تنفيذ بنوده ، أما «العقد الصامت» فهو عقد ضمني غير مكتوب لا يتم الإفصاح عنه أو التصريح به . والعقد الصامت في أغلب الأحيان غير واع ومع هذا فهو يعبِّر عن نفسه من خلال سلوك الأفراد والجماعات والمؤسسات .

ويمكن القول بأن كل مجتمع إنساني يستند إلى عقد صامت بين أعضائه ينطلق من بعض المقولات الأولية القَبْلية التي يؤمن بها أعضاء هذا المجتمع ، وتستمد السلطة الحاكمة شرعية وجودها واستمرارها من هذا العقد . والحديث عن «العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية» هو محاولة من جانبنا لتسمية شيء كامن مهم مُتضمَّن لم يُسمِّه أحد من قبل ، رغم المقدرة التفسيرية للمصطلح .

وقد ظل تاريخ الصهيونية متعثراً قبل ظهور هرتزل وظلت الصهيونية فكرة غير قادرة على التحقق لأسباب عديدة من أهمها أن دعاة الفكر الصهيوني كانوا من الصهاينة غير اليهود أو من أعداء اليهود ، الأمر الذي جعل أعضاء المادة البشرية المستهدفة (أي اليهود) يرفضون الدعوة إلى استيطان فلسطين . كما أنه لم تكن هناك أية أطر تنظيمية تضم كل الجماعات اليهودية . وعلاوة على هذا كان هناك يهود الغرب المندمجين الذين كانوا يرون أن المشروع الصهيوني يهدد وجودهم ومكانتهم وكل ما حققوه من مكاسب .

وقد حل هرتزل كل هذه الإشكاليات ، فقام بوضع العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية استناداً للصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة التي نبعت من صميم هذه الحضارة ومن تاريخها الفكري والاقتصادي والسياسي . ولم يكتف هرتزل بوضع العقد وإنما قام بتأسيس المنظمة الصهيونية التي طرحت نفسها كإطار تنظيمي يمكن من خلاله توقيع العقد مع الحضارة الغربية وفرض الصيغة الصهيونية الشاملة على الجماهير اليهودية بحيث تتحول هذه الجماهير إلى مادة استيطانية ويدخل المشروع الصهيوني إلى حيز التنفيذ . كما طوَّر هرتزل الخطاب المراوغ الذي جعل بالإمكان إرضاء مختلف قطاعات يهود العالم الغربي (في غرب أوربا وشرقها) ، بل استيعاب كل ما قد يجد من مشاكل في المستقبل ، الأمر الذي فتح الباب أمام تهويد الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة .

وهرتزل ، واضع العقد الصامت ، لم يكن مفكراً من الطراز الأول أو مُنظِّراً قادراً على التجريد وإنما كان صحفياً ذكياً سطحياً قليل الثقافة وخبرته السياسية محدودة ، ولذا فإن تَوجُّهه كان برجماتياً عملياً . ومع هذا ، فإن كتاباته تضم مادة هذا العقد الصهيوني الصامت كما تضم كتابات من لحقه مواد تكميلية للعقد .

وكما أسلفنا هذا عقد صامت ، غير مكتوب ، أي أن كلمة «عقد» هنا تُستخدَم مجازاً . ومع هذا يمكننا القول بأن هذه الصورة المجازية ليست من نحتنا إلا بشكل جزئي . فهي تتواتر في الأدبيات الصهيونية غير اليهودية (وهذا أمر متوقع ، فهي صهيونية كانت تنظر لليهود كعنصر نافع غريب يمكن توظيفه) ثم انتقلت الكلمة إلى كتابات الصهاينة اليهود . فقد أشار هرتزل في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) إلى ضرورة التفاهم التام مع الوحدات السياسية المعنية حتى يتم الحديث عن حقوق الاستعمار وعن المنافع التي سيقدمها الشعب اليهودي برمته مقابل ما يُعطَى له . كما أشار إلى أن هذا سيأخذ شكل اتفاقية وإلى أن الاتفاقية سوف تصاغ على أساس الحقوق (التي ستُمنَح لليهود) وعلى أساس تعهدات قانونية معترف بها . وحينما طلب القيصر ولهلم الثاني من هرتزل أن يلخص له مطالب الصهيونية ، قال هذا "تشارتر charter" ، أي «ميثاق» أو «براءة» أو «عقد شركة» . وكان الصهاينة يشيرون إلى وعد بلفور باعتباره هذا الميثاق أو البراءة أو العقد الذي مُنح للحركة الصهيونية .

وقد كان هرتزل يهدف إلى تحديث المسألة اليهودية ، ولذا فقد

كان من اللازم أن يستخدم (فعلاً أو ضمناً) اللغة التعاقدية النفعية التي تفهمها الحضارة الغربية .

وإذا حاولنا ترجمة هذا العقد الصامت الذي يستند إلى الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة والصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المُهوَّدة إلى لغة تعاقدية بسيطة ، فإنه سيأخذ الشكل التالي : عقد بين المنظمة الصهيونية (كمتحدث غير مُنتخَب باسم يهود شرق أوربا وغربها) وبين العالم الغربي (وضمنه المعادون لليهود) ، وتفاهم ضمني بين يهود غرب أوربا ويهود اليديشية . تتعهد الحركة الصهيونية بمقتضى هذا العقد بإخلاء أوربا من يهودها (أو على الأقل الفائض البشري اليهودي) وتوطينهم في منطقة خارج هذا العالم الغربي (داخل دولة وظيفية) ، ويتحقق نتيجة ذلك ما يلي :

١ ـ الهدف الأكبر :

يُؤسِّس المستوطنون ، في موقعهم الجديد ، قاعدة للاستعمار الغربي ، وتتعهد الصهيونية بتحقيق مطالب الغرب ذات الطابع الإستراتيجي ومنها الحفاظ على تَفتُّت المنطقة العربية .

٢ ـ أهداف أخرى :

أ) يتم بذلك تخليص العالم الغربي من اليهود الزائدين ، باستيعابهم في ذلك الجيب وتحويل فيض المهاجرين من يهود اليديشية .

ب) عن طريق نَقْل اليهود ، ستقوم الحركة الصهيونية بالسيطرة على الشباب اليهودي وتسريب طاقته الثورية من خلال القنوات الصهيونية .

جـ) ستقوم الحركة الصهيونية بحشد يهود العالم وراء المشروع الصهيوني الغربي بحيث يصبحون عملاء ووكلاء للغرب أينما كانوا .

د) ستقوم الحركة الصهيونية بتجنيد يهود الغرب المعروفين بثرائهم ليدعموا هذا المشروع الغربي دون أن تطالبهم بالهجرة .

هـ) عن طريق نقل اليهود ، ستقضي الصهيونية على معاداة اليهود في الغرب .

ونظير ذلك ، سيقوم الغرب (ككل) برعاية هذا المشروع ودَعْمه ، كما أنه سيساعد الحركة الصهيونية في الهيمنة على يهود العالم الغربي (الذين يشكلون غالبية يهود العالم) .

ولم يتوجه العقد بطبيعة الحال لمشكلة السكان الأصليين وكيفية حلها ، ومع هذا يمكن القول بأن الحل مُتضمَّن في تَعهُّد الدول الغربية بضمان بقاء الدولة الوظيفية ، الأمر الذي يعني استعدادها لاستخدام الآليات المألوفة المختلفة ضد السكان الأصليين من طَرْد أو إبادة أو محاصرة .

وبرغم تناقض بنود العقد ، إلا أنه تم توقيعه (مجازاً) وأصبح قيام الصهيونية بـ "خدمة اليهود والمسيحيين" (على حد قول نوردو) ممكناً وبتوظيف المادة البشرية اليهودية في خدمة الحضارة الغربية ، ولذا "ستقام الصلوات في المعابد [اليهودية] من أجل نجاح هذا المشروع ، وستُقام الصلوات في الكنائس أيضاً" (على حد قول هرتزل) .

وقد أُضيف بعد ذلك عقد تكميلي أو تفاهم بين يهود الغرب التوطينيين ويهود شرق أوربا الاستيطانيين بحيث تَكفَّل يهود الغرب بالجانب التوطيني بدعم المُستوطَن الصهيوني مالياً والضغط من أجله سياسياً شريطة ألا تناقض مصالح المُستوطَن الصهيوني مصالح بلادهم ، وبحيث يكتسبون شيئاً من هويتهم من خلال تَوحُّدهم العاطفي مع المُستوطَن الصهيوني مع بقاء ولائهم لأوطانهم ، كما يتعيَّن على الصهاينة الاستيطانيين ألا يقوموا بشيء من شأنه إحراجهم أمام حكوماتهم أو وَضْع ولائهم لأوطانهم موضع الشك . أما الاستيطان والقتال والدفاع عن المصالح الإستراتيجية ، فيقوم به الاستيطانيون في صهيون : أرض الميعاد والقتال .

وقد لعبت الصياغة الصهيونية المراوغة دوراً أساسياً في صياغة العقد وترويجه . كما تم توقيع العقد بإصدار إنجلترا وعد أو عقد بلفور . وقد عبَّر العقد عن نفسه عبر تاريخ الصهيونية من خلال مذكرات تفاهم واتفاقيات عسكرية وإستراتيجية ودعم عسكري ومالي وسياسي فعلي .

الوعـــود البلفوريـــة

Balfour Declarations

«الوعود البلفورية» مصطلح نستخدمه للإشارة إلى مجموعة من التصريحات التي أصدرها بعض رجال السياسة في الغرب يدعون فيها اليهود لإقامة وطن قومي لهم في فلسطين ويعدون بدعمه وتأمينه نظير أن يقوم اليهود على خدمة مصالح الدولة الراعية ، أي أنها دعوة لتوقيع العقد الصامت بين الحضارة الغربية والمنظمة الصهيونية .

والوعود البلفورية تعبير عن نموذج كامن في الحضارة الغربية يضرب بجذوره فيها . وهي حضارة تنحو منحى عضوياً ، وتجعل التماسك العضوي مثلاً أعلى . ونظراً لأن التماسك العضوي هو المثل الأعلى ، فإن عدم التجانس يصبح سلبياً كريهاً . وينتج عن هذه الرؤية للكون رفض الآخر في شكل الأقليات . ومن ثم ، نجد أن الحضارة الغربية (والمسيحية الغربية) لم تتوصل إلى إطار تتعامل من

خلاله مع الأقليات ، وبالذات اليهود ، وإنما همَّشتهم (شعب شاهد) وحوسلتهم (جماعة وظيفية) . ومنذ عصر النهضة الغربية والثورة العلمانية الشاملة ، بدأت أزمة الجماعات اليهودية وظهرت الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة التي تُعَد جزءاً من فكرة العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن يهود العالم : شعب عضوي منبوذ ـ نافع ـ يُنقَل خارج أوربا إلى فلسطين ليُوظَّف لصالحها في إطار الدولة الوظيفية .

وقد صدرت معظم الوعود البلفورية في القرن التاسع عشر واستمرت حتى صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ ، الذي حسم مسألة علاقة اليهود بالحضارة الغربية . وسنقوم بمحاولة تحليل عدد من الوعود البلفورية وسنقسمها إلى ثلاثة عناصر أساسية :

١ ـ نص الوعد

٢ ـ الديباجة العلنية (أو الأسباب المعلنة) التي عادةً ما ترد في الوعد نفسه أو في مجال الدفاع عنه .

٣ ـ الدوافع الخفية (العميقة أو الحقيقية) وهي عادةً لا ترد في أيٍّ من الوعود ، وعلينا أن نبحث عنها في نصوص وحقائق تاريخية تشكِّل السياق التاريخي للوعد البلفوري موضع البحث .

ويُعتبَر نابليون بونابرت من أوائل القادة الغربيين الذين أصدروا وعداً بلفورياً وهو أيضاً أول غاز للشرق في العصر الحديث . وفيما يلي الجزء المهم من نص الوعد :

"من نابليون القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين .

أيها الإسرائيليون ، أيها الشعب الفريد ، الذين لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبهم اسمهم ووجودهم القومي وإن كانت قد سلبتهم أرض الأجداد فقط .

إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين ـ وإن لم تكن لهم مواهب المتنبئين مثل أشعياء ويوئيل ـ قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع من دمار وشيك لمملكتهم ووطنهم : أدركوا أن عتقاء الإله سيعودون لصهيون وهم يُغنّون ، وسيُولَد الابتهاج بتَملُّكهم إرثهم دون إزعاج ، فرحاً دائماً في نفوسهم (أشعياء ٣٥/ ١٠) .

انهضوا إذن بسرور أيها المبعدون . إن حرباً لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ، تخوضها أمة دفاعاً عن نفسها بعد أن اعتبر أعداؤها أرضها التي توارثوها عن الأجداد غنيمة ينبغي أن تُقسَّم بينهم حسب أهوائهم . وبجرة قلم من مجلس الوزراء تقوم للثأر وللعار الذي لحق بها وبالأمم الأخرى البعيدة . ولقد نُسي ذلك العار تحت قيد العبودية والخزي الذي أصابكم منذ ألفي عام . ولئن كان الوقت والظروف غير ملائمة للتصريح بمطالبكم أو التعبير عنها ، بل وإرغامكم على التخلي عنها ، فإن فرنسا تقدم لكم إرث إسرائيل في هذا الوقت بالذات ، وعلى عكس جميع التوقعات .

إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به ، والذي يقوده العدل ويواكبه النصر ، جعل القدس مقراً لقيادتي ، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التي لم تَعُد تُرهب مدينة داود .

يا ورثة فلسطين الشرعيين :

إن الأمة التي لا تتاجر بالرجال والأوطان ، كما فعل أولئك الذين باعوا أجدادهم لجميع الشعوب (يوئيل ٤/ ٦) ، تدعوكم لا للاستيلاء على إرثكم بل لأخذ ما تم فتحه والاحتفاظ به بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء .

انهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تُخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تَحالُفهم الأخوي شرفاً لإسبرطة وروما (مكابيون ١٢/ ١٥) ، وأن معاملة العبودية التي دامت ألفي عام لم تُفلح في إخمادها .

سارعوا ! إن هذه هي اللحظة المناسبة ـ التي قد لا تتكرر لآلاف السنين ـ للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم ، تلك الحقوق التي سُلبت منكم لآلاف السنين ، وهي وجودكم السياسي كأمة بين الأمم ، وحقكم الطبيعي في عبادة يهوه ، طبقاً لعقيدتكم ، علناً وإلى الأبد . (يوئيل ٤/ ٢٠)" .

وفيما يتعلق بوعد نابليون البلفوري ، يمكن ملاحظة ما يلي :

١ ـ جوهر الوعد هو العبارة التالية : "تقدِّم فرنسا فلسطين لليهود في هذا الوقت بالذات ، وعلى عكس جميع التوقعات . . . وهذه هي اللحظة المناسبة التي قد لا تتكرر لآلاف السنين" . "تدعوكم [فرنسا] لا للاستيلاء على إرثكم بل لأخذ ما تم فتحه والاحتفاظ به بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء" . "وجودكم السياسي كأمة بين الأمم ، وحقكم الطبيعي في عبادة يهوه طبقاً لعقيدتكم ، علناً وإلى الأبد" .

٢ ـ لا يختلف تصريح نابليون عن وعد بلفور ، فنابليون يعتبر أعضاء الجماعات اليهودية شعباً غريباً عن وطنه (وهو ما يعني إسقاط المواطنة عنه) وهو شعب مرتبط بفلسطين . وقد وجه نابليون نداءه إلى "الشعب الفريد" و"المبعدين" الذين عاشوا "تحت قيد العبودية والخزي . . . منذ ألف عام" و"ورثة فلسطين الشرعيين" (أي الشعب العضوي المنبوذ) بأن يتبعوا فرنسا التي ستقدم لهم إرث إسرائيل ، أي أرض فلسطين ، أي أنهم سيتم خروجهم من فرنسا وتوطينهم في فلسطين .

٣ـ ثم نأتي ثالثاً إلى الدوافع الخفية الحقيقية ، وليس من الصعب تخمينها ، فنابليون لم يكُن يُكن كثيراً من الحب أو الاحترام لليهود ، وهذا يظهر في تشريعاته داخل فرنسا . ولذا ، فإن إرسالهم إلى فلسطين فيه حل للمسألة اليهودية في فرنسا (والتي كانت قد بدأت في التفاقم) . ومع هذا ، كان نابليون يهدف إلى توظيف اليهود في خدمة مشاريعه وتحويلهم إلى عملاء له ، وهذا ما قاله ملك إيطاليا لهرتزل (وقد وافقه الزعيم الصهيوني على رأيه) . ولعل إشارة نابليون إلى التقاليد المكابية هو إشارة خفية للدور القتالي (المملوكي) الذي يمكن أن تلعبه الدولة اليهودية المقترحة في خدمة المصالح الغربية .

وقد صدرت أيضاً عدة وعود بلفورية ألمانية . ويمكننا هنا أن نتوقف قليلاً عند واحد من أهم إسهامات هرتزل للحركة الصهيونية وهو أنه إذا كانت الفكرة الصهيونية إمكانية كامنة في الحضارة الغربية تود أن تتحقق ، فلم يكن بإمكانها أن تخرج من عالم الوجود بالقوة إلى عالم الوجود بالفعل إلا من خلال آليات محددة أهمها تنظيم المادة البشرية (اليهودية) التي سيتم ترحيلها وتأسيس إطار تنظيمي يستطيع أن يتلقى الوعود وأن يقوم بتنفيذها . وحينما أصدر نابليون وعده البلفوري لم يكن هناك تنظيم يهودي يمكنه تلقِّي هذا الوعد والعمل على تسخير المادة البشرية لتنفيذه . وهذا ما أنجزه هرتزل بعد أن نشر كتابه **دولة اليهود** الذي وضَّح فيه ما نسميه «العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية» . فقرَّر هرتزل أن يأخذ بزمام الأمور وأن يتوجه للدول العظمى . وقد ساعده في مسعاه هذا القس (الواعظ) الصهيوني نصف المجنون هشلر إذ قدمه إلى أحد كبار المسئولين الألمان الذي تحدَّث إلى القيصر عن الموضوع . وكانت ثمرة هذه الاتصالات وعد بلفوري ورد في خطاب من دون إيلونبرج باسم حكومة القيصر إلى هرتزل (مؤرخ في سبتمبر ١٨٩٨) وجاء فيه :

"إن صاحب الجلالة على استعداد أكيد أن يناقش الأمر [توطين اليهود] مع السلطان ، وأنه سيسعده أن يستمع إلى مزيد من التفاصيل منكم في القدس .

وقد أصدر جلالته أوامره بأن تُذلِّل كل الصعاب التي تواجه استقبال وفدكم .

وأخيراً يحب جلالته أن يخبركم عن استعداده أن يأخذ على عاتقه مسئولية محمية [يهودية] في حالة تأسيسها . وجلالته ، حينما يكشف لكم عن نواياه ، فهو يعوِّل ، بطبيعة الحال ، على مقدرتكم على الكتمان . وكم يسعدني أن أنقل لكم هذه المعلومات ، وأتمنى أن تنجح في الوصول إلى القدس في الموعد المحدد . وفي الحقيقة ، فإن فشلك في هذا سيسبب لجلالته خيبة الأمل . وأترك لكم ، بما تتميزون به من لباقة ، أن تقرروا ما إذا كنتم تودون الوصول إلى إستنبول في الوقت الذي يصل فيه جلالته إليها أم لا " .

ويمكننا ملاحظة ما يلي :

١ ـ جوهر الوعد يُوجَد في العبارة : "يحب جلالته أن يخبركم عن استعداده أن يأخذ على عاتقه مسئولية محمية [يهودية] في حالة تأسيسها" وأنه "على استعداد أكيد أن يناقش الأمر [توطين اليهود] مع السلطان" .

٢ ـ وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الديباجة العلنية والنوايا المعلنة ، فإننا لن نجد لها أيَّ أثر ، فقيصر ألمانيا لم يكن تحت أية ضغوط للبحث عن مسوغات رومانسية ، بل إن العكس في حالته هو الصحيح ، إذ كان عليه أن يبرر أمام شعبه مسألة تعاطفه مع المشروع الصهيوني وتأييده له ، بل واستعداده لأن يضع الصهاينة تحت حمايته . وكما قال في خطابه المؤرخ ٢٩ سبتمبر ١٨٩٨ والمُرسَل إلى دوق بادن ، فإن تسعة أعشار شعبه سيُصدَم صدمة عميقة إذا اكتشف هذه الحقيقة . فاليهود ـ كما يقول ـ هم قتلة المسيح ، وهو يعترف بهذه الحقيقة ، ولكنه يضيف قائلاً : "إن الإله قد أنزل بهم العقاب على ما اقترفوه من آثام ، إلا أنه لم يأمر المسيحيين بأن يسيئوا معاملة هذا الشعب" .

٣ ـ وأما العنصر الثالث ، أي الدوافع الحقيقية الخفية ، فهي موجودة وبغزارة ، في خطاب القيصر المذكور ، وفي تعليقه على تقرير سفير ألمانيا في سويسرا عن المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) . فهو ، في مجال تسويغ تعاونه مع "قتلة المسيح" ، يورد الأسباب التالية لتأييد ألمانيا للمشروع الصهيوني :

أ) سينتج عن توطين شعب إسرائيل رخاء للمنطقة ، ولا سيما أن الملايين ستصب في الأكياس العثمانية ، الأمر الذي قد يؤدي إلى شفاء الرجل المريض .

ب) ستُوجَّه طاقة اليهود ومواهبهم إلى أهداف أكثر نبلاً من استغلال المسيحيين .

جـ) إفراغ ألمانيا من اليهود الذين فيها "وكلما عجلوا بالذهاب . . . ، كان ذلك أفضل . فلن أضع أية عراقيل في طريقهم" .

د) إذا بُحثت المسألة من منظور الحقائق السياسية [لا الأخلاقية] ، فإن ألمانيا ستستفيد غاية الاستفادة لأن رأس المال اليهودي العالمي ، بكل خطورته ، سينظر بعين العرفان إلى ألمانيا .

ولعل موقف القيصر من اليهود ، بما يتسم به من كره عميق لهم وترحيب شديد بالتخلص منهم واستعداد تام لتوظيفهم في خدمة

المصالح الألمانية ، لا يختلف كثيراً عن موقف نابليون من قبله أو موقف بلفور من بعده .

ورغم وعود القيصر ، ورغم حرصه على تبنّي المشروع الصهيوني ، إلا أنه لم يكن مدركاً مدى عُمْق الرفض العثماني للمشروع الصهيوني ، وهو الأمر الذي أدركه إبان زيارته لإستنبول . ولذا ، فحينما تم اللقاء في نهاية الأمر في القدس ، حيث كان من المتوقع أن يُصدر القيصر وعده البلفوري العلني الكامل ، تراجع واكتفى ببعض المجاملات الخالية من المعنى .

ومن الأمثلة الأخرى على الوعود البلفورية ، الوعد البلفوري الروسي القيصري . فقد قام هرتزل بمقابلة فون بليفيه ، وزير الداخلية الروسي المعادي لليهود ، بتفويض من المؤتمر الصهيوني الخامس (١٩٠١) ، حتى يَحصُل على تصريح يعبِّر عن نوايا الروس يتلوه في المؤتمر الصهيوني السادس المزمع عقده سنة ١٩٠٣ . وبالفعل ، صَدَر الوعد البلفوري القيصري على النحو التالي (في شكل رسالة وجهها فون بليفيه إلى تيودور هرتزل) . وهذا هو منطوق الوعد :

"ما دامت الصهيونية تحاول تأسيس دولة مستقلة في فلسطين ، وتنظيم هجرة اليهود الروس ، فمن المؤكد أن تظل الحكومة الروسية تحبذ ذلك . وتستطيع الصهيونية أن تعتمد على تأييد معنوي ومادي من روسيا إذا ساعدت الإجراءات العملية التي يفكر فيها على تخفيف عدد اليهود في روسيا" .

وقد توصَّل هرتزل أيضاً إلى اتفاق مع المسئولين الروس مفاده : أنْ تبذل الحكومة الروسية مساعيها الحميدة لدى تركيا لتسهيل دخول اليهود إلى فلسطين . وستقدم مساعدات مالية للمهاجرين تُجمَع من مصادر يهودية ، وستُسهِّل تنظيم الجمعيات الصهيونية الملتزمة ببرنامج بازل . وقد سُمح أيضاً لبنك الاستيطان اليهودي ببيع أسهمه في روسيا شريطة أن يفتح فرعاً له في البلد لكي تستطيع السلطات مراقبة عمليات البيع . كذلك قام بليفيه بتزويد هرتزل برسالة موقعة منه ، وبعد أن بحث محتوياتها مع القيصر ، أعلن فيها أن الحكومة الروسية تنظر بعين العطف إلى الصهيونية ما دام هدفها إقامة دولة مستقلة في فلسطين ، وأنها على استعداد لمساعدتها . وهذه المساعدة قد تتخذ شكل حماية الممثلين الصهاينة أمام الحكومة العثمانية ، وتسهيل نشاط جمعيات الهجرة ومساعدتها مالياً من الضرائب التي تُجبى من اليهود . وقد استغل هرتزل هذه الرسالة ، في أكثر من مناسبة ، فيما بعد .

ويُلاحَظ أنه لا توجد أية ديباجات رومانسية في هذا الوعد ، فهو مسألة تعاقدية جافة يتحدث فيها كل طرف عن الفائدة المرجوة وعلى العائد من الصفقة . ولذا ، فقد أكد فون بليفيه دون مواربة أو حياء أن الهدف هو التخلص من اليهود عامة باستثناء الأثرياء منهم ، وجاء هذا واضحاً في قوله : " . . . إن نجاح اليهود في إقامة دولة مستقلة لهم تستوعب عدة ملايين منهم لهو أمر نقبله وندعمه . . . إننا لا نريد التخلص من جميع اليهود الروس . . . إننا نريد فقط التخلص من المعدمين والمضطربين" . وحذر فون بليفيه من أن التأييد الروسي القيصري سيتم سحبه إن كان هدف الصهيونية ، غير المعلن ، هو تحقيق تركيز قومي لليهود في روسيا ، فالدعم الروسي مشروط بالتخلص من اليهود .

وقد كان ذلك مفهوماً تماماً لدى هرتزل الذي أكد في مفاوضاته مع بليفيه أن الحركة الصهيونية "ستستقطب جميع اليهود وضمنهم المتطرفون [أي العناصر الثورية التي كانت تقض مضجع الدولة الروسية القيصرية] . أما إذا انهارت آمالنا ، فإن الوضع سينقلب رأساً على عقب وستكسب الأحزاب الثورية إلى صفوفها أولئك الذين سينسحبون من الصهيونية التي أمثلها أنا وزملائي" . كما أن هرتزل فهم تماماً تحذير بليفيه . وهكذا فإننا نجده ، في المؤتمر الصهيوني السادس (١٩٠٣) ، يؤكد للمجتمعين أن الحكومة الروسية لن تسبب أية مشاكل للحركة الصهيونية ، ما دام نشاطها منحصراً ضمن النظام والقانون (أي في عملية التخلص من اليهود وتفريغ روسيا منهم) . واستطاع هرتزل بجهد وتصميم أن يحول بين المؤتمر وبين مناقشة مذابح كيشينيف ، وقد علق على الموضوع في رسالة بعث بها إلى بليفيه قال فيها : " . . . رغم المصاعب التي واجهتني في إدارة جلسات المؤتمر بجوها المشحون نتيجة الأحداث المؤلمة (مذابح كيشينيف) ، إلا أنني نجحت في المحافظة على النظام وإعادة الهدوء إلى الجلسات . . ولا شك في أن الفضل يعود في ذلك إلى رسالتكم التي تكرمت بإرسالها في ١٢ أغسطس والتي كشفت محتوياتها لأخمد بذلك كل جدال ثار حول تلك الأحداث" .

ويمكن أن ننظر إلى مشروع شرق أفريقيا باعتباره أحد أهم الوعود البلفورية وهو لا يختلف كثيراً عن الوعود البلفورية التي أشرنا إليها وإن كان أكثر جدية وأكثر تحدداً منها . كما أنه يشبه في كثير من النواحي وعد بلفور الذي صدر في نهاية الأمر . (انظر الباب المعنون «الصهيونية الإقليمية») .

وقد صدر آخر الوعود البلفورية عن ألمانيا بعد صدور وعد بلفور نفسه عن إنجلترا ، إذ استغل الصهاينة الوضع الدولي الناشيء

عن الجمود الذي ساد جبهات القتال عام ١٩١٦ واتجهوا إلى حث الحكومة الألمانية على إصدار بيان رسمي يتضمن العطف على الصهيونية في فلسطين . ولكن الحكومة الألمانية كانت لا تزال مرتبطة بتحالف مع الحكومة العثمانية . كما كانت تخشى أن يؤدي تدهور الوضع العسكري إلى أن تسارع الحكومة العثمانية بعقد صلح منفرد مع الحلفاء . وحيث إن ألمانيا لن تضحي بتحالفها من أجل الصهاينة ، فإنها ترددت كثيراً في الاستجابة للمطلب الصهيوني . ثم صدر وعد بلفور نفسه عام ١٩١٧ ، وعند هذه النقطة . وحسبما جاء في دراسة الدكتور محافظة ، "اندفع الصهاينة يلحون على حكومة برلين لتلبية مطالبهم مع تشكيل وزارة طلعت باشا في عام ١٩١٧ . وحاولت الحكومة الألمانية إرضاء الصهاينة بتَدخُّلها الحاسم لإلغاء التدابير العسكرية التي فرضها جمال باشا على اليهود في فلسطين عام ١٩١٧ . وبعد صدور تصريح بلفور ، اتجه الصهاينة إلى برلين لاستصدار تصريح مماثل . كما انتهزوا زيارة الصدر الأعظم (طلعت باشا) في مطلع يناير ١٩١٨ ، فقابله الزعيم الصهيوني ألفريد نوسيج الذي بحث معه موضوع اليهود في الدولة العثمانية (ومما يجدر ذكره أن هذا الزعيم الصهيوني أصبح عميلاً للجستابو النازي فيما بعد ، كما وضع خطة لإبادة يهود أوربا . وقد قبض عليه ثوار جيتو وارسو . وبعد محاكمة قصيرة ، نُفِّذ فيه حكم الإعدام) . وطلب نوسيج باسم الصهاينة إلغاء القيود المفروضة على هجرة اليهود إلى فلسطين . فوعدهم الصدر الأعظم بأن الباب العالي سوف يعيد تنظيم الأوضاع حالما تعود القدس وجنوب فلسطين إلى السيادة العثمانية بصورة تكفُل الرضا التام لليهود وتحقق أمانيهم كافة . وقد نُشر هذا التصريح في الصحف الألمانية في اليوم التالي للقاء .

ولا يمكن أن نسمي هذا التصريح وعداً بلفورياً بمعنى الكلمة وإن كان يقترب من ذلك . ومن الواضح أن ذلك يمثل إحدى الحيل التي كانت تستعملها الدولة العثمانية على ممثلي العالم الغربي ، وهو فن تَملَّك العثمانيون ناصيته نظراً لضعفهم العسكري . ولكن أهمية هذا التصريح لا تكمن فيه وإنما في أنه أعطى الضوء الأخضر للدولة الألمانية . وقد استمر الصهاينة في ضغوطهم حتى حصلوا على تصريح من وكيل وزارة الخارجية الألمانية في اليوم التالي لتصريح الصدر الأعظم هذا نصه :

"نحن نؤيد رغبة الأقليات اليهودية ، في البلدان التي لهم فيها ثقافة متطورة ، في أن تختط طريقها الخاص بها ، ونميل إلى دعم أمانيها . أما بالنسبة إلى أماني اليهود ، وبخاصة أماني الصهاينة منهم في فلسطين ، فإن الحكومة [الألمانية] ترحب بالتصريح الذي أدلى به مؤخراً الصدر الأعظم ، طلعت باشا ، والذي يعبِّر عن عزم الحكومة التركية ، المتفق مع نظرتها الودية نحو اليهود بوجه عام ، على تنمية استقرار يهودي مزدهر في فلسطين ، عن طريق الهجرة غير المُقيَّدة والاستيطان ضمن قدرة البلاد الاستيعابية وقيام حكم ذاتي يتفق وقوانين البلاد والتطور الحر لحضارتها" .

ويُلاحَظ أن صياغة هذا الوعد تميل نحو الإبهام الشديد ، فهو يؤكد حق اليهود المندمجين في الاستمرار في اندماجهم ، وهو يميِّز بينهم وبين الصهاينة الذين لهم أمان في فلسطين حيث سيسمح لهم "باستقرار يهودي مزدهر في فلسطين" ، وهي عبارة غامضة حاول الوعد تحديدها عن طريق عبارة "قيام حكم ذاتي" ، ثم عاد وعدَّلها من خلال إضافة عبارة "يتفق وقوانين البلاد والتطور الحر لحضارتها" . ولنلاحظ أن فكرة "قوانين البلاد" تحل محل عبارة "القانون العام" أو "القانون الدولي" التي ترد في الأدبيات الصهيونية ، خصوصاً في صياغتها الهرتزلية ، وهي عبارة تعني "حسب القانون الغربي أو الاستعماري" . فكأن الوعد هنا ينزع المشروع الصهيوني من سياقه الغربي ويضعه في سياق عثماني ، الأمر الذي يعني فقدانه كل معنى ، فالمستوطنون الصهاينة كان معروضاً عليهم دائماً أن يحصلوا على المواطنة العثمانية ويستقروا في فلسطين كعثمانيين لا كعنصر استيطاني تابع لدولة غربية . والقضية لم تكن قضية عدة آلاف يهودي لا وطن لهم ، أو مضطَّهدين في أوطانهم ويبحثون عن مأوى لهم ، وإنما هي قضية غَرْس عنصر بشري غريب يتحول إلى دولة ذات تَوجُّه غربي استعماري استيطاني رفض هذا الحل .

وبعد صدور الوعد البلفوري الألماني ، استمر الصهاينة في الضغط على الدولة العثمانية . وكلَّف الصدر الأعظم ، بعد عودته من برلين ، النائب اليهودي التركي قاراصو بتأليف لجنة يهودية عثمانية لوضع التفاصيل العملية لإنشاء شركة ذات امتياز في إستنبول تتولَّى العمل في المناطق المأهولة باليهود لإقامة حكم ذاتي فيها . وأمر طلعت باشا بدراسة الخطة التي وضعتها اللجنة ووعد بتبنيها عند بَحْث شروط الصلح بعد انتهاء الحرب . وسعى الصهاينة ، انطلاقاً من هذا الوعد ، إلى الحصول على مزيد من التنازلات من الجانب العثماني ، وإصدار تصريح عثماني مماثل لتصريح بلفور . وقد تمكنوا من الحصول على هذا التصريح في ١٤ تموز ١٩١٨ ، وتشكلت لجنة عثمانية لوضع ما جاء فيه موضع التنفيذ .

ويمكننا ملاحظة اختفاء الديباجات العلنية المزخرفة أو الإشارة إلى الدوافع الحقيقية ، فلا توجد أية إشارة للشعب اليهودي أو أمانيه

القومية أو ارتباطه الأزلي بالأرض ، وإنما هي إشارة روتينية إلى "أماني الصهاينة" وحديث عن استقرار يهودي مزدهر . ومقابل هذا ، لا توجد أية إشارة لكره اليهود أو الرغبة في استخدامهم أو تأسيس حامية عسكرية يقطنون فيها كمادة قتالية . ولا شك في أن وجود العثمانيين كطرف هو الذي أفضى إلى هذا الوضع . فهم لم يتحمسوا قط للمشروع الصهيوني ، بل كانوا يرونه جزءاً من المحاولة الغربية لتفتيت حكمهم ودولتهم . ومع هذا ، فقد اضطروا كارهين للدخول في حوار مع الصهاينة وتقديم بعض التنازلات بسبب تدهور الوضع العسكري العام على الجبهات كافة وفقدان معظم فلسطين ، واعتقاد الدولة العثمانية أن تحقيق بعض المطالب الصهيونية قد يُحسِّن وضعها في مؤتمر الصلح الذي كان مقبلاً .

ويمكننا أن نقول إن وعد بلفور هو أهم حدث في تاريخ الصهيونية وتاريخ الجماعات اليهودية في العالم ، كما أن أهميته بالنسبة لفلسطين والفلسطينيين لا تخفى على أحد .

وعد بلفور

Balfour Declaration

«وعد بلفور» هو التصريح الشهير الذي أصدرته الحكومة البريطانية عام ١٩١٧ تعلن فيه عن تعاطفها مع الأماني اليهودية في إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، وحين صدر الوعد كان عدد أعضاء الجماعة اليهودية في فلسطين لا يزيد عن ٥٪ من مجموع عدد السكان . وقد أخذ الوعد شكل رسالة بعث بها لورد بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧ إلى اللورد إدموند دي روتشيلد أحد زعماء الحركة الصهيونية آنذاك . وفيما يلي النص الكامل للرسالة :

"عزيزي اللورد روتشيلد :

يسعدني كثيراً أن أنهي إليكم ، نيابةً عن حكومة جلالة الملك ، التصريح التالي تعاطفاً مع أماني اليهود الصهاينة التي قدموها ووافق عليها مجلس الوزراء . إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وسوف تبذل ما في وسعها لتيسير تحقيق هذا الهدف . وليكن مفهوماً بجلاء أنه لن يتم شيء من شأنه الإخلال بالحقوق المدنية للجماعات غير اليهودية المقيمة في فلسطين أو بالحقوق أو الأوضاع القانونية التي يتمتع بها اليهود في أية دولة أخرى .

وسوف أكون مديناً بالعرفان لو قمتم بإبلاغ هذا التصريح إلى الاتحاد الصهيوني .

(إمضاء)

وفيما يتصل بهذا النص ، نلاحظ ما يلي :

١ ـ صيغة الوعد واضحة تماماً هنا إذ تُوجَد هيئة حكومية (حكومة جلالة الملك) تؤكد أنها تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي سيضم "الشعب اليهودي" ، أي أنه تم الاعتراف باليهود لا كلاجئين أو مضطهدين مساكين ، كما أن الهدف من الوعد ليس هدفاً خيرياً ولكنه هدف سياسي (استعماري) . كما أن هذه الحكومة التي أصدرت الوعد لن تكتفي بالأمنيات وإنما سوف تبذل ما في وسعها لتيسير تحقيق هذا الهدف . هذا هو الجوهر الواضح للوعد .

٢ ـ ثم تبدأ بعد ذلك الديباجات التي تهدف إلى التغطية ، فالوعد لن يضر بمصالح الجماعات غير اليهودية المقيمة في فلسطين ولا بمصالح الجماعات اليهودية التي لا تود المساهمة في المشروع الصهيوني ، بل تود الاستمرار في التمتع بما حققته من اندماج وحراك اجتماعي . وسنلاحظ أن الديباجات تتسم بكثير من الغموض إذ أن الوعد لم يتحدث عن كيفية ضمان هذه الحقوق .

ثم نأتي الآن للأسباب التي يوردها بعض المؤرخين (الصهاينة أو المتعاطفون مع الصهيونية) لتفسير إصدار إنجلترا لوعد بلفور . فهناك نظرية مفادها أن بلفور قد صدر في موقفه هذا عن إحساس عميق بالشفقة تجاه اليهود بسبب ما عانوه من اضطهاد وبأن الوقت قد حان لأن تقوم الحضارة المسيحية بعمل شيء لليهود ، ولذلك ، فإنه كان يرى أن إنشاء دولة صهيونية هو أحد أعمال التعويض التاريخية . ولكن من الثابت تاريخياً أن بلفور كان معادياً لليهود ، وأنه حينما تولى رئاسة الوزارة الإنجليزية بين عامي ١٩٠٣ و١٩٠٥ هاجم اليهود المهاجرين إلى إنجلترا لرفضهم الاندماج مع السكان واستصدر تشريعات تحد من الهجرة اليهودية لخشيته من الشر الأكيد الذي قد يلحق ببلاده .

وقد كان لويد جورج رئيس الوزراء لا يقل كرهاً لأعضاء الجماعات اليهوديةعن بلفور ، تماماً مثل تشامبرلين قبلهما ، والذي كان وراء الوعد البلفوري الخاص بشرق أفريقيا . وينطبق الوضع نفسه على الشخصيات الأساسية الأخرى وراء الوعد مثل جورج ملنر وإيان سمطس ، وكلها شخصيات لعبت دوراً أساسياً في التشكيل الاستعماري الغربي .

ويرى بعض المؤرخين أن إنجلترا أصدرت الوعد تعبيراً عن اعترافها بالجميل لوايزمان لاختراعه مادة الأسيتون المحرقة أثناء الحرب العالمية الأولى ، وهو تفسير تافه لأقصى حد لا يستحق الذكر إلا لأنه ورد في بعض الدراسات الصهيونية والدراسات العربية المتأثرة بها . ويبدو أن وايزمان نفسه قد تقبَّل هذا التفسير بعض

الوقت . ولذا ، حينما توترت العلاقات بين إنجلترا والمستوطنين الصهاينة في الأربعينيات ، وضع وايزمان مواهبه العلمية تحت تصرف الإمبراطورية ، متصوراً أن بإمكانه ممارسة بعض التأثير عليها . وبطبيعة الحال ، لم يُوفَّق وايزمان في مساعيه . وفيما يتصل بجهوده الدبلوماسية نفسها أثناء الحرب ، يمكن القول بأنه كان شخصية محدودة الذكاء ، فلم يدرك الأبعاد الإمبريالية للمشروع الصهيوني أو لوحشية المشروع الإمبريالي ، وغير مدرك حتى لدقائق السياسة البريطانية (وهذا هو وصف موظفي الخارجية البريطانية له في تقاريرهم السرية التي تم الكشف عنها مؤخراً) . وحينما اندلعت الحرب العالمية الأولى ، كان وايزمان قد وصل لتوه إلى سويسرا في إجازة صيفية . ثم اضطر إلى العودة إلى بريطانيا ، فطلب منه لويد جورج أن يقابل هربرت صمويل ، فعبَّر عن خوفه من أن يكون صمويل مثل سائر يهود إنجلترا معادياً للصهيونية ، ولكنه فوجئ بأن صمويل هذا صهيوني هو الآخر . وحينما تقدَّم بطلباته الصهيونية ، أخبره صمويل بأن طلباته هذه متواضعة أكثر من اللازم وأن عليه أن يفكر على مستوى أكبر من ذلك (ويبدو أن هرتزل لم يشف التسلليين تماماً من ضيق الأفق والفشل في إدراك عالمية الظاهرة الإمبريالية ووحشيتها) . ثم أخبره صمويل بأن أعضاء الوزارة يفكرون في أهداف صهيونية ، ودوَّن وايزمان بعد ذلك العبارة التالية : "لو كنت يهودياً متديناً لظننت أن عودة الماشيَّح قد دنت" . ومع هذا ، وكما سنبيِّن فيما بعد ، أظهر وايزمان شيئاً من الذكاء باكتشافه بريطانيا (لا ألمانيا) باعتبارها القوة الإمبريالية الصاعدة التي يمكنها أن ترعى المشروع الصهيوني . ولعل الأمر لا يدل على ذكاء بقدر ما ينبع من وجوده في إنجلترا بالفعل وتَحرُّكه داخل إطار المصالح البريطانية . ولعله لو وُجد في فرنسا لما أدرك شيئاً .

وهناك نظرية تذهب إلى أن الضغط الصهيوني (واليهودي) العام هو الذي أدَّى إلى صدور وعد بلفور ، ولكن من المعروف أن أعضاء الجماعات اليهودية لم يكونوا كتلة بشرية ضخمة في بلاد غرب أوربا ، وهم لم يكونوا من الشعوب المهمة التي كان على القوى العظمى أن تساعدها أو تعاديها ، بل كان من الممكن تجاهلهم . ويمكن القول بأن أعضاء الجماعات اليهودية كانوا مصدر ضيق وحسب ، ولم يكونوا قط مصدر تهديد . أما الصهاينة فلم تكُن لهم أية قوة عسكرية أو سياسية أو حتى مالية (فأثرياء اليهود كانوا ضد الحركة الصهيونية) . ولكل هذا ، لم يكن مفر من أن تكون المطالب الصهيونية على هيئة طلب لخدمة مصالح إحدى الدول العظمى الإمبريالية .

ولعل أكبر دليل على أن الضغط الصهيوني أو اليهودي لا يشكل عنصراً فعالاً في عملية استصدار وعد بلفور وأنه عنصر ثانوي على أحسن تقدير ، هو نجاح الصهاينة في إنجلترا وفشلهم في ألمانيا . فقد بذل صهاينة ألمانيا جهوداً محمومة لاستصدار وعد بلفوري ، وكانت توجد عندهم مقومات النجاح ، ولكن كل هذا لم يُجد فتيلا :

١ ـ بذل صهاينة ألمانيا قصارى جهدهم ليبينوا للحكومة الألمانية مدى نفع اليهود للمشروع الاستعماري الألماني ، وقد كان هناك كثير من المفكرين الألمان غير اليهود يشاركون في هذه الرؤية .

٢ ـ كان عدد كبير من الزعماء الصهاينة يقف وراء ألمانيا ، وكانت برلين لوقت طويل المقر الرئيسي للمنظمة .

٣ ـ كانت ألمانيا حليفة لتركيا التي كانت فلسطين تابعة لها .

٤ ـ كانت لغة المؤتمرات الصهيونية هي الألمانية ، كما كانت ثقافة مؤسسي الحركة الصهيونية ألمانية .

٥ ـ كانت الجماعة اليهودية في ألمانيا مُشرَّبة بالثقافة الألمانية ، وكان كثير من أعضاء النخبة الثقافية الألمانية من اليهود ، وقد يسَّر هذا على اليهود الحركة داخل المجتمع الألماني .

٦ ـ كانت الجماعة اليهودية في ألمانيا ذات ثقل مالي وثقافي وسياسي كبير إذ كانت أهم البنوك الألمانية في أيد يهودية .

٧ ـ اشترك أعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا في القوات الألمانية أثناء الحرب بأعداد تفوق نسبتهم القومية .

٨ ـ كانت القوات الألمانية في الحرب العالمية الأولى تقوم بما سمته «تحرير» بولندا وليتوانيا وغرب روسيا (مراكز الكثافة البشرية اليهودية) واعتبرت اليهود عنصراً بشرياً ألمانياً تابعاً لألمانيا . وقد أسَّس الزعيم الصهيوني ماكس بودنهايمر لجنة لتحرير يهود روسيا عام ١٩١٤ . وكان بين أعضائها ليو موتزكين . وقد تم إصدار نشرة بالعبرية كتب ناحوم سوكولوف افتتاحيتها . وكان أمل الصهاينة أن تستولي القوات الألمانية على غرب روسيا حيث كان يوجد معظم اليهود . ومعنى هذا أنه كان ثمة تلاق بين الآمال الصهيونية والآمال التوسعية الألمانية .

٩ ـ كانت أرستقراطية اليهود في أمريكا (كبار المموِّلين) من أصل ألماني ، وقد كانت هذه الأرستقراطية متعاطفة تماماً مع ألمانيا ومؤيدة لها .

ويمكن أن نقارن هذا الوضع بوضع الجماعة اليهودية في إنجلترا ، التي كانت صغيرة العدد ومندمجة ومعادية للصهيونية ، وكانت الحركة الصهيونية فيها ضعيفة للغاية . ومع هذا ، فشل

صهاينة ألمانيا في استصدار وعد بلفوري من ألمانيا . وحينما نجحوا ، كان ذلك في مرحلة متأخرة من الحرب وكان وعداً باهتاً للغاية ، بينما نجح صهاينة إنجلترا فيما فشل فيه صهاينة ألمانيا .

وفي الواقع ، يمكننا تفسير الفشل الصهيوني في ألمانيا والنجاح الصهيوني في إنجلترا ، لا بالقوة والضعف الذاتيين الصهيونيين ، ولا بحجم الضغوط الصهيونية مهما كانت ضخمة ومهمة وحيوية ، ولكن بالعودة إلى المصالح الإستراتيجية الغربية . ويبدو أن ألمانيا ، بسبب علاقتها الحميمة مع تركيا ، لم يكن بإمكانها أن تُصدر مثل هذا الوعد (تماماً كما كان الوضع مع إنجلترا عام ١٩٠٤ حينما أصدرت وعد شرق أفريقيا البلفوري ولم تذكر فلسطين من قريب أو بعيد لأن علاقتها مع الدولة العثمانية لم تكن تسمح بذلك) . ومن المعروف أن وايزمان ، كي ينجح في الحصول على وعد بلفور ، قطع علاقته مع اللجنة التنفيذية الصهيونية في برلين ورفض التراسل مع زملائه في دول الوفاق Entente ورفض موقف الحياد الرسمي الذي اتخذته المنظمة . كما أنه لم يخبر المقر الرئيسي للمنظمة في كوبنهاجن بمباحثاته مع إنجلترا . ويُقال إن انقسام الحركة الصهيونية لم يُعق جهوده بل ساعدها . والواقع أن نجاحه في إنجلترا ، تماماً مثل الفشل الصهيوني في ألمانيا ، يمكن تفسيره بإستراتيجية الإمبراطورية الإنجليزية التي قررت تقسيم الدولة العثمانية واحتلال الشرق العربي . ولعل ذكاء وايزمان يكمُن في اكتشافه ذيلية الصهيونية وحتمية الاعتماد على الإمبريالية وصعود القوة البريطانية فتبعها بكل قوته وقطع كل علاقاته مع المنظمة الصهيونية ذات الجذور الألمانية والتوجه الألماني .

ويمكننا الآن تناول الديباجات والأسباب الحقيقية لصدور الوعد :

كان وعد بلفور إمكانية كامنة في الحضارة الغربية تريد أن تتحقق لتوجد بالفعل ، ولذا يجب ألا ننظر لوعد بلفور بمعزل عن الوعود البلفورية السابقة عليه أو اللاحقة له أو عن المعاهدات الاستعمارية الدولية التي أُبرمت أثناء الحرب العالمية الأولى وكانت تهدف إلى حل المسألة الشرقية عن طريق تقسيم تركيا ، وأهم هذه المعاهدات اتفاقية سايكس ـ بيكو واتفاقية ماكماهون ـ حسين . كما لا يجب النظر إلى الوعد بعيداً عن البراءات التي كانت تُعطَى للشركات الاستيطانية في آسيا وأفريقيا ، ولا عن تقسيم العالم من قبَل القوى الإمبريالية الغربية وإعادة تقسيمه عام ١٩١٧ ، ولا عن الرؤية المعرفية الإمبريالية ، ولا عن الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة التي كانت كامنة في الحضارة الغربية .

ولذا ، قد يكون من المفيد أن نحاول فَهْم وعد بلفور في هذا الإطار باعتباره براءة لاستعمار فلسطين ، الأمر الذي يتطلب منا أن نزيح الديباجات العلنية لنصل إلى لُب الموضوع ، أي المصالح الإستراتيجية الغربية كما تخيَّلها أو توهَّمها أصحابها وكما قاموا بتحديدها ، ويمكن أن نتحدث عن بعض الفوائد الجانبية التي سيجنيها أصحاب الوعد من إصداره ومن تأسيس الوطن القومي اليهودي :

١ ـ يتحدث العقد الصامت بين الحضارة الغربية والمنظمة الصهيونية عن تحويل يهود شرق أوربا عن غربها ، حفاظاً على الأمن القومي بالداخل . ولابد أن الحكومة البريطانية كانت تأخذ هذا في اعتبارها ، وخصوصاً أنه قد سبق لها إصدار وعد شرق أفريقيا البلفوري لهذا السبب .

٢ ـ يتحدث العقد الصامت عن تسريب الطاقة الثورية من شباب اليهود من خلال المشروع الصهيوني . وهذه مسألة لم تكن بعيدة عن أذهان أصحاب وعد بلفور . وقد نُشر خبر إصدار الوعد في الصحف في ٨ نوفمبر ١٩١٧ ، وهو العدد نفسه الذي نُشرت فيه أنباء اندلاع الثورة البلشفية ، وقامت طائرات الحلفاء بإلقاء ألوف النسخ من وعد بلفور وأنباء صدوره على يهود روسيا القيصرية وبولندا وألمانيا والنمسا .

٣ ـ كان ثمة اعتقاد غالب بأن الإعلان سيكون ذا قيمة دعائية على الصعيد الدبلوماسي ، ذلك أن وعد بلفور سيَلقى صدى لدى اليهود الروس بحيث يمكن أن يصبحوا بشكل من الأشكال أداة ضغط على الحكومة الروسية المؤقتة حتى لا تتراجع عن رغبتها في متابعة الحرب مع ألمانيا .

٤ ـ كان من المتوقع أن يؤدي الوعد إلى عائد مماثل بين يهود أمريكا الذين كانوا قد أصابهم شيء من خيبة الأمل بسبب تحالف الحلفاء الوثيق مع حكومة روسيا القيصرية التي كانت مكروهة عند أعضاء الجماعات اليهودية ، فكان من المؤمل أن يشجع الوعد أصحاب الأموال من أعضاء الجماعات اليهودية على المساهمة في الجهود الحربية للحلفاء وعلى عدم الارتماء في أحضان الألمان ، وخصوصاً أن أرستقراطية يهود الولايات المتحدة كانت من أصل ألماني . ولكن مسار الأحداث أثبت أن ثمة خطأً فاحشاً في التقدير ، فلم يكن يهود روسيا أو الولايات المتحدة مهمين إلى هذا الحد . وكانت المنظمة الصهيونية منقسمة على نفسها ، كما أن عدد الصهاينة من اليهود كان لا يزال صغيراً للغاية . وقد أوقفت الحكومة الروسية كل عملياتها العسكرية في أكتوبر ١٩١٧ حتى قبل وعد بلفور ، ثم استولى

البلاشفة على الحكم وأنهوا النفوذ الصهيوني فيها . وعلى أية حال ، كان يهود روسيا منقسمين ولم يكن بوسعهم أن يحملوا روسيا على الاستمرار في الحرب . أما في أمريكا ، فلم يلعب أعضاء الجماعات اليهودية دوراً في الحرب وتم توفير الدعم الأمريكي المطلوب من خلال الحكومة دون أي التفات إلى الصهيونية أو الصهاينة .

ولكن كل هذه فوائد جانبية للحضارة الغربية . أما الفائدة الكبرى ، فهي تأسيس دولة وظيفية في فلسطين تُوظَّف في إطارها المادة البشرية اليهودية في خدمة الاستعمار الغربي . فالدافع الحقيقي لوعد بلفور هو رغبة الإمبراطورية البريطانية في زرع دولة استيطانية في وسط العالم العربي في بقعة مهمة جغرافياً لحماية مصالحها الاستعمارية ، وخصوصاً في قناة السويس ولحماية الطريق إلى الهند .

وكان وايزمان يعرف ، رغم بطء إدراكه ، أن كل هؤلاء الإنجليز الذين لا يهمهم اليهود ولا اليهودية تُحرِّكهم دوافع المصالح الإمبريالية ، وأن مهمته تتلخص في تقديم المادة البشرية حتى يمكنهم توظيفها . ولذا ، فقد صرح قائلاً : إن وافقت إنجلترا على منحنا فلسطين ، فإننا سنحصل على وطن وستحصل هي على سند فعال . وقد قال وايزمان إنه لم يحلم قط بوعد بلفور ، وإنه جاء بكل صراحة بشكلٍ مفاجئ . إذ كان قد أعد نفسه لأن يبدأ نشاطه بعد انتهاء الحرب ، ولكن الإمبراطورية الإنجليزية كانت قد قررت أن تُوظِّف اليهود لمصلحتها . ومن ثم ، لم يكن هناك مفر من إدخالهم في الصورة . ولذا ، وعلى عكس المُتصوَّر ، لم يبادر الصهاينة بالمفاوضات مع الحكومة الإنجليزية وإنما نجد أن الحكومة البريطانية هي التي بادرت بالاتصال بهم . وقد تَقدَّم الصهاينة بمطالبهم ، ولكن رئيس الوزراء إسكويث كان ملتزماً بسياسة إحلال العرب محل الأتراك . ولكن قبل استقالة إسكويث ، كانت الحكومة البريطانية قد درست مستقبل فلسطين وتوصلت إلى مخطط بشأن هذا المستقبل . وهناك لحسن الحظ المذكرة التي تقدَّم بها السير هربرت صموئيل في مارس ١٩١٥ للحكومة البريطانية ووضَّح فيها الاحتمالات الخمسة لمستقبل فلسطين بعد انهيار الدولة العثمانية . وما يهمنا هنا الاحتمالان الرابع والخامس في هذه المذكرة . لقد كان الاحتمال الرابع هو "الإقامة المبكرة لدولة يهودية وإنشاء محمية بريطانية" . لكن هذا الاحتمال تم رفضه لأن اليهود كانوا لا يشكلون آنذاك سوى أقلية صغيرة لا تُذكَر "الأمر الذي سيؤدي إلى تلاشي حلم الدولة الصهيونية" . وتضيف المذكرة أن زعماء الحركة الصهيونية "كانوا على إدراك تام لهذه الاعتبارات" .

وأما الاحتمال الخامس فهو الاحتمال الأوحد القابل للتحقيق حسبما جاء في المذكرة ، وهو يشكل في رأينا الدوافع الحقيقية والعامة لإصدار وعد بلفور :

١ ـ يشكل إنشاء المحمية ضماناً لسلامة مصر [أي سلامة المصالح الإمبراطورية البريطانية التي كانت مصر تشكل إحدى ركائزها الأساسية آنذاك] .

٢ ـ سوف يُقابَل إعلان الحماية البريطانية بالترحيب من السكان الحاليين [وسيتم بالتالي تحاشي الصدام مع اليهود] .

٣ ـ ستُعطَى المنظمات اليهودية تحت ظل الحكم البريطاني تسهيلات لابتياع الأراضي وإنشاء المستعمرات وإقامة المؤسسات التربوية والدينية ، والتعاون في إنماء البلاد اقتصادياً ، وستنال مسألة الهجرة اليهودية مركز الأفضلية بحيث يتحول السكان اليهود إلى أكثرية مستوطنة في البلاد [أي توطيد دعائم الاستيطان الصهيوني] .

٤ ـ ستؤدي هذه الخطوة إلى شعور يهود العالم بالامتنان تجاه بريطانيا وسوف يؤلف اليهود كتلة متحيزة للإمبراطورية البريطانية [توظيف اليهود في الداخل والخارج لخدمة المصالح الإمبريالية البريطانية] .

٥ ـ يشير صموئيل في المذكرة (وفي أماكن أخرى) إلى أنه ، بعد أن يستقل اليهود في دولة خاصة بهم ، سوف تشكل هذه الدولة جزءاً من الحضارة الغربية وتدافع عن مصالحها .

وإذا كان هذا هو الإطار العام ، فإن التحرك من خلاله كان يتطلب استقالة إسكويث عام ١٩١٦ ، وقد حل محله لويد جورج كرئيس للوزراء وبلفور وزيراً للخارجية . وهنا ظهر السير مارك سايكس (١٨٧٩ ـ ١٩١٩) المهندس الحقيقي لوعد بلفور الذي عُيِّن مستشاراً لوزارة الخارجية البريطانية لشئون الشرق الأوسط . ويكاد يكون هناك ما يشبه الإجماع بين المؤرخين على أن الإمبراطورية البريطانية كانت شديدة الاهتمام بفلسطين ، وقد أبرمت معاهدة سايكس ـ بيكو لتحديد طريقة تقسيم الدولة العثمانية . ولم يشترك الصهاينة في المفاوضات المؤدية ، ولم يُدعَوا إليها ، ولم يعرفوا بها حتى بعد توقيعها ، أي أن مصير فلسطين تقرَّر دون مشاركتهم .

وكان سايكس يقبل مبدأ تقسيم الدولة العثمانية ، ولكنه كان معارضاً لذلك القسم الخاص بتدويل فلسطين . لأن هذا كان "ينفي السيطرة البريطانية عليها" بل كان يعني قيام سيطرة فرنسية ، الأمر الذي كان يعني زيادة حجم نفوذ الفرنسيين بشكل لا يتفق مع الواقع ، كما قد يؤدي إلى نسف الموقف الإستراتيجي لبريطانيا في الشرق الأوسط برمته . وكان لويد جورج مقتنعاً بحاجة بريطانيا إلى فلسطين للدفاع عن مشارف قناة السويس ، ومن هنا برزت أهمية

المشروع الصهيوني كوسيلة للانسحاب بلباقة من اتفاقية سايكس ـ بيكو . فهذا المشروع يعني ببساطة تحويل فلسطين إلى وطن قومي يهودي تحت الرعاية البريطانية ، وهذه الرعاية تعني في الواقع احتلال بريطانيا لفلسطين ، ومن ثم قررت بريطانيا توظيف اليهود حتى تتخلص من البنود الخاصة بفلسطين في اتفاقية سايكس بيكو . ومنذ أن اتصل الصهاينة بهربرت صموئيل ، اكتشفهم سايكس الذي أراد أن يستخدمهم في محاولة تعديل الاتفاقية وظلوا هم الجانب المتلقي لما تشاؤه الإرادة الإمبريالية البريطانية . وبعد أن تقرَّر توظيفهم ، دُعي الصهاينة لأول مرة للاجتماع مع ممثلي الحكومة في فبراير ١٩١٧ . وتتالت الأحداث ، فقام سايكس بكتابة أولى مسودات الوعد ، وتمت الموافقة عليها . وحينما تمت صياغة الوعد (كما لاحظ آحاد هعام) تمت صياغته بدون الالتفات إلى مقترحات الصهاينة أو مقترحات أعداء الصهيونية .

وقد تأخر صدور الوعد بعض الوقت بسبب معارضة يهود إنجلترا المعادين للصهيونية ، إذ قاد لوسيان وولف وسير إدوين مونتاجو حملة ضد الوعد وإصداره لأنه يُسقط حق المواطنة عن اليهود ويجعلهم مواطنين في دولة أخرى . واستجابةً لهذه الضغوط ، أُسقطت عبارة "الجنس اليهودي" وحل محلها عبارة "الشعب اليهودي" كما أضيفت عبارة أن الوعد لن يؤدي إلى الإخلال بالحقوق والأوضاع القانونية التي يتمتع بها اليهود في أية دولة أخرى .

ولكن الحكومة الإنجليزية لم تعامل أعداء الصهيونية برفق شديد إذ أن بلفور أخبر وولف وأصدقاءه أن يوقفوا الهجوم على الصهيونية ، فالمشروع الصهيوني يشكل جزءاً من المشروع الاستعماري الغربي وعليهم أن يعوا ذلك .

ووعد بلفور صيغة جديدة من البراءات الاستعمارية التي كانت تُمنَح للمستوطنين الغربيين في آسيا وأفريقيا . وحينما أُصدر وعد بلفور ، سماه الصهاينة «الميثاق أو البراءة» . وقد كانوا ، في ذلك ، أكثر دقة من كثير من العرب ومؤرخي الصهيونية ، فوعد بلفور كان الميثاق الذي يشبه البراءة التي مُنحت لرودس (وإن كان وعد بلفور أكثر التزاماً بمساعدة اليهود من البراءة التي مُنحت لرودس) . وقد مُنحت براءة بلفور لليهود بعد تقسيم تركيا بطريقة لا تختلف كثيراً عن البراءات التي أُعطيَت لبعض الشركات الغربية في أعقاب تقسيم أفريقيا في مؤتمر برلين . وقد أصدرت بريطانيا البراءة بعد التفاوض مع الحلفاء ، ووافقت عليه مسبقاً كلٌّ من فرنسا وإيطاليا ، ثم أيَّدته الولايات المتحدة ، فهو ليس وعداً إنجليزياً وإنما هو وعد غربي ، كما أن المستعمرة اليهودية التي ستُؤسَّس لن تكون تابعة لإنجلترا وحسب وإنما ستخدم المصالح الإمبريالية الغربية كافة . ولذا ، فإن ثمة مسافة بين الصهاينة والحكومة البريطانية رغم التزام إنجلترا بدعم المُستوطَن الصهيوني ، إلا أنه كان من المتوقع أن يقع عبء العمل الاستيطاني نفسه على عاتق الصهاينة أنفسهم (تماماً كما هو الحال مع شركات الاستيطان) .

ويُلاحَظ أن براءة بلفور الاستيطانية ، مثل البراءات الأخرى ، صدرت دون استشارة السكان الأصليين ودون أخذ مصيرهم في الاعتبار .

عقـــد بلفـــور

Balfour Contract

«عقد بلفور» مصطلح قمنا بسكه للإشارة إلى وعد بلفور . فوعد بلفور هو بمنزلة «عقد» علني واضح وقَّع بين الحضارة الغربية والمنظمة الصهيونية العالمية باعتبارها ممثلة للجماعات اليهودية في العالم لوضع العقد الصامت والصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة موضع التنفيذ .

جيمس بلفور (١٨٤٨-١٩٣٠)

James Balfour

صهيوني غربي بريطاني يستخدم الديباجات المسيحية تارة ، والعلمانية (العرْقية والإمبريالية) تارة أخرى ، ويمزج بينها جميعاً تارة ثالثة . ويُنسَب إليه التصريح الذي أصدرته الحكومة البريطانية عام ١٩١٧ ويُسمَّى «وعد بلفور» .

تلقَّى بلفور تعليماً دينياً من أمه في طفولته ، وتشبَّع بتعاليم العهد القديم ، خصوصاً في تفسيراتها الحرفية البروتستانتية . ورؤية بلفور لليهود متأثرة بالرؤية الألفية الاسترجاعية التي تراهم باعتبارهم شعباً مختاراً ومجرد وسيلة للتعجيل بالخلاص ، وهي الرؤية التي تمت علمنتها فتحوَّل اليهود إلى الشعب العضوي (المختار) المنبوذ .

ويتجلى هذا المزيج من الكره والإعجاب من جانب بلفور في تلك المقدمة التي كتبها لمؤلَّف سولوكوف **تاريخ الصهيونية** حيث يبدي معارضته لفكرة المُستوطَن البوذي أو المُستوطَن المسيحي . فالمسيحية والبوذية في رأيه هما مجرد أديان ، ولكنه يَقْبل فكرة المُستوطَن اليهودي لأن "العرْق والدين والوطن" أمور مترابطة بالنسبة إلى اليهود كما أن ولاءهم لدينهم وعرْقهم أعمق بكثير من ولائهم للدولة التي يعيشون فيها . إن هذا الشعب العضوي يتميَّز

أعضاؤه بالنشاط والحركية ، ولذا فقد حققوا نجاحاً باهراً في المجتمع .

ولكن هذا الشعب العضوي المختار هو أيضاً "جماعة أجنبية معادية" تؤمن بدين هو محل كره مُتوارَث من المحيطين بها ، أدَّى وجودها في الحضارة الغربية إلى "بؤس وشقاء استمرا دهراً من الزمان" . ولأن تلك الحضارة لا تستطيع طَرْد أو استيعاب هذه الجماعة ، فهم يتسببون في كوارث تحيق بإنجلترا (كما فعل يهود اليديشية المهاجرون إليها) . وقد أعلن بلفور أن ولاء اليهود للدولة التي يعيشون فيها "ضعيف إذا ما قُورن بولائهم لدينهم وعرْقهم ، وذلك نتيجة طريقتهم في الحياة ونتيجة عزلتهم ، فهم لا يتزاوجون إلا من بني جنسهم" . وهذا اتهام لليهود بأنهم جماعة لا تندمج كما أنها تعاني من ازدواج الولاء بل من انعدامه أحياناً ، وهو اتهام يوجهه دائماً الصهاينة ومعادو اليهود لما يسمونه «الشخصية اليهودية» .

وقد اعترف بلفور نفسه لوايزمان بأنه وجد نفسه متفقاً مع افتراضات كوزيما فاجنر (ابنة الموسيقار) عن اليهود ومتقبلاً لها ، وهي افتراضات معادية لليهود بشكل متطرف . لكل هذا ، خلص بلفور إلى أنه ليس من مصلحة أي بلد أن يكون فيه يهود مهما بلغت وطنيتهم وانغماسهم في الحياة القومية . وانطلاقاً من كل هذا ، فقد تبنَّى قانون الغرباء الذي صدر بين عامي ١٩٠٣ و١٩٠٥ والذي كان يهدف إلى وضع حدٍّ لدخول يهود اليديشية إلى إنجلترا . وقد أدَّى موقفه هذا إلى الهجوم عليه من قِبَل المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) ، حيث وُصفت تصريحاته بأنها "معاداة صريحة للشعب اليهودي بأسره" ، كما هاجمته الصحافة البريطانية .

وقد يبدو الأمر لأول وهلة وكأنه نوع من التناقض الواضح الذي يقترب من الشيزوفرانيا ، ولكن أفكار بلفور الاسترجاعية (علمانية كانت أم دينية) تعبِّر عن رغبة في التخلص من اليهود وفي حوسلتهم لخدمة الحضارة الغربية . والواقع أن مفهوم الحوسلة هو الذي يفسر تأرجحه بين الحب والكره ، فالحب هو حب لشعب عضوي مختار متماسك ، ومن ثم فإنه لا ينتمي إلى مسار التاريخ الإنساني العادي ولا يمكن استيعابه في الحضارة الغربية ، والكره هو أيضاً كره لشعب عضوي مختار متماسك يرفض الاندماج أو الانتماء لمسار التاريخ الإنساني العادي أو الحضارة الغربية . والنتيجة واحدة ، حباً أو كرهاً ، وهي نقل اليهود خارج أوربا وتوظيفهم في خدمة الحضارة الغربية . فالشعب العضوي المنبوذ لا يمكن أن يحل مشكلته داخل التشكيل الحضاري الغربي عن طريق الاندماج في المجتمعات الغربية ، وإنما يمكنه حلها من داخل التشكيل الاستعماري الغربي عن طريق التحول إلى مادة استيطانية نافعة بيضاء تُوطَّن خارج أوربا (في أية بقعة في آسيا أو أفريقيا) . وبالفعل ، تعمَّق اهتمام بلفور بالمسألة اليهودية حين حضر هرتزل وتفاوض مع وزير المستعمرات جوزيف تشامبرلين ووزير الخارجية لانسدون ، حيث أجرى معهما مفاوضات بشأن توطين اليهود في شبه جزيرة سيناء لتحويل الفائض البشري اليهودي عن إنجلترا وتوطينه في خدمة الإمبراطورية . وفي هذا الإطار ، اقترح تشامبرلين ، الوزير في وزارة بلفور ، توطين اليهود في إحدى المستعمرات الإنجليزية ، وتُرجم هذا الاقتراح إلى مشروع شرق أفريقيا .

وفي عام ١٩٠٥ ، قام بلفور بمقابلة حاييم وايزمان في مانشستر وأُعجب به كثيراً ، ولكنه نسي فكرته الصهيونية إلى حدٍّ كبير في فترة الحرب . ثم قابله مرة أخرى عام ١٩١٥ وناقش معه الأهداف الصهيونية (بعد أن كانت الوزارة البريطانية قد ناقشتها عام ١٩١٤) .

وعندما عُيِّن وزيراً للخارجية في وزارة لويد جورج عام ١٩١٦ ، عاد بلفور لاهتمامه القديم بالصهيونية بسبب تزايد أهمية فلسطين في المخطط الإمبريالي البريطاني وبسبب تصاعُد الجو الثوري الذي ساد أوربا والشرق العربي (وقد كان بلفور يرى أن الصهاينة حماة مجتمع ذي تقاليد دينية وعرْقية تجعل اليهودي غير المندمج قوة محافظة هائلة في السياسة العالمية) .

زار بلفور الولايات المتحدة عام ١٩١٧ في إطار محاولات إنجلترا حث الولايات المتحدة على دخول الحرب إلى جانب الحلفاء ، وقابل الزعيم الصهيوني الأمريكي لويس برانديز . وفي نوفمبر من العام نفسه ، أصدر بلفور تصريحه أو وعده المشهور نيابةً عن الحكومة الإنجليزية . وقد شهد العام نفسه رفضه التدخل لدى الحكومة الروسية لإزالة القيود المتعلقة بإعطاء اليهود حقوقهم المدنية .

وبعد ذلك ، استمر بلفور في دعم الصهيونية عدة سنوات وفي يونيه عام ١٩٢٢ ، ألقى خطاباً في مجلس اللوردات البريطاني يحث فيه بريطانيا على قبول فرض الانتداب على فلسطين ، وتقدَّم بمسودة قرار الانتداب لعصبة الأمم ، كما شارك في افتتاح الجامعة العبرية عام ١٩٢٥ .

وقد بيَّن بلفور تصوُّره لمستقبل فلسطين في إحدى المذكرات حيث قال : إن الصهيونية ، سواء أكانت على حق أم كانت على باطل ، خيِّرة كانت أم شريرة ، فإنها ذات جذور متأصلة في "تعاليم قديمة وحاجات حالية وآمال مستقبلية" (غربية) . ولذا ، فإن أهميتها

"تفوق رغبات وميول السبعمائة ألف عربي" قاطني هذه الأرض. وقد أكد بلفور في مذكرة أخرى أن الحلفاء لم يكن في نيتهم قط استشارة سكان فلسطين العرب.

وانطلاقاً من إدراك الأهمية الجغراسية (الجغرافية/ السياسية) لفلسطين، طلب بلفور أن تكون فلسطين متاحة لأكبر عدد من المهاجرين (الذين رفض من قبل دخولهم إنجلترا) وأن تُوسَّع حدودها لتشمل الأراضي الواقعة شرقي نهر الأردن.

ويوجد في إسرائيل موشاف يُدعَى «بلفوريا» أسسه مستوطنون من الولايات المتحدة، كما توجد شوارع في القدس وتل أبيب سُمِّيت جميعها باسمه، ويطلق كثير من اليهود على أبنائهم اسم «بلفور» مع أنه ليس اسماً عبرياً أو يهودياً. وقد ألَّف بلفور عدة كتب في الفلسفة الدينية، من أهمها: **دفاع عن الشك الفلسفي** (١٨٧٩)، و**أسس الاعتقاد الديني: ملاحظات أولية لدراسة اللاهوت** (١٨٩٣)، و**الإيمان بالله والفكر: دراسة في العقائد المألوفة** (١٩٢٣).

مارك سايكس (١٨٧٩-١٩١٩)

Mark Sykes

دبلوماسي ورحالة بريطاني وُلد في لندن وتلقَّى تعليمه في موناكو وبروكسل وكمبردج. عمل في الجيش البريطاني بعض الوقت في جنوب أفريقيا (١٩٠٢) وسافر إلى سوريا والعراق، وعُيِّن ملحقاً فخرياً للسفارة البريطانية في إستنبول. وعُيِّن بسبب خبرته الواسعة في شئون الشرق مساعداً لوزارة الحرب البريطانية، وكانت وظيفته تزويد مجلس الوزراء بالمعلومات والمشورة حول شئون الشرق الأوسط. ولم يكن سايكس من صانعي القرار إلا أنه كان مؤثراً جداً فيهم بسبب شهرته كخبير في شئون الشرق الأوسط وحظوته لدى أصحاب السلطة. بل يرى كاتب سيرة حياته أنه كان القوة المحركة للسياسة البريطانية الخاصة بفلسطين التي أدَّت إلى إصدار وعد بلفور ثم الانتداب البريطاني على فلسطين. ومما تجدر ملاحظته أن سايكس كان كاثوليكياً على عكس الغالبية الساحقة من الصهاينة غير المسيحيين الذين يأتون من أوساط بروتستانتية.

اشترك سايكس، بحكم منصبه، في المباحثات التي جرت في لندن وكان يمثل فيها الجانب البريطاني. أما فرانسوا جورج بيكو، القنصل الفرنسي السابق في بيروت ومستشار السفارة الفرنسية في لندن، فكان يُمثل الجانب الفرنسي فيما يتصل بما كان يُسمَّى «المسألة السورية»، أي مستقبل المنطقة العربية (وخصوصاً الشام) وتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية في آسيا. وقد انتهت هذه المباحثات، بشكل مبدئي (عام ١٩١٦)، بتوقيع اتفاقية سايكس ـ بيكو الشهيرة لتقسيم مناطق النفوذ بين إنجلترا وفرنسا. وقد وُضعَت فلسطين بمقتضى الاتفاق تحت إشراف إدارة دولية.

وبعد هذا التوقيع المبدئي، اطَّلع السير مارك سايكس على المذكرة التي وزعها هربرت صموئيل على أعضاء الوزارة البريطانية يقترح فيها أن تبنَّت إنجلترا المشروع الصهيوني. وقد اكتشف سايكس على التو أنه لو تبنَّت إنجلترا المشروع الصهيوني، فإن هذا سيوفر لها موطئ قدم راسخاً في الشرق الأرسط. واكتشف سايكس أن بوسعه استخدام الصهاينة في التخلص من الجزء الخاص بوضع فلسطين تحت إدارة دولية (أي فرنسية إنجليزية). ومما له دلالته، أن القيادة الصهيونية لم تكن تعرف شيئاً عن الاتفاق السري هذا (أي أن القرار دائماً قرار استعماري يتم توظيفه لاحقاً الصهاينة). ولم يعرف وايزمان عن الاتفاق إلا في ١٦ أبريل ١٩١٧ من تشارلز سكوت رئيس تحرير **المانشستر جارديان**. وقد تقرَّر أن يعبِّر الصهاينة عن رغبتهم في أن تكون فلسطين تحت حكم إنجلترا وحسب وألا تُقسَّم. وبالفعل، قام الصهاينة بما طُلب منهم، وقام سوكولوف بمقابلة بيكو وعبَّر له عن وجهة النظر الصهيونية، وأكد له أن الدولة الصهيونية لن تضر بمصالح فرنسا. ولكن العنصر الحاسم في تغيير وجهة النظر الفرنسية لم يكن الضغوط الصهيونية وإنما وصول القوات البريطانية تحت قيادة أللنبي إلى فلسطين واستيلائهم عليها دون عون القوات الفرنسية. كما أن اندلاع الثورة البلشفية وانسحاب روسيا من الحرب غيَّر الصورة تماماً. وقد انتهى الأمر بأن تنازلت فرنسا عن فلسطين لإنجلترا. وقد شارك سايكس بشكل أساسي في الصياغة النهائية لوعد بلفور.

وكان سايكس ـ كما هي العادة مع الصهاينة غير اليهود ـ معادياً لليهود بشكل صريح ويَصدُر عن مفهوم الشعب العضوي المنبوذ. فاليهودي بالنسبة له هو المموِّل العالمي. وينقسم اليهود ـ حسب تصوُّره ـ إلى قسمين: اليهود المتأنجلزون (أي المندمجون) الذين يتخلون عن هويتهم (العضوية)، ومن ثم يمكثون في بلادهم ولا يهاجرون منها، وكان سايكس يكن لهم احتقاراً عميقاً، وهناك العبراني الحقيقي (هذا الذي يترك إنجلترا ليستوطن في بلده العضوي)، وهؤلاء كان يحبهم سايكس، شأنه في هذا شأن النازيين وشأن كل من يرغب في أن "يعود" اليهود إلى "وطنهم القومي" في فلسطين، فتُفرَّغ أوربا من يهودها. ومن هنا، فلا غرو أن يؤيد سايكس المشروع الصهيوني.

٤
وضع العقد موضع التنفيذ

العقد الصامت : تاريخ ـ العقد الصامت والدعم السياسي والاقتصادي والعسكري الغربي للحركة الصهيونية وللدولة الصهيونية ـ لجنة كينج/ كرين ـ الانتداب ـ لجنة هيكرافت ـ دستور فلسطين ـ الكتاب الأبيض ـ لجنة شو ـ لجنة حائط البراق ـ لجنة موريسون ـ لجنة وودهيد ـ قرار التقسيم ـ فولك برنادوت ـ مقترحات برنادوت

العقد الصامت : تاريخ

Silent Contract : History

إن فَهْم ماهية العلاقة بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية ، وكيفية إبرام هذا «العقد الصامت» بينهما ، يقتضي استذكار قصة ظهور الفكرة الصهيونية في ظل الحضارة الغربية ـ وهي قصة بدأت قبل ظهور الحركة الصهيونية بثلاثة قرون . فالصهيونية ـ على صعيد الفكر ـ فكرة غربية استعمارية عنصرية دعت إلى اصطناع قومية لليهود وإقامة دولة لهم في فلسطين العربية يتجمعون فيها على أساس استعماري استيطاني ، بالتعاون مع قوى الاستعمار الغربي . وقد انطلقت هذه الفكرة في دعوتها هذه من الزعم بأن اليهود أينما كانوا يشكلون "شعباً" واحداً ، وهم غير قابلين للاندماج في الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها وهذا ما يجعلهم هدفاً دائماً لاضطهاد هذه الشعوب لهم في كل زمان ومكان . كما انطلقت من الزعم بأن اليهود كشعب لهم تاريخ متصل في فلسطين انقطع لفترة مائتين وألف من السنين كانوا خلالها يتطلعون إلى العودة . كما أوضحنا أن ظهور هذه الفكرة بدأ في الغرب الأوربي الحديث خلال القرن السادس عشر الميلادي حين تضافرت حركة "النهضة الأوربية" ، وحركة "الإصلاح الديني البروتستانتي" ، وحركة "الكشوف الأوربية" في إرساء التاريخ الأوربي الحديث . وجاء تبلور هذه الفكرة من خلال تفاعُل أفكار الهيمنة الاستعمارية والسمو القومي والتفوق العنصري في الغرب الأوربي على مدى ثلاثة قرون .

وكان من النتائج الواضحة للبروتستانتية ظهور الاهتمام الغربي بتحقيق النبوءات التوراتية المتعلقة بنهاية الزمان وتردُّد الحديث عن «العصر الألفي السعيد» المستند إلى الاعتقاد بعودة المسيح المنتظر الذي سيقيم مملكة الله في الأرض لتدوم ألف عام ، وتتالي ظهور علماء لاهوت بروتستانت تحدثوا عن أمة يهودية وبَعْث يهودي ، وعن كون فلسطين وطناً لليهود ، وانتشار هذه الأفكار في الجزر البريطانية وبخاصة . وكان من النتائج الواضحة للكشوف الجغرافية الأوربية بدء الاستعمار الأوربي التجاري الذي تطوَّر بفعل عوامل أخرى إلى حركة استعمارية واسعة بلغت ذروتها في القرن التاسع عشر مع حدوث الانقلاب الصناعي في أعقاب الانقلابين التجاري والآلي ، وهو ما أدَّى إلى تسلُّط أفكار الهيمنة الاستعمارية على دول أوربا ، ومنها إنجلترا التي برز فيها اهتمام خاص بفلسطين وبفكرة عودة اليهود إليها لأسباب تجارية . وقد تنامى الاهتمام الأوربي بفلسطين بسبب موقعها المهم بالنسبة لطرق التجارة الدولية وبرزت فكرة استعمارها استيطانياً باليهود ، ثم تضاعف هذا الاهتمام مع نشوء ما عُرف في أوربا بالمسألة الشرقية التي جرى تعريفها باللغة الاستعمارية "بأنها مشكلة ملء الفراغ الذي ولَّده الانحسار التاريخي التدريجي للدولة العثمانية عن الحدود التي بلغتها في أوج توسُّعها" . وقد بلغ التنافس أوجه بين إنجلترا وفرنسا القوتين الاستعماريتين الأكبر في القرن الثامن عشر على مدِّ نفوذهما إلى قلب الوطن العربي . وبادر بونابرت حين غزا مصر وفلسطين وارتد أمام أسوار عكا إلى مخاطبة يهود فرنسا مقترحاً عليهم إقامة دولة يهودية في فلسطين ، ولم تلبث الفكرة الصهيونية أن تبلورت في المخططات الاستعمارية الفرنسية في القرن التاسع عشر . وحدث الأمر نفسه في المخططات الاستعمارية البريطانية في الفترة نفسها . وامتلأت وزارة الخارجية البريطانية بمعتنقي الفكرة الصهيونية . ولم تلبث المخططات الاستعمارية الأوربية عامة أن تبنت فكرة توطين يهود أوربا في فلسطين وإقامة دولة لهم تكون قاعدة استعمارية .

عمل الاستعماريون الأوربيون الذين بلوروا الفكرة الصهيونية على توظيف المعتقدات اليهودية لإقناع يهود أوربا بفكرة "عودتهم إلى فلسطين وإقامة دولة لهم فيها" . وهكذا شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر تطوراً في مفهوم الماشيَّح تمثَّل في فتاوى حاخامات اليهود القائلة بضرورة هجرة أعداد كبيرة من اليهود إلى فلسطين

لاستعمارها كخطوة على طريق تحقيق مملكة الخلاص وظهور المخلِّص . وألبس هؤلاء الاستعماريون الأوربيون ومنهم يهود الفكرة الصهيونية الثوب القومي ، في وقت شهد ازدهار الفكرة القومية في أوربا ، وعملوا على اصطناع قومية لليهود . وحين انحرف بعض المفكرين الأوربيين بفكرة القومية ونادوا بالسمو القومي والتفوق العنصري انساقت الفكرة الصهيونية مع ادعائهم وسقطت في مهاوي العنصرية مرددة مقولة شعب الله المختار .

وثمة أسباب عديدة جعلت الفكرة الصهيونية "غير قادرة على التحقق" ، من أهمها "أن دعاة الفكر الصهيوني كانوا من الصهاينة غير اليهود أو من أعداء اليهود ، الأمر الذي جعل المادة البشرية المستهدفة (أي اليهود) يرفضون الدعوة إلى استيطان فلسطين . كما أنه لم يكن هناك أية أطر تنظيمية تضم كل الجماعات اليهودية . وعلاوة على هذا كان هناك يهود الغرب المندمجون الذين كانوا يرون أن المشروع الصهيوني يهدد وجودهم ومكانتهم وكل ما حققوه من مكاسب" . وجاء تيودور هرتزل ليحل كل هذه الإشكاليات بوَضْع العقد الصامت استناداً للصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة التي نبعت من صميم الحضارة الغربية ومن تاريخها الفكري والاقتصادي والسياسي وبتأسيس المنظمة الصهيونية إطاراً تنظيمياً يمكن من خلاله توقيع العقد الصامت وفرض الصيغة الصهيونية الشاملة على الجماهير اليهودية . كما طوَّر الخطاب المراوغ الذي جعل إرضاء مختلف قطاعات يهود العالم الغربي في غرب أوربا وشرقها أمراً ممكناً .

لقد جاء تيودور هرتزل (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) لينشر عام ١٨٩٦ كتاب **الدولة اليهودية** مضمناً إياه "محاولة إيجاد حل عصري للمسألة اليهودية" . وتلقَّفه وليام هشلر (١٨٤٥ ـ ١٩٣١) القس الإنجليكاني الملحق بالسفارة البريطانية في فيينا ، وعاونه في عقد المؤتمر الصهيوني الأول في بال عام ١٨٩٧ . وصاغ هرتزل شعارات الحركة الصهيونية "نحن شعب" ، و"فلسطين وطننا التاريخي الذي لا يُنسَى" . ووضع خطة لتحقيق المشروع الصهيوني ، وحوَّلها المؤتمر إلى برنامج سياسي ، وقاد التحرك الصهيوني مع قوى الاستعمار الغربي وبخاصة في بريطانيا لتنفيذ هذا البرنامج . ووضعت الحركة الصهيونية نصب عينها بعد انعقاد مؤتمرها الأول القيام بمهام ثلاث هي : استعمار فلسطين ، ومحاولة خلق شعب يهودي واحد متجانس ، وإنشاء حركة تكون بمنزلة رأس الرمح في البرنامج الصهيوني الاستعماري . وتضمَّن هذا البرنامج تشجيع الاستعمار الصهيوني في فلسطين ، وتأسيس منظمة تربط يهود العالم عن طريق مؤسسات محلية أو دولية طبقاً لقانون كل دولة ، وتقوية الشعور القومي اليهودي ، والحصول على موافقة حكومية لبلوغ الأهداف الصهيونية ، وصولاً إلى "إنشاء وطن للشعب اليهودي في فلسطين يحميه القانون" .

باشرت الحركة الصهيونية تهجير يهود أوربيين إلى فلسطين التي كانت جزءاً من الدولة العثمانية . واستغلت هذه الحركة ما كانت تعانيه الدولة من فساد إداري لتمكِّن آلاف اليهود من التسلل . وكثَّف هرتزل في هذه المرحلة جهوده الدبلوماسية للحصول على "براءة" تضمن أي كيان صهيوني يقام في فلسطين ، فحصل على نوع من الاعتراف الأوربي بالمنظمة الصهيونية العمالية رغم معارضة يهود غير صهاينة رأوا في الصهيونية خطراً عليهم في أوطانهم . وقد استخدم هرتزل مصطلح «البراءة» في جوابه عن سؤال القيصر ولهلم الثاني أن يلخص له مطالب الصهيونية .

إن هذه البراءة هي في واقع الأمر العقد الصامت الذي أبرم بين المنظمة الصهيونية (كمتحدث غير منتخب باسم يهود شرق أوربا وغربها) وبين العالم الغربي (وضمن ذلك المعادون لليهود) . وهو تفاهم ضمني بين يهود غرب أوربا ويهود اليديشية ، تتعهد الحركة الصهيونية بمقتضاه بإخلاء أوربا من يهودها (أو على الأقل من الفائض البشري اليهودي) وتوطينهم في منطقة خارج هذا العالم الغربي (داخل دولة وظيفية) ، ويتحقق نتيجةً لذلك أن يؤسس المستوطنون في موقعهم الجديد قاعدة للاستعمار الغربي وتتعهد الصهيونية بتحقيق مطالب الغرب ذات الطابع الإستراتيجي وضمنها الحفاظ على تفتُّت المنطقة العربية . هذا فضلاً عن أهداف أخرى تمكِّن الصهيونية من التحكم باليهود وتخلُّص العالم الغربي من نسبة كبيرة منهم . ولم يلتفت هذا العقد لمشكلة شعب الأرض المستهدفة وكيفية حلها ، بل عمدت الحركة الصهيونية إلى الزعم بأن "فلسطين أرض بلا شعب" منكرة وجود شعب تمتد جذوره في وطنه إلى فجر التاريخ الإنساني . وقد جاء استهداف طرفي العقد فلسطين لعدة أسباب في مقدمتها موقع فلسطين في قلب دائرة الوطن العربي وفي موقع إستراتيجي من دائرة العالم الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية .

والعقد الصامت بين الحضارة الغربية والمنظمة الصهيونية هو الإطار الذي تمت من خلاله عملية الاستعمار الإحلالي الصهيوني في فلسطين . وقد مارست دول أوربا الاستعمارية ضغوطاً على الدولة العثمانية لتمكِّن الصهيونية من التسلل إلى فلسطين في مطلع القرن ، وعملت الحركة الصهيونية طابوراً خامساً لهذه الدول إبان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) . ثم قامت بريطانيا يوم ٣ نوفمبر

١٩١٧ بأصدار تصريح بلفور الذي مثَّل اعترافاً رسمياً بريطانياً بالهدف الصهيوني الخاص بتحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود والتزاماً بريطانياً رسمياً بالتعاون مع المنظمة الصهيونية العالمية لتحقيق هذا الهدف . وكان هدف بريطانيا منه استعمار فلسطين واغتصابها وإيجاد قاعدة استعمارية استيطانية فيها تفصل مشرق الوطن العربي عن مغربه ، وتمكِّن بريطانيا من الهيمنة على المنطقة .

تتالت الأمثلة الواقعية على هذا العقد الصامت في فلسطين إبان فترة ما بين الحربين وأثناء الحرب العالمية الثانية التي شكلت خلالها الحركة الصهيونية "الفيلق اليهودي" ليحارب مع الحلفاء . ومكَّنت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، التي أصبحت قائدة الاستعمار الغربي بعد الحرب ، الحركة الصهيونية من إقامة دولة إسرائيل في فلسطين عام ١٩٤٨ . وخلال العدوان الثلاثي وحرب ١٩٦٧ عملت إسرائيل لمصلحة المخططات الغربية في المنطقة . وقد كشفت الوثائق البريطانية عن نظرة ونستون تشرشل أحد رموز الاستعمار الغربي في الخمسينيات لدور إسرائيل في الضغط على مصر لتقبل الشروط البريطانية . والأمر نفسه كشفته الوثائق الأمريكية في الستينيات وما بعد . وقد جاء تجسيد «العقد الصامت» صارخاً في الاتفاق الإستراتيجي الأمريكي الإسرائيلي عام ١٩٨١ الذي استهدف فلسطين والدائرة العربية والدائرة الإسلامية . وهكذا عبَّر العقد عن نفسه من خلال مذكرات تفاهم واتفاقيات عسكرية وإستراتيجية ودعم عسكري ومالي وسياسي فعلي .

لقد واجه طرفا العقد مقاومة قوية استمرت هي الأخرى في مراحل نضال الشعوب المُستعمَرة من أجل التحرير في الدائرة العربية والإسلامية . ولا تزال هذه المقاومة مستمرة . وقد برزت بفعلها أسئلة عن مستقبل القاعدة الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية ، وعن مدى صواب إستراتيجية العداء الغربي للعروبة وحضارة الإسلام ، وعن ما تسببه الصهيونية العنصرية من تداعيات تهدد يهوداً كثيرين فضلاً عن الشعوب العربية والإسلامية المُستهدَفة بالعقد الصامت .

العقد الصامت والدعم السياسي والاقتصادي والعسكري الغربي للحركة الصهيونية وللدولة الصهيونية

Silent Contract and Western Political, Economic, and Military Support of the Zionist Movement and State

قامت القوى الاستعمارية الغربية بدعم الحركة الصهيونية حتى عام ١٩٤٨ ثم قامت بدعم الدولة الوظيفية بعدها . وسنتناول بعض أشكال الدعم السياسي في مداخل هذا الباب . وبإمكان القارئ أن يعود إلى الباب المعنون «الدولة الوظيفية» وإلى المدخل المعنون «المعونات الخارجية للدولة الصهيونية الوظيفية» .

لجنـــة كينـــج ـ كريـن

King-Crane Commission

في سياق تصفية تركة الحرب العالمية الأولى بتقسيم مناطق النفوذ في العالم بين البلدان الاستعمارية المنتصرة ، وانطلاقاً من رغبة الولايات المتحدة الأمريكية في استثمار تضارب المصالح بين فرنسا وبريطانيا لإيجاد موطئ قدم في المنطقة العربية ، اقترح الرئيس الأمريكي ويلسون في مارس ١٩١٩ على المجلس الأعلى لمؤتمر الصلح بين دول الحلفاء (أمريكا ـ بريطانيا ـ فرنسا ـ إيطاليا) إرسال لجنة تحقيق للوقوف على رغبات المواطنين في فلسطين وسوريا ولبنان وشرق الأردن تمهيداً لتقرير مصير المنطقة . ورغم التصديق على الاقتراح ، فقد امتنعت فرنسا وبريطانيا عن الاشتراك في اللجنة لعلمهما بأن نتائج التحقيق لن تكون في صالحهما ، ولذا فقد اقتصرت اللجنة على العضوين الأمريكيين اللذين سُميِّت اللجنة باسميهما وهما : هنري كينج وتشارلز كرين بالإضافة إلى بعض المستشارين .

اطلعت اللجنة على المذكرة التي قدمتها المنظمة الصهيونية العالمية للمؤتمر في فبراير ١٩١٩ ، والتي تضمنت مطالب الحركة الصهيونية المتمثلة في الاعتراف بما يُسمَّى «الحقوق التاريخية للشعب اليهودي» في فلسطين ، وحق اليهود في إقامة "وطن قومي" لهم ، كما اطلعت على المذكرات المماثلة التي قدمها الفلسطينيون للمؤتمر ، ومنها : مذكرة الاحتجاج التي بعث بها وجهاء وأعيان مدينة نابلس في يناير ١٩١٩ ، والمذكرة التي قدمها المؤتمر العربي الفلسطيني الأول في الشهر نفسه . وقد شددت المذكرات العربية على رفض المطالب الصهيونية وعلى أن فلسطين جزء لا يتجزأ من سوريا .

وفي العاشر من يونيه ١٩١٩ ، بدأت اللجنة عملها في يافا فالتقت بالجمعيات الشعبية فيها وممثلي الطوائف الدينية ومندوبي القرى ، واستمعت إلى مطالبهم . وفي القدس ، التقت اللجنة بممثلي الجمعية الإسلامية ـ المسيحية الذين أكدوا رفض الهجرة اليهودية إلى فلسطين لأنها ترمي إلى تحقيق المشروع الصهيوني بإقامة وطن قومي لليهود ، كما أكدوا وحدة سوريا وفلسطين مع احتفاظ الأخيرة باستقلالها الداخلي وحريتها في انتخاب حكامها من الوطنيين وسن قوانينها وفقاً لرغبات السكان .

وواصلت اللجنة جولتها في المدن والقرى الفلسطينية حيث تعرفت على مواقف مختلف الأطراف ، ثم سافرت إلى دمشق وأجرت فيها استفتاء شمل العلماء وممثلي الطوائف والحرف وممثلي مجلس الشورى وغيرهم ، وتسلَّمت مذكرة من المؤتمر السوري العام تضمَّنت المطالب العربية الأساسية ، كما انتقلت اللجنة إلى شرق الأردن وبيروت واطلعت على آراء السكان هناك . ثم توجَّهت بعد ذلك إلى الأستانة حيث عكفت على دراسة المذكرات والوثائق التي تلقتها وبلغت ١٨٦٣ مذكرة ، وانتهت من وضع تقريرها في أغسطس ١٩١٩ (ولكنه لم يُنشَر إلا بشكل موجز عام ١٩٢٢ ، ولم يُنشَر رسمياً إلا عام ١٩٤٧) .

وذكرت اللجنة في تقريرها أن العداء للصهيونية لا يقتصر على فلسطين فحسب بل يشمل المنطقة كلها ، وأن هناك إجماعاً على رفض البرنامج الصهيوني تماماً ، وأضافت أن اليهود ـ الذين يشكلون نحو ١٠٪ من سكان فلسطين ـ هم وحدهم الذين يؤيدون الصهيونية وإن كانوا يختلفون في بعض التفاصيل والوسائل المتعلقة بإقامة الدولة اليهودية ومدى تَوافُقها مع تعاليم الدين اليهودي ، كما أنهم وحدهم الذين يطالبون بفرض الانتداب البريطاني على فلسطين لأنه سيساعدهم على تحقيق مشروعهم . واعترفت اللجنة بأنها لمست بوضوح إصرار الصهاينة على تهجير الفلسطينيين والاستيلاء على الأراضي بالقوة . ووصف التقرير المزاعم الصهيونية بشأن "الحقوق التاريخية" لليهود في فلسطين بأنها لا تستوجب الاكتراث ولا يمكن النظر إليها جدياً بعين الاعتبار . وبيَّنت اللجنة ما في تعهدات وعد بلفور من ازدواجية وتناقض إذ "لا يمكن إقامة دولة يهودية دون هَضْم خطير للحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين" . وكانت أهم توصيات اللجنة :

١ ـ ضرورة تحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين والعدول نهائياً عن الخطة الرامية إلى جعلها دولة يهودية .

٢ ـ ضم فلسطين إلى دولة سوريا المتحدة لتكون قسماً منها .

٣ ـ وضع الأماكن المقدَّسة في فلسطين تحت إدارة لجنة دولية تشرف عليها الدولة المنتدبة وعصبة الأمم ، ويمثِّل اليهود فيها بعضو واحد .

وقد قوبل تقرير اللجنة بالرفض التام من جانب فرنسا وبريطانيا والحركة الصهيونية . أما الولايات المتحدة ـ التي كان رئيسها صاحب فكرة إرسال اللجنة ـ فلم تُعر انتباهاً هي الأخرى لتوصيات اللجنة ، رغم ما نص عليه تقريرها من أن المشروع الصهيوني يناقض مبدأ الرئيس ويلسون بشأن حرية الشعوب في تقرير مصيرها . وإذا وضعنا في الاعتبار أن ويلسون نفسه كان قد وافق على تصريح بلفور قبل إعلانه ، فستتضح على الفور حقيقة الموقف الأمريكي وحقيقة أن تلك المبادئ لم تكن في الواقع إلا ستاراً للمصالح الاستعمارية .

الانتـــــداب

The Mandate

طبقاً لقرار مؤتمر سان ريمو لدول الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ، وفي سياق اقتسام مناطق النفوذ في العالم بين الدول الاستعمارية الكبرى ، وُضعت فلسطين عام ١٩٢٠ تحت الانتداب البريطاني ، ورأت الحكومة البريطانية أن تحصل على تصديق دولي لهذا القرار ، فعرضته على عصبة الأمم التي أصدرت صك الانتداب عام ١٩٢٢ ، وضمَّنته بريطانيا نص وعد بلفور ، فأصبح بذلك وثيقة دولية ، وأصبحت بريطانيا مسئولة عن تنفيذه أمام عصبة الأمم . وتجاهل صك الانتداب واقع فلسطين التاريخي والقومي ، والأكثرية العربية الساحقة فيها التي لم يأت ذكرها إلا بشكل عرضي ومنقوص . رغم أن عددهم كان يفوق عندئذ ٩٠٪ من مجموع السكان ، بينما يمثل اليهود ١٠٪ فقط ولا تتجاوز أملاكهم ٢٪ من الأراضي . كما جاء الصك مخالفاً بوضوح لميثاق عصبة الأمم نفسها الذي أعطى السكان الأصليين حقهم في اختيار الدولة المنتدبة طبقاً لرغبتهم .

اتبعت سلطات الانتداب سياسة موالية للصهيونية ، فعُيِّن الصهيوني السير هربرت صمويل مندوباً سامياً بريطانياً ، وتم إفساح المجال لعمل المؤسسات الصهيونية المختلفة ، مثل : الصندوق التأسيسي الفلسطيني ، الهستدروت ، والمجلس القومي . كما مُنحت عدة امتيازات للمستوطنين الصهاينة مكنتهم من السيطرة على كثير من المصالح الاقتصادية الحيوية في فلسطين ، وجرى تعاون واسع بين سلطات الانتداب والوكالة اليهودية . وفي ظل هذه الأوضاع ، تزايد النشاط الصهيوني واتجه إلى وسيلتين : الأولى : تشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين على أوسع نطاق ، والثانية : تشجيع انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود بالطرق المختلفة ؛ كشراء الأراضي ، ومَنْح القروض لليهود ، وتقديم المساعدات لتشييد المستعمرات . ومن ناحية أخرى ، شجعت سلطات الانتداب تأسيس المنظمات العسكرية الصهيونية ، مثل : الهاجاناه ، إتسل ، وليحي . وشاركت هذه السلطات في تدريب أفرادها وتطوير وسائلها ، وتسترت على نشاطها الإرهابي ضد السكان العرب .

وأمام تَصاعُد الرفض العربي للسياسة البريطانية في فلسطين وللإرهاب الذي تمارسه المنظمات الصهيونية ، ولمواجهة الانتفاضات

العربية المتتالية ، أوفدت بريطانيا عدة لجان لدراسة الأوضاع في فلسطين واقتراح حلول لمشكلتها ، وهي : لجنة هيكرافت (١٩٢١) ، لجنة شو (١٩٣٠) ، لجنة بيل (١٩٣٦) ، اللجنة الملكية للتحقيق (١٩٣٦) ، ولجنة وودهيد (١٩٣٨) . كما أوفدت بريطانيا أيضاً سير جون سمبسون إلى فلسطين لهذا الغرض ، وشكلت مع الولايات المتحدة لجنة مشتركة لتقصي الحقائق هي اللجنة الأنجلو - أمريكية (١٩٤٦) . وأوفدت عصبة الأمم لجنة البراق الدولية إلى فلسطين (١٩٣٠) لدراسة الأوضاع إثر انتفاضة البراق عام ١٩٢٩ .

ودرجت الحكومة البريطانية أيضاً ، خلال فترة الانتداب ، على إصدار الكتب البيضاء لمعالجة الأوضاع المتفجرة في فلسطين . وقد قوبلت هذه الإجراءات بالرفض من الجانب العربي الذي لم يأل جهداً في سبيل التخلص من الاحتلال البريطاني والتغلغل الصهيوني في فلسطين . أما الجانب الصهيوني ، فقد اتسمت علاقته مع سلطات الانتداب بالتعاون والتنسيق التام ، عدا بعض الفترات القليلة التي شهدت خلافات بينهما نظراً لرفض الصهاينة نصوص الكتب البيضاء ولرغبتهم في الضغط على بريطانيا لدفعها إلى مواقف أكثر تأييداً للمشروع الصهيوني . وقد وصلت الخلافات إلى حد الصدام المسلح بين الطرفين في أعقاب الحرب العالمية الثانية .

وقد أنهت بريطانيا انتدابها على فلسطين في ١٤ مايو ١٩٤٨ بعد طرح القضية برمتها على الأمم المتحدة وصدور قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ .

لجنـــة هيكرافـــت

Haycraft Commission

في أول مايو ١٩٢١ ، اندلعت الاشتباكات بين المواطنين الفلسطينيين واليهود في مدينة يافا إثر قيام الهستدروت بتنظيم مظاهرة للعمال اليهود رفعوا خلالها الرايات الصهيونية ، وهو الأمر الذي استفز مشاعر الفلسطينيين إذ رأوا في ذلك إعلاناً عن قيام حكومة يهودية في فلسطين . وقد امتدت الاشتباكات إلى القرى والمدن المجاورة واستمرت نحو خمسة عشر يوماً تعرَّض المواطنون الفلسطينيون خلالها لقمع السلطات البريطانية والمستوطنين الصهاينة على حدٍّ سواء .

وإزاء إحساس الحكومة البريطانية بتفاقم العداء العربي لها بسبب دعمها للمشروع الصهيوني ، وخوفاً من امتداد أعمال العنف ضدها إلى مناطق أخرى من فلسطين ، قرَّر هربرت صموئيل - المندوب السامي البريطاني آنذاك - تشكيل لجنة للتحقيق في ملابسات أحداث يافا ، وأسند رئاستها إلى توماس هيكرافت - قاضي قضاة فلسطين - وضمت اللجنة : هـ . لوك و ج . ستوبس .

بدأت اللجنة عملها في أواخر مايو ١٩٢١ ، فاتصلت بالجمعيات والمؤسسات العربية وتلقت منها تقارير عن الأحداث ، كما استمعت إلى عشرات الشهود من الجانب العربي ومن جانب المستوطنين الصهاينة . وفي أكتوبر ١٩٢١ ، قدمت اللجنة تقريرها إلى مجلس العموم البريطاني أكدت فيه أن موقف بريطانيا المؤيد للمشروع الصهيوني بإقامة "وطن قومي" لليهود في فلسطين هو السبب الأساسي في تصاعُد مشاعر العداء من جانب الفلسطينيين تجاه السلطات البريطانية والمستوطنين اليهود . ونفت اللجنة مسئولية العرب عن تدبير أعمال العنف وأشارت إلى أن الذي أثار نقمة العرب هو : تبجُّح المستوطنين الصهاينة وخروجهم على الآداب العامة في الشوارع ، وعدم اعتدادهم بالعادات والتقاليد العربية ، وعدم اعترافهم بوجود تقاليد قومية عند العرب ، كما أشارت إلى أن عدد اليهود في الوظائف العامة غير متناسب مع نسبتهم ، وإلى اتساع سلطة البعثة الصهيونية الزائد عن الحد .

ثم بسطت اللجنة شكاوى المواطنين الفلسطينيين الذين يمثلون الطوائف كافة . وأجمعت الشكاوى على مخاطر الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، ومخاطر الدعم البريطاني للحركة الصهيونية والذي مكَّن المنظمة الصهيونية من أن تصبح بمنزلة حكومة داخل حكومة فلسطين . وأكدت اللجنة في ختام تقريرها أنها لمست بوضوح إصرار الصهاينة على إقامة "الوطن القومي اليهودي" بالقوة ، ورفضهم مساواة الفلسطينيين بهم . وانتقد التقرير الدكتور أور رئيس البعثة الصهيونية لاقتراحه بأن لا يُسمَح لغير اليهود بحَمْل السلاح .

وقد شنت الدوائر الصهيونية هجوماً عنيفاً على التقرير ، فاعتبره حاييم وايزمان هدية قُدِّمت إلى خصومه ليستغلوها في تشويه أغراض الصهيونية ، بل ذهب إلى حد القول بأن هذا التقرير غرس بذور المتاعب التي واجهها الصهاينة في فلسطين خلال السنوات التالية .

دســـتور فلســـطين

Palestine Constitution

وثيقة صدرت عن البلاط الملكي في قصر باكنجهام في اليوم الرابع عشر من شهر أغسطس ١٩٢٢ . وكان هذا الدستور امتداداً لصك الانتداب وتحدَّث عنه البعض باعتباره لائحة لتنظيم عملية تهويد فلسطين ، وإطلاقاً ليد "المندوب السامي البريطاني" في

فلسطين لتنفيذها . وقد أعطى هذا الدستور للمندوب السامي حق رَفْض القوانين وحق التصرف في الأراضي وحق السجن والإبعاد وحق قبول الشكوى إذا كانت ناجمة عن تقصير في تنفيذ صك الانتداب . ومن مواد هذا الدستور :

ـ المادة ١٣ : للمندوب السامي أن يهب أو يؤجر أية أرض من الأراضي العمومية أو أي معدن أو منجم ، وله أن يأذن بإشغال هذه الأراضي بصفة مؤقتة بالشروط والمدد التي يراها ملائمة . ويشترط في كل هذا أن تجرى كل هبة كهذه أو كل إيجار أو تصرف كهذا وفقاً لمرسوم أو تشريع أو قانون معمول به في فلسطين ، أو سيُعمَل به فيما بعد ، أو وفقاً لما قد يَصدُر للمندوب السامي من التعليمات بتوقيع جلالته وختمه أو بواسطة الوزير تنفيذاً لأحكام صك الانتداب .

ـ المادة ٢٥ : للمندوب السامي أن يعلن موافقته أو عدم موافقته على أي قانون بمحض إرادته مع مراعاة التعليمات الصادرة إليه بتوقيع الملك وختمه .

ـ المادة ٤٦ ـ الفقرة ٣ : يُشترَط ألا يُطبَّق التشريع العام ومبادئ العدل والإنصاف المشار إليها في هذا الدستور في فلسطين إلا بقدر ما تسمح به ظروف فلسطين وأحوالها ، ومدى اختصاص جلالة الملك فيها ، وأن تُراعَى عند التطبيق التعديلات التي تستدعيها الأحوال العامة .

ـ المادة ٨٥ : إذا كانت أية طائفة دينية أو كان فريق كبير من سكان فلسطين يشكو من عدم قيام حكومة فلسطين بتنفيذ صك الانتداب ، فيحق للطائفة أو الفريق المذكور أن يرفع مذكرة بذلك إلى المندوب السامي بواسطة عضو من أعضاء المجلس التشريعي .

الكتاب الأبيض

White Paper

«الكتاب الأبيض» عبارة تُطلَق على مجموعة الوثائق التي تتضمن تقرير السياسة البريطانية فيما يتصل بموضوع ما والتي تقوم الحكومة بتقديمها إلى البرلمان . وقد لعبت هذه الوثائق دوراً مهماً في تاريخ الانتداب البريطاني في فلسطين إذ صدر منها ستة في الفترة ١٩٢٢ ـ ١٩٣٩ :

١ ـ الكتاب الأبيض الصادر في يونيه ١٩٢٢ (كتاب تشرشل الأبيض) :

سادت فلسطين حالة من القلق وزادت الانتقادات في الصحف البريطانية بعد اتضاح محاباة الحكومة البريطانية للمؤسسة الصهيونية . لذا ، رأى تشرشل أن يضع حداً لكل هذا بإصدار بيان رسمي عن السياسة البريطانية في فلسطين .

تحتوي هذه الوثيقة التي قدَّمها ونستون تشرشل ، باعتباره وزير المستعمرات ، تقريراً بريطانياً بالغ الأهمية . فقد أكد هذا الكتاب ما تضمَّنه وعد بلفور ١٩١٧ ، ثم أعلن أن فلسطين لن تصبح يهودية بمثل ما تُعتَبَر إنجلترا إنجليزية ، أي أن العرب عليهم ألا يتخوفوا من طَرْد السكان العرب في فلسطين أو اختفاء ثقافتهم أو لغتهم . وأضافت هذه الوثيقة أنه " لا يوجد في وعد بلفور ما يشير إلى أن فلسطين بكاملها ستتحول إلى وطن «قومي» يهودي فقط ، إن مثل هذا الوطن القومي سيكون في فلسطين دون أن يعني هذا فرض الجنسية اليهودية على سكان فلسطين بالكامل " .

كذلك تضمنت هذه الوثيقة سياسة الحكومة البريطانية فيما يتعلق بالهجرة ، فذكرت أن الهجرة اليهودية ستستمر طالما أنها لا تتجاوز ما تستطيع طاقة البلاد الاقتصادية استيعابه ، وأن الحكومة البريطانية ستشجع العمل على منح الإقليم حكماً ذاتياً يديره مجلس تشريعي من اثني عشر عضواً منتخبين وعشرة مختارين يرأسهم المفوض الأعلى . وقد رفض هذه السياسة العرب واليهود على حدٍّ سواء . وقد استثنى الكتاب الأبيض هذا منطقة شرق الأردن من فلسطين .

ومع هذا ، سارع الصهاينة إلى الموافقة على الكتاب الأبيض . ولكن العرب أصروا على رفضهم ، ذلك أن الوفد الفلسطيني لم يكن مفوضاً بقبول أية سياسة بريطانية مبنية على تصريح بلفور . كما أن تنظيم الهجرة اليهودية كان يعني في واقع الأمر ، خلق أكثرية يهودية تعني بدورها سيطرة الصهاينة على فلسطين .

٢ ـ الكتاب الأبيض الصادر في أكتوبر ١٩٣٠ (كتاب باسفيلد الأبيض) :

وقد أصدر هذا الكتاب اللورد باسفيلد وزير المستعمرات في أكتوبر ١٩٣٠ على إثر الاضطرابات الدامية التي شهدها عام ١٩٢٩ . فقد أرسلت الحكومة البريطانية لجنة شو لتقصِّي الحقائق حول أسباب هذه الحوادث . وجاءت هذه الوثيقة لتشير إلى أن إعلان وعد بلفور والانتداب البريطاني في فلسطين كليهما يتضمنان نوعين من الالتزامات الملقاة على عاتق الحكومة البريطانية . الأول منها يتعلق بكفالة إنشاء وطن "قومي" لليهود في فلسطين ، والثاني يتعلق بموقف السكان غير اليهود . وقد رفضت الوثيقة وجهة النظر القائلة بأن إنشاء وطن "قومي" لليهود هو الواجب الأساسي لنظام الانتداب ، وصاغت السياسة البريطانية المقترحة في أربعة بنود أساسية : الأمن ـ التطوُّر الدستوري ـ التطوُّر الاقتصادي ـ التطوُّر الاجتماعي . وأعلنت الحكومة أنها لن تتحول عن هذه السياسة بتأثير

أية ضغوط ، وأنها ستعاقب بشدة أية تهديدات للأمن في المنطقة وأنها ستسير قدماً نحو إنشاء المجلس التشريعي الذي اقترحه كتاب تشرشل السابق .

وتتبنَّى الوثيقة وجهة النظر القائلة بأن مساحة الأرض المزروعة في فلسطين لم تَعُد تسمح باستيعاب مهاجرين جدد ، وتنتقد بشدة سياسة الوكالة اليهودية الخاصة بالاستيطان ، إذ ترى فيها تهديداً للوجود العربي في فلسطين ، كما أنها تتعارض مع مزاعم الصهيونية القائلة برغبة الصهاينة في العيش في سلام مع العرب . وطالبت الوثيقة بإدخال موضوع الأيدي العاملة العربية التي تعاني من البطالة في التقدير عند الحديث عن الطاقة الاقتصادية للإقليم فيما يتعلق بالهجرة .

وقد تعرَّضت هذه السياسة لنقد عنيف من بعض الساسة البريطانيين الذين رأوا فيها اتجاهاً إلى تخلِّي الحكومة البريطانية عن التزاماتها الواردة في صك الانتداب . كذلك قدَّم وايزمان استقالته من رئاسة الوكالة اليهودية احتجاجاً على ما اعتبره إنكاراً لحقوق وآمال «الشعب اليهودي» في إنشاء وطن "قومي" .

وقد دخلت لجنة حكومية خاصة في مفاوضات مع ممثلين للوكالة اليهودية نتج عنها خطاب رامزي ماكدونالد رئيس الوزراء في ١٣ فبراير ١٩٣١ الذي وجَّهه إلى وايزمان واعتُبر وثيقة رسمية قُدِّمت لعصبة الأمم وللمندوب السامي في فلسطين . ولم يكن الخطاب في الظاهر سوى تفسير لكتاب باسفيلد الأبيض . إلا أنه من الناحية العملية تَضمَّن إلغاء الكثير من القيود التي فُرضت على الحركة الصهيونية عندما أكد أن الالتزام الوارد في صك الانتداب هو التزام "للشعب اليهودي" وليس فقط للسكان اليهود في فلسطين . كما أكد ما تضمنته ديباجة صك الانتداب (تضمنت نص وعد بلفور) ، بالإضافة لإشارته للحقوق "التاريخية" لليهود في فلسطين . كذلك وافق الخطاب على تسهيل الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتشجيع الاستيطان اليهودي بها .

٣ ـ الكتاب الأبيض الصادر في يوليه ١٩٣٧ (لجنة بيل) :

صدر هذا الكتاب مُتضمِّناً السياسة البريطانية في فلسطين في الوقت نفسه الذي صدر فيه تقرير «اللجنة الملكية لفلسطين» المعروف بتقرير بيل . فذكر أن الحكومة البريطانية قَبلت خطة التقسيم التي وضعتها اللجنة من ناحية المبدأ ، وأنها ستتخذ الإجراءات الضرورية لوضعها موضع التنفيذ . وحتى يتم إنشاء الدولتين العربية واليهودية ، فإن الحكومة لن تتخلى عن التزاماتها في حفظ السلم والأمن والنظام العام في سائر أنحاء فلسطين . وحتى يتم وَضْع الخطة موضع التنفيذ ، فإن الحكومة قررت اتخاذ إجراءين :

أ) حظر أي تغيير في ملكية الأراضي يكون من شأنه عرقلة تنفيذ البرنامج الحكومي .

ب) تحديد الهجرة في الفترة من أغسطس ١٩٣٧ حتى مارس ١٩٣٨ بثمانية آلاف مهاجر .

٤ ـ الكتاب الأبيض الصادر في ديسمبر ١٩٣٧ (لجنة وودهيد) :

وتتضمن هذه الوثيقة خطاباً من وزير المستعمرات إلى ووشوب المندوب السامي في فلسطين . وقد تَضمَّن هذا الخطاب تعيين لجنة وودهيد لدراسة تفصيلات وإمكانات مشروع التقسيم من الناحية العملية ، فلو قدَّرت الحكومة أن المشروع عادل وعملي ، فإنها ستحيله إلى عصبة الأمم ، ويمكن بعدئذ أن تنشئ نظماً حكومية جديدة للمناطق اليهودية والعربية .

٥ ـ كتاب نوفمبر ١٩٣٨ الأبيض (تقرير لجنة وودهيد) :

بعد إصدار تقرير لجنة وودهيد الذي طالب بإلغاء توصيات لجنة بيل (على اعتبار أن المشروع الذي طالبت به غير مجد) ، وحاولت الحكومة البريطانية تقديم وجهة نظر تهدف إلى احتواء الثورة الفلسطينية التي نشبت آنذاك في جبال فلسطين فانتهت إلى ادعاء رفض التقسيم حيث إن المصاعب الإدارية والسياسية والمالية التي تتضمنها عملية التقسيم من شأنها أن تجعل فكرة التقسيم غير عملية ، وعليه فقد قررت الحكومة البريطانية بذل الجهود لخلق تفاهم أكبر بين العرب واليهود عن طريق الدعوة لعقد مؤتمر يحضره ممثلو الوكالة اليهودية وممثلو عرب فلسطين والدول العربية المجاورة للتباحث حول "سياسة المستقبل" ، وضمنها موضوعات الهجرة إلى فلسطين "فإذا لم تتوصل الأطراف إلى اتفاق خلال فترة معقولة ، فإن الحكومة البريطانية ستتخذ قرارها الخاص" .

٦ ـ الكتاب الأبيض الصادر في مايو ١٩٣٩ (كتاب ماكدونالد الأبيض) :

أدَّى إخفاق المؤتمر المشار إليه سابقاً إلى صدور هذه الوثيقة التي تضمنت "أن الحكومة البريطانية قد تبنت سياسة جديدة غير سياسة التقسيم ، وأن حكومة صاحب الجلالة تعلن ـ حتى تزيل أية شكوك ـ أنها لا تتبنَّى أية سياسة ترمي لجعل فلسطين دولة يهودية" ، ذلك أن "هذا يُعدُّ منافياً لالتزاماتها تجاه العرب بمقتضى صك الانتداب" إذ أن هدف الحكومة البريطانية هو خَلْق دولة مستقلة خلال عشر سنوات . . . يمكن فيها تأمين الحقوق الأساسية لكل من العرب واليهود ، وستكون الخطوة الأولى في هذا الاتجاه هي إلقاء مسئولية الإدارات الحكومية على عاتق كل من اليهود والعرب وفقاً لنسبتهم العددية" .

وقد قرَّرت الحكومة في هذه الوثيقة وَقْف الهجرة اليهودية لا على أسس اقتصادية هذه المرة ، ولكن على أساس مبدأ سياسي ذلك أن الحكومة لا تستطيع أن ترى في وثيقة الانتداب أيَّ دليل على أن الهجرة يجب أن تستمر إلى الأبد . . . أو أن قدرة البلاد الاقتصادية على امتصاصها يجب أن تكون المعيار الوحيد ، إذ أن خوف العرب من الهجرة اليهودية غير المحدودة يجب أيضاً أن يؤخذ بعين الاعتبار عند وضع سياسة الهجرة" .

وقرَّرت الوثيقة أن اتساع الوطن اليهودي دون ضوابط "سيعني الحكم بالقوة" ، ولذلك "فإن الحكومة البريطانية قررت ألا تسمح باتساع هذا الوطن ـ عن طريق قبول المزيد من المهاجرين ـ إلا إذا قبل العرب ذلك ، وعليه فإن حجم الهجرة الكلي سيحدد خلال السنوات الخمس التالية بـ ٧٥,٠٠٠ مهاجر ، وهو ما يجعل العدد الكلي لليهود في فلسطين حوالي ثلث إجمالي عدد السكان . وبعد نهاية السنوات الخمس ، لن يُسمَح بالمزيد من الهجرة في حالة رفض العرب ذلك" .

وبالنسبة لتحويل ملكية الأراضي ، قررت الوثيقة رفض المزيد من عمليات تحويل الملكية في بعض المناطق ، وعملت على تقييدها في مناطق أخرى . و"يُعطَى المندوب السامي في فلسطين الصلاحيات اللازمة لمنع وتنظيم هذه العمليات" .

وفي ٢٨ فبراير ١٩٤٠ ، أصدر المندوب السامي «قانون تحويل ملكية الأراضي» الذي قسَّم الإقليم الفلسطيني إلى ثلاث مناطق :

١ ـ المنطقة (أ) ، وتشمل التل وبعض المناطق المجاورة (٦٤٪ من مساحة فلسطين) وهذه حُظِر فيها نقل ملكية الأرض لغير العرب الفلسطينيين .

٢ ـ المنطقة (ب) ، وتشمل وادي جزريل والجليل الشرقي ومعظم السهل الساحلي (ما عدا منطقة تل أبيب) والنجف (٣١٪ من مساحة فلسطين) وهذه أُبيح فيها انتقال الملكية في ظروف معيَّنة .

٣ ـ المنطقة ج (٥٪ من مساحة فلسطين) ، وقد بقيت «منطقة حرة» .

وقد اعتادت الحركة الصهيونية أن تنظر لهذه الوثيقة باعتبارها بداية «الخيانة النهائية» للالتزامات الواردة في إعلان بلفور «للشعب اليهودي» وللانتداب البريطاني على فلسطين . وأعلنت الحرب ضد الانتداب البريطاني على فلسطين منذ صدورها .

لجنـــة شـــو

Shaw Commission

أدَّت انتفاضة عام ١٩٢٩ في فلسطين إلى تزايد مخاوف بريطانيا من تصاعُد الرفض العربي لسياستها المؤيدة للمشروع الصهيوني ، وبدا لها أن الاشتباكات ، التي جرت خلال هذا العام بين المواطنين الفلسطينيين من جهة والمستوطنين الصهاينة وسلطات الانتداب البريطاني من جهة أخرى ، يمكن أن تمتد إلى مناطق أخرى داخل فلسطين وخارجها بشكل يهدد المصالح البريطانية في المنطقة . وفي محاولة لاحتواء الموقف ، سارع لورد باسفيلد ـ وزير المستعمرات البريطاني آنذاك ـ بتشكيل لجنة للتحقيق في أحداث الانتفاضة التي فجَّرها ادعاء المستوطنين الصهاينة ملكية الحائط الغربي من الحرم الشريف بالقدس (حائط البراق) ، وتولَّى رئاسة اللجنة والتر شو (أحد القضاة الإنجليز) .

بدأت اللجنة عملها في أواخر سبتمبر ١٩٢٩ ، فاستمعت إلى شهادة عدد من كبار موظفي حكومة الانتداب ، وحصلت على بيانات عن الأوضاع الاقتصادية للمواطنين الفلسطينيين ومعدلات الهجرة اليهودية إلى فلسطين والمؤسسات الممثلة لمختلف الطوائف . ثم بدأت اللجنة في عقد جلسات استماع ، واعتُبرت الوكالة اليهودية مُمثِّلة للمستوطنين اليهود واعتُبرت اللجنة التنفيذية ـ المنتخبة من المؤتمر العربي الفلسطيني السابع عام ١٩٢٧ ـ مُمثِّلة للفلسطينيين . واستمر عمل اللجنة نحو شهرين توجهت بعدهما إلى لندن حيث عكفت على إعداد تقريرها الذي قدمته إلى وزير المستعمرات البريطاني في مارس ١٩٣٠ .

لامت اللجنة العرب لبدئهم المشكلة ، ولكن التقرير ذكر أن السبب الحقيقي لتَفجُّر الأحداث يكمُن في الأعمال الاستفزازية التي يقوم بها المستوطنون اليهود ، فضلاً عن مخاوف الفلسطينيين على مصالحهم الاقتصادية من جراء الأنشطة الصهيونية الرامية إلى تهجير الفلسطينيين والاستيلاء على الأراضي الخاصة بهم ، وكذلك المخاوف من اتساع اختصاصات الوكالة اليهودية في ظل دعم سلطات الانتداب . وكانت أهم توصيات اللجنة :

١ ـ أن تُصدر بريطانيا بياناً صريحاً عما تنوي اتباعه في فلسطين ، وتفسر في الوقت نفسه المقصود بأحكام صك الانتداب وبخاصة ما يتعلق منها بحقوق الطوائف غير اليهودية في فلسطين .

٢ ـ أن يُوضَع تفسير دقيق للبند الوارد في صك الانتداب بشأن مهام الوكالة اليهودية ، بحيث يتم تأكيد أن الامتيازات التي تحظى بها الوكالة بموجب هذا البند لا تخوِّلها حق الاشتراك في حكومة فلسطين .

٣ ـ وضع قيود على انتقال الأراضي ، واتخاذ وسائل لحماية المزارعين الفلسطينيين والحيلولة دون إجلائهم عن الأراضي التي

يزرعونها لكيلا يتسبب ذلك في مزيد من الاضطرابات في المستقبل .

٤ ـ ضرورة تهدئة موجات السخط والاستياء بين المواطنين الفلسطينيين نظراً لحرمانهم من الحكم الذاتي ، إذ أن استمرار الأوضاع على ما هي عليه سيزيد مصاعب سلطات الانتداب .

٥ ـ إصدار بيان صريح من جانب بريطانيا بشأن الهجرة اليهودية إلى فلسطين ودراسة وسائل تنظيمها وتحديدها .

٦ ـ تشكيل لجنة دولية بإشراف مجلس عصبة الأمم لتحديد حقوق الفلسطينيين والمستوطنين اليهود في حائط البراق .

وقد قوبل تقرير اللجنة بالرفض من الدوائر الصهيونية بينما نظرت إليه الأوساط العربية بارتياح مشوب بالحذر والتحفظ . وقد تشكَّلت ـ طبقاً لتوصيات التقرير ـ لجنة حائط البراق ، كما كان التقرير سبباً من أسباب صدور الكتاب الأبيض عام ١٩٣٠ .

لجنة حائط البراق

Buraq Wall Commission

لجنة دولية شكلتها عصبة الأمم في يناير ١٩٣٠ بناء على توصية تقرير لجنة شو ، وذلك للنظر في النزاع القائم بين الفلسطينيين والمستوطنين اليهود بشأن حائط البراق الذي يشكل جزءاً من الحائط الغربي للحرم الشريف بالقدس . وتألفت اللجنة من ثلاثة أعضاء من السويد وسويسرا وأندونيسيا ، وبدأت عملها في يونيه ١٩٣٠ فاستمعت إلى شهادة ٥٢ شاهداً من الجانبين وحصلت على ٦١ وثيقة تمثل وجهتي نظر الطرفين . وانتهت اللجنة من وضع تقريرها في ديسمبر من العام نفسه ، وحاز موافقة الحكومة البريطانية وعصبة الأمم ، ليصبح بذلك وثيقة دولية تؤكد حق الشعب الفلسطيني في حائط البراق ، وأهم ما خلصت إليه اللجنة من نتائج :

١ ـ أن ملكية الحائط الغربي تعود إلى المسلمين وحدهم ، ولهم فقط الحق العيني فيه ، وينطبق ذلك بالمثل على الرصيف المجاور له .

٢ ـ أن أدوات العبادة وغيرها من الأدوات التي يحق لليهود وضعها بالقرب من الحائط ـ استناداً إلى تقرير اللجنة أو بالاتفاق بين الطرفين ـ لا يجوز بأية حال من الأحوال أن يكون من شأنها إثبات أي حق عيني لليهود في الحائط أو في الرصيف المجاور له .

٣ ـ لليهود حرية إقامة التضرعات عند الحائط في جميع الأوقات مع مراعاة عدم جلب أية خيمة أو ستار أو ما شابههما من الأدوات .

٤ ـ لا يُسمَح لليهود بنفخ البوق بالقرب من الحائط .

وكان من الطبيعي أن يثير تقرير اللجنة غضب الدوائر الصهيونية ، إذ أكد بما لا يدع مجالاً للشك أن حائط البراق من الآثار الإسلامية المقدَّسة ، كما بيَّن بوضوح زيف الادعاءات الصهيونية في هذا الشأن .

لجنة موريسون

Morrison Commission

بناء على قرار وزير المستعمرات البريطاني ، تشكَّلت هذه اللجنة في نوفمبر ١٩٣٣ برئاسة وليم موريسون ، وذلك للنظر في الأسباب المباشرة للمظاهرات التي قام بها المواطنون الفلسطينيون في أكتوبر من العام نفسه (احتجاجاً على السياسة البريطانية المؤيدة للمشروع الصهيوني) ووقعت خلالها اشتباكات عنيفة مع سلطات الانتداب البريطاني .

وقد قاطع الفلسطينيون أعمال اللجنة إذ أدركو أنها ليست سوى محاولة من بريطانيا لاحتواء الموقف وتهدئة الغضب العربي العام ، فضلاً عن أن المهام الموكلة للجنة تنصب على بحث الأسباب المباشرة للأحداث وبالتالي تمنعها من النظر في جذور النزاع الحقيقية والمتمثلة في مجمل سياسات بريطانيا الاستعمارية ودعمها غير المحدود للحركة الصهيونية . وقد حدث بالفعل ما كان متوقعاً ، فقد جاء تقرير اللجنة في فبراير ١٩٣٤ متجنياً بشدة على المواطنين الفلسطينيين إذ حمَّلهم وحدهم مسئولية أعمال العنف ، دون أن يتطرق البتة إلى القمع الوحشي الذي واجهت به سلطات الانتداب جموع المتظاهرين وأسفر عن سقوط أكثر من ثلاثين شهيداً ، كما لم يذكر التقرير شيئاً عن التحالف البريطاني ـ الصهيوني ، ولكنه لاحظ الاختلاف بين أحداث ١٩٣٣ وانتفاضة عامي ١٩٢٠ و١٩٢٩ وأكد أن ثمة مغزى في اتجاه الفلسطينيين للكفاح ضد بريطانيا بشكل مباشر ، وفي إدراكهم العلاقة الحيوية بينها وبين الحركة الصهيونية .

لجنة بيل

Peel Commission

لجنة تحقيق شكلتها الحكومة البريطانية في أغسطس ١٩٣٦ بغرض دراسة الأسباب الأساسية لانتفاضة المواطنين الفلسطينيين في أبريل ١٩٣٦ وبحث كيفية تنفيذ صك الانتداب على فلسطين والتزامات بريطانيا تجاه كل من الفلسطينيين والمستوطنين اليهود ، كما طلبت الحكومة من اللجنة تقديم توصيات بشأن شكاوى الفلسطينيين واليهود عن طريقة تنفيذ الانتداب . وقد ضمت اللجنة ستة أعضاء برئاسة اللورد بيل الذي شغل منصب وزير شئون الهند .

وصلت اللجنة إلى فلسطين في نوفمبر ١٩٣٦ ، واستمر عملها

ستة أشهر عقدت خلالها ستة وأربعين اجتماعاً منها واحد وثلاثون اجتماعاً علنياً واستمعت إلى أربعين شاهداً يهودياً ، أما الفلسطينيون فقد قاطعوا أعمال اللجنة في بداية الأمر ثم تغيَّر الموقف فيما بعد ، وقد أدلى بشهادته أمامها مفتي فلسطين الحاج محمد أمين الحسيني بالإضافة إلى أربعة وعشرين شاهداً .

وفي يوليه ١٩٣٧ ، قدَّمت اللجنة تقريرها الذي أرجع انتفاضة المواطنين الفلسطينيين إلى رغبتهم في الاستقلال القومي وإلى مخاوفهم من إقامة الوطن القومي اليهودي واستمرار الهجرة اليهودية إلى فلسطين واستيلاء المستوطنين الصهاينة على الأراضي العربية ، فضلاً عن عدم تكافؤ الفرص بين الفلسطينيين واليهود في عَرْض قضيتهم أمام الحكومة والبرلمان في بريطانيا وتشكُّك الجانب العربي في قدرة ورغبة الحكومة البريطانية في تنفيذ وعودها .

وتوصلت اللجنة إلى أن استمرار الانتداب البريطاني على فلسطين يعني مزيداً من التذمر إلى أجل غير مسمى ، فهو الذي خلق العداء بين الفلسطينيين واليهود نظراً لتناقُض الالتزامات الواردة في صك الانتداب والتي يستحيل معها تحقيق المطلب الرئيسي لكل طرف دون الإخلال بالالتزام تجاه الطرف الآخر . ولهذا ، أوصت اللجنة بأن تتخذ الحكومة البريطانية الخطوات اللازمة لإنهاء الانتداب وتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية مع بقاء القدس وبيت لحم والناصرة تحت الانتداب البريطاني ، وكانت تلك المرة الأولى التي ترد فيها فكرة التقسيم .

وقد تباينت ردود الأفعال تجاه تقرير لجنة بيل ، ففي حين رأت الحكومة البريطانية في مشروع التقسيم أفضل حل للمشكلة ، أعرب الفلسطينيون عن رفضهم تقسيم فلسطين أو التنازل عنها ، وذلك من خلال مؤتمر بلودان في سبتمبر ١٩٣٧ . أما الحركة الصهيونية ، فقد أجمع ممثلوها في المؤتمر الصهيوني العشرين على رفض انتقادات لجنة بيل لنظام الانتداب ، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم بشأن موضوع التقسيم وطالبوا بمزيد من الضمانات للدولة اليهودية .

وقد درست لجنة الانتدابات التابعة لعصبة الأمم تقرير اللجنة . ورغم اعترافها بمساوئ الانتداب ، إلا أنها اعتبرت قيام دولتين مستقلتين عملاً غير حكيم قبل مضي فترة أخرى من إدارة الانتداب ، وأوصت ـ في حالة قبول مشروع التقسيم ـ ببقاء الدولتين العربية واليهودية تحت نظام انتداب انتقالي إلى أن تبرهن كلٌّ منهما على أحقيتها بالاستقلال . وفي سبتمبر ١٩٣٧ ، اتَّخذ مجلس عصبة الأمم قراراً بتخويل بريطانيا في وضع خطة مفصلة لتقسيم فلسطين ، وأُجِّل بحث جوهر الموضوع لحين تقديم هذه الخطة .

ويمكن القول بوجه عام بأن تقرير لجنة بيل كان محاولة بارعة لحل مأزق السياسة البريطانية الاستعمارية في المنطقة ، فهو يحقق للحركة الصهيونية مطلبها الأساسي في تأسيس "وطن قومي لليهود" ويحاول في الوقت نفسه امتصاص الغضب العربي عن طريق منح الفلسطينيين نوعاً من الاستقلال الشكلي الذي يضمن استمرار السيطرة الاستعمارية البريطانية .

لجنة وودهيد

Woodhead Commission

لجنة تحقيق شكلتها الحكومة البريطانية في مارس ١٩٣٨ تنفيذاً لقرار مجلس عصبة الأمم في سبتمبر ١٩٣٧ حول تقرير لجنة بيل ، وكانت مهمة اللجنة العمل على تنفيذ مقترحات لجنة بيل بشأن تقسيم فلسطين ، وقد ضمت اللجنة أربعة أعضاء برئاسة سير جون وودهيد .

وقد عُهد إلى اللجنة أن توصي برسم حدود فاصلة بين المنطقتين العربية واليهودية المقترحتين ، وكذلك رسم حدود الأراضي المزمع بقاؤها تحت الانتداب البريطاني بصورة دائمة أو مؤقتة ، على أن يكون من شأن هذه الحدود تقديم ضمانات كافية لتأسيس دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورة تقليل السكان العرب والمشاريع العربية في المنطقة اليهودية لأقل حد ممكن والعكس بالعكس . كما طالبت الحكومة البريطانية اللجنة بتقديم توصيات تساعدها على القيام بمسئولياتها كدولة منتدبة ، كما منحتها الحرية الكاملة في إدخال أية تعديلات على مشروع التقسيم الذي اقترحته لجنة بيل بناء على دراستها للأوضاع الاقتصادية والسياسية في فلسطين .

وفي ٢٣ أبريل ١٩٣٨ ، وصلت اللجنة إلى فلسطين ومكثت بها حتى ٣ أغسطس حيث قابلت شهوداً من المستوطنين اليهود والمسئولين البريطانيين في فلسطين وشرق الأردن وعقدت ٥٥ جلسة كانت اثنتان منها علنيتين والباقية سرية . أما الفلسطينيون فقد قاطعوا اللجنة لإدراكهم أن نقطة انطلاقها هي مشروع تقسيم فلسطين الذي ترفضه الجماهير العربية بجميع طوائفها واتجاهاتها .

وقد توجَّهت اللجنة بعد ذلك إلى لندن حيث عقدت عدة جلسات سرية أعدت خلالها تقريرها الذي نُشر في نوفمبر من العام نفسه وذكرت فيه أن الفلسطينيين يقفون موقفاً عدائياً من التقسيم أياً كان شكله الأمر الذي يجعل اقتراحات لجنة بيل بشأن تفريغ الدولة اليهودية المقترحة من السكان العرب عن طريق النقل الإجباري أو

الاختياري أمراً مستحيلاً ، وفي المقابل قدَّمت اللجنة عدة اقتراحات بديلة لمواجهة المشاكل الناجمة عن التقسيم .

وبعد نشر التقرير ، أصدرت الحكومة البريطانية كتاباً أبيض تعترف فيه بالصعوبات السياسية والإدارية والمالية التي يتضمنها مشروع التقسيم ، وأعلنت عزمها على عقد مؤتمر في لندن للتوصل إلى اتفاق بهذا الشأن من خلال المباحثات بين ممثلي العرب واليهود .

قـــرار التقســـيم

Partition Resolution

في التاسع والعشرين من نوفمبر ١٩٤٧ أصدرت هيئة الأمم المتحدة قرار التقسيم . ويمكن القول بأن هذا القرار يشكل البداية الحقيقية لدولة إسرائيل .

ومع مقاومة العرب في مناقشات الجمعية العامة للأمم المتحدة ، انتوى الوفد الأمريكي القيام بخطوة تهدئ حدة مقاومة العرب واعتزم رئيس الوفد السفير هيرشل جونسون التقدم بتسوية تُبْنَى على اقتطاع قسم من أراضي النقب ، وضمنها العقبة ، وضمه إلى أراضي الدولة العربية المقترحة . غير أن وايزمان يذكر في مذكراته أنه ، عندما علم بما انتواه المستر جونسون ، سافر إلى الولايات المتحدة لمقابلة الرئيس الأمريكي هاري ترومان في التاسع عشر من نوفمبر ١٩٤٧ ولقي من المستر ترومان لطفاً وعطفاً شديدين .

وقبيل أن يقوم المستر جونسون بالإبلاغ عن عزمه بصورة رسمية لسكرتارية الأمم المتحدة ، أجرى الرئيس الأمريكي ترومان اتصالاً هاتفياً شخصياً بمندوب الولايات المتحدة الذي أصدر فيما بعد تعليماته للوفد الأمريكي بإبقاء النقب والعقبة ضمن نصيب اليهود . وقد فتح هذا القرار الأمريكي السبيل للتصويت في الجمعية العامة على مشروع التقسيم فنال أكثرية ٣٣ صوتاً مقابل ١٣ صوتاً .

فولــك برنــادوت (١٨٩٥ ـ ١٩٤٨)

Folke Bernadotte

ضابط سويدي ينحدر من أسرة ملكية عريقة ، وقد تلقَّى تعليمه في مدرسة التدريب العسكري للضباط في كاليبرج . ارتبط اسمه بالمسألة اليهودية حين كان يشغل منصب نائب رئيس هيئة الصليب الأحمر السويدية عام ١٩٤٣ وحين تولَّى رئاستها عام ١٩٤٦ ، ففي هذه الأثناء قام بتنظيم عملية تبادل الأسرى والجرحى بين ألمانيا النازية والحلفاء ثم تفاوض مع هيملر (مسئول الأمن الألماني) عام ١٩٤٥ بشأن إطلاق سراح أكثر من ٧٠٠٠ معتقل إسكندنافي من بينهم ما يزيد على ٤٠٠ يهودي داغاركي . وقد نجح برنادوت في إطلاق سراح عدة آلاف من النساء اليهوديات من معسكرات الاعتقال .

وفي عام ١٩٤٨ قام مجلس الأمن باختيار برنادوت وسيطاً في النزاع العربي الإسرائيلي لتنفيذ اتفاقية الهدنة . وكان قد نجح في تحقيق الهدنة الأولى بين الطرفين المتحاربين في ١١ يونيه ، متنقلاً بين العواصم العربية للتعرف على وجهة نظر الزعماء العرب بشأن قضية فلسطين ، كما اجتمع بالقادة الصهاينة واطلع على موقفهم بالنسبة للنزاع . وأسفرت هذه الاتصالات عن عدد من المقترحات عُرفت باسم «مقترحات برنادوت» قامت على أساس إدخال تعديلات على قرار الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين إلى دولتين ، وهو ما رأت فيه الدوائر الصهيونية إخلالاً بموازين القوى بين الدولة الصهيونية الناشئة والبلدان العربية المحيطة . ومن ثم ، دبرت منظمة شتيرن الصهيونية خطة لاغتيال الرجل ، وقامت بتنفيذها في ١٧ سبتمبر ١٩٤٨ أثناء وصوله إلى القدس قادماً من دمشق خلال عمله كوسيط . وفي البداية ، أعلنت جهة مزعومة تطلق على نفسها "جبهة أرض الأجداد" مسئوليتها عن الحادث ، ثم تبيَّن فيما بعد أن الاسم المزعوم ما هو إلا ستار لمنظمة شتيرن . وجدير بالذكر أن إسحق شامير كان أحد ثلاثة خططوا وأطلقوا النار على برنادوت .

ومما يستلفت النظر أن الصندوق القومي اليهودي قام بإطلاق اسم برنادوت على إحدى الغابات "تكريماً" لذكراه . ولبرنادوت مؤلفان أولهما **ويسدل الستار ـ أو ـ الأيام الأخيرة للرايخ الثالث** (١٩٤٥) ، والثاني **إلى القدس** (١٩٥١) .

مقترحـــات برنــادوت

Bernadotte Proposals

مقترحات خاصة بالنزاع العربي الإسرائيلي أعدها فولك برنادوت من خلال اتصالاته مع الزعماء العرب والقادة الصهاينة أثناء عمله كوسيط بين الأطراف المتحاربة بتكليف من مجلس الأمن ، وذلك لتنفيذ اتفاقية الهدنة عام ١٩٤٨ . وقد أرسل برنادوت مقترحاته في أوائل سبتمبر عام ١٩٤٨ إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة التي تلقتها وقامت بنشرها بعد أيام قليلة من اغتياله .

وتقوم هذه المقترحات على إدخال بعض التعديلات على قرار الأمم المتحدة الصادر عام ١٩٤٧ الخاص بتقسيم فلسطين ، وتتلخص فيما يلي :

١ ـ ينشأ في فلسطين بحدودها التي كانت قائمة أيام الانتداب

البريطاني الأصلي عام ١٩٢٢ (وهي تتضمن شرقي الأردن) اتحاد من عضوين أحدهما عربي والآخر يهودي . وذلك بعد موافقة الطرفين اللذين يعنيهما الأمر .

٢ ـ تُجرَى مفاوضات يساهم فيها الوسيط لتخطيط الحدود بين العضوين على أساس ما يعرضه هذا الوسيط من مقترحات . وحين يتم الاتفاق على النقاط الأساسية ، تتولَّى لجنة خاصة تخطيط الحدود نهائياً .

٣ ـ يعمل الاتحاد على تدعيم المصالح المشتركة ، وإدارة المنشآت المشتركة وصيانتها ، وضمن ذلك الضرائب والجمارك ، وكذا الإشراف على المشروعات الإنشائية وتنسيق السياسة الخارجية والدفاعية .

٤ ـ يكون للاتحاد مجلس مركزي وغير ذلك من الهيئات اللازمة لتصريف شئونه حسبما يتفق عضوا الاتحاد .

٥ ـ تكون الهجرة إلى أراضي كل عضو بحسب طاقة ذلك العضو على استيعاب المهاجرين . ولأي عضو ، بعد عامين من إنشاء الاتحاد ، الحق في أن يطلب إلى مجلس الاتحاد إعادة النظر في سياسة الهجرة التي يسير عليها العضو الآخر ؛ وفي وضع نظام يتمشى والمصالح المشتركة للاتحاد ؛ وفي إحالة المشكلة ، إذا لزم الأمر ، إلى المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة .

٦ ـ كل عضو مسئول عن حماية الحقوق المدنية وحقوق الأقليات ، على أن تكون الأمم المتحدة ضامنة لهذه الحقوق .

٧ ـ تقع على عاتق كل عضو مسئولية حماية الأماكن المقدَّسة والأبنية والمراكز الدينية ، وضمان الحقوق القائمة في هذا الصدد .

٨ ـ لسكان فلسطين ، إذا غادروها بسبب الظروف المترتبة على النزاع القائم ، الحق في العودة إلى بلادهم دون قيد وفي استرجاع ممتلكاتهم .

وقد أتبع برنادوت مقترحاته السابقة بملحق تضمَّن الآتي :

"بالإشارة إلى الفقرة الثانية من المقترحات ، يبدو أن من الأوفق عرض مقترحات تكون أساساً لتخطيط الحدود بين العضوين :

١ ـ ضم منطقة النقب بأكملها أو جزء منها إلى الأراضي العربية .

٢ ـ ضم منطقة الجليل الغربي بأكملها أو جزء منها إلى الأراضي اليهودية .

٣ ـ إعادة النظر في وضع مدينة يافا .

٤ ـ ضم مدينة القدس إلى الأراضي العربية ، ومنح الطائفة اليهودية فيها استقلالاً ذاتياً لإدارة شئونها ، واتخاذ التدابير اللازمة لحماية الأماكن المقدَّسة .

٥ ـ إنشاء ميناء حر في حيفا ، على أن تشمل منطقة الميناء الحر مصانع تكرير البترول ونهاية خط الأنابيب .

٦ ـ إنشاء ميناء جوي حر في مطار اللد .

ويبدو أن برنادوت اقترح اتحاد شرقي الأردن وفلسطين آخذاً بعين الاعتبار الوضع الجغرافي لشرقي الأردن .

وقد رفضت البلدان العربية مقترحات برنادوت لأنها تعترف بتقسيم فلسطين وبقيام الدولة الصهيونية كأمر واقع لا مناص منه ، كما أنها تفسح المجال للاستعمار الاقتصادي الصهيوني في الكيان الفلسطيني المقترح . أما الحكومة الإسرائيلية المؤقتة ، برئاسة بن جوريون ، فقد رفضت المقترحات بشدة لأنها ـ في نظرها ـ تخل بالتوازن بين الدولة الصهيونية الناشئة والبلدان العربية المحيطة ، كما أنها "تتجاوز" اختصاصات برنادوت كوسيط . ومن ناحية أخرى ، لم تحصل المقترحات على تأييد الجمعية العامة للأمم المتحدة في نوفمبر ١٩٤٨ حيث أيَّدت بريطانيا والولايات المتحدة مقترحات برنادوت في حين عارضها الاتحاد السوفيتي .

وفي ضوء ما تلقَّاه من ملاحظات وردود على مقترحاته الأولى ، وما لاحظه من مشاهداته عند زيارته لفلسطين ، أعد برنادوت صيغة معدلة لاقتراحاته عُرفت باسم «مشروع برنادوت» بعث به قبل اغتياله إلى الأمين العام للأمم المتحدة . وتتلخص خطوطه العامة فيما يلي :

١ ـ يجب أن يعود السلام العام الشامل إلى ربوع الأراضي المقدَّسة حتى يمكن إيجاد جو من الهدوء تعود فيه العلاقات الطيبة بين العرب واليهود إلى الوجود . وينبغي على الأمم المتحدة أن تتخذ كل ما من شأنه إيقاف الأعمال العدوانية في فلسطين .

٢ ـ يجب أن يعترف العالم العربي بأنه قد أصبح في فلسطين دولة يهودية ذات سيادة تُدعَى «دولة إسرائيل» وهي تمارس سلطاتها كاملة في جميع الأراضي التي تحتلها .

٣ ـ يجب قيام هذه الدولة الإسرائيلية ضمن الحدود التي نص عليها قرار التقسيم .

٥
الصهيونية والعلمانية الشاملة

الرفض الصهيوني لليهودية ـ المصادر العلمانية للفكر الصهيوني ـ الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية والصهيونية

الرفض الصهيوني لليهودية

Zionist Rejection of Judaism

تمت محاولات عدة لعلمنة اليهودية من الداخل من أهمها اليهودية الإصلاحية واليهودية المحافظة ، ثم تصاعدت حدة العلمنة في اليهودية التجديدية . والصهيونية ، في تصوُّرنا ، أهم الأيديولوجيات اليهودية في العصر الحديث التي أنجزت عملية العلمنة من الداخل .

وموقف الصهيونية من اليهودية يأخذ شكلين مختلفين مرتبطين :

١ ـ رفض العقيدة اليهودية على أساس علماني صريح وبشكل جذري وواضح .

٢ ـ علمنة اليهودية من الداخل ، أي صهينتها من خلال الحلولية الكمونية مع استيعاب المصطلح الديني .

وسنتناول في هذا المدخل موقف الرفض الجذري والصريح لليهودية .

طرحت الصهيونية نفسها من البداية على أنها رؤية كاملة وشاملة للحياة اليهودية والتاريخ اليهودي والإنسان اليهودي وعلاقته بالطبيعة (الأرض) وبذاته (الهوية اليهودية) الخ ، أي أنها طرحت نفسها كرؤية للكون . وقد أدركت الصهيونية هويتها ، منذ البداية ، باعتبارها حركة علمانية شاملة ترفض العقيدة اليهودية وترفض الإيمان بأيّة مطلقات أخلاقية أو دينية متجاوزة لعالم المادة والقوى السياسية والطبقية والصراعات الفكرية . والعنوان الفرعي لكتاب هرتزل **دولة اليهود** هو **محاولة لحل عصري للمسألة اليهودية** (تماماً مثل المفكرين العنصريين الغربيين ولهلم مار وإيوجين دوهرنج اللذين كانا يصران على علمانية وعلمية رؤيتهم العنصرية لليهود واليهودية). ولنا أن نلاحظ أن مؤسسي الحركة الصهيونية الذين أتوا أساساً من مجتمعات وسط أوربا لم يعيروا اليهودية أي انتباه إلا باعتبارها مشكلة تبحث عن حل . بل إن بعضهم اعتبر العقيدة اليهودية نفسها مشكلة اليهود الحقيقية . وقد أظهر بعض زعماء الصهيونية عداءً واضحاً لليهودية ، فتيودور هرتزل تعمَّد انتهاك العديد من الشعائر الدينية اليهودية حين قام بزيارة القدس ، وذلك لكي يؤكد أن الرؤية الصهيونية رؤية لادينية . وكذا كان الوضع مع ماكس نوردو الذي كان يجهر بإلحاده ، ويؤكد دائماً أن كتاب هرتزل **دولة اليهود** سيحل محل التوراة باعتباره كتاب اليهود المقدَّس . وقد اتخذ الصهاينة موقفاً لا دينياً من كثير من المفاهيم المحورية في العقيدة اليهودية ، ويمكن أن نأخذ أهم العناصر وهي الموقف من كلٍّ من الأرض والشعب وآلية عودة الشعب للأرض .

١ ـ لم تكن صهيون (فلسطين) بالنسبة للصهاينة أرضاً ذات قداسة خاصة ، مرتبطة بالخلاص ، وإنما كانت مجرد أرض يُنقَل إليها اليهود لأسباب مادية علمانية . ولم يطالب هرتزل بالقدس وإنما طالب بالأرض العلمانية فقط (على حد قوله) ؛ أرض صالحة للتقسيم والتوزيع والاستيطان حتى يمكن إقامة قاعدة يُجمَع فيها اليهود ليقوموا على خدمة من يتكفل بحمايتهم ودعمهم .

٢ ـ وقد تم أيضاً رفض مفهوم الشعب المختار أو الشعب المقدَّس . فالشعب المختار ، حسب المفهوم الحاخامي ، يشير إلى جماعة من المؤمنين يرتبط انتماؤهم إلى هذه الجماعة بمدى طاعتهم للإله . وقد أخذ الصهاينة موقفاً مغايراً تماماً ، فنزعوا القداسة عن هذا الشعب ووجهوا سهام نقدهم إليه وإلى الشخصية اليهودية (الدينية) مستخدمين في نقدهم هذا مقولات تحليلية ونقدية وأنماطاً إدراكية استوردوها من كلاسيكيات الفكر العرقي الغربي ، وخصوصاً أدبيات معاداة اليهود . ونقدهم في جوهره هو نقد الفكر التنويري للشخصية الدينية . وأعاد الصهاينة تعريف اليهود على أساس عرْقي أو إثني (مادي) . ومن ثم ، أصبح اليهود بالنسبة لهم شعباً مثل كل الشعوب ، فهم مادة بشرية نافعة يمكن نقلها وتوظيفها لصالح من يدفع الثمن .

٣ ـ وبعد تحويل صهيون إلى مادة طبيعية (أرض للاستيطان) والشعب المختار إلى شعب مثل كل الشعوب (مادة استيطانية) ، وجَّه الصهاينة سهام نقدهم لعقيدة الماشيَّح والعودة فوصفها هرتزل بأنها

رؤية متخلفة ، ووسمها بن جوريون بالسلبية وطرح بدلاً من ذلك فكرة العودة بقوة السلاح وبمساعدة القوى العظمى لتأسيس دولة يهودية .

ويمكن القول بأنه تم استبعاد أي تجاوز معرفي أو مطلقية أخلاقية ، وتم تبنِّي الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية وما يتبعها من تمجيد لإرادة البقاء والقوة ، وطُرحت الصيغة الصهيونية الأساسية التي تشكل العمود الفقري لكل الصهيونيات : شعب عضوي منبوذ نافع يُنقَل خارج أوربا ليُوظَّف لصالح الغرب ، وهي صيغة علمانية كاملة لا تعترف بقداسة أرض أو إنسان ولا تعترف بأية أخلاقيات تضبط عملية العودة . وفي هذا الإطار ، يمكن فَهْم مشاريع الاستيطان الصهيونية المختلفة خارج فلسطين (صهيونية دون صهيون) ، فهي مشاريع استعمارية عادية ، شأنها في هذا شأن أيّ مشروع استعماري غربي يهدف إلى حل بعض المشاكل الاجتماعية التي ظهرت داخل التشكيل الحضاري السياسي الغربي عن طريق نقلها إلى آسيا وأفريقيا . فالمشكلة كانت المسألة اليهودية وكان حلها نَقْل اليهود إلى أي مكان في الأرض وتحويلهم إلى مستوطنين غربيين .

وحتى بعد أن ظهرت الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة (توظيف اليهود داخل إطار الدولة الوظيفية التي تُؤسَّس في فلسطين) ، ظل كثير من الصهاينة ينظرون لمشروع الاستيطان الصهيوني في فلسطين من خلال المنظور نفسه ، أي باعتباره مشروعاً استعمارياً غربياً .

وإذا كانت المنظومة العلمانية في العالم الغربي قد أخذت شكل تأسيس الدولة القومية العلمانية التي قامت بعلمنة المادة البشرية داخل نطاق الدولة وبترشيدها حتى يمكن توظيفها ، ثم قامت بعد ذلك بتجييش الجيوش التي حقَّقت الانطلاقة الإمبريالية الغربية ، فإن الاختلاف في حالة الصهيونية اختلاف فرعي ، إذ تمت أولاً علمنة المادة البشرية اليهودية من خلال الدول القومية الغربية ، ثم تم بعد ذلك نَقْل المادة البشرية بمعاونة القوى الإمبريالية الغربية ، وتم أخيراً تأسيس الدولة اليهودية القومية العلمانية التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من التشكيل الإمبريالي الغربي ، فالاختلاف لا ينصرف إلى الرؤية وإنما إلى ترتيب الخطوات .

ولا يزال هذا التيار الصهيوني العلماني الرافض لليهودية قوياً ، فمن المعروف أن الفكر الصهيوني كان يرفض استخدام اصطلاح «دولة يهودية» ، فكتاب هرتزل يُسمَّى **دولة اليهود لا «الدولة اليهودية»** . وكانت النية تتجه نحو استخدام اصطلاح «عبري» بدلاً من «يهودي» ، ولذا كانت تتم الإشارة إلى «الدولة العبرية» وإلى «العبرانيين» (ولم يتم استخدام مصطلح «دولة يهودية» إلا في مراحل متأخرة) . والصهاينة العلمانيون هم مؤسسوا المُستوطَن الصهيوني الحقيقيون ، وهم صهاينة إلحاديون تماماً ، وكان المستوطنون الأوائل ينظمون مسيرة كل عام للإعلان عن إلحادهم . وكان فريق منهم يحرصون على الذهاب إلى حائط المبكى في يوم الغفران (أكثر الأيام قداسة في التقويم الديني اليهودي) ويلتهمون ساندوتشات من لحم الخنزير تعبيراً عن رفضهم اليهودية . وقد توارت هذه الطفولية الثورية الرافضة إلى حدٍّ كبير ، ولكن الإلحادية الصريحة ما تزال تُعلن عن نفسها . فلا يزال هناك صهاينة من أمثال شالوميت آلوني ويائيل ديان يحملون بغضاً عميقاً للعقيدة اليهودية والمؤسسة الدينية . بل إن الأولى كانت وزيرة للتربية في إسرائيل وكانت لا تكف عن التعبير عن احتقارها للتقاليد الدينية اليهودية . أما الثانية ، وهي كاتبة روائية وابنة موشيه ديان ، فكانت تصر دائماً على أن الملك داود كان مصاباً بالشذوذ الجنسي وأن علاقته مع يوناثان تدل على ذلك (وهناك مسرحية بهذا المعنى تُعرَض في إسرائيل) . ولا تزال الكيبوتسات (العمود الفقري للمجتمع الإسرائيلي ، وفي صفوفها تُجنَّد أعداد كبيرة من أعضاء النخبة الحاكمة) مؤسسات علمانية تماماً ترفض الاحتفال بالأعياد الدينية وتُطوِّر احتفالات خاصة بها ، وتعيد تفسير كثير من النصوص الدينية والشعائر ليحل القومي الزمني محل الإلهي المتجاوز . ويصل هذا التيار إلى قمته في حركة الكنعانيين الذين يرون العقيدة اليهودية انحرافاً عن الهوية العبرية السامية . وتُعَدُّ الدولة الصهيونية من أكثر المجتمعات إباحية واستهلاكية على وجه الأرض ، وكانت ستُطبَع فيها طبعة عبرية من مجلة **بنت هاوس** الإباحية وقد استُقبل محررها عند حائط المبكى احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة . وتنتشر محلات الأشياء الإباحية في مدينة القدس وتُقام المسرحيات المهرطقة التي لا تعرف حرمة لأي شيء .

أما الأحزاب الدينية ، فهي أحزاب أقلية لا تمارس نفوذها إلا في رقعة ضيقة جداً من الحياة العامة في إسرائيل ، وهي على كل أحزاب تعبِّر عن يهودية تمت علمنتها على يد الصهاينة (أي صهينتها) ، ولذا فهي يهودية المظهر علمانية المخبر .

وقد نجحت الصهيونية كذلك في تصعيد معدلات العلمنة بين يهود العالم بحيث حلت الصهيونية محل اليهودية ، وأصبحت المشاعر الدينية تعبِّر عن نفسها من خلال التظاهر من أجل إسرائيل وتحرير الشيكات لها (انظر الباب المعنون «الصهيونية التوطينية») .

وهنا لابد أن نثير قضية أساسية وهي أن النقد العربي العلماني الثوري لإسرائيل والصهيونية يستند إلى أسس مادية واقتصادية وحسب ، باعتبار أن الدولة الصهيونية تقوم باستغلال المواطن العربي . والسؤال هو : ماذا لو أصبحت إسرائيل مفيدة من الناحية الاقتصادية والمادية داخل إطار النظام العالمي الجديد ؟ ما أساس رفضها ؟ ألا يُفسِّر ذلك سرّ اندفاع الكثيرين الآن نحو إسرائيل ؟

ورغم أن الصهيونية بدأت كحركة علمانية صريحة في علمانيتها ، إلا أنها لم تكن لتستمر على هذا المنوال للأسباب التالية :

١ ـ من المعروف في تاريخ الحضارة الغربية الحديثة (ومتتالية العلمنة فيها) أن عملية العلمنة لا يمكن أن تتم بشكل واضح وصريح دفعة واحدة ، حتى لا تَفزَع الجماهير من وحشية النموذج المطروح (العالم باعتباره مادة استعمالية خالية من القيمة ومجرد من الغاية) ، ولذا نجد أن الخطاب العلماني يتبنَّى ديباجات دينية في المرحلة الأولى (كما هو الحال مع فلسفة إسبينوزا والعقائد الربوبية) لترويج أفكار إلحادية الجوهر إيمانية المظهر . ثم تظهر تنويعات مختلفة على هذا إلى أن نصل إلى التعريفات العرْقية أو الإثنية الوثنية الصريحة . والصهيونية ولا شك ، تنتمي إلى هذا النمط .

٢ ـ المنظومة العلمانية المادية ترفض فكرة غائية الكون وفكرة ثبات القيمة الأخلاقية ومطلقيتها . فالإنسان موجود في الكون بالصدفة دون هدف أو غاية ، والأخلاق تتغير بتغير الزمان والمكان . وكل هذا يخلق ما يُسمَّى «أزمة المعنى» . ولذا ، فإن المنظومات العلمانية كثيراً ما تستورد مصطلحات ومفاهيم دينية دون أي التزام بالأعباء الأخلاقية المرتبطة بهذه المفاهيم ، وذلك لحل مشكلة المعنى . فالجندي البريطاني الذي كان يقتل الأطفال في أدغال أفريقيا ويأتي على الأخضر واليابس ، كان في حاجة إلى ما يبرر أفعاله الوحشية من خلال منظومة مريحة تخبره أنه يقتل دفاعاً عن الحضارة الغربية وأخلاق المحبة المسيحية وأن هذا هو عبء الرجل الأبيض .

والصهيونية ، أيضاً ، حركة قامت باقتلاع مئات الألوف من اليهود من أوطانهم ، ونقلتهم إلى أرض معادية داخل مجتمعات تُكن لهم البغض . ولذا ، لجأت الصهيونية للعقيدة اليهودية لتحل مشكلة المعنى للمادة البشرية المنقولة .

٣ ـ الصهيونية ، شأنها شأن أية عقيدة سياسية ، تود أن تكتسب شرعية ، وأن تُجيِّش الجماهير وراءها . وقد كان هذا أمراً حتمياً بالنسبة للصهيونية ، فقد كانت أيديولوجية نشأت في وسط أوربا بين مثقفين يهود غير يهود ، مندمجين تماماً ، تشربوا الثقافة الألمانية لا مجرد معجبين بها . أما الجماهير اليهودية ، فقد كانت في شرق أوربا ، وهي جماهير يهود اليديشية . وكانت قطاعات كبيرة منهم إما عميقة الإيمان بالدين أو على الأقل تربطها صلة وثيقة برموزه . ومن ثم ، لم يكن هناك مفر من أن تستغل الصهيونية العقيدة اليهودية لتضفي على نفسها صبغة دينية ، فلجأت إلى تبنِّي الرموز والأفكار الدينية المألوفة لدى هذه الجماهير بعد علمنتها ، إذ أن أية صيغة صريحة في علمانيتها كانت ستفشل حتماً في تجنيدها . وهذا ما عبَّر عنه كلاتزكين حين قال : "إن الدين اليهودي يمكن أن يساهم في بلورة الروح القومية للشعب اليهودي" . وقد كان نوردو وهرتزل يدركان أهمية العناصر الدينية في تجنيد الجماهير . ولذا ، فعندما فكرا في اختيار العراق مكاناً للاستيطان ، فكرا أيضاً في «العناصر الصوفية» المرتبطة به وفي إمكانية الاستفادة منها . ولقد استقر الأمر على فلسطين في نهاية الأمر بسبب عدة عوامل من بينها قوة الأسطورة ، أي الاسم في حد ذاته ، "ففلسطين هي صرخة عظيمة تجمع اليهود" على حد قول هرتزل .

والصهيونية ، في هذا ، لا تختلف من قريب أو بعيد عن كثير من أيديولوجيات المستوطنين البيض أو النازيين (بل وكثير من أيديولوجيات القومية العلمانية) . فالمستوطنون البيض في جنوب أفريقيا أصحاب أيديولوجية عرْقية بيولوجية حتمية تستبعد السود من نطاق ما هو إنساني وهو ما يتنافى تماماً مع العقيدة المسيحية . ومع هذا ، فقد استخدموا ديباجات مسيحية لتسويغ كل أفعالهم ، ومن ذلك إبادة الملايين ، بل أسسوا كنيسة مسيحية تستبعد السود ولا تسمح لهم بالانضمام لها . وهذا أيضاً ما فعله النازيون الذين كانوا يؤمنون بأيديولوجية حلولية وثنية تماماً تحاول بَعْث التاريخ الألماني قبل دخول المسيحية في ألمانيا وقبل تغلغل أخلاق الضعفاء بين أعضاء الجنس الآري . ولكن النازية ، مع هذا ، أسَّست كنيسة مسيحية ألمانية بهدف اجتذاب الجماهير لهذه الأيديولوجية دون إفزاعها بالإلحاد الكامن والوثنية المتضمنة .

لكل هذا ، نجد أن الصيغة الصهيونية التي شاعت هي التي تدور في إطار الحلولية الكمونية العضوية والتي تستخدم ديباجات دينية أو شبه دينية رغم أنها لا يربطها بالدين أي رابط (وهي الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المُهوَّدة) .

المصادر العلمانية للفكر الصهيوني

Secular Sources of Zionist Thought

تظهر علمانية الصهيونية في مصادرها الفكرية المتنوعة والمتعددة

والتي تنتمي كلها للأنساق الفكرية العلمانية الغربية . وقد عبَّرت المنظومة العلمانية عن نفسها من خلال ما نطلق عليه «الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية» التي ترى العالم بأسره مادة نسبية يمكن توظيفها لصالح الإنسان الغربي ، وهذه هي الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ، فهي صيغة تستند إلى رؤية إمبريالية (من الناحية المعرفية) تهدف إلى توظيف اليهود (والعرب) باعتبارهم مادة بشرية يمكن نَقْلها واستخدامها ، كما تهدف إلى توظيف الطبيعة (الأرض أو فلسطين) باعتبارها مادة طبيعية ، إذ لا قداسة ولا حرمة لأي شيء . أما من الناحية الأخلاقية ، فإن الصهيونية ممارسة علمانية إمبريالية تقوم على العنف وإبادة السكان الأصليين أو طَرْدهم من أرضهم ، وهي تستعين بالإمبريالية الغربية في تنفيذ مخططها ، سواء في نَقْل اليهود من بلادهم أو في طَرْد الفلسطينيين من وطنهم .

ولكن ، إلى جانب هذا الإطار الأساسي العام ، تُوجد بعض الأفكار الغربية العلمانية المحددة التي تركت أثراً عميقاً في الفكر الصهيوني ، كما شكلت مصادره الأساسية والمباشرة . وفيما يلي المصادر الأساسية للفكر الصهيوني ، وسنذكر بعد كل مصدر العناصر التي استقاها النسق الفكري الصهيوني منه ، ثم نورد (بين قوسين) عنوان المدخل أو المداخل التي يجد فيها القارئ معالجة مستفيضة للموضوع .

١ ـ الفكر الصهيوني الاسترجاعي ذو الديباجات المسيحية : عودة اليهود ـ فلسطين كمركز تجمُّع لهم ـ اليهود كشعب مختار منبوذ ـ توظيف الديباجات الدينية (انظر : «الأحلام والعقائد الألفية» ـ «العقيدة الاسترجاعية») .

٢ ـ فكر حركة الاستنارة : رفض سلبية الدين اليهودي وغيبيته ـ رفض خنوع الشخصية اليهودية ـ الإيمان بالتقدم وبأن اليهود حَمَلة التقدم للشرق ـ العودة لن تتم إلا من خلال التخطيط البشري (انظر الباب المعنون «الاستنارة اليهودية») .

٣ ـ فكر حركة معاداة الاستنارة : الرؤية العضوية ـ أسبقية الأمة على الفرد (انظر : «الشعب العضوي [فولك]») .

٤ ـ الدولة المطلقة : الدولة هي القيمة المطلقة والقيمة الحاكمة في النسق الصهيوني وهي الإطار الذي ستُوظَّف من خلاله المادة البشرية المنقولة (انظر : «الدولة اليهودية» ـ «بعض الاختلافات الصهيونية بشأن الدولة الصهيونية») .

٥ ـ القومية العضوية أو الشعب العضوي : اليهود يكوِّنون شعباً عضوياً مرتبطاً بأرضه برابطة حلولية عضوية ، فلابد أن يعود إليها .

ويُلاحَظ أن الدولة القومية هي الإطار الذي يعبِّر الشعب العضوي من خلاله عن نفسه (انظر : «الشعب العضوي المنبوذ») .

٦ ـ الفكر العرْقي العلماني (وخصوصاً معاداة اليهود والفاشية والنازية) : اعتماد العرْق والوراثة (لا الدين) مقياساً ـ تَفوُّق اليهود على العرب ـ الخضوع للعنصر اليهودي المتفوق (انظر الباب المعنون «العنصرية الصهيونية» . وانظر أيضاً الباب المعنون «بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوربا» ، والباب المعنون «إشكالية العزلة والخصوصية اليهودية») .

٧ ـ النيتشوية : اليهود كأمة متفوقة (سوبر أمة) ـ العنف كآلية حتمية للبقاء ـ رفض أخلاق الضعفاء (الدينية) واعتماد إرادة القوة باعتبارها المطلق الأخلاقي الوحيد (انظر : «النيتشوية والصهيونية») .

٨ ـ الداروينية أو التطورية : البقاء (المادي) هو القيمة الوحيدة المطلقة ـ سيحقق اليهود البقاء باعتبارهم العنصر الأصلح والأقوى ـ بقاء الشعب اليهودي هو الهدف من الوجود ـ اليهود أهم من اليهودية (انظر : «الداروينية الاجتماعية») .

٩ ـ الرومانسية : العودة للأرض كمطلق ـ عبادة الفعل الجسدي المباشر ـ كرامة العمل اليدوي (انظر الباب المعنون «الصهيونية العمالية») .

١٠ ـ البرجماتية : اليهود أكثر حركية من العرب ، ولذا فإن الأرض تصبح من حقهم ، وعلى العرب الرضوخ للأمر الواقع (انظر : «هوراس كالن والبرجماتية») .

١١ ـ النفعية أو نَفْع اليهود : اليهود كعنصر وظيفي استيطاني يمكن توظيفه ـ الدولة الصهيونية الوظيفية (انظر : «نَفْع اليهود» ـ انظر أيضاً الباب المعنون «الدولة الصهيونية الوظيفية») .

١٢ ـ الليبرالية والرأسمالية : المشروع الصهيوني مشروع رأسمالي استعماري ـ المشروع الصهيوني سيصرف الشباب اليهودي عن الحركات الاشتراكية (انظر : «الصهيونية العامة» ـ «الصهيونية التصحيحية») .

١٣ ـ الفكر الاشتراكي : المشروع الصهيوني مشروع اشتراكي تعاوني ـ إسرائيل دولة اشتراكية ستقوم بتثوير المنطقة ـ ستقوم الصهيونية بشفاء اليهود من أمراض الطفيلية (انظر : «الصهيونية العمالية») .

وبإمكان القارئ أن يعود إلى الباب المعنون «إشكالية علاقة اليهودية بالصهيونية» .

الرؤيــة المعــرفيــة العلمانيــة الإمبرياليــة والصهيــونيــة

Secular Imperialist Epistemological Outlook and Zionism

ثمة علاقة بنيوية بين الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية والتشكيل الاستعماري الغربي من جهة والصهيونية من جهة أخرى :

١ ـ فالرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية منظومة تركز على هذه الدنيا فتراها في إطار الواحدية المادية وترى أن هدف الإنسان في الكون هزيمة الطبيعة والإنسان وحوسلتهما وتسخيرهما ، وهي تقوم بترشيد الإنسان والمجتمع على هدي هذه المنظومة . وهذا ما فعلته الصهيونية بفلسطين ، واليهود والعرب ، فقد فرضت الواحدية المادية على فلسطين ورشَّدتها وحولتها من أرض مقدَّسة (صهيون) إلى مكان غير مقدَّس للاستيطان كما رشَّدت اليهود والعرب وحولتهم إلى مادة بشرية تُنقَل من مكان إلى آخر ، فاليهود مادة استيطانية نافعة تُنقَل من أوربا إلى فلسطين ، أما العرب فهم مادة بشرية لا نفع لها ، ولذا فهي تُطرَد من فلسطين .

٢ ـ تستبعد الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية أي إيمان بأية حدود ويأخذ هذا شكل النزعة المشيحانية في الصهيونية وما يُسمَّى «دحيكات هاكتس» ، أي «التعجيل بالنهاية» .

٣ ـ الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية تجعل الإنسان الغربي مركز الكون وتُسبغ عليه محورية وقداسة ومطلقية فهو صاحب رسالة حضارية تُسمَّى عبء الرجل الأبيض . وهذا ما فعلته الصهيونية مع اليهود الذين تحولوا إلى شعب مختار بالمعنى المادي العلماني .

٤ ـ مركزية الإنسان تمنحه حقوقاً مطلقة وتجعله المرجعية الوحيدة . وهذا ما فعلته الصهيونية مع اليهود إذ جعلتهم شعباً عضوياً يرتبط ارتباطاً عضوياً بأرضه وتراثه وهو ما يعطيه حقوقاً مطلقة في هذه الأرض يمكنه بمقتضاها أن ينقل سكانها بعيداً عنها أو يوظفهم في خدمته ، ثم يستورد إلى هذه الأرض من يشاء من البشر (المهاجرين السوفييت) ويمنع عنها من يشاء (الفلسطينيين العرب) .

٥ ـ المنظومة العلمانية الإمبريالية تنكر الآخر وأية منظومات قيمية أخلاقية إلا أخلاق القوة وهذا يتضح في النزعة النيتشوية القوية في الفكر الصهيوني (انظر : «النيتشوية والصهيونية» ـ «المصادر العلمانية للفكر الصهيوني») .

٦ ـ الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية مبنية على تصدير المشاكل للخارج بحيث يدفع بقية العالم فواتير التقدم الأوربي . والحل الصهيوني بهذا المعنى هو حل إمبريالي مبني على تصدير المسألة اليهودية إلى فلسطين لحل مشاكل أوربا وتوظيف العنصر البشري لصالحها . أما على المستوى السياسي فقد قامت الإمبريالية الغربية بتأسيس الدولة الصهيونية بحيث أصبحت قاعدة للاستعمار الغربي تدين له ببقائها وتقوم على خدمته فهي دولة وظيفية تابعة للإمبريالية الغربية .



٦
الخطاب الصهيوني المراوغ

سمات الخطاب الصهيوني المراوغ ـ الاعتذاريات الصهيونية العنصرية ونظرية الحقوق اليهودية المطلقة ـ كيفية فك شفرة الخطاب الصهيوني المراوغ ـ القانون الدولي العام ـ شركة ذات براءة ـ الكومنولث ـ خَلْق الحقائق الجديدة

سمات الخطاب الصهيوني المراوغ
Charactaristics of the Evasive Zionist Discourse

كلمة «خطاب» العربية هي ترجمة لكلمة «ديسكورس discourse» الإنجليزية . وكلمة «خطاب» كلمة مركبة وخلافية ولها معان عديدة إذ تطوَّر حقلها الدلالي بشكل ملحوظ منذ الخمسينيات مع ظهور البنيوية وما بعدها . وقد عُرِّف الخطاب (بالمعنى المعجمي المباشر) بأنه "كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوباً أو ملفوظاً" . ولكن للكلام دلالات غير ملفوظة يدركها المتحدث والسامع دون علامة معلنة واضحة . ولذا عُرِّف الخطاب بأنه نظام من القول له قواعده وخواصه التي تحدِّد شكل الجمل وتتابعها والصور المجازية والخواص اللفظية ونوع الأسئلة التي تُسأل والموضوعات الأساسية الكامنة ، وما يُقال وما يُسكت عنه ، أي تحدِّد الاستدلالات والتوقعات الدلالية . ويتم إنتاج المعرفة الإنسانية من خلال الخطاب ، وكثيراً ما تستمد هذه المعرفة مصداقيتها من القواعد التي تحكمها وليس من مطابقة تلك المعرفة لما هو حاصل أو واقع . ولذا فإنتاج الخطاب وتوزيعه ليس حراً أو بريئاً ، كما قد يبدو من ظاهره .

ولكل مجتمع خطابه إذ تتآلف الجمل لتشكل نصاً مفرداً ، وتتآلف النصوص لتُشكل نصاً شاملاً ، أي نسقاً فكرياً متكاملاً ورؤية للكون . ومن ثم فالخطاب (من منظور فوكوه) هو مجموعة من المنظومات التي تنتمي إلى تشكيل واحد ، يتكرر على نحو دال في التاريخ ، بل على نحو يغدو معه الخطاب جزءاً من التاريخ ، جزء هو بمنزلة وحدة وانقطاع في التاريخ نفسه . والمحرك الأساسي وراء شكل الخطاب (عند فوكوه وغيره) هو الرغبة في الاستئثار بالقوة من قِبَل فئات اجتماعية (وهو تفسير دارويني نيتشوي للإنسان ولسلوكه ودوافعه) .

وتحليل الخطاب هو استنباط القواعد التي تحكم التوقعات الدلالية ، ولذا يتشابك تحليل الخطاب بالسيموطيقا أو علم العلامات من حيث هو أيضاً بحث في القواعد أو الأعراف التي تحكم إنتاج الدلالة (البازعي والرويلي) .

والخطاب الصهيوني له سمات محددة أهمها المراوغة النابعة من تَعدُّد الجهات التي يتوجَّه لها هذا الخطاب :

١ ـ الصهيونية حركة تابعة يدعمها ويمولها الاستعمار الغربي ، ولذا فإن الخطاب الصهيوني يتوجَّه إلى الدول الاستعمارية الراعية .

٢ ـ لا تتوجه الصهيونية لهذه الدول وحسب أو لنخبها وحسب وإنما للرأي العام غير اليهودي فيها الذي قد لا يدرك الأبعاد الإستراتيجية للتحالف بين إسرائيل والحضارة الغربية .

٣ ـ لابد أن يتوجه الخطاب الصهيوني للمادة البشرية المُستهدَفة ، أي تلك الجماعات اليهودية في العالم التي تنتمي إلى تشكيلات ثقافية وحضارية واجتماعية مختلفة .

٤ ـ تعود الصهيونية إلى أصول ثقافية ودينية واجتماعية وطبقية متباينة ، وهو ما يجعل لكل فريق صهيوني رؤية وأولويات مختلفة . ومما يجدر ذكره أن التيارات الصهيونية تركت بعض القضايا الأساسية دون اتفاق . فلم يتم الاتفاق على هوية اليهودي ، بل لم يتم الاتفاق على هوية الصهيوني . كما لم يتحدد التوجه الاجتماعي أو الاقتصادي للعقيدة الصهيونية .

والمشكلة التي واجهها الخطاب الصهيوني هي كيف يمكن التوجه لكل هذه القطاعات في وقت واحد ، إذ كان على الدولة الصهيونية أن تُقدم نفسها باعتبارها : دولة ديموقراطية تنبع من أيديولوجية ليبرالية وتنتمي إلى الحضارة الغربية العقلانية ، وتقوم في الوقت نفسه بطرد الفلسطينيين وهَدْم قراهم وديارهم وخوض حروب توسعية تُذكِّر الإنسان بدولة مثل إسبرطة أو بروسيا لا بأثينا . وكان على الدولة الصهيونية أن تُقدِّم نفسها باعتبارها : دولة علمانية متطرفة في علمانيتها ، ولكنها في الوقت نفسه دينية متطرفة في تديُّنها ، ورأسمالية مغالية في رأسماليتها ، واشتراكية مغالية في اشتراكيتها . والحركة الصهيونية تقبل اندماج اليهود في غرب أوربا

(حتى لا تثير حفيظة يهود هذه البلاد أو حكوماتها) ولكنها في الوقت نفسه تطالب بتهجير يهود شرقها .

ولإنجاز هذا ، ولتحقيق هدفها في اغتصاب فلسطين وطَرْد أهلها وتجنيد يهود العالم لدعم مشروعها ومده بالمادة البشرية المطلوبة ، طوَّرت الصهيونية خطاباً هلامياً مبهماً غير متجانس بشكل متعمد يتسم بدرجة عالية من عدم الاتساق ويحتوي على فجوات كثيرة بهدف تغييب الضحية وتشويه صورته .

وقد كتب هرتزل قائلاً إنه "حقق شيئاً يكاد يكون مستحيلاً : الاتحاد الوطيد بين العناصر اليهودية الحديثة المتطرفة [أي اليهود المندمجين في غرب أوربا واليهود غير اليهود] ، والعناصر اليهودية المحافظة [أي يهود شرق أوربا واليهود المتدينين] ـ وقد حدث ذلك بموافقة الطرفين دون أي تنازل من الجانبين ودون أية تضحية فكرية" . كما تَباهَى هرتزل بمصالحة أخرى أجراها بين الحضارة الغربية ويهود العالم .

وهرتزل كان محقاً تماماً فيما يقول ، فالخطاب الصهيوني المراوغ (الذي وضع هو أساسه) نجح في إخفاء كل التناقضات وفي التوجه إلى كل القطاعات المعنية ، إلى كل قطاع بصوت يرضيه . كما أنه تجاهل العرب تماماً ، فلم يذكرهم بخير أو شر . وقد احتفظ هذا الخطاب بتوجُّهه الأساسي من خلال التمسك بالصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة (والمهوَّدة) وإخفائها إلى حدٍّ كبير في آن واحد ، على أن تعبِّر عن نفسها من خلال تنويعات عليها تخبئها سحابة كثيفة من الإستراتيجيات والحيل البلاغية المتنوعة التي سندرسها حتى يمكننا أن نفك شفرة الخطاب الصهيوني .

١ ـ محاولة تجاهل الأصول التاريخية أو تزييفها :

من الحيل الأساسية في الخطاب الصهيوني محاولة عزل الظواهر والدوال عن أصولها التاريخية والاجتماعية والثقافية بحيث يبدو الواقع كما لو كان مجرد عمليات وإجراءات ليس لها تاريخ واضح ولا سياق تاريخي محدَّد ، ومن ثم فليس لها سبب معروف أو اتجاه محدَّد . فالصراع العربي الإسرائيلي ، على سبيل المثال ، ليس ثمرة العقد الصهيوني الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية ، والذي قامت الدول الإمبريالية بمقتضاه بغرس كتلة بشرية غربية في وسط العالم العربي والإسلامي ، وتحوَّلت هذه الكتلة إلى دولة وظيفية تحتفظ بعزلتها وتقوم بضرب السكان الأصليين وجيرانها لصالح الراعي الإمبريالي . إذ يتم تناسي كل هذا ، ويُقدَّم الصراع العربي الإسرائيلي باعتباره نتيجة رفض العرب قرار التقسيم وهجومهم "الغاشم" على "اليهود" المسالمين ، دون سبب واضح ومفهوم . وتُقدَّم الصهيونية لا باعتبارها حركة استعمارية استيطانية إحلالية وإنما باعتبارها تعبيراً عن الحلم اليهودي المشيحاني الخاص بالعودة إلى صهيون أو أرض الميعاد ، أو باعتبارها حركة إنقاذ يهود العالم من هجوم الأغيار .

داخل هذا الإطار ، تصبح المقاومة شكلاً من أشكال الإرهاب غير العقلاني وغير المفهوم ، بينما تصبح هجمات إسرائيل على العرب مجرد دفاع مفهوم ومشروع عن النفس . ومن ثم ، فإن الجيش الإسرائيلي هو "جيش الدفاع الإسرائيلي" . وقد سُمِّيت هذه الحيلة «الأكاذيب الصادقة» (بالإنجليزية : ترو لايز true lies) ، فهي صادقة بمعنى أن هجوم العرب هو حقيقة مادية لا مراء فيها ، فهي واقعة قد وقعت بالفعل . ولكنها أكاذيب بلا شك باعتبار أن هجوم العرب على إسرائيل ورَفْضهم قرار التقسيم ليس نتيجة عناد لاعقلاني وإنما هو دفاع مشروع عن الحقوق الثابتة التي أقرتها المواثيق الدولية والقيم الأخلاقية .

وفي هذا الإطار ، يمكن أن نفهم بعض الحيل الصهيونية البلاغية الأخرى . فالإصرار على "المفاوضات وجهاً لوجه" باعتبارها الحل الوحيد والناجع للصراع العربي الإسرائيلي هو إصرار على إجراءات دون أية مرجعية أخلاقية أو تاريخية ، وكأن الصراع أمر غير مفهوم ليس له أصل ؛ وكأنه ليس هناك حالة من التفاوت والظلم ناتجة عن الغزو .

وقل الشيء نفسه عن دعوة الأمريكيين لكل من العرب والصهاينة إلى أن يظهروا ضبط النفس والاستعداد لتقديم التنازلات . ويُضرَب المثل بقرار التقسيم . فقد أظهر الصهاينة الاعتدال بقبول أكثر من نصف فلسطين ، أما الفلسطينيون فقد أظهروا تطرُّفهم برفضهم ما قُدِّم إليهم . فالاعتدال والتطرف في هذا السياق قد عُرِّفا في إطار تجاهل الأصول التاريخية وهو أن المستوطنين الصهاينة مغتصبون جاءوا إلى أرض فلسطين يحملون السلاح واحتلوا أجزاء منها ، وما فعله قرار التقسيم هو قبول حادثة الاغتصاب بل منحهم المزيد من الأرض ليؤسسوا دولتهم فيها .

ومنذ إنشاء دولة إسرائيل ، استمر استخدام هذه الحيلة إلى أن وصلنا إلى شعار "الأرض مقابل السلام" الذي يمكن ترجمته ببساطة إلى "بعض القرى والمدن التي كان قد تم الاستيلاء عليها بقوة السلاح الغربي تُعاد مقابل السلام الذي يعني وقف المقاومة ويعني الاستسلام" . وهذا يعني ببساطة "أرض بلا شعب حي قادر على المقاومة وبلا ذاكرة تاريخية" ، أي أنها تعني "نسيان الظلم الذي وقع في الماضي وفرض السلام حسب الشروط الصهيونية" .

ويرتبط بهذا الاتجاه نحو إنكار التاريخ تغليب عنصر المكان على عنصر الزمان فتتحول "فلسطين" إلى "أرض" و"الوطن العربي" إلى "منطقة" وتبحث إسرائيل عن "الحدود الآمنة" الجغرافية التي لا تأبه بالتاريخ. وتُعبِّر نظرية الأمن الإسرائيلية عن هذا التحيز الشديد للجغرافيا والتجاهل الكامل للتاريخ. ولذا، فإن أية حركة من العرب تذكر الصهاينة بوجود عنصر الزمان (كماض وتراث ومخزون للذاكرة وكحاضر وصراع وكمستقبل وإمكانية ومجال للحرية والحركة) تولِّد الذعر الشديد في قلوب المستوطنين الصهاينة، وتُسمَّى مثل هذه الحركة "إرهاب".

٢ ـ استخدام مصطلحات محايدة هي في جوهرها عمليات تغييب للعرب وللواقع وللتاريخ العربي :

من الحيل الصهيونية البلاغية استخدام مصطلحات تبدو كما لو كانت بريئة محايدة تحل محل المصطلحات ذات المضمون التاريخي والإنساني العربي. ولعل أهم هذه المحاولات بطبيعة الحال هو الإشارة إلى فلسطين باعتبارها "أرض بلا شعب". فهذه عبارة محايدة للغاية، ففلسطين ليست "فلسطين" أساساً وإنما هي مجرد "أرض" والسلام.

وتتبدَّى نفس الظاهرة في الخلاف بشأن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ فينص في مقدمته على مبدأ عدم "جواز الاستيلاء على الأرض بالقوة" ويتعامل مع الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة عام ١٩٦٧ ويدعو إلى الانسحاب منها، وهنا طرح الإسرائيليون إشكالية الأراضي المعنية وهي «أراض» كما في النص بالإنجليزية، أو «الأراضي» كما في النص بالفرنسية. وكانوا يفضلون بطبيعة الحال النص الإنجليزي لأنه يحيِّد الأرض ويفقدها حدودها فتصبح كلها قابلة للتفاوض بشأنها. وقد تدهور (تطور) الأمر حين قرر الإسرائيليون أن "الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧ في الضفة والقطاع «أراض متنازع عليها» (بالإنجليزية : دسبيوتيد disputed) وليست «محتلة» (بالإنجليزية : أوكيوبايد occupied) وقد وافقهم الأمريكيون على ذلك. وقد حاولت الدعاية الإسرائيلية أن تشير إلى "الانتفاضة" باعتبارها "أحداث الشغب" أو مجرد "عصيان مدني" ولكن الانتفاضة نجحت في اختراق المعجم الصهيوني واستقرت (كالنجم الساطع) داخل الكلمات العبرية والإنجليزية.

وتظهر عملية التحييد في حديث الصهاينة عن "التقدم" في المنطقة وتحويل الصحراء إلى مزارع خضراء.. إلخ، دون أن يُحدَّد لحساب مَنْ وعلى حساب مَنْ سيتم هذا التقدم. وقد لجأ مارتن بوبر لحيلة مماثلة في خطاب أرسل به لغاندي إذ كتب له محاولاً تبرير الغزو الصهيوني قائلاً إن الأرض لمن يزرعها، وكأن المستوطنين الصهاينة مجرد فلاحين مسالمين وجدوا أرضاً فقاموا بحرثها وزرعها في صبر وأناة بينما يقوم العرب [اللئام] بالتنغيص عليهم! وفي هذا إلغاء كامل لأصول الصراع واستخدام لمصطلحات محايدة تُلغي التاريخ.

٣ ـ استخدام مصطلحات دينية يهودية في سياقات تاريخية زمنية :

هذه الحيلة البلاغية مُتضمَّنة في كل الحيل السابقة، ولكنها من الأهمية بمكان بحيث قد يكون من المفيد معالجتها بشكل مستقل. والخطاب اليهودي الحلولي الكموني لا يُفرِّق بين التاريخ الزمني والتاريخ المقدَّس ولا بين المطلق والنسبي. وهذا ما يفعله الخطاب الصهيوني حين يشير إلى فلسطين باعتبارها «الأرض المقدَّسة» أو «أرض الميعاد» أو «إسرائيل» (وهو اسم يعقوب بعد أن صارع الرب). واستخدام المصطلحات الدينية في سياق زمني يخلق استمرارية لا زمنية، فالعبرانيون الذين خرجوا من أرض المنفى في مصر وصعدوا إلى أرض كنعان لا يختلفون كثيراً عن اليهود السوفييت أو يهود الفلاشاه الذين خرجوا من بلادهم (المنفى) وصعدوا إلى أرض كنعان (دولة إسرائيل). ومن هنا تُسمَّى الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين «عالياه»، من العلو والصعود، بينما الهجرة منها هي «يريداه» بمعنى «الارتداد والكفر». ويؤدي استخدام المصطلحات الدينية إلى خلع القداسة اليهودية على الأرض الفلسطينية، الأمر الذي يعني تحويل اليهود إلى عنصر مرتبط بها عضوياً، أما العرب، فيتم تهميشهم، فهم يقعون خارج نطاق دائرة القداسة.

٤ ـ إخفاء دال معيَّن تماماً أو محوه من المعجم السياسي والحضاري أو استخدام دوال تؤدي إلى تغييب العرب :

يلجأ الصهاينة لمحو بعض الدوال تماماً من المعجم السياسي والحضاري حتى يمكن محو المدلول وإخفاؤه من الخريطة الإدراكية. وهذه الإستراتيجية تضرب بجذورها في الخطاب الاستعماري الاستيطاني الغربي الذي يستخدم ديباجات توراتية. فالمستعمرون الاستيطانيون هم «عبرانيون» أو «الشعب المختار»، والبلاد التي يفتحونها (سواء في أمريكا الشمالية أو جنوب أفريقيا أو فلسطين) هي «صهيون» أو «إسرائيل»، ويُشار إلى سكان هذه البلاد بـ «الكنعانيين»، ولذا فمصيرهم الإبادة. ثم تمت علمنة هذا الاتجاه وأصبح المستعمرون الاستيطانيون "حملة مشعل الحضارة الغربية والاستنارة" وسكان البلاد المغزوة هم «السكان الأصليون» أو «البدائيون» أو «الهمجيون» أو «المتخلفون» أو «الهنود الحمر».

وفقدت بلادهم أسماءها فزيمبابوي أصبحت ، على سبيل المثال ، «روديسيا» ولم تَعُد بلاد الأباشي والتشيروكي تُسمَّى بأسمائها وإنما أصبحت «أمريكا» نسبة إلى "مكتشف" هذه البلاد (أميريجو فيسبوتشي) . وقد حدث شيء مماثل في الخطاب الصهيوني ، فالمستوطنون الصهاينة هم «العبرانيون» (و«الحالوتسيم» في المعجم العلماني ، أي الرواد الذين وصلوا إلى الأرض فاكتشفوها) أما سكان البلاد الأصليون فقد أصبحوا إما «كنعانيين» أو «إشماعيليين» (وفي الصياغة البلفورية العلمانية «الجماعات غير اليهودية») . وتمت إعادة تسمية فلسطين فأصبحت «إسرائيل» وأصبحت عملية الاستيلاء على فلسطين هي مجرد «إعلان استقلال إسرائيل» . واستمرت هذه العملية بعد عام ١٩٤٨ ، فأصبحت أم الرشراش «إيلات» وأصبحت الضفة الغربية «يهودا والسامرة» . وقد اتسع نطاق هذه العملية في الوقت الحاضر بحيث بدأ الاتجاه نحو تغييب العالم العربي بأسره وليس الفلسطينيين وحدهم . ومن هنا الحديث عن «السوق الشرق أوسطية» بدلاً من الحديث عن «العالم العربي» . فالسوق الشرق أوسطية تعني أن هناك بلداناً مختلفة في هذه «المنطقة» وأن عروبتها مسألة وهمية أو هامشية ليست ذات قيمة تفسيرية أو تصنيفية عالية .

ويبدو أن هناك اتجاهاً في هذه الأيام لمحو كلمة «مقاومة» من المعجم السياسي بحيث يهيمن دال واحد هو كلمة «إرهاب» ، وتصبح أعمال المقاومة التي لها جذور تاريخية ومعنى محدد مجرد «إرهاب» أو «هجمات انتحارية» ليس لها سبب واضح ولا اتجاه مفهوم . ولذا ، نجد أن مؤتمر شرم الشيخ حاول تعريف «الإرهاب» ولم يأت أي ذكر لكلمة «مقاومة» . ومن هنا يمكن إدراك حجم الإنجاز الذي حققته اتفاقية وقف إطلاق النار بين لبنان (حزب الله) وإسرائيل ، فهي اتفاقية قد نصت على حق الدفاع عن النفس ، أي حق المقاومة .

٥ ـ الخلط المتعمد بين بعض الدوال وفرض نوع من الترادف بينها :

يعمد الصهاينة إلى الخلط بين بعض الدوال التي لها حدود معروفة . ومن أهم هذه العمليات محاولة الخلط بين مصطلحات «يهودي» و«صهيوني» و«إسرائيلي» وأحياناً «عبراني» ، وذلك على الرغم من أن كل مصطلح له مجاله الدلالي الواضح . وقد جرى الخلط بينها لتأكيد مفهوم الوحدة اليهودية الذي يشكل جوهر الرؤية الصهيونية . وقد شاع الاستخدام الصهيوني في العقول حتى أصبح الحديث عن «الدولة اليهودية» و«دولة اليهود» و«الدولة الصهيونية» ممكناً باعتبارها عبارات مترادفة .

٦ ـ استخدام اسم يشير إلى مسميات مختلفة :

يُستخدم اسم مثل «الشعب اليهودي» دون تعريف هذا الشعب اليهودي ، و«إرتس يسرائيل» دون التحدث عن حدودها . وحيث إن لكل صهيوني تعريفه الخاص ، فإن الاسم هنا يشير إلى مسميات مختلفة تختلف باختلاف من يستخدم الدالّ : توطينياً كان أم استيطانياً ، علمانياً كان أم متديناً ؟ وهذا الإبهام يعني أن الصهيوني يمكن أن يكون معتدلاً إن شاء (فيُصرح بأن الشعب اليهودي هو من هاجر بالفعل إلى إسرائيل) ، ويمكنه أن يكون متطرفاً إن ذكر عكس ذلك (الشعب اليهودي هو كل يهودي أينما كان) ، وحدود إرتس يسرائيل هي حدود ١٩٤٨ أو ١٩٦٧ أو من النيل إلى الفرات ، والأمر متروك دائماً للاعتبارات البرجماتية . والشيء نفسه ينطبق على مصطلح «صهيوني» نفسه ، فهو مصطلح مطلق يشير إلى كل من يرى نفسه كذلك بغض النظر عما يفعله بعد ذلك . فاليهودي ، الذي يجعل الولايات المتحدة وطنه ويقود سيارته مكيفة الهواء ويدفع بضعة دولارات للمنظمة الصهيونية ، يمكن أن يعتبر نفسه صهيونياً (إن كان ذلك يروق له) ، ومن ينتقل إلى الضفة الغربية ويحمل السلاح ضد أهلها هو صهيوني كذلك .

ويمكننا هنا الإشارة إلى الصورة المجازية العضوية الحلولية الكمونية المتواترة في الخطاب الصهيوني ، فهي صورة مجازية تفترض أن الأرض والشعب متوحدان من خلال روح تحل فيهما هي مصدر التماسك العضوي بينهما . وهذه الروح تُسمَّى «الإله» في الخطاب الديني ، وهي «روح الشعب» في الخطاب العلماني . وداخل هذا الإطار ، يمكن أن يشير الدالّ الواحد (الروح) إلى مدلولين . وأثناء إعداد وثيقة إعلان الدولة الصهيونية التي يُقال لها «وثيقة إعلان استقلال إسرائيل» ، نشب خلاف بين الصهاينة الإثنين الدينيين والصهاينة العلمانيين حول عبارة «واضعين ثقتنا في الإله» حيث أصر الدينيون على تضمينها في ديباجة الوثيقة . وقد حُلّ الخلاف عن طريق تبنّي عبارة «تسور يسرائيل» والتي تعني حرفياً «صخرة إسرائيل» ولكنها تعني أيضاً «الإله» . ومعنى هذا أن دالاً واحداً وهو «صخرة إسرائيل» يمكن أن يؤدي معنىً إلحادياً للعلمانيين ومعنى دينياً للمتدينين ، فالصخرة قد تكون الإله وقد تكون روح الشعب وقد تكون أساساً مادياً متيناً لتأسيس الدولة الصهيونية .

٧ ـ استخدام أسماء مختلفة تشير إلى مسمًّى واحد أو إلى مسميات مختلفة توجد رقعة عريضة مشتركة بينها :

يستخدم الصهاينة اصطلاحات كثيرة مثل «الصهيونية السياسية» و«الصهيونية التصحيحية» و«الصهيونية العمالية»

و«الصهيونية الدينية» . . . إلخ ، وهي تيارات صهيونية عديدة يمكن اختزالها في نوعين اثنين : صهيونية استيطانية وصهيونية توطينية . كما يُشار إلى فلسطين المحتلة باعتبارها «اليشوف» أو «إرتس يسرائيل» أو «إسرائيل» .

والأسلوبان السابقان في التعامل مع الدوال مسألة تضرب بجذورها في طريقة استخدام المصطلحات في التراث الديني اليهودي حيث نجد أن كلمة مثل «التوراة» لها عدة مسميات .

٨ ـ استخدام مصطلحات لكل منها معنيان ؛ معنى معجمي مباشر ظاهر ومعنى آخر حضاري كامن :

يستخدم الصهاينة عبارات تبدو بريئة وساذجة إن عُرِّفت حسب مجالها الدلالي المعجمي المباشر وحسب ، ولكن معناها الحقيقي يتضح إن عُرِّف مجالها الدلالي من خلال المعجم الحضاري ، فتعبيرات مثل «القانون الدولي العام» أو «القانون العام» أو «قانون الأمم» تعني في المعجم اللفظي دلالاتها الحرفية ، ولكنها في المعجم الحضاري الغربي في القرن التاسع عشر تعني «قانون الدول الغربية الاستعمارية» أو «القانون الاستعماري الدولي» . وينطبق الوضع نفسه على عبارة مثل «شركة ذات براءة» ، فمعناها الحرفي أنها "شركة" حصلت على براءة لا أكثر ولا أقل ولكنها في المعجم الحضاري والسياسي الغربي تعني «شركة استيطانية تشبه الدولة تقوم بنقل كتلة بشرية غربية وتوطّنها منطقة في آسيا أو أفريقيا لاستغلالها اقتصادياً» . ولذا ، فإن المعنى الحقيقي (الاستعماري) لكثير من الدوال الصهيونية تتم تخبئته بعناية وراء الكلمات البريئة . ويمكننا أن ندرج مصطلح «السلام» أو «عملية السلام» تحت هذا التصنيف ، فكلمة «السلام» قد تُركت مبهمة عامة ، وهي يمكن أن تعني : «السلام الدائم» ـ «السلام العادل» ـ «السلام المؤسس على العدل» ، ولكنها يمكن أن تعني أيضاً «السلام حسب الشروط الصهيونية/ الأمريكية» . وسلوك الإسرائيليين وحلفائهم الأمريكيين يدل على أن المعنى الأخير هو المعنى المقصود .

٩ ـ استخدام دوال تعبِّر عن مدلولات هي دون الحد الأدنى الصهيوني المعلن ولكنها تشير إليه :

لعل أهم الأمثلة على هذا الدال الذي استُخدم في مؤتمر بازل للإشارة للدولة اليهودية ، فالصيغة الصهيونية الأساسية تم تعديلها في مرحلة هرتزل وبلفور وأصبحت الصيغة الشاملة بحيث أصبحت الدولة (الوظيفية) جزءاً من هذه الصيغة وهي الإطار المفترض لعملية نَقْل اليهود وتوطينهم وتوظيفهم . وهذا ما عبَّر عنه شعار المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) : "تأسيس الدولة هو الحل الوحيد للمسألة اليهودية" . وكان هرتزل قد دوَّن في مذكراته : "اليوم وضعت أساس دولة اليهود" . ومع هذا ، عند مناقشة القرارات ، حاول المجتمعون أن يبتعدوا قدر الإمكان عن استخدام كلمة «دولة» في الإعلان النهائي كيلا يثيروا مخاوف السلطات العثمانية . كما أدرك واضعو البرنامج أن أكثرية اليهود لم تكن موافقة في ذلك الوقت على فكرة أمة يهودية ومن ثم كانت ترفض فكرة الدولة اليهودية . ولذا ، فقد اقترح الزعيم الصهيوني ماكس نوردو كلمة «هايمشتات Heimstatte» ، وهي كلمة ألمانية مبهمة قد توحي بمعنى «الاستقلال» ولكنها لا تعني بالضرورة «دولة» . ويقول نوردو نفسه إنه استخدم طريقة المواربة أو الدوران حول المعنى واقترح الكلمة المذكورة (ومعناها : بيت ـ دار ـ ملاذ ـ مأوى ـ موطن ـ منزل) كمرادف لكلمة «دولة» ، ثم أضاف نوردو قائلاً : "ولكننا جميعاً فهمنا المقصود بها . وقد دلت آنذاك بالنسبة لنا على دولة يهودية كما هي الآن" .

وكتب هرتزل في **دي فيلت** في ٩ يوليه يقول : "الاحتمال الوحيد أمامي هو إنشاء «بيت» (ملجأ) بحماية «قانون الأمم» أو «قانون الشعوب» (فولكرشتليخ Volkerrechtlich) لهؤلاء اليهود الذين لا يمكنهم الحياة في مكان آخر" . وحين وردت عبارة «قانون الأمم» أثناء المؤتمر ، أثارت العبارة كثيراً من النقاش ، فالبعض أخذ على هذه العبارة ما تتضمنه من الاعتراف بفكرة تَدخُّل الدول الغربية العظمى . ولذا ، اقترح نوردو كلمة «رختليخ Rechtlich» ، أي «قانون» وحسب ، فرُفض الاقتراح . وأخيراً ، تم التوصل للصيغة المراوغة «أوفينتليخ ريختليخ Offentlich Rechtlich» أي «القانون العام» ، فهي أوسع من كلمة «قانون» التي قد يُفهَم منها قوانين بلدية أو مدنية ولكنها لا تحمل معنى السيادة القومية أو أي شكل منها .

ويرتبط هذا الجانب من الخطاب الصهيوني بمقدرة الصهاينة على قبول الدوال (أو الحلول) المعروضة عليهم حتى لو كانت دون الحد الأدنى الصهيوني مع تأكيد أن القبول أمر مرحلي مؤقت وأن المضمون الحقيقي للدال أو الحل يشير إلى الحد الأدنى الصهيوني الذي قد يكون من الخطر الإعلان عنه أو الإصرار عليه في مرحلة معيَّنة . وحينما أصدرت سلطات الانتداب عملة كانت هذه العملة تحمل كلمة «فلسطين» بالعربية وكلمة «بالستين Palestine» بالإنجليزية ، ولكنها لم تحمل سوى حرفي إ . ي بالعبرية (وهما أول حرفين في عبارة «إرتس يسرائيل») ، فقد سُجل الحرفان تأكيداً لحقوق المستوطنين الصهاينة واكتُفي بهما دون العبارة كاملة حتى لا يتم استفزاز العرب . وقد قَبلت القيادة الصهيونية هذا الحل رغم

اعتراض بعض "المتشددين") . وحينما عُرض على وايزمان قرار التقسيم (الذي أصدرته اللجنة الملكية عام ١٩٣٧) فإنه لم يكن يشتمل على صحراء النقب ، ولكنه قَبل القرار لأن النقب باقية في مكانها و"لن تجري" (وهو ما يعني إمكانية ضمها فيما بعد) . وقد تكرَّر الموقف نفسه من قبل حين أصر بعض الصهاينة على رفض الكتاب الأبيض الأول وعلى عدم القبول إلا بميثاق يهودي ، فقال وايزمان انطلاقاً من مبدأ العمل بما هو واقع بدلاً من الإلحاح على الحد الأدنى الصهيوني : "الكتاب الأبيض أمر واقع ، ولكن الميثاق ليس كذلك" .

وهذه حيل لفظية للمراوغة عمل بها الاستعماريون الإنجليز من قبل ، فحين صدر وعد بلفور الذي ينص على أن فلسطين وطن قومي للشعب اليهودي ، قَبله الصهاينة كتسوية مرحلية مع الإبقاء على الحد الأدنى . وهي حيلة قَبلها لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية إذ قال : "حين يأتي الوقت لمنح فلسطين مؤسسات نيابية ويصبح اليهود الأكثرية المطلقة في السكان ، فإن فلسطين ستصبح كومنولث يهودياً" .

١٠ ـ تَرْك فراغات كثيرة ومساحات خالية بين العناصر المختلفة ، وعدم ربْط المقدمات بالنتائج :

يعمد الخطاب الصهيوني إلى ترك فجوات واسعة بين العناصر المختلفة وبين المقدمات والنتائج ، فيذكر النتائج دون المقدمات والمقدمات دون النتائج . وقد تُركت هذه المساحات خالية وجرى التزام الصمت حيال بعض النقاط عن عمد لأن ملأها والإفصاح عنها قد يكشف أهداف الصهاينة في مرحلة مبكرة قد لا يَحسُن الكشف عنها مرحلياً (وهذا تكتيك معروف في عالم السياسة . فبعد أن ضمت بروسيا الألزاس واللورين ، كان شعار أهل هاتين المنطقتين من الفرنسيين هو : "لا تتحدث عنهما قط ، ولا تكف عن التفكير فيهما قط") . وكما قال بن هالبرن (مؤرخ فكرة الدولة اليهودية) ، اتفق يهود اليديشية ويهود غرب أوربا على ضرورة الصمت بشأن فكرة السيادة اليهودية والطرق السياسية لتحقيقها . وكتب هرتزل في يومياته "يجب ألا يُكشَف كل شيء للجمهور ، يجب كشف النتائج وحسب أو ما قد يحتاج المرء لكشفه في مناقشة ما" ! وحذر آحاد هعام من الإفصاح العلني عن "آرائنا" بشأن مستقبل فلسطين ، فلا يزال (حينذاك) يشكل خطراً ما دام مستقبل تركيا لم يتقرر بعد . وحينما نُوقشت قضية مصطلح «الدولة» في المؤتمر الصهيوني الأول ، واستُخدم مصطلح «وطن قومي» ، طمأن هرتزل الجميع قائلاً : "لا داعي للقلق فسوف يقرؤه الناس «دولة يهودية» على أية حال" و"لا داعي لتوخي الدقة لأن الكل يعرف المطلوب في الممارسة ، ولا يوجد أي مبرر لجعل مهمة اللجنة التنفيذية أكثر صعوبة مما هي عليه بالإصرار على الدقة" . ومعنى قوله هو : كلنا نعرف القصد الصهيوني الصامت ، ونعرف الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهوَّدة ، وقد قررنا الالتزام بهما ولكن لا داعي للإفصاح عنهما .

ولا يلتزم بعض "المتطرفين" أحياناً بعملية الصمت وعدم الإفصاح كما حدث مع جابوتنسكي إبان فترة الانتداب حين أصر على أن يُكتَب اسم «إرتس يسرائيل» كاملاً على العملة ، وكان لا يكف عن المطالبة بأن يُعلَن صراحةً أن هدف الصهيونية هو إنشاء دولة يهودية على ضفتي الأردن . ولكن القيادة العمالية الحصيفة اكتفت بالحرفين الأولين .E.I فهما يشيران إلى الحد الأدنى الصهيوني .

وهناك حادثة طريفة تبين التصادم نفسه بين من يلتزمون الصمت ومن يحاولون كشفه . ففي إحدى الحملات الانتخابية في إسرائيل ، أشار إسحق نافون إلى العرب باعتبارهم "إخوته" وهو يعني في واقع الأمر أنهم "أعداؤه" ، وكل ما في الأمر أنه يحاول خداعهم حتى يحصل على أصواتهم الانتخابية . وحين اعترض بعض السامعين من الإسرائيليين على إشارته الأخوية للعرب صاح نافون : "أنتم عباقرة ! أنتم دبلوماسيون ! ألا تفهمون ؟ إنها مسألة رياضية بسيطة ، إن هدف البرنامج العمالي الصهيوني هو الحصول على أكبر قدر ممكن من الأرض وأقل عدد ممكن من العرب" . وهكذا ، فلابد من التخلص من العربي ، هذا ما يقوله البرنامج العمالي دون إفصاح ، أما حكاية الأخوة هذه فهي دعاية انتخابية .

١١ ـ التأرجح المستمر والمتعمد بين أعلى مستويات التعميم والتجريد وأدنى مستويات التخصيص :

يحاول الصهاينة أن يتحركوا من أعلى مستويات التعميم والتجريد إلى أدنى مستويات التخصيص حسبما تمليه عليهم الاعتبارات البرجماتية . فحين يكون الحديث موجهاً إلى اليهود وإلى الرأي العام في الغرب ، فإنه يكون عن أرض الميعاد المقدَّسة وحق اليهود الأزلي فيها والوعد الإلهي الذي ورد في العهد القديم . وهناك الحديث عن النفي إلى بابل والعودة منها كنمط أزلي متكرر وعما لحق باليهود من اضطهاد . . . إلخ . ولكن ، إلى جانب ذلك ، هناك الحديث الموجه إلى العرب عن ضرورة تناسي الماضي ومحو الذاكرة والتركيز على الحاضر وعلى التفاوض وجهاً لوجه ودراسة التفاصيل المباشرة والإجراءات والعائد الاقتصادي . وبدلاً من الحديث عن

صهيون ، يكون الحديث عن سنغافورة كمثل أعلى يُحتذى ، وبدلاً من الحديث عن رؤى الأنبياء يكون عن مشاريع الاستثمار ، وبدلاً من الحديث عن البلاد والأوطان يكون الحديث عن الفنادق والكازينوهات ، وبدلاً من ارتداء ثياب المعارك يكون التركيز على آخر الموضات والمايوهات .

وبطبيعة الحال ، يمكن استخدام الخطاب النفعي الإجرائي حين يتوجه الصهاينة إلى الحكومات الغربية طلباً للمعونات إذ يسقط الحديث عن صهيون والأراضي المقدَّسة بطبيعة الحال ، ويكون الحديث عن العائد الإستراتيجي العسكري والاقتصادي للدولة الصهيونية الوظيفية المملوكية . ويظهر هذا التأرجح بين أعلى درجات التعميم وأقصى درجات التخصيص في الطريقة التي يُنفَّذ بها شعار "الأرض مقابل السلام" ، فرغم أن الأرض أمر محدد إلا أنها تدريجياً تحوَّلت إلى مفهوم شديد العمومية ، على عكس السلام ، الذي تحوَّل من كونه مفهوماً عاماً إلى مجموعة محددة من الإجراءات الاقتصادية والأمنية المادية الصارمة .

١٢ ـ أيقنة بعض الدوال والعبارات :

من الحيل الصهيونية الأساسية ما نسميه «أيقنة» المصطلح أو العبارة ، أي تحويل المصطلح إلى ما يشبه الأيقونة ، بحيث يصبح المصطلح مرجعية ذاته وتُختزل الحقيقة المركبة إلى مثل هذه الأيقونة ، التي لا تقبل المناقشة أو المراجعة أو الدراسة أو التساؤل . وهذا ما حدث بعض الوقت لعبارة "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" ولعبارة "المفاوضات وجهاً لوجه" . وفي الوقت الحاضر ، ظهرت مصطلحات مثل «عملية السلام» و«السلام مقابل الأرض» .

ولعل من أهم العبارات المتأيقنة عبارة "ستة ملايين يهودي" التي يُفترض أنها تشير إلى عدد ضحايا الإبادة النازية من اليهود ، وأصبح مجرد التساؤل عن مدى دقة هذا العدد شكلاً من أشكال الكفر يُسمَّى «إنكار الإبادة» .

١٣ ـ إشاعة بعض الصور التي تختزل الواقع :

وترتبط بالأيقنة محاولة إشاعة بعض الصور المجازية التي تختزل الواقع وتترجمه إلى أطروحة صهيونية . فرغم أن إسرائيل من أكثر الدول تسلُّحاً وشراسة وقوة عسكرية ، إلا أن الصورة التي تُشاع يجب أن تكون صورة إسرائيل صاحبة الحق المسالمة التي تدافع عن نفسها . وقد تمت ترجمة هذا كله إلى صورة داود وجالوت المجازية ، بحيث أصبحت إسرائيل داود الصغير الذي لا يوجد معه سوى مقلاع ضد جالوت المدجج بالسلاح والذي يُهاجم داود الصغير بشراسة (ومن الطريف أن الانتفاضة قلبت الأمور رأساً على عقب ، إذ أن الفلسطينيين كانوا هم المسلحون بالمقاليع ، أما الإسرائيليون فكانوا هم جالوت المدجج بالسلاح) .

ومن الصور الأخرى التي تمت إشاعتها صورة إسرائيل باعتبارها واحة الديموقراطية الغربية (الأمر الذي يتطلب إخفاء كل ما تقوم به من عمليات قمع وإرهاب) ونموذجاً للإنتاجية والكفاءة (الأمر الذي يتطلب إخفاء المساعدات الغربية التي تصب في هذا المجتمع) .

١٤ ـ تغيير الاعتذاريات وتنويعها حسب تنوُّع الجمهور المُستهدَف : انظر المدخل التالي .

الاعتذاريات الصهيونية العنصرية ونظرية الحقوق اليهودية المطلقة

Racist Zionist Apologetics and the Theory of Absolute Jewish Rights

«الاعتذاريات» من «عَذَر» بمعنى «رفع عنه اللوم» ، و«العُذر» هو «الحجة التي يُعتذَر بها» ويُقال «اعتذر المذنب» أو «اعتذر عن الشيء» بمعنى «أبدى عذره» و«احتج لنفسه» . و«الاعتذاريات» هي الحجج التي يسوقها المرء ليرفع اللوم عن نفسه . والاعتذاريات تستند إلى رؤية للذات (الفاعلة) ورؤية الآخر (المفعول به) . وفي حالة الاعتذاريات الاستعمارية ، نجد أنها في جوهرها نظرية للحقوق يحاول الكيان الغازي أن يبرر عن طريقها عدوانيته وأن يضفي شيئاً من المعنى على فعلته .

وتنطلق الاعتذاريات الصهيونية من الافتراض المحوري في الفكر القومي العضوي والعنصري الغربي الذي يذهب إلى أن أعضاء الحضارة (الغربية) الغازية أكثر تفوقاً من الناحيتين الحضارية والعرْقية من أعضاء الحضارات (الشرقية) المغزوة ، وأن تخلُّف هذه الحضارات الشرقية أمر وراثي حتمي ، ومن ثم تكون الغزوة الإمبريالية مسألة منطقية وحتمية بل يحتمها منطق التقدم !

وقد تم الغزو الصهيوني لفلسطين مثلما تم أي استعمار استيطاني إحلالي آخر ، أي عن طريق العنف واغتصاب الأرض من أصحابها . لكن المادة البشرية الغازية في حالة فلسطين كانت متنوعة غير متجانسة وكان لها انتماءات حضارية ودينية وثقافية وسياسية مختلفة ، كما أن الصهيونية كان عليها أن تبيع صورتها للاستعمار الغربي وللدول الاشتراكية وليهود العالم ، ومن ثم تنوعت الاعتذاريات والتبريرات التي يستند إليها الغزو الصهيوني بشكل يفوق الاعتذاريات الاستعمارية المألوفة ، لكن هناك عناصر كثيرة مشتركة :

١ ـ عبء اليهودي الأبيض :

من أهم الاعتذاريات الصهيونية ، تلك الاعتذاريات الاستعمارية العامة ، أي التي لا تَصدُر عن منطق أو تسويغ صهيوني أو يهودي خاص ، وإنما تَصدُر عن منطق استعماري عام . ومن المعروف أن الجيوب الاستيطانية البيضاء قامت بتقديم اعتذاريات مفصَّلة لتسويغ وجودها الشاذ في كل من آسيا وأفريقيا . وفي بعض الأحيان ، نجد أن الاعتذاريات الصهيونية من النوع التقليدي المألوف الذي يدافع عن نقاء الرجل الأبيض وتفوُّقه . فالإنسان الأبيض في هذه المنظومة هو مثل اللوجوس المتجسد أو موضع الحلول ومركز الإطلاق والركيزة النهائية للكون والتاريخ والذي يدور حوله ويكتسب معنى من وجوده في مركزه . ولهذا ، فإن حقوق هذا الإنسان مطلقة وتجبُّ حقوق الآخرين .

وقد وصف اللورد بلفور عملية الاستعمار الاستيطاني بأنها تعبير عن حقوق وامتيازات الأجناس الأوربية ، واعتبر عدم المساواة بين الأجناس حقيقة تاريخية واضحة . أما ريتشارد كروسمان ، فكان يرى أن الاستعمار الاستيطاني الأوربي يَصدُر عن الإيمان بأن الرجل الأبيض سيقوم بجلب الحضارة إلى السكان الأقل تحضراً في آسيا وأفريقيا ، وذلك عن طريق احتلال القارتين فعلياً ، حتى لو أدَّى ذلك إلى إبادة السكان الأصليين (ولا شك في أنها طريقة غريبة ومدهشة أن تدخل الحضارة إلى شعب عن طريق إبادته) . أما ماكس نوردو ، فقد اقترح (حتى قبل تبنيه الرؤية الصهيونية وتمشياً مع نظرته العنصرية الاستعمارية) توطين العمال الأوربيين العاطلين ليحلوا محل الأجناس الدنيا التي لا تستطيع البقاء خلال معركة التطور .

وقد قدَّم الزعيم والمفكر النازي ألفريد روزنبرج حجة مماثلة لإثبات براءته خلال محاكمته في نورمبرج ، مؤكداً للقضاة العلاقة العضوية بين العنصرية والاستعمار ، إذ أشار إلى أنه عثر على لفظ «سوبرمان» لأول مرة في كتاب عن حياة اللورد كتشنر ، الرجل الذي قهر العالم . وبيَّن روزنبرج أيضاً أنه صادف عبارة «العنصر السيد» أو «العنصر المتفوق» في مؤلفات عالم الأجناس الأمريكي ماديسون جرانت والعالم الفرنسي لابوج ، ثم أشار أخيراً إلى أن هذا الضرب من التفكير الأنثروبولوجي ليس سوى اكتشاف بيولوجي جاء في ختام أبحاث دامت ٤٠٠ عام وأن النظرية العنصرية ، ونظريات التفوق العرْقي ، جزء من فكر الحضارة الغربية العلمانية الحديثة . والمشروع الصهيوني جزء من المشروع الاستعماري الغربي ، والصيغة الصهيونية الأساسية صيغة غربية غير يهودية . وليس غريباً أن نجد الصهاينة يؤكدون انتماءهم إلى الجنس الأبيض ، صاحب الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية والمشروع الاستعماري المنتصر ، حتى يتمكنوا من المشاركة في المزايا والحقوق التي منحها الرجل الأبيض لنفسه ، وحتى يساهموا في حَمْل عبئه الحضاري الثقيل . فنجد أن عالم الاجتماع الصهيوني آرثر روبين (١٨٧٦ ـ ١٩٤٣) يؤيد في دراسته **يهود اليوم** النظرية التي تؤكد الشبه الجسماني بين الجنس اليهودي وأجناس آسيا الصغرى ولا سيما الأرمن ، إذ أنه يفضل (على حد قوله) أن يرى اليهود أعضاء في الجنس الأبيض ، ويرحب بأية محاولات نظرية ترمي إلى توجيه الضربات للنظرية السامية التي تَنسب اليهود للعرْق السامي أو الحضارة السامية . ويرى أن الاختلاف العنصري بين اليهود والأوربيين ليس كبيراً إلى درجة تؤدي إلى التشاؤم من ثمار الزواج المُختلَط بين أعضاء الجنسين .

وثمة اتجاه في التفكير الصهيوني يَقصُر لفظ «يهودي» على اليهود البيض وحدهم ، أي الإشكناز . وقد أفصح روبين عن هذه الفكرة بصراحة بالغة في كتابه آنف الذكر ، حيث يناقش أثر الحركة الصهيونية في وعي كثير من اليهود الغربيين ، وكيف أن محاولات الاستيطان الصهيونية كانت تستهدف أساساً تجنيد اليهود الأوربيين ، لا اليهود الشرقيين ، رغم أن تجنيد وتوطين اليهود الشرقيين (من اليمن والمغرب وحلب [سوريا] والقوقاز) في المستعمرات الزراعية كان أكثر سهولة ويسراً .

وقد ذكَّر روبين قارئه بأن الإشكناز ، بسبب طبيعة حياتهم في أوربا ، وبسبب الاضطهاد الذي تعرَّضوا له ، اجتازوا عملية طويلة من الاختيار وصراعاً مريراً من أجل البقاء ، وهو صراع لا يستطيع البقاء فيه سوى الأكثر ذكاء والأكثر قوة . ولذلك تمت المحافظة على المواهب العنصرية الطبيعية العظيمة التي يتمتع بها اليهود ، بل جرت تقويتها . وقد ساهمت عوامل أخرى أيضاً في تصفية غير الموهوبين ، وفي الإبقاء على الأكثر موهبة ، الأمر الذي شكَّل ضماناً أكيداً للتقدم الفكري للإشكناز وتفوُّقهم في النشاط والذكاء وفي المقدرة العلمية على السفارد وعلى اليهود العرب .

لكل ما تقدَّم ، يرى روبين أن الحقوق التي يدَّعيها الرجل الأبيض لنفسه لا تنطبق على السفارد ، وإنما تنطبق على الإشكناز وحدهم (فهم وحدهم القادرون على حمل عبء الرجل الأبيض ، وعلى اغتصاب آسيا وأفريقيا) .

وهذه الرؤية للمستعمر الصهيوني ، بوصفه رجلاً أبيض ، موضوع أساسي كامن في الاعتذاريات الصهيونية . فتيودور هرتزل كان يؤمن تمام الإيمان بتفوق الرجل الأبيض ، وكان يدرك تمام الإدراك ضرورة التنسيق بين الخطة الصهيونية الاستعمارية

والمشروعات الاستعمارية المماثلة حتى لا تتعارض الحقوق المختلفة للبيض . ولذلك ، فقد قرر الزعيم الصهيوني ، قبل أن يجتمع بتشامبرلين ، أن من الضروري قبل مناقشة الخطة الصهيونية ، أن يبين لوزير المستعمرات البريطاني أن هناك بقعة ما في الممتلكات الإنجليزية ليس فيها حتى الآن أناس بيض . وقد بيَّن الروائي الإنجليزي والمفكر الصهيوني إسرائيل زانجويل في خطابه أمام المؤتمر الصهيوني السادس (١٩٠٣) أن الاستيطان الصهيوني في شرق أفريقيا سيكون وسيلة لمضاعفة عدد السكان البيض التابعين لبريطانيا هناك . ولكن يبدو أن المستوطنين البيض هناك (وهم موضع الحلول) لم يقبلوا تعريف اليهودي بأنه رجل أبيض فعارضوا الاستيطان .

وقد حاول الصهاينة تسويغ الاستعمار الصهيوني بالرجوع إلى فكرة التفوق الحضاري الغربي . وانطلاقاً من هذا التصور ، تَحدَّث هرتزل عن الإمبريالية بوصفها نشاطاً نبيلاً ، يهدف إلى جَلْب الحضارة للأجناس الأخرى التي تعيش في ظلام البدائية والجهل . وقد كان هرتزل ينظر إلى مشروعه الصهيوني من خلال ذلك المنظور الغربي حين كتب رسالة إلى دوق بادن يؤكد له فيها أن اليهود ، عندما يعودون إلى وطنهم التاريخي ، سيفعلون ذلك بصفتهم ممثلين للحضارة الغربية ، وأنهم سيجلبون معهم النظافة والنظام والعادات الغربية الراسخة إلى هذا الركن الموبوء البالي من الشرق ، وأن الصهاينة سيقومون (بصفتهم من المؤيدين المتحمسين للتقدم الغربي) بمد السكك الحديدية في آسيا التي تُعَدُّ الطريق البري للشعوب المتحضرة .

والاعتذاريات التي تنطلق من مقولة عبء الرجل الأبيض موجَّهة بالدرجة الأولى للدول الإمبريالية ولشعوبها . وفي هذا الإطار طرحت إسرائيل نفسها باعتبارها دولة وظيفية غربية (بيضاء) نظيفة متقدمة ، قاعدة للديموقراطية الغربية تحمي المصالح الإستراتيجية الغربية وتقف بحزم وصرامة ضد القومية العربية (في عصر النظام العالمي القديم) وضد الحركات الإسلامية (في عصر النظام العالمي الجديد) .

ويؤكد الكثير من تصريحات الصهاينة أنهم لا يعتبرون أنفسهم كياناً عنصرياً منفصلاً فحسب ، بل يعتبرون أنفسهم أعضاء في الجنس الأبيض . وفي عام ١٩١٧ ، كتب الزعيم الصهيوني بن جوريون مقالاً تحت عنوان «في يهودا والجليل» وصف فيه المستوطنين الصهاينة في فلسطين لا بوصفهم عاملين في هذه الأرض فحسب ، بل على أنهم غزاة لها ، «لقد كنا جماعة من الفاتحين» . وفي مقال آخر بعنوان : «الحصول على وطن قومي» كتبه عام ١٩١٥ ، قارن بن جوريون بين الاستيطان الصهيوني والاستيطان الأمريكي في العالم الجديد ، مستحضراً صورة المعارك العنيفة التي خاضها المستوطنون الأمريكيون ضد الطبيعة الوحشية ، وضد الهنود الحمر الأكثر وحشية . ومما له مغزاه أنه ساوى بين الطبيعة وبين الهنود ، بل وضعهم في مرتبة أدنى إذ هم أكثر وحشية منها . والواقع أن هذه الواحدية الكونية تؤدي إلى تجريد الإنسان وتحويله إلى مجرد جزء من دورات الطبيعة ، الأمر الذي يجعل إبادته أو نَقْله أمراً مقبولاً بل مرغوباً فيه ، أما وايزمان فقد فصَّل في كتابه **المحاولة والخطأ** أن يقارن بين المستوطنين الصهاينة من جهة والمستوطنين الفرنسيين في تونس والمستوطنين البريطانيين في كندا وأستراليا من جهة أخرى ، كما أظهر أيضاً تعاطفاً ملحوظاً إزاء المستوطنين في جنوب أفريقيا .

ويتبدَّى الاتجاه العنصري ، الذي يسوِّغ الاستعمار والعنف والإبادة باسم التقدم ، في مذكرة بعث بها وايزمان إلى الرئيس ترومان (في ٢٧ نوفمبر ١٩٤٧) يشرح له فيها أن المجتمع الصهيوني في فلسطين يضم أساساً فلاحين متعلمين وطبقة صناعية ماهرة تعيش على مستوى عال ، ثم يقارن بين هذه الصورة المشرقة والصورة الكئيبة للمجتمعات الأمية الفقيرة في فلسطين .

وإذا نظرنا إلى الجانب الآخر لأسطورة عبء اليهودي الأبيض ، وهو التفوق التكنولوجي للصهاينة (وليس العرْقي) ، الذي سيجعلهم رسلاً للتقدم يقومون بتطوير المجتمع ودَفْعه من المرحلة الدنيا التقليدية إلى المرحلة العليا الحديثة ، فإننا نجد أن كتابات الصهاينة تزخر بها . وقد اقتبسنا بعضاً من كتابات بن جوريون (الصهيوني الاشتراكي) وغيره ، في دفاعهم عن الاستعمار الصهيوني ، باعتبارهم ممثلين للحضارة الغربية . ولا شك في أن المستوطنين الصهاينة كانوا عارفين بالتكنولوجيا وبوسائل التنظيم والقيم السياسية المعاصرة ، كما كانوا جماعة معاصرة فعلاً ، وقد نقلوا قيمهم ومؤسساتهم المعاصرة إلى الوطن الجديد ، فنظموا النقابات العمالية والأحزاب السياسية ، وأجروا الانتخابات على أساس صوت واحد لكل ناخب . بل إنهم مارسوا أحياناً أشكالاً من الاشتراكية ، من حيث عدالة توزيع الدخل أو الإيمان بأهمية العمل اليدوي ومساواته بالعمل الفكري . ولكن كل هذه الأشكال المعاصرة من التنظيم ، وهذه القيم الديموقراطية والاشتراكية ، ظلت مقصورة على الصهاينة وحدهم ، تُطبَّق على مجتمعهم الصغير (الميكرو) وليس على المجتمع كله . ولم يحاول الصهاينة تحديث المجتمع بأكمله بل على العكس حاولوا أن يوقفوا تطوُّره (وهذا الدور

يقف على الطرف النقيض من الدور الذي تلعبه النخبة المعاصرة ذات الأصول القومية) .

وقد بذل المستوطنون جهدهم في إبقاء السكان الأصليين في مستوى حضاري متخلف ، ومنعهم من تنظيم أنفسهم داخل أُطر معاصرة (نقابات عمال ، أحزاب سياسية) ، وفضلوا التعامل معهم داخل أطر المجتمع التقليدي وتنظيماته . ولذا ، فقد فضلوا التعامل مع كبار الملاك وزعماء العشائر . وقد رفض الهستدروت (اتحاد العمال المستوطنين الصهاينة) السماح للعمال العرب بالانتظام في صفوفه إلا في تاريخ قريب . كما أن الدولة الصهيونية (العصرية الديموقراطية) ترفض الاعتراف بحق تقرير المصير للسكان الأصليين أو حقهم في المشاركة في النظام السياسي الصهيوني الجديد عن طريق تكوين الأحزاب والاشتراك في الانتخابات ، وترفض أيضاً تشكيل دولة تضم كلاً من العنصر السكاني الدخيل والعنصر الأصلي على قدم المساواة .

وإلى جانب هذا ، هناك الحقيقة الأساسية ، وهي أن جماعة المستوطنين الغزاة تسرق من السكان الأصليين أرضهم ، أي تسرق منهم الأساس المادي لأي تَقدُّم ، وتهدم نمط حياتهم (الإطار الاجتماعي الذي تتحقق من خلاله ذواتهم التاريخية) . ولذا ، تتغيَّر الأولويات ، ويصبح واجب المواطن الأصلي (الجزائري أو الفلسطيني) هو البقاء وليس التقدم . ولعل هذا هو الذي يُفسِّر سرّ رفض موسى العلمي لكلمات بن جوريون الحلوة العذبة حين تقابلا عام ١٩٣٦ في منزل موشي شاريت . فطبقاً لما جاء على لسان بن جوريون بدأ الحديث بترديد النغمة (القديمة) التي أعدها عن المستنقعات التي يجري تجفيفها ، والصحارى التي تزدهر بالخضرة ، والرخاء الذي سيعم الجميع . ولكن العربي قاطعه قائلاً : "اسمع ! اسمع يا خواجه بن جوريون ، إنني أفضل أن تظل الأرض هنا جرداء مقفرة مائة عام أخرى ، أو ألف عام آخر ، إلى أن نستطيع نحن استصلاحها ونأتي لها بالخلاص" . ولم يسع بن جوريون إلا أن يعلق (فيما بعد) بأن العربي كان يقول الحقيقة ، وأن كلماته هو بدت مضحكة وجوفاء .

٢ ـ عبء اليهودي الخالص :

رغم شيوع أسطورة اليهودي الأبيض وحقه في استعمار فلسطين، فإن هذه الأسطورة لا تحتل مركز الصدارة وحدها في الخطاب الصهيوني ، ذلك أن الاعتذاريات الصهيونية ، وبخاصة حينما تتوجه إلى يهود العالم ، تستند بصفة جوهرية إلى فكرة اليهودي الخالص . واليهودي الخالص غير مرتبط بأي جنس أو حضارة ، شرقية كانت أو غربية (فهو يهودي مائة في المائة ، على حد قول بن جوريون) ، إذ أن اليهود بحسب هذا التصور يشكلون جنساً مستقلاً أو أمة مستقلة ، وليسوا مجرد سلالة من سلالات الجنس الأبيض أو الحضارة الغربية . واليهودي ، وليس الجنس الأبيض ، هو نقطة الحلول والركيزة الأساسية للتاريخ والكون ، أي أن مفهوم اليهودي الخالص عودة إلى الحلولية العضوية اليهودية المنفصلة تمام الانفصال عن الأغيار . وفي الواقع ، فإن اليهودي الخالص ظهر في إطار محاولة تهويد الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ، حين أسقطت الصهيونية الإثنية مصطلحات الصهيونية الحلولية اليهودية عليها .

كما أن فكرة اليهودي الخالص ، مثلها مثل فكرة الرجل الأبيض المتفوق ، تمنح اليهود حقوقاً معينة مقدَّسة وخالدة لا تتأثر بأية اعتبارات أو مطالب تاريخية ، ولا يمكن حتى للفلسطينيين أنفسهم أن يكون لهم حقوق أقوى أو حتى مماثلة لحقوق اليهود في فلسطين . ويتضح هذا التصور في كلمات الحاخام جـ . ل . هاكوهين فيشمان ميمون ، أول وزير للشئون الدينية في إسرائيل ، حيث أكد أن الصلة بين الشعب اليهودي وأرضه مقدَّسة أو هي سر من الأسرار الدينية ، وهذا ما يبيِّن أنه يدور في إطار حلولي عضوي . وقد يكون للآخرين ، على أحسن الفروض ، صلة ما بهذه الأرض (سياسية علمانية خارجية عرضية مؤقتة) في حين أن لليهود ، حتى وهم في حالة الشتات ، صلة مباشرة بها (صلة سماوية وأبدية ، فهي صلة حلولية عضوية) .

وفي مجال الدفاع عن هذه الأسطورة ، نصح مناحم بيجين بعض المستوطنين الصهاينة عام ١٩٦٩ بأن يصروا على أن فلسطين هي أرض إسرائيل "فلو كانت هذه الأرض هي حقاً فلسطين وليست أرض إسرائيل ، إذن فأنتم فاتحون ولستم مزارعين يفلحون الأرض ، أنتم إذن غزاة . وإذا كانت هذه الأرض هي فلسطين فهي إذن تنتمي إلى الشعب الذي عاش هنا قبل أن تأتوا إليها . . لن يكون لكم حق العيش فيها إلا إذا كانت أرض إسرائيل" .

وإذا أصبحت فلسطين الأرض المقدَّسة أو أرض يسرائيل تصبح حقوق اليهود الخالدة سارية المفعول فيها ، فيصبح بالإمكان الادعاء بأن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض لأنها دخلت الدائرة الحلولية التي تستبعد الآخر . لقد كان الصهاينة يدركون أن الفلسطينيين يعيشون في فلسطين ، وأن اليهود المشردين يعيشون في الأراضي التي وُلدوا فيها . ولكن الرابطة الأبدية بين الأرض والشعب اليهودي هي التي تجعل اليهود مجرد مشردين وشعباً رُحلاً

بلا جذور ، رغم وجودهم في أوطانهم في كل أنحاء العالم . وهذه الرابطة هي التي تنكر وجود الفلسطينيين وتجعل مطالبهم القومية مسألة هامشية . ولهذا ، فإن شعار "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" لابد أن تتم إعادة صياغته على النحو الحلولي التالي : "أرض مقدَّسة بلا شعب مقدَّس لشعب مقدَّس بلا أرض مقدَّسة" . وفي هذه القداسة يذوب الفلسطينيون (شعب غير مقدَّس لا يتمتع بالحلول الإلهي) ، وتصبح مطالبهم أمراً هامشياً وتافهاً ، وقد تحقَّق كل ذلك دون اللجوء إلى أية نظريات عرْقية فاضحة .

إن أسطورة الحقوق الأبدية لليهودي الخالص في أرض فلسطين، التي تفترض هامشية السكان الأصليين ، هي شكل من أشكال الاعتذاريات يتسم بدرجة عالية من الغموض واللاأخلاقية تفوق غموض ولا أخلاقية الاعتذاريات العنصرية التقليدية التي تنسب التفوق الحضاري والعرْقي للمستغل وتنسب التدني الحضاري العرْقي للمستغَل ؛ فالأساطير التقليدية ، في نهاية الأمر ، تعترف بوجود الآخر ، أما الأسطورة الصهيونية الخاصة بالحقوق اليهودية فهي ترفض الاعتراف بوجوده . وفي إطار الحلولية العضوية ، تصبح فلسطين (الأرض المقدَّسة) بلداً بلا سكان ، لأن امتلاك فلسطين ليس من حق السكان الأصليين . وليس بإمكان البشر ، يهوداً كانوا أم عرباً أن يتساءلوا عن معنى هذا القرار ، لأن محور مشكلة فلسطين ، وفقاً لما قاله بن جوريون ، يتلخص في حق اليهود المشتتين في العودة (فاليهود هم موضع الحلول الإلهي ، وهم اللوجوس المتجسد في التاريخ) ، وهو حق مطلق قائم منذ بداية التاريخ حتى نهايته . وكما قال وايزمان "إن أساس وجودنا كله هو حقنا في إقامة وطن قومي فوق أرض إسرائيل [فلسطين] وهو حق نملكه منذ آلاف السنين ، ومصدره وعد الرب لإبراهيم ، وقد حملناه معنا في أنحاء العالم كله طوال حياة حافلة بالتقلبات" . وقد وصلت نظرية الحقوق هذه إلى ذروتها فيما نسميه «الصهيونية الحلولية العضوية» ، صهيونية جوش إيمونيم وكاهانا حيث يصبح اليهودي الخالص هو اليهودي المطلق .

والجدير بالذكر أن النطاق الإقليمي المحدود للأسطورة الصهيونية قد جعل كثيراً من الناس ، ولا سيما في الغرب ، يعتقدون أن الصهيونية ليست عنصرية . وهم على حق في هذا من بعض النواحي ، فالنازية على سبيل المثال لم تكن عنصرية إزاء اليابانيين مثلاً . وكذلك الصهيونية في العالم الغربي ، فهي ليست سوى أيديولوجيا سياسية وضعها اليهود من أجل اليهود ، تخصهم وحدهم ولا تتضمن أي تمييز ضد أي شخص في الولايات المتحدة أو إنجلترا . بل لقد دافع بعض الغربيين عن الدور الإيجابي البنَّاء الذي تلعبه الصهيونية بين الأمريكيين اليهود ، حيث تزوِّدهم بالشعور بالترابط والانتماء . وقد تكون هذه النظرة سليمة في حدود هذه الجزئية . ولكن الصهيونية حين نُقلت من أوربا وأمريكا إلى آسيا (مسرحها الحقيقي) ، فإن الأمر أصبح جد مختلف ، وأفصحت الصهيونية عن وجهها العنصري القبيح وأخذت تمارس أثرها الهدام على المجتمع الفلسطيني . والواقع أن التناقض هنا ليس تناقضاً بين النظرية والممارسة ، ولكنه تناقض بين نظرية ونوعين من أنواع الممارسة ، أحدهما عرضي مؤقت (في الغرب) والآخر ضروري وجوهري (في آسيا) . وفي تصوُّري أن الحكم على الصهيونية لا يمكن أن يتم في لندن أو باريس ، وإنما ينبغي أن يتم الحكم عليها في مجال فعاليتها الأساسية ، في حيفا ويافا والضفة الغربية ومئات القرى التي هُدمت . ولو أننا حكمنا على النازية في طوكيو مثلاً لوجدناها أيضاً مجرد أيديولوجيا قومية تدافع عن حقوق وأمجاد الشعب الألماني .

ومما يدعو للسخرية أن بعض المتحدثين بلسان حكومة التمييز العنصري بجنوب أفريقيا ، والذين لا يهتمون بالتجربة الصهيونية العرضية في الغرب ، قد وضعوا تقييماً واقعياً للتجربة الصهيونية في آسيا . فقد عنَّف فيروورد ، رئيس وزراء جنوب أفريقيا السابق ، بعض الصهاينة الذين أرادوا المقارنة بين سياسة النمو المنفصل التي تنتهجها إسرائيل على أساس من الدين (أو اليهودية الخالصة) والسياسة المماثلة التي تنتهجها حكومة جنوب أفريقيا على أساس عنصري ، فقال : "إذا كان التمييز خاطئاً في الحالة الثانية ، فهو لا شك خاطئ أيضاً في الحالة الأولى" . والواقع أن الاعتذاريات ، مهما بلغت من تركيب ودهاء ، فإنها لا تغيِّر حقيقة التمييز العنصري في شيء . كما أن الحقوق المقدَّسة التي تَجُب حقوق الآخرين ، سواء استندت إلى أساس عنصري أو إلى أساس إلهي أو إثني ، فإنها في نهاية الأمر تعد على حقوق الغير وإلغاء لوجوده .

وتعبِّر فكرة اليهودي الخالص عن نفسها في فكرة الدولة اليهودية الخالصة الخالية من أية عناصر غير يهودية وفي التركيز المستمر على قضية اضطهاد اليهود في كل زمان ومكان . وقد حاول وايزمان أن يبلور هذه الفكرة من خلال صورة مجازية إذ قارن بين "اليهودي الخالص" والحيوانات التي تحيا حياة سعيدة في حديقة الحيوان (في جنوب أفريقيا) : "ها هي ذي في موطنها ، الذي تقل مساحته قليلاً عن مساحة فلسطين ، تنعم بالحرية ، وتقدِّم لها الطبيعة هباتها بسخاء ، ولا تواجهها مشكلة العرب" . وحتى لا يترك أي

مجال للشك لدى قارئه ، يعمم القضية على كل اليهود : "لا شك أنه أمر رائع أن يكون المرء حيواناً في حديقة الحيوانات بجنوب أفريقيا . فذلك أفضل له كثيراً من أن يكون يهودياً في وارسو أو حتى في لندن" . والصورة المجازية التي يستخدمها وايزمان تدل على غبائه الشديد ، ولكنها مع هذا ذات دلالة ، فالحيوان في حديقة الحيوان يشبه اليهودي الخالص في دولته اليهودية ، وهذا ما يفتقده اليهودي في فلسطين ووارسو ولندن!

كما أن التركيز على قضية البقاء اليهودي المهدد دائماً إما من خلال الإبادة المباشرة (الهولوكوست ـ أفران الغاز) أو من خلال الاندماج وفقدان الهوية هو تعبير عن مفهوم اليهودي الخالص . وينبع النقد الصهيوني للشخصية اليهودية في المنفى (باعتبارها شخصية جيتوية هامشية طفيلية) من مفهوم اليهودي الخالص هذا .

٣ ـ عبء اليهودي الاشتراكي :

وإذا كانت الاعتذاريات التي تستند إلى فكرة اليهودي الخالص فريدة مقصورة على الصهاينة ، فإن الاعتذاريات التي تستند إلى فكرة اليهودي الاشتراكي وحقوقه في فلسطين قد تكون أكثر تَفرُّداً وطرافة . وكما أشرنا من قبل ، انضم كثير من الشباب اليهودي إلى صفوف الحركات الثورية ، وقد سبَّب هذا حرجاً شديداً لليهود المندمجين . وقد باعت الصهيونية نفسها باعتبار أنها الحركة التي ستحوِّل الشباب اليهودي عن طريق الثورة . والواقع أن أسطورة الاستيطان العمالية برزت لتحقيق ذلك الهدف . تقوم هذه الأسطورة بتسويغ الاستيطان الصهيوني لا باسم التفوق العنصري أو التقدُّم الحضاري الأزلي أو الحقوق المقدَّسة الأزلية بل على أسس اشتراكية علمية (والاشتراكية في هذه المنظومة هي موضع الحلول ، وهي أيضاً اللوجوس المتجسد في التاريخ) . ومن ثم ، فإن الحقوق اليهودية تستند ـ حسب هذه الأسطورة ـ إلى المثل الاشتراكية العليا (ومنها نُبل العمل اليهودي) . ولم يكن هذا المنطق مقصوراً على الصهاينة وحده ، فثمة اتجاه داخل الحركة الاشتراكية الغربية يُطلَق عليه اصطلاح «الاشتراكية الإمبريالية» ، وتضم أولئك الاشتراكيين الذين وجدوا أن من المحتم عليهم (باسم التقدم والأممية) تأييد الإمبريالية الغربية لأنها تعبير عن الرأسمالية الغربية (أعلى مراحل التطور الاجتماعي والاقتصادي الذي بلغه الإنسان) . كما أنهم كانوا يرون أن الإمبريالية ، بغزوها آسيا وأفريقيا ، ستقضي على كل المجتمعات التقليدية فيها ، كما ستقضي أيضاً على التخلف وتجلب الصناعة والتقدم لها . ومن هذا المنطلق ، شجع بعض أتباع سان سيمون وكذلك فردريك إنجلز الاستعمار الاستيطاني في الجزائر ، كما دافع كثير من الاشتراكيين الهولنديين عن "الهجمة الحضارية" التي شنتها بلادهم على الأندونيسيين .

وقد خرجت أسطورة الصهيونية العمالية من هذه المجموعة من الأفكار ، فلم يكن المستوطنون الصهاينة مجرد يهود فحسب بل كانوا أيضاً رواداً زراعيين اشتراكيين وحارثين لأرض أجدادهم . وقد كتب مارتن بوبر لغاندي يقول : "إن مستوطنينا لم يجيئوا إلى فلسطين كما يفعل المستعمرون الغربيون الذين يطلبون من أهالي البلاد أن يقوموا عنهم بكل الأعمال ، بل إنهم يشدون بأكتافهم المحراث ويبذلون قوتهم ودمهم من أجل أن تصبح الأرض مثمرة" . وقد عاد المستوطنون العبريون الجدد إلى الأرض مثقلين بماضي يهود الشتات بكل ما في ذلك من شذوذ وطفيلية . وتقول النظرية العمالية الصهيونية إن المستوطن الجديد يمكنه ، من خلال العمل العبري ، أن يُطهِّر نفسه مما علق بها من شوائب وأدران ، فالمستوطنون إنما يحررون أنفسهم حين يحررون الأرض ، بحرثها والعمل على ازدهارها "إن هذه الأرض تعترف بنا لأنها تثمر من خلالنا" .

ولقد نقل الكاتب الإسرائيلي عاموس إيلون سطراً من أغنية جذابة كان الرواد الزراعيون يرددونها في المستوطنات الإسرائيلية ، يصفون أنفسهم فيها بأنهم أول من وصل ، "مثل العصافير في الربيع" ، إلى الحقول الملتهبة والأرض المقفرة الجرداء . وهذه البراءة الكونية ، وهذا الإيمان بقدرة العمل على الشفاء والتطهير ، وهذا الالتزام بمبدأ المساواة ، تظهر جميعاً في كلمات بن جوريون حين تحدَّث عن مدى أحقية الإنسان في أرض ما ، فهذا الحق لا ينبع من سلطة سياسية أو سلطة قضائية (فكل هذه الأمور ليست ذات شأن من وجهة النظر الصهيونية العمالية) وإنما ينبع من العمل . ثم أطلق بن جوريون شعاراً ثورياً أحمر لابد أنه لاقى هوى في القلوب الثورية البريئة : "الملكية الحقيقية والدائمة للعمال" . بيد أن نقل المفاهيم من مستواها وسياقها إلى مستوى وسياق آخرين يسفران عن نتائج مختلفة ، فمثل هذا الشعار يتسم بالثورية الحقة إذا استخدمه العمال الفرنسيون في الأرض الفرنسية . ولكن حينما يقوم العمال الفرنسيون بتطبيق الشعار نفسه في الأراضي الجزائرية ، فإنه يصبح في التو اغتصاباً للأرض ، وخصوصاً إذا كانت المنافسة بين العمال الفرنسيين والجزائريين منافسة غير متكافئة ، حيث كان الفريق الأول تسانده مؤسسة عسكرية متقدمة تكنولوجياً .

وقد علق الكاتب الإسرائيلي عاموس كنان على هذا النوع من الاعتذاريات الاشتراكية قائلاً : "إن الصهيونية لم تستطع تحقيق انتصاراتها وإنجازاتها دون الاستفادة من النفاق الذي تنطوي عليه هذه

الاشتراكية . فكما أن المسيحية (بمُثُلها ومثالياتها) كانت بمنزلة عذر معنوي للصليبيين ، فإن الاشتراكية (بمُثُلها ومثالياتها) أدَّت هذه المهمة للصهاينة" .

والاعتذاريات الاشتراكية موجَّهة بالدرجة الأولى للقوى والدول الاشتراكية في العالم وللشباب الاشتراكي من أعضاء الجماعات اليهودية . وفي هذا الإطار تطرح إسرائيل نفسها باعتبارها دولة اشتراكية يمقت سكانها الرأسمالية . ويُلاحَظ أنه في الستينيات مع تصاعد قوى التحرر الوطني في آسيا وأفريقيا ، كان ضرورياً أن يتلون الاعتذاريات الصهيونية . فطرحت الصهيونية نفسها على أنها حركة تحرُّر الشعب اليهودي (ممن؟) وهو شعب صغير استُعبِد عبر تاريخه ويبحث عن الحرية . وعملية تلوُّن الاعتذاريات الصهيونية دليل على مدى ذكاء الصهاينة وغياب البُعْد العقائدي الثابت ، وهو أمر متوقع من أيديولوجية تحملها جماعات هامشية تطالب بإنشاء دولة وظيفية لخدمة الاستعمار الغربي أو أية قوى على استعداد لتزويد هذا الجيب الاستيطاني بالأمن والدعم .

وتعبِّر كل نظرية للحقوق عن رؤية للذات تكملها رؤية للآخر . ويمكن القول فيما يتعلق بالحقوق الصهيونية بأن نظرية الحقوق الصهيونية في فلسطين تعني في واقع الأمر أن اليهود لا حقوق لهم في أوطانهم التي يقيمون فيها ، فمن له حقوق مطلقة في مكان ما لا يمكنه الادعاء أن له حقوقاً مطلقة أو نسبية في مكان آخر .

كيفية فك شفرة الخطاب الصهيوني المراوغ

How to Decode the Evasive Zionist Discourse

يتسم الخطاب الصهيوني بعدم التجانس والإبهام والمراوغة نظراً لاستخدامه آليات أسلوبية عديدة مثل استخدام أسماء ذات مسميات مختلفة أو عدة أسماء لها في واقع الأمر مسمًّى واحد أو كلمات لها معنى مبهم ، ومثل ترك فراغات عديدة داخل الخطاب دون ملئها . . إلخ . لكل هذا ، تتطلب قراءة أي نص صهيوني ، وكذلك فك شفرته ، أن نفعل العكس : فنقرأ ما بين السطور ونملأ الفراغات ونحاول التوصل للمعنى الدقيق للمصطلحات ونحدد العلاقة بين الأسماء والمسميات .

وأهم الخطوات هو تَذكُّر الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة والمُهوَّدة ، فهي تشكل الأساس الراسخ والمقولات الثابتة وراء كل الديباجات والحيل البلاغية الأخرى . وعلى الدارس كذلك أن يتذكر كل الحيل والإستراتيجيات البلاغية للخطاب الصهيوني . ويستطيع الدارس بعد ذلك أن يقوم بما نسميه «عملية استنطاق النص» ، أي أن يجعله ينطق بما هو متخف وكامن فيه ولا يُفصح عنه (المسكوت عنه) . فيتم تفكيك العبارات الصهيونية المختلفة وصولاً إلى المقولات الثابتة وراءها ، ثم يُعاد تركيب العبارات والنصوص والتصريحات في ضوء هذه المقولات (وعلى كل لم تَعُد هذه المقولات الثابتة أمراً يحتاج للتخمين أو قدح زناد الفكر ، فبعد مائة عام من الاستيطان الصهيوني ، وبعد حوالي نصف قرن بعد تأسيس الدولة ، أصبحت هذه المقولات مسألة واضحة تماماً) .

وسنحاول قراءة بعض قرارات المؤتمرات الصهيونية بالطريقة التي نقترحها ، ثم نستنتج ما نتصور أنه المعنى المقصود من خلال عبارات سنضعها بين أقواس معقوفة . وأول هذه القرارات هي قرارات المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) التي تُسمَّى برنامج بازل ، وهو يتكون من جملة افتتاحية تحدد الغرض من الحركة الصهيونية ، وأربع نقاط تقترح الوسائل اللازمة لتحقيق هذا الغرض .

"تستهدف الصهيونية إنشاء وطن [أي دولة] للشعب اليهودي [أي الفائض اليهودي من شرق أوربا] في فلسطين [أرض الميعاد أو الأرض المقدَّسة أو الأرض ذات الموقع الإستراتيجي] تحت حماية القانون العام [أي بحماية الدول الغربية]" .

ويوصي المؤتمر بالوسائل التالية لتحقيق هذا الغرض :

"١ ـ تطوير عملية توطين المزارعين والحرفيين والعمال اليهود في فلسطين [وطَرْد العرب منها] من خلال الأطر المناسبة [أي إقامة استعمار استيطاني يهودي في فلسطين عن طريق المكر أو العنف] .

٢ ـ تنظيم جميع اليهود وتوحيدهم عن طريق تنظيمات وهيئات محلية وعالمية ملائمة وفقاً لقوانين كل دولة [أي الهيمنة على الجماعات اليهودية مع عدم إحراج يهود غرب أوربا] .

٣ ـ تقوية الشعور القومي اليهودي والوعي القومي وتدعيمهما [أي المزيد من الهيمنة والتخلص من الجيوب غير الصهيونية بين اليهود ، وإرضاء يهود شرق أوربا من دعاة الخطاب الإثني : الديني والعلماني] .

٤ ـ اتخاذ خطوات تمهيدية للحصول على موافقة الحكومات [الغربية] ، باعتبار أن ذلك ضروري لتحقيق الهدف الصهيوني [أي الحصول على الشرعية الاستعمارية من خلال الدول الغربية]" .

إن صياغة برنامج بازل تعبير بليغ عن الخطاب الصهيوني المراوغ ، فلم يُذكَر فيه ما هو مفهوم من الجميع ويمكن أن يسبب الحرج وتُركت في بنوده فراغات كثيرة ليملأها كل صهيوني على طريقته ، ولم يذكر الدولة ولا حدودها ، وتم تغييب العرب تماماً من خلال التزام الصمت الكامل تجاههم ، ويُضاف إلى ذلك عدم تحديد

أعضاء الشعب اليهودي، ولم يتم الإفصاح عن أيٍّ من المفاهيم الأساسية الكامنة إلا بعد نصف قرن تقريباً في برنامج بلتيمور (الذي أصدره مؤتمر استثنائي عقده الصهاينة الأمريكيون والأوربيون في نيويورك مع ممثلي المستوطنين في فلسطين في مايو ١٩٤٢) وجاء فيه ما يلي : "الاعتراف بأن الغرض من شروط تصريح بلفور والانتداب التي تبيِّن ارتباط الشعب اليهودي التاريخي بفلسطين هو إيجاد حكومة يهودية هناك وجعل فلسطين حكومة يهودية" . وكما يقول ألان تايلور أحد مؤرخي الحركة الصهيونية : "وهكذا ظهر على السطح الآن وضوح الهدف الخفي [المقولة الثابتة] الذي رافق الصهيونية دوماً" . ولم يجانب هذا المؤرخ الصواب ولا حاول أن يفرض تفسيراً متعسفاً على الأحداث أو الكلمات . فقد وصف المجتمعون في فندق بلتيمور في مدينة نيويورك برنامج بلفور بأنه "تطبيق كامل لبرنامج بازل" . وكل ما حدث هو أن بعض الفراغات قد مُلئت ، وبعض العبارات الصامتة قد استُنطقت ، وبعض العبارات الهلامية قد تحدَّدت (ومع هذا استمر التزام الصمت تجاه مصير السكان الأصليين) . وقد ظل برنامج بازل ساري المفعول (مع تفسير بلتيمور) إلى أن تم تعديله بعد إنشاء الدولة .

وقد عُقد المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون (١٩٥١) بهدف التوصُّل إلى تعريف للصهيونية يحل محل برنامج بازل . فتقدَّم بعض الصهاينة الاستيطانيين بمشروع قرار يُعرِّف هدف الصهيونية بأنه "خلاص الشعب اليهودي من خلال تجميع المنفيين في أرض إسرائيل" وهي صيغة متشددة لا تتسم بأية هلامية ولا تحوي أية فراغات ، ولذا فإنها كانت تهدد بتفجير التناقضات . ولذا ، تم التغاضي عنها ، واتخذ المؤتمر بدلاً من ذلك قراراً يحدد مهمة الصهيونية بالطريقة المراوغة التالية : "تدعيم دولة إسرائيل ، وتجميع المنفيين في أرض إسرائيل ، وتأمين وحدة الشعب اليهودي" . وبينما تتضمن الصيغة المرفوضة أن الخلاص "لا يكون إلا من خلال الدولة وأن تجميع المنفيين هو الوسيلة الوحيدة للخلاص وأن الشعب اليهودي بأسره هو في المنفى ما دام باقياً خارج إسرائيل" ، نرى أن الصيغة المراوغة الجديدة لما سُمِّي «برنامج القدس» تترك الفراغات وتكتفي بسَرْد ثلاث مهمات مستقلة عن بعضها البعض ومتناقضة ، فمن سيقوم بدعم دولة إسرائيل يمكنه أن يفعل ذلك من الخارج ، أي باعتباره صهيونياً توطينياً ، الأمر الذي يعني أنه سيظل صهيونياً سواء هاجر أم لم يهاجر ما دام "يدعم" الدولة الصهيونية . بل إن عبارة «تجميع المنفيين» نفسها عبارة مراوغة ، فالمنفى (على ما يبدو) حالة عقلية وليست فعلية . فيهود أمريكا يعتبرون أمريكا وطناً قومياً لا منفى ، على عكس يهود روسيا ، ومن ثم فإن العبارة تعني تجميع المنفيين من شرق أوربا "بمساعدة المندمجين في غربها" . أما وحدة الشعب اليهودي ، فهو أمر هلامي عائم غائم إذ يمكن أن يشعر الصهيوني التوطيني بهذه الوحدة ويدافع عنها وهو جالس في غرفته المكيفة في منزله الوثير في أمريكا أو أستراليا . ورغم كل التحولات والتغيرات لا تذكر القرارات الصهيونية العرب بخير أو بشر .

وقد تم تعديل مهام الصهيونية مرة أخرى في المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين بمقتضى "برنامج القدس ٥٧٢٨ (١٩٦٨)" الذي لا يزال البرنامج المعتمد للحركة الصهيونية . وسوف نورد مرة أخرى ما نتصور أنه المعنى المقصود من خلال عبارات سنضعها بين أقواس معقوفة . ونصه كما يلي :

"أهداف الصهيونية هي :

- وحدة الشعب اليهودي [سواء استمر في الحياة في نيويورك أم حيفا] ومركزية إسرائيل في حياته [والمركزية مسألة شديدة العمومية] .
- تجميع [من يريد من] الشعب اليهودي في وطنه التاريخي - أرض إسرائيل - عن طريق الهجرة من مختلف البلدان .
- تدعيم دولة إسرائيل التي قامت على أساس رؤية الأنبياء للعدل والسلام [وهي رؤية يمكن تفسيرها بطريقة حلولية كمونية عضوية تُرضي الدينيين والعلمانيين] .
- الحفاظ على هوية الشعب اليهودي من خلال تشجيع التربية اليهودية والعبرية والقيم الروحية والثقافية اليهودية [سواء في إسرائيل أو في الولايات المتحدة] وحماية الحقوق اليهودية أينما كانت" .

والواقع أن صيغة البرنامج هي التسليم بالأمر الواقع ، أي بانقسام الحركة الصهيونية إلى اتجاهين ، أحدهما توطيني والآخر استيطاني ، لكلٍّ تعريفه الخاص "للشعب اليهودي" . وهو يشكل محاولة للحفاظ على وحدة غير موجودة ولتغطية تناقض يزداد تفاقماً . ولذا ، فقد ازدادت درجة المراوغة والصمت . وثمة افتراضان متناقضان كامنان في برنامج القدس :

١ - أن الشعب اليهودي شعب واحد وأن "وطنه التاريخي" هو أرض إسرائيل ، وبالتالي يكون هدف الصهيونية هو تجميع الشعب اليهودي عن طريق الهجرة ، أي تصفية الجماعات اليهودية ، وهذه هي صهيونية المستوطنين .

٢ - أن حالة التشتت حالة نهائية ، ومن ثم المناداة بحماية "الحقوق اليهودية أينما كانت" ، والحديث عن "مركزية إسرائيل في حياة

الشعب" . أما القرار الخاص بالهوية اليهودية وضرورة الحفاظ عليها فهو يشير ولا شك إلى «خطر الاندماج» ، وخصوصاً في الولايات المتحدة ، الأمر الذي يعني أيضاً استمرار حالة الشتات ، في الوقت الحاضر على الأقل ، ونسيان مسألة "تصفية الجماعات" .

وتجدُر ملاحظة أن برنامج القدس الذي حدد أهداف الصهيونية قد لجأ إلى صيغة مراوغة تسمح لكل صهيوني بأن يفسر حدود إسرائيل بالطريقة التي تروق له ، فلم ينص البرنامج صراحةً على أن "إقامة الدولة على ضفتي نهر الأردن هو هدف الصهيونية" وإنما تحدَّث عن "الوطن التاريخي ـ أي أرض إسرائيل" وهي عبارة مطاطة لها دلالات كثيرة في العقل الصهيوني (وخصوصاً في إطار "رؤية الأنبياء") من بينها ولا شك ضفتا نهر الأردن وضفاف النيل والفرات (إذا انفتحت الشهية) . ولا يزال هناك عنصر واحد ثابت لا يتغيَّر ، وهو عدم التوجه للقضية الفلسطينية ولمصير العرب .

وقد قُدِّر للصيغة المراوغة الاستمرار للأسباب التالية :

١ ـ كان من الممكن ترك الفراغات والتسلح بالصمت أو التشاجر بصوت عال بشأن الديباجات دون أن يلجأ فريق إلى تصفية الآخر ، وذلك لوجود اتفاق تام على الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة والعقد الصهيوني الصامت الذي تمت ترجمته إلى واقع تاريخي : احتلال فلسطين وطرد أهلها والاستيطان فيها .

٢ ـ كان جميع الصهاينة يدركون تماماً أن حركتهم ودوافعهم ليس لها استقلال حقيقي أو حركية مستقلة ذاتية . فالصهيونية ، كما كان يعرف الجميع ، تدين بوجودها واستمرارها لتبعيتها للغرب الذي كان يقوم بتمويل المشروع الصهيوني ، وبالتالي فإن الاختلاف على الديباجات هو اختلاف على أمور فرعية لا تؤثر في الحركة الفعلية .

٣ ـ بعد أن كانت الصهيونية الاستيطانية تطالب بتصفية الجماعات اليهودية في العالم (يهود الدياسبورا) ، أصبح من صالحها بقاء هذه الدياسبورا لتُقدِّم الدعم السياسي والعون المالي للدولة الصهيونية . ولذا ، فقد أصبحت الصيغة المراوغة الإطار الوحيد الممكن الذي يمكن من خلاله الاستمرار في العمل والتعايش مع التناقض .

٤ ـ وأخيراً ، كُتب للصياغة المراوغة الاستمرار بسبب فشل العرب في التمييز بين التيارات المختلفة داخل الحركة الصهيونية ، بل وفشلهم في التمييز بين اليهود الصهاينة واليهود الذين لا يكترثون بالحركة الصهيونية ، وبين اليهود الذين يدَّعون الصهيونية على مستوى القول ويتملصون منها على مستوى الفعل ، واليهود الذين يناصبونها العداء صراحةً وعلانيةً ، قولاً وفعلاً . كما أن فشل العرب في إلحاق هزيمة ضخمة بالكيان الصهيوني (باستثناء الانتفاضة) قد خَلَق تربة خصبة يمكن أن تنمو فيها الأساطير وتترعرع بما في ذلك ادعاء عدم وجود العرب . وتستطيع الصياغات المراوغة أن تستمر دون تحدٍّ ، فالإنسان يسائل نفسه بشأن أساطيره وأكاذيبه وخداعه لذاته وللآخرين إن كان هناك ثمن يُدفَع . أما إن ظلت الصياغة المراوغة صالحة للتعامل مع الواقع ، فهي ستمنح المرء ما يحتاج إليه من اتزان داخلي وطمأنينة نفسية دون أن يزعجه هذا الواقع ، ولذا فبوسعه أن يستمر في استخدامها والترويج لها .

القانون الدولي العام

International Law

«القانون الدولي العام» عبارة تتواتر في كلٍّ من الكتابات الصهيونية ومؤلفات هرتزل ، وكلمة «دولي» في معناها المعجمي تعني «عالمي» أو «يختص بكل الدول» ، ولكننا إن قرأناها في سياقها في كثير من النصوص الغربية المكتوبة في القرن التاسع عشر ، فإننا سنكتشف أنها تعني «غربي» ، ومن ثم فإن عبارة «القانون الدولي العام» تعني «القانون الغربي السائد آنذاك» ، وهو القانون الاستعماري الذي تم بمقتضاه تقسيم العالم بين الدول الغربية . ومن المصطلحات المرادفة ، مصطلح «قانون الأمم» ، أو «قانون الأمم المتحضرة» ، وهو بدوره يعني «قانون أمم الغرب» ، أي «القانون الاستعماري» .

وقد كان هرتزل والصهاينة يتحركون في إطار الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية وواقع الإمبريالية الغربية (كحقيقة تاريخية سياسية) ، وهذه الإمبريالية هي التي قامت بتقسيم العالم فيما بينها . ومن هذا المنظور ، يصبح الغرب مركز العالم ، وتصبح الحضارة الغربية قمة التطور الإنساني ، وكل الظواهر والقوانين هي محاولات متعثرة للوصول للحالة الغربية ، والإنسان الغربي الأبيض في القرن التاسع عشر هو الإنسان الذي يجسد قمة التطور . ولذا ، يصبح كل شيء غير غربي هامشياً ، وما هو غربي وحده هو الحقيقي والتاريخي والمركزي ، وإذا كان العالم هو الغرب فإن القانون الغربي يكون بالتالي هو القانون الدولي . ومن هنا كانت الصهيونية تُسمِّي نفسها «الصهيونية العالمية» (ومازلنا نتحدث عن «المغني العالمي» ـ خوليو مثلاً ـ ونحن نعني «المغني الغربي» ، أو نقول «له سمعة عالمية» ونحن نعني «سمعة في العالم الغربي» وهكذا) .

ومن أهم المصطلحات التي ترتبط بهذا الاستخدام مصطلح «صهيونية سياسية» أو «صهيونية دبلوماسية» فهي تعني في واقع الأمر صهيونية تقوم ببذل جهود سياسية لدى "الدول المتحضرة" ، أي

الدول الغربية ، والمناورة الدبلوماسية معها للحصول على موافقتها للاستيلاء على فلسطين . فهذه الدول هي التي قسَّمت العالم بينها ، ومن ثم فإن أي جهد سياسي أو دبلوماسي يُبذَل يدور في إطارها ، وأي جهد آخر هو أمر غير منطقي وغير سياسي أساساً فهو جهد رومانسي عبثي .

ويمكن أن تثار هنا قضية تَوَجُّه هرتزل إلى السلطان العثماني طالباً منه براءة لشركة استيطانية ، مع أن الدولة العثمانية لم تكن دولة "متحضرة" ، أي لم تكن غربية استعمارية . إن تفسير ذلك ببساطة هو أنه لم يكن قد تقرَّر بعد تقسيم الدولة العثمانية ، وكانت القوتان البروتستانتيتان (إنجلترا وألمانيا) تقفان وراءها حتى تقف حاجزاً أمام النفوذ الأرثوذكسي الروسي والنفوذ الكاثوليكي الفرنسي . ومع هذا ، كانت ثمة مؤشرات قد بدأت تلوح في الأفق ، فإنجلترا كانت قد استولت على قبرص ، ولكن الأهم أنها كانت قد استولت على مصر (١٨٨٢) ، وكانت أول دولة إسلامية تضمها إنجلترا ، الأمر الذي كان يعني تعدياً صريحاً على الدولة العثمانية وعلى شرعيتها الإسلامية ، وكان يعني بالتالي أن الوقت قد حان للتقسيم . وفي هذا الإطار تحرَّك هرتزل ، فكان يتقدم لتركيا لا باعتبارها دولة متحضرة وإنما باعتبارها منطقة نفوذ ألمانية ثم إنجليزية . وقد كان يعلم ذلك تماماً ، ولذا فإنه كان يلجأ دائماً إلى الحكومة الألمانية عسى أن تتوسط له عند السلطان . ولعل ما شجَّع هرتزل أن القوميات الجديدة ، خصوصاً في وسط أوربا والبلغاريين والصرب والمجر ، اقتطعت أوطانها أساساً من الدولة العثمانية تحت رعاية الدول الأوربية . وكان كل من كاليشر والقلعي يكتبان ويفكران على هذا المنوال حينما بدءا في التعبير عن النزعات الصهيونية الأولى . ولم يكن هرتزل استثناءً من القاعدة ، ولذا فقد كان عليه أن يتقدم للدولة العثمانية مضطراً بسبب طبيعة الوضع القائم ، ولكنه مع هذا كان يتحرك داخل إطار غربي وكان يسعى للحصول على الاعتراف الغربي به ، أي أن مناوراته في تركيا تمت هي الأخرى في إطار «القانون الدولي العام» الذي وضعته الدول المتحضرة .

شــركة ذات بــراءة
Chartered Company

«شركة ذات براءة» عبارة تتواتر كثيراً في كتابات هرتزل وكتابات الصهاينة قبل ظهور وعد بلفور ، ولا يمكن فهم النصوص الصهيونية قبل بلفور إلا بإدراك معناها الدقيق داخل سياقها . ومن المعروف أن هرتزل حينما بدأ في تحديث حل المسألة اليهودية كتب إلى عدد من كبار الاستعماريين في العالم (سير سيسل رودس وستانلي) . وقد رد عليه رودس عن طريق طرف ثالث قائلاً : "ضع نقوداً في حافظتك" ، أي أن تنفيذ المشروع الصهيوني يتطلب أن يقوم هرتزل بتدبير مبالغ للاستثمار . ورودس لم يكن ذكياً في إجابته ، فهو لم يفهم المشكلة الخاصة بالمشروع الصهيوني وهي أن المادة البشرية الاستيطانية المُستهدَفة والتي سيتم توطينها لا تتمتع بعلاقة عضوية مع أية دولة غربية على وجه التحديد (فهم أعضاء شعب عضوي منبوذ) . ولذا ، فقد كان هرتزل حصيفاً حينما قرر أن قوة المحفظة مسألة أساسية ، ولكنه أضاف : "جمعية اليهود [أي المنظمة الصهيونية] ، والهدف النهائي هو الحصول على الضمانات الدولية" .

كان هرتزل يعرف أن أحد أشكال العلاقة بين جماعات المستوطنين والتشكيل الاستعماري الغربي هو الشركات الاستعمارية الاستيطانية ذات البراءة ، ولذا فحينما طلب قيصر ألمانيا من هرتزل أن يلخص له ما يريده قال الأخير : "شركة ذات ميثاق أو براءة تحت الحماية الألمانية" . ومرة أخرى ، أظهر هرتزل براعته الفائقة وحسه العملي الزائد . فبدلاً من أن يقدم إلى القيصر ديباجة طويلة مملة عن حقوق الشعب اليهودي وعن ارتباطه الأزلي بأرض الميعاد ، أو حتى عن بؤس يهود شرق أوربا وما شابه ذلك من شعارات ما كانت لتنطلي على القيصر الذي كان يتحرك في نطاق الصيغة الصهيونية الشاملة ويعرف جيداً مدى فائدة اليهود ونفعهم وضرورة التخلص منهم . بدلاً من كل ذلك ، قال له هرتزل عبارة واحدة تلخص كل شيء . ولكي ندرك مدلول العبارة كما فهمها ممثل الصهيونية وممثل الدولة الراعية ، لابد من وضعها في سياقها التاريخي والحضاري . والكلمة الأساسية هنا هي كلمة «تشارتر charter» الإنجليزية وهي مستقاة من الكلمة اللاتينية «كارتا charta» (ورقة أو خطاب) ومعناها «خطاب أو ترخيص ينص على حقوق معينة تمنحها حكومة أو حكام لشخص أو شركة» . وهي الكلمة نفسها التي كانت تُستَخدم في العصور الوسطى في الغرب للإشارة إلى الاتفاق الموقَّع بين الجماعة اليهودية كجماعة وظيفية والسلطة الحاكمة .

ويبيِّن جورج جبور ، الدارس العربي لظاهرة الاستيطان ، أن هذه الشركات كانت إحدى الوسائل التي ابتدعها الاستعمار الغربي في أواخر القرن الماضي . فقد كانت هذه الشركات تقوم بتجنيد الفائض البشري في أوربا وتؤمِّن لهم سفرهم أو تمنحهم بعض المزايا في البلدان المُكتشَفة حديثاً مقابل أن يخدموا الشركة وينفذوا سياستها ويوسعوا نفوذها . وكانت الدول الراعية ، مانحة البراءة ، تقوم

بحماية الشركة من المنافسات الدولية وتنظم العلاقة بين المستوطنين والسكان المحليين . وقد كانت البراءة تمنح الشركة حق أن تكون «شبه دولة» فهي لم تكن مشروعاً مدنياً يهتم بالشئون التجارية وحسب ، وإنما كانت إحدى أدوات الاستعمار في مراحله التمهيدية . وقد كان مجال نشاطات الشركة واسعاً متنوعاً ، فمثلاً كانت تقوم بشراء وإنشاء المصانع وبناء القلاع والاستيلاء على الأراضي وسك النقود وإدارة القلاع والدخول في أحلاف سياسية وإعلان الحرب والسلم . ورغم هذه الاستقلالية ، فإن المشروع ككل كان يقع ضمن الإطار العام لمخططات تلك الإمبراطورية التي قامت بمنح البراءة . والفائدة التي تجنيها الإمبراطورية مانحة الصك من جراء مثل هذا الوضع مضمونة تماماً ، ففي حالة نجاح الشركة تحقِّق الإمبراطورية أرباحاً كبيرة . أما إذا فشلت ، فإن هيبة الإمبراطورية لا تتأثر (وهذا مناسب جداً لعلاقة الحضارة الغربية بالشعب العضوي المنبوذ والدولة الوظيفية) . وتبين **موسوعة الصهيونية وإسرائيل** أن هرتزل حينما كان يستخدم كلمة «تشارتر» فإنه كان يفكر أساساً في الميثاق أو البراءة التي منحتها الحكومة البريطانية في ٢٠ أكتوبر ١٨٨٩ إلى شركة سيسل رودس المسماة شركة جنوب أفريقيا البريطانية وأعطت بموجبها الحكومة البريطانية الشركة المذكورة حكماً ذاتياً كاملاً في منطقة الزامبيزي (التي يقع معظمها ضمن حدود روديسيا ، أي زمبابوي الآن) وذلك فيما يختص بإدارة المنطقة والنشاط السياسي تجاه السكان المحليين تحت إشراف الحكومة البريطانية . وقد أشار هرتزل إلى فكرة الميثاق في المؤتمر الصهيوني الثالث (١٨٨٩) ، كما أن مفهوم الميثاق استُخدم للإشارة إلى المحاولات الصهيونية الرامية إلى الاستيطان في العريش وشرق أفريقيا .

والواقع أن هرتزل ، بذلك ، كان يتبع النمط الاستعماري الاستيطاني السائد . فالاستيطان ، كما يقول جبور ، كان يبدأ عادةً برحلات الاستكشاف الجغرافية أولاً ، ثم يأتي عدد من الجنود والبحارة والمبشرين (بهذا الترتيب أو بغيره) ثم تبدأ هجرة المستوطنين . وقد قامت بهذه النشاطات كلٌّ من الصهيونية ذات الديباجة المسيحية والصهيونية التسللية والقنصليات الغربية ، وأدرك هرتزل أن الوقت قد حان للحصول على البراءة لدعم مشاريع الاستيطان ، وهي موافقة مختلفة عن الموافقة التي كانت تُمنَح عادةً للتجار والمستكشفين .

هذا ما كان يفكر فيه هرتزل . وقد كان تقسيمه للمشروع الصهيوني يماثل تقسيم شركة الهند الشرقية التي كانت تشرف عليها لجنة الأربعة وعشرين (جمعية اليهود) التي تقوم بعملية التخطيط والإدارة ، كما كان هناك جهاز تنفيذي خاص بالشركة نفسها يقوم بتنفيذ الأعمال التجارية .

ولكن الأمور تطورت بأسرع مما تصوَّر الصهاينة ، إذ تم تقسيم الدولة العثمانية وصدر وعد بلفور الذي زود الصهاينة بدعم وحماية أكثر مما توفره الشركات ذات البراءة ، فحل وعد بلفور محل البراءة . وقد كان الصهاينة يشيرون بالفعل إلى وعد بلفور وإعلان الانتداب على فلسطين باعتبارهما «الميثاق أو البراءة» ، وكان أتباع الصهيونية الدبلوماسية الاستعمارية يُسمَّون «الميثاقيون» (بالإنجليزية : تشارترايتس Charterites) .

ورغم أننا صنفنا وعد بلفور على أنه براءة منحتها دولة استعمارية لمجموعة من المستوطنين ، فإن ثمة اختلافات بين وعد بلفور والبراءات الأخرى ، أوجزها الدكتور جورج جبور فيما يلي :

١ ـ مع أن البراءة الممنوحة للحركة الصهيونية كانت بريطانية أساساً ، إلا أنها ووفق عليها من قبَل أهم الدول الأوربية ، ومن قبَل الولايات المتحدة الأمريكية ، بشكل أكثر صراحة من براءات الاستيطان السابقة .

٢ ـ لم يأت المستوطنون اليهود من قُطر أوربي واحد ، ولا أتوا أساساً من القُطر الذي منح البراءة ، بل من أقطار أخرى أهمها أوربا الشرقية .

٣ ـ كانت البراءة الممنوحة للحركة الصهيونية تخص اليهود وحدهم ، ولم تكن مفتوحة للجميع .

" وهكذا ، فإن تجربة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني كانت جغرافياً أوسع مدى من جهة (إذ تشمل كل الدول الأوربية وغير الأوربية في مرحلة لاحقة) ، وأضيق في القاعدة الاجتماعية (السكانية) من جهة ثانية (إذ كانت تقتصر على اليهود ولا تشمل جميع السكان) . كما أن هذه التجربة جاءت نتيجة إجماع إيجابي أوربي حكومي (إذ أن عدداً من الدول الأوربية ، بالإضافة إلى الولايات المتحدة ، أيَّدت وعد بلفور) من جهة ثالثة " .

الكومنولث

Commonwealth

كلمة استخدمها الصهاينة ابتداءً من ١٩٤٤ للإشارة إلى الكيان الذي ينوون تشييده في فلسطين (وقبل ذلك التاريخ كانت الكلمة المستخدمة بالإنجليزية هي «وطن» ، أي «هوم لاند Homeland» وليس دولة) . وتُستخدَم كلمة «كومنولث» في الوثائق الرسمية الأمريكية للإشارة إلى أربع ولايات أمريكية (كنتكي ، وماساتشوستس ،

وبنسلفانيا ، وفيرجينيا) وهي ولايات ليس لها استقلال ولا تختلف من الناحية الفعلية عن الولايات الأخرى . وتُستخدَم الكلمة أيضاً للإشارة إلى بورتوريكو ، وهي ولاية تحكم نفسها حكماً ذاتياً ولكنها لا تتمتع بالاستقلال الكامل . والمعنى الذي كان يقصده الصهاينة ، كما تدل المراسلات بينهم ، وكما يدل تطوُّر الأحداث فيما بعد ، يعني «دولة مستقلة ذات سيادة» ولكن هذا المصطلح تم استخدامه من قبيل المراوغة .

ويُشار أيضاً في الأدبيات الصهيونية إلى الكومنولث الأول والكومنولث الثاني أو الثالث . أما الأول ، فهو دولة سليمان وداود ، أما الثاني فهو دولة الحشمونيين ، أما الثالث فهو الدولة الصهيونية . ومن ثم ، فإن كلمة «كومنولث» دالٌّ ذو حقل دلالي مضطرب تماماً .

وقد استخدم الصهاينة كلمات أخرى مراوغة مثل «وطن قومي» ، وذلك لتحاشي استخدام كلمة «دولة» بكل ما تتضمنه من إيحاءات الاستقلال التي قد تُفجِّر الصراعات بين الصهاينة التوطينيين والصهاينة الاستيطانيين (قبل بلفور) والتي كان يمكن أن تُنبِّه العرب للخطر الاستيطاني الإحلالي المحدق بهم .

خلق الحقائق الجديدة

Creating New Facts

«خَلْق حقائق جديدة» من العبارات المتواترة في الخطاب الصهيوني . وقد وردت العبارة في أقوال وايزمان وجابوتنسكي وموشيه ديان (بعد حرب عام ١٩٦٧) . والعبارة تجسد مفهوماً أساسياً كامناً في الفكر الصهيوني والفكر الإمبريالي عامة . فهو فكر لا يؤمن بأية قيم أخلاقية ، ولا يحتكم إلى أية منظومات معرفية ، وهو فكر عملي واقعي مرن ، ولكن مرونته تكمن وراءها إرادة القوة والحد الأقصى من العنف (كما هو الحال مع الفكر البرجماتي) .

وتتبدَّى خاصية المراوغة في الخطاب الصهيوني في عبارة «خَلْق حقائق جديدة» . فالصهيونية عقيدة تتضمن أطروحاتها الأساسية (الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة) مسألة طرد العرب والاستيلاء على أراضيهم . ولكن ، لأسباب عملية عديدة ، لم يتمكن الصهاينة من الإعلان عن أهدافهم ، وأعلنوا أنهم ليست لديهم أية أطماع توسعية بل يرحبون بوجود العرب داخل الدولة الصهيونية (وكأن هذا أمر ممكن بالفعل) . ولكنهم كانوا يعلمون أنه حين تتغيَّر موازين القوة ، وحين تحين اللحظة ، فبإمكانهم التحرك لتحقيق الأهداف الكامنة (طرد العرب ـ الاستيلاء على أراضيهم) فيغيِّرون الوضع القائم ويخلقون حقائق جديدة لدعم الوضع القائم الجديد المبني على العنف . ويتم تعديل الأهداف الصهيونية المعلنة بما يتفق مع الوضع الجديد .

وهذا ما فعله الصهاينة بالضفة الغربية ، بعد عام ١٩٦٧ . فقبل ذلك التاريخ لم يكن أحد يتحدث عن ضم الضفة الغربية (إلا المتطرفون والمجانين) ، إذ كان الهدف المعلن هو العيش في سلام مع العرب داخل حدود ١٩٤٨ . ولكن ، بعد أن تم ضم الضفة الغربية ، قام الصهاينة بتكثيف الاستيطان لخلق حقائق جديدة حتى يُواجَه العالم الخارجي بأمر واقع جديد . ويتم حينذاك إعادة تعريف السلام ، فيصبح الانسحاب من بعض أجزاء الضفة الغربية وحسب هو الحد الأقصى الممكن .

إن المدلول المحوري (الركيزة النهائية) في كل المنظومة الصهيونية هو إرادة القوة ، فهذه هي الميتافيزيقا الحقيقية ، وهي في هذا لا تختلف عن الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية الغربية عامةً .



الجزء الثاني

تاريخ الصهيونية

١
تاريخ الصهيونية

تاريخ الصهيونية : مقدمة - السياق التاريخي والاقتصادي والحضاري للصهيونية - الفكر الصهيوني والحركة الصهيونية : تاريخ - المؤتمرات الصهيونية - برنامج القدس - هاتيكفاه - إمبر - تاريخ الصهيونية في روسيا - تاريخ الصهيونية في بولندا - تاريخ الصهيونية في ألمانيا - تاريخ الصهيونية في فرنسا - تاريخ الصهيونية في إنجلترا - تاريخ الصهيونية في الولايات المتحدة - تاريخ الصهيونية في العالم العربي

تاريخ الصهيونية : مقدمة

History of Zionism: Introduction

يرى الصهاينة والمعادون لليهود أن الحركة الصهيونية بدأت مع التاريخ اليهودي نفسه وأنها لازمت اليهود عَبْر تاريخهم بعد تحطيم الهيكل ، وذلك لسببين : واحد سلبي والآخر إيجابي . أما السلبي ، فهو ظاهرة العداء لليهود والمذابح والاضطهاد اللذين تعرَّض لهما اليهود في كل مكان وكل زمان ، وهي ظاهرة حتمية أزلية من المنظور الصهيوني . أما السبب الإيجابي ، فهو الرغبة العارمة لدى اليهودي في العودة إلى فلسطين (أرض الوطن - أرض الأجداد والأسلاف - الوطن القومي - أرض الميعاد) حيث إنه يشعر بالاغتراب العميق في أرض المنفى (الأمر الذي أدَّى إلى إفساد الشخصية اليهودية) . وتعود هذه الرغبة إلى أن اليهود ، من منظور صهيوني ، يشكلون قومية رغم أنهم لا يوجدون في مكان واحد ولا يتحدثون لغة واحدة ولا يتسمون بسمات عرْقية أو نفسية واحدة ولا يخضعون لظروف اقتصادية واحدة . وقد بدأت المسألة اليهودية يوم أن ترك اليهود وطنهم قسراً . والصهيونية هي التي ستضع نهاية لهذا الوضع ، وهي ستفعل ذلك عن طريقة آلية جديدة ، فهي ترفض سلبية اليهودية الحاخامية وخنوع الشخصية اليهودية ، وبالتالي سوف تحرِّض اليهود على العودة بأنفسهم إلى فلسطين ليحققوا تطلُّعهم القومي وستقوم بتنظيمهم لتحقيق هذا الهدف . ولكل هذا ، تنظر الصهيونية إلى نفسها باعتبارها التعبير الحقيقي والوحيد عن مسار التاريخ اليهودي .

لكن هذه الرؤية الصهيونية لتاريخ الصهيونية ليس ذات مقدرة تفسيرية عالية إذ أنها تفشل في أن تفسر سبب ظهور الصهيونية بين اليهود في أوربا في أواخر القرن التاسع عشر ولم تظهر قبل ذلك التاريخ في مكان آخر . ولو كان سبب ظهور الصهيونية هو عداء الأغيار لليهود ورغبتهم العارمة في العودة ، لكان الأولى أن تظهر الصهيونية إبان حروب الفرنجة على سبيل المثال . وكيف نفسر ظهور الفكر الصهيوني في الأوساط الاستعمارية الغربية وهم لا يدينون باليهودية ولا يوجد عندهم أي تطلُّع للعودة ولم يتعرضوا لاضطهاد الأغيار؟

وفي تصوُّرنا أن الصهيونية تعود إلى مركب من الأسباب التاريخية والحضارية والفكرية (انظر : «السياق التاريخي والاقتصادي والحضاري للصهيونية» - «المصادر العلمانية للفكر الصهيوني») لعل أهمها طراً هو ظهور الإمبريالية كرؤية معرفية وحركة سياسية اكتسحت العالم بأسره وحولته نظرياً وفعلياً إلى مادة لا قداسة لها تُوظَّف في خدمة الشعوب الغربية . وقد واكب هذا ظهور معاداة اليهود الحديثة التي ارتبطت تماماً بتصاعُد معدلات العلمانية الشاملة والعنصرية . ومن هذه النقطة سنطرح تعريفاً للصهيونية ، وسوف يتضمن هذا التعريف الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة التي تنظر إلى اليهود من الخارج ، وسنضع بين قوسين الديباجات الصهيونية اليهودية التي هوَّدت الصيغة ومن ثم يسَّرت على المادة البشرية المستهدفة استبطانها .

ويمكن تعريف الصهيونية بشكل مبدئي بأنها حركة داخل التشكيل السياسي والحضاري الغربي تنظر إلى اليهود من الخارج باعتبارهم فائضاً بشرياً ، فهم بقايا الجماعات الوظيفية اليهودية التي فَقَدت وظيفتها ونفعها وتحولَّت إلى شعب عضوي منبوذ وفائض بشري لا نفع له (ويتم تهويد هذا حيث ينظر اليهود إلى أنفسهم من الداخل باعتبارهم الشعب المختار أو الشعب العضوي أو الشعب الذي فقد وطنه ولذا فهو لا يمكنه تحقيق رسالته) . هذا الفائض (الشعب) يجب أن يُهجَّر (يعود) من أوطانهم (أرض المنفى) إلى خارج أوربا في أية بقعة في العالم . ثم تحدَّدت البقعة بفلسطين (صهيون أو إرتس يسرائيل أو أرض إسرائيل في المصطلح الصهيوني) . وسيتم نقلهم حتى يتم توظيفهم وتحويلهم إلى عنصر

استيطاني قتالي يقوم على خدمة المصالح الغربية (واحة الديموقراطية الغربية ـ نور الأمم ـ مركز الثقافة اليهودية ـ وطن قومي يهودي ـ مكان تحقق فيه رسالة اليهود المقدَّسة) نظير أن يضمن الغرب بقاءه واستمراره داخل إطار الدولة الوظيفية .

وحركة النقل السكاني هذه تتضمن حركة أخرى لا تذكرها الأدبيات الصهيونية إلا نادراً . فالعنصر السكاني الجديد لن يقوم باستبعاد السكان الأصليين أو استغلالهم عن طريق سرقة أرضهم وتحويلهم إلى عمالة رخيصة وإنما سيحل محلهم . فالمستوطن الصهيوني يريد الأرض خالية من السكان ، وبالتالي لابد من التخلص منهم إما عن طريق الإبادة (على الطريقة الأمريكية) ، وهذا أمر أصبح مستحيلاً ، أو عن طريق التهجير ، ومن ثم فإن المشروع الصهيوني ليس مشروعاً استعمارياً غربياً وحسب ، وليس مشروعاً استعمارياً استيطانياً وحسب ، وإنما هو مشروع استعماري غربي ، استيطاني إحلالي ، له ديباجات يهودية فاقعة .

ورغم هذه الديباجات ، ومع أن هناك بعض ملامح خصوصية بل متفردة في الصهيونية ، فإنها في تصوُّرنا ليست حركة عالمية ، فهي ليست ثمرة تفاعل حركيات عالمية على مستوى التاريخ العالمي وإنما ثمرة قوى حضارية وسياسية واجتماعية داخل التشكيل الحضاري الغربي . بل نذهب إلى أن الصهيونية إشكالية كامنة داخل الحضارة الغربية ولا يمكن فهمها بمعزل عن سياق هذه الحضارة وتياراتها الفكرية والقوى السياسية والاجتماعية التي تعتمل فيها والإشكاليات الكبرى التي تواجهها . ولعل معظم الناس يسمونها «صهيونية عالمية» لأنها أطلقت على نفسها هذا الاسم ، ولأنه حدث ترادف كامل في عقول معظم الناس بين ما هو غربي وما هو عالمي .

ولكل هذا ، فإن تاريخ الصهيونية هو بالدرجة الأولى جزء لا يتجزأ من تاريخ الحضارة الغربية ، ولا يمكن فهمه خارج حركيات هذا التاريخ . وسنستخدم الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة كوحدة تحليلية تبسيطية أساسية نقدم من خلالها تاريخ الصهيونية . ولنا أن نلاحظ أن التاريخ الذي نقدمه من خلال الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة مرتبط تماماً بتاريخ تحوُّل الجماعات اليهودية في الغرب إلى جماعات وظيفية وبفقدانها هذا الدور في عصر النهضة . وهو الأمر الذي أدَّى إلى تصاعد حمى معاداة اليهود وتزايد وتيرة الدعوة الصهيونية بين غير اليهود ثم بين اليهود ، فهو إطار تاريخي عام ينتظم تاريخ الغرب وتاريخ الصهيونية بين غير اليهود واليهود وتاريخ معاداة اليهود . ونحن نصر دائماً على ما نسميه «نظرية الصهيونيتين» ، أي أن هناك صهيونيتين ، واحدة توطينية وأخرى استيطانية ، لكلٍّ رؤيتها وتاريخها ومصالحها وجماهيرها ، ولكنهما تحالفا بعد صدور وعد بلفور . ولكن ، رغم هذا التحالف ، فإن كل صهيونية لا تزال محتفظة بتوجُّهها ومقاصدها وجماهيرها .

وفي مداخل هذا الباب سنقوم أولاً بتقديم السياق التاريخي والاقتصادي والحضاري للصهيونية ، ثم نقدم تاريخاً موجزاً للفكر والحركة الصهيونية . وفي بقية مداخل الباب سنقدم تواريخ الحركة الصهيونية في مختلف بلاد العالم .

السياق التاريخي والاقتصادي والحضاري للصهيونية

Historical, Economic, and Cultural Contexts of Zionism

ثمة مركب من الأسباب الحضارية والاقتصادية والتاريخية أدَّى إلى ظهور الصهيونية (بين غير اليهود واليهود) سنحاول أن نوجزها في هذا المدخل ، وبإمكان القارئ العودة للمداخل الخاصة بكل عنصر . ويُلاحَظ أننا استبعدنا مفهوم "التسامح مع اليهود" (انظر : «التسامح مع اليهود») لأنه لا يصلح كمفهوم تفسيري ، كما أن مضمونه السياسي والتاريخي يختلف من مرحلة لأخرى ، كما أن ما يبدو تسامحاً قد يكون بغضاً ، وما يبدو وكأنه بُغض قد يكون تسامحاً . ومن المعروف أن بلفور الذي أصدر الوعد الشهير كان يكن بُغضاً عميقاً لليهود ، على حين أننا نجد أن سير إدوين مونتاجو الذي وقف ضده وضد المشروع الصهيوني برمته كان يهودياً يكن الاحترام لبني ملته . وإذا كانت الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة تتضمن الإيمان بضرورة نقل الشعب العضوي المنبوذ النافع ثم توظيفه لصالح الحضارة الغربية ، فهل هذا يعبِّر عن البُغض أو يدل على التسامح والمحبة ؟

كما يجب ملاحظة أن تاريخ الصهيونية تاريخ مركب لأقصى حد ويتضمن ساحات ثلاثاً هي :

أ) أوربا : باعتبارها مصدر المادة البشرية والقوى الإمبريالية الراعية .

ب) فلسطين : باعتبارها المكان الذي تُنقَل إليه المادة البشرية .

جـ) العالم : باعتبار أن أعضاء الجماعات اليهودية يوجدون في العالم بأسره .

ورغم تعدُّد الساحات ، إلا أن سياق الحركة والفكر الصهيونيين يظل سياقاً غربياً تماماً ، إذ أن حركيات الصهيونية مرتبطة تماماً بالتاريخ العام للغرب ، ، وخصوصاً أن الغالبية الساحقة من يهود العالم موجودة في الغرب . فتاريخ الصهيونية جزء لا يتجزأ من تاريخ الحضارة الغربية وما صاحبه من ظواهر مرضية أو صحية (مثل معاداة اليهود وتصاعُد معدلات العلمنة والثورة الصناعية) ، وليس

علاقة كبيرة بالتوراة والتلمود أو «حب صهيون» أو حركيات ما يُسمَّى «التاريخ اليهودي». ويمكننا أن نُورد الأسباب التالية لظهور الصهيونية :

١ ـ فشل المسيحية الغربية في التوصل إلى رؤية واضحة لوضع الأقليات على وجه العموم ، ورؤيتها لليهود على وجه الخصوص ؛ باعتبارهم قتلة المسيح ثم الشعب الشاهد (في الرؤية الكاثوليكية) وأداة الخلاص (في الرؤية البروتستانتية) ـ (انظر الباب المعنون «الإقطاع الغربي») .

٢ ـ انتشار الرؤية الألفية الاسترجاعية والتفسيرات الحرفية للعهد القديم التي تعبِّر عن تزايد معدلات العلمنة (انظر : «الأحلام والعقائد الألفية» ـ «العقيدة الاسترجاعية») .

٣ ـ وضع اليهود كجماعة وظيفية داخل المجتمع الغربي (كأقنان بلاط ـ يهود بلاط ـ يهود أرندا ـ صغار تجار ومرابين) وهو وضع كان مستقراً إلى حدٍّ ما إلى أن ظهرت البورجوازيات المحلية والدولة القومية العلمانية (المطلقة والمركزية) فاهتز وضعهم وكان عليهم البحث عن وظيفة جديدة (انظر الباب المعنون «الجماعات اليهودية الوظيفية») .

٤ ـ مناقشة قضية إعتاق اليهود في إطار فكرة المنفعة ، ومدى نفع اليهود للمجتمعات الغربية (انظر : «نفع اليهود») .

٥ ـ ظهور الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية التي ترى العالم بأسره مادة نافعة تُوظَّف وتُحوسَل (انظر : «الرؤية المعرفية الإمبريالية والصهيونية») .

٦ ـ تَزايُد عدد أعضاء الجماعات اليهودية زيادة ملحوظة بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ ، وخصوصاً في شرق أوربا ، ابتداءً من القرن التاسع عشر (انظر الباب المعنون «إشكالية التعداد») .

٧ ـ وجود اليهود في مناطق حدودية مُتنازَع عليها بين الدول الغربية (انظر : «الحدودية») .

٨ ـ تعثُّر التحديث في شرق أوربا الأمر الذي دفع بالألوف إلى أوربا الغربية ، وهو ما ولَّد الفزع في قلوب حكومات غرب أوربا وأعضاء الجماعات اليهودية فيها . ونحن نذهب إلى أن عام ١٨٨٢ (تاريخ صدور قوانين مايو التي كرَّست تعثُّر التحديث في الإمبراطورية القيصرية الروسية) هو تاريخ ظهور الصهيونية بين اليهود (انظر : «المسألة اليهودية») .

٩ ـ عزلة يهود اليديشية ثقافياً وبخاصة في منطقة الاستيطان وفشل قطاعات كبيرة منهم في التكيف مع الأوضاع الجديدة .

١٠ ـ أزمة اليهودية الحاخامية وظهور حركات الإصلاح والدمج (انظر : «أزمة اليهودية») .

١١ ـ سقوط القيادات التقليدية للجماعات اليهودية (الحاخامات وأثرياء اليهود) وظهور المثقف اليهودي الذي فقد هويته اليهودية ولم يكتسب هوية غربية جديدة ، فهو يهودي غير يهودي يصر عالم الأغيار على تصنيفه يهودياً ، ومثل هؤلاء المثقفين هم الذين أخذوا بالتدريج يحلون محل القيادات التقليدية (انظر : «قيادات الجماعات اليهودية») .

١٢ ـ ظهور الفكر العنصري وهيمنته على قطاعات كبيرة في المجتمعات الغربية (انظر الباب المعنون «العنصرية الصهيونية») .

١٣ ـ ولكن أهم العناصر على الإطلاق هو ظهور الإمبريالية الغربية كقوة عسكرية وسياسية عالمية (بمعنى أن ساحتها العالم بأسره) تُجيِّش الجيوش وتنقل السكان وتقسم العالم . وقد وجدت الإمبريالية الغربية في أعضاء الجماعات اليهودية ضالتها باعتبارهم مادة استيطانية تسبب مشاكل أمنية إن بقيت داخل العالم الغربي ، ولكنها تستطيع أن تزيد نفوذه إن نُقلت خارجه وتحولت إلى مادة قتالية تحوسل لحساب الغرب داخل نطاق الدولة الوظيفية . ووجدت القيادات الصهيونية بدورها أن ثمة إمكانية لوضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ من خلال تَقبُّل الوظيفة القتالية المطروحة .

ويجب ملاحظة أن الصهيونية التوطينية ظهرت في غرب أوربا حيث كان عدد اليهود صغيراً وحيث حقق أعضاء الجماعات اليهودية قدراً عالياً من الاندماج والعلمنة في مجتمعات كانت تحل مشاكلها الاجتماعية عن طريق الاستعمار وغير ذلك من الآليات . أما الصهيونية الاستيطانية فقد ظهرت أساساً في شرق أوربا حيث توجد كثافة سكانية يهودية ضخمة ، وحيث تفاقمت القضايا الاجتماعية دون حل حتى عام ١٩١٧ .

ثم ظهرت الصهيونية النفعية (صهيونية المرتزقة) بعد ذلك بين يهود الدول العربية منذ عام ١٩٤٨ ، وبين يهود الاتحاد السوفيتي بعد عام ١٩١٧ ، وتصاعدت وتيرتها بعد عام ١٩٧٠ . والسياق التاريخي للصهيونية النفعية يتفاوت من بلد لآخر ، ومن جماعة يهودية إلى أخرى .

الفكر الصهيوني والحركة الصهيونية : تاريخ موجز

Zionist Thought and Movement : Brief History

تاريخ الصهيونية مركب لأقصى حد بسبب تداخل مستوياته وساحاته . وسنحاول تقديم هذا التاريخ الموجز من خلال ثلاث عناصر : الساحة ـ الخلفية ـ المادة البشرية المستهدفة ، وسنقسم تاريخ الصهيونية إلى أربعة مراحل أساسية :

أولاً : المرحلة التكوينية .

ثانياً : مرحلة الولادة في مطلع القرن العشرين .

ثالثاً : الاستيطان في فلسطين .

رابعاً : أزمة الصهيونية .

وسنقسِّم كل مرحلة إلى فترات مختلفة .

أولا : المرحلة التكوينية .

١ ـ الصهيونية ذات الديباجة المسيحية (حتى نهاية القرن السابع عشر) :

شهدت هذه المرحلة من ناحية الخلفية العامة البدايات الحقيقية للانقلاب التجاري في الغرب . إذ هيمن الجيب التجاري (الذي كان منعزلاً في المدن في أوربا الإقطاعيـة) على الاقتـصـاد الزراعي الإقطاعي عام ١٥٠٠ تقريباً ، وأعاد صياغة الإنتاج وتوجيهه بحيث خرج به عن نطاق الاكتفاء الذاتي وسد الحاجة . وبدأ التجار يلعبون دوراً مهماً في توجيه سياسات الحكومات ، وهذا ما يُعبَّر عنه باصطلاح «الانقلاب التجاري» . وقد شجع هذا الانقلاب حركة الاكتشافات الجغرافية ، وهي حركة استعمارية ضخمة كانت تأخذ شكل استيطان في مراكز تجارية على الساحل . وفي أواخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر ، أصبحت إنجلترا ، بعد أن تحولَّت عن الكاثوليكية ونفضت النفوذَ الإسباني عنها ، أهم قوة استعمارية ، فراكمت الثروات وسيطرت على رقعة كبيرة من الأرض . وواكب كل هذا حركة الإصلاح الديني التي أعادت تعريف علاقة الإنسان بالخالق وبالكتاب المقدَّس بحيث أصبح في إمكان الفرد أن يحقق الخلاص بنفسه لنفسه خارج الإطار الكنسي الجمعي ، ودون حاجة إلى رجال الدين ، وأصبح من واجبه أن يفسر الكتاب المقدَّس لنفسه .

وإذا ما تركنا الخلفية جانباً وانتقلنا إلى الساحة ، فلسطين ، وجدنا أن الإمبراطورية العثمانية في هذه المرحلة كانت لا تزال تقف شامخة تحمي كل رعاياها ، مسلمين ومسيحيين ويهوداً ، وتُشكِّل كتلة بشرية ضخمة متماسكة ، ولم يكن الاستعمار الغربي يجرؤ على مواجهتها ، وكان يفضل الالتفاف من حولها . ومع هذا يجب أن نسجل أن هذه الفترة شهدت بداية جمود الدولة العثمانية وظهور علامات ضعفها (في الوقت الذي كانت فيه الدول القومية الأوربية تزداد قوة بتأثير الانقلاب التجاري) .

ظهرت الصيغة الصهيونية الأساسية في أواخر القرن السادس عشر على شكل الأحلام الاسترجاعية في الأوساط البروتستانتية الاستعمارية ، وخصوصاً في إنجلترا ، وقد وُلدت كفكرة وحسب ، كإمكانية تبغي التحقق لا في أوربا وإنما خارجها ، وليس من خلال الإنسان الأوربي ككل ، وإنما من خلال الجماعات الوظيفية اليهودية . وكانت الصيغة الصهيونية الأساسية متدثرة بديباجات مسيحية بروتستانتية . وقد كانت هذه الصهيونية ترى اليهود باعتبارهم مادة بشرية يمكن حوسلتها . ولذا ، فلم يُتصوَّر أن يكون لهم دولة وظيفية مستقلة (فمركز الحلول هو المسيحيون البروتستانت) والمكان الذي سيُنقَلون إليه كان يختلف من مفكر لآخر . والهدف من نقلهم هو الإعداد للخلاص المسيحي . ويُلاحَظ أن هذا الضرب من الصهيونية (شأنه شأن أية صهيونية توطينية) ينظر إلى اليهود من الخارج كعنصر يُستخدَم ومادة تُوظَّف . وإن كان يجدر ملاحظة أن الصهيونية هي بالدرجة الأولى حركة غير يهودية ، لم يشترك فيها أعضاء الجماعة اليهودية من قريب أو بعيد . كما يُلاحَظ أن الخطاب الصهيوني كان هامشياً جداً ، مقصوراً على الأصوليين البروتستانت .

٢ ـ صهيونية غير اليهود (العلمانية) (حتى منتصف القرن التاسع عشر) :

شهدت هذه المرحلة تراكم رؤوس الأموال وهيمنة الملكيات المطلقة (بتوجهها المركنتالي) على معظم أوربا ، غربها ووسطها ، وإلى حدٍّ ما شرقها . ورغم أن القوى السياسية التقليدية كانت لا تزال مسيطرة على دفة الحكم فإن الطبقات البورجوازية ازدادت قوة وثقة بنفسها وبدأت تطالب بنصيب من الحكم ، بل بدأت تؤثر فيه . وقد عبَّر هذا عن نفسه من خلال الفلسفات الثورية المختلفة والنظريات الكثيرة عن الدولة والفكر العقلاني ، وأخيراً من خلال الثورة الفرنسية التي تُعدُّ ثمرة كل الإرهاصات السابقة وتشكِّل نقطة تحوُّل في تاريخ أوربا بأسرها .

وقد أدَّى تراكم رؤوس الأموال والفتوحات العسكرية والاكتشافات الجغرافية وتقدُّم العلم والتكنولوجيا إلى حدوث النقلة النوعية التي يُطلَق عليها «الثورة الصناعية» ، ويرى بعض المؤرخين أن بدايتها تعود إلى هذه الفترة . وكانت إنجلترا في المقدمة في هذا التحول ، فقد كانت أول دولة في العالم تتحول من دولة تجارية إلى دولة رأسمالية صناعية ، ثم تحوَّلت إلى قوة عظمى بعد انتصارها على فرنسا في حرب السنوات السبع ، وبعد توقيع معاهدة أوترخت عام ١٧١٣ . وفي نهاية القرن الثامن عشر كانت إنجلترا أكبر قوة استعمارية في العالم . ومع تصاعُد المشروع الاستعماري انزوى دعاة الديباجات الدينية وتدثرت الصياغة الصهيونية الأساسية بالديباجات العلمانية الرومانسية والعضوية والنفعية والعقلانية . وقد دعا نابليون (أول غاز في الشرق الإسلامي وعدو اليهود) إلى إقامة دولة يهودية

في فلسطين مستخدماً خليطاً من الديباجات الرومانسية والدينية والنفعية .

وكان الوهن الذي دب في أوصال الدولة العثمانية (رجل أوربا المريض) قد بدأ يظهر ويتضح ، وكانت كل القوى الغربية تفكر في طريقة للاستفادة من هذا الضعف لتحقق لنفسها بعض المكاسب . وقد أخذ هذا شكل الهجوم المباشر من روسيا التي ضمت بعض الإمارات التركية على البحر الأسود ، ثم هجوم نابليون على مصر ، بينما قررت إنجلترا ، ومن بعدها ألمانيا (في مراحل مختلفة) الحفاظ على هذه الإمبراطورية مع تحقيق المكاسب من خلال التدخل في شئونها و"إصلاحها" حتى تقف حاجزاً ضد أي زحف روسي محتمل .

ولعل أهم حقيقة سياسية في هذه المرحلة هي ظهور محمد علي المفاجئ وقيامه بتكوين إمبراطوريته الصغيرة . فقد قلب موازين القوى وهدد المشروع الاستعماري الغربي الذي كان يفترض أن العالم كله إن هو إلا ساحة لنشاطه وسوق لسلعه ، ووضع حداً لآمال الدول الغربية التي كانت تترقب اللحظة المواتية لاقتسام تركة الرجل المريض المحتضر . ولذا تحالفت الدول الغربية كلها ، ومنها فرنسا ، وعقدت مؤتمر لندن عام ١٨٤٠ وقررت فيه الإجهاز عليه ، فاضطرته إلى التوقيع على معاهدة لندن لتهدئة المشرق . وعند هذه النقطة تبلورت الفكرة الصهيونية بين غير اليهود ، وتحولت من مجرد فكرة إلى مشروع استعماري محدد ، إذ بدأت تُطرَح فكرة تقسيم الدولة العثمانية ومن ثم اكتسبت الصيغة الصهيونية الأساسية مضموناً تاريخياً وبُعْداً سياسياً ، وأصبح بالإمكان دمج المسألة اليهودية (مسألة الشعب العضوي المنبوذ) مع المسألة الشرقية (تقسيم الدولة العثمانية) وطُرحت إمكانية توظيف الشعب المنبوذ وبدأ التفكير في حل المسألة اليهودية عن طريق نَقْل اليهود إلى فلسطين وإيجاد قاعدة للاستعمار الغربي (أي أن تتم حوسلة اليهود باسم الحضارة الغربية ومصالحها التي هي مركز الحلول) . ويمكن القول بأن الفكرة الصهيونية قد بدأت تتحول إلى فكرة مركزية في الوجدان السياسي الغربي . وهذه المرحلة هي مرحلة صهيونية غير اليهود (العلمانية) ، وهي صهيونية توطينية . وظهر أهم مفكر صهيوني (إيرل أوف شافتسبري السابع) ، كما ظهر لورانس أوليفانت . ولكن ، حتى هذه المرحلة ، لم تكن فكرة الدولة اليهودية قد ظهرت ، إذ كان التصور لا يزال أن يكون التجمُّع اليهودي محمية تابعة لدولة غربية . وحتى فلسطين نفسها كمكان للتجمُّع كان لا يزال أمراً غير مقرر . وكانت النظرة لليهود لا تزال خارجية ، فقد كان يُنظَر إليهم كمادة استعمالية لا قيمة لها في حد ذاتها تكتسب قيمتها من نفعها . وكانت ديباجات الصهيونية في هذه المرحلة عقلانية مادية ورومانسية (لاعقلانية مادية) .

٣ـ صهيونية أثرياء اليهود المندمجين في مجتمعاتهم الغربية (النصف الثاني من القرن التاسع عشر) :

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تَعُد الحروب ضد دول آسيا وأفريقيا ، بعد التطورات الصناعية المذهلة في أوربا ، أمراً يبهظ خزائن الدول الاستعمارية ، بل إن العائد أصبح يفوق التكاليف (وكانت إحدى مقولات أعداء المشروع الاستعماري أن تكاليف الإمبراطورية تفوق عائدها) . ومما تجدر ملاحظته كذلك أن الضغوط السكانية والأزمة الاقتصادية داخل المجتمعات الغربية جعلتها تبحث عن حل لمشاكلها خارج أوربا . ولكل هذا طرحت الإمبريالية نفسها باعتبارها المخرج من المأزق التاريخي .

ولكن المشروع الإمبريالي لم يكن يتم في ظل نظريات التجارة الحرة ، إذ سيطر فكر احتكاري جديد يُسمَّى «نيو ـ مركنتالي neo-mercantile» (أي «المركنتالي الجديد») بحيث تم تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ واحتكارات ، كل منطقة منها مقصورة على الدولة التي استعمرتها (ومن هنا المؤتمرات الدولية المختلفة في هذه الفترة لتقسيم العالم إلى مناطق نفوذ) . ومع منتصف القرن التاسع عشر كانت إنجلترا ورشة العالم بلا منازع . فإنتاجها الصناعي كان قد وصل إلى مستوى لم تعرفه البشرية من قبل ، وإمبراطوريتها كانت مترامية الأطراف تحميها قوة عسكرية ضخمة وأسطول يُسيطر على كل بحار العالم . وقد اتخذت السياسة البريطانية شكلاً إمبريالياً أكثر حدة ، ولا سيما بعد تحطيم مطامع روسيا في حرب القرم ، وبعد أن تحوَّل مشروعها الاستعماري إلى أواسط آسيا وغيرها من المناطق البعيدة عن أفريقيا والشرق الأوسط اللذين تزايد الاهتمام الإمبريالي البريطاني بهما . فاشترت بريطانيا أسهم شركة قناة السويس عام ١٨٧٦ ، واستولت على قبرص عام ١٨٧٨ ، واحتلت مصر (الطريق إلى الهند) عام ١٨٨٢ . ونتيجة كل هذا أصبح مصير فلسطين جزءاً من المخطط الاستعماري البريطاني ، الأمر الذي حدا بكتشنر أن يطالب بتأمين ضم فلسطين للإمبراطورية . ومع هذا كانت بريطانيا لا تزال ملتزمة بضمان ممتلكات الدولة العثمانية "من النيل إلى الفرات" التي "وعد الرب بها إبراهيم" ومن ثم أصبحت منطقة نفوذ بريطانية . ولكن في عام ١٨٨٥ قرَّرت حكومة المحافظين أن من الخير الموافقة على اقتراح القيصر بتقسيم الإمبراطورية (العثمانية) .

ومع هزيمة فرنسا على يد ألمانيا عام ١٨٧١ نشط المشروع

الإمبريالي الألماني ، وبالتالي العلاقة مع الدولة العثمانية ، فزاد حجم القروض الألمانية لها ، وزار القيصر وليام الثاني القسطنطينية عام ١٨٩٨ وزار بعدها فلسطين ، ولذا ظل المشروع الصهيوني متأرجحاً بين أعظم قوتين إمبرياليتين في ذلك الحين ، البريطانية والألمانية .

كانت الصيغة الصهيونية حتى هذه المرحلة مجرد فكرة غربية تبحث عن المادة البشرية اليهودية المُستهدَفة التي ستُوظَّف . ومع تعثُّر التحديث في شرق أوربا في أواخر القرن التاسع عشر ، تدفَّق المهاجرون اليهود من شرق أوربا إلى غربها ، الأمر الذي هدَّد أمن هذه الدول كما هدَّد مكانة أعضاء الجماعات اليهودية فيها ، وقد أدَّى هذا إلى تشابك مصير يهود غرب أوربا ومصير يهود اليديشية . وحلاً لهذه المشكلة ، اكتشف يهود الغرب الحل الصهيوني دون أية ديباجات قومية أو سياسية (ومن هنا رفض فكرة الدولة اليهودية والابتعاد عن فلسطين كمكان للتوطين وعدم الاهتمام بالدولة الراعية إذ لا حاجة لها) وظهرت الصهيونية التوطينية بين أعضاء الجماعات اليهودية في غرب أوربا ، وخصوصاً بين الأثرياء منهم المندمجين في مجتمعاتهم . وعلى هذا ، فهو يعتبر أول اتجاه صهيوني يظهر بين اليهود ، ومع هذا فهو يشبه صهيونية غير اليهود في أنه ينظر لليهود من الخارج .

ويمكننا أن نقول إن تاريخ صهيونية غير اليهود يبدأ مع ظهور حركة الاستعمار الاستيطاني وتبلور ديباجاته وتكتسب بُعْداً أساسياً مع ظهور محمد عليّ وسقوطه (ويُلاحَظ أن أعضاء الجماعات اليهودية لا علاقة لهم بتطور الفكرة الصهيونية) . ولا يبدأ تاريخ الصهيونية عند اليهود إلا مع تعثُّر التحديث وتعاظم الإمبريالية ، كرؤية وكممارسة .

ومن أهم الصهاينة التوطينيين في هذه المرحلة إدموند دي روتشيلد وهيرش ومونتفيوري .

٤ ـ إرهاصات التيارات الصهيونية المختلفة بين اليهود (العقود الأخيرة في القرن التاسع عشر) :

لا تختلف الخلفية التاريخية لهذه المرحلة كثيراً عن سابقتها ، فالإمبريالية الغربية كانت قد قسَّمت العالم بينها . وكانت ألمانيا تحاول أن تُعيد التقسيم لتوسيع الرقعة التي تهيمن عليها . ومن هنا استمرار تذبذب الصهاينة بين بريطانيا وألمانيا . ورغم أن سياسة بريطانيا الرسمية كانت الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية وأملاكها إلا أن القرار بتقسيمها كان قد تم اتخاذه بالفعل . وكان التعبير عن كل هذه الصراعات هو الحرب العالمية الأولى التي انتهت بضم فلسطين (الساحة) إلى الإمبراطورية البريطانية واختفاء الدولة العثمانية كقوة سياسية .

أ) الصهيونية التسللية : اكتشف يهود شرق أوربا الصهيونية كحركة استيطانية ، ولكنهم لم يدركوا حتمية الحل الإمبريالي . ونظراً لقصور رؤيتهم ، حاولوا الاستيطان دون دعم إمبريالي ، وحاولوا تجنيد أثرياء يهود الغرب المندمجين ليرعوا مشروعهم ويدعموه ، وهذا ما سميناه «الصهيونية التسللية» (التي يقال لها «عملية») وهي أول صهيونية استيطانية وتتسم بأنها نابعة من المادة البشرية المُستهدَفة . ويظل مفهوم الدولة شاحباً بين دعاة الصهيونية التسللية ، كما أن فلسطين ليست بالضرورة ساحة الاستيطان . ومن أهم دعاة الصهيونية التسللية ليلينبلوم وبنسكر ، ثم ظهرت جماعات البيلو وأحباء صهيون . ويمكن النظر إليها باعتبارها إرهاصات لهرتزل وللصيغة الصهيونية الأساسية بعد تهويدها .

ب) إرهاصات الصهيونية الإثنية الدينية والعلمانية : وظهرت كتابات كاليشر والقلعي التي تُعتبر إرهاصات الصهيونية الإثنية الدينية ، ونشر آحاد هعام كتاباته الصهيونية التي ترى أهمية تأسيس دولة يهودية في فلسطين ، ولكن وظيفتها لم تكن الإسراع بعملية دمج اليهود بل الحفاظ على هويتهم .

جـ) إرهاصات الصهيونية العمالية : وقد ظهرت كذلك كتابات هس في منتصف القرن التاسع عشر التي ساعدت مفكري الصهيونية العمالية على صياغة أفكارهم .

٥ ـ مرحلة هرتزل (العقود الأخيرة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) :

ظهر هرتزل بين صفوف يهود الغرب المندمجين التوطينيين فاكتشف حاجة الغرب ويهود الغرب للتخلص وبسرعة من يهود شرق أوربا . ولكنه اكتشف الحقيقة البدهية الغائبة عن الجميع : حتمية التحرك داخل إطار الإمبريالية الغربية التي يمكنها وحدها أن تنقل اليهود خارج أوربا وأن توظفهم لصالحها نظير أن تزودهم بالدعم والحماية . وقد اكتشف هرتزل أيضاً فكرة القومية العضوية والشعب العضوي (فولك) التي تستطيع أوربا العلمانية الإمبريالية أن تدرك اليهود من خلالها . وقد نجح هرتزل في التوصُّل إلى خطاب مراوغ وهو ما جعل وضع نصوص العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن يهود العالم ممكناً . وهو عقد يُرضي يهود الشرق ولا يُفزع يهود الغرب ، ويجعل بإمكان الإمبريالية أن تضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ . كما أنه فتح الباب أمام عملية تهويد الصيغة الصهيونية الأساسية من خلال الديباجات

اليهودية المختلفة. ويتميز هرتزل عن كل من شافتسبري وأوليفانت في أنه هو نفسه يهودي ينظر إلى المادة البشرية المُستهدَفة من الداخل. ولكنه مع هذا يهودي غير يهودي، ولذا فهو ينظر إلى هذه المادة من الخارج ويراها باعتبارها مشكلة تبغي حلاً لا قيمة إنسانية تبغي التحقق. وبسبب ازدواجيته هذه، نجح هرتزل في أن يكون جسراً بين التوطينيين والاستيطانيين وبين اليهود والغرب، ولذا يمكن القول بأن الصهيونية تحوَّلت من فكرة إلى مشروع استيطاني استعماري على يد هرتزل في مؤتمر بال الذي وُلدت فيه الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة. وقد فزع أثرياء الغرب اليهود من دعوة هرتزل في بادئ الأمر، كما رفضها معظم الجماعات والمنظمات اليهودية في العالم.

٦ ـ تبلور الفكرة الصهيونية بين اليهود:

أ) حتمية الحل الإمبريالي: أدرك قادة يهود شرق أوربا حتمية الحل الإمبريالي من خلال هرتزل.

ب) استقرار الصيغة الصهيونية الشاملة: تم قبول الدولة اليهودية الوظيفية باعتبارها الهدف الأساسي للحركة الصهيونية والإطار الذي يتم توظيف اليهود من خلاله. وأدَّى تقسيم الدولة العثمانية إلى حسم الأمور تماماً لصالح دعاة الاستيطان في فلسطين.

جـ) تهويد الصيغة الصهيونية: أحس قادة يهود شرق أوربا أن الصيغة الصهيونية الأساسية، وصيغة هرتزل الاستعمارية، لا يمكن أن تُجنِّد يهود اليديشية، ولذا فقد أثاروا قضية المعنى والوعي اليهودي وأضافوا ديباجات إثنية دينية وعلمانية أدَّت إلى تهويد الصيغة الصهيونية وجعلت الشعب اليهودي مرة أخرى مركزاً للحلول وجماعةً لها قيمة في حد ذاتها، الأمر الذي جعل بإمكان يهود شرق أوربا استبطان الصيغة الصهيونية الأساسية. ويُلاحَظ أن الصهيونية الإثنية الدينية والعلمانية لا هي بالتوطينية ولا هي بالاستيطانية لأنها تتوجه لمستوى الهوية والوعي الذي يتجاوز ثنائية الاستيطان والتوطين وإن كان لها ثنائيتها الخاصة (ديني/ علماني)، وهي صهيونية تنظر إلى اليهود من الداخل.

د) الديباجات والتيارات السياسية: أدخل بعض الصهاينة العلمانيين ديباجات ليبرالية (الصهيونية العامة) أو اشتراكية (صهيونية عمالية) أو فاشية (الصهيونية التصحيحية) لتحديد شكل الدولة المزمع إقامتها، أي أنهم حددوا شكل الاستيطان، وبذا تكون الفكرة الصهيونية قد اكتملت وتحدَّدت ملامحها وصيغت كل الديباجات اللازمة لتسويقها أمام قطاعات وطبقات الجماعات اليهودية في شرق أوربا وغربها. وحتى ذلك التاريخ، كانت هناك صراعات كثيرة داخل الحركة الصهيونية:

أ) صراع بين التسلليين والدبلوماسيين.

ب) بين الدينيين والعلمانيين.

جـ) بين دعاة الاعتماد على ألمانيا في مواجهة دعاة الاعتماد على إنجلترا.

د) صراعات أيديولوجية بين دعاة الليبرالية ودعاة الاشتراكية.

هـ) صراع بين دعاة الصهيونية الإقليمية ودعاة الصهيونية التوطينية، أي بين دعاة الاستيطان في أي مكان ودعاة ما يُسمَّى «صهيونية صهيون» أي الاستيطان في فلسطين وحدها.

٧ ـ تأسيس المنظمة الصهيونية: لم تكن بلورة الفكرة الصهيونية كافية، بل كان ضرورياً أن يوجد إطار تنظيمي. وقد وضع هرتزل التصور الأساسي في كتابه **دولة اليهود**، ثم دعا للمؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) وتم تأسيس المنظمة الصهيونية.

ثانياً: مرحلة الولادة في مطلع القرن العشرين.

تختلف خريطة العالم السياسية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى عن التي سادت قبلها اختلافاً بيِّناً. فقد انتصر الاستعمار البريطاني على الاستعمار الألماني والتهم النصيب الأكبر من الإمبراطورية العثمانية، ثم ظهرت إرهاصات القومية العربية (ولكن حركة القومية العربية وحركة المقاومة العربية الفلسطينية، وبخاصة في العقود الأولى من هذه الفترة كانت ضعيفة غير قادرة على تعبئة الجماهير وتنظيمها ضد الاستعماريين الإنجليزي والصهيوني بتنظيمهما الحديث وعلاقاتهما العالمية وتعاونهما الوثيق داخل فلسطين وخارجها). وقد تصاعدت المقاومة في الثلاثينيات، ولكن المؤسستين الاستعماريتين نجحتا في قمعها وانتهى الأمر بطرد غالبية الفلسطينيين من ديارهم وأُعلنت الدولة عام ١٩٤٨ بموافقة الدول الغربية العظمى كلها وموافقة الاتحاد السوفيتي (ولم تظهر المقاومة الفلسطينية مرة أخرى بشكل منظم إلا عام ١٩٦٥ بقيادة فتح وبمشاركة الفصائل الفلسطينية الأخرى رغم أنها لم تتوقف إذ أخذت أشكالاً تلقائية غير منظمة طيلة الفترة السابقة).

وفي بداية هذه المرحلة ظهرت الولايات المتحدة كقوة كبرى لها ثقل يُعتدّ به على الصعيد العالمي. أما الاتحاد السوفيتي فقد دخل مرحلة البناء والتحديث الاشتراكي التي فرضت عليه نوعاً من العزلة. ومع ثلاثينيات القرن بدأ مركز الإمبريالية في الانتقال من لندن إلى واشنطن، وهي عملية يمكن القول بأنها اكتملت بعد الحرب العالمية الثانية التي خرجت منها الولايات المتحدة قائداً للمعسكر الإمبريالي بلا منازع.

كما يُلاحَظ تَركُّز معظم يهود العالم في الولايات المتحدة وقد كان لهذين العنصرين أعمق الأثر في تعميق توجُّه الحركة الصهيونية ثم الدولة الصهيونية نحو أمريكا .

مع وعد بلفور ، حُسِمت كل الأمور . فبعد ظهور الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة وقبول القيادات الصهيونية لها ، يظهر بلفور (ممثل الإمبراطورية البريطانية والحضارة الغربية ككل) ويوقع عقد بلفور باعتباره ممثلاً للحضارة الغربية (ويوقعه عن الطرف الآخر الصهاينة التوطينيون من يهود الغرب المندمجين والصهاينة الاستيطانيين اليهود ممثلي المادة البشرية اليهودية من شرق أوربا) فتصبح الحركة الصهيونية مشروعاً استعمارياً استيطانياً إحلالياً متكاملاً .

ويجب ألا نخلق انطباعاً خاطئاً بأن هناك تعاقباً زمنياً صارماً ، فالصهيونية ذات الديباجة المسيحية لا تزال مزدهرة رغم أن الحضارة الغربية قد تطوَّرت بطريقة همشت المسيحية ككل ، كما أن صهيونية غير اليهود (العلمانية) لا تزال قائمة والصهيونية التوطينية لا تزال هي الصهيونية المنتشرة بين معظم يهود العالم (ويُطلَق عليها صهيونية الدياسبورا) .

وبعد إعلان وعد بلفور ، وبعد اكتساب المنظمات الصهيونية الشرعية الاستعمارية التي كانت تسعى اليها ، تغيَّرت الصورة تماماً ، فلم تَعُد القضية قضية بعض قيادات الفائض اليهودي من شرق أوربا ، ولم تَعُد المسألة متصلة بإغاثة بضعة آلاف من اليهود ، وإنما أصبحت المنظمة تابعة لأكبر قوة استعمارية على وجه الأرض آنذاك ، وأصبحت ذات وظيفة محددة هي نَقْل المادة البشرية اليهودية إلى فلسطين لتأسيس قاعدة لهذه القوة . ولذا فلم يَعُد هناك مجال للاختلافات الصغيرة بين دعاة الاستيطان العمليين مقابل دعاة بذل الجهود الدبلوماسية مع الدولة الراعية . كما لم يَعُد هناك أي مبرر لوجود دعاة الصهيونية الإقليمية (أي توطين اليهود خارج فلسطين) ، وتساقطت بالتالي كثير من التقسيمات الفرعية أو أصبحت غير ذات موضوع ، وتم تقسيم العمل على أساس جديد يقبله الجميع ، وظهر ما يمكن تسميته «الصهيونية التوفيقية» . كما أن الرفض اليهودي للصهيونية فقد دعامته الأساسية : الخوف من ازدواج الولاء إذ أصبح تأييد الصهيونية أمراً لا يتناقض مع ولاء الإنسان الغربي لوطنه وحضارته .

ثالثاً : الاستيطان في فلسطين .

- تاريخ الحركة الصهيونية بعد ذلك هو تاريخ الاستيطان الصهيوني في فلسطين تحت رعاية حكومة الانتداب ومقاومة العرب لهذا الاستيطان . وقد ظهرت بعض التوترات بين القوة الاستعمارية الراعية والمستوطنين (وهو توتر يسم علاقة أية دولة راعية بالمستوطنين التابعين لها ، وهو لا يعود إلى تناقض المصالح وإنما إلى اختلاف نطاقها ، فمصالح الدولة الراعية أكثر اتساعاً وعالمية من مصالح المستوطنين) . ولذا ، فقد أصدرت الحكومة البريطانية الراعية مجموعة من الكتب البيضاء لتوضِّح موقفها من المستوطنين الصهاينة ومن العرب . وقد انتقل دور الدولة الراعية من إنجلترا إلى الولايات المتحدة . ولكن كل هذه العناصر لا تغيِّر بنية الفكر الصهيوني ولا اتجاه الحركة ولا تؤثر في المنظمة الصهيونية .

أما بالنسبة للمنظمة الصهيونية ، فبعد صدور وعد بلفور كان ضرورياً أن يكون لها ذراعها الاستيطاني الذي يتعامل مع حقائق الموقف في فلسطين . وقد أسَّست المنظمة الصهيونية ساعدها التنفيذي المعروف باسم الوكالة اليهودية عام ١٩٢٢ ، إذ نص صك الانتداب البريطاني على فلسطين على الاعتراف بوكالة يهودية مناسبة لإسداء المشورة إلى سلطات الانتداب في جميع الأمور المتعلقة بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين . وفي عام ١٩٢٩ ، نجح وايزمان ـ رئيس المنظمة الصهيونية آنذاك ـ في إقناع أعضاء المؤتمر الصهيوني السادس عشر بضرورة توسيع الوكالة اليهودية بحيث يتشكل مجلسها من عدد من أعضاء المنظمة وعدد مثله من غير أعضائها . وكان الغرض من ذلك استمالة أثرياء اليهود التوطينيين لتمويل المشروع الصهيوني دون إلزامهم بالانخراط في صفوف المنظمة ، والإيحاء في الوقت نفسه بأن الوكالة تمثل جميع يهود العالم ولا تقتصر على أعضاء المنظمة . وكان من شأن هذه الخطوة أن تعطي دفعة قوية للحركة الصهيونية وتدعم الموقف التفاوضي للمنظمة الصهيونية مع الحكومة البريطانية التي كان يقلقها تصاعد الأصوات الرافضة للصهيونية في أوساط يهود بريطانيا (وقد ظلت المنظمتان تُعرَفان بالاسم نفسه على النحو التالي : المنظمة الصهيونية/ الوكالة اليهودية حتى عام ١٩٧١ حين جرت عملية مزعومة وشكلية لإعادة التنظيم بحيث أصبحت المنظمتان منفصلتين قانونياً ولكل منهما قيادة مختلفة) .

ولم يهدأ الصراع تماماً بين التوطينيين والاستيطانيين . فحتى عام ١٩٤٨ ، كان الصراع يدور حول من يتحكم في المنظمة وحول تحديد أهداف المشروع الصهيوني . أما بعد عام ١٩٤٨ ، فإن مجال الصراع أصبح تعريف اليهودي (الديني والعلماني) إذ حُسِمت قضية التحكم في المنظمة لصالح المستوطنين تماماً ، ولم يعد الصهاينة التوطينيون يهتمون به .

رغم عدم اشتراك يهود البلاد العربية في إفراز الفكر الصهيوني

أو الحركة الصهيونية ، ورغم أن الصهيونية (بشقيها الشرقي والغربي) لم تتوجه إليهم بشكل خاص ولم تحاول تجنيدهم بشكل عام وواسع قبل عام ١٩٤٨ ، إلا أن إنشاء الدولة قد خلق حركيات تتخطى إرادتهم . كما أن حاجة الدولة الصهيونية إلى طاقة بشرية (بعد عزل يهود الشرق أو اختفائهم وبعد رفض يهود الغرب الهجرة) جعلها تهتم بهم وتجندهم وتفرض عليهم في نهاية الأمر «مصيراً صهيونياً»، أي الخروج من أوطانهم . وقد استقرت أعداد كبيرة منهم في الدولة الصهيونية ، وإن كان من الملحوظ أن أعداداً أكبر استقرت خارجها .

وقد ظهرت صراعات بين دعاة الديموقراطية ودعاة الشمولية ، وبين دعاة المشروع الرأسمالي الحر والنهج الاشتراكي ، ولكنها صراعات لا علاقة لها بالفكر الصهيوني ولا الحركة الصهيونية فهي صراعات داخلية بين المستوطنين ، وإذا شارك فيها الصهاينة التوطينيون فإن مساهمتهم تظل ثانوية . وتعود هامشية هذه الصراعات إلى أن الولايات المتحدة تمول التجمُّع الصهيوني بأسره ، بمن فيه من رأسماليين وإرهابيين وعقلاء ومجانين واشتراكيين وقتلة . فالحقيقة الأساسية هي وظيفية الدولة الصهيونية ، ولذا فإن الصراعات ذات المضمون الأيديولوجي العميق أو السياسي المسطح ليست ذات أهمية كبيرة . أما الصراع بين الإشكناز والشرقيين فهو صراع عميق ومهم ولكنه لا يؤثر في الفكر الصهيوني أو الحركة الصهيونية ، فهو قضية إسرائيلية داخلية تماماً .

وخاضت الدولة الصهيونية حروبها المتعددة ضد العرب ، من حرب ١٩٤٨ إلى حرب ١٩٥٦ إلى حرب ١٩٦٧ إلى حرب ١٩٧٣ إلى اجتياح لبنان عام ١٩٨٢ وما تبعه من توسُّع ومزيد من القمع . وتزايد الرفض الفلسطيني للدولة الاستيطانية الصهيونية والمقاومة لها.

رابعاً : أزمة الصهيونية .

تواجه الصهيونية ، كفكرة وحركة ومنظمة ودولة ، أزمة عميقة لعدة أسباب من بينها انصراف يهود العالم عنها . فالصهيونية لا تعني لهم الكثير ، فهم يفضلون إما الاندماج في مجتمعاتهم أو الهجرة إلى الولايات المتحدة ، وقد تدهورت صورة المُستوطَن الصهيوني إعلامياً بعد الانتفاضة إذ أن هذه الدولة الشرسة أصبحت تسبب لهم الحرج الشديد . وقد أدَّى هذا إلى أن المادة البشرية المُستهدَفة ترفض الهجرة ، الأمر الذي يسبب مشكلة سكانية استيطانية للمُستوطَن الصهيوني . ويُلاحَظ تزايد حركات رفض الصهيونية والتملص منها وعدم الاكتراث بها بين يهود العالم .

وعلى المستوى الأيديولوجي ، يُلاحَظ ، في عصر نهاية الأيديولوجيا وما بعد الحداثة ، أن كل النظريات تتقلص ويختفي المركز ، والشيء نفسه يسري على الصهيونية إذ أن إيمان يهود العالم بها قد تقلَّص تماماً ، ولذا فإن من يهاجر إلى إسرائيل إنما يفعل ذلك لأسباب نفعية مادية مباشرة . وفي داخل إسرائيل ، تظهر أجيال جديدة تنظر إلى الصهيونية بكثير من السخرية . وعلى المستوى التنظيمي ، تفقد المنظمة كثيراً من حيويتها وتصبح أداة في يد الدولة الصهيونية ، وتُقابَل اجتماعاتها بالازدراء من قِبَل يهود العالم والمستوطنين في فلسطين . ولم تغيِّر اتفاقية أوسلو من الأمر كثيراً ، بل لعلها تُسرع بتفاقم أزمة الصهيونية ، باعتبار أن الدولة ستصبح أكثر ثباتاً واستقراراً وستحدد هويتها كدولة لها مصالحها الاقتصادية والإستراتيجية المتشعبة التي ليس لها بالضرورة علاقة كبيرة بأعضاء الجماعات اليهودية في العالم .

وهذه المرحلة شهدت تحول الفكرة الصهيونية، الاستيطانية الإحلالية، إلى واقع إستيطانى إحلالى، إذ نجحت الدولة الصهيونية فى طرد معظم العرب من فلسطين واستبعاد من تبقى منهم. وأصبحت الدولة الصهيونية هى الدولة/ الشتتل أو الدولة/ الجيتو، المرفوضة من السكان الأصليين، أصحاب الأرض.

ولكن فى عام ١٩٦٧، مع ضم المزيد من الأراضى العربية بمن عليها من بشر، تحولت الدولة الصهيونية من دولة استيطانية إحلالية إلى دولة استيطانية مبنية على التفرقة اللونية (الأبارتهايد) الأمر الذى يتبدى فى المعازل والطرق الالتفافية. وشهدت هذه الفترة مولد المقاومة الفلسطينية المنظمة وتصاعدها، واندلاع الانتفاضة المباركة، التى استمرت ما يزيد عن ستة أعوام، ولم تنطفأ جذوتها بعد، وهى بذلك تكون أطول حركة عصيان مدنى فى التاريخ.

المؤتمرات الصهيونية

Zionist Congresses

المؤتمر الصهيوني هو الهيئة العليا للمنظمة الصهيونية العالمية ، وقراراته هي التي ترسم الخطوط العامة لسياسات المنظمة (انظر : «الهيكل التنظيمي للمنظمة الصهيونية العالمية») . ولذا ، فإن رَصْد ما يحدث داخل هذه المؤتمرات ، وتعاقُبها ، يكون في واقع الأمر بمنزلة رَصْد لبعض أهم جوانب تاريخ الحركة الصهيونية .

وفيما يلي عرض موجز للمؤتمرات الصهيونية التي انعقدت حتى وقت صدور الموسوعة (١٩٩٧) :

المؤتمر الأول :

بازل ، أغسطس ١٨٩٧ . وكان مزمعاً عقده في ميونيخ ، بيد أن المعارضة الشديدة من قِبَل التجمُّع اليهودي هناك والحاخامية في ميونيخ حالت دون ذلك . وقد عُقد في أغسطس ١٨٩٧ برئاسة تيودور هرتزل الذي حدد في خطاب الافتتاح أن هدف المؤتمر هو وضع حجر الأساس لوطن قومي لليهود ، وأكد أن المسألة اليهودية لا يمكن حلها من خلال التوطن البطيء أو التسلل بدون مفاوضات سياسية أو ضمانات دولية أو اعتراف قانوني بالمشروع الاستيطاني من قِبَل الدول الكبرى . وقد حدد المؤتمر ثلاثة أساليب مترابطة لتحقيق الهدف الصهيوني ، وهي : تنمية استيطان فلسطين بالعمال الزراعيين ، وتقوية وتنمية الوعي القومي اليهودي والثقافة اليهودية ، ثم أخيراً اتخاذ إجراءات تمهيدية للحصول على الموافقة الدولية على تنفيذ المشروع الصهيوني . والأساليب الثلاثة تعكس مضمون التيارات الصهيونية الثلاثة : العملية (التسللية) ، والثقافية (الإثنية) ، والسياسية (الدبلوماسية الاستعمارية) . وقد تعرَّض المؤتمر بالدراسة لأوضاع اليهود الذين كانوا قد شرعوا في الهجرة الاستيطانية التسللية إلى فلسطين منذ ١٨٨٢ ، واقترح شابيرا إنشاء صندوق لشراء الأرض الفلسطينية لتحقيق الاستيطان اليهودي ، وهو الاقتراح الذي تجسَّد بعدئذ فيما يُسمَّى الصندوق القومي اليهودي . وقد اعترض هرتزل على هذا الاقتراح رغم أنه لم ينكر الحاجة إلى مثل هذا المشروع ، ويبدو أن تحفظاته كانت تنْصبُّ على توقيت المشروع وليس جوهره . وفي هذا المؤتمر أيضاً ، تم وضع مسودة البرنامج الصهيوني الذي عُرف ببرنامج بازل ، كما ارتفعت الدعوة إلى إحياء اللغة العبرية وتكثيف دراستها بين اليهود والمستوطنين . وشهد المؤتمر ظهور الأشكال الجنينية للتيار الذي عُرف بعد ذلك باسم «الصهيونية العملية» التي قادها زعماء أحباء صهيون واصطدمت في كثير من الجوانب المرحلية بتيار هرتزل الذي يُطلَق عليه اسم «الصهيونية السياسية» ؟ وكانت اللغة المستخدمة في المؤتمر هي الألمانية واليديشية .

المؤتمر الثاني :

بازل ، أغسطس ١٨٩٨ . عُقد برئاسة هرتزل الذي ركَّز على ضرورة تنمية النزعة الصهيونية لدى اليهود ، وذلك بعد أن أعلن معظم قيادات الجماعات اليهودية في أوربا الغربية عن معارضتهم للحل الصهيوني للمسألة اليهودية . وكانت أهم أساليب القيادة الصهيونية لمواجهة هذه المعارضة ، هو التركيز على ظاهرة معاداة اليهود ، والزعم بأنها خصيصة لصيقة بكل أشكال المجتمعات التي يتواجد فيها اليهود كأقلية . وقد ألقى ماكس نوردو تقريراً أمام المؤتمر عن مسألة دريفوس باعتبارها نموذجاً لظاهرة كراهية اليهود وتعرُّضهم الدائم للاضطهاد حتى في أوربا الغربية وفي ظل النظم الليبرالية بعد انهيار أسوار الجيتو . كما لجأت قيادة المؤتمر إلى تنمية روح التعصب الجماعي والتضامن مع المستوطنين اليهود في فلسطين بالمبالغة في تصوير سوء أحوالهم . وهو ما بدا واضحاً في تقرير موتزكين الذي كان قد أُوفد إلى فلسطين لاستقصاء أحوال مستوطنيها من اليهود ، فأشار في تقريره إلى أنهم يواجهون ظروفاً شديدة الصعوبة تستدعي المساعدة من يهود العالم كافة لضمان استمرار الاستيطان اليهودي في فلسطين . ولهذا الغرض ، فقد تم انتخاب لجنة خاصة للإشراف على تأسيس مصرف يهودي لتمويل مشاريع الاستيطان الصهيوني في فلسطين .

المؤتمر الثالث :

بازل ، أغسطس ١٨٩٩ . عُقد برئاسة هرتزل الذي عرض تقريراً عن نتائج اتصالاته مع القيصر الألماني في إستنبول وفلسطين ، وهي الاتصالات التي عرض فيها هرتزل خدمات الحركة الصهيونية الاقتصادية والسياسية على الإمبريالية الألمانية الصاعدة في ذلك الوقت مقابل أن يتبنى الإمبراطور المشروع الصهيوني . وطالب المؤتمر بتأسيس المصرف اليهودي تحت اسم «صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار» ، وذلك لتمويل الأنشطة الاستيطانية الصهيونية وتوفير الدعم المالي للحركة الصهيونية . كما ناقش المؤتمر قضية النشاط الثقافي اليهودي في العالم ، كما تناول المؤتمر مسألة إعادة بناء الجهاز الإداري الدائم للحركة الصهيونية ليحل محلها الجهاز المؤقت .

المؤتمر الرابع :

لندن ، أغسطس ١٩٠٠ . عُقد برئاسة هرتزل ، وجرى اختيار العاصمة البريطانية مقراً لانعقاد المؤتمر نظراً لإدراك قادة الحركة الصهيونية في ذلك الوقت تعاظُم مصالح بريطانيا في المنطقة ، ومن ثم فقد استهدفوا الحصول على تأييد بريطانيا لأهداف الصهيونية ، وتعريف الرأي العام البريطاني بأهداف حركتهم . وبالفعل ، طُرحت مسألة بث الدعاية الصهيونية كإحدى المسائل الأساسية في جدول أعمال المؤتمر . وشهد هذا المؤتمر ـ الذي حضره ما يزيد على ٤٠٠ مندوب ـ اشتداد حدة النزاع بين التيارات الدينية والتيارات العلمانية ، وذلك عندما طُرحت المسائل الثقافية والروحية للمناقشة ، إذ طالب بعض الحاخامات بألا تتعرض المنظمة الصهيونية للخوض في القضايا الدينية والثقافية اليهودية ، وأن تقصر عملها على النشاط السياسي وخدمة الاستيطان اليهودي في فلسطين . وإزاء ذلك ، دعا هرتزل الجميع إلى نبذ الخلافات جانباً والتركيز على الأهداف

المشتركة . وخلال المؤتمر ، تم وَضْع مخطط المشروع المتعلق بإنشاء الصندوق القومي اليهودي . وقد وُجه المؤتمر بمعارضة أعضاء الجماعة اليهودية في إنجلترا ، وتجاهله أثرياء اليهود ، ولذا توجَّه المؤتمر لغير اليهود ونجح في اجتذاب اهتمامهم إلى حدٍّ ما ، وخصوصاً أن الصهيونية كانت تطرح حلاً لمشكلة المهاجرين من يهود اليديشية الذين كانوا يثيرون القلق في أوساط النخبة الحاكمة الإنجليزية وأثرياء اليهود . ولذا ، حرص هرتزل على أن يدلي بشهادته أمام اللجان المختصة بمناقشة موضوع الهجرة اليهودية إلى إنجلترا .

المؤتمر الخامس :

بازل ، ديسمبر ١٩٠١ . عُقد برئاسة هرتزل الذي قدَّم تقريراً عن مقابلته مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ومحاولاته إقناعه بالسماح بموجات هجرة يهودية واسعة إلى فلسطين التي كانت وقتئذ إحدى ولايات الإمبراطورية العثمانية ، وذلك مقابل اشتراك الخبرات اليهودية في تنظيم مالية الإمبراطورية العثمانية التي كانت تعاني ضائقة مالية آخذة في التفاقم .

وقد وافق المؤتمر على الاقتراح الذي تقدَّم به جوهان كريمنكس لتأسيس «الصندوق القومي اليهودي» بوصفه مصرفاً للشعب اليهودي يمكن استخدامه على نطاق واسع لشراء الأراضي في فلسطين وسوريا .

وشهد المؤتمر بروز تيار صهيوني ، بزعامة مارتن بوبر وحاييم وايزمان وليو موتزكين وفيكتور جاكوبسون ، ينتقد أساليب هرتزل غير الديموقراطية في القيادة ويدعو إلى أن تتحلى قيادة الحركة الصهيونية بقدر أكبر من الديموقراطية . كما انتقد هذا التيار عدم حرص قيادة المنظمة على القيام بنشاط فعال لبعث الثقافة اليهودية . وفي المقابل ، ظلت التيارات الدينية على موقفها المعارض لقيام المنظمة بأية أنشطة ثقافية . وأدَّى احتدام الجدل بين هذه التيارات إلى انسحاب المتدينين بزعامة الحاخام إسحق راينز ، وقد أسسوا فيما بعد حركة مزراحي الصهيونية التي آثرت ممارسة نشاطها في إطار الحركة الأم .

المؤتمر السادس :

بازل ، أغسطس ١٩٠٣ . عُقد برئاسة هرتزل ، وكان آخر المؤتمرات الصهيونية التي حضرها . وقد ركز هرتزل في خطابه الافتتاحي ، كالعادة ، على تقديم تقرير إجمالي عن مباحثاته . وقد كانت مباحثاته هذه المرة مع السياسي البريطاني جوزيف تشمبرلين بشأن مشروع الاستيطان اليهودي في شبه جزيرة سيناء . وكان هرتزل قد ألح لبريطانيا بهذا المشروع كوسيلة لمواجهة الثورة الشعبية المصرية التي رآها هو وشيكة الحدوث ، وهو ما يستدعي وجود كيان سياسي حليف لبريطانيا على حدود مصر الشرقية . إلا أن بريطانيا لم تقبل هذه الفكرة وعرضت مشروعاً للاستيطان اليهودي في أوغندا عرف باسم «مشروع شرق أفريقيا» . وقد نصح هرتزل المؤتمر بقبول هذا العرض ، إلا أنه ووُجه بمعارضة من أطلقوا على أنفسهم اسم «صهاينة صهيون» بزعامة مناحم أوسيشكين رئيس اللجنة الروسية والذين رفضوا القبول ببديل لاستيطان اليهود في فلسطين . وقد نجح هرتزل رغم ذلك في الحصول على موافقة أغلبية المؤتمر على اقتراحاته وهو ما حدا بالمعارضين إلى الانسحاب من المؤتمر .

وقد تقرَّر إيفاد لجنة للمنطقة المقترحة للاستيطان اليهودي للاطلاع على أحوالها ودراسة مدى ملاءمتها لهذا الغرض . كما تقرَّر إنشاء «الشركة البريطانية الفلسطينية» في يافا لتعمل كفرع لـ «صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار» .

وقد شهد هذا المؤتمر نمواً عددياً ملحوظاً في أعضائه إذ حضره ٥٧٠ عضواً يمثلون ١٥٧٢ جمعية صهيونية في أنحاء العالم .

المؤتمر السابع :

بازل ، أغسطس ١٩٠٥ . انتقلت رئاسة المؤتمر إلى ماكس نوردو بعد وفاة هرتزل ، وكانت القضية الأساسية التي طُرحت للنقاش هي مسألة الاستيطان اليهودي خارج فلسطين ، وخصوصاً في شرق أفريقيا . وجاء تقرير اللجنة التي أُوفدت إلى هناك ليفيد بعدم صلاحية المنطقة لهجرة يهودية واسعة . إلا أن بعض أعضاء المؤتمر دافع عن ضرورة قبول العرض البريطاني بدون أن تفقد الحركة أطماعها في فلسطين ، وسُمِّي أنصار هذا الرأي الذي عبَّر عنه زانجويل باسم «الصهاينة الإقليميون» . غير أن من المُلاحَظ أن غياب هرتزل ، واعتراض المستوطنين البريطانيين في شرق أفريقيا على توطين أجانب في إحدى المستعمرات البريطانية ، وكذا اعتراض اليهود المندمجين على المشروع ، رجَّح إلى حدٍّ بعيد وجهة النظر الرافضة للاستيطان اليهودي خارج فلسطين ، الأمر الذي جعل أغلبية المؤتمر تُصوِّت ضد هذا المشروع ، وهو ما أدَّى إلى انسحاب الإقليميين وتأسيسهم المنظمة الإقليمية العالمية . واستمرت الأغلبية في تأكيد ضرورة الاستيطان في فلسطين . واكتسب أنصار الصهيونية العملية (الاستيطانية) قوة جديدة من هذا الموقف فتضمنت قرارات المؤتمر أهمية البدء بالاستيطان الزراعي واسع النطاق في فلسطين عن طريق شراء الأراضي من العرب وبناء اقتصاد مستقل للييشوف الاستيطاني داخل فلسطين ، وهو أمر يكتسب أهمية خاصة في تاريخ الحركة الصهيونية على ضوء حقيقة أنه جاء عقب بداية وصول موجة

الهجرة اليهودية الثانية (١٩٠٤) إلى فلسطين ، وهي الهجرة التي وضعت الأسس الحقيقية للاستيطان الصهيوني وأسهمت إلى حدٍّ كبير بالاشتراك مع الهجرة الثالثة في تحديد معالمه ، وامتد تأثيرهما معاً إلى فلسفة وأبنية الكيان الإسرائيلي عقب تأسيس الدولة . وقد أدخل المؤتمر تعديلاً مهماً على قانون «صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار» بحيث ينص على تنفيذ المشاريع الصهيونية في فلسطين وسوريا وأي قسم آخر من تركيا الآسيوية وفي شبه جزيرة سيناء وجزيرة قبرص . كما جرى انتخاب دافيد ولفسون لرئاسة المنظمة الصهيونية العالمية خلفاً لهرتزل . وقد انتقلت قيادة الحركة الصهيونية من فيينا إلى كولونيا بألمانيا حيث يعيش ولفسون .

المؤتمر الثامن :

لاهاي ، أغسطس ١٩٠٧ . عُقد برئاسة ماكس نوردو ، وتركزت المناقشات فيه على برامج الاستيطان وإنشاء المستعمرات الزراعية في فلسطين . ولما كانت المنظمة الصهيونية تفتقر إلى مركز في فلسطين للإشراف على الأنشطة الاستيطانية ، قرر المؤتمر تأسيس «مكتب فلسطين» ليتولى شراء الأراضي ومساعدة المهاجرين اليهود ودعم الاستيطان الزراعي . كما وافق المؤتمر على تأسيس شركة لشراء واستثمار الأراضي وهي التي سُجلت ـ فيما بعد ـ في بريطانيا باسم «شركة تنمية الأراضي في فلسطين» . وقد ظهر في هذا المؤتمر التيار الصهيوني المسمَّى «الصهيونية التوفيقية» .

وقد جدَّد المؤتمر انتخاب ولفسون رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية . وكان سبب عقد المؤتمر في لاهاي بهولندا هو تزامنه مع مؤتمر السلام الدولي الثاني حتى تُوضَع الحركة الصهيونية في بؤرة الاهتمام الدولي .

المؤتمر التاسع :

هامبورج ، ديسمبر ١٩٠٩ . عُقد برئاسة كل من مناحيم أوسيشكين وحاييم وايزمان وناحوم سوكولوف ، وهو أول مؤتمر يُعقَد في ألمانيا ، وقد أولى اهتماماً واضحاً لبحث النتائج المترتبة على الثورة التركية بالنسبة لمشاريع الاستيطان اليهودي في فلسطين . وشهد المؤتمر زيادة ثقل الصهاينة العمليين ورغبتهم في ابتلاع فلسطين دون انتظار توافر الظروف السياسية الدولية المناسبة . ولهذا، قرر المؤتمر إنشاء مستوطنات تعاونية مثل الكيبوتس والموشاف ، كما تصاعدت الأصوات المعارضة لزعامة ولفسون بسبب نظرته التجارية للنشاطات الاستيطانية إذ كان ينظر إلى أهمية هذه الأنشطة طبقاً لقيمتها الاقتصادية ، إلا أنه نجح مع ذلك في الاحتفاظ بمنصبه كرئيس للمنظمة الصهيونية .

المؤتمر العاشر :

بازل ، أغسطس ١٩١١ . عُقد برئاسة مناحم أوسيشكين ، وقد اتضح فيه تماماً أن المؤتمرات الصهيونية إطار يتسع لوجود الاتجاهات والتيارات الصهيونية كافة ، برغم ما يبدو عليها ظاهرياً من تناقضات . ففي الوقت الذي أكد فيه المؤتمر أن المسألة اليهودية لا يمكن أن تحل إلا بالهجرة إلى فلسطين ، وأن المهمة الملحة للمنظمة الصهيونية العالمية هي تشجيع وتنظيم الهجرة إلى فلسطين ، فقد نوقشت أيضاً مسألة إحياء وتدعيم الثقافة العبرية . كما سجل الصهاينة العمليون خلال هذا المؤتمر انتصاراً جديداً ، حيث اضطر ولفسون أمام المعارضة المتنامية للاستقالة من منصبه وتم اختيار أوتو واربورج (أحد زعماء الصهيونية العملية) رئيساً للمنظمة الصهيونية . كما أن هذا المؤتمر كان بداية صعود نجم ناحوم سوكولوف حيث اختير لعضوية اللجنة التنفيذية للمنظمة . وكل هذا يعني استيلاء يهود شرق أوربا على المنظمة وأفول نجم يهود وسط أوربا (الألمان) الذين طوَّروا الأطروحات الصهيونية وأسسوا المنظمة وأداروها .

المؤتمر الحادي عشر :

فيينا ، سبتمبر ١٩١٣ . عُقد برئاسة ديفيد ولفسون . وهو آخر المؤتمرات الصهيونية قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى . وقد تمت فيه الموافقة بشكل مبدئي على إنشاء جامعة عبرية في القدس ، وجاء ذلك تأكيداً لنفوذ وايزمان المتزايد حيث كان هو وأوسيشكين وبوبر من أبرز دعاة المشروع . كما أعلن المؤتمر تشجيعه للجهود الرامية لشراء وتنمية الأراضي في فلسطين . كما أصدر المؤتمر قراراً يتناول الهجرة اليهودية إلى فلسطين كواجب والتزام صهيوني على كل من يملك القدرة المادية على خلق مصالح اقتصادية ملموسة في فلسطين . وأشار القرار إلى أن كل يهودي يجب عليه أن يضع مسألة الاستيطان في فلسطين كجزء من برنامج حياته وسعيه لتحقيق مثاليته وكماله الخلقي .

المؤتمر الثاني عشر :

كارلسباد ، سبتمبر ١٩٢١ . عُقد برئاسة ناحوم سوكولوف وهو أول مؤتمر تعقده الحركة الصهيونية بعد نجاحها في استصدار وعد بلفور من بريطانيا عام ١٩١٧ واحتلال الجيوش البريطانية لفلسطين ، الأمر الذي كان موضع ترحيب شديد من المؤتمر باعتباره خطوة في طريق تحقيق المشروع الصهيوني . كما تمت أيضاً مناقشة نشاطات الصندوق التأسيسي اليهودي الذي أنشئ عام ١٩٢٠ خلال مؤتمر استثنائي للمجلس الصهيوني العام في لندن . كما قرَّر المؤتمر تأسيس المجلس الاقتصادي المالي ليعمل كهيئة استشارية وليشرف على المؤسسات الاقتصادية والمالية للحركة الصهيونية . ومن الغريب أن

المؤتمر ، برغم هذا التخطيط الصهيوني ، قد أعلن أن الصهاينة يكافحون من أجل العيش في ظل علاقات انسجام واحترام متبادل مع الشعب العربي ، كما أن المجلس التنفيذي للمنظمة ناشد المنظمة أن تحقق تفاهماً صادقاً مع الشعب العربي . ونظراً لازدياد أهمية الدور البريطاني بالنسبة للحركة الصهيونية ، فقد قرر المؤتمر أن يكون للمجلس التنفيذي للمنظمة الصهيونية العالمية مقران؛ أحدهما في لندن والآخر في القدس . واختير ممثل العمال اليهود في فلسطين جوزيف سبرنزاك رئيساً للجنة التنفيذية في القدس بينما اختير سوكولوف رئيساً للجنة التنفيذية بأكملها . وقد صدَّق المؤتمر على قرارات مؤتمر لندن الاستثنائي عام ١٩٢٠ بانتخاب وايزمان رئيساً للمنظمة الصهيونية . وهكذا حُسم الصراع الذي دار في المؤتمر حول أساليب الاستيطان بين صهاينة الولايات المتحدة بزعامة لويس برانديز وصهاينة أوربا بزعامة وايزمان لصالح وايزمان .

المؤتمر الثالث عشر :

كارلسباد ، أغسطس ١٩٢٣ . عُقد بعد موافقة عصبة الأمم على فرض الانتداب البريطاني على فلسطين . وقد أعلن المؤتمر ترحيبه بهذه الخطوة على ضوء التزام بريطانيا (في البند الرابع من صك الانتداب) بالاعتراف بوكالة يهودية تتمتع بالصفة الاستشارية إلى جانب حكومة الانتداب لها سلطة القيام بتنفيذ المشاريع الاقتصادية والاستيطانية ، وبذلك التزمت بريطانيا بالتعاون مع تلك الوكالة في كل الأمور المتعلقة بإقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين .

وقد ناقش المؤتمر اقتراح وايزمان الرامي إلى توسيع الوكالة اليهودية بحيث تضم في مجلسها الأعلى ولجانها عدداً من المموِّلين اليهود في العالم ، وخصوصاً غير الصهاينة منهم . وكان الغرض من ذلك تعزيز المصادر المالية للمنظمة الصهيونية وضمان سرعة تنفيذ المشاريع الصهيونية اعتماداً على المراكز الرسمية الحساسة التي يشغلها هؤلاء المموِّلون بالإضافة إلى تدعيم المركز التفاوضي للمنظمة مع الحكومات الأوربية ، والوقوف في وجه الرفض اليهودي للصهيونية وسياستها بادعاء أن المنظمة تمثل يهود العالم كافة دون تمييز . وقد لقي الاقتراح معارضة شديدة كان أبرز ممثليها جابوتنسكي . ولهذا ، اكتفى المؤتمر باتخاذ قرار بتوجيه الدعوة إلى اجتماع لبحث توسيع الوكالة اليهودية عملاً بنص المادة الرابعة من صك الانتداب .

المؤتمر الرابع عشر :

فيينا ، أغسطس ١٩٢٥ . حضر المؤتمر وفد من الصهاينة التصحيحيين برئاسة جابوتنسكي الذي طالب بتبني سياسة صهيونية أكثر إيجابية ، وهو يعني في الواقع سياسة أكثر عنفاً ونشاطاً في تنفيذ مشروعات الاستيطان ، كما عارض السماح لغير الصهاينة من اليهود بالانضمام إلى الوكالة اليهودية . وقد تناول المؤتمر بالتقييم تجربة السنوات الخمس الأولى من الانتداب ، ومدى نجاح مشاريع الاستيطان المرتبطة بموجة الهجرة الرابعة القادمة من بولندا . كما أدخل المؤتمر تعديلاً على رسم العضوية (الشيقل) إذ أبطل الأساس الحزبي للشيقل وأحل محله الشيقل الموحد ، كما رفع عدد دافعي الشيقل الذين يحق لهم انتخاب مندوب عنهم في المؤتمر ، إلا أن ذلك لم يؤد إلى تخفيف حدة المعارضة .

المؤتمر الخامس عشر :

بازل ، أغسطس/ سبتمبر ١٩٢٧ . عُني المؤتمر بقضية أساسية هي بحث الأوضاع الاقتصادية السيئة التي برزت في المقام الأول في شكل تفشِّي ظاهرة البطالة في التجمع الاستيطاني الصهيوني في تلك الفترة ، وهو ما أدَّى إلى تصاعُد موجة الهجرة من فلسطين إلى خارجها . وقد نظرت قيادة الحركة الصهيونية إلى هذه الظاهرة بانزعاج شديد ، وجعلت هذا المؤتمر ميداناً لبحث الوسائل الكفيلة بمنع تفاقمه .

المؤتمر السادس عشر :

زيورخ ، يوليه/ أغسطس ١٩٢٩ . كان الإنجاز الأساسي لهذا المؤتمر هو إعداد دستور الوكالة اليهودية التي نص عليها صك الانتداب البريطاني على فلسطين ، وتحقَّق في هذا الصدد ما نادى به وايزمان من ضرورة توسيع هذه الوكالة لتشمل اليهود غير الصهاينة ، وهو الأمر الذي عارضه جابوتنسكي بشدة . كما كان المؤتمر بداية لبروز شخص ديفيد بن جوريون . وفي نهاية المؤتمر تجدَّد انتخاب وايزمان رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية ، وسوكولوف رئيساً لمجلسها التنفيذي .

المؤتمر السابع عشر :

بازل ، يونيه/ يوليه ١٩٣١ . عُقد برئاسة ليو موتزكين ، وقد أعلن المؤتمر احتجاجه على مقترحات اللورد البريطاني باسفيلد ، الذي أوصى عقب المظاهرات العربية في فلسطين سنة ١٩٢٩ بوضع بعض القيود على الهجرة اليهودية وعلى عمليات شراء الأراضي العربية . وقد اضطر وايزمان إلى الاستقالة من رئاسة المنظمة الصهيونية أمام ضغوط المعارضة التي احتجت على سياسته الرامية إلى التحالف غير المشروط مع بريطانيا . وقد انتُخب سوكولوف رئيساً للمنظمة خلفاً لوايزمان . وأثار التصحيحيون بقيادة جابوتنسكي أزمة حينما طالبوا المؤتمر بأن يعلن في قرار واضح لا لبس فيه أن إقامة دولة يهودية في فلسطين هو الهدف النهائي للحركة

الصهيونية ، إلا أن الأحزاب الصهيونية العمالية قد رفضت أن يُطرَح مثل هذا القرار للتصويت لخطورة النتائج المترتبة على مثل هذا الإعلان المبكر عن الأهداف الصهيونية . وقد أيَّدت الأغلبية هذا الرأي ، وهو ما أدَّى إلى انسحاب جابوتنسكي وأنصاره وتكوين المنظمة الصهيونية الجديدة .

المؤتمر الثامن عشر :

براغ ، أغسطس/ سبتمبر ١٩٣٣ . تكمن أهمية هذا المؤتمر في أنه جاء عقب وصول هتلر إلى الحكم في ألمانيا . وقد درس المؤتمر برنامجاً واسعاً لتوطين اليهود الألمان في فلسطين . وقد حضر المؤتمر بعض التصحيحيين بزعامة ماير جروسمان ، الذين انشقوا على قيادة جابوتنسكي وألفوا حزب الدولة اليهودية وأكدوا اعترافهم بسيادة المنظمة الأم في كل الأحوال . كما شهد المؤتمر صراعاً واضحاً بين حزب الماباي الذي تأسس سنة ١٩٣٠ وبين التصحيحيين ، وهو الأمر الذي يُعَد الأساس التاريخي للصراع بين الماباي وحزب حيروت بعد إنشاء دولة إسرائيل (ثم بين المعراخ وليكود) . وقد جدَّد المؤتمر انتخاب سوكولوف رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية . وفي هذا المؤتمر نجح الصهاينة العماليون (الاستيطانيون) في تمرير اتفاقية الهعفراه التي كان يفكر قادة المستوطنين في توقيعها مع النازي .

المؤتمر التاسع عشر :

لوسيرن (سويسرا) ، أغسطس/ سبتمبر ١٩٣٥ . عُقد برئاسة وايزمان ، وكان ناحوم جولدمان أحد نواب الرئيس . وقد قاطع التصحيحيون هذا المؤتمر الذي انصب اهتمامه على أوضاع اليهود في ألمانيا وكيفية ترتيب إجراءات هجرتهم إلى فلسطين ، وكذلك تنمية نشاطات الصندوق القومي اليهودي . وقد رفض المؤتمر الاقتراح الذي تقدَّمت به بريطانيا لإنشاء المجلس التشريعي في فلسطين . كما تقرر إعادة وايزمان لرئاسة المنظمة الصهيونية بينما انتُخب سوكولوف رئيساً فخرياً للمنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية ، كما أُعيد انتخاب بن جوريون لعضوية اللجنة التنفيذية .

المؤتمر العشرون :

زيوريخ ، أغسطس ١٩٣٧ . عُقد برئاسة مناحم أوسيشكين . وقد تناول المؤتمر تقرير لجنة حول تقسيم فلسطين والذي كان قد أُعلن قبل شهر من انعقاد المؤتمر . وقد انقسمت الآراء حول التقرير ودارت المناقشة حول المقارنة بين المزايا النسبية لإقامة الدولة الصهيونية المستقلة وبين ما تصوَّرت بعض قيادات الحركة الصهيونية أنه تضحية من جانبها بالأقاليم المخصصة للعرب وفقاً لهذا المشروع وخسارة للجزء الأعظم من فلسطين . فمن جانبهما ، أعلن وايزمان وبن جوريون تأييدهما لإجراء مفاوضات مع الحكومة البريطانية بهدف التوصل إلى خطة تُمكِّن يهود فلسطين من تكوين دولة يهودية مستقلة ومن تحسين أحوال اليهود في البلاد الأخرى في آن واحد . وعلى الجانب الآخر ، قاد كاتزنلسون وأوسيشكين المعارضة الصارمة ، ورفضا مبدأ التقسيم أصلاً ، انطلاقاً من أن الشعب اليهودي لا يملك أن يتنازل عن حقه في أي جزء من وطنه التاريخي ، ولذا فإن الدولة اليهودية (أي الصهيونية) لابد أن تشمل فلسطين كلها . وقد توصَّل المؤتمر إلى حل وسط تمثَّل في اعتبار مشروع التقسيم غير مقبول ، إلا أنه فوَّض المجلس التنفيذي في التفاوض مع الحكومة البريطانية لاستيضاح بعض عبارات الاقتراح البريطاني التي اعتُبرت غامضة في ظاهرها ، وكان الهدف الحقيقي هو ممارسة الضغط على بريطانيا لتبنِّي موقف أكثر تعبيراً عن المصالح الصهيونية مع استغلال نشوء ظرف تاريخي جديد هو اشتعال الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) .

المؤتمر الحادي والعشرون :

جنيف ، أغسطس ١٩٣٩ . عُقد برئاسة أوسيشكين . وكانت القضية الأساسية المطروحة للمناقشة أمامه هي الموقف من الكتاب الأبيض البريطاني الذي كانت بريطانيا قد أصدرته لتوها لاسترضاء العرب بوضع بعض القيود على حجم الهجرة اليهودية ومساحات الأرض التي يجوز شراؤها من جانب اليهود ، وذلك بعد أن نجحت في قمع الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) بالتعاون مع الحركة الصهيونية ومنظماتها الاستيطانية في فلسطين . وقد استند هذا الرفض الصهيوني إلى مناخ الحرب العالمية الثانية التي بدأت نذرها تلوح في الأفق بما يعنيه هذا من شدة احتياج بريطانيا لمساعدة الحركة الصهيونية .

المؤتمر الثاني والعشرون :

بازل ، ديسمبر ١٩٤٦ . عُقد برئاسة وايزمان ، وقد حضر التصحيحيون هذا المؤتمر . وكان المناخ الذي انعقد في ظله المؤتمر هو محاولة الضغط على بريطانيا لخلق الدولة الصهيونية ، ولذا فقد تزعَّم التصحيحيون الاتجاه الداعي إلى تبنِّي سياسة متشددة إزاء بريطانيا انطلاقاً من الاعتقاد بأنها لم تنفذ ما تعهدت به وفق نص الانتداب . كما طالبوا بتدعيم حركة المقاومة العبرية التي هاجمت بعض المنشآت البريطانية . وفي مواجهة هذا الموقف ، تبنَّى وايزمان رأياً يدعو إلى الدخول في حوار مع بريطانيا حرصاً على استمرار علاقات طيبة مع الدولة التي تملك إمكانية فتح أبواب فلسطين لهجرة يهودية واسعة . وإزاء هذا الصراع قدَّم وايزمان استقالته من رئاسة المنظمة الصهيونية ،

وأخفق المؤتمر في اختيار بديل له . وقد اختير ناحوم جولدمان رئيساً للجنة التنفيذية في نيويورك ، وبيرل لوكر رئيساً لهذه اللجنة في القدس .

المؤتمر الثالث والعشرون :

القدس ، أغسطس ١٩٥١ . أول مؤتمر صهيوني يُعقَد في القدس بعد قيام الدولة الصهيونية ، وكان برئاسة ناحوم جولدمان . ولذا ، فقد كان من الطبيعي أن تكون إحدى المسائل الأساسية موضوع الدراسة في المؤتمر هي العلاقة بين الدولة الصهيونية الناشئة والحركة الصهيونية التي خلقتها متمثلة في المنظمة الصهيونية العالمية ، وكيفية تحديد اختصاصات كل منهما تفادياً للتضارب أو الازدواج . وقد ترتَّب على توصية المؤتمر بتنظيم هذه العلاقة حيث أصدرت الحكومة الإسرائيلية قانوناً بهذا الشأن في نوفمبر ١٩٥٢ أعطت للمنظمة بموجبه وضعاً قانونياً فريداً يخوِّل لها حق جَمْع الأموال من يهود العالم وتمويل الهجرة إلى إسرائيل بل حتى الإشراف على توطين واستيعاب المهاجرين داخل المجتمع الإسرائيلي والمساعدة في تطوير الاقتصاد وما تستدعيه ممارسة هذه الصلاحيات جميعاً من التمتع بحقوق التعاقد والملكية والتقاضي ، وهو ما دفع بعض الفقهاء إلى اعتبار هذا الوضع نموذجاً شاذاً لمنظمة خاصة ذات صفة دولية تمارس صلاحيات واسعة على إقليم دولة معينة بموافقتها وعلى أراضي الدولة الأخرى نيابة عنها . وقد أدخل المؤتمر تعديلات جوهرية على برنامج بازل لمواجهة الأوضاع الجديدة التي ترتبت على تحقيق الهدف الرئيسي لهذا البرنامج أي تأسيس الدولة الصهيونية ، وعرف هذا البرنامج الجديد باسم «برنامج القدس» .

المؤتمر الرابع والعشرون :

القدس ، أبريل/ مايو ١٩٥٦ . عُقد برئاسة سير نيزاك . وقد كان هذا المؤتمر بمنزلة مظاهرة دعائية تمهد للعدوان الإسرائيلي على مصر والذي أعقب انفضاض جلسات المؤتمر بخمسة شهور ، فقد أشار المؤتمر في بيانه السياسي الختامي إلى أنه يدرك تماماً المخاطر التي تهدِّد دولة إسرائيل بسبب النوايا العدوانية للدول العربية التي تتلقَّى السلاح من الشرق والغرب . وناشد المؤتمر يهود العالم جميعاً الإسراع بتحمُّل مسئولياتهم التاريخية تجاه إسرائيل ، وتعبئة كل الإمكانيات لضمان قوتها وأمنها ورخائها ، وضمنه تدفُّق الهجرات اليهودية واسعة النطاق إلى إسرائيل ، وضمان توفُّر نظام متكامل وحديث لاستيعاب المهاجرين الجدد في إسرائيل ، وهو ما يعني في النهاية تكريس المشروع الاستيطاني الصهيوني على حساب الشعب الفلسطيني . وفي نهاية المؤتمر ، تم انتخاب جولدمان رئيساً للمنظمة الصهيونية ورئيساً للمجلس التنفيذي للوكالة اليهودية بعد أن ظل هذا المنصب شاغراً منذ استقالة وايزمان عام ١٩٤٦ .

المؤتمر الخامس والعشرون :

القدس ، ديسمبر ١٩٦٠/ يناير ١٩٦١ . عُقد برئاسة ناحوم جولدمان ، وقد اتسم هذا المؤتمر بانفجار خلاف واضح بين بن جوريون (رئيس الوزراء وقتئذ) وجولدمان حول تكييف العلاقة بين إسرائيل والمنظمة الصهيونية . وهنا تبدو محاولة الصفوة السياسية الإسرائيلية وضع قبضتها على المنظمة الصهيونية ، فقد أشار بن جوريون إلى ضرورة أن تكون المنظمة إحدى أدوات السياسة الخارجية الإسرائيلية في تحقيق الإشراف على يهود العالم وتعبئة إمكاناتهم لتدعيم الكيان الصهيوني ، بينما كان جولدمان يرى أن المنظمة هي المسئولة دائماً عن الحركة الصهيونية ، سواء داخل حدود إسرائيل (الكيان الذي خلقته المنظمة) أو خارجها . وبالإضافة إلى هذا ، كانت قضية الهجرة اليهودية إلى إسرائيل هي ميدان الخلاف الثاني ، خصوصاً بعد أن كادت الهجرة اليهودية من أوربا الغربية وأمريكا لإسرائيل أن تتوقف نتيجة تصاعُد إمكانات اندماج اليهود في مجتمعاتهم . وإزاء هذا الوضع ، أكد بن جوريون أن الهجرة إلى إسرائيل واجب ديني وقومي على كل اليهود ، ذلك لأن اليهودي لا يكتسب كماله الخلقي ومثاليته ولا يعبِّر عن إيمانه بالصهيونية إلا بالوجود على أرض الدولة اليهودية ، أي الدولة الصهيونية ، على حين رأى جولدمان أن بمقدور اليهودي أن يكون صهيونياً مخلصاً مع استمراره في الإقامة في بلده الأصلي .

وقد انتهى المؤتمر إلى حل وسط يتمثل في ضرورة تدعيم التعليم اليهودي في أنحاء العالم وتنمية الثقافة اليهودية لدى يهود المجتمعات الغربية للحيلولة دون انصهارهم في مجتمعاتهم الأصلية . كما أعاد المؤتمر انتخاب جولدمان رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية .

المؤتمر السادس والعشرون :

القدس ، ديسمبر ١٩٦٤/ يناير ١٩٦٥ . عُقد برئاسة جولدمان الذي أشار في خطاب الافتتاح إلى ضرورة بدء عهد جديد من التعاون بين إسرائيل والجماعات اليهودية في العالم (الدياسبورا) ، كما أكد مسئولية دولة إسرائيل في مكافحة خطر اندماج يهود الدياسبورا فكرياً وثقافياً واجتماعياً في المجتمعات التي يقيمون فيها ، وهو الخطر الذي اتسمت الحركة الصهيونية دائماً بحساسية دائمة ومفرطة تجاهه والذي رأت فيه تهديداً لها لا يقل عن ظاهرة العداء لليهود . ولمواجهة هذا الخطر ، أوصى المؤتمر بأن تُولي المنظمة

الصهيونية بالتعاون مع الحكومة الإسرائيلية قضية تدعيم اللغة العبرية والقيم القومية التقليدية لدى يهود العالم اهتماماً متزايداً . ونظراً لهبوط معدلات الهجرة إلى إسرائيل في تلك الفترة هبوطاً شديداً ، شهد هذا المؤتمر بداية الضغوط الصهيونية بشأن ما عُرف بقضية اليهود السوفييت . وقد جدَّد المؤتمر انتخاب جولدمان رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية .

المؤتمر السابع والعشرون :

القدس ، يوليه ١٩٦٨ . أول مؤتمر صهيوني يتم عقده بعد أن دخلت التوسعية الإسرائيلية مرحلة متقدمة من مراحل التعبير عن نفسها في حرب يونيه ١٩٦٧ . وقد طُرحت قضية الهجرة اليهودية إلى إسرائيل كقضية محورية في هذا المؤتمر للدفاع عما استطاعت إسرائيل تحقيقه من تَوسُّع بالقوة المسلحة في حرب يونيه ١٩٦٧ ، ولتشجيع سياسة الاستيطان في الأراضي المحتلة ، ولتطبيق السياسة التي أعلن عنها ديان باسم «سياسة خَلْق الحقائق الجديدة» . والواقع أن هذا يؤكد ما اعتبره جولدمان المهام الأساسية التي تواجه الحركة الصهيونية والتي كانت مسألة الهجرة في طليعتها . وفي هذا الصدد ، صدَّق المؤتمر على قرار الحكومة الإسرائيلية بإنشاء وزارة لاستيعاب المهاجرين . وهنا يبدو أن تَوسُّع سنة ١٩٦٧ قد اختصر المسافة بين جولدمان وبين بن جوريون وتلامذته ديان وبيريز ، وجعل القضية المطروحة عليهم جميعاً بإلحاح هي كيفية خلق واقع سكاني جديد في الأراضي العربية المحتلة . ومن المثير للدهشة بعد هذا أن يناشد المؤتمر الشعوب العربية والقادة العرب التعجيل بإحلال السلام في الشرق العربي ، وأن يدعو بيانه الختامي الدول المحبة للسلام أن تقدِّم لإسرائيل أسلحة دفاعية ضد العرب الذين يهددونها بخطر الإبادة . وفي نهاية المؤتمر ، قدَّم جولدمان استقالته من رئاسة المنظمة الصهيونية ولم يتم اختيار خلف له .

المؤتمر الثامن والعشرون :

القدس ، يناير ١٩٧٢ . عُقد برئاسة أرييه بينكوس الذي انتُخب أيضاً رئيساً للجنة التنفيذية . وقد كان واضحاً منذ البداية تصاعد النفوذ الإسرائيلي الرسمي في المؤتمر . وقد أعلن جولدمان اعتراضه على الحملة الإسرائيلية على الاتحاد السوفيتي حول قضية هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل . ويمكن القول بأن السمة الأساسية للمناخ الذي انعقد في ظله المؤتمر هي الإحساس بتفاقم التناقضات العرْقية والاجتماعية في إسرائيل ، ولعلها المرة الأولى التي يتطرق فيها مؤتمر صهيوني إلى الناحية الاجتماعية داخل الكيان الصهيوني ، بحيث خصص إحدى لجانه لدراستها ، وخصوصاً بعد ظهور حركة الفهود السود ، كأحد مظاهر احتدام التناقض بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين . ولعل هذا هو السبب في رفض قيادات المؤتمر الصهيوني إعطاء الفرصة للفهود السود كي يتحدثوا أمام المؤتمر وذلك خشية ما يمكن أن يحدث من آثار سلبية على قضية الهجرة اليهودية إلى إسرائيل ، وهي القضية التي استمر المؤتمر في تأكيد محوريتها وتأكيد ضرورة كفالة الظروف الملائمة لتشجيعها مثل الاستيعاب والاستيطان والحيلولة دون احتدام التناقضات الاجتماعية والسلالية داخل إسرائيل . وقد دعا المؤتمر إلى ضرورة دعم التعليم اليهودي والثقافة الصهيونية لدى الجماعات اليهودية في العالم . وقد استغلت بعض القيادات الإسرائيلية (بنحاس سابير ـ إيجال آلون) المؤتمر لتأكيد أهمية الهجرة للمطالبة بمزيد من المساعدات المالية من الجماعات اليهودية ، وذلك لتأمين استيعاب موجات الهجرة إلى إسرائيل عن طريق مشروعات الاستيطان في الأراضي العربية المحتلة ، وهي المشروعات التي أشار إيجال آلون إلى أنها تسهم في تجديد روح الريادة في أوساط الشباب ، وهو ما يعني تحقيق المزيد من إضفاء الطابع الصهيوني على الصابرا والمهاجرين الجدد ، وخصوصاً بعد أن لاحظ المؤتمر عزوف الشباب عن الصهيونية ومُثُلها .

المؤتمر التاسع والعشرون :

القدس ، فبراير/ مارس ١٩٧٨ . عُقد برئاسة أرييه دولزين الذي انتُخب رئيساً للجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية . وشارك في هذا المؤتمر ـ لأول مرة ـ ممثلون ومراقبون من خمس منظمات يهودية عالمية هي : الاتحاد العالمي لليهود الشرقيين ـ منظمة مكابي العالمية ـ الرابطة العالمية لليهود التقدميين ـ المجلس العالمي للمعابد المحافظة ـ المؤتمر العالمي للمعابد الأرثوذكسية .

وجاء المؤتمر عقب صعود ليكود إلى الحكم ، ففقد التجمع العمالي «المعراخ» مكانته كقوة أولى في الحركة الصهيونية ، كما تغيَّرت التحالفات داخل المؤتمر لصالح الليكود حيث انفرط الحلف التقليدي بين العمل ومزراحي نتيجة انضمام الأخير إلى تحالف الليكود . وأبدت الكونفدرالية العالمية للصهيونية العمومية استعدادها للانضمام للائتلاف الجديد . وفي المقابل ، نشأ تحالف بين المعراخ وممثلي اليهود الإصلاحيين . وقد انعكس هذا التحول على مناقشات المؤتمر ، فشهدت مداولات تشكيل اللجنة التنفيذية خلافات حادة بين الكتلتين على توزيع مقاعد اللجنة ، كما تفجرت الخلافات بينهما عند مناقشة مسألة تمثيل اليهود الشرقيين بشكل مناسب في أجهزة المنظمة الصهيونية .

وعكست مناقشات المؤتمر جو الأزمة العامة التي تعيشها الحركة

الصهيونية والتي تجسَّدت في عدد من الظواهر البارزة لعل أهمها تَراجُع معدلات الهجرة إلى الكيان الصهيوني وتزايد معدلات النزوح والتساقط ، بالإضافة إلى الإخفاقات المستمرة في مجال التعليم اليهودي وانفصال الشباب اليهودي بشكل متزايد عما يُسمَّى «التراث اليهودي» وارتفاع نسبة الزواج المُختلَط ، وهو ما اعتبره أعضاء المؤتمر كارثة سكانية تزداد حدتها يوماً بعد يوم .

وأولى المؤتمر التوسع في إقامة مستوطنات جديدة اهتماماً بالغاً ، وكذا العمل على سرعة استيعاب المهاجرين في المستوطنات القائمة . وبشكل عام ، تميَّزت المناقشات بالتكرار والصخب والتهديد بالانسحاب من جانب هذا التيار أو ذاك ، ولهذا فقد أُحيلت القرارات إلى محكمة المؤتمر للبت فيها ولم يتمكن المؤتمر من إعلان مقرراته في جلسته الختامية .

المؤتمر الثلاثون :

القدس ، ديسمبر ١٩٨٢ . عُقد برئاسة آرييه دولزين ، وهو المؤتمر الأول بعد توقيع معاهدة السلام بين الحكومتين المصرية والإسرائيلية ، وقد جاء بعد أشهر قليلة من الغزو الصهيوني للبنان وما أسفرت عنه الحرب اللبنانية من تغيُّرات جوهرية في خريطة الصراع العربي الصهيوني . كما صاحب المؤتمر تصاعُد الرفض داخل إسرائيل وخارجها لسياسات حكومة الليكود .

وقد تركزت مناقشات المؤتمر حول المشاكل التقليدية للحركة الصهيونية وأهمها مشكلة النزوح والتساقط وإخفاق جهود الدولة والمنظمة الصهيونية في جَلْب المهاجرين اليهود إلى إسرائيل ، بالإضافة إلى عدم إقبال الشباب على التعليم اليهودي . وكالعادة ، لم يتوصل المؤتمر إلى تعريف اليهودي ولا تعريف الصهيوني ، وهو ما دفع الكثيرين من أعضاء المؤتمر إلى التعبير عن خيبة أملهم إزاء فشل المؤتمرات الصهيونية المتوالية في مواجهة أيٍّ من المشاكل الملحة للحركة الصهيونية .

وبالنسبة للاستيطان ، تقدَّم مندوبو الليكود ومزراحي وهتحيا بمشروع قرار ينص على حق الشعب اليهودي في أرض إسرائيل كحق أبدي غير قابل للاعتراض . واختلف معهم مندوبو المعراخ في تحديد أفضلية مناطق الاستيطان ، حيث يرى هؤلاء ضرورة إعطاء الأولوية للتطور الاستيطاني الواسع في المناطق التي لا توجد بها كثافة سكانية كبيرة وفي المناطق التي تشكل أهمية حيوية لأمن إسرائيل .

وكاد المؤتمر أن يسفر عن انشقاق في الحركة الصهيونية عندما حاول الليكود تشكيل اللجنة التنفيذية بدون حركة العمل وهو ما أدَّى إلى تشابك المندوبين بالأيدي والكراسي وتهديد حركة العمل بتعطيل المؤتمر . وتعرَّض المؤتمر لهزة أخرى حين قدَّم المراقب المالي للمنظمة تقريراً اتهم فيه كبار المسئولين بإساءة استخدام الأموال التي يتبرع بها يهود العالم .

وتعرَّض المؤتمر لقضية الفجوة الطائفية بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين في إسرائيل ، واتهم اتحاد اليهود الشرقيين كلاًّ من وزير الخارجية ورئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية بتجاهل ممثلي الاتحاد عمداً .

وقد أعاد المؤتمر انتخاب دولزين رئيساً للجنة التنفيذية للمنظمة .

المؤتمر الحادي والثلاثون :

القدس ، ديسمبر ١٩٨٧ . وقد ناقش المؤتمر كالعادة قضية «تعريف اليهودي» وأصدر قراراً في هذا الصدد بمنح تيارات الديانة اليهودية كافة حقوقاً متساوية وهو قرار بلا معنى . وناقش المؤتمر أيضاً قضية حدود الدولة ولم يصل إلى أية قرارات في هذا الصدد كالعادة أيضاً . ولم يتم الموافقة على مشروع القرار الذي قدمته حركة العمل الداعي لإنهاء السيطرة على ١,٣ مليون عربي . وحتى بعد تعديله وفوزه بالأغلبية ، لم يَصدُر القرار لأن اليمين هدد بالانسحاب . ومن الواضح أن قادة يهود العالم لم يَعُد لهم أي تأثير على سياسة الحكومة الإسرائيلية . وأشارت قرارات المؤتمر إلى تدنِّي الهجرة إلى إسرائيل وازدياد النزوح منها . وطرح البعض مبدأ ثنائية المركزية (أي أن يكون ليهود العالم مركزان ، واحد في إسرائيل والثاني في الدياسبورا) بعد فشل برنامج القدس في تحقيق أهدافه . والدلالة العملية لهذا المبدأ هو أن إسرائيل لم تَعُد مركزاً روحياً لليهود كما تدَّعي الحركة الصهيونية بل إن فكرة المركز الروحي نفسها قد اشهرت إفلاسها . وناقش المؤتمر موضوع الفلاشاه ويهود سوريا . وكان التركيز في القرارات على التربية اليهودية والصهيونية رغم أن القرارات عكست أيضاً تمزقاً شديداً ، حتى أن البعض ناقش مرة أخرى مبرر استمرار بقاء المنظمة الصهيونية بعد إنجاز هدف إقامة الدولة العبرية .

وقد عكس المؤتمر الانحسار الأيديولوجي للصهيونية خصوصاً أنه جاء بعد نشوب انتفاضة الشعب الفلسطيني في الأرض العربية المحتلة وانكشاف الأزمة العميقة في الدولة الصهيونية .

ومما يجدر ذكره أنه ، خلال المؤتمر الحادي والثلاثين ، لم تَعُد القوة المهيمنة على حكومة المستوطنين هي نفسها القوة المهيمنة على المنظمة ، إذ انتقل ميزان القوى ولأول مرة منذ عام ١٩٤٨ إلى كتلة تمثل التحالف بين بعض الصهاينة الاستيطانيين وحركة العمل

الصهيونية (حزب العمل وحزب مابام وراتس وياحد) من جهة ، والحركات الصهيونية العالمية (التوطينية) مثل الكونفدرالية العالمية للصهيونيين المتحدين والحركة الصهيونية الإصلاحية وحركة المحافظين من جهة أخرى ، حيث استحوذ هذا التحالف على ٣٠٨ مندوبين من مجموع ٥٣٠ مندوباً . وقد حدث هذا الانقلاب بعد أن شعر الإصلاحيون والمحافظون بأن اليمين الصهيوني (الليكود وغيره) ، المتحالف مع الأحزاب الدينية ، سيعمل على تمرير قانون «من هو اليهودي» ، ذلك إلى جانب الاستياء المتراكم من ممارسات حكومة الليكود الإسرائيلية نتيجة سياستها الداخلية والخارجية . وقد انتُخب سيمحا دينيتز رئيساً للجنة التنفيذية للمنظمة خلفاً لآريه دولزين .

المؤتمر الثاني والثلاثون :

القدس ، يوليه ١٩٩٢ . خيَّم على المؤتمر إحساس عميق بأن "المولد الصهيوني" قد أوشك على الانفضاض ، وأن المنظمة الصهيونية أصبحت ، "عظاماً جافة" و"هيكلاً بدون وظيفة" (ميزانية المنظمة ٤٩ مليون دولار مقابل ميزانية الوكالة اليهودية التي بلغت ٤٥٠ مليون دولار) . وقد تساءل مراسل الإذاعة الإسرائيلية : "هل ما زالت هذه المؤسسة قائمة ؟" وقد استُنفد معظم الوقت في تدبير التعيينات في المناصب والصراع على الوظائف رغم أنه كان قد وُوفق على معظمها قبل المؤتمر .

وقد لوحظ أن معظم التعيينات تمت على أساس سياسي وليس على أساس الكفاءة ، كما لوحظ أن أعضاء المؤتمر لم يتم انتخابهم إذ تم تعيينهم عن طريق عقد الصفقات . وقد أجمع المراقبون على أن المنظمة تعاني تضخُّم البيروقراطية والإسراف والابتعاد عن الأيديولوجية الصهيونية . وقد فُسِّر ذلك على أساس تعاظم دور المؤسسات الصهيونية غير السياسية في الحركة الصهيونية ، وخصوصاً تلك التي تنتمي إلى التيارات الدينية المختلفة . ورغم الحديث عن ضرورة تشجيع الهجرة ، إلا أن ميخائيل تشلينوف (رئيس المنظمة العليا لمهاجري الاتحاد السوفيتي سابقاً "فاعد") لم يُسمَح له بأن يلقي كلمته ، وذلك لأن أعضاء الوفد السوفيتي حضروا باعتبارهم مراقبين ليس لهم حق الانتخاب ، وقد انسحب أعضاء الوفد لهذا السبب .

المؤتمر الثالث والثلاثون :

القدس : ديسمبر ١٩٩٧

اجتمع هذا المؤتمر متأخرا عن موعده وقد كان المفروض أن يعقد في ١٩٩٦ . وقد تم تأخيره حتى يتزامن مع الذكرى المئوية للمؤتمر الصهيونى الأول! حضر المؤتمر ٧٥٠ مندوبًا من يهود العالم (حوالى ثلاثة أربعهم من اليهود الإصلاحيين أو المحافظين) و ١٩٠ مندوبًا عن المستوطنين الصهاينة . وقد وصل عيزر وايزمان، رئيس الدولة، وبنيامين نتنياهو، رئيس الوزراء، متأخرين عن موعدهما . ولم تعر الصحف الإسرائيلية المؤتمر اهتماما كبيرا، ونشرت أخباره فى مقابل صفحة الوفيات!

وكالمعتاد كان هناك كثير من الاقتراحات (فصل الدين عن الدولة - تقوية الديموقراطية الإسرائيلية - حذف مفهوم «نفى الدياسبورا على أن يحل محله مفهوم «مركزية إسرائيل فى الحياة اليهودية» - مفهوم التعددية يحل محل مفهوم «أتون الصهر» أو «مزج المنفيين» ، بمعنى أن تحتفظ كل جماعة يهودية مهاجرة إلى فلسطين المحتلة بملامحها الإثنية والدينية الأساسية التى أتت بها من بلدان المهجر - تغيير الموقف من النازحين (يوريديم) - الاهتمام بالمواطنين غير اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل - الاهتمام بأسلوب الحياة والبيئة فى إسرائيل - إنشاء «بعثات سلام اسرائيلية»، أى أن يقوم الشباب اليهودى فى العالم بأداء نوع من الخدمة «القومية» فى إسرائيل نيابة عن الشعب اليهودى) .

كما نشبت المعارك المعتادة: فحينما قال يوسى ساريد (عضو الكنيست ورئيس حزب ميرتس) أن أى شخص يساهم فى تسمين المستوطنات يرتكب فعلا معاد للصهيونية لأنه يعرض عملية السلام للخطر، وحين قام بالهجوم على نتنياهو، قاطعته أصوات عالية، تتهمه بأنه ليس يهوديا، بل وطالبه البعض بالذهاب إلى وطنه!

وقد هاجمت شوشانا كاردين، رئيسه النداء الإسرائيلى الموحد، الطبيعة السياسية للحركة الصهيونية وطالبت بإعادة تعريفها بحيث تصبح مشاركة حقيقية بين الدولة الصهيونية والجماعات اليهودية في العالم، وأن تقوى أواصر العلاقة بينها .

وقد حذر الحاخام نورمان رام، رئيس جامعة يشيفا، من إعطاء ثقل غير حقيقى للحركتين الإصلاحيه والمحافظة داخل الحركة الصهيونية . وهذه كلها موضوعات «قديمة» سبق نقاشها من قبل .

وكانت قرارات المؤتمر الصهيونى كلها ذات طابع إدارى إجرائى، وتنبع معظمها من إحساس أعضاء المنظمة الصهيونية والقائمين عليها بأن المنظمة أصبحت لا قيمة لها وأنه أصبح من الممكن الاستغناء عنها (على أن تقوم الحكومة بالوصول مباشرة إلى أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم) . وكان من ضمن القرارات إقامة مشاركة حقيقيه بين إسرائيل ويهود العالم ينعكس على اختيار المندوبين، بحيث يكون نصفهم من إسرائيل والنصف الآخر من يهود

العالم، وهو قرار يعكس المحاولة اليائسة من جانب المنظمة الصهيونية أن تصبح لها دور، ولكنه في ذات الوقت تعبير عن تآكل دورها.

والملاحَظ، من متابعة سير المؤتمرات الصهيونية المختلفة، أن الاختلافات والصراعات التي قامت بين أنصار التيارات الصهيونية المختلفة، من صهيونية سياسية وصهيونية عمالية أو عملية أو ثقافية أو دينية أو توفيقية، لا تعدو أن تكون خلافات داخل "الأسرة الواحدة" حول أفضل الأساليب وأكثرها فاعلية دون أن تتجاوز هذا إلى الأهداف النهائية التي هي موضع اتفاق عام بين هذه التيارات.

وقد أُثيرت في الآونة الأخيرة شكوك قوية ـ من جانب كثير من القيادات والتيارات الصهيونية ـ حول جدوى المؤتمرات الصهيونية ومدى فاعليتها. إذ يرى الكثيرون أن المؤتمرات تحوَّلت إلى منتديات كلامية وأصبحت عاجزة عن مواجهة المظاهر المتفاقمة للأزمة الشاملة للحركة الصهيونية ودولتها، التي تتمثل في مشاكل النزوح والتساقط واندماج اليهود في مجتمعاتهم والزواج المُختلَط والتمايز بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين، بالإضافة إلى انفضاض يهود العالم عن حركة الصهيونية بما يكرس عزلتها. ومن أبرز الدلائل على تلك الأزمة أن المؤتمرات الصهيونية المتتالية لم تفلح حتى الآن في الاتفاق على حلٍّ لمشكلة من هو اليهودي ومن هو الصهيوني رغم أنها تأتي دائماً في مقدمة الموضوعات المطروحة على جدول الأعمال في المؤتمرات المختلفة. ورغم أن البعض يحاول أن يُرجع هذا العجز إلى أسباب فنية وتنظيمية إلا أنه بات واضحاً أن مظاهر الأزمة ذات طبيعة تاريخية وحتمية تتجاوز الحدود التنظيمية لتصل إلى جذور المشروع الصهيوني نفسه وإلى طابع نشأته وتطوره. ولهذا، فليس من قبيل المبالغة أن يُضاف عجز المنظمة الصهيونية العالمية بهيئاتها المختلفة، ومنها المؤتمر، إلى مجمل المظاهر العامة لأزمة الحركة الصهيونية.

برنامج القدس ٥٧٢٨ (١٩٦٨)

Jerusalem Program

أقر المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون، المنعقد في القدس عام ١٩٥١، "برنامج القدس" والذي تُعَدُّ الموافقة عليه شرطاً أساسياً لعضوية المنظمة الصهيونية.

ويحدد البرنامج الأهداف الرئيسية للحركة الصهيونية معتبراً أن "تجميع الشعب اليهودي في وطنه التاريخي ـ أرض إسرائيل ـ عن طريق الهجرة من جميع البلدان" هو هدف الصهيونية الأول.

وقد أقر المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون، الذي عُقد في القدس عام ١٩٦٨، إضافة الفقرة التالية إلى "برنامج القدس" الجديد الذي سُمِّي "برنامج القدس ٥٧٢٨ (١٩٦٨)"، وهي تُوضِّح أهداف الصهيونية بالتفصيل كما يلي: وحدة الشعب اليهودي ومركزية إسرائيل في حياته؛ تجميع الشعب اليهودي في وطنه التاريخي ـ أرض إسرائيل ـ عن طريق الهجرة من مختلف البلدان؛ تدعيم دولة إسرائيل التي قامت على أساس الرؤيا النبوئية للعدل والسلام؛ الحفاظ على هوية الشعب اليهودي من خلال تعزيز التربية اليهودية والعبرية والقيم الثقافية والروحية اليهودية، وحماية الحقوق اليهودية أينما كانت.

وصياغة برنامج القدس صياغة مراوغة إلى أقصى حد (انظر: «الخطاب الصهيوني المراوغ») وهو ما جعل عملية تبنيه مسألة سهلة جداً.

ورغم الموافقة الأولية على «برنامج القدس» من جانب الاتحادات الصهيونية والتجمعات اليهودية المختلفة، باعتباره شرطاً لانضمامها إلى المنظمة الصهيونية، فقد أثار منذ إقراره (وحتى الآن) نقاشات وخلافات حادة بين الاتجاهات المتعددة في الحركة الصهيونية، وخصوصاً فيما يتعلق بتأكيده محورية الهجرة إلى إسرائيل كأساس لتحقيق الصهيونية، وبالتالي إعطاء إسرائيل دور المركز بالنسبة ليهود العالم، وما يترتب على ذلك من اعتبار من لا يعتزم الهجرة إلى إسرائيل غير صهيوني.

وتمثل التجمعات الصهيونية خارج إسرائيل عموماً، والتجمعات الصهيونية في أمريكا بشكل خاص، المعارضة الأساسية لهذه النصوص التي تؤدي ـ في نظرهم ـ إلى زيادة ثقل دولة إسرائيل داخل الحركة الصهيونية مع تقليص دور التجمعات في الخارج وتهميشها. وترفض المنظمات المؤيدة لهذا الاتجاه اعتبار اليهود «أمة» مرتبطة بوطن وتكتفي بالحديث عن «شعب يهودي» دون الارتباط بوطن واحد. كما تطالب بتأكيد المشاركة بين الدولة ويهود «الشتات» في الخارج على قدم المساواة، وبالنظر إلى الهجرة نحو إسرائيل لا كأساس لتحقيق الصهيونية وإنما كمثل أعلى.

هاتيكفاه

Hatikva

«هاتيكفاه» كلمة عبرية معناها «الأمل»، وهو اسم نشيد الحركة الصهيونية الذي أصبح النشيد القومي لإسرائيل، وفيما يلي مقطوعتان من النشيد:

ما دامت روح اليهودي
في أعماق القلب تتوق.
ونحو الشرق

تتطلع العيون لصهيون .
أملنا لم يُفقَد أبداً .
أمل ألفي عام :
أن نصبح شعباً حراً في وطننا .
أرض صهيون وأورشليم .

والمقطوعة الثانية في النشيد لازمةٌ تتكرر .

والنشيد يشبه من بعض الوجوه الخطاب الصهيوني المراوغ : فهو نشيد مليء بالفراغات ، يتحدث عن التطلع إلى صهيون ، وعن أمل لم يُفقَد بعد ، وعن شعب واحد ، وعن أرض صهيون ، ولكنه يلتزم الصمت تجاه غالبية اليهود الذين يرفضون أن يكونوا جزءاً من الشعب اليهودي وإن قبلوا ذلك اسماً (فهم يرفضون الهجرة) . وبطبيعة الحال ، يلتزم النشيد الصمت تجاه آلية العودة إلى الأرض وآلية التخلص من أهلها .

ورغم حديث النشيد عن تطلعات هذا الشعب الواحد ، فإن ملابسات تأليفه وتلحينه تبيِّن عكس ذلك على طول الخط ، فالقصيدة وضعها بالعبرية الشاعر نفتالي هرز إمبر المولود في جاليشيا عام ١٨٥٦ والمتوفى في نيويورك عام ١٩٠٩ والذي تنصَّر بعض الوقت وانتقل من شرق أوربا إلى غربها . وبعد استيطانه في فلسطين لم يُطق العيش فيها وانتقل منها إلى الولايات المتحدة (حيث استقر مع الملايين من المهاجرين اليهود) . وكان نفتالي إمبر يكتب بالعبرية واليديشية والإنجليزية . والقصيدة متأثرة ببعض الموضوعات التي ترد في بعض الأغاني الألمانية ، كما أنها متأثرة بأنشودة وطنية بولندية أصبحت نشيد بولندا القومي ("بولندا لم تضع بعد ، ما دمنا على قيد الحياة") . أما فيما يتصل باللحن ، فقد وضع موسيقاه صمويل كوهين الذي اقتبسها من موسيقى أغنية شعبية رومانية من مولدافيا (مسقط رأسه) تُسمَّى «العربة والثور» ، وهو لحن شعبي شائع جداً في وسط أوربا ، ولذا فهو موجود أيضاً في تشيكوسلوفاكيا ، وقد استخدمه الموسيقار سميتنا في إحدى سيمفونياته .

وقام الصهاينة بمحاولات عدة لإعداد نشيد قومي ليس له أصول غربية (غير يهودية) ، فأعلنوا عدة مسابقات ، ولكن النتيجة جاءت دائماً مخيبة للآمال . وتم تبنِّي الهاتيكفاه كنشيد رسمي للحركة الصهيونية في المؤتمر الصهيوني الثامن عشر (١٩٣٣) ، وهو المؤتمر الذي تم فيه أيضاً الموافقة على اتفاقية الهعفراه (الترانسفير) مع النازي . وقد أثيرت مؤخراً في إسرائيل قضية بشأن مضمون النشيد القومي ، فإذا كان نشيد الهاتيكفاه يتحدث عن أحلام اليهود، فكيف يمكن أن يعتبره العرب من مواطني الدولة الصهيونية نشيدهم الوطني ؟

نفتالي إمبر (١٨٥١-١٩٠٩)

Naftali Imber

شاعر يكتب بالعبرية واليديشية وأحياناً بالإنجليزية . وُلد في جاليشيا لأسرة حسيدية ، وتلقَّى تعليماً دينياً . ومع هذا ، كانت أول جائزة أدبية حصل عليها عن قصيدة وطنية نمساوية (١٨٧٠) . وقد تجوَّل إمبر بعد موت أبيه من بلد لآخر . وفي إستنبول ، قابل لورانس أوليفانت الصهيوني غير اليهودي الذي كان يحاول أن يبدأ حركة استيطانية بين اليهود ، فعمل إمبر سكرتيراً له وذهب معه إلى فلسطين عام ١٨٨٢ حيث عاش لمدة ستة أعوام وكتب مقالات للمجلات العبرية . ونشر إمبر عام ١٨٨٦ مجموعة من القصائد العبرية بعنوان **نجمة الصباح** ، وهي المجموعة التي تضم قصيدة «هاتيكفاه (الأمل)» التي كان عنوانها في البداية «تيكفاتينو» (أملنا) . وقد أصبحت هذه القصيدة نشيد الحركة الصهيونية ثم أصبحت النشيد القومي لإسرائيل . ومما له دلالته أن مجموعة **نجمة الصباح** مهداة إلى أوليفانت ، وهو أهم الشخصيات في تاريخ الصهيونية بين غير اليهود . ومن قصائد إمبر الأخرى التي أحرزت شعبية بين المستوطنين ، قصيدة «حراسة على نهر الأردن» . وبعد موت أوليفانت ، ذهب إمبر إلى إنجلترا حيث تعرَّف إلى إسرائيل زانجويل الذي رسم صورة كاريكاتيرية له (الشاعر الشحاذ) في رواية **أطفال الجيتو** . وقد انتقل إمبر بعد ذلك إلى الشرق وتجوَّل فيه حتى وصل إلى بومباي حيث يُقال إنه تنصَّر (ويُقال إنه تنصَّر أيضاً بعض الوقت في فلسطين ، وهذه رواية يرويها صديقه إسرائيل زانجويل) . وانتقل إمبر بعد ذلك إلى الولايات المتحدة حيث عاش حياة بؤس وفقر وإدمان . وقد تعرَّف إلى امرأة مسيحية بروتستانتية تهوَّدت بعد أن تزوجها ، ولكن الزواج انتهى بالفشل . ونشر شقيق إمبر مجموعته الشعرية الأخرى **نجمة الصباح الجديدة** (١٩٠٢) ، ولكن معظم نسخها احترق . ثم نشر ديوان شعر ثالثاً له في نيويورك عام ١٩٠٥ بعد مذابح كيشينيف ، وقد أهدى المجموعة لإمبراطور اليابان التي كانت في حالة حرب مع روسيا .

وقد كتب إمبر كذلك عدة كتيبات بالإنجليزية عن القبَّالاه ، وحرَّر مجلة **أوريل** وهي مجلة ثيو صوفية كانت تَصدُر في بوسطن . كما قام بترجمة **رباعيات عمر الخيام** إلى العبرية .

والواقع أن سيرة حياة إمبر ذات دلالات رمزية وواقعية عديدة :

١ ـ فهو يهودي من شرق أوربا ويذهب إلى فلسطين مع صهيوني استيطاني غير يهودي، ويرحل عنها بعد وفاة الصهيوني غير اليهودي .

٢ ـ رغم أن إمبر تلقَّى تعليماً دينياً ، إلا أن إيمانه الديني تزعزع تماماً ويتضح هذا في تَنَصُّره بعض الوقت ثم رجوعه عن ذلك ثم زواجه من امرأة مسيحية ثم انشغاله بالقبَّالاه . لكن تهوُّد هذه المرأة يبين مدى تَداخُل المسيحية واليهودية بعد أن تمت علمنتها من الداخل .

تاريخ الصهيونية في روسيا

History of Zionism in Russia

لعبت روسيا دوراً مهماً في تاريخ الحركة الصهيونية الاستيطانية ، فقد كانت أوضاع اليهود في روسيا تربة خصبة لنمو أية أفكار تبشر بالخلاص ، سواء الفردي مثل الحسيدية أو القومي مثل الصهيونية . ومثلها مثل العديد من دول شرق أوربا ، بدأ التوجه الصهيوني فيها بنشأة حركة أحباء صهيون في ثمانينيات القرن التاسع عشر .

وحينما نشر هرتزل كتابه **دولة اليهود** ، التف حوله صهاينة روسيا ، وقد انعكس هذا في التمثيل الروسي في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) الذي وصل إلى الثلث ، فمن بين ١٩٧ مندوباً كان هناك ٦٦ مندوباً روسياً . ومن هؤلاء شخصيات احتلت مراكز مهمة في الحركة الصهيونية فيما بعد مثل ليو موتزكين وفلاديمير تيومكين وهرمان شابيرا وغيرهم .

وقبل المؤتمر الصهيوني الثاني (١٨٩٨) ، اجتمع القادة الصهاينة الروس ، ومنهم صهاينة الجزء الروسي من بولندا في وارسو ، وظهر في هذا الاجتماع أن ثمة خلافاً في الرأي بينهم وبين القيادة العامة للمنظمة الصهيونية العالمية . وقد كان هذا الخلاف يعبِّر عن اختلاف في التوجه ، فبينما اتجهت القيادة العامة ذات المنحى التوطيني إلى التفاوض مع الأتراك للحصول على وثيقة تتيح لليهود استيطان فلسطين ، طالب الصهاينة الروس ذوو الاتجاهات الاستيطانية بالقيام بمشاريع استيطان فعلية في فلسطين وتنظيم برامج ثقافية تمهيداً لتوطين اليهود في فلسطين . ورغم هذا ، لم يصل الخلاف إلى حد القطيعة أو الانفصال ، فقد كان كل فريق بحاجة للآخر ، فالروس (الاستيطانيون) كانوا في حاجة إلى الغربيين (التوطينيين) لإمدادهم بالدعم المادي والسياسي اللازم ، والغربيون كانوا بحاجة للروس لأنهم يمثلون المادة البشرية الخام . وعلى هذا ، حضر الصهاينة الروس المؤتمر الثاني بينهم ياحيل تشيلينوف وحاييم وايزمان وناحوم سوكولوف وشماريا ليفين وموتزكين الذي قدَّم تقريراً مفصلاً عن رحلته التي قام بها بتكليف من المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) إلى فلسطين .

وازدادت قوة الصهيونية الروسية وسط المنظمة العالمية بمرور الوقت ، فقد حضر المؤتمر الرابع في لندن عام ١٩٠٠ أكثر من ٢٠٠ مندوب روسي ، وقاموا في المؤتمر الخامس في بازل عام ١٩٠١ بتشكيل "العصبة الديموقراطية" برئاسة وايزمان وموتزكين التي عبَّرت عن تطلعات الروس الاستيطانية مقابل المسعى التوطيني الذي التزم الغربيون به عن طريق العمل الدبلوماسي والضغط السياسي .

وشكَّل الجناح الأرثوذكسي المتدين بقيادة الحاخام إسحق رينز حركة المزراحي للتعبير عن مخاوف المتدينين من سيطرة العلمانيين . وفي عام ١٩٠٢ ، عُقد المؤتمر الصهيوني الأول لعموم روسيا في مدينة منسك .

وقام أحاد هعام وناحوم سوكولوف بطرح فكر العلمانيين فيما يخص الثقافة والتربية "اليهوديتين" . وقد عارضت حركة المزراحي هذا الفكر بشدة تحت قيادة رينز و شمويل ياكوف . ووصلت الحركة الصهيونية إلى حل توفيقي يقبل جود اتجاهين متعارضين في الصهيونية فيما يخص التربية والثقافة اليهودية . والواقع أن هذا الحل وتلك الطريقة التوفيقية التلفيقية المستمرة حتى اليوم إنما تكشف عن جانب مهم وخاصية أساسية في الصهيونية الاستيطانية ألا وهي محورية فكرة الاستيطان نفسها التي تتلاشى معها الفروق الأخرى .

وقد أثارت زيارة هرتزل لروسيا في صيف ١٩٠٣ ومحاولته مقابلة وزير الداخلية فون بليفيه ضجة استنكارية واسعة في صفوف الصهاينة الروس الذين عبَّروا عن رفضهم أسلوب التعامل مع من كانوا يعتبرونه جلاد اليهود والمسئول عن المذابح اليهودية .

وفي المؤتمر الصهيوني السادس (١٩٠٢) ، اتُخذت تلك المسألة تكئة لمعارضة هرتزل في مسألة أهم هي اقتراحه الرامي إلى وضع خطة التوطين في شرق أفريقيا . وقد كانت الحركة الصهيونية الروسية بشُعبها التي تعدَّت ١٥٧٢ جمعية محلية (عام ١٩٠٣) تمثل القوة الأولى في المنظمة وتمثل المادة الخام البشرية الأهم . ومن ثم ، لم يكن بالإمكان الاستهانة بمعارضة الصهاينة الروس لهذا المشروع . ويمكننا أن نقول إن هذه المعارضة قد تصاعدت حتى بلغت ذروتها في أكتوبر عام ١٩٠٣ وتجلَّت في شكل مؤتمر كراكوف الذي حضرته القيادات الصهيونية الروسية كافة وقُدِّم في هذا المؤتمر تهديد صريح لهرتزل بضرورة ترك مشروع شرق أفريقيا أو مواجهة انسحاب شامل من المنظمة . وفي مؤتمر بازل عام ١٩٠٥ ، حدث الصدام الحاد بين التوطينيين بقيادة إسرائيل زانجويل وبين الصهاينة الاستيطانيين الروس ، وخصوصاً بعد موت هرتزل . وانتصر الاستيطانيون وانفصل زانجويل مكوِّناً المنظمة الصهيونية الإقليمية .

بيد أن التأثير الأعظم للإقليميين كان على الحركة العمالية الصهيونية التي كانت لا تزال وليدة عام ١٩٠٥ ولم تكن ذات شأن

بين الحركات العمالية في روسيا في هذا الوقت ، حيث رأى القادة العماليون أن أية هجرة يهودية إلى أي مكان ستشكل في النهاية حركة استيطان ذات طابع عمالي ومن ثم تنحل المشكلة اليهودية حلاً اشتراكياً . وكان الداعية الأساسي لهذه الحركة هو الزعيم الصهيوني بير بوروخوف . وقد تعرضت الحركة الصهيونية في هذا الوقت إلى معارضة قوية في صفوف أعضاء الجماعات اليهودية من حزب البوند الذي كان يدعو إلى نبذ فكرة الهجرة وإلى الاستقلال الذاتي في إطار روسيا الكبرى . وقد ساهمت الحركة العمالية الصهيونية في حركة الهجرة الروسية الثانية التي استمرت بين عامي ١٩٠٤ و١٩١٤ والتي أقامت مستوطنات مثل داجانيا .

وقد أيَّدت الحكومة الروسية الاتجاهات الاستيطانية ورحبت بالهجرة ، إلا أن مقررات مؤتمر هلسنجفورس عام ١٩٠٦ ، التي دعت إلى تقوية الحركة داخلياً والدفاع عن حقوق اليهود القومية ، أثارت شكوك الحكومة القيصرية ، وهو ما حدا بها إلى منع الحركة عام ١٩٠٧ . وفي عام ١٩٠٨ ، زار ديفيد ولفسون رئيس المنظمة الصهيونية العالمية سان بطرسبورج وحصل ثانيةً على وعد بالاعتراف بالنشاطات الصهيونية الخاصة بالصندوق القومي والصندوق الاستعماري . بيد أن الحكومة القيصرية رفضت التصريح بإعادة المنظمة للمجال الشرعي . ورغم هذا ، استمر تأثير المنظمة الروسية عالمياً ، فحصل الصهاينة الروس على مقاعد أساسية في اللجنة التنفيذية للمنظمة العالمية في المؤتمر العاشر عام ١٩١١ وفي المؤتمر الحادي عشر في فيينا عام ١٩١٣ .

ومع اندلاع ثورة فبراير عام ١٩١٧ في روسيا ، انتهت كل المعوقات التي كانت تضعها الحكومة القيصرية أمام الحركة الصهيونية ، فاجتذبت أعداداً ضخمة من اليهود الذين شردتهم الحرب وأضرت بهم . وعُقد مؤتمر صهيوني لعموم روسيا في بتروجراد في ٢٤ مايو عام ١٩١٧ حضره ٥٥٢ مندوباً يمثلون ١٤٠ ألف شيقل بالمقارنة بعام ١٩١٣ حيث كان عدد دافعي الشيقل ٢٦ ألفاً فقط . وقد أقر هذا المؤتمر مقررات مؤتمر هلسنجفورس وصاغ برنامجاً موحداً لكل الجماعات الصهيونية للمشاركة في انتخابات الجمعية التأسيسية لعموم يهود روسيا . ودُعيت اللجنة التنفيذية الجديدة للعمل على إعداد مؤتمر عام . وحينما عُقد المؤتمر ، حضره جوزيف ترومبلدور من فلسطين ودعا إلى إنشاء جيش من اليهود الروس لاحتلال فلسطين مروراً بالقوقاز ، وأيَّد حوالي ٢٠ مندوباً أفكار جابوتنسكي حول التعاون مع بريطانيا من أجل تكوين الفيلق اليهودي . بيد أن الغالبية العظمى كانت تؤيد فكرة حياد اليهود التي تبنتها المنظمة الصهيونية العالمية . وقد انتهى هذا الحياد مع صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ .

ومع قيام الثورة البلشفية في ٢٤ أكتوبر ١٩١٧ ، لم تتأثر الحركة الصهيونية في البداية ، بل أُقيم أسبوع لفلسطين في ربيع عام ١٩١٨ . وسيطر الصهاينة على الاجتماعات اليهودية التي قاطعتها الأحزاب الاندماجية ، ففي مؤتمر موسكو الذي حضره ١٤٩ مندوباً من أربعة تجمعات يهودية محلية في روسيا كان الصهاينة هم الوحيدون المُمثَّلون ، وحصل الصهاينة في أوكرانيا على ٥٥٪ من مقاعد المجالس اليهودية . ولكن ، مع ازدياد قوة الحكم السوفيتي واستتباب الأمر للشيوعيين ، أصبحت الصهيونية هدفاً للاتهامات الحكومية ، وتم إلغاء الأحزاب والمنظمات الصهيونية وأُلقي القبض على بعض القادة . وقد قام القسم اليهودي في الحزب الشيوعي السوفيتي الجديد بمحاربة الروح (الانعزالية والكهنوتية) الصهيونية بين الجماعات اليهودية . وفي العشرينيات ، قامت الحركة الصهيونية بعدة محاولات للحصول على حق القيام بنشاط صهيوني علني ، وخصوصاً في المجال الثقافي ، وفي مجال تشجيع الهجرة لفلسطين (مثلما حدث في المفاوضات شبه الرسمية التي أجراها عضو اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية م . د . إدر أثناء زيارته لموسكو عام ١٩٢١) . بيد أن هذه المحاولات باءت بالفشل . وقد استؤنف النشاط الصهيوني العلني في روسيا وأوكرانيا بعد سقوط الاتحاد السوفيتي .

تاريخ الصهيونية في بولندا

History of Zionism in Poland

لا يمكن الحديث عن تاريخ متجانس للصهيونية في عموم بولندا . فقد ارتبطت الحركة في كل قطاع من قطاعات بولندا بتاريخ البلد الذي ينتمي إليه هذا القطاع ، بمعنى أن يهود بولندا في القطاع الألماني تأثروا بنظرة اليهود الاندماجية الألمان ومن ثم كانوا يرفضون الصهيونية . لذا ، سينقسم الحديث عن تاريخ الصهيونية في بولندا إلى مرحلتين : المرحلة الأولى تشمل تاريخ الصهيونية في بولندا المقسَّمة والمحتلة ، والمرحلة الثانية تشمل تاريخ الصهيونية في بولندا المستقلة . وتنقسم المرحلة الأولى بدورها إلى ثلاثة أقسام حيث يعالج كل قسم تاريخ الصهيونية في قطاع بعينه من قطاعات بولندا :

المرحلة الأولى : بولندا المحتلة المقسَّمة :

أ) الصهيونية في القطاع الألماني :

كان عدد اليهود في القسم الألماني من بولندا لا يتعدى ٥٠ ألف نسمة في بداية القرن العشرين ، وقد تأثروا جميعاً بالفكر الاندماجي السائد بين اليهود الألمان حتى أن اهتمامهم باليهودية في ذاتها لم يكن كبيراً . ومن ثم ، كان موقفهم من الصهيونية معادياً وبشدة لخطورة تلك الأفكار على وضعهم الاجتماعي في ألمانيا . ورغم وجود

داعيين صهيونيين مهمين، هما زفي هيرش كاليشر وإليا جوتيماخر، في هذا القطاع، وإقامة أول مؤتمر لحركة أحباء صهيون في كاتوفيتش عام ١٨٨٤، إلا أن تأثير هذا على الجماعة اليهودية في القطاع الألماني كان ضئيلاً جداً (بل يمكن القول بأنه كان منعدماً).

ب) الصهيونية في القطاع الروسي :

بلغ تعداد السكان اليهود في القطاع الروسي من بولندا، في نهاية القرن التاسع عشر، حوالي ٢ مليون نسمة. وكان هذا القطاع قطاعاً متقدماً اقتصادياً، بل من أغنى مناطق بولندا وروسيا كلها، وكان مركزاً للصناعة والتجارة ومحطة مهمة بين روسيا القيصرية وباقي أوربا. ولم يكن يهود هذا القطاع متعاطفين في البداية مع الصهيونية بل كان موقفهم، على حد تعبير **الموسوعة اليهودية**، "معادياً ومضاداً للصهيونية". وذلك فضلاً عن أن المذهب الأرثوذكسي المنتشر بين يهود هذه المنطقة كان معادياً بشدة لفكرة الصهيونية. وكان حَمَلة لواء الصهيونية الأساسيون في تلك المنطقة هم الليتفاك، أي اليهود القادمون من ليتوانيا وأستونيا ولاتفيا وفنلندا، أي دول البلطيق الروسية في ذلك الوقت، والذين كانت الصهيونية بالنسبة لهم وسيلة للخلاص من القمع المزدوج من قبَل الروس وأهالي البلطيق.

بيد أن الوضع كان مختلفاً في مناطق أخرى من القطاع الروسي في بولندا حيث استُقبلت الأفكار الصهيونية منذ البداية بترحاب شديد لأنها كانت تمثل طريقاً للخلاص، وخصوصاً وسط القطاعات الهامشية من يهود بولندا الروسية الذين كانوا يعيشون بعيداً عن منطقة الوسط الصناعية المتقدمة.

وكانت السلطات الروسية ترحب بالأفكار الصهيونية على أساس أنها وسيلة ناجعة لمكافحة الأفكار الاشتراكية والثورية، وللتخلص من الفائض البشري اليهودي. وتقول **الموسوعة الصهيونية** في هذا الصدد: "كان رد فعل الأغيار البولنديين إيجابياً تجاه الحركة الصهيونية حيث إنهم نظروا للاستيطان في فلسطين باعتباره السبيل الأمثل للإسراع بطرد اليهود من بولندا".

وقد أدَّى إقرار برنامج هلسنجفورس (١٩٠٦)، الذي تبنَّى مطلب الدفاع عن المصالح الآنية و"الحقوق المشروعة" للقومية اليهودية إلى وضع الجماعة اليهودية المؤيدة للصهيونية في موقف عداء مباشر مع غيرها من الأقليات والقوميات وكذلك مع السلطات القيصرية التي كانت تنادي بالقومية الروسية السلافية كقومية فوق القوميات. وقد اتخذ هذا العداء أحياناً شكل القمع السياسي ومصادرة الصحف، واتخذ أحياناً أخرى شكل مقاطعة اليهود اقتصادياً، وخصوصاً في الأوساط الشعبية. وقد شهدت تلك الأعوام أيضاً مجموعة يهودية معادية للصهيونية هم اليهود الذين عملوا من خلال البرلمان البولندي أو «السييم». وقد سُمِّيت تلك المجموعة «السييميون» أو «مؤيدو الانضمام للسييم»، وكانت الحركة الصهيونية تقاطع البرلمانات سواء الروسية (الدوما) أو البولندية (السييم). ولكن، مع التطورات السياسية وظهور تلك الجماعة المنافسة، نجح الصهاينة في انتخاب أحد ممثلي الحركة في لودز. ورغم هذا النشاط السياسي والدعائي، لم تنجح الحركة الصهيونية في تهجير عدد كبير من اليهود إلى فلسطين في هذه الفترة.

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، توقفت النشاطات الصهيونية في بولندا، وبعد قيام دول الوسط باحتلال بولندا المؤتمر، بدأت حركة عمال صهيون في الحركة تحت رعاية قوى الوسط التي كانت تبغي توظيف النشاط الصهيوني في مواجهة الأطماع البريطانية في الشرق العربي.

جـ) الصهيونية في جاليشيا (القطاع النمساوي من بولندا) :

اختلف نمو وتطوُّر الحركة الصهيونية في جاليشيا، عنها في القطاعات الأخرى من بولندا، اختلافاً بيِّناً. فعلى جانب كانت الحكومة النمساوية أكثر ليبرالية من الحكومة القيصرية في روسيا، وكانت الحركة الصهيونية من جانب آخر تطلب عون النمساويين والألمان من أجل تحقيق فكرة الوطن القومي اليهودي. وقد تطوَّرت الحركة الصهيونية في جاليشيا في صفوف دعاة حركة التنوير اليهودية. وبمعنى آخر، تأثرت الحركة الصهيونية في جاليشيا منذ البداية بالرؤية المعرفية الإمبريالية الكامنة في التنوير وبالبُعْد القومي الرومانسي الذي نشأ في دول الوسط في أوربا. وكانت إمبراطورية النمسا/ المجر تعتبر اليهود جماعة دينية لا جماعة قومية. وفي خضم الصراع بين القوميات داخل الإمبراطورية، حاول البولنديون ضم أعضاء الجماعة اليهودية لصفوفهم من أجل التفوق على الأوكرانيين عددياً، كما حاول الأوكرانيون فعل الشيء نفسه. بيد أن هذا الاتجاه لاقى معارضة كبيرة من جانب الصهاينة الاستيطانيين الذين نظروا لهذا الاتجاه على أنه تكريس للاندماج، وأصروا على أن هدف الصهيونية هو الهجرة إلى فلسطين ومن ثم أصروا على أن يقتصر دورها في البلاد الأخرى على الجانب التثقيفي والمالي اللازم لتحقيق الهدف الأساسي، أي الاستيطان في فلسطين. من ثم، فقد وصل مؤتمر كراكوف عام ١٩٠٦ إلى نوع من الحل التوفيقي في هذا المضمار حيث أنيط بالحزب القومي اليهودي الذي كان حديث النشأة مسئولية الدفاع عن حقوق اليهود (المدنية والسياسية)، بينما أنيط بالمنظمة الصهيونية مهمة جَمْع المال والتثقيف الصهيوني. وقد كان مؤتمر كراكوف هذا حلبة خاصة لصهاينة جاليشيا رغم أنه كان، من الناحية النظرية، يمثل سائر الاتجاهات الصهيونية في النمسا. وفي عام

١٩٠٧ ، نجح الحزب القومي اليهودي الذي كان مجرد واجهة في إرسال أربعة من ممثليه إلى أول برلمان نمساوي ، كان ثلاثة منهم من جاليشيا والرابع من بوكوفينا . وفي خضم هذا الصراع السياسي ، نجح الصهاينة في إحكام قبضتهم على التجمعات اليهودية في جاليشيا من خلال العديد من المطبوعات اليديشية والبولندية ، بل نجح الصهاينة في جاليشيا في إقامة مستوطنة خاصة بهم في فلسطين ونشروا سلسلة من المدارس العبرية وسيطروا على مدارس البارون دي هيرش اليهودية وطردوا الاندماجيين منها . والجدير بالذكر في هذا الصدد أن أعداداً كبيرة من يهود جاليشيا كانوا من الفرانكيين (أتباع فرانك الذي تأثر بالتنوير والفكر القومي الرومانسي) . ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى ، أصيبت الحركة الصهيونية في بولندا النمساوية بالشلل حيث احتلت القوات الروسية (في بداية الحرب) جاليشيا لمدة سنة ، وأدَّى هذا إلى فرار ما يزيد على نصف السكان اليهود إلى داخل النمسا وخصوصاً لاتفيا . ومع تغيُّر مجريات الأمور في الحرب ، استعادت الحركة الصهيونية نشاطها ولكن في حذر ، وذلك تحسباً لما ستسفر عنه الحرب .

المرحلة الثانية : بولندا المستقلة :

وتميَّز تلك المرحلة بما يلي :

١ ـ زيادة عضوية المنظمة الصهيونية . وكانت منافستها الوحيدة للسيطرة على يهود بولندا هي منظمة أجودات إسرائيل الأرثوذكسية .

٢ ـ نجاح جميع الحركات الصهيونية في مختلف قطاعات بولندا في الاندماج وسط الحركات العمالية (عمال صهيون) والدينية (مزراحي) ولكنهم أخفقوا في الاندماج في الحركات الأخرى .

٣ ـ أدَّى هذا الفشل إلى ظهور صراعات حزبية هي في الواقع تعبير عن الصراع حول الرؤية بين الاستيطانيين والتوطينيين . فقد حاول التوطينيون دائماً إبعاد الصهيونية عن دخول مواجهات مع الحكومات ، بيد أن الاستيطانيين كانوا يرون أن المواجهة مع الحكومة تدفع إلى هجرة اليهود إلى فلسطين وهو الهدف الأساسي . وقد أدَّى هذا في النهاية إلى هزيمة التوطينيين (الصهاينة العموميين) .

٤ ـ ازدادت أهمية الجماعة اليهودية في بولندا وازدادت أهمية الهجرة اليهودية من بولندا إلى فلسطين .

ورغم الانقسامات التي حدثت في صفوف الحركة ، فإن كل الأحزاب الصهيونية استمرت داخل نطاق المنظمة الصهيونية العالمية عدا حركة اليسار العمالي المتطرف ، عمال صهيون والصهاينة التصحيحيين . وقد ارتبطت الحركة الأولى بالحركات الاشتراكية والعمالية في العالم ، وساعد نجاح البلاشفة في الاستيلاء على السلطة على تدعيم موقفها الرافض للتعاون مع البورجوازية . وبينما اعتمد العماليون على نجاح البلاشفة لتدعيم حركتهم وسط العمال اليهود ، اعتمد التصحيحيون على عدوانيتهم وطابعهم القومي الاستيطاني المتطرف لاجتذاب الشباب . وقد نجح التصحيحيون في أن يحركوا الشباب اليهودي في بولندا فأعلنوا عام ١٩٣٠ عن خطة ضخمة لتهجير اليهود من بولندا إلى فلسطين . وقد قوبلت الخطة برفض شديد من قبَل أعضاء الجماعات اليهودية لأنها ترسخ الموقف البولندي المعادي لليهود ، ولكنها نجحت في دعم موقف التصحيحيين وسط الحركة الصهيونية ذلك أن الحكومة البولندية التي كانت تضم عناصر معادية لليهود استقبلت الخطة بترحاب شديد ، وقامت بدعم التصحيحيين باعتبارهم العنصر الصهيوني الذي يعبِّر بشكل متبلور عن الروح الاستيطانية وعن رفض أي شكل من أشكال الاندماج أو الانتماء لغير "القومية اليهودية" .

وقد تركزت المعارضة اليهودية للصهيونية ، أساساً ، في الحركات التي كانت تنادي باندماج اليهود وسط المجتمع البولندي مثل البونديين والسيميين (أي البرلمانيين) . بيد أن النواة الأساسية للمعارضة في الأوساط اليهودية كانت من صفوف اليهود الأرثوذكس في حركة أجودات إسرائيل وغيرهم من حاخامات الحسيديين (رغم أن بعض الحسيديين كانوا مؤيدين للصهيونية) .

وكان الاندماجيون من البونديين والسيميين يعارضون العبرية ويدعون لاستخدام اليديشية بوصفها لغة قومية . وقد تميزت علاقة هؤلاء بالحكومة البولندية بالتوتر نظراً لطابعهم الذي كان قومياً واندماجياً في آن واحد ، وكذلك بسبب الأيديولوجيا الثورية التي كانوا ينادون بها .

وقد لعبت الحركة الصهيونية في بولندا دوراً مهماً في تهجير اليهود البولنديين بين الحربين ، حتى أن بولندا صارت المصدر الأول للمادة الاستيطانية البشرية في فلسطين بعد أن منع الشيوعيون اليهود من الهجرة من روسيا ، وكان معظم المهاجرين من الشباب من الصهاينة العماليين ذوي التوجه الاستيطاني . وقد جُرِّم النشاط الصهيوني بعد أن وصل الشيوعيون إلى الحكم .

تاريخ الصهيونية في ألمانيا

History of Zionism in Germany

كانت ألمانيا في بداية الحركة الصهيونية محط أنظار القادة الصهاينة ومحور اهتمامهم لأسباب عديدة نوجزها فيما يلي :

١ ـ كانت ألمانيا مهد الفكر القومي الأوربي العضوي وهو الفكر الذي انطلقت منه الصهيونية والإطار الذي تحركت من خلاله .

٢ ـ لم تكن ألمانيا قد كوَّنت مستعمراتها بعد ، ومن ثم كانت التطلعات الإمبريالية الألمانية محتاجة إلى طلائع استعمارية

استكشافية ، وقد عرضت الحركة الصهيونية نفسها على الحكومة الألمانية للقيام بهذا الدور .

٣ ـ كانت علاقة ألمانيا بالشرق وبالإمبراطورية العثمانية علاقة قوية . ومن ثم ، نظر الصهاينة إلى ألمانيا على أنها المعبَر الأساسي لهم نحو فلسطين . لكل هذا ، يمكننا أن نقول إن ثمة اعتبارات معرفية وسياسية وعملية جعلت العلاقة بين الصهيونية وألمانيا علاقة خاصة على مدى تاريخها .

وقد كانت الحركة الصهيونية في ألمانيا ذات توجُّه توطيني ، وكان موقف معظم اليهود الألمان من الصهيونية معادياً وبشدة . وقد كانت خطة هرتزل الأصلية هي إقامة المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) في ميونيخ ، ولكن محاولته باءت بالفشل بسبب العداء الشديد الذي واجهه من الجماعة اليهودية .

ورغم أن عدد المندوبين الألمان في المؤتمر الصهيوني الأول كان ٤٠ مندوباً ، إلا أن معظمهم لم يكن ألمانياً ، فبعضهم كان قادماً من فلسطين والبعض الآخر كان مهاجراً من دول أوربا الشرقية .

أُسِّست في ألمانيا أكثر من حركة صهيونية المنحى ، والطابع المميِّز لهذه الحركات جميعاً هو استخدامها ديباجة علمية مثل جمعية الإسرائيليين ذات الطابع التاريخي التي تأسست في برلين عام ١٨٨٣ ، والجمعية العلمية ليهود روسيا في برلين وتأسست عام ١٨٨٩ وكان أعضاؤها من يهود شرق أوربا ، وجمعية تنمية الزراعة والحرف في فلسطين والتي أسَّسها ماكس بودنهايمر وديفيد ولفسون في كولونيا عام ١٨٩٢ ، وقد تحوَّلت عام ١٨٩٧ إلى الجمعية اليهودية القومية وطالبت بإيجاد دولة يهودية . والطابع العلمي لهذه الجمعيات يدل على أنها جمعيات نخبوية ثقافية كما يشير إلى طرق التفكير المنطقية المنظمة الصارمة التي تتسم بها الصهيونية في ألمانيا .

وقد تأسَّست في أكتوبر ١٨٩٧ الجمعية الصهيونية الألمانية لتنضم إلى الجمعيات الصهيونية في ألمانيا . وقد نمت تلك الجمعية ببطء . ففي عام ١٩١٢ ، كان عدد أعضائها ٨,٤٠٠ ، ووصل هذا الرقم عام ١٩٢٧ إلى ٢٠,٠٠٠ ، ثم زاد إلى أقصى عدد عام ١٩٣٤ بعد استيلاء النازيين على السلطة وصار ٣٥,٠٠٠ . وكانت الجمعية تُصدر صحيفة **اليوديشر روندشاو** ، كما كانت تمتلك مؤسسة دار النشر اليهودية ، وشهد عام ١٩١٢ انعقاد المؤتمر الإقليمي الصهيوني الذي أصدر قرار بوزن والذي نص على أن : "الهجرة هي البرنامج الأساسي للصهيوني في حياته" وعلى الصهيوني أن يربط بين قدره الشخصي وبين مصير الوطن القومي عن طريق الوسائل الاقتصادية والمصالح المادية . وكما نرى ، فإن هذا البرنامج التوطيني في الأساس يتيح الفرصة للقادة الصهاينة الألمان من أمثال المالي الكبير ولفسون والعالم البيولوجي واربورج للارتباط المزدوج ، وهو ما يتيح لهم إمكانية أكبر داخل المجتمع الألماني حيث تصير الصهيونية بالنسبة لهم نوعاً من تأكيد الانتماء لألمانيا .

وقد كان تأثير الاتحاد الصهيوني الألماني قوياً ، وبخاصة في الأعوام الخمسة عشر التي بقيت خلالها رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية في ألمانيا سواء في كولونيا أثناء فترة رئاسة ديفيد ولفسون أو في برلين أثناء فترة رئاسة أوتو واربورج . ولقد ساعد وجود المنظمة في ألمانيا على إحجام الأتراك (حلفاء الألمان) عن اعتقال اليهود في فلسطين . ومن ثم ، لعبت الحرب العالمية الأولى في ألمانيا دوراً حاسماً في تاريخ الصهيونية لا يقل أهمية عن الدور الذي لعبته بريطانيا بعدها بإصدارها وعد بلفور . وقد كان النفوذ الصهيوني لدى الحكومة الألمانية والضغط الذي مارسته ألمانيا على تركيا العثمانية هو الذي حمى الاستيطانيين في فلسطين . بل إن بعض الاستيطانيين من أمثال ديفيد بن جوريون جرى اعتقالهم على يد الإنجليز بوصفهم رعايا دولة معادية . وحتى بعد انتقال المنظمة العالمية من ألمانيا ، احتل قادة صهاينة ألمانيا مواقع مهمة في المنظمة العالمية وإن كانت أقل مما كانوا يحتلون بالطبع ، ومن هؤلاء فليكس روزنبلوت وريتشارد لختهايم وكورت بلومنفيلد . وقد احتفظت الحركة الصهيونية في فترة جمهورية فايمار (١٩١٨ ـ ١٩٣٣) بطابعها التوطيني ، فكانت حركة نخبوية ولم تكن حركة جماهيرية . وكان ظهور النازية فرصة هائلة لازدهار الحركة الصهيونية ، فزادت العضوية زيادة هائلة ، كما تعاونت الحكومة النازية مع الحركة الصهيونية في ترحيل اليهود من ألمانيا داخل إطار ما عُرف باتفاق الهعفراه أو اتفاق التهجير الذي أصبح بمنزلة بوابة الخروج الوحيدة ليهود ألمانيا حيث أُجبروا على الذهاب إلى فلسطين ، أي أن الحركة الصهيونية التوطينية تحوَّلت إلى حركة استيطانية وتم توفير المادة الخام البشرية نتيجة الأزمة التي خلقتها النازية ونتيجة تعاون الحكومة النازية مع المنظمة الصهيونية . ولقد استمرت الحركة الصهيونية في العمل الشرعي في ألمانيا حتى عام ١٩٣٨ ، أي أن التعاون بين النازية والصهيونية ظل قائماً طالما ظلت المصالح المشتركة قائمة ، ثم انفض الرباط مع إحساس كل منهما بعدم حاجته للآخر .

وقد أُقيم اتحاد صهيوني جديد بعد الحرب العالمية الثانية مباشرةً وأُعيد تكوين الحركة الصهيونية في ألمانيا عام ١٩٥٤ واعترفت بها المنظمة العالمية عام ١٩٥٦ . وهي تلعب دوراً مهماً في جمع المال ودق ناقوس الجرائم النازية ، أي أنها استعادت الطابع التوطيني السالف للحركة .

تاريــخ الصهيونيــة في فرنســا
History of Zionism in France

لم تكن الصهيونية غير اليهودية قوية في فرنسا ، فهي بلد كاثوليكي (والصهيونية غير اليهودية ظهرت وترعرت داخل التشكيل البروتستانتي بالأساس) . ومع هذا ، ظهرت شخصيات صهيونية غير يهودية داخل التشكيل الاستعماري الفرنسي من أهمها نابليون بونابرت وإرنست لاهاران .

أما بالنسبة للصهيونية بين يهود فرنسا ، فيمكن أن نلخص مراحل تطورها فيما يلي :

١ ـ المرحلة الأولى ١٨٨٠ ـ ١٩١٩ (مرحلة النشأة) :

كانت الغالبية العظمى من اليهود المولودين في فرنسا لا مبالية إن لم تكن معادية للبرنامج الصهيوني . وحينما بدأ النشاط الصهيوني في فرنسا على يد البارون إدموند دي روتشيلد والتحالف الإسرائيلي العالمي ، كان نشاطاً توطينياً ، فقد قاما بإنشاء شبكة من المدارس في فلسطين لتدريب اليهود المستوطنين (الذين أتوا أساساً من شرق أوربا) على الزراعة . وقد كان اليهود في فرنسا يمثلون في الأغلب الأعم الشرائح المتوسطة في الطبقة الوسطى ، وبذا كان الاتجاه الغالب هو رفض الحل الصهيوني الذي يطلب منهم التخلي عن الوضع المستقر الذي يعيشونه والذهاب إلى أرض يجهلونها تماماً . وكان التوجه السياسي العام لليهود في فرنسا محافظاً ومسايراً لحكومة فرنسا بوجه عام . ولأن الحكومة الفرنسية (في المراحل الأولى من الصهيونية) لم تكن مهتمة بفلسطين ، فإن يهود فرنسا تبنوا موقفها . كما أن القيادات الصهيونية الأولى نفسها لم تكن مهتمة بالتوجه للحكومة الفرنسية بحكم نشأتها في ألمانيا . ومع هذا ، لاقت الصهيونية في فرنسا ترحيباً كبيراً من قِبَل المهاجرين اليهود من شرق ووسط أوربا الذين بدأوا في الوصول إلى فرنسا مع ثمانينيات القرن التاسع عشر ، وهكذا كان قادة الحركة الصهيونية في فرنسا هم على التوالي : إسرائيل يفرويكين ومارك ياربلوم وجوزيف فيشر ، وكلهم من شرق أوربا . ويمثل هؤلاء المادة البشرية المطلوبة للفكر التوطيني .

وكان أول تجمُّع يشكله هؤلاء في فرنسا هو تجمُّع اليهودي الأبدي الذي شكَّلته جماعة من المهاجرين الروس على شاكلة التجمعات الطلابية المماثلة في روسيا عام ١٨٨١ . وأسست هذا التجمع جماعة استيطانية اسمها "بني صهيون" عام ١٨٨٦ ، وقامت هذه الجمعية بشراء ١٢٠ دونماً من الأرض في وادي حنين في فلسطين . وعلى المنوال نفسه ، نشأت جمعيات طلابية صهيونية في مختلف أنحاء فرنسا . وحاول الطلاب الفرنسيون اليهود ذوو الأصل الروسي أن يكون التجمع في شكل لجنة مركزية تمثل جمعيات أحباء صهيون كافة من بقاع الأرض كافة . بيد أن هذه المحاولة باءت بالفشل . وقد كان عدد المندوبين الفرنسيين في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ١٢ مندوباً ، ولم يكن معظمهم من يهود فرنسا . وتذكر المصادر الصهيونية أن كبير حاخامات فرنسا ، الحاخام زادوك كاهن ، قد أثَّر كثيراً في الحركة الصهيونية رغم رفضه المُعلَن لها . ونجد أن أبرز الصهاينة الفرنسيين في تلك الفترة هو البيولوجي ألكسندر مارموريك الذي ترأس الاتحاد الصهيوني الفرنسي منذ إنشائه عام ١٩٠١ وحتى وفاته عام ١٩٢٣ ، والكاتب برنار لازار الذي كان من بين المدافعين عن دريفوس ، والنحات فردريش بير ، والكاتبة ميريام شاخ . وجميعهم باختصار من مثقفي باريس المعارضين الذين وجدوا في الفكر الصهيوني التوطيني وسيلة للتعبير عن الذات والتميز داخل المجتمع الثقافي في فرنسا . وطوال الفترة الممتدة بين المؤتمر الصهيوني الأول وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ ، لم يزد اليهود المنضمون للحركة الصهيونية ومنظماتها العديدة في فرنسا عن بضع مئات من المثقفين ممن لا تأثير لهم في الجماعة اليهودية التي ظلت ترفض الصهيونية .

٢ ـ المرحلة الثانية : ١٩١٤ ـ ١٩٣٩ (مرحلة التطور) :

تميَّزت هذه المرحلة بازدياد الاهتمام المُتبادَل بين الحكومة الفرنسية والحركة الصهيونية ونمو العلاقة بين الصهاينة والحركات المعارضة . وكانت المادة البشرية في هذه المرحلة من يهود الألزاس واللورين أساساً ثم من الفارين من ألمانيا النازية . وتميَّز الموقف العام للجماعة اليهودية بالاهتمام والترقب دون التأييد الكبير .

ومع الحرب العالمية الأولى وازدياد الاهتمام الإمبريالي الفرنسي بالمشرق العربي بعد أن كان مقصوراً على المغرب ، ومع انتصار الحلفاء على دول الوسط وتفتُّت الإمبراطورية العثمانية وسَلْخ الألزاس واللورين من ألمانيا وضمهما لفرنسا ، بدأت الحكومة الفرنسية تُظهر اهتماماً خاصاً بالحركة الصهيونية وبدأت أسماء السياسيين تظهر في قائمة مؤيدي الصهيونية . وقد تَوافَق مع هذا الاتجاه التغير في قيادة الحركة الصهيونية وتوجُّهها نحو بريطانيا وفرنسا بدلاً من ألمانيا والنمسا لتكونا القوتين الإمبرياليتين الراعيتين للحركة . ومن ثم ، فقد شهدت فترة ما بين الحربين العالميتين نمواً مطرداً في صفوف الحركة الصهيونية في فرنسا حيث وجد يهود الطبقة المتوسطة أن هذا التأييد يضمن لهم مكانتهم في المجتمع نظراً لأنه موقف الحكومة الرسمي ، ووجد يهود الألزاس واللورين ذوو الارتباطات الثقافية الألمانية في الحركة الصهيونية نوعاً من التحقق القومي الرومانسي الذي يمثل استمراراً لتلك الارتباطات الثقافية ولا يتعارض في الوقت نفسه مع انتماءاتهم الألمانية الرومانسية التي تغيَّرت . وقد شكَّل هؤلاء في ستراسبورج (عام ١٩١٧) حركة

صهيونية شبابية عُرفت باسم «هاتيكفاه» ، ومن هذه المنطقة أتى معظم المهاجرين اليهود إلى إسرائيل .

وفي عام ١٩٢١ تأسست في ستراسبورج أيضاً جماعة مزراحي . وفي إطار هذه الجماعة ، أكدت الجمعية الفرنسية للحاخامات (عام ١٩٢٣) أهمية الاستيطان اليهودي في الأراضي المقدَّسة وضرورة خلق مجتمع صهيوني . وشهدت الأعوام ١٩١٩ ـ ١٩٣٩ نشاطاً محموماً في الحركة الصهيونية ، وعلى مستويات عدة . فتحت قيادة جوزيف فيشر (الذي صار سفيراً لإسرائيل في بلجيكا عام ١٩٤٩) قام الصندوق القومي اليهودي بفتح فروع له في الجزائر ، واشتركت الحركة الصهيونية الفرنسية في الوكالة اليهودية الموحَّدة عام ١٩٢٩ . وكان ممثل فرنسا في مجلس الوكالة هو السياسي الفرنسي الشهير ليون بلوم . وعلى أية حال ، كان هذا مؤشراً على ازدياد أهمية الحركة الصهيونية سياسياً داخل فرنسا ، كما كان مؤشراً على ضعفها النسبي فلم يكن هذا الممثل صهيونياً قحاً بل كان يهودياً غير صهيوني أو مجرد واجهة ملائمة .

وفي عام ١٩٣٧ ، شُكِّلت لجنة التنسيق بين المنظمات الصهيونية التي شملت عضويتها كل الفصائل والتنظيمات الصهيونية حتى أنها ضمت منظمة صهيونية سفاردية بلغت عضويتها ٢٥٠ فرداً . ورغم كل هذا النشاط ، أو بالأحرى لأن كل هذا النشاط كان تعبيراً عن آراء توطينية لا عن آراء استيطانية ، لم تكن الهجرة من فرنسا هدفاً حقيقياً ، ولم يتعد عدد المهاجرين بضع مئات . وحتى عندما وصل العدد إلى بضعة آلاف من المهاجرين ، كان ٩٠٪ منهم من لاجئي ألمانيا النازية ، وبالتالي يمكننا أن نقول إن الحركة الصهيونية الفرنسية وجدت في هؤلاء ضالتها المنشودة ومادتها البشرية التي تسعى إلى توطينها .

٣ ـ المرحلة الثالثة : ١٩٣٩ ـ ١٩٦٧ (مرحلة الاستقرار) :

وتميَّزت هذه المرحلة بغلبة الطابع السياسي التحريضي وشهدت دعماً مالياً معنوياً ضخماً للحركات الصهيونية في فلسطين ثم لدولة إسرائيل ، وازدادت العلاقة توثُّقاً مع الحكومة الفرنسية (ويرجع هذا أيضاً لوصول الاشتراكيين للحكم) . وكانت المادة البشرية في هذه المرحلة أساساً من الفارين من مناطق الاحتلال النازي في أوربا ثم بعد الحرب من يهود شمال أفريقيا بعد حرب تحرير الجزائر واستقلال تونس والمغرب . وتميَّز الموقف العام للجماعة اليهودية في هذه المرحلة بالتأييد الضخم والمبالغ فيه أحياناً حتى صارت التفرقة بين المنظمات اليهودية والصهيونية عسيرة جداً .

وقد ازداد هذا الدور التوطيني مع الغزو النازي لفرنسا وازدياد عدد اللاجئين من بولندا وهولندا وغيرها من المناطق الواقعة تحت الاحتلال النازي . ولقد استقر النشاط الصهيوني في منطقة جنوب فرنسا في جمهورية فيشي . وفي عام ١٩٤١ أنشئت في فيشي حركة الشباب الصهيوني بقيادة سيمون ليفيت وجول جفروكن (وهو حفيد إسرائيل يفرويكين الذي تفرنس) . وهنا نلاحظ أن نزعات الجد الاستيطانية تحوَّلت إلى نزعات توطينية لدى الحفيد مع استقرار الأسرة في فرنسا ومع إحساسها بالأمان ، ومن ثم تغيَّر محتوى الخطاب وكذلك أهدافه (بل تغيَّر الاسم ذو الطابع السلافي إلى اسم لاتيني النبرة) . وقد لعبت حركة الشباب الصهيوني دوراً بارزاً في تهريب اليهود اللاجئين عبر الحدود إلى إسبانيا وسويسرا ومنها إلى فلسطين ، بل شاركت في المقاومة المسلحة . وفي عام ١٩٤٢ ، ساهم الشباب الصهيوني في تولوز في تشكيل ما عرف بالجيش اليهودي الذي لعب أيضاً دوراً مهماً في توطين اللاجئين اليهود الفارين في فلسطين وشارك بعدئذ في وحدات فرنسا الحرة تحت قيادة ديجول . وقد كان لهذا الدور ، وكذلك لفكرة المذابح اليهودية على يد النازي ، أثر جديد مهم في التحول الذي طرأ على الحركة الصهيونية في فرنسا بعد الحرب . فقد قدَّرت الحكومة الفرنسية المساعدات الصهيونية واعتبر يهود فرنسا الصهاينة أبطالاً منقذين .

وتشكَّلت في عام ١٩٤٧ منظمة الاتحاد الصهيوني الفرنسي التي رأسها أندريه بلوميل وهو اشتراكي من أتباع ليون بلوم كما أنه قانوني شهير ، ولعبت تلك المنظمة دوراً بالغ الأهمية في عمليات الهجرة غير الشرعية عَبْر الموانئ الفرنسية إلى فلسطين . كما قدَّمت مساعدات مالية هائلة للاستيطان الصهيوني في فلسطين ، وخصوصاً بعد صدور قرار التقسيم ، حتى أن الهاجاناه وحدها تلقت ما يزيد على ٢ مليون من الفرنكات . وفي عام ١٩٥٠ ، كان هناك ٦٣,٢٤٨ دافع شيقل فرنسي في المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرين . وتشكلت لجان تبرع عديدة لإسرائيل في فرنسا تحت اسم «مساعدة إسرائيل» ، و«النداء الموحَّد» وغير ذلك .

ومع اندلاع حرب تحرير الجزائر عام ١٩٥٤ ، وجدت الحركة الصهيونية في فرنسا فرصة جديدة ، فقد جاء تيار المهاجرين اليهود القادم من شمال أفريقيا إلى فرنسا بمادة بشرية جديدة يمكن توجيهها إلى إسرائيل التي كانت في حاجة ماسة للأفراد ذوي التخصصات الدقيقة والأكاديمية . ويمكننا أن نقول إن كل الحركات اليهودية في فرنسا بحلول الستينيات كانت مؤيدة للصهيونية وإسرائيل حتى أن الحاخام الأكبر يعقوب قبلان كان الرئيس الفخري لحركة مزراحي (عمال مزراحي في إسرائيل) ، وشاركت مشاركة فعالة في كل الجهود الصهيونية في فرنسا .

وقد ظهر هذا التأييد الواسع في المساعدات الهائلة التي قدمتها الحركة الصهيونية والمؤسسات اليهودية في فرنسا إلى إسرائيل قبل حرب ١٩٦٧ مباشرةً ، وأثناءها وبعدها ، حتى أن حملة التبرعات

التي حدثت بعد الحرب مباشرةً أرسلت ٤٠٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني إلى إسرائيل تحت اسم «تبرعات التضامن مع إسرائيل» . وقد عارضت الحركة الصهيونية الموقف الرسمي الفرنسي الديجولي بعد الحرب وتشكلت جماعة تحت اسم «لجنة التنسيق بين المنظمات اليهودية في فرنسا» لتشكيل رأي عام ضاغط على الحكومة ومساندة إسرائيل .

تاريـــخ الصهيونيـــة في إنجلترا

History of Zionism in England

ارتبطت حركة أعضاء الجماعات اليهودية وهجرتهم بالتشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي (وخصوصاً الإنجليزي) . ويُلاحَظ أن الفكر الصهيوني قد وُلد في البداية في الأوساط الإنجليزية البروتستانتية قبل أن يصل إلى أعضاء الجماعات اليهودية . فمفكرون مثل شافتسبري وأوليفانت ، كانوا قد توصلوا إلى كل الأطروحات الصهيونية قبل بنسكر وهرتزل بعشرات السنين . كما أن أوليفانت وغيره كانوا قد بدأوا بوضع مشروعهم الصهيوني موضع التنفيذ . ومقابل ذلك ، كان هناك معارضة للصهيونية بين يهود إنجلترا المندمجين . ولم تبدأ الأفكار الصهيونية في الظهور إلا مع هجرة يهود اليديشية في أواخر القرن التاسع عشر .

ويمكن تقسيم تاريخ الحركة الصهيونية في إنجلترا إلى أربع مراحل :

المرحلة الأولى : منذ نشأة الحركة حتى ١٩١٤ :

اتسمت علاقة الحركة الصهيونية باليهود البريطانيين بالمعاداة أو اللامبالاة حيث اعتبرها معظم الرموز اليهودية في إنجلترا حركة خرافية خيالية تضر بمصالح اليهود ، وكان الأنصار الأساسيون للحركة الصهيونية في بريطانيا هم الساسة غير اليهود الذين وجدوا فيها وسيلة جيدة لتحقيق الأطماع البريطانية الاستعمارية في الشرق العربي .

وكانت لندن أول العواصم الأوربية التي عبَّر فيها هرتزل عن فكرته الصهيونية في النادي المكابي في عام ١٨٩٥ ونشر برنامجه الصهيوني لتوطين اليهود في فلسطين في جريدة **جويش كرونيكل** (يناير ١٨٩٦) قبل نشره كتاب **دولة اليهود** . وكما هو متوقَّع أخذت الصهيونية في بريطانيا الشكل التوطيني . وعندما وصل هرتزل إلى لندن عام ١٨٩٦ ، لم يُقابَل اقتراحه بحماس كبير بين اليهود الإنجليز المندمجين . وتخبرنا **موسوعة إسرائيل والصهيونية** بأن «موجة الحماس التي نتجت عن ظهور هرتزل لم تتعد المهاجرين قط» (بعبارة أخرى : المادة البشرية من شرق أوربا) .

وقد أثارت كلمة هرتزل مخاوف جماعة أحباء صهيون اللندنية برئاسة الكولونيل ألبرت جولد سميد من أن تثير خطته السلطات التركية فتمنع إقامة المستوطنات اليهودية في فلسطين ، وهو ما حدا بالجماعة إلى رفض دعوة هرتزل لها لحضور المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) الذى حضره ثمانية مندوبين بريطانيين (من بينهم إسرائيل زانجويل) معظمهم ليسوا من أصل بريطاني بل مهاجرون من أصول شرق ووسط أوربية . وقد تعرَّضت الحركة الصهيونية في بدايتها لانتقادات ومعارضة شديدة من قِبَل اليهود البريطانيين حتى أن الحاخام الأعظم الدكتور هرمان أدلر أصدر مرسوماً يحذر فيه من «الأفكار الخرافية والخيالية حول الأمة اليهودية والدولة اليهودية» .

وقد تطلَّب الأمر من هرتزل ، الذي كان يطمح إلى الحصول على تأييد بريطاني لمشروعه ، أن يعمل جاهداً على ضم حركة أحباء صهيون . وبحلول المؤتمر الصهيوني الثاني (١٨٩٨) ، كان عدد الجمعيات الصهيونية في بريطانيا ٢٦ جمعية ، ومَثّل تلك الجمعيات في بازل ١٥ مندوباً . وفي عام ١٨٩٩ ، تَشكَّل اتحاد صهيوني برئاسة السير فرانسيس مونتفيوري وهو ابن أخي السير موسى مونتفيوري (الداعية اليهودي الشهير) . وفي العام نفسه ، نجح هرتزل في تسجيل الصندوق اليهودي الاستعماري ، وهو أول أداة مالية صهيونية لتمويل المشروع التوطيني في لندن ، كشركة بريطانية . وقد أدَّى هذا إلى القضاء تماماً على جمعية أحباء صهيون كجماعة مستقلة حيث اشترك أغلب أعضائها البارزين في الصندوق وبالتالي في الاتحاد الصهيوني .

وقد عُقد في لندن المؤتمر الصهيوني الرابع (١٩٠٠) وحضره ٢٨ مندوباً يمثلون ٣٨ جمعية أعضاء في الاتحاد الصهيوني الإنجليزي . وفي محاولة من المؤتمر لكسب الرأي العام السياسي البريطاني للفكرة الصهيونية ، وزَّع المؤتمر على النواب البريطانيين في مجلس العموم دوريات تشرح أغراض الصهيونية وتدعوهم إلى الرد وإبداء آرائهم حول هذا الموضوع . وقد وصف هرتزل هذا الفعل بأنه «أذكى فعل قامت به حركتنا منذ فترة بعيدة» . وقد أيَّد الصهاينة البريطانيون مشاريع الاستيطان الصهيونية خارج فلسطين ، سواء مشروع أوغندا أو مشروع العريش أو غيرهما من المشاريع .

المرحلة الثانية : ١٩٠٤ ـ ١٩٣٩ :

اتسمت تلك المرحلة بازدياد أهمية لندن كمركز للحركة الصهيونية وتلاشي دور برلين الصهيوني ، وازدادت العلاقات بين الحكومة البريطانية وبين الصهاينة توثقاً ، وشهدت مرحلة صدور وعد بلفور ومن ثم أصبح بإمكان الحركة أن تتغلغل سريعاً وسط اليهود البريطانيين . وقد مثَّل عام ١٩٠٤ نقطة تحوُّل مهمة في تاريخ الحركة الصهيونية البريطانية والحركة الصهيونية ككل ، إذ مات هرتزل وانتقلت القيادة إلى ولفسون . وعارضت جماعة من البريطانيين هذه القيادة الجديدة الموالية لألمانيا ، كما أن موت هرتزل

أضعف التوجهات الألمانية للحركة . كما ساعد على تقوية التوجهات البريطانية ظهور وايزمان وتشكُّل ما عُرف باسم «جماعة مانشستر» ، وهي جماعة من المثقفين اليهود الشبان من بينهم إسرائيل موسى سيف وسيمون ماركس وهاري ليون سيمون . وكانت تربط هذه الجماعة علاقة قوية بشخصيات إعلامية بريطانية مثل تشارلز سكوت رئيس تحرير وصاحب جريدة **جارديان مانشستر** . وعن طريق هذه الوسائل ازدادت أهمية جماعة مانشستر وزادت أهمية وايزمان كقائد جديد للحركة الصهيونية ، وخصوصاً من خلال دعوته الملحة للتركيز على التأثير في بريطانيا العظمى والتخلي عن فكرة "الدبلوماسية التركية الألمانية" التي كان هرتزل يتبناها وكذلك فكرته حول العمل على زيادة عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين لخلق تجمُّع يهودي استيطاني قوي يُوظَّف لصالح بريطانيا . وقد أدَّت هذه العوامل إلى أن يُنتخب وايزمان عام ١٩١٤ نائباً لرئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني .

ومما زاد من أهمية الحركة الصهيونية في بريطانيا ، ازدياد اهتمام حكومة بريطانيا بمنطقة الشرق العربي ليس فقط جغرافياً ، بل اقتصادياً ، مع ظهور البترول وازدياد أهميته كمصدر للطاقة . ومع نشوب الحرب العالمية الأولى ، أصبح الاتحاد الصهيوني البريطاني الذي كان يضم في هذا الوقت حوالي ٥٠ جمعية في موقع رئيسي حيث فقدت اللجنة التنفيذية دورها القيادي لأنها تقع في برلين وبالتالي انعزلت فعلاً وقولاً عن العالم كله . وقام ناحوم سوكولوف عضو اللجنة التنفيذية بالانضمام إلى وايزمان ، ومن ثم أصبحت اتصالات وايزمان بالساسة البريطانيين أكثر رسمية . ومما ساعد على تقوية موقع وايزمان ، تأييد لويس برانديز رئيس اللجنة التنفيذية المؤقتة في نيويورك . وفي الوقت نفسه ، عمل هربرت صموئيل ، وهو عضو في الوزارة البريطانية ، على أن يحصل على وعد من الحكومة بإقامة دولة يهودية في فلسطين . وفي يناير عام ١٩١٦ ، كُوِّنت لجنة استشارية من ناحوم سوكولوف وياحيل تشيلينوف وموسى جاستر وحاييم وايزمان وغيرهم . بيد أن عمل اللجنة انتهى عام ١٩١٧ بعد استقالة هربرت بنتويتش منها لإتاحة الفرصة لوايزمان ليصير رئيساً للاتحاد الصهيوني الذي كان يخوض معركة شرسة على جانبين : الأول مع اللجنة التنفيذية العالمية ذات الاتجاه الألماني ، والثاني ضد قادة التجمع اليهودي البريطاني من غير الصهاينة الذين كانوا يرفضون الصهيونية بعنف ، حتى أن مؤيدي الصهاينة وبرنامج بازل لم يتعدوا ٥٪ من جملة يهود بريطانيا في هذا الوقت .

ومع صدور وعد بلفور وتَواجُد العديد من القادة الصهاينة في لندن أثناء الحرب مثل أحاد هعام وجابوتنسكي ، ازدادت قوة الاتحاد الصهيوني سواء عددياً أو من حيث تأثيره وسط الجماعة اليهودية . ومن الواضح أن الاعتراف الرسمي من قِبَل الحكومة البريطانية بالحركة الصهيونية وتبنيها موقفاً صهيونياً حَسَم الموقف لصالح المنظمة الصهيونية وسط الجماعة اليهودية . ومع تبعية المشروع الاستيطاني الصهيوني للمشروع البريطاني الاستعماري ، صار الفكر الصهيوني مكملاً للروح الاندماجية وغير متناقض معها ، بمعنى أنه أصبح من السهل أن يكون المواطن الإنجليزي اليهودي يهودياً وصهيونياً في آن واحد ، بعد أن كان الموقف مختلفاً قبل أشهر قليلة .

وقد عُقد مؤتمر صهيوني في عام ١٩٢٠ قام بانتخاب وايزمان رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية ، وسوكولوف رئيساً للجنة التنفيذية . وبمعنى آخر ، كرس هذا المؤتمر سيطرة الاتجاه البريطاني وأنهى تماماً الاتجاه الألماني . وحظي الاتحاد الصهيوني بتأييد سياسيين بريطانيين كبار من أمثال لويد جورج ولورد ملنر ونشرت الصحف البريطانية الصهيونية مقالات تؤيد وضع فلسطين تحت حكم الانتداب .

وقد أنشأ المؤتمر الصهيوني في لندن (١٩٢٠) الصندوق التأسيسي الفلسطيني (الكيرين هايسود) ، وأصبحت لندن مقره الرئيسي حتى عام ١٩٢٦ عندما انتقل إلى فلسطين . وهي خطوة ارتبطت بتنامي قوة الاستيطانيين وتأسيس مؤسسات خاصة . ثم انتقلت اللجنة التنفيذية إلى لندن وبقيت بها حتى عام ١٩٣٦ ، ومنها انتقلت إلى القدس . ويتبدَّى تنامي نفوذ الصهاينة وسط اليهود البريطانيين ، وبكل وضوح ، في تكوين الوكالة اليهودية الموسعة التي كانت تحت سيطرة الصهاينة تماماً .

المرحلة الثالثة (١٩٣٩ ـ ١٩٤٨) :

اتسمت تلك المرحلة بسيطرة الحركة الصهيونية تماماً على حياة ومقدرات اليهود في بريطانيا وكذلك سياسة الشد والجذب بين الصهاينة والحكومة البريطانية ، ويمكن أن نعزو هذا لازدياد أهمية الولايات المتحدة الأمريكية وسط القوى الإمبريالية العالمية وازدياد ارتباط الصهاينة بالولايات المتحدة .

وكتعبير آخر عن محورية الدور البريطاني في الشئون الصهيونية في ذلك الوقت ، استقر جابوتنسكي في لندن (منذ ١٩٣٦) لإدارة أعمال المنظمة الصهيونية الجديدة التي أنشأها . وكالعادة ، وفرت النازية للصهاينة التوطينيين البريطانيين المادة البشرية (الخام) الضرورية للعمل التوطيني . وتم تأسيس الصندوق البريطاني المركزي لمساعدة اليهود الألمان ، وكان الغرض الأساسي منه هو تهجير اليهود من ألمانيا وتوطينهم في فلسطين . وكما ساعدت تلك المادة على تقوية الدور الصهيوني التوطيني ، فقد ساعدت أيضاً الاستيطانيين على زيادة نفوذهم وسط الحركة الصهيونية العالمية بتزويدهم بمادة خام بشرية وأيضاً بإظهار قدرات الاستيطانيين الكبيرة

على الاستيعاب ، وبالتالي تخليص التوطينيين من مشاكل التعامل المباشر مع المادة البشرية . وقد ظهرت هذه الآثار في تحوّل الاتحاد الصهيوني البريطاني إلى أقوى المنظمات تأثيراً وسط اليهود البريطانيين كما تخرّج من تنظيمه الشبابي العديد من القيادات الإسرائيلية فيما بعد ، مثل أبا إيبان وإفرام هرمان . وقد ساعدت النازية أيضاً على إثارة مخاوف بعض القطاعات بين الجماعة اليهودية في بريطانيا ، وهو ما شجع على ذهاب بعض منهم إلى فلسطين . ونقل هؤلاء عند عودتهم آراء المستوطنين الصهاينة في فلسطين وكيفية التعامل مع العرب . ومع الانتفاضة العربية عام ١٩٣٦ ، وقبل ذلك مع ثورات أعوام ١٩٢١ ـ ١٩٢٩ ، كانت بريطانيا تلجأ لإصدار الكتب البيضاء من أجل إدخال الطمأنينة على قلوب العرب ، وخصوصاً أعضاء النخب العربية المرتبطة بإنجلترا ، وكان هذا يثير حفيظة الاستيطانيين الذين بدأوا في التفكير في أن الاعتماد الكامل على بريطانيا الإمبريالية غير ممكن ، ومن هنا كانت زياراتهم المتكررة للندن بهدف الضغط على الدولة البريطانية عن طريق التأثير المباشر في الاتحاد الصهيوني .

وقد خلقت الحرب العالمية الثانية وضعاً صعباً لليهود الإنجليز ، فمع اشتداد الأزمة في بريطانيا ، اعتبرت الحكومة البريطانية كل اليهود الألمان الموجودين في بريطانيا جواسيس ممثلين للعدو ، أي أنها نظرت إليهم النظرة التقليدية على أساس أن اليهودي هو دائماً الخائن/ الجاسوس/ المرابي الأبدي ، أي الجماعة الوظيفية التي تعمل دائماً في خدمة من يدفع لها أجرها ، ولم تقم الجماعات الصهيونية في بريطانيا بمعارضة هذا العمل .

وقد شهد عام ١٩٤٢ تطوراً مهماً في تركيبة الاتحاد الصهيوني البريطاني ، فقد انضمت إليه حركة عمال صهيون ذات الصلات القوية بحزب العمال البريطاني . وتجدر الإشارة إلى أن هذا يُعدُّ مؤشراً على ازدياد أهمية الاستيطانيين وغالبيتهم من حركة عمال صهيون وأيضاً على توثيق الصلة بين الصهاينة في بريطانيا وبين القوى السياسية المختلفة ، فقد كانت حكومة كلمنت إتلي العمالية هي التي وصلت إلى الحكم عام ١٩٤٥ قبل نهاية الحرب العالمية وانتهى في عهدها الصدام المسلح بين الاستيطانيين والبريطانيين على أرض فلسطين . وقبيل تقسيم فلسطين عام ١٩٤٨ ، وأثناء انعقاد مؤتمر حزب العمال البريطاني عام ١٩٤٧ ، طالب مندوب حركة عمال صهيون في كلمته الموجهة للمؤتمر (الذي حضره كمراقب زائر) باتخاذ قرار بصدد قضية فلسطين يراعي روح وعود الحزب قبل الانتخابات البرلمانية ، أي الإقرار بحق اليهود في كامل فلسطين .

المرحلة الرابعة (١٩٤٨ ـ) :

وتتسم المرحلة الحالية بضعف الحركة الصهيونية نسبياً وانشغالها بأمور ثقافية وشكلية طقوسية . ويعود هذا بالطبع لتضاؤل أهمية بريطانيا في السياسة الدولية وزيادة أهمية الولايات المتحدة بشكل ضخم واعتماد إسرائيل الكامل عليها .

وبعد إنشاء دولة إسرائيل ، استمر الصهاينة البريطانيون في عملهم الدعائي وفي خلق مؤسسات لرعاية مهاجري اليهود إلى فلسطين ، وقد مثلت المنظمة الصهيونية جسراً بين إسرائيل وأوربا . وساهمت الحركة الصهيونية في دعم إسرائيل مادياً بمبلغ يزيد على ١٧٠٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني خلال الأيام الأولى لحرب ١٩٦٧ . وكل هذه المساعدات تأتي في الإطار التوطيني . ويتضح الطابع التوطيني للصهيونية البريطانية في المساهمة الفعلية في الهجرة لإسرائيل حيث نقرأ في **موسوعة إسرائيل والصهيونية** أن "عدد اليهود البريطانيين الذين استقروا فعلاً في إسرائيل كان عدداً قليلاً" . لقد صارت إسرائيل بالنسبة للصهاينة البريطانيين مركزاً روحياً أو بقعة مقدَّسة يتطهر فيها يهود المنفى مما علق بهم من أدران . ويتبدَّى هذا فيما يُسمَّى برنامج "عام العمل" الذي تبنته منظمة اتحاد الشباب الصهيوني عام ١٩٥٠ والقاضي بأن يسافر الشباب اليهودي من بريطانيا لقضاء سنة من العمل التطوعي في إسرائيل ، وهو تعبير عن تقبُّل كامل لحالة الدياسبورا باعتبارها حالة نهائية .

تاريخ الصهيونية في الولايات المتحدة

History of Zionism in the U.S.A.

يبدأ تاريخ الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة بالجماعات الصهيونية غير اليهودية التي طالبت بتوطين اليهود في فلسطين (أو خارجها) . وفي عام ١٨١٨ طالب جون آدامز رئيس الولايات المتحدة بأن يصبح اليهود أمة مستقلة ، هذا في وقت لم يزد فيه عدد اليهود عن أربعة آلاف ولم يكن هناك لوبي يهودي أو صهيوني ، وهو ما يدل على أن النزعة الصهيونية في الولايات المتحدة أصيلة متجذرة في المجتمع الأمريكي (وهو على كلٍّ مجتمع استيطاني يمكنه التعاطف مع التجربة الاستيطانية الصهيونية) . ومن أهم الشخصيات الصهيونية غير اليهودية وليام بلاكستون (الذي اشترك في مؤتمر اتحاد الصهاينة الأمريكيين في فيلادلفيا) وقد أعلن المؤتمر أن بلاكستون هو "أبو الصهيونية" وهو لقب تستخدمه بعض المراجع للإشارة إلى الرئيس وودرو ويلسون أيضاً (انظر الباب المعنون «صهيونية غير اليهود») .

أما تاريخ الحركة الصهيونية بين أعضاء الجماعات اليهودية ، فهو لا يبدأ إلا في مرحلة لاحقة ، وقد بدأت الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة مع وصول ألوف المهاجرين اليهود من شرق أوربا في بداية ثمانينيات القرن التاسع عشر حاملين معهم تقاليدهم

وأفكارهم ومعتقداتهم وتنظيماتهم وجمعياتهم التي كان من بينها جمعية أحباء صهيون . وبحلول عام ١٨٩٠ ، كان هناك فروع لجمعية أحباء صهيون في نيويورك وشيكاغو وبلتيمور وبوسطن وميلووكي وفلادلفيا وكليفلاند . وتكوَّنت جمعيات العودة لصهيون على يد آدم روزنبرج بغرض شراء أرض في فلسطين والإعداد لعودة اليهود إلى هناك . وفي عام ١٨٩٦ ، طرح البروفسير بول هاويت من جامعة جون هوبكنز خطة ترمي إلى توجيه المهاجرين اليهود القادمين من شرق أوربا إلى بلاد بين النهرين وسوريا . وأيده في هذه الخطة العديد من الشخصيات اليهودية البارزة مثل سيروس أدلر وماير سولزبرجر وأوسكار شتراوس . في هذه الأثناء ، قام هرتزل بالإعداد لمؤتمره الصهيوني الأول (١٨٩٧) وحضره أربعة من اليهود الأمريكيين .

وفي ١٣ نوفمبر ١٨٩٧ ، كوَّنت الجمعيات الصهيونية في نيويورك اتحاد صهاينة نيويورك بغرض تكوين منظمة على مستوى الأمة كلها . وقد عُقد مؤتمر لمندوبين من منظمات مماثلة في ٤ يوليه ١٨٩٨ في نيويورك ونتج عن المؤتمر تكوين اتحاد الصهاينة الأمريكيين . وقد رأس منظمة نيويورك ريتشارد جوتهيل . وتكوَّنت جمعية أخرى تحت اسم «عصبة الجمعيات الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية الشمالية» ، ثم اتحدت المنظمات لتكوين اتحاد صهاينة نيويورك الكبرى وما حولها . وعندما تكوَّن الاتحاد الأمريكي ، تولَّى رئاسته جوتهيل ، وكان أمينه الأول هو ستيفن وايز .

وقد عارض الصهيونيةَ (في البداية) اليهودُ من الطبقات العليا والحاخامات الإصلاحيون الذين أصدروا بياناً في يوليه ١٨٩٧ أدانوا فيه المحاولات الرامية لإنشاء دولة يهودية . كما واجهت الحركة الصهيونية معارضة من قبَل اليهود الاشتراكيين الذين انخرطوا في الحركات النقابية الأمريكية التي كانت قوية في بداية القرن ، وكان هؤلاء ينظرون للصهيونية على أنها أيديولوجيا رجعية تهدف إلى فرض سيطرة البورجوازية على الطبقة العاملة . ورفضوا أيضاً سيطرة من أسموهم بالألمان على المهاجرين من أوربا الشرقية .

وقد أصدر الاتحاد عام ١٩٠١ جريدة **المكابي** برئاسة لويس ليبسكي ، وشارك جوتهيل في المجلس الاستشاري الأول للصندوق الاستيطاني اليهودي . ودعا الاتحاد إلى شراء أسهم في الصندوق القومي اليهودي ، كما قدَّم مساعدات مادية ضخمة للمستوطنات وساهم في إنشاء المدرسة العليا بهرتزليا وتخنيون حيفا ومدرسة بيزالال وغيرها .

وقد ارتحل دي هاس موفَداً من قبَل اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية ليقوم بقيادة الاتحاد الصهيوني في الولايات المتحدة . فعلى ما يبدو لم يكن الأداء في تلك الآونة مرضياً للقيادة . واستقر دي هاس في بوسطن ليعمل بدءاً من ١٩٠٢ كأول محترف صهيوني ، يعمل أميناً للاتحاد ، ونجح دي هاس في ضم شخصية يهودية مرموقة للحركة هو القاضي لويس برانديز . وقد أدَّى انتقال دي هاس إلى استقالة جوتهيل الذي عانت الحركة في عهده من صعوبات مالية ضخمة ، وأُسندت رئاسة الحركة إلى هاري فردنفالد . وفي بداية ١٩٠٥ ، استقال دي هاس من الأمانة وتَسلَّمها يهودا ماجنيس ، وكان هذا إيذاناً بازدياد التوجه التوطيني قوة بحيث رأت القيادات الجديدة أن الصهيونية هي بعث ونهضة القيم اليهودية القديمة وضبط للاندماج . ولم يكن هؤلاء ينفون أهمية أرض إسرائيل بيد أنهم لم تكن عندهم أية نية للاستيطان فيها .

والواقع أن القادة الصهاينة الاستيطانيين رأوا الأهمية المتزايدة للولايات المتحدة وبدأوا في توثيق علاقاتهم بها ، فقام كلٌّ من شماريا ليفين وبن جوريون وسوكولوف وبن زفي بزيارات قصيرة وأحياناً طويلة للولايات المتحدة بغرض توطيد علاقاتهم مع أعضاء الجماعات اليهودية وإشاعة الأفكار الصهيونية بينهم . هذا ، وقد وصل عدد أعضاء الاتحاد الصهيوني الأمريكي عشية الحرب العالمية الأولى إلى ١٢,٠٠٠ عضو ، وهو عدد صغير للغاية بالنسبة لعدد أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة البالغ عددهم حوالي ثلاثة ملايين ، خصوصاً أن كثيراً من الأعضاء لا تتجاوز عضويتهم في المنظمة الصهيونية دفع رسوم العضوية (الشيقل) . وكانت توجد تحت مظلة الاتحاد ٨٨ جمعية صهيونية محلية ومتخصصة ، ومن هذه الجمعيات منظمة أبناء صهيون والشباب اليهودي وعصبة التحالف الصهيوني الجامعي ، هذا غير منظمة الهاداساه أو منظمة النساء الصهيونيات الأمريكية عام ١٩١٢ برئاسة هنرييتا سيزولد . ومن رؤساء المنظمات الصهيونية الشبابية والجامعية ، نذكر فليكس فرانكفورتر وماكس هيلر وهوراس كالن . وقد تأسَّست أول جمعية عمالية صهيونية في أمريكا عام ١٩٠٣ ، وكانت تهدف إلى إبعاد اليهود عن الأوساط الاشتراكية . وأُصدرت صحيفة باليديشية منذ عام ١٩٠٥ ، ومن أهم وأبرز قياداتها حاييم جرينبرج .

وقد أُجريت عام ١٩١١ انتخابات الاتحاد الصهيوني الأمريكي ، وقد فاز فيها اليهود المهاجرون من شرق أوربا بكل مقاعد اللجنة التنفيذية وترأس اللجنة لويس ليبسكي وكان هذا إيذاناً بسيطرة التوطينيين العماليين تماماً وإنهاء تواجد الألمان والصهاينة الثقافيين . وشهد عام ١٩١١ أيضاً تكوين منظمة مزراحي أمريكا على يد مائير بار إيلان وهي المنظمة التي صارت بمرور الزمن الأساس المادي لمنظمة المزراحي العالمية نظراً لقوتها المالية والعددية والتنظيمية . وهذا دليل على تنامي أهمية الحركة الصهيونية الأمريكية في الحركة الصهيونية

العالمية ، كما أنه أيضاً دليل مهم على التوجه الديني لليهود الأمريكيين في الإطار التوطيني ، أي أن المزراحي أتاحت للمتدين الأمريكي اليهودي حلاً رائعاً يمكِّنه من البقاء في أرض الميعاد الحقيقية (أي الولايات المتحدة) وإرضاء تطلعاته الدينية والروحية نحو أرض الميعاد المُتخيَّلة في فلسطين والتي لا ينوي الذهاب إليها .

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، حدثت تحولات مهمة في الحركة الصهيونية نتيجة إعلان ويلسون تأييده وعد بلفور وقبول برانديز رئاسة الحركة الصهيونية الأمريكية . وجذبت هذه الشخصية المرموقة العديد من الشخصيات اليهودية البارزة للحركة مثل برنارد فلكستر ولويس كيرشكين . وأدَّى هذا إلى تَحسُّن الوضع المالي للاتحاد وزيادة العضوية فيه وازدياد قوة الضغط السياسي له . وقد كان برانديز مؤمناً بفكرة أن الولايات المتحدة الأمريكية هي تجسيد للتعددية الثقافية على الأرض وهي أمة الأمم ، ومن ثم فلا تَعارُض بين الأمريكية والصهيونية ، أي لا تعارُض بين الانتماء لأمريكا والانتماء لأرض الميعاد . وقد عبَّر برانديز بذلك عن الفكر التوطيني الأمريكي وبلوره وساعد على استمراره وكسب الأنصار له . وقد استقال برانديز من منصبه كرئيس للاتحاد عام ١٩١٦ بعد توليه منصب قاض في المحكمة الدستورية العليا ، بيد أنه استمر في قيادة الاتحاد من خلال الشخصيات المؤثرة من حوله مثل دي هاس وكالن وفرانكفورتر وغيرهم . وفي عام ١٩١٧ ، أعاد الاتحاد تنظيم فروعه وجمعياته في المنظمة الصهيونية الأمريكية التي أُقيمت على أساس إقليمي . وكان القاضي برانديز رئيساً فخرياً ، والقاضي جوليان ماك رئيساً للمنظمة ، وكل من ستيفن وايز وهاري فردنفالد نائبين للرئيس . وقد مهد هذا التحول الطريق للاتصالات التي تمت على أعلى المستويات بين الصهاينة (من خلال برانديز) وبين حكومة الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون ، ومن ثم حظي وعد بلفور فور صدوره بموافقة وترحيب الحكومة الأمريكية .

ورغم معارضة كثير من أعضاء الجماعات اليهودية ، ونتيجة تنامي قوة الصهاينة (ارتفع عدد الصهاينة إلى ١٥٠ ألفاً) وإحساسهم بتأييد الحكومة الأمريكية لهم ، اقترح القادة الأمريكيون الصهاينة إقامة مؤتمر يهودي أمريكي عن طريق الانتخاب الديموقراطي لمناقشة مشكلات اليهود فيما بعد الحرب وضمن ذلك إقامة وطن قومي في فلسطين وغيرها . وقد عُقد هذا المؤتمر في ١٥ ديسمبر ١٩١٨ في فيلادلفيا ، وقد تبنَّى قراراً يطالب عصبة الأمم بتولية بريطانيا العظمى مهام الانتداب على فلسطين . وتَطوَّع عدة آلاف من الشباب الأمريكي اليهودي للسفر إلى فلسطين ، بيد أن العدد الحقيقي لم يتعد ٥٠ فرداً هم الذين استقروا هناك . وهذا مؤشر آخر على طبيعة الفكرة الصهيونية بالنسبة لليهودي الأمريكي ، فالمواطن الأمريكي اليهودي يحس بأن ما يدفعه للصهاينة من تبرعات هو الضريبة التي على أساسها يكتسب انتماءه الروحي والفكري وإحساسه بالهوية .

وبعد الحرب ، قام برانديز بزيارة فلسطين وصاغ خططاً عديدة لإدارة الاستيطان الصهيوني على أسس رأسمالية رشيدة ، ومن خلال لجان تكنوقراطية ، أي أنه كان يحاول أن يفرغ الاستيطان الصهيوني من خصوصيته الإحلالية وبالتالي حاجته للدعم المالي والمعنوي الدائم ، وهو الأمر الذي أدرك المستوطنون استحالته فحدث صراع بين برانديز ووايزمان . وقد اقترح وايزمان إنشاء صندوق قومي يهودي لتمويل الاستيطان اليهودي في فلسطين وتحسين الاقتصاد اليهودي هناك ، وكذلك لإقامة مؤسسات تربوية وتعليمية وعلمية هناك تدار مركزياً من المقر الرئيسي للمنظمة الصهيونية ، وقد رفض برانديز ومجموعته قبول هذه الرؤية .

وقد قاد المعارضة هذه المرة لويس ليبسكي (تلميذ دي هاس) وصار رئيساً للمنظمة ومعه كل من أبراهام جولدبرج وإيمانويل نيومان وموريس روزنبرج ، وأدَّى هذا إلى انسحاب برانديز وأتباعه الأقربين من المنظمة الأمريكية وركزوا جهودهم على تنمية المجتمع اليهودي في فلسطين اقتصادياً عن طريق مؤسسة فلسطين الاقتصادية التي أنشأوها . وبالمقابل ، قام ليبسكي بإنشاء فرع للكيرين هايسود في أمريكا واختير نيومان مديراً له والمحامي صمويل أونترماير رئيساً له . لكن خروج برانديز شكَّل ضربة قوية للمنظمة الأمريكية رغم كل شيء حتى أن عضويتها انخفضت إلى ٨٠٠ عضو بحلول عام ١٩٢٩ . وقد ارتبط هذا أيضاً بانخفاض التبرعات ، وتَدهور الوضع المادي للطبقة الوسطى الأمريكية مع الكساد العظيم (ومعظم أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة من أبناء هذه الطبقة) .

وقد أصبحت الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، نظراً لحجمها وقدرتها المالية والاجتماعية ، المساهم الأول في تطوير الخطط الاستيطانية في فلسطين . وقد بلغت التبرعات التي قدَّمتها المنظمة الصهيونية الأمريكية في الفترة بين عامي ١٩٢٩ و١٩٣٩ مبلغ ١٠٠ مليون دولار أمريكي . وساعد الصهاينة الأمريكيون في عملية التهجير غير الشرعي لليهود ، وهو ما يعكس تنامي قوتهم في الحركة العالمية وتناقص قوة الأوربيين والبريطانيين على وجه الخصوص . وفي عام ١٩٣٩ رفضت الولايات المتحدة الكتاب الأبيض الذي حدَّد هجرة اليهود إلى فلسطين وقامت بالضغط من أجل فتح أبواب فلسطين (في الوقت الذي أوقفت فيه الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة) .

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية ، شُكِّلت لجنة طوارئ برئاسة ناحوم جولد مان وصارت هذه اللجنة أهم منبر سياسي للصهيونية

الأمريكية ، وأُعيدت تسميتها باسم «لجنة الطوارئ الصهيونية الأمريكية» . وقد أصدرت بياناً نوهت فيه بأن الاحتجاج على الكتاب الأبيض البريطاني عام ١٩٣٩ يجب ألا يقتصر على الاجتماعات والمؤتمرات بل يجب أن يكون هناك موقف إيجابي لبرنامج عملي لفلسطين في فترة ما بعد الحرب . ولهذا الغرض ، أقام الصهاينة الأمريكيون مؤتمراً في فندق بيلتمور بنيويورك في الفترة بين ٩ ـ ١١ مايو ١٩٤٢ ، وكانت نتيجة هذا المؤتمر المقررات التي عُرفت باسم مقررات أو برنامج بلتيمور القاضي بوجوب فتح فلسطين أمام الهجرة اليهودية والاستيطان اليهودي تحت رعاية وسلطة الوكالة اليهودية ووجوب تحويلها إلى كومنولث يهودي على أساس وجود أغلبية يهودية ، ويجب دمج الكومنولث في بنية العالم الديموقراطي الجديد . وصار هذا البرنامج ، الذي يستخدم مفردات لغة الخطاب الأمريكي حول العالم الديموقراطي الجديد والحرية ، الحل الصهيوني الرسمي لمشكلة فلسطين .

ويعطينا مؤتمر بلتيمور والبرنامج الذي نجم عنه دلالة قوية على ارتباط الحركة الصهيونية بالتشكيل الاستعماري الغربي ، فمع تغيُّر مركز الثقل الإمبريالي من بريطانيا وانتقاله إلى أمريكا ، ازدادت أهمية الولايات المتحدة وبالتالي الحركة الصهيونية التوطينية فيها . ومع اندلاع الحرب ووضوح أن الولايات المتحدة في سبيلها إلى وراثة كل القوى الإمبريالية الأوربية ، كان هذا البرنامج بمنزلة تدشين للصداقة والعلاقة الوثيقة بين القوة الإمبريالية الصاعدة والحركة الصهيونية التي تبحث عن راع إمبريالي . وقد شهدت تلك الفترة أيضاً ازدياد أهمية رؤساء الحركة الصهيونية في أمريكا حتى أنهم صاروا يُعامَلون كرؤساء الدول ورؤساء الحكومات ، وقد أعطاهم هذا انطباعاً موهوماً بأن هذا هو ما سيحدث لو أُنشئت الدولة .

وقد دعا ستيفن وايز وناحوم جولدمان الجمعيات اليهودية الأمريكية إلى إرسال مندوبين إلى مؤتمر تمهيدي في بتسبرج في يناير ١٩٤٣ لطرح خطة عمل مشتركة بصدد مصير فلسطين بعد الحرب . وطالب هؤلاء بتشكيل جيش يهودي يحارب إلى جانب قوات الحلفاء وأرسلوا عريضة إلى الرئيس روزفلت مطالبين إياه بالضغط على الحكومة البريطانية للعمل على إنشاء وطن قومي لليهود بعد الحرب بما في سلطتها من صلاحيات الانتداب . وفي ٢٣ أغسطس عام ١٩٤٣ عُقد المؤتمر الأمريكي اليهودي بحضور اللجنة الأمريكية اليهودية ولجنة العمل اليهودية وهما منظمتان غير صهيونيتين . ورأس لجنة فلسطين في المؤتمر الحاخام أبا هليل سيلفر . وقد استخدم سيلفر موهبته الخطابية لإثارة حماس الحضور ، وتمت الموافقة بالإجماع تقريباً على قرار يطلب فتح أبواب الهجرة أمام اليهود إلى فلسطين للاستيطان هناك تحت إدارة الوكالة اليهودية (وذلك من أجل الوصول إلى أغلبية يهودية في فلسطين لخلق الكومنولث اليهودي المنشود) .

وقامت لجنة الطوارئ بشن حملة مكثفة واسعة النطاق لجمع التأييد للمشروع الصهيوني في أنحاء الولايات المتحدة كافة وقد أحرزت تلك الحملة نجاحاً منقطع النظير . وظهر هذا النجاح في تشكيل لجنة رأي عام أمريكية تؤيد برنامج بلتيمور هي اللجنة الأمريكية المسيحية من أجل فلسطين التي شُكِّلت بمبادرة من الصهاينة عام ١٩٤٦ عن طريق اندماج لجنة فلسطين الأمريكية والمجلس المسيحي من أجل فلسطين ، وقد شملت هذه اللجنة في عضويتها ٢٠ ألف فرد في كل مجال من مجالات الحياة .

وفي المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين (١٩٤٦) ، قام بن جوريون وأبا هليل سيلفر بمعارضة محاولات وايزمان الرامية إلى الرضوخ للسياسة البريطانية ونجحا في كسب تأييد المؤتمر ، وهو ما أدَّى إلى استقالة وايزمان . وتبوأ بن جوريون رئاسة المجلس التنفيذي للوكالة اليهودية وأصبح سيلفر رئيساً للفرع الأمريكي للوكالة . وهكذا بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الحركة الصهيونية استمرت حتى تكوين دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ وتميَّزت هذه المرحلة بالتعاون بين الصهاينة الاستيطانيين في فلسطين والصهاينة التوطينيين الأمريكيين .

وقد استمرت مرحلة التعاون هذه فترة عامين ، فبعد إعلان الدولة وجد التوطينيون أنفسهم بدون سلطة حقيقية . بل إن بن جوريون طالب بأن تتسع دائرة التأييد لتشمل كل اليهود ومنهم غير الصهاينة ، الأمر الذي هدد المنظمة الصهيونية نفسها . وقد عارض أبا هليل سيلفر هذا بشدة وأصر على أن دور المنظمة بعد إنشاء الدولة لا يقل خطورة عن دورها قبله . ووصل هذا الخلاف إلى ذروته في فبراير عام ١٩٤٩ عندما استقال إيمانويل نيومان وأبا هليل سيلفر من منصبيهما في الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية الأمريكية . وهكذا أُحكمت قبضة الاستيطانيين بالكامل على المنظمة التي أصبحت مهمتها الوحيدة جَمْع المال لمصلحة دولة إسرائيل .

ويجب أن نضع في الاعتبار دائماً أن الحركة الصهيونية واجهت معارضة شديدة في البداية من أعضاء الجماعات اليهودية ، ولم تحقق نجاحها إلا بعد أن تأكد يهود أمريكا من أن الصهيونية والمصالح الأمريكية شيء واحد ، أي أن صهيونية يهود أمريكا نابعة من أمريكيتهم لا من يهوديتهم . كما يمكن القول بأن الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة ، رغم تشنجها الواضح ، هي من النوع التوطيني وحسب ، إذ لا يهاجر إلا قلة قليلة .

تاريخ الصهيونيـة فـي العالم العـربي

History of Zionism in the Arab World

مرّ النشاط الصهيوني في البلدان العربية بثلاث مراحل تاريخية رئيسية تعكس في مجملها مراحل تَطوُّر المشروع الصهيوني بوجه عام والتيارات المختلفة التي تموج بها الحركة الصهيونية :

المرحلة الأولى : وتمتد منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى بداية الحرب العالمية الأولى . وشهدت هذه الفترة بدايات هجرة جماعات من يهود أوربا إلى خارج فلسطين وتوطُّنهم هناك ، وقد اتخذت في أول الأمر طابع موجات منظمة تشرف عليها جمعيات أحباء صهيون في روسيا وتحيطها بدعاية تستند إلى ديباجات دينية روحية من قبيل "الحنين إلى أرض الميعاد" و"العودة إلى صهيون" . واكتسبت حركة الاستيطان اليهودي في فلسطين زخماً جديداً بنجاحها في الحصول على مساعدات مالية من بعض أقطاب الرأسماليين الأوربيين من أعضاء الجماعات اليهودية ، أمثال البارون دي روتشيلد والبارون دي هيرش الذين رأوا في ذلك فرصة لتوسيع نطاق نفوذهم واستثماراتهم من جهة والتخلص من الفائض البشري اليهودي في أوربا من جهة أخرى .

وانصرف النشاط الصهيوني التنظيمي في ذلك الوقت إلى إقامة مؤسسات اقتصادية لتمويل عملية الاستيطان في فلسطين ؛ مثل شركة تنمية أراضي فلسطين وجمعية استعمار فلسطين ، والصندوق القومي اليهودي . وذلك بالإضافة إلى مد نشاط المنظمة الصهيونية العالمية إلى فلسطين ، من خلال تأسيس مكتب فلسطين للإشراف على عمليات الاستيطان وتوفير سبل الاستقرار والعمل للمهاجرين الجدد . ومن جهة أخرى ، بُذلت مساع لتشكيل منظمات صهيونية في بلدان عربية أخرى بغرض تقديم الدعم المادي والمعنوي لمشاريع الاستيطان اليهودي في فلسطين . ومن أبرز هذه المنظمات فرع حركة أجودات صهيون في تونس ، وفرع الفيدرالية الصهيونية الفرنسية في المغرب ، وجمعية باركوخبا ، وجمعيات أبناء صهيون ، وأندية المكابي في مصر ، وجمعيات الرواد (حالوتسيم) في سوريا ولبنان .

كما شهدت هذه الفترة ظهور تيار الصهيونية الإقليمية الذي كان يرى ضرورة البحث ، ولو مرحلياً ، عن مناطق أخرى خارج فلسطين لتوطين يهود أوربا فيها ، وذلك تمشياً مع مقتضيات المشاريع الاستعمارية الغربية وما تتطلبه مصالح القوى الاستعمارية الرئيسية آنذاك . وانعكس ذلك على تَوجُّه النشاط الصهيوني في المنطقة العربية حيث قامت عدة محاولات استيطانية خارج فلسطين ، أبرزها مشروع العريش بمصر ، وكوستي في السودان ، وبرقة في ليبيا ، والأحساء في شبه الجزيرة العربية .

والمُلاحَظ أن يهود البلدان العربية ظلوا خلال هذه الفترة بعيدين عن حساب الدوافع الصهيونية للاستيطان اليهودي خارج أوربا . ولعل هذا يرجع إلى أن المشروع الصهيوني في بدايته كان يُعرِّف اليهودي باعتباره «الإشكنازي» فحسب ، ومن ثم ظل يهود العالم العربي (من السفارد والشرقيين) بمنأى عن نطاق المخطط الصهيوني الرامي إلى تخليص أوربا من يهودها . يُضاف إلى ذلك أن أوضاع الجماعات اليهودية في العالم العربي لم تواجه آنئذ لحظات تأزم عميق على غرار تلك التي شهدتها الجماعات اليهودية في أوربا ، والتي يُطلَق على سماتها عموماً اسم «المسألة اليهودية» .

المرحلة الثانية : وتمتد منذ صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ وحتى قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ . وشهدت هذه الفترة تكثيف أنشطة الاستيطان اليهودي في فلسطين ، بدعم سياسي ومالي كامل من جانب بريطانيا التي كانت تمثِّل القوة الاستعمارية الرئيسية آنذاك . وتبع ذلك اتساع أنشطة المنظمات الصهيونية في البلدان العربية بتياريها الأساسيين : الاستيطاني الرامي إلى تشجيع هجرة يهود أوربا إلى فلسطين وبناء المؤسسات اللازمة لاستقرارهم هناك ، والتوطيني الذي ينحصر دوره في تمويل عمليات الاستيطان ودعمها سياسياً ودعائياً . ففي فلسطين ، اتسع نشاط مكتب فلسطين والصندوق القومي اليهودي ، كما بُذلت محاولات لعقد لقاءات بين ممثلي الحركة الصهيونية والقادة العرب المحليين ، بغرض امتصاص الغضب العربي على مخطط استعمار فلسطين ومن ثم توفير مناخ ملائم لمواصلة هذا المخطط . إلا أن هذه المحاولات قُوبلت برفض كامل من الجانب العربي الذي كان يدرك خطورة النشاط الصهيوني ، وهو ما تمثَّل في مقررات المؤتمر العربي الأول (١٩١٣) الذي أكد عروبة فلسطين وكشف حقيقة الدعاية الصهيونية الزائفة عن المستوطنين اليهود باعتبارهم رواد تنوير وتحديث وعن إمكان التعايش بين المستعمرين وضحاياهم من العرب . وفي مصر ، تمثَّلت أهم أنشطة المنظمات الصهيونية في تمويل وتدريب الفيلق اليهودي المعروف باسم «فرقة البغالة» ، والتي شُكِّلت إثر اندلاع الحرب العالمية الأولى كجزء من القوات البريطانية المقاتلة ، حيث كانت الفرقة تتلقى تدريبات في معسكر القباري بالإسكندرية ، وساهم في تمويلها عدد من كبار التجار اليهود في مصر ؛ فيكتور النجار ورافائيل هراري ومنسَّى وجاتينيو وقطاوي ، وغيرهم . ومن ناحية أخرى ، اندمجت معظم المنظمات والجمعيات الصهيونية في مصر لتُشكِّل فرعاً للمنظمة الصهيونية العالمية يشرف عليه ليون كاسترو ، وتفرعت عنها عدة جمعيات وبصفة خاصة في الإسكندرية . وفي العراق ، ساعدت سلطات الانتداب البريطاني في إضفاء الصفة القانونية على المنظمات الصهيونية التي كانت تمارس عملها سراً في ظل حكم الدولة العثمانية ، إذ أُشهرت في عام ١٩٢١ منظمة

صهيونية باسم «اللجنة الصهيونية في بلاد الرافدين» أقامت لنفسها فروعاً في عدة مدن عراقية ، إلا أن الاعتداءات الصهيونية على عرب فلسطين في عام ١٩٢٩ (فيما عُرف باسم «حادث البراق») حدت بالحكومة العراقية إلى حظر نشاط جميع المنظمات الصهيونية هناك .

وشهدت سنوات الحرب العالمية الثانية ظهور منحى جديد في النشاط الصهيوني داخل البلدان العربية إذ بدأت مساع لتهجير أعداد من اليهود العرب إلى فلسطين ، ولا سيما من البلدان التي توجد بها جماعات يهودية كبيرة العدد نسبياً مثل العراق واليمن والمغرب . وكان الدافع الأساسي لهذا الاهتمام هو الحاجة إلى المادة الاستيطانية لتدعيم المخطط الصهيوني في فلسطين ، إلا أن ثمة عوامل أخرى شجعت هذا الاتجاه من بينها الإجراءات التي اتخذتها بعض الحكومات العربية لكبح النشاط الصهيوني في بلدانها وما تبع ذلك من مصادمات من قبيل حوادث الفرهود في العراق عام ١٩٤١ .

وبالإضافة إلى عمليات تهجير اليهود العرب ، اتجه النشاط الصهيوني في البلدان العربية إلى دعم جهود تهجير يهود أوربا إلى فلسطين عن طريق إقامة مراكز لتجمُّعهم تمهيداً لنقلهم إلى فلسطين .

المرحلة الثالثة : وتمتد من قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ وحتى اندلاع حرب عام ١٩٦٧ . واتسمت هذه الفترة بتنامي نشاط المنظمات الصهيونية في تهجير يهود البلدان العربية إلى فلسطين واتجاهها إلى انتهاج أساليب عنيفة لتحقيق المخطط الصهيوني استهدفت في كثير من الأحيان يهود البلدان العربية أنفسهم للإيعاز بأنهم ليس بمقدورهم العيش في المحيط العربي . ومن هذه الأساليب ، مثلاً ، إلقاء قنبلة على مقهى دار البدع في بغداد والذي كان ملتقى كثير من اليهود ، وذلك عشية عيد الفصح عام ١٩٥٠ ، وتفجير قنبلة في المركز الثقافي الأمريكي في العراق بعد فترة وجيزة .

وحتى لا نخلق انطباعاً خاطئاً بأن معظم أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي كانوا منخرطين في سلك النشاط الصهيوني ، لابد أن نشير إلى وجود حركات يهودية معادية للصهيونية بين الجمهور من أعضاء الطبقات الثرية المرتبطين بمصر اقتصادياً وثقافياً ، كما أن كثيراً من اليهود من أعضاء الطبقات الأقل ثراءً كانوا متشبعين بالثقافة المصرية والعربية والإسلامية ولم تكن الصهيونية تعنيهم من قريب أو بعيد (ويمكن أن يعود القارئ إلى الباب المعنون «العالم العربي منذ القرن التاسع عشر») .



٢
الإرهاصات الصهيونية الأولى : حملات الفرنجة (الصليبيين)

الصليبيون (الفرنجة) ـ حملات الفرنجة والجماعات اليهودية في غرب أوربا وفلسطين ـ التشابه بين حملات الفرنجة والمشروع الصهيوني ـ مركزية حملات الفرنجة في الوجدان الصهيوني الإسرائيلي

الصليبيون (الفرنجة)

The Crusaders

«الصليبيون» ترجمة لكلمة «كروسيدرز Crusaders» المشتقة من كلمة «كروس cross» ، ومعناها «صليب» . وهي عبارة تُستخدَم في الخطاب السياسي والتاريخي في الغرب للإشارة إلى الفرنجة الذين شنوا عدة حملات على العالم العربي والإسلامي في القرن الثاني عشر ، وقد تَبنَّى كثير من العرب المحدثين هذا المصطلح . ونحن نستخدم في هذه الموسوعة عبارة «حروب الفرنجة» للإشارة إلى الحملات الغربية التي جُرِّدت ضد الشرق الإسلامي لنهبه ، ولم تكن المسيحية سوى ديباجة سطحية استخدمها الغزاة ولا علاقة لها برؤيتهم للكون ، ونستخدم عبارة «حملة صليبية» للإشارة إلى الحملات التي كانت تُجرِّدها الكنيسة ضد فرق المهرطقين في جنوب فرنسا وغيرها من المناطق ، فهذه حملات كانت تتم باسم المسيحية ولصالحها . ونحن نعتبر حملات الفرنجة تعبيراً عن الإرهاصات الصهيونية الأولى .

حملات الفرنجة والجماعات اليهودية في غرب أوربا وفلسطين

The Crusades and the Jewish Communities in Western Europe and Palestine

تُسمَّى «حروب الفرنجة» في الخطاب الغربي «الحروب الصليبية» نسبة إلى الصليب . وهو مصطلح يُطلَق على الحروب التي شنها حكام أوربا المسيحية الإقطاعية لاحتلال فلسطين إبان العصور الوسطى . وهي حروب كانت تساندها حركة سياسية واجتماعية ضخمة قادتها النخبة الحاكمة (الكنيسة والنبلاء) ووجدت صدى عميقاً لدى الجماهير الشعبية التي انضمت إليها بأعداد ضخمة لم تضعها النخبة الحاكمة نفسها في الحسبان .

ويرى د . سعيد عاشور أن الفرنجة أو من يقال لهم «الصليبيون» هم من جموع المسيحيين الغربيين الكاثوليك الذين خرجوا من بلادهم في شتى أنحاء الغرب الأوربي ، واتخذوا الصليب شعاراً لهم لغزو ديار الإسلام ، وبخاصة منطقة الشرق الأدنى وبلاد الشام حيث الأراضي المقدَّسة . ومعنى هذا أن المسيحيين الشرقيين من روم وأرمن وسريان وأقباط ونحوهم لا يدخلون في دائرة مصطلح «الصليبيين» لأن هؤلاء من أهل البلاد (وليسوا وافدين عليها من الخارج) ربطتهم بالأرض التي ينتمون إليها روابط أصيلة جذرية ترجع إلى ما قبل الإسلام . وعاش معظمهم قبل الحركة الصليبية تحت مظلة الإسلام يتمتعون بما كفلته لهم هذه الديانة من حقوق ويؤدون ما فرضته عليهم من واجبات . ومن ثم نفضل استخدام مصطلح «فرنجة» في هذه الموسوعة بدلاً من «الصليبيين» . ولكننا نستخدم مصطلح «صليبيين» أحياناً للإشارة إلى الحملات الصليبية التي جرَّدتها الكنيسة ضد الهرطقات المختلفة ، أو للتعبير عن المنظور الغربي لحملات الفرنجة .

وتشير المصادر المعاصرة إلى الصليبيين باعتبارهم «الفرنجة» أو «الفرنج» . وهذا يعود إلى أن المكون البشري لهذه الحركة الاستيطانية الغربية لم يكن متجانساً عرْقياً ، ورغم هذا فإن الفرنجة سكان بلاد الغال (غاليا) التي عُرفت فيما بعد باسم «فرنسا» كانوا أكثر إقبالاً من غيرهم على المشاركة في الحركة الاستيطانية . وتشير بعض المصادر اليهودية إلى الفرنجة بكلمة «إشكناز» وهي الكلمة التي استُخدمت فيما بعد للإشارة إلى يهود أوربا ، خصوصاً ألمانيا وبولندا .

وحروب الفرنجة جزء من المواجهة التاريخية العامة بين الحضارة الغربية وحضارة الشرق الأدنى والتي تعود بجذورها إلى بداية ظهور الحضارة الغربية نفسها حين وصلت شعوب البحر (الفلستيون) من كريت وبحر إيجة إلى ساحل مصر ، ثم استقروا في ساحل أرض كنعان بعد أن صدهم المصريون . وحينما هيمن الفرس على الشرق الأدنى ، أخذت المواجهة شكل اشتباك عسكري بينهم وبين الدول المدن اليونانية التي صدت الغزو الفارسي . ثم قام الإسكندر الأكبر بغزو الشرق وأسس الإمبراطورية اليونانية التي انقسمت إلى ثلاث امبراطوريات بعد موته . كما هيمن الرومان بعد ذلك على معظم الشرق الأدنى القديم . وقد انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى

قسمين : الإمبراطورية الشرقية (البيزنطية) ، والامبراطورية الغربية . ومع وصول الإسلام وقيامه بفتح المنطقة وتوحيدها ، وتحويله البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة عربية إسلامية ، انحسر نفوذ العالم الغربي وأصبح محصوراً داخل القارة الأوربية . بل إن الجيب البيزنطي المتبقي على أرض الشرق في آسيا الصغرى كان قد بدأ يقع تحت هجمات السلاجقة وهي الهجمات التي أدَّت في نهاية الأمر لسقوط الدولة البيزنطية ، وكذلك القسطنطينية ، على يد العثمانيين . وقد هُزم جيش بيزنطي بقيادة الإمبراطور رومانوس ديجينيس هزيمة ساحقة على يد السلاجقة بقيادة ألب أرسلان في مانزيكريت في أرمينيا . ثم استمر التوسع السلجوقي ، فتم الاستيلاء على أنطاكية عام ١٠٨٥ ، الأمر الذي اضطر الإمبراطور أليكسيوس كومنينوس إلى أن يطلب العون من الغرب حيث لم يجد آذاناً صاغية وحسب بل شهية مفتوحة . ويعود هذا إلى مركب من الأسباب المادية والمعنوية :

١ ـ يُلاحَظ أن الاقتصاد الغربي بمعظم مؤسساته تساقط على أثر سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية وتردَّى إلى حالة من الاقتصاد البدائي والطبيعي . ولكنه بدأ يصحو من كبوته ابتداءً من القرن التاسع الميلادي ، فشهدت الفترة التي سبقت حروب الفرنجة شيئاً من الانتعاش الاقتصادي ، وكانت هناك محاولات ترمي لزيادة الرقعة الزراعية عن طريق اجتثاث الأشجار وتسهيل حركة التجارة وتنظيم الأسواق الدولية والمحلية . وقد ساعدت تلك الحروب بدورها على هذا الانتعاش الاقتصادي ، ذلك أن التاجر المسيحي تبع المقاتل الفرنجي بعد أن ترك كثيراً من خوفه من الطرق المجهولة وعاد بالسلع من الشرق بعد أن كان التاجر اليهودي يحتكر هذه العملية تقريباً من خلال شبكة الاتصالات الدولية اليهودية الخاصة به . كما أن الملوك والنبلاء والفرسان العائدين استعذبوا مذاق السلع الترفيهية الشرقية وهو ما كان يعني ظهور سوق لها في الغرب ونشاط للتجارة الدولية .

٢ ـ تزايد نفوذ المدن الإيطالية التجارية بخاصة البندقية وجنوا وبيزا ، وأصبح لها أساطيلها التجارية الضخمة التي فكت الهيمنة الإسلامية على البحر الأبيض المتوسط . وقام الجنويون والبيزيون بطرد المسلمين من قواعدهم في جنوب إيطاليا وجزيرة كورسيكا في القرن العاشر الميلادي ، وهيمنوا على غربي المتوسط في القرن الحادي عشر الميلادي . بل حاولت المدن الإيطالية تأمين موطئ قدم لها على ساحل المتوسط ذاته ، فعبأت كل من جنوة وبيزا أسطولاً هاجم تونس عام ١٠٨٧ ، واضطر أمير تونس بعدها إلى أن يفرج عن الأسرى المسيحيين وأن يدفع تعويضاً ويعفي التجار الجنويين والبيزيين من ضرائب الاستيراد . وكان لمدينة البندقية نشاطها أيضاً ، فقد هيمنت على البحرين الأدرياتيكي والإيجي في بداية القرن الحادي عشر الميلادي ووصلت إلى البحر الأسود . ولا شك في أن حروب الفرنجة ساهمت في العملية المتصاعدة الهادفة إلى فك الحصار الذي فرضه المسلمون على تجارة الشرق ، وأعطت المدن الإيطالية موطئ قدم في مواقع مهمة من شرق المتوسط . وقد حصلت هذه المدن على امتيازات وتسهيلات تجارية ضخمة داخل الممالك الخاضعة للفرنجة في الشام وفلسطين .

٣ ـ يُلاحَظ أن أوربا شهدت تزايداً في عدد السكان مع نهاية القرن العاشر الميلادي واستمر التزايد حتى القرن الثالث عشر الميلادي وهو تزايد لم تواكبه بالضرورة زيادة في الرقعة الزراعية ، ومن هنا بدأت السلطات الدنيوية في تحريم امتلاك اليهود للأراضي الزراعية وهو حظر طُبِّق على الكنائس والأديرة .

٤ ـ يدور النظام الإقطاعي الغربي حول نشاطين أساسيين : الزراعة والقتال . وكما بيَّنا ، كان النظام الإقطاعي يواجه تَناقُص الرقعة المزروعة . ومن القواعد الأساسية في الإقطاع الغربي أن الابن الأكبر وحده هو الذي يرث الضيعة ، أما بقية إخوته فلم يكن أمام أيٍّ منهم فرصة سوى محاولة البحث عن وريثة غنية يقترن بها ، أو أن ينخرط في سلك الكنيسة أو يتوجه إلى المهن الأخرى مثل القتال .

٥ ـ كان هناك ما يشبه المجاعة في غرب أوربا ، وخصوصاً في فرنسا ، من القرن العاشر حتى أواخر القرن الحادي عشر الميلاديين . وربما كانت هذه المجاعة وراء النشاط الاقتصادي الذي شهدته الفترة ، وكذلك سوء حال الفلاحين والأقنان . وتُشكِّل الحروب والمشاريع الاستيطانية وسيلة تقليدية للتخلص من العناصر المشاغبة التي لا مكان لها في المجتمع (من نبلاء بلا أرض ، إلى تجار يبحثون عن مزيد من الأرباح ، وفلاحين جوعى ومجرمين ولصوص) وذلك حتى يحقق المجتمع الغازي استقراراً اجتماعياً داخلياً . ويبدو أن عدد الأطفال غير الشرعيين كان يتزايد في أوربا ، وكانت حروب الفرنجة وسيلة للتخلص منهم ، وقد أخذت إحدى الحملات التي خرجت من أراجون عام ١٢٦٩ اسم «حملة الأطفال غير الشرعيين» .

٦ ـ تمتعت أوربا بشيء من الاستقرار السياسي ، وتزايدت إمكاناتها ومقدرتها على تجريد حملات ضخمة كما بدا بوضوح مع الفتح النورماندي لإنجلترا وإيطاليا وصقلية في بدايات القرن الحادي عشر ، وقد تزايدت حدة حركة استرداد إسبانيا في القرن الحادي عشر الميلادي حين قام ألفونسو السادس (من ليون) بالاستيلاء على طليطلة عام ١٠٨٥ . وابتداءً من القرن العاشر الميلادي ، بدأ التوسع

الألماني نحو الشرق والشمال وهي حركة لم تتوقف إلا في القرن الثالث عشر الميلادي .

٧ـ حدث بَعْث ديني حقيقي في بداية القرن العاشر الميلادي . ويمكن القول بأن حروب الفرنجة تعود إلى ما يُسمَّى «الإصلاح الكلوني» وهي حركة إحياء دينية بدأت عام ٩١٠ في مدينة كلوني بفرنسا ، وأكدت تَفوُّق سلطة الكنيسة على السلطة الدنيوية . وقد تزامنت حروب الفرنجة مع المجامع اللاترانية الأربعة في أعوام ١١٢٣ ، ١١٣٩ ، ١١٧٩ ، ١٢١٥ على التوالي . وهي المجامع التي بلورت موقف الكنيسة من عدة قضايا ، منها تحريم الربا وتحديد وضع اليهود وكثير من علاقات الكنيسة بالسلطة الدنيوية . ولعبت الكنيسة دوراً أكثر نشاطاً في الحياة الدنيوية ، وأخذت تؤكد نفسها بشكل أكثر جرأة . وقد أُعيدت صياغة البنية الكهنوتية وهو ما سمح للبابوات بأن يلعبوا دوراً أكثر فعالية . ووجدت الكنيسة في حروب الفرنجة فرصة مواتية لزيادة نفوذها وتسريب طاقة الأمراء والملوك القتالية إلى الشرق ، ولتحقيق السلام والاستقرار في الغرب المسيحي . ومما له دلالته أن مجلس كليرمون (عام ١٠٩٥) ، الذي اتخذ القرارات التي بدأت حملات الفرنجة على الشرق ، جدد ما يُسمَّى «هدنة الرب» في الغرب ! وقد وجدت الكنيسة الرومانية أن تجريد حملة تحت سلطتها ، لمساعدة الدولة البيزنطية ، قد يسرع بتحقيق حلم روما القديم بإخضاع الكنيسة البيزنطية .

٨ ـ شهدت الفترة التي سبقت حروب الفرنجة تزايد حركة الحج . وكانت أهم المزارات روما حيث يُوجد ضريح لكلٍّ من بطرس وبولس ، وكذلك ضريح سنتياجو دي كومبوستلا في شمال غربي إسبانيا . ولكن أهم المزارات جميعاً كانت هي القدس حيث تضم كنيسة القيامة . ولم يكن الحج عملاً من أعمال التقوى وحسب ، وإنما أصبح وسيلة للتكفير عن الذنوب . بل كان القساوسة يوصون ، في بعض الأحيان ، بالحج لمن يرون أنه اقترف إثماً فاحشاً . وكان الحجاج يرجعون بقصص عن مدى ثراء الشرق ، كما أنهم كانوا يتحدثون أيضاً عن المتاعب التي تجشموها والأهوال التي لاقوها . ولا شك في أن حديثهم هذا كان له أساس من الصحة حيث إن المنطقة لم تكن تنعم بالهدوء أو الاستقرار ، وخصوصاً أن السلاجقة كانوا قد بدأوا في شن هجومهم على الدولة البيزنطية . ولكن مما لا شك فيه أنه كان هناك عنصر مبالغة ، فالعائدون كانوا يريدون إبراز بطولتهم ، وكان الوجدان الشعبي يتلقف هذه القصص ويضخمها ، وخصوصاً أن المستوى الثقافي لجماهير أوربا آنذاك كان متدنياً إلى أقصى حد .

٩ ـ يبدو أن حركة استرداد إسبانيا من المسلمين ، وتَفاعُل المسيحيين مع المسلمين إبان حرب الاسترداد ، قد تركا أثرهما في الرؤية المسيحية للحرب ، إذ تأثر العالم المسيحي بفكرة الجهاد الإسلامي ، فبدا أن الحرب للدفاع عن المجتمع المسيحي ، ولاسترداد القدس ، ليست حرباً عادلة وحسب وإنما حرب مقدَّسة أيضاً . ويبدو أن نشوء جماعات من الرهبان المحاربين مثل فرسان الهيكل وفرسان الإسعاف (الداوية والإسبتارية) هو صدى لفكرة المرابطين الإسلامية .

١٠ ـ من الأفكار المسيحية الشعبية الراسخة ، ما يُطلَق عليه العقائد أو الأحلام الألفية ، وتتمثل هذه الأفكار في الإيمان بأن الدورة الكونية أو التاريخية تستغرق ألف عام في العادة ، وأن عام ألف أي بداية القرن الحادي عشر الميلادي سيشهد نهاية العالم والتاريخ ، كما سيشهد عودة المسيح . وقد سادت هاتان الفكرتان أوربا في العصور الوسطى ، وهما من الأفكار التي ازدادت شيوعاً إبان تفاقم الأزمات الاجتماعية وازدياد البؤس بين الجماهير . ويقول العلماء إن تاريخ نهاية العالم لم يكن محدداً بهذه الدقة ، وأن الأحلام الألفية استمرت خلال القرن الحادي عشر الميلادي كله وحتى بعد ذلك التاريخ . ومن الأساطير الألفية التي شاعت أن الإمبراطور الأخير سيكون هو ملك الفرنجة خليفة شارلمان ، وأنه هو الذي سيقود المؤمنين إلى القدس لينتظر العودة الثانية للمسيح ليؤسس مملكة السلام والعدل ويحكم العالم من صهيون ، أي القدس ، وما القدس الدنيوية سوى رمز للقدس الأخروية !

١١ ـ واجهت الكنيسة ، ابتداءً من القرن الحادي عشر الميلادي ، ظهور هرطقات في جنوب فرنسا ، فظهر الكاثاري في بداية الأمر ثم تبعهم أصحاب الهرطقة الألبيجينية . وهذه الجماعات كانت جماعات ثنوية تؤمن بوجود إلهين : إله الخير وإله الشر . وكان بعضهم يذهب ، شأنه شأن الغنوصيين ، إلى أن هذا العالم من خلق الإله الصانع (الشرير) ، كما كانوا ينزعون منزعاً واحدياً روحياً ينكر أية حقيقة للمادة . وقد جردت الكنيسة أول حملة صليبية ضدهم عام ١٢٠٨ ، وتبع ذلك تأسيس محاكم التفتيش الرومانية (مقابل محاكم التفتيش الإسبانية) عام ١٢٣٣ . ولا شك في أن أحساس الكنيسة بأنها مهددة ساهم في تصعيد حمى الحرب .

وقد استخدمنا كلمة «مركب» للإشارة إلى الأسباب التي أدَّت إلى حروب الفرنجة حتى لا نتوهم أن هناك بنية تحتية من الدوافع الاقتصادية والاجتماعية تغطيها قشرة من الأكاذيب أو التبريرات الدينية . فالنفس البشرية لا تتحرك بهذه الطريقة الآلية إذ تتداخل في عقل الإنسان أنبل الدوافع وأكثرها خسة في آن واحد ، فالفلاح

المسيحي الذي حمل صليبه وفأسه كان مدفوعاً برغبة دينية حقيقية ، وإن كان هذا لا ينفي أيضاً وجود دوافع مادية . فهو حين كان يفعل ذلك ، كان يهرب من الفاقة والدَّين ويحمل في وجدانه أحلام الثراء والخلاص .

وحين دعا البابا إربان الثاني (١٠٨٨ ـ ١١١٨) ، وكان فرنسياً (أي من الفرنجة) لمجلس في كليرمون في ١٨ نوفمبر ١٠٩٥ ، حضره أساقفة من جنوب فرنسا ، كما حضره آخرون من شمالها ومن أماكن أخرى . وألقى البابا خطاباً أشار فيه إلى بؤس الكنيسة البيزنطية ، وتهديد الحجاج المسيحيين ، وتدنيس الأماكن المقدَّسة . وحث هؤلاء الذين يعكرون السلام في الغرب على أن يوجهوا قواهم القتالية لخدمة غرض مقدَّس ، كما أشار إلى إمكانات الحصول على الثروة من أرض تفيض باللبن والعسل ، فصاح الجميع باللاتينية «ديوس وولت deus volt» ، أي «الله يريد ذلك» . ثم تتالت الأحداث وجاء المتطوِّعون من كل أنحاء أوربا ، ولكنهم جاءوا أساساً من الأراضي الفرنسية وشبه الفرنسية مثل اللورين وجنوب إيطاليا وصقلية . ولكن ، لماذا كان أعضاء الجماعات اليهودية بالذات هدفاً أساسياً لهجمات الفرنجة ؟

لا يمكن تفسير هذه الظاهرة إلا بالعودة لمركب آخر من الأسباب . وقد أسلفنا الإشارة إلى الطابع الشعبي لحملات الفرنجة وكيف انضم إليها المعدمون والفقراء . فهذه العناصر الشعبية لم يكن من الممكن التحكم فيها وضبطها كما هو الحال مع الجيوش النظامية . ولكن ، وهذا هو الأهم ، لابد أن نتذكر أن وجود الجماعات اليهودية داخل التشكيل الحضاري الغربي الوسيط كان يستند إلى مواثيق تمنحهم الكثير من المزايا باعتبارهم أقناناً تابعين للخزانة الملكية . فهم ، إذن ، كانوا جزءاً من الطبقة الحاكمة أو جماعة وظيفية وسيطة تابعة للحاكم تمتص الأموال الزائدة في المجتمع عن طريقها . ورغم أن اليهود لم يراكموا ثروات حقيقية إذ أن الأموال التي كانوا يجمعونها كانت تصب كلها في الخزانة الملكية (باعتبار أنهم وكل ما يملكون ملكية للملك) ، إلا أن آليات الاستغلال في المجتمع الوسيط لم تكن واضحة ، على الأقل بالنسبة إلى الجماهير الشعبية ، وكان اليهودي هو الجزء الواضح والمباشر والمتعيِّن في عملية الاستغلال . كما أن اليهودي ، على عكس النبيل الإقطاعي أو الإمبراطور ، كان قريباً من هذه الجماهير حيث يمكنها الوصول إليه في الجيتو رغم أنه كان موضوعاً تحت الحماية الملكية . كما أنه كان أحياناً مباحاً ، بمعنى أن الحماية الملكية كانت تُرفَع عنه ويُلقَى به كبش فداء للجماهير . ويُلاحَظ أن اليهود كانوا يشكلون أحياناً عنصراً غريباً لا من الناحية الطبقية أو الدينية وحسب وإنما من الناحية الإثنية أيضاً .

وكما أسلفنا ، فقد سبقت حروب الفرنجة بعث اقتصادي ، وظهور الجمهوريات الإيطالية وقوى بورجوازية مسيحية أخرى (دولية ومحلية) بدأت تُزاحم اليهود وتحاول الحد من قوتهم . فمنعت البندقية ، قبل حروب الفرنجة ، نَقْل التجار اليهود على سفنها ، كما اتخذت العصبة الهانسية إجراء مماثلاً للحد من التجارة اليهودية . وقبل أن يحل القرن الثاني عشر الميلادي سُنَّت قوانين تحد من نشاط اليهود التجاري في الداخل .

ومن الحقائق التي تستحق الذكر أن كبار المموِّلين اليهود قد اشتركوا في تمويل بعض حملات الفرنجة عن طريق إقراض الملوك أو النبلاء الإقطاعيين الذين اشتركوا في تلك الحملات أو قاموا بتجريدها . وقد اضطر هؤلاء إلى رهن ضياعهم لدى المرابين اليهود لتدبير الأموال اللازمة . كما أن كثيراً من صغار النبلاء بل بعض الحرفيين والتجار كانوا مدينين لليهود . لكل هذا ، كان من مصلحة كثير من القطاعات الاقتصادية الهجوم على اليهود كوسيلة للتخلص من الأعباء المالية ، ويرجع ذلك إلى أن الكنيسة كانت إما تجمد الفوائد على الديون أو تلغيها كليةً بالنسبة لمن يشترك في الحملة وذلك كنوع من المساهمة في عملية التعبئة . ومن هنا ، كان الشعار الذي طرحه الفرنجة هو أن حملاتهم لابد أن تبدأ في أوربا ضد اليهود .

وقد أشرنا إلى الصراع بين الكنيسة والسلطة الحاكمة الدنيوية من قبل . ورغم أن علاقة الكنيسة بالطبقة الحاكمة كانت وثيقة ، ورغم أن الكنيسة كانت تُزوِّد اليهود بالحماية ، فإن ثمة مسافة كانت تفصل بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية ، وكثيراً ما كان اليهود يشكلون رقعة الصراع . فكانت الكنيسة ، لتزيد من شرعيتها وتقوِّض شرعية السلطة الدنيوية ، تهاجم اليهود برغم حمايتها لهم . وهذا لا يتناقض بتاتاً مع موقف الكنيسة الذي كان ينبع من مفهوم الشعب الشاهد الداعي إلى ضرورة حماية بقاء اليهود كجماعة دينية عاصرت منشأ الكنيسة وتحمل العهد القديم الذي يتنبأ بمقدم المسيح ، وبذلك تقف شاهداً على صدق الكنيسة . ولكن أعضاء هذه الجماعة يجب أن يظلوا ، مع ذلك ، أو ربما بسبب ذلك ، في حالة ضعة دائمة ليقفوا شاهداً على عظمة الكنيسة . لكن الهجوم المسيحي الحقيقي قاده صغار رجال الدين من رهبان فقراء ووعاظ جائلين ، أي قادة المسيحية الشعبية الذين كانوا يتصرفون حسبما يمليه عليهم المنطق المطلق للخطاب الديني الذي صاغته المسيحية الحاكمة ، ومن هنا

سادت فكرة أنه إذا كان الهدف من الحملات هو استعادة القدس والقضاء على الكفرة في أقصى بلاد الأرض ، فلم لا نبدأ بتنظيف منزلنا من قتلة المسيح ؟

وثمة عنصر مهم مرتبط بسابقه لا تذكره الأدبيات الغربية في الموضوع ، وهو ارتباط اليهود بالمسلمين في الوجدان الغربي آنذاك ، فأكثر من نصف يهود العالم كانوا موجودين داخل التشكيل الحضاري الإسلامي . كما أن ثقافة الجماعات اليهودية داخل هذا التشكيل كانت ثقافة عربية إسلامية ، وكان الفكر العقلاني الإسلامي قد ترك أثراً عميقاً في الفكر الديني اليهودي الذي وصل إلى قمته في أعمال موسى بن ميمون . وقد وجدت هذه الأفكار طريقها إلى كتابات اليهود في الغرب ومنها إلى الفكر الديني المسيحي ، وقامت مناظرات بشأنها حتى قبل موسى بن ميمون . وقد اعتبرت الكنيسة أن هذه العقلانية تهدد الإيمان الديني من أساسه ، وبالتالي كان يُنظَر إلى اليهود على أنهم أداة الفكر الإسلامي . كما أنه إبَّان عملية فَتْح الأندلس ، ثم بعد ذلك إبَّان استردادها على يد الإسبان (وهي عملية بدأت قبل حروب الفرنجة واستمرت بعدها) ، كانت هناك قطاعات كبيرة من الجماعة اليهودية تقف إلى جوار المسلمين ، سواء مع الفتح الإسلامي أو ضد الغزو المسيحي ، وتعمل كجواسيس لصالح المسلمين (والعكس صحيح أيضاً) . كما أن من الثابت الآن أن بعض أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب كانوا يعملون جواسيس لصالح العالم الإسلامي ، وكانوا يزودونه بالمعلومات عن حجم التجهيزات العسكرية الفرنجية . لكن الوجدان الشعبي يروِّج دائماً لجزء من الحقيقة . وانتشرت الاتهامات بأن اليهود يخونون المسيحيين لصالح المسلمين منذ القرن التاسع الميلادي . وبالإضافة إلى كل هذا ، كان يُنظَر إلى كلٍّ من المسلم واليهودي ، من منظور مسيحي مطلق ، على أنهما كافران لأنهما يرفضان عقيدة التثليث . بل إن هناك كتابات مسيحية وسيطة تتهم المسلمين بصلب المسيح . وهناك رسوم لحادثة الصلب وقد وقف النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) وهو يضرب المسيح . ويجب أن نضيف أن محاولة الكنيسة القضاء على الهرطقات في جنوب فرنسا زادت الحمية والغيرة ضد اليهود واليهودية .

لكل هذا ، كان من المتوقع أن تهاجم قوات الفرنجة الجماعات اليهودية في الغرب ، وهذا ما حدث بالفعل في فرنسا واللورين وحوض الراين ، ثم في بوهيميا وأخيراً إنجلترا . وقد جُرِّدت الحملة الأولى (١٠٩٦ ـ ١٠٩٩) التي دعا إليها إربان الثاني في مؤتمر كليرمون ، وهي الحملة الوحيدة التي حققت بعض النجاح لأنها أخذت المسلمين على حين غرة . وقد بدأت الحملة بما يُسمَّى «حملة الفلاحين الشعبية» التي قادها بطرس الراهب والفارس ولتر المفلس ، وقد ضمت في صفوفها حشداً كبيراً من الفلاحين وصغار الفرسان بلغ ما بين ١٥ و٢٠ ألفاً اتجهوا إلى القسطنطينية ومنها إلى الأراضي المقدَّسة . ولكن جيشاً تركياً تصدى لهم في آسيا الصغرى وسحقهم عام ١٠٩٦ وقتل أعداداً كبيرة منهم وأسر أعداداً أخرى بيعت رقيقاً . وقد جُرِّدت بعد ذلك حملة الأمراء التي استفادت من حملة الفلاحين حيث تَوهَّم الأتراك ، بناءً على تجربتهم مع جيش الفلاحين ، أن قدرات أوربا القتالية متدنية . وقد نجحت الحملة الأولى في تأسيس أربع ممالك للفرنجة على النمط الإقطاعي الغربي .

وقد قام الإقطاعيون والأساقفة بحماية يهود فرنسا . أما في ألمانيا ، فقد شعر أعضاء الجماعة اليهودية بالخطر المحدق بهم وأرسلوا إلى الإمبراطور هنري الرابع الذي كان يزور روما آنذاك يستغيثون به ، ولكن الغوث لم يصلهم . ووقع الهجوم عليهم في عدة أماكن من بينها مينز وورمز وكولونيا . ويُقال إنه قُتل اثنا عشر ألف يهودي ، وهو رقم مبالغ فيه جداً ، وأنه تم تحطيم كثير من مراكز تَجمُّعهم ونُهبَت ممتلكاتهم ، كما فُرض على كثير منهم التنصر في ألمانيا وبوهيميا . ولكن ، حينما عاد الإمبراطور ، فرض عقوبات على المشتركين في أحداث الشغب وعلى المسئولين الذين لم يزوِّدوا اليهود بالحماية الكافية ، وصرح لمن عُمِّد من اليهود قسراً بالعودة لدينه ، وأعاد إليهم ممتلكاتهم . بل إنه اتخذ خطوة حاسمة عام ١١٠٣ حين أصدر قراراً بأن يتمتع اليهود بالحماية نفسها التي يتمتع بها القساوسة . أما في فلسطين ، فقد قام الفرنجة بذبح اليهود الحاخاميين والقرائين (بل المسيحيين الشرقيين) بعد استيلائهم على القدس ، وإن كان قد سُمح لليهود بعد ذلك بأن يعيشوا داخل حدود ممالك الفرنجة .

أما الحملة الثانية (١١٤٦ ـ ١١٤٧) التي جُرِّدت لغوث ممالك الفرنجة واسترجاع ما استولى عليه عماد الدين زنكي عام ١٠٤٤ ، والتي بشر بها القديس برنارد وقادها الإمبراطور كونراد الثالث ، فقد بدأت بالهجوم على تجمعات يهود فرنسا . وأعلن البابا إيوجنياس الثالث إلغاء الفوائد على ديون المتطوعين للقتال ، الأمر الذي أضر بالوضع المالي لأعضاء الجماعات اليهودية . ويمكن القول بأن الطبقة الحاكمة نجحت هذه المرة في تزويد الجماعات اليهودية بالحماية المطلوبة ، ولم تقع سوى عدة مذابح قليلة راح ضحيتها أعداد صغيرة لا تُذكَر . وقد فشلت الحملة فيما كانت تهدف إليه . وبعد الحملة الثانية ، شهدت المنطقة فترة توازن استمرت طوال أعوام ١١٣١ ـ

١١٧٤ . ولكن بعد ذلك التاريخ ، أخذ المسلمون بزمام المبادرة إلى أن قضوا على جيوب الفرنجة .

أما الحملة الثالثة (١١٨٩ ـ ١١٩٢) ، فكان على رأسها فريدريك الأول (بارباروسا) إمبراطور ألمانيا ، وفيليب الثاني ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا . وكان الحماس لها كبيراً في إنجلترا وأدَّت إلى هجمات على أعضاء الجماعة اليهودية فيها . أما بالنسبة إلى الحملات الأخرى التي تم تجريد آخرها عام ١٢٥٠ ، فلم تُصب أعضاء الجماعات اليهودية بأذى كبير . ويعود هذا إلى تزايد سلطة الإمبراطورية الرومانية المقدَّسة ، وخصوصاً في زمن فريدريك الثاني ، فنجحت في فرض سلطتها وحماية أعضاء الجماعات اليهودية ، وإن كانت حملة ١٣٢٠ التي يُقال لها «حملة الرعاة» قد هاجمت اليهود في شمال إسبانيا وجنوب فرنسا .

ولا يُعرَف عدد الضحايا من أعضاء الجماعات اليهودية على وجه الدقة لأن التقارير المعاصرة تميل إلى المبالغة والتهويل ، ولكن يمكن القول بأنه كان بين خمسة آلاف واثني عشر ألفاً ، وهو ليس بالعدد الذي يُستهان به برغم صغر حجمه بمقاييس أيامنا هذه . ففي بعض التقديرات ، لم يكن يزيد عدد يهود إنجلترا بأسرها على أربعة آلاف ، ولم يكن يزيد عدد يهود أوربا المسيحية كلها على نصف مليون يهودي وربما أقل ، وقد كانوا متمركزين أساساً في المدن أو في البقاع التي كانت تكتسب طابعاً حضرياً . وربما لم تكن المبالغة مقصودة وإنما راجعة إلى خلل في طريقة الرصد والملاحظة . فقد «اختفت» أعداد من اليهود بعض الوقت ، فحُسبوا في عداد القتلى ، بينما كان اختفاؤهم في واقع الأمر مؤقتاً ، إذ أنهم كانوا قد تركوا أماكن إقامتهم أثناء الاضطرابات ، ثم عادوا إليها بعد سكونها . وعاد أعضاء الجماعة اليهودية في سبير وميتز وكولونيا وغيرها من المدن الألمانية بعد أن كانوا قد تركوها . والوضع نفسه ينطبق على يهود إنجلترا .

بل يُلاحَظ تزايد العدد الكلي ليهود أوربا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين . ومع حلول القرن الثالث عشر الميلادي ، كانت أغلبية يهود العالم تعيش في أوربا لأول مرة في التاريخ . وربما يعود هذا إلى أن نتائج المذابح لم تكن بالضخامة التي تنسبها إليها روايات المعاصرين (وإن كان آرثر كوستلر يُفسِّر ظاهرة تزايد أعداد اليهود بالإشارة إلى ما يسميه «الشتات الخزري» في أرجاء أوربا) .

وتميل التواريخ الصهيونية إلى تسجيل المذابح التي تعرض لها أعضاء الجماعات اليهودية دون وضعها في سياقها التاريخي السليم، ودون ذكر المذابح الأخرى التي ارتُكبت ضد قطاعات إثنية وطبقية أخرى في المجتمع ، فيبدو الأمر وكأن الشر مُوجَّه ضد اليهود وحدهم . وهذا ما فعلته التواريخ الصهيونية بالهولوكوست ، أي إبادة اليهود على يد النازي ، حيث تُغفل الدراسات إبادة الغجر والسلاف ويتم التركيز على اليهود وحدهم . ولكن من الثابت تاريخياً أن عُنْف حملات الفرنجة لم يكن قط مقصوراً على اليهود ، فقد قتل الفرنجة سبعين ألف مسلم في الحملة الأولى وحدها . أما بالنسبة إلى المسيحيين الشرقيين الذين جاء الفرنجة لتحريرهم ، فقد حولَّهم الفرنجة إلى ما يشبه أرقاء أرض ، وفرضوا عليهم سلطة إقطاعية أشد قسوة مما كان سائداً وقتئذ في أوربا ، حتى أخذ سكان البلاد المسيحيون ينظرون بعين الحسرة إلى حكم المسلمين ويعدونه من العصور الذهبية التي مرَّت بالبلاد . وقد نهب الفرنجة القسطنطينية ثم استولوا عليها . بل يُقال إنهم أنهكوا قواها تماماً وهو ما سهَّل سقوطها في نهاية الأمر في يد العثمانيين . ولم تَسلَم مدن أوربا المسيحية ذاتها من هجماتهم ونهبهم وانتهاكاتهم . بل نجد أن الفرنجة أنفسهم وقعوا ضحية العنف السائد في تلك الحقبة الزمنية ، ففي حملة الأطفال عام ١٢١٢ (بعد الحملة الرابعة) ، تجمَّع نحو ثلاثين ألف طفل في حملة للفرنجة ، وتطوَّع تاجران من مارسيليا بنقلهم إلى الأرض المقدَّسة ، ولكنهم بدلاً من ذلك باعوهم لتجار العبيد !

ويجب أن نبحث عن الأثر الحقيقي لحروب الفرنجة في الجماعات اليهودية لا في المذابح التي ارتُكبت ضدهم ، أياً كانت قسوتها ، وإنما في بعض التطورات الأخرى ذات الطابع البنيوي التي لحقت بالمجتمع الغربي . والواقع أنها وإن لم تمس أعضاء الجماعات اليهودية مباشرة ، فقد كان لها أعمق الأثر في السنوات والقرون التي أعقبت حملات الفرنجة .

ومن أهم نتائج حملات الفرنجة ، أنها زادت قوة السلطة الدنيوية ، وخصوصاً قوة الملوك . فقد تم تحويل الطاقة العسكرية للبارونات والنبلاء إلى حملات الفرنجة الأمر الذي أنهك قواهم وأضعفهم داخل أوربا نفسها . كما أن السلطات الدنيوية نجحت في فرض ضرائب مباشرة على النبلاء ورجال الدين والطبقة الوسطى ، واستمرت في ذلك بعد انتهاء الحملات الأمر الذي كان يُعَدُّ تعزيزاً لنفوذ الملك على حساب الكنيسة وعلى حساب النبلاء . ومن العوامل الأخرى التي زادت نفوذ السلطة الدنيوية ، تزايد الحس القومي بين القطاعات البشرية المختلفة ممن يتحدثون اللغة نفسها ولهم الثقافة نفسها ، وكان هذا يُعدُّ تطوراً جديداً في تاريخ مجتمعات القارة الأوربية .

ومن النتائج المهمة الأخرى أن حملات الفرنجة أدَّت إلى تشجيع التجارة واتساع نطاقها ، فقد أصبح لأوربا قواعد تجارية وموانئ جديدة في البحر الأبيض المتوسط تَصلُح نقطة انطلاق لتجارة دولية كبيرة . كما طورت أوربا مقدرتها على بناء سفن أكبر حجماً ، فالطريق البحري هو الطريق الأساسي الذي كان يربط بين الفرنجة وأرض المعركة . ومن خلال حروب الفرنجة زاد التعامل بالأوراق والاعتمادات المالية ، الأمر الذي شجع على نشوء نظام مصرفي دولي . ويمكن القول أيضاً بأن أفق الإنسان الغربي قد اتسع جغرافياً وتاريخياً نتيجة الانتقال من قارة إلى أخرى ، وازدادت البورجوازيات المسيحية المحلية الوليدة جرأة ، كما تزايد نشاط الجمهوريات المدن الإيطالية بشكل ملحوظ .

وقد أدَّت كل هذه التطورات الاقتصادية المهمة إلى انسحاب أعضاء الجماعات اليهودية تدريجياً من التجارتين الدولية والمحلية اللتين كانتا مرتبطتين إلى حدٍّ كبير وإلى اتجاههما نحو الاشتغال بالربا ، وهو الأمر الذي زاد من كراهية الطبقات الشعبية لهم وزاد من هامشيتهم داخل المجتمع الغربي الوسيط . ولكن السلطة الدنيوية كانت تزداد قوة كما بيَّنا ، وأدَّى ذلك إلى تَزايُد اعتماد اليهود على النخبة الحاكمة ، والملك بالذات ، إذ أصبح وجودهم يستند إلى الحماية التي تدعمهم بها هذه الطبقة ، فتحوَّلوا من جماعة وظيفية وسيطة تخدم معظم أعضاء المجتمع إلى جماعة وظيفية عميلة معزولة عن المجتمع تُستخدَم أداةً في يد الطبقة الحاكمة . وهذا الوضع يختلف عن وضع اليهود في الأعوام الألف الأولى بعد الميلاد ، حيث كانت هناك درجة أعلى من الاختلاط بين اليهود والمسيحيين ، وكان الجيتو مجرد مكان للإقامة ، بل إنه كان يُعَدُّ إحدى المزايا التي كان يحصل اليهود عليها ضمن ما يحصلون عليه من حقوق ومزايا . ولكن ، مع تغيُّر وضعهم ، زادت العزلة بين الفريقين وأصبح الجيتو المكان الذي يُعزلون فيه . وقد كرست هذا الوضع قرارات مجمعي المجلس اللاتراني الثالث والرابع ، وهي عزلة ظلت تتعمق حتى القرن الثامن عشر الميلادي ـ عصر الإعتاق . ويُقال إن صيحة «هب هب hep hep» التي كان يطلقها المعادون لليهود ، في اضطرابات عام ١٨١٩ وبعدها ، هي نفسها الصيحة التي كان يرددها الفرنجة وأن الكلمة اختصار للعبارة اللاتينية «يروشاليم إست برديتا Yerushal» أي : «لقد سقطت القدس» . ومن نتائج حروب الفرنجة على اليهود أيضاً ، بداية الاستقرار اليهودي في شرق أوربا الذي ظل يتزايد إلى أن أصبحت الجماعة اليهودية هناك أضخم كتلة بشرية يهودية في العالم .

ومن الحقائق الأخرى التي ينبغي الإشارة إليها ما نسميه تصاعُد الحمَّى المشيحانية ، أي الرغبة في العودة إلى صهيون (أي فلسطين) والاستيلاء عليها وتحويلها إلى وطن قومي يهودي . إذ من المعروف أن الشريعة اليهودية تحرِّم على اليهود العودة إلى فلسطين وعلى اليهودي أن ينتظر بصبر وأناة إلى أن يشاء الإله ويرسل الماشيَّح ، فيحق له حينئذ أن يعود . ويرى كثير من المؤرخين أن حمَّى العودة ورَفْض الانتظار بدأت بين اليهود بحملات الفرنجة ووصلت إلى قمتها مع الحركة الصهيونية التي حققت النجاح لأنها جندت النزعة الاستعمارية في المجتمع الغربي وتحالفت معها ووضعت نفسها تحت تصرفها . وما يهمنا هنا من الحركات المشيحانية حركة الماشيَّح الدجال (داود الرائي) المولود عام ١١٣٥ إذ يبدو أن هجمات الفرنجة على فلسطين ، والفوضى التي أعقبتها ، طرحت إمكانية العودة وتحرير القدس في مخيلة بعض أعضاء الجماعات اليهودية . وقد تركزت دعوة داود الرائي هذا في آمد (في جبال كردستان) على الطريق الإستراتيجي الموصل بين مملكة الخزر اليهودية التركية وممالك الفرنجة . ولعل شيئاً من ذكرى إمبراطورية الخزر وأمجادهم كان لا يزال عالقاً بذهن داود الرائي وأتباعه .

وقد تصاعدت الحمَّى المشيحانية مرة أخرى في القرن السادس عشر الميلادي إذ يبدو أن البابا كليمنت السابع (١٥٢٤) عاودته الأحلام الاستيطانية الاسترجاعية ، وكان يتصوَّر أن بإمكانه دَعْم طريق الكنيسة مرة أخرى واستعادة شيء من نفوذها عن طريق تجريد حملة صليبية . وقد أدرك هذه الحقيقة ماشيَّح دجال آخر يُسمَّى ديفيد رءوبيني ، فادَّعى أنه ابن ملك يُدعى سليمان وأخ لملك يُدعى يوسف يحكم بعض الجماعات والقبائل اليهودية في خيبر بالقرب من المدينة المنورة . وقد أخبر رءوبيني البابا أن أخاه يتبعه ثلاثمائة ألف جندي مدربين على الحرب وأنهم لسوء الحظ ينقصهم السلاح ، وطلب إلى البابا تزويدهم بما ينقصهم حتى يمكنهم طَرْد المسلمين من فلسطين . وقد استقبله البابا استقبالاً حسناً في بادئ الأمر ، بل نجح في مقابلة ملك البرتغال وفي التأثير عليه . وفي تصوُّرنا أن هذه هي أول مرة يتحول فيها المشروع الصليبي للفرنجة إلى مشروع صهيوني وتقبل فيها المؤسسات الغربية استخدام المادة البشرية اليهودية المقاتلة بدلاً من المادة المسيحية .

وقد تركت حروب الفرنجة تأثيراً عميقاً في إدراك الوجدان الغربي لفلسطين أو العرب ، فأصبحت فلسطين الأرض المقدَّسة التي لابد أن تُسترجَع ليُوطَّن فيها عنصر مسيحي غربي ، وأصبح العرب (أهل فلسطين) هم الغرباء الذين يجب استبعادهم . وقد أصبحت

هذه الصيغة هي الصيغة التي تمت علمنتها فيما بعد لتصبح الصهيونية .

التشابه بين حملات الفرنجة والمشروع الصهيوني

Similarity between the Crusades and the Zionist Project

رغم أن حروب الفرنجة ظاهرة مرتبطة بالتشكيل الحضاري الغربي في العصر الوسيط ، فقد ساهمت هذه الحروب وبعمق في صياغة الإدراك الغربي لفلسطين والعرب . ولا يملك الدارس إلا أن يُلاحظ عمق التشابه بين المشروع الفرنجي والمشروع الصهيوني الإسرائيلي ، وهذا أمر متوقع لأن كليهما جزء من المواجهة المستمرة بين التشكيلين الحضاريين السائدين في الغرب والشرق العربي ، كما أن حملات الفرنجة هي نقطة انطلاق أوربا نحو التوسع والإصرار على بسط سيطرتها على الخارج . والواقع أن حملات الفرنجة احتوت بذور كل أشكال الإمبريالية الأوربية التي حكمت فيما بعد حياة جميع شعوب العالم (على حد قول أحد مؤرخي حملات الفرنجة الغربيين) . ولهذا ، أصبحت حملات الفرنجة صورة مجازية أساسية في الخطاب الاستعماري الغربي ، وأصبحت ديباجاتها هي نفسها ديباجة المشروع الاستعماري الغربي . وقد رأى كثير من المدافعين عن المشروع الصهيوني ، من اليهود وغير اليهود ، أنه استمرار وإحياء للمشروع الصليبي أي الفرنجي ومحاولة وَضْعه موضع التنفيذ من جديد في العصر الحديث . فقد ألَّف سي . آر . كوندر عام ١٨٩٧ ، وهو صهيوني غير يهودي ومؤسس صندوق استكشاف فلسطين ، كتاباً عن تاريخ المملكة اللاتينية في القدس أشار فيه إلى أن الإمبريالية الغربية قد نجحت فيما أخفقت فيه الحملات الصليبية أي حملات الفرنجة . والواقع أن تصوُّره هذا يشبه في كثير من الوجوه تصوُّر الصحافة البريطانية وكذلك تصوُّر بعض أعضاء النخبة الحاكمة في بريطانيا بأن هجوم أللنبي على القدس يساوي حملة صليبية أخرى . وقد صرح لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني آنذاك ، والذي أصدرت وزارته وعد بلفور ، أن أللنبي شن وربح آخر الحملات الصليبية وأعظمها انتصاراً . ويمكننا أن نقول إن المشروع الصهيوني هو نفسه المشروع الفرنجي بعد أن تمت علمنته ، وبعد أن تم إحلال المادة البشرية اليهودية التي تم تحديثها وتطبيعها وتغريبها وعلمنتها محل المادة البشرية المسيحية .

وقد لاحَظ روبرت برنارد سولومون ، وهو ضابط إنجليزي رأس الاتحاد الصهيوني البريطاني ، أوجه التشابه بين المشروعين الفرنجي والصهيوني في دراسة له نشرها في **جويش ريفيو** عام ١٩١٢ تحت عنوان "مستعمرات القرن الثاني عشر في فلسطين" حيث أكد أن المشكلات التي واجهها المستوطنون الفرنجة ونجحوا في التغلب عليها تشبه من نواح كثيرة تلك المشكلات التي تواجه المستوطنين الصهاينة في فلسطين ثم أخذ في تعداد هذه النواحي . كما أشار إلى العوامل التي أدَّت إلى انهيار ممالك الفرنجة بعبارة "المؤثرات الشرقية التي أدَّت إلى الانحلال" ليحذر المستوطنين الجدد منها . وسنحاول حَصْر جوانب الشبه بين التجربتين الفرنجية والصهيونية ، وتصنيفها تحت رؤوس موضوعات قد تكون متداخلة ولكنها مع هذا تيسر لنا عملية تقسيم هذه الأوجه والتعامل معها .

ولعل نقطة التشابه الأساسية ذات طابع جغراسي ففلسطين هي النقطة المستهدفة في كل من المشروعين الفرنجي والصهيوني . ويبدو أن فلسطين مستهدفة دائماً من صناع الإمبراطوريات إذ أنها تُعَدُّ مفتاحاً أساسياً لآسيا وأفريقيا ، وتُعدُّ معبراً على البحرين الأحمر والأبيض ، وتقف على مشارف الطرق البرية التي تؤدي إلى العراق وإيران ، وهي أيضاً معبر أساسي لشطري العالم الإسلامي . وفلسطين في واقع الأمر ليست سوى جزء من ساحل طويل يضم سوريا ومصر ، يشكل فاصلاً بين البحر المتوسط في الغرب والمحيط الهندي في الشرق . ويُعد هذا الموقع ، بالتالي ، فاصلاً بين مراكز النشاط في أوربا الغربية والشرق الأقصى . كل هذا يبين تشابك المصير بين سوريا ومصر من جهة وفلسطين من جهة أخرى ، وخصوصاً أن كثافة مصر السكانية جعلتها دائماً المرشحة لقيادة المنطقة بأسرها في صراعها ضد الغزوات الغربية . ويلاحظ أن كلاً من المشروعين الفرنجي والصهيوني اكتشف أنه لحسم الصراع لصالحه ، فلابد من ضرب مصر أو على الأقل تحييدها .

والواقع أن الغزاة الاستيطانيين عادةً ما يسلكون طريق البحر ، ثم تستقر الجيوب الاستيطانية على الساحل أو تحتفظ بركيزتها الأساسية فيه كما حدث في جنوب أفريقيا والجزائر . وكذلك ، فإن الغزوتين الفرنجية والصهيونية سلكتا الطريق البحري نفسه واحتلتا أجزاء من نفس الشريط البحري ، وإن كان الشريط الذي احتله الفرنجة أكثر طولاً من الشريط الذي احتله الصهاينة .

أما من الناحية التاريخية ، فيمكن القول بأن ثمة تشابهاً بين وَضْع العالمين العربي والإسلامي في القرن الحادي عشر ووضعهما في أواخر القرن التاسع عشر ، فقد كانا في حالة انقسام وتراجع وتجزئة . فالخلافة الفاطمية في مصر كانت في حالة مواجهة مع الخلافة العباسية في العراق ، وقد اقتسمتا فيما بينهما العالم الإسلامي . وكان النظامان العباسي والفاطمي يعانيان من

الصراعات الداخلية والمؤامرات . وهما ، في هذا ، يشبهان النظام السياسي العربي المعاصر ، المتجزئ ، المنقسم على نفسه ، المتصارع مع ذاته .

والغزوتان الفرنجية والصهيونية تهدفان إلى حل بعض مشاكل المجتمع الغربي وتخفيف حدة تناقضاته . فالمجتمع الوسيط الغربي كان يخوض عملية بَعْث اقتصادي فتحت شهيته للاستيلاء على طرق التجارة المتجهة إلى الشرق . وهذا يشبه من بعض الوجوه ، وإن كان بدرجة أقل ، انفتاح شهية رجل أوربا الشره في القرن التاسع عشر الميلادي الذي لم يهدأ له بال إلا بعد أن وقع العالم كله في قبضته . وقد استخدمت أوربا كلا المشروعين ، الفرنجي والصهيوني ، في التخلص مما أطلق عليه في القرن التاسع عشر الميلادي «الفائض البشري» ، أي العناصر التي لم تستطع أن تحقق الحراك الاجتماعي داخل مجتمعاتها ولذا كانت تهدِّد السلام الاجتماعي ولم يكن هناك مفر من تصديرها للشرق حتى يحقق الغرب سلاماً اجتماعياً داخلياً . فالمشروع الفرنجي كان يهدف أيضاً إلى تخليص أوربا من فائضها البشري الذي كان يهدد سلامها الاجتماعي حسب تصوُّر البعض على الأقل .

ومن نقط التشابه الأخرى أن المشروعين الفرنجي والصهيوني مشروعان استعماريان من النوع الاستيطاني الإحلالي . فالمشروع الفرنجي كان يهدف إلى تكوين جيوب بشرية غربية وممالك فرنجية تدين بالولاء الكامل للعالم الغربي . ولذا ، لم تأت الجيوش وحسب ، وإنما أتى معها العنصر البشري الغربي المسيحي ليحل محل العنصر البشري العربي الإسلامي . وهو في هذا لا يختلف عن المشروع الصهيوني إلا في بعض التفاصيل . فغزو فلسطين تم أولاً على يد القوات البريطانية ، ثم حَضَر المستوطنون الصهاينة بعد ذلك بوصفهم عنصراً يقوم بالزراعة والقتال . وقد كانت المؤسسات الاقتصادية للفرنجة ، مثلها مثل قرينتها الإسرائيلية ، تتسم بطابع عسكري . كما أن التنظيم الاقتصادي التعاوني لم يكن مجهولاً لدى الفرنجة . ويمكن القول بأن دويلات الفرنجة ، مثلها مثل الدولة الصهيونية ، كانت ترسانات عسكرية في حالة تأهب دائم للدفاع عن النفس وللتوسع كلما سنحت لها الفرصة . ويُلاحَظ أن كلاً من ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية ، بسبب طبيعتها الإحلالية ، خلقت مشكلة لاجئين . كما يُلاحَظ أن هؤلاء اللاجئين تحوَّلوا إلى وقود جنَّد سكان المنطقة ضد الدولة القلعة .

ومن المعروف أن الكيانات الاستيطانية لا تفقد صلتها قط بالوطن الأم بل تعتمد عليه اعتماداً يكاد يكون كاملاً لأنها ، بسبب تناقضها الجوهري مع البيئة المحلية التي تلفظها ، تستمد مقومات الحياة من دعم عسكري ومالي وهوية ثقافية ومادة بشرية من وطنها الأصلي . وهذه سمة أساسية في الكيانين الفرنجي والصهيوني ، مع تنويعات فرعية تنصرف إلى التفاصيل لا الجوهر . فمثلاً اعتمدت ممالك الفرنجة على كل أوربا كمصدر للدعم ، ولكن اعتمادها كان على فرنسا بالدرجة الأولى . وكذلك ، فإن الدولة الصهيونية التي اعتبرت أوربا قاعدتها الإستراتيجية واعتمدت على معظم دول العالم الغربي الرأسمالي مع التركيز على بلد واحد هو إنجلترا ثم فرنسا لفترة قصيرة وأخيراً الولايات المتحدة منذ منتصف الستينيات . ومع سقوط الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي تطرح الدولة الصهيونية نفسها باعتبارها قاعدة للحضارة الغربية كلها في مواجهة العالم الإسلامي . ويشير أحد الدارسين الإسرائيليين إلى أنه كان هناك جباية فرنجية موحدة تماماً مثل الجباية اليهودية الموحَّدة .

وقد جاءت المادة البشرية لكلا المشروعين من العالم الغربي . ولكنهما ، مع هذا ، لم يحققا التجانس العرْقي المطلوب لتحقيق شيء من التوازن داخل التجمُّع الاستيطاني ، فتولدت درجة عالية من التوتر . فممالك الفرنجة كانت تضم في بادئ الأمر عنصراً فرنسياً غالباً بالإضافة إلى عنصر إيطالي انقسم بدوره إلى جنوي وبندقي نسبة إلى جنوة والبندقية . ولكن عناصر أخرى انضمت إلى هذين العنصرين ، مثل : الأرمن وبعض العناصر المسيحية المحلية والمسلمين الذين تنصروا . كما أن ممالك الفرنجة نفسها استوعبت ، بمرور الزمن ، العناصر الثقافية من البيئة المحلية . ولكن ، ومع هذا ، يمكن القول بأن ممالك الفرنجة احتفظت بقدر من التجانس أعلى كثيراً مما حققه الكيان الصهيوني . فهذه الممالك ظلت فرنجية (فرنسية) ، كما أن أعضاء النخبة الحاكمة التي كانت عناصرها الأساسية من الفرنجة ظلت متماسكة ، وكذلك كانت الهوية الثقافية مستمدة من فرنسا . ويلاحظ أن أوربا في ذلك الوقت لم تكن قد انقسمت بعد إلى كيانات قومية لكل منها لغتها ، وكانت اللاتينية لغة العبادة والفكر . وكان التشكيل الحضاري يتمتع بشيء من الوحدة الثقافية ، على الأقل ، بالقياس إلى فترة التفتت القومي التي بدأت بعصر النهضة .

وقد حاول التجمع الصهيوني أن يحتفظ بهوية إشكنازية متجانسة تستند إلى تجربة شرق أوربا . ولكن أوربا ، في القرن التاسع عشر الميلادي ، كانت ذات تشكيل حضاري مقسم إلى كيانات قومية مختلفة تتحدث لغات مختلفة ، فجاء يهود من المجر ورومانيا وألمانيا وإنجلترا وفرنسا ، كلٌّ يتحدث لغته . وجاء من شرق

أوربا نفسها أنواع غير متجانسة ، فثمة يهود جاءوا من بولندا يتحدثون البولندية ، وآخرون جاءوا من رومانيا يتحدثون الرومانية ، ومن روسيا جاء من يتحدث الروسية إلى جانب الأغلبية التي تتحدث اليديشية . كما كان النسق الديني اليهودي في حالة تفتُّت وتراجُع ومن ثم نجد أن هناك يهوداً أرثوذكس ويهوداً إصلاحيين أو محافظين أو قرّاءين . . . إلخ . ثم اجتاحت التجمع الصهيوني الكثافة السكانية الوافدة من العالمين العربي والإسلامي التي غيَّرت بنيته السكانية وتوجُّهه الثقافي بحيث أصبحت أغلبية العنصر اليهودي شرقية تحكمها أقلية إشكنازية . ولكن الدولة الصهيونية تحاول مع هذا أن تحتفظ بالتوجه الإشكنازي للمجتمع ، إذ يتضح هذا في تشجيع الهجرة من الاتحاد السوفيتي وفي المناخ الثقافي الذي تفرضه المؤسسة الحاكمة ، وهذا الوضع يُولِّد الكثير من التوتر .

ويُلاحظ الصحفي الإسرائيلي يوري أفنيري أن كلاً من التجمعين الفرنجي والصهيوني تكوَّن من ثلاث طبقات ذات طابع عرْقي : الطبقة الحاكمة من المسيحيين الغربيين في دويلات الفرنجة يقابلها اليهود الإشكناز في الدولة الصهيونية . ثم يأتي في المرتبة الثانية مواطنو الدرجة الثانية من المسيحيين الشرقيين في دويلات الفرنجة يقابلهم اليهود الشرقيون في الدولة الصهيونية . وأخيراً يأتي مواطنو الدرجة الثالثة وهم المسلمون واليهود وبعض المسيحيين العرب في دويلات الفرنجة ، والمسلمون والمسيحيون العرب في الدولة الصهيونية .

والمجتمع الاستيطاني مجتمع مزروع أو مشتول في العادة ، فهو يأخذ شكل الدولة الجيتو أو الدولة القلعة . ونشير له الآن بأنه الدولة الشتتل . والشتتل هي المدن الصغيرة التي أسسها النبلاء البولنديون (شلاختا) في أوكرانيا لأعضاء الجماعات اليهودية ليقوموا بدورهم الذي أوكل إليهم في جمع الضرائب والإيجارات والإشراف على إدارة ضياع هؤلاء النبلاء حيث كانت تحميهم القوة العسكرية البولندية . وهذا المجتمع منعزل عن بيئته وينصرف جزء كبير من نشاطه إلى عملية القتال ضد السكان المحليين . وهذه مسألة ليست عرضية وإنما هي مسألة جوهرية وتنبع من الوظيفة نفسها . والعالم الغربي يزود الجيوب الاستيطانية بالعون ومقومات الحياة حتى تظل ركيزة لنشاطاته الإمبريالية والتوسعية . وينطبق هذا الوضع على الجيبين الفرنجي والصهيوني ، وإن كان يبدو أن الدعم الغربي للجيب الصهيوني يفوق الدعم الغربي للجيب الفرنجي . ولعل هذا يعود إلى أن الغرب أدرك وظيفة الجيب الصهيوني كاستثمار إستراتيجي يأتي بعائد اقتصادي غير مباشر عن طريق تهدئة المنطقة وليس كاستثمار اقتصادي يأتي بعائد اقتصادي مباشر . وربما لم تكن لدى أوربا في العصور الوسطى الرؤية الإستراتيجية الشاملة التي يمتلكها الغرب في الوقت الحاضر .

ويبدو أن أزمة التجمُّع الفرنجي لا تختلف عن أزمة التجمع الصهيوني . فيُلاحَظ أن الكيان الفرنجي كان يعاني من أزمة سكانية لا تختلف كثيراً عن أزمة المستوطن الصهيوني ، وذلك نظراً لانخفاض عدد سكان أوربا عام ١٣٠٠ بعد انتهاء فترة تزايد السكان ، الأمر الذي أدَّى إلى عدم مجيء المزيد من المادة البشرية ، كما كان الكيان الفرنجي يعاني من تناقص نسبة المواليد . وكان كثير من الأراضي التي ضمها الفرنجة يزرعها سكانها الأصليون العرب . بل إن بعض الأقنان الذين جاءوا مع حملات الفرنجة اشتغلوا بأعمال أخرى غير الزراعة ، نظراً لعدم درايتهم بالتربة وربما لتفتُّح فرص اقتصادية أخرى بحيث أمكنهم العمل في التجارة . ويشبه هذا زحف العرب التدريجي على الزراعة داخل المُستوطَن الصهيوني وضمن ذلك الكيبوتسات ، وتحوُّل المستوطنين الصهاينة إلى مهام أخرى غير الزراعة .

ولا تنحصر نقاط التشابه بين المشروعين الفرنجي والصهيوني في الظروف الاجتماعية والجغرافية المحيطة بكل منهما ، ولا في بنية الكيانين فقط ، وإنما تمتد نقاط التشابه هذه لتضم الديباجات والقصد . فقد قُدِّمت تبريرات للمشروعين وتم الدفاع عنهما عن طريق ديباجات دينية تستخدم الرموز الدينية وتوظفها في عملية التعبئة العسكرية . والرموز الدينية المستخدمة هي في واقع الأمر رموز عرْقية أو إثنية أو قومية رغم طلائها الديني اللامع . ويتبدَّى هذا في واقع أنه لا حملات الفرنجة ولا الحملة الصهيونية تحتكم إلى القيم الأخلاقية المسيحية أو اليهودية ، ولا يوجد لدى أيٍّ منهما استعداد لأن يُقيِّم سلوك المقاتلين التابعين لها من منظور مسيحي أو يهودي . فلم يكن الصليب في الحروب التي يُقال لها «صليبية» رمزاً للنسق الديني المسيحي وإنما كان رمزاً للهوية الإثنية الغربية المغرقة في الدنيوية ، كما أن نجمة داود كان يستخدمها الصهاينة الذين لا يعرفون إلا القليل عن الدين اليهودي والذين لا علاقة لهم بالنسق الديني اليهودي . فالحملات التي يُقال لها «صليبية» ، أو تلك التي يُقال لها «صهيونية» ، هي إذن تعبير عن قوى غير دينية استولت على الرموز الدينية ووظفتها مثلما استولت فيما بعد على الأراضي وقتلت أصحابها .

ومن هنا كانت عنصرية الديباجات الصليبية والصهيونية . ومن هنا أيضاً كان تمييزها الحاد بين البشر وتقسيمهم إلى أدنى وأعلى ، أو

حاضر وغائب ، أو فئة لها كل الحقوق وفئة لا حقوق لها على الإطلاق . . . إلخ . وهذا مختلف تماماً عن إيمان الديانات التوحيدية الثلاث بالمساواة بين البشر والتي تصدُر عن الإيمان بأننا نولد جميعاً من آدم وآدم من تراب .

ويُلاحَظ أن ديباجات الفرنجة والصهاينة ترى غزو فلسطين في إطار فكرة أن الغزاة شعب مقدَّس أو مختار . وكان يسيطر على كل من الفرنجة والصهاينة تفكير نخبوي يجعل زعماءهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم طلائع شعوبهم التي ستحمل السلام لتخلِّص الأرض المقدَّسة ، وأن هذه الحملة العسكرية إن هي إلا خروج ثان يشبه خروج العبرانيين من مصر إلى كنعان . وقد ارتبطت الديباجات في كلا المشروعين بالأحلام الألفية في استرجاع فلسطين بعد عودة المسيح أو تمهيداً لعودته .

مركزية حملات الفرنجة في الوجدان الصهيوني/الإسرائيلي

Centrality of the Crusades in the Israeli Zionist Imagination

نظراً للتشابه بين المشروعين الفرنجي والصهيوني ، ونظراً لأن كليهما اتخذ فلسطين ساحة لتنفيذ أحلامه ، نجد أن الوجدان الصهيوني منشغل إلى أقصى حد بالمشروع الفرنجي ، وخصوصاً أن الفرنجة قد رحلوا ولم يتركوا شيئاً خلفهم سوى بعض القلاع التي يزورها السائحون ويدرسها علماء الآثار من الإسرائيليين والعرب . ويحاول الدارسون الصهاينة أن ينظروا إلى مشروع الفرنجة من منظور ما يسمونه «التاريخ اليهودي» وكأن حملات الفرنجة جُرِّدت بالدرجة الأولى ضد اليهود ، تماماً مثلما يمنحون الجماعات اليهودية مركزية في كل الأحداث التاريخية . وتتحدث الكتابات الصهيونية الإسرائيلية عن ضحايا حملات الفرنجة وكأنهم الضحايا الوحيدون ، بل تدَّعي بعضها دوراً يهودياً مستقلاً في صد الفرنجة ، وهو الأمر الذي يتنافى تماماً مع حقائق التاريخ ، ومع ما ورد في كتابات بعض الرحالة اليهود المعاصرين مثل بنيامين التوديلي ، فإن مدينة صور كانت (في عام ١١٧٠) تضم خمسمائة يهودي على حين كانت كلٌّ من عكا وقيصرية تضم مائتين ، وكانت عسقلان تضم مائتي يهودي حاخامي . وتشير **موسوعة التاريخ اليهودي** إلى أن هذه هي الجماعات اليهودية الكبيرة ! ويذكر العالم اليهودي الإسباني موسى بن نحمان (نحمانيدس) أنه وجد في القدس عام ١٢٦٧ يهوديين اثنين فقط .

ولكن أهم جوانب الاهتمام الصهيوني الإسرائيلي بالكيان الفرنجي هو دراسته من منظور الصراع العربي الإسرائيلي ، بمعنى عَقْد الدراسات المقارنة في مشاكل الاستيطان ومشاكل الموارد البشرية والعلاقات الدولية فضلاً عن محاولة فَهْم عوامل الإخفاق والفشل التي أودت بالكيان الفرنجي . وهناك من يهتم بدراسة المقومات البشرية والاقتصادية والعسكرية للكيان الفرنجي ، ومن يهتم برصد العلاقة بين هذا الكيان والكيان الأوربي المساند له . وقد وجَّه فريق من الباحثين اليهود اهتمامه لدراسة مشكلات الاستيطان والهجرة .

ولكن الاهتمام لا يقتصر على الدوائر الأكاديمية ، فنجد أن شخصيات سياسية عامة مثل رابين وديان وأفنيري يهتمون بمشاكل الاستيطان والهجرة . ففي سبتمبر ١٩٧٠ ، عقد إسحق رابين مقارنة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية حيث توصَّل إلى أن الخطر الأساسي الذي يهدد إسرائيل هو تجميد الهجرة ، وأن هذا هو الذي سيؤدي إلى اضمحلال الدولة بسبب عدم سريان دم جديد فيها . ويعقد أفنيري في كتابه **إسرائيل بدون صهيونية** (١٩٦٨) مقارنة مستفيضة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية لا تختلف كثيراً عن المقارنة التي عقدناها في الجزء الخاص بهذا الموضوع والذي استفدنا فيه بتحليله الذكي . ولكن أفنيري يخلص إلى أن المقارنة درس لابد أن يتعلم منه الصهاينة ، فإسرائيل مثل ممالك الفرنجة مُحاصَرة عسكرياً لا لأن هذا هو المصير الموعود (الذي لا مفر منه) كما يتصور بعض الصهاينة ، وإنما هي مُحاصَرة عسكرياً لأنها تجاهلت الوجود الفلسطيني ورفضت الاعتراف بأن أرض الميعاد يقطنها العرب منذ مئات السنين .

وقد عاد أفنيري إلى الموضوع ، عام ١٩٨٣ ، بعد الغزو الصهيوني للبنان ، في مقال نشر في **هاعولام هزه** بعنوان "ماذا ستكون النهاية" فأشار إلى أن ممالك الفرنجة احتلت رقعة من الأرض أوسع من تلك التي احتلتها الدولة الصهيونية ، وأن الفرنجة كانوا قادرين على كل شيء إلا العيش في سلام ، لأن الحلول الوسط والتعايش السلمي كانا غريبين على التكوين الأساسي للحركة . وحينما كان جيل جديد يطالب بالسلام كانت مجهوداتهم تضيع سدى مع قدوم تيارات جديدة من المستوطنين ، الأمر الذي يعني أن ممالك الفرنجة لم تفقد قط طابعها الاستيطاني . كما أن المؤسسة العسكرية الاقتصادية للفرنجة قامت بدور فعال في القضاء على محاولات السلام ، فاستمر التوسع الفرنجي على مدى جيل أو جيلين . ثم بدأ الإرهاق يحل بهم ، وزاد التوتر بين المسيحيين الفرنجة من جهة وأبناء الطوائف الشرقية من جهة أخرى ، الأمر الذي أضعف مجتمع الفرنجة الاستيطاني ، كما ضعف الدعم المالي

والسكاني من الغـرب . وفي الوقت نفســه ، بدأ بعث إسـلامي جديد ، وبدأت الحركـة للإجـهاز على ممالك الفـرنجـة ، فـأوجـد المسلمون طرقاً تجارية بديلة عن تلك التي استولى عليـها الفرنجة . وبعـد موت الأجيـال الأولى من أعـضـاء النخبـة في الممـالك ، حل محلهم ورثة ضعفاء في وقت ظهرت فيه سلسلة من القادة المسلمين العظماء ابتداءً من صلاح الدين ذي الشخصية الأسطورية حتى الظاهر بيبرس . وظل ميزان القوى يميل لغير صالح الفرنجة ، كما لم يكن هناك ما يوقف هزيمتهم النهائية . وقد ترك هذا الحدث التاريخي بصماته وآثاره في وعي شعوب المنطقة حتى اليوم .

والواقع أن اهتمام المستوطنين الصهاينة بممالك الفرنجة تعبير عن إدراك أولي لطبيعة دورهم في المنطقة كدولة وظيفية تكون مجرد أداة في يد قوى عظمى خارجية ، وهو إحساس يشوبه قسط كبير من القدرية والعدمية الناجمة عن إحساس الأداة بأنها لا تمتلك ناصية أمورها ولا تسيطر على مصيرها أو قدرها .



٣
صهيونية غير اليهود المسيحية

الصهيونية الغربية ـ صهيونية الأغيار ـ صهيونية غير اليهود ـ الصهيونية المسيحية ـ الصهيونية ذات الديباجة المسيحية ـ الأحلام والعقائد الألفية ـ العقيدة الاسترجاعية ـ هرمجدون ـ المسيح الدجال ـ فرسان الهيكل ـ المورمون ـ شهود يهوه

الصهيونية الغربية
Western Zionism

«الصهيونية الغربية» مصطلح قمنا بسكه لنشير به إلى الحركة الصهيونية لنبين أنها حركة ليست عالمية وإنما حركة غربية تضرب بجذورها في التشكيل الحضاري والسياسي والغربي . والصهيونية الغربية تَصدُر عن الصيغتين الصهيونيتين الأساسية والشاملة ، ويمكن أن نقسِّم الصهيونية الغربية إلى قسمين :

أ) صهيونية غير اليهود : وهي صهيونية الذين توصلوا إلى الصيغة الصهيونية الأساسية وهم ينظرون لليهود باعتبارهم مادة تُنقَل ، ويطلق عليها البعض «صهيونية الأغيار» ، وإن كانت ديباجتها مسيحية فإنهم يطلقون عليها «صهيونية مسيحية» .

ب) صهيونية اليهود في الغرب : وهي صهيونية اليهود الذين تبنوا الصيغة الصهيونية الأساسية . وهذه نقسمها إلى صهيونية يهود غرب أوربا التوطينية وصهيونية يهود شرق أوربا الاستيطانية . والصهيونية الأولى قد تنتمي من الناحية البنيوية إلى صهيونية غير اليهود ، فهي تنظر إليهم من الخارج .

وإذا كان ثمة فارق بين صهيونية غير اليهود وصهيونية اليهود ، فهو يكمن في المنظور والديباجات ولا ينصرف قط إلى الصيغة الأساسية نفسها ، فاليهود بالنسبة إلى الصهاينة اليهود وغير اليهود شعب عضوي منبوذ من أوربا يجب أن يُنقَل خارجها ليُوظَّف لصالحها . وبينما ينظر الصهاينة غير اليهود إلى اليهود من الخارج باعتبارهم مجرد مادة بشرية تُوظَّف لصالح الغرب (أي على أنهم مجرد موضوع أو وسيلة لا قيمة لها في حد ذاتها) ، فإن الصهاينة اليهود ينظرون إلى اليهود من الداخل باعتبارهم شيئاً مقدَّساً ، أي أنهم يهوِّدون الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة من خلال إسقاط مصطلحات الحلولية الكمونية اليهودية عليها والعودة إلى الثالوث الحلولي : شعب ـ أرض ـ قوة ما (الإله ـ روح الشعب ـ التوراة والتراث) تسري في العنصرين وتحل فيهما وتربط بينهما .

وإذا كان الشعب اليهودي مجرد وسيلة (كما يرى الصهاينة غير اليهود) ، فهو من منظور الصهاينة اليهود وسيلة مهمة تُوظَّف في إطار كوني أو تاريخي ضخم بسبب مركزية الشعب اليهودي . ولنا أن نلاحظ أن كثيراً من الصهاينة غير اليهود قد تَقبَّلوا الرؤية الحلولية الكمونية اليهودية وأن كثيراً من الصهاينة اليهود يقبلون الرؤية النفعية ، وأصبح من المألوف أن تمتزج الرؤية الحلولية بالرؤية المادية النفعية ، وهذا ممكن في إطار الحضارة الغربية العلمانية الحديثة حيث يَحلُّ المطلق في المادة ويصبح من الممكن (من خلال الصيغة الهيجلية) التعبير عن الأمور المادية بطريقة روحية وعن الأمور الروحية بطريقة مادية . وثمرة هذا المزج هو النظر إلى فلسطين باعتبارها أرض الميعاد وباعتبارها كذلك موقعاً ذا أهمية اقتصادية وإستراتيجية بالغة ، وإلى الشعب اليهودي باعتباره شعباً مختاراً يقف في مركز الكون ، حجر الزاوية في عملية الخلاص ، وفي الوقت نفسه باعتباره مادة استيطانية تخدم الحضارة الغربية . وإسرائيل هنا هي أداة الإله الطيعة ، وهي في الوقت نفسه العميل المطيع للحضارة الغربية .

صهيونية الأغيار
Gentile Zionism

«صهيونية الأغيار» ترجمة لمصطلح «جنتايل زايونيزم Gentile Zionism» ، وهو مصطلح شائع في اللغات الأوربية يشير إلى غير اليهود الذين يتبنون الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة . ونحن نفضل استخدام مصطلح «صهيونية غربية» ، أو «صهيونية» فقط ، بمعنى «صهيونية غربية» ، ونشير إلى «الصهيونية ذات الديباجة المسيحية» وإلى «صهيونية غير اليهود العلمانية» بمعنى أنها صهيونية غربية يتبناها بعض مواطني العالم الغربي ويدافعون عنها ، إما من منظور مسيحي أو من منظور علماني .

صهيونية غير اليهود

Gentile Zionism

انظر : «صهيونية الأغيار» .

الصهيونية المسيحية

Christian Zionism

«الصهيونية المسيحية» مصطلح انتشر في اللغات الأوربية وتسلَّل منها إلى اللغة العربية ، حيث تتم ترجمة كل المصطلحات بأمانة شديدة وتبعية أشد دون إدراك مضامين المصطلح ، ومن ثم فإننا لا نعرف إن كان هذا المصطلح يعبِّر عن موقفنا بالفعل وعن رؤيتنا للظاهرة أم لا . والواقع أن مصطلح «الصهيونية المسيحية» يضفي على الصهيونية صبغة عالمية تربطها بالمسيحية ككل ، وهو أمر مخالف تماماً للواقع ، إذ ليس هناك صهيونية مسيحية في الشرق . بل إن أوائل المعادين للصهيونية بين عرب فلسطين كانوا من العرب المسيحيين ، وأول مفكر عربي تنبأ بأبعاد الصراع العربي ـ الصهيوني وبمدى عمقه هو المفكر المسيحي (اللبناني الأصل الفلسطيني الإقامة) نجيب عازوري . كما أن الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية تعارضان الصهيونية على أساس عقائدي ديني مسيحي . وإن حدث تقارب ما (كما هو الحال مع الفاتيكان) ، فإن ذلك يتم مع دولة إسرائيل ولاعتبارات عملية خارجة عن الإطار الديني العقائدي إلى حدٍّ كبير . بل هناك في الغرب المسيحي البروتستانتي عشرات من المفكرين المسيحيين الذين يرفضون الصهيونية على أساس ديني مسيحي أيضاً . ولذا ، فإن مصطلح «الصهيونية المسيحية» غير علمي نظراً لعموميته ومطلقيته . ومن هنا ، فإن الحديث يجري هنا ، في هذه الموسوعة ، عن «الصهيونية ذات الديباجة المسيحية» ، فهي صهيونية غير مسيحية بأية حال ، بل صهيونية استمدت ديباجتها (عن طريق الحذف والانتقاء) من التراث المسيحي دون الالتزام بهذا التراث بكل قيمه وأبعاده ، ودون استعداد منها لأن يُحكَم عليها من منظوره الأخلاقي (ويمكنها أن تستخدم ديباجات إلحادية دون أن يتغيَّر مضمونها أو بنيتها الفكرية الأساسية) . وفي تصوُّرنا أن هذا هو الفارق بين أية عقيدة دينية وأية عقيدة علمانية ، فالمؤمن بعقيدة دينية يؤمن بمجموعة من القيم المطلقة المتجاوزة لإرادته (فهي ليست من إبداعه ولا من إبداع غيره من البشر) ، ومن ثم يمكن تقييمه وتقييم سلوكه من منظور هذه القيم . أما العقيدة العلمانية ، فهي مجموعة من القيم النسبية المتغيرة ، ولا يمكن أن يُحاكَم الإنسان العلماني من منظورها إذ بوسعه أن يرفضها ويتنكر لها ويعدِّلها بما يتفق مع مواقفه المتغيِّرة واحتياجاته المتطورة وأهوائه المتجددة ورغباته التي لا تنتهي .

الصهيونية ذات الديباجة المسيحية

Zionism and Christian Apologetics

«الصهيونية ذات الديباجة المسيحية» هي دعوة انتشرت في بعض الأوساط البروتستانتية المتطرفة لإعادة اليهود إلى فلسطين . وتستند هذه الدعوة إلى العقيدة الألفية الاسترجاعية التي ترى أن العودة شرط لتحقيق الخلاص ، وهي تضم داخلها هذا المركب الغريب من حب اليهود الذي هو في واقع الأمر كره عميق لهم ، تماماً مثل الصيغة الصهيونية الأساسية : شعب عضوي منبوذ نافع يُنقَل خارج أوربا ليُوظَّف لصالحها .

وأفكار الصهيونية ذات الديباجة المسيحية جزء لا يتجزأ من فكر الإصلاح الديني (وخصوصاً في أشكاله المتطرفة) برفضه التفسير المجازي للكتاب المقدَّس وفتحه الباب على مصراعيه لفكرة الخلاص الفردي خارج الكنيسة وللتفسير الفردي للنصوص المقدَّسة ، بحيث أصبح المسيحي هو نفسه الكنيسة والكتاب المقدَّس ، يفرض عليهما ما يشاء من قيم ورؤى ، وهو ما يعبِّر عن تَصاعُد معدلات الحلول والعلمنة وانتشار ما نسميه «الرؤية المعرفية الإمبريالية» . وقد انتشر الفكر الصهيوني ذو الديباجات المسيحية في أواخر القرن السادس عشر ؛ عصر الثورة العلمانية الشاملة والثورة التجارية والحركة الاستيطانية الغربية ونشوء الرأسماليات الأوربية الباحثة عن مصادر الثروات والمواد الخام وعن أسواق لتصريف سلعها . وكانت أهم مراكز الصهيونية ذات الديباجة المسيحية إنجلترا بعد أن تحوَّلت عن الكاثوليكية ونفضت النفوذ الإسباني عنها وأصبحت واحدة من أهم القوى الاستعمارية (ومع هذا ، يُلاحَظ أن إنجلترا لم يكن فيها يهود تقريباً) .

ويمكننا هنا أن نذكر بعض المفكرين الصهاينة ، مثل توماس برايتمان وسير هنري فنش ، الذين طرحوا تفسيراً حرفياً للعهد القديم وطالبوا بعودة اليهود إلى فلسطين . كما يمكن الإشارة إلى فيليب دي لانجالري (الفرنسي) . وقد ظهرت عشرات المقالات التي تعالج هذا الموضوع وتتخذ موقفاً مماثلاً . وزاد هذا الموقف عمقاً باستيلاء المتطهرين (البيوريتان) على الحكم فكتب إنجليزيان بيوريتانيان نداء يطلبان فيه إعادة اليهود لإنجلترا وذلك حتى يتشتَّتوا في كل بقاع الأرض . فالشتات الكامل ـ حسب الأسطورة ـ هو شرط عودتهم لأرضهم ، على أن تكون عودتهم على "سفن إنجليزية" (ولنتذكر

هنا قانون الملاحة المركنتالي ، الصادر عام ١٦٥١ ، الذي أصدرته حكومة كرومويل والذي تم بمقتضاه استبعاد السفن الهولندية من حَمْل التجارة البريطانية ، ولذا أصبح حَمْل سلع من أفريقيا أو آسيا غير ممكن إلا على سفن إنجليزية) .

وتُعَدُّ هذه أول مرة في تاريخ العالم المسيحي التي يطرح فيها بشر مشروعاً بشرياً لإنجاز ما كان يُعتقَد حتى ذلك الوقت أنه أمر سيتم بتَدخُّل العناية الإلهية . وقد أدلى كرومويل بدلوه فدافع عن عودة اليهود لإنجلترا بسبب نَفْعهم وإمكانية استخدامهم كجواسيس له . ويُلاحَظ أن الصيغة الصهيونية الأساسية هي النموذج الأساسي الكامن في كل هذه الكتابات .

ويُلاحَظ أن الصهيونية ذات الديباجة المسيحية تأخذ شكلاً دينياً استرجاعياً صريحاً وشكلاً تبشيرياً بين اليهود ، وهي تنظر لليهودية من الخارج تماماً ، فاليهود لا يزالون مجرد أداة للخلاص ، وهم قتلة المسيح الذين يجب تنصيرهم وهدايتهم . ودعاة الصهيونية ذات الديباجة المسيحية شخصيات ليست سوية تماماً ، معظمهم بعيدون عن مركز صناعة القرار . ومع هذا ، يُلاحَظ أن الأبواب كانت دائماً مفتوحة أمامهم .

وقد قامت جمعيات مسيحية تبشيرية عديدة مهمتها نشر المسيحية بين اليهود وهدايتهم واسترجاعهم إلى فلسطين إعداداً للخلاص . وأهم جمعية صهيونية مسيحية هي جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود الإنجليز ويهود الدولة العثمانية (١٨٠٩) ، وكان يشار إليها على أنها جمعية اليهود («جوز سوسياتي Jews' Society») . كما تم تأسيس جمعية التبشير الكنسية التي ازدهرت إلى درجة أن ميزانيتها بلغت ٢٦ ألف جنيه عام ١٨٥٠ ، وكان يتبعها ٣٢ فرعاً في لندن والقدس وغيرهما من المدن ، وأصبحت المنبر الأساسي للصهاينة من المسيحيين مثل لورد شافتسبري السابع .

ومع تَصاعُد معدلات العلمنة وتزايد النزعة الرومانسية (الحلولية العضوية) ، بدأت الديباجات الدينية تبهت بالتدريج وبدأت تحل محلها ديباجات علمانية عقلانية نفعية تدور في إطار مفهوم الشعب العضوي المنبوذ مجرداً من كل الديباجات المسيحية . ومع ظهور محمد علي في مصر ، وبداية التفكير في توظيف الدولة العثمانية كي تصبح سداً ضد الزحف الروسي الأرثوذكسي أو في اقتسامها ، أصبحت الصهيونية ذات الديباجة المسيحية هامشية (رغم شعبيتها) إذ نجد أن أعضاء النخبة الحاكمة يستخدمون الصيغة الصهيونية الأساسية مع ديباجات نفعية علمانية (صهيونية غير اليهود) .

ولا يعني ظهور الصهيونية ذات الديباجة الرومانسية العضوية أو العلمانية العقلية (المادية الشاملة) أن الصهيونية ذات الديباجة المسيحية الواضحة اختفت أو حتى توارت . فالعكس هو الصحيح ، إذ أن هذه الديباجة استمرت في التمتع بذيوع لا تعادله أية ديباجة أخرى ، رغم تزايد علمنة المجتمع الغربي ، بل إن النزعة الرومانسية قد أعطتها حياة جديدة وزادتها حيوية وديناميّة . ويتضح ذلك في أن القرن التاسع عشر شهد بعثاً مسيحياً متمثلاً في الحركة الإنجيلية (أي المبشرة بالإنجيل) التي كانت تهدف إلى بَعْث القيم المسيحية بين صفوف الطبقة العاملة والفقراء والتبشير بين اليهود . كما يتضح في استمرار كثير من الصهاينة غير اليهود (العلمانيين) في استخدام ديباجات مسيحية . بل يمكن القول بأن الديباجة الأكثر شيوعاً مزيج من الديباجتين العلمانية النفعية والمسيحية كما هو الحال مع شافتسبري وبلفور .

ومن أهم الصهاينة الذين استخدموا ديباجات مسيحية وليام هشلر الذي قام بتقديم هرتزل لأعضاء النخبة الحاكمة في أوربا ، وأورد ونجيت (الضابط البريطاني الذي ساهم في أعمال الإرهاب ضد العرب) ، ونيبور رينهولد رجل الدين البروتستانتي .

ويمكن القول بأن المشروع الاستيطاني الغربي بشكل عام (في فلسطين وغيرها) استخدم ديباجات صهيونية مسيحية توراتية لتبرير عملية غزو العالم فأصبحت كل منطقة يتم غزوها هي أرض كنعان (فلسطين) وأصبح سكانها الأصليون كنعانيين ومن ثم يمكن إبادتهم . وقد استُخدمت هذه الديباجات في استعمار الأمريكتين وجنوب أفريقيا .

وقد بدأت الصهيونية ذات الديباجة المسيحية تتمتع ببعث جديد بعد إنشاء الدولة الصهيونية . وبدأت الفكرة الاسترجاعية تنتشر بشكل كبير في الأوساط البروتستانتية المتطرفة (الأصولية) في الولايات المتحدة (ومنهم بعض رؤساء الولايات المتحدة مثل كارتر وريجان) والتي تُصر على أن دولة إسرائيل هي تحقق النبوءة حرفياً في العصر الحديث وهي بُشرى الألف سنة السعيدة ، أي أن الحلول أو التجسد الذي حدث مرة واحدة وبشكل مؤقت في التاريخ من منظور كاثوليكي ، أصبح حلولاً حرفياً ودائماً ومادياً في شكل الدولة الصهيونية وفي أحداث التاريخ الحديث . لذلك ، نجد أن الاسترجاعيين المُحدَثين يستغرقون في التفسيرات الحرفية . وعلى سبيل المثال ، فإن جيري فالويل يشير إلى أن كتاب حزقيال يشير إلى أرض معادية للماشيَّح هي «روش» ، وهي أرض بها مدينتان هما «ميشيسن وتوبال» ، وتصبح روش «روسيا» وتصبح ميشسن «موسكو» وتوبال «تيبولسك» . وستقوم روش بغزو إسرائيل ونهبها

(حسب سفر حزقيال) ، ولذا فإن فالويل يفسر هذا بأن روسيا ستقوم بغزو إسرائيل للحصول على الغنائم . وكلمة «النهب» يقابلها في الإنجليزية كلمة «سبويل spoil» ، فإن حذفنا أول حرفين فإنها تصبح «أويل oil» ، أي البترول ، وهنا تصبح الأمور شديدة البساطة (وهذه الطريقة في التأويل ذات جذور قبَّالية ، كما يُلاحَظ هنا أيضاً الثنائية الصلبة التي تتبدَّى في التأرجح بين التفسير الحرفي الجامد الذي يصر على معنى واحد مباشر والتأويل السائل الذي يفرض أي معنى على النص) . ويقوم هؤلاء الاسترجاعيون بحوسلة إسرائيل بشكل حاد . وعلى سبيل المثال ، فإن تيري ريزنهوفر (المليونير الأصولي الأمريكي الذي يقوم بتمويل عملية إعادة بناء الهيكل) يرى أن السلام بين إسرائيل وجيرانها مسألة مستحيلة . وبصفة عامة ، فإن الرؤية الاسترجاعية ترى أن هرمجدون نبوءة حتمية لابد أن تتحقق . بل يرى الاسترجاعيون ضرورة تحريك الأمور باتجاه الحرب لإضرام الصراع والتعجيل بالنهاية (ولذا ، فإن موقفهم من مفاوضات السلام أكثر تشدداً من موقف أكثر صقور إسرائيل تشدداً) . ولا يختلف الأمر كثيراً بشأن حدود أرض الميعاد ، فهذه الحدود مُعطًى ثابت مقدَّس لا يمكن التفاوض بشأنه . كما أن حدود إسرائيل التي يتخيلها الاسترجاعيون أكثر اتساعاً من حدود إسرائيل الكبرى التي يتخيلها أكثر الصهاينة تطرفاً . فحدودها ، حسب الرؤية الاسترجاعية ، تضم الأردن وأجزاء من مصر ولبنان ومعظم سوريا (وضمنها دمشق) . أي أن الاسترجاعيين يرون ضرورة سفك الدم اليهودي تحقيقاً لرؤيتهم لنبوءات الكتاب المقدَّس .

والواقع أن هذا المفهوم لا يختلف كثيراً عن مفهوم آرثر بلفور (صاحب الوعد المشهور) الذي أرسل اليهود إلى فلسطين ليكونوا قاعدة أمامية للحضارة الغربية ، تُنزَف دماؤهم دفاعاً عن الحضارة التي نبذتهم . وهكذا ، فإن الرؤية الاسترجاعية رؤية معادية تماماً لليهود وترى أن هلاكهم طريق الخلاص والبوابة الحتمية لانتشار المسيحية ! وغني عن القول أن الرؤية الاسترجاعية رؤية حرفية علمانية لا علاقة لها بالرؤية المسيحية كما عرَّفها آباء الكنيسة ومفسروها الدينيون ، وهي تعبير عن تهويد المسيحية أي علمنتها من الداخل . وقد عُقد المؤتمر الصهيوني المسيحي الأول في أغسطس ١٩٨٥ في الصالة نفسها التي عُقد فيها المؤتمر الصهيوني الأول في بازل (١٨٩٧) ، وحضره ٥٨٩ مندوباً أتوا من ٢٧ دولة .

ومن أهم المنظمات الصهيونية المسيحية في الولايات المتحدة :

١ ـ منظمة الأغلبية الأخلاقية ، وزعيمها الروحي القس جيري فولويل (ولعلها أهم المنظمات) .

٢ ـ مؤسسة بات روبرتسون .

٣ ـ منظمة السفارة المسيحية الدولية ـ القدس .

٤ ـ المؤتمر القومي للقيادات المسيحية من أجل إسرائيل .

٥ ـ المائدة المستديرة الدينية .

الأحلام والعقائد الألفية

Millenarianist Dreams and Doctrines

«الألفية» ترجمة لكلمة «ميلينيريانزم» الإنجليزية المأخوذة من الكلمة اللاتينية «ميلينياروس» ومعناها «تحتوي على ألف» . وثمة نزوع إنساني عام لفرض نظام عام على أحداث التاريخ ، وهو عادةً نظام رياضي هندسي صارم . ومن ثم ، فقد ظهر الإيمان في كثير من الحضارات بأن العالم يشهد ، في نهاية كل ألف من السنين ، انتهاء دورة زمنية ، وتصاحب هذه النهاية عادةً أحداث ضخمة . بل تذهب هذه الرؤية إلى أن التاريخ كله سيكون في نهاية ألف معينة . والفكرة الألفية متواترة في كثير من الحضارات . ويُقال إن حروب الفرنجة كانت نتيجة تصاعُد الحمى الألفية . وقد كتب الشاعر الأيرلندي وليام بتلريتس في نهاية القرن التاسع عشر قصائد ذات طابع ألفي . ولعل آراء فوكوياما (الموظف بوزارة الخارجية الأمريكية) عن نهاية التاريخ ، ذات طابع ألفي هي الأخرى (مع انتهاء القرن العشرين ، أي في نهاية الألف الثانية بعد الميلاد) . كما أن العراف نوستراداموس من قبله وضع مخططاً يتنبأ فيه بنهاية التاريخ في إحدى الدورات الألفية . وللعقيدة الألفية جذور شعبية في العادة ، تماماً مثل النزعات المشيحانية المختلفة التي تعبِّر عن تزايد معدلات الحلولية وضيق بالحدود وعن نفاد صبر بشأن العملية التاريخية وبالخلاص التدريجي .

والعقيدة الألفية تعود جذورها إلى اليهودية ، ولكنها أصبحت فكرة مركزية في المسيحية البروتستانتية إذ يؤمن كثير من المسيحيين البروتستانت بأنه حينما يعود المسيح المخلِّص (أو الماشيَّح حسب الرؤية اليهودية) (الذي يُشار إليه فيها بـ«الملك الألفي») سيحكم العالم (باعتباره الملك المقدَّس) هو والقديسون لمدة ألف عام يشار إليها أحياناً باسم «أيام الماشيَّح» أو «أيام المسيح» ، وهي فترة سيسود فيها السلام والعدل في عالم التاريخ والطبيعة وفي مجتمع الإنسان والحيوان .

وعقيدة الملك المقدَّس هذه لم يأت لها أي ذكر في العهد القديم ويبدو أنها مجرد صدى في الوجدان العبراني لمؤسسة الملكية المقدَّسة العبرانية . وما حدث هو أن مؤسسة الملكية المقدَّسة اختفت مع انهيار

الدويلات العبرانية ولم تتم استعادتها حتى بعد عودة اليهود بأمر قورش الفارسي . فأسقط الوجدان العبراني فكرة الملك المقدَّس على المستقبل أصبحت جزءاً من الأفكار الأخروية (وتتحدث جماعة قمران عن الزوج المشيحاني) : الماشيَّح بن هارون الكهنوتي والماشيَّح بن داود الملكي ، ثم ظهر فيما بعد الماشيَّح بن يوسف والماشيَّح بن داود .

وقد ظهرت العقيدة الألفية في كتابات معلمي المشناه (تنائيم) وفي الكتب الخارجية أو الخفية (أبوكريفا) . بل إن كتب الرؤى (أبوكاليبس) ، ومعظم الأفكار الأخروية ، والكتب المنسوبة (سيود إبيجرفا) ، والأحلام الأخروية ، وسائر الأساطير الخاصة بآخر الأيام ونهاية الزمان ، تدور جميعاً حول هذه العقيدة . وتظهر العقيدة الألفية في العهد الجديد في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي الذي يشبه سفر دانيال في كثير من الوجوه والذي يدور حول عودة المسيح الثانية وحُكْمه العالم لمدة ألف عام والنص ، مثل كل كتب الرؤى ، مركب مضطرب تنثال فيه صور الحشر الأخروية وتتداخل . والنص يتحدث عن تقييد الشيطان ثم حكم المسيح للعالم مع قديسيه لفترة تمتد لمدة ألف عام (ويبدو أن الألف عام هذه لا علاقة لها بيوم البعث أو يوم القيامة أو الفردوس السماوي إذ هي نوع من الفردوس الأرضي الذي سيتحقق الآن وهنا قبل يوم الحساب) . بعد ذلك يُطلَق الشيطان من سجنه لهجمة أخيرة ، ولعله عند هذه اللحظة يظهر المسيح الدجال (بالإنجليزية : «أنتي كرايست anti-Christ» وهي كلمة تعني حرفياً : ضد المسيح) فتدور المعركة الفاصلة النهائية . ويُلاحَظ أن المسيح الذي يعود هذه المرة ليس هو مسيح الأناجيل المعروف لدينا الذي يشيح بوجهه عن مملكة الأرض والذي يعرف أنه سيُصلَب فداءً للبشر ، وإنما هو مسيح عسكري يجيء راكباً حصاناً أبيض و "عيناه كلهيب نار" و "متسربل بثوب مغموس بدم" و "من فمه يخرج سيف ماض لكي يضرب به الأمم ، وهو سيرعاهم بعصاً من حديد" (رؤيا يوحنا ١٩/١١ ـ ١٦) . فهو إذن مسيح جدير بالرؤية المعرفية الإمبريالية ، يشبه جيوش أوربا التي داست الأرض ولوثت البيئة وثقبت الأوزون . وهو مسيح سيقتحم التاريخ عنوة ويدخل المعركة النهائية ، معركة هرمجدون ، ضد ملوك الأرض الذين يساعدهم الشيطان ، فيُلحق بهم جميعاً الهزيمة النكراء . ثم يبدأ المسيح حكمه (الثاني) والنهائي ، ويبعث كل البشر ، المحسن منهم والسيِّئ (إذ يبدو أنه في حكمه الأول لم يبعث سوى القديسين) وذلك لمحاسبتهم ومجازاتهم . وينتهي الزمان ويبدأ حكم مدينة الإله وتختفي مدينة الأرض . وتختلط بكل هذا أقوال عن يأجوج ومأجوج وعلامات الساعة والنهاية ، كما أن هناك العديد من الروايات الأخرى التي لا تقل اختلاطاً عن تلك التي لخصناها .

وأهم النقط التي يدور حولها الخلاف بين الروايات المختلفة هو : متى تكون النهاية النهائية ، هل تكون بعد عودة المسيح أم قبلها ؟ وما علامات هذه العودة الثانية ، أهي مزيد من الشر والتدهور أم الخير والتقدم ؟ ويُقسِّم الألفيون ، أي المؤمنون بالعقيدة الألفية ، إلى قسمين حسب رؤيتهم لزمن ظهور المملكة الألفية :

أ) أنصار ما قبل الألف : وهؤلاء يؤمنون بأن الملك الألفي أي المسيح سيأتي فجأة ويبدأ مملكة الألف عام التي سيسود فيها العدل والسلام ، وهذه الرؤية هي الأكثر شيوعاً . وعلامة النهاية عند هؤلاء تكون عادةً انهيار الحضارة وتدهورها . وعندما ترد كلمة « ألفية» دون إضافات أو تحفظات فهي تشير عادةً إلى العقيدة ما قبل الألفية .

ب) أنصار ما بعد الألف : وهؤلاء يرون أن الملك الألفي سيأتي بعد الألف عام التي سيسود فيها السلام والمحبة وتعم فيها النعمة بسبب أن المسيحيين سيتخذون موقفاً أخلاقياً ويطيعون إلههم . وستكون العودة الثانية للمسيح هي ذروة هذه المرحلة ، فهو سيأتي ليبعث الموتى ويحاسبهم على أفعالهم ، وهذا هو يوم القيامة أو الحساب الأخير . وعلامة النهاية هنا هي شيوع السلام والمحبة والرخاء في الأرض .

والخلافات هنا عميقة وبنيوية ، فما قبل الألفيين يرون أن التغير فجائي ناجم عن تَدخُّل أو تجسُّد إلهي في التاريخ دون محاولة من جانب البشر ، فهم عنصر سلبي في الدراما الكونية ، وسيصاحب تَدخُّل الخالق مذابح وحروب . أما ما بعد الألفيين ، فيرون أن التغيُّر تدريجي ، وأنه ناجم عن أن المسيحيين سيقومون بتغيير أنفسهم وتحسين دنياهم . والذروة التي يصل إليها التاريخ تدريجياً هي إذن تعبير عن فعل إنساني أخلاقي وليس مجرد تجسُّد فجائي للإله في التاريخ . فالإنسان ليس عنصراً سلبياً في الدراما الكونية ، بل هو فاعل لا يخضع للحتميات . وقد تزاوجت هذه الرؤية ، فيما بعد ، مع فكر عصر الاستنارة وعقيدة التقدم ، وتمت علمنتها بحيث أصبح تقدُّم المسيحيين التدريجي هو التقدم التدريجي للعلوم ، وأصبحت عودة المسيح (والحكم الألفي) هي هذه أو تلك النقطة في التاريخ . والواقع أن هذا الفكر يصل إلى قمته في منظومة هيجل ، بل في كل المنظومات العلمانية الهيجلية .

ومن الواضح أن الفكر الأخروي الإسكاتولوجي المسيحي الألفي يتأرجح بين الحلولية المادية (مملكة المسيح في هذا الزمان) والتوحيد الذي ينزِّه الإله عن الطبيعة والتاريخ (المملكة السماوية

خارج التاريخ) . فبينما تسد الصيغة الأولى أية ثغرات أو ثنائيات ، نجد أن الثانية تؤكدها وتحتفظ بقدر من الثنائية الفضفاضة (ومع هذا تتم تصفيتها من خلال عقيدة التقدم والتجسد التدريجي من خلال التاريخ) .

وقد اقترنت العقيدة الألفية ، منذ البداية ، بظهور العقلية التجارية والعلمية والمادية ، ومن ثم فإنها قد ارتبطت بالتفسير الحرفي لكل عبارات العهد القديم ورفضت التفسيرات الكاثوليكية المجازية التي طورتها الكنيسة عبر العصور الوسطى لتُخلِّص الكتاب المقدَّس ، وخصوصاً العهد القديم ، من العناصر المادية والوثنية فيه . وقد اضطرت الكنيسة إلى قبول هذا الكتاب لأنها اعتبرت نفسها «إسرائيل فيروس» أي «إسرائيل الحقيقية» ـ أي الشعب اليهودي باعتباره جماعة مقدَّسة (جماعة يسرائيل) . وفي بداية العهد المسيحي ، كان هناك اتجاه لإلغاء العهد القديم وعدم اعتباره ضمن الكتب القانونية ، إذ أن تبنيه كان يعني إلغاء مركزية وقدسية ومصداقية رؤية اليهود تاريخياً ودينياً . ولكن الكنيسة رفضت هذا الاتجاه ، إذ أن حَذْف العهد القديم كان يعني في واقع الأمر حرمان الكنيسة من حقها في أن ترث جماعة يسرائيل ، وهو ما يتنافى مع العقيدة المسيحية ومع رؤيتها لنفسها . ومهما يكن الأمر ، فإن الكنيسة حاصرت العناصر الوثنية في العهد القديم وحاولت تحييدها عن طريق التفسيرات المجازية والرمزية . ولكن ، مع عصر النهضة والإصلاح الديني ، بدأت التفسيرات الحرفية والفردية (الألفية) للعهد القديم تنتشر ، وذهب الألفيون إلى أن ما ورد في العهدين القديم والجديد نبوءات حرفية عن المستقبل (على عكس الرؤية المسيحية التقليدية التي تذهب إلى أن آيات الكتاب المقدَّس إما آيات عن أحداث وقعت في الماضي أو نبوءات وردت ثم تحققت) . فيرى الألفيون ، على سبيل المثال ، أن العبارات التي وردت عن خراب أورشليم (القدس) تشير إلى حروب عام ١٩٦٧ أو عام ١٩٤٨ . أما الرؤية المسيحية التقليدية ، فتذهب إلى أنها تحققت بالفعل عام ٧٠ ميلادية على يد تيتوس .

والعقيدة الألفية ، في كل مفاهيمها ، تدور حول تجسُّد الإله في التاريخ بشكل فعلي فجائي ، وحول تَدخُّله فيه حتى يمكن مشاهدته في آثاره الفعلية ، وفي كل الشواهد المادية التي يمكن إدراكها بالحواس الخمس الآن وهنا في مملكة الأرض ، أي أنها رؤية مادية للواقع . وقد استفاد الألفيون من التأملات القبَّالية الخاصة بحساب نهاية الأيام وموعد وصول الماشيَّح . وبهذا المعنى ، تكون العقيدة الألفية تعبيراً عن تهويد المسيحية .

وقد أدركت الكنيسة الكاثوليكية منذ البداية خطورة العقائد الألفية (التي حملت راياتها العناصر الغنوصية واليهودية والوثنية الشعبية) على العقيدة المسيحية . وقد وصفت الكنيسة العقيدة الألفية بأنها "عقيدة على طريقة اليهود" أي تشبه الفكر المشيحاني اليهودي . وقد حاول القديس أوغسطين محاصرة ذلك المفهوم الواحدي الكوني المعادي للتاريخ والحدود ، وحاول أن يحاصر الحلولية التي يَصدُر عنها ويحوِّلها إلى ما نسميه «حلولية مؤقتة شخصية منتهية» تحققت في لحظة نزول الإله باعتباره الابن ثم صلبه وقيامه ، ومع قيامه تنتهي اللحظة الحلولية ويُستأنَف التاريخ الإنساني . وقد بيَّن القديس أوغسطين أن الكنيسة الكاثوليكية هي مملكة المسيح ، وأنها التجسيد التام للعصر الألفي ، وأنها حالة روحية وصلت إليها الكنيسة في عيد العنصرة ، أي بعد موت وبعث المسيح . وهذا لا يعني انتهاء الفوضى في الطبيعة والتاريخ ، بل إن الفوضى ستستمر إلى نهاية الزمان حتى يعود المسيح ثانيةً ، وهي العودة التي سوف تتم في وقت لا يمكن التنبؤ به ، أي يتم خارج التاريخ (في يوم القيامة) . وقد واكب تلك الرؤية تقديم التفسير المجازي للعهد القديم بحيث تصبح كل القصص والأحداث فيه رموزاً لحالات روحية وأخلاقية .

ولكن كثيراً من الفرق الغنوصية المهرطقة ، وهم من أعداء الكنيسة ، استمروا في الدفاع عن العقيدة الألفية . غير أن مثل هذه الجماعات اضطرت إلى أن تكون سرِّية بسبب ما كان يقع عليها من اضطهاد من قبل الكنيسة في روما والتي وصفت تعاليمها بأنها كفر . وقد بُعثت الفكرة من جديد مع الإصلاح الديني ومع استرجاع النزعة الحلولية الذي تزامن أيضاً مع هيمنة القبَّالاه على اليهود وانتشارها في الأوساط الدينية الغربية . ورغم أن لوثر وكالفن تمسكا بتعاليم أوغسطين حول هذه الفكرة ، فإنها أخذت تتسرب إلى الجماهير وتستقطب أعداداً كبيرة منهم ، ثم صارت فكرة محورية في عقول كثير من غلاة البروتستانت ، وهو أمر منطقي يتسق مع بنية الفكر البروتستانتي ومع تَصاعُد معدلات الحلولية والعلمنة داخل النسق الديني المسيحي لما بعد الإصلاح الديني . وتُعَدُّ العقيدة الاسترجاعية من أهم تجليات العقيدة الألفية .

ومما ينبغي ذكره أن العقائد الألفية بتأكيدها مركزية فكرة نهاية التاريخ قد تأخذ شكلاً فاشياً متطرفاً ، يطالب بتطهير النسق تماماً من العناصر الغريبة ، فترى اليهود باعتبارهم شعباً عضوياً منبوذاً وحسب ولا داعي لتوظيفه ويمكن الاكتفاء بالتخلص منه .

وتظهر الكراهية العميقة لليهود عند أتباع حركة تُسمَّى «الهوية

المسيحية» وهي جماعة ألفية تنادي بنبذ (بل إبادة) كل العناصر البشرية المختلفة الأخرى (أي غير البيضاء غير البروتستانتية) داخل المجتمع الأمريكي: السود والكاثوليك واليهود. ويرى أتباع هذه الحركة الألفية أنهم هم إسرائيل الحقيقية وأن شعوب شمال أوربا هم قبائل يسرائيل العشرة المفقودة. ويُلاحَظ أن النزعة الوثنية المادية الكامنة في العقيدة الألفية الاسترجاعية تظهر بشكل واضح في أدبيات هذه الحركة. فهم يرفضون المسيحيين السود وكل الكاثوليك في الوقت الذي يقبلون فيه أتباع العبادات الوثنية النوردية، كما يعادون إسرائيل ويسمون حكومة الولايات المتحدة «زوج ZOG» وهي اختصار لعبارة «زايونست أوكيوبيشن جوفرنمنت Zionist Occupation Government» أي "حكومة الاحتلال الصهيونية". ويُعدُّ أتباع هذه الحركة أنفسهم لمعركة هرمجدون فيتدربون على السلاح ويقومون بتخزينه. وعلى أية حال، فإن العداء الصريح الذي تبديه هذه الحركة لليهود هو العداء الذي تشعر به أيٌّ من الحركات القومية العضوية تجاه الآخر، فهي حركات تدور في إطار حلولية بدون إله أو في إطار وحدة الوجود حيث يحل الإله في الشعب ويصبح الشعب في قداسة الإله أو أكثر قداسة منه، فهو يحوي داخله ركيزته النهائية ومصدر قداسته، والآخر يقع خارج دائرة القداسة، ولذا فهو مباح.

وقد لاحظ المؤرخون أن الرايخ الثالث في الفكر الألماني (الذي سيستمر ألف عام) يقع داخل هذا النمط، فالدولة النازية تحوي داخلها ركيزتها النهائية، أي أن المطلق لا يتجاوزها وإنما هو كامن فيها ومتجسد من خلالها. وكان الغجر والسلاف وأعضاء الجماعات اليهودية يقعون خارج دائرة القداسة العضوية.

ومن المعروف أن الأساطير والعقائد الألفية والاسترجاعية غير معروفة لدى المسيحيين الشرقيين، كما أنها ليست موضع حوار أو مناظرة بينهم.

العقيدة الاسترجاعية

Restorationism

«العقيدة الاسترجاعية» هي الفكرة الدينية التي تذهب إلى أنه كيما يتحقق العصر الألفي، وكيما تبدأ الألف السعيدة التي يحكم فيها المسيح (الملك الألفي)، لابد أن يتم استرجاع اليهود إلى فلسطين تمهيداً لمجيء المسيح. ومن هنا، فإن العقيدة الاسترجاعية هي مركز وعصب العقيدة الألفية. ويرى الاسترجاعيون أن عودة اليهود إلى فلسطين هي بشرى الألف عام السعيدة، وأن الفردوس الأرضي الألفي لن يتحقق إلا بهذه العودة. كما يرون أن اليهود هم شعب الله المختار القديم أو الأول (باعتبار أن المسيحيين هم شعب الله المختار الجديد أو الثاني). ولذا، فإن أرض فلسطين هي أرضهم التي وعدهم الإله بها، ووعود الرب لا تسقط حتى وإن خرج الشعب القديم عن الطريق ورفض المسيح (وصلبه). ولذا، فإن كل من يقف في وجه هذه العودة يُعتبَر من أعداء الإله ويقف ضد الخلاص المسيحي، فأعداء اليهود هم أعداء الإله.

ويُلاحَظ هنا أن الفكر الحلولي اليهودي يجعل اختيار الإله لليهود ليس منوطاً بفعلهم الخير وتحاشيهم الشر، فهي مسألة عضوية حتمية تتجاوز الخير والشر. كما أن جَعْل الخلاص مسألة مرتبطة باليهود، ومَنْح اليهود مركزية في رؤيا الخلاص، هو جوهر القبَّالاه اللوريانية التي تجعل خلاص الإله من خلاص اليهود، إذ يستعيد ذاته المبعثرة من خلالهم.

ومن الواضح أن العقيدة الاسترجاعية، شأنها شأن العقيدة الألفية، تفترض استمراراً كاملاً ووحدة عضوية بين اليهود في الماضي والحاضر والمستقبل، ومن ثم فهي تنكر التاريخ تماماً. والاسترجاعيون عادةً حرفيون في تفسير العهد القديم، وهذا أمر أساسي لتأكيد الاستمرار، فهم لا يرون إلا دالاً واحداً ثابتاً مرتبطاً بمدلول واحد ثابت لا يتغيَّر.

ولكن هذا التقديس لليهود يُضمر كرهاً عميقاً لهم ورفضاً شاملاً لهم ولوجودهم، ذلك أن بنية العقيدة الاسترجاعية هي نفسها بنية فكرة الشعب العضوي المنبوذ، شعب مختار متماسك عضوي يرفض الاندماج في شعب عضوي آخر، ولذا لابد من نبذه! ويمكن أن نلخص هذا الكره وذلك الرفض في العناصر التالية:

١ ـ يذهب الاسترجاعيون إلى أن اليهود أنكروا المسيح وصلبوه، وأن عملية استرجاعهم إن هي إلا جزء من عملية تصحيح لهذا الخلل التاريخي وجزء من عملية تطهيرهم من آثامهم. فاليهود ليسوا مركز الخلاص بل هم مركز الخلل وسببه. والواقع أنهم مركز الخلاص لأنهم بإنكارهم المسيح أصبحوا مركز الخلل وسببه الأساسي (وهذا هو المعادل الديني لفكرة الشعب العضوي المنبوذ). والخلاص لا يمكن أن يتم إلا بتطهير مركز الخطيئة. ولعل هذا التركيز على أن اليهود أصل الخطيئة يُفسِّر أن المسيح الدجال سيكون يهودياً (من سوريا)، وأنه هو الذي سيقود ملوك الأرض ضد المسيح في المعركة الأخيرة (هرمجدون).

٢ ـ تذهب العقائد الألفية والاسترجاعية إلى أن عملية الخلاص النهائي ستصاحبها معارك ومذابح تصل ذروتها في معركة واحدة أخيرة (هرمجدون)، وهي معارك سيروح ضحيتها ثلثا يهود العالم

وستخرب أورشليم (القدس) . بل إنه كلما ازداد العنف ازدادت لحظة النهاية اقتراباً ، فكأن التعجيل بالنهاية لا يتم هنا من خلال فعل أخلاقي يقوم به المسيحيون وإنما من خلال تقديم قربان مادي جسدي للإله (هولوكوست) يُشوَى بأكمله . بل إن أبعاد هذه المذبحة ستكون أوسع مدىً من المحرقة النازية ، فكأن العقيدة الاسترجاعية هي عكس العقيدة المسيحية . ففي العقيدة المسيحية ، يأتي المسيح ويُنزَف دمه ويُصلَب ويُهزَم ، فهو قربان يُقدِّمه الإله فداءً للبشر بأسرهم ، قربان لا حاجة بعده إلى قرابين . أما العقيدة الاسترجاعية فتذهب إلى أن المسيح قائد عسكري يدخل المعارك ويثخن في الأعداء ثم ينتصر . واليهود هم الذين سينزفون ، وهم قربان الرب الذي لا حاجة بعده إلى قرابين ، ولذلك فإن ذَبْحهم (أو صَلْبهم) يشير إلى النهاية الألفية السعيدة . كما أن اليهود ، حسب الرؤية المسيحية التقليدية ، كانوا دعاة القومية ، على حين أن المسيح هو داعية العالمية . أما هنا ، فإن العكس هو الصحيح ، فاليهود هم مركز خلاص العالم والمسيح هو القائد القومي الذي سيؤسس مملكته في صهيون .

٣ ـ انتهت حياة المسيح الأولى بإنكار اليهود له وصلبه ، أما حياته الثانية فستنتهي بإعلان انتصاره وبالتدخل في آخر لحظة لإنقاذ البقية الباقية من اليهود (وإعادتهم إلى أرضهم) ، فيخر اليهود أمام المسيح ويعترفون بألوهيته ويقابلونه باعتباره الماشيَّح المنتظَر ويتحولون إلى دعاة تبشير بالمسيحية ينشرون الإنجيل في العالم ، أي أن المسيح سينجح في إقناع اليهود بما فشل في إقناعهم به أول مرة . وحينما يحدث ذلك ، تكون الدائرة الحلولية قد اكتملت وتمت هداية العالم بأسره .

٤ ـ العقيدة الاسترجاعية عقيدة تُحوسل اليهود تماماً ، أي تُحوِّلهم إلى وسيلة أو أداة نافعة وأساسية لخلاص المسيحيين ولكنها لا قيمة لها في حد ذاتها ، فهم يستمدون قيمتهم من مقدار أدائهم لوظيفتهم ومقدار تعجيلهم بعملية الخلاص المسيحية .

فبنية الصيغة الاسترجاعية (شعب عضوي منبوذ يمكن توظيفه) هي نفسها الصيغة الصهيونية الأساسية ، وعلى هذا فإن الفكر الصهيوني في شكله الديني والعلماني فكر استرجاعي .

هرمجدون

Armageddon

«هرمجدون» (أو : آرمجدون) كلمة مكونة من كلمتين : «هار» بمعنى «تل» و«مجدو» اسم مدينة في فلسطين («مجيدو») والتي تقع بالقرب منها عدة جبال ذات أهمية إستراتيجية ، وهو ما جعل المدينة حلبة لكثير من المعارك العسكرية في العالم القديم . وهرمجدون هي الموضع الذي ستجري فيه المعركة الفاصلة والنهائية بين ملوك الأرض تحت قيادة الشيطان (قوى الشر) ضد القوى التابعة للإله (قوى الخير) في نهاية التاريخ ، وسيشترك فيها المسيح الدجال حيث سيُكتَب النصر في النهاية لقوى الخير وستعود الكنيسة لتحكم وتسود مع المسيح على الأرض لمدة ألف سنة ، وبعدها ستأتي السماوات الجديدة والأرض الجديدة والخلود . وقد ورد ذكر هرمجدون مرة واحدة في العهد الجديد (رؤيا يوحنا اللاهوتي ١٦/٦ "فجَمَعهم إلى الموضع الذي يُدعَى بالعبرانية هرمجدون") . ويرتبط كل هذا بعودة اليهود إلى أرض الميعاد مرة أخرى ، فهذا شرط الخلاص (وإن كان يرتبط أيضاً بهلاك أعداد كبيرة منهم تبلغ ثلثي يهود العالم) . وهرمجدون هي الصورة المجازية الأساسية في العقائد الألفية الاسترجاعية البروتستانتية . وهي تتواتر في الخطاب الغربي السياسي الديني (خصوصاً في الأوساط البروتستانتية المتطرفة واليهودية الصهيونية) لوصف المعارك بين العرب والصهيونية ، أو لوصف أي صراع ينشب في الشرق الأوسط ، أو حتى في أية بقعة في العالم ، كما يتم إدراك الصرع العربي الإسرائيلي من خلال هذه الصورة المجازية (هرمجدون) . وكثيراً ما يشير بعض رؤساء الجمهورية في الولايات المتحدة إلى هذه الصورة المجازية في تصريحاتهم الرسمية . ولا يمكن الحديث هنا عن أي تأثير يهودي أو نفوذ للوبي الصهيوني ، فمثل هذه المصطلحات المشيحانية متأصلة في الخطاب الديني البروتستانتي منذ عصر النهضة الغربية ، وذلك نظراً لتصاعد معدلات العلمنة والحلولية والحرفية التي تصر على أن ترى كل التعبيرات والأحداث المجازية في العهدين القديم والجديد كنبوءات تاريخية لابد أن تتحقق بحذافيرها .

المسيح الدجال

Anti-Christ

«المسيح الدجال» هي الترجمة العربية للكلمة الإنجليزية «أنتي كرايست» والتي تعني حرفياً «ضد المسيح» . وعقيد المسيح الدجال عقيدة مسيحية أخروية ظهرت مع بدايات المسيحية ، وزادت أهميتها مع الإصلاح الديني ، وهي عقيدة صهيونية بصورة ملموسة إذ أنها تضع اليهود في مركز الدراما الكونية الخاصة بخلاص العالم ، وهي أيضا عقيدة معادية لليهود إذ أن مركزيتهم نابعة من كونهم تجسيد للشر في التاريخ ، ومن ثم فإن تنصُّرهم (ونهاية التاريخ) شرط أساسي للخلاص .

وتذهب هذه العقيدة إلى أن المسيح الدجال شخصية كافرة قاسية طاغية ، وهو ابن الشيطان (بل لعله هو نفسه الشيطان المتجسد) . ومن علاماته أنه توجد في أقدامه مخالب بدلاً من الأصابع . أما أبوه ، فيُصوَّر على هيئة طائر له أربعة أقدام ورأس ثور بقرون مدببة وشعر أسود كثيف .

والمسيح الدجال ابن امرأة يهودية ، وسيأتي من قبيلة دان (فاستناداً إلى نبوءة يعقوب ، فإن دان سيكون ثعباناً في الطريق ، واستناداً إلى كلمات إرميا فإن جيوش دان ستلتهم الأرض . كما أن الإصحاح السابع في رؤيا يوحنا لم يذكر قبيلة دان عندما ذكر القبائل العبرانية) . ويتواتر الآن في الأوساط المسيحية الحرفية أن المسيح الدجال سيكون يهودياً من سوريا . ويُقال إن المسيح الدجال سيظهر في الشرق الأوسط في نهاية الأيام وهو العدو اللدود للمسيح وسيسبق ظهوره عدد من الدجالين ، وأنه سيدَّعي أنه المسيح ويصدقه الكثيرون ، وخصوصاً أنه قادر على الإتيان ببعض المعجزات (ولذا ، فهو يسمَّى «قرد الإله» أي الذي سيقلد الإله كما تقلد القردة البشر) وسيطيعه الرعد وتحرس الشياطين له بعض كنوز الأرض (التي سيستخدمها في غواية البشر) .

وسيقوم الدجال ببناء الهيكل وسيهدم روما (مقر البابا) وسيُحيي الموتى وسيحكم الأرض مع الشيطان لمدة يُقال إنها ستصل إلى خمسين عاماً ، وإن كان الرأي الأغلب أن فترة حكمه لا تتجاوز ثلاثة أعوام ونصفاً وسيساعده اليهود في كل أفعاله . وعندما يصل البؤس إلى منتهاه ، سيتدخل الإله فتنفخ الملائكة في البوق معلنة حلول يوم القيامة وسينزل المسيح (عودة المسيح الثانية) لينقذ البقية الباقية الصالحة . وستدور معركة كونية هي معركة هرمجدون ويَلْقَى ثُلثا اليهود حتفهم أثناءها . وسيعود إلياهو وإنوخ وسيأمر الدجال بقتلهم ، ولكنهم قبل أن يلاقوا حتفهم سينصرون اليهود الذين سيقبلون المسيح باعتبارهم أفراداً (لا شعباً) . وسيخرج من فم المسيح سيفٌ ذو حدين سيصرع به المسيح الدجال ويحكم العالم بالعدل لمدة ألف عام (أو إلى ما لا نهاية) حيث ينتشر السلام والإنجيل في العالم .

وكثيراً ما كان الدجال يُقرَن بالماشيَّح الذي ينتظره اليهود . ويذهب الحرفيون إلى أن إنشاء دولة إسرائيل علامة على أن موعد عودة المسيح قد دنت ومن ثم لحظة هداية اليهود ، كما يَقرن الوجدان البروتستانتي الدجال ببابا روما وبأية شخصية تصبح تجسيداً للآخر (دعاة الاستنارة ـ قيصر ألمانيا ـ لينين ـ هتلر ـ جمال عبد الناصر) .

وعقيدة الدجال هي عقيدة حلولية تُلغي الزمان وتُلغي المسافة التي تفصل بين الخالق والمخلوق ، ثم تُلغي الآخر تماماً وتُخرجه من دائرة القداسة والتوبة والهداية . والآخر هنا هو اليهود ، والدجال هو رمزهم .

والعقيدة هي بلورة لكثير من جوانب الموقف الغربي من اليهود فالحضارة الغربية تضع اليهود (الشعب العضوي المقدَّس المنبوذ) في مركز الكون حيث يتم القضاء عليهم بطريقتين : إما عن طريق الإبادة (الهولوكوست) في معركة هرمجدون (أو في معسكرات الغاز والإبادة) ، أو عن طريق التنصير (أو عمليات الاندماج المكثفة في الولايات المتحدة وغيرها : الهولوكوست الصامت) .

فرسان الهيكل

Knight Templars

جمعية استيطانية صهيونية ذات ديباجة مسيحية . واشتقت الجمعية اسمها من جماعة فرسان الهيكل الأولى ، وهم جماعة من الفرسان الرهبان ظهروا في فلسطين عام ١١١٨ بعد وصول حملات الفرنجة لأرض الشام بما لا يزيد على عشرين عاماً ، وكوَّنوا جماعة وظيفية قتالية استيطانية في العالم الإسلامي ، وجماعة وظيفية مالية وسيطة في العالم الغربي . وقد كانت العلاقة بين العالم المسيحي في العصور الوسطى وجماعة فرسان الهيكل علاقة نفعية . وقد دخل الفرسان صراعاً مع كل من الكنيسة والسلطة الزمنية ، لكن كلاً منهما تَحمَّل استقلالية الفرسان على مضض طالما كانت ثمة وظيفة لهم . وبانتفاء الغرض الذي قامت من أجله جماعة فرسان الهيكل ، ومع فقدانها وظيفتها بعد سقوط عكا في يد المسلمين عام ١٢٩٢ ، لم يَعُد هناك مجال للاستمرار في العلاقة فهجمت السلطة الزمنية (بتشجيع من الكنيسة) على الفرسان واتهمتهم بالهرطقة وقامت بتعذيبهم ومصادرة أموالهم وتشريدهم وقُتل رئيسهم جاك دي مولاي عام ١٣١٢ بأمر من فيليب الجميل ملك فرنسا وبمباركة من البابا كلمنت الخامس ، واستولى فيليب الجميل على ثروة فرسان الهيكل وتمكَّن من إضعاف سلطة النبلاء وتقوية الدولة .

وتعود جمعية فرسان الهيكل الحديثة إلى حركة الأتقياء التي ظهرت في ألمانيا في القرن السابع عشر كحركة إصلاحية في الكنيسة الإنجيلية أكدت دراسة الكتاب المقدَّس وأكدت الإلهام الديني المباشر والذاتي . وقد استمرت هذه الحركة حتى القرن ١٩ وتركزت حول تيوزوفن بنجل الذي بشَّر بقيام مملكة الرب وعودة المسيح إلى الأرض في أعقاب كوارث مريعة سببها الابتعاد عن الروح المسيحية . وتَوقَّع بنجل عودة المسيح عام ١٨٣٦ بعد ظهور المسيح الدجال متمثلاً في

شخص نابليون بونابرت . وعندما حلت مجاعة بمملكة فورتمبرج عام ١٨١٧ ، دعا بنجل أتباعه إلى الهجرة إلى الشرق ، فهاجر آلاف الفلاحين من هذه المملكة إلى جنوب روسيا حيث رحب بهم قيصر روسيا ألكسندر الأول .

وقد رأت مملكة فورتمبرج في هجرة مواطنيها خطراً يتهددها ، ولذا لجأت إلى إنشاء جمعيات خاصة للمستدينين ذات استقلال ذاتي . وكانت أولى تلك الجمعيات تحت رئاسة جوتليب هوفمان والد كريستوف هوفمان مؤسس جمعية الهيكل الألمانية ، الذي وجد أن ازدياد نفوذ الاتجاهات الليبرالية والثورية في البرلمان القائم في فرانكفورت دليل قاطع على سيطرة الاتجاهات الشيطانية بسبب فشل الكنيسة الإنجيلية في رسالتها . ولذا ، دعا هوفمان إلى إقامة كنيسة جديدة مستقلة ، وساعده في هذا صديقاه جورج ديفيد هارديج وعمانويل باولوس .

ومع اندلاع حرب القرم عام ١٨٥٣ ، اعتقد هوفمان أن الوقت قد حان لإقامة مملكة الرب وسَلْخ أرض الميعاد في فلسطين عن الإمبراطورية العثمانية المتداعية وجَعْلها موطناً لشعب الله المختار تنفيذاً للوعود التوراتية . وقد فسَّر هوفمان هذه الوعود بأنها ليست لليهود ولكن للشعب المسيحي الإنجيلي .

ومن ثم ، شكَّل هوفمان جمعية تحت اسم «أصدقاء القدس» عام ١٨٥٤ دعت إلى اتخاذ الوسائل والتدابير لوضع مشروعه موضع التنفيذ . وطرح هارديج فكرة السعي لدى البرلمان الألماني في فرانكفورت من أجل التأثير على السلطان العثماني للسماح للألمان باستيطان فلسطين واستعمارها من أجل إيجاد عمل للمتعطلين من الألمان ، وكان شعاره هو "ينبغي إيجاد عمل للشعب الألماني" (أي أنه اكتشف الحل الاستعماري لمشاكل أوربا ، وهو تصديرها للشرق) . وقد تبنت الجمعية اقتراح هارديج بالإجماع .

وبناءً على ذلك ، كتب هوفمان مشروع دستور للجمعية الجديدة أسماه «مشروع دستور شعب الله» وسُمِّيت الجمعية «جمعية تجميع شعب الإله في القدس» . ثم قام هوفمان وهارديج برحلات عديدة في أوربا للدعوة لهذه الجمعية حيث لاقت دعوتهم بعض القبول وتبرعت بعض الأسر الثرية بالأموال لشراء الأراضي لتكون مواضع لتجميع شعب الإله قبل الانطلاق لاستعمار فلسطين . وقد أدَّت المجاعة التي أصابت فورتمبرج إلى انضمام العديد من الأنصار إلى الجمعية .

ومع انتهاء حرب القرم عام ١٨٥٦ وعدم انهيار الإمبراطورية العثمانية كما تَوقَّع هوفمان ، شنت الكنيسة الإنجيلية حملة شديدة على الجمعية ، الأمر الذي أدَّى إلى تَقلُّص عدد أعضائها تدريجياً .

وقد دخل هوفمان وأنصاره ، نتيجة هذا الهجوم الشرس ، معركة كبرى مع الكنيسة الإنجيلية ، وهو ما أدَّى إلى طردهم منها عام ١٨٥٩ . ولهذا ، فقد أنشأوا طائفة دينية خاصة بهم دعاها هوفمان «الهيكل الروحي» . وقد أدَّى انشقاق الجماعة إلى اشتداد الحملة الكنسية عليها الأمر الذي أدَّى إلى انفضاض الأتباع عنها . لكنها استطاعت أن تستمر وتحافظ على كينونتها ، بفضل وجود أتباع كثيرين لها بين المهاجرين الألمان في أمريكا الشمالية وجنوب روسيا .

وقد أُعيد تنظيم الجماعة عام ١٨٦١ تحت اسم «جماعة الهيكل الألمانية» وكان شعارها "من أجل تجديد الحياة الدينية والاجتماعية لشعب الإله" . وكان من الطبيعي أن تتم عملية التجديد هذه من خلال صيغة صهيونية واضحة : خروج الشعب المختار ، أو البقية الصالحة ، من أرض السبي والمنفى (أوربا التي تسودها الآثام الأخلاقية والبطالة) ـ دخول أرض الميعاد أو صهيون (استعمار فلسطين) ـ قيام مجتمع مثالي (صهيوني) يتسم بصفتين : أن يكون طابعه ألمانياً فاقعاً وسُمِّيت إحدى المستعمرات «فالهالا» ، أي قاعة الآلهة التيوتون التي يقيمون فيها الولائم بعد أن يقضوا يومهم في الحرب والقتال ، كما سُمِّيت مستوطنة أخرى «فيلهلما» ، أي «الولهامية» (نسبة إلى فلهلم أو وليام قيصر ألمانيا) ، وأن يتسم المجتمع المثالي الجديد أيضاً بأنه مستقل عن المحيط العربي ، فيكون مجتمعاً صهيونياً استيطانياً وربما إحلالياً غير يهودي . وسيقوم المجتمع الجديد بتمثيل مصالح ألمانيا في الشرق ، وستقوم هي بحمايته ، أي أن المجتمع الجديد دولة وظيفية .

وقد أنشأت الجمعية علاقات وثيقة مع جمعيات صهيونية غير يهودية مماثلة في أوربا بغرض استعمار فلسطين ، من أهمها العلاقة بين هارديج وهنري دوتان السويسري مؤسس الصليب الأحمر والذي أسَّس جمعية تحت اسم "جمعية العمل الدولي من أجل تجديد فلسطين" وكانت تدعو إلى هيمنة المسيحيين (أي الاستعمار الغربي) على فلسطين عن طريق الاستيطان السلمي (أي التسلل) . ولهذا ، فقد سعى دوتان لدى السفير العثماني في باريس (جمال باشا) ولدى الوزير الفرنسي المفوض في إستنبول (المسيو بوريه) من أجل الضغط على الباب العالي للسماح للمستعمرين الألمان من جمعية فرسان الهيكل بشراء الأراضي في فلسطين والاستقرار بها . وقد أدَّت ضغوط دوتان إلى موافقة الباب العالي على هذا عام ١٨٦٨ ، وقام دوتان بإبلاغ هارديج بهذا الانتصار . ومن ثم ، سافر هوفمان

وهارديج مع أسرتيهما إلى فلسطين والتقيا في الطريق مع العديد من الدبلوماسيين الأوربيين الذين زودوهما بنصائح عن كيفية التعامل مع الباب العالي وبينوا لهما ضرورة عدم التجنس بالجنسية العثمانية حتى يتمتعوا بالحماية الأوربية (كما فعل المستوطنون الصهاينة اليهود بعدهم) . وكان أحد الأسباب التي شجعت هوفمان وهارديج على البدء بمشروعهما الاستيطاني هو القانون العثماني الذي صدر في ١٨٦٧ مبيحاً للأجانب حق تملك الأرض في المدن والريف في الولايات العثمانية كافة .

وعند وصولهما إلى حيفا عام ١٨٦٨ ، قام هوفمان وهارديج بالتحايل على رفض الباب العالي الموافقة لهما على شراء الأراضي في حيفا عن طريق وسيط عثماني ، وبدأ عام ١٨٦٩ في بناء أول مستعمرة ألمانية في فلسطين من البحر حتى سفح جبل الكرمل (افتُتحت رسمياً عام ١٨٧٠) .

وقد حرص هوفمان وأتباعه على بناء المستعمرة على النسق الأوربي مع المحافظة على علاقاتهم بالوطن الأم في ألمانيا . وقد نمت تلك المستعمرة حتى وصل عدد سكانها عام ١٩١٤ إلى ٧٥٠ نسمة .

وقد أنشأ فرسان الهيكل الألمان مستعمرات أخرى مثل : مستعمرة يافا (١٨٦٩) ومستعمرة سارونا على طريق تل أبيب ـ يافا (١٨٧١) ، ومستعمرة ريفايم (١٨٧٢) التي صارت مقر إدارة الجمعية (١٨٧٨) ، ومستعمرة فالهالا (١٨٩٢) ، ومستعمرة فيلهلما (١٩٠٢) .

وقد كان نشاط المستعمرات زراعياً بالدرجة الأولى في بداية الأمر ، ولكن المستوطنين اتجهوا بالتدريج نحو التجارة والصناعة وانصرفوا عن الزراعة ، فأنشأوا العديد من الورش والمعامل حتى أصبحوا محور الحياة الاقتصادية في حيفا وأدخلوا أنشطة ثقافية متعددة مثل الأمسيات الموسيقية والمسرح والنوادي الرياضية وأوجه الثقافة الأوربية كافة .

وكانت علاقة المستوطنات بالوطن الأم علاقة شد وجذب . وثمة عوامل كانت تضغط على ألمانيا باتجاه تقديم العون للمستعمرين الألمان في فلسطين : الرأي العام الألماني ، والبلاط القيصري ، ووزارة خارجية فورتمبرج ، والبحرية الألمانية . ولكن العوامل الأقوى هنا هي التي أدَّت إلى ابتعاد الوطن الأم عن المستوطنات . فمصالح الوطن الأم عادةً ما تكون ذات نطاق عالمي ، فمسرح نشاطها هو العالم بأسره أما المستوطنات فتدور في إطار مصالحها الضيقة المباشرة . فمع عام ١٨٧١ ، وبعد تحقُّق الوحدة الألمانية التي تلت انتصار ألمانيا على فرنسا ، تحولت ألمانيا إلى دولة عظمى في أوربا وبدأ الاهتمام بالحصول على مستعمرات أفريقية ، واتجهت السياسة الألمانية إلى التحالف مع العثمانيين في مواجهة الإنجليز والروس ، ولذا لم تحاول ألمانيا دَعْم فرسان الهيكل كثيراً . ومن ثم ، أخذت الدعوة للهجرة من ألمانيا تتوقف ، وخصوصاً بعد تَحسُّن الأحوال الاقتصادية في ألمانيا نفسها ، وانتهت تماماً بحلول عام ١٨٧٥ . وقد أدرك المستوطنون هذا وتوقفوا عن السعي لتحقيق غايتهم المنشودة وهي تجميع شعب الإله في القدس وإقامة مملكة الرب، وتَركَّز اهتمامهم على تحسين أحوالهم المعيشية .

ودبت الخلافات بين المؤسسين حتى انفصل هارديج عام ١٨٧٤ وشكَّل رابطة الهيكل . وكانت العلاقة بين المستوطنين وبين السكان العرب متوترة (كما هو الحال دائماً بين أي مستوطنين غربيين وأصحاب الأرض الأصليين) . وقد حدثت مشادة بين عربي ومستوطن ألماني ، فقتل المُستوطنُ العربي ، وانتقم أهله له ، وهو ما دعا المستوطنين إلى طلب حماية ألمانيا التي سارعت بإرسال بارجة حربية لشواطئ فلسطين في سابقة لم تحدث من قبل . ولكن التوتر بين المستوطنين والسكان الأصليين أدَّى إلى مزيد من تقليص الدعم الألماني للمستوطنين ، وذلك نظراً لأن ألمانيا كانت تود تحسين علاقاتها مع الباب العالي . وقد صدرت تعليمات مشددة من الخارجية الألمانية باعتبار المستوطنين ليسوا ألماناً ، ما لم يرسلوا أبناءهم لأداء الخدمة العسكرية . وبعدئذ ، حاول المستوطنون الألمان، أكثر من مرة ، لفت نظر الحكومة الألمانية إلى أهمية فلسطين وإلى الضرر الذي قد يلحق بألمانيا إن وقعت فلسطين تحت السيطرة الفرنسية ، بيد أن موقف الحكومة الألمانية كان مخيباً لآمال المستوطنين . وقد اتخذت جماعة فرسان الهيكل موقفاً معادياً من المستوطنين اليهود لاعتبارات عدة دينية وسياسية واقتصادية . فمن الناحية الدينية ، رفض هوفمان اعتبار اليهود شعب الإله لأنهم غارقون في الدنس ، ومن الناحية الاقتصادية اعتبرهم فرسان الهيكل منافسين خطرين ، ومن الناحية السياسية خشي فرسان الهيكل من سيطرة اليهود على مقدرات الحياة في فلسطين لحُسْن تنظيمهم وقدراتهم المالية .

وفي المقابل ، استفاد الصهاينة من تجربة فرسان الهيكل في كيفية بناء المستوطنات والتنظيم على النسق الأوربي وطالبتهم الجرائد الصهيونية باتخاذ موقف متسامح ومتفهم للمصالح المشتركة بين اليهود والألمان . وقد ساعد على تحسُّن العلاقة ، ولو لفترة قصيرة جداً ، أن الحركة الصهيونية قبل وعد بلفور كانت تتطور في ألمانيا والتزم فرسان الهيكل بالسياسة الألمانية الرسمية في دَعْم الصهاينة في

محاولة منهم للتقرب من الحكومة الألمانية . ولكن الحرب العالمية الأولى جاءت واتجه الصهاينة إلى الحلفاء ضد دول الوسط ، وبعدئذ سقطت فلسطين في أيدي الإنجليز لتُنهي كل علاقة طيبة بين فرسان الهيكل والصهاينة ، بل لتنهي المستعمرات الألمانية في فلسطين .

ومن الأمور التي قد تكون طريفة ودالة في آن واحد أن بقايا فرسان الهيكل قد أصبحوا نواة الحزب النازي في فلسطين في الثلاثينيات واختفوا تماماً مع سقوط النازية .

وأهمية جمعية فرسان الهيكل تكمُن في أنها تُبلوِر النموذج الصهيوني بشكل لم يتحقق من قبل ربما لن يتحقق من بعد (بسبب صغر حجم التجربة) .

١ ـ فكما بيَّنا ، يدور فرسان الهيكل داخل الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة : خروج من أوربا ـ دخول في فلسطين ـ توظيف المادة البشرية المنقولة ـ إنشاء الدولة الوظيفية ـ دولة راعية تقوم الدولة الوظيفية على خدمتها .

٢ ـ تتشابه الديباجات بين تجربة الصهاينة وتجربة فرسان الهيكل بشكل مدهش فهي ديباجات حلولية كمونية يتداخل فيها المقدَّس والنسبي والتوراتي والعسكري بشكل شبه كامل .

٣ ـ كلتا التجربتين الصهيونية اليهودية والصهيونية الألمانية ترى نفسها استمراراً لتجربة الفرنجة .

٤ ـ العنف العسكري هو آلية حتمية لكلتا التجربتين لأن السكان الأصليين رفضوا المستوطنين .

٥ ـ العلاقة بين المستوطنين (الهيكليين والصهاينة) والدولة الراعية هي علاقة نفعية هي علاقة المرتزق بولي نعمته .

٦ ـ التجربة الصهيونية الألمانية (غير اليهودية) تسبق التجربة الصهيونية اليهودية (وهي في هذا تعبير عن أسبقية الصهيونية ذات الديباجات المسيحية وصهيونية غير اليهود العلمانية على الصهيونية ذات الديباجة اليهودية) .

٧ ـ من الأمور التي تستحق التأمل التشابه الكامل بين الصهيونيتين رغم اختلاف الشخصيات التي قامت بتنفيذ كل منهما : ففرسان الهيكل "مسيحيون" والصهاينة "يهود" . ولعل هذا يعود إلى أن إشكالية الصهيونية هي إشكالية كامنة على المستوى الحضاري والمعرفي في الحضارة الغربية ، ولذا فهي نموذج نهائي قادر على التهام أشكال الخطاب الديني المختلفة (يهودياً كان أم مسيحياً) لتعيد إنتاجه على هيئة مشروع لا ديني يستخدم ديباجات دينية .

المـــــــــــورمـــــــــــون

Mormons (Latter-Day Saints)

«المورمون» حركة دينية شبه مسيحية ، مركزها الرئيسي مدينة سولت ليك في ولاية أوتاه ، واسمها الحقيقي هو «كنيسة المسيح عيسى ، قديس آخر الأيام» . وهي حركة ذات طابع حلولي كموني واضح . وتوجد مجموعات متفرقة منفصلة من المورمون في مدينة إندبندانس في ولاية ميسوري ومدينة بيرليختون في ولاية ويسكونسين .

والخلفية الاجتماعية والتاريخية لنشوء حركة المورمون مهمة لفهم عقائدهم ، فقد بدأت في عشرينيات القرن الماضي وهي فترة توسُّع اقتصادي ضخم في الولايات المتحدة الأمر الذي خلق ردة فعل لدى ضحايا التقدم وتزايدت الدعوات الإنجيلية .

وقد نشأ جوزيف سميث (١٨٠٥ ـ ١٨٤٤) مؤسس الحركة في أسرة تبحث عن الحراك الاجتماعي استقرت في نيويورك لهذا السبب . وفي هذا الجو الذي يتسم بالسيولة بدأ سميث بحثه عن الكنيسة الحقيقية أو الصحيحة . وفي ربيع ١٨٢٠ ، في سن الرابعة عشرة ، تَلقَّى وحياً من الرب من خلال ملاك يُدعَى موروني (ومن هنا التسمية التي اشتهروا بها) بألا ينضم لأيٍّ من الكنائس القائمة لأنها كلها "خاطئة" . ثم تَلقَّى وحياً آخر بأن الرب اختاره ليكون أداته لاستعادة الكنيسة الحقيقية أو الصحيحة بعد أن أفسدها أفراد لا عصمة لهم انحدروا إلى الشر والفساد . فقد هداه الملاك إلى أن يذهب إلى تل على مقربة من مزرعة أبويه حيث عثر على صحائف ذهبية فترجمها ونشرها عام ١٨٣٠ تحت عنوان **كتاب المورمون** وهو التاريخ المقدَّس لثلاث قبائل هاجرت إلى أمريكا الشمالية (٦٠٠ ق . م) أي قبل وصول كولومبوس ، وبعد حروب طويلة انقسمت القبائل إلى قسمين : النفايت (Nephite) واللامانايت (Lamanite) وهم أسلاف الهنود الحمر . وحسبما جاء في **كتاب المورمون** زار المسيح أمريكا بعد صلبه وعلمهم الإنجيل وأسَّس كنيسة لإقناع اليهود والأغيار أن عيسى هو المسيح ، الإله الخالد الذي يكشف عن نفسه لكل الأمم (وهكذا تصبح الولايات المتحدة موضع الحلول والكمون) .

وقد أعلن سميث أن **كتاب المورمون** هو كتاب مُكمِّل للإنجيل وليس بديلاً له . ومع هذا فإن المورمون ينظرون إليه باعتباره كتاباً مقدَّساً .

وقد كان سميث يرى أن الكتب المقدَّسة ليست كافية في حد ذاتها لاستعادة الحقيقة المطلقة فالجنس البشري يحتاج إلى سلطة إلهية

(شرعية إلهية) وقد اختفت مثل هذه السلطة بعد الأيام الأولى للمسيحية . ولكنها ظهرت مرة أخرى عام ١٨٢٩ في شخص سميث ومساعده أوليفر كودري . وهكذا عادت الكنيسة الحقيقية الصحيحة التي يقودها مجموعة من الكهنة ذوي الصلاحية الإلهية الذين يتمتعون بقدر عال من العصمة . وفي عام ١٨٣٣ طوَّر سميث العقيدة المورمونية بعد نشر **كتاب الوصايا والعقائد والمواثيق** وقد طلب من القديسين (أعضاء الكنيسة) أن يتجمعوا في جماعات ويبنوا هيكلاً هو المركز الحرفي والمجازي المقدَّس للجماعة . وحسب ادعاءات الجماعة ظهر عيسى وموسى وإلياس وإلياهو لسميث وكوردي في المعبد عام ١٨٣٦ وبدأ تأسيس مملكة الرب التي لا تُفرِّق بين المقدَّس والنسبي ويحكمها الكهنة (تماماً كما هو الحال في مملكة يسرائيل القديمة) وقد حقق سميث نجاحات كثيرة في حركته التبشيرية وفكَّر في ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية .

وبدأت تتبلور بعض العقائد التي تبتعد في جوهرها عن المسيحية ومن هذه العقائد إيمان المورمون بأن الإله ليس ثالوثاً مقدَّساً (كما يؤمن المسيحيون) وإنما ثلاثة آلهة ، وأن الإله الأب كان في يوم من الأيام إنساناً وصل إلى الألوهية . وكما يقول لورنزو سنو (أحد "أنبياء المورمون" عام ١٩٠١) و"كما هو الإنسان الآن ، كان الإله يوماً ، وكما هو الإله الآن سيصبح الإنسان" ، وهي عبارة لا تختلف كثيراً عن عبارة فتشينو الهرمسي إن الإله قد أصبح إنساناً كي يصبح الإنسان إلهاً (ولذا فكل من يتزوج زواجاً توافق عليه الكنيسة ، سيصبح إلهاً في العالم الآخر) وكل من يتبع المورمونية في نهاية الأمر سيصبح هو الآخر إلهاً . ومن الواضح أن المنظومة المورمونية منظومة حلولية كمونية متطرفة لا تفرق بين الخالق والمخلوق . وهنا نجد ما سماه أحد الدارسين «ميتافيزيقا المادية» ، أي عدم الاعتراف بالخلق من العدم ، أي أن الإله خَلَق العالم من مادة قديمة (على عكس الديانات التوحيدية التي تصر دائماً على الإيمان بالخلق من العدم) وهم يؤمنون بنوع من الوجود الروحي قبل الميلاد (وليس بتناسخ الأرواح) إذ يوجد ما يُسمَّى الإنسان الأزلي أو الأول ، وهو إنسان وُجد قبل الخلق كجزء من الخالق ، بل إنه هو نفسه الخالق (تماماً كما هو الحال في النظم الغنوصية) . وينقسم العالم الآخر إلى ثلاثة أقسام (كما هو الحال في الكاثوليكية) قسم أعلى يحتله المؤمنون والثاني لغير المؤمنين والثالث للشيطان وأتباعه . وأعضاء المورمون ممن يودون أن يدخل أسلافهم الجنة يمكنهم تعميدهم بأثر رجعي ، ولذا يهتم المورمون بالسلالات وشجرة العائلة .

ويُلاحَظ أن النزعة المشيحانية تحوي داخلها تيارين متناقضين : نزعة عميقة وواحدية معادية للحداثة ونزعة لا تقل عمقاً أو واحدية مؤيدة لها ، وهو تناقض يوجد داخل المشيحانية المورمونية . ولكن هذا الصراع حُسم عام ١٨٩٠ لصالح التحديث إذ أصدر الرئيس الثالث للجماعة (ويلفورد وودروف) مانفستو يمنع تعدُّد الزوجات إذ كان هذا يعني التخلي عن فكرة الكنيسة الصحيحة ودخول التيار الأمريكي الذي يقبل التعددية النسبية . وبدأ المورمون تأكيد عناصر أخرى هي مصدر للتماسك مثل عدم شرب الكحول والشاي والقهوة وارتداء أزياء معينة والابتعاد عن الممارسات الجنسية الإباحية ، كما أكدوا الإيمان بالتقدم اللانهائي للإنسان (ونهاية التقدم أن يصبح الإنسان إلهاً) . وهذه القيم هي عبارة عن بعث الأخلاقيات والقيم البروتستانتية التي هي عبارة عن زهد داخل الدنيا يساعد على الانضباط وتوحيد حياة الإنسان وتكثيف طاقتها وتوجيهها بشكل رشيد حتى يمكن غزو العالم ، كل هذا يعني في واقع الأمر التكيف مع مرحلة الرأسمالية التنافسية في الولايات المتحدة .

ورغم أن سميث كان يرى أن الولايات المتحدة موضع الكمون والحلول إلا أنه لم يكن يحصره فيها ، فقد كان يرى أن فلسطين هي الأخرى موضع حلول وكمون ولذا كان يرى أن ثمة ضرورة لتجميع اليهود في فلسطين باعتبارها أرض إسرائيل ، وذلك من أجل تحقيق الوعد للمؤمنين الجدد الذين يجب عليهم التجمُّع في أرض الميعاد الجديدة ، مورمون في أمريكا ويهود في فلسطين . وقد كان اهتمام سميث بفكرة عودة اليهود كبيراً لدرجة أنه أنشأ مع أتباعه ، عام ١٨٣٦ ، مدرسة لتعليم اللغة العبرية بدون معلم لدراسة التوراة بلغتها الأصلية وأيضاً للتبشير بين اليهود بلغتهم الأصلية من أجل إرسالهم لفلسطين . وقد أرسل سميث أحد أنصاره (أرسون هايد) في رحلة تبشيرية دينية لأوربا وفلسطين لنشر دعوة المورمون في الأوساط اليهودية الأوربية عام ١٨٤١ . وقد قوبلت دعوة هايد بالرفض من قبَل حاخام هولندا . وأرسل هايد لسميث رسالة يخبره فيها بضرورة استخدام القوة السياسية والضغوط الحكومية لإعادة الشعب اليهودي إلى أرضه ، وأن إنجلترا مُقدَّر لها أن تلعب هذا الدور لتحقيق هذا المشروع العظيم . وأعرب هايد عن تفاؤله لأن هذه الأرض المباركة ستصير خصبة وعامرة عندما يمتلكها أصحابها الحقيقيون .

وبعد مقتل سميث عام ١٨٤٤ (على يد بعض أتباعه ممن رفضوا آراءه المتطرفة) ، تصاعدت النزعة الصهيونية بين المورمون كما هو الحال مع الصهاينة وغيرهم من ذوي الديباجة المسيحية فبعد أن قضت

الدول الغربية على تجربة محمد علي في التجديد الحضاري عام ١٨٤٠ ، ساد الإحساس بأن سقوط الدولة العثمانية يبدو وشيكاً وأن اليهود أصبح مقدراً لهم أن يلعبوا دوراً في الشرق العربي الإسلامي . وقد أصدر خليفة سميث بريجهام يونج ومجلس الحكماء الإثنى عشر بياناً لكل ملوك العالم ورئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكل حكام الأرض وشعوبها ، يدعون فيه إلى إصدار أمر باسم المسيح لليهود المشتتين بين كل شعوب الأرض بإعداد أنفسهم للعودة إلى القدس (فلسطين) وبإعادة بناء هذه المدينة والهيكل المكرس للإله ، وكذلك تنظيم وإقامة دولتهم الخاصة وحكومتهم وذلك تحت إدارة قضاتهم وحكامهم ومشرعيهم في هذا البلد : "وليكن معلوماً لليهود أننا نحمل مفاتيح القداسة والمملكة التي سيعودون قريباً إليها ، ولذا فإن عليهم أيضاً أن يندموا ويتوبوا ويُعِدّوا أنفسهم لإطاعة أحكام الرب" .

وقد لعب المورمون في الولايات المتحدة دوراً مهماً في التبشير بالعقائد الصهيونية وبأفكار عودة اليهود وتجميعهم في فلسطين . وعبَّر ويلفورد وودروف عن إيمانه باقتراب الزمان الذي يقوم فيه أثرياء اليهود باستخدام ثرواتهم لتجميع الشعب المشتت وشراء أراضي أجدادهم في القدس وإعادة بناء المدينة المقدَّسة والهيكل . وفي عام ١٨٩٩ ، وبعد المؤتمرين الصهيونيين الأول والثاني (١٨٩٧ ، ١٨٩٨) ، نشر د . تانر عميد كلية الزراعة بجامعة ولاية يوتاه مقالة افتتاحية طويلة في جريدة **المورمون** يحث فيها أغنياء اليهود على رعاية الحركة الناشئة لأن المشكلة الاقتصادية ستطل برأسها لا محالة والاعتبارات العملية ينبغي عدم إغفالها . ويؤكد تانر أن العديد من اليهود لن ينتظروا قرار السلطان التركي .

ومع صدور وعد بلفور ، أعرب المورمون عن فرحهم الشديد لتحقيق الوعد وجَمْع شمل اليهود في فلسطين وذلك لتحقيق ملكوت السموات . وقد سافر اثنان من قادة المورمون إلى فلسطين بمناسبة الذكرى الرابعة لصدور وعد بلفور ، وعبَّرا عن دهشتهما مما شاهداه من مظاهر الرفض المسيحي والإسلامي لحركة الاستيطان اليهودي ، كما أعلنا أن الأمريكيين يحبذون عودة اليهود لفلسطين لأنهم مسيحيون مخلصون !

وثمة تَشابُه بنيوي ملحوظ بين حركة المورمون والحركة الصهيونية ، فكلتا الحركتين تقومان على فكرة حلول الإله في شعب أو جماعة ، سواء كانت هذه الجماعة هي اليهود في حالة الصهيونية أو الأوربيين البيض الشقر في حالة المورمون . وكلتا الجماعتين تؤمن بفكرة العودة المقدَّسة أو بأن ثمة شعباً تائهاً مشتتاً يبحث عن أرض الميعاد . وفي حالة المورمون ، كانت هذه الأرض هي ولاية يوتاه حيث تنص تعاليم سميث ، نبي الحركة ، على أن أمريكا هي صهيون الحقيقية كما رأينا . ومن ثم ، فإن رؤية المورمون تفترض غياب السكان الأصليين . ومعنى ذلك أنها رؤية إبادية تُغيِّب الآخر ، تماماً مثل الرؤية الصهيونية للفلسطينيين . وقد أفلت الفلسطينيون من الإبادة لأسباب كثيرة من بينها أنهم ينتمون لتشكيل حضاري مُركَّب ويتمتعون بمستوى تعليمي عال وكثافة سكانية . ولهذا ، فإن الصهاينة لم يستطيعوا سوى طردهم من فلسطين ، أما قبائل الساليش التي كانت تقطن يوتاه فلم تفلت من هذا المصير إذ أبيد معظمهم . ويتبدَّى التشابه البنيوي بين المورمون والصهاينة في أجلى صوره في عملية اختيار المورمون ليوتاه والبحيرة المالحة لبناء مدينتهم ومستوطَنهم ، فلقد وجدوا في هذه البقعة بحيرة مالحة يغذيها نهر حلو وينبع النهر من بحيرة أخرى . وعلى الفور ، رأوا التشابه الشكلي مع الأردن والبحر الميت وبحيرة طبرية ، حتى أنهم سموا النهر باسم الأردن .

ويمكن القول بأن الأفكار المشيحانية التي تُوجِّه حركة المورمون تقود لا محالة إلى تأييد الفكر الصهيوني من منطلق احتقار اليهود ، وحوسلتهم باعتبارهم جزءاً من متتالية الخلاص المسيحية ، ومن هنا الرغبة في تنصيرهم وإبادة جرثومة الشر الموجودة في العالم إيذاناً بحلول السلام ونهاية التاريخ .

وفي إحدى أدبيات المورمون نقرأ أن "ثمة غريزة موروثة تقود اليهود نحو هذا الهدف [أي الذهاب إلى فلسطين] بيد أنهم لا يعرفون سبب هذا فهم وسيلة وليسوا غاية" . ولكن السبب واضح لنا ، فهم سيذهبون "للإعداد وللترحيب بعودة ابن الرب وملك الملوك وسيد الأسياد وأمير السلام الذي سيضع قدمه على الجبل فيقسمه شطرين" . وعلاقة المورمون بالحركة الصهيونية تُذكِّرنا بأولئك الصهاينة غير اليهود الذين يودون جمع اليهود في مكان واحد ليَسهُل إفناؤهم أو تنصيرهم . فموقف المورمون المتعاطف مع الصهاينة يعبِّر عن رغبة عميقة في التخلص من اليهود .

وإذا كان صهاينة أوربا من غير اليهود يفكرون في التخلص من اليهود باعتبارهم عنصراً بشرياً فائضاً يهدد الأمن الاجتماعي ويمكن نَقْله خارج أوربا وتوظيفه لصالحها ، فإن موقف المورمون من اليهود كان أكثر جذرية . فالمورمون أصحاب رؤية حلولية كمونية يدورون في إطار ثالوث مقدَّس : إله يحل في المورمون (ومن ثم فهُم شعب مختار) وفي أرضهم (أمريكا ، أرض الميعاد) .

وجماعة المورمون لها حركة تبشيرية قوية إذ أن أعضاء الكنيسة من الذكور لابد أن يقوموا بخدمة تبشيرية تصل أحياناً لمدة عام (ويبلغ عدد المبشِّرين المورمون ٤٨ ألفاً) ولذا ارتفعت عضوية الكنيسة من ٥,٦ مليون عام ١٩٨٤ إلى ٩ مليون . ويعيش منهم ٤,٦ مليون في الولايات المتحدة وكندا . ولكن قصة نجاح المورمون الحقيقية في أمريكا اللاتينية (٢,٧ مليون) . وتبلغ ميزانية الكنيسة ٨ مليون دولار .

وقد حاول المورمون مؤخراً أن يؤسسوا جامعة في إسرائيل لتكون مركزاً للتبشير برسالة المورمون وعقيدتهم ، وقد اعترض على ذلك كثير من أعضاء المؤسسة الدينية اليهودية في إسرائيل ولكن المورمون نجحوا في نهاية الأمر ، من خلال ضغوط مارسوها على الكونجرس الأمريكي .

ويرى الناقد الأدبي الأمريكي اليهودي هارولد بلوم أن حركة المورمون حركة دينية غنوصية ، وأنها تعبِّر عن جميع العقائد الدينية السائدة في الولايات المتحدة ، أي أنها العقيدة الدينية النماذجية الأمريكية ، عقيدة الإنسان المتأله .

شهود يهوه

Jehovah's Witnesses

«شهود يهوه» جماعة دينية مسيحية بروتستانتية اسمها الأصلي هو Watchtower Bible and Tract Society يؤمن أتباعها بعدد من الأفكار المشيحانية الصهيونية . ويعود اسم الجماعة الشائع إلى إيمانها بأن اسم الإله الحقيقي هو «يهوه» وأن الاسم الحقيقي للمسيحيين هو «شهود» . نشأت الحركة في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٧٢ في مدينة بتسبرج بولاية فيلادلفيا على يد رجل أعمال شاب يدعى تشارلز راسل (١٨٥٢ ـ ١٩١٦) كان ينتمي لجماعة الأدفنتست ، وهي جماعة بروتستانتية تدور أفكارها حول أطروحة عودة المسيح (فهم الأدفنتست أو المؤمنون بالعودة) وتنصير اليهود باعتبارهم أس الشر وجرثومة الفساد التي نمت في العالم .

ولقد واكب ظهور حركة شهود يهوه نهاية الحرب الأهلية الأمريكية التي شهدت دمار الجنوب وإخضاعه لسيطرة الشمال . وبذا ، وُجدت تربة خصبة لنمو الأفكار المشيحانية عن الخلاص ونهاية العالم في جو الإحباط والدمار الذي تلا الحرب .

وقد أسس راسل جماعة لدراسة التوراة ونشر عام ١٨٧٤ على نفقته الخاصة كتيب **غرض عودة الرب وكيفيتها** الذي يزعم فيه كاتبه أنه كشف للعالم الخطة التي رسمها الرب للبشرية .

وفي عام ١٨٧٩ ، قامت الجماعة بتأسيس مجلة **برج صهيون وبشير مجيء المسيح** الشهرية التي ازداد توزيعها بمرور الوقت . وقد انخرط راسل في حسابات معقدة مستمدة من التوراة لمعرفة وقت عودة المخلِّص وبداية العهد الألفي وتخليص العالم من الشر ونهاية التاريخ وهي الأفكار التي تمثل حجر الزاوية في كل الأنساق الحلولية . وقد حدد راسل عام ١٩١٤ لعودة اليهود . وفيما بعد ، أعلن أتباعه أنه كان يقصد الإشارة لوعد بلفور الذي صدر عام ١٩١٧ .

وصاغ راسل نظرية دينية تقوم على منظومة تمرُّد الشيطان وخداعه لآدم وحواء ودفعهما للخطيئة ومحاربته للرب . وبعدئذ ، سيطر الشيطان أو قوة الشر على العالم فيما أسماه راسل «إمبراطورية الشر» (المصطلح الذي يتواتر في الخطاب السياسي الأمريكي) .

كل هذا يعني في واقع الأمر أن حُكم المسيح الألفي أصبح وشيكاً وأن معركة هرمجدون بين قوى الخير والشر وشيكة وسيُهزَم الشيطان ويُحطم الأشرار إلى الأبد . أما من يرضى عنهم يهوه فنصيبهم هو الخلود . هذا يعني أن هناك من الأحياء الآن الذين لن يموتوا قط وسيحيون هذه الحياة الخالدة في العصر الألفي . وكما قال أحد قادة شهود يهوه "يوجد ملايين من الأحياء الآن لن ينال منهم الموت" . وترى جماعة شهود يهوه أنه يوجد ١٤٤ ألف من المؤمنين عميقي الإيمان عبر التاريخ سيولدون كأبناء الإله الروحانيين وسيشاركون في حكم العالم مع المسيح . ومملكة المسيح ليست مفارقة للأرض فالمملكة الألفية ستؤسَّس هنا وهي مملكة كل ما فيها مثالي إذ ستمتلئ الدنيا عدلاً بعد أن امتلأت جوراً ، بل إن الطبيعة المادية ذاتها ستتغيَّر ، كما هو الحال في الرؤى المشيحانية .

وعلى عضو جماعة شهود يهوه أن يظل بمنأى عن الدنيا الفاسدة وألا يطيع تلك القوانين والممارسات العلمانية ، وأن يتبع تفسير الجماعة للإنجيل ، وبناءً عليه يجب عدم استخدام الصور في العبادة وعدم المشاركة في الحوار بين الأديان وألا يسمح عضو الجماعة بنَقْل دم له وألا يُحيِّي العلم القومي لأية دولة ولا يُقسم يمين الولاء لأية أمة من أمم الأرض (وقد أدَّى هذا إلى اضطهاد أعضاء الجماعة وإلى مقتل بعضهم) .

ويؤمن الشهود بالثالوث المسيحي ، ولكن الأب يهوه يشغل مكانة عالية تفوق مكانة الابن . ومع هذا يشغل الابن مكانة خاصة فهو أول مخلوقات الإله ، دفع حياته تكفيراً عن خطايا البشر وقد مات على الخازوق (لا الصليب) ورُفع كروح خالدة ، وهو موجود

في العالم على هيئة الروح . والابن هو المركز الذي يتجمَّع حول الشهود في صلاتهم ، فهم يصلون ليهوه من خلال المسيح .

ورغم أن الشهود يؤمنون بالميلاد بدون دنس إلا أنهم لا يحتفلون بعيد الكريسماس باعتبار أنه من أصول وثنية ولا يعترفون بالصوم الكبير ولا عيد الفصح ، والتعميد عن طريق شهود يهوه يتم من خلال إغراق الجسد كله في الماء . وهم لا يُصلّون يوم الأحد إذ يقولون إن إقامة شعائر السبت تنطبق على اليهود وحدهم وأنه تم نَسْخها من خلال المسيح . ومع هذا يقبل الشهود يوم الأحد كيوم راحة وتغيير (كمحاولة للتكيف مع المعايير الاجتماعية السائدة وليس على أساس عقائدي) . ولا توجد طبقة كهنوتية عند شهود يهوه ويجتمع أعضاء الجماعة فيما يُسمَّى «صالات المملكة» للدراسة والتعميد ، كما يجتمعون في منازل الأعضاء .

ويُلاحَظ أنه بعد موت راسل عام ١٩١٦ حدث تَحوُّل عميق في الحركة ظهرت آثاره عام ١٩٣١ . فقد تبنَّت الحركة في هذه المرحلة اسمها الجديد (شهود يهوه) وتسنَّم رئاستها محام بروتستانتي معمداني هو جوزيف رذرفورد تَبَنَّى آراءً أكثر تطرفاً من المجتمعات العلمانية . إذ أعلن نهاية زمن الأغيار وأن الشيطان قد أصبح الحاكم الحقيقي والفعلي لكل حكومات الأرض وأن عصبة الأمم أصبحت ألعوبة في يد الشيطان .

وينعكس هذا التطور على موقف الجماعة من اليهود ومن المُستوطَن الصهيوني . ففي المرحلة الأولى كان راسل يذهب ، وفقاً لحساباته ، إلى أن اليهود سيلعبون دوراً حاسماً في صراع الرب ضد الشيطان حيث اصطفى الرب إسرائيل أو اليهود وأعطاهم حكماً دينياً ليكونوا شعبه المختار . لكن اليهود عصوا الرب ، فعاقبهم بالنفي والشتات ، وسيستمر هذا النفي مدة من الزمان تساوي سبعة أمثال خطاياهم كما ورد في التوراة . وبعدئذ ، يعود اليهود إلى أرض إسرائيل ، وتعود صهيون لأهلها ، ويسامح الرب شعبه المختار . وقد دعا راسل اليهود إلى العودة لأرض إسرائيل كخطوة أولى نحو إقامة مملكة الرب على الأرض . وقد ازداد نمو حركة راسل بسرعة مع نهاية القرن واتصل بالقيادات الصهيونية وأبدى إعجابه الشديد بهرتزل وسماه «رجل الأقدار» . وقد زار راسل فلسطين عدة مرات وتقابل مع قادة الصهاينة الاستيطانيين هناك ، وزاد دعايته للهجرة اليهودية إلى فلسطين وأعرب عن اعتقاده أن فلسطين تستطيع أن تستوعب ضعف عدد اليهود في الأرض ، ولكنه أعرب في الوقت نفسه عن شكه في إمكانية هجرتهم جميعاً واقترح "هجرة الفقراء المخلصين باستخدام أموال الأغنياء" . ولا يخفي الفكر الاستيطاني التوطيني الذي يقدمه راسل ولا تَطابُقه مع الفكر الصهيوني ، وخصوصاً الفرع الأمريكي للمنظمة الصهيونية العالمية . وقد قابل جاكوب دي هاس محرر جريدة **الجويش أدفوكيت** في بوسطن راسل ، وأعرب عن إعجابه به وأشار إلى أن آراءه تشبه كثيراً آراء اليهودية الحسيدية ، بل سماه «أول محبي اليهود» .

هذا الموقف المتعاطف تراجع مع تسنُّم رذرفورد قيادة الحركة فقد أفزعه أن الصهاينة اتجهوا للتعاون مع المؤسسات العلمانية ، ولذا قام بتحذيرهم من خطر الابتعاد عن حظيرة الرب . وقد حدَّد رذرفورد عام ١٩٢٥ بوصفه عاماً حاسماً في بناء مملكة الرب . وعندما مرّ العام دون حدوث شيء يذكر ، تذرَّع الأتباع بواقعة إقامة الجامعة العبرية (فالنسق الحلولي الكموني لا يعدم العثور على الشواهد التي يتم تأويلها من خلال ليّ عنق الواقع حتى يتفق مع النموذج المطروح) .

وشهد عام ١٩٣١ تحولاً كاملاً في حركة شهود يهوه ، فقد أعلن رذرفورد أن اليهود باتجاههم المستمر نحو العلمنة وتخليهم عن الحكومة الدينية قد نقضوا ، وإلى الأبد ، عهدهم مع الرب ، وأصبح شهود يهوه هم الشعب المختار الروحي الوحيد . ودعا رذرفورد اليهود إلى نبذ المؤسسات الدولية والانضمام لحركة شهود يهوه . وبعدئذ انقلب من محب لليهود إلى معاد لهم . وعلى كلٍّ لا تقبل الأيديولوجيات التي تدور حول مركب الشعب المختار شعباً مختاراً آخر ، إذ لا يمكن أن يوجد أكثر من شعب مختار واحد ، ومن هنا جذور الصراع بين شهود يهوه والصهاينة ، وهو لا يختلف كثيراً عن معركتهم مع النازيين . وقد سُئل هتلر مرة عن سبب عدائه لليهود ، فكانت إجابته واضحة ومباشرة : " لا يمكن أن يكون هناك شعبان مختاران . ونحن وحدنا الشعب المختار ، فهل هذه إجابة شافية عن السؤال ؟ " . ولذا عادى النازيون كلاً من اليهود وشهود يهوه (باعتبارهم شعوباً مختارة) ، بل اتهم النازيون حركة شهود يهوه بأنها ألعوبة يهودية في إطار المؤامرة اليهودية المستمرة من أجل حكم العالم . وبعد إقامة دولة إسرائيل ، أصبحت دولة إسرائيل بالنسبة لأتباع شهود يهوه قلعة أخرى من قلاع الشيطان على الأرض .

وحركة شهود يهوه حركة تبشيرية قوية لها نشاط ملحوظ في إسرائيل وتحارب الحكومة الإسرائيلية ضدها . وقد وصل عدد أعضاء جماعة شهود يهوه في العالم إلى ما يزيد عن ٢ مليون فرد في حوالي مائتي بلد .

ومما يجدر ذكره أن الجماعة بدأت تُهدئ قليلاً نزعتها المشيحانية فأعلن قادتها أن كل النبوءات السابقة القائلة بأن هرمجدون والحقبة الألفية وشيكة كانت مجرد نبوءات وليست عقائد مستقرة .

٤
صهيونية غير اليهود العلمانية

صهيونية غير اليهود العلمانية ـ صندوق استكشاف فلسطين ـ فينش ـ دي لانجالري ـ سلفادور ـ جاولر ـ كريسون ـ مكيفنش ـ لاهاران ـ شافتسبري ـ فين ـ تشرشل ـ موسولينو ـ إليوت ـ سميث ـ كازالت ـ أوليفانت ـ موردوفتسيف ـ نفلينسكي ـ بلاكستون ـ هشلر ـ سكوت ـ كوندر ـ سموتس ـ ودجوود ـ سايدبوثام ـ نيبور ـ وينجيت

صهيونية غير اليهود العلمانية
Gentile Secular Zionism

«صهيونية غير اليهود» اصطلاح نستخدمه للإشارة لما يُسمَّى «صهيونية الأغيار» ونضيف أحياناً كلمة «علمانية» حتى نميِّزها عن صهيونية غير اليهود ذات الديباجة المسيحية ، وإن كنا عادةً لا نفعل ذلك ونكتفي بالحديث عن «صهيونية غير اليهود» من قبيل إطلاق العام والشائع على الخاص . وقد تدثرت الصيغة الصهيونية الأساسية بديباجات مسيحية عندما ظهرت في الغرب في القرن السابع عشر . ومع تزايد معدلات العلمنة ، ابتداءً من القرن الثامن عشر ، ومع انتشار الفلسفات النفعية والعقلانية ، بدأت الديباجة المسيحية في الضمور والتواري وتم تسويغ الصهيونية انطلاقاً من الرؤية المعرفية الإمبريالية وأطروحاتها المادية . ومع هذا ، فعادةً ما كانت الديباجات العلمانية والدينية تختلط ، ولذا كانت تطرح ضرورة توطين اليهود في فلسطين لتحقيق الخلاص ولحماية الطريق إلى الهند .

ويُلاحَظ أنه في الفترة الممتدة من القرن الثامن عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر ، بدأت صهينة الوجدان الغربي فبلور الفكر الألماني الرومانسي فكرة الشعب العضوي (الفولك) ، وأصبح هناك «شعب عضوي ألماني» و «شعب عضوي إنجليزي» و «شعب عضوي يهودي» . ويرد اليهود في كتابات هردر وكانط وفخته باعتبارهم شعباً عضوياً . كما تتواتر الفكرة نفسها في كتابات المؤلفين الرومانسيين الغربيين ، وخصوصاً في بريطانيا (مثل بايرون وولتر سكوت مثلاً) . ولكن الشعب العضوي اليهودي لا ينتمي إلى أوربا ولا للحضارة الغربية ، فهو شعب عضوي منبوذ لابد من نَقْله . وقد تبلورت في أوائل هذه المرحلة فكرة نَفْع اليهود وإمكانية إصلاحهم وتوظيفهم ، أي أن الصيغة الصهيونية الأساسية زادت تبلوراً ووضوحاً . وقد عبَّر فلاسفة حركة الاستنارة ، مثل جون لوك وإسحق نيوتن ، عن نزعة صهيونية أساسية في كتاباتهم .

وفي كتاب له صدر عام ١٧٤٩ صنَّف الفيلسوف ديفيد هارتلي اليهود ضمن الهيئات السياسية باعتبارهم "كياناً سياسياً موحداً ذا مصير قومي مشترك رغم تَشتُّتهم الحالي" . وقد تبنَّى الحجج الدينية النبوئية الشائعة وأضاف لها تفسيرات دنيوية . كما أن جوزيف بريستلي صوَّر فلسطين أرضاً "غير مأهولة بالسكان ، أهملها مغتصبوها الأتراك ولكنها مشتاقة ومستعدة لاستقبال اليهود العائدين" . ولم يكن الفكر الرومانسي أقل حماسة من الفكر الاستناري ، بل يمكن القول بأن الفكر الرومانسي أعطى دفعة جديدة للصهيونية فتزايد الحديث عن العبقرية اليهودية والعرْق اليهودي . وقد نادى روسو (الذي ينحدر من أسرة بروتستانتية) بإعادة اليهود لدولتهم الحرة . وكان الفكر الألماني الرومانسي ، الذي وُلدت في أحضانه فكرة الشعب العضوي ، يتسم بنزعة صهيونية (معادية لليهود) كما يتضح في كتابات هردر وكانط وفخته . كما توجد أصداء صهيونية في أشعار بايرون وروايات ولترسكوت .

ويُلاحَظ تزايد الاهتمام باللغة العبرية ، كما بدأ الفنانون الغربيون يتناولون الموضوعات اليهودية والعبرية بكثير من الألفة لم تكن معروفة من قبل . وقد نشر دزرائيلي روايتيه **ديفيد الراوي** (١٨٣٣) **وتانكرد** (١٨٤٧) ، وهما روايتان لهما نزعة صهيونية واضحة . وقد ظهرت رواية جورج إليوت **دانيل ديروندا** (١٨٧٦) أهم وثيقة أدبية صهيونية غير يهودية وهي التي تُعدُّ أهم وثيقة أدبية صهيونية غير يهودية والتي وُصفت بأنها مقدمة أدبية لوعد بلفور . ونُشر في الفترة بين ١٨٤٠ و١٨٨٠ ما يزيد على ١٦٠٠ كتاب من كُتب أصحاب الرحلات إلى فلسطين ، وقد ساهمت هذه الكتب في تدعيم صورة فلسطين كأرض مُهمَلة ، وصورت العرب (المسلمين أو البدو) كمسئولين عن هذا الخراب . وأُسِّس صندوق استكشاف فلسطين عام ١٨٦٥ وكان مركزاً لمؤيدي الاستيطان الصهيوني . ومن أهم العلماء الأثريين فيه سير تشارلز وارن الذي قام بالعديد من

الاكتشافات الأثرية وتنبأ بقيام حكم اليهود في فلسطين . كما قام كلود كوندر (١٨٤٨ ـ ١٩١٠) بكتابة دراساته الجغرافية التي كانت تنشرها الصحافة الصادرة بالعبرية .

وقد ظلت النزعة الصهيونية في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تأخذ طابعاً فكرياً تأملياً أو عاطفياً لأن أوربا كانت في حالة انتقال . كما أن المشاريع الاستعمارية المختلفة كانت متوقفة أو لا تزال في حالة التفاف حول الدولة العثمانية التي كانت قد بدأت في التآكل من الداخل ، وإن كانت لا تزال قوية قادرة على حماية رعاياها .

ويمكن القول بأن ظهور محمد علي وقَلْبه موازين القوى وتهديده للمشروع الاستعماري الغربي ووضعه حداً لآمال الدول الغربية التي كانت تترقب اللحظة المؤاتية لاقتسام تركة رجل أوربا المريض ، أي الدولة العثمانية ، يُشكِّل نقطة تحوُّل في تاريخ فلسطين وتاريخ الصيغة الصهيونية الأساسية ، إذ تساقطت الأردية الدينية وظهر الواقع المادي النفعي . ويشرح الزعيم الصهيوني حاييم سوكولوف الموقف فيقول إن أوربا عام ١٨٤٠ اضطرت محمد علي إلى التوقيع على «معاهدة لندن لتهدئة الشرق» ، وبعد ذلك أصبح المنطق السائد في أوربا آنذاك على النحو التالي :

" إذا اتفقت الدول العظمى الخمس على تسوية المسألة الشرقية على أساس استقلال سوريا . . . واسترجاع اليهود لها . . . حاملين معهم عُدة الحضارة وأجهزتها ، بحيث يكونون نواة لخلق مؤسسات أوربية . . . تحت رعاية القوى الأوربية الخمس . . . فإن ذلك سيساهم في أن تسترجع الدولة العثمانية قوتها . . . ومما لا شك فيه أن حالة سوريا محفوفة بعديد من المصاعب نظراً لانقسام سكانها إلى قبائل منفصلة . ولكن هذا لا يُثبت سوى ضرورة إدخال «مادة جديدة» . حتى يتم صَهْر الطبقات كلها في جماعة مترابطة متوازنة . وإذا ما سلمنا بضرورة إدخال مادة جديدة في نسيج سوريا الاجتماعي ، فإننا سنسلِّم بالتالي بأن هجرة اليهود إلى سوريا ستزودنا بأكثر المواد قبولاً . وسيتبع ذلك إقامة مؤسسات أوربية . وستجد إنجلترا حليفاً جديداً سيثبت أن الصداقة معه في نهاية الأمر ذات نفع لها في التعامل مع المسألة الشرقية " .

ويُلاحَظ أن البُعد الجغراسي (الجيوبوليتيكي) الكامن للفكر الصهيوني بين غير اليهود أخذ يزداد حدة وتحدداً ، بل أصبح البُعْد الرئيسي . ولم يعد الحل الصهيوني مجرد فكرة فلسفية أو تطلُّع عام . " فالتطورات السياسية [على حد قول سوكولوف] أدَّت إلى ظهور خلفية جديدة للصهيونية . إن قضية استرجاع إسرائيل التي كانت قضية أثيرة لدى العاطفيين وكُتَّاب المقالات والأدباء . . . وكل مؤمن بالإنجيل وكل صديق للحرية ، أصبحت قضية حقيقية مطروحة [على المستوى السياسي] " . وكما قالت التايمز عام ١٨٤٠ ، فإن المسألة أصبحت مطروحة بشكل جدي ، بمعنى أن الصهيونية لم تَعُد فكرة هامشية تُتداوَل في الأوساط التبشيرية الإنجيلية وحسب ، فعام ١٨٤٠ هو عام ولادة المسألة الشرقية وهو أيضا عام ولادة الحل الصهيوني للمسألة اليهودية! وقد طُرحت مشاريع صهيونية عديدة في كل مكان في أوربا (في روسيا وبولندا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا) ، فمع بدايات المشروع الاستعماري الألماني قام مولتكه (الضابط في الحرس الملكي البروسي) عام ١٩٣٩ بنشر كتاب ألمانيا وفلسطين يقترح فيه إنشاء مملكة صليبية هناك لتشجيع اليهود والمسيحيين . وقد وضع بندتو موسولينو ، الإيطالي الجنسية ، خطة في عام ١٨٥١ لتأسيس دولة يهودية في فلسطين . وشهد منتصف القرن التاسع عشر بعثاً مؤقتاً للمشروع الاستعماري الفرنسي المستقل إبّان حكم نابليون الثالث . فقد حصلت فرنسا على امتياز شق قناة السويس عام ١٨٥٤ ثم جردت حملة عسكرية فرنسية عام ١٨٦٠ ـ ١٨٦١ إلى جبل لبنان عقب الحرب الأهلية بين الدروز والموارنة ، وهي الحرب التي كانت في واقع الأمر حرباً على النفوذ بين الإنجليز والفرنسيين . ويُقال إن الهدف من الحملة كان الضغط على السلطان العثماني للموافقة على امتياز قناة السويس . وفي هذا الإطار ، ظهرت عدة كتابات فرنسية في الموضوع ، أهمها دعوة لاهارن (سكرتير نابليون الثالث) لليهود بالعودة إلى فلسطين حتى يكونوا بمنزلة الوسطاء الذين سيفتحون الشرق للغرب لتأسيس دولة يهودية في فلسطين . وكان هنري دوتان (١٨٢٠ ـ ١٩١٠) ، مؤسس الصليب الأحمر الدولي ، مهتماً بالمشروع الصهيوني ، حيث حاول منذ عام ١٨٦٣ حتى عام ١٨٧٦ إثارة اهتمام الجماعات اليهودية باقتراحاته دون جدوى . وقد أسَّس جمعية الاستعمار الفلسطينية في لندن ، واتصل بنابليون الثالث والحكومة العثمانية لعرض فكرته ، كما حضر المؤتمرات الدولية للدفاع عنها واشترك في بعض المؤتمرات الصهيونية .

ويُلاحظ سوكولوف أن الكتابات الفرنسية في موضوع الصهيونية تتسم بأنها مجردة أكثر من اللازم . وبدلاً من أن يبيِّن أصحاب هذه الكتابات بشكل محدد الإجراءات التي يجب اتخاذها ، فإنهم يكتفون بالتعبير عن الآمال الفارغة ويصوغون اقتراحات ودعاوى غامضة . ولعل هذا يعود إلى أن الفكر الصهيوني في فرنسا لم يكن وراءه لا تاريخ طويل ولا مصالح محددة كما كان الحال مع الفكر الصهيوني في إنجلترا . كما أن فرنسا الكاثوليكية ،

برفضها التفسير الحرفي للعهد القديم ، لم تكن متعاطفة مع هذه الرؤية لليهود .

ويُلاحَظ أن صهيونية غير اليهود صهيونية غربية بمعنى الكلمة (روسي ـ بولندي ـ ألماني ـ فرنسي ـ هولندي ـ إنجليزي) وقد أصدرت معظم هذه الدول وعوداً بلفورية أو ما يشبه الوعود البلفورية ، ولكن صهيونية غير اليهود تظل ظاهرة بريطانية وبروتستانتية بالدرجة الأولى . والواقع أن أكبر عدد من الصهاينة غير اليهود ظهر بين صفوفهم ، مثل الكولونيل جورج جاولر وجيمس فين ووليام بلاكستون وجوزيف تشامبرلين وإيان سمطس وجوسيا ودجوود ، ولكن لورد شافتسبري ولورانس أوليفانت يعتبران أهم هؤلاء . وفي محاولة تفسير ذلك ، يمكن القول بأن إنجلترا كانت أكبر قوة استعمارية ، وأنها البلد الذي انتشر فيه التفسير الحرفي للكتاب المقدَّس ، وأنها أخيراً البلد الذي لم يكن فيه يهود حتى أواخر القرن السابع عشر ، فكان من الممكن ـ لكل هذه الأسباب ـ تجريد اليهود وتحويلهم عقلياً (ثم فعلياً) إلى وسيلة . كما يُلاحَظ أن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية كانت تتم في إطار الاستعمار الاستيطاني الغربي ككل ، والأنجلو ساكسوني على وجه الخصوص ، ولذا نجد أن معظم المهاجرين اليهود استوطنوا في بلاد مرتبطة بالمشروع الاستيطاني الأنجلو ساكسوني (الولايات المتحدة ـ نيوزيلندا ـ جنوب أفريقيا ـ إسرائيل) .

وازدادت الفكرة الصهيونية مركزية في الوجدان السياسي الغربي ، ولعل أكبر دليل على هذا أن المفكرين الصهاينة من غير اليهود أصبحوا قريبين من صانع القرار . ويمكن أن نذكر في هذا المضمار وزير البحرية البريطانية هنري إنس (الذي كتب مذكرة عام ١٨٣٩ موجهة إلى كل دول شمال أوربا وأمريكا البروتستانتية ، قام اللورد بالمرستون ، رئيس الوزراء ، برفعها إلى الملكة فيكتوريا) . كما يمكن أن نذكر في هذا المجال ، جورج جولر حاكم جنوب أستراليا . وقد نشرت جريدة **جلوب** اللندنية (القريبة من وزارة الخارجية) مجموعة مقالات عام ١٨٣٩/ ١٨٤٠ تؤيد فيها مسألة تحييد سوريا (وضمنها فلسطين) وتوطين أعداد كبيرة من اليهود فيها . وقد حازت المقالات موافقة اللورد بالمرستون . وقد نوقش في مؤتمر القوى الخمس الذي عُقد في لندن عام ١٨٤٠ مسألة تحديد مستقبل مصر . وفي ذلك العام ، كتب بالمرستون خطابه إلى سفير إنجلترا في الأستانة يقترح فيه إنشاء دولة يهودية حماية للدولة العثمانية ضد محمد علي . وقدَّم الكولونيل تشرشل عام ١٨٤١ مذكرة لموسى مونتفيوري يقترح تأسيس حركة سياسية لدعم استرجاع اليهود لفلسطين لإقامة دولة محايدة (أي في خدمة الدول الغربية) .

وفي عام ١٨٤٥ ، ظهر كتاب جورج جولر **تهدئة سوريا والشرق** حيث طرح خطوات عملية لعملية توطين اليهود في فلسطين . كما أن جولد سميد صاحب موسى مونتفيوري في رحلته إلى فلسطين عام ١٨٤٩ ، بل أسَّس عام ١٨٥٢ واحدة من المنظمات الصهيونية الأولى وهي منظمة تشجيع الاستيطان اليهودي في فلسطين التي قدمت المساعدة للقنصل الإنجليزي في القدس في عملية تدريب اليهود المحليين على الزراعة . كما نشر أيضاً اقتراحات عملية تتصل بتأسيس صناعات ترمي إلى زيادة النفوذ الإنجليزي في سوريا . وبعد انتهاء حرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦) ، قُدِّمت إلى مؤتمر القوى العظمى الذي عُقد في باريس مذكرة بشأن توطين اليهود في فلسطين . وقدَّم بنجامين دزرائيلي (الذي تقلَّد رئاسة الوزارة عام ١٨٧٤) مذكرة غفلاً من اسم واضعها موجهة إلى المندوبين في مؤتمر برلين ١٨٧٨ تتضمن اقتراحاً ذا طابع صهيوني لحل المسألتين اليهودية والشرقية ، ولكن لم يتم توزيعها بسبب معارضة بسمارك (وقد قام المفكر الصهيوني الروسي بيرتس سمولنسكين بترجمة المذكرة إلى العبرية ونشرها) .

وفي عام ١٨٨٧ ، قدم إدوارد كازالت اقتراحاً بتوطين اليهود تحت حماية إنجلترا ، وقد دافع عن الفكرة في كتابه وخطبه أثناء حملته الانتخابية حينما رشَّح نفسه للبرلمان . ويمكن القول بأن المشروع الصهيوني كانت ملامحه وأجزاؤه قد تكاملت في عقل كازالت ، ولذا نجده يتوجه للتفاصيل الدقيقة وإلى الطابع اليهودي الإثني للاستيطان اليهودي ، وإلى قضية الوعي اليهودي ككل ، فكان أول من فكَّر في إنشاء جامعة عبرية . وفي نهاية السبعينيات ، قام هو وأوليفانت ، وانضم إليهما ممثلون عن جماعة البيلو ، بالتفاوض مع الدولة العثمانية بشأن مشروع الاستيطان الصهيوني في فلسطين .

وفي ذلك الحين ، كانت الولايات المتحدة (بتوجُّهها البروتستانتي الحرفي) تمور بالمفكرين الصهاينة غير اليهود مثل مانويل نواه (صاحب مشروع أرارات) ووليام بلاكستون . كما ظهرت فيها جماعات صهيونية مسيحية بعضها متعاطف مع اليهود والبعض الآخر يكِّن له الحقد والاحتقار من أهمها جماعة شهود يهوه والمورمون . كما كانت توجد جماعة صهيونية مسيحية كان لها مشروعها الاستيطاني المستقل هي جماعة فرسان الهيكل الألمانية .

ومن الأمور المهمة والجديرة بالذكر أن كل هؤلاء الصهاينة غير

اليهود توصلوا إلى الصيغة الصهيونية الأساسية ، وأضافوا لها الديباجات لتبريرها ، وخططوا المشروعات لوضعها موضع التنفيذ دون أية مؤثرات يهودية (فكرية أو غيرها) . وفي كثير من الأحيان ، كان ذلك يتم دون أيِّ احتكاك باليهود أو أية معرفة بهم ، ففكرهم وُلد من داخل النموذج الحضاري الغربي ، وهو ثمرة بنية الحضارة الغربية نفسها ونتاج حركياتها وتطوُّر مصالحها الإستراتيجية . وقد أعلن أحد المؤتمرات الصهيونية أن أبا الصهيونية (الحقيقي) هو الصهيوني غير اليهودي بلاكستون ، وهو وصف دقيق ومباشر وليس فيه أية أبعاد مجازية . ولنا أن نلاحظ أن معظم المفكرين الصهاينة غير اليهود كانوا شخصيات غريبة الأطوار ، إن لم تكن شاذة ومهزوزة ، ومع هذا فإن أفكارهم كانت تجد صدى في الأوساط السياسية الغربية ، وهو ما يدل على أن هذه الأفكار تعبِّر عن شيء أصيل وكامن في الحضارة الغربية آنذاك ، يتجاوز شذوذ وغرابة أطوار حَمَلة هذا الفكر .

ورغم كل هذه النشرات والمقالات والمذكرات ، إلا أن هناك إشكالية أساسية كامنة في صهيونية غير اليهود وهي أنها مهما بلغت من تحدُّد وتبلور وحدّة فهي لا تكترث بيهودية اليهود ، فما يهمها هو المصالح الإستراتيجية للعالم الغربي (المسيحي) والاعتبارات العملية والنتائج الملموسة . ولذا ، كان الصهاينة من غير اليهود ينظرون إلى اليهود من الخارج كأداة تُستخدَم وحسب ، وكانوا يتحركون في العالم الغربي لا داخل المحيط اليهودي ، ولم يكن بوسعهم بالتالي الوصول إلى المادة البشرية المستهدفة التي كانت تنظر بكثير من الشك إلى عالم الأغيار الذي كان يحاول أن يقضي عليها في الماضي بالذبح ، ويحاول الآن القضاء عليها بالإعتاق والعلمانية .

وحديث هؤلاء الصهاينة غير اليهود عن عودة اليهود لم يلق صدىً لدى أعضاء المادة المُستهدَفة إذ أن اليهودية الحاخامية الأرثوذكسية قامت بتحويل فكرة العودة إلى أمر يتحقق في آخر الأيام ، أي إلى ضرب من الحلم الديني الذي لا يتحقق إلا في مجال التاريخ المقدَّس لا على مستوى التاريخ الزمني . ولذا ، كان اليهود ـ وبخاصة يهود العالم الغربي ـ يرفضون التورط في مشاريع العودة التي تطلق على نفسها اسم «مشاريع قومية» . ولم تلق دعوة نابليون إلى يهود الشرق بالاستيطان آذاناً صاغية . وقد رفض مجلس مندوبي يهود إنجلترا الاقتراح الذي تقدَّم به الكولونيل تشارلز تشرشل لتوطين اليهود في فلسطين والذي حمله السير موسى مونتفيوري إلى المجلس نيابة عنه .

وقد شهد منتصف القرن التاسع عشر ظهور اليهودية الإصلاحية بتأكيدها المُثُل الاندماجية ورفضها فكرة العودة الفعلية إلى فلسطين رفضاً تاماً . وعُقد عام ١٨٤٥ مؤتمر فرانكفورت الشهير الذي حذف من كتب الصلوات جميع التوسلات للعودة إلى أرض الآباء وإحياء دولة يهودية . وحينما عُقد المؤتمر اليهودي الأول عام ١٨٧٢ لبحث مشكلة يهود رومانيا ، لم يتطرق هذا المؤتمر إلى الهجرة اليهودية إلى فلسطين باعتبارها حلاً للمسألة اليهودية .

ومن أطرف التعليقات اليهودية على المشاريع الصهيونية غير اليهودية ما نشرته مجلة يهودية ألمانية (ذات طابع اندماجي) إذ قارنت المشاريع الصهيونية الإنجليزية التي نُشرت في **الجلوب والتايمز** بالمشاريع الفرنسية ، وبينت أن الشاعر لامارتين (١٧٩٠ ـ ١٨٦٩) الذي كان يشغل منصباً حكومياً آنذاك يقترح تأسيس مملكة مسيحية عند منابع نهر الأردن ، وأنه ينوي ، إذا ما وقعت القدس تحت الهيمنة الفرنسية ، أن يترك العالم بأسره لإنجلترا . ولكن الغريب في الموضوع ـ كما تقول المجلة ـ أن اللورد بالمرستون قد اختار البقعة نفسها لإنشاء دولة يهودية ، فبينما كان الشاعر الشهير يحلم بإقامة دولة مسيحية في القدس كان اللورد بالمرستون ينوي إقامة جمهورية يهودية فيها (وحولها) ، وقد حذَّرت المجلة الشباب اليهودي من مثل هذه الدعاوى الصهيونية .

ويبدو أن الصهاينة غير اليهود أدركوا أن المادة البشرية المستهدفة لمشاريعهم ترفض مثل هذه المشاريع التي تهدف إلى اقتلاعهم من أوطانهم ، ولذا فقد بذلوا جهداً في التوجه إلى الجماعات اليهودية وفي التقارب معها . فكتب الكولونيل كلود كوندر يشجع جهود أحباء صهيون على التسلل إلى فلسطين . ونشر هنري ونتورث مونك (كندي الجنسية) عدة مقالات صهيونية ظهرت في **جويش كرونيكل** بين عامي ١٨٥٩ و١٨٩٦ ، وأسهم في تأسيس أولى المستوطنات اليهودية في فلسطين . وعقد مؤتمر للمسيحيين البارزين في مايو ١٨٨٢ لمناقشة مسألة توطين المهاجرين اليهود من رومانيا وروسيا في فلسطين . وشهدت الفترة نفسها كتابات الأب إغناطيوس التي نُشرت على صفحات مجلة **دي فيلت** الصهيونية والتي ناشد فيها اليهود الانضمام إلى الحركة الصهيونية .

وكان شافتسبري (أهم الصهاينة غير اليهود) صديقاً لمونتفيوري ، أما أوليفانت (أكثرهم دينامية ونشاطاً) فقد اتصل ببعض الجمعيات اليهودية الاستيطانية لتشجيعها ، وذهب بنفسه إلى فلسطين للاستيطان فيها بصحبة سكرتيره اليهودي نفتالي هرتز إمبر (مؤلف نشيد الهاتيكفاه) . وبدأت تظهر شخصيات تقف بين الجماعتين اليهودية والمسيحية : مثل دزرائيلي (اليهودي الذي تنصَّر ليدخل

الحضارة الغربية) . ويمكننا الإشارة إلى الواعظ البروتستانتي هشلر الذي كان من أكثر الناس حماسة لإرجاع اليهود ، فقدَّم العون لهرتزل وساهم في تقديمه للدوق بادن الذي قدَّمه بدوره إلى قيصر ألمانيا .

ولكن ، ومهما ازداد التقارب بين الصهاينة غير اليهود واليهود ، فإن ذلك لم يكن له جدوى وكان ضرورياً أن يحدث شيء تاريخي ضخم يتجاوز حركات الأفراد ، وقد كان هذا الشيء هو تعثُّر التحديث في شرق أوربا وتَوافُد الآلاف من يهود اليديشية على غرب أوربا ، الأمر الذي أدَّى إلى ظهور هرتزل الذي طوَّر الخطاب الصهيوني المراوغ وجعل بإمكان يهود الغرب قبول العقد الصهيوني الصامت وهو الأمر الذي كُلِّل بإصدار وعد/ عقد بلفور .

ويمكن تلخيص إسهام صهيونية غير اليهود كما يلي :

١ ـ تمت صياغة الفكرة الصهيونية بمعظم أبعادها وديباجاتها . ولذا ، فإن المفكرين الصهاينة من اليهود حينما ظهروا كانت الصياغات الأساسية جاهزة ، وكذلك معظم الديباجات والمشاريع .

٢ ـ صهيونية غير اليهود ذات الديباجة المسيحية والرومانسية حوَّلت فلسطين ومن عليها إلى مكان خارج التاريخ ، فهي مجرد أرض ليس فيها أي أثر للتاريخ الحقيقي . وبالتالي ، فقد أهدرت حقوق سكان فلسطين الفعليين ، وأصبحت فلسطين في الوجدان الغربي مكاناً خاوياً ينتظر سكانه الأصليين .

٣ ـ خلقت صهيونية غير اليهود (الدينية والعلمانية) المناخ السياسي الملائم لرؤية الأهمية الجغراسية لفلسطين .

٤ ـ وضعت صهيونية غير اليهود الأساس للحل الاستعماري الغربي للمسألة اليهودية في شرق أوربا .

٥ ـ طرحت صهيونية غير اليهود تفسيراً حرفياً لأحداث التاريخ وافترضت استمراراً حيث لا استمرار . وقد أثَّر ذلك في رؤية اليهود لفلسطين وأسهم في تحويل المفاهيم اليهودية الدينية التقليدية (المجازية) إلى مفاهيم استيطانية استعمارية .

٦ ـ حينما ظهرت مشكلة المهاجرين اليهود من روسيا وبولندا ورومانيا في أواخر القرن التاسع عشر لم يُنظَر إليها باعتبارها مشكلة إنسانية تتطلب عملية التحديث السريعة ، وإنما نُظر إليها باعتبارها مشكلة شعب عضوي مختار أو كتلة بشرية مستقلة أو مادة بشرية فعالة يمكن توظيفها في عملية الخلاص المسيحية أو المشاريع التجارية والاستعمارية الغربية المختلفة .

٧ ـ ربطت صهيونية غير اليهود بين المسألتين الشرقية واليهودية وطرحت تصوراً مفاده أن إحدى المشكلتين يمكن حلها من خلال الأخرى .

وأهم الصهاينة غير اليهود هو اللورد بلفور (صاحب الوعد المشهور) الذي كان يستخدم كلاً من الديباجات الدينية والديباجات العلمانية .

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن تيودور هرتزل ، مؤسِّس الصهيونية ، لم يكن يميِّز بين الصهاينة اليهود وغير اليهود ، بل كان يرى الجميع جزءاً من التاريخ الغربي . ولذا ، فهو يشير إلى دزرائيلي وجورج إليوت وموسى هس وليو بنسكر باعتبارهم صهاينة دون تمييز أو تفرقة بين اليهود منهم وغير اليهود .

صندوق استكشاف فلسطين

Palestine Exploration Fund

جمعية أُسِّست عام ١٨٦٤ تحت رعاية الملكة فكتوريا ملكة إنجلترا ، وكان رئيس الجمعية أسقف يورك . وساهمت وزارة الحرب البريطانية بخدمات بعض الضباط ، وخصوصاً من المهندسين مثل الكابتن كلود كوندر والكابتن تشارلز وارين (الذي اشتهر فيما بعد في جنوب أفريقيا) والملازم هـ . كتشنر (وهو اللورد كتشنر الذي عُيِّن فيما بعد معتمداً بريطانياً في مصر واشتهر في السودان) ، وت . إ . لورنس .

وقد أعلن الصندوق أنه مؤسسة تهتم بالبحث الدقيق والمنظم في الآثار والطوبوجرافيا والجيولوجيا والجغرافية الطبيعية والتاريخ الطبيعي وعادات وتقاليد الأرض المقدَّسة بهدف «التوضيح التوراتي» ، والعبارة الأخيرة مبهمة إلى أقصى حد ولكنها تعني في نهاية الأمر أن البحث العلمي قد وُظِّف في خدمة الأهداف التوراتية ، أي «الأهداف الإسترجاعية العسكرية» . وهذا ما وضحه كتاب **المدنية والأرض** الذي أصدره الصندوق ، وهو يتألف من مجموعة من الدراسات كان من أهمها دراسة لوولتر بيسانت بيَّن فيها أن هدف الصندوق هو "الاستعادة" : استعادة مجد فلسطين في عهد هيرود ، واستعادة بلاد داود بحيث يمكن استعادة أسماء المدن التي دمرها القائد العظيم يوشع بن نون . وكذلك استعادة مكانة القدس ومجدها وأبهتها ، واستعادة أسماء الأماكن المذكورة في التوراة (وكل هذا يبين مدى قوة العقيدة الاسترجاعية) .

ويظهر تلاقي البُعْد التوراتي والبُعْد العسكري في الإشارة إلى يوشع بن نون وفي قول المؤلف : "عندما وُضعت الأسماء في أماكنها ، أصبح في وسعنا تتبُّع سير الجيوش في زحفها" (ويمكن أن نضيف : وأصبح بإمكان جيوش الغزو الإمبريالي ـ البريطاني والصهيوني ـ أن تعرف طريقها) . وقد ساهم كوندر بمقال في الكتاب نفسه ذي طابع صهيوني ديني عسكري .

وقد لعب الصندوق بالفعل دوراً عظيم الأهمية في مجال تزويد الساسة والعسكريين البريطانيين بالمعلومات الجغرافية والتاريخية والسياسية التي كانوا يحتاجون إليها لمد نفوذهم الاستعماري في المنطقة ولدراسة جدوى المشروع الاستعماري في فلسطين . وقد اعتمد الصندوق في ذلك على العديد من خبراء الآثار والتاريخ والجغرافيا والجيولوجيا والمناخ . وكانت غالبية التقارير والدراسات الصادرة عن الصندوق ذات طابع صهيوني إذ كانت تشير إلى أهمية فلسطين وضرورة عودة اليهود إليها وإقامة كيان استيطاني لهم فيها تحت الحماية البريطانية . فالكابتن وارين نشر عدة مجلدات من أهمها **إحياء القدس ومذكرات عملية مسح فلسطين** ، وذلك بالإضافة إلى كتاب **أرض الوعد** الذي دعا فيه إلى أن تتولَّى شركة الهند الشرقية تنمية موارد فلسطين ، وخصوصاً مواردها الزراعية والتجارية ، كما دعا إلى تدريب المستوطنين اليهود على إدارة شئونهم تمهيداً لتَسلُّمهم حكم فلسطين وإدارة شئونها (وهو المخطط الذي نُفِّذ فيما بعد من خلال حكومة الانتداب والوكالة اليهودية) . وشارك الكابتن ويلسون في عدة عمليات بَحْث وتنقيب في بعض المناطق السورية واللبنانية ، ولكن جهود الصندوق تركزت في النهاية على مرج ابن عامر ونابلس والقدس والخليل باعتبارها الأماكن التي شهدت تنقلات واستقرار "شعب إسرائيل" (كما ورد في تقريره للصندوق) .

وقد أصدر الصندوق ، بالإضافة إلى العدد الكبير من الكتب والتقارير ، خريطتين دقيقتين : إحداهما لفلسطين الغربية (١٨٨٠) والثانية لفلسطين الشرقية (١٨٨٤) . وقد حملت الخرائط الأسماء الحديثة والقديمة بالإضافة إلى إبراز تضاريس البلاد وطبيعتها المناخية . وقد بلغت الخريطتان من الدقة حداً كبيراً حتى سَهُل استعمالهما في عملية تحريك الجيوش البريطانية وانتقالها عبر تلك الأراضي في الحرب العالمية الأولى . وللصندوق متحف في لندن ، وهو ينشر مجلة علمية ربع سنوية منذ عام ١٨٦٩ (أصبحت سنوية منذ عام ١٩٠٤) ، كما نشر مؤلفات كتشنر وكوندر وغيرهما .

ولم يكن صندوق استكشاف فلسطين الوحيد من نوعه ، فبعد خمس سنوات من تأسيسه أسَّس الأمريكيون الجمعية الأمريكية لاستكشاف فلسطين . وفي العام نفسه ، أُسِّست جمعية الآثار التوراتية في إنجلترا . وأنشأ الألمان جمعيتين : الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية (١٨٩٧) والجمعية الألمانية للأبحاث الفلسطينية (١٨٧٧) . وأسس الفرنسيون أيضاً مدرسة لدراسة الآثار . وقد كان الحافز وراء الدراسة في كل هذه الجمعيات توراتياً (صهيونياً) .

هنري فينش (١٥٥٨-١٦٢٥)

Herny Finch

صهيوني غير يهودي استخدم ديباجات مسيحية . عضو في البرلمان البريطاني ، وقانوني بارع . كان مهتماً جداً بالدراسات الدينية ودرس العبرية بتعمُّق .

من كتاباته غير المتصلة بالقانون كتاب **شرح نشيد الأنشاد** (عام ١٦١٥) الذي ناقش فيه ما أسماه «أورشليم الجديدة» . وكتب في عام ١٦٢١ أحد كلاسيكيات الصهيونية المسيحية وهو كتابه المعنون بـ **الاستعارة العظيمة للعالم أو دعوة لليهود** حيث دعا اليهود إلى التمسك بحقهم في الأرض الموعودة وطالب الملوك المسيحيين بأن يصغوا إلى مطالبهم ويرسلوهم إليها . واشترط لتحقيق هذا أن يتحول اليهود إلى المسيحية .

وقدَّم فنش تفسيراً حرفياً لنصوص العهد القديم وأعاد تعريف إسرائيل ، فتخلى عن التفسير المسيحي بأن إسرائيل هي مفهوم روحي وطرح مفهوماً عرْقياً ("إسرائيل التي انحدرت من صلب يعقوب") . وقد أثارت تلك الآراء انتقاداً شديداً وأدَّت إلى سجنه مع ناشر الكتاب حتى تنصلا من هذه الآراء واعترفا بخطئهما .

وقد اعتبر الملك جيمس الأول أن هذا الكتاب إهانة للذات الملكية . ولنا أن نلاحظ أن بنية أفكاره قبَّالية تماماً وتبحث في كيفية تخليص العالم من اليهود من أجل خلق العالم الجديد والتمهيد لعودة المسيح والعهد الألفي الثاني .

فيليب دي لانجالري (١٦٥٦-١٧١٧)

Philippe De Langallerie

صهيوني غير يهودي استخدم ديباجات مسيحية وعلمانية ، وهو جنرال فرنسي مغامر كان يحلم بإقامة دولة يهودية . وقد تقلَّب دي لانجالري في الجيوش الأوربية فخدم تحت إمرة النمساويين ثم البولنديين بعد أن عمل في جيش فرنسا ، ثم قدَّم عام ١٧١٦ عرضاً للأتراك (من خلال سفيرهم في لاهاي بهولندا) بأن يقود جيشاً من الحجاج المتكرين إلى روما ثم يقتحم الفاتيكان ويلقي القبض على البابا ويسلم روما للأتراك . ومقابل ذلك ، يأخذ أحد جزر البحر المتوسط التي كانت تحت سيطرة الأتراك (أو فلسطين الأرض المقدَّسة إن أمكن) من أجل توطين القبائل اليهودية المبعثرة والتائهة في هذه الأرض .

وقد ناشد دي لانجالري التجمعات اليهودية في أمستردام وهامبورج والطونا وغيرها من المدن التجارية في أوربا تعبئة وتجهيز

جيش من ١٠ آلاف رجل . وقد أُعجب القبَّالي ألكسندر سوسكند المتزي بهذا المشروع وعرض على دي لانجالري أن يصير أمين خزانة مشروعه المسمَّى «الحكومة الدينية للكلمة المقدَّسة» .

وفي ١٧١٦ ، أُلقي القبض على دي لانجالري بالقرب من هامبورج ، وحوكم في فيينا حيث مات في سجنه . وتوضح سيرة حياة هذا الرجل فكرة الارتباط بين الأفكار القبَّالية والمشيحانية من جهة والنزعات الاستعمارية والمادية التي كانت قد بدأت تسود أوربا في تلك الفترة من جهة أخرى .

جوزيف سلفادور (١٧٩٦-١٨٧٣)

Joseph Salvador

طبيب ومفكر فرنسي ذي أب من أصل يهودي إسباني وأم كاثوليكية فرنسية . وُلد في مونبيليه حيث درس الطب ، لكنه استقر في باريس حيث اشتهر بدراساته في تاريخ الأديان . استخدم سلفادور المنهج النقدي التاريخي في دراساته الدينية الكثيرة ، وخصوصاً في دراساته عن المسيح . وقد حاول سلفادور في دراسته المعنونة **باريس وروما والقدس أو المسائل الدينية في القرن التاسع عشر** أن يضع فكراً تصالحياً يجمع بين اليهودية والمسيحية في نسق ديني إصلاحي تقدُّمي . وقد حرَّمت الكنيسة الكاثوليكية كلا الكتابين . وكان سلفادور يحلم بأن تكون القدس مركز ديانته التجميعية الجديدة . وقد أدَّى تأكيده أهمية القدس ومركزيتها إلى أن يعتبره عدد من المؤرخين الصهاينة ، مثل ناحوم سوكولوف وغيره ، من أسلاف الصهيونية . بيد أن سلفادور كان يعتقد في قدس ووحية سماوية تمثل مركزاً دينياً لحضارة كونية لا بؤرة استقطاب لشعب منبوذ/ مختار في آن واحد . وقد تأثر سلفادور في أفكاره بأفكار سان سيمون .

من بين كتبه الأخرى : **شريعة موسى أو النسق الديني والسياسي للعبرانيين** (١٨٢٢) و **تاريخ السيطرة الرومانية على يهوذا وتدمير القدس** (١٨٤٦) .

جورج جاولر (١٧٩٦-١٨٦٩)

George Gawler

صهيوني غير يهودي يستخدم ديباجات مسيحية وعلمانية . وهو قائد عسكري بريطاني أخذ على عاتقه نشر الأفكار المرتبطة باستقرار اليهود في فلسطين . شارك في معركة ووترلو وصار بعدها حاكماً لمستعمرة جنوب أستراليا (١٨٣٨ ـ ١٨٤١) .

وكان الخطاب الديني يختلط بالخطاب السياسي والعسكري في وجدانه ، فقد كان يرى أن فلسطين ملك لرب إسرائيل وأن اليهود هم شعبه القومي ، وكان يذهب إلى أن العناية الإلهية وضعت سوريا ومصر بين إنجلترا من جهة وبين أعظم مناطق إمبراطوريتها ومراكز تجارتها في الهند والصين ، أي أن الوضع الجغراسي (الجغرافي السياسي) المتميز لسوريا ومصر والذي يُمكِّن الإمبراطورية الإنجليزية من توظيفه والاستفادة منه هو جزء من المخطط الإلهي ، وكأن الإمبراطورية الإنجليزية امتداد للتاريخ التوراتي المقدَّس . والوضع نفسه ينطبق على الشعب المختار إذ سيتحول إلى مادة استيطانية أو حرس يهودي قومي "ثم يقف على جبال إسرائيل في مستوطنات زراعية عسكرية مزدهرة تحميها ضد المعتدين" .

وكان جاولر يعتقد أن توطين اليهود ("أبناء الأرض الحقيقيين") في فلسطين يمثل الحل الأمثل لمشكلة عدم الاستقرار في الشرق الإسلامي ، وهو الأمر الذي تنبهت له بريطانيا بشدة بعد الحروب النابليونية ، كما يمثل الحل الأمثل للمشكلة اليهودية في أوربا . وقد ربط جاولر بين هذه المستوطنات وبين المصالح البريطانية في المنطقة في كتيبه **تهدئة سوريا والشرق : ملاحظات واقتراحات عملية للإسراع بإقامة مستعمرات يهودية في فلسطين وهو العلاج الناجع والمعقول لمآسي تركيا الآسيوية** (١٨٤٥) . وفي كتيبه الآخر **تحرير اليهود ضرورة لحفظ الطبيعة البروتستانتية للإمبراطورية ومن أهم دعائم الأمة البريطانية** (١٨٤٧) .

وكان جاولر يعتقد ، بسبب تجربته الأسترالية ، في إمكانية توطين فلسطين (التي كان يراها أرضاً بلا شعب) في غضون بضعة أعوام . وسافر مع السير موسى مونتفيوري إلى فلسطين عام ١٨٤٩ ونجح في الحث على المشروع وفي بناء مستوطنات زراعية قرب يافا ، وقد رفض معظم اليهود البريطانيين أفكار جاولر الاستيطانية .

ويُعتبَر جاولر مثالاً كلاسيكياً للصهيونية غير اليهودية التي انتشرت في أوربا مع بداية عصر الاستعمار ، وخصوصاً مع نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر . ومن الواضح أنه كان يهدف لحماية المصالح البريطانية في الهند وفي المستعمرات الجديدة عن طريق خَلْق منطقة دفاع من المستوطنين اليهود الموالين للإمبراطورية لمواجهة أعداء الإمبراطورية .

واردر كريسون (١٧٩٨-١٨٦٠)

Warder Cresson

صهيوني مسيحي يهودي ، وشخصية محورية في تاريخ

الصهيونية . كان كريسون شخصية قلقة ، فهو بالمولد من أتباع طائفة الكويكر ثم أصبح من المورمون ، وانضم إلى فرق بروتستانتية أخرى ، وبدأ اهتمامه باليهودية بعد أن قابل الحاخام الإصلاحي إسحق ليزر .

بذل كريسون جهوداً كثيرة حتى عُيِّن أول قنصل للولايات المتحدة في فلسطين . ولكنه اتُّهم بالجنون فأُلغي تعيينه . ولكن القرار لم يَصدُر إلا بعد أن كان كريسون قد رحل إلى فلسطين !

كتب كريسون عدة مقالات ضد جماعة لندن لتنصير اليهود . وفي عام ١٨٤٨ ، مع نهاية خدمته كقنصل ، اعتنق اليهودية وغيَّر اسمه إلى ميخائيل بوعاز إسرائيل .

وحينما عاد كريسون إلى الولايات المتحدة عام ١٨٤٩ ليسوي أموره تمهيداً للاستيطان النهائي في فلسطين ، حاولت أسرته أن تُوقفه بحجة أنه مجنون ، ولكنه كسب القضية المرفوعة ضده . واستوطن فلسطين عام ١٨٥١ حيث حاول تأسيس مستوطنة في وادي رفائيم بمساعدة موسى مونتفيوري وآخرين ولكنه فشل في مسعاه . وقد كان كريسون يرتدي ملابس اليهود السفارد الشرقية وتزوج من يهودية سفاردية وعاش حسب التعاليم الأرثوذكسية .

ومن مؤلفاته الشاهدان : **موسى وإلياهو** ، و**شجرة الزيتون الطيبة** ، و**القدس مركز العالم بأسره ومصدر فرحه** (وقد نُشرت جميعاً عام ١٨٤٩) . كما نشر عام ١٨٥٢ كتاباً بعنوان **مفتاح داود : داود الماشيَّح الحق** . وقد بيَّن في كل مؤلفاته أن الوجود اليهودي في فلسطين لابد أن يكون ذا طابع زراعي . وقد تنبأ كريسون بكثير من المشاكل التي واجهها الاستعمار الاستيطاني الصهيوني ، ثم الدولة الصهيونية ، مثل معارضة الحاخامات الأرثوذكس إنشاء دولة يهودية ومعارضة السكان الأصليين . وعلى هذا ، اقترح إقامة مستوطنات زراعية مسلحة قادرة على القتال وعلى الدفاع عن نفسها (وهذا ما نفَّذه الصهاينة فيما بعد) .

آدم مكيفتش (١٧٩٨-١٨٥٥)

Adam Mickiewicz

صهيوني نصف يهودي نصف مسيحي يستخدم ديباجات مسيحية . وهو شاعر بولندي من أصل يهودي (فرانكي) وُلد في ليتوانيا . انخرط في نشاط الحركات الطلابية القومية في جامعة فلنا ، فطُرد من البلاد وأُبعد إلى روسيا . وفي عام ١٨٢٩ ، سُمح له بالسفر إلى الخارج وبدأ في التنقُّل من بلد أوربي إلى آخر حتى وفاته . كتب كبرى مسرحياته **دزيادي** (٣ أجزاء) عام ١٨٣٢ حيث نُشرت بالإنجليزية تحت عنوان **ليلة الأسلاف** (١٩٢٨) ، وقد رسم فيها صورة لمنقذ بولندا في المستقبل (ويُقال إنه كان يشير إلى نفسه) إذ رأت إحدى الشخصيات في المسرحية في الرؤيا أن المخلِّص سيكون ابن أم أجنبية ويجري في عروقه دم الأبطال القدامى ، واسمه «أربع وأربعون» . وكانت أم مكيفتش من أسرة من أتباع جيكوب فرانك ، والقيمة الرقمية لهذا الاسم (هي ٤٤ . وهذه جميعاً أفكار قبَّالية تعرَّف عليها مكيفتش لا من القبَّالاه اليهودية وإنما من القبَّالاه المسيحية (من أعمال المتصوف المسيحي لوي كلود دي سان مارتن ومن كتابات سويدنبورج) .

ويرى مكيفتش في أحد أعماله **كتب الأمة البولندية والحج البولندي** (١٨٤٢) أن اليهود والبولنديين شعب مختار . ولذا ، فإن اليهودي المثالي في ملحمة مكيفتش **بان تاديوس** (١٨٣٤) هو وطني بولندي مفعم بالحماس لبولندا . وقد عبَّر مكيفتش عن تعاطفه مع اليهود وعن تطلُّعهم للعودة في موعظة ألقاها في المعبد اليهودي في باريس .

وكان مكيفتش يحلم بتنصير اليهود ولكنه لاحَظ أن يهود فرنسا يتركون اليهودية ويندمجون في المجتمع العلماني ولا يتنصَّرون . وحينما نشبت حرب القرم توجَّه مكيفتش إلى القسطنطينية ليساعد الفرق البولندية للحرب ضد الروس . وحاول تنظيم فرقة يهودية تُقيم الشعائر اليهودية ، وكان مساعده الأساسي في ذلك طبيب فرنسي يهودي ، وكان هو ومساعده يتصوران أن مثل هذه الفرقة اليهودية قد تكون بمنزلة الخطوة الأولى نحو بَعْث الأمة اليهودية . ولكن مكيفتش مات قبل أن يُكمل مهمته . والواقع أن مكيفتش مثل جيد لتداخل التراث القبَّالي اليهودي والتراث المسيحي بحيث تصبح التفرقة بين أيٍّ منهما مستحيلة ، كما أنه يبين كيف أن النزعة الفرانكية المشيحانية العسكرية تحوَّلت إلى مشروع استيطاني .

إرنست لاهاران (؟ - ؟)

Ernest Laharanne

صهيوني غير يهودي يستخدم ديباجات علمانية . وكان محرراً لصحيفة جمهورية النزعة أيَّدت فكرة التجارة الحرة وعمل كأمين لنابليون الثالث . وقد انتعشت الصهيونية غير اليهودية أيام إمبراطورية نابليون الثالث (١٨٥٢ ـ ١٨٧٠) عندما تجددت النشاطات الاستعمارية على نطاق أشد . وكان لنابليون الثالث طموحات في الشرق الأوسط . وقد أقحم فرنسا في حرب القرم مع روسيا متذرعاً بحماية الرهبان الكاثوليك في الإمبراطورية

العثمانية . وقد شاع أن نابليون الثالث كان يفكر في تنصيب أحد أفراد أسرة روتشيلد ملكاً على القدس (ولكن رد فعل صحافة أعضاء الجماعة اليهودية لهذه الشائعة كان سلبياً إلى أقصى حد) .

كتب لاهاران كتيبه المعنون بـ **المسألة الشرقية الجديدة ـ إمبراطورية مصر والعرب : إعادة تكوين القومية اليهودية** عام ١٨٦٠ يخبر فيه اليهود بأن فرنسا قد حررتهم وجعلتهم مواطنين وإخوة ويخبرهم أيضاً أنهم شعب ذو شخصية عبقرية مستقلة ، فهو شعب عضوي لم يندمج في الحضارة الغربية لأنه مرتبط بالشرق حيث يجب أن يذهبوا حاملين "أنوار أوربا" ليكونوا بمنزلة الوسطاء الذين سيفتحون الشرق للغرب عن طريق تكوين دولة يهودية في الأرض الواقعة بين مصر وتركيا ، تحت رعاية فرنسا ، وبمؤازرة رجال البنوك والتجار اليهود في العالم ، ويجرى اكتتاب مالي يهودي عام يتيح لليهود المجال "لشراء وطنهم القديم" من الدولة العثمانية . وقد بيِّن لاهاران الفوائد التي ستعود على الغرب من توطين اليهود في فلسطين : "طريق جديد ومُعبَّد للحضارة الغربية وأسواق جديدة للصناعة الغربية" . وقد استمر لاهاران في الدعوة لهذه الفكرة بحماس شديد وربط بينها وبين الأفكار القومية التي كانت تلاقي إعجاب نابليون الثالث ورجال بلاطه الاستعماريين .

ولاهاران ، شأنه شأن كل دعاة المشروع الصهيوني ، يهاجم العرب (سكان فلسطين الأصليين) ليبرر عملية الغزو (ومع هذا كان لاهاران أحد ضيوف الشرف لدى الخديوي إسماعيل في حفل افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩) .

ولاهاران نموذج للمفكر الاستعماري المليء بالمتناقضات الذي يحاول بشتى الطرق العملية الوصول لهدفه الأوحد وهو السيطرة والغزو وتحقيق أقصى منفعة مادية على حساب الآخرين وباستغلال الآخرين عرباً كانوا أم يهوداً .

وهو أيضاً مثال للارتباط بين الفكر القومي الأوربي في القرن التاسع عشر والفكر الاستعماري ، وللرؤية القومية في إطار التوسع والغزو والإمبراطورية العظمى التي كان يمثلها نابليون الثالث . وقد قرأ المفكر الصهيوني العمالي موسى هس كتاب لاهاران وأعجب به .

لورد شافتسبري (١٨٠١-١٨٨٥)
Lord Shaftesbury

هو أنتوني أشلي كوبر ، لورد شافتسبري السابع . واحد من أهم الشخصيات الإنجليزية في القرن التاسع عشر ، ومن أهم المصلحين الاجتماعيين . يقول عنه المؤرخ الإنجليزي تريفليان إنه كان يُعَدُّ أحد أهم أربعة أبطال شعبيين في عصره . وقد كان شافتسبري ، بالإضافة إلى هذا ، شقيق زوجة رئيس الوزراء بالمرستون الذي كان يثق فيه تماماً ويأخذ بمشورته . وقد كان شافتسبري زعيم حزب الإنجيليين . ولذا ، فإننا نجد أن اليهود كانوا أحد الموضوعات الأساسية في فكره كما كانوا محط اهتمامه الشديد . وكان خطاب شافتسبري خليطاً مدهشاً من العناصر الاجتماعية والأساطير الدينية حيث تَداخَل في عقله الوقت الحاضر والزمان الغابر والتاريخ المقدَّس ، وقد كان هذا الخطاب يَصدُر عن فكرة الشعب العضوي المنبوذ بشكل لم يتحقق كثيراً في كتابات أي صهيوني آخر (يهودياً كان أم غير يهودي) . ينظر شافتسبري إلى اليهود من داخل نطاق العقيدة الألفية والاسترجاعية بعد علمنتها تماماً ، فاليهود يكوِّنون بالنسبة إليه شعباً عضوياً مستقلاً وجنساً عبرياً يتمتع باستمرار لم ينقطع ، ولكنهم لهذا السبب أصبحوا جنساً من الغرباء (المنبوذين) المتعجرفين سود القلوب المنغمسين في الانحطاط الخلقي والعناد والجهل بالإنجيل . وهم ليسوا سوى "خطأ جماعي" . ولكل هذا ، عارض شافتسبري مَنْح اليهود حقوقهم المدنية والسياسية في إنجلترا .

ولكن ثمة علاقة عضوية بين هذا الشعب وبين بقعة جغرافية محددة هي فلسطين . ولهذا ، فإن بَعْثهم لا يمكن أن يتم إلا هناك . كما أن عودتهم إلى هذه البقعة أمر ضروري حتى تبدأ سلسلة الأحداث التي ستؤدي إلى العودة الثانية للمسيح وخلاص البشر . وبرغم الديباجات الدينية فإن شافتسبري ، شأنه شأن مسيحيي عصره العلمانيين ، كان يؤمن بأن الوسيلة الإنسانية يمكن أن تحقق الأهداف الربانية (وهذا عكس الموقف المسيحي واليهودي التقليدي) . وقد عبَّر شافتسبري عن هذه الازدواجية في الخطاب في عبارته : "إن أي شعب لابد أن يكون له وطن ، الأرض القديمة للشعب القديم" ، وهي صيغة علمانية خافتة لشعار "الأرض الموعودة للشعب المختار" . ثم طوَّر هذا الشعار ليصبح "وطن بلا شعب لشعب بلا وطن" ، فهو إذن صاحب الشعار الصهيوني الشهير .

وقد نشر شافتسبري عام ١٨٣٨ في مجلة **كوارترلي ريفيو** (وهي من أكثر المجلات نفوذاً في ذلك العصر) عرضاً لكتب أحد الرحالة إلى فلسطين . وقد بدأ المقال بالديباجة الدينية المعتادة عن قضية اليهود ثم تناول بعد ذلك تربة فلسطين ومناخها باعتبارها مناسبة لنمو محصولات تتطلبها احتياجات إنجلترا مثل القطن والحرير وزيت الزيتون . ويبين شافتسبري أن كل المطلوب لإنجاز هذه العملية هو رأس المال والمهارة ، وكلاهما سيأتي من إنجلترا ،

وخصوصاً بعد تعيين قنصل لإنجلترا في القدس إذ سيؤدي وجوده إلى زيادة أسعار الممتلكات . ثم يقترح عند هذه النقطة توظيف اليهود على أن يكون القنصل البريطاني الوسيط بينهم وبين الباشا العثماني ، حتى يصبحوا ، مرة أخرى ، مزارعين في يهوذا والجليل . وهذا الاقتراح يحوي بعض عناصر الصيغة الصهيونية الأساسية (شعب عضوي منبوذ ـ نافع ـ ينقل خارج أوربا ـ لتوظيفه لصالحها) .

ولكن أهم وثائق الصهيونية غير اليهودية وأكثرها شفافية (إذ تتضح فيها الصيغة الصهيونية الأساسية بكل وضوح وجلاء) هي الوثيقة التي قدَّمها شافتسبري إلى بالمرستون (٢٥ سبتمبر ١٨٤٠) لاسترجاع اليهود وحل المسألة الشرقية وتطوير المنطقة الممتدة من جهة الرافدين حتى البحر الأبيض المتوسط (وهي البلاد التي وعد الإله بها إبراهيم حسب أحد تفسيرات الرؤية التوراتية) . ويؤكد شافتسبري في مقدمة المذكرة أن المنطقة التي أشار إليها آخذة في الإقحال بسبب التناقص في الأيدي العاملة ، ولذا فهي تتطلب رأس مال وعمالة . ولكن رأس المال لن يأتي إلا بعد توفير الأمن . ولهذا ، فلابد أولاً من اتخاذ هذه الخطوة ، ثم يشير بعد ذلك إلى أن حب اختزان المال والجشع والبخل ستتكفل بالباقي ، فهي من أهم دوافع الإنسان (الوظيفي) ، ولذا فهي ستدفع به إلى أية بقعة يمكن أن يحقق فيها أرباحاً (ومثل هذه الضمانات ستشجع كل محب للمال عنده الحماس التجاري ، أي أعضاء الجماعات الوظيفية) .

كل هذه المقدمات العامة تقود شافتسبري إلى الحديث عن «العنصر العبري» أو الشعب العضوي المنبوذ (باعتباره جماعة وظيفية استيطانية) ثم يقترح أن القوة الحاكمة في الأقاليم السورية (دون تحديد هذه القوة) لابد أن تحاول وَضْع أساس الحضارة الغربية في فلسطين وأن تؤكد المساواة بين اليهود وغير اليهود فيها . وتحصل هذه القوة على ضمانات الدول العظمى الأربع عن طريق معاهدة ينص أحد بنودها على ذلك ، وسوف يشجع هذا الوضع الشعب اليهودي العضوي المعروف بعاطفته العميقة نحو فلسطين حيث يحمل أعضاؤه ذكريات قديمة في قلوبهم نحوها . وهذا الشعب اليهودي العضوي "جنس معروف بمهاراته وثروته المختبئة ومثابرته الفائقة . وأعضاء هذا الجنس يمكنهم أن يعيشوا في غبطة وسعادة على أقل شيء ، ذلك أنهم ألفوا العذاب عبر العصور الطويلة . وحيث إنهم لا يكترثون بالأمور السياسية ، فإن آمالهم تقتصر على التمتع (بالأموال) التي يمكنهم مراكمتها . . . إن عصوراً طويلة من العذاب قد غرست في هذا الشعب عادتي التحمل وإنكار الذات" . ويضيف شافتسبري : "إذا رأينا عودتهم في ضوء استعمار فلسطين ، فإن هذه الطريقة هي أرخص الطرق وأكثرها أمناً في الوفاء بحاجات هذه المناطق غير المأهولة بالسكان . وهم سيعودون على نفقتهم الخاصة دون أن يُعرِّضوا أحداً ـ سوى أنفسهم ـ للخطر" ، أي أنهم أداة آمنة كفء وسيخضعون للشكل القائم للحكومة ، فهم لم يصوغوا أية نظرية سياسية مُسبَقة يهدفون إلى تطبيقها . وقد تم ترويضهم في كل مكان تقريباً على الخضوع الضمني (الهادئ) للحكم المطلق ولا تربطهم رابطة بشعوب الأرض ، ولذا لابد لهم من الاعتماد على قوة ما . . . وسيعترف اليهود بملكية الأرض لأصحابها الحقيقيين . . . حيث سيكتفون بالحصول على الفائدة من خلال الطرق المشروعة مثل الإيجار والشراء ، ولن يتطلب المشروع أية اعتمادات مالية من القائمين على المشروع ، ولهذا فإن ثمرتها ستعود على العالم المتحضر (أي الغربي) بأسره .

ورغم أن هذه المذكرة قد كُتبت قبل عشرين عاماً من ميلاد هرتزل ، فإن كل ملامح المشروع الصهيوني موجودة فيها ، وخصوصاً فكرة توظيف وضع اليهود الشاذ داخل المجتمعات الغربية لخدمة هذه المجتمعات ، وذلك عن طريق نَقْلهم ليصبحوا كتلة عضوية واحدة لا تخدم دولة غربية واحدة وإنما الغرب بأسره .

وفي عام ١٨٧٦ ، كتب شافتسبري مقالاً آخر يطرح فيه مرة أخرى أفكاره الصهيونية بدقة ووضوح بالغين ، فقد أكد أن سوريا وفلسطين ستصبحان شديدتي الأهمية من الناحيتين الجغرافية والتجارية بعد فترة وجيزة . وبعد الحديث عن الأمجاد الغابرة القديمة ، يتساءل شافتسبري فيقول : من تجار العالم بالدرجة الأولى ؟ والسؤال مجرد سؤال خطابي ، لكن الإجابة معروفة ، ثم يستطرد : "إن فلسطين في حاجة إلى السكان ورأس المال ، وبإمكان اليهود أن يعطوها الشيئين معاً ، وإنجلترا لها مصلحة في استرجاعهم لأنها ستكون ضربة لإنجلترا إن وُضع منافسوها في سوريا . لكل هذا ، يجب أن تحتفظ إنجلترا بسوريا لنفسها كما يجب أن تدافع عن قومية اليهود وتساعدهم حتى يعودوا فيكونوا بمنزلة الخميرة لأرضهم القديمة . إن إنجلترا أكبر قوة تجارية وبحرية في العالم ، ولهذا فلابد لها أن تضطلع بدور توطين اليهود في فلسطين . . . وهذه ليست تجربة مصطنعة . . . إنها الطبيعة . . . إنه التاريخ" .

ويُلاحَظ أن الديباجة الدينية هنا قد اختفت تماماً وأن الديباجة الجغراسية (موازين القوى ـ الإمبراطورية ـ الموقع الجغرافي ـ الأهمية التجارية العسكرية) هي الأهم .

وقد قام شافتسبري بعدة محاولات لتحويل صهيونيته الفكرية

إلى صهيونية سياسية ، فتحدَّث مع بالمرستون عن استخدام اليهود كرأس حربة لبريطانيا في الشرق الأوسط . ففتح بالمرستون قنصلية في القدس (وهذه بداية الصهيونية الاستيطانية) بناءً على إلحاحه على ضرورة مقاومة مصالح الدول الأخرى وحتى تجد بريطانيا من تحميه (فقد كانت فرنسا تحمي الكاثوليك وكانت روسيا تحمي الأرثوذكس) . وعُيِّن وليام ينج قنصلاً لتقديم الحماية لليهود والطوائف المسيحية ، وهكذا قُدِّمت الحماية (أي التبعية لإنجلترا) لأي يهودي دون التثبت من أصله . وقد وافق الروس بين عامي ١٨٤٧ و١٨٤٩ على أن يقوم الإنجليز بحماية اليهود الروس ، المادة البشرية التي ستستخدمها الصهيونية الغربية . وكما يقول سوكولوف ، فإن حماية اليهود جزء من اهتمام إنجلترا السياسي بالمسألة الشرقية .

كما أن شافتسبري حث بالمرستون على أن يكتب للسفير البريطاني في إستنبول عن فكرة الدولة اليهودية . وقد تحرَّك بالمرستون بناء على نصيحة شافتسبري وأرسل خطاباً بهذا المعنى . وحتى بعد أن ترك بالمرستون الوزارة ، استمر شافتسبري في نشاطه . وبدأ في وَضْع الأساس العملي لتحقيق حلمه في استرجاع اليهود إلى فلسطين تحت رعاية إنجلترا البروتستانتية ، فساهم في جهود تأسيس أسقفية ألمانية إنجليزية تهدف إلى استرجاع اليهود . وقد اختير حاخام يهودي مُتنصِّر أسقفاً لها . وكان شافتسبري يَعُدُّ هذا تتويجاً لجهود جمعية اليهود ، ذلك أن تأسيس الأسقفية كان بمنزلة العلامة على ابتداء عودة اليهود .

وقد أصبح شافتسبري رئيساً لصندوق استكشاف فلسطين . ورغم أنه يؤكد في كتاباته دائماً أن روح العودة موجودة عند اليهود منذ ثلاثة آلاف عام ، وأن الأمة اليهودية أمة عضوية تحن إلى وطنها ولابد أن تحصل عليه ، إلا أنه يُلاحَظ أن اليهود الحقيقيين الذين يقابلهم في الحياة تنقصهم الوحدة التي يفترض هو وجودها حسب رؤيته الإنجيلية الحرفية . وعلى كلٍّ ، فإنه يذكر في أحد خطاباته إلى بالمرستون أن اليهود "غير متحمسين للمشروع الصهيوني ، فالأغنياء سيرتابون فيه ويستسلمون لمخاوفهم ، أما الفقراء فسيؤخرهم جَمْع المال في بلاد العالم ، وسوف يفضل بعضهم مقعداً في مجلس العموم في بريطانيا على مقعد تحت أشجار العنب والتين في فلسطين . وقد تكون هذه أحاسيس بعض الإسرائيليين الفرنسيين ، أما يهود ألمانيا الكفار فيُحتَمل أن يرفضوا الاقتراح" .

وعلى هذا ، فإن شافتسبري قد اكتشف المشكلة الأساسية في الصيغة الصهيونية الأساسية وهي أن المادة البشرية المُستهدَفة لن تخضع بسهولة لأحلامه الإنجيلية الحرفية الاستيطانية ولن تقبل ببساطة أن يتم انتزاعها من أوطانها .

جيمس فين (١٨٠٦-١٨٧٢)

James Finn

صهيوني غير يهودي كان يعمل قنصلاً بريطانياً في القدس من ١٨٤٥ حتى ١٨٦٢ . كان من رواد الدعوة لتوطين اليهود في فلسطين واعتاد مصادقة اليهود ووَضْعَهم تحت الحماية البريطانية . ففي عام ١٨٤٩ أقنع وزارة الخارجية البريطانية بأن تزود يهود روسيا (في فلسطين) بالحماية بعد أن رفضت الدولة الروسية أن تفعل ذلك . وقد انفق أموالاً كثيرة على تمويل مزارع ومشروعات استيطانية يهودية ، ولكنه أفلس بعد فترة ، كما اشترك في نشاطات تبشيرية وحاول توطين بعض اليهود المتنصرين في قرية بيت لحم لكنه تخلى عن هذا المشروع عام ١٨٦٤ بسبب رفض اليهود المشاركة في أيٍّ من هذه المشاريع . وكانت زوجته هي الأخرى متحمسة للمشروع الصهيوني ، ولذا أسست جمعية تشجيع العمل الزراعي اليهودي في الأرض المقدَّسة .

ألَّف فين عدة كتب عن اليهود نشرتها زوجته منها **تقليب الأزمنة** (١٨٧٦) ، و **يهود الصين** (١٨٤٩) ، و **مستعمرة اليهود اليتيمة في الصين** (١٨٧٢) ، و**السفارد** (١٨٤١) .

تشارلز تشرشل (١٨٠٧-١٨٦٩)

Charles Churchill

ضابط إنجليزي صهيوني من أوائل من دعوا إلى عودة اليهود إلى فلسطين . وهو من أسرة تشرشل الإنجليزية الشهيرة التي عملت في خدمة التاج البريطاني فترة طويلة ، سواء في الجيش البريطاني أو في شركة الهند الشرقية .

وُلد في مدراس بالهند عام ١٨٠٧ ، والتحق بالجيش البريطاني منذ شبابه المبكر (١٨٢٧) وخدم في البرتغال وإسبانيا في الفترة بين عامي ١٨٢٧ و١٨٣٦ حيث شارك في الحروب الأهلية التي اندلعت في شبه جزيرة أيبريا ، وترقَّى في سلك الجندية سريعاً .

شهدت تلك الفترة صعود قوة مصر إبان عهد محمد علي حيث ساعدت القوات المصرية السلطان العثماني على إخماد ثورة اليونان رغم تَعرُّض الأسطول المصري حديث العهد للغرق في نافارين بعد هجوم أساطيل الدول الأوربية عليه . وبعد انتصار القوات المصرية على القوات العثمانية عام ١٨٣٨ وتسليم فوزي باشا قائد الأسطول

العثماني سفنه لمحمد علي ، اجتمعت الدول الأوربية في لندن وأرسلت إنذاراً لمحمد علي للانسحاب من الأراضي العربية التي كانت تابعة لتركيا في سوريا والحجاز وكريت واليمن . وقد رفض محمد علي الإنذار ، فأرسلت الدول الأوربية مجتمعة حملة على بيروت عام ١٨٤٠ . وفي ٣ نوفمبر ١٨٤٠ ، سقطت عكا ، وكان تشارلز هنري تشرشل أحد الضباط المشاركين في الحملة . وقد تزامنت هذه الأحداث مع قضية داخلية صغيرة ، إلا أن ما يدور في المنطقة نفسها جعلها قضية كبيرة ألا وهي الحادثة التي سُمِّيت بـ «قضية دمشق» . فقد اختفى راهب كاثوليكي وخادمه ، وقام القنصل الفرنسي المعادي لليهود بإثارة حاكم دمشق ضد مجموعة من العائلات اليهودية على اعتبار أن اليهود قد قتلوا الراهب وخادمه ، ووجهت لليهود تهمة الدم .

وقام شريف باشا حاكم دمشق بسَجْن هؤلاء اليهود . وقد أرسلت بريطانيا بعثة برئاسة سير موسى مونتفيوري لمصر حيث نجحت تلك البعثة في تحرير السجناء بالضغط على محمد علي ، وخصوصاً مع وصول القوات الأوربية إلى الشام .

وفي هذه الأثناء أيضاً ، قام روبرت بيل ولورد بالمرستون (عضوا البرلمان البريطاني) بالدعوة لإرسال اليهود إلى فلسطين ، وخصوصاً بعد تحرير الأراضي المقدَّسة من أيدي المسلمين . وانتشرت في إنجلترا الدعوة إلى إعادة "شعب إسرائيل إلى أرض إسرائيل" سواء من منطلق استعماري أو من منطلق ديني أصولي (حرفي) حيث تُعتبر عودة اليهود بداية الخلاص .

وقد لاقت تلك الدعاوى هوى في نفس تشرشل . ومع عودة مونتفيوري ، تقابل الرجلان في مالطة . وأعرب تشرشل في هذه المقابلة عن إحساسه العميق بأن الأقدار قد رتبت هذا اللقاء في هذا المكان بالذات في إشارة واضحة لفرسان حملات الفرنجة وغزوهم فلسطين . وقد حمَّله مونتفيوري رسائل وخطابات أمان إلى يهود دمشق . وفي دمشق دعاه رئيس الجماعة اليهودية التاجر والمالي الكبير روفائيل فارحي إلى حفل استقبال كبير حيث ألقى تشرشل كلمة عبَّر فيها عن رغبته وأمله بل يقينه في أن "هذه الوديان والسهول الجميلة التي يقطنها الآن العرب الجوالون وبسببهم تعاني من الخراب بعد أن كانت مثالاً للوفرة والرخاء وتملأ أرجاءها أغاني بنات صهيون، ستعود لإسرائيل في ساعة قريبة حيث إن اقتراب الحضارة الغربية من هذه الأرض يمثل فجر نهضتها الجديدة . فلتستعد الأمة اليهودية مكانتها بين الشعوب ، وليُثبت أحفاد المكابيين أنهم مثل أسلافهم العظماء" .

وقد كتب تشرشل خطاباً لمونتفيوري في الفترة نفسها يطلب فيه أن يأخذ اليهود زمام الموقف في أيديهم وأن يبادروا باتخاذ الخطوات الأولية نحو الاستيطان وأن على جميع اليهود تأييد مشروع الاستيطان ، وخصوصاً أن القوى الأوربية ستساعدهم في مساعيهم . كما بيَّن تشرشل في خطابه أن مساندة إنجلترا للدولة العثمانية هو زيفٌ كبير وأنه يجب إنقاذ فلسطين من براثنهم . ويمكن القول بأن خطاب تشرشل يشبه إلى حدٍّ كبير خطاب نابليون بونابرت لليهود عام ١٧٩٩ ، وهذا طبيعي فقد كان الكولونيل البريطاني الشاب معجباً للغاية بالكورسيكي المغامر وكان يرى في نفسه أحياناً المقدرة على تحقيق هذه الطموحات التي لم يحققها نابليون ، وخصوصاً مع إحساسه بأن البريطانيين قد حققوا ما فشل فيه الفرنسيون ألا وهو غزو عكا . من ثم ، فقد تكلَّم باسم حكومة جلالة الملكة مستخدماً خطاباً قريباً من خطاب نابليون . ومع هذا ، يمكن القول بأن خطاب تشرشل أكثر علمانية من خطاب نابليون إذ يُلاحَظ أن الديباجات الدينية فيه خافتة وباهتة للغاية .

وقد أثارت كلمة تشرشل ضجة كبيرة في الأوساط السياسية اليهودية الأوربية نشرتها جرائد يهودية ألمانية ووصفها البعض بأنها "بداية حقبة جديدة وخاتمة سعيدة للمحمة دمشق" . وكثُر ظهور أفكار مشابهة في كل أنحاء أوربا داعية شعب صهيون للنهوض وإقامة الهيكل في شكل أفخم من ذي قبل .

وبدأ تشرشل على الفور في اتخاذ خطوات عملية تتعلق بتنفيذ رؤيته ، فنصَّب نفسه (وهو القائمقام البريطاني) حامياً لليهود في دمشق حيث بدأ يعاملهم بوصفهم نواة الأمة اليهودية المُتخيَلة . ولأنه لم يقابل نجاحاً وسط صفوف يهود سوريا والشام عامة ، توجَّه إلى يهود أوربا فأرسل خطاباً للسير مونتفيوري طالباً منه المساعدة لإنقاذ اليهود من آلامهم وتعبئتهم للهجرة إلى فلسطين باعتبار هذا حلاً سعيداً للمسألة الشرقية . ووضع في هذا الخطاب خطة توطينية استيطانية كاملة حيث يساهم يهود أوربا الأغنياء في توطين أقرانهم الفقراء في فلسطين ، وأوضح أنه في مثل هذه المشروعات الضخمة يضحي المرء بكل عزيز لديه من مال ونفس . كما أكد أن البدو والأعراب قاطني هذه المنطقة لن يشكلوا عقبة كبيرة في وجه المشروع ، بل إن المشروع سيمثل قلعة تدرأ خطر هجمات البدو أو أطماع الطامحين أمثال محمد علي .

ورغم أن مونتفيوري تحمَّس شخصياً للمشروع إلا أن مجلس ممثلي يهود بريطانيا تغاضى عنه . وفي هذه الأثناء ، انعقد مؤتمر لندن لتقرير مصير الشرق حيث قرر قصر حكم محمد علي على مصر

فقط ، وعودة الشام وباقي الأراضي العربية للحكم التركي . وكانت قرارات مؤتمر لندن مخيبة جداً لآمال تشرشل الذي كان قد أصبح قنصل بريطانيا في دمشق . ورغم خيبة أمله وإحباطه ، إلا أنه استمر في أداء دوره كحام لليهود ومدافع عنهم ، الأمر الذي أثار حفيظة حاكم دمشق التركي ، وظهر العداء بينهما بوضوح في خطاب أرسله تشرشل للقنصل البريطاني في بيروت أعرب فيه عن اعتقاده بأن عودة الترك لحكم دمشق والشام هو انتصار للرجعية المسلمة .

وبالمقابل ، اتهمه الحاكم التركي بسوء السلوك وإثارة الاضطرابات والتخابر مع الدروز ، وقد أدَّى هذا إلى إعادته إلى إنجلترا . ولكن هذا أتاح له فرصة أخرى للقاء السير مونتفيوري الذي اعتذر بأن مؤتمر لندن عرقل خطة عودة اليهود لفلسطين التي اقترحها تشرشل . لكن تشرشل أخبره بأن ثمة خطة بديلة لها . وأرسل تشرشل للسير مونتفيوري خطاباً مفصلاً يتضمن هذه الخطة اقترح فيه خَلْق منصب خاص لمعتمد بريطاني لشئون اليهود ، كما طالب يهود أوربا وبريطانيا بالضغط لخلق مثل هذا المنصب ، ودعا إلى تكوين منظمة يهودية خاصة تمثل الشعب اليهودي تمثيلاً دبلوماسياً وسياسياً . كما عبَّر تشرشل عن أمله في أن يؤدي هذا إلى الإسراع بخلاص الشعب اليهودي . وكان رد مونتفيوري على هذه المقترحات سلبياً جداً حتى أنه لم يذكرها في مذكراته بل لم يُشر إليها . في المقابل ، عندما أبدى تشرشل رغبته في العودة إلى الشام ، سلمه مونتفيوري ، وهو المالي الكبير ، مبلغاً من المال لمساعدة يهود الشرق . لكن هذا الرفض المؤدب من قبَل مونتفيوري الاندماجي لخطط تشرشل التوطينية كان نهاية المشاريع الصهيونية عند تشرشل .

وعاد تشرشل إلى بيروت عام ١٨٤٢ وتزوج سيدة لبنانية واستقر هناك حيث عمل بالتجارة والمضاربات العقارية . وكانت له علاقات طيبة مع الدروز والمارونيين وتزوجت بناته من أفراد من أسرة شهاب الشهيرة .

وألَّف تشرشل كتاباً بعنوان **جبل لبنان** عام ١٨٥٢ دعا فيه الحكومة البريطانية لمساعدة اللبنانيين على التخلص من الحكم التركي .

وتَدخَّل تشرشل في السياسة الداخلية اللبنانية والصراعات بين الدروز والمارونيين مُتقلِّباً بين الفرقتين حسب قوة كل منهما . ومع مذابح عام ١٨٦٠ ، أصدر تشرشل كتاباً آخر بعنوان **الدروز والمارونيون تحت الحكم التركي من ١٨٤٠ حتى ١٨٦٠** اتهم فيه الدول الأوربية بالتقاعس عن أداء مهمتها لإنقاذ المنطقة من حكم الأتراك . وقد تعرَّف تشرشل في هذه الآونة إلى شخصية كان لها أثر كبير فيما بقي له من أيام هي الأمير عبد القادر الجزائري الذي ساهم بجهد كبير في إنهاء مذابح الشام عام ١٨٦٠ . وألَّف تشرشل عنه كتابه الأخير **حياة عبد القادر** الذي نُشر عام ١٨٦٧ بإهداء للإمبراطور نابليون الثالث . وكان هذا الإهداء محيراً للجميع ، فعبد القادر الجزائري كان عدو فرنسا اللدود كما كان تشرشل نفسه . ولكن يبدو أن خيبة أمل تشرشل في مشاريعه التوطينية والاستعمارية على يد البريطانيين هي التي دعته لهذا الإهداء . وتُوفي تشرشل عام ١٨٦٩ في لبنان .

وتُمثِّل شخصية تشرشل وحياته الصاخبة نموذج عصره أصدق تمثيل ، حيث اختلطت الأحلام الاستعمارية بالرؤى المشيحانية .

ولكن ، لم يكن بإمكان تشرشل أن يحقِّق أحلامه وطموحاته المشيحانية الاستعمارية والدولة الإسلامية العثمانية ما زالت موجودة وقوية إلى حدٍّ ما . إلا أن هذا لم يمنعه من الاستقرار في الشرق ومواصلة محاولة لعب دور داخل في سياسته .

والجدير بالذكر أن الصهاينة المحدثين يعتبرون تشرشل أحد الآباء الأوائل للحركة الصهيونية ، وهو بالفعل كذلك ، فخطبه وكتاباته تضم كل أبعاد الفكر الصهيوني ، أما تحركاته الدبلوماسية فتحمل كل سمات التحركات الصهيونية فيما بعد ، من إدراك ضرورة البحث عن راع استعماري للمشروع الصهيوني إلى ضرورة ضرب الدولة العثمانية . كما أنه أدرك الطبيعة الوظيفية للدولة الصهيونية ، وضرورة محاولة الاستفادة من الأقليات في المنطقة ، وأدرك أيضاً ضرورة أن يكون هناك صهيونيتان : صهيونية استيطانية وصهيونية توطينية .

بنـديتو موسـولينو (١٨٠٩-١٨٨٥)

Benedetto Musolino

صهيوني غير يهودي يستخدم ديباجات علمانية ، وسياسي إيطالي ورجل دولة تنبأ بعودة اليهود إلى فلسطين . وُلد في بيزو ، وعاش شبابه منفياً ، ثم انضم لجيش غاريبالدي وخدم كعضو في برلمان إيطاليا منذ عام ١٨٦١ . ألَّف سبعة كتب في الفلسفة والقانون والعدالة الاجتماعية . زار فلسطين أربع مرات وحرَّر كتاباً بعنوان **القدس والشعب العبراني** (١٨٥١) حث فيه بريطانيا على إقامة إمارة يهودية في فلسطين تحت التاج العثماني ، وذلك كحل للمسألة اليهودية في أوربا . وقام موسولينو بصياغة دستور نظام حكم هذه الإمارة حيث العبرية لغتها الرسمية واليهودية ديانتها ، وهو يمنح حق

الانتخاب لأولئك المتكلمين بالعبرية فقط ، كما تُمنَح الجنسية لليهود الذين يستوطنون هذه الإمارة ، وكذلك لغير اليهود الذي يطلبون ذلك . وتضمن الإمارة حق العمل وحرية التعبير ، وتشرف شركة قومية على توطين اليهود فيها . وقد حاول موسوليني أن يثير اهتمام عائلة روتشيلد بمشروعه دون جدوى .

جورج إليوت (١٨١٩-١٨٨٠)

George Eliot

صهيونية غير يهودية تستخدم ديباجات عضوية رومانسية ، واسمها الحقيقي هو ماري آن إيفانس . تدل كتابات جورج إليوت الأولى على أنها ، مثل معظم الصهاينة غير اليهود ، بدأت حياتها الفكرية برفض اليهود وتراثهم ، فهي ترى أن "كثيراً من أساطيرهم الأولى ، وكذلك كل أحداث تاريخهم ، تعاف النفس منها إلى أقصى مدى . . . إن كل شيء يهودي هو شيء وضيع على وجه الخصوص" (من خطاب لها عام ١٨٤٨) .

ومن الواضح أن جورج إليوت تنطلق من مفهوم الشعب العضوي المنبوذ . ولذا ، فقد نشرت رواية **دانيل ديروندا** (١٨٧٦) وهي رواية ذات طابع صهيوني عن يهودي يكتشف هويته (أو بتعبير أدق ما يتصوره جذوره العرْقية اليهودية) ويرى أن لا خلاص له إلا من خلال الحل الصهيوني ، أي من خلال الهجرة وتأسيس دولة يهودية . وتقدِّم الرواية صورة إدراكية جديدة لليهودي باعتباره بطلاً لتحل محل الصورة الإدراكية القديمة لليهودي باعتباره تاجراً أو مرابياً . وقد جاء في الرواية دعوة إلى مشروع صهيوني يموِّله أغنياء اليهود ويتم الإعلام عنه بكفاءة ، بحيث ينظم اليهود أنفسهم بهدف "تأسيس كيان يهودي . . . مركز عضوي للعرْق اليهودي" . يتم ذلك عن طريق هجرة عظمى ثانية تتحرك من خلالها روح الإنجاز السامية ، ليصبح اليهود أمة مثل كل الأمم . وهذا هو المشروع الصهيوني لإفراغ أوربا من اليهود عن طريق تهجيرهم خارجها ، وهو ، في جوهره ، مشروع معاد لليهود . وبطل القصة قد تم - على ما يبدو - رسم شخصيته بوحي من شخصية الضابط البريطاني جولد سميد الذي اكتشف هويته اليهودية في العشرينيات من عمره وذهب إلى فلسطين "ليحيي المركز العضوي" لشعبه !

والواقع أن **دانيل ديروندا** من أهم وثائق الصهيونية غير اليهودية ، ربما لا يعادلها في الأهمية سوى مؤلف أوليفانت **أرض جلعاد** . ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن كلاسيكيات الصهيونية غير اليهودية تسبق كلاسيكيات الصهيونية اليهودية بسنوات . وقد أثرت هذه الرواية تأثيراً عميقاً في رواد الفكر والأدب الصهيوني مثل بن يهودا وبيريتس وسمولنسكين وجوردن وليليتبلوم ، وقد تُرجمت القصة إلى العبرية وانتشرت بين يهود ألمانيا وغيرهم من الجماعات اليهودية . ووُصفت بأنها "وعد بلفور الأدبي" . لكن معظم النقاد يرون أن هذه الرواية ليست من أعظم روايات إليوت ، وأن مضمونها الصهيوني متضخم إلى حدٍّ كبير . كما أن كثيراً من أعضاء الجماعة اليهودية في إنجلترا رفضوا فكرة العودة القومية ، إذ كانوا يرون أنفسهم شعباً بالمعنى الروحي وحسب .

جولدوين سميث (١٨٢٣-١٩١٠)

Goldwin Smith

مؤرخ ومصلح تربوي بريطاني ، وهو نموذج جيد لليبرالي الصهيوني غير اليهودي المعادي لليهود . كتب سميث مقالاً عام ١٨٧٨ بيَّن فيها أن اليهودية دين قَبَلي منغلق ، وأن تمسُّك اليهود باليهودية في شتاتهم زادهم تعصباً . وأضاف أن هذا الدين فَقَد مضمونه الأخلاقي ولم يبق منه سوى العنصر ، أي أن تمسُّك اليهود بدينهم هو في واقع الأمر تعصُّب للعرْق . واليهود شعب عضوي متماسك ، ولكنه شعب عضوي منبوذ فهو محط بُغض الشعوب . وليس بإمكان اليهود أن يصبحوا مواطنين صادقين في انتمائهم لأوطانهم في دول أوربا التي تستضيفهم . ولذا ، يشكل وجودهم خطراً سياسياً على البلد الذي يحلون فيه (وهذه أطروحة أساسية في الأدبيات الصهيونية والمعادية لليهود) .

وكمعظم صهاينة عصره (من اليهود وغير اليهود) كان سميث يرى أن المسألة الشرقية يمكن حلها من خلال ربْطها بالمسألة اليهودية . فهو يرى إمكانية أن يعود بعض اليهود «شديدي العزلة» (أي يهود اليديشية) من شرق أوربا إلى فلسطين . وستنجز هذه العملية أمرين :

١ - سيساعد انسحاب الفائض البشري اليهودي المجتمعات الغربية على دَمْج العنصر اليهودي الأكثر اندماجية في المجتمع الأوربي .

٢ - سيتحدد وضع اليهود كقومية منفصلة منعزلة (كما هو الحال في اليونان) تقوم بملء الفراغ الذي سيخلفه حل الدولة العثمانية .

ولنا أن نلاحظ أن سميث قد اكتشف ظاهرة الصهيونيتين التوطينية والاستيطانية ، وأنه وضع يده على كثير من الأطروحات الصهيونية الأساسية وذلك قبل أن ينشر هرتزل كتابه **دولة اليهود** .

إدوارد كازالت (١٨٢٧-١٨٨٣)

Edward Cazalet

صهيوني غير يهودي يستخدم ديباجات علمانية وهو رجل صناعة بريطاني . كان يمتلك عدة مصانع في روسيا القيصرية ، ولكنه كان على معرفة بمسألة يهود شرق أوربا اليهودية فألَّف كتيباً بعنوان **سياسة إنجلترا في الشرق : علاقتنا مع روسيا ومستقبل سوريا** (١٨٧٩) بيَّن فيه كيف يمكن حل المسألة الشرقية والمسألة اليهودية من خلال الربط بينهما . وقد بيَّن كازالت أن السكان العرب غير صالحين من الناحية الحضارية والخلقية لأن يكونوا أسياد مصيرهم . وهذه هي الحجة الإمبريالية التقليدية لإثبات أن ثمة فراغاً في الشرق العربي ، يمكن أن تملأه القوة الإمبريالية بمعرفتها . وبالفعل ، اقترح كازالت أن تقوم الإمبراطورية الإنجليزية بتوطين اليهود في فلسطين وسوريا تحت الحماية البريطانية باعتبارهم مادة بشرية يمكن من خلالها تنمية المنطقة اقتصادياً .

وقد أرسل كازالت عام ١٨٨١ يهودياً يُدعى جيمس ألكسندر للقسطنطينية ليتفاوض على إقامة خط سكك حديدية من سوريا إلى بلاد ما بين النهرين على أن تُخصَّص الأراضي المجاورة للخط الحديدي للاستيطان ، وكانت خطته هي استقدام عمال يهود وتوطينهم في تلك الأراضي . وقد حصل كازالت على دعم دزرائيلي لمشروعه بهدف تفويت الفرصة على كلٍّ من الألمان والفرنسيين الذين كانوا يطمعون في القيام بهذه المهمة . واستمرت المباحثات عدة أعوام ، ولكنها مع الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ انتهت إلى لا شيء حيث لم تَعُد هناك حاجة لمثل هذه الخطة مع استقرار الطريق للهند بعد احتلال مصر .

لورانس أوليفانت (١٨٢٩-١٨٨٨)

Laurence Oliphant

صهيوني غير يهودي ، ومفكر يستخدم ديباجات علمانية . وهو أحد أصدقاء لورد شافتسبري السابع . عمل في السلك الدبلوماسي البريطاني بعض الوقت (في الشئون الهندية) ، كما كان عضواً في البرلمان الإنجليزي . وينطلق أوليفانت ، شأنه شأن معظم الصهاينة ، من فكرة الشعب العضوي المنبوذ ليدور داخل نطاق الفكر الألفي الاسترجاعي ، فاليهود جنس مستقل يتسم أعضاؤه بالذكاء في الأعمال التجارية وبالمقدرة على جَمْع المال ، ولكن وجودهم داخل الحضارة الغربية أمر سلبي لأن جذورهم في فلسطين .

وكان أوليفانت (منطلقاً من الصيغة الصهيونية الأساسية) يرى ، مثل كثير من السياسيين البريطانيين في عصره ، ضرورة إنقاذ الدولة العثمانية من مشاكلها المستعصية حتى تقف حاجزاً ضد التوسع الروسي . ويمكن أن يتم ذلك عن طريق إدخال عنصر اقتصادي نشيط في جسدها المتهاوي ووجد أن اليهود هم هذا العنصر . ولذلك ، دعا أوليفانت بريطانيا إلى تأييد مشروع توطين اليهود لا في فلسطين وحسب وإنما في الضفة الشرقية للأردن كذلك . وكان المشروع يتلخص في إنشاء شركة استيطانية لتوطين اليهود برعاية بريطانية وبتمويل من الخارج على أن يكون مركزها إستنبول (وقد لاحَظ بن هالبرن ـ وهو أحد مؤرخي الصهيونية المُحدَثين وأحد المؤيدين لها ـ أوجه الشبه بين هذه الخطة واقتراحات هرتزل فيما بعد) .

وكانت صهيونية أوليفانت تتسم بالعملية والحركية إذ لم يكتف بطَرْح أفكاره ، بل اتجه إلى فلسطين للبحث عن موقع مناسب للمُستوطَن المُقترَح ، واختار منطقة شرق الأردن شمالي البحر الميت (وتُسمَّى هذه المنطقة «جلعاد» في العهد القديم) ثم اتجه إلى إستنبول مع إدوارد كازالت (المموِّل الإنجليزي) لعَرْض مشروع سكة حديد وادي الفرات ، وقدما طلباً إلى السلطان بإعطاء اليهود قطعة من الأرض بعرض ثلاثة كيلومترات على حافتي الطريق المقترح .

وكانت تربط أوليفانت علاقة بعدد من الزعماء الصهاينة من اليهود في شرق أوربا مثل بيرتس سمولنسكين وأهارون ديفيد جوردون . وقد حضر مؤتمر فوكساني في رومانيا ، الذي عُقد في ٣٠ ديسمبر ١٨٨١ لمناقشة هجرة اليهود واستيطانهم في فلسطين . وكان لظهوره فعل السحر ، وانتشرت آراؤه بشأن توطين اليهود في فلسطين بدلاً من الولايات المتحدة حيث كان اليهود يتهددهم الاندماج . وقام أعضاء جماعة البيلو بالاتصال به ، وكتب له بعض أحباء صهيون يخبرونه بأن الخالق وحده هو الذي وضع في يده صولجان قيادة اليهود ، وسموه «المخلِّص الماشيَّح» أو «قورش الثاني» . ويبدو أنه لم يكن بعيداً عن تأسيس جماعة بيلو . وقد قام أوليفانت بطرح مشروع جماعة البيلو على السلطان العثماني للحصول على قطعة أرض في فلسطين ، وحضر أحد مؤتمرات جماعة أحباء صهيون ، كما عارض الجهود التي كانت تبذلها جماعة الأليانس لتهجير اليهود إلى الولايات المتحدة لإنقاذهم ، وقام بجَمْع توقيعات من اليهود على عريضة يؤكدون فيها رغبتهم في الهجرة إلى فلسطين لا إلى غيرها من البلدان . وبالفعل ، نجح أوليفانت في تهجير سبعين يهودياً من أصحاب الحرف إلى فلسطين .

وفي عام ١٨٨٠ ، نشر أوليفانت كتابه **أرض جلعاد** الذي نادى فيه بضرورة توطين اليهود في فلسطين ، كما شرح أبعاد فكره الصهيوني الذي أسلفنا الإشارة إليه . ومن القضايا الأساسية في الكتاب ، مشروعه الخاص بسكان البلاد من العرب . فبعد أن عبَّر أوليفانت عن عدم تعاطفه مع العرب باعتبارهم مسئولين عن إفقار فلسطين ، قسَّمهم إلى قسمين : بدو وفلاحين . واقترح طرد البدو ووَضْع الفلاحين في معسكرات مثل معسكرات الهنود في كندا ، على أن يتم استخدامهم كمصدر للعمالة الرخيصة تحت إشراف اليهود . وقد ترجم سوكولوف الكتاب إلى العبرية عام ١٨٨٦ ووزع منه ١٢ ألف نسخة ، وهو رقم قياسي بالنسبة إلى المنشورات العبرية في ذلك الوقت ، بل يُقال إنه كان أكثر الكتب المكتوبة بالعبرية شيوعاً . وقد عاد أوليفانت إلى فلسطين واستقر فيها مع سكرتيره اليهودي نفتالي إمبر مؤلف نشيد «هاتيكفاه» ، أي «الأمل» (وهو نشيد الحركة الصهيونية الذي أصبح النشيد الوطني الإسرائيلي فيما بعد) . وكان أوليفانت يهدف إلى مساعدة المستوطنين الصهاينة وإلى كتابة مجموعة من المقالات عن المستوطنات الصهيونية . وقد ألَّف بالفعل كتاباً آخر بعنوان **حيفا أو الحياة في فلسطين الحديثة** ، ومات في هذه المدينة الفلسطينية عام ١٨٨٨ (أما سكرتيره الصهيوني اليهودي فلم ترق له الحياة في فلسطين وهاجر منها إلى الولايات المتحدة) .

ولا يعبِّر أوليفانت عن كرهه للشعب العضوي المنبوذ ولا عن رغبته في التخلص منه عن طريق التشهير به أو التبشير بين أعضائه كما كان شافتسبري يفعل أحياناً ، وإنما عن طريق طَرْح مشروع متكامل للتهجير يتبناه اليهود بأنفسهم . كما أنه عمل على تخليص صهيونية غير اليهود من ديباجتها الدينية وإعطائها ديباجاتها العملية العلمية العلمانية ، بحيث أصبح بالإمكان تداولها بين أكبر عدد ممكن من المسيحيين واليهود والعلمانيين . كما أن أوليفانت نجح في التمييز بين النزعات الصهيونية التوطينية الخيرية التي قام بها يهود الغرب المندمجون لإنقاذ يهود الشرق والتخلص منهم وبين الرؤية الصهيونية الاستيطانية التي لا تحاول إنقاذ اليهود كبشر وأفراد وإنما تنطلق من فكرة الشعب العضوي المنبوذ الذي لا مكان له في العالم الغربي ويمكن توظيفه وحوسلته لصالح الغرب عن طريق توطينه في فلسطين (وقد مرّ على هرتزل عدة سنوات وعلى يهود شرق أوروبا عدة عقود قبل إدراك هذه الحقائق) .

وتتميَّز صهيونية أوليفانت عن صهيونية شافتسبري باقترابها من اليهود ومحاولة التوجه إليهم وتجنيدهم . ولعل ظروف المرحلة قد ساعدته على ذلك باعتبار أن محاولات التحديث في شرق أوروبا كانت في أربعينيات القرن ، حينما بدأ شافتسبري نشاطه ، لا تزال في بدايتها الناجحة ولم تكن قد تعثَّرت بعد ، بينما بدأ أوليفانت نشاطه الصهيوني مع بدايات التعثر . وتجدر ملاحظة أن أوليفانت يتحرك في صفوف اليهود بألفة شديدة لم نشهدها من قبل بين الصهاينة غير اليهود .

دانييل موردوفتسيف (١٨٣٠-١٩٠٥)
Daniel Mordovtsev

كاتب روسي صهيوني غير يهودي بشَّر بعودة اليهود لفلسطين . وموردوفتسيف أحد قادة الحركة القومية الأوكرانية المعروفة بعدائها العميق لليهود لأسباب تاريخية من أهمها اشتغال اليهود بالأرندا . عمل حتى عام ١٨٦٦ في وظائف حكومية مختلفة ، وبعدئذ انخرط في كتابة الأعمال الأدبية . زار فلسطين عام ١٨٨١ وقابل عدداً من المهاجرين اليهود الذين هربوا من مذابح أوديسا وطالب دول العالم مراراً وتكراراً بإعادة اليهود إلى فلسطين ، وقد ازدادت نشاطات موردوفتسيف في هذا الصدد بعد مذابح أوائل الثمانينيات وتعثُّر التحديث . وقد ألَّف موردوفتسيف عدة قصص عن اليهود منها **لماذا؟** و **بين المطرقة والسندان** ، و **هيرود** . وقد أبدى تأييداً شديداً للحركة الصهيونية عند ظهورها .

فيليب نفلينسكي (١٨٤١-١٨٩٩)
Philippe Newlinski

صهيوني غير يهودي ، بولندي الجنسية . كان يعمل صحفياً (رغم أصوله الأرستقراطية) ودبلوماسياً . ومن خلال عمله في السفارة النمساوية المجرية في القسطنطينية تعرَّف إلى العثمانيين وعرف الوضع في تركيا ودول البلقان . عاد إلى عمله الصحفي عام ١٨٨٠ وأسس في فيينا جريدته الخاصة **رسالة الشرق** . وقد تعرَّف إليه هرتزل عام ١٨٩٦ وجنده للدعوة إلى الأهداف الصهيونية ، وكان يدفع له لقاء جهوده وتعبه ، ولكنه بعدئذ تحمَّس للدعوة الصهيونية وأصبح مستشار هرتزل الموثوق به . حاول نفلينسكي أن ينظم لقاءً بين هرتزل والسلطان العثماني لكنه فشل ، ونجح فقط في أن يجعل البلاط العثماني يُقلِّد هرتزل نيشاناً . ولكنه نجح في تنظيم لقاء بين ولي عهد بلغاريا وهرتزل ، وكذلك نجح في مقابلة ملك صربيا وإقناعه بفكرة توطين اليهود في فلسطين . وحاول أن يكسب تأييد الفاتيكان وبسمارك للقضية الصهيونية .

لم يحضر نفلينسكي المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) بسبب

المرض ، لكنه حضر المؤتمر الثاني (١٨٩٨) وخصص عموداً في جريدته **الأخبار الصهيونية** . أرسله هرتزل عام ١٨٩٩ لمقابلة السلطان العثماني ولكنه مات أثناء عودته من المهمة . ولم يلاق نفلينسكي أية صعوبة في مقابلة الشخصيات الأوربية المهمة وإقناعها بالمشروع الصهيوني ، إذ كانت أوربا والغرب في أواخر القرن التاسع عشر وبداية التقسيم الإمبريالي للعالم على استعداد تام لتَقبُّل الأفكار الصهيونية . فالمشاكل الاجتماعية الداخلية كانت آخذة في التفاقم وأعداد اليهود كانت آخذة في التزايد ، وكان الاستعمار آخذاً في التوسع والتوحش وكانت الدولة العثمانية على وشك السقوط .

ويليام بلاكستون (١٨٤١-١٩٣٥)

William Blackstone

صهيوني غير يهودي ، يستخدم ديباجات مسيحية وعلمانية ، وهو رجل أعمال أمريكي من شيكاغو . أنفق الملايين على التبشير ، وتزعَّم حملة لعودة اليهود إلى فلسطين تمهيداً لعودة السيد المسيح وبداية العهد الألفي الذهبي . وكان لكتابه **يسوع قادم** (١٨٧٨) أثر كبير في الأوساط الشعبية البروتستانتية الأمريكية الإنجيلية ، وكان من أكثر الكتب رواجاً إذ بيع منه أكثر من مليون نسخة وترجم إلى ٤٨ لغة منها العبرية . وكان عدد الزعماء المسيحيين الذين أثار الكتاب انتباههم يفوق عدد من أثَّر فيهم أي كتاب آخر نُشر طوال عشرات السنين . وتعود أهمية بلاكستون إلى أنه نقل الصهيونية ذات الديباجة المسيحية من عالم التبشير والعقيدة إلى عالم الممارسة السياسية .

زار بلاكستون فلسطين عام ١٨٨٨ / ١٨٨٩ ونظم بعدئذ اجتماعاً يهودياً مسيحياً من أجل نشر الأفكار الصهيونية . وأرسل عام ١٨٩١ مذكرة (التماساً) إلى الرئيس هاريسون بعنوان "فلسطين لليهود" يحثه فيها على إعادة فلسطين لليهود باعتبار أن هذا هو الحل الرئيسي لمشكلة مذابح واضطهاد اليهود في روسيا القيصرية وتَزاحُم المهاجرين اليهود في البلاد الأوربية . وقد طلبت المذكرة من الرئيس الأمريكي أن يستخدم وساطته مع الدول الغربية والدولة العثمانية لعقد مؤتمر دولي لمناقشة حق اليهود في فلسطين . وقد وقع على الالتماس ٤١٣ شخصية يهودية ومسيحية مرموقة في الولايات المتحدة . ويُعَدُّ هذا بداية تشكيل جماعة الضغط الصهيونية في الولايات المتحدة ، ومما له دلالته أن صهيونياً غير يهودي هو العقل المدبر وراءها . وقد احتج الحاخام الإصلاحي إميل هيرش على هذا الالتماس وأعلن أن اليهود المحدثين لا يودون أن يعودوا إلى فلسطين ليكونوا أمة يهودية . ويبدو أن بلاكستون كان يتوقع مثل هذا الاحتجاج ، ولذا ضمَّن مذكرته (التماسه) تحذيراً من اليهود الاندماجيين الذين يدعون للاندماج في مجتمعاتهم . وقد أرسل بلاكستون (عام ١٩١٦) مذكرة مماثلة للرئيس ويلسون . واشترك عام ١٩١٨ في مؤتمر اتحاد الصهاينة الأمريكيين في فيلادلفيا ، الذي أعلن أن بلاكستون هو "أبو الصهيونية" . وقد كان أعضاء المؤتمر محقين تماماً في ذلك ، فنشاطه الصهيوني يسبق نشاط هرتزل ومؤلفاته كثيراً .

ويليام هشلر (١٨٤٥-١٩٣١)

William Hechler

صهيوني مسيحي وُلد في الهند حيث كان أبوه يعمل مبشراً مسيحياً إنجيلياً . عمل عام ١٨٧١ مبشراً في نيجيريا ، ثم عمل عام ١٨٧٤ معلماً لأطفال فريدريك دوق بادن الأعظم عم القيصر فيلهلم الثاني قيصر ألمانيا . اشترك هشلر عام ١٨٨٢ في اجتماع عقده بعض المسيحيين المرموقين لمناقشة إمكانية توطين المهاجرين من يهود اليديشية في فلسطين ثم ارتحل إلى القسطنطينية حاملاً رسالة إلى السلطان العثماني من الملكة فيكتوريا تطلب فيها السماح بتوطين يهود روسيا في الأراضي المقدَّسة .

تعرَّف إلى هرتزل من كتابه **دولة اليهود** وهو واعظ بالسفارة البريطانية في فيينا ، فأرسل خطاباً إلى دوق بادن يوصيه فيه بهذا الكتاب قائلاً : "إنه أول محاولة عملية وموضوعية وجادة لتعليم اليهود كيف يتحدون من جديد لتكوين أمة في أرض الميعاد التي وعدهم الإله بها" . وبعدئذ كرَّس هشلر جهوده لإقامة علاقة بين هرتزل وكلٍّ من دوق بادن والقيصر .

وثمة بُعد آخر لصهيونية هشلر ، فقد كان مولعاً بالحسابات الرامية إلى تحديد نهاية العالم وبداية العهد الذهبي الألفي وتحوُّل اليهود إلى المسيحية . وقد ضمَّن هذه الحسابات كتابه **استرجاع اليهود لفلسطين حسب تعاليم الأنبياء** (١٨٨٤) . ومن خلال حسابات الأرقام وما تصوَّره من قوة الحروف الرقمية في بعض النبوءات التوراتية والقبَّالية ، توصَّل إلى أن عودة اليهود ستكون بين عامي ١٨٩٧ و١٨٩٨ . وقد كتب مقالاً مطولاً في جريدة **دي فيلت** الصهيونية حول استنتاجاته النهائية والحاسمة عن الخلاص الأبدي الوشيك ، وأكد اقتناعه بأن الصهيونية هي الحل النهائي للوصول إلى الخلاص .

حضر هشلر المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، وشكره هرتزل

علناً على هذا ثم سافرا سوياً إلى فلسطين عام ١٨٩٨ حيث قابلا قيصر ألمانيا وقدم له هشلر ألبوماً مصوراً عن المستوطنات اليهودية . وقد فشلت جهود هشلر للوساطة بين هرتزل وألمانيا نظراً للعلاقة الوثيقة والتحالف القائم بين الإمبراطورية العثمانية والألمان . ومن ثم ، فقد أراد إقامة جسر آخر بين الصهاينة وبين الحكومات الأوربية ، فحاول تنظيم مقابلة لهرتزل مع قيصر روسيا (عدو العثمانيين اللدود) من خلال شقيق زوجة القيصر .

كان هشلر يحتفظ في منزله بمتحف صهيوني من مقتنياته عربة مونتفيوري ، وبعد موته أوصى بالمتحف لمتحف أرض إسرائيل . وقد تم نَقْل المتحف وعُرض في القدس .

ونلاحظ أن هشلر هو التجسيد الكامل للفكر الصهيوني ذي الديباجة المسيحية ، فتربيته المسيحية القبَّالية تجعله يعتقد في القدرة السحرية للأفكار ، وضرورة التنفيذ الحرفي للنبوءة ، فالعهد القديم لا يحوي صوراً مجازية أو مجاز ، وإنما هو نص مقدَّس لابد من تنفيذه حرفياً ، وكان اهتمامه باليهود من قبل الخطوات التمهيدية للتخلص منهم ، فلابد من عودتهم إلى أرض الميعاد ليأتي المسيح ثانيةً ويخلِّصهم من الشر الكامن فيهم عضوياً .

ونلاحظ أيضاً أن الجو العام في أوربا كان مهيئاً جداً لسماع الأفكار الغيبية المشيحانية (البلهاء) عند هشلر ، وقد كان من السهل عليه مقابلة ملكة إنجلترا وقيصر ألمانيا وقيصر روسيا بل الحصول على وعود منهم . ومن ثم ، فإننا نستطيع أن نرى بوضوح طبيعة هذه الفترة في تاريخ الحضارة الغربية التي سادها خليط من الأفكار العرْقية والعلمية والقبَّالية هيمنت فيها الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية التي تجعل الآخر أداة وضحية .

تشارلز سكوت (١٨٤٦-١٩٣٢)

Charles Scott

صهيوني غير يهودي وصحفي بريطاني وُلد في اسكتلندا ، وكان يمتلك صحيفة **المانشستر جارديان** ويعمل رئيساً لتحريرها ، وكان عضواً ليبرالياً في البرلمان (١٨٩٥ ـ ١٩٠٦) . قابل ايزمان عام ١٩١٤ وقدمه للويد جورج وهربرت صمويل وعدد آخر من الساسة البريطانيين ، ومن ثم فقد ساعد وايزمان وأصدقاءه في مداولاتهم مع الحكومة البريطانية التي أدَّت إلى صدور وعد بلفور .

كتب سكوت خطاباً لهاري ساخر يشرح فيه موقفه من الصهيونية فقال : "يجب أن نجعل اليهودي يهودياً كاملاً [وهو ما يعني أن وجوده في أي بلد خارج فلسطين يجعله يهودياً ناقصاً ، فهو عضو في شعب عضوي منبوذ] . ولا يمكن إنجاز هذا الأمر إلا بأن يُحسِّن صورته في عينيه وفي عيون العالم [وهو ما يعني أن صورته غير مرضية على الإطلاق بالنسبة للعالم وبالنسبة لنفسه ، أي أنها غير مرضية بشكل موضوعي]" . ويرى سكوت أن الوقت قد حان لتنفيذ هذا المشروع . وبعد أن دخلت تركيا الحرب العالمية الأولى ، أكد سكوت أهمية فلسطين بالنسبة للمصالح البريطانية (الدولة الوظيفية) .

كلــود كونــدر (١٨٤٨-١٩١٠)

Calaude Conder

ضابط بريطاني كان مسئولاً عن عملية مسح شمال فلسطين بالنيابة عن صندوق استكشاف فلسطين (وكان يُعَدُّ أحد مؤسسيه) مع تشارلز وارين . وقد ألَّفا معاً كتاباً من عدة أجزاء عنوانه **مسح فلسطين الغربية** . وقد قام العرب بالهجوم عليه وإصابته بالقرب من صفد عام ١٨٧٥ . وفي دراسته السابقة ركز كوندر على دراسة مصادر المياه فيها والتثبت من أماكن هذه المياه وحجمها ، فقام هو والملازم كتشنر (اللورد كتشنر فيما بعد) بَمسْح منطقة الخليل .

لم يكن نشاط كوندر (أو سير تشارلز وارين) علمياً محايداً ، ولم يَقصُر نشاطه على التنقيب ، بل كانت له ميول صهيونية واستعمارية واضحة . فقد أبدى اهتماماً بمشاريع السكك الحديدية المرتبطة تماماً بالمشروع الاستعماري . وكان يذهب إلى أن الهدف من تأسيس صندوق استكشاف فلسطين هو توضيح ما جاء في التوراة ، وهي عبارة تعني عادةً التفسير الحرفي العسكري للتاريخ المقدَّس الذي ورد في التوراة . ومن أهداف الصندوق الأخرى ـ حسب تصوره ـ مساعدة اليهود الذين سيكونون سكان البلاد في المستقبل ، إذ سيزودهم الصندوق بالحقائق الثابتة عن طاقات وإمكانيات البلاد . وقد تَعاوَن كوندر بالفعل مع أحباء صهيون ولورنس أوليفانت . وساهم في عملية بعث التسميات التوراتية القديمة وتحديد مواقعها الحديثة . وفي عام ١٨٩٢ قام بحملة تأييد للاستيطان اليهودي في فلسطين وذلك لتخفيف أثر ازدياد هجرة يهود شرق أوربا إلى إنجلترا . أما سير تشارلز وارين فكان ينادي بأن فلسطين تصلح لاستيعاب عشرة ملايين مستوطن يهودي (من فائض أوربا اليهودي ولا شك) .

كَتب كوندر عدة كُتب ، من أهمها كتاب عن تاريخ المملكة اللاتينية يُنوِّه فيه بأن الحملات الصليبية (أي حملات الفرنجة) حملات متحضرة وإلى أن مملكة القدس كانت نموذجاً للحكم العادل

والمعتدل (تماماً مثل الحكم البريطاني في الهند) ، أي أنه وضع حملات الفرنجة في إطارها الاستعماري . وكان يذهب إلى أن الاستعمار الإنجليزي قد أكمل ما فشل فيه الفرنجة ، فقد عادت قبرص إلى الأمة التي غزتها أيام ريتشارد قلب الأسد ، ونجح الإنجليز فيما أخفق فيه الملك لويس باحتلالهم مصر ، ولم يَعُد الشرق قادراً على صد الهجمات التجارية أو العسكرية الغربية ، أي أن الوقت قد حان لعودة اليهود إلى فلسطين مع انتشار الاستعمار الغربي الأنجلو ساكسوني !

وقد أصدر صندوق استكشاف فلسطين كتاباً بعنوان **المدينة والأرض** (١٨٩٢) ساهم فيه كوندر بدراسة عنوانها «مستقبل فلسطين» يعرض فيها مشروعاً صهيونياً مؤكداً فيه أن العنصر الفعال الوحيد القادر على النهوض بفلسطين وبمدينة القدس هم اليهود . وأشار إلى أن نهضة يهودية قد بدأت في الأرض المقدَّسة ، فبعد أن كان عدد اليهود لا يتجاوز المئات عام ١٧٩٣ أصبح عددهم أربعين ألفاً عام ١٨٩٢ ، ولم يعودوا أقلية مضطهدة جبانة وإنما أصبحوا يسيطرون على التجارة في القدس . وتنبأ كوندر بزيادة المستوطنات الزراعية اليهودية . وكلما ازداد رأس المال الأوربي والمستوطنون الأوربيون ازداد استقلال فلسطين عن الدولة العثمانية وسيعود اليهود باعتبارهم عرْقاً مستقلاً يعتمد على نفسه وهي عودة لا تعارضها الحكومات الغربية وإنما تنظمها . وإن أعاق أحد هذه العودة فينبغي حلها في قرقميش ومجدو (هرمجدون) ، أي بقوة السلاح . وهكذا تلتقي التوراة بالسيف ، كما هو الحال دائماً في الخطاب الصهيوني ذي الديباجات المسيحية .

يان سمطس (١٨٧٠-١٩٧٠)

Jan Smuts

صهيوني غير يهودي وسياسي ومحارب ومفكر من جنوب أفريقيا . شارك في حرب البوير (١٩٠٤ ـ ١٩٠٥) ثم شارك في حكومة الحرب البريطانية في الحرب العالمية الأولى . كان صديقاً شخصياً لحاييم وايزمان وداعية صهيونياً كبيراً . عمل على استصدار وعد بلفور لتحويل فلسطين إلى وطن لليهود وعلى فرض الانتداب على فلسطين . وكان سمطس يَعتبر وعد بلفور أعظم ما خرجت به الحرب من إنجازات . وقد ساعد على إنشاء الفيلق اليهودي وقال لجابوتنسكي عام ١٩١٧ : "إن أحسن فكرة سمعتها في حياتي هي أن على اليهود أن يحاربوا من أجل أرض إسرائيل" . وكان سمطس يعتقد أن الحركة الصهيونية تجسيد جديد لدولة جنوب أفريقيا التي حارب من أجلها عام ١٩٠٤ . وكان سمطس عنصرياً عنيفاً شرساً حين تولَّى رئاسة الوزارة في جنوب أفريقيا (١٩١٩ ـ ١٩٢٤ ، ١٩٣٩ ـ ١٩٤٨) ، فطبَّق أشد قوانين العزل العنصري قسوة وذُبح على يديه الآلاف من السود والملونين (فجنوب أفريقيا أرض بلا شعب ، تماماً مثل فلسطين بالنسبة للصهاينة) . اعترف سمطس بدولة إسرائيل فور إعلانها . ولا نستطيع أن نقول إن ثمة فكراً محدداً لسمطس ، ولكن يُلاحَظ أن عنصريته التي تترجم نفسها إلى رفض للآخر (الذي يقع خارج نطاق القداسة) تضرب بجذورها في نسق حلولي عضوي ، فهو يأخذ بالتفسيرات الحرفية للعهد القديم ويوظفها في تبرير استيطان الرجل الأبيض في أفريقيا واليهودي في فلسطين .

جوسيا ودجوود (١٨٧٢-١٩٤٣)

Josiah Wedgwood

سياسي بريطاني صهيوني غير يهودي ، وهو أول بارون من أسرة ودجوود . كان عضواً في البرلمان عن حزب الأحرار منذ ١٩٠٦ وحتى ١٩١٩ ، ومنذ ١٩١٩ عن حزب العمال ، وكان صديقاً لجابوتنسكي . شارك في الجهود السياسية التي أدَّت إلى وعد بلفور ، وكان يرى أن الصهيونية حركة ستعيد لليهود "تلك الثقة القومية الجماعية التي يبدو أنهم يفتقرون إليها" .

وأثَّر ودجوود في البعثة الأمريكية في مؤتمر السلام في فرساي وسافر بين الحربين في عدة مهمات صهيونية . ورأى ودجوود أنه ينبغي إقامة دولة يهودية حدودية على ضفتي الأردن . . تصير عضواً في الكومنولث البريطاني . وقال : لو تخلت الحكومة البريطانية عن الصهيونية لإرضاء العرب ، فسوف يكون هذا ضد مصالحها الحقيقية ، وعلى اليهود أن يحاربوا هذا بكل الطرق المتوافرة لديهم ، مشروعة كانت أم غير مشروعة .

في عام ١٩٢٦ ، قام ودجوود بجولة في الولايات المتحدة من أجل الصندوق التأسيسي الفلسطيني ، وقد نشر فيما بعد أحاديثه هناك في كتيب بعنوان **فلسطين : الحرب من أجل الحرية والمجد اليهوديين** . وفي عام ١٩٢٨ نشر كتابه **فلسطين : الحكم السابع** دعا فيه إلى إقامة سلطة يهودية ذات إدارة ذاتية في فلسطين ، على أن تكون جزءاً من الإمبراطورية البريطانية . وفي عام ١٩٢٩ ، أسَّس لجنة الحكم السابع التي انضم إليها عدد من أعضاء البرلمان .

عبَّر ودجوود الأفكار الصهيونية ودافع عنها في مجلسي العموم واللوردات ، كما شجع الهجرة غير الشرعية إلى فلسطين من أجل

توطين أبناء "موسى والأنبياء" فيها . ومن أغرب الجوانب في فكر ودجوود نظرته للصلة بين البريطانيين واليهود . فكلاهما ـ في رأيه ـ يعمل بالربا ، وأعضاء الشعبين "يتجولون" بين الشعوب الأخرى تجاراً ، ويكنون الاحتقار لمن يتعاملون معهم . ومن ثم ، فهم لا يتمتعون بمحبة الآخرين ، وعلى استعداد دائم لاستخدام كتبهم المقدَّسة لتبرير كل ما يحتاجون إلى تبريره في علاقتهم بالجنس البشري . ويُلاحَظ أن أفكار ودجوود رغم حماسها الشديد في تأييد الصهيونية لا تخلو من نظرة احتقار لليهود .

هربرت سايدبوثام (١٨٧٢-١٩٤٠)

Herbert Sidepotham

صهيوني غير يهودي . توصَّل إلى الصيغة الصهيونية الأساسية دون معرفة سابقة بأي يهود ، كان يعمل محرراً في **المانشستر جارديان** مع تشارلز سكوت . نشر عدة مقالات في المجلة كانت أهمها في ٢٢ نوفمبر ١٩١٥ حيث بيَّن أهمية فلسطين ، وقد كتب هذه المقالات في وقت بدأ فيه التفكير في تقسيم الدولة العثمانية ، فأبرز أهمية فلسطين . وقد اشترك في تأسيس مجلة **فلسطين** التي كانت تهدف إلى تعريف أعضاء النخبة في إنجلترا بفلسطين . وقد أثارت مقالاته في **الجارديان** انتباه وايزمان الذي التقى به عام ١٩١٦ . ويدور فكر سايدبوثام في إطار فكرة الشعب العضوي المنبوذ ، فهو يستخدم اصطلاحي «يهودا» و «السامرة» للإشارة إلى فلسطين . والواقع أن هذا ينبع من تصوُّره أن فلسطين ليس لها وجود قومي أو جغراسي مستقل عن اليهود . وبالنسبة إليه ، فإن فلسطين ليست مهمة بالنسبة لليهود الذين يعيشون فيها وحسب ، وإنما هي كذلك بالنسبة لكل يهود العالم ـ أي الشعب اليهودي ـ هذا الشعب القديم العريق صاحب الحضارة المرتبطة عضوياً بفلسطين . بل إن حضارة هذا الشعب هيَ الحضارة الطبيعية الوحيدة التي يمكن أن تنشأ هناك ، الأمر الذي يعني هامشية الحضارة العربية غير اليهودية . ولذا ، يذهب سايدبوثام إلى أن بلفور ، حين أطلق مصطلح «وطن قومي» على فلسطين ، فهو لم يكن يعطي اليهود شيئاً يخص شعباً آخر .

هذا هو الشعب العضوي ، ولكن الشعب العضوي المرتبط بفلسطين شعب منبوذ . فحضارته هي وحدها التي يمكن أن تحل محل الحضارة التركية ، وهذا هو سر نَفْع اليهود إذ يمكن توطينهم داخل إطار الدولة الوظيفية في فلسطين ذات الأهمية الإستراتيجية والسياسية بالنسبة لإنجلترا .

ولكل هذا ، يلخص سايدبوثام مواقف صهيونية غير اليهود بشكل مدهش في قوله : "إن الحجة من أجل الصهيونية قوية جداً بالنسبة لأمتنا (الإنجليزية) حتى أن الواجب ليدعونا أن نوجدها لو لم تكن موجودة بيننا" ، وهو يعني هنا أن اليهود كمادة استيطانية شيء يوجد في عقل أوربا وفي رؤيتها الإمبريالية للكون واليهود .

وماذا عن السكان الأصليين ، أي العرب ؟ يُلاحَظ تغييب العرب تغييباً تدريجياً في مصطلح سايدبوثام . وفي حديثه عن علاقة الشعب العضوي بفلسطين تتقرر نهاية العرب المحتومة حينما يشير سايدبوثام إلى ما يسميه عرب فلسطين البدائيين . . . فهم جنس أكثر ضعفاً وتنوعاً من "عرب اليمن والحجاز" (وكلمة «تنوع» هنا تعني «عدم التجانس» ، وعدم التجانس كان يُعدُّ عيباً أكيداً من منظور القومية العضوية) .

رينهولد نيبور (١٨٩٢-١٩٧١)

Reinhold Niebuhr

رجل دين بروتستانتي أمريكي له دراسات اجتماعية مهمة . صاغ نيبور أفكاره الأخلاقية والدينية في الفترة هي ١٩٤١ ـ ١٩٤٣ في مجموعة مقالات ومحاضرات أهمها **طبيعة ومصير الإنسان** أو ما عُرف باسم «محاضرات جيفورد» .

وقد أعلن نيبور غير مرة أن واقعيته ذات الطبيعة المشيحانية قد غذتها قراءات أقوال الأنبياء العبرانيين ، وقال : "لقد عملت كرجل دين مسيحي على تقوية المحتوى العبراني النبوءاتي للمنهج المسيحي" . وعبَّر نيبور عن مفهومه لليهودية ورفضه الحاسم للنشاط التبشيري المسيحي بين اليهود في الفصل السابع من كتابه **أمريكا التقية والعلمانية** (١٩٥٨) . وقد دعا ، منذ عام ١٩٤١ ، لإقامة وطن قومي لليهود ، وخصوصاً اللاجئين الأوربيين ، وذلك رغم ترحيبه باللاجئين في أمريكا . وقد منحته الجامعة العبرية في القدس درجة الدكتوراه الفخرية عام ١٩٦٧ . ويطلق عليه تشومسكي "مُنظِّر العنصرية الأمريكية الأول" .

تشارلز وينجيت (١٩٠٣-١٩٤٤)

Charles Wingate

ضابط بريطاني صهيوني مسيحي ، وُلد في الهند لعائلة ذات تاريخ في عمل الإرساليات المسيحية . بعد انضمامه للجيش في سن العشرين أُرسل عام ١٩٢٧ إلى السودان حيث بقي حتى عام ١٩٣٣ ، وتعلَّم أثناء ذلك اللغة العربية ولكنه لم يستطع قط التغلب

على كراهيته العميقة للإسلام والقرآن ، وكان جده مبشراً . وفي عام ١٩٣٦ ، نُقل إلى فلسطين كضابط مخابرات ، لدراسة الموقف السياسي والعسكري ، وهناك ظهر حماسه الشديد للصهيونية ، ولكنه كان كمعظم الصهاينة غير اليهود ممن يفسرون أحداث العهد القديم تفسيراً حرفياً عسكرياً كأنها حدثت بالأمس (على حد قول بن جوريون) . وقد أشرف على تنظيم وتدريب الفرق الليلية الخاصة التابعة للهاجاناه وكانت له دراية خاصة بأساليب التعذيب وحصل لقاء ذلك على وسام الخدمة المتميِّزة البريطاني . كما ساهم في تطوير عمل المخابرات الصهيونية حيث أمد مصلحة المعلومات ببيانات وافية عن أوضاع الفلسطينيين وأبرز قياداتهم المناهضة للاستيطان الصهيوني والاحتلال البريطاني . وقام وينجت بدور مهم في تطوير الأساليب التي استخدمها الصهاينة في حملاتهم الإرهابية ضد الفلاحين الفلسطينيين ، وقد تركت أساليبه غير التقليدية بصمات واضحة على العمل العسكري الصهيوني فيما بعد . وبلغ اعتناقه الصهيونية درجة إعرابه عن ضيقه لعدم اتخاذ الحركة الصهيونية مواقف أكثر تحقيقاً لأهدافها ، ولهذا أطلق عليه الصهاينة اسم «الصديق» و«لورانس يهودا» .

وفي ربيع ١٩٣٨ ، أدلى وينجت بشهادة أمام لجنة ودهيد في القدس فذكر أن أي تَقدُّم قام به العرب في فلسطين إنما يرجع لليهود ، وأن دولة صهيونية صناعية حديثة تحت الحماية البريطانية سوف تحمي الوجود البريطاني في المنطقة ، وستمثل خير أمل للعالم الغربي . وقد نُقل وينجت من فلسطين عام ١٩٣٩ ، وعند عودته إلى بلاده التقى بعدد من كبار القادة العسكريين البريطانيين وعبَّر لهم عن رأيه بأن الطريقة الوحيدة أمام بريطانيا لاستعادة السلام في فلسطين هي أن تَتبنَّى سياسة مماثلة للصهيونية .

ومع نشوب الحرب العالمية الثانية ، رغب وينجت في تولِّي قيادة جيش يهودي وعرض تكوين جيش من ٦٠,٠٠٠ مقاتل يهودي يتولَّى طرد إيطاليا من شمال أفريقيا ، إلا أن عرضه لم يلق موافقة . وقد عمل وينجت عامي ١٩٤٠ و١٩٤١ قائداً لقوات خاصة في إثيوبيا ، ثم أُرسل إلى الهند لتنظيم فرقة تتولَّى القيام بعمليات خلف الخطوط اليابانية في بورما . وقد قُتل وينجت في حادث طائرة ببورما ، ويُطلَق اسمه الآن على عدة أماكن في إسرائيل (قرية للأطفال ـ كلية التربية البدنية ـ ميدان في القدس ـ غابة أقامها الصندوق القومي اليهودي) .



٥
الصهيونية التوطينية

الصهيونية التوطينية : تعريف ـ الصهيونية التوطينية : تاريخ ـ الصهيوني اليهودي غير اليهودي ـ صهيونية الصالونات ـ صهيونية أثرياء الغرب اليهود المندمجين (التوطينية) ـ مونتيفيوري ـ هيرش ـ بيشوتو ـ روتشيلد ـ صهيونية الشتات ـ الصهيونية التوطينية بعد بلفور ـ برانديز ـ أوبنهايمر ـ موتزكين ـ لازار ـ هاس ـ وايز ـ فليج ـ فرانكفورتر ـ جولدبرج ـ كيش ـ سيلفر ـ جولدمان ـ جعون

الصهيونية التوطينية : تعريف
Settlement Zionism : Definition

«الصهيونية التوطينية» هي صهيونية اليهودي الذي يرفض الهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها ، ومع هذا يستمر في الادعاء بأنه صهيوني وتأخذ "صهيونيته" المزعومة شكل دَعْم الدولة الصهيونية مالياً وسياسياً والمساهمة في توطين اليهود الآخرين . ونحن نضع «الصهيونية التوطينية» مقابل «الصهيونية الاستيطانية» . وتاريخ الصهيونية التوطينية منفصل إلى حدٍّ كبير عن تاريخ الصهيونية الاستيطانية ، كما أن جماهير الأولى مختلفون بشكل جوهري عن جماهير الثانية . وترجمة كلمة «توطينية» باللغة الإنجليزية صعبة بعض الشيء ويمكن أن تكون «ستلنج Settling» بمعنى «من يقوم بتوطين آخر» ، ولكننا ترجمناها بكلمة «ستلمنت Settlement» نظراً لسلاستها ، ونظراً لأنها استُخدمت بهذا المعنى في أسماء المنظمات الصهيونية التوطينية على أن نترجم كلمة «صهيونية استيطانية» بـ«ستلركولونيال زايونيزم Settler Colonial Zionism» .

الصهيونية التوطينية : تاريخ
Settlement Zionism : History

«الصهيونية التوطينية» مصطلح قمنا بسكه لنشير إلى الصهيوني الذي يؤمن بأن الصيغة الصهيونية الأساسية (نَقْل بعض أو كل يهود أوربا خارجها) تنطبق على يهودي أو صهيوني آخر ولا تنطبق عليه هو شخصياً . وتقف صهيونية مثل هذا الصهيوني عند حد الدعم المالي والسياسي للمشروع الاستيطاني دون الهجرة بنفسه ، أي أنه يتخلى عن التطبيق الفعلي لأحد أهم جوانب الصهيونية (الاستيطانية) دون التخلي عن تأييده ودعمه . ولذا ، فإن الصهيونية التوطينية هي أهم أشكال التملص اليهودي من الصهيونية . والواقع أن تاريخ الصهيونية التوطينية مواز تماماً لتاريخ الصهيونية الاستيطانية وينقسم إلى مرحلتين أيضاً : مرحلة ما قبل هرتزل وبلفور وما بعدها .

المرحلة الأولى : مرحلة ما قبل هرتزل وبلفور .

١ ـ صهيونية غير اليهود : وهي صهيونية توطينية بطبيعتها ، إذ أن المادة البشرية المُستهدَفة هي اليهود وهم جماعة لا ينتمي إليها الصهيوني غير اليهودي .

٢ ـ صهيونية الأثرياء اليهود المندمجين وتُسمَّى أيضاً الصهيونية الخيرية : تبنَّى بعض أثرياء الغرب الصيغة التوطينية بهدف إبعاد يهود اليديشية المهاجرين إلى بلدهم . وقد أُسِّست مؤسسات توطينية لهذا الهدف .

ثم ظهر هرتزل وطوَّر الخطاب الصهيوني المراوغ وطرح صيغته الصهيونية والعقد الصهيوني الصامت الذي يسمح للصهاينة التوطينيين من الغرب والاستيطانيين من يهود اليديشية من الشرق بالانخراط في حركة سياسية واحدة (رغم تباين الأهداف) تحت مظلة الإمبريالية الغربية . ويتبنَّى الجميع (الصهاينة اليهود والصهاينة غير اليهود التوطينيون والاستيطانيون) الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ، ويُسقط عليها اليهود منهم الخطاب الحلولي الكموني العضوي . وقد أخذ وعد بلفور في الاعتبار هذا الانقسام حين أسقط كلمة «الجنس اليهودي» وحين أكد أن الوعد لم يخل بالحقوق والأوضاع القانونية التي يتمتع بها اليهود في أية دولة أخرى .

المرحلة الثانية : مرحلة ما بعد هرتزل وبلفور .

أصبحت الصهيونية التوطينية هي صهيونية الشتات أو الدياسبورا إذ تحولَّت الصهيونية التوطينية من صهيونية الأثرياء إلى صهيونية كل صهاينة العالم الغربي ، وأصبحت مهمتهم العمل من أجل دعم المُستوطَن الصهيوني (مالياً وسياسياً) . وقد كانت هناك توترات بين الاستيطانيين والتوطينيين في هذه المرحلة ولكنها ظلت تحت السطح بسبب حاجة المستوطنين للتوطينيين ، وبسبب انشغالهم

في قضية الاستيطان وطَرْد العرب وبسبب عجزهم عن الحركة بسهولة بين أعضاء الجماعات اليهودية في العالم وفي أروقة الحكومات الغربية . وبعد عام ١٩١٣ (المؤتمر الصهيوني الحادي عشر) ، تتغير الصورة بعض الشيء ، إذ يصبح الاستيطانيون (من شرق أوربا) قادة الحركة الصهيونية بلا منازع وتكتسب صهيونية الدياسبورا مضموناً جديداً وهو قضية الهوية إذ يصبح تقسيم العمل كما يلي : يدعم الصهاينة التوطينيون المُستوطَن الصهيوني ويصبح هو مركزاً للهوية اليهودية وركيزة أساسية لها .

وفي هذه الموسوعة ، حينما تكون الإشارة للصهيونية التوطينية ، فإن الإشارة تكون عادةً للمرحلة الثانية التي تتضمن الدعم المالي والضغط السياسي من أجل المُستوطَن الصهيوني وتدعيم هوية يهود الخارج . وينقسم الصهاينة التوطينيون إلى اثنين دينيين واثنين علمانيين .

الصهيوني اليهودي غير اليهودي

Non-Jewish Jewish Zionist

«الصهيوني اليهودي غير اليهودي» مصطلح قمنا بصياغته لوصف بعض زعماء الحركة الصهيونية في مرحلة تأسيسها ، كما يمكن استخدامه لوصف كثير من جماهير الصهيونية في الوقت الحالي . و«اليهودي غير اليهودي» هو يهودي فقد الإيمان الديني ، ومن ثم فإنه لا يمارس شعائر دينه ، كما أنه اندمج تماماً في مجتمعه بحيث لم يَعُد يتسم بأية سمات إثنية يمكن أن يُطلَق عليها «يهودية» إذ لم يبق من هذه الهوية إلا قشرة رقيقة لا أهمية لها ، ولكنه رغم ذلك يُصنَّف باعتباره يهودياً إما لأن الآخرين يقومون بتصنيفه كذلك رغماً عنه أو لأنه يدَّعي ذلك .

ونحن نذهب إلى أن مؤسسي الحركة الصهيونية من ذوي الخلفية الألمانية (هرتزل ونوردو ونوسيج) هم يهود غير يهود فقدوا كل ما يربطهم باليهودية ، ولكنهم وجدوا أنفسهم ، بسبب هجرة يهود اليديشية ، قد أُعيد تصنيفهم كيهود . وبدأ الهمس بشأن تهديد «اليهود» للأمن القومي ، ولذا فقد بدأ هؤلاء في البحث عن حل لمسألتهم اليهودية التي فُرضت عليهم فرضاً . وقد كانت الصيغة الصهيونية الأساسية مطروحة في أوربا ، فقام هرتزل باكتشافها واكتشاف الإمبريالية كآلية لتنفيذها وطوّر صياغته الهرتزلية المراوغة التي جعلت بإمكان يهود شرق أوربا قبول الصيغة الأساسية الشاملة وتهويدها . وكان بإمكان هرتزل اليهودي غير اليهودي أن يلعب هذا الدور لأنه كان يُعَد يهودياً في نظر عالم غير اليهود (بسبب القشرة اليهودية المتبقية) ، كما كان يُعَد غربياً من قبل يهود شرق أوربا إذ لم يروا فيه شيئاً يهودياً . ولذا ، أمكن هرتزل أن يقوم بدور الجسر الموصل بين هذين العالمين .

ورغم الاختلاف بين هرتزل وأثرياء الغرب المندمجين ، فإن هؤلاء أيضاً كانوا صهاينة يهوداً غير يهود وجدوا أنفسهم مشغولين بحل المسألة اليهودية رغم أنفهم ومتورطين في الحلول الصهيونية . ويُلاحَظ أن القيادة الصهيونية اليهودية غير اليهودية كانت دائماً مشغولة بإفراغ أوربا من اليهود وفي أسرع وقت وكانت لا تكترث إلا قليلاً بطبيعة الدولة الوظيفية المزمع إنشاؤها بتوجهها الإثني أو الديني أو العقائدي .

ويمكن القول بأن صهيونية هؤلاء اليهود غير اليهود لا تختلف كثيراً عن صهيونية غير اليهود ، فكلاهما ينظر للمادة البشرية المُستهدَفة من الخارج ، وكلاهما يحاول تخليص أوربا منها وتوظيفها لصالحها ولا يرى لها أية قيمة في حد ذاتها . وحينما تم تهويد الصيغة الصهيونية الأساسية واستبطنتها المادة البشرية ، استولت القيادات من يهود شرق أوربا على المنظمة الصهيونية وتخلّى الصهاينة اليهود غير اليهود عن القيادة بالاستمرار في الدعم المالي والمعنوي ، شأنهم في هذا شأن دول العالم الغربي .

وبعد تأسيس الدولة ، وبعد استيلاء الصهيونية على مقاليد الأمور بالنسبة للجماعات اليهودية والغرب ، حَدَث تطوُّر من نوع آخر إذ ظهر في الغرب اليهودي غير اليهودي مدَّعي اليهودية . وقد انضمت أعداد كبيرة من هؤلاء للحركة الصهيونية للحفاظ على بقايا هويتهم . وقد قبلتهم الحركة الصهيونية حتى يمكنها الاستمرار في ابتزازهم مالياً وتوظيفهم في دعم المُستوطَن الصهيوني وفي الضغط السياسي من أجله . ومثل هؤلاء الصهاينة اليهود غير اليهود على استعداد تام للقيام بهذه المهمة ما دامت لا تؤدي إلى وضع ولائهم لأوطانهم موضع الشك وما دامت لا تضطرهم إلى الهجرة ، وهو ما يعني أن نشاطهم الصهيوني يدور في نطاق المصالح الغربية والعقد الاجتماعي الغربي . ولذا ، يمكن القول بأن صهيونية اليهود غير اليهود (رغم اختلاف جذور اليهودية المزعومة من القسر الخارجي إلى الادعاء الذاتي) لم تتغيَّر ، وهي امتداد غربي داخل اليهود واليهودية وليست امتداداً يهودياً داخل الحضارة الغربية .

صهيونية الصالونات

Salon Zionism

«صهيونية الصالونات» اصطلاح سكه المفكر الصهيوني

العمالي بوروخوف ، ويشير إلى صهيونية أعضاء الطبقة الوسطى اليهود الذين لا يوجد لديهم حافز قوي لتأسيس الدولة الصهيونية ، ولذا فهم يتحدثون عنها ولكنهم ، بسبب موقعهم الطبقي ، لن يبحثوا بشكل جذري عن طريقة عملية لتأسيسها . ولم يجد المصطلح رواجاً ولم يستخدمه أحد في الأدبيات الصهيونية رغم أهميته ، وهو يكاد يرادف مصطلح «الصهيونية التوطينية» .

صهيونية أثرياء الغرب اليهود المندمجين (التوطينية)

Settlement Zionism of the Assimilated Wealthy Jews of Western Europe

«صهيونية أثرياء الغرب» شكل من أشكال الصهيونية التوطينية (بين اليهود في مرحلة ما قبل هرتزل وبلفور) ظهرت بين أثرياء الغرب اليهود المندمجين . وقد كان هؤلاء الأثرياء بمنزلة قيادة ليهود العالم بسبب نفوذهم المستمد من ثروتهم وتواجدهم في مواقع مهمة داخل التشكيل الحضاري الغربي ، فهم كانوا لا يزالون يلعبون دور الوسيط (شتدلان) التقليدي ، ويتشفعون لأعضاء الجماعات اليهودية عند الحكام والسلطات الرسمية . ولعل حادثة دمشق وتدخُّل موسى مونتفيوري من أهم الأمثلة على ذلك .

ومع النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، تدفَّق يهود اليديشية من شرق أوربا على غربها وتحوَّلت القضية بالتدريج من مجرد تشفُّع لهذا اليهودي أو تلك الجماعة إلى قضية توطين اليهود في أماكن متفرقة من العالم ، أي أنها أصبحت قضية الصهيونية التوطينية . والواقع أن تبنِّي أثرياء الغرب المندمجين أحد أشكال الصهيونية ينم عن تناقض عميق ، إذ أن طبيعة وضعهم في مجتمعاتهم كان يستند إلى تصوُّر أنهم أعضاء أقلية دينية وحسب لا يربطهم بأعضاء الجماعات اليهودية الأخرى سوى رباط واه ، وأن ولاءهم يتجه لأوطانهم بالدرجة الأولى والأخيرة ، وأن هويتهم القومية (الإنجليزية أو الفرنسية مثلاً) لا علاقة لها بانتمائهم الديني ولا تتأثر به . وهم في اندماجهم هذا يُعدُّون مثلاً حياً لانتصار المُثُل الليبرالية وعلى مدى عظمة الحضارة الغربية . ولكنهم بتورُّطهم في مشروع صهيوني (حتى لو كان توطينياً) ، يقرون ضمناً بوحشية الحضارة الغربية التي تقتلع أعضاء الأقليات التي تعيش بين ظهرانيها وبفشل المُثُل الليبرالية ومُثُل الاندماج والتحديث . ولكن أثرياء الغرب المندمجون وقعوا في هذا المأزق لأسباب خارجة عن إرادتهم ، فرغم عدم تَماثُل تجربة أثرياء الغرب مع التجربة اليديشية الحضارية والسياسية ، ورغم أن مصير أعضاء كل جماعة كان مرتبطاً تماماً بالحركيات التاريخية لمجتمعهم ، ومع تعثُّر التحديث في شرق أوربا (وهو تعثُّر صاحَبه انفجار سكاني حاد بين أعضاء الجماعات اليهودية) خرج مئات الألوف بل الملايين من اليهود الفائضين من شرق أوربا ووصلت جحافلهم إلى النمسا وفرنسا وشواطئ بريطانيا . وقد هدَّد هؤلاء اليهود المواقع الطبقية والمكانة المتميِّزة الجديدة التي كان يشغلها يهود الغرب المندمجون . بل يُقال إنهم كانوا يهددون الأمن الاجتماعي للدول التي يهاجرون إليها . وهنا حدث التشابك بين «مصير» يهود شرق أوروبا وأثرياء يهود الغرب (و«تشابك المصير» يختلف عن وحدة المصير التي يتحدث عنها الصهاينة) ، فيهود الغرب نظروا إلى القادمين على أنهم (على أسوأ تقدير) خطر يتهددهم أو على أنهم (على أحسن تقدير) إخوة في الدين سيئو الحظ يستحقون الإحسان . وقد عبَّر ذلك عن نفسه من خلال مشاريع صهيونية توطينية يمولها يهود الغرب لإغاثة يهود الشرق وللتخلص منهم في الوقت نفسه .

وقد كان أثرياء اليهود في الغرب ، مثل روتشيلد وهيرش ومونتفيوري ، على استعداد لتمويل مشروعات لتوطين يهود شرق أوربا في أية بقعة خالية (أو يُتصوَّر أنها خالية) خارج أوربا (مثل الأرجنتين) وظهرت المؤسسات التوطينية اليهودية المختلفة التي كان يدعمها هؤلاء الأثرياء (مثل الأليانس وجمعية الإغاثة التي كانت تهدف إلى توطين اليهود في مختلف أنحاء العالم وإلى تحسين أحوال أعضاء الجماعات اليهودية ، وخصوصاً في شرق أوربا في أوطانهم بما يكفُل عدم هجرتهم) . وكانت هذه المؤسسات تقوم بتدريب أعضاء الجماعات اليهودية حتى يمكنهم إما التكيف مع الأوضاع الاقتصادية الجديدة في أوطانهم الأصلية أو العمل في مهنة جديدة تحتاج إليها الأوطان الجديدة التي وُطِّنوا فيها .

ويجب تأكيد أن هذه المشاريع والمساعدات التي يمكن أن نطلق عليها «الصهيونية الخيرية» أو «صهيونية الإغاثة والإنقاذ» كانت تتسم بما يلي :

١ ـ قلّصت الصهيونية التوطينية نطاق اهتمامها ، فهي لا تهتم باليهود ككل ، وإنما بيهود شرق أوربا وحسب ، وخصوصاً الفقراء الذين يتم توجيه عملية الإنقاذ والإغاثة إليهم وحدهم (أما يهود الغرب أنفسهم فيتم إنقاذهم من يهود اليديشية . وقد لاحَظ هرتزل أن الصهيونية التوطينية تتضمن نزعة معادية لليهود) .

٢ ـ تتم عملية الإنقاذ بشكل عملي برجماتي خارج أي مشروع قومي أو سياسي يهودي مستقل ، فالصهيونية التوطينية معادية لما يُسمَّى «القومية اليهودية» ، ولذا فإن مشاريعها لم تكن مرتبطة بفلسطين أو أرض الميعاد ولا بالأفكار الدينية اليهودية التقليدية ولا باللغة

العبرية ، وكانت الأليانس (على سبيل المثال) تدافع عن استخدام الفرنسية .

٣ ـ يُلاحَظ أن كل شخصية ، وكل جمعية صهيونية خيرية ، كانت تتبع في نشاطها الدولة الأوربية التي تنتمي إليها ، فالأليانس كانت تتبع فرنسا وتحاول الدفاع عن المصالح والثقافة الفرنسية ، على عكس جمعية الإغاثة التي كانت تحاول الدفاع عن المصالح والثقافة الألمانية ، وبهذا يؤكد الصهاينة التوطينيون انتماءهم الكامل لأوطانهم .

٤ ـ لا يمكن إنكار أن روتشيلد ، أو غيره من أثرياء الغرب ، استفادوا كأفراد من نفوذهم في العالم الغربي ومن علاقتهم مع الحكومات الاستعمارية المختلفة في عملية شراء الأرض لتوطين الفائض اليهودي من شرق أوربا . ولكن هذا لا يغيِّر بتاتاً التوجُّه الكلي ذا الطابع الخيري الإغاثي الذي ينفر من الإطار العقائدي الصهيوني .

٥ ـ لما كانت عملية التوطين عملية إنقاذ وإغاثة بدون ديباجة قومية ، فإنها ستتم في أية بقعة من العالم (الأرجنتين أو شرق أفريقيا أو فلسطين) ، وبشكل قانوني عن طريق شراء الأرض . ولم يول صهاينة الغرب المندمجون مشكلة السكان الأصليين أي اهتمام لأن الأمر لم يكن يعنيهم كثيراً ، ولأن اهتمامهم كان ينصب بالدرجة الأولى على تخليص أوربا من فائضها اليهودي وتوطينه في أي مكان وبأية شرط (تجدُر الإشارة هنا إلى أنه ، على مستوى الممارسة ، كان مندوبو روتشيلد وجماعة أحباء صهيون يشترون الأرض في فلسطين ويطردون سكانها منها ويوطنون فيها اليهود) .

ويمكننا أن نقول إن أولى الاتجاهات الصهيونية بين اليهود هي صهيونية الأثرياء المندمجين في غرب أوربا . وقد توجَّه إليهم صهاينة شرق أوربا التسلليون . ويمكن أن نضع داخل هذا الإطار محاولات السير موسى مونتفيوري ، والبارون موريس دي هيرش المليونير اليهودي الذي ساهم بتبرعات سخية للأليانس وموَّل مشروعات توطين اليهود في الأرجنتين وغيرها من البلدان وأسَّس جمعية الاستيطان اليهودي (إيكا) لهذا الغرض ، وإدموند جيمس دي روتشيلد ، وجمعية الإغاثة اليهودية في ألمانيا ، وجمعية الأليانس ، والمحاولات المختلفة الرامية إلى توطين اليهود في الأرجنتين والبرازيل .

وقد ظهرت عدة مؤسسات توطينية استمرت في نشاطها حتى الحرب العالمية الثانية . بل لا يزال بعضها يمارس نشاطه في الوقت الحالي رغم اعتراض المنظمة الصهيونية العالمية .

ورغم أن يهود الغرب وأثرياءهم هم الذين مولوا عمليات التوطين الأولى ، فإنهم لم يكونوا قط مرشحين لقيادة الحركة الصهيونية لعدة أسباب :

١ ـ لم يوافق هؤلاء اليهود قط على المضمون القومي للتوطين الذي كان يهود الشرق يحاولون فرضه .

٢ ـ بعد أن أصبح المشروع الصهيوني جزءاً لا يتجزأ من المشروع الاستعماري الغربي ، رضخ يهود الغرب للأمر الواقع . ولكنهم آثروا ، مع هذا ، الاحتفاظ بمسافة بينهم وبينه ، فهم في نهاية الأمر مستفيدون من المُثُل الليبرالية السائدة في مجتمعاتهم ، وهي مُثُل تتناقض مع المُثُل التي ينطلق منها المشروع الصهيوني .

٣ ـ لم يكترث يهود الغرب بيهودية المشروع الصهيوني ، فما كان يعنيهم أساساً هو إبعاد يهود شرق أوربا عنهم . وهم ، في هذا ، كانوا أقرب للصهاينة غير اليهود منهم للصهاينة من اليهود ، ولذا فهم صهاينة يهود غير يهود .

٤ ـ لم تكن هذه القيادات تعرف شيئاً عن المادة البشرية اليهودية المستهدفة التي كان يُراد نَقْلها إلى فلسطين ، كما لم تكن تدرك لغتها ولا طموحاتها أو آلامها ، ولذا فقد كانت تنظر إليها من الخارج شأنها في هذا شأن صهيونية غير اليهود .

٥ ـ كانت قوة أثرياء الغرب في نهاية الأمر محدودة ، فقد كانوا يملكون أن يتوسطوا لدى السلطان العثماني ليُحسِّن أحوال اليهود أو ليمنحهم قطعة أرض ، ولكن لم يكن بوسعهم أن يطلبوا لليهود أرضاً ينشئون عليها دولة ، كما أنهم لم يكن عندهم أي إدراك لحتمية الاستعانة بالإمبريالية في أية عملية توطينية .

وحينما ظهرت الصهيونية التسللية ، حاول الصهاينة التسلل إلى فلسطين لإنشاء دولة يهودية دون مظلة إمبريالية (أي أن التسلليين ـ رغم اختلاف مقاصدهم عن مقاصد أثرياء اليهود في الغرب ـ وقعوا في الخطأ نفسه ، فقد نظروا إلى قضية الاستيطان دون إدراك حتمية الاستعانة بالإمبريالية) . ولذا ، فقد توجَّهت الصهيونية التسللية إلى روتشيلد وغيره طالبة منهم العون . ولعل عدم إدراك حتمية الاستعانة بالإمبريالية في عملية الاستيطان والتوطين هي الرقعة المشتركة بين التسلليين وأثرياء الغرب المندمجين ، وذلك رغم أن التسلليين استيطانيون والأثرياء توطينيون . ثم ظهر هرتزل الذي أدرك حتمية الاستعانة بالإمبريالية الغربية لإنشاء الدولة اليهودية ، فتخطى يهود الغرب وأثرياءهم وتسللي الشرق ، وتوجَّه إلى الدول الاستعمارية مباشرةً فسقطت القيادة في يده منذ البداية .

ويتفق هرتزل مع أثرياء الغرب التوطينيين في عدم اكتراثه بمشاكل الهوية والوعي ، فهو ينظر إلى يهود اليديشية من الخارج تماماً

كما ينظر إليهم أثرياء الغرب . ولكنه ، مع هذا ، طوَّر الصيغة المراوغة التي تركت الباب مفتوحاً أمامهم ليلقوا بالصدقات على الاستيطانيين دون أن تطأ أقدامهم أرض الميعاد نظير ألا يهاجمهم أحد أو يتهمهم بالتنكر ليهوديتهم . والواقع أن هذا جزء من العقد الصهيوني الصامت .

ومع صدور وعد بلفور ، دخلت الصهيونية التوطينية مرحلة جديدة تماماً ، فقد سقطت تهمة ازدواج الولاء إذ تحولت الصهيونية نفسها إلى مشروع تابع للحضارة الإمبريالية الغربية ، وتأييد مثل هذا المشروع يمكن أن ينبع من الولاء للوطن الأم ولا يتناقض مع وطنية المرء ، وهذا ما كان يعنيه برانديز حين قال : "كي أصبح مواطناً أمريكياً صالحاً ، يجب أن أصبح يهودياً أفضل ، وكي أصبح يهودياً أفضل يجب أن أصبح صهيونياً" ، ذلك أن الصهيونية واليهودية والوطنية الأمريكية أمور مترادفة بالنسبة له ولصهاينة الغرب التوطينيين ، ومن ثم أصبح بالإمكان اندماج الصهيونية الدبلوماسية الاستعمارية وصهيونية الأثرياء المندمجين لتظهر صهيونية الشتات التوطينية .

موسى مونتفيوري (١٧٨٤-١٨٨٥)

Moses Montefiore

ثري ومالي بريطاني يهودي ، زعيم الجماعة اليهودية في إنجلترا ، ومن كبار المدافعين عن الحقوق المدنية لليهود في إنجلترا والعالم . وُلد في بريطانيا لأسرة إنجليزية ذات أصول إيطالية سفاردية استقرت في إنجلترا في القرن الثامن عشر . وبدأ عمله كسمسار في بورصة لندن حيث حقق ثراءً سريعاً . وقد ارتبط بعائلة روتشيلد المالية الثرية من خلال المصاهرة ، الأمر الذي ساعده في مجال أعماله . وقد كان مونتفيوري من أوائل المشاركين في تأسيس البنوك الصناعية بالتعاون مع المؤسسة الإنجليزية ـ الأمريكية العاملة في مجال الماس والمال والتي اشترك في تأسيسها إرنست أوبنهايمر اليهودي الثري رجل الصناعة والمال في جنوب أفريقيا . وقد حقق مونتفيوري ثروة طائلة من خلال أعماله ، وهو ما مكَّنه من اعتزال العمل عام ١٨٢٤ . وقد كان مونتفيوري ثاني يهودي يتولى منصب عمدة لندن وأول يهودي يحصل على لقب «سير» .

وقد كرَّس مونتفيوري جهوده بعد ذلك للقضايا المرتبطة بأوضاع الجماعات اليهودية في شرق أوربا والعالم الإسلامي ، وزار فلسطين سبع مرات ، وقدم لمحمد علي باشا عام ١٨٣٨ خطة لتوطين اليهود في فلسطين تتضمن توفير وضع متميِّز لليهود وقدر كبير من الاستقلال الذاتي وتنمية المشاريع الزراعية والصناعية في فلسطين حتى يحقق اليهود الاعتماد على الذات . وفي المقابل ، اقترح مونتفيوري تأسيس البنوك في المدن الرئيسية في المنطقة لتقدِّم التسهيلات الائتمانية للمنطقة بأكملها . وقد ساهم مونتفيوري في تأسيس بعض المستوطنات الزراعية في الجليل ويافا ، وأسَّس أول حي يهودي خارج أسوار مدينة القدس القديمة ، كما أسس بعض المشاريع الصناعية . وقد التقى بمحمد علي مرة أخرى في القاهرة عام ١٨٤٠ لبحث قضية دمشق ، إلا أن مشاريعه في فلسطين تعثرت بعد خروج محمد علي من فلسطين تحت ضغط القوى العظمى في تلك الفترة . ومع ذلك ، نجح في إقناع السلطان العثماني بمنح الامتيازات التي كان يتمتع بها الأجانب لليهود في جميع أرجاء الإمبراطورية العثمانية ، وهو ما ساهم بدون شك في تحويلهم إلى عنصر أجنبي منبتّ الصلة بالمنطقة وذي قابلية خاصة للتحول إلى جماعة وظيفية استيطانية .

وقد اهتم مونتفيوري أيضاً بأوضاع الجماعات اليهودية في شرق أوربا ، فزار روسيا عامي ١٨٤٦ و١٨٧٢ لبحث حالتهم مع الحكومة القيصرية ، كما زار المغرب عام ١٨٦٣ ورومانيا عام ١٨٦٧ للغرض نفسه .

وقد اكسبته جهوده لصالح الجماعات اليهودية ، ومهاراته وحنكته الدبلوماسية ، وقدرته على الوصول إلى الحكام المناسبين ، مكانة واحتراماً كبيراً ، خصوصاً لدى الحكومة البريطانية حيث كان كثير من نشاطاته متفقة مع السياسات الاستعمارية البريطانية . وكان تأييده للاستيطان اليهودي في فلسطين ، شأنه شأن معظم الأثرياء اليهود المندمجين في الغرب ، يهدف إلى تحويل تيار الهجرة المتدفق من شرق أوربا على غربها بعيداً عنها ، لأن هذا التيار كان يهدد وضعه الطبقي والحضاري في إنجلترا . ولذلك ، كان من أهم اهتماماته تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج ، عن طريق ربْطهم بالأرض ومهنة الزراعة وإنشاء المستوطنات الزراعية وإدخال العلوم العصرية في المدارس اليهودية في شرق أوربا .

وقد واصل ابن أخته يوسف سيباج مونتفيوري (١٨٢٢ـ ١٩٠٣) نشاط خاله في فلسطين ، وتولَّى منصب نائب رئيس حركة أحباء صهيون . وقد أُعيد دفن جثمان مونتفيوري وزوجته في إسرائيل عام ١٩٧٣ .

موريس دي هيرش (١٨٣١-١٨٩٦)

Maurice de Hirsch

ثري ألماني يهودي ، ومؤسس جمعية الاستيطان اليهودي ، وأول من فكر في إعادة توطين اليهود على نطاق واسع . وقد وُلد هيرش لعائلة يهودية ثرية ومرموقة وكان والده من يهود البلاط . وقد تلقى في صباه دراسة دينية وتعلَّم العبرية . وفي بروكسل ، اشتغل في مؤسسة مصرفية كبيرة مملوكة لعائلة يهودية مالية ذات مكانة مرموقة في بلجيكا ، هي عائلة بيسخوفشايم . وقد ارتبط هيرش بهذه العائلة من خلال الزواج ، وهو ما سهَّل له البدء في مشاريع تمويل بناء السكك الحديدية في تركيا والنمسا ودول البلقان . وقد كان للمموِّلين اليهود بصفة عامة (في القرن التاسع عشر) دور مهم في تمويل بناء السكك الحديدية في أوربا وهو مجال كان لا يزال في بداياته ، وبالتالي كان ينطوي على كثير من المجازفة . إلا أن تراث اليهود كجماعة وظيفية ، وتَشعُّب خبراتهم وعلاقاتهم المالية ، أهَّلهم لدخول هذه المجالات الجديدة وتحقيق قدر كبير من النجاح . وقد حقق هيرش من خلال نشاطه في هذا المجال ، وأيضاً من خلال نشاطه في المضاربات على سلعتي السكر والنحاس ، ثروة طائلة في عام ١٨٩٠ ، وإن كانت الشبهات تحيط بمصادر الجانب الأعظم من هذه الثروة . وليس أدل على ذلك من الفضيحة المالية التي تفجرت عقب نجاح هيرش عام ١٨٦٩ في إبرام صفقة مع الدولة العثمانية للحصول على امتياز إنشاء وتشغيل شبكة خطوط حديدية في البلقان ، حيث كُشف النقاب آنذاك عن الأساليب الملتوية التي لجأ إليها هيرش للحصول على الصفقة ، ثم أشكال التلاعب في تنفيذ المشروع نفسه .

وقد كان هيرش واعياً بالمسألة اليهودية في شرق أوربا ، فاهتم بنشاط الأليانس إسرائيليت يونيفرسل التعليمي ، وتبرع لها بمبلغ مليونَ فرنك ، ثم خصص لها صندوقاً يوفر لها عائداً سنوياً كبيراً . كما قدم للحكومة الروسية مبلغ مليونين من الجنيهات لإنشاء نظام تعليمي حديث ، إلا أن تبرعه رُفض نظراً لإصراره على فرض الوصاية على هذا المشروع . فقام بتأسيس جمعية الاستيطان اليهودي (إيكا) برأسمال قدره مليونين من الجنيهات دفعها كلها تقريباً . وكانت الجمعية تهدف إلى تهجير وتوطين اليهود في كندا والولايات المتحدة والأرجنتين والبرازيل وتحويلهم إلى قطاع اقتصادي منتج عن طريق تعليمهم الزراعة والحرف المختلفة . ويمكن فَهْم اهتمام هيرش سواء بتعليم يهود شرق أوربا أو بإعادة توطينهم في ضوء حقيقتين : أن الهجرة من الشرق كانت تهدد وَضْع يهود الغرب المندمجين ، وهو ما دفع هؤلاء إلى محاولة إبعاد هذه الهجرة من أوربا إما عن طريق إعادة توطين اليهود في دول أخرى ، ومن ناحية أخرى عن طريق إعادة تعليمهم حتى يكتسبوا خبرات صناعية وزراعية تؤهلهم للانضمام للمجتمع الأم الذي لم يَعُد بحاجة إلى اليهودي بخبراته القديمة . كما أن حركة توطين اليهود كانت تتم في إطار اهتمام أوربا بإنشاء مجتمعات استيطانية في الدول المختلفة في آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية كجزء من سياسة التوسع الاستعماري .

وقد حاول أحباء صهيون وهرتزل أن يطلبوا من هيرش العون لمشاريعهم ولكنه اعتبر محاولة إنشاء دولة صهيونية في فلسطين مجرد وهم كبير . ومع ذلك ، فقد ظل على إيمانه بإمكانية تحويل يهود أحياء الجيتو في شرق أوربا إلى شعب زراعي . وقد استمرت جمعية الاستيطان اليهودي في نشاطها بعد وفاته ، لكن صندوقها تحوَّل لخدمة الاستيطان في فلسطين . وفي عام ١٩٢٣ ، تم دَمْج مؤسستي روتشيلد وهيرش تحت اسم بيكا (هيئة الاستيطان اليهودي في فلسطين) وبلغ مجموع ما امتلكته هذه المؤسسة الموحَّدة خلال ربع قرن (١٩٢٢ ـ ١٩٤٨) ما مساحته ٤٥ ألف دونم ، أو ثلث ما كان بحوزة اليهود من أراض عند إعلان قيام إسرائيل .

بنيامين بيشوتو (١٨٣٤-١٨٩٠)

Benjaminn Peixotto

محام ودبلوماسي أمريكي يهودي . وُلد في نيويورك لعائلة يهودية سفاردية هاجرت إلى الولايات المتحدة في أوائل القرن التاسع عشر قادمة من أمستردام . عاش في كليفلاند ، واشتغل في تجارة الملابس ، كما درس القانون ونشط في السياسة وساهم بالافتتاحيات السياسية في إحدى صحف كليفلاند المحلية . كما نشط في مجال شئون الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، فانضم إلى منظمة أبناء العهد (بناي بريت) عام ١٨٦٣ وانتُخب رئيساً للمحفل الأعلى في العام نفسه واحتفظ بهذا المنصب لمدة أربع دورات . وكان بيشوتو وراء جهود المحفل لإقامة ملجأ للأيتام اليهود في كليفلاند عام ١٨٦٩ . كما كان من مؤسسي اتحاد الطوائف الأمريكية العبرية وجريدة **منوراه مثلي** . وتعود أهمية بيشوتو إلى أنه اختير أول قنصل عام أمريكي لدى رومانيا بعد أن رشحه الرئيس الأمريكي يوليسس جرانت لهذا المنصب عام ١٨٧٠ وذلك بإيعاز من بعض أثرياء اليهود الأمريكيين ، وخصوصاً عائلة سليجمان المالية الثرية . وقد جاء ذلك بعد تدهور أوضاع الجماعة اليهودية في رومانيا وتزايد حدة

الاضطهاد ضدهم ، فكان الغرض من إرسال بيشوتو الضغط على الحكومة الرومانية لإعتاق اليهود وتحسين أوضاعهم . ونظراً لأن الحكومة الأمريكية لم توفر التكاليف المادية لهذا المنصب ، فقد تكفَّلت بها مجموعة من الأثرياء اليهود الأمريكيين ومنظماتهم الإسرائيلية وعدد من الشخصيات اليهودية الفرنسية والإنجليزية البارزة وعلى رأسهم سير فرانسيس جولد سميد . وفي رومانيا ، نجح بيشوتو في إقامة علاقة طيبة مع الأمير شارل حاكم البلاد . وبادر بتأسيس مدارس يهودية وجمعيات ثقافية . كما حاول بيشوتو توحيد يهود رومانيا داخل إطار واحد ، فأسَّس منظمة «جماعة صهيون» التي ارتبطت فيما بعد بمنظمة أبناء العهد (بناي بريت) . وخلال السنوات الخمس التي أمضاها بيشوتو في رومانيا ، تقلَّص عدد الهجمات ضد اليهود وكذلك القوانين المناهضة لهم . كما لعب بيشوتو دوراً مهماً بالتعاون مع بعض الشخصيات اليهودية الأوربية البارزة في الدعوة إلى انعقاد مؤتمر بروكسل عام ١٨٧٢ الذي بحث أوضاع الجماعات اليهودية في دول البلقان .

والواقع أن إرسال بيشوتو إلى رومانيا وجهوده فيها ، والدعم المادي والسياسي الذي توافر له من قبَل كبار الشخصيات اليهودية الأمريكية والأوربية ، لم يكن بدافع إنساني محض أو بدافع إنقاذ بني جلدتهم من يهود رومانيا ودول البلقان ، فقد كان الدافع الأساسي والأهم تحسين أوضاع الجماعات اليهودية في رومانيا وفي شرق أوربا بشكل عام في ظل التدهور الاقتصادي والاجتماعي الذي كانت تشهده هذه المنطقة حتى لا تتدفق هجرتهم إلى غرب أوربا والولايات المتحدة بما قد يسفر عنه ذلك من تهديد للأوضاع الطبقية والمراكز الاجتماعية لأثرياء اليهود المندمجين . وتأكيداً لذلك، عندما اقترح بيشوتو فَتْح باب الهجرة أمام يهود رومانيا إلى الولايات المتحدة قوبل بهجوم شديد من المجموعات اليهودية الغربية التي كانت تدعمه ثم أعلنت رفضها التام والقاطع لهذه السياسة . كما أن يهود رومانيا أنفسهم عارضوا مثل هذا القرار الصهيوني لأنه يضع حقوقهم السياسية في وطنهم موضع التساؤل . وبطبيعة الحال ، كانت القوة الوحيدة التي أيَّدت جهود بيشوتو هي الحكومة الرومانية المعادية لليهود .

إدموند دي روتشيلد (١٨٤٥-١٩٣٤)

Edmond de Rothschild

أحد زعماء الفرع الفرنسي لعائلة روتشيلد المالية اليهودية ، وهو أحد الأبناء الخمسة لجيمس ماير دي روتشيلد (١٧٩٢ ـ ١٨٦٨) مؤسس فرع العائلة في فرنسا . ترجع أهميته لمساهمته الكبيرة في المشاريع الاستيطانية اليهودية في فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين .

بدأ اهتمام إدموند جيمس روتشيلد بقضية يهود اليديشية وبعملية توطين اليهود في فلسطين في الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، وهي الفترة التي شهدت هجرة أعداد كبيرة من يهود شرق أوربا إلى غربها وإلى الولايات المتحدة وغيرها من الدول الاستيطانية ، عقب تعثُّر عملية التحديث في شرق أوربا ثم توقُّفها . وقد تحمَّس روتشيلد وغيره من أثرياء اليهود المندمجين في أوربا للمشروع الصهيوني نظراً لتخوفهم مما قد يخلقه تدفُّق هذه الأعداد الكبيرة من يهود شرق أوربا ذوي الثقافة اليديشية الشرق أوربية المتميِّزة (والمتخلفة في نظرهم) والتقاليد الدينية المحافظة ذات الطابع اليهودي الواضح على غرب ووسط أوربا . فوصول مثل هذه الجماعات من يهود اليديشية كان يمثل تهديداً لمكانتهم الاجتماعية ومواقعهم الطبقية ، وبالتالي فقد تبنوا ما نسميه «الصهيونية التوطينية» ، أي محاولة يهود العالم الغربي المندمجين توطين يهود آخرين (عادةً من شرق أوربا) في فلسطين . وقد عبَّر روتشيلد نفسه عن هذه المفارقة في ملاحظة طريفة ذكية ، إذ سُئل مرة عن الوظيفة التي يود أن يشغلها عند تأسيس الدولة الصهيونية فقال : "سفيرها في باريس بالطبع" .

ولم يكن روتشيلد مؤيداً أول الأمر لصهيونية هرتزل السياسية ، وقد اتسمت أول مقابلة بينهما في باريس عام ١٨٩٦ بالفتور الشديد ، بل كان يرى أن هرتزل ليس إلا شنورر ، أي متسول مثل آلاف المتسولين من شرق أوربا الذين كانوا يتدفقون على وسطها وغربها . كما أن روتشيلد كان يذهب إلى أن المشروع الصهيوني برمته مشروع غير عملي ، وأن فلسطين لن تستطيع استيعاب هجرة جماعية ضخمة . وكان يرى أنه بالرغم من حاجة السلطان العثماني إلى النقود إلا أنه لن يمنح فلسطين للصهاينة لتأسيس دولة فيها ، وأنه سيكتفي بإعطاء بعض الوعود الغامضة التي لا قيمة لها . كما كان يخشى من أن تثير إقامة دولة يهودية مشاعر معادية لليهود وتؤدي إلى المطالبة بطرد اليهود من البلاد التي يعيشون فيها . لكل هذا ، كان روتشيلد يفضل أن تتم عملية الاستيطان في فلسطين بشكل هادئ وتدريجي . إلا أنه مع توسُّع الاستيطان اليهودي في فلسطين ، والذي تم تحت رعايته ، ونجاح المشاريع المختلفة التي أسسها هناك ، توطدت علاقته بالمنظمة الصهيونية ، وخصوصاً بعد الحرب العالمية الأولى ، حيث استخدم نفوذه للحصول على موافقة

فرنسا على وعد بلفور وعلى إدخال فلسطين تحت الانتداب البريطاني .

كما أن عملية توطين اليهود في فلسطين كان لها بعدها السياسي ، فروتشيلد كان مرتبطاً بالمصالح الرأسمالية الإمبريالية الفرنسية التي كانت تريد توسيع رقعة نفوذها في الشرق وكانت تفكر بحماس شديد في التركة التي سيتركها رجل أوربا المريض (الدولة العثمانية) . والمشروع الصهيوني هو في نهاية الأمر جزء من المخطط الإمبريالي لاقتسام الإمبراطورية العثمانية .

وقد بدأ روتشيلد اهتمامه بأعمال الاستيطان اليهودي في فلسطين بعد أن توجهت إليه حركة أحباء صهيون التي كانت تتولى أعمال الاستيطان في فلسطين في تلك الفترة ، كما توجَّه إليه زعماء مستوطنة ريشون لتسيون التي كانت تعاني أزمة مالية حادة مطالبين إياه بتقديم دعمه المالي لنشاطهم في فلسطين . وبالفعل ، ما كان بوسع المستوطنات الأولى التي أقيمت في فلسطين الاستمرار لولا معونات روتشيلد . وقد وصل إنفاقه على المستوطنين خلال الفترة بين ١٨٨٣ و١٨٩٩ نحو ١,٦٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني في حين كان إسهام حركة أحباء صهيون ٨٧,٠٠٠ جنيه إسترليني فقط . وقد اشترى روتشيلد أرضاً في فلسطين أواخر عام ١٨٨٣ لإقامة مستوطنة زراعية نموذجية لحسابه الخاص أطلق عليها اسم والدته . كما أسس عدة صناعات للمستوطنين الصهاينة مثل صناعة الزجاج وزيت الزيتون ، وعدداً من المطاحن في حيفا ، وملاحات في عتليت ، كما ساهم في تأسيس هيئة كهرباء فلسطين عام ١٩٢١ . إلا أن أهم الصناعات التي أقامها وأوسعها نطاقاً كانت صناعة النبيذ التي كان يسعى روتشيلد إلى ربطها بصناعة النبيذ المملوكة لعائلة روتشيلد في فرنسا .

وقد وصل حجم رعاية روتشيلد ودعمه للمستوطنات إلى الحد الذي أكسبه لقب «أبو اليشوف» أي أبو المُستوطَن الصهيوني . وحينما اختلف المستوطنون الصهاينة ، حذَّرهم ليو بنسكر ، أحد زعماء ومفكري حركة أحباء صهيون ، قائلاً "إن مفاتيح المُستوطَن الصهيوني توجد في باريس" . وكان روتشيلد يحكم المستوطنات من خلال جهاز بيروقراطي يشغله موظفون فرنسيون من اليهود وغير اليهود يراقب عمليات إنفاق أموال روتشيلد واستثمارها ويقدم الخبرات للمستوطنين في المجال الزراعي . وقد كانت هذه الرعاية البيروقراطية للمستوطنات مصدر مشاكل كثيرة ومثاراً للانتقادات الحادة نظراً لما كانت تثيره من خلافات بين المستوطنين من ناحية والموظفين الفرنسيين من ناحية أخرى . وقد دفع ذلك زعماء أحباء صهيون وزعماء المستوطنات إلى مطالبة روتشيلد بإنهاء هذا النظام عام ١٩٠١ . وكان روتشيلد قد حوَّل إدارة مشاريعه في فلسطين عام ١٨٩٩ إلى جمعية الاستيطان اليهودي وقدَّم لها منحة قدرها ٤٠٠٠,٠٠٠ فرنك من أجل أن تموِّل نفسها ذاتياً . وفي عام ١٩٢٤ ، أسس جمعية الاستيطان اليهودي في فلسطين والتي ترأسها ابنه جيمس أرماند (١٨٧٨ ـ ١٩٥٧) . وقد أسَّس روتشيلد من خلال هذه الهيئة أكثر من ٣٠ مستوطنة في جميع أنحاء فلسطين ، ووصل حجم إنفاقه على هذه المشاريع بعد عام ١٩٠٠ نحو ٧,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ذهبي .

وإلى جانب المشاريع الاقتصادية ، امتد نشاط روتشيلد إلى مجال التعليم حيث قدَّم دعماً مالياً عام ١٩٢٣ للمدارس الصهيونية في المُستوطَن الصهيوني والتي كانت تواجه أزمة مالية ، كما أمد حاييم وايزمان بالمعونة اللازمة لإنشاء الجامعة العبرية في القدس . وفي عام ١٩٢٩ ، عُيِّن روتشيلد رئيساً فخرياً للوكالة اليهودية التي كانت قد أنشئت قبل ذلك بسنوات قليلة . ولا شك في أن دعم روتشيلد وغيره من الأثرياء اليهود للحركة الصهيونية ، بصرف النظر عن النوايا أو المصالح الذاتية ، كانت مسألة أساسية ، لولاها ما قامت للحركة قائمة ولما استطاعت أن تضرب بجذورها في أرض فلسطين .

ويُعتبر روتشيلد نمطاً متكرراً له دلالة عميقة :

١ ـ فهو من يهود العالم الغربي الذين حققوا حراكاً اجتماعياً ووصلوا إلى قمة المجتمع ، ثم جاءت أفواج يهود اليديشية من شرق أوربا فهددوا مواقعهم الطبقية ، ومن ثم تحوَّل يهود العالم الغربي إلى صهاينة توطينيين .

٢ ـ تأييد روتشيلد للمشروع الصهيوني لم يكن تعبيراً عن هويته اليهودية أو جوهره اليهودي وإنما هو تعبير عن انتمائه الكامل للحضارة الغربية وللتشكيل الاستعماري الغربي . كما أن صهيونيته هي تعبير عن انتمائه الغربي وعن اندماجه في الحضارة الغربية ، فالمشروع الصهيوني لا يمثل أيَّ تحدٍّ للمشروع الاستعماري الغربي ، فالأول هو الجزء الأصغر أما الثاني فهو الكل الأكبر . ويُلاحَظ أن روتشيلد كان يعارض المشروع الصهيوني في بادئ الأمر ثم أيده بعد ذلك . والواقع أنه ، في معارضته ثم في تأييده ، ينطلق من انتمائه للتشكيل الحضاري الغربي ومن محاولة خدمة المصالح الغربية .

٣ ـ قام روتشيلد بدعم المشروع الصهيوني ، ولكنه دعم لم يكن يهدف إلى تأكيد استقلالية هذا المشروع إذ ظلت المفاتيح في باريس ولندن ، بل يُلاحَظ تزايد اعتماد المشروع على الغرب ثم انتقال مفاتيحه إلى واشنطن .

صهيونية الشتات

Diaspora Zionism

«صهيونية الشتات» أو «صهيونية الدياسبورا» هي الصهيونية التوطينية في مرحلة ما بعد هرتزل وبلفور .

الصهيونية التوطينية بعد بلفور

Settlement Zionism after Balfour

«الصهيونية التوطينية» مصطلح نستخدمه للإشارة لإيمان بعض الصهاينة أن الجانب الاستيطاني في الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ينطبق على يهودي أو صهيوني آخر غيره وهي تشير إلى كلٍّ من صهيونية أثرياء الغرب المندمجين (ما قبل هرتزل) ودعاة الصهيونية الدبلوماسية الذين لا ينوون الاستيطان في فلسطين . كما تشير إلى ما يسمَّى «صهيونية الشتات» أو «صهيونية الدياسبورا» ، في مرحلة ما بعد هرتزل وبلفور . وحينما نستخدم المصطلح دون تخصيص ، فإننا عادةً ما نشير إلى «الصهيونية التوطينية في مرحلة ما بعد بلفور» .

ونحن نضع «الصهيونية التوطينية» مقابل «الصهيونية الاستيطانية» . ولم تكن هناك فلسفة واضحة وراء صهيونية أثرياء الغرب المندمجين ، فقد تبنوا الحل الصهيوني لأسباب نفعية عملية واضحة (تحويل سيل الهجرة عن بلادهم لأية بقعة أخرى في العالم) وكان انتماؤهم لأوطانهم أمراً واضحاً تماماً ، ولذا فإنهم لم يكونوا في حاجة إلى أية اعتذاريات أو أنساق فلسفية أو فكرية لتبرير التناقض الكامن في موقفهم كصهاينة توطينيين يعيشون في أوطانهم ويسعدون بحياتهم فيها . وينطبق الموقف نفسه على دعاة الصهيونية الدبلوماسية .

ولكن الوضع مختلف تماماً بالنسبة إلى الصهاينة التوطينيين بعد هرتزل وبلفور ، وازداد الأمر حدة بعد إعلان الدولة الصهيونية إذ كيف يتأتى لأحد أن يُسمِّي نفسه صهيونياً (متشدداً في بعض الأحيان) ثم يضرب خيامه في باريس ولندن ونيويورك . ولذا ، فقد حاول بعض مفكري الصهيونية التوطينية تطوير رؤية متكاملة لوضعهم كصهاينة يرفضون الهجرة ، فحاولوا المزاوجة بين المُثُل الصهيونية التي ترى اليهود شعباً عضوياً منبوذاً معرضاً لكراهية الأغيار الأزلية من جهة ، وبين مُثُل حركة الاستنارة التي ترى أن كل الناس متشابهون ومتساوون من جهة أخرى . وهذه المحاولة هي محاولة لاكتشاف رقعة واسعة مشتركة بين المثل الأعلى الصهيوني الذي يؤمن به التوطينيون والمُثُل العليا الليبرالية التي تسيطر على المجتمعات التي يعيشون فيها . ولذا ، نجد أن المحاولة تتلخص في رفض الرؤية الحلولية الكمونية العضوية أو تقليص مجالها لتحل محلها أو تكملها رؤية نسبية تعددية ترى أن كل الأمور متساوية .

ينطلق مفكرو الصهيونية التوطينية من أن الصهيونية لا تعادي حركة التنوير اليهودية وإنما هي امتداد لها ، فالصهيونية تهدف إلى بعث الحياة اليهودية على أسس علمانية ، أي على الأسس نفسها التي تُبنَى عليها المجتمعات الغربية . إن الصهيونية تؤيد الانعتاق الذي نادت به حركة التنوير الأوربية وتُطبِّقه على اليهود ، والقومية اليهودية إن هي إلا قومية واحدة بين عديد من القوميات التي لها برنامج معيَّن يهدف إلى البعث القومي ، واليهود إن هم إلا شعب تاريخي مثل بقية الشعوب ، ليس أسوأ وليس أفضل منها .

ويذهب هوارس ماير كالن ، أحد أهم مفكري الصهيونية التوطينية ، إلى أن مكان اليهودية ووظيفتها في الحياة اليهودية يشبهان مكان ووظيفة أي دين آخر في أية حياة قومية أخرى . ويطالب كالن بضرورة تحرير اليهودية من الحلولية الوثنية وضرورة اكتشاف الدوافع الأخلاقية والروحية الدائمة والكامنة وراء الطقوس اليهودية المختلفة ، أي أنه يحاول اكتشاف الإنساني والعالمي وراء الطقوس الدينية الحلولية . وينظر كالن إلى التراث اليهودي نظرة تاريخية ، كما يرى أن جوهر النمو هو في استمرار التغير ، وذلك على عكس الصهاينة الذين يؤكدون الاستمرار أو حتى التكرار . ولذا ، يجب أن يظل اليهود واعين بالتغيرات التي حدثت في معرفة العالم الطبيعي ، وفي فكرة الإله ، وفي القيم الأخلاقية التي تميِّز عالم الإنسان العصري عن عالم الإنسان القديم . والواقع أن تأكيد كالن العنصر التاريخي يتبدَّى في إصراره على أن البعث اليهودي يتطلب بحثاً في الخلفية التاريخية ، وفي جميع جوانب العالم الفكري الذي وُجدت إسرائيل القديمة ضمنه ، وفي ضرورة إعادة التركيب الاجتماعي للشعب اليهودي حتى يتسنى لليهود أن يحتلوا مكاناً (وليس مكانة خاصة) داخل إطار المجتمع العصري ، أي أنه يُعلمن الشعب اليهودي ليصبح شعباً مثل كل الشعوب الأخرى . ويحاول الحاخام سيلفر أن يُعلمن أو يقلل من حرارة فكرة الماشيَّح والعودة في نهاية التاريخ التي تستند إليها الصهيونية الاستيطانية ، فيصف اليهود بأنهم شعب يواجه المستقبل دون مركبات وهمية مشيحانية ، ولكن ليس بدون أمل أبداً ، أي أن توقعاتهم ستكون توقعات إنسانية محدَّدة . ويستطرد الحاخام سيلفر قائلاً : " إن اليهود سوف يستمرون في مقاومة قوى الظلام . . . ولكننا سنفكر في ذلك بأمل يشبه فكرة الماشيَّح بين شعبنا الذي هو مزيج من الأمل والشك . ستنصرف

كشعب نضج نهائياً ولا يحاول أن يهرب إلى الوهم أو الغرور الذاتي» .

وموقف الصهاينة التوطينيين من معاداة اليهودية يتسم بالعملية ، وتحليلهم لهذه الظاهرة يبتعد عن المغالاة الصهيونية التي تضفي صفة الإطلاق عليها . فينقد الحاخام كابلان المفكرين التربويين اليهود الذين يتصورون أن معاداة اليهود ليست مجرد جنون عابر وإنما مرض مزمن . أما الحاخام هليل سيلفر فيميِّز بين نوعين من معاداة اليهود (وهذه ظاهرة جديدة أيضاً لأن المطلق لا يتحمل التصنيف) ، فهناك المعاداة الاستثنائية لليهود التي مارسها النازيون كما أن هناك معاداة اليهود العادية التي تُسمَّى «تَحامُل» (وهذه هرطقة من وجهة نظر صهيونية تقليدية) . ويرى الحاخام سيلفر ، أن مثل هذا التحامل سيبقى عاملاً ثابتاً في الحياة اليهودية في أمريكا . ويمكن أن نضيف أن الحاخام سيلفر ساوى بين الضغوط التي يتعرض لها اليهود كأقلية في أمريكا والضغوط التي تتعرض لها أية أقلية عرْقية أو دينية أخرى في العالم ، فيطالب اليهود بأن يعتادوا مواجهة مشاكلهم كأقلية بشكل واقعي ، ومعنى هذا أن التقسيم الثنائي الصلب للعالم كيهود وأغيار قد خفتت حدته .

ويرى مفكرو الصهيونية التوطينية أن حركة الاستنارة في الولايات المتحدة حققت نجاحاً كاملاً ، وحقق اليهود اندماجاً واضحاً ، وليس لديهم ما يدفعهم للعودة إلى أرض الميعاد . فظروفهم طيبة جداً ، كما أنهم ليسوا ضحية للاضطهاد العنصري ، وكذلك فإن أمريكا ليس لها تاريخ مسيحي طويل يلعب فيه اليهود دور الشرير وقاتل الرب (بل إن التجار اليهود أسهموا في حرب الاستقلال الأمريكية نفسها) . ويبحث الحاخام سيلفر تواريخ الجماعات اليهودية ، ليجد بعض السوابق التاريخية التي يمكنه عن طريقها أن يُعدِّل ويهذِّب الأسطورة الصهيونية المطلقة وقراءتها المتحيزة للتاريخ . وهو يجد هذه الحقائق والوقائع بالفعل ، فيبين أن اليهود منذ قديم الأزل عاشوا داخل وخارج فلسطين . ففي القرن الأول قبل الميلاد ، وذلك قبل تحطيم الهيكل الثاني على يد الرومان ، كانت أغلبية اليهود تعيش خارج فلسطين : خمسة ملايين ونصف يعيشون خارجها بينما كان تعداد يهود الدولة يبلغ مليونين ونصف فقط . ومع هذا ، ظل اليهود الذين يعيشون خارج فلسطين يهوداً .

والوضع نفسه يسري على يهود العالم الذين سيتخذون الموقف نفسه من دولة إسرائيل ، فيهود إسرائيل سيظلون إسرائيليين ، أما يهود الولايات المتحدة فسيظلون أمريكيين . وعلى كلٍّ ، لا تستطيع إسرائيل أن تضم كل يهود العالم . بل إن الحاخام سيلفر يحاول أن يضفي طابعاً صوفياً على ظاهرة بقاء اليهود في الشتات (أنحاء العالم) بعد ظهور إسرائيل ، وذلك بتأكيده أن المنفى ليس مصدر بلاء خالص بل هو حقيقة ينبغي الترحيب بها .

ويهاجم كابلان الصهاينة الذين يحاولون فَرْض نظرية تربوية تهدف إلى تنمية الحنين لدى الطفل اليهودي للهجرة وإلى غَرْس الإحساس في وجدانه بأنه لا يمكنه أن يحيا حياة سوية في الدياسبورا ولا يمكنه الاحتفاظ بهوية مستقلة . والواقع أن هذه المفاهيم لها نتائج هدامة على سعادة الطفل وعلى شخصيته (كما يقول كابلان) ، فهي تطلب منه أن يحيا حياة غير عادية دون أن تفسر له الأسباب . ويشير كابلان إلى أن الافتراض الصهيوني بأن اليهودي من المستحيل أن يشعر وكأنه في وطنه ضمن بيئة غير يهودية هو افتراض مبني على اليأس أو على الاستسلام والقدرية . ولذا ، فإن على اليهودي التوطيني أن يشعر (حينما يذهب لزيارة أرض إسرائيل لخدمة شعبها) تماماً مثل أي أمريكي يقوم بعمل تبشيري أو ثقافي خدمة لمختلف الشعوب في الشرق الأقصى .

تدور الصهيونية التوطينية حتى الآن في إطار فكر حركة الاستنارة الليبرالي التعاقدي (وفي إطار صورة مجازية ذرية آلية) . ولكن الصورة المجازية العضوية تبدأ في الظهور ، فالانعتاق ليس انعتاق أفراد وحسب وإنما ينبغي أن يتم بشكل جماعي قومي . فالانعتاق هو منح الحرية للفرد والجماعة في آن واحد ، حتى يتسنَّى للفرد أن يعبِّر عن نفسه من خلال حياته المشتركة مع مجموعته القومية . والصهيونية ليست ضد الاندماج وإنما هي ضد الاندماج الذي يؤدي إلى فقدان الذات والانصهار الكلي للأقليات . ولذا ، فإن الرؤية النهائية هي رؤية مبنية على التنوع تؤيد انسجام وتنظيم الجماعات العضوية المختلفة بشكل تعاوني لإيجاد حياة مشتركة ، ولكنها لا تؤيد دَمْج الفوارق لتزول وتصبح ذاتاً واحدة . والتأرجح هنا ، بين الرؤية التعاقدية الآلية والرؤية العضوية ، هو محاولة للتوصل إلى عقد اجتماعي بين أقليات أو قوميات عضوية تود كل واحدة منها الاحتفاظ بإثنيتها مع انتمائها إلى المجتمع الأمريكي ، فكأن الإثنية جزء من كل ، وهي الرؤية التي يستند إليها العقد الاجتماعي الأمريكي .

وتستمد كل أقلية في المجتمع الأمريكي إثنيتها من الوطن الأصلي ، كما أن العقد الاجتماعي الأمريكي يسمح بالحفاظ بهذه الإثنية وتنميتها ما دامت لا تتعارض مع مصلحة الدولة (ولعل هذا هو ما يُفسِّر إصرار الزعماء الصهاينة على أن تكون المصالح الأمريكية

والإسرائيلية متماثلة حتى يتسنى لهم استغلال الأغلبية العظمى من يهود العالم الموجودين في الولايات المتحدة) . وقد صرح برانديز ، عام ١٩١٢ ، بأن تعددية الولاء مرفوضة إذا كانت الولاءات متعارضة ، ولكنه أكد أن هذا الوضع لا ينطبق على الصهيونية . ثم ذهب إلى حد التصريح بأن الولاء لأمريكا يتطلب أن يعتنق كل يهودي أمريكي العقيدة الصهيونية ، مع أنه يعلم تماماً أنه لا هو ، ولا حتى نسله ، يمكن أن يعيشوا في فلسطين ، وهذا أمر مفهوم طبعاً في إطار تماثل المصالح بين الدولة الصهيونية والدولة الأمريكية ، وهو في هذا لا يختلف عن أي مواطن أمريكي آخر .

وقد نجح الصهاينة التوطينيون في أن يعيدوا صياغة رؤيتهم لإسرائيل وعلاقتهم بها ، فقد أصبحوا أقلية يهودية عضوية تنتمي إلى أمريكا وتنظر إلى إسرائيل باعتبارها الوطن الأصلي وباعتبارها مركزاً روحياً وركيزة للهوية . ومعنى هذا أنه تم تبنِّي الصيغة الصهيونية الإثنية (العلمانية) ، ومن ثم فإن الصهاينة التوطينيين لهم مركزان : أحدهما سياسي في الولايات المتحدة ، والآخر إثني في إسرائيل . ولهذا ، فإنهم يطالبون بفصل الدين عن الدولة في الولايات المتحدة ولكن بعضهم يحتج على انتشار العلمنة في الدولة اليهودية . ولكن مشكلة مثل هذا الصيغة أن الوطن الأصلي هو الوطن الذي يهاجر الإنسان منه لا إليه ، ولذا فالتوطينيون قد أعطوا أساساً فلسفياً تاريخياً لتوطينيتهم ولتملصهم من الصهيونية .

وقد أدرك الصهاينة الاستيطانيون منذ البداية ضرورة تَقبُّل هذا النوع من الصهيونية حتى يستفيدوا من دعم يهود الغرب الأثرياء ، وأصبح هذا القبول جزءاً من العقد الصامت بين الحضارة الغربية والمنظمة الصهيونية بخصوص يهود العالم . ولذا ، نجد أن الفيدرالية الصهيونية في نيويورك تعلن (عام ١٨٩٩) عن ولائها للولايات المتحدة وأن هدفها هو دَعْم الصهيونية ، من قبيل التعاطف وحسب . وقد ساعدت الصياغة الهرتزلية المراوغة على إنجاز هذا .

وبعد وعد بلفور ، أصبح مجال نشاط الصهيونية التوطينية العالم كله (خارج فلسطين) ، مهمتها الأساسية دعم النشاط الاستيطاني سياسياً ومالياً ، وضمان استمرار الدعم الإمبريالي عن طريق الترغيب والترهيب . وتقوم الصهيونية التوطينية بتجنيد يهود الغرب لهذا الغرض ، كما تقوم بتحقيق المفهوم الصهيوني الخاص بغزو الجماعات والقضاء على أية معارضة قد تنشأ في صفوفها . وحيث إن الغرب لم يعد يواجه مشكلة فائض يهودي ينبغي التخلص منه (وخصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية) ، وحيث إن المُستوطَن الصهيوني يواجه أزمة طاقة بشرية ، فقد أصبحت إحدى مهام الصهيونية التوطينية البحث عن مهاجرين .

وقد تحاول الصهيونية التوطينية قدر استطاعتها ألا تتدخل في الأمور السياسية والاقتصادية والدينية الخاصة بالمُستوطَن الصهيوني ، وإن كانت تتدخل في الأمور التي تخصها مثل قضية الهوية اليهودية . كما يُلاحَظ أن الولايات المتحدة (الدولة الراعية والتي تضم أكبر جماعة يهودية في العالم وأكثرها نفوذاً) تستخدم الصهاينة التوطينيين في الضغط والتأثير على الدولة الصهيونية . وبوسع هذه الصهيونية التوطينية أن تستوعب أية ديباجات سياسية (اشتراكية ـ ليبرالية ـ فاشية) . وقد كانت الصهيونية العمومية الاتجاه الذي يقوم بتنظيم الصهاينة التوطينيين . ولا يزال هناك اتحاد الصهاينة العموميين ، ولكن منظمات صهيونية أخرى تشاركه هذه المهمة في الوقت الحالي ، من أهمها منظمة الهاداساه في الولايات المتحدة . كما أن فروع المنظمة الصهيونية في أنحاء العالم تسهم بشكل أساسي في نشاط الصهيونية الخارجية .

وقد جعلت الصهيونية الإثنية الدينية والعلمانية كل يهود العالم داخل وخارج إسرائيل مجالاً لها ، ولذا نجد أن الصهاينة التوطينيين ينقسمون إلى دينيين وعلمانيين ، شأنهم في هذا شأن المستوطنين الصهاينة (وإن كانت الأغلبية الساحقة للصهاينة التوطينيين علمانية) .

وبطبيعة الحال ، ورغم العقد الصامت ، هناك لحظات من الصراع بسبب اختلاف أهداف كلٍّ من الصهيونية التوطينية والصهيونية الاستيطانية . ولعل أشرس هذه اللحظات هي التي شهدت الصراع بشأن معاهدة الهعفراه (النقل) ، حيث وجد الاستيطانيون أن من صالحهم توقيع معاهدة مع ألمانيا النازية لضمان تدفُّق رأس المال والمهاجرين ، وهو ما كان يعني ضَرْب المقاطعة اليهودية للبضائع النازية ، بينما رأى التوطينيون ضرورة الاستمرار في المقاطعة . وبعد إنشاء الدولة ، ظن الصهاينة التوطينيون أنهم سيستمرون في إدارة دفة المنظمة الصهيونية العالمية وفي الإشراف على الدولة كما كانوا يفعلون حتى عام ١٩٤٨ . ولكن الصهاينة الاستيطانيين كانوا قد فرغوا من عملية الاستيلاء على الأرض وطَرْد سكانها ، ولذا فقد دخلوا صراعاً مع الصهاينة التوطينيين واستولوا على المنظمة تماماً . وقد استمرت عملية التهميش حتى أصبحوا يقنعون بدور ثانوي لأقصى حد .

والصهيونية الاستيطانية لا تهدف إلى إنقاذ اليهود وإنما تهدف إلى توظيفهم في خدمة الصهيونية ، ولذا فكثيراً ما يحاول الصهاينة الاستيطانيون إفشال محاولات يهود العالم إنقاذ أنفسهم بالهجرة إلى أي مكان ، وإغلاق الأبواب دونهم حتى يضطروا للهجرة إلى

فلسطين . ولذا ، يُلاحَظ أن الصهيونية التوطينية ظهرت مرة أخرى أثناء الاضطهاد النازي كقوة مستقلة إذ أن الصهيونية الاستيطانية ركزت على تهجير العناصر البشرية القادرة على المساهمة في بناء المُستوطَن الصهيوني إلى فلسطين وأهملت الآخرين . كما أن موقف الدولة الصهيونية من المهاجرين السوفييت وإغلاقها أبواب الولايات المتحدة دونهم هو تعبير عن التناقض نفسه . وتحاول الدولة الصهيونية أحياناً إحراج التوطينيين والتقليل من شأنهم ، ولذا قُدِّم اقتراح في المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرين في القدس (١٩٧٢) بأن الزعيم الصهيوني الذي لا يهاجر إلى إسرائيل خلال أربع سنوات من انتخابه لا يُنتخَب مرة أخرى . وقد أثار هذا الاقتراح ما يشبه الثورة ، وهددت منظمة الهاداساه بالانسحاب إذا تمت الموافقة عليه .

ويمكن إيجاز السمات الأساسية للصهيونية التوطينية فيما يلي :

١ ـ يتبنَّى اليهودي الشعارات الصهيونية كافة ويدافع عنها (قولاً) بحماس شديد .

٢ ـ على مستوى الممارسة ، لا يُتوقَّع من هذا اليهودي أن يهاجر بنفسه ويستوطن في فلسطين . ويُطلَب منه أمران اثنان :

أ) دَفْع بعض الأموال (المعفاة من الضرائب) لدعم الاستيطان الصهيوني وللمساعدة في توطين اليهود (يهود شرق أوربا بالأساس) : مثل شراء سندات إسرائيل ودفع التبرعات للجامعة العبرية . وكثيراً ما يرفض الصهاينة التوطينيون الدفع ، وهنا تلجأ الصهيونية الاستيطانية إلى ابتزازهم عن طريق تصعيد إحساسهم بالذنب وتوليد الإحساس عندهم بالحاجة النفسية إلى الصهيونية . ومن المعروف أن الولايات المتحدة لا تمانع في تدفُّق هذه المعونات اليهودية على إسرائيل ، قاعدتها الإستراتيجية الأساسية في الشرق العربي ، دون أن تتكبد هي أي عناء أو تكاليف .

ب) أن يقوم الصهيوني التوطيني بالضغط على حكومته من أجل إقرار مصالح الدولة الصهيونية ، ولا يمنع الأمر من حضور بعض التظاهرات أو إرسال خطابات لممثله في الكونجرس تطالبه بالتصويت لصالح مشاريع القرارات التي تخدم مصلحة إسرائيل . ولكن كل هذا يتم في إطار التعبير عن الإثنية اليهودية الأمريكية التي لا تتعارض مع المصالح القومية الأمريكية ، أي أنها لا تتم في إطار المصالح القومية اليهودية . وعلى كلٍّ هذه مسألة محسومة تماماً ، فالدولة الصهيونية جزء أساسي من المشروع الإمبريالي الغربي . وإن حدث تَعارُض في المصالح ، كما حدث في واقعة بولارد ، فإن يهود الولايات المتحدة يحددون ولاءهم وبشكل واضح مع دولتهم .

٣ ـ يستمد اليهودي هويته المتعينة من مجتمعه العلماني الاستهلاكي ، فهو أمريكي يهودي . ولكن هذه الهوية لا تستبعد بعض عناصر إثنية غير أمريكية ، والواقع أن العقد الاجتماعي في العالم الغربي لا يرفض مثل هذا التنوع السطحي . وتتحقق هذه الهوية اليهودية من خلال دَفْع التبرعات (ولهذا ، فإنها تُسمَّى «يهودية دفتر الشيكات») ، وكذلك من خلال الاحتفاظ ببعض الزخارف اليهودية التي لا تسبِّب الحرج لليهودي المندمج ولا تفرض عليه أية التزامات . وهذه الهوية اليهودية ستتدعم من خلال النظر لإسرائيل باعتبارها مركز الثقافة اليهودية وركيزتها الأساسية . والصهاينة التوطينيون يحتاجون إلى مثل هذا المركز في مجتمعاتهم العلمانية حيث يجابه الإنسان تآكل هويته وافتقاد المعنى بسرعة .

٤ ـ تتحول إسرائيل من صهيون (التي يدور حولها الحلم المشيحاني بالعودة) إلى مسقط رأس اليهود ، تماماً مثل أيرلندا بالنسبة إلى الأمريكيين الأيرلنديين وإيطاليا بالنسبة إلى الأمريكيين الإيطاليين والعالم العربي بالنسبة إلى الأمريكيين العرب . فكأن إسرائيل أصبحت الدولة التي يهاجر اليهودي منها لا إليها ، وهو ما يعني أن الأسطورة الكامنة في الصهيونية التوطينية تقف على النقيض من الصهيونية الاستيطانية .

٥ ـ يستطيع الصهيوني التوطيني أن يتبنَّى أية عقيدة سياسية تروق له وأن يؤيد أي حزب داخل إسرائيل . ويمكننا أن نقول إن معظم الرأسماليين اليهود في العالم الغربي من أتباع الصهيونية التوطينية . ولعل أقصى تعبير عن هذا الاتجاه هو ظهور كتاب هوارد ساخار **الدياسبورا** الذي لا يتضمن أي فصل عن الولايات المتحدة وكندا ، فهما وطنان قوميان لليهود أما إسرائيل فهي الوطن الأم .

والصهيونية التوطينية شكل من أشكال التملص من الصهيونية الاستيطانية . ولعل أكبر أشكال التملص أن أقلية (فقط) من الشعب اليهودي هي التي تعيش في إسرائيل . فعدد سكانها لا يزيد على أربعة ملايين من مجموع يهود العالم البالغ عددهم ١٢ مليوناً . وإذا كانت نسبة يهود المُستوطَن تتزايد بالنسبة إلى يهود العالم ، فإن هذا ليس بسبب الهجرة وإنما بسبب تناقص عدد يهود العالم ، وكذلك بسبب تزايد نسبة التكاثر بين المستوطنين بالقياس إلى نسبتها بين أعضاء الجماعات . وكما قال أحد المثقفين الفرنسيين ، فإن أقلية (فقط) من اليهود هي التي تختار ، أو اختارت إسرائيل ، وهو ما يكشف عن حقيقة مهمة ، وهي أن الأغلبية قد اختارت الشتات . ولعل هذا يفسر سبب بقاء إسرائيل بدون الأعداد الكبيرة من المنفيين من أبنائها الذين من أجلهم أُنشئت الدولة .

وقد تذمَّر أحد الزعماء الصهاينة البارزين من أن اليهود الأمريكيين ينظرون إلى إسرائيل كما لو كانت «ديزني لاند» ، أي كمدينة ملاه يهودية أو متحف يهودي ، وسماه آخر «فندق صهيون» ، أي مجرد مكان يؤمه الجمهور من أجل الاستمتاع والإثارة والثرثرة . وكما قال المثقف الفرنسي (المشار إليه) ، مستخدماً صورة مجازية تشبه صورة ديزني لاند المجازية ، فإن معظم اليهود لا يُظهرون حماساً كبيراً للذهاب إلى إسرائيل إلا لمجرد قضاء إجازة هناك . وتدل الإحصاءات على أن اليهود لا يجدون أن صهيون مكان مسلٍّ بالقدر الكافي . ولذا ، فنسبة السياح اليهود التي تذهب إلى بلاد أخرى غير أرض الميعاد تفوق كثيراً نسبة الذين يذهبون إلى إسرائيل . وقد وصف أحدهم هذا الضرب من الصهيونية بأنه مثل فرَق الأنشاد العسكرية التي تقف على المسرح (أو في أي مكان) وتغني بأعلى صوتها "إلى الأمام ، إلى الأمام" ، دون أن تبرح مكانها .

وهناك بعض النوادر التي تعبِّر عن موقف الصهاينة التوطينيين . فيقال ، على سبيل المثال ، يقال إن البارون إدموند دي روتشيلد ، وهو كبير أثرياء اليهود التوطينيين ، الذي كان وعد بلفور خطاباً موجهاً إليه ، سُئل عن المنصب الذي يريد أن يتبوأه في الدولة اليهودية فقال : منصب سفير الدولة في باريس أو لندن . وقد عرَّف أحدهم الصهيوني التوطيني (مقابل الاستيطاني) بأنه يهودي يأخذ تبرعات من يهودي آخر ويرسل بيهودي ثالث إلى أرض الميعاد . واليهوديان الأول والثاني من يهود العالم الغربي ، أما الثالث فهو من يهود اليديشية . ولا يزال هذا هو النمط السائد في العالم ، فيهود الاتحاد السوفيتي هم الذين يهاجرون إلى إسرائيل ، أما يهود العالم الغربي فيكتفون بالتصفيق والدعم المالي والسياسي ويلزمون بيوتهم مكيفة الهواء .

وقد لاحَظ بن جوريون أن كثيراً من المفاهيم والمصطلحات يتم الحفاظ عليها واستخدامها حتى بعد أن تفقد دلالتها ، كما أن مصطلح «صهيوني» لا يمثل أي استثناء من القاعدة . وقد وصف الزعيم الصهيوني سلوك بعض اليهود الذين يصرون على تسمية أنفسهم «صهاينة» في الوقت الذي يتجاهلون فيه المقولة الصهيونية الأساسية ، أي الهجرة ، بأنه نوع من أنواع التزييف . وأصدق مثل على ذلك (في تصوُّره) يهود الولايات المتحدة (أي الأغلبية العظمى من يهود العالم) الذين لا يبدون أي استعداد للهجرة . ومع ذلك ، فإنهم يصرون على تسمية أنفسهم صهاينة . ولكن مثل هذا الموقف - على حد قوله - شيء سخيف . وقد وصف ليفي أشكول الصهيونية التوطينية الوصف الذي تستحقه ، باعتبارها قولاً معادياً للقومية (أي الصهيونية) ترتدي ثوباً لفظياً قومياً (أي صهيونياً) . بل قد اكتشف بن جوريون أن هذه الصهيونية إن هي إلا غطاء كثيف يغطي به الصهاينة التوطينيون الاندماج المتزايد الذي يتم على مستوى الفعل ، فكأن الصهاينة التوطينيين يطلقون الديباجات اللفظية الجهورية التي تخبئ النكوص الحقيقي المعادي للصهيونية الاستيطانية .

وقد اقترح بن جوريون تسمية هؤلاء الصهاينة الذين لا يتوون ، لا هم ولا نسلهم ، الاستيطان في إسرائيل «أصدقاء إسرائيل» أو «أصدقاء صهيون» . ويبدو أن حركة الصهيونية التوطينية قد بدأت تجتاح المُستوطَن الصهيوني نفسه ، إذ نزحت أعداد ضخمة منه مهاجرة إلى الولايات المتحدة وتشكل دياسبورا إسرائيلية تنخرط في النشاط الصهيوني ! وسوف نجد أن معظم المفكرين والمؤلفين والكُتَّاب اليهود ، الذين يعيشون في العالم الغربي ، يُظهرون تعاطفاً مع الصهيونية التوطينية . ومن أهم مفكري الصهيونية التوطينية كالن وسيلفر وكابلان . ويمكن أن تعتبر ناحوم جولدمان واحداً منهم . ويُعتبر برانديز من أهم القيادات السياسية التوطينية .

لويس برانديز (١٨٥٦-١٩٤١)
Louis Brandeis

أحد زعماء الصهيونية التوطينية في الولايات المتحدة . وُلد في الولايات المتحدة لأبوين مهاجرين من تشيكوسلوفاكيا من أصل ألماني ومن أتباع اليهودية الإصلاحية (وكانت أمه من أسرة من أتباع يعقوب فرانك) . لم يتلق برانديز أي تعليم ديني تقليدي إذ دخل مدرسة ألمانية في الولايات المتحدة ثم التحق بجامعة هارفارد . وقد حقق برانديز ، شأنه شأن معظم الأسر الأمريكية اليهودية من أصل ألماني ، معدلات عالية من الاندماج . ورُشِّح للوزارة عام ١٩١٤ ، ولكن ترشيحه رُفض لا بسبب يهوديته وإنما لأن بعض القوى المالية التي كانت لا توافق على آرائه المعادية للاحتكار كانت تخشى تعيينه . ألف برانديز كتاباً بيَّن فيه كيف أن المصالح المالية تتحكم في السياسة ، وفي عام ١٩١٦ ، رشحه الرئيس ويلسون لعضوية المحكمة العليا الأمريكية (وكانت هذه أول مرة يُرشَّح فيها يهودي لهذا المنصب) . وقد أثار ترشيحه عاصفة ، لا لأنه يهودي وإنما بسبب أفكاره الراديكالية . وقد تم تعيينه في نهاية الأمر ليظل في منصبه حتى تقاعد عام ١٩٣٩ .

ويُعَدُّ برانديز من المصلحين الاجتماعيين في الولايات المتحدة ،

فقد شن حرباً ضد الاحتكارات ، وعمل من أجل تحديد ساعات عمل المرأة . وكان يرى ضرورة أن يكون النظام الرأسمالي مكوَّناً من وحدات صغيرة متنافسة . وكان برانديز يؤمن بأن القانون يجب ألا يكون أمراً ثابتاً أو نهائياً ، وإنما يجب أن يُعاد تفسيره دائماً حسب الملابسات التاريخية ، ولا يختلف فكره في الواقع كثيراً عن الفلسفة التي استند إليها برنامج نيو ديل New Deal الذي تم تطبيقه بعد عام ١٩٣٣ .

ويرجع اهتمام برانديز بالصهيونية إلى خبرته في نيويورك حيث شهد بعض آثار الاستغلال الموجه ضد عمال النسيج من يهود اليديشية ، وهو استغلال تتعرض له عادةً جماعات المهاجرين الذي يتحولون إلى عمالة رخيصة . ولكن يبدو أن برانديز تصوَّر أن معاداة اليهود لعبت دوراً في عملية الاستغلال هذه . كما التقى برانديز بجيكوب دي هاس ، سكرتير هرتزل الذي عرَّفه بالفكر الصهيوني . وقد كان برانديز من المؤمنين بأن هناك تماثلاً كاملاً بين المثل العليا الأمريكية والصهيونية وأن كلاً منهما يغذي الآخر ، ولذا فلا يوجد مجال لازدواج الولاء بالنسبة ليهود أمريكا إن تبنَّوا العقيدة الصهيونية . فمثَّل أمريكا (على حد قوله) هي نفسها مُثُل اليهود عبر تاريخهم . وكي يصبح الأمريكي اليهودي أكثر يهودية عليه أن يصبح صهيونياً . ومن ثم فعلى كل يهودي أمريكي أن يساعد المُستوطَن الصهيوني رغم أنه يعرف أنه لا هو ولا نسله سيعيشون هناك قط . وقد طالب برانديز بإعادة صياغة فلسطين («أرض الأجداد» على حد قوله) لا باعتبارها مكاناً للاستيطان وإنما باعتبارها مركزاً تُشعُّ منه الروح اليهودية وتعطي اليهود المبعثرين في كل أنحاء العالم هذا الوحي الذي ينبع من ذكريات ماض عظيم وأمل مستقبل عظيم . وببساطة شديدة ، فإن كل هذه العبارات الرنانة تعني أن يهود أمريكا أمريكيون حققوا الاندماج في مجتمعهم في وطنهم القومي أما فلسطين فهي الوطن الأم الذي يساعدهم على الحفاظ على هويتهم ولكنهم لن يهاجروا إليه قط ، فهذا أمر مقصور على اليهود الآخرين ، عادةً يهود اليديشية .

انضم برانديز للمنظمة الصهيونية عام ١٩١٢ في لحظة حرجة ، إذ أن الحرب العالمية كانت قد همَّشت المنظمة في أوربا تماماً فاضطلع صهاينة أمريكا بمهمة دعم المُستوطَن الصهيوني ، وخصوصاً أن الولايات المتحدة بدأت تتبوأ مكان القيادة . فتم تنظيم لجنة تنفيذية مؤقتة لشئون الصهيونية العامة في الولايات المتحدة (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وعُيِّن برانديز رئيساً لها ، غير أنه رفض رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية واكتفى بأن يكون رئيساً فخرياً لها في الفترة ١٩٢٠ـ١٩٢١ . وقد ساهم برانديز في تحديد اتجاه عملية دعم وغوث المُستوطَن الصهيوني ، كما ساهم في توسيع المنظمة الصهيونية وزار فلسطين بين عامي ١٩١٧ و١٩١٩ . وترأس برانديز الوفد الأمريكي في مؤتمر لندن الصهيوني عام ١٩٢٠ ، وهو أول اجتماع للمنظمة الصهيونية بعد الحرب العالمية الأولى .

ساهمت اللجنة التنفيذية المؤقتة في إدارة المُستوطَن الصهيوني وفي إرسال العون للمستوطنين ، وقامت البحرية الأمريكية أيضاً بالمساعدة في ذلك . وكان السفير الأمريكي في القسطنطينية على اتصال دائم بالمُستوطَن الصهيوني بإيعاز من برانديز . ويمكن القول بأنه حتى دخول الولايات المتحدة الحرب عام ١٩١٧ كانت اللجنة التنفيذية المؤقتة هي الدعامة الأساسية للمُستوطَن . وقد نجح برانديز في الاحتفاظ بحياد المنظمة الصهيونية أثناء الحرب متبعاً في ذلك السياسة الأمريكية . وكانت قيادة الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة آنذاك من أصل ألماني ، ولذا كانت عواطفهم تتجه نحو ألمانيا وحاولوا دَفْع المنظمة نحو اتخاذ خط ممالئ للوطن الأصلي ، ولكن برانديز نجح في وقف هذا الاتجاه . ولكن ، مع انتصار الحلفاء ، قرر برانديز تعديل السياسة الصهيونية واتصل بالرئيس ويلسون الذي عبَّر عن تعاطفه مع الصهيونية ، ثم اتصل بالسفيرين الفرنسي والإنجليزي في واشنطن وعرض عليهما المشروع الصهيوني . وقد رتب الرئيس ويلسون لاجتماع بين بلفور وبرانديز . وفي هذه الآونة أيد برانديز إنشاء الفيلق اليهودي . ولعب دوراً في حث الحكومة الأمريكية على قبول وعد بلفور .

قام برانديز بعد ذلك بإعداد ما يُسمَّى «برنامج بتسبرج» (١٩١٨) الذي دعا إلى الملكية العامة للأرض في فلسطين (لمنع السمسرة والمضاربة) وإلى الموارد الطبيعية والمرافق وإلى تشجيع الخطوات التعاونية في تطوير الزراعة والصناعة . وفي عام ١٩٢٠ ، عشية مؤتمر سان ريمو الذي أعلن الوصاية البريطانية على فلسطين ، نجح برانديز في التأثير على ويلسون لتعديل حدود فلسطين الشمالية بحيث اختلفت عن تلك التي نص عليها اتفاق سايكس بيكو .

وبعد مؤتمر سان ريمو ، ظهرت التناقضات بين برانديز بنزعته التوطينية واتجاهاته الاندماجية من جهة ، ومن جهة أخرى ممثلي الصهيونية الاستيطانية التي تحاول أن تستفيد من كل يهود العالم ولا تتركهم وشأنهم ، وكذلك ممثلي الصهيونية الإثنية (الدينية والعلمانية) التي تحاول أن تفرض على يهود العالم هوية يهودية محددة تتناقض مع طموحاتهم الأمريكية نحو الاندماج الكامل (وهو التناقض الذي سماه أحد الصهاينة «الصراع بين واشنطن ومنسك») .

وقد قدَّم برانديز عدة اقتراحات جوهرها فك الاشتباك تماماً بين صهاينة الخارج التوطينيين وصهاينة الداخل المستوطنين بحيث يصبح كل فريق فيهم حراً تماماً عن الآخر ، على أن يتم التواصل بينهم من خلال حكومة الانتداب (الممثل الرسمي للاستعمار الغربي) . ويظهر مدى إلحاح رغبة برانديز في فك الاشتباك بين التوطينيين والاستيطانيين في تأييده مشروع نوردو الخاص بنقل عدد ضخم من اليهود إلى فلسطين لخلق أغلبية سكانية فورية تتمتع بعد قليل بالسيادة الكاملة على أن تتم العملية برمتها تحت إشراف حكومة الانتداب وداخل إطار المصالح الغربية .

ويتلخص اقتراح برانديز في محاولة تحديد مهمة الصهاينة التوطينيين ونطاق عملهم على المستويين الدولي الخارجي والفلسطيني الداخلي :

١ ـ في المجال الدولي ، كان برانديز يرى أن مهمة الصهيونية السياسية أو الدولية قد انتهت تماماً مع صدور وعد بلفور إذ أن حكومة الانتداب ستستوعب كل مهام الصهيونية السياسية الدولية . ولذا ، يستطيع الصهاينة التوطينيون إسقاط هذا الجانب من نشاطهم . ويجب على كل قيادات الحركة الصهيونية (باستثناء سوكولوف وايزمان) تَرْك النشاط الاستيطاني والدولي وأن يركزوا على محاولة تأسيس منظمة صهيونية قوية ليس لها طابع سياسي تضم اليهود غير الصهاينة الذين ينضمون إليها في إطار حكومة الانتداب بهدف جَمْع رأسمال يموِّل المشاريع التي ليس لها عائد .

٢ ـ أما على الصعيد الفلسطيني ، فقد اقترح برانديز أن تمثل المنظمة الصهيونية في فلسطين مجموعة تكنوقراطية بعيدة تماماً عن السياسة ، متخصصة في المشاريع التي ليس لها عائد مثل الصحة العامة والزراعة (إصلاح الأراضي) والصناعة ، وتتخذ قراراتها خارج أي إطار عقائدي ولا تلتزم إلا بالعمل داخل نطاق حكومة الانتداب . ويقوم المستوطنون من الناحية السياسية بتمثيل أنفسهم من خلال مجالس تمثيلية تشرف عليها حكومة الانتداب ، وبذا تنتفي العلاقة المباشرة مع يهود وصهاينة العالم . ولا يختلف الأمر كثيراً من الناحية الاقتصادية إذ طالب برانديز بأن يصبح المستوطنون مستقلين تماماً يديرون شئونهم على أسس رأسمالية سليمة بهدف أن يصبحوا معتمدين على أنفسهم ومكتفين بذاتهم ويشجعوا الاستثمارات الفردية الرأسمالية .

إن جوهر اقتراح برانديز هو إسقاط الخصوصية الصهيونية من المشروع الاستعماري الصهيوني وتحويله إلى مشروع استعماري غربي لا يختلف من قريب أو بعيد عن المشاريع الأخرى . ومن ثم لا يتحرك التوطينيون إلا في نطاق حكومة الانتداب ولا يتحرك الاستيطانيون إلا في النطاق نفسه ولا يلتقي الطرفان إلا داخله .

ولم يوافق وايزمان وقيادات يهود اليديشية وممثلي الصهيونية الاستيطانية على اقتراحات برانديز للأسباب التالية :

١ ـ ذهب وايزمان إلى أن برانديز لا يعرف طبيعة الاستيطان الذي يتطلب الدعم الدائم ، ومن ثم فإن إدارة المشروع الصهيوني الاستيطاني على أسس رأسمالية سيطيح به .

٢ ـ ما بين مؤتمر سان ريمو وإعلان الدولة كان الاستيطانيون يعرفون أنهم يحتاجون إلى دعم الصهاينة التوطينيين سياسياً ومالياً ، وهو ما يحاول برانديز وضع نهاية له .

٣ ـ إسقاط الديباجات القومية اليهودية كان يُعَدُّ ضربة في الصميم لمحاولة تأكيد الصلة بين المستوطنين ويهود العالم ، وهي صلة كان يحرص عليها المستوطنون لتوظيفها لصالحهم . ولذا أصر الاستيطانيون على أن تظل المنظمة الصهيونية العالمية منظمة للشعب اليهودي بأسره تعبِّر عن إرادة هذا الشعب ومن ثم يمكنها أن تبتز أمواله .

وقد وُصف مشروع برانديز بأنه «صهيون بدون صهيونية» أي أنه مشروع استيطاني في فلسطين ليست له خصوصية يهودية (وهو خلاف «الصهيونية بدون صهيون» وهي الصهيونية الإقليمية) . ويمكن القول بأن الاستيطانيين أدركوا أن طبيعة المرحلة تتطلب استمرار التشابك بينهم وبين التوطينيين ويهود العالم . ولذا ، فقد سمحوا بدخول العناصر غير الصهيونية إلى الوكالة اليهودية لكن داخل الإطار الصهيوني ، وتم تأسيس الصندوق التأسيسي (كيرين هايسود) وأُنفقت بعض أمواله المخصصة للأعمال الخيرية والمشاريع التي لا عائد لها على مشاريع استثمارية ، فاعترض برانديز فيما يُسمَّى «مذكرة زبلاند» التي قدِّمت للمنظمة الصهيونية في أمريكا (١٩٢١) . وقد رُفضت اقتراحات برانديز وأُخذ بوجهة نظر وايزمان ، فاستقال برانديز (هو وبعض الصهاينة) وقطع علاقته بالمنظمة الصهيونية ، ولكنه ظل يمارس ما سماه «النشاط التعاوني» وأسس شركة فلسطين الاقتصادية لتصب فيها الهبات والمنح (ومعنى ذلك أنه استمر في نشاطه الخيري التوطيني) . وقد أدلى برانديز ببعض التصريحات التي يُفهَم منها رفضه الرؤية الصهيونية بقضها وقضيضها . وقد سُمِّيت جامعة برانديز باسمه .

ويمكن القول بأن برانديز أدرك طبيعة المشروع الصهيوني من البداية وأنه جزء من المشروع الاستعماري الغربي ، كما أدرك طبيعة العلاقة بين الاستيطانيين والتوطينيين ، وكل ما في الأمر أنه طرح

رؤيته في مرحلة مبكرة للغاية . ولكن التطورات اللاحقة سواء في المُستوطَن الصهيوني أو بين الصهاينة التوطينيين أثبتت صدق رؤيته ، إذ أن الدولة الصهيونية أصبحت جزءاً أساسياً من المشروع الاستعماري الغربي ، مدينة له بوجودها واستمرارها ، وهي لا تعتمد على مساعدات يهود العالم التي لا تشكل سوى نسبة مئوية ضئيلة من المساعدات التي تصلها من الولايات المتحدة . والعلاقة بين الصهاينة المستوطنين والصهاينة التوطينيين تتم في إطار المصالح والأولويات الإستراتيجية الغربية .

فرانسز اوبنهايمر (١٨٦٤-١٩٤٣)

Franz Oppenheimer

عالم اجتماع واقتصاد ألماني وصهيوني توطيني ، ورائد فكرة إقامة مستوطنات زراعية تعاونية للمستوطنين اليهود في فلسطين . وُلد في برلين لأب كان يعمل حاخاماً إصلاحياً ، ودرس الطب ومارسه حتى عام ١٨٩٦ ثم تحوَّل اهتمامه إلى دراسة العلوم الاجتماعية فحصل عام ١٩٠٨ على درجة الدكتوراه فيها وعمل محاضراً في جامعة برلين (١٩٠٩ ـ ١٩١٧) ثم أستاذاً لعلم الاجتماع والنظرية الاقتصادية في جامعة فرانكفورت (١٩١٩ ـ ١٩٢٩) . وقد استقر في الولايات المتحدة منذ عام ١٩٣٨ وحتى وفاته .

وقد عارض أوبنهايمر نظرية مالتوس السكانية ، وكذلك مفاهيم ماركس الاقتصادية ، وسعى إلى تقديم بديل يجمع بين الأفكار الاشتراكية الإصلاحية والأفكار الليبرالية الاجتماعية وهو ما أسماه «الاشتراكية الليبرالية» . ويرى أوبنهايمر أن السبيل إلى تلافي الصراع الاجتماعي الناجم عن التفاوتات الجائرة بين الناس يتمثل في القضاء على الملكية الاحتكارية للأرض الزراعية التي تؤدي إلى تَسارُع هجرة الريفيين إلى المناطق الحضرية ومن ثم إلى خَلْق جيش من العمال . ويقترح أوبنهايمر أن يُستبدَل بالملكية الاحتكارية نظام تعاوني يقوم على إعادة توزيع الأرض على عدد أكبر من الفلاحين المستقلين ، وهو ما يؤدي إلى استعادة التنافس الحر وبالتالي تحقيق "الاشتراكية الليبرالية" .

أما اهتمام أوبنهايمر بالصهيونية وشئون اليهود ، فيرجع إلى عام ١٩٠٢ عندما التقى بهرتزل الذي طلب منه صياغة الجوانب الاقتصادية والزراعية في البرنامج الصهيوني . وقد نفَّذ أوبنهايمر تلك المهمة وتقدَّم باقتراحاته إلى المؤتمر الصهيوني السادس (١٩٠٣) الذي أقرها . وفي عام ١٩١١ ، قام مكتب فلسطين التابع للجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية بإنشاء مستوطنة تعاونية في يافا استناداً إلى أفكار أوبنهايمر . ورغم فشل المشروع ، فإن مكتب فلسطين كان الأساس الذي قامت عليه المستوطنات الزراعية التعاونية التي أقامها المستوطنون اليهود في فلسطين والتي تُعرَف باسم «الموشاف» .

إلا أن أوبنهايمر لم يكن متحمساً للدعاوى القومية للحركة الصهيونية فهو صهيوني توطيني يرى المشروع الصهيوني باعتباره وسيلة للتخلص من الفائض البشري اليهودي وحسب . وقد أدَّى هذا إلى ابتعاده عن أية مشاركة رسمية في الأنشطة الصهيونية منذ عام ١٩١٣ . وقد وضع عدة مؤلفات تعرض أفكاره الاقتصادية والإصلاحية وأبرزها **الدولة** (١٩٠٧) ، و **منهج علم الاجتماع** (١٩٢٢ ـ ١٩٣٥) .

ليو موتزكين (١٨٦٧-١٩٣٣)

Leo Motzkin

قائد صهيوني روسي وُلد في قرية كييف ونشَّيء تنشئة يهودية تقليدية في أسرة ثرية . أرسلته أسرته ليدرس في برلين في سن الخامسة عشرة . وفي برلين ، أسَّس عام ١٨٨٩ ، مع فيكتور جيكوبسون وشماريا ليفين وغيرهما ، الجمعية الأكاديمية اليهودية الروسية التي انضم إليها وايزمان فيما بعد . ساعد هرتزل في تنظيم المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، وساهم في صياغة برنامج بازل ، وقد كلفه المؤتمر الأول بعمل بَحْث عن المستوطنات اليهودية في فلسطين قدمه للمؤتمر الثاني (١٨٩٨) . غادر برلين مع اندلاع الحرب العالمية الأولى (لأنه كان يعتقد أن الحلفاء سينتصرون) ، وترأس مكتب كوبنهاجن . وقد استقر في باريس بعد الحرب إلى آخر أيامه .

كان من أشد المتحمسين للغة العبرية ومن أوائل من تحدثوا بها في المؤتمرات الصهيونية وكان أيضاً ممن يعتقدون أن الكفاح من أجل حقوق اليهود في بلاد الشتات أو الدياسبورا من أهم واجبات الحركة الصهيونية . ولذا ، فقد ساهم موتزكين مع كلٍّ من ستيفن وايز وناحوم جولدمان في تأسيس المؤتمر اليهودي العالمي .

بـرنارد لازار (١٨٧٠-١٩٠٣)

Bernard Lazare

كاتب وصحفي فرنسي بدأ حياته مدافعاً عن الحركات الاشتراكية والفوضوية . وقد كتب عدة مقالات في مجلات دورية كانت فيما بعد أساساً لكتابه **معاداة اليهود : تاريخها وأسبابها** الذي صدر عام ١٨٩٤ . وقد تضمَّن هذا الكتاب فقرات من النقد الشديد

لبعض القطاعات اليهودية واعتبر أن اليهود هم أنفسهم سبب العداء الذي يتعرضون له . وكان لازار يرى أن معاداة اليهود يمكنها أن تلعب دوراً بنّاءً في الفكر الاشتراكي وأن كُره الناس للرأسمالية اليهودية سيؤدي إلى النفور من الرأسمالية في جميع أشكالها .

لكن موقف لازار تغيَّر تماماً بالنسبة للمسألة اليهودية بعد قضية دريفوس . فهبَّ لنصرة الضابط الفرنسي وحارب من أجل رد اعتباره ، ونشر عدة كتب محاولاً إظهار براءته . وقد انتُخب لازار نتيجة موقفه الجديد في لجنة العمل في المؤتمر الصهيوني الثاني ، ولكن لم يكن لديه اقتراح بمكان معيَّن تُنشأ فيه الدولة الصهيونية المُقترَحة . كما أنه ، من ناحية ثانية ، هاجم بشدة الداعين للاندماج كنوع من الحل .

وقد اختلف لازار بعد ذلك مع هرتزل بشأن إقامة الصندوق القومي اليهودي لتمويل الاستيطان اليهودي في فلسطين ، معارضاً أن تتحول حركة البعث اليهودي إلى ما أسماه «العملية الرأسمالية» ، وأنهى علاقته بالحركة الصهيونية . وقد مات لازار شبه منسي ، وكتب مرثيته الكاتب الكاثوليكي شارل بيجي .

جيكوب دي هاس (١٨٧٢-١٩٣٧)

Jacob de Haas

كاتب وقائد صهيوني وُلد في لندن من أصل هولندي . انخرط في شبابه في الحركة الصهيونية . ومع صدور كتاب هرتزل **دولة اليهود** ، بدأ في مراسلته ، وكان واضحاً له منذ البداية أن هدف الحركة الصهيونية هو توطين اليهود في فلسطين من أجل إقامة دولة يهودية هناك . عمل أميناً للمؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ثم سافر عام ١٩٠٢ إلى الولايات المتحدة بناء على طلب هرتزل حيث استقر هناك ، وصار أميناً لاتحاد الصهاينة الأمريكيين حيث استمر في ذلك المنصب من ١٩٠٢ إلى ١٩٠٥ . استقال بعدئذ لاختلافه مع القيادة الصهيونية في الولايات المتحدة وانتقل إلى بوسطن ليحرر مجلة **جويش أدفوكيت** . قابل برانديز ونجح في ضمه للحركة الصهيونية وإقناعه بتولي قيادة الاتحاد ، وكانت علاقتهما بعد ذلك قوية جداً . ومع انتخاب برانديز عام ١٩١٦ كعضو في المحكمة الدستورية العليا بالولايات المتحدة ، أصبح دي هاس المنفذ الرئيسي لأفكاره في الحركة الصهيونية في أمريكا ، ومع تأسيس المنظمة الصهيونية الأمريكية عمل قائداً لها من عام ١٩١٨ وحتى عام ١٩٢١ ، ولكنه ترك قيادتها مع هزيمة الكتلة البرانديزية وتزعُّم حركة «العودة إلى هرتزل» ، وكان من مناصري الصهيونية العامة ومعجباً بفلاديمير جابوتنسكي ، فانضم عام ١٩٣٥ إلى المنظمة الصهيونية الجديدة . وتُوفي دي هاس في نيويورك عام ١٩٣٧ .

ستيفن وايز (١٨٧٤-١٩٤٩)

Stephen Wise

حاخام أمريكي إصلاحي وقائد صهيوني توطيني . وُلد في بودابست وارتحل مع أسرته إلى الولايات المتحدة وعمره ١٧ شهراً . أصبح حاخاماً عام ١٩٠٠ ، وحصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا عام ١٩٠٢ . وعُرض عليه عام ١٩٠٦ منصب حاخام معبد عمانويل في نيويورك الذي كان يُعتَبر أهم الأبرشيات ، ولكن ظهر نزاع بينه وبين لويس مارشال رئيس الأبرشية حول مدى حرية التعبير إذ أصر مارشال أن حاخام الجماعة لابد أن يخضع لقرارات مجلس أمنائها في الأمور الحيوية المهمة . وقد رفض وايز هذا الرأي وأسَّس المعبد الحر في نيويورك وظل يعمل حاخاماً لهذا المعبد حتى وفاته .

والأساس الذي ابتنى عليه هذا المعبد هو أن يعبر الحاخام عن آرائه بحريته الكاملة ، وأن يكون نظام الجلوس في مقاعد المعبد حراً تماماً أيضاً غير مقيد بمقدار تبرع المصلي . فمن المعروف أن مقاعد المعابد كانت تُباع للمصلين وكانت قيمة المقاعد تزداد بمقدار مدى القرب أو البُعْد عن لفائف التوراة ، وكلما ازداد المقعد قرباً من هذه النقطة ازدادت قيمته . وقد نجم عن ذلك أن المقاعد الأمامية كانت دائماً مخصَّصة للأثرياء وكانت المقاعد الخلفية مخصَّصة للمُعدَمين ومقاعد الوسط لمتوسطي الحال ، أي أن طريقة الجلوس في المعبد كانت تعكس البناء الطبقي للجماعة اليهودية .

وقد بدأ النشاط الصهيوني لوايز في تسعينيات القرن التاسع عشر . كان وثيق الصلة بتيودور هرتزل حيث التقيا في بازل في المؤتمر الصهيوني الثاني (١٨٩٨) . وقد كان من قبل يشغل منصب أمين الحركة الصهيونية في أمريكا . وفي مؤتمر السلام في فرساي ، تحدَّث وايز بلسان الحركة الصهيونية . وأسس ، مع آخرين ، المؤتمر اليهودي الأمريكي عام ١٩١٦ ، وكان نائباً لرئيسه في الفترة ١٩٢٢ - ١٩٢٥ ، ثم ترأسه بين عامي ١٩٣٦ و١٩٤٩ . وفي هذه الفترة ، عمل على إفشال المؤتمر اليهودي العالمي الثالث والمؤتمر الذي دعا إليه المموِّل الأمريكي اليهودي أُنترماير ، وقد كانا يحاولان تنظيم حركة المقاطعة اليهودية للنازية في وقت كانت الحركة فيه آخذة في التنامي . وقد قام بذلك حتى تستطيع الحركة الصهيونية الاستمرار في التعاون مع النظام النازي من خلال اتفاقية الهعفراه .

ورغم حربه الشرسة ضد يهود العالم لصالح المستوطنين ، كان

وايز صهيونياً توطينياً من الدرجة الأولى . فبعد إعلان الدولة لم يهاجر إليها ، ولعله لو طال به العمر لاصطدم ببن جوريون ولتم القضاء على نفوذه كما حدث مع بقية القيادات الصهيونية التوطينية التي كانت تتصوَّر أن بوسعها التحكم في المُستوطَن الصهيوني من خلال المنظمة .

إدمـوند فليـج (١٨٧٤-١٩٦٣)
Edmond Fleg

شاعر وكاتب مسرحي وقاص فرنسي ، لعب دوراً مهماً في الفكر الصهيوني ، وقد وُلد في جينيف ، وكان في سنوات تكوينه الأولى متباعداً عن اليهودية نفسياً وفكرياً إذ نشأ في أسرة مندمجة ، وتعلَّم في مدارس وجامعات غير يهودية في أوربا ومن بينها السوربون . وفي عام ١٩١٤ ، انضم إلى الكتيبة العسكرية الفرنسية للأجانب ، واشترك في الحرب العالمية الأولى ، وحصل بعد عامين على الجنسية الفرنسية ، ثم عاد إلى باريس والتحق بالخدمة المدنية وواصل دراسته . وكان فليج ـ بالاشتراك مع المؤرخ جول إسحق ـ من مؤسسي إحدى الحركات من أجل الإخاء المسيحي ـ اليهودي ، وكتب في مستهل حياته عدة مسرحيات ناجحة شعبياً ، لا علاقة لها باليهودية ، مثل **فاوست** (١٩٣٧) . ثم حدث التحول في حياته نتيجة هزة نفسية تعرَّض لها عقب قضية دريفوس ، إذ شعر فجأة بيهوديته (على حد قوله) ، فانكب على دراسة جادة لما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» ، وقدَّم للقارئ الفرنسي على مدى أربعين سنة أعمالاً تدور حول موضوعات يهودية .

بدأ اهتمام فليج بالصهيونية وشارك في بلورة فكرها والدعاية لها بعد حضوره المؤتمر الصهيوني الثالث (١٨٩٩) . ومن أهم أعماله الأدبية **لماذا أنا يهودي** (١٩٢٨) ، وهو تحليل لعودته إلى اليهودية وصف فيه التجربة التي مر بها ، وإن كان التحليل في نهاية الأمر لا يجيب على أي تساؤل ولا يحل أي تناقض . وفي كتاب **فلسطين أرض الميعاد** يعبِّر فليج عن أمله في إحياء الروح اليهودية وإنشاء الدولة الجديدة وإن كان يتساءل عن جدوى إقامة وطن لليهود في فلسطين ما دام مصيرهم سيكون مهدداً فيها كما هو الحال في كل مكان ، وهل يستطيع هذا الجيتو الجديد أن يحل مشكلة اليهود ؟ أما المجموعة الشعرية **اسمعي يا إسرائيل** فهي ملحمة شعرية تقص تاريخ الشعب اليهودي حتى إعلان إسرائيل ، بدأها عام ١٩٠٦ واستمر في كتابتها والإضافة لها عبر حياته ولم تُنشر إلا عام ١٩٥٤ وهي تُعتبَر صورة يهودية مطابقة لعمل فيكتور هيجو الأدبي أسطورة الأجيال .

وقد كان لفليج تأثير في الأدب الفرنسي ذي الطابع اليهودي ، كما حاول جاهداً في كتاباته إظهار التوافق بين الثقافة الغربية والقيم اليهودية . ورغم اهتمام فليج باليهودية والصهيونية ، فإنه كان أساساً من الصهاينة التوطينيين الذين يدافعون عن الصهيونية كمثل أخلاقي أعلى وحركة لحل مشاكل اليهود الآخرين .

فيلكس فرانكفورتر (١٨٨٢-١٩٦٥)
Felix Frankurter

صهيوني توطيني كان يعمل قاضياً بالمحكمة الدستورية العليا الأمريكية . وُلد في فيينا عام ١٨٨٢ ، ثم هاجر مع أبويه إلى الولايات المتحدة عام ١٨٩٤ . تخرَّج في كلية الحقوق في جامعة هارفارد عام ١٩٠٦ وأصبح مساعد المدعي العام الأمريكي في نيويورك . وأصبح مساعداً لوزير الحرب الأمريكي عام ١٩١١ . وكان أستاذاً للقانون الإداري بهارفارد حتى تم اختياره قاضياً بالمحكمة الدستورية العليا عام ١٩٣٩ . وأخيراً ، كان المستشار القانوني للوفد الصهيوني الأمريكي لمؤتمر السلام في باريس ، وشارك مشاركة فعالة في مفاوضات فيصل/ وايزمان . وقد ابتعد فرانكفورتر عن المشاركة في النشاطات الصهيونية بعد استقالة برانديز ولكنه استمر في النشاط الصهيوني التوطيني والإثني من خلال عضويته في مجلس مديري أصدقاء الجامعة العبرية في القدس . وكان فرانكفورتر صديقاً شخصياً لروزفلت . وتُوفي في نيويورك عام ١٩٦٥ .

ابراهام جولدبرج (١٨٨٣-١٩٤٢)
Abraham Goldberg

قائد صهيوني وكاتب . وُلد في روسيا عام ١٨٨٣ وشارك في النشاط الصهيوني منذ شبابه . هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩١٨ واستقر هناك . وفي عام ١٩٠٣ ، أسَّس مع آخرين أول جماعة لعمال صهيون في الولايات المتحدة . كان من مؤيدي خطة التوطين في شرق أفريقيا ومن الإقليميين الاشتراكيين .

شارك في تأسيس عدة جرائد يديشية صهيونية واشترك في تنظيم المؤتمر اليهودي الأمريكي . وأصبح بعد الحرب عضواً في المكتب السياسي للمنظمة الصهيونية الأمريكية وحارب ضد مجموعة برانديز أثناء معركتهم مع حاييم وايزمان عام ١٩٢١ . وعمل مراسلاً ومبعوثاً لحاييم وايزمان مرتحلاً بين عدة جماعات يهودية لشرح فكرة توسيع الوكالة اليهودية ، وصار منذ عام ١٩٣٧ عضواً في المكتب التنفيذي للوكالة .

فريدريك كيش (١٨٨٨-١٩٤٣)

Frederick Kisch

مهندس عسكري بريطاني وقيادي صهيوني . وُلد في الهند حيث كان أبوه يعمل في الإدارة المدنية الهندية ، وأتم دراسته في الأكاديمية العسكرية الملكية والتحق بالجيش الهندي . وقد خاض الحرب العالمية الأولى ، وبعد إصابته عُيِّن في إدارة الاستخبارات العسكرية في مكتب شئون الحرب وكان مسئولاً عن الفرع المختص بروسيا وإيران والصين واليابان . وبعد انتهاء الحرب ، اختير ضمن الوفد البريطاني إلى مؤتمر باريس للسلام (١٩١٩ ـ ١٩٢١) .

وقد استقال كيش من الخدمة العسكرية عام ١٩٢٣ وقَبل دعوة حاييم وايزمان ـ زعيم المنظمة الصهيونية العالمية آنذاك ـ للانضمام إلى عضوية اللجنة التنفيذية الصهيونية في القدس وهي هيئة قيادية فرعية للمنظمة الصهيونية العالمية . ومن خلال موقعه هذا ، قام كيش بدور بارز في دعم التعاون والتنسيق بين القادة الصهاينة وسلطات الانتداب البريطاني في فلسطين . كما تولَّى كيش الإشراف على المكتب السياسي التابع للجنة ، وهو أداة جنينية لأنشطة الاستخبارات ، حيث عمل على تنظيم شبكة تجسُّس من المستوطنين اليهود كانت تستتر وراء الهيئات العامة كالنوادي والجمعيات الخيرية . وفي عام ١٩٣١ ، ترك كيش منصبه القيادي في الحركة الصهيونية وتفرَّغ لإدارة مشروعات تجارية في حيفا ، ولكنه واصل إمداد المستوطنين الصهاينة بنصائحه في شئون الأمن .

وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية ، عاد كيش إلى الخدمة العسكرية في صفوف القوات البريطانية فتولى مسئولية مد خطوط الإمدادات المائية إلى المنشآت العسكرية في منطقة شمال أفريقيا ، وقد لقي مصرعه في إحدى العلمليات العسكرية . وقد سجل كيش تفاصيل علاقته بالحركة الصهيونية وأنشطته على أرض فلسطين في كتاب **يوميات فلسطين** (١٩٣٨) .

ومن الواضح أن كيش صهيوني توطيني يرى المشروع الصهيوني باعتباره مشروعاً استعمارياً غربياً ، ولا يكترث بسماته اليهودية الخاصة .

أبا هليل سيلفر (١٨٩٣-١٩٦٣)

Abba Hillel Silver

حاخام أمريكي وزعيم صهيوني وُلد في ليتوانيا وهاجر إلى أمريكا عام ١٩٠١ وانخرط في سلك الصهيونية منذ صباه حيث أسس نادياً لأحباء صهيون الصغار . وعلى هذا الأساس ، شارك في الاتحاد الصهيوني الأمريكي . ويُعَدُّ من أوائل الحاخامات الإصلاحيين الذين انضموا للحركة الصهيونية وحاربوا الاتجاهات المعادية لها في صفوف أتباع اليهودية الإصلاحية . وقد انحاز إلى القاضي برانديز أثناء الخلاف بينه وبين وايزمان (١٩٢٠ ـ ١٩٢١) ، لكنه ما لبث أن عاد إلى أحضان المنظمة الصهيونية ومثَّل الصهاينة الأمريكيين في عديد من المؤتمرات الصهيونية وساهم في تأسيس النداء اليهودي الموحَّد والنداء الفلسطيني الموحَّد . وقد كثَّف جهوده أثناء المناورات الصهيونية لإنشاء الدولة الصهيونية مستخدماً الوسائل الدبلوماسية والتقليدية والضغط عن طريق الرأي العام ، وقد لجأ سيلفر للضغط المكشوف دون أي خوف من أن يُتهم بازدواج الولاء ، وشارك منذ عام ١٩٤٣ فيما عُرف بعدئذ باللوبي الصهيوني . وقد ترأس المنظمة الصهيونية الأمريكية بين عامي ١٩٤٥ و١٩٤٧ وظل رئيساً فخرياً لها حتى موته .

ومما يُذكر أنه بعد قيام الدولة ، اصطدم سيلفر وبن جوريون الذي كان يفضل دائماً أن ينظر إلى أعضاء الجماعات اليهودية في العالم على أنهم مجرد وسيلة لتحقيق أنبل غاية يهودية ، أي الدولة الصهيونية : وهذا تعريف يرفضه سيلفر وزعماء صهيونية الدياسبورا التوطينيون الذين يصرون على ازدواجية ولاء اليهودي الأمريكي بحيث يكون ولاؤه السياسي لبلده وولاؤه العاطفي الثقافي لإسرائيل .

ويمكننا أن نرى علاقته مع بن جوريون في إطار العلاقة العامة بين التوطينيين الذين يرسلون الدعم المالي والاستيطانيين الذين يؤدون المهمة الأساسية للاحتلال (أي الاستيطان) ، وهي علاقة تجمع بين الحب والكراهية في آن واحد . ومما صعد التناقض بينهما أن كليهما كان يطمع في الزعامة . لكن الاستيطانيين رفضوا بشدة أن يعطوا أي دور للتوطينيين .

وقد كان سيلفر من دعاة تدعيم القطاع الخاص في الاقتصاد الإسرائيلي الأمر الذي كان يمثل تهديداً كبيراً للبيروقراطية العمالية الصهيونية الحاكمة . والحاخام سيلفر مشيحاني الاتجاه يجمع بين الفكر الإصلاحي الاندماجي والرؤية المشيحانية ، وقد أعرب عن رأيه في أن الصهيونية ليست مجرد حل لمشكلة لاجئين وإنما هي قضية روحية لخلاص الشعب اليهودي .

ومن أهم مؤلفاته **تأملات حول الماشيَّح المنتظر في يسرائيل القديمة** ، و **مواطن اختلاف اليهودية عن الديانات الأخرى** .

ناحوم جولدمان (١٨٩٤-١٩٨٢)

Nahum Goldman

زعيم صهيوني توطيني مؤسِّس المؤتمر اليهودي العالمي . وُلد في ليتوانيا ونشأ وتعلَّم في ألمانيا حيث حصل على الدكتوراه في القانون ، وانخرط في سلك النشاط الصهيوني وهو بعد في سن الخامسة عشرة . وقد حاول أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها أن يثير اهتمام الحكومة الألمانية بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين تحت رعاية ألمانيا (وقد كان مثل هرتزل من كبار المعجبين بالروح العسكرية البروسية) . وأسس مع كلاتزكين في برلين دار إشكول لنشر الكتب العبرية ، وكان من أعضاء جماعة العامل الفتي ، ولكنه تركها وانضم إلى جماعة الصهاينة الراديكاليين وحضر جميع المؤتمرات الصهيونية منذ عام ١٩٢١ ، وساهم في تأسيس المؤتمر اليهودي العالمي عام ١٩٣٦ (وهي فكرة باركها الزعيم الفاشيستي موسوليني في اجتماع بينه وبين جولدمان ساده الفهم المُتبادَل ، وقد أبدى الدوتشي استعداده لدعم هذا المؤتمر) . وتولَّى جولدمان رئاسة المؤتمر اليهودي العالمي في الفترة بين عامي ١٩٥٣ و١٩٧٧ ، كما تولَّى رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية منذ عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٨ وقد أصبح مواطناً إسرائيلياً عام ١٩٦٤ ، ولكنه لم يلعب دوراً ذا بال في الحياة السياسية هناك .

ومن أهم مساهمات جولدمان في دعم التجميع الاستيطاني في إسرائيل ، إتمام اتفاقية التعويضات الألمانية التي دفعت الحكومة الألمانية بمقتضاها تعويضات لأسر اليهود الذين قُتل ذووهم في معسكرات الاعتقال . وقد ذهبت معظم التعويضات التي بلغت ٨٢٢ مليون دولار إلى إسرائيل ، هذا غير المبالغ التي دُفعت للأفراد (وقد اعترف جولدمان نفسه بأن مجموع التعويضات الفعلي قد بلغ ٤٠ ألف مليون مارك ، أي حوالي أربعة بلايين دولار) .

وبعد عام ١٩٦٧ ، تزايدت الانتقادات التي وجهها جولدمان إلى الحكومة الإسرائيلية بشأن قضية السلام ، ولم يُعَد انتخابه رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٦٨ وأصبح بعد ذلك مواطناً في سويسرا . وحاول زيارة مصر عام ١٩٦٩ ولكن جولدا مائير ، رئيسة الوزراء آنذاك ، رفضت المبادرة . وقد طلب جولدمان من كارتر أن يحطم اللوبي الموالي لإسرائيل في الولايات المتحدة .

ويُلاحَظ أنه ، على المستوى الفلسفي والفكري ، يوجد تياران متصارعان في تفكير جولدمان ، التيار الأول حلولي كموني صهيوني معاد للتاريخ من الناحية السياسية . فالتاريخ اليهودي ، حسب جولدمان ، يعبِّر عن تفرُّد الشعب اليهودي الذي بقي عبر التاريخ بسبب مقدراته الروحية ووحدتها ، وهي مقدرات تخلع على تاريخ البشرية بأسره جلاله ومغزاه ، فكأن الشعب اليهودي هو المطلق الكامن في مركز التاريخ وركيزته الأساسية . بل إن الشعب اليهودي في علاقته مع الأغيار يشبه علاقة المسيح مع من صلبوه . فالبشرية التي يعيش اليهود بينها هي المسئولة عن عذابهم . هذه الأمة ذات علاقة حلولية عضوية بالأرض الفلسطينية ، ومن ثم تصبح الدولة الصهيونية حتمية وتصبح حقوق اليهود في الأرض مطلقة . وحتى لو سلمنا بأن العرب أصحاب حق في فلسطين فيجب إدراك أن هذه الحقوق لا تُقارَن بالحقوق اليهودية المطلقة فيها .

ولكن جولدمان كصهيوني توطيني يكمل هذه الرؤية الحلولية بأخرى أقل حلولية وأكثر تفتحاً ، فهو يؤمن بأن الإله لا يتجسد في كل تعرجات ونتوءات التاريخ اليهودي ولا يتدخل دائماً فيه ، الأمر الذي يترك مساحة واسعة للحرية الإنسانية ، ولا يوجد قَدَر محدَّد مرسوم لليهود خططه الإله خصيصاً لليهود منذ بدأ الكون ، فإذا كان الإله مسئولاً عن انتصار عام ١٩٦٧ فهو بلا شك مسئول عن أوشفيتس أيضاً ، أي أن جولدمان يرى أن الإله منزَّه عن الطبيعة والتاريخ وأن الخالق لا يحلّ في المخلوق ولا يذوب فيه ، ومن ثم فإن الإنسان مخيَّر وليس مسيَّراً .

ولأن جولدمان قادر على رؤية التاريخ اليهودي بهذه الطريقة ، فإنه قادر على تقييمه وعلى التهكم على الرؤية المشيحانية الميلودرامية ، فهو يعقد مقارنة بين الإنجليز واليهود فيقول : "في القرن الماضي فَقَد الإنجليز إمبراطوريتهم ولكنهم تخطوا أحزانهم ، أما اليهود فقد فَقَدوا الهيكل منذ ألفي عام ولم يكفُّوا عن النواح عليه منذ ذلك الوقت بل خصصوا يوماً للنواح ، لو فَقَد اليهود إمبراطوريتهم لصاموا يوماً من كل أسبوع" ، أي أنه يرى أن المركزية التي يخلعها اليهود على أنفسهم أو تخلعها الحلولية اليهودية عليهم ترهقهم تماماً وتُفقدهم إنسانيتهم وتضع على كاهلهم عبئاً ثقيلاً .

وإذا كان التاريخ ليس موضع الحلول الإلهي وإنما مجال حرية الإنسان ، فلا حتميات إذن : لا حتمية في الصراع العربي الإسرائيلي ، والأرض الفلسطينية ليست أرضاً بلا شعب كما ادعى الصهاينة . ومعاداة اليهود ليست خالدة ولا أزلية ، كما أن يهود العالم لا يتمتعون بأية وحدة حلولية عضوية فيما بينهم أو بينهم وبين إسرائيل .

هاتان الرؤيتان (الحلولية والإنسانية) تتبدَّيان في رؤيتين متناقضتين (كما هو الحال مع الصهاينة التوطينيين) . فمن حق اليهودي أن يحس بالولاء تجاه البلد الذي ينتمي إليه ، ولكن من حقه

أيضاً أن يشعر بالولاء تجاه إسرائيل ، دون أن يشعر بأي تناقض ، لأن جولدمان كان قد حرَّر يهود العالم من عبء الرؤية الحلولية فإنه قد ترك إسرائيل أسيرة دائرة القداسة ، فهي تقبع داخلها . ومن ثم ، فإن ولاء اليهودي ولاء سياسي تاريخي ، أما ولاؤه لإسرائيل فهو ولاء ديني حلولي (ويحس جولدمان شخصياً بالولاء لجنيف العلمانية والقدس الحلولية) . لكل هذا ، فإن العودة لصهيون ليست مسألة حتمية أو مرغوباً فيها ، فبإمكان اليهود البقاء في أوطانهم والاحتفاظ بهويتهم والدفاع عن حقوقهم . ولذا ، يجب ألا يتدخل المُستوطَن الصهيوني في شئونهم . وبدلاً من الدعاية من أجل هجرة اليهود السوفييت وإخراجهم ، يجب النضال من أجل تحسين أحوالهم وضمان تمتُّعهم بحقوقهم كاملة . وبالطريقة نفسها ، يجب ألا يتدخل يهود العالم في شئون إسرائيل . بل إن جولدمان يطالب بأن تكون مهمة المنظمة الصهيونية حماية اليهود في كل بلد وتأتي العلاقة مع إسرائيل في المرتبة الثانية .

ما وظيفة إسرائيل إذن في حياة يهود العالم ؟ هنا يظهر موضوع المركز الروحي (فكرة آحاد هعام) . فجولدمان يرى أن انفصال يهود العالم انفصالاً كاملاً عن اليهود واليهودية هو نوع من أنواع الموت من خلال القلب (مثل منفيي الروح عند بن جوريون) . وحتى يتمكن القلب والروح اليهوديان من أن ينعما بالحرية ، يجب تخصيص دولة تكون مركزاً روحياً تُولَد فيها أفكار جديدة وتصبح مصدر إلهام للشعب اليهودي المشتت . ويُشكِّل تَضامُن يهود العالم مع إسرائيل ، أو المركز الروحي ، جزءاً أساسياً في حياة كل منهما ، فإذا كان وجود يهود العالم مستحيلاً بدون الدولة (فهم مهددون بالاندماج والانصهار) فوجود الدولة الصغيرة مستحيل بدون الدياسبورا (يهود العالم) ، أي أن هناك مركزين لليهودية .

ورغم أن جولدمان يُلقي عبء المطلقية على الدولة الصهيونية في علاقتها باليهود ، فإنه ينظر لها بطريقة أكثر تركيباً في علاقتها بالدول العربية . فقد لاحظ جولدمان أن إسرائيل تعتمد اعتماداً شبه كامل على الدول الغربية ، مع أنه يرى أن على إسرائيل أن تتعامل مع الواقع العربي المحيط بها ، وخصوصاً أن الزمن لا يعمل لصالحها ، فكل الانتصارات الإسرائيلية لم تنجح حتى الآن في حسم المسألة .

وفي العصر الحديث ، نجد أن كل الشعوب ، حتى أصغرها عدداً ، تتمتع بحق تقرير المصير الذي يجب أن يشمل الفلسطينيين . ولذا ، فقد طالب جولدمان بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية (بشروط صهيونية) . وعلى إسرائيل أن تقبل سلاماً رسمياً في إطار ضمانات دولية ، وأن تتصرف كدولة في الشرق الأوسط ، إذ لا يوجد أي مستقبل للدولة اليهودية دون تفاهُم كامل مع العرب . بل إنه طالب بأن تصبح إسرائيل (المركز الروحي لليهود) سويسرا الشرق : دولة محايدة تماماً وتتحرك خارج نطاق الصراعات والسياسات الدولية .

ويبرر جولدمان حياد إسرائيل على أساسين : واحد حلولي مغلق والآخر إنساني متفتح . فدولة إسرائيل المحايدة تتويج لمعاناة اليهود التي استمرت ألف عام ، وحيادها سيؤدي إلى تعاون هائل بين العرب وإسرائيل الأمر الذي يجعل المنطقة تقترب من شيء يشبه المرحلة المشيحانية . أما التبرير التاريخي السياسي فهو يَصدُر عن إدراك جولدمان لعنصرين أساسيين في إسرائيل :

١ ـ لا يسكن إسرائيل أكثر من عشرين بالمائة من يهود العالم ، ومن غير الواقعي تصوُّر أن أكثرية اليهود ستتجمع في إسرائيل خلال العقود المقبلة . وعلى أية حال ، فبدون تضامن يهود العالم ما كان ليتم تأسيس الدولة الصهيونية ، وما كان بمقدورها الاستمرار في الوجود حتى الآن . والواقع أن حياد إسرائيل المقترح يمكن أن يوفر لجميع يهود العالم مركزاً ثقافياً أخلاقياً ودولة غير متورطة في مشكلات السياسة الدولية . وبذا ، يتمكن يهود العالم من الخلاص من تهمة الولاء المزدوج .

٢ ـ دولة إسرائيل تشبه الشوكة في حلق العالم العربي فهي دولة (وظيفية) تدور في إطار المصالح الغربية يمكنها عرقلة السياسة المشتركة لهذا العالم ، ولو كانت إسرائيل محايدة وغير ضالعة في مسائل السياسة الدولية الأساسية لاستطاع العالم العربي قبول الأمر الواقع (أي وجود إسرائيل) على نحو أسهل .

وقبل موته بثلاثة أعوام ، صرح جولدمان لمجلة ألمانية بأن إسرائيل تمثل فشل تجربة ، وأنها كارثة أضخم من أوشفيتس . وقبل موته بشهر واحد ، نشر إعلاناً في جريدة **ليموند** يدعو إلى مبادرة إسرائيلية فلسطينية للاعتراف المتبادل .

نسيم جعون (١٩٢٢-)

Nessim Gaon

رجل أعمال وُلد في السودان لعائلة يهودية سفاردية ذات أصول تركية هاجرت إلى مصر ثم انتقلت إلى السودان حيث عمل والده في الحكومة السودانية في الخرطوم في ظل وجود الاستعمار البريطاني في المنطقة . وتخرَّج جعون في مدرسة كومبوني في الخرطوم وانضم خلال الحرب العالمية الثانية إلى الجيش البريطاني

حيث اشترك في القتال في سوريا والعراق وإيران وإيطاليا وشمال أفريقيا . وبعد تسريحه من الجيش ، عاد إلى السودان حيث التحق بتجارة الأسرة . وفي عام ١٩٥٧ ، بعد أن نالت السودان استقلالها ، وبعد رحيل الاستعمار البريطاني عن المنطقة ، انتقل جعون إلى جنيف حيث شيَّد مؤسسة تجارية عالمية متخصِّصة في مجالات الاستيراد والتصدير والاستثمارات والعقارات .

ونشط جعون بشكل بارز في مجال الشئون اليهودية . ففي الخرطوم عمل سكرتيراً ونائباً لرئيس الجماعة اليهودية في السودان ، وفي جنيف نجح في توحيد الجماعة الإشكنازية والجماعة السفاردية وأصبح رئيساً للجماعة المتحدة التي أصبحت تمثل الجماعتين منذ عام ١٩٦٦ . واهتم جعون بالجماعة السفاردية بشكل خاص وعمل رئيساً للاتحاد السفاردي العالمي منذ عام ١٩٧١ . كما احتل منصب نائب رئيس المؤتمر اليهودي العالمي منذ عام ١٩٧٣ . وقدَّم جعون تبرعات ومساهمات عديدة لإسرائيل ، وأصبح عام ١٩٧١ عضواً في مجلس إدارة جامعة بارابلان الإسرائيلية . وفي عام ١٩٧٣ ، أصبح رئيس مجلس إدارة جامعة بن جوريون في بئر سبع .

ويأتي دعم جعون السخي لإسرائيل ، مثل غيره من أثرياء يهود الغرب ، في إطار ما يمكن تسميته «الصهيونية التوطينية» حيث يقوم هؤلاء بدعم وتأييد إسرائيل مادياً وسياسياً وبتمويل النشاط الاستيطاني بها دون أن يهاجروا هم بأنفسهم إليها . ولذلك ، يتخذ هذا الدعم شكلاً حماسياً واستعراضياً ويتسم بنبرته العالية . إلا أن هذا الدعم يأتي في المقام الأول كتعبير عن مصالح الرأسمالية العالمية ومصالحها الإمبريالية التي يخضع أثرياء الغرب من اليهود لآلياتها ، شأنهم شأن غير اليهود ، ويشكلون جزءاً لا يتجزأ من نسيجها . ولكن هناك بُعداً آخر لدعم جعون للمُستوطَن الصهيوني ، إذ يبدو أنه يقوم بدعم الأحزاب السفاردية في المُستوطَن الصهيوني (تامي مثلاً) بهدف أن تقوم هذه الأحزاب بتمثيل مصالحه والقيام بتسهيل أعماله والدفاع عنها .



٦
المؤسسات التوطينية

مؤسسات توطينية ـ لجنة التوزيع المشتركة الأمريكية اليهودية ـ الأليانس إسرائيليتش ذو فين (التحالف الإسرائيلي في فيينا) ـ الأليانس إسرائيليت يونيفرسيل (التحالف الإسرائيلي العالمي) ـ أجرو/ جوينت (المؤسسة الأمريكية اليهودية المشتركة للزراعة) ـ إميج ديركت (اللجنة المتحدة للهجرة اليهودية) ـ أورت (منظمة إعادة التأهيل والتدريب) ـ إيكا (جمعية الاستيطان اليهودي) ـ إيكور (الجمعية الأمريكية للتوطين اليهودي في الاتحاد السوفيتي) ـ جمعية غوث اليهود الألمان ـ الجمعية الأمريكية للمستوطنات الزراعية اليهودية في روسيا ـ كومزت (لجنة توطين اليهود الكادحين في الأرض) ـ هياس (خدمة هياس المتحدة) ـ هيسم

مؤسسات توطينية

Institutions Promoting the Settlement of Members of Jewish Communities

مؤسسات ظهرت بين يهود العالم الغربي المندمجين ، أساساً في الولايات المتحدة ، ويعود تاريخها إلى أواخر القرن التاسع عشر ، وظهور المسألة اليهودية في شرق أوربا بين يهود اليديشية وتدفُّق ملايين المهاجرين منهم على دول أوربا الغربية (إنجلترا وفرنسا) ووسطها (ألمانيا) ثم على الولايات المتحدة ، الأمر الذي هدَّد المواقع الطبقية والمكانة الاجتماعية ليهود العالم الغربي بسبب تميُّز يهود اليديشية دينياً وإثنياً ووظيفياً واقتصادياً . وقد قام أثرياء يهود الغرب المندمجين بتمويل هذه الجمعيات التي حاولت توطين هؤلاء المهاجرين بعيداً عن أوربا .

وقد تزامن ظهور المؤسسات التوطينية مع تنامي الحركة الصهيونية ، كما أن هذه المؤسسات تتفق مع الحركة الصهيونية في بعض الأهداف وإن اختلفت الوسائل . وكلاهما يتفق على بعض عناصر الصيّغة الصهيونية الشاملة ، فكل من المؤسسات التوطينية والحركة الصهيونية تهدف إلى التخلص من يهود اليديشية (الفائض البشري اليهودي في المُصطلَح الصهيوني) . وكانت الصهيونية تحاول إنجاز هذا الهدف عن طريق الاستيلاء على أرض فلسطين وطَرْد سكانها وإحلال المستوطنين اليهود محلهم وتوظيفهم في خدمة الاستعمار الغربي . أما المؤسسات التوطينية ، فكانت تهدف إلى إنجاز الهدف نفسه من خلال ما يلي :

١ ـ توطين المهاجرين اليهود في البلاد الاستيطانية التي تحتاج إلى مادة بشرية مثل أمريكا اللاتينية (الأرجنتين على وجه الخصوص) وأستراليا ، على أن يذوبوا في المجتمعات الجديدة ويصبحوا جزءاً من أهلها وثقافتها . ويُلاحَظ أن عملية التوطين تتم في إطار التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي بشكل عام ، وليس لها مضمون يهودي محدد . ويُلاحَظ أن البلاد التي كان التوطين يتم فيها تتسم بأن عملية الإبادة والإحلال للسكان الأصليين فيها كانت قد اكتملت (ولذا ، فإن التوطين هنا يتم بموافقة السلطة الجديدة والعنصر البشري المهيمن وليس رغماً عنه) ، وكانت المؤسسات التوطينية تشجع اليهود المهاجرين على التخلي عن ميراثهم الثقافي والديني والاقتصادي وعلى الاندماج بل الذوبان في مجتمعهم الجديد .

٢ ـ مساعدة يهود اليديشية على الاندماج في بلادهم عن طريق تحديث مؤسساتهم التربوية والثقافية وعن طريق تحويلهم إلى عناصر منتجة (أي تحويلهم من جماعة وظيفية ، تقع خارج بناء المجتمع الطبقي والثقافي إلى مواطنين عاديين ، مندمجين في مؤسساته الثقافية والاجتماعية والاقتصادية) . وعادةً ما كان هذا يتم من خلال مشاريع توطينية تقوم بها الحكومات المختلفة في أرض زراعية بكر . ولعل أهم هذه المشاريع تلك المشاريع التي قامت بها روسيا القيصرية ثم السوفيتية وساهمت فيها الحركات التوطينية .

٣ ـ مساعدة المهاجرين الذين وصلوا بالفعل إلى المجتمعات الغربية على الاندماج واكتساب هوية جديدة .

ويمكن القول بأن التوطين من أهم أهداف معظم مؤسسات الغوث اليهودية (مثل الأليانس إسرائيليت يونيفرسل) إن لم يكن الهدف الوحيد . ولكن كانت هناك أيضاً مؤسسات توطينية خاصة مثل أجروجوينت وإميج ديركت وأورت وأوزت وإيكا وإيكور وكومزت وهياس وهيسم .

وكما أسلفنا ، فإن هذه المؤسسات لم تكن ذات توجُّه صهيوني استيطاني ، بل كانت (في بعض الأحيان) معادية للصهيونية

وللأهداف السياسية الكامنة في عملية التوطين في فلسطين . ومع هذا ، فقد كان كثير من المؤسسات التوطينية يقوم بنشاط صهيوني توطيني إذ أنها كانت تساعد على توطين يهود اليديشية في فلسطين باعتبار أن هذا هو إحدى وسائل التخلص من اليهود ، وهذا ما نطلق عليه اصطلاح «الصهيونية التوطينية» .

وكثير من هذه الجمعيات تم استيعابه داخل الشبكة الصهيونية العامة بحيث أصبح يمارس نشاطه داخل إطار صهيوني . ولكن هذا هو النمط العام لكثير من النشاطات اليهودية في العالم الغربي ، فقد تم استيعابها داخل النشاط الصهيوني بعد أن أصبحت الصهيونية جزءاً مستقراً في التشكيل الاستعماري الغربي .

لجنة التوزيع المشتركة الأمريكية اليهودية

American Jewish Joint Distribution Committee

اختصارها «JDC» ويشار إليها أحياناً باسم «جوينت Joint» وحسب . وهي منظمة أمريكية يهودية تأسست عام ١٩١٤ تحت اسم «لجنة التوزيع المشتركة للأموال الأمريكية من أجل غوث ضحايا الحرب من اليهود» وتحت رئاسة فليكس واربورج . وقد قامت بتأسيسها ثلاث منظمات أمريكية يهودية (هي : اللجنة الأمريكية اليهودية للغوث ، واللجنة المركزية للغوث ، واللجنة الشعبية للغوث) بهدف تنسيق وتوحيد عمليات جمع التبرعات وغوث أعضاء الجماعات اليهودية في الخارج ، وخصوصاً في أوربا حيث كان شبح الحرب يهدد باقتلاع مئات الآلاف من اليهود وغير اليهود من بلادهم . وقد كان من أبرز مؤسسيها أثرياء اليهود الأمريكيين ذوي الأصول الألمانية أمثال عائلات واربورج وليمان وروزنفالد وغيرها والتي كانت تخشى من تدفُّق موجات جديدة من يهود شرق أوربا إلى الولايات المتحدة . ولذلك ، كانت المهمة الأساسية لهذه المنظمة تقديم الغوث ومجموعة من الخدمات الطبية والصحية والاجتماعية والاقتصادية ، وإقامة برامج إعادة التأهيل لأعضاء الجماعات اليهودية ، الأمر الذي يتيح لهم البقاء والاستمرار في أوطانهم الأصلية . كما كان دعمها للاستيطان اليهودي في فلسطين يهدف في المقام الأول إلى تحويل جزء من هجرة يهود أوربا المرتقبة إلى فلسطين .

وقد شاركت المنظمة في عمليات الغوث في بولندا وألمانيا في خلال الحرب العالمية الأولى ، وأنفقت ١٤,٩٣٧,٧٨٣ دولاراً لدعم التجمع اليهودي في فلسطين ، كما أرسلت لهم عام ١٩١٥ سفينة محملة بأطنان من المواد الغذائية . أما بعد الحرب ، فقد شاركت المنظمة في مواجهة المجاعة التي اجتاحت مناطق واسعة من أوربا الشرقية ، وساعدت أعضاء الجماعات اليهودية في روسيا وبولندا ورومانيا والمجر ، وأقامت مؤسسات صحية وجمعيات لرعاية الأطفال في هذه البلاد ، وخصوصاً في بولندا حيث أقامت عام ١٩٢٣ منظمة صحية هي «توز TOZ» (جمعية الرعاية الصحية لليهود في بولندا) وأخرى لرعاية الأطفال عام ١٩٢٦ هي «كانتوس Cantos» ، كما عملت الجمعية على إعادة فتح ورعاية المدارس والمؤسسات الدينية التعليمية التي حطمتها الحرب .

ولكن نشاطها الأكثر أهمية تَركَّز في مجال إعادة تأهيل أعضاء الجماعات اليهودية في شرق أوربا اقتصادياً ، وتحويلهم إلى قطاع اقتصادي منتج من خلال تأسيس شبكة من جمعيات الإقراض وجمعيات الائتمان التعاونية ، وإقامة المدارس الفنية والتجارية وإعادة توطين أعضاء الجماعات في الأراضي الزراعية .

وقد وصل عدد جمعيات الإقراض بحلول عام ١٩٣٩ نحو ٩١٥ جمعية ، بلغ حجم معاملاتها السنوية أربعة ملايين دولار ، وأصبح يعتمد عليها اقتصادياً حوالي مليون من يهود بولندا . وفي عام ١٩٢٤ ، أقامت المنظمة ، بالتعاون مع جمعية الاستيطان اليهودي (إيكا) ، «المؤسسة الأمريكية المشتركة لإعادة البناء» ، برأسمال قيمته خمسة ملايين دولار ، لتكون الجهة المسئولة والمشرفة على جمعيات الائتمان التعاونية والتي بلغ عددها عام ١٩٣٩ نحو ٦٨٧ جمعية منتشرة في بولندا ورومانيا وليتوانيا ولاتفيا ، قدمت حتى عام ١٩٣٩ خمسة ملايين قرض قيمتها ٥٨١ مليون دولار . كما ساهمت المنظمة في عملية إعادة توطين اليهود في الأرضي الزراعية ، وأسست عام ١٩٢٤ منظمة أجرو ـ جوينت خصيصاً للإشراف على هذه العملية داخل الاتحاد السوفيتي .

كما قامت لجنة التوزيع المشتركة بدعم بعض المنظمات اليهودية الأخرى ، مثل منظمة «أورت» العاملة في مجال التأهيل المهني والفني ومنظمة «أوزيه OZE» العاملة في مجال الرعاية الصحية خارج بولندا .

وفي فلسطين ، قامت المنظمة بنشاط مهم في مجال الرعاية الصحية ، وخصوصاً في مكافحة مرض الملاريا ، وتعاونت عن كثب مع المنظمة الصهيونية الأمريكية ومنظمة هاساداه في هذا المجال . وفي عام ١٩٢٦ ، قدَّمت المنظمة مبلغ ١,٨ مليون دولار للمؤسسة الاقتصادية لفلسطين التي كانت قد تأسَّست حديثاً لدعم الاستثمار الاقتصادي في فلسطين وتنمية القاعدة الاقتصادية للتجمع اليهودي الاستيطاني بها . وفي عام ١٩٣١ ، أعادت المنظمة نفسها تحت

اسمها الحالي . وفي عام ١٩٣٩ ، كوَّنت مع النداء الفلسطيني الموحَّد منظمة النداء اليهودي الموحَّد لتوحيد عمليات جَمْع وتلقِّي التبرعات . ومع صعود النازية في ألمانيا ، ثم اندلاع الحرب العالمية الثانية ، ساهمت المنظمة في غوث وتهجير وإعادة تأهيل اليهود الألمان وغيرهم من يهود أوربا ، وتعاونت في ذلك مع منظمة هيسم . وبعد الحرب ، قامت المنظمة بغوث ٢٥٠ ألفاً من اللاجئين اليهود ، كما شاركت في نَقْل كثير منهم إلى فلسطين .

وبعد إقامة الدولة الصهيونية ، قامت المنظمة بتشغيل وتمويل مؤسسة مالبن للمسنين في إسرائيل ، كما تقوم بدعم المؤسسات التعليمية اليهودية داخل إسرائيل وخارجها . وقد أقامت برامج تعليمية ومهنية وصحية للجماعات اليهودية في دول شمال أفريقيا وإيران كما قدَّمت مساعداتها للمهاجرين اليهود الذين استقروا في فرنسا والقادمين من دول شمال أفريقيا .

وقد عاودت المنظمة نشاطها في الاتحاد السوفيتي وفي دول شرق أوربا بعد عام ١٩٥٧ ، إلا أن هذا النشاط توقَّف في أعقاب حرب عام ١٩٦٧ فيما عدا نشاطها مع رومانيا .

الأليانس إسرائيليتش ذو فين (*التحالف الإسرائيلي في فيينا*)

Allianz Israelitische Zu Wien

منظمة يهودية تأسَّست في فيينا عام ١٨٧٣ بهدف الدفاع عن الحقوق المدنية والدينية للجماعات اليهودية وتنمية مجتمعاتهم من خلال التعليم . وكان مقرراً في بداية الأمر أن تعمل هذه المنظمة كفرع للأليانس إسرائيليت في باريس ولكنها تأسست كمنظمة مستقلة بسبب رفض السلطات النمساوية التي كانت ترتاب في نوايا الأليانس .

من أبرز مؤسسيها وأول رئيس لها جوزيف فون فيرتهايمر . وقد اهتمت هذه المنظمة بمساعدة يهود رومانيا والصرب ، واشتركت في إغاثة ضحايا الحرب الروسية التركية اليهود (١٨٧٧) ، كما أيدت الأليانس إسرائيليت في جهودها للحصول على الحقوق المدنية ليهود البلقان وتبنت قضيتهم خلال مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ . كذلك اشتركت المنظمة في تنظيم هجرة يهود روسيا بعد أحداث عامي ١٨٨١ و١٨٨٢ وهجرة يهود رومانيا الكبرى في الفترة بين عامي ١٩٠٠ و١٩٠٢ ، ونظمت عمليات الإغاثة ليهود روسيا بعد أحداث كيشينيف عام ١٩٠٣ . وقد قامت المنظمة بهذه الأنشطة بالتعاون مع جمعية الاستيطان اليهودي (إيكا) . كذلك اهتمت المنظمة بمحاربة معاداة اليهود (خصوصاً تهمة الدم) ، كما أقامت مؤسسات تعليمية في جاليشيا وبوكوفينا . وخلال الحرب العالمية الأولى ، اشتركت الأليانس إسرائيليتش في إغاثة ضحايا الحرب من اليهود (أكثر من ١٠٠ ألف لاجئ من جاليشيا على وجه الخصوص) . وبعد الحرب ، شاركت المنظمة في تنظيم الهجرة اليهودية عبر الأراضي النمساوية .

وقد تمت تصفية الأليانس إسرائيليتش عام ١٩٣٨ بعد ضم ألمانيا النازية للنمسا .

الأليانس إسرائيليت يونيفرسل (*التحالف الإسرائيلي العالمي*)

Alliance Israelite Universelle

منظمة يهودية فرنسية توطينية تأسَّست عام ١٨٦٠ في باريس بهدف الدفاع عن الحريات المدنية والدينية للجماعات اليهودية وتنمية المجتمعات اليهودية المختلفة عن طريق التعليم والتدريب المهني وإغاثة اليهود في الأزمات . والواقع أن وضع فرنسا ، باعتبارها الدولة المهيمنة في أوربا آنذاك ، قد أهَّل قيادات الجماعة اليهودية في فرنسا لتأسيس وقيادة أول منظمة يهودية في العصر الحديث تعمل في مجال الدفاع عن حقوق الجماعات اليهودية على المستوى العالمي . ومن ناحية أخرى ، لعبت المنظمة دوراً مهماً في خدمة المصالح الاستعمارية الفرنسية ، من خلال نشر الثقافة الفرنسية . وكان لآل روتشيلد في فرنسا دور بارز في هذا الاتجاه حيث عملوا على تحويل سياسات الأليانس وعلى التأثير عليها وربطها بالمصالح الاستعمارية الفرنسية آنئذ . كذلك عمل أدولف كريميه رجل الدولة الفرنسي اليهودي الذي ترأس الأليانس في الفترة ١٨٦٣ ـ ١٨٨٠ على توثيق التعاون بين المنظمة وبين الخارجية الفرنسية والسلطات الفرنسية في مستعمراتها .

وفي المجال السياسي ، تدخلت الأليانس للدفاع عن حقوق يهود روسيا ورومانيا وبلجيكا والصرب . وكان أول إنجاز ناجح لها في ضمان الحقوق المدنية والدينية ليهود سويسرا عام ١٨٦٧ . وفي مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، عملت المنظمة بالتعاون مع بعض المنظمات الأخرى على الدفاع عن حقوق يهود البلقان كما اهتمت بأوضاع يهود المغرب وتدخلت لدى سلطان المغرب في مؤتمر مدريد عام ١٨٨٠ لتحسين أوضاعهم . وبعد الحرب العالمية الأولى ، نشطت المنظمة في مؤتمر فرساي للسلام عام ١٩١٩ من أجل حقوق يهود رومانيا وبولندا والمجر وغيرها من الدول المُوقِّعة على معاهدات السلام ، كما تدخلت لصالح يهود المغرب العربي ويهود فارس .

كذلك عملت الأليانس في مجال إغاثة ضحايا الحروب والمجاعات والكوارث الطبيعية من أعضاء الجماعات اليهودية في

مختلف أنحاء العالم . فساعدت ضحايا يهود شرق أوربا خلال مجاعة عام ١٨٦٩ ، كما ساعدت ضحايا الهجمات في روسيا عام ١٨٨١ ثم في عامي ١٩٠٣ و١٩٠٥ . كما اشتركت في إغاثة ضحايا الحرب العالمية الأولى وضحايا المجاعة في روسيا عام ١٩٢٢ ، كذلك ساعدت ضحايا الكوارث والاضطرابات الطائفية في كلٍّ من رومانيا والمغرب وتركيا ودمشق .

كما شاركت الأليانس في تنظيم ومساعدة هجرة الجماعات اليهودية من شرق أوربا منذ عام ١٨٦٩ ، وخصوصاً خلال الهجرة اليهودية الكبرى بعد عام ١٨٨١ ، وأسست لجنة في مدينة كونيجسبرج لتنظيم عمليات الهجرة بالتنسيق مع منظمات يهودية أخرى . كذلك ، اشتركت المنظمة في عدة مؤتمرات نظمتها المنظمات اليهودية لبحث إمكانات الهجرة والاستيطان في مناطق أخرى غير الولايات المتحدة . وقد تعاونت الأليانس في مسائل الهجرة بشكل خاص مع جمعية الاستيطان اليهودي (إيكا) . وبحلول عام ١٨٩١ ، كانت الأليانس قد قررت إيقاف مساعداتها للاجئين اليهود حتى لا تشجع مزيداً من الهجرة .

ومن أهم مجالات نشاط الأليانس ، المجالان الثقافي والتعليمي حيث أسَّست شبكة تعليمية واسعة في دول البلقان والشرق الأوسط وشمال أفريقيا . وحققت تقدماً سريعاً في هذا المجال بفضل دعم البارون موريس دي هيرش الذي قدَّم للأليانس عام ١٨٧٤ مليون فرنك ذهب ثم عشرة ملايين فرنك ذهب عام ١٨٨٩ . وقد تأسَّست أول مدرسة لها في مدينة تطوان بالمغرب عام ١٨٦٢ لحقتها مدارس أخرى في طنجة (١٨٦٩) ودمشق (١٨٦٥) وبغداد (١٨٦٥) وطهران (١٨٩٨) وتونس (١٨٧٨) وفلسطين . كما أسَّست مدرسة حاخامية في إستنبول عام ١٨٩٧ ومدارس في اليونان وبلغاريا ورومانيا والصرب . وفي عام ١٨٦٧ ، افتُتحت في باريس المدرسة الإسرائيلية الشرقية العليا لتدريب المعلمين ، وقد وصل حجم الطلاب الملتحقين بمدارس الأليانس عام ١٩١٤ نحو ٤٨ ألف طالب . كما أرسل الأليانس عدة بعثات لاستطلاع أوضاع يهود الفلاشاه في إثيوبيا عام ١٨٦٨ ، وفي اليمن عام ١٩٠٨ . وقد أُغلقت أغلب مدارس الأليانس في دول البلقان عقب الحرب العالمية الأولى ثم تركَّز نشاطها التعليمي منذ ذلك الحين في شمال أفريقيا والشرق الأوسط . وقد واجهت هذه المدارس معارضة من الجماعات اليهودية في هذه البلاد التي كانت تخشى تأثير التعليم الغربي العلماني على الحياة اليهودية التقليدية . وبالفعل ، لعبت هذه المدارس دوراً مهماً في نشر الثقافة الفرنسية بين أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي والإسلامي ، وخصوصاً في دول المغرب العربي التي خضعت للاستعمار الفرنسي والتي تم تحويل اليهود بها إلى جماعات وظيفية منفصلة ثقافياً ووجدانياً عن محيطها العربي تعمل لخدمة مصالح الاستعمار الفرنسي بالمنطقة . وفي المغرب ، نجد أن إدارة الاحتلال الفرنسي ، إدراكاً منها لأهمية مدارس الأليانس ، عقدت معها اتفاقاً عام ١٩٢٨ تم بموجبه وضع هذه المدارس تحت إشراف إدارة التعليم العام وضمان الدعم لها . وقد وصل حجم المدارس في المغرب وحدها نحو ٤٦ مدرسة عام ١٩٣٩ تضم ١٥٧٦١ طالباً ارتفع عددهم إلى ٢٨ ألف عام ١٩٥٢ . كما تم افتتاح المدرسة العبرية العليا في الدار البيضاء لتدريب المعلمين اليهود .

وقد كان للأليانس نشاط مهم في فلسطين أيضاً بدأ منذ عام ١٨٦٧ حيث بدأت في تأسيس سلسلة من المدارس الابتدائية في القدس وحيفا ويافا وصفد وطبرية تقدم تعليماً فرنسياً علمانياً ودينياً . وفي عام ١٨٧٠ ، تم تشييد مدرسة مكفاه إسرائيل الزراعية بدعم من هيرش وإدموند دي روتشيلد كما فُتحت بعدها بعدة سنوات مدرسة في القدس لتدريب اليهود على المهن . وقد كان التدريس يتم باللغة الفرنسية بالإضافة إلى اللغة العبرية . ومما يُذكَر أن مدارس الأليانس في فلسطين هي التي أتاحت الفرصة أمام إليعازر بن يهودا ، أبو اللغة العبرية الحديثة ، لتطبيق أساليبه الجديدة في تدريس العبرية . وقد اهتمت الأليانس أيضاً بفتح المدارس الثانوية ، وكانت أكبرها في حيفا وحملت اسمي إدموند وموريس دي روتشيلد . ومما يُذكَر أن مؤسسي وقادة الأليانس كانوا في بادئ الأمر معارضين للعقيدة الصهيونية ، وذلك برغم رفضهم للاندماج "الذليل" الذي يُلغي تماماً أية هوية أو أي انتماء يهودي ، ومن ثم تركيزهم على التعليم والتدريب للحفاظ على شخصية اليهود وتحسين أحوالهم . وقد اتهم ديفيد ولفسون رئيس المنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩١١ ممثلي الأليانس بالمشاركة في الحركات المناهضة للصهيونية بين الجماعات اليهودية في الدولة العثمانية ، كما تبنَّى سيلفيان ليفي الذي أصبح رئيساً للأليانس عام ١٩٢٠ موقفاً معادياً للصهيونية في مؤتمر فرساي للسلام عام ١٩١٩ . وقد كانت الأليانس تتعاون في نشاطها مع المنظمات اليهودية الأخرى المعارضة للصهيونية مثل الجمعية الإنجليزية اليهودية . أما في أعقاب الحرب العالمية الثانية فقد اتخذت اللجنة المركزية للأليانس موقفاً مؤيداً للأهداف الصهيونية في فلسطين وطالب رئيسها رينيه كاسين (عام ١٩٤٧) لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين السماح لليهود بالهجرة

الواسعة واستغلال وتنمية الوطن القومي اليهودي في فلسطين . وبرغم أن منظمة الأليانس لم تدخل في صراع مباشر ضد العرب الفلسطينيين لأن نشاطها لم يأخذ شكلاً سياسياً مباشراً إلا أنها ساعدت على تحقيق الأهداف السياسية للحركة الصهيونية وذلك بشراء الأراضي في فلسطين وتحويل عديد من صغار الملاك العرب إلى أجراء والإسهام في استيعاب المهاجرين اليهود من شرق أوربا في مستعمرات زراعية .

ومع تنامي حركات التحرُّر الوطني في العالم العربي واشتداد الصراع حول فلسطين ، أصبح وضع الأليانس في هذه البلاد حرجاً . ومع قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ ثم حصول دول المغرب العربي على استقلالها من فرنسا وما أعقب ذلك من هجرة أغلب أعضاء الجماعات اليهودية من المنطقة العربية خلال الخمسينيات متجهين سواء إلى إسرائيل أو إلى فرنسا أو غيرها من الدول ، أُغلقت أغلب مدارس الأليانس في العراق وسوريا ومصر ، كما تقلَّص عددها في دول المغرب العربي . ففي المغرب انخفض عدد تلاميذ مدارس الأليانس من ٣٠١٢٣ عام ١٩٥٩ إلى ١٣٥٢٧ عام ١٩٦٣ و٨٠٥٤ عام ١٩٦٨ ، كما قامت الحكومة المغربية بدمج هذه المدارس في نظامها التعليمي . أما في إسرائيل ، فقد أصبحت مدارس الأليانس خاضعة للنظام التعليمي الإسرائيلي وأصبحت لغة التدريس فيها العبرية .

وقد زادت الأليانس من اهتمامها خلال الستينيات بالعمل داخل فرنسا ، وخصوصاً أن جزءاً كبيراً من يهود المغرب العربي هاجروا واستقروا بها ، كما تحتفظ بمكتبة مهمة في باريس تضم أكثر من ٣٠ ألف مجلد وعدداً من المخطوطات النادرة .

أجرو ـ جوينت (المؤسسة الأمريكية اليهودية المشتركة للزراعة)

Agro-Joint (American Jewish Joint Agricultural Corporation)

أجرو ـ جوينت اختصار لاسم المؤسسة الأمريكية اليهودية الموحَّدة للزراعة . وهي منظمة أمريكية أسستها اللجنة اليهودية الأمريكية الموحَّدة للتوزيع عام ١٩٢٤ لتكون بمنزلة وكالة لها في الاتحاد السوفيتي هدفها المساهمة في إعادة تأهيل أعضاء الجماعة اليهودية (أساساً من الناطقين باليديشية) الذين كانوا قد فقدوا وظائفهم الوسيطة والتجارية التقليدية ، منذ نهايات القرن التاسع عشر ، ثم مع قيام الدولة السوفيتية ، وكذلك توجُّههم نحو العمل المنتج في القطاع الزراعي والصناعي ، وهو ما يؤهلهم للانضمام بشكل فعال إلى المجتمع الجديد .

وقد بدأت أجرو ـ جوينت نشاطها بمشروع تجريبي لتوطين عدة مئات من الأسر اليهودية في الأراضي الزراعية . وبعد نجاح التجربة ، تم تطبيقها على نطاق واسع . واهتمت الحكومة السوفيتية بنشاط المنظمة ، فقدَّمت لها مساحات من الأراضي بدون مقابل ووفرت لها التسهيلات الائتمانية وقدَّمت لها أسعاراً مخفضة للسفر والانتقال . كما تلقت المنظمة دعماً مالياً في عام ١٩٢٨ قدره ٨ ملايين دولار من الجمعية الأمريكية للمستوطنات الزراعية اليهودية في روسيا ، وهي منظمة تأسَّست خصيصاً لدعم برامج الاستيطان الزراعي لأجرو ـ جوينت في روسيا . كما قدمت الحكومة السوفيتية ، من خلال منظمة كوزمت وبالاتفاق مع الجمعية وأجرو ـ جوينت ، مبلغاً مماثلاً بالروبل .

وقد نجحت المنظمة في توطين ما يقرب من ٢٥٠ ألف شخص في مستوطنات زراعية في أوكرانيا والقرم بلغت مساحتها ٣ ملايين إكر (الإكر يساوي فداناً مصرياً واحداً تقريباً) . وفي عام ١٩٣٧ ، ترسخت أوضاع هذه المستوطنات ، بحيث أصبحت تتمتع بقدر كبير من الاستقلالية المادية والاعتماد على الذات أتاح لها القدرة على استيعاب أعضاء جدد دون أية مساعدات خارجية .

وقد أسَّست أجرو ـ جوينت بالتعاون مع إيكا (جمعية الاستيطان اليهودي) ثلاثين جمعية للإقراض لتمويل المشاريع الحرفية التعاونية . وقد استفاد من هذه المشاريع حوالي ٣٠٠ ألف شخص . وفي عام ١٩٢٧ تم استيعاب هذه التعاونيات في نظام التعاونيات العام للدولة والمموَّل من قِبَل بنك الحكومة السوفيتية ، وهو ما أتاح لهم فرصة الاستمرار في نشاطهم على نطاق أوسع .

كما نظَّمت أجرو ـ جوينت ، بالتعاون مع إيكا وأورت ، ٤٢ مدرسة تجارية وزراعية ، حيث قامت هذه المدارس بتدريب الآلاف من الشباب اليهودي الذين تم استيعابهم في الصناعات الحكومية . وقد استوعبت هذه المدارس في المؤسسات الحكومية السوفيتية . وفي نهاية عام ١٩٣٧ ، كانت الحكومة هي التي تتولى تدريب آلاف من الرجال والنساء من اليهود في الأعمال المهنية والحرفية المختلفة .

وقامت أجرو ـ جوينت بدعم نشاط جمعيات المعونة المتبادلة التي كانت تنظم الورش التعاونية لتدريب عشرات الآلاف من اليهود غير القادرين على العمل الزراعي . وقد تم استيعاب هذه الجمعيات ، منذ عام ١٩٣٥ ، في الاتحادات الصناعية الحكومية أو في نظام التعاونيات العام .

كما لعبت أجرو ـ جوينت دوراً مهماً في مجال الطب والصحة العامة حيث أسست ٦٣ جمعية طبية لتوفير الرعاية الصحية للفقراء

من اليهود . وقد تم استيعاب الجزء الأكبر من هذه الجمعيات في وزارة الصحة والصليب الأحمر .

وقد أنهت أجرو ـ جوينت نشاطها في الاتحاد السوفيتي عام ١٩٣٨ بعد أن لعبت دوراً مهماً في استيعاب أعضاء الجماعة اليهودية في النسيج الاقتصادي للدولة السوفيتية الجديدة ، وبعد أن تبيَّن أنهم أصبحوا في غير حاجة إلى مساعدة المنظمات الخارجية .

إميج ديركت (اللجنة المتحدة للهجرة اليهودية)

Emig Direkt (United Committee for Jewish Emigration)

اختصار لعبارة «إميجريشن دايركشن Emigration Direction» ، وهي عبارة إنجليزية تعني «اتجاه الهجرة» . ويُستخدَم الاختصار للإشارة إلى «اللجنة المتحدة للهجرة اليهودية» . وقد تأسَّست هذه المنظمة عام ١٩٢١ إثر المؤتمر الذي عُقد في براغ في العام نفسه لمناقشة مسألة الهجرة اليهودية ومحاولة دعم وتنسيق نشاط المنظمات والجمعيات المختلفة العاملة في مجال غوث ومساعدة المهاجرين اليهود القادمين من شرق أوربا . وقد كان من المهام الأساسية لهذه المنظمة ، تأمين خروج المهاجرين اليهود من شرق أوربا عبر الدول المجاورة ، ثم إيجاد مناطق جديدة لتوطينهم . وفي سبيل ذلك ، أقامت المنظمة علاقات مع المنظمات اليهودية المختلفة في الأمريكتين وأستراليا . وبعد فَرْض حدود على الهجرة إلى الولايات المتحدة عام ١٩٢٤ ، كثفت المنظمة اهتمامها لبحث الإمكانيات الاستيطانية في أمريكا اللاتينية وكندا وأستراليا وجنوب أفريقيا . وفي عام ١٩٢٧ ، أسَّست ، بالاشتراك مع إيكا وهياس ، منظمة هيسم في محاولة لتوحيد وتنسيق الجهود الخاصة بالهجرة اليهودية . وقد انفصلت إميج ديركت عن هيسم عام ١٩٣٤ .

أورت (منظمة إعادة التأهيل والتدريب)

ORT (Organization for Rehabilitation and Training)

«أورت» هي الحروف الأولى لاسم «منظمة إعادة التأهيل والتدريب» ، وهي منظمة يهودية تأسست عام ١٨٨٠ في روسيا القيصرية بهدف تنمية الخبرات والمهارات الزراعية والمهنية بين أعضاء الجماعة اليهودية في روسيا (أساساً من يهود اليديشية) الذين كانت أوضاعهم الاقتصادية قد تدهورت بشكل حاد نتيجة التحولات الهيكلية العميقة التي شهدها الاقتصاد الروسي إثر محاولات التحديث والتنمية الاقتصادية التي كانت جارية منذ منتصف القرن التاسع عشر والتي شهدت ضياع الوظائف الوسيطة والتجارية والتقليدية لأعضاء الجماعة اليهودية . وقد تفاقمت أوضاعهم بشكل أكثر حدة بعد تعثُّر عملية التحديث في الثمانينيات من القرن التاسع عشر . وقد أسَّس هذه المنظمة مجموعة من المثقفين ورجال الصناعة من اليهود الذين كانت ثقافتهم ومصالحهم مرتبطة بشكل وثيق بالبورجوازية الروسية والدولة القيصرية . وبالتالي ، اتجهت مجهوداتهم نحو محاولة دَمْج واستيعاب الجماهير اليهودية ثقافياً واقتصادياً في المجتمع الروسي ، وخصوصاً أن تفاقم الأوضاع الاقتصادية كان يثير توترات حادة بين المجتمع والدولة الروسية من ناحية والأقليات غير السلافية من ناحية أخرى (ومن بينهم أعضاء الجماعة اليهودية) ، وهو ما كان يهدد مكانة ومصالح المثقفين والبورجوازية من اليهود .

وقد مرّ نشاط أورت بعدة مراحل . ففي الفترة ما بين عامي ١٨٨٠ و١٩٢٠ ، تركَّز نشاطها أساساً داخل روسيا ، فأقامت الورش الصغيرة لتعليم الحرف والمهن المختلفة ، واهتمت بتدريب مدرسي المدارس التجارية ، وقدمت المعونة للطلبة اليهود في المدارس الفنية . وفي عام ١٩١٢ ، كان لها ٢٠ شعبة في المراكز المهمة في مختلف أنحاء البلاد . وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى ، أقامت أورت برنامجاً واسع النطاق تحت اسم «المساعدة من خلال العمل» بهدف إعادة تأهيل وإيجاد فرص عمل جديدة للاجئين من اليهود في مناطق جديدة داخل روسيا . وبقيام الدولة السوفيتية ، فَقَد ٨٠٪ من أعضاء الجماعة اليهودية وظائفهم الوسيطة والتجارية التقليدية ، وهو ما كان يستدعي إعادة تأهيلهم وإكسابهم الخبرات الصناعية والحرفية والزراعية حتى يتم استيعابهم في البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع السوفيتي الجديد . وقد قدَّمت أورت مساعدتها للمزارعين من يهود أوكرانيا الذين أصابتهم خسائر كبيرة خلال الحرب العالمية الأولى والحرب الأهلية ، كما تعاونت مع كوزمت في تحويل كثير من يهود روسيا البيضاء إلى الزراعة .

وفي الفترة ما بين عامي ١٩٢٠ و١٩٤٥ ، وسَّعت أورت نطاق نشاطها ليشمل دول شرق أوربا ، مثل : بولندا وليتوانيا ولاتفيا وبساربيا ، والتي كانت جزءاً من الإمبراطورية الروسية ، وأيضاً المجر وبلغاريا ورومانيا وألمانيا وفرنسا . وفي سبيل ذلك ، تم تحويلها (في برلين) عام ١٩٢١ إلى منظمة دولية تحت اسم «اتحاد أورت العالمي» . وقد أشرف على نشاطها ، في الفترة ما بين الحربين العالميتين ، لجنة دولية أسست فروعاً لها في الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا وكندا وأمريكا اللاتينية ومناطق أخرى . وقد أسَّست أورت خلال هذه الفترة ، في شرق أوربا والاتحاد السوفيتي ،

المدارس التجارية والزراعية والمستوطنات الزراعية التعاونية والورش التعاونية . كما عملت على توفير العدَد والآلات لآلاف من المزارعين والحرفيين من اليهود ، وذلك من خلال شركة أُسِّست خصيصاً لذلك الغرض ، في لندن عام ١٩٢٤ ، وكان لها أفرع في شرق أوربا والاتحاد السوفيتي . وساهمت ، عام ١٩٢٨ ، في إرسال آلات وأدوات إلى الاتحاد السوفيتي قيمتها مليون ونصف المليون دولار .

ومع وصول النازية إلى السلطة في ألمانيا عام ١٩٣٣ ، نشطت أورت في مجال مساعدة وإعادة تأهيل اليهود الألمان ، سواء اللاجئون منهم أو الراغبون في الرحيل ، وذلك من خلال إقامة مدارس صناعية وزراعية في ألمانيا وفي الدول التي لجأوا إليها بشكل مؤقت . وفي عام ١٩٤٢ ، افتُتحت في الولايات المتحدة في نيويورك أول مدرسة لتدريب اللاجئين اليهود .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، توسَّع نشاط أورت مع هجرة وانتقال أعداد كبيرة من أعضاء الجماعة اليهودية إلى الأمريكتين وأوربا الغربية . كما امتد نشاطها إلى الجماعات اليهودية في آسيا وأفريقيا والمغرب وإسرائيل .

وقد بدأت أورت نشاطها في إسرائيل عام ١٩٤٩ حيث بدأت برامج للتدريب المهني للمهاجرين الجدد في المستوطنات والمدن . وبحلول عام ١٩٧٠ ، أصبح «أورت إسرائيل» أهم فرع للمنظمة . وقد عمل هذا الفرع منذ تأسيسه في إسرائيل على تدريب ٧٠ ألفاً من العمال المهرة والفنيين وغيرهم من الأخصائيين . وفي عام ١٩٧٠ ، كان فرع أورت الإسرائيلي يغطي نحو ٤٠٪ من التدريب المهني في إسرائيل ويعمل عن كثب مع وزارتي التعليم والعمل .

وقد استأنفت أورت نشاطها في بولندا عام ١٩٥٧ . وتم تدريب ١٦ ألف شخص حتى عام ١٩٦٧ حينما تم إيقاف نشاطها . وقد بدأت أورت ، منذ السبعينيات ، تأكيد الاهتمام بالتعليم الفني أكثر من الاهتمام بالتعليم المهني والذي يتضمن الخبرات الخاصة بالكمبيوتر والأتمتة .

ومنذ تأسيسها وحتى السبعينيات ، استفاد من مدارس أورت أكثر من مليون يهودي . وإلى جانب خدمة أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، تُقدِّم أورت أيضاً برامج تدريبية في الدول النامية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، تلبية لطلب حكومات هذه الدول وبناء على طلب حكومات دول أخرى ، وخصوصاً الولايات المتحدة وإسرائيل وسويسرا والدول الإسكندنافية ، ولابد أنها تمارس شيئاً من الضغط السياسي لصالح إسرائيل . ويوجد المقر العالمي لاتحاد أورت في جنيف .

إيسكا (جمعية الاستيطان اليهودي)

ICA (Jewish Colonization Association)

«إيكا» هو اختصار عبارة «جويش كولونيزيشان أسوسيشن Jewish Colonization Association» وحروفها الأولى هي JCA ، فكان المفروض أن تكون «جكا» ، ولكن حرف «J» نُطق «ياء» ، فأصبحت «يكا» ثم «إيكا ICA» . وهي منظمة توطينية يهودية أسسها عام ١٨٩١ الثري الألماني اليهودي البارون موريس دي هيرش بهدف توطين المهاجرين من أعضاء الجماعات اليهودية في شرق أوربا من يهود اليديشية والولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، ودَمْجهم في مجتمعاتهم الجديدة . وينبع اهتمام هيرش ، وغيره من أثرياء يهود الغرب المندمجين ، بالمهاجرين اليهود ومحاولتهم توطينهم بعيداً عن أوربا ، لأن وصول مثل هؤلاء المهاجرين إلى غرب أوربا كان يمكن أن يهدِّد مكانة يهود الغرب الاجتماعية والاقتصادية . ويمكن تسمية مثل هذه الجمعيات «جماعات إنقاذ» : إنقاذ الفائض البشري الأوربي من يهود اليديشية بتوطينه في أنحاء العالم ، وإنقاذ يهود الغرب ، وإنقاذ أوربا من هؤلاء اليهود بتصديرهم إلى أماكن أخرى . ولذا ، فإن من الخطأ تصنيف مثل هذه الجمعيات على أنها صهيونية ، فهي لا تهتم بمصير يهودي مستقل ولا تكترث بهوية يهودية ولا تبغي بعثاً يهودياً .

ويمكن أن نضع هذه الجمعيات في سياق غربي عام ، فهي جزء من التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي الذي كان يرمي إلى إنشاء مجتمعات جديدة في دول أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وأمريكا الشمالية كجزء من السياسة الكولونيالية ، ومحاولة الهيمنة على العالم . لذا ، فإن فلسطين ، من منظور هذه الجمعيات ، ليست سوى مكان للاستيطان يدخل ضمن الشبكة الاستعمارية الغربية وليست له أهمية خاصة . ومن ثم ، فالجمعيات اليهودية التوطينية جمعيات استعمارية استيطانية بدون ديباجات صهيونية أو هي مجرد جمعيات رفاه اجتماعي تساعد المهاجرين في مجتمعاتهم الجديدة .

وتُعَدُّ أمريكا اللاتينية ، وخصوصاً الأرجنتين ، المنطقة الرئيسية لنشاط إيكا الاستيطاني حيث أسِّست أول مستوطنة لها عام ١٨٩١ . وقد تولَّت إيكا توفير الآلات الزراعية والتدريب اللازم للمستوطنين ، والتسهيلات الائتمانية ، إلى جانب توفير شبكة من المدارس . وقد وصل حجم المستوطنين من اليهود عام ١٩٣٠ ، وهي فترة الذروة بالنسبة للاستيطان اليهودي في الأرجنتين إلى ٢٠ ألف مستوطن يزرعون حوالي ٥٠٠ ألف هكتار من الأراضي الزراعية . وفي نهاية عام ١٩٣٨ ، كانت المستوطنات تضم حوالي ٣٢١٥ أسرة

يهودية أو ١١٠ ,٢٦ أشخاص ، مع العلم بأن تعداد الجماعة اليهودية في الأرجنتين وصل عام ١٩٤٠ إلى حوالي ٢٨٠ ألفاً في حين لم يكن يوجد في العاصمة بيونس أيرس ومدينة روزاريو سوى ألف يهودي قبل تأسيس إيكا . إلا أن هذه المستوطنات الزراعية لم تزدهر ، بل تضاءل حجم المستوطنين بها حتى وصل عام ١٩٦٦ إلى ثمانية آلاف شخص . وفي الحقيقة ، فإن السبب الأساسي وراء ذلك كان ، من ناحية ، ميراث يهود اليديشية كجماعات حضرية تجارية غير مؤهلة للعمل الزراعي ، كما كان هدفهم الأساسي من الهجرة تحقيق قدر أكبر من الحراك الاجتماعي والتعليم ، وهو ما لم يكن متوافراً إلا في المدن الكبرى . ومن ناحية أخرى ، كانت المستوطنات تعاني من نَقْص مساحات الأراضي الزراعية الواسعة وتزايد أعباء الديون ، ومن بيروقراطية ممثلي مؤسسة إيكا . وبالتالي ، اتجهت أعداد كبيرة من المستوطنين إلى هجر المستوطنات الزراعية والانتقال إلى بيونس أيرس وغيرها من المدن الكبيرة .

وقد أسست إيكا أيضاً مستوطنات زراعية في البرازيل كانت أولها عام ١٩٠٤ ، إلا أن هذه المستوطنات لم تزدهر أيضاً وتم تصفية آخر مستوطنة عام ١٩٦٥ . إلا أن إيكا استمرت ، بالتعاون مع اللجنة الأمريكية المشتركة للتوزيع ، في رعاية المؤسسات التعليمية والائتمانية التي كانت قد أسستها في مناطق الاستيطان اليهودي .

وساهمت إيكا أيضاً في توطين اليهود في الولايات المتحدة وكندا . ففي عام ١٨٩١ ، أسَّست مدرسة تجارية في نيويورك من أجل تدريب وإعادة تأهيل المهاجرين الجدد من اليهود على الحياة الجديدة . وفي العام نفسه ، أسَّس البارون دي هيرش «صندوق بارون دي هيرش» بهدف مساعدة المهاجرين الجدد من اليهود وإقامة مراكز ريفية لهم . وقد أسس الصندوق مدرسة زراعية في نيو جرسي . وفي عام ١٨٩٩ ، أسَّس الصندوق في نيويورك «جمعية المعونة الزراعية والصناعية اليهودية» التي أصبحت فيما بعد «الجمعية الزراعية اليهودية من أجل تنمية النشاط الزراعي بين يهود الولايات المتحدة» . وقد تم تأسيس ٧٨ مزرعة . وبعد أن تزايدت الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة ، أسَّست إيكا ، بالتعاون مع جمعية المعونة الزراعية والصناعية اليهودية ما يُسمَّى «لجنة النقل» (بالإنجليزية : ريموفال كوميتي Removal Committee) التي عملت في الفترة ما بين عامي ١٩٠١ و١٩٠٧ على استقبال المهاجرين الجدد ، وتوزيعهم في أنحاء البلاد ، وإلحاقهم بذويهم الذين كانوا قد استقروا في الولايات المتحدة من قبل . وبحلول عام ١٩٠٢ ، كانت اللجنة قد ساعدت حوالي ٧٠ ألف مهاجر على الاستقرار في الولايات المتحدة . وقد تم تصفية اللجنة عام ١٩٢٢ ، وتَركَّز النشاط الرئيسي لإيكا في الولايات المتحدة في توفير التسهيلات الائتمانية للمهاجرين الجدد من اليهود . وقد توَقَّف نشاط إيكا في الولايات المتحدة تماماً مع بدء الحرب العالمية الثانية .

وفي كندا ، أسَّست إيكا أول مستوطنة لها عام ١٨٩٢ . وقد عملت هذه المنظمة في مونتريال ، من خلال مؤسسة بارون دي هيرش ، على دعم ومساعدة المستوطنات اليهودية التي كانت قد تأسَّست في كندا في نهايات القرن التاسع عشر . وقد أشرفت الجمعية الزراعية اليهودية على نشاط إيكا في كندا وتم تأسيس عدة مستوطنات . إلا أن الأوضاع الاقتصادية المتدهورة أدَّت إلى تصفية بعضها بعد الحرب العالمية الأولى . وفي عام ١٩٦٠ ، كانت ١٢٠ أسرة يهودية تعمل في المستوطنات الزراعية تحت رعاية إيكا .

وقد أشرفت إيكا أيضاً على عملية هجرة أعضاء الجماعات اليهودية من شرق أوربا ، فأسست في روسيا القيصرية في الفترة ١٩٠٤ ـ ١٩١٤ حوالي ٥٠٧ لجان للهجرة ، وأقامت مكتباً مركزياً لها في بطرسبرج بموافقة الحكومة الروسية . وبعد أن فرض كثير من بلدان العالم (وخصوصاً الولايات المتحدة) قيوداً على حجم الهجرة المسموح به بعد الحرب العالمية الأولى ، اتجهت إيكا إلى عقد مؤتمر في بروكسل عام ١٩٢١ وآخر في باريس عام ١٩٢٢ لمناقشة تنسيق وتوحيد الجهود في مجال الهجرة اليهودية ، إلا أن المؤتمرين فشلا . وفي عام ١٩٢٥ ، تم تأسيس «اللجنة الموحَّدة للإجلاء» بالتعاون بين إيكا ومنظمة إميج ديركت واللجنة الأمريكية اليهودية المشتركة للتوزيع . وفي عام ١٩٢٧ ، أسَّست إيكا ، بالتعاون مع هياس ، وإميج ديركت منظمة هيسم ، التي كان لها ٥٧ لجنة في ٢١ دولة عام ١٩٣٧ ، وذلك لمساعدة المهاجرين اليهود في جميع أنحاء العالم . وفي عام ١٩٢٨ ، أسَّست إيكا في روسيا السوفيتية مكتباً للهجرة للإشراف على هجرة أعضاء الجماعة اليهودية من روسيا . وفي الفترة ١٩٣٣ ـ ١٩٣٩ ، أنفقت إيكا حوالي ٨٠٠ ألف جنيه على هجرة يهود ألمانيا النازية .

ولم يقتصر نشاط إيكا على هجرة وإعادة توطين يهود شرق أوربا ، بل عملت أيضاً في مجال إعادة تأهيل أعضاء الجماعات اليهودية في شرق أوربا نفسها ، وفي إكسابهم خبرات زراعية وصناعية تؤهلهم للانضمام والاستمرار في مجتمعاتهم الأصلية . فنشطت في مجال الاستيطان الزراعي اليهودي في روسيا ، حيث عملت خلال العشرينيات على توطين عدة آلاف من الأسر اليهودية في ٥٠ مستوطنة زراعية على أراض قدَّمتها الحكومة السوفيتية في

أوكرانيا . كما اهتمت بتأسيس التعاونيات وإدخال الزراعات الجديدة . كما كانت قد أسَّست بحلول عام ١٩١٤ أربعين مدرسة زراعية وفنية .

كما اهتمت بتعليم اليهود حيث دعمت المؤسسات التعليمية اليهودية في روسيا وبولندا ورومانيا وجاليشيا . ومن أهم أنشطتها تقديم التسهيلات الائتمانية لصغار التجار والحرفيين في شرق أوربا حيث أسَّست شبكة واسعة من البنوك التعاونية التي قدَّمت القروض للفلاحين والتجار والحرفيين . وقد وصل حجم هذه الشبكة ، عام ١٩١٤ ، نحو ٦٨٠ بنكاً تعاونياً .

وقد تَوَقَّف نشاط هذه المؤسسات خلال الحرب العالمية الأولى، إلا أنه استؤنف مرة أخرى بعد الحرب ، حيث تعاونت إيكا مع اللجنة الأمريكية اليهودية الموحدة للتوزيع في تأسيس المؤسسة الأمريكية الموحَّدة لإعادة البناء عام ١٩٢٤ ، والتي أصبحت تُشرف بعد عام ١٩٣٠ على ٧٦٠ بنكاً للتسليف برأسمال قدره ٣,٥٥٠,٠٠٠ دولار . كما أقامت هذه المؤسسة بنوكاً تجارية لخدمة الطبقات الوسطى . وقد صفيت هذه المؤسسة عام ١٩٥١ .

وامتد نشاط إيكا إلى فلسطين أيضاً ، إلا أنه لم يبدأ إلا عام ١٨٩٦ بعد وفاة البارون دي هيرش الذي لم يكن متحمساً لفكرة إقامة دولة يهودية في فلسطين . وقد تولت إيكا الإشراف على بعض المستوطنات اليهودية . وفي عام ١٩٠٠ ، تولَّت إدارة المستوطنات التي كان قد أسسها البارون إدموند دي روتشيلد ، والتي كانت تحت رعايته . وفي عام ١٩٢٣ ، تم بالتعاون بين إيكا ومؤسسة روتشيلد تأسيس منظمة بيكا (جمعية الاستيطان اليهودي في فلسطين) والتي بلغ مجموع ما امتلكته خلال ربع قرن (١٩٢٣ ـ ١٩٤٨) ما مساحته ٤٥ ألف دونم ، أي ثُلث ما كان بحوزة اليهود من أراض عند إعلان قيام إسرائيل . كما ساهمت إيكا عام ١٩٣٣ في تأسيس جمعية «إميكا EMICA» (وهي اختصار إميرجنسي فند فور بالستين Emergency Fund for Palestine ، أي صندوق الطوارئ لفلسطين) التي أشرفت على بناء العديد من المستوطنات اليهودية في فلسطين .

وقد أصبحت إميكا عام ١٩٥٥ «إيكا في إسرائيل» حيث أصبحت إسرائيل المركز الرئيسي لنشاط إيكا . وقد اشتركت مع الوكالة اليهودية في تطوير منطقة الجليل الأعلى في فلسطين المحتلة ، وفي إقامة أكثر من ٣٠ مستوطنة يهودية ، وكذلك في تقديم تسهيلات ائتمانية في المجال الزراعي في إسرائيل . وهي تهتم بدعم المؤسسات التعليمية بها .

وقد اهتمت إيكا أيضاً بعد الحرب العالمية الثانية بالجماعات اليهودية في المغرب العربي . فعملت ، بالتعاون مع لجنة التوزيع المشترك ، على توفير تسهيلات ائتمانية ليهود تونس والمغرب ، وفي إقامة مراكز للتدريب الزراعي في المغرب . وفي عام ١٩٥٢ ، قامت ، بالتعاون مع الأليانس إسرائيليت يونيفرسل ، بتأسيس «الجمعية الزراعية ليهود المغرب» . ومنذ عام ١٩٦٥ ، وهي تعمل في تعاون مع «خدمة هياس المتحدة» في «برنامج الإنقاذ الخاص» من أجل نَقْل المهاجرين اليهود من شرق أوربا وشمال أفريقيا إلى أستراليا وكندا وفرنسا .

وتولي إيكا اهتماماً خاصاً للمؤسسات اليهودية التعليمية والثقافية في مختلف بلدان أوربا وأمريكا اللاتينية .

إيكور (الجمعية الأمريكية للتوطين اليهودي في الاتحاد السوفيتي)

ICOR (Jewish American Association for Jewish Colonization in the Soviet Union)

«إيكور» هي الحروف الأولى لاسم «الجمعية الأمريكية للاستيطان اليهودي في الاتحاد السوفيتي» باليديشية (وكلمة «إيكور» تعني أيضاً «فلاح» بالعبرية) . وهي جمعية أمريكية تأسَّست عام ١٩٢٤ من أجل دعم الاستيطان الزراعي اليهودي في الاتحاد السوفيتي . وقد مارست إيكور أنشطتها ، حتى عام ١٩٢٨ في دعم المستوطنات اليهودية في القرم وأوكرانيا ، إلا أنها وجَّهت جميع جهودها بعد ذلك إلى بيروبيجان بعد أن تم اختيارها كمنطقة للاستيطان الزراعي الصناعي اليهودي الواسع النطاق بهدف تحويلها إلى إقليم يهودي ذي حكم ذاتي .

وقد أصبحت إيكور من أكثر الجهات المؤيدة لهذا المشروع في الولايات المتحدة . التي كانت تضم في تلك الفترة ١٢ ألف عضو ، كما كان هناك ١٠٠ لجنة من لجانها منتشرة في أنحاء الولايات المتحدة . وقد قامت الجمعية بالاتفاق مع الحكومة السوفيتية باستكشاف إمكانيات المنطقة الجديدة ، وساهمت في إقامة المستوطنات الزراعية والمصانع التعاونية . كما نظمت الجمعية عام ١٩٢٩ بعثة علمية من الخبراء الأمريكيين في مجال الزراعة والاستيطان لزيارة بيروبيجان وبَحْث إمكانيات تطويرها كمنطقة لتوطين اليهود .

وفي الفترة بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٨ وجَّهت إيكور نشاطها الرئيسي إلى المجال الثقافي في بيروبيجان حيث أقامت مؤسسة للطباعة الحديثة لنشر الصحف والمجلات محلياً وأقامت معرضاً

للفنون ومكتبة ودار حضانة . كما أصدرت عام ١٩٣٥ مجلة شهرية باليديشية والإنجليزية هي **الحياة الجديدة** . وبعد عام ١٩٣٩ ، ركَّزت إيكور نشاطها في نشر المعلومات حول الحياة اليهودية في الاتحاد السوفيتي وفي بيروبيجان .

جمعية غوث اليهود الألمان

Hilfsverein Der Deutschen Juden

منظمة ألمانية يهودية أسَّسها عام ١٩٠١ جيمس سيمون تاجر الأقطان اليهودي الذي كان صديقاً شخصياً للقيصر بهدف غوث يهود شرق أوربا ويهود الشرق وتحسين أوضاعهم الاجتماعية والسياسية . وقد تأسَّست الجمعية على غرار الأليانس إسرائيليت يونيفرسل وكانت منافساً قوياً لها إذ قامت بنشاط ثقافي وتعليمي مهم إلى جانب تنظيم عمليات الهجرة والغوث . وقد تقدَّمت الجمعية بمذكرة للحصول على تصريح ونشرت عام ١٨٩٨ برنامجها الذي جاء فيه أن الأليانس احتكرت التعليم بين اليهود وأنها مرتبطة بفرنسا رغم أن الصداقة الألمانية قد ثبَّتت أقدامها في الدول العثمانية ، ولذا لم يَعُد للبعثة الثقافية للأليانس أي مبرر . وذكر أن اليهود الروس والبولنديين يتحدثون اليديشية ويفضلون اللغة والتجارة الألمانية وهو ما يعطي الجمعية فرصة لنشر النفوذ . وبالفعل ، لم يكن نشاط الجمعية بعيداً عن أهداف السياسة الخارجية الألمانية إذ أسَّست الجمعية شبكة من المدارس في دول البلقان والدولة العثمانية يتم فيها تدريس اللغة الألمانية . كذلك لم يكن نشاطها في فلسطين بعيداً عن التقارب الصهيوني الألماني ومساعي الصهاينة الألمان لكسب تأييد الإمبريالية الألمانية لمشروعهم وإظهار نفع اليهود للمشروع الاستعماري الألماني . فالمشروع الصهيوني سيعمل من جهة على تحويل هجرة يهود شرق أوربا بعيداً عن ألمانيا ، ومن جهة أخرى ستساهم هجرة اليهود الناطقين باليديشية إلى فلسطين في نشر الثقافة الألمانية وازدهار التجارة الألمانية وفتح أبواب الشرق أمامها . وقد نشطت الجمعية في فلسطين في الفترة بين عامي ١٩٠٣ و١٩١٨ ، وكانت بحلول عام ١٩١٤ قد أسَّست أو ساعدت في تأسيس خمسين مدرسة تخدم ٧٠٠٠ طالب من بينها كلية لتدريب المعلمين ، وكانت العبرية لغة التدريس . كما كانت الجمعية وراء تأسيس معهد التخنيون في حيفا واستثمرت فيه مبلغ ١٠٦,٥٠٠ مارك وتم افتتاحه برعاية القنصل الألماني . وقد فجَّرت الجمعية ما عُرف باسم «حرب اللغة» عندما قرَّرت عام ١٩١٣ تدريس العلوم في المعهد ، وكذلك في المدرسة الملحقة به ، باللغة الألمانية . وقد دفع ذلك كثيراً من الطلبة والمعلمين في مدارس الجمعية إلى تركها وتأسيس مدارسهم العبرية الخاصة . أما بعد الحرب العالمية الأولى وهزيمة ألمانيا وانتصار الاستعمار البريطاني ، فقد انتهى نشاط الجمعية في فلسطين وتسلمت المنظمة الصهيونية العالمية جميع مؤسساتها .

وقد عملت الجمعية أيضاً في مجال غوث ضحايا الحروب والكوارث الطبيعية من أعضاء الجماعات اليهودية في أوربا وتنظيم هجرتهم إلى الولايات المتحدة وغيرها من الدول الاستيطانية . وقد بدأت الجمعية نشاطها في هذا المجال بعد مذابح كيشينيف عام ١٩٠٣ فنظَّمت مؤتمر فيينا في العام نفسه لتنظيم عملية غوث يهود روسيا ، وكذلك مؤتمر لندن عام ١٩٠٥ ، كما تدخلت الجمعية لدى حكومات رومانيا وروسيا وفنلندا وغيرها من الدول للمطالبة بالحد من التشريعات التي تميِّز ضد أعضاء الجماعات اليهودية في هذه البلاد . وقامت بإصدار جريدة أسبوعية في الفترة ١٩٠٥ ـ ١٩١٤ باللغات الألمانية والإنجليزية والفرنسية لتعريف العالم الغربي بأوضاع اليهود في روسيا . وفي مجال الهجرة ، أسست الجمعية عام ١٩٠٤ المكتب المركزي للهجرة اليهودية بالتعاون مع المحفل الأكبر لأبناء العهد (البناي بريت) في ألمانيا ولجنة فرانكفورت لغوث يهود شرق أوربا المعذبين ، وساعدت في الفترة ١٩٠٤ ـ ١٩١٤ في تنظيم هجرة عدة مئات من الألوف من يهود شرق أوربا إلى الولايات المتحدة مروراً بالأراضي الألمانية ، وتعاونت مع المالي الأمريكي اليهودي جيكوب شيف في مشروعه المعروف باسم «خطة جالفستون» لتهجير يهود روسيا إلى جنوب الولايات المتحدة . ومما يُذكَر أن الحكومة الألمانية كانت ترفض توطين أيٍّ من المهاجرين اليهود داخل ألمانيا . كما شاركت الجمعية في عمليات الغوث خلال الحرب العالمية الأولى في المناطق الواقعة تحت الاحتلال في شرق أوربا وقامت بتوزيع أموال الإغاثة الأمريكية ، كما ساعدت ضحايا المجاعة من يهود روسيا عام ١٩٢١/ ١٩٢٢ .

وإلى جانب عمليات الإغاثة والهجرة ، اهتمت الجمعية بتنمية الأوضاع الاقتصادية للجماعات اليهودية في شرق أوربا ، فساهمت في تطوير التعليم الحرفي وشاركت في المشاريع الزراعية الاستيطانية اليهودية في جنوب روسيا التي أشرفت عليها منظمة أجرو ـ جوينت وجمعية الاستيطان اليهودي (إيكا) . ونظراً لأن بعض هذه الأنشطة كانت تعمل من أجل دَمْج واستيعاب الجماعات اليهودية في أوطانهم الشرق أوربية ، فقد دخلت الجمعية في خلافات حادة مع المنظمات الصهيونية والجماعات المعارضة لمسألة الاندماج . وإزاء ذلك ، بدأت لجنة التوزيع المشترك الأمريكية تحل محل الجمعية في عمليات

توزيع الموارد المالية . ومما يُذكَر أن كثيراً من أنشطة الجمعية كان يتم بالتنسيق والتعاون مع منظمات يهودية أخرى .

وقد تقلَّص دور الجمعية بعد الحرب العالمية الأولى ، لكنها استمرت في تنظيم عمليات الهجرة حيث ساعدت في الفترة ١٩٢١ ـ ١٩٣٦ في تهجير حوالي ٣٥٠ ألف شخص من ألمانيا أو عَبْر أراضيها . أما بعد مجيء النازي إلى الحكم ، فقد تم تغيير اسم الجمعية إلى منظمة غوث اليهود في ألمانيا وأصبح دورها مقصوراً على مساعدة يهود ألمانيا ، فاهتمت بتنظيم هجرتهم وقام سكرتير المنظمة عام ١٩٣٣ باستطلاع إمكانيات الهجرة إلى جنوب أفريقيا وروديسيا وكينيا ، كما ساعدت المنظمة على هجرة ٩٠ ألف شخص إلى الولايات المتحدة وغيرها من الدول فيما عدا فلسطين في الفترة بين عامي ١٩٣٣ و١٩٤١ وذلك بالتعاون مع بعض المنظمات الأخرى مثل إيكا ولجنة التوزيع المشترك وجيسيم وغيرها . وقد تم حل الجمعية عام ١٩٣٩ وإن استمرت تعمل حتى عام ١٩٤١ باسم «قسم الهجرة التابع لمنظمة اتحاد اليهود في ألمانيا» .

الجمعية الأمريكية للمستوطنات الزراعية اليهودية في روسيا

American Society for Jewish Farm Settlement in Russia

منظمة أمريكية تأسَّست عام ١٩٢٨ بهدف تمويل برنامج الاستيطان الزراعي اليهودي في الاتحاد السوفيتي والذي كانت منظمة أجرو ـ جوينت قد بدأته منذ عام ١٩٢٤ . وقد نجحت الجمعية في تدبير قرض قدره ثمانية ملايين من الدولارات من مجموعة من الأفراد في الولايات المتحدة لتمويل نشاط أجرو ـ جوينت في الفترة بين عامي ١٩٢٨ و١٩٣٥ على أن تُقدِّم كوزمت مبلغاً مماثلاً بالروبل . وقد أنهت الجمعية نشاطها عام ١٩٣٩ مع انتهاء نشاط أجرو ـ جوينت في الاتحاد السوفيتي .

كوزمت (لجنة توطين اليهود الكادحين في أرض الاتحاد السوفيتي)

Kozmet (Committee for the Settlement of Toiling Jews on the Land of the Soviet Union)

«كوزمت» هي الحروف الأولى لاسم «لجنة توطين اليهود الكادحين على الأرض» باللغة الروسية . وهي منظمة سوفيتية تأسَّست عام ١٩٢٤ ، بقرار من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ، كوكالة سوفيتية رسمية تعمل تحت رئاسة مجلس القوميات وتهدف إلى إعادة تأهيل أعضاء الجماعات اليهودية في الاتحاد السوفيتي (حيث كانوا قد فقدوا منذ نهايات القرن التاسع عشر ، ثم قيام الدولة السوفيتية ، وظائفهم كجماعة وسيطة وتجارية تقليدية) ، وكذلك إكسابهم خبرات زراعية وصناعية تؤهلهم للانضمام إلى البنية الاقتصادية الاجتماعية للمجتمع السوفيتي الجديد .

وقد كانت مهمة كوزمت الأساسية هي إعادة توطين الأسر اليهودية على مساحات من الأراضي الزراعية المخصصة لتوطين اليهود . ولذا ، فقد أسست لنفسها مكاتب في عدد من الجمهوريات السوفيتية ، كما تلقت مساعدات مهمة من منظمات يهودية أجنبية مثل أجرو ـ جوينت وإيكا وأورت . فمن إجمالي ٢٢,٥ مليون روبل تم إنفاقها قبل عام ١٩٢٩ على توطين اليهود في الأراضي الزراعية ، جاء ١٦,٧ مليون روبل أو ٧٤,٢٪ منهم من الخارج .

وقد بدأت كوزمت عام ١٩٢٤ في إقامة قرى يهودية جديدة في أوكرانيا ، وتم توزيع الأراضي الجديدة بما يعمل على ربط ودمج المستوطنات الزراعية اليهودية التي كانت قد دُمرت خلال الحرب الأهلية ، وبالتالي يعمل على خَلْق منطقة استيطانية يهودية متكاملة (وبالفعل ، كان ثمة ثلاث مناطق قومية يهودية في أوكرانيا مع نهايات العشرينيات) . وفي عام ١٩٣٦ ، كانت المزارع التعاونية اليهودية تحتل مساحة ١٧٥ ألف هكتار في أوكرانيا .

وفي منتصف العشرينيات ، دعت كوزمت إلى ضرورة إقامة استيطان زراعي يهودي واسع النطاق باعتباره الحل الوحيد للمشكلة اليهودية في الاتحاد السوفيتي والبديل الوحيد للصهيونية . وبالفعل ، تم تحديد منطقة غير مأهولة شمال غربي القرم لهذا الغرض ، كما تم تخصيص مساحة ٣٤٢ ألف هكتار لتوطين أعضاء الجماعات اليهودية ، وفي عام ١٩٣٠ ، تم تخصيص ٢٤٠ ألف هكتار للمنطقة القومية اليهودية في القرم .

وفي عام ١٩٢٧ ، تم تقديم خطة للاستيطان اليهودي واسع النطاق في منطقة آمور التي كانت تتمتع بأهمية إستراتيجية لدى الحكومة السوفيتية نظراً لقربها من الحدود مع كل من الصين واليابان . وبالتالي ، كانت مسألة استيطان هذه المنطقة وزيادة الكثافة السكانية بها ذات أهمية كبرى للدولة . وبالفعل ، أرسلت كوزمت بعثة علمية في العام نفسه إلى إقليم بيروبيجان لتَقَصِّي إمكانيات المنطقة للاستيطان الواسع النطاق . وبرغم أن التقرير لم يكن مشجعاً ، وبرغم اعتراض بعض قادة اليفسكتسيا (القسم اليهودي للحزب الشيوعي) ، قررت رئاسة اللجنة التنفيذية عام ١٩٢٨ تكليف كوزمت بمسئولية توطين إقليم بيروبيجان ، على أن تُمنَح المنطقة صفة دائرة قومية يهودية في حالة نجاح التجربة . ومنذ تلك اللحظة ، أصبح الجزء الأكبر من نشاط كوزمت مرتبطاً بمشروع بيروبيجان .

وقد نشطت كوزمت أيضاً ، ولكن على نطاق أضيق ، في مناطق روسيا البيضاء وسمولنسك ، وكذلك بين الجماعات اليهودية في الجمهوريات الآسيوية ، فأسَّست ٣٠ مزرعة تعاونية ليهود بخارى في أوزباكستان و١٥ مزرعة تعاونية ليهود جورجيا ، ومزارع تعاونية ليهود الجبال في داغستان وأذربيجان وشمال القوقاز والقرم .

وقد تم توسيع نشاط كوزمت عام ١٩٢٧ ليشمل إعادة تدريب العمال اليهود وتوزيعهم على المؤسسات والشركات الحكومية . وقد وُضعت خطة خمسية عام ١٩٢٨ لإعادة تشكيل البنية الاقتصادية والاجتماعية للجماعة اليهودية في الاتحاد السوفيتي . واستهدفت هذه الخطة أن يصل عدد العاملين بالزراعة بحلول عام ١٩٣٣ إلى ٢٥٠ ألف يهودي ، إلا أن العدد لم يزد بقليل على ٢٠٠ ألف بحلول عام ١٩٣٦ . وقد بلغ عدد الطلبة الذين يتلقون الدراسة في المدارس الفنية ٧٠ ألفاً . هذا ، بالإضافة إلى تشكيل تعاونيات حرفية كانت تضم ٢٠٠ ألف يهودي . إلا أن نشاط كوزمت تَوقَّف في منتصف الثلاثينيات وتمت تصفيتها عام ١٩٣٨ ، وضُمَّت أنشطتها إلى قسم إعادة التوطين والاستيطان والدائرة الزراعية في الحكومة السوفيتية .

هياس (خدمة هياس المتحدة)

Hias (United Hias Service)

«هياس» هي الحروف الأولى لاسم جمعية «هيرو إميجرانت أيد سوسيتي Hebrew Immigrant Aid Soiety» (جمعية غوث المهاجرين العبرانيين) التي تأسَّست عام ١٩٠٢ واندمجت مع الجمعية العبرية للإيواء التي تأسَّست عام ١٨٨٤ . وقد سُمِّيت الجمعية باسم «الجمعية العبرية لإيواء ومعونة المهاجرين» ، ولكن «هياس» ظلت اسماً مختصراً لها . وهياس هذه ، منظمة أمريكية تأسَّست عام ١٩٠٩ في نيويورك لمساعدة المهاجرين من اليهود القادمين إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتسهيل استيعابهم في المجتمع الأمريكي .

وقد تركزت مهام هياس في استقبال وتسهيل دخول المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة ، وفي توفير المأكل والمأوى لهم ، والمساعدة في إيصالهم إلى ذويهم في الولايات المتحدة أو تشجيع استقرارهم في المناطق الأقل ازدحاماً . كما عملت هياس على مساعدة المهاجرين على التكيف الثقافي مع المجتمع الأمريكي من خلال تعليمهم اللغة الإنجليزية وإيجاد فرص عمل لهم . وقد أقامت الجمعية مكاتب لها في غرب وشرق أوربا . كما قامت عام ١٩٢٠ بتحويل الموارد المالية من اليهود الأمريكيين إلى أقربائهم في أوربا إما بغرض الإعانة والغوث أو لتغطية مصاريف انتقالهم إلى الولايات المتحدة .

ومع إصدار قانون الحد من الهجرة في الولايات المتحدة عام ١٩٢٤ ، بدأت هياس في البحث عن مناطق أخرى لتوطين اليهود ، فتعاونت عام ١٩٢٧ مع إيكا وإمبيج ديركت في تأسيس منظمة هيسم كمحاولة لتوحيد وتنسيق الجهود في مجال الهجرة اليهودية . وفي الفترة بين عامي ١٩٢٥ و١٩٣٩ ، هاجر حوالي ١٠٠ ألف يهودي من أوربا ، حيث تم توطينهم بمساعدة هيسم في الولايات المتحدة وبعض مستعمرات الإمبراطورية البريطانية في الشرق الأقصى ، وفي أمريكا اللاتينية وفلسطين . كما شاركت هياس في تهجير اليهود الألمان بعد وصول النازيين إلى السلطة في ألمانيا عام ١٩٣٣ ، كما نشطت بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية في غوث وإنقاذ ضحايا الحرب .

وفي عام ١٩٤٥ ، أنهت هياس مشاركتها في هيسم . وقامت في عام ١٩٤٩ ، بالتعاون مع اللجنة الأمريكية اليهودية المشتركة للتوزيع في تأسيس «اللجنة المنسقة للأشخاص المشردين من أوطانهم» . وقد نشطت هياس ، بعد الحرب ، في محاربة القيود المفروضة على الهجرة إلى الولايات المتحدة .

وفي عام ١٩٥٤ ، اندمجت هياس مع كل من «الخدمة المتحدة للأمريكيين الجدد» ، وقسم التهجير للجنة المشتركة للتوزيع ، لتكوين خدمة هياس المتحدة . وقد عملت هذه المنظمة على مساعدة المهاجرين اليهود من شرق أوربا وشمال أفريقيا ، وخصوصاً بعد أزمة المجر عام ١٩٥٦ وحربي ١٩٥٦ و١٩٦٧ في الشرق الأوسط ، وتوطينهم في دول أخرى ـ وخصوصاً غرب أوربا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية .

وللمنظمة مكاتب في جنيف ونيويورك وريودي جانيرو ، ويأتي الجزء الأكبر من ميزانيتها من النداء اليهودي الموحَّد .

وقد ساهمت منظمة هياس في توطين المهاجرين اليهود السوفييت في الولايات المتحدة بل في تشجيعهم على تغيير اتجاههم والتوجه إلى الولايات المتحدة بدلاً من إسرائيل (وهو ما يُسمَّى في المعجم الصهيوني «التساقط») . ولذا ، فتحت هياس مكتباً لها في فيينا لمساعدتهم في الحصول على تأشيرات دخول للولايات المتحدة وتقديم معونة مالية لهم . وقامت السلطات الأمريكية بإصدار قرار عام ١٩٨٩ بعدم السماح لليهود بالهجرة إلى الولايات المتحدة إلا إذا تقدموا بطلب تأشيرة قبل أن يغادروا الاتحاد السوفيتي ، وذلك لدعم الهجرة اليهودية الاستيطانية إلى إسرائيل وتحييد هياس . وفتحت

الجمعية مكتباً لها في موسكو في فبراير ١٩٩٠ ، وقد وصفها ميخائيل كلاينر (رئيس لجنة الهجرة في الكنيست) بأنها "غو سرطاني يجب استئصاله" وذلك بعد نجاحها في استصدار ثمانية آلاف تأشيرة دخول للولايات المتحدة للمهاجرين السوفييت . وقد دافعت هياس عن موقفها بتأكيد ضرورة التضحية بمصلحة الصهيونية (ودولتها) في سبيل حماية اليهود ، أي أنها تعطي أولوية لمصلحة اليهود على مصلحة الدولة الصهيونية .

هيسم

Hicem

«هيسم» هي الحروف الأولى لأسماء ثلاث منظمات ، هي هياس وإيكا وإميج ديركت ، قامت بتأسيس هذه المنظمة في باريس عام ١٩٢٧ في إطار المحاولات الرامية إلى توحيد وتنسيق الجهود الخاصة بهجرة أعضاء الجماعات اليهودية من شرق أوربا . وقد انسحبت منظمة إميج ديركت من هيسم عام ١٩٣٤ ، إلا أن هيسم استمرت في نشاطها . وقد كان لها لجان منتشرة في ٣٢ بلداً تقوم بتقديم المشورة القانونية والفنية للمهاجرين من اليهود ، وتقديم برامج تدريب لإعادة تأهيلهم لحياتهم الجديدة ، والمساعدة في إيجاد فرص عمل لهم في دول المهجر ، وتقديم التسهيلات الائتمانية لهم ، وكذلك تعليمهم اللغات الجديدة . كما اشتركت هيسم في مساعدة اللاجئين من اليهود الذين فروا من ألمانيا بعد مجيء النازي إلى السلطة عام ١٩٣٣ حيث ساعدت ٣٦,٠٢٦ لاجئاً يهودياً ألمانياً في الهجرة إلى دول عديدة من بينها فلسطين في الفترة ١٩٣٣ ـ ١٩٤٠ .



٧
الصهيونية الاستيطانية (العملية)

الصهيونية الاستيطانية : تعريف ـ الصهيونية العملية ـ المشاريع الاستيطانية الصهيونية الخيالية ـ الصهيونية العملية (التسللية) ـ أحباء صهيون ـ مؤتمر كاتوفتش ـ البيلو ـ قديما ـ بنسكر ـ لورج ـ شابيرا ـ دافيجدو ـ سمولنسكين ـ ليلينبلوم ـ جولدسميد ـ تشيلنوف ـ ليفين

الصهيونية الاستيطانية : تعريف

Settler Colonial Zionism : Definition

«الصهيونية الاستيطانية» مصطلح نستخدمه للإشارة إلى الصهيونية التي يؤمن أصحابها بأن الجانب الاستيطاني في الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة لابد أن يوضع موضع التنفيذ ، وأنهم على استعداد للاضطلاع بهذه الوظيفة . والاستيطان جوهر الصهيونية . والاستعمار الصهيوني هو استعمار استيطاني إحلالي لا يأخذ شكل جيش يقهر أمة ويحتل أرضها ليستغل إمكاناتها الاقتصادية والبشرية لصالح البلد الغازي وحسب وإنما يأخذ شكل انتقال الفائض البشري اليهودي من أوطان مختلفة إلى فلسطين للاستيلاء عليها وطرد سكانها الأصليين والحلول محلهم .

ونحن نُميِّز في هذه الموسوعة بين «الصهيونية التوطينية» و«الصهيونية الاستيطانية» ، فالصهيونية التوطينية هي صهيونية يهود العالم الذين يشجعون استيطان اليهود في فلسطين لسبب أو آخر ولكنهم هم أنفسهم لا يهاجرون إليها قط ، أما الصهيونية الاستيطانية فهي صهيونية من يستوطن في فلسطين بالفعل .

وقد ظهرت الصهيونية الاستيطانية بعد الصهيونية التوطينية إذ أن المادة البشرية المُستهدَفة ، أي يهود شرق أوربا ، لم يتبنوا الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة إلا بعد قرون من تبنِّي الأوساط المسيحية البروتستانتية والأوساط الاستعمارية العلمانية للصيغة الصهيونية .

وقد كان ما نطلق عليه «الصهيونية التسللية» أول أنواع الصهيونية الاستيطانية ، ثم أعلن بعد ذلك وعد بلفور واستمر الاستيطان وتصاعدت وتيرته تحت رايات الاستعمار البريطاني ، في الهجرات الصهيونية الاستيطانية المختلفة (انظر : «الهجرة الصهيونية الاستيطانية [تاريخ]») .

والصهيونية الاستيطانية هي الصهيونية التي تعمل في فلسطين فتنشئ المؤسسات الاستيطانية (الاقتصادية والعسكرية) وتنظم المستوطنين داخل التنظيمات الزراعية العسكرية ، وتتعاون مع الدولة الراعية ، وتضع الخطط الكفيلة بالقضاء على مقاومة السكان الأصليين بل سَحْقها تماماً ، وتقوم بالمهام التي توكلها إليها الدولة الراعية . ولا يتدخل الصهاينة الاستيطانيون ، ما وسعهم عدم التدخل ، في شئون صهاينة الخارج التوطينيين ، ما دام الدعم المالي والسياسي مستمراً وما دام صهاينة الخارج لا يتدخلون بدورهم في شئون المُستوطَن .

والصهيونية الاستيطانية ، شأنها شأن الصهيونية التوطينية ، قادرة على امتصاص أيِّ مضمون سياسي أو ديني . فهناك مؤسسات استيطانية ذات ديباجات اشتراكية إلحادية ، وأخرى ذات ديباجات دينية أو ليبرالية أو فاشية . ولكن يمكن القول بأن الصهيونية العمالية هي التي قامت بتجنيد أعضاء الفائض اليهودي من شرق أوربا وزودتهم بإطار نظري ، ثم زرعتهم في فلسطين ، وقادت عمليات الإرهاب ضد العرب ، إلى أن طردت غالبيتهم . وكانت مؤسساتها الاستيطانية المختلفة وتنظيماتها الثقافية والعسكرية هي المهيمنة تماماً على عملية الاستيطان . وكانت مشاركة الأحزاب الأخرى ـ مثل الأحزاب الدينية والأحزاب الصهيونية ذات الديباجة الليبرالية (الصهاينة العموميون) أو الفاشية (حيروت) ـ مشاركة ضئيلة بالقياس إلى ما أنجزه العماليون . وبعد إعلان الدولة ، ظل العماليون مسيطرين على الصهيونية الاستيطانية ، إلى أن استولى الليكود على الحكم وقاد المُستوطَن الصهيوني وبدأ يشارك مشاركة أكيدة وفعالة في صياغة سياساته وتوجهاته .

وبعد تأسيس الدولة الصهيونية ، نشب صراع بين الصهاينة التوطينيين والصهاينة الاستيطانيين إذ ظن التوطينيون أنهم سيستمرون في الإشراف على الدولة والاشتراك في توجيه سياساتها (أوليسوا هم أيضاً أعضاء في الشعب اليهودي وجزءاً من قياداته ؟ أوليست الدولة مدينة بوجودها لهم ولجهودهم ؟) . ولكنهم لم يدركوا أن الدور القيادي الذي لعبوه كان دوراً مؤقتاً بسبب وجودهم في الغرب (راعي المشروع الصهيوني) وتمتُّعهم بحرية الحركة ، وبسبب انشغال الاستيطانيين بعمليات تأسيس المؤسسات الاستيطانية

وإرهاب العرب . وكان الصهاينة الاستيطانيون يرون من البداية أن الجماعات اليهودية في الخارج بمنزلة كوبري (جسر) للوطن القومي ، أو لبنات في بنائه ، أو حتى مستعمرات تُوظَّف في خدمته . وانطلاقاً من هذه الرؤية ، وصف بن جوريون المنظمة الصهيونية بأنها كالسقالة التي استُخدمت لبناء الدولة . ولذا ، لم يَعُد هناك أي مبرر لوجودها بعد إعلان الدولة ، أي أنه عرَّف المنظمة الصهيونية كمجرد أداة وعرَّف علاقة الدولة بالمنظمة على أنها علاقة نفعية مالية وليست عضوية . فالسقالة ليست جزءاً عضوياً من البناء ، ولذا يمكن الاستغناء عنها بعد الانتهاء من عملية البناء . وقد كسب الصهاينة الاستيطانيون هذه المعركة وتحوَّلت المنظمة الصهيونية إلى سقالة دائمة ؛ خادم خاضع قانع بدور الأداة الطيعة في يد صاحبها الذي يستخدمها في ابتزاز يهود العالم وامتصاص أموالهم .

ومن أهم قادة الصهاينة الاستيطانيين قبل عام ١٩٤٨ جوزيف ترومبلدور وبن جوريون ، أما بعدها فقيادات الاستيطان هم قيادات المستوطن الصهيوني .

الصهيونية العملية

Practical Zionism

«الصهيونية العملية» اصطلاح يُطلَق على أحد الاتجاهات الصهيونية في فترة ما قبل هرتزل وبلفور ، وهو مصطلح غير دقيق ، وسنسميه «الصهيونية العملية التسللية» أو «الصهيونية التسللية» وحسب . والواقع أن كل الحركات الصهيونية حركات عملية مغرقة في العملية ، لكن تسللية هذا الاتجاه (مقابل إمبريالية الاتجاهات الأخرى) هو ما يميِّزها .

المشاريع الاستيطانية *الصهيونية الخيالية*

Zionist Utopias

ظهرت في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر مجموعة من الأعمال الأدبية أو شبه الأدبية التي كتبها مؤلفون يهود تتناول بشكل روائي خيالي المجتمع الصهيوني أو الدولة الصهيونية حيث يتم حل كل مشكلات اليهود . ولم يكن ثمة حد فاصل بين الخيال والواقع في هذه الكتابات ، كما أنها لم تكن فريدة في هذا المجال وإنما كانت تعبِّر عن اتجاه أساسي داخل الحضارة الغربية في ذلك الوقت .

١ ـ فهي ، ابتداءً ، حضارة تَصدُر عن مفهوم التقدم اللا متناهي وعن الإيمان بإمكانية التحكم في كل شيء والتوصل لحل نهائي لكل المشاكل وإقامة الفردوس الأرضي في نهاية التاريخ .

٢ ـ ساعد التقدم العلمي المذهل في هذه المرحلة على تدعيم هذا الوهم حتى أصبحت نهاية التاريخ في اعتقاد الكثيرين توجد على بُعْد خطوات .

٣ ـ ويمكن القول بأن انتصار الإمبريالية الغربية وتقسيمها للعالم قد عمَّق إحساس الإنسان الغربي بأنه قادر على حل كل مشاكله الاجتماعية عن طريق تصديرها ، وكان الاستعمار الاستيطاني الآلية الكبرى لذلك ، فكانت المستعمرات تقام لتوطين المتطرفين دينياً وسياسياً البيوريتان والفوضويين (أمريكا الشمالية) والمجرمين (أستراليا) والذين فشلوا في تحقيق الحراك الاجتماعي في مجتمعاتهم (معظم الجيوب الاستيطانية) والفائض البشري اليهودي (الدولة الصهيونية) .

٤ ـ سادت التفسيرات الحرفية والمشيحانية للعهد القديم ، سواءٌ في الأوساط المسيحية البروتستانتية أو في الأوساط اليهودية ، مع تصاعد الثورة العلمية وزيادة معدلات الترشيد والعلمنة في المجتمع (وهي مرتبطة بتصاعُد الحلولية التي تسد الثغرة بين الدال والمدلول وبين الظاهر والباطن بحيث لا يُقبَل سوى التفسير الحرفي المباشر وتُرفَض التفسيرات الرمزية أو المجازية) . ويظهر هذا أكثر ما يظهر في موقف الوجدان الغربي (المسيحي واليهودي) من إرتس يسرائيل إذ بدأت تتحول من مكان روحي يتطلع إليه المؤمن ليؤسس فيه مملكة الرب في آخر الأيام (ليخرج منها النور للعالمين) إلى بقعة ذات أهمية إستراتيجية يلقى فيها بالفائض اليهودي وتخرج منها الجيوش التي تؤدب الدول المجاورة .

٥ ـ يُلاحَظ أن هذه الأعمال شبه الأدبية تتسم بنهاياتها السعيدة ووصولها إلى نهاية التاريخ ، وهي بهذا تنتمي إلى الكتابات الطوباوية المماثلة في القرن التاسع عشر والتي كانت لا تزال تدور في إطار الرؤية السطحية التفاؤلية التي طرحها فكر الاستنارة والتي تَصدُر عن إيمان تافه بحتمية التقدم (والحتميات المختلفة) وإمكان تغيير كل شيء ، بما في ذلك الطبيعة البشرية نفسها ، بما يتفق مع متطلبات العلم الحديث ! فهي رؤية ترى إمكانية أن يتجسد المثل الأعلى على هيئة حقيقة اجتماعية في التاريخ . هذا على عكس الطوباويات الأوربية والغربية التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين والتي تغلب عليها الروح التشاؤمية نظراً لتعمق الرؤية البشرية وإدراكها أن التحكم الكامل في الكون أمر مستحيل ، وأنه لو تحقق بالفعل لكانت الكارثة .

وفي هذا الإطار ، تمت كتابة هذه الأعمال الأدبية التي لا تتمتع بقيمة أدبية كبيرة ، فهي ذات قيمة تاريخية أو حتى ذات قيمة تأريخية

محضة ، وتصف المشاريع الاستيطانية الصهيونية بشكل خيالي . وتسمي المراجع الصهيونية هذه الأعمال باليوتوبيات (جمع «يوتوبيا» أي المدينة الفاضلة) وهي اسم على غير مسمًّى للأسباب التالية :

١ ـ تأخذ العديد من تلك الكتابات شكل البرنامج التفصيلي العملي المحدد ، فهي مشروع استيطاني لا يختلف كثيراً عن تلك المشاريع التي تم وضعها موضع التنفيذ بالفعل ، أما العنصر الخيالي فهو ينصرف إلى بعض التفاصيل وحسب . ولعل هذا هو الذي دفع هرتزل لأن يقول : "أستطيع أن أؤكد أن ما نراه ليس يوتوبيا . لقد ظهرت العديد من اليوتوبيات قبل بعد توماس مور ، لكن لم يفكر أي شخص عقلاني منطقي في وضع هذه الأفكار موضع التنفيذ ، إنها أفكار مسلية لكنها ليست عملية" . وقد وضع هرتزل يده على جانب مهم من الحقيقة ، وهو حرفية ما يُسمَّى باليوتوبيات الصهيونية ، إذ أدرك أن هذه اليوتوبيات لا علاقة لها بعالم الحلم المتجاوز وإنما تضرب بجذورها في أرض المشروعات المادية الصلبة . أما الجانب الذي فشل هرتزل في إدراكه ، فهو أن يوتوبيا سير توماس مور ليست مسلية وإنما هي عمل فني واع بمثاليته المتجاوزة ، واع بأن المدينة الفاضلة بطبيعتها يستحيل تنفيذها ، وإنما هي صورة مجازية ، شكل من أشكال المجاز ، يحاول الكاتب عن طريقها التعبير عن تطلُّع إنساني إلى عالم من المثاليات يتجاوز عالم المادة والحسابات الضيقة والتي يعرف الكاتب مسبقاً أنها مثاليات . ومن هنا نبرته المتهكمة أحياناً ، ومن هنا إصراره على تقديم هذا العالم باعتباره عالماً مثالياً ، فهو ليس فردوساً أرضياً ، وإنما فردوس قلبي يعبِّر عن شيء أزلي في الإنسان ، وهذا ما فشل هرتزل (الصحفي النمساوي من الدرجة الثانية) في أن يدركه .

٢ ـ تلتزم هذه الأعمال شبه الأدبية الخيالية الصمت الكامل حيال كثير من المشاكل مثل : ماذا لو رفض اليهود الانتقال إلى المدينة الفاضلة المزعومة ؟ والأهم من هذا ، ماذا سيحدث لسكان الأرض التي ستقام عليها المدينة الفاضلة ؟ هل سيمتد العدل ليشملهم أم أن السكين تنتظرهم ؟ ويمكن الاحتجاج بالقول بأن الأعمال الأدبية الخيالية لا تتعرض لمثل هذه التفاصيل ولا تتناولها بالسلب أو الإيجاب . ولكن الرد على مثل هذا القول هو أن هذه الأعمال الصهيونية تتوجه إلى كثير من التفاصيل ، كما أن الخطاب الصهيوني الهلامي المراوغ قد لجأ إلى الحيلة نفسها فيما بعد ، وهو عدم ذكر السكان الأصليين من قريب أو بعيد وتغييبهم تماماً .

ومن القصص الطوباوية الصهيونية الأولى قصة **صورة العودة** لإدموند أيسلر (١٨٥٠ ـ ١٩٤٢) وهو يهودي سلوفاكي كتب قصته عام ١٨٨٢ ونشرها بدون اسم عام ١٨٨٥ . وتتحدث القصة عن هجرة جماعية لليهود من أوربا بسبب اضطهاد عام وجماعي لليهود فيها . وتقوم تلك الجماعة المهاجرة بإقامة دولة في فلسطين يحكمها ملك هو ألفريد (وهو اسم غير يهودي) الذي تنبأ بهذه الهجرة . وتدخل هذه الدولة حروباً مستمرة مع جيرانها وتنتصر عليهم جميعاً ثم يستقر السلام بعد ذلك .

وقد ألهمت هذه القصة تيودور هرتزل كتابة قصته **الأرض القديمة الجديدة (التنيولاند)** . يتصور هرتزل أن اليهود سيؤسسون مجتمعاً مثالياً عام ١٩٢٣ في الأرض المقدَّسة . وسيدير المجتمع الجديد مؤسسة تعاونية . وستبدأ التجربة الجديدة بتأسيس شركة استعمارية استيطانية تقوم بنقل اليهود من أوربا ومن أماكن أخرى إلى أرض خاصة بهم . وستحصل الشركة (المساهمة) على ميثاق من السلطات التركية (فهي شركة ذات براءة) تعطي اليهود الحكم الذاتي ، وسيتلقى الأتراك مقابل ذلك مبلغ مليوني جنيه إسترليني كل سنة ، وربع الربع الذي تحققه الشركة الاستعمارية ، وتظل السيادة القومية في يد الأتراك ثم تقوم الشركة بعد الحصول على الميثاق بحملة دعائية ضخمة بين اليهود وتتفاوض مع الحكومات المختلفة لضمان خروج اليهود بأمن من أوطانهم وتصفية ممتلكاتهم . وسيكون شكل الحكومة ديموقراطياً وتُؤسَّس الدولة الجديدة على أسس تكنولوجية متقدمة ونظام كفء للري . وستزدهر مدن كثيرة ، وتصبح القدس على هيئة متحف . وإلى جانب التكنولوجيا ، يوجد الاقتصاد التعاوني حيث تختلط الأشكال الرأسمالية وحرية الملكية بالأشكال الاشتراكية التي تضع بعض الحدود على حركة رأس المال . ورغم أن المجتمع الجديد مجتمع يضم أغلبية يهودية ، إلا أنه لا يستبعد غير اليهود ، فهو مجتمع غربي ، حضارته أوربية يعتمد على التعددية اللغوية ، وليس له أية ملامح يهودية خاصة (فهو صهيون بلا صهيونية) . وهذا يتفق تماماً مع رؤية هرتزل ، فهو صهيوني يهودي غير يهودي . وقد هاجم آحاد هعام هذه الرواية لخلوها من المضمون اليهودي .

ورواية **الأرض القديمة الجديدة** لا تختلف كثيراً عن **دولة اليهود**، فهي مكتوبة بالطريقة المراوغة نفسها التي تسم الخطاب الصهيوني . بل يمكن القول بأن المراوغة في الرواية (وخصوصاً بالنسبة للسكان الأصليين) أكثر صقلاً وعمقاً ، فبينما يكتب هرتزل عن اشتراك السكان الأصليين في المجتمع الجديد وعدم استبعادهم ، كان يدوِّن في مذكراته الطرق التي سيتم بها

طردهم . ولكن الرواية كانت للنشر الواسع ، بينما كانت المذكرات مُستودَع الأفكار الحقيقية والأمنيات التي تعبِّر عن الرؤية .

وقد تأثرت معظم الكتابات الطوباوية الصهيونية بمؤلَّف الكاتب الأمريكي إدوارد بيلامي (١٨٥٠ ـ ١٨٩٨) المسمَّى **النظر للخلف ١٨٨٧ ـ ٢٠٠٠** الذي يضع يوتوبيا اشتراكية . ومن الكُتَّاب الصهاينة الذين تأثروا بهذا الكتاب ماكس أوستربرج فيراكوف ـ وهو كاتب من أصل يهودي ، كتب قصة اسمها **الدولة اليهودية عام ٦٠٠٠ (٢٤٤١)** ونشرها عام ١٨٩٣ . والقصة تتحدث عن إقامة دولة يهودية في فلسطين وعلاقتها بالدول الخارجية التي اضطهدت اليهود ، وعلاقة اليهود في تلك الدولة بيهود الشتات . وقد تأثر الحاخام الإنجليزي الأمريكي هنري منديس برواية بيلامي وألَّف على منوالها قصته **النظر للأمام** (١٨٩٩) ـ حيث تصوَّر الدولة اليهودية وعاصمتها القدس كمركز لسلام العالم وكمدرسة لتعليم البشرية كيفية التصرف السليم . وهي تتصور أيضاً حركة طرد/ هجرة يهودية جماعية من أوربا إلى فلسطين .

ومن القصص الطوباوية الطريفة في هذا الصدد قصة **معاداة الأغيار في صهيون** لليهودي الجزائري جاك باهار عام ١٨٩٨ . وقد كان الكاتب ممثلاً للجماعة اليهودية الجزائرية في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) . يتخيل الكاتب وجود دولة تتم فيها محاكمة شخص غير يهودي بتهمة تماثل تهمة دريفوس في فرنسا ، ويؤكد الطابع المتسامح للدولة اليهودية على عكس الدولة الكاثوليكية في فرنسا .

وثمة قصتان مهمتان أيضاً ، الأولى للكاتب البولندي اليهودي إسحق فرنهوف (١٨٦٨ ـ ١٩١٩) حيث تصوَّر (في رواية تُسمَّى **فكر**) دولة يهودية في فلسطين تحمل اسم دولة إسرائيل كفكرة خيالية تعارض واقع اليهود البائس الذي عايشه الكاتب في بولندا وأوكرانيا ـ أما القصة الثانية فهي قصة لم تكتمل نُشرت مسلسلة في مجلة **اللحظة** اليديشية ، واسم القصة هو **في دولة إسرائيل عام ٢٠٠٠** ، وكتبها المؤلف والصحفي اليهودي البولندي هيليل زيتلين (١٨٧١ ـ ١٩٤٢) بدأ نشرها عام ١٩١٩ تحت تأثير النشوة التي حدثت وسط الجماعات اليهودية والمتعاطفين مع الصهاينة نتيجة وعد بلفور . وهذا العمل يتحدث عن دولة يهودية ويصف دستورها ومؤسساتها . والكاتب من أسرة حسيدية وقد أهتم في صباه بآراء إسبينوزا ونيتشه ثم تحوَّل من العلمنة الكاملة إلى الصوفية الحلولية في اليهودية ، ومن ثم فهو يبدي تعاطفاً واضحاً مع الجانب الغنوصي في اليهودية .

وقد ظهرت بعض المؤلفات التي تدور حول المشاريع الاستيطانية والخيالية بالعبرية أثناء فترة الانتداب البريطاني تحدثت عن دور العمل الصهيوني والكفاح ضد الانتداب وما إلى ذلك من أفكار الصهاينة الاستيطانيين . ومن بين هذه المؤلفات **قصة النحات بوريس شلتز** (١٩٢٤) التي تتحدث عن مشاكل المستوطنين وتتوقع حلها مع إقامة الدولة التي ستلغي كل القوانين الظالمة . ونلاحظ تنوُّع اللغات التي كُتبت بها هذه المؤلفات : الألمانية واليديشية والفرنسية والعبرية . لكن معظم هذه القصص كُتبت كرد فعل لأحداث محلية ، مثل مذابح كشينيف في روسيا التي كانت المحرك الأول لقصة أيسلر ، وقضية دريفوس التي كانت المحرك الأول والنموذج المثالي لقصة باهار .

الصهيونية العملية (التسللية)

Practical Zionism

«الصهيونية العملية» اصطلاح يُطلَق على أحد التيارات الصهيونية التي وُجدت قبل ظهور هرتزل وبلفور ، وهو تيار يَصدُر عن الصيغة الصهيونية الأساسية (شعب عضوي ـ منبوذ ـ نافع ـ يمكن توظيفه خارج أوربا لصالحها) . ولكن ديباجاتها كانت تنطوي على بعض الخلل ، إذ تصوَّر التسلليون أن حل المسألة اليهودية لا يمكن أن يتم إلا عن طريق جهود اليهود الذاتية والانعتاق الذاتي والعمل على تحقيق أمر واقع في فلسطين وذلك عن طريق التسلل إلى فلسطين بالطرق السرية أو بالوساطات الخفية غير المباشرة (على حد قول هرتزل) أو عن طريق الاستيطان القائم على الصدقات ، أي بمساعدة أثرياء الغرب المندمجين دون اللجوء لمساعدة أية قوى عظمى أو المناورات الدبلوماسية (مع الدول الغربية الاستعمارية) ولا عن طريق الضمانات الدولية . وقد كان وايزمان من أهم قادة هذا الاتجاه العملي ، ومن أهم مفكريه ليون بنسكر وموشيه ليلينبلوم . وكانت الثمرة العملية لهذا الاتجاه جماعة أحباء صهيون الذين كانوا يحاولون استيطان فلسطين عن طريق التسلل وترسيخ أقدامهم فيها عن طريق العمل البطيء والمثابرة .

واصطلاح «الصهيونية العملية» مثل معظم المصطلحات الصهيونية مضلل وغير دقيق ، ولذا فنحن نطرح بدلاً منه اصطلاح «الصهيونية العملية التسللية» أو «الصهيونية التسللية» . فالمتسللون كانوا يتحركون داخل إطار يهودي (شرق أوربي) محض وينظرون للأمور من خلال منظار يهودي محض ويتصورون واهمين إمكانية استيطان فلسطين عن طريق التسلل .

ومعظم التسلليين كانت تجربتهم تقليدية محدودة وكانوا يدورون في إطار الجماعة الوظيفية التي تمارس قيادتها السيطرة الكاملة عليها ، وتقوم بدور الوسيط (شتدلان) بين الجماعة اليهودية والقوة الحاكمة . والقيادة اليهودية كانت دائماً مجموعة من الحاخامات والأثرياء . ولكن بات من الواضح للجميع أن الحاخامات كانوا قد فقدوا كل صلة بالواقع الغربي الحديث ، وأن ثقافتهم التلمودية وجهلهم بلغة البلد قد زادهم عزلة . ولذا ، لم تَعُد الحكومات تخاطبهم في أمور اليهود كما كان يحدُث في الماضي . أما أثرياء شرق أوربا فكان عددهم صغيراً ، وكانوا ضعفاء جداً وفي حالة هلع شديد للحفاظ على مواقعهم الطبقية الجديدة ، ولذا كانوا يؤثرون الحفاظ على مسافة كبيرة بينهم وبين الجماهير اليهودية في بلادهم .

وحيث إن يهود اليديشية لم يدركوا أهمية الإمبريالية لأنهم كانوا من شرق أوربا ، خاضعين للرقابة في الإمبراطورية القيصرية ، وهي إمبراطورية لم يكن لها مشروع استعماري استيطاني في فلسطين أو حولها (إذ أخذ مشروعها الاستعماري شكل التوسع من خلال ضم المناطق المتاخمة لحدودها) ، لذا نجدهم يتحركون نحو الغرب (مركز القوة) . وكان في هذا تحديث للحركة ، ولكنهم كانوا لا يتوجهون إلى حكوماته وإنما إلى أثرياء اليهود في الغرب (بدلاً من أثرياء اليهود في الشرق) كي يقوموا بتمويل نشاطهم الاستيطاني والتسللي . ولعل توجُّههم للأثرياء بدلاً من الحكومات هو نفسه نتاج تجربتهم مع الدولة الروسية التي لم تكن تتمتع بعد بالمركزية والهيمنة التي كانت تتمتع بها نظيراتها في أوربا الغربية .

وقد تم النشاط الاستيطاني التسللي بشكل هزيل وعملي ، خارج نطاق أي فكر أيديولوجي ، وظل محتفظاً بطابعه البرجماتي الإغاثي المباشر ، ولم يتجاوز إقامة مزارع صغيرة لا قيمة لها . وقد استفاد التسلليون من نفوذ قناصل الدول الغربية (الذين كانوا يتنافسون على حماية اليهود ، أي تحويلهم إلى عنصر وظيفي عميل) . وهذا يشير إلى أن التسلليين كانوا يتحركون عملياً وموضوعياً داخل إطار صهيوني بالمعنى الاستعماري الاستيطاني للكلمة ، حتى ولو لم يدركوا هم ذلك . ولكنهم وضعوا أولوياتهم بطريقة أدخلتهم طريقاً مسدوداً (تسلُّل استيطاني ـ دعم الأثرياء ـ إنشاء دولة) إذ جعلوا الاستيطان مقدمة وهو في واقع الأمر نتيجة للآلية الكبرى الإمبريالية . ولذا ، فقد سقطوا في نهاية الأمر في يد روتشيلد وأصبحوا موظفين لديه ، يقومون بابتزازه ويقوم هو بتمويلهم وزجرهم والتحكم فيهم .

وكان التسلليون ، بسبب طبيعة نشأتهم في شرق أوربا ، يهتمون بمسائل الهوية اليهودية (اليديشية) وبعملية إصلاح اليهود واليهودية . ثم جاء هرتزل وحدد الأولويات بطريقة مختلفة تماماً ، فبدلاً من جهود التسلليين الصغيرة طرح رؤيته الخاصة بما سماه «الاستيطان القومي» الذي يضمنه القانون العام ، أي الدول الغربية الاستعمارية الكبرى . والواقع أن هرتزل ، من خلال صهيونيته الدبلوماسية الاستعمارية ، حدَّد أولويات الحركة بطريقة مغايرة تماماً للطريقة التي حددتها بها الصهيونية التسللية : موافقة استعمارية ثم استيطان ، وهي صيغة تتفق مع الظروف التاريخية السائدة في أوربا وفي العالم ومع موازين القوى الفعلية التي جعلت من الحتمي على المشروع الصهيوني (وعلى أي مشروع استيطاني آخر) الاستعانة بالقوى الإمبريالية حتى يخرج إلى حيز الوجود . وقد كان هرتزل محقاً تماماً في موقفه ، فافتقاد المتسللين لأساس القوة جعلهم بالضرورة مفتقدين للاستقلال والسيادة ، الأمر الذي جعل استيطانهم عديم الفائدة ، خاضعاً لرحمة أو غضب أي باشا ويبقى دائماً عُرضة لفرض القيود عليه (على حد قول نوردو) . كما أن هرتزل لم يكن يهتم كثيراً بالمسائل الإثنية لأنها لم تكن تعنيه كثيراً ، فهي لا تعني الدول الكبرى التي يتوجه إليها طالباً الدعم والشرعية .

ويمكن القول بأن هرتزل قام بتحديث مسألة أوربا اليهودية بأن نَزَع القداسة عن اليهود وجعلهم مادة وظيفية استيطانية ، ثم قام بتدويل المسألة اليهودية بأن توجَّه إلى أوربا بأسرها ، صاحبة المشكلة ، وأخبرها أنها هي أيضاً صاحبة الحل والمستفيد الأول إن قبلت رؤية اليهود على طريقته . وبدلاً من النظر إلى يهود أوربا بوصفهم شحاذين أو فقراء يحتاجون إلى الصدقات أو شخصيات غريبة ذات تراث إثني فريد ، فإن على أوربا (وأثرياء اليهود في الغرب) أن ينظروا لهم باعتبارهم شعباً له نفعه (وتحويل كل شيء إلى مادة نافعة يمكن الاستفادة منها هو جوهر التحديث) ، كما أن له وظيفته التي يمكن أن يضطلع بها ، ولذا فهو لا يحتاج إلى الصدقات وإنما إلى الدعم مقابل الخدمات التي سيؤديها . والدعم سيأتي من الدول الاستعمارية التي تحتاج إلى «إسفين» في الشرق والتي ستضمن "وجودنا بالمقابل" . ولعل حداثة الصيغة الهرتزلية تظهر في العبارة الأخيرة التي تدل على أنه يستخدم منطقاً تعاقدياً نفعياً . وبدلاً من جماعات أحباء صهيون الصغيرة المتفرقة في الشرق والغرب ، طوَّر هو صيغة مراوغة ورؤية متكاملة لعقد صهيوني صامت يُوقَّع بين الحضارة الغربية ويهود الغرب وإطار تنظيمي ينتظم الجميع .

وقد ظهرت الخلافات بين التسللين وهرتزل في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، ولكن هرتزل اكتسح الجميع بسبب دقة أولوياته وحداثة طَرْحه ، وخطابه المراوغ ، فانضموا هم إلى المنظمة ولم ينضم هو إلى جماعاتهم الكثيرة رغم أنه كان مجرد صحفي كتب كراسة عن المسألة اليهودية وكانوا هم عدة تنظيمات يضمون في صفوفهم كثيراً من المفكرين وبضعة آلاف من الأعضاء . ثم صَدَر برنامج بازل ، وقد قبل التسلليون الصهيونية الدبلوماسية الاستعمارية وقبلوا قيادتها للمنظمة . ومنذ تلك اللحظة ، سقطت عنهم الصفة التسللية بإدراكهم حتمية الاستعانة بالإمبريالية الغربية لوضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ .

ورغم هذا ، استمر الخلاف بين ما يمكن تسميته «الصهيونية العملية (الاستيطانية)» مقابل الصهيونية الدبلوماسية (التوطينية) ، فقد شهدت الفترة الواقعة بين عامي ١٨٩٧ و١٩٠٥ تبلور معارضة الصهاينة الاستيطانيين الذين طالبوا بالتركيز على البند الأول من برنامج بازل الخاص بتشجيع عملية الاستيطان في فلسطين ، بينما انصرف اهتمام تيار هرتزل الدبلوماسي إلى تحقيق البند الرابع من البرنامج وهو الخاص بالحصول على ضمان أو اعتراف من الدول الاستعمارية الرئيسية لحماية مشروع إقامة الكيان الصهيوني في فلسطين . ولم تكن الخلافات بين العمليين (الاستيطانيين) من جهة ، والدبلوماسيين (التوطينيين) من جهة أخرى ، سوى خلافات ناجمة عن سوء الفهم من جانب العمليين الذين لم يكونوا قد أدركوا بعد أهمية الدولة الاستعمارية الراعية للمشروع الصهيوني ، رغم قبولهم إياها ، ومن جانب الدبلوماسيين التوطينيين الذين لم يدركوا أهمية سياسة خَلْق الأمر الواقع في فلسطين وضرورة تبنِّي ديباجات إثنية لتجنيد المادة البشرية المُستهدَفة . ومع هذا ، بدأت عملية التقارب ، إذ بدأ الاستيطانيون يدركون بالتدريج تفاهة فكرة الاعتماد على الذات ، ولذا أصبح النشاط الاستيطاني في مرتبة ثانوية بالنسبة لمنظمة هرتزل الصهيونية ، كما بدأوا يدركون أولوية الجهود الدبلوماسية الاستعمارية على الجهود الاستيطانية . وربما لهذا السبب لا نسمع كثيراً عن جهود استيطانية مكثفة في هذه المرحلة . ونظراً لسطحية الاختلاف ، لم يكن من العسير التوفيق بين الاتجاهين . فمن البداية أعربت المنظمة الصهيونية عن استعدادها للاعتراف بالاستيطان الذي يتم بناء على ترخيص مسبق من الحكومة التركية ، وأعلنت عن استعدادها لتقديم المساعدة لمثل هذا الاستيطان ، بل أقامت المنظمة لجنة خاصة لشئون الاستيطان .

وقد تم ، في نهاية الأمر ، التوصل إلى صيغة توفيقية في المؤتمر السابع (١٩٠٥) ، فرُفض الاستيطان التسللي (الذي يعتمد على الصدقات وعلى الحصول على قطعة أرض) نهائياً . ومع هذا ، قررت المنظمة الصهيونية أن تشجع العمل الزراعي والصناعي الاستيطاني هناك ، وتم انتخاب لجنة تنفيذية جديدة تضم ثلاثة من العمليين الاستيطانيين وثلاثة من الدبلوماسيين التوطينيين . وفي المؤتمر الثامن (١٩٠٧) ، أكد وايزمان أهمية المزج والتوفيق بين الاتجاهين وطَرَح ما سماه «الصهيونية التوفيقية» ، أي الصهيونية التي تجمع بين النهجين العملي الاستيطاني والسياسي الاستعماري الخارجي .

وفي المؤتمر الصهيوني العاشر (١٩١١) انتخب المؤتمر ووربورج ومعه ٤ أعضاء آخرين في اللجنة التنفيذية ، وكانوا من العمليين الاستيطانيين ، وظلت المؤسسات المالية في يد العمليين الاستيطانيين .

وفي المؤتمر الصهيوني الحادي عشر (١٩١٣) أحكم الاستيطانيون السيطرة على كل المؤسسات الصهيونية . وقد كان هرتزل ـ شأنه شأن صهاينة الغرب عامة ـ يعتقد أن صهاينة شرق أوربا غير قادرين على قيادة الحركة الصهيونية "بل كان يعتقد أننا سنكون أداة تستفيد منها الحركة الصهيونية الغربية" على حد قول وايزمان . ولكن مسار التاريخ قَلَب تقسيم العمل المقترح تماماً ، فأمسك الشرقيون من يهود اليديشية بزمام الأمور في المنظمة الصهيونية وتولوا قيادتها ، وهو أمر منطقي ومتوقَّع . فالاستيطانيون (العمليون) كانوا من شرق أوربا ، والمشروع الصهيوني كان ـ حسب تصوُّرهم ـ أمراً حيوياً ، بل مصيرياً بالنسبة لهم ، فهم ممثلو الفائض اليهودي والقادرون على التحدث باسم هذه الكتلة البشرية المرشحة للنقل إلى فلسطين وبلُغتها ، على عكس يهود الغرب الصهاينة الذي كان يهمهم التخلص من الفائض وإبعاده عن بلادهم وحسب ، وكانوا غير قادرين على تَفهُّم لغته وآماله .

وقد ساعدت صياغة هرتزل المراوغة على امتصاص كل الخلافات ، فتعلَّم الصهاينة أن يعيشوا مع التناقض والصراعات ما دام ثمة اتفاق على الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة وعلى الأولويات الإجرائية .

ولعل كلمات الزعيم الصهيوني الروسي مناحيم أوسيشكين هي أدق تلخيص لصهيونية ما بعد هرتزل بمقدرتها الامتصاصية الفائقة ، فقد اقترح العودة لا إلى صهيونية أحباء صهيون (التسللية الاستيطانية) ولا إلى الصهيونية الدبلوماسية (صهيونية هرتزل) ، وإنما إلى مزيج من هذه التيارات الثلاثة ، وبلغة أخرى إلى الصهيونية

السياسية كما نص عليها برنامج بازل ، أي أنه اقترح العودة إلى صهيونية هرتزل !

ولكن الذي حَسَم الخلاف تماماً بين الفريقين لم تكن المؤتمرات الصهيونية وإنما التطورات الدولية . فبعد اتخاذ قرار تقسيم تركيا ، ومع اهتمام إنجلترا المتزايد بالبُعْد الجيوسياسي لفلسطين ، لم يكن أمام الصهاينة (العمليين أو السياسيين أو خلافهم) سوى انتظار الدولة الراعية التي سترعى مصالحهم والتي ستوفر لهم الأرض والضمانات الدولية اللازمة . والصهيونية التي لم يكن لديها أية جماهير لم تكن تملك سوى الانتظار والتلقي ، وبذا يكون الاستعمار الغربي في واقع الأمر مصدر الوحدة بين الاتجاهات الصهيونية المختلفة .

ويظهر التمازج الكامل بين الاتجاهات الصهيونية المختلفة عام ١٩١٧ ، إذ نجد أن وايزمان (زعيم الصهيونية العملية الاستيطانية) هو أيضاً الذي سعى إلى استصدار وعد بلفور ، قمة جهود الصهيونية الدبلوماسية الاستعمارية ، وكان آحاد هعام (زعيم التيار الصهيوني الإثني العلماني) يقدم له المشورة .

ويمكن تلخيص إنجازات صهيونية يهود شرق أوربا في النقاط التالية :

١ ـ رفض التسلليون (الدينيون منهم واللا دينيون) الموقف الديني التقليدي الذي يطلب من اليهود الانتظار إلى أن يبعث الإله الماشيَّح ، وطلبوا من اليهود عدم انتظار مشيئة الإله والإمساك بزمام الموقف واتخاذ الخطوات اللازمة لتحقيق العودة . وبعد أن توصَّل التسلليون إلى أن الحل ليس في السماء ، اكتشفوا أنه في غرب أوربا متمثلاً في أثرياء الغرب وقناصل دولهم في فلسطين ، أي أنهم بدأوا يتحسسون الطريق نحو التحالف الذي سيحوِّل الحلم الصهيوني إلى حركة ومنظمة واستيطان .

٢ ـ قبل التسلليون مقولة أن وضع اليهود داخل الحضارة الغربية وضع شاذ وهامشي ، وأن الفائض اليهودي لا يمكنه أن يندمج في المجتمع . وقد خلصوا من ذلك إلى أن اليهود لا مكان لهم داخل المجتمعات الغربية ، وحولوا معاداة اليهود إلى إحدى الدعائم النظرية للفكر الصهيوني ، وركزوا على نَقْد الشخصية اليهودية . وقد توصَّل التسلليون إلى واحد من أهم ملامح الحل الصهيوني ، وهو حل مسألة الفائض اليهودي عن طريق نَقْله إلى خارج أوربا ، وقاموا بأول محاولة فعلية لوضع الحل موضع التنفيذ .

٣ ـ اكتشف التسلليون أن الزراعة وسيلة أساسية للاستيطان في أرض أجنبية معادية ، كما أدركوا طبيعة المشروع الصهيوني الإحلالية .

٤ ـ اكتشف التسلليون إمكانية توظيف الخطاب الصهيوني المراوغ لحل التناقضات العقائدية ، فأدركوا إمكانية التعاون مع أثرياء الغرب المندمجين وإمكانية ابتزازهم ما داموا لا يفرضون عليهم الصيغة القومية ولا يشهِّرون بهم لرفضها . كما أدركوا إمكانية تعايش العلمانيين والمتدينين داخل صيغة مبهمة تسمح لكل فريق بأن يفرض المعنى الذي يراه .

٥ ـ ظهرت طلائع المفكرين الذين صاغوا الخطاب الصهيوني الإثني (الديني والعلماني) وهو الاتجاه الذي هوَّد الصيغة الشاملة ، فعمَّق فكرة الشعب اليهودي وأضفى عليها أبعاداً تاريخية ودينية ونقاها من بقايا الفكر الاندماجي العلماني . وهذا الاتجاه هو الذي أسبغ على الصهيونية شرعية يهودية تُخفي الأبعاد العملية والنفعية التي توصَّل إليها الصهاينة غير اليهود والصهاينة اليهود غير اليهود الذين لا يكترثون بمشاكل الهوية . وقد كانت هذه الشرعية ضرورية للجماهير اليهودية المتدينة في شرق أوربا ، وللجماهير التي فَقَدت إيمانها التقليدي وظلت تبحث عن هوية خاصة .

لكل هذا ، يمكن القول بأن صهيونية شرق أوربا أسهمت في تطوير فكر صهيوني ذي ديباجة يهودية يحاول حل مشكلة اليهود واليهودية ، ويطرح نفسه بوصفه المعبِّر عن آمال وآلام جماهير شرق أوربا ، وهي المجموعة البشرية المطلوب تجنيدها لتنفيذ المشروع الصهيوني . وبذا ، تكون صهيونية يهود أوربا قد بدأت بالسير نحو حل مشكلة الصهيونية في الحضارة الغربية ، فلأول مرة ، يظهر مفكرون من داخل صفوف هذه المجموعة البشرية ينظرون إليها من الداخل ، ويستخدمون مصطلحها ورموزها ، وينظمون بضعة آلاف منها ، بل يقومون بتجارب استيطانية قد تكون متفرقة وهزيلة ولكنها تمثل مع هذا نقطة البداية نحو نَقْل اليهود من أوربا وتشكل إطاراً يجعل الحوار مع الغرب غير اليهودي ممكناً .

أحباء صهيون

Hibbat Zion

«أحباء صهيون» اسم يُطلَق على مجموعة من الجمعيات الصغيرة في روسيا (التي كانت تضم أكبر جماعة يهودية) وبولندا ورومانيا ، والإمبراطورية النمساوية المجرية وألمانيا وإنجلترا والولايات المتحدة . وكانت جمعيات أحباء صهيون في غرب أوربا تضم أساساً اليهود والمهاجرين من شرق أوربا وبعض العناصر المحلية القلقة من هذه الهجرة اليهودية ، وكان لهذه الجمعيات أسماء كثيرة تحمل معنى حب صهيون أو الرغبة في العودة ، كما كان هناك

جمعيات تحمل أسماء مثل البيلو وقديما وجمعية بني موسى (السرية) . وكان أهم هذه الجماعات جماعة زروبابل في أوديسا التي كان يترأسها بنسكر وليلينبلوم أهم مفكري الحركة (ويمكن أن نضيف إليهما سمولنسكين) .

ورغم تعدُّد الأسماء والجمعيات ، إلا أن هذا يجب ألا يؤدي إلى تصوُّر أن أحباء صهيون كانت حركة جماهيرية اكتسحت يهود شرق أوربا ، فهي قد ظلت حتى النهاية تنظيمات صغيرة من المثقفين والبورجوازيين الصغار ، وكانت كل جمعية تضم حوالي ١٠٠ إلى ١٥٠ عضواً ، وكان عددها ١٢ جمعية عام ١٨٨٢ ووصل إلى ١٣٨ جمعية بين عامي ١٨٨٩ و١٨٩٠ ، وتراوحت العضوية بين تسعة آلاف وأربعة عشرة ألفاً عام ١٨٨٥ من مجموع يهود العالم البالغ حينذاك عشرة ملايين تقريباً ، وقد آثر ما يقرب من مليونين منهم الهجرة إلى الولايات المتحدة ، ولعل هذا يفسر أن هرتزل كان غير مدرك لوجودهم ، وحينما أدرك وجودهم فإنه لم يعاملهم باحترام شديد وقرر توظيفهم في مخططه .

ويعود ظهور هذه الجمعيات إلى تعثُّر عملية التحديث في روسيا وشرق أوربا ، وإلى تناقُص فرص الحراك الطبقي أمام بعض قطاعات اليهود هناك . وتصدُر هذه الجمعيات عن الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة بعد تهويدها من خلال بعض المفاهيم اليهودية أو شبه اليهودية ، مثل : رَفْض الاندماج ، والإيمان بأن معاداة اليهود ظاهرة أزلية ، ورَفْض الانتظار السلبي للماشيَّح ، وكذلك حل المسألة اليهودية ، هنا في الأرض وفي هذه الأيام وليس هناك في السماء أو في آخر الأيام .

وقد اكتشف أعضاء أحباء صهيون أن الحل ليس في الأرض بشكل عام وإنما في العالم الغربي وبين أثرياء اليهود هناك على وجه التحديد . وكانت هذه الجمعيات تسعى إلى حل مشكلة يهود شرق أوربا عن طريق ما يُسمَّى "جهودهم الذاتية" ، أي دون الاعتماد على الدول الغربية ، وذلك لتهجير من يريد منهم إلى أية بقعة في العالم وتوطينه فيها ، ثم استقر الاختيار على فلسطين .

وحركة أحباء صهيون هي أهم ممثلي التيار الصهيوني التسللي (الذي يُسمَّى «العملي») والذي تصدَّى لهرتزل . وقد دعي بنسكر وليلينبلوم و٣٤ شخصية يهودية إلى اجتماع في منزل بنسكر في أكتوبر ١٨٨٣ . ولعل وظائف المدعوين تعطي صورة عن التكوين الطبقي للجمعية فحوالي النصف كانوا من التجار ، وكان هناك أيضاً صاحب بنك وسمسار في البورصة وأربعة أطباء وصيدلي وكبير حاخامات أوديسا ، وكان المجتمعون يعرفون أن أثرياء اليهود في شرق أوربا سيعارضونهم (إذ أنهم كانوا من دعاة الاندماج) . ولذا قرروا أن يكون التوجه للطبقة الوسطى .

وقد عقدت جمعية أحباء صهيون أول مؤتمر لها في كاتوفيتش عام ١٨٨٤ ، وألقى بنسكر خطاباً تحدَّث فيه عن مساعدة المستوطنين اليهود "أينما كانوا" ، وطالب بإنشاء جمعية مونتفيوري لتطوير الزراعة بصورة خاصة بين المستوطنين في فلسطين . وقد بذل بنسكر قصارى جهده للابتعاد عن أية ديباجة قومية حتى لا يخيف يهود الغرب الذين كان يطلب عونهم : "ففكرة الدولة اليهودية . . . لا تزال بالضرورة بعيدة المنال ، وهي تحتاج لجهد يفوق طاقة جيلنا ، وهو جهد صعب بشكلٍ خاص في البلاد المتحضرة [أي بلاد غرب أوربا] التي تحدد الإيقاع في أوربا بأسرها" . ولعله كان يخشى أيضاً خَلْق جو من التوتر بين الدولة العثمانية والمستوطنين الصهاينة .

ثم عُقد مؤتمر آخر في دروسكينكي ١٨٨٧ حيث ظهر الخلاف بين المتدينين والعلمانيين ، وقد فشل الفريق الأول في عزل بنسكر ولكنهم نجحوا في تعيين ثلاثة حاخامات في اللجنة التنفيذية ، ولم تختلف قرارات هذا المؤتمر عن سابقه . وقد ازدادت الخلافات بين الفريقين اتساعاً عام ١٨٨٨ / ١٨٨٩ لأنه عام سبتي لا يُباح فيه لليهود زراعة الأرض ، ولكن المستوطنين مع هذا استمروا في زراعتها . وعُقد مؤتمر ثالث عام ١٨٨٩ في فلنا وزاد النفوذ الصهيوني الديني فيه الأمر الذي اضطر العلمانيين إلى تأسيس جماعة بني موسى السرية (على غرار المحافل الماسونية) .

وعُقد المؤتمر الرابع في أوديسا عام ١٨٩٠ بعد اعتراف النظام القيصري بالجمعية . وقد حصلوا على الاعتراف من خلال بارون روسي يهودي توسَّط لهم لدى الحكومة ، وسُمِّيت الجمعية رسمياً باسم «جمعية تقديم المساعدات للمستوطنين اليهود الزراعيين وأصحاب الحرف اليدوية في سوريا وفلسطين» . وبعد أن رفعت السلطات العثمانية الحظر عن الاستيطان اليهودي في فلسطين تم فتح مكتب في يافا . وقد وقع انقسام وخلاف بين القيادة في روسيا واللجان المحلية في فلسطين ، فكان شراء حصان على سبيل المثال يتطلب مناقشة لجان عديدة والحصول على الموافقة من روسيا . ولم تفهم لجنة أوديسا الطبيعة الخاصة للزراعة الاستيطانية ، والعلاقة مع العرب . وقد تملَّك المستوطنين إحساس بالعجز التام أمام العثمانيين وبأن الباب العالي لن يعطيهم أية تنازلات . وقد أُغلق مكتب يافا عام ١٨٩١ بعد أن أصيب بخسائر مالية فادحة ، وبعد أن نجح العرب في إيصال معارضتهم للأستانة . وتوقفت الحركة عن إنشاء

مستوطنات جديدة ، وقصرت جهودها على مساعدة المدارس العبرية والمستوطنات القائمة بالفعل .

ومع هذا ، قامت الجمعية بالإشراف على وضع بذور الاستعمار الاستيطاني الصهيوني . فقامت بشراء قطعة أرض عام ١٨٨٢ على ساحل البحر (الطبيعة الاستيطانية) . وبالقرب من أراضي البدو التي يمكن شراؤها في المستقبل (الطبيعة التوسعية) . وحينما لم تتم الصفقة بسبب معارضة الوالي ، تدخَّل نائب قنصل بريطانيا في يافا فاشترى الأرض وسجَّلها باسمه (القوة الإمبراطورية الراعية) وسُميت مستعمرة «ريشون لتسيون» وهي عبارة توراتية تعني «الأول أو الطليعي في صهيون» (تهويد الصيغة الصهيونية الأساسية) . وفي العام نفسه ، قام مبعوث من جمعيات أحباء صهيون بشراء أراض وتأسيس مستوطنة روش بينا (رأس أو حجر الزاوية) . وفي العام نفسه أيضاً ، تم شراء أراض مملوكة لمواطن فرنسي وذلك بمساعدة إميل فرانك ، وهو يهودي فرنسي يعمل وكيلاً في المواني السورية لإحدى شركات السفن البريطانية ويشغل في الوقت نفسه منصب نائب قنصل ألمانيا والنمسا في الإسكندرية . وأُسِّست المستوطنة الثالثة التي سُمِّيت «زخرون يعقوب» تخليداً لذكرى والد البارون روتشيلد بعد أن تعهَّد بتقديم المعونة المالية للمستوطنة (الصهيونية التوطينية) . وقد استمرت عملية شراء الأراضي بمساعدة قناصل الدول الغربية ، ومن خلال استخدام النفوذ الغربي والامتيازات الممنوحة لرعايا الدول الغربية .

وكما تقدَّم ، لم تكن حركة أحباء صهيون حركة جماهيرية ، ولذا فإنها لم تنجح إلا في تهجير بضع مئات من اليهود وبتكاليف باهظة (في الوقت الذي هاجر فيه الملايين إلى الولايات المتحدة) ، وكانت مواردها المالية ضعيفة فقد كانت ميزانية الجمعية ٥٠ ألف روبل (في السنة على أحسن تقدير) (يعادل خمسة آلاف جنيه إسترليني) . وكانت تكاليف توطين الأسرة الواحدة ثلاثة آلاف روبل أي أن الجمعية بكل فروعها لم يكن في إمكانها أن توطن سوى عشرين أسرة في السنة ، وقد كان هذا راجعاً إلى خلل أساسي في أحباء صهيون وهو افتقارهم لآليات وَضْع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ : الدعم الإمبريالي ، وهو خلل كانت تعاني منه أيضاً الحركة الصهيونية فيما بعد وقامت بالتغلب عليه عن طريق وعد بلفور . أما أحباء صهيون ـ على عادة التسلليين ـ فقد لجأوا إلى روتشيلد الذي أنفق في فترة عشرين سنة ما مقداره ١,٦٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني ـ في حين أنهم لم ينفقوا سوى ٨٧ ألفاً فقط . ولذا ، لم يكن من المستغرب أن يفرض المليونير الفرنسي هيمنته بالتدريج على مستوطناتهم ليتحولوا إلى مرتزقة يعيشون عالة عليه يحاولون اعتصاره ويعتمدون على العمالة العربية الرخيصة ـ وتتجه أفكارهم لجمع المزيد من المال والهجرة إلى أمريكا (الصهيونية النفعية) . لكل هذا كان المستوطنون من أحباء صهيون في مقدمة مؤيدي مشروع شرق أفريقيا .

وحينما عُقد المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، انضم إليه معظم جماعات أحباء صهيون وتحولت إلى ما يُسمَّى «التيار العملي» .

واستمرت الحركة موجودة بشكل مستقل تحت قيادة أوسيشكين من عام ١٩٠٦ إلى عام ١٩١٩ حيث تم التوصل للصيغة الصهيونية التوفيقية التي جعلت التعايش مع الخلافات ممكناً . وفي عام ١٩٢٠ ، قامت الحكومة الشيوعية في روسيا بحل الحركة .

وبشكل عام ، فإن تاريخ حركة أحباء صهيون هو تاريخ مصغر للصهيونية ككل . ولعل الاختلاف الأساسي هو إدراك الحركة الصهيونية بعد هرتزل حتمية الاعتماد على الإمبريالية الغربية لوضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ ، في الوقت الذي سقط فيه أحباء صهيون في وَهْم الاعتماد الذاتي . ويُلاحَظ وجود عدة تيارات داخل الحركة أصبحت من أهم التيارات في الحركة الصهيونية : تيار عام يتزعمه ليلينبلوم يدعو إلى إنشاء المستوطنات وحسب دون الإصرار على أية ديباجات ، ثم تياران يمثلان الخطاب الإثني أولهما التيار الإثني العلماني ويمثله آحاد هعام ، وتيار إثني ديني يتزعمه موهيليفر . ويُلاحَظ أن هذين التيارين ، رغم تعارضهما الظاهري ، استمرا يعملان جنباً إلى جنب .

مؤتمر كاتوفيتش

Kattowitz Conference

مؤتمر لجمعيات أحباء صهيون عُقد عام ١٨٨٤ في روسيا بمدينة كاتوفيتش (الآن في بولندا) . وقد طُرح اقتراح بأن يُعقَد الاجتماع في الأستانة حتى يتم إقناع السلطات العثمانية بأن الصهيونية ليست تابعة للقوى الغربية ، ولكن الاقتراح هُزم إذ اتضح للجميع أنه ليس من المتوقع أن توافق السلطات العثمانية على الاقتراح . فوقع الاختيار على كاتوفيتش لأنها في الوسط بين الشرق والغرب في جزء من بولندا كانت تحكمه ألمانيا .

وكان الدافع لعقد المؤتمر هو الإحساس بضرورة وجود هيئة مركزية تعمل على تنسيق أنشطة الجمعيات المختلفة لأحباء صهيون . ويُعَدُّ بنسكر صاحب الفضل الأساسي في الدعوة والإعداد لهذا

المؤتمر ، وكان قد أشار في كتابه **الانعتاق الذاتي** إلى ضرورة عَقْده .

وقد سبقت المؤتمر عدة محاولات لتشكيل هيئة مركزية ، فحاول موهيليفر عام ١٨٨٣ اختيار لجنة مركزية ، وعقد مؤتمراً محدوداً لهذا الغرض في بيالستوك ، ولكن اللجنة المنتخبة كانت خاملة تماماً وهو ما دفع جمعية بناي بريت إلى تنظيم مؤتمر آخر في سبتمبر من العام نفسه ، ولكنه لم يحقق نجاحاً يُذكَر .

وقد تم الإعلان عن المؤتمر باعتباره مؤتمراً تأسيسياً لإنشاء جمعية خيرية ، لتشجيع المستوطنات الزراعية اليهودية ، تُسمَّى «مزكيرايت موشيه» أي «ذكرى موسى» أو «أحباء موسى» نسبة إلى موسى مونتفيوري (الذي مات بعد عدة أشهر من تاريخ عقد المؤتمر ، ولم يترك لهم أي دعم مالي أو معنوي ، ومن ثم فقد تخلوا عن الاسم) .

وقد عُقد المؤتمر في جو من الإحساس بالضعف والخوف من الفشل أو من عداء أثرياء الغرب ، ولذا خفف المؤتمرون تماماً من أية ديباجة قومية وتبنوا صيغة إنقاذية وتحدثوا عن ضرورة عودة اليهود إلى النشاط الزراعي في فلسطين ، ولم يذكروا شيئاً عن طموحات الإحياء القومي أو الاستقلال السياسي . ومع هذا ، فقد اكتشف المؤرخ جرايتز البُعْد القومي الكامن المستتر ، كما اكتشف أن المؤتمر ليس مجرد مؤتمر لحل مشاكل يهود روسيا فانسحب من المؤتمر . وقد تقرَّر أن يكون مركز الجمعية برلين (في الغرب) على أن تكون أوديسا هي المركز مؤقتاً . وتقرَّر تكوين لجنتين ، إحداهما لاستقصاء المعلومات عن فلسطين والأخرى للذهاب للباب العالي للتفاوض بشأن فَتْح أبواب فلسطين أمام المستوطنين . وتقرَّر تقديم طلب رسمي للحكومة الروسية لتأسيس جمعية خيرية ، وانتخب المؤتمر لجنة مركزية لجمعيات أحباء صهيون من تسعة عشر عضواً تحت رئاسة بنسكر . وتقرَّر عدم إنشاء أية مستوطنات أخرى والاستمرار في دعم المستوطنات الموجودة بالفعل . ولم يناقش المؤتمر المسألة الكبرى ، وهي : هل سيحل الاستيطان (على طريقتهم التسللية) المسألة اليهودية أو لا ؟ وقد حضر المؤتمر اثنان وثلاثون مندوباً (٢٢ روسياً ، ٦ ألمان ، بريطانيان ، ومندوب واحد من كل من فرنسا ورومانيا) ، وتم انتخاب موهيليفر رئيساً فخرياً له . وقد أثيرت في المؤتمر عدة قضايا من بينها وضع الدين ، وهل سيتوقف العمل في الدولة اليهودية يوم السبت ؟ وإذا ما تقرَّر ذلك ـ فماذا سيكون العمل فيما يتصل بالبريد والمواصلات التي لابد أن تعمل ٢٤ ساعة ؟

وقد قُدِّم في المؤتمر اقتراح بأن تصدُر القرارات بلغتين : نسخة عبرية إلى جانب النسخة الألمانية وتختلف عنها في اللهجة والتوجه (أي أنه تقرَّر إصدار نسخة عبرية استيطانية وأخرى ألمانية توطينية) . ولكن بنسكر عارض الفكرة . وقد سقطت فكرة توجيه الحركة من الغرب لعدم وجود حماس كاف بين أثرياء الغرب . وقد عُقدت مؤتمرات أخرى في دروسكينكي عام ١٨٦٧ وفي فلنا عام ١٨٨٩ .

ويمكن القول بأن المؤتمر قد يدل على أن صهاينة شرق أوربا كانوا قد اكتشفوا عقم الصيغة التسللية بل عقم الاتصال بأثرياء اليهود المندمجين وبدأوا ينتظرون المخلِّص من الغرب دون أن يعرفوا هويته أو خصائصه . ثم جاء هرتزل ومعه الحل : الاعتماد على قوة إمبريالية تقوم بنقل اليهود إلى فلسطين وتؤسس لهم دولة وظيفية تابعة تقوم على خدمتها وتضمن القوة الإمبريالية بقاءها واستمرارها .

البيلو

Bilu

أول حركة استيطانية صهيونية حديثة اتخذت اسمها من الأحرف الأولى للعبارة الدينية «بيت يعقوب لخي فنيلخاه» بمعنى (أيا بيت يعقوب هيا نذهب) (أشعياء ٢/ ٥) ، وهي صياغة استيطانية فضَّلها أعضاء البيلو على الصيغة التوطينية التي وردت في سفر الخروج ١٤/ ١٥ والتي تحرض أبناء جماعة يسرائيل على الخروج . وقد نشأت الحركة على أيدي بعض الطلبة اليهود من أحباء صهيون في خاركوف الروسية عام ١٨٨٢ كرد فعل على المذابح الروسية وقتها وعلى قوانين مايو . ولم تقتصر الحركة على الطلبة فقط بل انتشرت في أماكن غير خاركوف حتى بلغ إجمالي أعضائها ٥٢٥ عضواً .

وقد انطلق أعضاء البيلو من الإيمان بأن حضارة أوربا لا مكان فيها لليهود ، وأنه لابد من الإحياء القومي اليهودي عن طريق الهجرة إلى فلسطين والنهوض باليهود وتحويلهم إلى قطاع اقتصادي منتج عن طريق العودة للزراعة ، أي أن أعضاء البيلو اكتشفوا الصيغة الصهيونية الأساسية وأضفوا عليها بعض الديباجات الشعبوية (الروسية) واليهودية . وقد قررت الجمعية تجنيد ثلاثة آلاف يهودي وتهجيرهم وجَمْع المال من أثرياء اليهود في روسيا (وفشلت في تحقيق الهدفين) .

وقد تحدَّث برنامج البيلو عن تأسيس مركز سياسي للشعب اليهودي ومركز روحي لهم ، أي أن الخلافات التي وسمت الحركة الصهيونية ظهرت من البداية . كما حدث خلاف آخر إذ انقسم أعضاء البيلو إلى فريقين : واحد يرى أن الاستيطان المباشر (التسللي)

هو الحل الوحيد . أما الفريق الآخر فكان يرى ضرورة الحصول على موافقة الباب العالي (الصهيونية الدبلوماسية) .

وقد وصل إلى إستنبول وفد يمثل الحركة وقابلوا الصهيوني غير اليهودي لورانس أوليفانت وطلبوا منه التوسط لدى السلطات العثمانية لتسمح لهم بالاستيطان . وقد بذل أوليفانت جهداً بالنيابة عنهم ولكنه لم يوفَّق في مساعيه . فاتجه ١٤ عضواً من الوفد إلى فلسطين . ورغم وصولهم ووصول غيرهم ممن هاجروا مباشرةً من روسيا ، لم يزد المجموع الكلي عن الخمسين في حين أن عدد أعضاء الجمعية في روسيا كان قد وصل إلى خمسمائة . ويمكن القول بأن عام ١٨٨٢ يؤرخ لبداية الهجرة الصهيونية الاستيطانية لفلسطين .

وفي فلسطين ، عمل أعضاء البيلو بالزراعة وأسسوا بعض المستعمرات الزراعية وتعلموا في مدرسة مكفيه إسرائيل الزراعية وعاشوا عيشة جماعية وواجهوا صعوبات جمة لأنهم لم يعتادوا العمل اليدوي الشاق ، ولجهلهم بالزراعة وعدم اعتيادهم الطقس ، كما أنهم تلقوا مرتبات صغيرة وعانوا من المعاملة الفظة من قبَل مدير المدرسة . ولكنهم التقوا بتشارلز نتر مؤسس المدرسة الذي شجعهم على الاستمرار ، كما التقوا بميخائيل باينس الذي انتخبوه رئيساً للبيلو ، فنقل بعضهم إلى القدس ليشتغلوا بالحرف وكوَّنوا جمعية تُسمَّى «شيحو» (الحروف الأولى لعبارة «شيفات هي حاريش بي هامسجر» (لتعد إلى الحرفي والحداد ، ملوك ثاني ٢٤/١٦) . ولكن هذا المشروع فشل أيضاً وتبعثر أعضاء البيلو .

ثم انتقل بعض أعضاء البيلو إلى ريشون لتسيون وعملوا كعمال أجراء عند مجلس المستوطنة . ولكن العلاقات توترت بينهم . فاستمر أعضاء البيلو في الانتقال من ريشون لتسيون ومكفاه إسرائيل . وقد خيبت جماعة أحباء صهيون ظنهم أيضاً فلم تزودهم بأي عون . وقد اشترى أعضاء الجمعية بواسطة باينس أرض قرية عربية ، وهكذا أُسِّست مستوطنة جديرا .

وقد قدَّم إليهم روتشيلد العون لبعض الوقت ، ولكنهم حينما ضاقوا بهيمنته ومعاملة مدير مستوطنة ريشون لتسيون لهم قاموا بطردهم ، كما أنه سحب تمويله لمستوطنة جديرا لأن أكثر سكانها كانوا من جماعة البيلو .

عاد بعض أعضاء البيلو إلى روسيا واتجه البعض الآخر إلى الولايات المتحدة ، كما بقي البعض في فلسطين .

والجدير بالذكر أن اليهود الأرثوذكس في القدس لم يتحمسوا لأعضاء البيلو بل رأوا فيهم عامل إقلاق وامتصاص لجزء من أموال الحالوقاه (الصدقة) المُرسَلة من الخارج ، ولذلك فقد ناصبوهم العداء . كما وقفت السلطات العثمانية ضد هؤلاء المستوطنين وحرَّمت هجرة اليهود الروس وشراء الأراضي في فلسطين ، لكنهم تحايلوا على ذلك برشوة الموظفين الأتراك وتسجيل الأراضي بأسماء يهود من أوربا الشرقية ومن خلال بعض رعايا الدول الأجنبية ممن يتمتعون بالحماية التي تكفلها لهم الامتيازات الأجنبية .

على أن الظاهرة الجديرة بالملاحَظة هي الصراع الذي ما لبث أن نشب بين البيلو وبين عناصر الهجرة اليهودية الثانية الذين سُموا الرواد ، وهم الذين اتهموا عناصر الموجة الاستيطانية الأولى بالاندماج مع العرب والإقامة في المدن مع استخدام العامل العربي في الزراعة بل التحدث باللغة العربية وارتداء الأزياء العربية . وقد ترتَّب على هذا الصراع إثارة واحدة من أهم قضايا الحركة الصهيونية في هذه الفترة وهي المعروفة بقضية العمل العبري .

كما أن أعضاء البيلو ، برؤيتهم الرومانسية ومعاداتهم للغرب (وهي أفكار كانت منتشرة بين أعضاء الحركة الشعبوية في روسيا) ، كانوا يتصورون أنهم سيتبنون الحضارة الشرقية (العربية في هذه الحالة) ويصبحون جزءاً منها ، وقد كتب بعضهم أعمالاً أدبية تمجد العربي وتحيطه بهالة رومانسية باعتباره «المتوحش النبيل» . ويظهر أعضاء البيلو في صورهم مرتدين اللباس العربي .

والواقع أن جماعة البيلو جماعة صهيونية جنينية اكتشفت معظم مكونات المشروع الصهيوني ومشاكله ولكنها لم تكتشف حتمية الاعتماد على الإمبريالية لوضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ . ومع هذا ، يمكن القول بأن أعضاء الجمعية بدأوا يتحسسون طريقهم نحوها في اتجاههم نحو الباب العالي وروتشيلد . وقد جاء هرتزل واكتشف الآلية الكبرى لتنفيذ المشروع الصهيوني (أي الإمبريالية) .

قديمــا
Kadima

«قديما» كلمة عبرية تعني «إلى الأمام» أو «إلى الشرق» . وجمعية قديما تنتمي إلى جمعيات أحباء صهيون ، أسسها في فيينا عام ١٨٨٢ عدد صغير من الطلاب اليهود (فالغالبية لم تكن ذات توجُّه صهيوني) معظمهم من يهود اليديشية من شرق أوربا . وكان من بين المؤسسين ناثان بيرنباوم وبيريتس سمولنسكين الذي اقترح اسم المنظمة والذي كانت تُعَد كتاباته الملهم الأساسي لهم . وأسَّس بيرنباوم مجلة تُسمَّى **الانعتاق الذاتي** للدفاع عن مصالح العرْق اليهودي ، كانت أهم أهدافها المعلنة : محاربة اندماج اليهود وتقوية

الروح القومية اليهودية وتدعيم الاستيطان اليهودي في فلسطين (وهناك جمعية أخرى تحمل نفس الاسم أسسها المهاجرون الروس في إنجلترا عام ١٨٨٧) .

وتنتمي جمعية قديما إلى فترة ما قبل هرتزل وبلفور أو إلى فترة التكوين قبل أن تدرك الصهيونية حتمية الاستعانة بالإمبريالية لوضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ . ولذا ، فإننا نجد تفكيرها يتسم بالسذاجة الشديدة وعدم إدراك البُعْد السياسي الاستعماري لعملية الاستيطان وعدم فَهْم طبيعة الموازنات الدولية .

وحينما ظهر هرتزل غيَّر كل ذلك ، وبيَّن للجميع أن الحل الصهيوني لابد أن يكون حلاً استعمارياً تساعده قوة إمبريالية عظمى ، وقضى على وهم الجهود الذاتية . ولذا ، حين أخبره عضوان من قديما أنهما يفكران في تكوين فرقتين من ألفي متطوع تذهبان إلى يافا لاحتلالها مثلما فعل غاريبالدي (لاجتذاب انتباه أوربا) ، نصحهما بالإقلاع عن هذه الحيلة الصبيانية لأن السكان هناك لن يرحبوا بهم وسيُقضَى على العملية كلها في ٢٤ ساعة . ولعل إدراك هرتزل كل أبعاد العملية الاستيطانية وحتمية عداء السكان الأصليين لها هو الذي جعله قادراً على إزاحة بيرنباوم تماماً من الطريق ، رغم أن الأخير كان أكثر ثقافةً وعلماً وعمقاً .

ليو بنسكر (١٨٢١-١٨٩١)

Leo Pinsker

طبيب روسي صهيوني استيطاني تسللي وزعيم جماعة أحباء صهيون . وُلد في روسيا ، وكان أبوه مدرساً وعالماً ، كما كان يعمل بالتجارة وقد انتقل إلى مدينة أوديسا بعد فشله في أعماله التجارية في جاليشيا ، وكانت أوديسا مدينة روسية جديدة تتسم بارتفاع معدلات العلمنة والاندماج بين أعضاء الجماعة اليهودية ، فزود ابنه بثقافة روسية علمانية وعرَّفه بأفكار حركة الاستنارة اليهودية ، كما تعلَّم بنسكر اللغة الألمانية (وهي لغة الحديث في المنزل) وتعلَّم قليلاً من العبرية . ولم يتعلم بنسكر في مدرسة يهودية (كما هو الحال مع معظم المفكرين والزعماء الصهاينة) ، وإنما أنهى دراسته الثانوية في مدرسة روسية ثم درس الحقوق في أوديسا ودخل جامعة موسكو لينال منها شهادة طبية . وقد كتب عدة مقالات في **راسفيت** وهي أول مجلة أسبوعية يهودية تصدرُ بالروسية (بدأ نشرها عام ١٨٦٠) ، وكتب أيضاً في مجلات يهودية أخرى ذات طابع اندماجي ، كما قام بجهود كبيرة كعضو في جمعية تنمية الثقافة بين يهود روسيا . وخدم بنسكر في الجيش الروسي أثناء حرب القرم (١٨٥٦) ، وساهم في حركة الترويس ، وقد كان يرى أن اليهود إن تعلموا اللغة القومية فإن ذلك سيساهم في دَمْجهم .

ولكن أحداث عام ١٨٧١ في أوديسا زعزعت إيمانه . ومع تعثُّر التحديث وصدور قوانين مايو ١٨٨٢ ، تغيَّر موقفه بشكل جوهري وعدل عن كثير من آرائه ، وبدأ الشك يساوره في مقدرة الاستنارة وحدها على حل مشاكل اليهود . وفي عام ١٨٨١ ، وفي أحد اجتماعات جماعة تنمية الثقافة ، طالب بنسكر بالعدول عن هذه السياسة واقترح إعادة توطين اليهود في وطن واحد . وبدأ بنسكر في التجوال في عواصم أوربا للدعوة لفكرته بشأن الدولة الصهيونية ، فقابل الحاخام أدولف جلينك ، حاخام فيينا الأكبر وصديق أبيه ، فأشار هذا عليه بإخضاع نفسه للعناية الطبية . وقابل زعماء الأليانس وبعض القادة اليهود ولكنهم عارضوه . ومع هذا ، فقد ألف بالألمانية كراسة **الانعتاق الذاتي : تحذير من يهودي روسي لإخوته (١٨٨٢)** الذي نُشر دون ذكر اسم المؤلف لأنه كان مُوجَّهاً أساساً إلى يهود الغرب . والكراس يأخذ شكل المانفستو ، ولذلك فإنه خال من أيِّ عمق .

ويتميَّز كراس بنسكر بأنه لا ينظر إلى اليهود من الداخل باعتبارهم جماعة مستقلة (كما يفعل بعض مثقفي يهود اليديشية) وإنما ينظر إليهم من الخارج كما ينظر إليهم الصهاينة غير اليهود . وقد تعلَّم بنسكر تعليماً غربياً وكان ذا هوية غربية ، واليهود واليهودية بالنسبة إليه موضوعا للدراسة أساسا ، وهوية فرضت عليه فرضا من الخارج . وعلى أية حال ، فبالإمكان تصنيفه على أنه صهيوني يهودي غير يهودي .

يضع بنسكر الموضوع اليهودي في سياقه الغربي وحسب وينطلق ، مثله مثل معظم الصهاينة ، من رفض اليهودية التقليدية والتفكير الديني اليهودي . فهو يعلن ضرورة التخلص من موقف الانتظار وضرورة الثورة ضد الشعور الديني القديم الذي يدفع اليهود إلى تقبُّل وَضْعهم ووجودهم في المنفى باعتباره عقاباً أنزله الإله بهم "فشعب الله المختار إن هو إلا شعب مختار للكراهية العالمية" . ولذا ، يجب على اليهود التخلي عن الفكرة المغلوطة القائلة بأن اليهود بتشتتهم هذا يحققون رسالة إلهية ، فتلك الرسالة لا يؤمن بها أحد .

ويُقدِّم بنسكر طرحاً مغايراً تماماً للرؤية الدينية ، فينظر لليهود في سياق وضعهم الهامشي في المجتمع الغربي ، وفي إطار التحولات التي طرأت على هذا المجتمع (التصنيع والتحديث والتنوير والإعتاق والعلمنة) والتي أدَّت إلى ظهور المسألة اليهودية في إطار فكرة الشعب العضوي المنبوذ من المجتمع الغربي . فهو يقول إن

اليهود شعب عضوي لا يمكن أن يذوب في الأمم الأخرى ، ولذا فهو يعيش في بلاد لا تعترف به ابناً لها ، فالألماني الفخور بصفاته التيوتونية والسلافي الفخور بصفاته السلافية وغيرهم لا يعترفون بأن اليهودي يتساوى معهم بالمولد ، فهذه القوميات العضوية تجعل الانتماء القومي مسألة عضوية موروثة . واليهود ، رغم أنهم شعب عضوي ، إلا أنهم يفتقرون إلى كثير من الصفات القومية العضوية (لغة وعادات مشتركة وأرض مشتركة) كما أنهم ليس لهم وطن أصلي ولا حكومة تمثلهم ، ولهذا تحوَّلوا من أمة يهودية إلى يهود ، وأصبحوا بذلك شعباً ميتاً : فقدوا استقلالهم وتحولوا إلى حالة التعفن التي لا تستطيع مسايرة العضو الحي المتكامل . وهم "شبح" يأتي من عالم الأموات (ولنلاحظ أن كل الصور المجازية الإدراكية هنا صور مجازية عضوية) . ثم تترى الصور المجازية التي تدل على تقبُّل بنسكر مقولات معاداة اليهود : "إننا قطيع منتشر في أرجاء المعمورة دونما راع يحمينا ويجمعنا معاً . أما في أحسن الظروف ، فقد نصل إلى مرتبة الماعز التي تبيت (حسب التقليد الروسي) في إسطبلات الخيل" ، وإذا بقيت الظروف على ما هي عليه "فستظل طفيليين نعتمد في معيشتنا على بقية السكان" . وهذا هو أس البلاء ، فما دام اليهود عنصراً قومياً غريباً ، ضيوفاً على أمم مضيفة ، فإنهم سيظلون محط كراهية كل الشعوب لأن الناس تخاف من الأشباح .

ومن الواضح أن وَصْف بنسكر متأثر بتجربة يهود شرق أوربا ، وخصوصاً في روسيا ، فقد كانوا يعيشون في مناطق الاستيطان على هامش المجتمع الروسي : "منبوذون . . . لا يُطبَّق عليهم القانون العام باعتبارهم أغراباً بمعنى الكلمة . فثمة قوانين خاصة باليهود" . وقد يكون في هذا الوصف شيء من الموضوعية التقريرية المباشرة ، ولكنه يعزل أعضاء الجماعات اليهودية عن الظواهر المماثلة في المجتمع الروسي وفي المجتمعات الأخرى ، ويجعل الاضطهاد حكراً على اليهود في كل مكان . وما دام اليهودي لا وطن له في أي مكان وليس له حقوق المواطنة ، فإنه منبوذ في كل مكان وزمان . فالخوف من الأشباح ، أي معاداة اليهود ، أمر أزلي ينتقل من جيل إلى آخر ويقوى عبر العصور . كما أن بنسكر نفسه يقول : "تظهر هذه الفكرة في كل زمان ومكان" .

وما الحل الآن ؟ يرفض بنسكر مرة أخرى الحلول التقليدية مثل الهجرة الفردية : "كافحنا عبر القرون بجهد كي نحيا لكن كأفراد وليس كأمة" . كما يرفض بنسكر فكرة الاستيطان الديني التقليدي الذي كان يُموَّل بأموال الصدقة (الحالوقاه) ، فمشروعه الصهيوني المقترح لا يتم "بجمع التبرعات من الحجاج والهاربين الذين سينسون وطنهم ومن ثم سيضيعون في أعماق غربة أرض مجهولة" .

الحل هو التخلص من اليهود من خلال تصفيتهم ، ومن اليهودية من خلال التخلي عنها تماماً . "نحن نرضى التخلي عن (رسالتنا الإلهية) إذا أمكن محو اللقب الممقوت «يهودي» من ذاكرة الإنسان" . وقد ذكر بنسكر هذه الكلمات في لحظة غضب ، ولكنه يهدأ ويبدأ في اقتراح الطرق المنهجية الكفيلة بتحقيق هذا الهدف "لابد أن تتعامل الأمم مع أمة يهودية" ولابد من "خَلْق مأوى دائم" . و"الطريق الوحيد الصحيح لإصلاح الوضع هو خلق قومية يهودية مؤلفة من شعب يعيش على أرض يملكها" . أما بالنسبة إلى آليات هذا الحل ، فهو أولاً لن يأتي من الإله وإنما سيتم بالانعتاق الذاتي (عنوان الكراسة) . ويُلاحظ بنسكر أن الجو العام في أوربا قد خلق مناخاً مواتياً لحركة البعث القومي . فالفكرة القومية في كل مكان ، كما أن اليهود يشعرون بالبؤس في كل مكان أيضاً . ولكن الحل الذي يطرحه بنسكر لنقل اليهود خارج أوربا يثير عدة مشاكل من بينها أن الشعوب التي نالت استقلالها مؤخراً هي أمم عاشت على أرضها وكانت تتكلم لغة واحدة ، فكان لها بذلك أرض . أما اليهود فلا أرض لهم ، ولابد من خلق هذه الأرض .

وثمة عدة مؤشرات كامنة في كراسة بنسكر تحدد هوية هذه الأرض وهوية من يهاجر إليها وآليات النقل :

١ ـ من الواضح أنه ، حينما يفكر في الحركة القومية ، يفكر أيضاً في تقسيم الدولة العثمانية ، فهو يفكر في الصرب وأهل رومانيا وحصولهم على الاستقلال . ومن ثم ، فالأرض هي في غالب الأمر أرض فلسطين .

٢ ـ وهو يضيف قائلاً إن تحرير اليهود واجب كواجب تحرير الزنوج . ومع هذا ، فإنه يضيف أن اليهود ينتمون إلى عرْق متقدم وليسوا زنوجاً ، أي أنهم عنصر استيطاني أبيض .

٣ ـ ومعظم البلاد المتحضرة سوف لا تقبل هجرة اليهود الجماعية إليها ، أي أن الدول الغربية ستوقف سيل يهود اليديشية إليها .

٤ ـ ولكن إذا لم يكن اليهود زنوجاً ، ومع هذا ترفض الدول المتحضرة (البيضاء) هجرتهم إليها لأن وجود اليهود بينهم يسبب لهم المشاكل (المسألة اليهودية) ، وإذا كانت الدولة العثمانية آخذة في التآكل (المسألة الشرقية) ، وكان المشروع الصهيوني لن ينشأ بشكل عشوائي وإنما سينشأ بمعاونة الحكومات ، فإن الحل سيكون كامناً في ربط المسألة اليهودية بالمسألة الشرقية فتُحَل المسألتان الواحدة من خلال الأخرى .

٥ ـ ويرى بنسكر ضرورة أن نلفت "أنظار الشعوب التي تمقتنا"، أي يجب تجنيد أعداء اليهود من الشعوب الغربية، كما يجب أيضاً الضغط على السياسة الدولية في الوقت الحاضر فستظهر نتيجته المثمرة في المستقبل. أي يجب الاستعانة بالدول الغربية، فالسياسة الدولية هي السياسة الإمبريالية الغربية.

٦ ـ وحينما يقول "امنحونا متعة الاستقلال واسمحوا لنا أن نقرر مستقبلنا، وأعطونا قطعة من الأرض، امنحونا تلك الأشياء التي منحتموها للصرب وأهل رومانيا، أعطونا مجال وجود القومية الحرة" فنحن نعرف أنه يتوجه للقوى العظمى الاستعمارية (وإن لم يدرك هو ذلك تماماً)، فهي وحدها القادرة على توطين الفائض البشري خارج أوربا. وهو يطلب رقعة في الولايات المتحدة أو ولاية كتلك التي يقوم عليها باشاوات آسيا التركية، يعترف بها الباب العالي والعالم الغربي كبلد محايد. ثم يضيف: وستكون مهمة الإدارة الصهيونية المقترحة إقناع الباب العالي والحكومات الأوربية بهذا المخطط.

ثم يطرح بنسكر عدة قضايا متصلة بالتنظيم والإجراءات الأخرى، مثل تأسيس مجلس وطني أو مؤسسة وطنية تقوم بوضع السياسة العامة ثم تؤسس شركة لشراء قطعة الأرض، والإشراف على أمور الاستيطان لشراء الأراضي وغير ذلك، وهي أمور كانت تُعتبَر جديدة كل الجدة على اليهود، لأنه حديث عن آليات العودة بشكل حديث لم يألفوه من قبل.

ولكن الأهم من ذلك هو حديثه عن الأرض فهو يقول يجب ألا يكون الحديث عن الأرض المقدَّسة وإنما عن مجرد أرض نملكها، أرض ذات مركز جيد ومساحة كافية لإسكان عدة ملايين تحددها بعثة خبراء تعطي رأيها بعد تحريات ودراسات عميقة. إن علمانية المصطلح وحداثته كان أمراً جديداً كل الجدة. ومع هذا، يتدارك بنسكر ويقول قد تعود الأرض المقدَّسة لنا، فإذا حدث هذا الشيء فهو أفضل بمعنى أنه لا يرفض تماماً الصهيونية الإثنية ويترك الباب مفتوحاً أمامها.

وقد توقَّع بنسكر معارضة معظم اليهود، ولذلك حاول أن يكون برنامجه أكثر وضوحاً وتفصيلاً إذ يفرِّق بين الصهيونيتين، فقسَّم اليهود إلى غربيين مندمجين (سعداء)، وشرقيين (بؤساء). أما بالنسبة للفريق الأول فهم اليهود الغربيون الذين يكوِّنون نسبة قليلة من السكان، ولذلك فحالهم في البلاد التي يعيشون فيها أحسن، ومن الأفضل لهم ألا يهاجروا. أما البلاد التي بلغ اليهود فيها درجة التشبع مثل روسيا (وبولندا التي كانت تتبعها)، ورومانيا (أي شرق أوربا)، فمن الأفضل لهم الهجرة (وهكذا يبدأ تقسيم العمل إلى صهيونية استيطانية وأخرى توطينية). فالحديث ليس عن كل اليهود وإنما عن اليهود غير المندمجين في المجتمع والفائضين عنه، الذين يجب إرسالهم إلى مكان آخر (الوطن القومي) لأنهم كبروليتاريا تعيش عالة على أعضاء المجتمعات المضيفة. بل يضيف بنسكر بُعداً آخر يبلغ الغاية في الأهمية إذ يقرر أنه حتى أغنياء شرق أوربا بإمكانهم البقاء حيث هم، ومعنى هذا أنه يعرِّف الفائض إثنياً وطبقياً وليس قومياً.

ويمكن القول بأن كثيراً من عناصر الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة قد ظهرت في كراس بنسكر. ومن هنا أهميته في تاريخ الفكر الصهيوني، فقد أسقط المقولات الدينية التقليدية ونزع القداسة عن اليهود واقترح ربط المسألة الشرقية بالمسألة اليهودية باعتبارهم شعباً عضوياً منبوذاً وعنصراً استيطانياً أبيض، أي أنه يقترح أن يتم الحل داخل التشكيل الاستعماري الغربي. بل يترك الباب مفتوحاً أمام الأشكال الصهيونية الأخرى (الصهيونية الإثنية الدينية وغيرها)، ويضع يده على ضرورة وجود صهيونيتين؛ واحدة استيطانية والأخرى توطينية.

ومع هذا، ظلت صيغة بنسكر مترددة متعثرة، ربما بسبب تكوينه الثقافي الضيق، فالأفق الثقافي في روسيا القيصرية كان ضيقاً إلى أقصى حد، وكان أكثر ضيقاً داخل المدن اليهودية ومواطن الاستيطان. ولذا، فإنه لم يكن لديه إدراك كامل لحتمية الاعتماد على الإمبريالية الغربية لوضع أي مشروع استيطاني موضع التنفيذ. فالمشروع الاستعماري الروسي لم يكن على استعداد لتوظيف اليهود لصالحه، بل كان يود التخلص منهم في أسرع وقت. كما أنه لم يكن مشروعاً عالمياً كما كان الحال في إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة، إذ أن المطامع الروسية القيصرية كانت تتجه نحو دول البلطيق والمناطق التي تفصل بين روسيا واليابان والصين والدولة العثمانية. أما فلسطين فقد كان الروس ينظرون إليها باعتبارها منطقة نفوذ أرثوذكسية، وهو ما يتطلب استبعاد اليهود. ولذا، فرغم أن كل أفكار هرتزل الأساسية موجودة في **الانعتاق الذاتي** إلا أن هرتزل قد حقق ما لم يحققه بنسكر لأنه كان مدركاً لحتمية الاعتماد على الإمبريالية الغربية باعتبارها الآلية الوحيدة لتحقيق الحلم الصهيوني.

وقد أصبح بنسكر زعيم جمعية أحباء صهيون ودُعي إلى مؤتمر كاتوفيتش ١٨٨٤، وانتُخب رئيساً للجمعية. ولكن حينما نشبت بعض الخلافات داخل الجمعية، قدَّم استقالته عام ١٨٨٧ ثم سحبها خشية أن تسيطر العناصر اليهودية الأرثوذكسية، تحت قيادة

موهيليفر ، على الجمعية . وقد استقال ثانيةً عام ١٨٨٩ إثر اختيار قيادة جديدة للحركة ، ولكنه عاد مرة أخرى بعد سماح السلطات الروسية بإنشاء لجنة أوديسا .

وخلال رئاسته ، تمكنت الجمعية من جَمْع بعض الأموال لإقامة مستعمرات في فلسطين ، ومهدت السبيل أمام الاستيطان الصهيوني ، كما تأسست في روسيا «جمعية تقديم المساعدات للمستوطنين الزارعين وأصحاب الحرف اليدوية اليهود في سوريا وفلسطين» التي كانت تُعرف بلجنة أوديسا .

وقد زار بنسكر باريس وأقنع روتشيلد بمساعدة الاستيطان اليهودي ، ونظراً لأن الأموال التي جمعتها جماعة أحباء صهيون كانت قليلة جداً (فهي لم تكن حركة جماهيرية) ، فإن معظم المستوطنات كانت في نهاية الأمر قد أصبحت تابعة لروتشيلد . كما أن بنسكر تابع مشاريع البارون موريس دي هيرش لتوطين اليهود الروس في الأرجنتين باهتمام شديد .

ويُعَدُّ بنسكر مفكراً صهيونياً أكثر من كونه منفذاً للمشروع ، وصهيونيته هي من النوع الذي يُطلق عليه «الصهيونية العملية» أي «التسللية» ، كما أن أسلوبه وأفكاره يشبهان أفكار وأسلوب هرتزل إلى حدٍّ كبير ، لكن هرتزل قد دوَّن في مذكراته أنه لم يطَّلع على كتابات بنسكر . ولعل الفارق الأساسي بينهما هو مدى إدراك حتمية الاعتماد على الإمبريالية ، إذ كان بنسكر يتحرك داخل وهم الانعتاق الذاتي التسللي .

حاييم لورج (١٨٢١-١٨٧٨)

Chaim Lorje

أحد رواد فكرة الاستيطان اليهودي في فلسطين ، ومؤسِّس أول جمعية تقام لهذا الغرض . وُلد في فرانكفورت وكان طوال حياته يبدي تحمساً شديداً لأفكار القبَّالاه ، بل زعم أنه ينحدر من سلالة المفكر القبَّالي إسحق لوريا . وقد عمل بالتدريس حيث كان يدير مدرسة داخلية للأطفال . وفي عام ١٨٦٤ ، رحل إلى برلين واستقر فيها بقية حياته .

وقد تركت أحداث ثورة ١٨٤٨ في ألمانيا أثراً كبيراً في فكر لورج الذي رأى فيها برهاناً على اقتراب مقدم الماشيَّح . ومنذ ذلك الحين ، تزايد اهتمامه بما يُسمَّى «البعث القومي اليهودي» حيث اعتبر أن استيطان اليهود في فلسطين يُعَد تحقيقاً للنبوءة التوراتية بالعودة إلى أرض الأجداد وتطهُّراً من رجس المنفى . وكانت نقطة البداية لتحقيق هذا الهدف ـ في نظره ـ هي إقامة منظمة تتولى تنسيق الجهود وتوفير الأموال اللازمة لدعم مشاريع الاستيطان . ولذلك ، بادر عام ١٨٦٠ بتأسيس «جمعية استعمار فلسطين» (ولذا فهي تُعَدُّ أولَّ جمعية استيطانية يهودية صهيونية) ، ولم يدخر وسعاً في الدعوة لأهداف الجمعية واجتذاب شخصيات بارزة إلى عضويتها وتنظيم حملات للتبرعات . وقد اتسعت شهرة الجمعية في الأوساط اليهودية وانتشرت فروعها في عدة مدن ألمانية وانضم إليها مفكرون بارزون من أمثال يهودا القلعي وموسى هس وديفيد جوردون فضلاً عن تسفي كاليشر ، الذي تولت الجمعية نشر كتابه **البحث عن صهيون** (١٨٦٢) . كما نجح لورج في التصدي لحجج خصومه ، وعلى الأخص في أوساط الذين استوطنوا في فلسطين لدوافع دينية .

إلا أن لورج فشل في تحقيق الهدف الأساسي لجمعيته ، فلم يفلح في تهجير أي يهودي إلى فلسطين ولا في إقامة أية مستوطنات هناك ، وسرعان ما تحولت الجمعية نفسها إلى مشروع خاسر حيث أصبحت نفقاتها والتزاماتها تفوق مواردها كثيراً ، كما تنازعتها الخلافات والانشقاقات . وبحلول عام ١٨٦٤ ، كانت الجمعية قد غدت مجرد ذكرى عابرة . ورغم أن هذا الفشل يمكن أن يُعزى جزئياً إلى شخصية لورج التي تتسم بالرعونة والتسلط وافتقاد الحنكة التنظيمية ، إلا أن السبب الأساسي يكمن في أنه لم يدرك ما أدركه هرتزل فيما بعد من ضرورة اللجوء إلى قوة استعمارية عظمى تكون بمنزلة آلية دولية تقوم بنقل اليهود وتوظيفهم في إطار الدولة الوظيفية .

هرمان شابيرا (١٨٤٠-١٨٩٨)

Herman Schapira

أحد القادة الأوائل لحركة أحباء صهيون والصهيونية الدبلوماسية الاستعمارية . ومؤسس فكرة الصندوق القومي اليهودي . وُلد في ليتوانيا في أسرة فقيرة وعمل ليموِّل دراسته ، واشتغل كتاجر سلاح أثناء الحرب التركية الروسية عام ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ فكسب مبالغ طائلة ، ومن ثم عاد للدراسة في ألمانيا ، وعُيِّن محاضراً في الجامعة عام ١٨٨٣ في قسم الرياضة البحتة . انضم لحركة أحباء صهيون بعد مذابح روسيا في أوائل الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، وكتب مقالات تدعو إلى إقامة مستوطنات زراعية في أرض إسرائيل وإلى إقامة جامعة لتدريس العلوم . وكان شابيرا يعتقد أن اللغة المستخدمة في هذا المشروع ستكون الألمانية مع دعوته لتدريس العبرية بقدر الإمكان حتى يحين الوقت الذي تصبح فيه العبرية لغة منطوقة كذلك .

أصيب شابيرا بيأس وإحباط لفشله في إثارة اهتمام اليهود بمشاريعه . وانخرط بعد ذلك في فلسفة دينية مشيحانية وحاول التوفيق بين الآراء القبَّالية والعلم الحديث . بعد ظهور هرتزل ، عاد إليه الأمل وقدَّم أفكاره حول الصندوق القومي لليهود للمؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) وكذلك حول إنشاء الجامعة العبرية .

إليم دافيجدور (١٨٤١-١٨٩٥)

Elim D'avigdor

أحد رواد حركة أحباء صهيون . وُلد في فرنسا ودرس الهندسة المدنية ، وتولَّى الإشراف على مد الخطوط الحديدية في سوريا ورومانيا ، كما تولَّى إقامة المنشآت المائية في فيينا . كتب عدداً من قصص الصيد باسم مستعار قبل أن يكرس جهوده لدعم الحركة الصهيونية .

قام بدور بارز في مد نشاط أحباء صهيون في أوربا الغربية ، ورأس عام ١٨٩٤ فرعها في باريس الذي أطلق عليه "اللجنة المركزية" . وعارض مشاريع هجرة اليهود إلى أمريكا لأنهم كلما اتجهوا صوب الغرب ازدادت المسافة التي تفصلهم عن "صهيون" ، أي عما يتصور أنه الهوية اليهودية ، ودعا في المقابل إلى اتباع خطة تنظيم وعمل مدروسة بعناية للاستيطان في فلسطين . وسعى ـ كخطوة أولى لتحقيق هذا الهدف ـ إلى شراء مساحات من الأراضي في منطقة حوران بُغية جعلها قاعدة للاستيطان الصهيوني ، وتقديم التسهيلات اللازمة ، فضلاً عن الإعفاء من دفع الضرائب خلال السنوات الأولى والتي أُطلق عليها اسم "السنوات الانتقالية" .

بيرتس سمولنسكين (١٨٤٢-١٨٨٥)

Peretz Smolenskin

كاتب روسي وداعية صهيوني . من مؤسسي منظمة قديما . وُلد في روسيا وتعلَّم في المدرسة التلمودية ، كما تعلَّم اللغة الروسية واستقر في أوديسا مركز الثقافة الروسية اليهودية عام ١٨٦٢ ، ومكث فيها مدة خمسة أعوام سافر بعدها إلى فيينا واستقر نهائياً هناك . أصدر مجلة **هاشاحار** (الفجر) عام ١٨٦٨ ، وهي أهم مجلة تصدُر باللغة العبرية عبَّرت عن أفكار حركة التنوير التي كان سمولنسكين من دعاتها في مستهل حياته الفكرية ، ومع هذا ظهرت المجلة في المرحلة الانتقالية التي كانت أفكار حركة التنوير قد بدأت فيها في التآكل والتحول إلى الفكر الصهيوني . وقد انتقد في مقالاته الشخصية اليهودية المتخلفة الخاضعة للتقاليد حسب قوله . ولكنه ، مع هذا ، هاجم موسى مندلسون باعتبار أن دعوته للتنوير كانت أيضاً دعوة للاندماج والانصهار . وقد طرح سمولنسكين في مقالاته **حان وقت الزرع** (١٨٧٥ ـ ١٨٧٧) تصوُّره للقومية اليهودية الروحية التي لا ترتبط بالأرض وإنما ترتبط بالتوراة (ومن الواضح تأثير أفكار جرايتز وكروكمال فيه) . وانطلاقاً من هذا التصور بإمكان اليهود أن يصبحوا مواطنين مخلصين لأوطانهم محتفظين بتضامنهم الروحي فيما بينهم ، وهم أمة عالمية لأن تضامنهم روحي وليس مادياً .

وقد كتب قصة **انتقام الميثاق** (١٨٨١) التي وصف فيها التغيير الذي طرأ على الشباب اليهودي نتيجة الاضطهاد الروسي . وتعبِّر كتاباته عن رغبته المترددة في الانتقال إلى أفكار العصر الحديث ، وهي رغبة يشوبها خوف عميق من الانصهار في عالم الأغيار ، وهو انصهار لا يؤدي بالضرورة للسعادة ، ولهذا تنتهي قصته **المتجول في سبيل الحياة** (١٨٧٦) التي تمثل سيرة ذاتية بالعودة إلى الشعب . وتصف قصته **مكافأة الأمين** (١٨٧٥) موقف اليهود المأساوي لوقوعهم ضحية الصراع بين روسيا وبولندا عام ١٨٦٣ . وتنتقد روايته **قبر الحمار** (١٨٧٣) تنظيمات الجماعات اليهودية . أما روايته الأخيرة فهي **الميراث** (١٨٧٦ ـ ١٨٨٠) . وقد صدرت ترجمته لمسرحية جوته **فاوست** عام ١٨٦٧ .

وقد تعمَّقت رؤية سمولنسكين الصهيونية بعد تعثُّر التحديث في روسيا ، فاتصل بالصهيوني غير اليهودي لورانس أوليفانت طالباً منه العون للبدء في نشاط استيطاني يهودي في فلسطين . ويبدو أن سمولنسكين كان يعرف جيداً أدبيات وجهود الصهاينة غير اليهود ، ففي مقاله "فلنبحث عن طريقنا" (١٨٨١) يقول : "إن الخبراء من غير اليهود ، وبعض الباحثين البريطانيين المرموقين ، قالوا إن الأرض [أي فلسطين] جيدة جداً وإذا استُثمرت بجد ومهارة فباستطاعتها أن تستوعب أربعة عشر مليون يهودي" . ثم تبنَّى سمولنسكين الصيغة الصهيونية الأساسية ، ونادى بالعودة الفعلية إلى صهيون رافضاً فكرة الهجرة إلى الولايات المتحدة ، ثم انضم لجمعية أحباء صهيون . والواقع فإن جميع ملامح هذه الصيغة ، بعد تهويدها ، توجد في كتابات سمولنسكين ، من رفض للدين اليهودي "وللهوية اليهودية المتخلفة" وإدراك أن معاداة اليهود جزء من بنية المجتمع الغربي ، وأن التنوير لم يقلل حدتها "إذ أن اليهودي المتعلم منافس خطير للمسيحيين" . وهو يؤمن أيضاً بأن اليهود شعب عضوي منبوذ على يد القوميات الغربية العضوية ، ولذلك فإن الهجرة الفردية مستحيلة لأن الدول المتحضرة (الغربية) سترفض هجرة اليهود إليها . ويصبح الحل بذلك هو تحويل الهجرة إلى استعمار ، أي أن يحل الشعب

المنبوذ من قبل أوربا مشكلته عن طريق أوربا ، ويتم ذلك عن طريق تطبيع اليهود وتطويعهم وتحويلهم إلى مادة استيطانية ثم نَقْلهم إلى فلسطين . وقد توصَّل سمولنسكين إلى إدراك وجود صهيونيتين : واحدة استيطانية بالنسبة ليهود الغرب المندمجين ، والأخرى توطينية بالنسبة ليهود اليديشية في الشرق .

ومن أهم إنجازات سمولنسكين علمنته مفهوم إرتس يسرائيل الديني بحيث تحولّت إلى مجرد أرض . فهو يتحدث عن ضرورة العودة للأرض لأسباب صوفية محضة مثل الارتباط الأزلي بين اليهود والأرض المقدَّسة ، ثم يضيف مزايا عملية أخرى مثل أن الأرض ليست بعيدة عن مساكن اليهود ، وأن رمالها ذات نوعية عالية الأمر الذي يساعد على ازدهار الاستيطان اليهودي وذلك بإقامة مصانع زجاج ، ويضيف كذلك أن التجارة والزراعة والصناعة ستزدهر فيها (وهذه بدايات الديباجة الاشتراكية) . كما أن موقع الأرض سيجعلها تتحول إلى مركز تجاري يربط أوربا بآسيا وأفريقيا كما كانت منذ زمن بعيد (وهذه أيضاً بدايات عرض الدولة اليهودية كدولة وظيفية تقام للدفاع عن مصالح الاستعمار الغربي) . وهذا الخطاب المراوغ ، متعدد الدلالات ، هو إحدى سمات الخطاب الصهيوني بحيث تصبح كلمة «الأرض» ذات دلالة دينية للمتدين وذات قيمة استثمارية لمن ينشدون الربح . ولكن حين وصل إلى مستوى الإجراءات والتنفيذ ، لم يكن سمولنسكين على المستوى نفسه من الحداثة إذ توجَّه للأثرياء الروس ولم يتوجَّه للعالم الغربي الاستعماري رغم معرفته بالصهاينة غير اليهود . ولعل تاريخ الصهيونية بعد ذلك هو الانتقال من توجهات أحباء صهيون التسللية اعتماداً على دعم أثرياء الغرب إلى الاعتماد على الاستعمار الغربي لوضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ .

موشيه ليلينبلوم (١٨٤٣-١٩١٠)

Moshe Lilienblum

صحفي روسي يهودي يكتب بالعبرية ، وأحد قيادات جماعة أحباء صهيون . وُلد في ليتوانيا ونشأ نشأة يهودية تقليدية تماماً ، حيث درس في طفولته العلوم الدينية وتمكَّن منها إلى أن أصبح من علماء التلمود . وقد خطب له والده وهو بعد في سن الثالثة عشرة ، وتزوَّج بعدها بثلاث سنوات . وقد أسس ليلينبلوم مدرستين دينيتين وعمره ٢٢ عاماً ، ولكنه ما لبث أن خضع لتأثير أفكار حركة الاستنارة وحركة التنوير اليهودية والفكر الوضعي الروسي (وكان فكراً نفعياً مادياً متطرفاً) ، فقام بنشر عدة مقالات أهمها مقاله "طرق التلمود" (١٨٦٨) طالب فيه بإصلاح المجتمع والدين اليهودي الذي أصابه الأسى والركود حتى يتمكن اليهود من التكيف مع العصر ، وبيَّن أن التلمود قد يكون فيه بعض الأفكار التقدمية ، ولكن الشولحان عاروخ كتاب جامد ضيق الأفق . وهاجم الحاخامات ، ونادى بأن التعليم هو السبيل الأوحد لإصلاح المجتمع . وانتقل ليلينبلوم إلى أوديسا عام ١٨٦٩ تاركاً زوجته الأرثوذكسية وأطفاله . وقد واجه هناك مشكلة علمنة اليهود واليهودية إذ وجد نفسه معلم العبرية والتلمود ، لا جمهور لكتاباته ، وبدون عمل لمدة طويلة ، فقيراً على حافة الجوع . وقد بدأت الفلسفة النفعية تسيطر عليه إذ اكتشف أن ما يشغل الجماهير اليهودية ليس القضايا الفلسفية التي تشغل باله وإنما مشكلة البقاء وحسب . وعلى أية حال ، فإن الفلسفات المادية تشغل نفسها دائماً بمشكلة البقاء وتُحل إرادة البقاء محل معنى الوجود في الفلسفات التقليدية .

نشر ليلينبلوم في أوديسا مجموعة من المقالات الساخرة (١٨٧٠) طالب فيها بتطبيع اليهود من خلال العمل الزراعي وتنظيم العمل في الصناعة تنظيماً حديثاً . وبدأ عام ١٨٧١ في تحرير مجلة يديشية كتب فيها مجموعة من المقالات عن التعليم اليهودي في المدرسة الابتدائية الخيرية (حيدر) وفي المدرسة التلمودية العليا (يشيفاه) . كما أثار فيما بعد قضايا تحرير المرأة وسوء إدارة الجماعات اليهودية والحرية الدينية . وفي عرضه لأحد كتب أبراهام مابو ، طالب ليلينبلوم بتبني رؤية مادية واقعية للحياة . وقد ظلت رؤيته طوال حياته رؤية مادية مباشرة ، تنكر أهمية المعنى والخيال وتؤكد المنفعة المادية وحسب . وكتب ليلينبلوم سيرة حياته بين عامي ١٨٧٣ و١٨٧٦ ، وتبنَّى الاشتراكية كمذهب سياسي في الفترة ١٨٧٤ - ١٨٨١ .

ولكن ، مع تعثُّر التحديث عام ١٨٨١ ، تحوَّل ليلينبلوم إلى الصهيونية وكتب في ذلك العام مقالاً بعنوان "طريق العودة" يلوم فيها نفسه لانقطاعه عن المشاركة مع شعبه . وأصبح أحد قادة أحباء صهيون ، فأسَّس لجنة أوديسا عام ١٨٨٣ . كما أصبح من أكبر مؤيدي هرتزل وإن كان قد اختلف معه بسبب عدم إدراك ليلينبلوم الطبيعة الاستعمارية الغربية للمشروع الصهيوني ، ولذا فقد قلَّل من شأن أسلوب هرتزل الدبلوماسي الاستعماري وأيَّد الاستيطان التسللي . ومع هذا ، حاول التوفيق بين توجُّهه والتوجه الهرتزلي الدبلوماسي . وقد أصبح فكره منذ ذلك التاريخ صهيونياً فهو ينطلق من رفض اليهودية رفضاً تاماً . ويرى أن قضية اليهود هي قضية الشعب العضوي المنبوذ في المجتمع الغربي "فهو ليس تيوتونياً عضواً

في الأمة الألمانية ، ولا مجرياً عضواً في الأمة المجرية ، ولا سلافياً عضواً في الأمة السلافية ، ولذا فهو غريب شاء أم أبى" . وقد أدرك ليلينبلوم أن الحضارة الغربية قد قبلت القومية (العضوية) إطاراً ، كما أدرك أن هذا التحول يعد تقدماً مع أن هذا الإطار هو نفسه الذي ينتج العداء لليهود (فالشعب العضوي يعيد إنتاج الآخرين على هيئة الشعب العضوي المنبوذ) . ومن ثم ، فإن اليهود شعب لابد أن يختفي إما عن طريق الاندماج الكامل (وهو أمر عسير بل يكاد يكون مستحيلاً) أو عن طريق ترحيلهم إلى أرض خاصة بهم حيث يصبحون أمة عضوية مستقلة ودولة مستقلة ، وهو ما يعني أنه عثر على الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ، وأدرك أنها صيغة سترضي أعضاء الجماعات اليهودية . وكان ليلينبلوم يرى أن فلسطين مكان مناسب لذلك ، فعارض الهجرة إلى الولايات المتحدة كما عارض الصيغة الدبنوفية الخاصة بقومية الدياسبورا (القومية اليديشية) وطالب بدلاً من ذلك بأن "يقوم زعماء شعبنا في أوربا بالتوسط لدى زعماء تلك الدول لمساعدتنا . . . بينما يقوم الثمانية ملايين يهودي وكبار أغنيائهم بجمع عشرة مليون روبل لبداية نشاطنا . . . لشراء مساحات كبيرة من الأرض ، من حكومة تركيا ، لتوطين اليهود عليها . . . ومحاولة الحصول على ترخيص ، لتأسيس جمعية لاستيطان أرض إسرائيل وسوريا" . وطالب ليلينبلوم بتصفية الوجود اليهودي في العالم . واصطدم ليلينبلوم كذلك بآحاد هعام واتهمه بأنه لا يزال يهوِّم في عالم الميتافيزيقا والمطلقات ، فاليهود يودون البقاء من أجل البقاء ويؤمنون بالمنفعة ويجب أن يصبحوا نافعين ليس من أجل أي معنى محدد . وعلى هذا النحو ، قام ليلينبلوم بنزع القداسة تماماً عن اليهود ، وجَعَلهم مادة استيطانية نافعة .

ومع هذا ، كان ليلينبلوم متنبهاً لبعض مشاكل المشروع الصهيوني واحتمال انقسامه إلى إثني ديني وإثني علماني ، ولذا طالب في مقاله "دعونا من الخلط بين القضايا" أن يتنازل كل فريق بعض الشيء حتى لا تنقسم الأمة إلى قسمين . وإطاره المرجعي هنا هو الشعب العضوي (الفولك) المكتفي بذاته الذي له قوانينه الخاصة التي تتجاوز الزمان والمادة وتتجاوز الخلافات الوقتية . وعلى هذا ، فهو يرى أن جميع اليهود مقدَّسون ، المؤمنون منهم وغير المؤمنين ، وإثنيتهم مصدر قداستهم وقال أيضاً : "فليتصرف كل فرد في أموره الشخصية حسبما يحلو له . أما وحدتنا الوطنية فيجب ألا تضعف . . . إن هويتنا القومية هي أعز ما نملك . . . وسنحميها بذاك الإخلاص الذي دافع به أجدادنا عن إيماننا" ، أي أن الهوية الإثنية أصبحت في منزلة الدين وأصبحت مركز الحلول والكمون والمطلقية .

كما أدرك ليلينبلوم انقسام الصهيونية إلى صهيونية استيطانية وأخرى توطينية ، فالأغنياء المندمجون لن يرحلوا ، ولذا فقد حدد لهم دورهم التوطيني "فليشتر كل منهم قطعة أرض في أرض إسرائيل" تُعطَى لأحد المستوطنين ولا داعي لأن يهاجروا هم ، أما الفقراء "فهؤلاء هم [المادة الاستيطانية الحقة] الذين سيهاجرون حيث سيحققون حراكاً اجتماعياً" .

ثم يتوجَّه ليلينبلوم للجوانب التنظيمية ولكن ملاحظاته في هذا الشأن ساذجة ومتناثرة (تنظيم يانصيب يهودي ، وفرض ضرائب على حفلات الزفاف اليهودية . . . إلخ) . ولكنه ، مع هذا ، وضع إطاراً لاستثمار أموال أثرياء الغرب المندمجين وتوظيفها في خدمة المستوطنين .

كتب ليلينبلوم عدة كتب نُشرت بعد موته في أربعة أجزاء ، كما طُبعت خطاباته . وقد جمع ليلينبلوم مقالاته عن الإحياء القومي بعنوان **الولادة الجديدة لليهود في أرض آبائهم** وكانت بمنزلة برنامج للإحياء القومي والأولى من نوعها باللغة الروسية (وقد سبقتها كتابات بنسكر بالألمانية) .

ألبرت جولدسميد (١٨٤٦-١٩٠٤)

Albert Goldsmid

صهيوني يهودي من أصل مسيحي ومن رواد الحركة الصهيونية . وُلد في الهند لعائلة إنجليزية يهودية تحولت إلى المسيحية وكانت تعتبر نفسها من نسل المكابيين القدامى . التحق بالكلية العسكرية الملكية ، ونُقل مع فرقته إلى الهند ، واشترك في الحرب في جنوب أفريقيا . وقد اكتشف جولدسميد بعد وفاة أبيه أن "الدم اليهودي يجري في عروقه" ، فاعتنق اليهودية بصورة علنية وهو في الرابعة والعشرين من عمره . انضم إلى جمعية أحباء صهيون في بريطانيا ، وزار فلسطين عام ١٨٨٣ برفقة لورانس أوليفانت لبحث وسائل تعزيز الاستيطان اليهودي هناك . وأخذ يلح بعد عودته إلى بريطانيا على تشكيل «لجنة فلسطين» لتنشيط الهجرة اليهودية عن طريق المساعدات المنظمة . وقد انصرف بعد ذلك إلى العمل على توحيد جمعيات أحباء صهيون في بريطانيا ووضعها تحت سلطة واحدة . وتولَّى رئاستها عام ١٨٩٣ . فأخذ في إضفاء الطابع العسكري عليها؛ إذ سُمِّيت اللجنة التنفيذية «مقر القيادة» واستبدل بمنصب «الرئيس» رتبة «الزعيم» واستبدل بلفظ «جمعية» لفظ «خيمة» ، وأصبحت حركة أحباء صهيون بالتالي تتألف من «خيام» تحت أمرة قادة عسكريين يدينون له بالولاء . وقد وضع جولدسميد

برنامج الحركة الذي ركز على استعمار فلسطين والأراضي المجاورة لها عن طريق التوسع في المستعمرات أو تدعيم المستعمرات القديمة ، وأكد أن حل المسألة اليهودية لن يتم إلا بقيام دولة يهودية تضمنها الدول الكبرى في إرتس يسرائيل . كما قام جولد سميد بوضع خريطة عبرانية لفلسطين .

وقد تعاون جولد سميد مع البارون دي هيرش في مشاريعه لتوطين اليهود في الأرجنتين ، وأشرف على إدارة المستعمرات اليهودية هناك ، إلا أنه كان من معارضي الاستيطان اليهودي في أي مكان غير فلسطين ، وكان يرى أن مستوطنات الأرجنتين ليست سوى "دار حضانة لفلسطين" . وقد التقى عام ١٨٩٥ مع هرتزل الذي قال له إن "فلسطين وحدها هي التي تستحق الاهتمام" . ولكنه لم يتعاون معه بشكل فعال إلا بعد استمالة عائلة روتشيلد في لندن لصالح الدعوة الصهيونية ، فاشترك في البعثة التي قامت بدراسة أوضاع العريش وكان سكرتيرها ، وحضر المؤتمر الصهيوني السادس (١٩٠٣) ، كما شارك مع هرتزل وجرينبرج في المفاوضات مع كرومر (المندوب السامي البريطاني في القاهرة) عامي ١٩٠٢ و١٩٠٣ بشأن الاستيطان اليهودي في العريش . ويُقال إن شخصية دانيال ديروندا في رواية جورج إليوت التي تحمل هذا العنوان هي صياغة أدبية لشخصية جولدسميد .

يحيل تشيلنوف (١٨٦٣-١٩١٨)

Jehiel Tschelenov

قائد صهيوني روسي وُلد في أوكرانيا لأسرة ثرية حسيدية الأصل . تخرَّج في كلية الطب بموسكو عام ١٨٨٨ وصار طبيباً شهيراً . تغيَّر اهتمامه السياسي من الإيمان بالأفكار الشعبوية إلى الصهيونية بعد مذابح ١٨٨١ . اشترك في جمعية أحباء صهيون وشارك في منظمة هرتزل بعد تردُّد .

رفض مشروع أوغندا بشدة وربط بين الهدف السياسي الصهيوني والاستيطان في أرض إسرائيل . وتزايد دوره مع تزايد دور الروس في الحركة التوطينية الصهيونية وانتُخب في المؤتمر العاشر (١٩١١) عضواً في اللجنة التنفيذية . وقد اشترك تشيلنوف في المفاوضات التي أدَّت إلى وعد بلفور ومات في لندن .

شماريا ليفين (١٨٦٧-١٩٣٥)

Shmarya Levin

قائد صهيوني ومؤلف بالعبرية واليديشية . شارك في حركة أحباء صهيون منذ صباه ، وكان أحد أتباع آحاد هعام . كما اشترك في جمعية أبناء موسى ، وانتُخب للبرلمان الروسي ودافع عن حقوق اليهود .

وبعد أن حلت حكومة القيصر الدوما ، وقَّع على بيان يدين الحكم القيصري المطلق ، فأُجبر على مغادرة روسيا . وبعد أن استقر في برلين ، أسَّس معهد التخنيون في حيفا . وكان من الصهاينة التسلليين . وفي عام ١٩٢٠ ، عارض مشروع شرق أفريقيا بشدة . وفي وقت لاحق ، ترأس قسم الدعاية في الصندوق القومي . وتوفي ليفين في حيفا عام ١٩٣٥ .



٨
تيودور هرتزل

هرتزل : حياته ـ أفكار هرتزل ـ موقف هرتزل من التيارات الصهيونية قبله ـ هرتزل والصهيونيتان ـ هرتزل والحركة الصهيونية ـ جذور العنف الصهيوني في أفكار هرتزل ـ صهيون بدون صهيونية

هرتزل : حياته (١٨٦٠-١٩٠٤)

Theodor Herzl : Biography

هو مؤسِّس الحركة الصهيونية . وضع نهاية للصهيونية التسللية وجهودها الطفولية ، ونجح في تطوير الخطاب الصهيوني المراوغ ، كما نجح في إبرام العقد الصهيوني الصامت بين العالم الغربي والمنظمة الصهيونية باعتبارها ممثلاً غير منتخب ليهود العالم ، وهو ما جعل توقيع وعد بلفور ؛ أهم حدث في تاريخ الصهيونية ، ممكناً . وقد خرجت كل الاتجاهات الصهيونية من تحت عباءته أو من ثنايا خطابه المراوغ .

والواقع أن شخصية هرتزل تجعله في وضع مثالي يؤهله لأن يكون جسراً موصلاً بين العالم الغربي والجماعات اليهودية فيه ، وبين يهود الغرب المندمجين ويهود اليديشية . فقد كان شخصية هامشية مثل يهود المارانو يقف على الحدود ، فهو يهودي غربي مندمج لم يبق من يهوديته سوى قشرة ، أي أنه يهودي غير يهودي . ومع هذا ، فهو يصنف على أنه يهودي ، ولذا فهو يملك أن يتحدث للغرب باعتباره غربياً ـ وأن يتحدث ليهود اليديشية باعتباره يهودياً . فسطحية انتمائه هو ما جعل منه جسراً مثالياً ومعبراً مريحاً .

وقد بيَّن المفكر الصهيوني جيكوب كلاتزكين المولود في روسيا أن هرتزل هو ثمرة الوعي الإنساني العالمي (أي الغربي) لا ثمرة وعي ثقافي يهودي منحط (من شرق أوربا) ، وكلاتزكين مُحقٌّ في ذلك إلى حدٍّ كبير (مع عدم قبولنا لتقييماته وتحيزاته) . ولكنه ، على أية حال ، أهمل أهمية القشرة اليهودية السطحية في تكوين هرتزل ، فهي التي أكسبته الشرعية أمام جماهير شرق أوربا اليهودية وأظهرته بمظهر اليهودي الغربي العائد إليهم ، ولهذا فقد اعتبروا عودته إحدى علامات آخر الأيام .

ولم يكن هرتزل سوى واحد من جيل طويل من اليهود المغتربين الذين كانوا يتنصرون لإعلان ولائهم الغربي (مثل دزرائيلي ووالد ماركس وهايني) . ولكنهم ، مع ازدياد العلمانية في الحضارة الغربية ، أصبح بإمكانهم الانتماء إلى الغرب بلا تنصُّر ، فالغرب نفسه كان قد بدأ يفقد مسيحيته .

ولم تكن هامشية هرتزل وحدها هي التي ترشحه لأن يكون الجسر الموصل ، وإنما نرى أن سطحيته الفكرية ساهمت إلى حدٍّ كبير في ذلك . ولأنه كان يظل دائماً على سطح الأشياء ، لم يدرك عمق التناقضات بين الصهيونية الغربية وصهيونية شرق أوربا ، وهو ما جعله قادراً على أن يصل للصيغة المراوغة التي سترضي الجميع دون أن يضطر أحد للتنازل عن شيء . وأعتقد أن عبقريته التي تتحدث عنها التواريخ الصهيونية تكمن هنا .

وُلد تيودور هرتزل عام ١٨٦٠ لأب تاجر ثري . وكان يحمل ثلاثة أسماء ، أهمها اسمه الألماني «تيودور» ، وثانيها اسمه العبري «بنيامين زئيف» ، وثالثها اسمه المجري «تيفا دارا» . والتحق تيودور الصغير بمدرسة يهودية وعمره ست سنوات لمدة أربعة أعوام انقطعت بعدها علاقته بالتعليم اليهودي . ولذا ، لم يُقدَّر له أن يَدرُس العبرية ، بل لم يكن يعرف الأبجدية نفسها . والتحق بعد ذلك بمدرسة ثانوية فنية ، ومنها التحق بالكلية الإنجيلية ١٨٧٦ وعمره ١٥ سنة (أي أنه التحق بمدرسة مسيحية بروتستانتية ، ولعله تَلَقَّى تعليماً دينياً مسيحياً هناك) ، وأنهى دراسته عام ١٨٧٨ . وكانت أسرة هرتزل مجرية النسب . إلا أنها ، ضمن مجموعة من اليهود ، قاومت عملية المجيرة (أي صبغها بالصبغة المجرية) واحتفظت بولائها لألمانيا (مثل كثير من يهود المجر : ماكس نوردو وجورج لوكاش وغيرهما) . ولذا ، نزحت الأسرة إلى فيينا عام ١٨٧٨ . وكان عدد اليهود في فيينا آنذاك (١٨٨١) لا يزيد على عشرة آلاف يهودي ، ولكن تَعثُّر التحديث في شرق أوربا أدَّى إلى دَفْع جحافل اليهود إلى وسط وغرب أوربا بحيث بلغ عددهم عام ١٨٩٩ ما يزيد على ١٠٠ ألف ، أي أنهم زادوا عشرة أضعاف خلال أقل من عشرة أعوام .

التحق هرتزل بجامعة فيينا وحصل على دكتوراه في القانون الروماني عام ١٨٨٤ وعمل بالمحاماة لمدة عام ، ولكنه فضل أن

يكرس حياته للأدب والتأليف . ومع هذا ، ظلت عقليته أساساً عقلية قانونية تعاقدية ، فنشر ابتداءً من عام ١٨٨٥ مجموعة من المقالات ، وكتب بعض المسرحيات التي لم تلاق نجاحاً كبيراً من أهمها مسرحية **الجيتو الجديد** (١٨٩٤) التي تقدم صورة متعاطفة مع بطلها ، إلا أنها تقدم اليهود من خلال الأنماط المعروفة في تراث معاداة اليهود في الغرب . وتنتهي المسرحية بأن يطلب البطل الخروج من الجيتو العقلي المضروب حوله ، ولكنه في الوقت نفسه يؤكد استحالة هذه العملية .

ولعل بطل المسرحية يشبه من بعض الوجوه زعماء الحركة الصهيونية في تلك المرحلة ، هرتزل وبنسكر ونوردو وجابوتنسكي وغيرهم ممن حاولوا الاندماج في الحضارة الغربية وحاولوا تَرْك تراثهم تماماً ونسيان هويتهم اليهودية (الإثنية والدينية) . ولكنهم تصوروا أنهم لم يوفقوا في مساعيهم ولم يتمكنوا من العودة بسبب بعض مظاهر معاداة اليهود أو بسبب تصنيف المجتمع لهم على أنهم يهود . فهم يهود رغم أنفهم ، يهود وغير يهود . وقد وَصَفَهم نوردو هم وأمثالهم وصفاً دقيقاً في المؤتمر الصهيوني الأول (١٩٨٧) : "يسرع اليهود المندمجون إلى قَطْع خطوط رجعتهم وذلك بتأثير نشوة وضعهم الجديد . لقد أصبح عندهم الآن بيوت جديدة فلم يعودوا بحاجة إلى عزلتهم . أصبح لديهم الآن معارف جدد ، فهم غير مجبرين على العيش مع إخوانهم في الدين ، وتحوّل الشعور بالاختلاف إلى تعمُّد التقليد الأعمى" . لقد فقد هؤلاء المندمجون هويتهم الإثنية وهويتهم الدينية "لقد فقدوا ذلك الإيمان الذي قد يساعدهم على تحمُّل العذاب واعتباره مجرد قصاص من الإله ، كما فَقَدوا الأمل في مجيء الماشيَّح الذي سيوجههم إلى المجد في يوم عجيب" . وكلما حاولوا التهرب من اليهودية حتى عن طريق التنصُّر ، تدفع بهم معاداة اليهود بعيداً عن هدفهم . ولذا ، فإنهم يصبحون "المارانو الجدد" أي مسيحيون من الخارج يهود من الداخل . ولكن منطق نوردو نفسه يجعلنا نعتقد أن يهوديتهم الداخلية ضعيفة هامشية ، تماماً مثل يهودية المارانو .

وفي عام ١٨٨٩ ، تزوج هرتزل من جولي نتشاور وكانت من أسرة ثرية كان يأمل هرتزل أن يحل من خلالها بعض مشاكله المالية . ولكن الزواج لم يكن موفقاً بسبب ارتباط هرتزل الشديد بأمه التي غذت أحلامه ، فقد قامت نشأته على تصوُّر من ينتدب نفسه لتحقيق عظائم الأمور ويحلم بأنه صاحب رسالة في الحياة . ويبدو أن مما عقَّد الأمور ، عدم حماس الزوجة للتطلعات الصهيونية لدى زوجها . ولعل مشاكل هرتزل الجنسية لعبت دوراً في ذلك ، إذ يبدو أنه أصيب بمرض سري (شأنه شأن نيتشه معاصره) وتنقَّل في عدة مصحات للاستشفاء من هذا المرض .

وفي عام ١٨٩١ ، التحق هرتزل بصحيفة **نويا فرايا براسا** أوسع الصحف النمساوية انتشاراً ، وأُرسل إلى باريس للعمل مراسلاً للصحيفة هناك (حتى عام ١٨٩٥) حينما عُيِّن رئيساً لتحرير القسم الأدبي في الصحيفة وبقي في عمله حتى وفاته .

وهنا قد يكون من المفيد التوقف قليلاً للتحدث عن هوية هرتزل التي كانت تقف بين عدة انتماءات دينية إثنية متنوعة (ألمانية ـ مجرية ـ يهودية ـ بل مسيحية) دون أن ينتمي لأيٍّ منها أو يُستوعَب فيها . فإذا نظرنا لانتمائه اليهودي ، فإننا نجد أنه يرفض الدين اليهودي والتقاليد الدينية اليهودية . والواقع أن زوجته كان مشكوكاً في يهوديتها ، وقد رفض حاخام فيينا إتمام مراسم الزواج . كما أن هرتزل لم يختن أولاده ولم يكن الطعام الذي يُقدَّم في بيته «كوشير» ، أي مباحاً شرعاً . أما تَصوُّره للإله ، فلم يكن يستند إلى العقيدة اليهودية بقدر استناده إلى فلسفة إسبينوزا بنزعته الحلولية التي توحِّد الإله والطبيعة ، فهي حلولية وحدة الوجود أو حلولية بدون إله (وقد طُرِد إسبينوزا نفسه من حظيرة اليهودية ولم يَتبنَّ ديناً آخر ، ولهذا فإنه يُعَدُّ أول يهودي إثني في العصر الحديث) . وقد تأثر هرتزل بتعاليم شبتاي تسفي الماشيِّح الدجال وظل مشغولاً به وبأحداث حياته .

أما من الناحية الثقافية ، فإن هرتزل كان ابن عصره ، يجيد الألمانية والمجرية والإنجليزية والفرنسية . ويبين أحد مؤرخي الحركة الصهيونية أن اتخاذ هرتزل دور الداندي (أي الوجيه الذي يبالغ في الأناقة) وتَظاهُره بأنه من الأرستقراطيين هو القناع الذي كان يختبئ وراءه ليهرب من هويته اليهودية . وكان هرتزل لا يعرف العبرية ، وقد تساءل علناً وبسخرية (في المؤتمر الصهيوني الثالث [١٨٩٩]) عما يُسمَّى «الثقافة اليهودية» . وحينما قرَّر مجاملة حاخامات مدينة بازل ، اضطر إلى تأدية الصلاة في كنيس المدينة قبيل افتتاح المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، كما اضطر إلى تعلُّم بضع كلمات عبرية لتأدية الصلاة . وكان المجهود الذي بذله في تعلُّمها أكبر من المجهود الذي بذله في إدارة جلسات المؤتمر بأسرها (حسب قوله) . ومما له دلالة عميقة أن هرتزل كان يرى أنه دزرائيلي يهودي ، ودزرائيلي هو اليهودي المُتنصِّر الذي دخل عالم الغرب من خلال باب غربي وبشروط غربية بعد أن تخلَّى عن يهوديته أو الجزء الأكبر منها . أما هرتزل فقد فعل مثله تماماً باستثناء التخلي عن القشرة اليهودية المتبقية .

ولكن ، ورغم ابتعاده عن الثقافة اليهودية ، نجده متأثراً بعقيدة

الماشيَّح المخلِّص ، ونجد أن ذكرها يتواتر في مراسلاته ومذكراته بأسلوب ينم عن الإيمان بها وإن كان الأمر لا يخلو من السخرية منها في آن واحد . وكان اهتمامه ينصب على الماشيَّح الدجال شبتاي تسفي . وقد استخدم هرتزل كلمة «الخروج» التوراتية ليشير إلى مشروعه الاستيطاني ، الأمر الذي يدل على أن الأسطورة التوراتية كانت تشكل جزءاً من إطاره الإدراكي . وتتداخل الأساطير الحديثة مع الأساطير اليهودية ، ونجده يعتبر أن فرديناند ديليسبس مَثَله الأعلى في الحياة ، ونجده يرى أن الكهرباء هي الماشيَّح المنتظر (وهذا امتداد لرؤية إسبينوزا للإله) . لكل ذلك ، لا يمكن القول بأنه كان يهودياً حقاً (كما هو الحال مع حاخامات الحسيديين مثلاً) ولا حتى بالمعنى الإثني (كما هو الحال مع وايزمان وآحاد هعام) ، ولا هو مندمج تماماً (كما هو الحال مع إدوين مونتاجو وأثرياء يهود إنجلترا) ، فهو مُعلّق في الهواء في منطقة حدودية تلتقي فيها الحلولية الكمونية اليهودية بالحلولية الكمونية العلمانية .

هذه الهوية الهامشية التي تقف على حافة الهويات الأخرى كانت أمراً مقبولاً حسب تعريف الهوية في الإمبراطورية النمساوية/المجرية ، فهو تعريف لم يكن محدداً أو ضيقاً وإنما كان (كما هو الحال دائماً مع الإمبراطوريات) تعريفاً رحباً سمحاً يسمح بتعايش التناقضات . ولهذا ، فقد كان من الممكن أن يسمح بوجود مثل هذه الشخصية التي لا تنتمي لليهودية من الناحية الدينية أو الإثنية . ومع هذا ، كان بإمكانه التحدث عن نفسه كيهودي دون أن يثير الضحك ، كما كان بإمكانه أن يتحدث عن القومية اليهودية والانفصال اليهودي (وقد كان هو شخصياً يتمتع بالاندماج) .

ولعل هامشية الانتماء الحضاري هذا يفسر جانباً آخر من شخصية هرتزل وهو ذكاؤه الحاد وسطحيته الشديدة . وقد وَصَفه مؤرخ الصهيونية ولتر لاكير بأن تفكيره يتصف بالتبسيط الشديد . ووَصَفه مؤرخ آخر هو حاييم فيتال ، في أكثر من مكان ، بأنه ذكي دون أن يكون عميقاً ، وأنه لم يكن يدرك كثيراً من الأبعاد السياسية لعصره . أما شلومو أفنيري ، فيرى أن كتاباته قد تكون متألقة لامعة ولكنها ينقصها العمق الروحي ، كما تحدَّث عن "الجانب الخفيف" في طبيعته ، أي سطحيته .

ويطرح السؤال نفسه : كيف تتمكن شخصية هامشية سطحية (رغم كل ذكائها) ، شخصية لم يكن عندها مصادر مالية ، تقف ضدها كل المؤسسات الدينية والمالية اليهودية ولم يكن لديها تنظيم ، أن تفرض نفسها بهذا الشكل ؟

يفسر أحد مؤرخي الحركة الصهيونية (شلومو أفنيري) هذه الأعجوبة بسببين أولهما : كفاح هرتزل البطولي الذي يكاد يكون جنونياً ، وثانيهما : اكتشافه الرأي العام العالمي وألاعيب الإعلام . بل يضيف قائلاً : "إن المشروع الصهيوني قد نجح إلى حدٍّ كبير ، حتى الوقت الحاضر ، في الوقوف ضد قوة السياسة والتاريخ" ، بسبب الرأي العام . ولعل هذا قد يفسر بعض أسرار نجاح هرتزل ، ولكنه لا يصلح بأية حال لتفسير نجاحه في تَخطِّي الحاخامات والأثرياء وجمعيات أحباء صهيون وأن يفرض نفسه فرضاً على الجميع ويتحدث باسم يهود أوربا الذين لم يعطوه الصلاحية لأن يفعل ذلك .

ولكننا نعتقد أن نجاحه يكمن في نقط قصوره وهامشيته وذكائه السطحي ، إذ تضافرت هذه العوامل وجعلته قادراً على أن يصل إلى الصيغة التي تفتح الطريق المسدود الذي كانت الصهيونية (بشقيها اليهودي وغير اليهودي) قد دخلته . فهامشيته جعلته قادراً على أن ينظر مثلاً لليهود من الخارج على طريقة العالم الغربي «كمادة بشرية» (المصطلح الذي استخدمه في **دولة اليهود**) يجب التخلص منها أو توظيفها . ولذا ، فإن اهتمامه باليهود كان اهتماماً غربياً . ولعل هذا يفسر أن الحلول الأولى التي طرحها للمشكلة اليهودية تتسم بكثير من السوقية الفظة ، كأن يقترح تعميد اليهود في كاتدرائية القديس بول في روما .

وكما بيَّنا من قبل ، لم يكن هرتزل يعرف شيئاً عن عالم اليهود ولكنه كان يعرف بعض الشيء عن شخصيات الاستعمار الغربي مثل بنجامين دزرائيلي وسيسل روديس وهنري ستانلي ، وعن موازين القوى وعن رجل أوربا المريض وعن التشكيل الاستعماري الغربي .

ورغم كل هذا ورغم إعجابه الشديد بمؤسسات الحضارة الغربية ، ابتداءً من العقلية الألمانية وانتهاءً بالمشروع الاستعماري والتكنولوجيا الغربية ، إلا أنه اكتشف أن هذه الحضارة قد أوصدت أبوابها دونه أو على الأقل دون الاندماج التام الذي كان يطمح إليه ، فتعرَّض لتمييز عنصري ولسخرية لأنه يهودي ، فتذكرة الدخول للحضارة الغربية والاندماج الكامل فيها كان لا يزال اعتناق المسيحية (كما اكتشف هايني) . ولعل انتماءه إلى جماعة شبابية للمبارزة ، وهي جماعة ذات مُثُل قومية ألمانية عضوية ، دليل على حرصه على الانتماء الألماني . ولكن الجمعية اتخذت قراراً عام ١٨٨١ بعدم ضم أعضاء يهود جدد فقرر الاستقالة احتجاجاً على القرار (ولكن مما له دلالته أن صاحب الاقتراح كان هو نفسه شخصية هامشية ، فهو نمساوي من أصل يهودي) .

إن هرتزل بهذا المعنى مثال جيد على «اليهودي غير اليهودي» ،

ولذا كان بإمكانه أن يلعب دور الجسر الموصل ، فينظر إليه الغرب على أنه رسولهم إلى اليهود وينظر إليه اليهود على أنه رسولهم للغرب . وهو شخصية هامشية حدودية يستطيع الغرب أن يراه على أنه اليهودي الذي يحمل مُثلاً غربية لليهود فيُفهِّمهم ويساعدهم ، وبإمكان اليهود أن يروه الغربي الذي يفهم المسألة اليهودية من الداخل ويعاني منها معهم ويمكن أن يشرح حالتهم للعالم الغربي .

ومما له دلالته أن هرتزل لم يكن يُفرِّق بين صهيونية غير اليهود وصهيونية اليهود ، فهو في مذكراته يَقرن موسى هس بدزرائيلي بجورج إليوت كممثلين للفكرة الصهيونية . وإذا قرنَّا كل ذلك بجهله بفكر "رجل يُدعى بنسكر" كان يعيش في أوديسا بل بكل ما هو يهودي ، لأصبح من الممكن أن نتحدث عنه باعتباره نتاج صهيونية غير اليهود وأن أصوله اليهودية مسألة عرضية .

وقد ظهر هرتزل في مرحلة كانت صهيونية غير اليهود وصهيونية شرق أوربا فيها قد دخلت طريقاً مسدوداً ، فالفريق الأول كان ينظر لليهود من الخارج وكان الثاني لا ينظر إلى الخارج أبداً ، أما هو فيهودي غربي ، أو إن أردنا الدقة لا هو من شرقها ولا هو من غربها وإنما من وسطها ، يقف بين شرقها المتعثر وغربها المندمج . ورغم أنه يهودي كُتب عليه المصير اليهودي ، إلا أنه كان كصحفي نمساوي يتحرك بكفاءة في الأوساط الغربية كما كان يتحدث لغتها . وقد قال هو نفسه إنه "تعلَّم في باريس كيف يدار العالم" . وكان قد ذهب إلى باريس وعمره ٣١ عاماً وتركها وعمره ٣٥ عاماً .

وقد كانت جماهير شرق أوربا تنظر إليه لا باعتباره من وسط أوربا وإنما باعتباره غربياً ، واعتُبرت عودته لها إحدى علامات آخر الأيام . وقد عبَّر وايزمان عن هذا الإحساس خير تعبير ، بأسلوبه المتورم دائماً حين قال : "أتى هرتزل من عالم غريب لم نعرفه فركعنا أمام النسر الذي جاء من تلك البلاد [ولنلاحظ الصورة الوثنية هنا ، فالنسر علامة القوة ورمز عالم الأغيار بكل تأكيد] . ولو أن هرتزل قد تتلمذ في مدرسة دينية (حيدر) لما تبعه أحد من اليهود [يعني يهود شرق أوربا] لقد سحر اليهود لأنه ظهر في قلب الثقافة الأوربية" .

ولكن هرتزل عاد إلى الشرق بشروطه الغربية ، عاد ليُخرج يهود اليديشية من نطاق يهوديتهم التقليدية ، أو كما قال نوردو "ليُخرج كل جهودهم الصهيونية من إطار الكنيس والاجتهادات الدينية" ، لقد عاد كما عاد هس من قبله وكما يفعل الصهاينة من بعده .

ولا ندري بالضبط سبب العودة التي تبدو فجائية ، ولكننا نعتقد كما ذكرنا أن الهامشية كانت بكل تأكيد أحد الأسباب التي أهلته للعودة ، كما أن تفاقُم المسألة اليهودية مع عقم الحلول الصهيونية المطروحة كانت سبباً آخر . ولعل رفض إحدى مسرحياته عام ١٨٩٥ له علاقة ما بالموضوع ، وهو أمر يَصعُب البت فيه ، ولكننا نعرف أن ملامح الحل الصهيوني كانت قد بدأت تختمر حينذاك في عقله وأنه قرَّر في شتاء ذلك العام أن يبدأ جهوده السياسية أو الدبلوماسية ، وهي جهود لم تكن بعيدة على كل حال عن جهوده الأدبية ، إذ تبدأ اليوميات بالحديث عن الدولة اليهودية كما لو كانت رواية .

وما بين ربيع عام ١٨٩٥ وشتائه ، اختمرت فكرة الدولة اليهودية في عقل هرتزل ، ثم قرَّر أن يسجل أفكاره في كتيب ففعل ذلك في خمسة أيام ونشر موجزاً في **جويش كرونيكل** ثم نشرها في ١٤ فبراير ١٨٩٦ بعنوان **دولة اليهود : محاولة لحل عصري للمسألة اليهودية** . وقد ألَّف هرتزل الكتيب بالألمانية ونشر منه بين عامي ١٨٩٦ و١٩٠٤ خمس طبعات بالألمانية وثلاثاً بالروسية وطبعتين بكلٍّ من العبرية واليديشية والفرنسية والرومانية والبلغارية . وقد أصر هرتزل على أن يضع لقبه العلمي (دكتوراه في القانون) بجوار اسمه (ليؤكد حداثة حله) . والكراسة مكونة من ٣٠ ألف كلمة (وتقع في ٦٥ صفحة في طبعتها الأصلية) وأسلوبها واضح بسيط لا يتسم بأي عمق أو تفلسُف . وقد وصف هرتزل كتابه بأنه ليس حلاً وحسب ، وإنما هو "الحل الوحيد الممكن" . وطالب بألا يُنظَر إليه على أنه يوتوبيا ، فهو مشروع محدد قوته الدافعة هي مأساة اليهود الذين يُعامَلون كغرباء ، أي أنه من البداية حدَّد مجال اهتمامه فهو ليس إيجابياً (هوية التراث اليهودي) وإنما سلبي (اضطهادهم) . والواقع أن سيرة هرتزل بعد ذلك التاريخ هي سيرة الحركة الصهيونية التي كانت تدور حوله بالدرجة الأولى .

وقد اختفى نسل هرتزل نهائياً ، فكبرى بناته بولين (١٨٩٠ ـ ١٩٣٠) كانت مختلة عقلياً وطُلِّقت من زوجها وأصبحت صائدة للرجال ومدمنة للمخدرات . أما أخوها هانز (١٨٩١ ـ ١٩٣٠) الذي لم يختتن طيلة حياته ، مخالفة للتعاليم اليهودية ، فقد أصيب بخلل نفسي واكتئاب شديد ثم تَحوَّل إلى المسيحية وانتحر يوم وفاة أخته . أما الابنة الصغرى ، فقد ترددت على كثير من المصحات حتى ماتت عام ١٩٣٦ . وقد نشأ ابنها ـ وحفيد هرتزل الوحيد ـ في إنجلترا حيث غيَّر اسمه من نيومان (اسم ذو نكهة يهودية) إلى نورمان (اسم ذو نكهة أنجلو ساكسونية) ، وكان يعمل ضابطاً في الجيش الإنجليزي . وبعد أن ترك الخدمة عُيِّن مستشاراً اقتصادياً للبعثة البريطانية في واشنطن حيث انتحر بأن ألقى بنفسه من على كوبري في النهر .

افكار هرتزل
Herzl's Ideas

هرتزل ليس صاحب فكر وإنما صاحب أفكار وانطباعات متناثرة في نصوص كثيرة لا يتسم معظمها بالذكاء أو التسلسل المنطقي أو الوضوح أو التماسك ، فهو ينتقل من نقطة إلى أخرى ثم يعود إليها ، ولا يتعمق في أيٍّ من النقاط التي يطرحها . ولذا فيمكنه أن يطرح حلاً للمسألة اليهودية بكل جراءة دون إدراك لتضميناته الفلسفية والعملية . وسنحاول في هذا المدخل أن نجمع شتات أفكاره فيما يشبه النسق المتكامل ، وهو نسق ليس فيه ارتباط كبير بين المقدمات والنتائج وإنما يتسم بالترهل والهلامية ، وهو مليء بالثغرات لعل هرتزل تركها عمداً كي يملأها كل من يقرأ نصه بالطريقة التي تروق له . والنصوص التي سنستخدمها هي **دولة اليهود** ، والخطاب الذي ألقاه هرتزل في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، ويومياته . كما سنشير إلى رواية **الأرض القديمة الجديدة** وبعض تصريحات أصدقاء هرتزل المقربين ، أمثال ماكس نوردو ، لتوضيح نقطة ما أو مفهوم كامن لم يتضح تماماً في كتابات هرتزل نفسها .

يَصدُر هرتزل عن الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ، ولكنه طوَّر الخطاب الصهيوني المراوغ وهو ما فتح الباب لتهويد الصيغة الأساسية . وقد يكون الخطاب المراوغ أحد أهم إسهاماته في عملية تطوير الفكر الصهيوني والحركة الصهيونية ، فهرتزل يقدم حله للأطراف المعنية بصياغة مراوغة تجعل من الصعب على أي طرف رفض الصيغة ، إذ أنها ستُرضي الجميع وستتعايش داخلها التناقضات ، وهي صيغة منفتحة جداً تسمح بكل التحورات والتلونات ، كالحرباء كل شيء فيها يتغيَّر إلا عمودها الفقري (يستخدم هرتزل صورة الحرباء المجازية للإشارة إلى يهود الغرب في عصره الذين يتلونون ببيئتهم . وفي العصور الوسطى ، كان يشار لليهود بأنهم إسفنجة تمتص أي شيء ، وهما صورتان مجازيتان متقاربتان في أنهما يؤكدان عدم وجود حدود صلبة ، حيث الداخل والخارج متماثلان أو متداخلان رغم وجود "داخل" و "خارج") . ويمكن القول بأن الصياغة الهرتزلية المراوغة هي محاولة أولية لتهويد الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة حتى تستطيع المادة البشرية المُستهدَفة استيعابها ، أو هي على الأقل محاولة لفتح الصيغة الأساسية الشاملة المصمتة حتى يمكن استيعاب الديباجات اليهودية ومن ثم يمكن تهويدها .

وقد ساعدته الصياغة المراوغة على وضع إطار تعاقدي بين يهود الغرب والعالم الغربي ، نشير إليه باعتباره «العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية» الذي يُعبِّر عن الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة . ولكن المراوغة جزء من اتجاه أهم وأشمل في كتابات هرتزل ، فقد قرَّر تحديث فَهْم المسألة اليهودية وتحديث الحلول المطروحة ومحاولة تقديم حل رشيد . والواقع أن المفتاح الحقيقي لفهم كتابات هرتزل هو العنوان الفرعي لكتابه **دولة اليهود : محاولة لحل عصري للمسألة اليهودية** .

ولا تتبدَّى حداثة هرتزل في الأفكار وحسب وإنما تتبدَّى كذلك في النبرة الهادئة ، وهو يَصدُر عن فكرة الشعب العضوي المنبوذ ويفسره ويطرح حلولاً عملية للموضوع :

١ ـ الشعب العضوي المنبوذ .

يذهب هرتزل إلى أن معاداة اليهود أساسية في الحضارة الغربية لا مجال للتخلص منها ، فهي إحدى الحتميات العلمانية التي تعلَّمها هرتزل من داروين وغيره ، ولذا فهو يقابل الظاهرة بكثير من الهدوء والتجرد ويفسرها على عدة أسس :

أ) أساس تاريخي اجتماعي .

تَطوَّر اليهود داخل الجيتو وأصبحوا جزءاً من الطبقة الوسطى المسيحية التي لن تتردد في أن تلقي بهم للاشتراكية ، فاليهود قوة مالية مستقلة ونفوذ اقتصادي رهيب . ولذا ، فإن الشعوب المسيحية تدفع عن نفسها هذه السيطرة "فليس بمقدورهم أن يخضعوا لنا في الجيش والحكومة وفي جميع مجالات التجارة" . وتتضح حداثة هرتزل في هدوئه وهو يستنتج مشروعية معاداة اليهود ، فهي "شكل من أشكال الدفاع عن النفس" والمعادون لليهود بطردهم إياهم كانوا ببساطة يدافعون عن أنفسهم . السبب الكامن وراء معاداة اليهود ، إذن ، سبب موضوعي اجتماعي بنيوي هو المنافسة التجارية . ولكن هرتزل يضيف سبباً آخر هو "التعصب الموروث" ، وهو سبب ذو بُعد تاريخي . ولعل هرتزل كان يعني بذلك أن المنافسة التجارية في المجتمعات الغربية البورجوازية كان يجب ألا تؤدي بالضرورة إلى معاداة اليهود . ولكن بسبب التعصب الموروث ، أو بسبب أنماط الإدراك التقليدية الموروثة عن العصور الوسطى ، أدَّى نجاح اليهودي في المجتمع البورجوازي إلى رفضه .

ب) أساس عرْقي .

كان هرتزل يرى أحياناً أن اليهود عرْق مستقل ، ولذا فقد تحدَّث عن أنوفهم المعقوفة المشوهة وعيونهم الماكرة المراوغة . وكثيراً ما تحدَّث عنهم من خلال الأنماط العرْقية التقليدية الشائعة في أدبيات اليهود .

وقد قرأ هرتزل كلاسيكية دوهرنج عن معاداة اليهود عام ١٨٨٢ فتركت فيه أثراً عميقاً . ويبدو أنه اعتقد صحة ما جاء فيها أو تقبَّلها بشيء من التحفظ .

جـ) أساس إثني ثقافي .

كان هرتزل ينظر لليهودي (في عمله المسرحي **الجيتو الجديد**) من خلال الأنماط الإثنية لأدبيات معاداة اليهود ، فاليهودي متسلق اجتماعياً وتاجر في البورصة وشخص يعقد زيجات من أجل المنفعة والمصلحة المالية . واليهود شخصيات كريهة خارجية طفيلية تشكل خطراً على القوميات العضوية في أوربا . وقد كان هرتزل يرى أن اليهود ، بماديتهم الموغلة وألمانيتهم الفاسدة (اليديشية) ، يقومون بإفساد الروابط العضوية التي تربط أعضاء الفولك الألماني بعضهم ببعض ، وتزخر يومياته بالمقارنات التي يعقدها بين الشخصية الألمانية المنفتحة الصحيحة والشخصية اليهودية العليلة .

ويبدو أن ادعاء الأرستقراطية كان من قبيل محاولة اللجوء إلى عالم الأغيار الرحب هرباً مما سماه «المادية اليهودية المفرطة» التي زادت بتَساقُط الدين اليهودي . ومن الطريف أن التواريخ الصهيونية ترى أن واقعة دريفوس هي التي هزت هرتزل وأعادته إلى يهوديته ، ولكن المقالات التي كتبها لصحيفته عام ١٨٩٤ تدل على أنه كان مقتنعاً بأن الضابط اليهودي كان مذنباً ، ولعل اقتناعه بوجاهة الاتهامات هو الذي قاده إلى الصهيونية . فالكره العميق لليهود واليهودية هو الأساس العميق الكامن للصهيونية .

وقد أصبحت معاداة اليهود واليهودية الإطار المرجعي الوحيد لفكره وهويته ، فمعاداة اليهود هي التي حولت اليهود إلى شعب «شعب واحد» (بالألمانية : أين فولك Ein Volk) "هكذا علمنا أعداؤنا سواء رغبنا في ذلك أم لم نرغب ، ولذا فإن مصيبتنا تَربطنا ، تُوحِّدنا" . إن عداء اليهود هو الرابط الحلولي العضوي وليس الإله أو العقيدة كما هو الحال في الحلولية التقليدية . ولذا ، فإن ثمة علاقة عضوية بين هويته اليهودية وبين واقع معاداة اليهود : الأولى تنمو بنمو الثانية . ويجب أن نلاحظ أن هذا الشعب قد نُزعت القداسة عنه تماماً ، فهو شعب مثل كل الشعوب ، وهو مادة بشرية استيطانية .

والواقع أن صيغة الشعب العضوي صيغة خروجية تصفوية ، إن صح التعبير ، فهي تعني حتمية خروج الجسم الغريب (اليهود) من الكيان العضوي الأكبر (الحضارة الغربية) واختفائه تماماً ، فالخروج هو "الحل النهائي" . وقد بيَّن هرتزل أن ثمة علاقة بين خروج موسى والمشروع الصهيوني ، ولكن الخروج على الطريقة الموسوية حل قديم بال . ويُعلمن هرتزل الخروج ويشير إلى طرق غير موسوية لإنجازه . ومع هذا ، فهي تؤدي جميعاً إلى الهدف المنشود النهائي : يمكن أولاً أن يتم الخروج عن طريق الزواج المُختلَط ، ولكن هذا يتطلب ارتفاع المستوى الاقتصادي . ومن الواضح أن ازدياد قوة اليهود المالية وتزاوجهم مع المسيحيين سيزيد تحكُّم اليهود في الاقتصاد ، الأمر الذي سيزيد المسألة اليهودية حدة . وقد اقترح هرتزل كذلك عام ١٨٩٣ تعميد اليهود وتنصيرهم حلاً نهائياً للمشكلة . ولعل انضمام اليهود للحركات الاشتراكية كان بشكل أيضاً أحد الحلول من وجهة نظر البعض . ويشير هرتزل في **دولة اليهود** إلى إحدى المحاولات في عصره ، وهي محاولة تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج عن طريق توجيههم من التجارة الهامشية والربا إلى الأعمال الزراعية بحيث يصبح اليهود فلاحين . ويعترض هرتزل على هذا الاتجاه ، فالطبقة الصاعدة هي العمال ، كما أن اشتغال اليهود بالزراعة لن يزيل المشكلة فمراكز اشتغال اليهود بالزراعة في روسيا هي مراكز حركة معاداة اليهود .

وبإمكان اليهود الاختفاء أيضاً عن طريق الخروج الفردي أو الهجرة الفردية . ولعل هرتزل كان يشير هنا إلى ملايين اليهود التي هاجرت إلى الولايات المتحدة ، ولكن اعتراضه على الهجرة الفردية يدخل ضمن اعتراضه على الصهيونية التسللية وصهيونية الأثرياء التوطينية ، وهي في الواقع جهود فردية ، ولا يمكن تحقيق الخروج إلا بشكل جماعي . ولنلاحظ أن كل الحلول "حلول نهائية" تنطوي على فكرة اختفاء اليهود ، وقد ظل هذا هو جوهر الحل الصهيوني ، فهرتزل (الصهيوني اليهودي غير اليهودي) لم يكن له اعتراض على الاندماج والذوبان والانصهار والاختفاء ، فهو يقرر في **دولة اليهود** ، بشيء من الاستحسان ، أن اليهود لو تُركوا وشأنهم لاختفوا ولكنهم لا يُتركون وشأنهم . كما أن كل الحلول النهائية المطروحة حلول يراها هرتزل غير رشيدة (وقد تَوصَّل النازيون إلى أن أكثر الحلول رشداً في مجال الخروج أو الترانسفير النهائي هو الإبادة ، عن طريق السخرة وأفران الغاز ، فهو توظيف للمادة البشرية يؤدي إلى نتائج مذهلة ، وهذا ما تَوصَّل إليه صديق هرتزل : ألفريد نوسيج الذي تعاون مع النازيين وقدَّم لهم خطة تؤدي إلى الخروج النهائي من خلال الإبادة) .

٢ ـ نَفْع اليهود والحل الإمبريالي .

إذا كان اليهود شعباً عضوياً منبوذاً ، فإن أوربا منذ عصر النهضة اكتشفت نَفْع اليهود وإمكانية حوسلتهم لصالح الحضارة الغربية ، وهذا ما يفعله هرتزل في دولة اليهود . فهو أيضاً يكتشف إمكانية نفع

اليهود وتوظيفهم لصالح أي راع إمبريالي يقوم بوضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ .

ويبدو أن هرتزل كان يرفض في بادئ الأمر «الخروج» على الطريقة الصهيونية الاستيطانية ، شأنه في هذا شأن يهود الغرب المندمجين . وقد نشر في المجلة التي كان يكتب فيها عام ١٨٩٢ تقارير تفصيلية عن أحوال الاستيطان اليهودي في الأرجنتين . وقد سافر زميل له مندوباً عن يهود برلين (الذين أخافهم وصول يهود اليديشية ، تماماً كما أخاف ذلك يهود فيينا) ليَدرُس احتمالات توطين اليهود في البرازيل . كما كان هرتزل يعرف عن مشروع توطين اليهود في الساحل الشمالي الغربي في الجزيرة العربية (الأحساء) ، فكتب مقالاً عام ١٨٩٢ يرفض فيه فكرة عودة اليهود إلى فلسطين وقال : "إن الوطن التاريخي لليهود لم يَعُد ذا قيمة بالنسبة لهم ، ومن الطفولي أن يستمر اليهودي في البحث عن موقع جغرافي لوطنه" . كما سخر في مقال له من إحدى مسرحيات ألكسندر دوماس لما تحتويه من أفكار وحلول صهيونية . ولكن هذا كان قبل أن يكتشف الاستعمار الغربي .

ويجب ألا ننسى أن عملية التحديث في الغرب متلازمة تماماً مع العملية الاستعمارية ، ولا يمكن فصل الواحدة عن الأخرى . فتراكم رؤوس الأموال الذي يُسمَّى «التراكم الرأسمالي» الذي جعل تشييد البنية التحتية الهائلة في الغرب ممكناً ، هو في واقع الأمر «تراكم إمبريالي» ، فهو نتاج العملية الاستعمارية التي بدأت بالاحتكار المركنتالي وانتهت بالتقسيم الإمبريالي للعالم . كما أن كثيراً من مشاكل التحديث الغربية من بطالة وانفجار سكاني وسلع زائدة ، تم حلها عن طريق الاستعمار ، أي عن طريق تصديرها للشرق ، واكتشاف هرتزل الطريقة الغربية الإمبريالية الحديثة لحل المشاكل ، أي تصديرها وفَرْضها بالقوة على الآخر ، يشكل الانتقال النوعي في فكره وحياته .

قبل أن يطرح هرتزل حله ، وجَّه نقداً للمحاولات الاستيطانية الصهيونية في عصره (محاولة التسلليين من شرق أوربا بدعم أثرياء الغرب المندمجين) ووصفها بأنها رومانسية مستحيلة دخلت طريقاً مسدوداً . ثم ينتقل هرتزل بعد ذلك فيرفض الفكر المركنتالي الذي يدَّعي أن هناك قيمة محددة في حالة توزيع دائم ، ويؤكد بدلاً من ذلك أن العصر الصناعي الرأسمالي والتقدم الفني يؤدي إلى خلق القيم الجديدة المستمرة ويسمح بالتوسع الدائم . ثم يطرح هرتزل رؤيته القائلة بأن ثمة تقدماً هائلاً ودائماً في جميع مجالات الحياة فهناك "سفن تجارية تحملنا بسرعة وأمان عبر البحار الواسعة" و"القطارات تحمل الإنسان عبر جبال العالم ، فالمساحات الشاسعة لا تُشكِّل عائقاً الآن . ومع هذا ، فنحن نتذمر من مشكلة تكاثُف السكان (وخصوصاً اليهود) . إن الانقلاب الصناعي وحركة المواصلات يمكنها أن تحل مشاكل الإنسان [الغربي] ومن بينها المسألة اليهودية" . وعبارة «الانقلاب الصناعي وحركة المواصلات» البريئة تعني في واقع الأمر الانقلاب الإمبريالي الذي هيمن على العالم ، والذي أمكنه ، من خلال الاستعمار الاستيطاني ، حل "مشكلة تكاثف السكان" .

وبعد أن أكد هرتزل للدول الغربية أن نَقْل الشعب العضوي المنبوذ هو الحل المطروح ، فإنه يبين لهم منافع الحل الصهيوني المطروح . فبالنسبة للدولة الراعية ، ستكون الهجرة هجرة فقراء وحسب ، ولذا فإنها لن تؤثر على اقتصادها . كما أن الخروج سيتم تدريجياً ، دون أي تعكير ، وستستمر الهجرة من ذلك البلد حسب رغبة ذلك البلد في التخلص من اليهود . كما أنه يذكر بشيء من التفصيل الثمن الذي سيدفعه اليهود (الدور الذي سيلعبونه والوظيفة التي سيؤدونها) ومدى نفعهم للراعي الاستعماري الذي سيضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ :

أ) ومن الجدير بالذكر أن الحكومات المعنية ستستفيد من هذه الهجرة استفادة كبيرة .

ب) ولو كانت الحكومات المعنية هي السلطان العثماني ، فإن الفوائد تكون بالغة الكثرة :

- فلو يعطينا جلالة السلطان فلسطين لكنا نأخذ على عاتقنا مقابل ذلك إدارة مالية تركية كاملة .
- ستستفيد هذه السلطات بالمقابل إذ أنها ستدفع قسطاً من دينها العام وستقيم مشاريع نحتاج إليها نحن أيضاً .
- يمكن وضع النفوذ الصهيوني في خدمة السلطان ، كأن تقام حملة صحفية ضد الأرمن الذين كانوا يسببون له المتاعب .
- ويمكن أن يؤسِّس الصهاينة جامعة في إستنبول لإبعاد الشباب التركي عن التيارات الثورية في الغرب .
- وأخيراً ، فإن هجرة اليهود ستبعث "القوة في الإمبراطورية العثمانية كلها" وهو مطلب ألماني إنجليزي في ذلك الوقت (ضد الزحف الروسي) .

جـ) أما لو تم اختيار الأرجنتين كموقع للاستيطان ، فمن مصلحتها أيضاً أن تقبلنا في أراضيها .

د) وسواءٌ تم التهجير إلى الأرجنتين أو إلى فلسطين أو أية منطقة أخرى ، فإن فكرة خَلْق دولة يهودية أمر مفيد للأراضي المجاورة ،

ذلك لأن استثمار قطعة أرض ضيقة يرفع قيمة المناطق المجاورة ، وستبعث هجرة اليهود قوة في تلك الأراضي الفقيرة .

هـ) ولأن هرتزل كما بيَّنا كان يعرف أن الحكومات المعنية هي في الواقع القوى الغربية ، لذلك فهو يقدم لهم قائمة كاملة شاملة :

- بهذا الخروج ستكون نهاية فكرة معاداة اليهود ، وبالتالي لن يحس الغرب الليبرالي بالحرج بسبب عنصريته الواضحة .

- ومما لا شك فيه أن الدول الغربية ستجني فوائد أخرى مثل تخفيف حدة الانفجار السكاني ، كما ستفيد من كل المشاكل الناجمة عن وجود شعب عضوي غريب .

- وفي تحليله أسباب معاداة اليهود ، قال هرتزل : "عندما نسقط نصبح بروليتاريا ثورية ، نقود كل حزب ثوري ، وعندما نصعد تصعد معنا قوتنا المخيفة" ، ولذا فإن الصهيونية ستقوم بتخليص الغرب من أحد العناصر الثورية بتسريب طاقتها الثورية في القنوات الصهيونية .

و) ولكن أهم منافع الصهيونية أنها ستُحوِّل المادة البشرية اليهودية إلى عملاء للدولة الغربية مانحة السيادة ويأخذ هذا أشكالاً كثيرة :

- فبالنسبة للصهاينة الاستيطانيين : يمكن حل المسألة الشرقية والمسألة اليهودية في آن واحد . وسوف يكون لهذا الحل تأثير في العالم المتحضر [الغربي] بأسره ويكون ذلك بأن "يقام هناك [في فلسطين] حائط لحماية أوربا وآسيا [دولة وظيفية] يكون بمنزلة حصن منيع للحضارة في وجه الهمجية . ويتوجب علينا كدولة محايدة أن نبقى على اتصال مع أوربا التي ستضمن وجودنا بالمقابل" . وهو يرجو أن تدرك إنجلترا مدى القيمة والفائدة التي ستعود عليها من وراء كَسْبها الشعب اليهودي .

- ولا ندري هل أدرك هرتزل منذ البداية الإستراتيجية الصهيونية الحالية الرامية إلى تفتيت الشرق العربي إلى جماعات دينية وإثنية ، فهو يقول : "إن تَحسُّن وضع اليهود سيساعد على تَحسُّن وضع مسيحيي الشرق" . فهو بعد أن ربط مصير اليهود بالغرب ، يرى إمكانية طرح السيناريو نفسه بالنسبة لمسيحيي الشرق .

- أما بالنسبة لليهود الذين يمكثون خارج فلسطين (الصهاينة التوطينيون) ، فيمكن تحويلهم إلى عملاء للدولة مانحة السيادة ، فتحصل إنجلترا على عشرة ملايين عميل يضعون أنفسهم في خدمة جلالها ونفوذها .

وانطلاقاً من كل هذا ، يطرح هرتزل الحل : "يجب ألا يأخذ الخروج شكل هروب أو تسلُّل ، وإنما يجب أن يتم بمراقبة الرأي العام [الغربي] . هذا ويجب أن تتم الهجرة وفقاً للقوانين وبمعاونة صادقة من الحكومات المعنية [الغربية طبعاً] التي يجب أن تضمن وجودنا لأن اليهود لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك بأنفسهم" . وهكذا رفض هرتزل تماماً فكرة الانعتاق الذاتي باعتباره حلماً رومانسياً ، وطرح حتمية الاعتماد على الإمبريالية (وهذا هو مربط الفرس الذي لم يتنبه إليه أي مفكر صهيوني آخر من قبله) . ولذا ، فإن القول بأن أفكار هرتزل كانت كلها في كتابات أحباء صهيون قول صادق وكاذب في آن واحد ! صادق إذا ما فتَّتنا الأفكار إلى وحدات صغيرة ، مثل : فكرة الدولة اليهودية ، فكرة وطن قومي لليهود ، فكرة الاستيطان . . . إلخ ، ولكنه كاذب إذا ما نظرنا إلى البنية الكامنة أو إلى الإطار الكلي المبتكر .

وعندما تتضح الأمور عند هرتزل ، فإنه يتقدم بمطالبه للحكومات الغربية المعنية . . "امنحونا سلطة على قطعة من الأرض في هذا العالم [غير الغربي] تكفي حاجاتنا القومية المشروعة ، ونحن سنعمل ما يتبقى" . ويكرر هرتزل الفكرة نفسها في موضع آخر "متى أظهرت القوى الدولية [الغربية] رغبة في مَنْحنا السلطة فوق قطعة أرض محايدة [أي خارج أوربا] ستعمل جمعية اليهود مع السلطات الموجودة في تلك الأراضي [أي الدولة العثمانية أو الحكومة الأرجنتينية أو غيرها من الدول] وتحت إشراف القوى الأوربية [المصدر الوحيد للسلطة]" . وبهذا ، يكون هرتزل قد قدَّم الحل : دولة يهودية ذات سيادة تُؤسَّس خارج أوربا ، مصدر سيادتها هو العالم الغربي ، أي أنه سيحقق السيادة من خلال العمالة للقوى العظمى الغربية صاحبة القرار في العالم في ذلك الوقت . وهو بذلك قد توصَّل للآلية الكبرى لتنفيذ المشروع الصهيوني وهي الإمبريالية ، وللإطار الأمثل وهو الدولة الوظيفية التي سيتم توظيف اليهود من خلالها لصالح العالم الغربي . بل ستُحل مشكلة الهوية اليهودية حلاً عبقرياً ، فهو يُخرج اليهود من التشكيل القومي الغربي ، ويُخلِّص الغرب منهم ، ولكنه يُدخلهم الغرب مرة أخرى عن طريق التشكيل الاستعماري الغربي ، إذ يبدو أن الدولة الوظيفية سيتم استيعابها في الحضارة الغربية وتصبح دولة مثل كل الدول الغربية . إن الغرب العنصري (ويهود الغرب المندمجين) لم يكونوا على استعداد لتقبُّل الشعب اليهودي العضوي المنبوذ داخل الغرب ، ولكن مَنْ الذي يمكنه أن يرفض الشعب اليهودي العضوي الذي يحقق هويته اليهودية هناك بعيداً عن الغرب ، داخل دولة وظيفية تقوم على خدمته وتظل تربطه به علاقة ؟

قد يُقال إن هذا الحل الاستعماري ليس تحديثاً بقدر ما هو استمرار لوضع اليهود القديم في أوربا منذ العصور الوسطى كجسد

غريب من المرابين والتجار ، في أوربا وليس منها ويعيشون في مسام المجتمع (على حد قول ماركس) . ولكن أن يعيش الإنسان على هامش المجتمع خير له من أن يعيش في مسامه ، لأن الحالة الثانية خطرة جداً . كما أن الغرب الحديث على ما يبدو قد ضاقت مسامه كثيراً ، ولذا فقد قام بتصفية معظم الجيوب الإثنية . كما أن عملية التحديث تأخذ أحياناً في الظاهر شكل العودة إلى الوراء ، إلى القديم وإلى الأصول ، ولكنها في الواقع عملية تغيير شاملة . وهذا أيضاً ما فعله هرتزل ، فقد احتفظ بالأشكال القديمة (عقيدة الخروج وأسطورة الشعب والعودة) ولكنه أعطاها مضموناً جديداً أو حديثاً ، وهذا مؤشر آخر على براعته .

موقف هرتزل من التيارات الصهيونية قبله

Herzl's Attitude to Preceding Zionist Trends

لعل أهمية هرتزل في تاريخ الصهيونية هي أنه حوَّل الصهيونية من مجرد فكرة إلى حركة ومنظمة ، وبلور العقد الصامت بين الحضارة الغربية والمنظمة الصهيونية باعتبارها ممثلة ليهود أوربا وبين الحضارة الغربية ، ومن ثم فقد خَلَق الإطار اللازم لعملية التوقيع التي تمت في وعد بلفور . ولكن العقد الصامت لم يُولَد مكتملاً بل استغرق ميلاده مدة طويلة ، فقد تعثَّر هرتزل نفسه طويلاً قبل أن يصل إلى هذه الصيغة . وبرغم عصرية حلِّه وحداثته إلا أن بصيرته خانته ، إذ بدأ نشاطه السياسي بطريقة تقليدية فتوجَّه للقيادات اليهودية التقليدية (الحاخامات والأثرياء) أصحاب النفوذ التقليدي (الذين نظروا إليه بنوع من الفتور أو الاشمئزاز) . ففي يونيه ١٨٩٥ ، قام هرتزل بمقابلة هيرش (المليونير والمصرفي الألماني اليهودي) ليقرأ عليه خطاباً يحدد فيه حله للمسألة اليهودية ، ولكن هيرش لم يسمح له بالاستمرار في الحديث ، فأرسل إليه هرتزل خطاباً في اليوم التالي فقوبل بالفتور نفسه . وبدأ هرتزل في كتابة مذكراته وفي كتابة خطاب لعائلة روتشيلد (في فرنسا) أو إلى مجلس العائلة وأنهى الخطاب في يونيه ١٨٩٥ ، ثم طلب من حاخام فيينا موريتز جودمان أن يكون همزة الوصل بينه وبين ألبرت روتشيلد زعيم العائلة في فيينا . وقد كان منطقه أن ثروة روتشيلد محكوم عليها بالهلاك والمصادرة في عالم الأغيار ، ولذا فإن عليه أن يتبنَّى المشروع الصهيوني .

ولكن يجب أن نلاحظ أن هرتزل ، حتى في هذه المرحلة ، كان قد بدأ في عملية التحديث ، فهو لم يتقدم للأثرياء اليهود كشحاذ يهودي يطلب الصدقات من إخوانه في الدين وإنما جاء كمفكر يهودي غربي يطرح قضية حاجة اليهود إلى القيادة ، وينبه إلى عُقم الاستعمار التسللي في الأرجنتين وفلسطين . والأهم من ذلك كله أنه يطالب أثرياء اليهود بالتوسط لدى قيصر ألمانيا وأن تقوم القيادة اليهودية بتمويل عملية الخروج وأن تُقنع القيصر بأهميتها ، وذلك حتى تتم هذه العملية على نطاق واسع وبشكل منظم ومنهجي ورشيد .

ولكن روتشيلد رفض اقتراحه لأسباب بيَّنها روتشيلد نفسه في تاريخ لاحق :

١ ـ أن هرتزل سيثير عداوة البدو (أي العرب) .

٢ ـ أنه سيثير شكوك الأتراك (أي الدولة المهيمنة على الشرق) ، وخصوصاً أن تركيا معادية لروسيا . وروسيا لن تسمح بسقوط فلسطين في يد اليهود (وهنا يدرك روتشيلد أهمية القوى العظمى) .

٣ ـ سيثير هرتزل غيرة المستعمرات المسيحية والحجاج (المسيحيين) ـ وربما تكون الإشارة هنا إلى مستعمرات فرسان الهيكل وغيرها من المستعمرات .

٤ ـ قد يؤدي هذا إلى هَدْم المستوطنات اليهودية هناك (أي جهود الإنقاذ التي يقوم بها يهود الغرب والتي تضمن لهم الهيمنة) .

٥ ـ سيثير هرتزل أعداء اليهود لأن أطروحته الصهيونية ستبين أن اليهود المندمجين منافقون في ادعائهم حب أوطانهم ، ولذا سيطالب المعادون لليهود بعودة اليهود لوطنهم القومي .

٦ ـ كما أشار روتشيلد إلى قضية التمويل ، فمن سيمول ١٥٠ ألف شحاذ من الذين سيصلون إلى فلسطين ؟

وعند هذا الحد أدرك هرتزل أن القيادات اليهودية الغربية غير جادة وغير قادرة . ولكنه مع هذا تعلَّم منها الكثير ، ذلك أن اعتراضات روتشيلد مهمة . ولعل هذا ساعده في تطوير الخطاب الصهيوني المراوغ . أما قيادات يهود شرق أوربا (التي لم يكن هرتزل يعرف عنها الكثير) ، فقد كانت غير مطروحة أساساً لأنها لم تكن قد دخلت العالم الحديث بعد ، فكان الشرقيون غارقين في الجيتو وكان الغربيون غارقين في الاندماج ، فأخذ هرتزل بزمام الموقف وكتب مباشرةً لبسمارك ، ثم أعد مذكرة ليقدمها لقيصر ألمانيا . ولكن الدول ، بطبيعة الحال ، لا تتعامل مع أفراد وإنما مع كتل بشرية ، ولذا فقد كانت الاستجابات سلبية في كل مكان . ولذا قرر هرتزل (على حد قوله) أن يتوجَّه إلى الشعب . والشعب هنا لا يعني الجماهير اليهودية وإنما يعني حركة أحباء صهيون ، التي كانت تضم بضعة آلاف من اليهود ، كما يعني الحركات المماثلة المتناثرة ذات الأهداف المماثلة ، والتي تدعم موقفه التفاوضي أمام عالم الصهيونية

غير اليهودية ، عالم الاستعمار الغربي . ويكون هرتزل بهذا قد حطَّم الجيتو ، وقام بتحديث قيادة اليهود في الغرب ، أو طرح نفسه (وهو الصحفي ذو الثقافة الغربية) بديلاً عن الأثرياء والحاخامات . وقد كان هرتزل أكثر ذكاءً من الآخرين لأنه كان يملك ما لا يملكون : رؤية جديدة للمسألة اليهودية وعقداً جاهزاً للتوقيع مع الحضارة الغربية يرضي جميع الأطراف . لقد اكتشف حتمية الاعتماد على الإمبريالية الغربية .

توجَّه هرتزل ، إذن ، للشعب ولكنه كان يرفض النزعات الصهيونية السابقة عليه ، فصهيونية أثرياء يهود الغرب المندمجين (صهيونية الإنقاذ التي تأخذ شكل صدقات) غير صالحة لأن المشروع الصهيوني مشروع ضخم يتجاوز الجهود الفردية . أما بالنسبة للتسلل ، فقد ساهم الصهاينة التسلليون ولا شك في إلقاء الضوء على فكرة تأسيس الدولة (وهي أحد عناصر الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة) ، كما أن أخطاء التسلليين أثناء الممارسة قد تفيد في تنفيذ المشاريع الضخمة المقبلة . ولكن التسلل ، مع هذا ، بَذَر الشك في نفوس الناس بشأن المشروع الصهيوني ككل ، كما أنه اتسم بالرومانسية ، فالمتسللون من أحباء صهيون يظنون أن خروج اليهود سيتخذ شكل تَرْك الحضارة والسكنى في الصحراء . لكن الأمر ليس كذلك إذ أن كل شيء سيتم في إطار الحضارة (الغربية) . وقد شبَّه نوردو وهرتزل التسلليين بالبوكسرز الذين قاموا بثورة رومانسية في الصين وأرادوا التصدي للزحف الغربي بالوسائل التقليدية . وتتجلَّى سطحية هرتزل وبرجماتيته في اعتراضه على التسلل باعتبار أنه سيؤدي إلى رفع أسعار الأراضي (فالسمسار في داخله لا يهدأ له بال) ، ثم يبين بعملية حسابية عبث الحلول التسللية قائلاً : "لو افترضنا أن عدد يهود العالم هو تسعة ملايين [كانوا عشرة ملايين في واقع الأمر] ، وإذا كان بإمكاننا إرسال عشرة آلاف يهودي كي يستعمروا فلسطين سنوياً ، فهذا يعني أن المسألة اليهودية ستُحَلّ بعد تسعمائة سنة" . ومن هنا ، فقد شبه التسلليين بمن يريد نزح المحيط بواسطة دلو .

ثم يثير هرتزل قضية مهمة أخيرة ، هي أن التسلليين ليس عندهم أية سيادة قومية ، ولذلك فهم تحت رحمة الباشا العثماني ، كما أنهم يفتقدون أساس القوة . ولذا ، فلن يمكنهم الحصول على الاستقلال ، وسوف يظل الاستيطان التسللي استيطاناً "يائساً جباناً" . وكتب هرتزل لبودنهايمر يخبره بأنه حتى لو وصل التسلليون إلى مستوى كاف من القوة ، وحتى لو وهن الباب العالي إلى الحد الذي يسمح للصهاينة بإعلان استقلالهم ، فإن هذه المحاولة لن تنجح لأن القوى العظمى الغربية لن تعترف بالكيان الجديد . ويثير هرتزل أيضاً مشكلة الاستعمار الإحلالي ، فمهما بلغ عدد المتسللين ، ومهما بلغوا من قوة ، فسيأتي حتماً الوقت الذي تبدأ فيه الحكومات المعنية (تحت ضغط السكان الأصليين) في وضع حد لتسلل اليهود . إذن ، فالهجرة لا فائدة منها "إلا إذا كانت تأتي ضمن السلطة الممنوحة لنا [من قِبَل الدول الغربية]" .

وانطلاقاً من كل هذا ، طرح هرتزل رؤيته الصهيونية الجديدة الحديثة التي خرجت بالصهيونية من إطار المعبد اليهودي والاجتهادات الدينية وجو شرق أوربا الخانق ودخلت بها جو الإمبريالية (الحديث) ، فطالب بأن يُنظَر إلى المسألة اليهودية كمشكلة سياسية دولية تجتمع كل الأمم المتحضرة لمناقشتها وإيجاد حل لها (كلمة «دولية» أو «متحضرة» تعني في الواقع «غربية») . ومعنى ذلك أن المسألة اليهودية ستصبح مشكلة قومية غربية تحلها الأمم الغربية أو القوى العظمى . إن هذه المسألة يمكن حلها من خلال المنظومة الغربية ، إذ يجب أن يتحول الاستيطان من «التسلل» ليصبح «الاستيطان القومي» . وهذا يتطلب عملية إدراكية ، تترجم نفسها إلى حركة استعمارية . أما العملية الإدراكية ، فهي أن يُنظَر لليهود لا باعتبارهم أعضاء في طبقة طفيلية منبوذة وإنما باعتبارهم شعباً عضوياً (فولك) ولكن منبوذاً . أما الحركة الاستعمارية فهي الخروج بموافقة الرأي العام (الغربي) وبموافقة الحكومات المعنية التي يجب أن "تضمن وجودنا لتأسيس دولة يهودية ذات سيادة" مصدر سيادتها ليس القوة اليهودية الذاتية كما يظن التسلليون وإنما الحكومات الغربية . وفي إطار هذه الدولة ، يمكن تحويل أعضاء الشعب العضوي المنبوذ إلى عنصر نافع لا لأنفسهم وحسب وإنما للحضارة الغربية ، إذ سيصبحون عنصراً تابعاً للاستعمار الغربي وقاعدة له . بل إن معاداة اليهود (مأساة اليهود) ، إذا ما وُظِّفت توظيفاً صحيحاً ، ستكون قوة كافية لإدارة محرك كبير يحمل مسافرين وبضائع ، وهذا رمز جيد للاستعمار الاستيطاني . وقد أدار هرتزل المحرك عن طريق خطابه المراوغ وصياغة العقد الصامت . وقد لاحَظ قيادات أحباء صهيون حتى قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، كيف تحوَّل هرتزل إلى بطل أسطوري ، وكيف أن الموقف العام للصهيونية تغيَّر تماماً بعد ظهوره ، وأن الاهتمام بالصهيونية والتعاطف معها قد ازداد . وهكذا ، وجدوا أنهم إن لم ينضموا إليه لاكتسحهم النسيان ، فليس عندهم ما يقدمونه للجماهير سوى «التسلل» المميت . وقد عبَّر أوسيشكين عن هذا الوضع بطريقة بلهاء فقال : "إن هرتزل عنده آمال وبرامج ، أما نحن فعندنا برامج وحسب" .

ولعل ما يريد أن يقوله هو أن هرتزل كان يملك رؤية تجعل بالإمكان وضع البرامج الميتة موضع التنفيذ بسبب اكتشافه حتمية الاعتماد على الإمبريالية الغربية كآلية لتنفيذ المشروع الصهيوني ، أما برامجهم التسللية فقد كانت ميتة لأنهم لم يكتشفوا الاستعمار الغربي .

هــرتزل والصهيونيتــان

Herzl and the Two Zionisms

تتبدَّى براعة هرتزل لا في تطويره الخطاب الصهيوني المراوغ وحسب ، ولا في اكتشافه حتمية الاعتماد على الإمبريالية فقط ، وإنما في اكتشافه منذ البداية نظرية الصهيونيتين . وقد اكتشف هرتزل الصهيونيتين لأنه صهيوني يهودي غير يهودي ينظر إلى اليهود من الخارج ، باعتبارهم مادة بشرية مستهدفة ، ولكنه ينظر أيضاً إليهم من الداخل باعتبارهم كياناً بشرياً يحتاج لأن يجد معنى لحياته وأفعاله .

وقد توجَّه هرتزل للطرفين : يهود الغرب المندمجين التوطينيون، ويهود اليديشية الاستيطانيين . ولكنه واجه متاعب مع الطرفين في طرح حله الصهيوني لأسباب مختلفة :

١ ـ يهود اليديشية :

يشير هرتزل إلى "هؤلاء المسجونين دوماً ، الذين لا يتركون سجنهم برضا" . والمسجونون هم يهود اليديشية . والواقع أن مسألة يهود شرق أوربا كانت مسألة متشعبة ومتشابكة ، ويمكن تقسيمها إلى قسمين ؛ المشكلة الاقتصادية والمشكلة الثقافية أو الإثنية :

أ) المشكلة الاقتصادية : كان الحل الذي طرحه هرتزل بالنسبة للشق الاقتصادي بسيطاً وهو تحويل الطبقة المضطهدة (أي الجماعات الوظيفية) إلى أمة عن طريق تهجير الفقراء الفائضين ، وإتاحة فرص الحراك الاجتماعي أمامهم . ويؤكد هرتزل أن الصهيونية لن تعود بالمستوطنين إلى مرحلة متأخرة ، إنما سترتفع بهم إلى مرحلة أعلى "لن نفقد ما نملك إنما سنحافظ عليه . . . لن يغادر إلا أولئك الذين ستتحسن أوضاعهم بالهجرة . . . سيذهب أولاً أولئك الذين هم في حالة يأس ثم يتبعهم الفقراء ، وبعدهم يذهب الأغنياء . إن الذين يذهبون أولاً سيرفعون أنفسهم إلى مرتبة توازي مرتبة الذين سيلحقون بهم من الأغنياء . وهكذا فإن الخروج سيكون طريقاً للرقي الطبقي" ، أي أن جماهير البورجوازية الصغيرة اليهودية في شرق أوربا الذي أدّى تَعثُّر التحديث إلى القضاء على فرصها في الحراك ، سيمكنها مرة أخرى أن تحقق أحلامها عن طريق المشروع الصهيوني . وهناك الكثيرون من الثوريين في صفوف يهود الشرق ، ولهذا فإن هرتزل قد وَعَد بتسريب هذه الطاقة الثورية . ولعل فَتْح أبواب الحراك الاجتماعي هو في حد ذاته جزء من عملية التسريب هذه ، كما أن عملية نَقْل العنصر الثوري من مجتمعه وطبقته إلى مجتمع جديد ستؤدي إلى تقويض التطلعات الثورية .

ب) مشكلة الإثنية : لعل مواجهة هرتزل مع المدافعين عن الخطاب الإثني (الديني أو العلماني) كانت من أعمق المواجهات . كان هرتزل يرى أن الانتماء اليهودي (يهودية اليهود) مسألة مفروضة عليهم من قِبَل أعدائهم ، ولذا فهي مسألة فارغة تماماً ؛ شكل من أشكال الغياب ، وليست تعبيراً عن ثقافة يهودية ، فمثل هذه الثقافة ـ حسب تصوره ـ غير موجود إطلاقاً . ولذا ، فإن الحل الصهيوني بالنسبة إليه ليس مسألة حفاظ على التقاليد أو تعبير عن هوية بقدر ما هو حل لمشكلة اجتماعية تفاقمت عن طريق الصيغة الاستعمارية وهي نَقْل اليهود خارج الغرب ، ولا يهم إن كان نَقْلهم إلى فلسطين أم إلى الأرجنتين . أما بالنسبة للغة الدولة ، فلكل مواطن أن يتحدث بلغته . وقد لاحظ أحد أعضاء أحباء صهيون (بعد المؤتمر الأول) أن ثمة خيطاً رفيعاً يفصل حزب هرتزل عن حزبه ، فالأول كان لا يطلب سوى إفراغ أوربا من اليهود لوضع نهاية لمعاداة اليهود ، بينما كان الثاني يرغب في تأسيس مُستوطَن إرتس يسرائيل ليعبِّر عن الأشكال الإثنية التي عرفوها في شرق أوربا . وقد فرَّق وايزمان بين الصهيونية كحركة إنقاذ (ويمكن أن نسميها أيضاً حركة إفراغ) والصهيونية كحركة تعبير عن الذات . وقد رأى المدافعون عن الصهيونية الإثنية أن هرتزل قد أهمل الجانب التعبيري عن الصهيونية ، أي أهمل الإثنية اليهودية .

ولكن هرتزل في الواقع لم يهمل شيئاً ، فصيغته المراوغة تسمح بامتصاص أي شيء . ومن هنا كانت أهمية سطحيته وهامشيته في صياغة الحل الصهيوني المقبول للجميع ، فحينما كان يتناول قضية مصيرية (على الأقل من وجهة نظر يهود الشرق) ، مثل موقع الوطن المقترح ، فإنه يتحدث عنها كما لو كانت مسألة عابرة تفصيلية (بسبب خلفيته الغربية غير اليهودية) "أيهما أفضل ، فلسطين أم الأرجنتين ؟ ستأخذ جمعية اليهود ما يُعطَى لها [من الدول الغربية كما حدث في مشروع شرق أفريقيا] وما يفضله الرأي العام اليهودي . ستقرر الجمعية كلاًّ من هذين الأمرين" . وقد ترك هنا مشكلة الإثنية برمتها مفتوحة ، فهي في الواقع أمر لا يعنيه كثيراً . ولكنه صحفي قادر على كتابة تقارير تتسم بالذكاء وإن كانت لا تتسم بالعمق ، وحين يتحدث عن أهمية فلسطين يقول هرتزل "إنها وطننا التاريخي الذي لا يمكننا نسيانه ، ومجرد الاسم هو صرخة جامعة عظيمة" . ولكنه

لا ينسى الأرجنتين ، فهي من أخصب بلاد العالم وتمتد فوق مساحات شاسعة ، سكانها غير كثيفين ، كما أن مناخها معتدل .

إن الصيغة المقترحة صيغة منفتحة جداً ، تركت المجال مفتوحاً لأي شكل من أشكال الإثنية العلمانية أو الدينية أو رفض الإثنية ، دينية كانت أم علمانية . ومما سهل الأمور أن الصهيونية الإثنية لا تكترث كثيراً بالنشاطات السياسية أو الاقتصادية أو الاستيطانية ، ويقتصر نشاطها على أشكال التعبير ، ولذا فإن دعاتها لم يطرحوا برنامجاً سياسياً أو اقتصادياً محدداً . وقد قال آحاد هعام ذات مرة : "إن خلاص إسرائيل سيأتي من خلال الأنبياء وليس من خلال الدبلوماسيين الذين يتفاوضون مع القوى الاستعمارية" ، وهي عبارة مضحكة تنم عن جهل المفكر الصهيوني بأبعاد المشروع الصهيوني . فإسرائيل التي يتحدث عنها ليست إسرائيل التي كان يبشر بها هرتزل أو التي يمكن أن تساعد الإمبريالية على بنائها ، ولذلك فقد اكتسحه هرتزل تماماً ، واضطر هو في نهاية الأمر أن يلحق بالحركة التي أسسها الصحفي النمساوي وأن يقوم بجهود دبلوماسية استعمارية (لا علاقة لها كثيراً بالأنبياء أو حتى الكهنة) وذلك أثناء وجوده في لندن . وفي نهاية الأمر ، قدَّم هرتزل لأصحاب الخطاب الإثني أو الصهيونية الإثنية فكرة دولة اليهود ، أي الدولة الجيتو . والواقع أن عبارة «دولة اليهود» (يودين شتات) نفسها كانت تُطلَق على الجيتو في مدينة براغ . وبهذا الشكل ، قدَّم لهم هرتزل الإطار الذي يمكن أن تتحقق من خلاله إثنيتهم ، وفي هذا إشباع لبعض طموحاتهم .

وفكرة الدولة نفسها تتضمن فكرة الشعب العضوي الذي له إثنيته العضوية المستقلة التي تحتاج إلى إطار مستقل للتعبير عنها . وهي على أية حال فكرة مُتضمَّنة في الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة التي كان يتحرك في إطارها العالم الغربي وكذلك هرتزل .

وماذا عن الدين اليهودي ؟ لقد فَقَد هرتزل علاقته بالدين اليهودي وبقيت لديه (في خطابه) بضعة مصطلحات مثل «الخروج» ، وبضع إشارات مثل «الماشيَّح» . ومع هذا ، لم يُغلق هرتزل الباب ، بل تركه مفتوحاً للإيمان الديني مثلما تركه مفتوحاً أمام الإثنية ، ولذا كان دائماً يحاول أن يخطب ود الحاخامات ويقوم ببعض الشعائر دون أن يفهم معناها ، كما كان يستخدم ديباجات دينية أحياناً . بل قد كُشف النقاب عن اتصال هرتزل بالحاخام فيشمان (ميمون فيما بعد) عام ١٩٠٢ لحثه على إنشاء حزب ديني صهيوني ليوازن العصبة الديموقراطية التي اعترضت على أسلوبه في إدارة المنظمة . وقد اتصل فيشمان بالحاخام إسحق راينس وتم تأسيس حركة مزراحي بناءً على هذه الاتصالات . ودفع هرتزل تكاليف المؤتمر الذي أُسِّست فيه حركة مزراحي من ماله الخاص . وقد نجح دعاة الصهيونية الإثنية في إسقاط ديباجاتهم الحلولية العضوية على الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة فقاموا بتهويدها ، الأمر الذي يسَّر للمادة البشرية المُستهدَفة استبطانها حتى نسى الجميع أصول الصيغة الصهيونية البروتستانتية والعلمانية التي أصبحت صيغة يهودية قلباً وقالباً .

٢ ـ يهود الغرب المندمجون :

واجه هرتزل بعض المتاعب مع يهود الغرب المندمجين . فلم تكن لديهم مسألة يهودية ولكنها عاودت الظهور مع هذا ، لا نتيجة تطورات سلبية داخل مجتمعاتهم وإنما بسبب وصول جحافل يهود الشرق ، وهو ما نَجَم عنه التشابك بين المندمجين والمنبوذين . ولهذا ، فقد اضطر يهود الغرب إلى التنازل الجزئي وليس الكلي عن قيمهم الاندماجية إذ قَبلوا فكرة فشل المُثُل الاندماجية والليبرالية لا بالنسبة لأنفسهم وإنما بالنسبة ليهود الشرق . ولهذا قرروا تقديم يد العون للبؤساء من الشرق ، ولكنه عون كان في إطار الصدقات وحسب وخارج أية أطروحات قومية أو أي حديث عن حركة منظمة أو دولة وظيفية ، ولذا رفض هؤلاء الأثرياء هرتزل في بداية الأمر . ولكن يهود الشرق استمروا في المجيء بأعداد متزايدة ، الأمر الذي زاد تشابكهم وتوترهم . وقد تنبَّه هرتزل لذلك الوضع وذكَّرهم بأن صهيونيتهم الخيرية (التوطينية) هي في واقع الأمر ضد اليهود المضطهدين وليس من أجلهم ، ولسان حاله يقول "تخلَّصوا من المعوزين بأسرع ما يمكن" . وهو يزيل عنهم الحرج بخطابه الزلق المراوغ ، ويخبرهم بأنه سيفعل ذلك بالضبط ، أي أنه سيخلصهم من المعوزين وبطريقة منهجية لن تهدد مواقعهم وانتماءاتهم "فمن يرغب أن يبقى فليبق ، ومن يريد الذهاب معنا فلينضم لرايتنا" . ولن يهاجر اليهود جميعاً "فهؤلاء الذين يستطيعون أو الذين يرغبون في أن يندمجوا فليبقوا أو يندمجوا ، بل إن الحل الصهيوني سيساعدهم على مزيد من الاندماج لأنهم لن يتعرضوا بعد ذلك إلى ما يزعج عملية تلوُّنهم (كما يقول داروين) بلون المحيط الذي سيندمجون فيه بسلام . وسيُصدِّق المجتمع اندماجهم ، وذلك إذا ما فضلوا البقاء فيه حتى بعد قيام الدولة اليهودية" . فالصيغة الصهيونية ليست صيغة شمولية كاسحة وإنما هي صيغة مراوغة قادرة على إفراز ما يراد منها "فإذا اعترض أحد يهود فرنسا [أو حتى كل يهود فرنسا] على هذه الخطة لأنهم قد اندمجوا . فردي عليهم بسيط : إن الأمر لا يعنيهم .

إنهم إسرائيليون فرنسيون" ، فهذا الأمر (الصهيوني القومي) ليس إلا مسألة خاصة بالفائض البشري اليهودي (من يهود اليديشية) .

بل إن الصهيونية أخذت خطوة ما كان يحلم بها يهود الغرب المندمجون وهي أنها وعدت بتطبيع اليهود (على حد قول نوردو) ، أي وسمهم بيسم غربي وتحويلهم إلى شخصيات مفيدة منتجة لا تسبب الحرج ليهود الغرب ، وهذا شكل من أشكال الدمج والصهر . وأكثر من ذلك أنه إذا كان هرتزل قد أعلن فشل الاندماج على مستوى الأفراد في الشرق ، فقد بيَّن بما لا يقبل الشك أنه فعل ذلك صاغراً . وأنه سيُوطِّن هؤلاء الفائضين في دولة اليهود التي ستكون دولة عادية تندمج تماماً في عالم الأغيار مع غيرها من الدول . وهكذا ، سيحقق يهود شرق أوربا المتخلفون الفائضون ، عن طريق التشكيل الاستعماري الغربي ، ما فشلوا في تحقيقه عن طريق التشكيل الحضاري الغربي .

والصهيونية ستُنقذ يهود الغرب من جحافل يهود اليديشية ولكنها لن تطالبهم بالهجرة ولن تَفرض عليهم هم الشعارات القومية رغم أنها ستطالبهم بدعم المشروع الصهيوني بالمال والنفوذ . ولكن المشروع الصهيوني جزء من المشروع الاستعماري الغربي والغرب هو مصدر السيادة ، ولذا فإن دعم اليهودي الغربي للمشروع الصهيوني لن يتناقض مع ولائه لوطنه ، لأن الولاء للواحد يعني الولاء للآخر .

والموازنة نفسها التي تؤدي إلى إرضاء الجميع يتسم بها شكل الدولة . فلنأخذ على سبيل المثال قضية السيادة : سيكون الجيب الاستيطاني المُقترَح دولة ذات سيادة (على الطريقة الغربية) كما كان يتوق بعض يهود اليديشية ممن سيطرت عليهم أفكار القومية العضوية ، ولكن مصدر السيادة (كما هو مُتوقَّع) هو الغرب الذي سيرعى الدولة ويحميها ، أي أنها ستدور في فلك الغرب ، الأمر الذي يَقْبله الغربيون .

وهكذا سيترك اليهود أصدقاء مكرمين (تحت رعاية الدول الغربية) . وعندما يعودون لزيارة البلاد التي تركوها ، فسوف يستقبلهم أهلها بحفاوة توازي استقبالهم للزوار الأجانب . وسيتم الاستيطان على النحو التالي : سيذهب أولاً الأكثر فقراً لتأسيس البنية التحتية لزراعة الأرض ، سيبنون الطرق والجسور والسكك الحديدية والخطوط اللاسلكية وسيعملون على تنظيم مياه الأنهار ويهيئون لأنفسهم بيوتاً ، كل ذلك وفقاً لخطة مدروسة (تضعها جمعية اليهود) . وسيؤدي ذلك إلى تجارة ، والتجارة تؤدي بدورها إلى أسواق ، والأسواق تجذب مستوطنين جدداً . وبالتالي ، فسوف يتبع المهاجرين الفقراء الأوائل هؤلاء الذين هم أعلى منهم درجة (أي الطبقة الوسطى والمموِّلون) .

وهناك قضية تتصل بالتوجه الاقتصادي للدولة ، فرغم أن الغرب سيرعى المشروع الصهيوني إلا أنه لن يحسم إلا توجُّهه الإستراتيجي . وسيترك للمنظمة الصهيونية (شأنها شأن شركات الاستعمار الاستيطاني) كامل الحرية في الإشراف على الاستيطان ، بكل ما يتطلب ذلك من حرية سياسية واقتصادية ، حتى يتمكن المستوطنون من التكيف مع وضعهم الفردي . ولذا فإن وصف هرتزل للعملية الاستيطانية وصف شديد التجرد يتجاوز أية تقسيمات طبقية بل يشمل الجميع .

فهرتزل ـ كما يقول شلومو أفنيري ـ كان ليبرالياً ولكنه في حديثه عن الدولة تخلى عن كثير من مُثُله الليبرالية وتبنَّى مُثُلاً اشتراكية عمالية . ولعل ذلك يعود إلى إدراكه العميق لخصوصية المشروع الصهيوني الذي يهدف إلى تحويل اليهود من طبقة إلى أمة . فمثل هذا التحويل لا يمكن أن يتم من خلال الاقتصاد الحر ، ولذا نجده يشير إلى أن ملكية الأراضي في الدولة اليهودية ستكون ملكية عامة ، وسيؤجر الفلاحون أرضهم من الصندوق القومي . بل إن عَلَم الدولة اليهودية الذي اقترحه هرتزل علم عمالي صهيوني لونه أبيض "رمزاً لحياتنا الصافية الجديدة ، ويتوسطه سبعة نجوم ذهبية رمزاً لساعات العمل السبع . فنحن سندخل أرض الميعاد نحمل شارة العمل" .

ويبدو أن هرتزل كان واعياً بأنه بتبنِّيه "المُثُل الاشتراكية" إنما يتبنَّى لغة كان يفهمها شباب اليهود في شرق أوربا ، وأنه بذلك كان يكسبهم لصفه ، وأنه وضع بذلك إطار التعامل بين المنظمة الصهيونية التي كانت تُوجَد في الغرب الليبرالي من جهة والمستوطنين الذين عليهم أن يتعاملوا مع الظروف الطبيعية القاسية ومع المواطنين الأصليين من جهة أخرى ، وهو إطار يفترض أن لكل فريق توجُّهه العقائدي الذي يخدم مصالحه ، وأن كل فريق يجب ألا يتدخل في شئون الآخر .

وبهذا ، يكون هرتزل قد حدد رقعة كل من التوطينيين والاستيطانيين ، وقسَّم العمل بينهم وهدأ من روعهم . ولهذا ، يحق له أن يقول إنه قدَّم شيئاً يكاد يكون مستحيلاً : "الاتحاد الوطيد بين العناصر اليهودية الحديثة المتطرفة [المندمجون في الغرب والثوريون في الشرق] وبين العناصر اليهودية المحافظة [الإثنيون الدينيون والعلمانيون في الشرق] . وقد حدث ذلك بموافقة الطرفين دونما أي تنازل من الجانبين ودون أية تضحية فكرية" ، فالخطاب المراوغ يسمح بامتصاص كل شيء .

هرتزل والحركة الصهيونية

Herzl and the Zionist Movement

طوَّر هرتزل الخطاب الصهيوني المراوغ الذي جعل بالإمكان صياغة العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن يهود العالم . وأصبحت كل الأطراف جاهزة للتوقيع . ولكن الاستعمار الغربي لا يتعامل مع أفراد ، وإنما مع مؤسسات تمثل المادة البشرية المُستهدَفة ، أي يجب أن يكون هناك هيكل تنظيمي يمكن توقيع العقد معه . وقد اقترح هرتزل في **دولة اليهود** إنشاء مؤسستين : جمعية اليهود (بالإنجليزية : سوسياتي أوف ذا جوز Society of the Jews) ، والشركة اليهودية (بالإنجليزية : جويش كومباني Jewish Company) ، وقد أورد هرتزل هذه التسميات الإنجليزية في النص الألماني لكتابه :

أ) جمعية اليهود : وهي القوة الخالقة للدولة في نَظَر القانون الدولي ، وهي القسم الذي يُعنى بكل شيء ما عدا حقوق الملكية . فتَوجّهها ـ كما يقول هرتزل ـ علمي وسياسي تضطلع بمسئولية الشئون القومية ، وتتعامل مع الحكومات وتحصل على موافقتهم على فَرْض السيادة اليهودية على قطعة أرض تدير المنطقة كحكومة مؤقتة (فهي إذن تقوم بالجانب التوطيني والتفاوض مع القوى الاستعمارية) .

ب) الشركة اليهودية : وتقوم بتصفية الأعمال التجارية لليهود المغادرين والعمل على تنظيم التجارة والأعمال المتعلقة بها في البلد الجديد . وستكون هذه الشركة هي الشركة اليهودية ذات الامتياز ، وستُؤسَّس كشركة مساهمة تُسجَّل في إنجلترا بموجب القانون الإنجليزي وتحت حمايته وتكون خاضعة للتشريع الإنجليزي (أي أنها ستتكفل بالجانب الاستيطاني) .

وقد وضع هرتزل أفكاره موضع التنفيذ وعَقَد المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، فحضره ما بين ٢٠٠ و٢٥٠ مندوباً (وهذه مشكلة خلافية باعتبار أن من الصعب تقرير من حضر كمراقب ومن حضر كمندوب) . وكان معظم المندوبين من جمعية أحباء صهيون ونصفهم من شرق أوربا (كان ربع المندوبين من الإمبراطورية الروسية) . ولكن حتى الذين أتوا من الغرب كانوا هم أيضاً من أصل أوربي شرقي . أما من ناحية التكوين الطبقي ، فقد كان معظم المندوبين من أبناء الطبقة الوسطى المتعلمة وكان ربعهم رجال أعمال وصناعة وأعمالٌ مالية . وأما الفئات الثلاث التالية (وتكوِّن كل منها سدس المشتركين) ، فقد كانت من الأدباء والمهنيين والطلبة . كما كان هناك ١١ حاخاماً ، والباقون من مهن مختلفة . وكان بينهم المتدين وغير المتدين والملحد ، كما كانوا يضمون في صفوفهم بعض الاشتراكيين . ولم يكن هناك أي يهودي يتمتع بشهرة عالمية باستثناء نوردو الذي ما لبث أن خبا نجمه بعد ذلك (ومن الجدير بالملاحظة أن مشاهير اليهود في العالم لا يتولون قيادة الجمعيات اليهودية والتنظيمات الصهيونية ، الأمر الذي يجعلها تقع في أيدي عقليات لا يمكن وصفها بسعة الأفق أو المقدرة على تجاوز موازين القوى القائمة لاستشراف الأبعاد التاريخية للواقع) . وقد حضر هشلر ، الواعظ البروتستانتي ، هذا المؤتمر .

وأعد هرتزل برنامج المؤتمر ، وصمم ماكس بودنهايمر الزعيم الصهيوني الألماني شارته ، وهي درع أزرق ذو حواف حمراء كُتبت عليه عبارة : "تأسيس الدولة اليهودية هو الحل الوحيد للمسألة اليهودية" ، وفي وسطه أسد يهودا ، وحوله نجمة داود واثنتا عشرة نجمة إشارة إلى أسباط إسرائيل . كما تم إصدار طبعة خاصة من مجلة **دي فيلت** . ووعد رئيس كانتون بازل بأن يحضر أحد اجتماعات المؤتمر . وفي اليوم الذي يسبق المؤتمر ، ذهب هرتزل إلى المعبد اليهودي لأداء الصلاة . وقد تم تكريمه بأن طولب بقراءة التوراة ، وكان يعرف أن هذا سيحدث ، ولذا فقد حفظ في اليوم السابق الدعاء العبري الذي كان عليه أن يلقيه بهذه المناسبة . ودوَّن هرتزل في مذكراته (كملاحظة) أنه يقود جيشاً من الصغار والشحاذين والمغفلين (وهذه هي العبارة التي استخدمها روتشيلد لوصفه حين قابله) .

وافتُتح المؤتمر يوم الأحد ٢٩ أغسطس ١٨٩٧ في صالة الاحتفالات التابعة لكازينو بلدية بازل . وأصر هرتزل أن يرتدي الحاضرون الملابس الرسمية (معطفاً طويلاً ورباط عنق أبيض ربما لتأكيد انتمائهم للحضارة الغربية الحديثة ، وابتعادهم عن الجيتو ويهود اليديشية) . وألقى نوردو خطاباً وصفه هرتزل بأنه كان المؤتمر ، وتم وضع أساس تنظيمي حديث ، وأصدر المؤتمر قرارات تُعرَف الآن باسم «برنامج بازل» الذي أصبح الوثيقة النظرية والعملية لأهداف الصهيونية حتى انعقاد المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرين (١٩٥٠) .

ولم يكن هناك مفر ، بعد تحديد الأطر النظرية والتنظيمية ، من تأسيس الأداة التنظيمية التي تتولى تحقيق الأهداف الصهيونية التي جسَّدها برنامج بازل وتكون في الوقت نفسه بمنزلة هيئة رسمية تمثل الحركة الصهيونية في مفاوضاتها مع الدول الاستعمارية الرئيسية آنذاك من أجل استمالة إحداها لتبنِّي المشروع الصهيوني . ولهذه الأغراض ، تأسست المنظمة الصهيونية خلال المؤتمر الصهيوني الأول كإطار يضم كل اليهود الذين يقبلون برنامج بازل ويسددون رسم

العضوية (شيكل) . وقد أُنيطت بالمنظمة مهمة إقامة الدولة الصهيونية لتحقيق الخلاص ليهود العالم أجمع ، وانتُخب هرتزل أول رئيس للمنظمة .

وقد اتسع نشاط المنظمة الصهيونية في السنوات القليلة التالية للمؤتمر الصهيوني الأول . ولكي يتَسنَّى لها تنفيذ مخططها الاستيطاني ، عملت المنظمة على إنشاء عدد من المؤسسات المالية لتمويل المشروع الصهيوني ، وكانت أبرز هذه المؤسسات :

ـ صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار . وقد تأسس عام ١٨٩٩ لتمويل النشاطات الصهيونية الاستيطانية في فلسطين ، ولتدبير الموارد المالية التي تحتاج إليها الحركة الصهيونية . وفي عام ١٩٠٣ ، أنشأ الصندوق فرعاً مصرفياً في يافا تحت اسم «الشركة البريطانية الفلسطينية» برأسمال قدره ٤٠ ألف جنيه إسترليني ، كما أنشأ عدة فروع أخرى في هولندا وألمانيا (وقد سُمِّيت الشركة فيما بعد «البنك البريطاني الفلسطيني» ، ثم سُمِّيت «بنك ليئومي ليسرائيل» منذ عام ١٩٥١) .

ـ الصندوق القومي اليهودي . وقد تأسَّس عام ١٩٠١ بهدف توفير الأموال اللازمة لشراء الأراضي في فلسطين لصالح المستوطنين الصهاينة . ونص قانون النظام الأساسي لهذا الصندوق على اعتبار الأراضي التي يشتريها ملكية أبدية للشعب اليهودي لا يجوز بيعها ولا التصرف فيها .

وبعد تأسيس المنظمة الصهيونية ، انتقل النشاط الصهيوني من مرحلة البداية الجنينية ذات الطابع المحلي إلى مرحلة العمل المنظم على الصعيد الغربي . ولكن هرتزل كان قد بدأ نشاطه قبل ذلك إذ كان قد قام بعدة اتصالات مع بعض الشخصيات الاستعمارية ، وساعده على ذلك الصهيوني غير اليهودي هشلر .

ولكن ، حتى بعد تأسيس المنظمة ، كان هرتزل يدرك أن منظمته لا تمثل أحداً ، أو أنها تمثل أقلية من اليهود لا يُعتدُّ بها ، وأن العنصر الحاسم ليس المنظمة وإنما هو الدولة الراعية . ولذا ، فقد تَجاهَل منظمته وبدأ بحثه الدائب عن قوة غربية ترعى المشروع . فقد كان يعلم تمام العلم أنه لو حصل على مثل هذه الموافقة فسترضخ له المنظمة وتتبعه ، وخصوصاً أنها لم تكن تملك بديلاً ، كما أن الصهاينة التسلليين كانوا يعلمون أن المشروع الصهيوني كان قد وصل بقيادتهم إلى طريق مسدود .

ومن هنا ، فإن التفسير التقليدي لسلوك هرتزل بأنه زعيم دكتاتوري وشخصية أوتوقراطية أرستقراطية هو تفسير يحاول تطبيع النسق الصهيوني ، أي النظر إليه على أنه نسق طبيعي يتم تفسيره باستخدام القواعد نفسها التي تُستخدَم في تفسير الأنساق المماثلة . وفي هذا خلل منهجي أساسي ، فالصهيونية ظاهرة لها قوانينها الخاصة ، وأحد قوانينها الأساسية أنها حركة سياسية بلا جماهير . وهذا ما اكتشفه هرتزل منذ البداية ، ولذا فلا يمكن اتهامه بالدكتاتورية ، فقد كان عملياً أكثر من العمليين ، مدركاً لما فشل الصهاينة الديموقراطيون في إدراكه ، كما كان يعرف كيف يتصل بممثلي الحضارة الغربية ويعرف كيف يتحدث لغتهم وكيف يعرض عليهم العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية .

وانطلاقاً من هذا ، تَخطَّى هرتزل الجميع (الجميع كانوا تقريباً من شرق أوربا) . وقد بدأ اتصالاته الدبلوماسية أو فلنقل إنه استمر فيها باعتبار أنه كان قد قام باتصالات قبل ذلك . ومن الشخصيات التي اجتمع بها لعرض مشروعه الصهيوني ، ملك إيطاليا (عمانوئيل الثالث) ووزير داخلية روسيا (فون بليفيه) وكان شخصية مكروهة تماماً من يهود روسيا . ولكن هرتزل ركَّز معظم جهوده على القوتين الاستعماريتين العظميين آنذاك : ألمانيا وبريطانيا ، وهما أيضاً القوتان اللتان كان لهما تطلعات استعمارية في الشرق الأوسط ، وكانتا تتنافسان على حماية ومساعدة الباب العالي . ولم يكن هرتزل مُنظِّراً من الدرجة الأولى ، ولكنه كان صحفياً يرصد الأحداث بذكاء ويتسم بحس عملي فائق ، ولذلك فإنه بعد أن قضى بضع سنوات يغازل ألمانيا (والباب العالي) اكتشف أن الطريق إلى فلسطين يبدأ في لندن ، فحمل أمتعته وذهب إلى هناك حيث وجد جوزيف تشامبرلين (وزير المستعمرات البريطاني في وزارة بلفور) شخصاً متفهماً لمشروعه ، متقبلاً للفكرة المبدئية وهي حل مسألة يهود شرق أوربا على الطريقة الاستعمارية ، أي نَقْلهم إلى الشرق . ولكن وقت تقسيم الدولة العثمانية لم يكن قد حان بعد ، ولذا اقترح وزير المستعمرات على هرتزل أن يبحث عن أي أرض أخرى داخل الإمبراطورية الإنجليزية (قبرص ـ العريش ـ شرق أفريقيا) . وبعد عدة دراسات واقتراحات واتصالات ، استقر الرأي على شرق أفريقيا بناءً على نصيحة تشامبرلين ، ولكن الخطة لم يُكتَب لها النجاح . ومع هذا ، يمكن القول بأنه تم من خلالها إجراء أول بروفة لتوقيع العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن يهود العالم واتخاذ الإجراءات الأولية لتأسيس مُستوطَن صهيوني .

جذور العنف الصهيوني في أفكار هرتزل

Roots of Zionist Violence in Herzl's Ideas

طوَّر هرتزل الخطاب المراوغ ودعا كل الأطراف (العالم الغربي

ويهود العالم بشقيه الغربي والشرقي) لتوقيع العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية .

ولكن هناك طرفاً لم يُدعَ للتوقيع ، رغم أنه سيضار حين يُوضَع العقد موضع التنفيذ ، ألا وهو العرب . فقد ذكر هرتزل هذا الطرف بشكل عابر أحياناً في معرض نقده للصهيونية التسللية التي لم تدرك أن المستوطنين الأصليين (العرب وربما الهنود في الأرجنتين) سيشعرون بأنهم مهددون فيضغطون على الحكومات المعنية فتضطر هذه الحكومات لإيقاف التسلل . ولا يرد لهم ذكر في **دولة اليهود** أو في الخطاب الذي ألقاه أمام المؤتمر الأول (١٨٩٧) ، أي في الوثائق العلنية الموجهة للصهاينة . ولكن هناك وثائق علنية أخرى موجهة للرأي العام مثل **الأرض الجديدة القديمة** حيث يُقدِّم هرتزل صورة وردية لمصير العرب من مواطني الدولة اليهودية الذين سيزدادون رخاءً وسينعمون بالهناء . وقد كتب هرتزل عام ١٨٩٩ خطاباً لأحد القادة الفلسطينيين يبشره بالرفاهية التي ستعم والثروة التي ستزيد . ولكن ، مهما كانت رقة قلب هرتزل ، فإن العرب والسكان الأصليين لم يُدعَوا لتوقيع العقد ، فسيادة الدولة اليهودية مصدرها الغرب ، والحكومات المعنية يمكن أن تسبب المضايقات ، أما السكان الأصليون فلا أهمية لهم . وهرتزل لم يكن فريداً في هذا ، فتحديث الغرب على الطريقة الاستعمارية كان يفترض أن يدفع الشرق فواتير التقدم الغربي . وبالتالي ، فإن السكان الأصليين ليسوا ضمن عملية التحديث وإنما يقعون خارجها تماماً . ولذا ، فإن الإغفال والتغييب جزء من النظام الإدراكي الغربي الحديث للآخر ، ومن ثم يصبح العنف هو الآلية المحضة لتنفيذ المشاريع التي تتحرك في إطار القانون الدولي العام أي القانون الاستعماري الغربي .

ولكن هرتزل ، بمراوغته ، لا يتحدث قط عن العنف في الوثائق العامة ، إلا من إشارة عابرة للمكابيين في **دولة اليهود** ، وهي إشارة يمكن أن تُفهَم على أن المقصود بعث عسكري وليس بالضرورة عنفاً ضد العرب . والتفسير نفسه يمكن أن ينطبق على خطابه للبارون دي هيرش حين ذكر خطته التي تهدف لأن يخلق من البروليتاريا اليهودية المثقفة (المفكرين المتوسطين الذي يتحدث عنهم في **دولة اليهود**) شيئاً نافعاً " جنود وكوادر الجيش الذي سيبحث عن الأرض ويكتشفها ثم يستولي عليها " . وعلى أية حال ، فإن العنف يطل برأسه في كلمة «يستولي» . والأمر يختلف قليلاً في اليوميات التي يختلط فيها الإعجاب بالعسكرية البروسية بالحديث عن كيفية الاستيلاء على الملكية الخاصة للسكان الأصليين وكيفية استخدامهم لقَتْل الثعابين وتأمين عمل لهم في بلاد أخرى (كما دوَّن في مذكراته عام ١٨٨٥) . وفي عام ١٩٠٢ ، كتب هرتزل لتشامبرلين عن مصير السكان الأصليين في قبرص إن وقعت في الدائرة الصهيونية الحلولية المقدَّسة الفاتكة : " سيُرحِّل المسلمون ، أما اليونانيون فسيبيعون أرضهم بكل سرور نظير سعر جيد ثم يهاجرون إلى أثينا أو كريت " ، أي أن الاستيلاء على الأرض وإخلاءها من سكانها هو الافتراض الكامن في كتاباته ، فالعنف رابض بين السطور ، يتحين الفرصة لكي يتحقق ، وينتظر اللحظة المواتية كي ينهمر الرصاص ويسقط النابالم . ومما يجدر ذكره أن هرتزل لا يستبعد استخدام العنف ضد اليهود أنفسهم (إن رفضوا الخضوع للرؤية الصهيونية) كما يتضح في مفهوم غزو الجاليات .

صهيون بدون صهيونية

Zion Without Zionism

«صهيون بدون صهيونية» اصطلاح استخدمه الصهاينة الإثنيون (الدينيون والعلمانيون) للإشارة إلى تَصوُّر هرتزل وغيره من الصهاينة لدولة اليهود ، فهي دولة كانت تشكل إطاراً يُستوعَب فيه الفائض اليهودي وحسب ، ولم تكن له أية معالم أو قسمات يهودية مميَّزة . والصهاينة الإثنيون كانوا محقين إلى حدٍّ ما في موقفهم ، فالصهاينة التوطينيون في مرحلة ما قبل بلفور كانوا مهتمين بشيء واحد هو التخلص من الفائض البشري اليهودي اليديشي وبأسرع وقت ممكن بإلقائه في أي مكان متاح . ولكنهم لم يكونوا محقين بشكل مطلق إذ أن صياغة هرتزل الهلامية تركت الباب مفتوحاً أمام سائر الديباجات الصهيونية الممكنة ، فهي لم ترفض الصهيونية الإثنية وإنما كانت غير مكترثة بها وحسب .

٩
الصهيونية السياسية

الصهيونية السياسية ـ الصهيونية الدبلوماسية (الاستعمارية) ـ كريمنسكي ـ ولفسون ـ سوكولوف ـ أوسيشكين ـ نوردو ـ ووربورج ـ كلاتزكين

الصهيونية السياسية

Political Zionism

«الصهيونية السياسية» اصطلاح مرادف لما يُسمَّى «الصهيونية الدبلوماسية».

الصهيونية الدبلوماسية (الاستعمارية)

Diplomatic (Colonial) Zionism

«الصهيونية الدبلوماسية» اصطلاح مرادف لاصطلاح «الصهيونية السياسية»، ونحن نفضل الاصطلاح الأول لأنه أكثر تفسيرية وارتباطاً بالظاهرة موضع الدراسة. كما أن كلمة «سياسية» مصطلح شديد العمومية يفترض أن الصهيونيات الأخرى ليست سياسية. وكلمة «سياسية»، في هذا المصطلح، تعني في واقع الأمر «المناورات السياسية» أي «الجهود الدبلوماسية». ولذا، فإن الاصطلاح يشير إلى إجراءات تؤدي إلى تحقيق الهدف الصهيوني، وحيث إن هذه الإجراءات تتحد في السعي لدى القوى الاستعمارية لضمان تأييدها للمُستوطَن الصهيوني، فإن المصطلح يجب أن يكون «الصهيونية الدبلوماسية الاستعمارية». ولكننا سنكتفي باستخدام المصطلح دون إضافة أية صفات، فهي أمر مفهوم، وخصوصاً أن كل الاتجاهات الصهيونية استعمارية.

ويُستخدَم اصطلاح «الصهيونية السياسية» أو «الصهيونية الدبلوماسية» للتفرقة بين الإرهاصات الصهيونية الأولى التي سبقت ظهور هرتزل، مثل جماعات أحباء صهيون (ونضيف لها الصهيونية التوطينية لأثرياء اليهود في الغرب)، والحركة الصهيونية التي نظَّمها هرتزل، وتعود بداياتها إلى عام ١٨٩٦ (تاريخ نشر **دولة اليهود**). ولم تكن قيادة التنظيمات الصهيونية في مرحلة ما قبل هرتزل تدرك ضرورة وحتمية الاعتماد على الإمبريالية لوضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ، وقد كانت تظن أن الاستيطان في فلسطين سيتم بالجهود الذاتية بالاعتماد على الصدقات التي يقدِّمها أثرياء اليهود دون حاجة إلى ضمانات استعمارية. أما هرتزل، فقد أدرك حتمية الاعتماد على الإمبريالية من البداية، ومن ثم ضرورة أن تسبق الجهود الاستيطانية التسللية جهود دبلوماسية تهدف إلى تأمين الدعم الغربي الاستعماري للمشروع الصهيوني. وقد عرَّف وايزمان الصهيونية السياسية (الدبلوماسية) بأنها تعني جَعْل المسألة اليهودية عالمية، أي جزءاً من المشروع الاستعماري الغربي.

والصهيونية الدبلوماسية تختلف عن صهيونية غير اليهود في أن المؤمنين بها من أعضاء الجماعات اليهودية، ولكنها لا تختلف عنها في أنها تنظر لليهود من الخارج باعتبارهم فائضاً بشرياً يجب التخلص منه بإنشاء دولة وظيفية له. فالصهاينة الدبلوماسيون هم عادةً إما يهود جاءوا من ألمانيا أو يهود ذوو خلفية ألمانية أو غربية حديثة، ولذا فهم مبتعدون تماماً عن اليهودية بالمعنى الإثني الديني أو العلماني، فهم يهود غير يهود. ولكنهم، مع هذا، وجدوا أنفسهم متورطين في المشروع الصهيوني لأن أعداء اليهود صنفوهم يهوداً، ولأن وصول يهود اليديشية هدَّد مواقعهم وتطلَّب منهم تحركاً سريعاً أخذ شكل الصهيونية التوطينية. فالصهاينة الدبلوماسيون لا يهتمون بالمشروع الصهيوني إلا باعتباره مشروعاً لتخليص أوربا من الفائض البشري، ولذا فإنهم لم يعيروا التوجه السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي أي اهتمام. وهم، بسبب معرفتهم بالعالم الغربي، كانوا قادرين على أن يقوموا بدور الجسر بين الغرب وبين المادة البشرية المُستهدَفة في شرق أوربا، يتحدثون مع كل عالم بلغته، ولذا فقد تمكنوا من صياغة العقد الصهيوني الصامت وبَذْل الجهود السياسية أو الدبلوماسية التي أدَّت إلى عقد أو وعد بلفور.

وبعد إصدار وعد بلفور، لم تَعُد هناك ضرورة لبذل مثل هذه الجهود. ولذا، فقد اختفت الصهيونية السياسية أو الدبلوماسية وتبنَّى يهود العالم الغربي المندمجون صيغة توطينية أخرى هي «الصهيونية العمومية» و«الصهيونية التصحيحية» وما يُسمَّى «صهيونية الشتات». وهرتزل هو المناور الصهيوني الأكبر بلا منازع، وواضع أُسس الصهيونية السياسية أو الدبلوماسية، ومن أهم أتباعه ماكس نوردو وجيكوب كلاتزكين.

يوهان كريمنسكي (١٨٥٠-١٩٣٤)

Johan Kremenesky

صهيوني توطيني وأول رئيس للصندوق القومي اليهودي ، وهو مهندس ورجل صناعة روسي . وُلد في أوديسا واستقر في فيينا عام ١٨٨٠ . أسَّس مع بوريس جولدبرج مصنع السليكات في تل أبيب عام ١٩٢٠ ، وكان قد أصبح من أهم رجال الصناعة الأوربيين في مجال الصناعات الكهربائية على وجه الخصوص . اشترك مع هرتزل في المنظمة الصهيونية ، وأصبح عضواً في اللجنة التنفيذية منذ المؤتمر الأول (١٨٩٧) وظل عضواً بها حتى عام ١٩٠٥ . وأسَّس كريمنسكي الصندوق القومي اليهودي بناءً على توصية منه للمؤتمر الصهيوني الخامس (١٩٠١) . ظل رئيساً للصندوق إلى أن انتقل من فيينا إلى كولونيا بألمانيا . جعله هرتزل أحد منفذي وصيته ، فأسَّس أرشيف هرتزل .

ديفيد ولفسون (١٨٥٦-١٩١٤)

David Wolffson

زعيم صهيوني ، وثاني رؤساء المنظمة الصهيونية العالمية . وُلد في ليتوانيا وتلقى تعليماً تقليدياً وانتقل إلى ألمانيا عام ١٨٧٢ . شارك في تجارة الأخشاب عام ١٨٨٨ ، واستقر في كولونيا بألمانيا حيث تخلَّى عن إيمانه باليهودية الأرثوذكسية . مارس نشاطه الصهيوني من خلال الجمعية الأدبية اليهودية في كولونيا حيث كان يحاضر عن التلمود والقبَّالاه . وفي هذه الجمعية ، قابل ماكس بودنهايمر وأسسا سوياً (عام ١٨٩٣) جمعية لتوطين اليهود في فلسطين على مبادئ أحباء صهيون .

تعرَّف إلى أفكار هرتزل من خلال كتاب **دولة اليهود** . وبعد قراءة الكتاب ، سافر فوراً إلى فيينا حيث قابل هرتزل وقامت بينهما صداقة قوية ، وقد كان كل منهما يكمل الآخر فأحدهما ذو خلفية ليبرالية اندماجية وسط أوربية علمانية والآخر ذو خلفية محافظة أرثوذكسية شرق أوربية متدينة . وقد أخبره هرتزل بجهله التام بمن سبقه من المفكرين الصهاينة وبحال اليهود في شرق أوربا . وأكد ولفسون لهرتزل أهمية الجماهير اليهودية في شرق أوربا كمادة استيطانية لإنجاح الفكرة الصهيونية التي نادى بها هرتزل .

أسَّس ولفسون صندوق الائتمان اليهودي ، واختلف مع هرتزل في أسلوب إدارته حيث كان هرتزل يرى الصندوق أداة سياسية بينما كان ولفسون يراه مشروعاً مالياً . عمل ولفسون بشكل دءوب على توحيد الحركة الصهيونية بالعمل كوسيط بين هرتزل ومعارضيه . وبعد موت هرتزل ، ورغم معارضة الصهاينة العمليين ، تسنَّم ولفسون منصب رئيس المنظمة الصهيونية العالمية بعد امتناع ، وحرص أثناء عمله على توحيد صفوفها . وقابل لفسون عدة شخصيات أوروبية حاكمة لتسهيل حركة الصهاينة في أوربا . لم يُجدَّد انتخابه عام ١٩١١ رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية ، لكنه ظل رئيساً لصندوق الائتمان اليهودي وهو ما يدل على نجاح سياسته المالية العملية .

ناحوم سوكولوف (١٨٥٩-١٩٣٦)

Nahum Sokolov

صحفي وكاتب بولندي ، وأحد قادة الحركة الصهيونية والمؤرخ الرسمي لها . تلقَّى تعليماً تقليدياً ، وأبدى اهتماماً بقضية إحياء اللغة العبرية ، وكَتَب قصصاً وأشعاراً ومسرحيات بالعبرية (وكان مُلمَّاً بلغات أخرى مثل اليديشية والألمانية والفرنسية والإسبانية والإيطالية) . وكان سوكولوف يُعَدُّ أول كاتب عبري يقرؤه اليهود الدينيون والعلمانيون . لم يكن في البداية متحمساً لحركة أحباء صهيون ، فكتب مهاجماً بنسكر وكراسته . وقد ظل على موقفه الرافض للصهيونية ، فهاجم كتاب هرتزل **دولة اليهود** . ولكنه ، بعد حضوره المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، تغيَّر مجرى حياته وأصبح من كبار المعجبين بهرتزل ، وترجم أعماله إلى العبرية (١٨٨٥) كما ترجم أعمال لورانس أوليفانت الصهيوني غير اليهودي . نشر سوكولوف كتاباً سنوياً بالعبرية طوَّر من خلاله أسلوباً عبرياً كان له أكبر الأثر في تطوير اللغة العبرية . ولسوكولوف عدة مؤلفات حاول أن يشرح فيها وجهة النظر الصهيونية أحدها بعنوان **الكراهية الأزلية للشعب الخالد** . وكما هو واضح من عنوان الكتاب ، يطرح سوكولوف الرؤية الصهيونية لظاهرة معاداة اليهود باعتبارها ظاهرة لصيقة بالنفس البشرية . وله مُؤلَّف آخر بعنوان **إلى سادتنا وأساتذتنا** يحاول أن يشرح فيه لليهود المتدينين لماذا يجب عليهم أن يصبحوا صهاينة .

ولكن أهم كتب سوكولوف كتابه الشهير **تاريخ الصهيونية** (١٩١٧) الذي يحلل فيه الجذور الغربية للفكرة الصهيونية ، وهو يُعَد أول تاريخ للصهيونية وبمنزلة تاريخها الرسمي . والكتاب سرد نثري ممل يتسم بالتجميع المباشر دون تحليل أو تفسير ، إذ قام سوكولوف بجمع كل الأقوال الغربية التي تدعو لإرجاع اليهود إلى فلسطين وتأسيس دولة مستقلة لهم فيها . ويتجلى ضعف مقدراته التحليلية في تعريفه أهداف الصهيونية على النحو التالي وبهذا الترتيب :

١ ـ وطن مادي لليهود الذين يعانون من الناحيتين المادية والمعنوية .
٢ ـ وطن للتعليم اليهودي والعلم والأدب اليهودي .
٣ ـ نموذج مثالي لليهود في كل العالم .
٤ ـ مكان يستطيع اليهود أن يعيشوا فيه حياة يهودية صحية .
٥ ـ بعث لغة الكتاب المقدَّس .
٦ ـ بعث الوطن الذي أُهمل طويلاً ودُمِّر وذلك من خلال الحضارة والمثابرة .
٧ ـ خلق طبقة زراعية يهودية صحيحة وقوية .

وهو تعريف هلامي تماماً يضم كل شيء بدون أي ترتيب منطقي ويعطي لكل فرد ما يريد . وهذا التعريف لا يلقي الضوء على مضمون فكر سوكولوف المُشوَّش وحسب وإنما على شكله أيضاً ، فتاريخ الصهيونية الذي كتبه عمل يدل على أن كاتبه لا يدرك دلالة كثير من المعطيات والحقائق التي يوردها ، وكثيراً ما لا يفهم أبعاد ما يقول . وقد كتب سوكولوف كتاب **أحباء صهيون** (١٩٣٤) .

غير أن اهتمامات سوكولوف الأدبية والفكرية لم تَحُل دون أن يصبح زعيماً صهيونياً بارزاً ، ففي الفترة من عام ١٩٠٧ حتى عام ١٩٠٩ كان يشغل منصب السكرتير العام للمنظمة الصهيونية العالمية كما كان مسئولاً عن إصدار صحيفة **دي فيلت** الناطقة باسم الحركة الصهيونية بالألمانية . ولم يكن سوكولوف مقتنعاً بالأساليب الدبلوماسية وحدها وإنما كان من أنصار الصهيونية العملية (التسللية) . وعقب خلافه مع ولفسون ، اعتزل عام ١٩٠٩ . إلا أنه سرعان ما عاد عام ١٩١١ عضواً في المجلس التنفيذي الصهيوني واقترح تشجيع العرب على بيع أراضيهم في فلسطين وأن يتوطنوا في أماكن مجاورة . وبنشوب الحرب العالمية الأولى ، أُوفد إلى إنجلترا مع وايزمان للحصول على تأييدها للحركة ، كما قام بمهام مماثلة في إيطاليا وفرنسا . وبالفعل ، حصل في مايو ١٩١٧ على تصريح رسمي فرنسي مؤيد للحركة الصهيونية ، ثم على وعد بلفور من إنجلترا في نوفمبر من العام نفسه . وفي أعقاب الحرب ، ترأس سوكولوف الوفد الصهيوني إلى مؤتمر السلام في باريس عام ١٩١٩ . ومع صعود نجمه ، اختاره المؤتمر الصهيوني الثاني عشر (١٩٢١) رئيساً للمجلس التنفيذي للمنظمة الصهيونية العالمية ، كما عمل ممثلاً للصندوق التأسيسي اليهودي في عدد من البلدان ورئيساً للجنة التنفيذية للوكالة اليهودية الموسعة (١٩٢٩) ورئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية في الفترة بين عامي ١٩٣١ و١٩٣٥ . والتقى سوكولوف بموسوليني عام ١٩٢٧ وعام ١٩٣٣ حيث حصل على تصريح بتأسيس لجنة إيطالية لدعم المشروع الصهيوني في فلسطين .

وفي عام ١٩٣٥ ، تولَّى القسم الثقافي في المنظمة الصهيونية العالمية وساهم في تأسيس اتحاد الكتاب العبريين في إرتس يسرائيل .

أبراهام أوسيشكين (١٨٦٣-١٩٤١)

Abraham Ussishkin

زعيم صهيوني روسي ، وُلد لأسرة حسيدية ونشأ نشأة تقليدية . وفي عام ١٨٨١ ، أسس في جامعة موسكو جماعة صهيونية للهجرة إلى فلسطين مع صديقه ياهيل تشيلنوف . زار فلسطين ووقف ضد آراء آحاد هعام المعارضة للمستوطنات التي تقيمها حركة أحباء صهيون والتي كان أوسيشكين عضواً في لجنتها التنفيذية منذ ١٨٨٥ . اتصل بزعماء اليهود الأتراك عقب ثورة تركيا الفتاة ، وأثناء الحرب العالمية الأولى تبنَّى أوسيشكين فكرة حياد الصهيونية على أساس التعاون مع المنتصر . ومع وعد بلفور ، تحمَّس للبريطانيين بشدة . وكان من أعضاء الوفد اليهودي في مؤتمر السلام بباريس . واستقر في فلسطين بعدئذ حيث ترأس اللجنة الصهيونية . ولم يُجدَّد انتخابه عام ١٩٢٣ في اللجنة التنفيذية بسبب معارضته حاييم وايزمان ، ولكنه انتخب في العام نفسه رئيساً للصندوق القومي اليهودي . وقد عارض أوسيشكين المشروع البريطاني لتقسيم فلسطين عام ١٩٣٧ ، وتُوفي في القدس عام ١٩٤١ .

ماكس نوردو (١٨٤٩-١٩٢٣)

Max Nordau

مفكر يهودي ألماني ، وزعيم صهيوني سياسي . اسمه الأصلي سيمون ماكسيميليان سودفيلد ، وقد غيَّر اسمه إلى ماكس نوردو أي ماكس النوردي . وُلد في المجر حيث تلقَّى دروساً في اللغة العبرية وفي اللادينو على يد أبيه الحاخام الأرثوذكسي السفاردي . ولكن نوردو ، مع هذا ، بدأ يبتعد عن التقاليد اليهودية وينغمس في الثقافة الألمانية مثل هرتزل . وفي عام ١٨٧٥ ، بدأ نوردو في دراسة الطب في جامعة بودابست ثم في باريس . وفي عام ١٨٨٣ ، ظهر كتابه **أكاذيب حضارتنا التقليدية** حيث حمل على الدين والحضارة باسم العلم والفلسفة الوضعية ، ثم شن هجومه على مجموعة من الكُتاب (مثل إبسن وماترلنك) متهماً إياهم بالنفاق والانحطاط والمرض العقلي (وذلك في الكتب التالية : **مفارقات و مرض العصر والانحطاط**) . وقد اعتبر نوردو نفسه وهو في ذروة حياته الأدبية مواطناً أوربياً لا وطن له ولا قومية ، وقد كان متأثراً في تفكيره بكل من نيتشه وفاجنر وزولا وإبسن ، وبما نسميه «الرؤية المعرفية العلمانية

الإمبريالية» ، وقد دعا إلى حل مشاكل أوربا الاجتماعية بالعنف وعن طريق تصدير فائضها البشري إلى الشرق (وذلك قبل تبنّيه العقيدة الصهيونية) .

وفي عام ١٨٩٢ ، تعرَّف هرتزل إلى نوردو وفاتحه في فكرة الدولة الصهيونية فوافق عليها ثم أصبح بعدها ساعد هرتزل الأيمن . وقد كان لاعتناق نوردو العقيدة الصهيونية فضل كبير في إظهارها بمظهر تقدُّمي أمام المثقفين اليهود في العالم الغربي . وقد ألقى نوردو الخطاب الافتتاحي عن وضع اليهود في العالم ، وذلك خلال المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، واستمر على هذا المنوال حتى المؤتمر العاشر (١٩١١) . وقد لعب نوردو دوراً بارزاً في صياغة برنامج بازل ، كما أيد مشروع شرق أفريقيا ، ولكنه وصف الوطن اليهودي الذي سينشأ هناك بأنه مجرد ملجأ "لمدة ليلة واحدة" قاصداً أنه نقطة عبور للأرض المقدَّسة(حاول شاب صهيوني اغتيال نوردو «الشرق أفريقي») .

وبعد موت هرتزل ، عُرِضت عليه رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية ، ولكنه رفض ذلك لأسباب عدة من بينها أنه كان متزوجاً من مسيحية وآثر أن يظل مستشاراً سياسياً لخلفاء هرتزل . وقد بدأ نجمه يخبو باستيلاء العناصر التي يُطلَق عليها «العناصر العملية» (من شرق أوربا) وهي العناصر المهتمة بالاستيطان التسللي أكثر من اهتمامها بالمفاوضات الدبلوماسية مع القوى الاستعمارية . وحينما اختار المؤتمر العاشر (١٩١١) لجنة تنفيذية من أعضاء "عمليين" ، كان هذا آخر مؤتمر يحضره . ولكنه في عام ١٩٢٠ ، أي بعد وعد بلفور ، حضر المؤتمر الصهيوني في لندن .

كان نوردو يعتبر نفسه تلميذاً لهرتزل ، ويصف كتابه **دولة اليهود** بأنه عمل عظيم ونبوءة وبأنه "كتاب سيحل محل العهد القديم" ، ويمكن القول بأنه كان وريث هرتزل الحقيقي ، أي وريث الصهيونية الدبلوماسية ، وهو من أهم المساهمين في صياغتها . وقد كان نوردو صهيونياً دبلوماسياً متطرفاً لا يميل إلى الصياغة الإثنية (دينية كانت أو علمانية) ، ولا إلى الصياغة العمالية الاشتراكية ، فقد كان صهيونياً يهودياً غير يهودي يؤمن بكفاية الصياغة الدبلوماسية . وكان يرى الصهيونية حركة لإخلاء أوربا من اليهود بنقلهم إلى أي مكان وفي أقصر وقت . وقد ظل طوال حياته يهاجم التيارات الصهيونية الأخرى ، فهاجم بطبيعة الحال حركة أحباء صهيون الاستيطانية التسللية ، كما هاجم دعاة الصهيونية الإثنية بشقيها الديني واللا ديني ، وبيَّن أن إنشاء مركز روحي لن يحل مشكلة اليهود في العالم . وسَخِر من العصبة الديموقراطية وشعاراتها ونشاطها . وأخيراً ، فقد بيَّن أن العدالة تتحقق من داخل الصهيونية ، ولا حاجة لها بالصهيونية الاشتراكية ، وحذر اليهود من خيبة الأمل في الحركات الثورية .

ينطلق فكر نوردو الصهيوني من القول بأن حركة الانعتاق هي حجر الزاوية الأساسي في تاريخ الجماعات اليهودية ، فقد كانت نتاج الحركة العقلانية في الغرب . وقد منحت هذه الحركةُ اليهودَ حقوقاً سياسية ، ولكنها لم تُغيِّر الواقع الاجتماعي . ولهذا ، فقد ظهر تناقض حاد بين الانعتاق السياسي (الشكل الخارجي المجرد) والأحاسيس الشعبية (المتعينة) الرافضة لليهود . هذا هو الوضع في العالم كله ، باستثناء إنجلترا ، لأن الدستور الإنجليزي نابع من تطوُّر عضوي بطيء ، ولم يُفرَض فرضاً من الخارج ، أي أن الشكل السياسي يتطابق مع الوعي الاجتماعي في إنجلترا ، ولهذا فلا يُوجَد أي أثر لمعاداة اليهود هناك .

وانطلاقاً من رفضه للانعتاق ، يرسم نوردو صورة إيجابية للجيتو الذي حمى الذات اليهودية خلال عهود الظلام بما يضم من عناصر تضامن بين اليهود . ثم جاء عصر الانعتاق ، فتَحطَّم الجيتو ولم يبق هناك إطار للهوية اليهودية ، وفقد اليهودي هويته ولم يكتسب الهوية الجديدة ولم تَعُد له مكانة في العالم . ومن هنا ، استخدم نوردو اصطلاح «المارانو الجديد» : يهودي لا يمكنه أن يصبح ما يريد ، أي يهودي يود ترك يهوديته ليصبح عضواً في أمة غير يهودية ، فحتى التنصر لم يَعُد وسيلة مقبولة للتخلص من اليهودية . فدعاة القومية العضوية في أوربا كانوا يرون أن الإنسان يُولَد بهويته . وهكذا يكون اليهودي المندمج منافقاً ومارانو (مرائي) حينما يرى نفسه أوربياً . بل يرى نوردو أن اليهود المندمجين يبالغون في ادعاءاتهم الوطنية وفي الانتماء لبلادهم أكثر من بقية المواطنين . والواقع أن ما يسميه نوردو «المارانو الجديد» هو ما يسميه دويتشر «اليهودي غير اليهودي» .

وقد طوَّر نوردو صورة المارانو المجازية واستخدم صورة مجازية بيولوجية عضوية إذ شبَّه اليهود بالبكتيريا : كائنات دقيقة لا تراها العين ولكنها في واقع الأمر تقوِّض المجتمع من الداخل وتَفُت في عضده ، وذلك إن لم تُعرَّض للشمس (أي إن لم تُرحَّل إلى أرض الميعاد) .

وكان نوردو من أكثر المفكرين الصهاينة إيماناً بعدالة معاداة اليهود ووجاهتها . وكان ، مثل هرتزل ، لا يعرف عن اليهودية إلا القليل ، بل كان يرى أنها شيء مقزز وأنها هي المسئولة عن مصيبة اليهود . ولذا ، فإن الحل هو الصهيونية التي ستريح أوربا من اليهود

وتمنحهم هوية جماعية جديدة . والصهيونية تختلف تماماً عن الدين اليهودي والتطلعات المشيحانية ، فهي نابعة من داخل المجتمع الغربي ، أي من المسألة اليهودية ومن ظاهرة معاداة اليهود ، وهي الحل الحديث لمشكلة حديثة لا علاقة لها بالأوهام الدينية . فالصهيونية تعرض حل المسألة اليهودية في إطار السياسة العالمية (أي الإمبريالية) عن طريق نقلهم إلى فلسطين حيث سيتخلصون من صفاتهم الطفيلية ويتحولون إلى شعب مثل كل الشعوب ويكتسبون هوية عادية ، وبذا يتحول الشعب المنبوذ أو الطبقة المنبوذة إلى جزء لا يتجزأ من الحضارة الغربية (مادة استيطانية بيضاء) عن طريق إلحاقها بالمشروع الاستيطاني الغربي . وفي المجتمع الصهيوني ، سيظهر الإنسان اليهودي الجديد الذي لا علاقة له بيهود المنفى ، فهذا هو اليهودي ، ذو العضلات ، الذي كان يُبشر به هرتزل .

ويُقسِّم نوردو اليهود إلى قسمين : أثرياء اليهود ، والحاخامات، والفريقان يكوِّنان القيادة التقليدية التي يمكن أن تستغنى الصهيونية عنها وتحل محلها . أما فيما يتصل بالتمويل ، فيمكن الاعتماد على الطبقات الوسطى والفقيرة اليهودية وكذلك على العالم المسيحي (أوربا الاستعمارية) . يبقى بعد ذلك ، الطبقة العاملة اليهودية وهي التي لا يمكن أن تعاديها الصهيونية أو تتنازل عنها بأي شكل من الأشكال ، فهم المادة البشرية التي ستستخدمها الصهيونية . ومعنى ذلك أن نوردو توصَّل إلى صيغة الصهيونيتين : الصهيونية الاستيطانية والصهيونية التوطينية . وقد كان نوردو من أكبر دعاة التخلص بشكل مباشر وسريع من يهود أوربا . فعرض خطة عام ١٩٢٠ لنقل ستمائة ألف يهودي ويهودية لتوطينهم في فلسطين بأي ثمن "ليعملوا هناك ، بل ليقاسوا إن كان ثمة حاجة . . . فهذه هي الطريقة الوحيدة لإقامة أغلبية يهودية في فلسطين" . وقد سبَّب الاقتراح صدمة للحاضرين في المؤتمر الصهيوني في لندن، لكن نوردو أصر على موقفه ثم عرضه مرة أخرى في عشر مقالات نشرت في مجلة **لي بيبل جويف** في باريس . وفي الواقع ، فإن اقتراحه هذا تعبير عن صهيونيته النيتشوية التي تُعلي إرادة الإنسان الفرد على الحدود والأوضاع التاريخية . وقد خيَّب الواقع ظن نوردو . وكان الزعيم الصهيوني جوزيف ترومبلدور أكثر تواضعاً إذ اقترح تكوين جيش جرار قوامه ١٠٠ ألف يهودي ، ثم خفض هذا العدد بعد ذلك إلى عشرة آلاف . ثم بعث جابوتنسكي الفكرة مرة أخرى عام ١٩٣٦ وسماها «مشروع نوردو» وهي العمود الفقري لخطة السنوات العشر التي وضعها لإجلاء اليهود من أوربا وتوطينهم في فلسطين .

وقد أدرك نوردو تماماً الطبيعة الاستعمارية العملية للدولة الوظيفية الصهيونية ، ولذا فلم يكف عن الحديث عن فائدتها وجدواها بالنسبة للقوى الاستعمارية . وقد حاول في بداية القرن أن يعرض المشروع الصهيوني باعتبار أنه قادر على المحافظة على سيطرة السلطان العثماني على فلسطين لمواجهة حركة القومية العربية . وكانت هذه أول مرة يتعرض فيها للعرب (المؤتمر الصهيوني السابع ـ ١٩٠٥) .

وقد أدرك نوردو كذلك الطبيعة الإحلالية للمشروع الصهيوني ، وتَوصَّل إلى أن إنجلترا هي القوة الاستعمارية الكبرى التي تستطيع أن تتبنَّى المشروع الصهيوني وتضعه موضع التنفيذ ، والتي يمكنها أن تنقل اليهود وأن تشيِّد دولة وظيفية لهم . وكان متيقناً من أن العرب سيعارضون المشروع الصهيوني فبدأ على طريقة الصهاينة تفسير الثورة العربية تفسيراً يؤدي إلى تغييبها . فالثورة العربية في رأيه ، تمت بقيادة المسيحيين وبعض المسلمين المتعصبين الذين أثاروا مشاعر الفلاحين الجهلة . والقومية العربية وهمٌ ولا توجد أمة عربية بمفهوم المدنية الأوربية ، والعرب مجرد قبائل وفلاحين متنازعين ، وبإمكان الصهاينة التفاهم مع العرب لو وجَّهت اهتماماتهم بعيداً عن فلسطين . وفي نهاية الأمر ، لا يوجد مجال للتفاهم مع العرب ، "وإذا حاولوا مقاومتنا ، فسوف يتضح لهم بسرعة أن قوتنا لا تقل عن قوتهم" .

ورغم فهم نوردو كثيراً من جوانب المشروع الصهيوني ، إلا أنه لم يلعب دوراً قيادياً في الحركة الصهيونية بعد موت هرتزل ، وذلك للأسباب التالية :

١ ـ ظل نوردو يتحرك في إطار الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة قبل تهويدها ، أي أنه صهيوني يهودي غير يهودي ينظر لليهود من الخارج تماماً مثل الصهاينة غير اليهود . ولم يدرك نوردو أن عمومية الصيغة الشاملة أدخلها طريقاً مسدوداً عقيماً وأن المادة البشرية المستهدفة لن تقبلها ، وبالتالي فلابد من تهويدها . وهذا ما فعلته الصهيونية التوفيقية التي استوعبت الاتجاه الدبلوماسي التوطيني والاتجاه الاستيطاني وأدخلت عليهما الديباجات الصهيونية الإثنية ، الدينية والعلمانية .

٢ ـ لم يدرك نوردو أبداً أهمية الصمت وعدم الإفصاح . فهو من دعاة الحد الأقصى العلني والحل الفوري الشامل للمسألة اليهودية ، ولعله كان في عجلة من أمره لأنه يهودي غير يهودي يود أن يُوطِّن الفائض البشري خارج أوربا ليستريح ويريح ، ثم يعاود بعد ذلك حياته واندماجيته . ولذلك ، فقد عارض المنظمة الصهيونية حين

وافقت على سلخ شرق الأردن من المنطقة المخصصة للوطن القومي اليهودي ، فقد كان يرى شرق الأردن مجالاً للتوسع السكاني يمكن أن تُوطَّن فيه ملايين اليهود . والواقع أن خطته لتغيير التركيب السكاني لفلسطين (بشكل جذري وفوري) هي أيضاً تعبير عن الموقف نفسه والعجلة نفسها . وهو ، بهذا ، يكون الأب الحقيقي للصهيونية التصحيحية ذات الديباجة اليمينية الصريحة ، والتي تهدف إلى تخليص أوربا من اليهود وإلى تطبيع اليهود والدولة اليهودية ، حتى يستريح الجميع ، وضمنهم اليهود أنفسهم من وضع اليهود المتميِّز !

عاد نوردو إلى باريس عام ١٩٢٠ ، ومات عام ١٩٢٣ بعد مرض طويل . وقد نُقلت رفاته بعد ثلاث سنوات إلى تل أبيب حيث أُطلق اسم «تلة نوردو» على قسم من المدينة . وفي عام ١٩٤٣ ، نشرت ابنته سيرة حياته ، كما نُشرت أعماله الكاملة بالعبرية .

أوتوووربورج (١٨٧١-١٩٣٧)

Otto Warburg

زعيم صهيوني ألماني الأصل من أسرة مندمجة ، وهو ثالث رؤساء المنظمة الصهيونية العالمية . تلقَّى تعليماً علمانياً كاملاً وحصل على درجة الدكتوراه في علم النبات من برلين عام ١٨٩٢ . سافر أثناء دراسته إلى عدة مناطق في آسيا وأفريقيا ودرس إمكانية زراعتها واستيطانها من قِبَل الألمان ، أي أن اهتماماته الاستعمارية الاستيطانية كانت ألمانية قبل أن تصبح صهيونية . شارك في محاولات توطين اليهود في الأناضول بدءاً من عام ١٩٠٠ ، وساهم في هذه المحاولات بماله الخاص . ثم درس إمكانية إقامة مستوطنات في قبرص ، وخطط لتوطين ملايين اليهود في العراق ، وأيَّد مشروع شرق أفريقيا . وقد ترأس ووربورج لجنة التوطين هناك ثم رأس منذ المؤتمر السادس (١٨٩٩) لجنة فلسطين .

أهم إنجازاته الصهيونية دفعه المشروع التوطيني بشكل كبير . وقد انتُخب عام ١٩١١ رئيساً للمنظمة الصهيونية ، ولكنه تنحَّى عن هذا المنصب عام ١٩٢٠ مع تنامي سيطرة يهود شرق أوربا وعدم رغبة بريطانيا في وجود ألماني على رأس المنظمة .

رأس منذ عام ١٩٢٥ قسم النبات في الجامعة العبرية ، ولكنه كان يعيش في ألمانيا ويزور فلسطين زيارات متقطعة . وقد عاش ووربورج أعوامه الأخيرة في برلين منعزلاً طريح الفراش ، وتُوفي عام ١٩٣٧ .

جيكوب كلاتزكين (١٨٨٢-١٩٤٨)

Jacob Klatzkin

كاتب روسي صهيوني وابن حاخام وعالم تلمودي . وُلد في بولندا وحصل على الثقافة الدينية التقليدية ، ثم تلقَّى تعليماً علمانياً في كلٍّ من سويسرا وألمانيا حيث درس الفلسفة على يد هيرمان كوهين ، وحصل على الدكتوراه من جامعة برن . كان كلاتزكين نشيطاً ككاتب في الدوريات العبرية . وقد ترأس تحرير **دي فيلت** بين عامي ١٩٠٩ و١٩١١ ، واشترك مع ناحوم جولدمان في تأسيس دار إشكول لنشر الكتب العبرية ، وساهم في تحرير **الموسوعة اليهودية** ، كما عمل مديراً للمكتب الرئيسي للصندوق القومي اليهودي بين عامي ١٩١٥ و١٩١٩ ، ثم استقر في سويسرا بعد عام ١٩٣٣ . وبعد أن تسلَّم النازيون الحكم في ألمانيا ، سافر إلى أمريكا (عام ١٩٤١) ، ثم عاد (بعد نهاية الحرب) إلى سويسرا حيث وافته المنية .

ولعل كتابات كلاتزكين من أهم وثائق الفكر الصهيوني نظراً لوضوحها النسبي ، وتظهر فيها معظم مقولات الصهيونية الدبلوماسية الاستعمارية بشكل واضح . وينطلق كلاتزكين من أسس بيولوجية مادية علمانية لا تَقْبل أي تجاوز للمادة أو التاريخ كظاهرة مادية ، كما ينطلق من رفض عميق لليهود واليهودية يقترب من الكره . وهو يرى أن الجماعات اليهودية ليست جديرة بالبقاء ، فهي مشوهة تشويهاً مرعباً جسداً وروحاً ، فالمنفى يُفسد شخصية الإنسان وكرامته ويُحوِّل اليهود إلى كائنات بشرية مُمزَّقة ومُحطَّمة .

ولعل الجماعات اليهودية كانت تستطيع التماسك قبل حركة التنوير نظراً لوجود الدين الذي كان بالنسبة إليهم بمنزلة «هيكل المنفى» ، ولكن هذا الهيكل المتنقل تَحطَّم مثلما تَحطَّم الهيكل الأول ، ولذا فلابد من بدء تاريخ جديد . ويُلاحظ كلاتزكين أن ثمة حلولاً مطروحة لإعادة تعريف الهوية اليهودية ويبدأ برفض مقاييس الصهيونية الإثنية (الدينية والعلمانية) . فالمقياس الديني ـ في تصوُّره ـ عرَّف اليهودي بأنه المؤمن بالدين اليهودي ، أما العلماني (الذي يُقال له الروحي) فقد عرَّف اليهودي بأنه من يتبنى القيم اليهودية ، وكلا المقياسين ذاتي يستند إلى إيمان الفرد وليس إلى صفة موضوعية (أي مادية) فيه . والواقع أن هذا النوع من التعريف يذهب إلى أن تَحقُّق الهوية اليهودية يكمن في تحقيق المثل اليهودية المطلقة أو الأخلاق اليهودية أو الجوهر اليهودي من خلال مركز روحي في فلسطين أو في أي مكان في العالم . ولذا ، فإن الدولة اليهودية ليست شيئاً جوهرياً أو أساسياً من منظور الصهيونية الإثنية . ويطرح كلاتزكين ، بدلاً من ذلك ، صيغته الهرتزلية التي يُسميها «التعريف

العلماني» ، وهي أن اليهودي هو المشارك في التاريخ اليهودي (بالمعنى المادي) والذي يملك الرغبة في الاستمرار في ذلك التاريخ .

وهو بذلك يكون قد طرح مقياساً موضوعياً وذاتياً . ثم إنه يضيف إلى ذلك عنصرين موضوعيين آخرين في طريقهما إلى التحقق : الأرض القومية واللغة القومية ، فبدونهما لا معنى للقومية، وهذه القومية لا تحقق نفسها إلا من خلال الدولة اليهودية . ويؤكد كلاتزكين أن العنصر المهم هو إقامة الدولة أو الشكل أو الإطار ، فهذا الإطار هو الذي سيضفي لوناً قومياً على المضامين الأخرى كافة . لكن مضمون حياة اليهود سيصبح قومياً عندما تصبح أشكالها قومية ، ولذا فإن استعادة الأرض غاية في حد ذاتها وعن طريقها تتحقق الحياة القومية الحرة ، ويصبح اليهود بذلك شعباً طبيعياً لا ينغمس بشكل متطرف في الفكر والروحانية وإنما يستمر في حياته القومية على أرضه ، فما يحدد حياة الأمة هو الأرض واللغة وليس الأفكار الدينية أو الثقافية ، فالاهتمام بهذه الأمور علامة من علامات المرض . ويتنبأ كلاتزكين بأن الانتماء اليهودي سيصبح في نهاية الأمر انتماءً عادياً طبيعياً قومياً صرفاً ، وسيموت اليهود في سبيل الأرض واللغة على طريقة أعضاء القوميات العضوية التي ظهرت داخل التشكيل الحضاري والسياسي الغربي ، وليس في سبيل المضمون الديني أو الأخلاقي لليهودية ، أي على طريقة "أسلافنا" اليهود .

ويرى كلاتزكين أن الصهيونية ذات الديباجات الإثنية تُشكِّل عائقاً مؤثراً ، إن شخصية النبي التي يمثلها آحاد هعام لا تزال تحجب النور القومي الذي يمثله هرتزل .

إذن ، ما مصير الجماعات اليهودية في العالم ؟ هنا نجد أن كلاتزكين ، مثل هرتزل (ونوردو وجابوتنسكي) ، كان يرى ضرورة إخلاء أوربا من يهودها وضرورة تصفية الدياسبورا (يهود العالم) تماماً ، فحياة يهود المنفى مؤقتة وتستمد أهميتها بمقدار ما تخدم الحياة الدائمة في فلسطين . لكن حياة المنفى ليست جديرة بالبقاء كغاية في ذاتها وتستحق البقاء فقط إن كانت واسطة انتقال . والواقع أن الجهد القومي من أجل يهود المنفى يجب أن يركز على استخدامهم ، وبالتالي فيجب إنشاء الحواجز بينهم وبين الشعوب الأخرى حتى يمكن الاستفادة منهم . ولكن هذه المرحلة مجرد مرحلة انتقالية مؤقتة يتم فيها بَعْث الحياة القومية من خلال الدولة الصهيونية ، وسيَضعُف الوجود اليهودي في العالم بالتدريج ويظهر نمط يهودي جديد كل الجدة يختلف تماماً عن نمط يهود العالم ، وهو ما سيؤدي إلى تقسيم اليهود إلى قسمين : داخلي وخارجي . بل إن كلاتزكين يذهب إلى أن يهود العالم سيختفون بعد انتهاء هذه المرحلة المؤقتة . وقد لاحَظ كلاتزكين أن عملية الاندماج في المجتمعات الغربية كانت قد بدأت وأخذت وتيرتها تتصاعد ، كما أن عدوى الاندماج كانت قد بدأت تصيب قطاعات كبيرة وبدا تأثيرها أكثر عمقاً ، وسوف تتكفل هذه العملية بتصفية يهود العالم (وهو ما يُطلق عليه الآن «موت الشعب اليهودي») .

وقد بيَّن كلاتزكين بذلك ، وبصورة دقيقة ، علاقة المستوطنين الصهاينة في فلسطين بالجماعات اليهودية في العالم ، وحدَّد ليهود العالم دورهم كأتباع للدولة الصهيونية ، يمدونها بالعون ولا ينتظرون منها سوى التصفية النهائية .

وقد أدرك كلاتزكين وجود صهيونيتين (توطينية غربية واستيطانية شرقية) . وفي نهاية إحدى المقالات في مجموعة **الحدود** (١٩١٤) ، يقول : "إن هرتزل لم يظهر نتيجة وعي قومي يهودي وإنما ظهر نتيجة وعي إنساني عالمي" (عبارة "إنساني عالمي" تعني في النصوص الصهيونية عادةً "غربي") . وقد عاد هرتزل إلى شعبه ، ولكن الذي عاد ـ في رأي كلاتزين ـ لم يكن هرتزل اليهودي وإنما هرتزل الإنسان (فكأن ثمة تناقضاً بين إنسانية اليهودي ويهوديته) . فالصهيونية بين اليهود الغربيين تتغذى بعدد من العوامل الإنسانية العلمانية غير القومية ، ولا تعتمد في غذائها على اليهودية وإنما على الحضارة بشكل عام . هذه هي صهيونية الغرب الخارجية (التوطينية) ، أما صهيونية يهود الشرق فهي ليست كذلك ، فالصهيونية بالنسبة ليهود اليديشية ليست حركة عالمية مُدمِّرة من جهة ومُعمِّرة من جهة أخرى (مدمرة لليهودية التقليدية ومعمرة للانتماء القومي اليهودي) وإنما هي تعبير عن رغبتهم في الاستمرار فيما هم عليه ، فقد جاءوا من وسط ثقافي منحط وبالتالي فإنهم لا يقدمون أياً من تلك القيم الأخلاقية أو الجمالية (الغربية) التي مهدت الطريق للنهضة في الغرب . إن صهيونية الغرب جاءت لتُخلِّص الإنسان داخل اليهود (وليس اليهود) وتعلق آمالها على التقدم العام للحضارة (وليس على تطوير الذات اليهودية) ، فإيمانها القومي ليس إيماناً باليهودية وإنما إيمان بالإنسان بشكل عام ، إيمان بقوة الخير والجمال (أي بالقيم العلمانية التي لا علاقة لليهودية بها) .

وهنا ، يصل تقسيم العمل إلى ذروته ، فالصهيونية بالنسبة للغرب تعني مزيداً من التغريب والانتماء العام للحضارة الإنسانية (أي الغربية) . أما بالنسبة للشرق ، فهي استمرار لما كان ، ولذا فإن صهيونيتهم مرفوضة . ولعله ، لهذا السبب ، رغم كل حديثه عن تصفية المنفى ومرضه ، مكث خارج فلسطين (في سويسرا والولايات

المتحدة وألمانيا) ومات في سويسرا ، عالم القيم العالمية (أي الغربية) التي كان يطمح إليها ، وبعيداً عن القيم اليهودية التي كان يرفضها تماماً .

وقد كتب كلاتزكين دراسة في أعمال هيرمان كوهين وإسبينوزا وترجم كتابه **الأخلاق** إلى العبرية . وجُمعت أهم كتاباته في كتابه **تخوم** ، ومن أهم أعماله أيضاً معجم للمصطلحات الفلسفية العبرية ، ومختارات من الفلاسفة الذين يكتبون بالعبرية والفلاسفة العرب في العصر الوسيط .



١٠
الصهيونية العامة (أو الصهيونية العمومية)

الصهيونية العامة (أو الصهيونية العمومية) ـ وايزمان ـ الصهيونية التصحيحية ـ المنظمة الصهيونية الجديدة ـ الصهيونية الراديكالية ـ بيتار ـ جابوتنسكي ـ بودنهايمر ـ جرونباوم ـ جروسمان

الصهيونية العامة (أو الصهيونية العمومية)

General Zionism

«الصهيونية العامة» أو «الصهيونية العمومية» تيار صهيوني يحاول قدر استطاعته الالتزام بالصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة (شعب عضوي منبوذ ـ يُنقَل خارج أوربا ليُوظَّف لصالحها في إطار دولة وظيفية) وبالتعريف الهرتزلي للصهيونية (الذي لا يختلف قط عن هذه الصيغة) . ويمكن القول بأن الصهيونية العامة هي «الصهيونية الدبلوماسية» و«صهيونية أثرياء الغرب المندمجين» بعد مرحلة هرتزل وبلفور (والتي تطوَّرت بعد ذلك لتصبح «صهيونية الدياسبورا») . ولأن الصهاينة العموميين يلتزمون بهذا الحد الأدنى ، فإن أتباع هذا التيار يرفضون التيار الديني المتمثل في حركة مزراحي ، بل عارضوا تطبيق التعاليم الدينية بقوة القانون وطالبوا بإلغاء القوانين الدينية التي تحد من الحريات الشخصية ، وخصوصاً في مسائل الزواج والطلاق . وهم لا يتوجهون على الإطلاق لمشكلة ما يُسمَّى «الإثنية اليهودية» ، كما أنهم يرفضون الخوض في مناقشة التوجه الاقتصادي أو السياسي للمُستوطَن الصهيوني أو الخوض في البرامج التفصيلية حول مستقبل المشروع الصهيوني وشكل الملكية في الدولة الصهيونية أو الدخول في الصراعات السياسية الناجمة عن العملية الاستيطانية . كما أنهم لم يهتموا كثيراً بالمؤسسات الاستيطانية : الزراعية والعسكرية والثقافية والدينية . وبطبيعة الحال ، فقد عارضوا أيضاً الاتجاه العمالي المتمثل في حركة عمال صهيون بشكل خاص .

وتذهب التواريخ الصهيونية (أو المتأثرة بها) إلى أن الصهيونية العامة هي بمنزلة حزب الوسط ، وأنها الصهيونية التي تعلو على الأحزاب ، وأنها الصهيونية التي تركز على المصلحة القومية (بغض النظر عن الانتماء الطبقي ولا تكترث بالتفاصيل) لأن هذا سيكون على حساب الفكرة الأساسية ، وكلها من قبيل محاولة تطبيع النسق الصهيوني وتصوير التيارات الصهيونية المختلفة كما لو أنها أحزاب تمثل اليمين والوسط واليسار .

وفي تَصوُّرنا أن عمومية الصهيونية العامة تكمن في عدم اكتراثها بالجوانب الخصوصية ، فهي لا تصر على خصوصية الهوية اليهودية ولا على خصوصية المشاكل التي يواجهها المستوطنون الصهاينة في فلسطين . وهذه العمومية هي جزء لا يتجزأ من توطينية أتباع الصهيونية العامة ورفضهم التورط الكامل في المشروع الصهيوني باعتباره مشروعاً يهودياً وإصرارهم على غربيته أو على أن تأييدهم له ينبع من انتمائهم للغرب . ولذا ، يمكن القول بأن الصهيونية العامة (على الأقل بالنسبة إلى عدد كبير من أعضائها في الخارج) هي الصهيونية التوطينية بعد وعد بلفور ، فالتوطينيون قبل بلفور كانوا يخافون من أن يُتَّهَموا بازدواج الولاء ، ولذا فقد أصروا على أن تظل الحركة الصهيونية حركة إنقاذ وإغاثة خارج أي إطار قومي . ومع تَبَنِّي الدول الغربية نفسها للمشروع الصهيوني لم يَعُد هناك أي خوف من تهمة ازدواج الولاء ، بل أصبح واجبهم الوطني هو الانضمام للصهيونية ، وأصبحت صهيونيتهم جزءاً من وطنيتهم والعكس بالعكس (ومن ثم ، فإن كثيراً من الصهاينة العموميين في الخارج هم من يُطلَق عليهم «صهاينة الدياسبورا») . ومع هذا ، كان انتماء أعضاء هذا التيار للعالم الغربي ، حيث تسود الديموقراطية الليبرالية والمشروع الحر ، له أكبر الأثر في نفورهم من بعض أشكال الاستيطان الصهيوني الاشتراكية . وقد أظهروا معارضتهم له ، رغم محاولتهم الابتعاد عن السياسة ، فمثل هذه الأشكال الاشتراكية قد تُسبِّب لهم الحرج في مجتمعاتهم الليبرالية .

ولا تتطلب الصهيونية العامة من الصهيوني سوى الانتماء للمنظمة الصهيونية العالمية وسداد رسوم العضوية (الشيقل) وقبول برنامج بازل . وقد حاول هذا الاتجاه تثبيت أركان الاستيطان الصهيوني في فلسطين عن طريق جمع المال وتوظيف رؤوس الأموال لشراء الأراضي وتوطين المهاجرين في فلسطين ، ثم اتّباع أسلوب المفاوضات الدبلوماسية لتحقيق مكاسب للحركة الصهيونية .

وقد كان هذا التيار يضم في صفوفه كبار المموِّلين اليهود في

الخارج . وبالتدريج ، اتسع نطاقه ليضم قطاعات كبيرة من يهود الولايات المتحدة (أي معظم صهاينة العالم الغربي التوطينيين) . وظل هذا التيار مسيطراً على الحركة الصهيونية حتى عام ١٩٢٩ حينما كانت الصهيونية لا تزال وليدة عاجزة ، تحتاج لحضانة الاستعمار الغربي ، فلم يكن قد تم تأسيس مؤسساتها الاستيطانية بعد . ومع منتصف العشرينيات ، بدأ تيار الصهيونية العمومية يتراجع من حيث الوزن التنظيمي ، فكانت نسبتهم في المؤتمر الصهيوني الثاني عشر (١٩٢١) ٧٣٪ من مجموع المندوبين (مقابل ٨٪ للتيار العمالي) ، ثم انخفضت تلك النسبة بعد عشر سنوات عام ١٩٣١ إلى ٥٣٪ (مقابل ٢٩٪ للتيار العمالي) ، واستمر التدهور بعد ذلك . وقبل انعقاد المؤتمر السابع عشر (١٩٣١) ، قرَّر الصهاينة العموميون تنظيم أنفسهم ، وقد عُقد أول مؤتمر للاتحاد العالمي للصهاينة العموميين عام ١٩٣١ عشية المؤتمر ، وكان يضم المجموعات التالية :

- المجموعة (أ) التي تؤيد وايزمان وبرنامجه .
- المجموعة (ب) التي تنتقد هذا البرنامج والسياسات الاقتصادية للمنظمة الاستيطانية .
- المجموعة (جـ) الصهاينة الراديكاليون بقيادة ناحوم جولدمان ويتسحاق جرونباوم .

ومما دعَّم نفوذ الصهاينة العموميين في المُستوطَن الصهيوني ، هجرة بعض اليهود الموسرين من ألمانيا ابتداءً من عام ١٩٣٣ حيث كانت لهم مصالح تتناقض مع مصالح البيروقراطية العمالية .

ولكن ، مع المؤتمر العالمي الثاني عام ١٩٣٥ ، انشق الاتحاد إلى مجموعتين :

المجموعة (أ) وكانت تستمد قوتها بشكل خاص من فرع الصهاينة العموميين في بريطانيا وجنوب أفريقيا وألمانيا ورومانيا (وجزء من المنظمة الصهيونية الأمريكية) ، وهم أساساً مهنيون ومثقفون كانوا يؤيدون سياسة وايزمان تجاه بريطانيا وكانوا لا يمانعون في وجود منظمات استيطانية ذات طابع جماعي . وقد أسَّست هذه المجموعة حركتها الاستيطانية الخاصة وتنظيمها الشبابي وأقامت عدداً من المستوطنات في فلسطين .

أما المجموعة (ب) فقد استمدت قوتها من جاليشيا (التي تُعَدُّ الركيزة الأساسية) ، ولكن الأهم من هذا أن هذه المجموعة قد استمدت قوتها من غالبية أعضاء المنظمة الصهيونية في أمريكا ، وخصوصاً بعد أن وصل أبا هليل سيلفر إلى رئاسة المنظمة الصهيونية في أمريكا (وكان متشدداً في مواقفه تجاه بريطانيا والانتداب البريطاني) . وقد كان هؤلاء ، بسبب جذورهم الأمريكية ، يعارضون الهستدروت بشدة وكذلك أية مؤسسات عمالية مهما كان شكلها .

ورغم اختلاف المجموعتين ، تقول **الموسوعة الصهيونية** إن جهدهم تركَّز على النشاطات الثلاثة التالية :

١ ـ تطوير الصهيونية في الخارج .

٢ ـ الدفاع عن المستوطنين الصهاينة ("النضال السياسي من أجل الحقوق اليهودية في فلسطين") .

٣ ـ ولكن أهم نشاطاتهم على الإطلاق هو جمع الأموال لدعم الاستيطان .

وتضيف **الموسوعة** أن كلاً من الفريقين لم يهتم كثيراً بدعم التابعين له في فلسطين ، أي أنه تنظيم خارجي (توطيني) أساساً . وقد تأسَّس عام ١٩٤٦ اتحاد عام يضم كل الصهاينة العموميين سواء في إسرائيل أو خارجها . وتقول **الموسوعة** إن مواجهة الصهاينة العموميين داخل فلسطين للموقف الاستيطاني لم يحدث إلا بعد ١٩٤٨ ، وحتى بعد ذلك كانت الأيديولوجيا الليبرالية شديدة الضعف . ولا يزال الصهاينة العموميون ، لأنهم يمثلون الجماعات اليهودية ، أكثر القطاعات قوة في الخارج . ففي المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين (١٩٦٨) ، كانت قوتهم ١٨٠ مندوباً أو حوالي ثلث المندوبين . كما أنهم يُشكِّلون القوة المسيطرة الأساسية في عملية جمع الأموال لدعم إسرائيل وعملية الدعم السياسي (وهذه هي مهمة صهيونية الخارج التوطينية) . ويسيطر اتحاد الصهيونيين العموميين سيطرة شبه كاملة على المنظمة الصهيونية الأمريكية .

ويوجد حزب في إسرائيل يُسمَّى حزب الصهيونيين العموميين اندمج مع الحزب التقدمي وكونا معاً الحزب الليبرالي عام ١٩٦١ ولكن التقدميين انسحبوا عام ١٩٦٥ ، وانضم العموميون لحزب حيروت مكوِّنين معه حزب جحال ، ثم انضم الجميع لليكود . ولكن يمكن القول بأن الصهاينة العموميين في الخارج توطينيون ، أما الصهاينة العموميون في إسرائيل فهم استيطانيون ، ولكلٍّ توجهاته وأولوياته . ولعل الرقعة المشتركة بينهما يشكلها أمران ؛ أولهما : التركيز على المشروع الحر ، وثانيهما : تأكيد ضرورة علمنة الدولة الصهيونية . وتختلف ساحة نشاط التوطينيين عن ساحة الاستيطانيين ، كما تختلف جماهير كل منهما .

حاييم وايزمان (١٨٦٤-١٩٥٢)
Hayyim Weizmann

زعيم صهيوني ، عالم كيميائي ، وأول رئيس لدولة إسرائيل . وُلد في روسيا في منطقة الاستيطان ، وكان أبوه تاجر أخشاب من مؤيدي حركة الاستنارة اليهودية . ومع هذا ، فقد تلقَّى وايزمان تعليماً دينياً تقليدياً حتى سن الحادية عشرة ، فدرس العهد القديم والنحو العبري وما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» ، ولكنه تلقَّى بعد ذلك تعليماً علمانياً . ولكن العنصر الأساسي في طفولة وايزمان هو الشتتل الذي نشأ فيه ، وبناء الشتتل العاطفي والاقتصادي يستبعد الأغيار من وعي اليهود ، إن لم يكن من واقعهم أيضاً (على حد قول وايزمان نفسه) .

بعد حصوله على الدكتوراه من ألمانيا عام ١٨٩٩ ، قام وايزمان بالتدريس في سويسرا (١٩٠١) ثم ألمانيا (١٩٠٤) . وقد كان من المطالبين بإدخال الديباجة الإثنية على الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ، كما كان من المعجبين بآحاد هعام وتأثر بأفكاره ، وكان من الداعين لاستخدام العبرية في التخنيون (ضد دعاة الألمانية) . ساهم في تأسيس الجامعة العبرية ، كما ساهم في تأسيس أحد أهم المعاهد العلمية في فلسطين الذي أصبح بعد ذلك معهد وايزمان للعلوم . وانطلاقاً من موقفه الإثني العلماني ، وقف وايزمان ضد مشروع شرقي أفريقيا .

كان من أوائل المفكرين والزعماء الصهاينة الذين أدركوا عبث الجهود الصهيونية الذاتية التسللية وحتمية الاعتماد على الدعم الإمبريالي لوضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ . وكان وايزمان مدركاً تماماً علمانية الحضارة الغربية ونفعيتها ، فالمسألة ليست مسألة تلاق بين الأحلام اليهودية والأحلام المسيحية وإنما هو تلاقي مصالح الإمبريالية والصهيونية ، فالدولة الصهيونية تحتاج إلى الدعم الإمبريالي وإنجلترا تحتاج إلى قاعدة ، وبما أن الدولة اليهودية قاعدة رخيصة (على حد قول وايزمان) فلا تستطيع إنجلترا أن تجد صفقة أفضل من هذا (أي أنه أدرك أن الدولة الصهيونية دولة وظيفية) .

غادر وايزمان سويسرا إلى إنجلترا عام ١٩٠٤ وعُيِّن في جامعة مانشستر ، وقد جمع حوله مجموعة من الصهاينة اليهود الذين كانوا قد بدأوا في تكثيف النشاط الصهيوني وكوَّنوا نواة الحركة الصهيونية في إنجلترا . وفي عام ١٩٠٧ ، في المؤتمر الثامن ، ألقى خطبته التي اقترح فيها تبنِّي ما سماه «الصهيونية التوفيقية» التي تجمع بين التوجه الدبلوماسي التوطيني (التفاوض مع الدول الاستعمارية من أجل الحصول على براءة الاستيطان في فلسطين) والجهد الاستيطاني وتطوير الإثنية اليهودية . وقد أصبحت الصهيونية التوفيقية منذ ذلك الوقت الإطار الذي تحركت من خلاله الحركة الصهيونية . وبعد نهاية المؤتمر قام وايزمان بأول زيارة لفلسطين .

اندلعت الحرب العالمية الأولى بعد وصول وايزمان إلى سويسرا بيوم ، فقطع رحلته وعاد إلى إنجلترا حيث قدمه س . ب . سكوت محرر **المانشستر جارديان** لبعض الشخصيات الإنجليزية المهمة من بينهم لويد جورج وهربرت صموئيل الذي كان قد أعد مذكرة بمبادرة منه لإقامة دولة يهودية في فلسطين بعد تقسيم تركيا . وكان إسكويث (رئيس الوزراء) قد رفض المذكرة الأمر الذي وضع حداً لكل الجهود الصهيونية . ولكن تغييراً حدث في الوزارة ، فأصبح لويد جورج رئيساً للوزراء ، وكان من قبل زيراً للإمدادات (وكان وايزمان قد ترك انطباعاً جيداً عنده باكتشافه الأسيتون) وكان بلفور وزير الخارجية ، كما أن عدداً كبيراً من المشاركين في الوزارة (مثل سير مارك سايكس) كانوا مؤيدين متحمسين للمشروع الصهيوني كمحاولة لتقليص النفوذ الفرنسي في الشام ، أي أن الجو كان مهيئاً لصدور وعد بلفور قبل وصول وايزمان وبدون أن يبذل أي جهد . ولكن معارضة اليهود الإنجليز ، وخصوصاً معارضة إدوين مونتاجو وكلود مونتفيوري ، جعلته يشعر بالإحباط لدرجة أنه فكر في الاستقالة من اتحاد الصهاينة الإنجليز ، ولكن آحاد هعام نصحه بألا يفعل ذلك وذكَّره بأنه لم يعيَّن من قبَل أحد ، ولذا فلا يمكنه أن يقدِّم استقالته لأحد . وكان وايزمان قد قطع علاقته بالمكتب المركزي للمنظمة الصهيونية العالمية في برلين التي كانت وثيقة الصلة بالألمان والأتراك وبمكتب الاتصال التابع لها في كوبنهاجن ، ثم صدر وعد بلفور .

كان وايزمان يتوقع أن يُقوِّي صدور وعد بلفور مركزه ومركز الصهيونية أمام اليهود ، ويفرض المؤسسة الصهيونية عليهم من أعلى . وهذا ما حدث بالفعل ، فقد عُيِّن عام ١٩١٨ رئيساً للبعثة الصهيونية التي أُرسلت إلى فلسطين لتحديد الطرق الممكن اتباعها لتطوير فلسطين بما يتفق مع ما جاء في وعد بلفور . وذهب وايزمان إلى القاهرة وقابل فيصل ابن الشريف حسين محاولاً الوصول معه إلى تفاهم . ثم رأس وايزمان الوفد الصهيوني لمؤتمر السلام في فرساي عام ١٩١٩ ليطالب بالموافقة الدولية على وعد بلفور وبأن يوكل لبريطانيا الانتداب على فلسطين . انتُخب وايزمان رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٢١ في المؤتمر الصهيوني الثاني عشر ، ونشب خلاف بينه وبين برانديز بشأن طريقة إدارة المُستوطَن الصهيوني وتمويل المستوطنات حيث طالب برانديز (الذي كان لا يعرف شيئاً عن طبيعة الاستعمار الاستيطاني وعن الظروف في

فلسطين) بإدارتها على أُسس نظام الاقتصاد الحر ، ورفض وايزمان الرضوخ لذلك لأن مثل هذا الإجراء كان يمكن أن يودي بالمشروع الصهيوني تماماً . ولذا ، وقف وايزمان وراء أشكال الاستيطان العمالية مثل الموشاف والكيبوتس . وقد نجح وايزمان في عقد تحالف بين الصهاينة العموميين ومعظمهم من التوطينيين ، والعماليين الاستيطانيين ، وانضم لهم حزب مزراحي ممثل الصهيونية الإثنية الدينية . وهذا الائتلاف الثلاثي هو الذي قاد الحركة الصهيونية وأشرف على نشاطها خلال فترة الانتداب البريطاني .

كان وايزمان على خلاف مع جابوتنسكي الذي كان يتبنى خط الحد الأقصى ويصر على الإفصاح عن الهدف الصهيوني النهائي ، وهو الأمر الذي وجده وايزمان غير مجد أو مثمر . وكان جابوتنسكي يطرح تصورات مثل خطة نوردو لتغيير الواقع السكاني في فلسطين بين عشية وضحاها ، كما كان يلجأ إلى إصدار تصريحات من شأنها إثارة قلق السكان الأصليين . وحينما وسَّع وايزمان الوكالة اليهودية ، حتى تضم يهوداً غير صهاينة كجزء من السياسة الصهيونية لغزو الجماعات اليهودية ، وعُقد أول اجتماع للوكالة الموسعة عام ١٩٢٩ ، عارض جابوتنسكي هذا الإجراء .

وكان قد تم تعيين السير هربرت صمويل مندوباً سامياً لبريطانيا في فلسطين (وكان يهودياً نشأ وترعرع داخل تقاليد صهيونية غير اليهود ذات الديباجات المسيحية والعلمانية) وكان من المتوقع أن يتعاون مع وايزمان ، ولكن طبيعة علاقة الدولة الإمبريالية (بمصالحها العالمية) مع السكان الأصليين تختلف عادةً عن طبيعة علاقة المستوطنين بهم ، ومن هنا نشأ الاختلاف في الرؤية وتولَّدت التوترات . وكان وايزمان يحاول حل هذه المشكلة عن طريق إطلاق التصريحات الأخلاقية عن حقوق العرب وضرورة ألا تُمس شعرة في رأسهم ، وفي الوقت نفسه كان يضع الخطط التي تهدف إلى تغييبهم وإخلاء فلسطين منهم لوعيه التام بخطورة العنصر العربي على الدولة الصهيونية الاستيطانية الإحلالية ، وكان يرى أن أي سلام مع العرب هو سلام القبور . وحينما عرف بطرد العرب من فلسطين عام ١٩٤٨ ، تحدَّث عن هذه العملية على أنها معجزة أدَّت إلى تطهير أرض إسرائيل ! ومن الواضح أنه يتحرك داخل إطار حلولي عضوي (حلولية بدون إله) في موقفه من الشعب اليهودي وعلاقته بالأرض . فحينما عُرض عليه أن يَقْبل اليهود وضع الأقلية في فلسطين وأن يتعايشوا مع العرب ، انفجر متمتماً بكلمات ذات طابع حلولي واضح : "الرب سيضع يده مرة ثانية ليستعيد بقية شعبه ويرفع راية لكل الأمم ، وسيجمع المشردين من إسرائيل وسيجمع المشتتين من يهودا من أركان الأرض الأربعة" ! وهكذا .

وكانت إدارة الانتداب والحكومة البريطانية تضطر من آونة لأخرى لإعادة تفسير وعد بلفور ، كما حدث عام ١٩٣٠ حيث أصدر سكرتير المستعمرات في وزارة العمال البريطانية كتاب باسفيلد الأبيض الذي اعتبره الصهاينة قضاء على المشروع الصهيوني بأكمله ، فاستقال وايزمان من رئاسة المنظمة عام ١٩٣٠ وتراجعت الحكومة البريطانية وأرسل رئيس الوزراء خطاباً لوايزمان يعبر له فيه عن تأكيده استمرار التزام حكومته بالمشروع الصهيوني .

وتتبدَّى مرونة وايزمان العلنية ومقدرته على استخدام الخطاب الصهيوني المراوغ في تصريحه عام ١٩٣١ بأن وجود أغلبية يهودية في فلسطين ليست مسألة ضرورية ، وقد صرح بهذا من قبيل تهدئة الخواطر ولكنه كان يؤمن بأنه ستكون هناك أغلبية يهودية في نهاية الأمر من خلال الجهد البطيء الذي يخلق حقائق جديدة ، من خلال بناء منزل وراء منزل ودونم وراء دونم ، ومستوطنة بعد مستوطنة . والواقع أن خلق الحقائق الجديدة أصبحت الإستراتيجية المستقرة للصهيونية ، ولكن يبدو أن ذلك كان يتم هذه المرة عَبْر الخط الأحمر دون أن يدري ، وأن حجم المراوغة كان أكبر مما يتحمل الصهاينة ، ولذا فقد كلَّفه هذا التصريح رئاسة المنظمة . ولكن ، مع هذا ، تم اختيار صديقه الحميم سوكولوف خلفاً له ، فالخلاف لم يكن جوهرياً وإنما كان خطأً خاصاً بطريقة التعبير .

ومع صعود هتلر للسلطة ، زاد عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين وزاد حجم رأس المال اليهودي فيها . وأُعيد انتخاب وايزمان للرئاسة عام ١٩٣٥ . وكان وايزمان من المؤمنين بضرورة ترك يهود أوربا لمصيرهم على أن يتركز الجهد الصهيوني على تهجير بعض العناصر اليهودية التي ستساهم في بناء المُستوطَن الصهيوني . وتظهر مرونة وايزمان مرة أخرى عام ١٩٣٧ حينما طُرحت فكرة تقسيم فلسطين إذ قبله رغم صغر حجم الجزء الممنوح للدولة اليهودية لأن قبول الحد الأدنى علنياً لا يعني عدم المقدرة على العمل في الخفاء للحصول على الحد الأقصى "وصحراء النقب" التي لم تكن جزءاً من الدولة اليهودية حسب خطة التقسيم "لن تفر" ، حسب قوله ، بل هي باقية يمكن الاستيلاء عليها فيما بعد .

وظلت العلاقة بين الصهاينة والحكومة البريطانية متعثرة ، إلى أن نشبت الحرب العالمية الثانية . وقد حاول وايزمان تجديد جهوده العلمية حتى يزداد نفوذه أمام الحكومة البريطانية ، ولكن عرضه رُفض وتم تأييد طلب جابوتنسكي بالسماح بتشكيل اللواء اليهودي

للاشتراك كقوة صهيونية مستقلة (إلى جانب الحلفاء) ولتدعيم مركز المستوطنين ، لكنَّ هذا لم يَعُقه عن مقابلة موسوليني شخصياً عدة مرات ليحصل منه على تأييده للمشروع الصهيوني .

وظلت علاقة الصهاينة ببريطانيا متعثرة حتى ظهور الولايات المتحدة كمركز للثقل الإمبريالي ، فبدأوا في تحويل ولائهم . وقضى وايزمان وقتاً طويلاً (١٩٤١ ـ ١٩٤٢) في نيويورك حتى يمكنه تجنيد القيادة الأمريكية إلى جانب المشروع الصهيوني .

وعُقد مؤتمر صهيوني في بلتيمور عام ١٩٤٢ وأصدر برنامج بلتيمور الذي تنبع أهميته من أنه أفصح عن الهدف الصهيوني النهائي في إنشاء دولة . ومع نهاية الحرب ، كان وضع وايزمان داخل المنظمة مخلخلاً . فقد كان ممثلاً للمرحلة البريطانية في تاريخ الصهيونية والاستيطان الصهيوني . كما أن مجال حركته كان في الساحة الدولية خارج ساحة الاستيطان . ومع ازدياد قوة المستوطنين وظهور الولايات المتحدة ، لم يَعُد الشخص المناسب للمرحلة الجديدة ، وخصوصاً أن حكومة العمال البريطانية رفضت السماح بالهجرة اليهودية غير المقيدة ، وكانت القيادة الجديدة تفضل تبنِّي سياسة نشطة نوعاً ما ضد البريطانيين ، لذا بدأ بن جوريون يتحدى قيادته ، وخصوصاً أنه كان قد بلغ السبعين وبدأ تصحته تعتل . ولم يَجر انتخابه رئيساً للمنظمة عام ١٩٤٦ لوجود إحساس عام بأنه فَقَد صلته بالواقع . ومع هذا ، استمر وايزمان في جهوده وسافر إلى الولايات المتحدة للاتصال بالرئيس ترومان وغيره حتى تقف الولايات المتحدة وراء قرار التقسيم . وكان وايزمان من أنصار أن يُعلَن قيام الدولة الصهيونية فور انسحاب البريطانيين ، بغض النظر عن قرار هيئة الأمم المتحدة ، وأن تُعدُّ الدولة نفسها للحرب مع العرب . وبعد إعلان الدولة ، قابل ايزمان الرئيس ترومان وحصل منه على وعد بأن تقوم الولايات المتحدة بتمويل مشاريع التنمية في إسرائيل .

وحينما قامت الدولة وعُرضت عليه رئاستها هنأه القاضي فلكس فرانكفورتر وقال له إنه بإمكانه أن يقول ما لم يتمكن موسى من قوله (لأن هذا النبي الأخير قد مات قبل أن يصل إلى أرض الميعاد أما وايزمان فقد وصل بالفعل) . ولكنه ، مع هذا ، لم يضع اسمه ضمن الموقعين على قرار إعلان إسرائيل ، كما أنه كان يضيق ذرعاً بوظيفة رئيس الدولة لأنها وظيفة شكلية شرفية محضة ، ولم تكن تُرسَل له حتى محاضر مجلس الوزراء ، وذلك بناءً على أوامر بن جوريون . ومن أهم مؤلفات وايزمان كتاب **التجربة والخطأ** (١٩٤٩) ، كما أن رسائله قد جُمعت ونشرت تباعاً في سلسلة من المجلدات .

الصهيونية التصحيحية

Revisionist Zionism

«الصهيونية التصحيحية» وتترجم أحيانا بالصهيونية «المراجعة» أو «التنقيحيه» تيار صهيوني نابع من فكر جابوتنسكي ظهر داخل المنظمة الصهيونية عام١٩٢٣ بهدف تصحيح أو تنقيح أو مراجعة السياسة الصهيونية (ومن هنا يُشار إليها أحياناً باسم «الصهيونية التنقيحية» أو «الصهيونية المراجعة») . وهذا التيار تعبير عن محاولة بعض العناصر الصهيونية (من شرق أوربا أساساً) المتشبعة بالفكر الاقتصادي الليبرالي والفكر السياسي الفاشي طرح الهيمنة العمالية على عمليات الاستيطان وهيمنة صهاينة الخارج الليبراليين على النشاط الدبلوماسي جانباً . وقد حاول دعاة هذا التيار أن ينتهجوا خطاً وأسلوباً جديدين للعمل على الصعيد الدولي ، حيث كانوا يرون أنهما في واقع الأمر استمرار لخط هرتزل ونوردو وفلسفتهما ، وأن يصوغوا فكراً استيطانياً مستقلاً ، وأن يُشيِّدوا مؤسسات استيطانية مستقلة . وقد كانت هذه المحاولة هي الأولى من نوعها داخل الحركة الصهيونية من جانب أعضاء الطبقة الوسطى . ولعل هذا يعود إلى الأصول الطبقية لموجات الهجرة الصهيونية المختلفة ، فأعضاء الموجة الأولى والثانية أتوا أساساً من صفوف البورجوازية الصغيرة ، ولم يكونوا يملكون شيئاً . ولكن فلسطين شهدت ، ابتداءً من عشرينيات القرن وحتى بداية منتصف الأربعينيات ، وصول الموجات الثالثة والرابعة والخامسة التي ضمت في صفوفها أعداداً كبيرة من صغار الرأسماليين وأصحاب العمل (هاجر في الموجة الخامسة وحدها حوالي ٢٥ ألف يهودي يملك كل منهم أكثر من ألف جنيه إسترليني) .

وفكر الصهاينة التصحيحيين هو ، في نهاية الأمر ، فكر جابوتنسكي الذي يقبل كل الأطروحات الصهيونية الأساسية عن الشعب العضوي المنبوذ الذي يُشكِّل جسماً غريباً في أوربا تلفظه كل المجتمعات ، وعن الشعب اليهودي الرديء الذي يكرهه جيرانه عن حق . ويرى جابوتنسكي ـ شأنه شأن هرتزل وأستاذه نوردو ـ أن مصدر هوية اليهود ليس تراثهم الديني أو الإثني (فهذا التراث يمكن الاستغناء عنه تماماً) وإنما هو معاداة اليهود . ولذا ، فإن المسألة اليهودية في نظره هي في الأساس مسألة رفض أوربا لليهود ، أي مسألة الفائض اليهودي . ولكن جابوتنسكي يُقرِّر ، مع هذا ، أن اليهود ، وضمن ذلك السفارد ، شعب أوربي . وقد عرَّف جابوتنسكي الشعب انطلاقاً من أطروحات الفكر العرْقي الغربي بكل ما يتضمنه ذلك من إيمان بتفاوت بين الأجناس .

وأرسلت الحركة التصحيحية أربعة مندوبين إلى المؤتمر

الصهيوني الرابع عشر (١٩٢٥)، وسُمِّيت الجماعة باسم «اتحاد الصهاينة التصحيحيين». وكان برنامجها ينادي بما يلي : إنشاء دولة صهيون على ضفتي الأردن ـ رفع أية قيود على الهجرة اليهودية إلى فلسطين ـ مصادرة جميع الأراضي المزروعة والعامة في فلسطين ووضعها تحت تصرُّف الحركة الصهيونية .

عمل التصحيحيون على تفريغ أوربا من اليهود ، وعلى تهجير أكبر عدد ممكن من اليهود في أقصر وقت ممكن . ولزيادة مقدرة فلسطين الاستيعابية ، طالبوا بتوطين الطبقة الوسطى وتطوير القطاع الخاص ، لأن دخول رأس المال الخاص سيخلق فرص عمل جديدة . ولذا ، فقد طالبوا بالتركيز على تطوير القطاع الصناعي والزراعة المكثفة . ونادى التصحيحيون بتأجيل الصراع الطبقي وقبول التحكيم الإجباري لحسم الخلافات بين العمال والرأسماليين ولسحق التمرد العربي دون اللجوء إلى البريطانيين ، وقد شدد التصحيحيون على ضرورة إنشاء وحدات عسكرية يهودية مستقلة .

وقد وُضع هذا البرنامج في مجابهة كل التيارات الصهيونية الأخرى ، وخصوصاً التيار العمالي الذي كان يؤيد طريقة الاستيطان التعاونية الملائمة لظروف فلسطين . وبهذا الشكل ، فإن البرنامج التصحيحي ينم عن عدم فهم للمشروع الصهيوني وأبعاده الخاصة ، أو على الأقل عدم فهم لطبيعة المرحلة التي كانت تتطلب التعاون والجماعية في الاستيطان ، والبطء ، والرضا بما تقبله الدولة الراعية ، بالإضافة إلى السرية . كما أن ثمة تناقضاً أساسياً في هذا المشروع يكمن في المطالبة بالاستقلال الصهيوني في الحركة من ناحية وبالسرعة في تنفيذ المشروع الصهيوني اعتماداً على الدولة الراعية من ناحية أخرى . ولعل هذا يعود إلى إيمان هذا التيار بأن مشروعه استعماري تماماً ، وبالتالي فإن ثمة تماثلاً كاملاً في المصالح يسمح برفع المطالب إلى الحد الأقصى .

ولعل أهم الأطروحات التي أكدها التصحيحيون أنه مهما كان الاستيطان في فلسطين قوياً ويشكل ٩٠٪ من النشاط الصهيوني ، فإن الـ ١٠٪ السياسي (الاستعماري) يظل الشرط المسبق للنجاح وللبقاء . فالاستيطان في نهاية الأمر بطيء ولن يفي بالغرض ، ولهذا فلا غنى عن النشاط السياسي أو الدبلوماسي الذي يتلخص ـ طبقاً لتصورهم ـ في الضغط على الدول الغربية ـ وخصوصاً إنجلترا ـ لإخلاء أوربا من اليهود بشكل جماعي وإلقائهم في فلسطين ، وذلك على حساب أية اعتبارات خيالية أخرى ، مثل الدين والبعد الثقافي والتربية وما شابه ، لإنشاء نظام استعماري استيطاني . ولهذا الغرض ، تم تأسيس رابطة الدومنيون السابع لتطوير فلسطين كجزء من الإمبراطورية البريطانية .

جذبت الحركة التصحيحية عدة حركات ومنظمات صهيونية بين عامي ١٩٢٥ و١٩٣٥ وجدت في أفكار جابوتنسكي ضالتها المنشودة ، ومنها :

ـ عصبة جوزيف ترومبلدور (بيتار) . وقد احتفظت باستقلالها داخل معسكر اليمين ، ثم أصبحت مع مرور الوقت التنظيم الأساسي الذي يزود ذلك المعسكر بالكوادر التي يحتاج إليها .

ـ مجموعة ريتشارد ليشتهايم ، وهو يهودي ألماني استقال من اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية (مع جابوتنسكي) عام ١٩٢٣ .

ـ مجموعة روبرت شتريكر ، وهو أحد قادة الصهيونيين العموميين . وقد عارض شتريكر سياسة وايزمان المهادنة لبريطانيا وطالب بتحديد هدف الصهيونية بإقامة الدولة اليهودية ثم انضم إلى الحركة التصحيحية .

ـ مجموعة جوزيف شختار ، وهو يهودي روسي ويُعتبَر من مؤسسي الحركة التصحيحية .

أرسل التصحيحيون عشرة مندوبين للمؤتمر الصهيوني الخامس عشر (١٩٢٧) وواحداً وعشرين مندوباً للمؤتمر السادس عشر (١٩٢٩) واثنين وخمسين مندوباً للمؤتمر السابع عشر (١٩٣١) . واتهموا القيادة العمالية بأنها توزع شهادات الهجرة بطريقة تخدم مصالح أتباعها وحسب وتتجاهل أتباع الحركة وبأن توزيع الأرض والأعمال يتم بالطريقة نفسها ، كما اتهموا القيادة العمالية بتزييف انتخابات المؤتمرات الصهيونية عن طريق شراء الشيقل بالجملة . ولهذا السبب ، انسحبوا من الصندوق القومي اليهودي ومن الهستدروت وكونوا اتحاد العمال القومي . كما عارضوا توسيع الوكالة اليهودية عام ١٩٢٩ لأن هذا في تصوُّرهم سيؤدي إلى تمييع الصيغة الأساسية السياسية التي يدافعون عنها . وفي عام ١٩٣١ ، رُفض طلب التصحيحيين بإعلان أن إنشاء الدولة اليهودية هو هدف الصهيونية ، وأدَّى مقتل الزعيم العمالي حاييم أرلوسوروف إلى زيادة حدة الخصومة ، وخصوصاً أن بعض العناصر المعتدلة بمقاييس صهيونية (مثل شتريكر وليشتهايم) ابتعدوا عن جابوتنسكي وتركوا الحركة التصحيحية وكونوا حزب الدولة اليهودية .

في أواخر عام ١٩٣٤ ، تقابل جابوتنسكي وبن جوريون في لندن بعد تبرئة ساحة المتهمين بقتل أرلوسوروف ، فتوصلا إلى اتفاق من ثلاثة بنود :

١ ـ الامتناع عن الصراع إلا من خلال النقاش السياسي دون اللجوء للهجوم .

٢ ـ التوفيق بين الهستدروت وتنظيم التصحيحيين العمالي ، وذلك فيما يتصل بقضايا مثل الإضرابات والتحكيم الإجباري .

٣ ـ توقُّف التصحيحيين عن مقاطعة الصناديق اليهودية القومية وإرجاع حق أعضاء البيتار في الحصول على شهادات الهجرة . ولكن الاتفاق رفض من جانب أعضاء الهستدروت .

بلغ عدد مندوبي التصحيحيين في المؤتمر الصهيوني الثامن عشر (١٩٣٣) حوالي ٤٥ مندوباً . وفي عام ١٩٣٥ ، انفصل التصحيحيون وأسَّسوا المنظمة الصهيونية الجديدة وعقدوا أول مؤتمر لهم في فيينا في العام نفسه وانتُخب جابوتنسكي رئيساً لها . وكان مقرها كما هو مُتوقَّع في لندن بين عامي ١٩٣٦ و١٩٤٠ . وكان برنامج المنظمة هو ثوابت الحركة التصحيحية مع تأكيد ضرورة تصفية الوجود اليهودي في العالم . كما بدأوا في سياسة التحالفات مع كل النظم الأوربية التي ستساعدهم في إجلاء اليهود ، وطرح جابوتنسكي خطة السنوات العشر .

ومن أهم الجماعات في الحركة التصحيحية جماعة عصبة الأشداء (بريت هابيريونيم) الموجودة في فلسطين والتي كانت تضم أشيمير وجرينبرج وغيرهما . وقد تبنت هذه الجماعات صيغة صهيونية نازية لا تُخفي إعجابها بالنازية (مع تحفُّظها على موقفها من اليهود و حسب) .

وقد طوَّر التصحيحيون ، من خلال منظمة بيتار ، شبكة ضخمة من مراكز التدريب العسكري في العالم ، إذ ركزوا على الجانب العسكري من الممارسة الصهيونية الخاصة بالزراعة المسلحة .

ويصف الصهاينة التقليديون كلاً من جابوتنسكي والتصحيحيين عامة بأنهم متطرفون ، ولكن من يدرس فكرهم وتاريخهم يجدهم أكثر التيارات الصهيونية واقعية واتساقاً مع الواقع الصهيوني . فقد أكدوا من البداية القانون الأساسي الذي يتحكم في الحركة الصهيونية ، أي مدى استعدادها للارتماء في أحضان الاستعمار والقيام على خدمته ، حتى يُسهِّل لها تهجير اليهود وتوطينهم في فلسطين وإقامة الدولة . وهم أخيراً كانوا متيقنين من أن العنف وحده هو وسيلة التعامل مع الفلسطينيين ، وأن أوهام بعض الصهاينة الخاصة بإقناع الفلسطينيين بترك أرضهم لليهود هي بمنزلة أحلام ليبرالية رخيصة . وفي الحقيقة ، فإن استخدام العنف والارتماء في أحضان الإمبريالية والإيمان بالمُثُل الرأسمالية الحرة هي جميعاً موضوعات تتواتر في كتابات هرتزل والصهاينة الدبلوماسيين ، ولكنها كانت مغلفة بغلاف ليبرالي رقيق ، لأن الصهيونية كانت لا تزال في بداياتها ولم تكن قد أدركت هويتها تماماً بعد ، كما أنها كانت لا تزال حركة ضعيفة غير قادرة على الكشف عن أهدافها . وكلما كانت الصهيونية تزداد قوة ، كانت تعلن عن أهدافها وعن هويتها ، فالفرق إذن بين هرتزل وجابوتنسكي يكمن في النبرة والمصطلح وليس في الرؤية ولا الفلسفة . وقد قال جابوتنسكي مرة إنه خليفة هرتزل ووريثه الحقيقي ، وقد وافقه نوردو على هذا ، ونحن نذهب أيضاً إلى أن ثمة خطاً ممتداً من هرتزل لشارون عبر جابوتنسكي وبيجين .

المنظمة الصهيونية الجديدة

New Zionist Organization

بعد أن نشب الخلاف بين الصهاينة التصحيحيين والمنظمة الصهيونية العالمية حول فكرة الوكالة اليهودية الموسعة (وهي الفكرة التي عارضها الفريق الأول) ، وكذلك حول حدود الدولة الصهيونية المقترحة ، وبعد أن رفض المؤتمر الصهيوني السابع عشر (١٩٣١) تعريف هدف الصهيونية بأنه تأسيس الدولة الصهيونية ، ونظراً لافتقاد المنظمة الصهيونية العالمية الطابع العسكري ، انشق التصحيحيون بزعامة جابوتنسكي عن المنظمة الأم مكوِّنين منظمة مستقلة تُعرَف باسم «المنظمة الصهيونية الجديدة» عام ١٩٣٥ . وكانت المنظمة الجديدة تنادي بعدم الاعتماد على حكومة الانتداب ، وعلى منح اليهود حق الهجرة ، كما طالبت بتصفية الجماعات اليهودية في العالم ، وكذلك فإن المنظمة الجديدة كانت تنادي بضرورة تسوية المنازعات بين العمال ورأس المال عن طريق مجلس أعلى للتحكيم ، وكان مقر المنظمة في لندن وترأسها جابوتنسكي .

وقد لعبت المنظمة دوراً بارزاً في تنظيم الهجرة غير الشرعية ، ومنحت تأييدها لمنظمة إتسل ، كما كان لها تنظيماتها الاستيطانية المستقلة ، ولعبت أفكارها دوراً مهماً في تأسيس المنظمات العسكرية الصهيونية الأخرى . وقد عارضت المنظمة الصهيونية الجديدة فكرة التقسيم . وفي عام ١٩٤٦ ، عادت المنظمة الصهيونية الجديدة إلى صفوف المنظمة الصهيونية العالمية بعد أن أصبح موقفهما متفقاً بشأن معظم القضايا . وفي الحقيقة ، فإن الانشقاق والاندماج بين المنظمتين كلاهما صهيوني نموذجي ، فهو اختلاف حول التكتيك والحد الأقصى ، ولا يمتد إلى الإستراتيجية أو الحد الأدنى الصهيوني بأية حال .

الصهيونية الراديكالية

Radical Zionism

تيار صهيوني لا يختلف كثيراً في رؤيته ولا في أساسه الطبقي عن الصهيونية التصحيحية أو الصهيونية العمومية . وقد نشأ هذا التيار عام ١٩٢٣ خلال المؤتمر الصهيوني الثالث عشر كنوع من الاحتجاج على مهادنة وايزمان للحكومة البريطانية واستعداده للتخلي عن حقوق اليهود في فلسطين . وقد ظهرت الصهيونية التصحيحية في الوقت نفسه ، وكاد الفريقان أن يتحدا لولا اختلاف موقفهما من الطابع الجماعي العمالي للاستيطان الصهيوني . وقد كان الفريقان يتفقان في الاعتراض على الطابع الاشتراكي لهذا الاستيطان ، لكن الراديكاليين كانوا يرون أن هذا هو الأسلوب الوحيد المتاح .

وقد أسَّس الراديكاليون اتحاداً للصهاينة الراديكاليين لتحقيق الخلاص للشعب اليهودي عن طريق تغيير بنيان حياته . وكان الاتحاد ينادي بأن الاستيطان يجب أن يتم من خلال امتلاك الأرض ملكية قومية ، كما حاول الاتحاد تقديم العون للاستثمارات الفردية . وفي عام ١٩٣٠ ، حينما حدث انقسام في صفوف الصهيونيين العموميين ، انضم الصهاينة الراديكاليون للجناح الليبرالي واتحدوا معه مكوِّنين الاتحاد العالمي للصهيونيين العموميين .

بيتار (منظمة شبابية)

Betar

«بيتار» اختصار العبارة العبرية «بريت يوسف ترومبلدور» ، أي «عهد ترومبلدور» أو «حلف ترومبلدور» . وهو تنظيم شبابي صهيوني تصحيحي أسَّسه يوسف ترومبلدور في ريجا (لاتفيا) عام ١٩٢٣ ، لإعداد أعضائه للحياة في فلسطين بتدريبهم على العمل الاستيطاني الزراعي وتعليمهم ، مع التركيز على العبرية بالإضافة إلى التدريب العسكري . وكان يتم تلقين أعضاء التنظيم مقولات تعكس التأثر الواضح بالنزعات الفاشية التي سادت أوربا آنذاك ، فكانوا يتعلمون مثلاً أن الإنسان أمامه اختياران لا ثالث لهما "الغزو أو الموت" وأن كل الدول التي لها رسالة قامت على السيف وحده . ويشكل عام ، تَمثَّل التنظيم أفكار جابوتنسكي زعيم الصهيونية التصحيحية . وكانت إحدى الهتافات الشائعة لشباب بيتار طوال فترة الثلاثينيات "إيطاليا لموسوليني وألمانيا لهتلر وفلسطين لجابوتنسكي" ، كما كانوا يرتدون القمصان البنية اللون تَشبُّهاً بالمنظمات الشبابية الفاشية . وقد انشق تنظيم بيتار عن المنظمة الصهيونية العالمية إثر النزاعات التي نشبت بين جابوتنسكي وزعمائها والتي انتهت بانفصاله وتشكيل «المنظمة الصهيونية الجديدة» ثم «الاتحاد القومي» عام ١٩٣٤ .

ولم يقتصر نشاط تنظيم بيتار على بولندا بل امتد إلى العديد من البلدان ، فأقام التنظيم عام ١٩٣٤ مركزاً للتدريب البحري في إيطاليا وآخر للتدريب على الطيران في باريس ، كما أقام فروعاً في اللد (١٩٣٨) وجنوب أفريقيا (١٩٣٩) ونيويورك (١٩٤١) . وحتى بداية الحرب العالمية الثانية ، ظلت القاعدة الأساسية للتنظيم وهيئته القيادية خارج فلسطين ثم انتقلت بعد ذلك إليها حيث كان بعض أتباع بيتار قد أسسوا عدة مستوطنات تعاونية . وقد تشكلت في صفوف بيتار القيادات الأساسية لمنظمة الإرجون الصهيونية الإرهابية وقيادة حركة حيروت . ومن هذه القيادات ، على سبيل المثال ، يسرائيل شيف (الداد) ومناحم بيجين .

وقد أصبحت الدولة الصهيونية ، بعد تأسيسها ، مركزاً لتنظيم بيتار في العالم . وفي أواخر الستينيات . كان عدد أعضائه نحو ثمانية آلاف نصفهم في فلسطين المحتلة والباقي يتوزعون في ١٣ بلداً أخرى .

فلاديمير جابوتنسكي (١٨٨٠-١٩٤٠)

Vladimir Jabotinsky

مفكر صهيوني وقائد حركة الصهيونيين التصحيحيين . وُلد في أوديسا (روسيا) لعائلة من الطبقة الوسطى حل بها الفقر لموت العائل (الأب) . وكان اهتمامه باليهودية ضئيلاً للغاية ، إذ كان ينظر إليها من الخارج ، ولم تكن له معرفة بالعبرية وقد أتقنها فيما بعد وطالب بأن تُكتَب بحروف لاتينية .

لم يهتم جابوتنسكي كثيراً بحركة أحباء صهيون عندما سمع بها . ومع هذا ، يُقال إنه كانت لديه نزعات صهيونية منذ صباه . درس القانون في سويسرا وإيطاليا حيث تعلَّم الإيطالية واستوعب الرؤية المعرفية الإمبريالية تماماً؛ فتبنَّى رؤية توماس هوبز للواقع ورفض كل المُثُل الإنسانية ، وأعلن أن العالم إن هو إلا ساحة لصراع الجميع ضد الجميع ، كما تأثر بالفكر الدارويني والنيتشوي والفاشي وتأثر على وجه الخصوص بأفكار أنطونيو لابريولا عن الإرادة وعن قدرة الإنسان على صياغة المستقبل بإرادته . وكانت ثمرة هذا كله رؤية جابوتنسكي لما سماه «الأنانية المقدَّسة» (أي أن تصبح الذات مركز الحلول) ، فطالب أن يتعلم اليهودي الذبح (ذبح الآخرين) من الأغيار ، أي أن جابوتنسكي كان يحاول دمج اليهودي في عالم أوربا

الإمبريالي بحيث يكتسب اليهودي أخلاقياته ورؤيته وهويته من هذا العالم . وقد عمل جابوتنسكي أثناء إقامته في روما (١٨٩٨ ـ ١٩٠١) مراسلاً لصحيفة ليبرالية تصدر في أوديسا وكان ينشر مقالاته باسمه المستعار «التالينا» .

بدأ جابوتنسكي نشاطه الصهيوني عام ١٩٠٣ بحضور المؤتمر الصهيوني السادس (١٩٠٣) ، فاطّلع على كتابات الصهاينة الأوائل ، مثل بنسكر وهرتزل وليلينبلوم ، وتعرَّف إلى أوسيشكين وبياليك ، وحاول تنظيم بعض خلايا الدفاع اليهودية في روسيا ، كما أيد زيارة هرتزل لفون بليفيه وزير داخلية روسيا الذي يُقال إنه دبر عدة مذابح ضد أعضاء الجماعة اليهودية . وكان جابوتنسكي من معارضي مشروع شرق أفريقيا ، ربما لإدراكه القيمة التي سيكتسبها المشروع الصهيوني إن تم تأسيسه في منطقة إستراتيجية مهمة للغرب مثل فلسطين .

انتقل جابوتنسكي إلى إستنبول حيث كان مسئولاً بصورة رسمية عن أجهزة الدعاية الصهيونية وعن الصحف الصهيونية هناك (التي كانت تَصدُر بالعبرية والفرنسية واللادينو) ، وذلك بعد سقوط الخلافة العثمانية . وانتُخب جابوتنسكي عضواً في اللجنة الصهيونية عام ١٩٢١ . وأثناء المؤتمر الصهيوني الثاني عشر (١٩٢١) ، تَوصَّل بصفته هذه إلى اتفاق مع مندوب حكومة بتليورا الأوكرانية التي قامت بعدة مذابح ضد اليهود . وكان الاتفاق يقضي بأن تلحق قوة يهودية غير محاربة بقوات بتليورا أثناء زحفها ضد الحكومة البلشفية (وقد أثار ذلك احتجاج كثير من أعضاء الجماعات اليهودية) . ويرجع إعجاب جابوتنسكي بالقومية الأوكرانية إلى عام ١٩١١ حيث كتب مقالاً ينوه فيه بهذه القومية وحيويتها وتفجُّرها باعتبارها قومية عضوية .

قَبِل جابوتنسكي الورقة البيضاء التي طرحها تشرشل عام ١٩٢٢ ، إلا أنه استقال من اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية عام ١٩٢٣ احتجاجاً على قبولها هذه الورقة ، وأسس في العام نفسه منظمة بيتار ، كما أسَّس عام ١٩٢٥ الاتحاد العالمي للصهاينة التصحيحيين ، وقد جاء الاسم تأكيداً لموقفهم الرامي إلى ضرورة تصحيح السياسة الصهيونية وتنقيحها ، أي تصفيتها من أية شوائب ، حتى تقترب من الصيغة الهرتزلية الأصلية ، وهي الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة قبل تهويدها وقبل إدخال الديباجات عليها . وقد أعلن التصحيحيون في دستورهم أن "هدف الصهيونية هو تحويل أرض إسرائيل ، وضمنها شرق الأردن ، إلى كومنولث يهودي . . . [يتمتع بـ] حكم محلي وأكثرية يهودية ثابتة" ، على أن يسود الدولة الاقتصاد الحر ويتم تأجيل الصراع الطبقي وقبول التحكيم الإجباري لحسم الخلافات بين العمال والرأسماليين . وبعد أن قامت المنظمة الصهيونية بتوسيع الوكالة اليهودية عام ١٩٢٩ وضم عناصر يهودية غير صهيونية (وكانت المنظمة قد رفضت لأسباب تكتيكية إعلان أن هدف الصهيونية هو إقامة الدولة اليهودية) ، وبعد اغتيال الزعيم الصهيوني العمالي أرلوسوروف ودفاع جابوتنسكي عن المتهمين باعتبارهم أبرياء ، توترت العلاقة بين جابوتنسكي من جهة والمنظمة الصهيونية العمالية الواقعة آنذاك تحت هيمنة الصهاينة العماليين من جهة أخرى .

وعلى صعيد الاستيطان ، أسس جابوتنسكي في هذه الفترة منظمة عمالية صهيونية تنافس الهستدروت وتُسمَّى «الهستدروت القومي للعمال» ، كان مستعداً للتعاون مع مشاريع رؤوس الأموال الخاصة لإقامة مجتمع صهيوني طابعه العام رأسمالي . والواقع أن جابوتنسكي صهيوني دبلوماسي (يهودي غير يهودي) ، لا تختلف صهيونيته أبداً عن صهيونية الغرب الاستعماري التي تدور في إطار فكرة الشعب العضوي وتنظر لليهود باعتبارهم شعباً عضوياً منبوذاً . وينطلق جابوتنسكي من الفكر القومي العضوي ، فالأمة كيان عضوي مستقل وقيمة مطلقة صافية لا تشوبها أية شوائب ولا تحتاج إلى أية نقط مرجعية خارجها ، فهي مطلق مكتف بذاته يجب أن تُستبعَد كل العناصر الأخرى الدخيلة مثل الدين والاشتراكية (شأنها شأن القوميات في العالم الغربي آنذاك التي لا تحتاج إلى أي تبرير أو منطق خارجي ، ووجودها العضوي هو المبرر الوحيد) . ولهذا ، لجأ جابوتنسكي إلى ما سماه «الصهيونية بدون صفات إضافية» ، أي القومية اليهودية دون ديباجات أو تبريرات .

ويرفض جابوتنسكي الدين اليهودي تماماً ، فهو يدور في إطار الحلولية بدون إله ، ولذا فقد صرح بأن الشعب اليهودي هو المعبد الذي يتعبد فيه . وهو على كلٍّ لم يكن يعرف اليهودية بقدر كاف ، وكان يرى أن الصهيونية يجب أن تظل بمنأى عن اليهودية وألا تبتلع إلا أصغر جرعة منها . ولكنه ، بطبيعة الحال ، لم يمانع في مرحلة لاحقة (بعد عام ١٩٣٢) في توظيف الدين في خدمة الصهيونية . كما رفض جابوتنسكي الموروث الإثني كمصدر للهوية على عكس دعاة الصهيونية الإثنية ، ولذا فقد ذهب إلى إمكان الاستغناء عن هذا الموروث تماماً . بل إنه يذهب إلى أن الموروث الحضاري لليهود "هو الحضارة الغربية نفسها" ، فاليهود مُستوعَبون تماماً في الحضارة الغربية .

ولكن ما مصدر خصوصية اليهود ؟ يرى جابوتنسكي أن ثمة مصدرين أساسيين :

أ) أولهما وضع اليهود الشاذ في المجتمعات الغربية ، فهم جسم غريب تلفظه هذه المجتمعات ، ومن هنا فإن الشعب اليهودي شعب رديء يكرهه جيرانه (وهم على حق في ذلك) . ومعنى هذا أن جابوتنسكي يقبل مقولات معاداة اليهود ويجدها استجابة معقولة للشخصية اليهودية وصفة لصيقة بالحضارة الغربية ، كما أنه يرى أن الجانب الإيجابي للعداء لليهودية هو أنها تُولِّد إحساس اليهودي بنفسه .

ب) يرى جابوتنسكي أن العرْق هو المحور الأساسي للمجتمع ، بحيث يمكن القول بأن القومية والعرْق كانا بالنسبة إليه شيئاً واحداً . بل يرى أن السمات العرْقية أكثر أهمية من الأرض والدين واللغة والقومية (أي أن المطلق هو العرْق والدم وليس الهوية الإثنية) . ولذا ، فهو ، في حديثه عن الصهيونية ، يشير باستخفاف إلى جميع الأحلام الإثنية "مجتمع نموذجي وثقافة عبرية وربما طبعة ثانية من التوارة" مقابل ما يراه الضرورات الواقعية المادية ، أي إنقاذ الشعب اليهودي العضوي المنبوذ من الخطر المحدق .

تترجم هذه المنطلقات نفسها إلى حل وإجراءات ، والحل هو إخلاء أوربا من اليهود تماماً ، وتصفية الجماعات اليهودية في العالم ونَقْل ملايين اليهود إلى فلسطين ليفرضوا أنفسهم بالقوة كأغلبية سكانية داخل دولة يهودية . وكان جابوتنسكي يؤمن إيماناً قاطعاً بأن الجهود الذاتية للصهاينة لا جدوى من ورائها وأنه لا سبيل إلى النجاح دون الدعم الغربي للمشروع الصهيوني . وستقوم الحكومات الغربية ، ومنها تلك التي تقوم باضطهاد اليهود ، بالمساعدة في هذه الخطة (أشاد جابوتنسكي في شهادته عام ١٩٣٧ أمام اللجنة الملكية لفلسطين بجهود الحكومة البولندية الرامية إلى لفت نظر عصبة الأمم والبشرية جمعاء إلى واجب البشرية أن تقدم لليهود منطقة يستطيعون أن يبنوا فيها كيانهم الاجتماعي . وهو يشعر أن مثل هذه الاقتراحات قد تثير الشكوك ، ولكنه يرجو ألا توضع مثل هذه الاقتراحات موضع الشبهة بل يجب على العكس أن تُشكَر ويُعترَف لها بفضلها) .

ولكن التحالف مع إنجلترا (أكبر قوة استعمارية) هو الحل الحقيقي ، فهو «تحالف عضوي» ، وهناك تماثل كامل في المصالح . ولذا ، ساهم جابوتنسكي عام ١٩٢٨ في تأسيس جماعة بريطانية تطالب بجعل فلسطين دولة صهيونية وجزءاً من الكومنولث البريطاني وهي جماعة الدومنيون السابع (حُلَّت عام ١٩٢٩ بناءً على نصيحة رئيسها الكولونيل ودجود بعد أن أخذت الحكومة البريطانية موقفاً متشدداً من المستوطنين) . بل لقد صرح في إحدى المرات بأن ثمة أساساً إلهياً لتحالف يُعقَد بين بريطانيا وفلسطين اليهودية . ورغم هذا الالتزام المبدئي تجاه بريطانيا ، فإن الخطة التاكتيكية عند جابوتنسكي كانت تختلف عن خطة وايزمان الذي راهن على حسن نية بريطانيا فاتخذ سياسة تتسم بالذيلية الكاملة . أما جابوتنسكي ، فكان يلجأ إلى ما يسميه الضغوط الدولية ، وهذا يُفسِّر بحثه الدائم عن حليف غير بريطانيا ، فاتصل بموسوليني الذي عبَّر عن إعجابه "بالفاشي جابوتنسكي" ، كما اتصل بمعظم حكومات شرق أوربا ، وعارض مشروع تقسيم فلسطين وسياسة بريطانيا فيما يخص مسألة الهجرة ، وعمل على تشجيع الهجرة غير الشرعية إلى فلسطين . وكان الهدف من هذه التحالفات والمناورات هو الضغط على بريطانيا وليس استبدالها ، وقد فشلت كل مساعيه فلم يحقق شيئاً . ولعل هذا استمرار لأسلوب هرتزل الدبلوماسي ، أي البحث عن راعٍ مع توضيح فائدة الدولة اليهودية له إن وُضعت في خدمته .

إن نَقْل اليهود ، كأغلبية سكانية ، سيُحقِّق عدة أهداف من وجهة نظر جابوتنسكي :

١ ـ تحويل اليهود إلى أمة مثل كل الأمم ، أو تطبيع الشخصية اليهودية الهامشية .

٢ ـ تقوم هذه الأمة بخدمة المصالح الغربية في المنطقة وتصبح قاعدة لها . وعلى حد قول نوردو أستاذ جابوتنسكي "سنجيء إلى فلسطين لنوسع حدود أوربا ونصل بها إلى الفرات" ، أي أن الدولة الصهيونية ستصبح دولة وظيفية .

٣ ـ بهذه الطريقة سيصبح الشعب العضوي اليهودي جزءاً من الحضارة الغربية ، أي أنه سيحقق من خلال التشكيل الإمبريالي الغربي ما فشل في تحقيقه من خلال التشكيل الحضاري الغربي .

وماذا عن العرب ؟ هنا يتضح الجانب الإحلالي من فكرة جابوتنسكي عن الشعب العضوي اليهودي الغربي ، فهذا الشعب جزء من عرْق سيِّد ، فالتفاوت بين الأجناس الراقية والمتخلفة هو التبرير الأساسي للعملية الاستعمارية . واليهود سيصلون إلى فلسطين باعتبارهم هذا الجنس المتفوق . ومن ثم ، فلا حقوق للعرب ، فهم متخلفون ولن يفهموا طبيعة المسألة اليهودية ، ولذا فلا مفر من العنف العسكري لفرض أغلبية يهودية على العرب وإقامة دولة صهيونية على ضفتي نهر الأردن بالقوة . وقد استخدم جابوتنسكي صورة مجازية «الجدار الحديدي» ليصف الطريق الوحيد للاتفاق مع العرب ؛ جدار حديدي من الحراب اليهودية .

نادى جابوتنسكي ، خلال الحرب العالمية الأولى ، بتجنيد فرقة من الكتائب اليهودية العسكرية لكي تحارب على الجبهة الفلسطينية

مع القوات الإنجليزية الغازية لفلسطين . ووصل جابوتنسكي إلى الإسكندرية في ديسمبر ١٩١٤ ، وأسَّس في العام التالي ، مع جوزيف ترومبلدور ، فرقة البغالة الصهيونية . وقد وافقت الحكومة الإنجليزية عام ١٩١٧ على إنشاء الفرقة ٣٨ من الكتائب حملة البنادق الملكية وتطوَّع فيها جابوتنسكي وأصبح قائدها ، وكان يظن أن هذه الوحدة العسكرية الصهيونية هي من الدوافع الأساسية وراء صدور وعد بلفور ، وهو ما يبيِّن مدى ضيق أفقه وافتقاره إلى معرفة الدوافع المركبة في السياسة ، فالمُخطَّط الإمبريالي البريطاني بشأن فلسطين وُضع قبل الحرب ، وكان جزءاً لا يتجزأ من السياسة الإمبريالية البريطانية في المنطقة بعد تقسيم الدولة العثمانية . وقد أصبح جابوتنسكي عضواً في البعثة الصهيونية إلى فلسطين كما أصبح رئيس القسم السياسي فيها .

لعب جابوتنسكي دوراً أساسياً في تنظيم كتائب الهاجاناه لقمع المظاهرات العربية في القدس عام ١٩٢٠ ، وتبنَّى سياسة «الردع النشيط» ضد العرب لإرغامهم على الاعتراف بالوجود اليهودي . ولذا ، فقد قامت منظمة الأرجون ، بوحي من أفكاره ، بإلقاء القنابل على المدنيين دون تمييز لخلق ما سماه «الوقائع الجديدة» التي جاء ديان فيما بعد ليجعل منها محوراً لسياسة المؤسسة العسكرية الإسرائيلية . والهدف من هذه التنظيمات مزدوج ، فهي تهدف إلى الدفاع عن المستوطنين ضد السكان الأصليين ، ولكنها على حد قول جابوتنسكي خير دفاع عن المصالح الإمبريالية كما أنها حماية لطرق إمدادات الإمبراطورية لحماية المصالح الغربية ضد القومية العربية .

وأطروحات جابوتنسكي لا تختلف كثيراً عن أطروحات الصهيونية . ومع هذا ، كان جابوتنسكي يُعَدُّ متطرفاً بالمقاييس الصهيونية . فما مصدر هذا التطرف ؟ يؤمن جابوتنسكي بما كان يسميه «الواحدية» وهي فكرة شمولية تعبر عن نفسها كما يلي :

١ ـ الإيمان بدور العقائد الصافية البسيطة الواضحة في دفع الجماهير . بل إنه كان يرى في خضوع الجماهير للقائد بعداً جمالياً (ففي روايته **شمشون** يعبِّر البطل عن إعجابه بنظام الفلستيين الوثني وخضوعهم الكامل للكهنة) .

٢ ـ الإيمان بفكرة اليهودي الخالص الذي لا تشوبه أية شائبة ، فاليهود الذين يحاولون الاستيطان في فلسطين ليسوا بورجوازيين أو بروليتاريا وإنما هم مجرد رواد ليس لهم انتماء طبقي .

وهذه الواحدية الصريحة هي ما يُميِّز جابوتنسكي عن كل المفكرين الصهاينة ، فهو يرفض الديباجات ، كل الديباجات ، ليبرالية كانت أم عمالية ، علمانية كانت أم دينية . فالصهيونية مكتفية بذاتها ، ومن ثم فلا داعي للتاكتيكات والمناورات ، ولا مبرر للمراوغة وعدم المجاهرة . وموقف جابوتنسكي هذا ينم عن السذاجة والجهل بطبيعة العمل السياسي ، وخصوصاً إذا كان ثمة ساحات كثيرة (فلسطين ـ يهود العالم ـ الدولة الإمبريالية الزراعية) .

وكان في وسع الحركة الصهيونية امتصاص التيار التصحيحي وتوظيفه في المجالات التي يريدها وبالطريقة التي تروق لقادته ، فالمجال كان دائماً مفتوحاً أمام الجميع . ولكن جابوتنسكي وأعوانه تَحدَّوا المؤسسة الصهيونية لا عن طريق طرح فكر يميني متطرف ، فالفكر الصهيوني ابتدأ فكراً استعمارياً استيطانياً ، وإنما برفض بعض القواعد الخاصة بطريقة تناول الأمور ، وهو تحدٍّ يدل في نهاية الأمر على قصر نظر جابوتنسكي وهو ما جعله يبدو متطرفاً من منظور صهيوني .

وأول نقط الاختلاف رفضه الخطاب الصهيوني المراوغ ، إذ كان يرفض الشعار الداعي إلى الصمت والعمل والابتعاد عن السياسة والتظاهر "بأننا نذهب إلى فلسطين لمجرد حرث الأرض" . فقد كان يؤمن بضرورة الإيضاح والإعلان عن الأهداف دون مواربة ، وهي مسألة غير عملية ولا واقعية ولا تعود على الصهاينة بأية فائدة . وحينما اكتفت سلطات الانتداب البريطاني مثلاً بنقش حرفي E.I (وهما اختصار عبارة «إرتس يسرائيل Eretz Israel») على العملة في فلسطين بدلاً من نقش الكلمتين كاملتين (وهذا حل مراوغ) رفض جابوتنسكي الأمر وطالب بأن يُكتَب الاسم كاملاً أو أن لا يكتب على الإطلاق . كما طالب بأن تُعلن الحركة الصهيونية بكل وضوح أن هدفها هو إنشاء دولة يهودية ، وهو هدف كان الجميع متفقين عليه منذ أيام بنسكر ، وهم يتحدثون عنه ولكنهم يؤثرون عدم إعلانه ، لأن الصياح والإفصاح لا يفيدان في رأيهم . أما العرب ، فكان جابوتنسكي يطالب بأن تُوضَّح لهم الأمور (أي أنهم سيتم طردهم) ، إذ أن المشروع الصهيوني ، سيتم بكل بساطة كما يتم أي مشروع استعماري كبير . وهو أمر كان مُتفَّقاً عليه تماماً ، ولا ينصرف الاختلاف بين الصهاينة إلا إلى جدوى الإعلان عن الأهداف النهائية .

وثاني أوجه الاختلاف بين جابوتنسكي والمنظمة هو إصراره على حل الحد الأقصى الذي يتسم بالشمول والفورية . ومرة أخرى ، لم يكن ثمة اختلاف على الهدف ، فالاختلاف كان على طبيعة المرحلة . وعلى سبيل المثال ، كان جابوتنسكي يرى أن الدولة المزمع إنشاؤها يجب أن تتم دفعة واحدة عن طريق رفع قيود الهجرة

إلى فلسطين ونقل اليهود وطرد العرب ، ومن هنا كان لجوؤه إلى عقد اتفاق مع حكومة بولندا في نهاية الثلاثينيات (١٩٣٨) يقضي بتهجير مليون ونصف مليون يهودي إلى فلسطين خلال عشر سنوات ، وذلك بهدف خلق أغلبية يهودية فورية في فلسطين . وكان جابوتنسكي يتصورَّ أن هذا ممكن مع تفاقم ظاهرة العداء لليهود في بولندا التي كانت تضم آنذاك أكبر جماعة يهودية في العالم . والرؤية الطفولية الساذجة نفسها تكمن وراء أوهامه المتعددة في أن يصل الدعم الإمبريالي دفعة واحدة وأن تُقام الدولة على ضفتي نهر الأردن وأن تُصادَر جميع الأراضي العامة المنزرعة في فلسطين وأن تُوضَع تحت تَصرُّف الحركة الصهيونية . وكلها أهداف صهيونية كامنة . كما كان جابوتنسكي ينادي بضرورة تصفية الجماعات اليهودية في الخارج وعبرنة التعليم ، أي جَعْله تعليماً قومياً عضوياً يعبِّر عن الذات القومية ويؤدي إلى تطبيع اليهود تطبيعاً كاملاً . وهذه موضوعات قديمة ومطروحة في أدبيات الصهاينة من كل الاتجاهات ، ولكن الإصرار عليها في تلك المرحلة كان من الممكن أن يَنتُج عنه صدع في القيادة الصهيونية وانشقاقات في المنظمة . والواقع أن التحالف مع الاستعمار الغربي كان قائماً بالفعل ، ولكن هناك صعوبات خاصة بسبب طبيعة المادة البشرية المُستهدَفة وطبيعة ساحة القتال في فلسطين . فالدولة الراعية التي يعتمدون عليها لها مصالح عالمية ليست بالضرورة متفقة تمام الاتفاق مع مصالح المستوطنين ، من ذلك رغبة الإمبراطورية في عدم الدخول في صراع مع القومية العربية أثناء الحرب . ولذا ، كان ضرورياً أن تُظهر القيادة الصهيونية تَفهُّماً لهذه الرغبة وأن تأخذ الحساسيات في الاعتبار ، الأمر الذي لم يدركه جابوتنسكي حينذاك ولا أدركه أتباعه (وقد أدركه شتيرن وبيجين بدرجة أقل فيما بعد) . أما تصفية الدياسبورا ، فهو تَجاهُل لحقيقة وجود صهيونيتين . وقد كان المستوطنون الصهاينة يعتمدون كل الاعتماد على الصهاينة التوطينيين في الخارج ، وخصوصاً في مرحلة ما قبل إنشاء الدولة .

أما الوجه الثالث من أوجه الاختلاف ، فهو إصراره على الاقتصاد الحر وتقوية البورجوازية اليهودية في فلسطين (ومن هنا صنِّف فكره خطأً باعتباره فكراً يمينياً) . ولم يكن العماليون يمانعون في التعاون معه حين يكون ثمة مجال للتعاون ، فقد كانوا في نهاية الأمر يتعاونون مع السلطات الاستعمارية غير الاشتراكية ومع يهود الخارج البورجوازيين . ولكن طبيعة الاستعمار الصهيوني الاستيطانية الإحلالية هي التي فرضت عليهم أسلوباً جماعياً عمالياً ، وهو أسلوب لا يرتبط بالضرورة بأي مضمون اشتراكي إنساني حتى لو استُخدمت ديباجة اشتراكية لتسويغه . فالمستوطنون الأوائل في الولايات المتحدة من طائفة البيوريتان ، وفلسفتهم في الحياة فلسفة فردية متطرفة ، وكان ماكس فيبر يعتبرها الأساس الفلسفي لعملية التراكم الرأسمالي ، ومع هذا تبنوا أشكالاً جماعية في الاقتصاد والحياة كضرورة استيطانية ، إذ هل يمكن حرث الأرض وقتل أصحابها الأصليين في إطار المشروع الحر ؟ وهكذا ، لم يكن هناك مجال للتعاون بسبب طبيعة الموقف نفسه لا بسبب الاختلافات على التوجُّه السياسي .

ولقد أطلق بن جوريون على جابوتنسكي اسم «تروتسكي الحركة الصهيونية» ، وهذا يعني أنه شخص يصر على الحد الأقصى والحلول الشاملة ويجاهر بذلك ولا يدرك طبيعة المرحلة متجاهلاً أن من الممكن تحقيق الشيء نفسه ببطء مع إطلاق شعارات هادئة جميلة عن الأخوة والتضامن . ولعل هذا يفسر نجاح العماليين فيما فشل فيه جابوتنسكي . فتاريخ الاستيطان (بشقيه الزراعي والعسكري) هو تاريخ الصهيونية العمالية .

ولا يعني هذا أن أتباع جابوتنسكي لم يلعبوا دوراً في تأسيس الدولة ، فقد استمروا في جهودهم الاستيطانية العسكرية التي كانت تستفيد منها المؤسسة العمالية في نهاية الأمر . ولم يَدُم انشقاقهم طويلاً على كل حال ، فقد مات جابوتنسكي عام ١٩٤٠ وحل محله بيجين في قيادة هذا الاتجاه . وفي منتصف الأربعينيات ، بدأ التعاون مرة أخرى مع العماليين ، وعادت المنظمة الصهيونية الجديدة إلى صفوف المنظمة الأم عام ١٩٤٦ بعد أن أصبح موقفهما متفقاً تجاه كل القضايا ، واشترك الجميع في المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين (١٩٤٦) . وتُعَدُّ مذبحة دير ياسين ، وهي من أكثر العمليات الإرهابية الصهيونية اتقاناً ونجاحاً ، ثمرة هذا التعاون ، إذ قام بها فريق من جماعة الأرجون ذات التوجه التصحيحي بالتعاون مع الهاجاناه التي يسيطر عليها العماليون . وقد استنكر الصهاينة العماليون هذه العملية الإرهابية ، ولكن من الثابت تاريخياً أنه تم التنسيق المسبق بشأنها بين الاتجاهين الصهيونيين الاستيطانيين . وقد صدرت أعمال جابوتنسكي الكاملة بالعبرية في إسرائيل .

ماكس بودنهايمر (١٨٦٥-١٩٤٠)

Max Bodenheimer

زعيم صهيوني ألماني . درس القانون في جامعة شتوتجارت وعمل بالمحاماة بعض الوقت . وفي عام ١٨٩١ نشر كتيباً دعا فيه إلى إقامة مستعمرات في سوريا وفلسطين لليهود الروس المضطهدين .

وبعد ذلك بعامين ، أسَّس مع ديفيد ولفسون جمعية صهيونية في كولونيا تُدعَى «المنظمة اليهودية القومية» . وبعد صدور كتاب هرتزل **دولة اليهود** ، أصبح من أشد مؤيديه ، وكان عضواً في رئاسة المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، وساهم في صياغة الأهداف الصهيونية الواردة في برنامج بازل . ثم عمل نائباً للرئيس في المؤتمرات الصهيونية التالية ، ووضع مسودة لوائح المنظمة الصهيونية العالمية .

في عام ١٨٩٨ ، كان بودنهايمر عضواً في الوفد المرافق لهرتزل في لقاءاته مع القيصر الألماني ولهلم الثاني ، وزار فلسطين وإستنبول . شارك في تأسيس المنظمة الصهيونية الألمانية وتولَّى رئاستها بين عامي ١٨٩٧ و١٩١٠ ، كما كان رئيساً للصندوق القومي اليهودي في الفترة من ١٩٠٧ وحتى ١٩١٤ ووضع لائحته التأسيسية . وأثناء الحرب العالمية الأولى ، أسَّس في برلين لجنة تحرير اليهود الروس (سُمِّيت فيما بعد «لجنة الشرق») . وكانت هذه اللجنة بمنزلة حلقة الاتصال بين يهود اليديشية وقوات الاحتلال الألمانية التي كانت تود تجنيد اليهود المتحدثين باليديشية باعتبارهم ألماناً ، وذلك حتى تزيد من الكثافة السكانية الألمانية في المناطق السلافية المختلفة .

تعاون مع التصحيحيين بين عامي ١٩٢٩ و١٩٣٤ ، ولكن لم ينشق معهم عن المنظمة الصهيونية العالمية . وقد استقر بودنهايمر عام ١٩٣٥ في فلسطين حيث شارك بالكتابة في عدد من الدوريات الصهيونية ، ونشرت مذكراته بالعبرية والإنجليزية والألمانية . كما كتَب عام ١٩٣٣ مسرحية عن حياة المسيح .

يتسحاق جروينباوم (١٨٧٩-١٩٧٠)

Yizhak Gruenbaum

أحد قادة الاستيطان الصهيوني ، وقائد الجناح الرايكالي داخل تيار الصهيونية العامة ، وأول وزير داخلية في إسرائيل . وُلد في بولندا وشارك بنشاط في الأنشطة الصهيونية في صدر شبابه ، وصار عضواً في المؤتمرات الصهيونية منذ المؤتمر السابع (١٩٠٥) ، وأصدر عدة صحف في روسيا وبولندا .

كان نشيطاً في الحركة السياسية البولندية قبل بعد استقلالها عن روسيا ، وقد انتُخب عضواً في السييم (البرلمان البولندي) منذ عام ١٩١٨ وحتى عام ١٩٣٢ حين هاجر إلى باريس . وخلال هذه الفترة، نظَّم «كتلة الأقليات» في البرلمان ، ودافع بشدة عن الحقوق الاجتماعية والسياسية للأقليات . وبعد هجرته إلى باريس ، أصبح عضواً في المكتب التنفيذي للمنظمة الصهيونية ومسئولاً عن النشاط التوطيني والاستيطاني .

كان من أشد معارضي عملية توسيع الوكالة اليهودية وضم غير الصهاينة لها . وكان من المدافعين بضراوة عن علمنة الحركة الصهيونية الأمر الذي جلب عليه عداء الأحزاب الدينية . وأثناء اضطهاد النازي للأقليات وإبادته لها ، كان جرونباوم من أشد المعارضين لبذل أية جهود لإنقاذ يهود أوربا ، فقد كان يرى أن الدياسبورا لا قيمة لها وأن حياة أية بقرة في فلسطين أكثر أهمية من حياة عشرات اليهود في الدياسبورا .

عُيِّن عضواً في الحكومة الإسرائيلية المؤقتة في ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ (وهي الحكومة التي أجرت انتخابات الكنيست الأول) ، واشترك في الانتخابات ، ولكنه فشل . تضاءل دوره بعد ذلك في الحياة السياسية ، ولكنه ظل يكتب لفترة في جرائد حزب المابام . ومن أهم أعماله الأدبية إشرافه على تحرير **موسوعة الدياسبورا** (١٩٥٣ ـ ١٩٥٩) .

مایر جروسمان (١٨٨٨-١٩٦٤)

Meir Grossman

صحفي وقائد صهيوني من التصحيحيين ، وُلد في بروسيا . انخرط في الحركة الصهيونية منذ شبابه المبكر ، وعاش لفترة في وارسو حيث كتب في الصحافة اليديشية . درس في برلين ، ورأس تحرير صحف الحركة الطلابية الصهيونية هناك . ومع بداية الحرب العالمية الأولى ، دافع عن آراء فلاديمير جابوتنسكي الداعية لإنشاء فيلق يهودي يحارب مع الحلفاء وذهب إلى لندن حيث أصدر صحيفة يديشية تدعو لهذا . ورحل جروسمان بعد فترة بسبب متاعب مالية إلى كوبنهاجن . وبعد ثورة فبراير في روسيا (عام ١٩١٧) ، عاد إليها . وبعد ثورة أكتوبر ، سافر إلى أوكرانيا حيث شارك بنشاط في الحركة الصهيونية . وبعد انتصار البلاشفة على القوميين الأوكرانيين بقيادة بتليورا ، رحل جروسمان إلى الولايات المتحدة ليدعو لنجدة اليهود من البلاشفة . وفي عام ١٩١٩ ، شاركه جيكوب لانداو في إنشاء مكتب الاتصالات اليهودي . وأسَّس عام ١٩٢٥ نشرة كانت تَصدُر باللغة الإنجليزية في القدس **بالستاين بوست** ، والتي تحوَّلت فيما بعد إلى **جيروساليم بوست** . اشترك مع جابوتنسكي في إنشاء الحزب الصهيوني التصحيحي ، لكنه خالفه في مسألة الانفصال عن المنظمة الصهيونية الجديدة عام ١٩٣٣ وانشق ليُكوِّن حزب الدولة اليهودية . استقر جروسمان في فلسطين منذ عام ١٩٣٤ وأصبح مديراً في بنك . وقد ألقَى هناك خطاباً فَضَح فيه مباحثات وايزمان مع وزير المستعمرات البريطاني بشأن

التقسيم، الأمر الذي أدَّى إلى تعليق عضويته في المنظمة الصهيونية . وهاجر جروسمان إلى الولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية ، ثم عاد إلى فلسطين وشارك في حزب الصهيونيين العموميين . واستمر في عمله الصحفي منهياً حياته السياسية بالانفصال عن الحزب الليبرالي الجديد ، لكنه أبدى اهتماماً بقضايا اليهود السوفييت وأصدر عدة مطبوعات بالروسية في إسرائيل .



١١
الصهيونية العمالية

الصهيونية الاشتراكية ـ الصهيونية العمالية ـ هس ـ جوردون ـ ميركين
ـ ترومبلدور ـ بوروخوف ـ كاتزنلسون ـ تابنكين ـ أرلوسوروف

الصهيونية الاشتراكية

Socialist Zionism

«الصهيونية الاشتراكية» اصطلاح مرادف لاصطلاح «الصهيونية العمالية» . وقد أخذنا بالمصطلح الثاني لأنه أكثر حياداً . وقد أثبتت ممارسات الصهاينة العماليين أن انتماءهم الاشتراكي مجرد وهم ، فقد قاموا باحتلال الأرض الفلسطينية وطردوا بعض أهلها بالتعاون مع قوى الاستعمار ، ويُشكِّلون الآن الصفوة الحاكمة في إسرائيل ، قاعدة الاستعمار الغربي في المنطقة العربية .

أما اصطلاح «الصهيونية العمالية» فهو على الأقل يصف الانتماء الطبقي الفعلي لبعض قطاعات المستوطنين الصهاينة ، كما أن كلمة «عمالي» لا تزال تُستخدَم للإشارة إلى مجموعة من الأحزاب الإسرائيلية .

الصهيونية العمالية

Labour Zionism

«الصهيونية العمالية» تيار صهيوني يَقْبل الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة بعد تهويدها وإدخال ديباجات اشتراكية عليها ، وهو تيار استيطاني بالدرجة الأولى . وقد نشأت الصهيونية العمالية في صفوف المثقفين اليهود في شرق أوربا ممن سقطوا ضحية تعثُّر التحديث في روسيا . ويتلخص إنجاز الصهيونية العمالية فيما يأتي :

أولاً : نجاحها في التوصُّل إلى صيغة صهيونية مقبولة لدى الشباب اليهودي الثوري في أواخر القرن التاسع عشر . فقد شهد الشتتل ومنطقة الاستيطان اليهودي صراعاً طبقياً حاداً بين العمال والفقراء اليهود من جهة وأصحاب العمل (اليهود أساساً) من جهة أخرى . وكان ٣٠٪ من جملة المقبوض عليهم لجرائم سياسية عام ١٩٠٠ من اليهود . وكتب وايزمان في خطاب له يشكو من أن شباب اليهود ينخرطون في سلك الاشتراكية وكأن الحمى قد أصابتهم ، ولعله كان يشير إلى أخيه الذي انخرط في صفوف الثوريين آنذاك . وقد نظمت اتحادات نقابات العمال اليهودية في الفترة ١٨٩٥ ـ ١٩٠٤ ما لا يقل عن ٢٢٧٦ إضراباً ضد أصحاب العمل ، وانضم إليهم عمال غير يهود . ومن هنا كانت شعبية البوند وانتشاره .

وقد تأسَّس البوند في العام نفسه الذي أُسِّست فيه المنظمة الصهيونية (١٨٩٧) . ومع هذا ، نجحت الصهيونية العمالية في خداع بعض هؤلاء وأقنعتهم بإمكان تحسين مستواهم المعيشي في فلسطين . وساعد على ذلك وجود إحساس عام بين المستوطنين بأنهم سيصبحون ملاكاً للأرض لا مجرد أُجراء زراعيين أو عمال صناعيين ، أي أن الاستيطان كان يشكل صعوداً أكيداً في السلم الطبقي وليس هبوطاً فيه . بل يمكننا أن نقول إنه لولا الصهيونية العمالية لما قُدِّر للمشروع الصهيوني أي نجاح ، فهي التي نقلت جزءاً من الكتلة البشرية اليهودية اليديشية إلى فلسطين .

ثانياً : نجحت الصهيونية العمالية (صهيونية ساحة القتال الاستيطانية) في التوصل إلى صيغة تَحُل إشكالية خصوصية الاستيطان الصهيوني وإحلاليته . وقد اكتشف الصهاينة العماليون أن الصيغة الجماعية (ذات الديباجة الاشتراكية) هي الصيغة المُثلى الكفيلة بتحقيق الاستعمار الصهيوني بجانبيه الاستيطاني والإحلالي . فالدولة الراعية لم يكن لديها استعداد لمد المشروع الصهيوني بما يحتاج إليه من تخطيط شامل وجهد بشري وتمويل كثيف لتوطين المهاجرين من أوربا وتهويد فلسطين سكانياً . والمادة البشرية المهاجرة من شرق أوربا لم تكن تملك رأس المال اللازم . ومن هنا ، كان الشكل الجماعي (التعاوني الاشتراكي) حيث تقوم المنظمة الصهيونية والصهاينة التوطينيون في الخارج بجمع رأس المال القومي اللازم من أعضاء الجماعات اليهودية (ولا سيما الأثرياء) في الغرب ، ثم تقوم بإعطائه للوكالة اليهودية في الداخل ، التي تقوم بتوظيفه بشكل تعاوني على أرض مملوكة ملكية جماعية . ويقوم العنصر البشري الدخيل بتنظيم نفسه على هيئة وحدات جماعية تمارس الزراعة والقتال لأن المجهود الفردي لا يمكن أن يُكتَب له النجاح (وهو أمر اكتشفه المستوطنون البيض الأوائل في الولايات المتحدة أثناء حرب الإبادة ضد الهنود بدون مساعدة من أي فكر اشتراكي) .

أما الشق الإحلالي من الاستعمار الصهيوني ، فقد تكفلت به المفاهيم الاشتراكية الخاصة بنُبل العمل اليدوي . وقد نادت الصهيونية العمالية بأن يذهب يهودي المنفى إلى فلسطين ليعمل بنفسه ويزرع أرضها بيديه ، فيزيل ما علق بذاته في الشتات ، ويكون آخر اليهود وأول العبرانيين (كما قال جوردون) . وهكذا ، فإن اليهودي إذا استأجر عاملاً عربياً فقد هدم الفكرة الصهيونية من أساسها . ومن هنا طرح جوردون فكرة اقتحام العمل ، أي أن يعمل اليهودي بنفسه ، ثم اقتحام الأرض ، أي أن يزرعها بنفسه ، وأخيراً اقتحام الحراسة ، أي أن يحرسها بنفسه (وهذا ما نسميه «الزراعة المسلحة») . ورغم أن الديباجات المُستخدَمة ديباجات ثورية شعبوية تتسم بشيء من الجمال والجاذبية ، فإنها في واقع الأمر تترجم نفسها إلى إحلالية . فهذه المفاهيم تعني في واقع الأمر تغييب العربي ، والاستيلاء على الأرض بعد إخلائها من سكانها العرب مصدر العمالة الرخيصة التي كانت تتهدد المشروع الصهيوني من أساسه ، وإحلال المستوطن الصهيوني محله . وبذلك تكون الصهيونية العمالية قد نجحت في التوصل إلى الصيغة التي تسمح بترجمة أهم عناصر الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة (أي توطين الفائض اليهودي في فلسطين بعد التخلص من العرب) إلى برنامج عملي وممارسة فعلية .

ويبدو أن أعضاء البورجوازية اليهودية المندمجة أو شبه المندمجة في الغرب ووسط أوربا (والتي جاء من صفوفها كثير من زعماء الصهيونية السياسية مثل هرتزل ونوردو) كانوا واعين بحقائق الموقف وبصعوبات الاستيطان . كما أنهم لم يكن يعنيهم ، من قريب أو بعيد ، شكل الدولة الصهيونية ما دامت تؤدي الأغراض المطلوبة منها مثل إبعاد يهود شرق أوربا عنهم والقيام بدور المدافع عن المصالح الإمبريالية . ولذلك ، لم تمانع هذه القيادات البورجوازية في اتخاذ قرارات «اشتراكية» ثورية عديدة . فالنقطة الأولى في برنامج بازل تدعو إلى توطين اليهود في فلسطين بالوسائل اللازمة دون تأكيد أي محتوى طبقي أو نمط إنتاجي معيَّن . وبمرور الزمن ، اكتشف جميع الصهاينة بشكل برجماتي أن الاستيطان الجماعي والعمالي هو أهم أشكال الاستيطان ، فعملية تمويل المشروع الصهيوني كان لابد أن تتم بشكل جماعي أو قومي ، كما أن المستوطنين اضطروا إلى التجمع على هيئة جزر متماسكة في وجه الرفض العربي . لكل هذا ، نجد أن المؤتمرات الصهيونية الأولى (التي سيطرت عليها الطبقات الوسطى والحاخامات) وافقت على مبدأ تأميم الأرض باعتباره أهم أُسس الدولة الصهيونية في المستقبل ، كما اتخذت هذه المؤتمرات كثيراً من القرارات الثورية الأخرى . وكان وايزمان (الصهيوني العملي البورجوازي) يعطف كثيراً على النشاط الصهيوني العمالي ولم يكن يأبه باعتراضات المموِّلين اليهود اعتقاداً منه أن الصهيونية العمالية ستَخدم ، في نهاية الأمر ، المشروع الصهيوني .

وتجدُر ملاحظة أن الصهيونية العمالية الاستيطانية لا ترفض اليهودية الحاخامية وحسب وإنما تقدم نقداً عميقاً للشخصية اليهودية في المنفى باعتبار أنها تود أن تُسبغ مركزية على المُستوطَن الصهيوني فتزيد من شرعيته وتضمن تَدفُّق الدعم المالي والسياسي عليه . وكان التصور أنه كلما زاد هذا النقد عمقاً زادت الشرعية وزاد الدعم ، بل إن النقد العمالي الاستيطاني وصل إلى درجة رفض ما يُسمَّى «الهوية اليهودية» تماماً واعتبارها من مخلفات الماضي ، ومن ثم نشأت الدعوة إلى أن يكون المستوطنون آخر اليهود وأول العبرانيين ، وأصبحت الدعوة للهوية اليهودية من أمراض المنفى .

وتؤمن الصهيونية العمالية بأزلية معاداة اليهود وإن كانت تعطي تفسيراً اجتماعياً مادياً لهذه الظاهرة . وتتلخص المشكلة ، حسب التصور الصهيوني العمالي ، في أن التركيب الاجتماعي والحضاري لليهود يختلف عن التركيب الاجتماعي والحضاري للشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها ، فاليهود الذين يُحرَّم عليهم ممارسة مهنة الزراعة كانوا يعيشون أساساً في المدن ، أما العمال منهم فهم لا يشكلون بروليتاريا صناعية وإنما ينتمون إلى قطاع البروليتاريا الرثة ومُحرَّم عليهم ممارسة كثير من الحرف والأعمال ، أما أثرياء اليهود فإنهم يشتغلون بالتجارة والربا أو ببعض الصناعات الاستهلاكية . وهذا كله دليل على تَشوُّه البناء الطبقي عند اليهود وعلى هامشيتهم . وقد عبَّر بوروخوف عن هذه الفكرة بصورة الهرم المقلوب : فكل شعب يتكون من فئات اجتماعية تأخذ شكل الهرم الذي يتكون من قاعدة عريضة تُسهم في العمليات الإنتاجية الأساسية ، وكلما بَعُدت العمليات الاقتصادية عن هذه العمليات الأساسية قلَّ عدد العاملين حتى نصل إلى قمة الهرم . ويجد بوروخوف أن هذا الهرم مُشوَّه تماماً عند اليهود ففي صفوفهم عدد كبير ، من المحامين والأطباء والمفكرين وغيرهم ، يشاركون في العمليات الإنتاجية الهامشية وينتمون إلى الطبقة الوسطى وإلى قمة الهرم ، مع قلة قليلة من الفلاحين ، إن وُجدت ، وبروليتاريا صغيرة الحجم نسبياً ممن ينتمون إلى قاعدته .

وقد نتج عن هذا الوضع المتميز شيئان :

أولاً : أن كل الطبقات اليهودية في المجتمع ـ رأسماليين كانوا أو عمالاً ـ كانت تشكل وحدة متميزة مرفوضة من بقية المجتمع بسبب هامشيتها (وبسبب تراثها الفكري الديني القومي) . وهذا يعني أن

معاداة اليهود شيء موجه ضد كل اليهود بجميع طبقاتهم ، وهي تكاد تكون مرضاً أزلياً لأن المجتمعات الاشتراكية اللا طبقية غير قادرة على حل هذه القضية لعدم إدراكها خصوصية وضع اليهود .
ثانياً : أُصيبت الشخصية اليهودية بالذبول والطفيلية لأنها فقدت علاقتها بالأرض الزراعية وبأي عمل منتج . وقد ازداد هذا الوضع حدَّة وتفاقماً ، بسبب ظهور طبقة رأسمالية محلية (في روسيا وبولندا) تُنافس الرأسماليين اليهود وترفض استئجار العمال اليهود وذلك بسبب التعصب الديني ولأن العامل اليهودي في معظم الأحيان كان لا يمتلك الخبرات . ولقد راحت هذه الرأسمالية المحلية الجديدة تؤلب الجماهير المسيحية المُستغَلة ضد كل من الرأسماليين والعمال اليهود ، حتى لا تعرف هذه الجماهير مستغليها الحقيقيين ، وتحليل أوضاع اليهود بعد سقوط الجيتو على هذا النحو فيه كثير من الجدة والصدق . ويشترك الصهاينة العماليون في الإيمان بأن اليهود فقدوا كثيراً من الصفات القومية وإن كانوا مع هذا يشكلون أمة مستقلة أو أمة لها سمات الطبقة ، وبأنها منبوذة في الغرب للأسباب التي ذُكرت آنفاً .

وبالتالي ، فإن الحل الذي يطرح نفسه هو إخلاء أوربا من يهودها وتصفية الجماعات اليهودية (وإن كان بوروخوف يرى إمكان استثمار مثل هذه الجماعات وبالتالي وجوب الدفاع عن حقوقها السياسية) . وتتم عملية التصفية من خلال نقل الكتلة البشرية اليهودية إلى فلسطين ، أي تحويل الهجرة التلقائية (إلى الولايات المتحدة وغيرها من البلدان) إلى استعمار استيطاني في فلسطين حيث ستُؤسَّس دولة صهيونية تُجسِّد القيم القومية اليهودية وتساهم في تطبيع الشخصية اليهودية وتُطهِّرها من أدران المنفى من خلال العمل اليدوي .

وقد طالب العماليون بأن تُجسِّد هذه الدولة القيم الاشتراكية والثورية وكل القيم التقدمية المطروحة آنذاك في أوربا ، ولا يخلو أي برنامج صهيوني عمالي من الحديث عن وحدة الطبقة العاملة . وفي الماضي ، كان العماليون يتحدثون كذلك عن الأممية والتضامن البروليتاري العالمي وما شابه من شعارات . ولكن ، داخل هذه الوحدة البنيوية الأساسية ، توجد بنَى فرعية مختلفة . ولعل أهم هذه البنَى تيار بوروخوف الذي حاول توظيف المنهج الماركسي في خدمة رؤيته الصهيونية ، فأكد الأساس الطبقي والاقتصادي للصهيونية ، وخَلُص من تحليله إلى حتمية الحل الصهيوني كوسيلة لتزويد كل الطبقات اليهودية الهامشية بقاعدة للإنتاج . أما تيار سيركين ، فقد ركز على العنصر الأخلاقي ووحدة الرؤية بين اليهود ، ولذلك فهو يؤكد التعاون والأخوة ويُقلِّل أهمية الصراع الطبقي . وقد انصرف جل اهتمام جوردون إلى الجانب النفسي ، ولذلك فقد ركز على فكرة اقتحام الأرض والعمل كوسيلة للتخلص من آفات المنفى وكوسيلة للولادة الجديدة وتحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج . وقد كُتب لأفكار جوردون وسيركين الشيوع في الأوساط العمالية الصهيونية .

ويعود ظهور الاتجاه العمالي إلى المؤتمر الصهيوني الثاني عام ١٨٩٨ ، لكنه قوبل برفض شديد من أغلبية المشاركين بزعامة هرتزل وكان الرافضون يقدِّمون الصهيونية آنذاك على أنها طريقة لتحويل الشباب اليهودي عن طريق الثورة . وبعد ذلك ، عُقد مؤتمر في لاهاي عام ١٩٠٧ لجماعات عمال صهيون بقيادة بوروخوف ، ثم انضمت لهم جماعات أخرى ، مثل العامل الفتي (هابوعيل هاتسعير) والفتي الحارس (هاشومير هاتسعير) واتحاد العمل (أحدوت هعفودا) .

ويمكن القول بأن الموجة الثانية من الهجرة اليهودية (١٩٠٥ ـ ١٩١٤) هي التي أتت بالمادة البشرية الاستيطانية العمالية . فالمهاجرون اليهود في الموجة الأولى من الهجرة كانوا في معظمهم من أبناء الطبقة الوسطى ، ولذا فقد استقروا في المدن الفلسطينية ، ولم يعمل منهم في الزراعة سوى ٥٪ فقط . أما مهاجرو الموجة الثانية فكانوا ـ لاعتبارات تتعلق بانتماءاتهم الطبقية والأيديولوجية على حدٍّ سواء ـ مصرين على العمل الزراعي الذي رأوه مفتاحاً لحل المسألة اليهودية وإصلاح الهرم الاجتماعي المقلوب عند اليهود .

لقد تمت هذه الموجة " الثانية " من الهجرة في سنوات الهجرة اليهودية الكبرى من روسيا وأوربا الشرقية إلى أمريكا ، وحدثت نتيجة فشل ثورة ١٩٠٥ وازدياد معاداة اليهود في روسيا القيصرية نتيجة تعثُّر التحديث . ولقد كانت الأقلية العقائدية هي التي هاجرت إلى فلسطين بدلاً من أمريكا . كانت هذه الأقلية في معظمها من الشبان (٧٧٪ كانوا في سن دون ٢٥ عاماً) ، ولا يملكون أية مدخرات ، ومتشبعون بالأفكار الشعبوية الروسية (المعادية للصناعة) وبالأفكار الثورية الاشتراكية . ولذا استخدموا هذه الديباجات في تبرير الاستيلاء على الأرض العربية وطَرْد سكانها ، ولذا بدلاً من المنطق الاستعماري التقليدي الذي يقوم بطرد السكان الأصليين وإبادتهم لأنهم من أجناس مُلوَّنة لجأ هؤلاء المهاجرون إلى تبرير عمليات الطرد والإبادة من خلال ديباجات اشتراكية ملتهبة . فاستولوا على الأرض بحجة أن الأرض لمن يزرعها ، وطردوا أصحابها منها بحجة أن إنتاجيتهم ضعيفة .

وقد تحوَّلت الصهيونية العمالية في المؤتمر الصهيوني الثاني عشر (١٩٣٣) إلى أكبر أجنحة المنظمة الصهيونية العالمية وأكثرها تأثيراً على الصعيدين السياسي والعملي . ويعود هذا إلى نجاحها في مجالين أساسيين :

أولاً : نجحت الصهيونية العمالية فيما فشلت فيه كل الاتجاهات الصهيونية الأخرى ، أي تجنيد المادة البشرية الأساسية للعملية الاستيطانية .

ثانياً : نجحت الصهيونية العمالية في تنفيذ القسم الأكبر والأهم من عمليات الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة من خلال صيغ وأشكال مختلفة .

والبناء الاقتصادي السياسي في المُستوطَن الصهيوني نتاج نشاطات الصهيونية العمالية بالدرجة الأولى . فالهستدروت والكيبوتس والهاجاناه والبالماخ هي الأدوات التي استخدمها الصهاينة لتحويل جزء من فلسطين إلى مُستوطَن صهيوني تحكمه دولة صهيونية وظيفية ، وهي مؤسسات أوجدتها وسيطرت عليها الصهيونية العمالية التي لا تزال لها اليد الطولى في إسرائيل .

إن الصندوق القومي اليهودي الذي أسسه الممولون من أعضاء الجماعات اليهودية كان سيصبح مؤسسة بلا هدف بدون المادة البشرية وبدون المؤسسات العمالية التي حققت لها البقاء والاستمرار . ولذا ليس من الغريب أن تعرف أن أموال الصندوق القومي اليهودي ما بين سنة ١٩٢١ وسنة ١٩٤٥ كانت تذهب ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، إلى الاقتصاد العمالي . فالبند الوحيد الذي كان لا يخضع لسيطرة شبكة الأحزاب والمؤسسات العمالية هو بند الإسكان في المدن البالغ ٦,٨٪ فقط من مجموع الإنفاق . أما باقي المصاريف ، فكان يذهب مباشرةً إلى العمال ، كمصاريف المستعمرات الزراعية والهجرة والتدريب والإسكان ، كما كان يذهب بصورة غير مباشرة إلى مؤسسات يُشرف العمالي عليها ، كالمصاريف المتعلقة بالثقافة والأمن والصحة .

وقد تحوَّلت «الصهيونية العمالية» في المؤتمر الصهيوني الثاني عشر (١٩٣٣) إلى أكبر أجنحة المنظمة الصهيونية العالمية وأكثرها تأثيراً على الصعيدين السياسي والعملي الخاصين بالمشروع الصهيوني .

ويُلاحَظ أنه مع تزايد اعتماد الدولة الصهيونية على يهود العالم ، ومع تزايد خفوت النبرة الاشتراكية في صفوف الصهاينة العماليين ، اختفى النقد الراديكالي للهوية اليهودية ، بل استوعبت الصهيونية العمالية ديباجات الصهيونية الإثنية العلمانية وأصبحت الهوية اليهودية الرقعة المشتركة بين يهود الدولة الصهيونية ويهود العالم .

موسى هس (١٨١٢-١٨٧٥)

Moses Hess

رائد الصهيونية العمالية . وُلد في ألمانيا من أب بقَّال وأم كان أبوها حاخاماً . وانتقل هس ، وهو بعد في التاسعة ، إلى منزل جده حيث تلقَّى على يديه تعليماً دينياً وتعلَّم العبرية . ورغم ذلك ، لم يُبد هس أي اهتمام بالقضايا اليهودية إلا في مرحلة متقدمة من عمره . وقد اهتم هس بدراسة التاريخ وكان شديد الإعجاب بالفيزياء والأدب الفرنسي ودرس الفلسفة في الجامعة ولكنه لم يحصل على درجة علمية . وقد استقر هس معظم حياته في باريس حيث تزوج من فتاة أمية مسيحية تعمل بالدعارة ، ولكنه أجَّل الزواج إلى ما بعد وفاة والده بعام واحد أي عام ١٨٥٢ لكي يضمن حقه في الميراث . وكان لهس اتصال بالأوساط والمجالات الاشتراكية ، كما كان صديقاً لكارل ماركس وفردريك إنجلز ، ولكنه اختلف معهما بعد فترة قصيرة ، كما كان عضواً في أحد المحافل الماسونية ، وساهم بعدة مقالات في المجلات الماسونية . وقد أظهر إعجاباً شديداً في مقتبل حياته بالدين المسيحي والحضارة الغربية ، وخصوصاً في ألمانيا ، ولذلك فقد كان يؤكد أهمية ألمانيا مثل نوردو وجابوتنسكي ، واشترك في الثورة الألمانية عام ١٨٤٨ وحُكم عليه بالإعدام . وقد كان هس واقعاً تحت تأثير روسو وإسبينوزا وماتزيني ، ولكن أهم مصادر تفكيره هي الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية .

نشر هس عام ١٨٦٢ كتاباً كان عنوانه الأصلي **حياة إسرائيل** ، ولكنه عدَّل هذا الاسم وسماه **روما والقدس** . وتَردُّده بين الاسمين ذو دلالة ، فالعنوان الأول ديني حلولي صريح وله بُعْد يهودي خالص ، أما الثاني فهو حلولي غربي استعماري . وروما التي يشير إليها هس هي روما الثالثة التي كان يشير لها ماتزيني والتي ستُؤسَّس عن طريق بعث القومية الإيطالية ، فهو يرى أن ثمة علاقة بين بعث روما في أوربا وبعث القدس في الشرق ، ويرى أن ثمة علاقة بين الحركة القومية العضوية والحركة الصهيونية . ويتحدث الكتاب عن الثورة الفرنسية كمَعْلَم أساسي في تاريخ الغرب ، فهي تشكل بعثاً اجتماعياً سيؤيد المشروع الاستعماري الصهيوني في الغرب ، أي أن هس قام في البداية بتصنيف الصهيونية تصنيفاً صحيحاً لا باعتبارها حركة تنبع من داخل ما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» وإنما باعتبارها ظاهرة تنبع من حركيات التاريخ الغربي

الاستعماري . والكتاب عبارة عن اثنتي عشرة رسالة إلى سيدة حزينة على فَقْد إنسان تحبه ، ولعل هذا يفسر عدم ترابط الأفكار كما يفسر العاطفية الزائدة ، وهو كتاب سطحي بشكل عام في أطروحاته ورؤيته السياسية .

يتفق هس مع النقد المعادي لليهودية ولما يسمَّى «الشخصية اليهودية» . وقد صرَّح في بداية حياته بأن شريعة موسى ماتت وأن اليهود إذا كان عليهم أن يختاروا ديناً فهو المسيحية فهي أكثر ملاءمة للعصر الحاضر ، فهي دين يهدف إلى توحيد كل الشعوب وليس توحيد شعب واحد (كما هو الحال في اليهودية) . ورغم أن هس لم يَتنصَّر إلا أنه لم يكن معارضاً تماماً لفكرة التعميد ، فالدين اليهودي أصبح ، على حد قول هايني ، مصيبة أكثر منه ديناً خلال الألفي عام الماضية . بل إن كل الأديان إن هي إلا خطأ إنساني جماعي والدين إن هو إلا تعبير عن حالة مرضية .

ولا يختلف موقف هس من اليهود عن موقفه من اليهودية . ففي أول كتاب له **التاريخ المقدَّس للإنسانية** ، وهو كتاب ذو صبغة مسيحية رومنتيكية ، يقول فيه إن اليهود قد أنجزوا مهمتهم الروحية بظهور المسيح برؤيته العالمية . وقد قدَّم تقسيماً لمراحل التاريخ يدور في إطار مسيحي : المرحلة الأولى هي مملكة الإله الأب (التي سادتها المسيحية) ، أما المرحلة الثانية والأخيرة فهي مملكة الروح القدس (وهي مرحلة نهاية التاريخ التي سيتحقَّق فيها خلاص الجنس البشري بأسره) ، وينشأ مجتمع اشتراكي كامل تُلغَى فيه الملكية الخاصة وحق الميراث وحكم مامون إله المال ويؤكد التضامن الإنساني نفسه دون أية عوائق ، ومن ثم فهو مجتمع يحقق رسالة اليهودية القديمة ولكن في إطار علماني . وليس بإمكان اليهود الآن إلا أن ينضموا كأفراد إلى الحضارة العالمية ، تماماً كما فعل إسبينوزا نبي اليهودية الحقيقي . بل إن اليهود سيعودون تحت راياته وسيُنفَخ في الشوفار اليهودي الذي نُفخ فيه حين طُرد إسبينوزا من حظيرة الدين . والقدس الجديدة بهذا المعنى ستبقى هنا في قلب أوربا وليس في فلسطين .

وفي مخطوطة أخرى بعنوان **البولنديون واليهود** تنتمي للفترة نفسها (١٨٤٠) ، يرى أن البولنديين لهم مستقبل أما اليهود فلا مستقبل لهم لأنهم يعانون من نقص مطلق في الوعي القومي ، والبولنديون لن يستسلموا قط لحقيقة تقسيم بولندا على عكس اليهود الذين استسلموا لحقيقة طردهم من فلسطين . ويذهب هس إلى أن اليهود والصينيين حفرية تاريخية لها ماض وليس لها مستقبل ، بحيث أصبح الصينيون جسداً بلا روح وأصبح اليهود روحاً بلا جسد . ولذا فهو يرى أن الشعب المختار لابد أن يختفي إلى الأبد ، فمن اختفائه قد تظهر حياة جديدة ثمينة .

وقد صدرت له كراسة عن **رأس المال** (١٨٤٥) ، وهي تزخر بالإشارات المعادية لليهود (ويبدو أن ماركس قرأها قبل أن تُنشر وتأثر بها) . يقول هس في هذه الكراسة إن أعضاء جماعة يسرائيل كانوا شعباً من الوثنيين ، ربهم الأساسي هو مولك الذي كان يطلب منهم دم الضحايا . ولكنهم ، بمرور الزمن ، عبروا من مرحلة قرابين الدم (بالعبرية : دم) إلى مرحلة قرابين النقود (بالعبرية : داميم أي «رسوم») وهذه هي أصول عبادة اليهود للنقود إذ حلَّت محل مولك . وفي هذه الكراسة ، يشير هس لإله يسرائيل باعتباره يهوه-مولك . ويصف شلومو أفنيري هذه العبارات بأنها "فرية دم جماعية" لا نظير لها في أدبيات معاداة اليهود .

ويُعَدُّ هذا الرفض المبدئي لكل من اليهودية واليهود إحدى المقولات الأساسية الصريحة في صهيونية اليهود وغير اليهود وبُعْداً أساسياً في الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة .

ثم يذكر هس حقيقة ظهور القومية العضوية كإطار مرجعي في الغرب ، فيقول : إن حركة التنوير دعوة للعالمية والإخاء ولكنها يصاحبها زيادة الوعي القومي (في أوربا) وزيادة الإحساس بأن الأمة كيان عضوي متماسك . ومصدر التماسك العضوي للشعوب العضوية هو العرْق ، فهو القيمة الحاكمة الكبرى ، وهو محرك التاريخ . فالتاريخ إن هو إلا ساحة للصراع العرْقي والطبقي ، بل إن الصراع العرْقي هو الغالب . ولذا ، تفشل كل محاولات الإصلاح لأنها تتجاهل عنصر العرْق . وهذا التركيز على العرْق أغلق أبواب الغرب تماماً أمام اليهود ، إذ لم يَعُد بوسعهم الحصول على تأشيرة دخول الحضارة الغربية عن طريق التنصُّر (كما فعل هايني) .

ثم يذكر هس الحقيقة الأساسية في أوربا في عصره وهي أن الشعوب الأوربية اعتبرت وجود اليهود بينها شذوذاً ، ولذا سيبقى اليهود غرباء أبداً لا يمكنهم الالتحام العضوي بأوربا ، شعباً منبوذاً ومُحتقَراً ومُشتَّتاً ؛ شعباً هبط إلى مرتبة الطفيليات التي تعتمد في غذائها على الغير ؛ شعباً ميتاً لا حياة له (والمُلاحَظ أن الصور المجازية العضوية تتواتر في كتابات هس كما هو الحال في معظم الأدبيات الصهيونية والنازية والمعادية لليهود) .

المخْرَج من هذا الوضع هو الصيغة الصهيونية الأساسية التي تطرح فكرة الشعب العضوي المنبوذ ، الذي يمكن حل مشكلته عن طريق توظيفه في خدمة الحضارة الغربية التي نبذته . ويبين هس أن اليهود عنصر حركي نافع ، فمبدؤهم الرئيسي أن "موطن المرء حيث

ينتفع» . هذا هو دينهم ، وهو أعظم من كل ذكرياتهم القومية إذ يرى أن اليهود متميزون باجتهادهم الصناعي والتجاري . ولذا ، فقد أصبحوا مهمين للأمم المتحضرة التي يعيش فيها اليهود . وأصبحوا أمراً لا يمكن الاستغناء عنه لتقدُّم هذه الأمم (وهذا هو وَصفُنا للجماعة الوظيفية) .

ولكن اليهود ليسوا جماعة وظيفية وحسب ، إذ يجب أن يُعاد إنتاجهم على هيئة شعب عضوي حتى تتمكن أوربا من أن تجد لهم مكاناً في الأرض وتشرف على مشروعهم الاستعماري . ولذا ، فهو يرى اليهود باعتبارهم قوماً ينقصهم الوعي القومي . وحيث إن القومية والعرْق أمران مترادفان في عقل هس وفي وجدان أوربا في القرن التاسع عشر (فالعرْق هو مصدر الوحدة العضوية وهو القيمة الحاكمة المرجعية) ، وحيث إن الانتماء القومي هو في جوهره انتماء عرْقي ، نجد أن هس يشير إلى العرْق اليهودي باعتباره من العروق الرئيسية في الجنس البشري التي حافظت على وحدتها رغم التأثيرات المناخية عليها ، كما حافظت السمة اليهودية على نقائها عَبْر العصور . وقد قسَّم هس العالم إلى جنسين أساسيين (السامي والآري) يهدف الأول إلى إضفاء الأخلاق على الحياة ويهدف الثاني إلى إضفاء الجمال عليها (وهو التقسيم الذي قبلته أوربا وقبله النازيون فيما بعد) .

ولكن التعريف العرْقي ليس التعريف الوحيد وإن كان هو الأساس . والواقع أن ثمة إشارات في الكراسة تدل على أنه يرى أن الوحدة بين اليهود إثنية (ثقافية) أيضاً على طريقة القومية العضوية ، فهو يقول إن هويته القومية ترتبط بتراث أسلافه وبالأرض المقدَّسة وبالمدينة الخالدة . ويرى هس أن ثمة ترابطاً عضوياً عميقاً بين الهوية اليهودية والدين اليهودي ، فالدين أهم أشكال التعبير عن هذه الهوية ، أي أنه يرى الدين مكوناً إثنياً وشكلاً من أشكال الفلكلور . ولذا ، فقد اقترح هس عدم إدخال أية تغييرات عليه . واستنكر محاولات اليهود الإصلاحيين تحويل اليهودية إلى شيء عالمي أو إلى نسخة ثانية من المسيحية ، فهي محاولة محكوم عليها بالفشل لأن اليهودية الإصلاحية لا تُبدي أي شكل من أشكال الاحترام للمقومات الأساسية للقومية الدينية التي تشكل جوهر الدين . فاليهودية دين عقيدة ودين عبادة قومية (على عكس المسيحية) ، ولذا فهو يشير دائماً إلى «دين اليهود التاريخي» ، أي دين يتبدَّى في الحياة القومية والتاريخية لليهود ، والذي لا وجود له كمجموعة من القيم المطلقة المُتجاوزة لهذه الحياة المُنزَّهة عنها .

ويَقرن هس بين الروح المقدَّسة والعبقرية الخلاقة للشعب ويُوحِّدهما ، فالواحد هو الآخر . وقد نبعت منها كل من الحياة الإثنية والعقيدة اليهودية ، أي أن القومية العضوية أو روح الشعب أسبق من الدين ، وما الدين سوى تعبير عن الروح القومية ، وهذا يعني أن هس يَصدُر عن صورة مجازية حلولية عضوية ترى ترادفاً بين الدين والقومية ، وتجعل الشعب المركز الوحيد للحلول والكمون ، ومن ثم فهي حلولية بدون إله . وهكذا تكون قد تمت إعادة إنتاج الجماعة اليهودية في الغرب على هيئة شعب عضوي لا تقبله أوربا ، أي شعب عضوي منبوذ .

وطرح المشكلة على هذا النحو يشير إلى الحل وهو نقل الشعب الذي نبذه العالم الغربي وتوطينه في الشرق ليقوم على خدمة الغرب ومن ثم يصبح اليهود جزءاً من التشكيل الاستعماري الغربي بعد أن فشلوا في الانتماء إلى التشكيل الحضاري الغربي . ويشير هس إلى أنه قد تم تعبيد طريق الحضارة في الصحراء بحفر قناة السويس ومد الخطوط الحديدية التي تصل أوربا وآسيا ، أي أن طرق المواصلات جعلت الشرق مفتوحاً أمام الغرب . ثم يشير إلى أن الظروف السياسية في الشرق (أي المسألة الشرقية) بدأت تتهيأ للدرجة تسمح بتنظيم عودة الدولة اليهودية للحياة . ولذا ، يمكن أن تقوم إحدى الدول الغربية الاستعمارية (فرنسا الحبيبة مثلاً ، المُخلِّص الذي سيعيد لشعبنا مكانته في التاريخ العالمي) بتشييد مستعمرات في أرض الأجداد . «فالأمم المسيحية لا تعارض عودة الدولة اليهودية إلى الحياة لأنهم بهذه الطريقة سيتخلصون من شعب غريب يعيش بينهم بعد أن كان شوكة في جنبهم» . والدولة اليهودية يجب أن تكون دولة مستقلة مُعترَفاً بها من القانون الدولي (أي القانون الاستعماري الغربي) كدولة متحضرة (أي كدولة استيطانية وظيفية تدور في فلك الغرب الذي يضمن بقاءها واستمرارها وتدافع هي عن مصالحه) .

ويَتوصَّل هس لفكرة الدولة الوظيفية ، فاليهود سيذهبون إلى أرض الأجداد داخل إطار الحضارة الغربية الاستعمارية . لكل هذا ، يرى هس أن اليهود ينبغي عليهم ألا يطالبوا الإله بأرض الأجداد من خلال الصلاة ، وإنما يجب عليهم أن يتحلوا بالشجاعة ويطلبوا هذه الأرض من الإنسان الغربي ، وأن ينسلخوا عن اليهودية وينخرطوا في التشكيل الاستعماري الغربي (ذلك أن هس صهيوني يهودي غير يهودي) . ويبين هس مدى نفع الدولة الوظيفية الجديدة ، فاليهود يُكوِّنون «مركز اتصال بين القارات الثلاث . . . [وهم] حملة الحضارة إلى شعوب لا تعرفها . . . الوسيط بين أوربا وآسيا البعيدة، وذلك كي يمهدوا الطرق التي تقود إلى الهند والصين ، لكل المناطق المعزولة التي يجب أن تُعرَّض للحضارة» . كما أنهم سيعطون

الدولة العثمانية بعض المال الأمر الذي سيحد من تداعي الإمبراطورية (وهو ما كان يُهم فرنسا آنذاك) .

ويَتوصَّل هس إلى مفهوم الصهيونيتين ، فيميز بين يهود الشرق ويهود الغرب ، فالمشروع الصهيوني لا يعني أن يهاجر يهود الغرب كلهم إلى فلسطين ، ذلك أن أغلبية اليهود الذين يعيشون في بلدان متمدنة في الغرب لابد أن يبقوا في بلادهم بعد تأسيس دولة يهودية ، فقد نجحوا في شق طريقهم بجهد بالغ وحققوا لأنفسهم مركزاً اجتماعياً وسوف لن يتخلوا عن أي نجاح حققوه . ولكنهم ، مع هذا ، سيساندون الشعب اليهودي من شرق أوربا (أي يهود اليديشية) في مهمته التاريخية ، أي أنه حدد لهم دورهم في الحركة الصهيونية باعتباره صهيونية توطينية . "أما في تلك البلاد التي تؤلف الخط الفاصل بين الغرب والشرق ، أي روسيا وبولندا وبروسيا والنمسا وتركيا ، فالملايين من إخواننا يتضرعون إلى الإله بحماس كي يعيد المملكة اليهودية . لقد حافظ هؤلاء اليهود على بذرة الحياة اليهودية [الحياة الجيتوية] بإخلاص أكثر من إخواننا في الغرب" .

لقد توجَّس هس خيفة من البداية من أن المادة البشرية المطلوبة للمشروع الاستعماري قد لا تكون طيعة وقد لا تهاجر ، ولذا فهو يقول : "إن عدد اليهود الذين سيسكنون الدولة ليس أمراً مهماً ، فاليهود عبر تاريخهم يعيشون في كل مكان ، وكل دولة مستقلة لها مواطنون يعيشون في أرض أجنبية" أي أنه لا يطالب بتصفية الدياسبورا .

هذه هي الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة . ولكن هس كان مدركاً أنها في حد ذاتها لا تكفي ، ولذا فلابد من زيادة مقدرتها التعبوية بإضافة ديباجات وأبعاد مختلفة ، يقول هس إن دولة اليهود الجديدة ستوفر لهم الكرامة والاحترام والشرف ، وسيتم تطبيعهم إذ سيُحوِّلهم حصولهم على أرض إلى أفراد ، عمال نافعين ، وسيُسهم رأسمالهم وعملهم في إعادة الحياة للأرض القاحلة ، أي أنهم سيتحولون إلى مادة استيطانية ناجحة بيضاء . ثم يستخدم هس ديباجات إثنية دينية ، فيؤكد أن هذا البعث القومي سيؤدي لا إلى إصلاح اليهود وحسب وإنما إلى إصلاح اليهودية نفسها ، فعبقرية اليهود الدينية لن يعيدها إلا نهضة قومية (والقومية على كلٍّ أسبق من الدين) . كما أن هذا الجفاف الديني سيختفي عندما تستيقظ الحياة الوطنية المنطفئة . وعندما يتغلغل تيار التطور الوطني القومي التاريخي الحر ثانيةً داخل تلك الشكليات الدينية المتزمتة . "فإذا حققنا هذه الخطوة الرئيسية لأمكننا التغلب على الصعوبات مهما بلغت . . . . ويمكننا بهذه الروح الوطنية تحرير الشعب اليهودي من الشكليات المميتة للروح" . بل إن البعث القومي سيغير شكل التعبير الديني ذاته في المستقبل ، فمن المؤكد أن اليهود سيختلفون في تعبيرهم الديني عما هو عليه في الحاضر وعما كان عليه في الماضي . بل إن هس يتنبأ بأنه بعد البعث القومي ، وإنشاء دولة يهودية ، سيقام سنهدرين منتخب يقوم بتعديل الشريعة اليهودية حسب احتياجات المجتمع الجديد (وهو الأمر الذي حَدَث بالفعل) .

وإلى جانب الديباجة الإثنية ، هناك الديباجة العمالية الأممية الإنسانية ، "واليهودية القومية لا تستبعد النظرة العالمية ، بل العكس هو الصحيح ، فالعالمية هي النتيجة المنطقية لصفات اليهود القومية" . بل إنه "لا يوجد شعب غير اليهود له دين يربط العناصر القومية والعالمية والتاريخية معاً ، فاليهود إذن هم وحدهم شعب الإله" . ولقد أصبح تاريخ الإنسانية مقدَّساً من خلال اليهودية . فالتاريخ أصبح تطوراً عضوياً ومُوحَّداً يعود في أصله إلى حب الأسرة . وسوف لا يتم هذا التطور إلا إذا أصبحت الإنسانية كلها أسره واحدة يتحد أعضاؤها بالروح القدس وبإبداع التاريخ العبقري . والواقع أن هناك حتمية وراء اختيار اليهود لطريق العدالة في مجتمعهم ، فهم طفيليون منبوذون يشعرون بالحاجة إلى ظروف عمل عادلة وصحيحة . ولذا ، فهم بحاجة إلى أرض حتى يتحولوا من طفيليين هامشيين إلى عمال نافعين ، ووجود مثل هذه الأرض التي ستشكل الوطن المشترك شرط أساسي لإدخال علاقة صحيحة بين رأس المال والعمل عند اليهود . وسيزداد تحقيق العدالة في المجتمع إن اعتمد على استغلال الإنسان للطبيعة بدلاً من استغلال الإنسان للإنسان ، وسيتحقق هذا من خلال التقدم العلمي . ففي الماضي ، كانت الندرة مصدر الصراع الطبقي والعرْقي . ولذا ، ومع تحقيق الوفرة من خلال تَقدُّم وسائل الإنتاج والعلم ، ستختفي هذه الصراعات وستزول الحاجة لاستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، وسيختفي العداء بين الطبقة الرأسمالية والطبقة المنتجة ، بل ستختفي الاختلافات بين النظرة الفلسفية والبحث العلمي ، وسيتحد الذات والموضوع تماماً . وسيصبح الفاعل الفلسفي هو نفسه القانون العلمي ، أي أن التاريخ والطبيعة سيتحدان وتتحقق الواحدية المادية الكونية في لحظة نهائية مطلقة في سبت التاريخ أي نهايته . ومن الواضح أن المشيحانية تحوَّلت هنا إلى عقيدة هيجلية علمانية .

وفيما يتصل بالسكان الأصليين ، فهناك ما يشبه الصمت بشأنهم ، وحينما تحدَّث هس عن الأعراق في أوربا ، فقد تحدَّث عن اختلافها لا عن تفاوتها ، ولكنه حينما انتقل إلى الشرق فإنه يؤكد

التفاوت فيما بينها حتى يُكسب مشروعه الصهيوني الشرعية الغربية الإمبريالية اللازمة . فاليهود سيجلبون الحضارة للمتخلفين وعليهم أن يعملوا على تثقيف القطعان العربية المتوحشة والشعوب الأفريقية وأن يجعلوا القرآن والإنجيل يتحلقان حول التوراة .

وقد سمع هس ، قبل نشر كراسته ، عن كتابات كاليشر فنوَّه بها وبيَّن أنها علامة على البعث القومي الجديد ، كما كان يرى ذلك في الحسيدية (فرَفْضُها الاندماج علامة على حيوية اليهودية الحديثة) .

وقد وصف الزعيم الإصلاحي أبراهام جايجر كتابات هس بأنها "ليست الولادة لعصر جديد ، بل القبر المفتوح لعهد مضى" . وقد ساهم هس في بعض الأعمال التمهيدية للاستيطان ، فاشترك في تحقيق مشروع المدرسة الزراعية قرب يافا والذي تبنته الأليانس .

وقد تُوفي هس عام ١٨٧٥ ، ونُقلت رفاته إلى إسرائيل . وإلى جانب الدراسات التي أسلفنا الإشارة إليها ، كَتَب هس في الاشتراكية وله كتاب **المادية الدينامية** يضم آراءه العلمية المقتبسة عن النظرة الحيوية .

أهارون جوردون (١٨٥٦-١٩٢٢)

Aharon Gordon

أحد مفكري الصهيونية العمالية وأحد أعمدة الاستيطان الصهيوني في فلسطين . وُلد في بودوليا (روسيا) في بيئة زراعية تركت أثرها العميق فيه ، وقد تلقَّى تعليماً دينياً ثم علمانياً ، وعمل محاسباً حتى عام ١٩٠٣ . وفي تلك الفترة ، فَقَد إيمانه باليهودية وبحركة التنوير ، وتأثر بأفكار تولستوي والحركة الشعبوية الروسية ، وتبنَّى رؤية آحاد هعام الصهيونية ووثنيته اللادينية . وتعرَّف خلال ذلك إلى جماعة أحباء صهيون وأصبح من أتباعها المتحمسين . وحينما بيعت الضيعة التي كان يعيش ويعمل فيها عام ١٩٠٤ ، هاجر إلى فلسطين حيث اشتغل عاملاً زراعياً يدوياً في المستوطنات اليهودية هناك (وكان عمره آنذاك ٤٨ سنة على عكس الأكثرية الساحقة من مهاجري الهجرة الثانية) . أنجب جوردون سبعة أطفال لم يبق منهم سوى اثنين . وقد حاولت أسرته أن تُثنيه عن عزمه على الاستيطان ولكنه نجح في إحضارها إلى فلسطين إلا ابنه الأكبر الذي عاد إلى حظيرة الدين اليهودي وانفصل عن أبيه . وفي عام ١٩٠٩ ، نشرَ جوردون في مجلة **العامل الفتيّ** مجموعة من المقالات يشرح فيها أفكاره وهي مجلة جماعة عمالية معارضة لجماعتي عمال صهيون واتحاد العمل .

ينطلق جوردون من نقد عميق للجماعات اليهودية ولليهودية التي قضت تاريخها معزولة عن الطبيعة ، مسجونةً داخل أسوار المدينة ، ففقدت حب العمل . فالتلمود يقول إنه عندما ينفذ اليهود إرادة الإله سيقوم الآخرون بتنفيذ أعمالهم نيابةً عنهم ، وهكذا تحوَّل اليهود إلى شعب طفيلي ميت . وإلى جانب هذا ، فَقَد اليهود أيضاً مقومات الشخصية القومية المستقلة . فهم طفيليون لا في العمل المادي وحسب وإنما في المنتجات الثقافية كذلك ، فهم يعتمدون على الآخرين مادياً وروحياً . إن الجماعات اليهودية في العالم سلبية في تَلَقِّيها واستهلاكها حضارة الآخرين ، فكل الشعوب تعيش من ثمرة عملها إلا اليهود . والحضارة كما يرى نتاج عملية تَطوُّر طبيعية لم يساهم فيها اليهود . ولذا ، فإن اليهود المندمجين في حضارة غير يهودية سيكتسبون هوية غير يهودية جديدة ويتحولون بذلك إلى أشخاص غير طبيعيين ناقصين ومنشطرين داخلياً .

والحل الذي يطرحه جوردون هو الحل الصهيوني ، أي إسقاط اليهودية كدين وتحويل اليهود إلى مادة استيطانية ، ولكنه يضيف إلى هذا المشروع ديباجته الخاصة . يذهب جوردون إلى أن اليهود يوجد أمامهم طريقان لا ثالث لهما : إما الاستمرار في حياة المنفى المريضة أو الخوض في طريق الحياة القومية الصحيحة ، والواقع أن اختيار أحدهما يعني استبعاد الآخر . ولذا ، يقترح جوردون على الرواد الصهاينة في فلسطين أن يكونوا آخر اليهود وأن يصبحوا رواد أمة عبرانية جديدة تتكون من رجال ونساء تربطهم علاقة جديدة بالطبيعة . وهو يدعو إلى تصفية الدياسبورا (الجماعات اليهودية) تماماً . وإن تم الاحتفاظ بهم ، فيجب أن يكونوا بمنزلة المستعمرات في علاقتهم بالوطن الأم ، يزودونه بالمادة البشرية المطلوبة والدعم المالي والسياسي .

وينطلق جوردون من إيمان بالواحدية المادية الكونية ، ولذا فهو يرى أن ثمة وحدة كونية بل تماثلاً كاملاً بين الإنسان والطبيعة . غير أنه إذا كان الإنسان مجرد جزء عضوي من الطبيعة ، فإن العقل الإنساني يفقد أهميته (فالعقل مركز الذاكرة ووسيلتنا للوصول إلى المعرفة التاريخية) . بل إن العقل ـ حسب تصوُّر جوردون ـ يصبح حينئذ مصدر اغتراب الإنسان عن مصادر حياته ، لأن المعرفة العقلية تقف على طرف النقيض من الحياة الكونية (وهنا يتضح تأثير نيتشه العميق) . وإذا كان العقل هو مصدر اغتراب الإنسان ، فإن المعرفة الحدسية هي التي تقلِّل غربته ، وهي التي تجعله قادراً على الامتزاج بالطبيعة وبالقوة الكونية . إن حياة الإنسان مرتبطة بالحياة الخفية للكون (كما كان يزعم القبَّاليون) . لكن الإنسان الذي ينبغي أن يعود

جزءاً من الطبيعة عليه أن يتخلى عن العقل وعن أية حدود تفصل بينه وبين الطبيعة والقوة الكونية التي تسري فيها وفيه ، وعليه أن ينغمس في تجربة دينية صوفية حلولية . وهنا نجد أن الدين لا يعلو على الطبيعة وإنما هو جزء لا يتجزأ منها . ونحن ، هنا ، نجد الثالوث الحلولي وقد تحوَّل إلى ثالوث عضوي : فمن الإله والإنسان والطبيعة ننتقل إلى قوة الكون التي تسري في كلٍّ من الإنسان والطبيعة وتُوحِّدهما .

هذا الحديث الرومانسي عن الطبيعة والكون يُخفي كل المفاهيم الصهيونية الأساسية ، فهو يعني أولاً رفض الدين اليهودي ، فالحياة الطبيعية الجديدة هي بالنسبة لجوردون بمنزلة الدين لليهودي الورع المخلص ، أي أنه سيُسقط المثل الدينية ويتبنَّى المثل الإثنية المطلقة المكتفية بذاتها ، أي أنها حلولية موت الإله حيث تصبح الذات الإثنية هي العبد والمعبود والمعبد . ويقول في تعريفه العامل الكوني : إنه الانتماء العرْقي ، وهو مجموعة من القوى العقلية والجسدية التي تؤثر في شخصية كل فرد من أفراد مجموعة هذا الجنس . والواقع أن هذا التعريف هو نفسه الفكرة الجرمانية والسلافية للشعب العضوي . ولذا ، فهو يؤكد أن هذا العنصر الكوني لا يمكن أن يتحقق بالنسبة لليهود إلا في فلسطين حيث يرتبط الدم بالتربة ، أما في المنفى "فالذات العرْقية تنكمش على نفسها بدون أي مصدر للحياة" .

ثم نأتي أخيراً للمفهوم المحوري ، مفهوم دين العمل ، وهي فكرة تستند إلى بعض أفكار الشعبويين الروس ، كما أن لها جذوراً في الفكر الحسيدي وتراث القبَّالاه وبالوضع الاقتصادي في منطقة الاستيطان ، وقد أضفى جوردون عليها غلالة عصرية لتصبح إطاراً جيداً للمشروع الصهيوني . إن دين العمل عند جوردون إن هو إلا وسيلة من وسائل العودة للطبيعة الكونية والاتحاد بها ، فعن طريق العمل اليدوي يُنشئ الإنسان علاقة عضوية مع الطبيعة (مثل علاقة الرسام بالصورة وليس علاقة المشتري بها) ويصبح العمل الزراعي (وحَرْث الأرض بالذات) عملاً روحانياً وقيمة أخلاقية في حد ذاته . ولكن الأساسات الصهيونية توجد وراء الحديث الكوني ، إذ يقول جوردون إن حياة الإنسان الإبداعية والأخلاقية لا يمكن أن تتم على نحو فردي ، بل لابد أن تتم على نحو قومي . فالقومية هي العنصر الكوني فينا ، والطبيعة خلقت الشعب كحلقة وصل بين الكون والفرد ، إذ أن الشعب هو جماعة طبيعية تُجسِّد علاقات كونية حية . والبعث القومي ، حسب تصوُّر جوردون ، لا يمكن أن يتم عن طريق إعادة التنظيم الاجتماعي ولا من خلال الحركات الجماهيرية وإنما من خلال جماعة متحدة بشكل عضوي وذات علاقة عضوية بالطبيعة . فالصهاينة لم يأتوا للصراع الطبقي وكُره الطبقات ولا من أجل الاشتراكية أو باسمها وإنما أتوا باسم الشعب العضوي اليهودي . ولذا ، فإن مضمون الصراع قومي صرف ، بالمعنى العضوي للكلمة الذي يستبعد الآخرين تماماً . وإن كان ثمة اشتراكية ، فهي اشتراكية عضوية (إن صح التعبير) مقصورة على اليهود وحدهم . لكل هذا ، يرى جوردون أن البعث القومي اليهودي لن يتم إلا عن طريق دين العمل الجماعي على الأرض المملوكة ملكية جماعية حيث يعود الشباب اليهودي للأرض المقدَّسة ليحرثوها ويزرعوها بأنفسهم دون أن يسمحوا لأي عامل عربي بأن يدخلها لأن العامل اليهودي أو العبري سيعمل بشكل ذاتي في مزارعه أو مصانعه الخاصة . أما إذا عاد ليعمل في مصانع أو مزارع الآخرين دون استقلالية ، فإنه سيفشل في تحقيق أهداف المشروع الصهيوني . والعمال اليهود ، إلى جانب ذلك ، لن يعيدوا بَعْث أنفسهم وتطبيعها وغَسْل أدران المنفى عنها إن لم يعملوا بأنفسهم ، فالشخصية اليهودية التي أحضروها معهم لابد أن يتم التخلص منها .

وإن لم يعمل اليهود بأنفسهم ، فإنهم لن يحلوا محل الغريب . ولو حصل الصهاينة على كل سندات ملكية الأرض التي يطالب بها الصهاينة الدبلوماسيون (الاستعماريون) ، أو براءة الاستيطان الدولية التي يطالب بها الصهاينة السياسيون ، فإن البلد مع هذا سيظل في يد من يعمل فيه ، أي في يد العرب . ولذا ، لا ينبغي الاكتفاء بشراء الأراضي من العرب وإنما يجب إحلال اليهود محلهم، فبدون العمل العبري سيظل المُستوطَن الصهيوني في أيديهم . ولهذا ، يرى جوردون أن الطبقة العاملة اليهودية هي عماد المشروع الصهيوني . ولا شك في أن منطق جوردون الرومانسي في مجال تأليه العمل لعب دوراً كبيراً في تجنيد شباب اليهود الثائرين في أوربا ، ولكن جوردون في مَعرض مواجهته مع العرب لا يكتفي بالمنطق الرومانسي وإنما يتحدث كذلك عن حق اليهود الأبدي في الأرض الفلسطينية ، وهو حق ينسخ كل الحقوق الأخرى ، ثم يضيف : وخصوصاً أن العرب لم يخلقوا أي شيء طوال فترة استيلائهم على الأرض المقدَّسة ، أي أنه ينظر إلى العربي من خلال مقولة العربي المتخلف كي يبرر الاستيلاء الصهيوني على الأرض .

وقد كان جوردون من أوائل من نظَّموا الإضرابات ضد المزارع اليهودية التي استأجرت عرباً ، وكان من بين سكان مستوطنة داجانيا التي نظمت إضراباً وطلبت عزل المدير الذي عينته المنظمة الصهيونية . وقد استجابت المنظمة لمطالب المضربين وتمت إدارة

المزرعة على أساس تعاوني وأخذت الحياة فيها شكلاً جماعياً ، وكانت هذه بداية الحركة الكيبوتسية . وقد قضى جوردون آخر أيامه في داجانيا . وبرغم أنه لم يشغل أي منصب رسمي في الحركة الصهيونية ، إلا أنه أثّر فيها تأثيراً عميقاً .

جُمعت آثار جوردون في عدة مجلدات تحت عنوان كتبي . وقد أُطلق اسمه على المتحف الإقليمي للطبيعة والزراعة في داجانيا ، كما سُمِّيت باسمه حركة جوردونيا للشباب التي تنتمي لحركة العامل الفتي والتي نشطت بين الحربين العالميتين .

نحمن سيركين (١٨٦٨-١٩٢٤)

Nachman Syrkin

أحد مفكري الصهيونية العمالية . وُلد في روسيا لعائلة من الطبقة الوسطى عُرفت بالتدين ، وتلقَّى تعليماً تقليدياً ثم دخل مدرسة روسية ودرس بعد ذلك الاقتصاد في ألمانيا . انضم في شبابه لجماعة أحباء صهيون ، وحضر المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ولكنه ظل من دعاة الصهيونية الإقليمية حتى عام ١٩٠٩ .

رجع إلى أحضان المنظمة الصهيونية ممثلاً عن حزب عمال صهيون . وقد هاجر إلى الولايات المتحدة حيث استقر وكتب العديد من المقالات ، كما أصدر مجلات باللغتين اليديشية والعبرية للدعوة للأفكار الصهيونية ، ونشر رسالته للدكتوراه عام ١٨٩٨ في كراس بعنوان **المسألة اليهودية ودولة اليهود الاشتراكية** . وقد ساهم سيركين خلال الحرب العالمية الأولى في تأسيس المؤتمر اليهودي الأمريكي وفي الدعوة له ، وأيد فكرة الفيلق اليهودي وسافر كعضو في لجنة الوفود اليهودية إلى مؤتمر السلام في فرنسا عام ١٩١٧ .

تبنَّى سيركين الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة وأدخل عليها ديباجة اشتراكية ، فطرح رؤية للتاريخ اليهودي تستند إلى افتراض أن اليهود كانوا يكوِّنون دولة مستقلة ذات تاريخ مستقل . ويبدأ التاريخ اليهودي سيرته الحزينة من المنفى حين وجد اليهود أنفسهم في الجيتو ، ولكنهم مع هذا حافظوا على هويتهم القومية المستقلة داخله وهو ما أدَّى إلى ازدواج الشخصية اليهودية . فهناك شخصية للخارج يتعامل اليهودي من خلالها مع الأغيار ، وأخرى للداخل يتعامل من خلالها مع اليهود (وازدواجية المعايير هي إحدى أهم سمات الجماعات الوظيفية) .

ثم فُرض الانعتاق فجأة على اليهود ، الأمر الذي أدَّى إلى اندماجهم وتنازلهم عن هويتهم القومية ، وأصبح اليهود جزءاً من الحركة الليبرالية التي تدافع عن حقوقهم . ولكن البورجوازية خانت المُثُل الليبرالية بعد ذلك وتراجعت عنها ، وزادت حدة الصراع الطبقي ، الأمر الذي أدَّى إلى زيادة حدة كُره اليهود ، وخصوصاً بين الفلاحين والطبقات الوسطى . فالفلاحون مهددون بالاختفاء من المجتمع الإقطاعي ويرون اليهودي طليعة المجتمع الجديد الذي يتهددهم . أما الطبقات الوسطى ، فهي مهددة بالهبوط في السلم الاجتماعي ، كما أنها تنتمي إلى طبقات الملاك ولكنها لا تملك شيئاً ولا حتى عملها ، وهي طبقة لا شخصية لها . ولذا ، فإنها برغم عدائها للرأسمالية تناضل نضالاً ثورياً يأخذ شكل كُره عنصري لليهود . والطبقة الحاكمة والكنيسة ورأس المال على استعداد لاستخدام هذا الاتجاه بين الفلاحين وأعضاء الطبقة الوسطى ولصالحهم ، ومن هنا فإن معاداة اليهود كانت موجهة على الدوام من قبَل معظم طبقات المجتمع ضد الفئات اليهودية كافة وبدرجة واحدة .

وقد كان الحل الاشتراكي المنطقي يتمثل في أن ينضم اليهود للبروليتاريا التي ستُنهي الصراع الطبقي فتنتهي بالتالي ظاهرة معاداة اليهود . وهنا يطرح سيركين عدة أسباب صهيونية ذات ديباجة اشتراكية ليبيِّن استحالة هذا الحل :

١ ـ لاحَظ سيركين أن الأحزاب الاشتراكية لا تأخذ الظروف الخاصة بالمسألة اليهودية بعين الاعتبار ولذلك فهي عاجزة عن أن تطرح حلولاً لها . بل إن بعض الأحزاب الاشتراكية تتبنى مواقف معادية لليهود .

٢ ـ يُورد سيركين أسبابه الأخرى لطرح الصهيونية (أو «الاشتراكية اليهودية» كما يسميها) كحل وحيد للمسألة اليهودية وكلها تدور حول فكرة الخصوصية أو التفرُّد اليهودي .

٣ ـ ينتقد سيركين الاشتراكيين اليهود الذين تبنوا المُثُل الاندماجية أو الأممية كما ينتقد طرحهم لهويتهم القومية . ولكنه ، حين يحاول تحديد هذه الهوية القومية اليهودية ، يلاحظ أن اليهود سُلبَت منهم الخصائص القومية الظاهرية ، فهم مشتتون يتحدثون جميع اللغات واللهجات ويعيشون بدون ملكية وطنية ، ثم يضيف أنهم مع هذا كانوا (في الماضي) أمة مميَّزة "كان مجرد وجودها سبباً كافياً لأن تكون" .

٤ ـ يذهب سيركين إلى أن الوجود اليهودي هو رمز الضمير الإنساني ، وبذا تصبح القومية اليهودية قيمة في ذاتها .

٥ ـ يرى سيركين أن اليهودي هو البروليتاري الأزلي . ومن هنا ، فإن الاشتراكية اليهودية ليست معادلة للاشتراكية المسيحية وإنما هي معادلة للاشتراكية البروليتارية ، والخصوصية اليهودية هي في

جوهرها اشتراكية . ولذا ، فإن الصهيونية بطبيعتها هي حركة احتجاج يهودية ثورية كبرى يقوم بها كل اليهود ، ولذا فهي ملك للجميع . ومن وجهة نظره ، يؤكد سيركين أن الصهيونية لا تتعارض مع الصراع الطبقي وإنما تتجاوزه وحسب . فهي ستفيد الطبقة العاملة أساساً ولكنها تتبنَّى الطبقات الأخرى كافة ، وخصوصاً أن التاريخ اليهودي يجسد كثيراً من القيم الثورية .

ثم يتوجَّه سيركين إلى طبيعة المجتمع الصهيوني الاستيطاني ليبين أن ثمة ظروفاً خاصة تجعل من الضروري أن يتخذ هذا المجتمع شكلاً اشتراكياً :

١ ـ يُشير سيركين إلى وضع المهاجرين اليهود الطبقي فهم بقالون وباعة متجولون وحرفيون غير قادرين على التكيف مع الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الجديدة في روسيا ، ولذا فإن هذه الجماهير تفكر في الهجرة بحثاً عن عمل وعن بناء اقتصادي اجتماعي جديد . ولجذب هذه الجماهير ، لا يمكن أن يُطرَح عليها مجتمع مَبني على التفاوت لأن هذا سيعني عقداً اجتماعياً للعبودية الاجتماعية الجديدة. وبالتالي ، لابد أن يكون المجتمع الجديد الذي يطمحون إليه مبنياً على المساواة ، وخصوصاً أن هذه الجماهير كانت متجهة إلى الولايات المتحدة حيث توجد الفرص الاقتصادية النادرة ونوع من الحراك الاجتماعي الأكيد .

٢ ـ ستسود دولة اليهود الاشتراكية ثقافة لا دينية تنبع من الإثنية اليهودية ، ولذا فستكون بمنزلة الحصن الذي يحمي القومية اليهودية المهددة بالتآكل في المجتمع الاشتراكي والغربي باتجاهاته الاندماجية . إن الثقافة البروليتارية اليهودية ستُمثِّل تحدياً لليهودية الإصلاحية (ومع هذا ، لم يذكر سيركين شيئاً عن بعث اللغة العبرية) . وهذه الثقافة العمالية ستربط بين الطموح العالمي لدى العمال ورؤى الأنبياء اليهود في العهد القديم .

٣ ـ يضيف سيركين إلى كل هذه الأسباب المؤدية إلى «حتمية» الصهيونية العمالية سبباً أخيراً هو أن اليهود المتأثرين برؤية الأنبياء لم يُصلُّوا طيلة حياتهم من أجل العودة ليؤسِّسوا دولة مثل كل الدول ، أي أن حتمية الاشتراكية الصهيونية تضرب بجذورها في أحلام اليهود عبر التاريخ وتصبح مثل العهد مع الرب علامة تميُّز وانفصال .

٤ ـ يبين سيركين أن طبيعة المشروع الاستيطاني الصهيوني تتطلب أن يتم هذا المشروع بالطريقة الاشتراكية الجماعية لأن مشروعاً ضخماً لتغيير اقتصاد فلسطين وتركيبها السكاني يتطلب وَضْع خطط بعيدة المدى ، والمشروع الحر بطبيعته لا يمكنه أن يقوم بذلك .

٥ ـ ويتطلَّب هذا المشروع الضخم تمويلاً كبيراً لا يستطيع رأس المال اليهودي الصغير أن يقوم به . ولذا نادى سيركين بما سماه «التراكم الاشتراكي» ، أي أن تقوم المنظمة الصهيونية بتمويل المشروع الاستيطاني عن طريق تجميع رأسمال قومي ، وتظل ملكية الأراضي ملكية عامة وتُوظَّف الأموال لا للربح وإنما للاستثمار الاجتماعي وعلى أساس التعادل .

٦ ـ ثم يقدم سيركين ديباجة اشتراكية أيضاً للطبيعة الإحلالية للمشروع الصهيوني باعتباره مشروعاً استيطانياً غربياً أبيض ، فدولة يهودية رأسمالية تعني أن آليات السوق والعرض والطلب ستتحكم فيها ، الأمر الذي سيؤدي إلى انخفاض الأجور " إلى درجة تجعل قبول أي يهودي أوربي لها مستحيلاً " ، ولذلك سيقوم العمال من المواطنين الأصليين (أي العرب) بملء الفراغ ، وسيقضي هذا على الجانب الإحلالي من المشروع الصهيوني .

٧ـ يربط سيركين بين حركة التحرر القومي والاشتراكية ، وبالتالي بين الصهيونية والاشتراكية ، ويرى أن الصهاينة سيشكلون حركة هجرة ذات طابع تقدُّمي وسيتصلون بالحركات القومية المماثلة بين الشعوب غير الإسلامية في الدولة العثمانية التي يجب تقسيمها على أسس قومية بحيث تكون فلسطين من نصيب اليهود . كما يرى أن " إرتس يسرائيل " قليلة السكان ويمكن تفريغها من سكانها حتى يتسنى توطين اليهود الذين تود الدول الغربية التخلص منهم . وإذا قاوم العرب عملية التفريغ فسيكون هذا أكبر علامات تخلُّفهم ورفضهم الوعي البروليتاري ورفضهم أيديولوجيا تقدمية اشتراكية ، الأمر الذي يعني أحقية نقلهم .

وبرنامج سيركين هو نفسه الصيغة الصهيونية الأساسية مع إضافة الديباجة الاشتراكية ، ذلك أن قبول ظاهرة معاداة اليهود وحل المشكلة اليهودية عن طريق الاستعمار ، وتفريغ أوربا من يهودها ، وتفريغ فلسطين من عربها ، والاعتماد على الأثرياء اليهود ، والتحالف مع القوى الإمبريالية وضرورة اللجوء للعنف ، وغير ذلك من الثوابت ، موجود بعد إضافة ديباجات اشتراكية وإثنية .

وقد قام سيركين بزيارة فلسطين في العشرينيات ، وكانت المقاومة العربية للغزوة الصهيونية قد بدأت ، وقبل موته في نيويورك سمع عن الإضرابات العنيفة التي وقعت عام ١٩٢٤ . وقد أثَّر فكر سيركين في كثير من الصهاينة الاشتراكيين والأحزاب الصهيونية العمالية .

جوزيف ترومبلدور (١٨٨٠-١٩٢٤)

Joseph Trumpeldor

زعيم صهيوني أصبح رمزاً للجيل القديم من الصهاينة الرواد المقاتلين الذين جاءوا إلى فلسطين. كان أبوه جندياً في الجيش الروسي وقد التحق جوزيف بمدرسة دينية قبل أن يدرس طب الأسنان. وأثَّرت فيه أفكار تولستوي، وامتزجت بالأفكار الصهيونية حيث بدأت تتبلور لديه فكرة المستعمرات الصهيونية المسلحة في فلسطين. وقد جُنِّد في الجيش الروسي عام ١٩٠٢، وفَقَد ذراعه اليسرى في الحرب الروسية ـ اليابانية، ورُقِّي وحاز عدة أوسمة ثم أُعيد إلى الجبهة بناء على طلبه فأسره اليابانيون وفي الأسر قام بتنظيم مجموعة صهيونية من الأسرى. وقد درس ترومبلدور الزراعة ثم القانون، وأخذ في تنظيم مجموعة من الصهاينة في أوكرانيا عام ١٩١١ حيث قرروا الهجرة إلى فلسطين. عمل في مستوطنة داجانيا ثم حضر المؤتمر الصهيوني الحادي عشر (١٩١٣). وعند عودته إلى فلسطين، رحَّلته السلطات التركية إلى الإسكندرية حيث شارك في تكوين فرقة البغالة الصهيونية وأصبح نائباً لقائدها. وبعد اشتراك هذه الفرقة في القتال مع البريطانيين، سافر مع جابوتنسكي إلى لندن من أجل تكوين الفيلق اليهودي. وفي منتصف عام ١٩١٧، سافر إلى روسيا لإقناع السلطات هناك بتكوين قوة عسكرية يهودية تُرسَل للقوقاز وتقاتل هناك حتى تصل إلى فلسطين. وبعد نجاح مبدئي، فشلت هذه المهمة وأُلقي القبض عليه فتحوَّل إلى تكوين حركة الرائد في روسيا. وفي ١٩١٩، سافر إلى فلسطين حيث عرض على أللنبي إلحاق قوات يهودية قوامها ١٠ آلاف جندي بالقوات البريطانية، غير أن عرضه رُفض. وكان قد اقترح من قبل غزو فلسطين بجيش قوامه ١٠٠ ألف يهودي! وقد أسَّس مكتباً للاستعلامات لقاعدة اليهود القادمين من روسيا وشارك في الدفاع عن المستعمرات الصهيونية في الجليل الأعلى حيث قتله العرب عام ١٩٢٠. وقد جاءت حركة بيتار المسماة باسمه (بريت ترومبلدور) بعد ذلك لتركز على النواحي العسكرية الصهيونية في فكره. ولا تزال منظمات الشباب الصهيونية ترفعه إلى مرتبة المثل الأعلى.

دوف بوروخوف (١٨٨١-١٩١٧)

Dov Borochov

أهم منظري الحركة الصهيونية العمالية ومؤسس حركة عمال صهيون وزعيمها. وُلد في روسيا وتلقى تعليماً علمانياً، وكانت نشأته في مدينة كان يُنفَى إليها الثوريون الروس، وكان أبوه عضواً في جمعية أحباء صهيون، الأمر الذي ترك أثراً عميقاً فيه، فقد ظل طوال حياته يحاول الجمع بين الصيغة الصهيونية الأساسية والديباجات الاشتراكية. وكان عضواً في الحزب الاشتراكي الديموقراطي، ولكنه استقال عام ١٩٠٦ ليُكوِّن حزب عمال صهيون. وفي العام نفسه، نشر بوروخوف مقاله الشهير "برنامجنا". كما وضع برنامج الحزب بالاشتراك مع إسحق بن تسفي (وهذا الحزب هو أول حزب صهيوني يصل للصيغة الصهيونية التي تجعل الاشتراكية الأداة الوحيدة للاستيطان). وقد قُبض عليه عام ١٩٠٧، وحينما أُفرج عنه ذهب إلى لاهاي حيث أسَّس الاتحاد الدولي لأحزاب عمال صهيون، وشغل منصب الأمين العام للاتحاد حتى وفاته. وقد تَنَقَّل في أنحاء أوربا داعياً لصهيونيته ذات الديباجة الاشتراكية، كما شرح معظم أفكاره في كتاب **الحركة العمالية اليهودية في أرقام** (١٩١٨)، أجرى أبحاثاً في اللغة اليديشية ودراسات اجتماعية عديدة. وقد انتقل إلى الولايات المتحدة بعد اندلاع الحرب العالمية حيث قام بنشاط فعال لا في صفوف حزبه وحسب بل في صفوف المؤتمر الأمريكي اليهودي. وقد ساهم في تأسيس الفيلق اليهودي مع كلٍّ من بن جوريون (العمالي) وجابوتنسكي (اليميني)، وظل طوال حياته يتعاون مع كل الصهاينة بغض النظر عن انتمائهم الطبقي أو العقائدي.

وعندما قامت ثورة كيرنسكي، عاد بوروخوف ليشارك في مؤتمر الأقليات متخذاً موقفين متعارضين يعبِّران عن التناقض المبدئي في تفكيره. ففي أغسطس ١٩١٧، طالب في مؤتمر لحزب عمال صهيون في روسيا بتوطين اليهود في فلسطين على أُسس اشتراكية! ولكنه في سبتمبر من العام نفسه، قدَّم بحثاً أمام مؤتمر الشعوب في كييف عنوانه «روسيا: كومنولث الأمم».

ويتلخص إنجاز بوروخوف الفكري في أنه زاوج بين الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة وديباجات اشتراكية ثورية مُستمدة من الأفكار اليسارية السائدة في شرق أوروبا بين صفوف المثقفين والعمال. ويُقسِّم بوروخوف البشرية من وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية إلى أمم ثم طبقات، ويرى أن الأمم ككيانات حضارية عضوية تتسم بقدر عال من الثبات وتوجد قبل الطبقات. ولذا، فإن الأمم باقية أما الطبقات فتتغير. وقد تعرَّضت الأمم إلى تأثيرات وتغيرات شتى، والأمة العضوية هي النقطة المرجعية النهائية والقيمة الحاكمة الكبرى وهي تظل دون تغيُّر يُذكَر في أساسياتها الحضارية.

ويفسر بوروخوف مسألة انقسام البشر إلى أمم وطبقات على

أساس وجود علاقات إنتاج تُقسِّمهم إلى طبقات ، وظروف إنتاج تُقسِّمهم إلى أمم . وظروف الإنتاج هي الاختلافات الجغرافية والأنثروبولوجية والتاريخية بين المجموعات البشرية المختلفة . كما أن عملية تطوُّر قوى الإنتاج نفسها يمكن أن تأخذ عدة أشكال تبعاً لاختلافات ظروف الإنتاج .

يَنتُج عن هذا أن ثمة أمماً تخضع للاضطهاد ، فهي لا تسيطر على ظروف الإنتاج الخاصة بها . وسيُلاحَظ في هذه الحالة أن الرموز القومية والجوانب الثقافية الخاصة بهذه الأمة ستكتسب ، مستقلة ، أهمية بالغة ، ويُوجِّه جميع أعضاء هذه الأمة جهودهم نحو تقرير المصير (أي السيطرة على ظروف الإنتاج الخاصة بهم ، وهذا طرح عمالي لإشكالية العجز بسبب انعدام السيادة) بدلاً من الصراع الطبقي (أي التناقضات داخل علاقات الإنتاج) . وكل طبقة ، داخل الأمة ، لها اهتمامها الخاص بظروف الإنتاج ، وخصوصاً عنصر الأرض (فهي القاعدة الإستراتيجية للصراع الطبقي) . حينئذ تظهر حركة قومية ثورية تستوعب التركيب الطبقي للمجتمع ولكنها لا تَحجُب بالضرورة الوعي الطبقي ، ويسميها بوروخوف «قومية الطبقة التقدمية الحقيقية» أو «قومية البروليتاريا الثورية المنظمة للشعوب المضطهدة» ، وتطرح برنامج الحد الأدنى الذي يهدف إلى ما يلي :

١ ـ تأكيد ظروف الإنتاج الطبيعية للأمة .

٢ ـ تأمين قاعدة طبيعية لعمل البروليتاريا وللنضال الطبقي . وبالتالي يظهر تركيب طبقي صحيح وصراع طبقي سليم ، وبعدها تقوم البروليتاريا بنضالها الثوري على أساس سليم داخل التشكيل القومي الجديد .

ثم ينصرف بوروخوف لتعريف المسألة اليهودية داخل هذا الإطار ، فيقرر أن ما يميِّز اليهود كشعب (أو نصف شعب أو شبه شعب) هو أنهم شعب «لا أرض له» . وكما يرى بوروخوف ، فإن هذا الوضع الشاذ نتج عنه ما سماه بنظرية «الهرم المقلوب» ، فكل شعب يتكون من فئات اجتماعية وطبقات تأخذ شكل الهرم الذي يتكون من قاعدة عريضة تساهم في العمليات الإنتاجية الأساسية . وكلما بَعُدت العمليات الاقتصادية عن هذه العمليات الأساسية ، قلَّ عدد العاملين فيها حتى نصل إلى قمة الهرم . ويجد بوروخوف أن هذا الهرم الاجتماعي مُشوَّه تماماً عند اليهود إذ يوجد في صفوفهم عدد كبير من المحامين والأطباء والمفكرين وغيرهم ممن ينتمون إلى الطبقة الوسطى والعمليات الإنتاجية الهامشية ، مع قلة قليلة (إن وُجدت) من الفلاحين بالإضافة إلى بروليتاريا صغيرة الحجم نسبياً .

وكل هذا يرجع إلى عدم وجود ظروف أو أحوال إنتاج خاصة باليهود ، ولذا فهم يظلون بمعزل عن بعض قطاعات الإنتاج التي تظل حكراً على الأمة التي تستضيفهم . وبظهور الرأسمالية وازدياد التطور الصناعي والتنافس الرأسمالي ، بدأت الجماهير اليهودية تتحول من حرفيين إلى بروليتاريا . ولكن ، بسبب وجودهم المنعزل ، وبسبب ظاهرة معاداة اليهود المنتشرة في صفوف البورجوازية والبروليتاريا المسيحية ، كان العامل اليهودي لا يجد عملاً إلا عند الرأسمالي اليهودي الذي كان يستثمر رأسماله عادةً في الصناعات الاستهلاكية (لأسباب أوضحها بوروخوف) .

ولكل ما تقدَّم ، فإن تحوُّل الحرفيين اليدويين اليهود إلى بروليتاريا صناعية كان يتم ببطء شديد وأحياناً كان يتوقف كليةً . ونظراً لأن البروليتاريا اليهودية كانت تعمل في الصناعات الاستهلاكية فحسب ، فلم يكن بإمكانها أن تشل الاقتصاد إن قامت بإضراب عن العمل . وبالتالي ، لم يكن بإمكانها الدفاع عن نفسها أو المطالبة بحقوقها .

واستجابة لهذا الوضع الشاذ ، طُرحت حلول عديدة من بينها الاندماج والديموقراطية السياسية أو الثورة البورجوازية . ولكن بوروخوف بيَّن أنها عملية مركبة تؤدي إلى إعتاق اليهود في المرحلة الأولى ، ثم تزيد من حدة المنافسة القومية في مرحلة لاحقة الأمر الذي يزيد حدة معاداة اليهود . ولهذا ، رفض بوروخوف الاندماج كحل للمسألة اليهودية .

ثم يقدم بوروخوف تحليله لاستجابة الطبقات اليهودية المختلفة للمسألة اليهودية وللحل الصهيوني :

١ ـ طبقة البورجوازية الكبيرة في الغرب : وهي طبقة لا تَحصُر نفسها في السوق المحلية ، وليست لها أية مشاعر قومية ، فهي ذات نظرة عالمية ويمكنها حل مشكلتها عن طريق الاندماج . ومع هذا ، يُشكِّل تَدفُّق يهود شرق أوربا الفقراء على غرب أوربا مصدراً كبيراً لقلقهم ، فهو يهدد عملية الاندماج التي يطمح إليها أعضاء هذه الطبقة بل يهدد مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية . وهذه الطبقات الغنية القوية تمقت الجماهير اليهودية الضعيفة ولكن معاداة اليهود تُذكِّرها بقرابتها لها ، وهو ما حوَّل المسألة اليهودية بالنسبة لها إلى عبء مفروض عليها . ولذا ، فهي تبذل جهداً غير عادي لتَجد مخرجاً أميناً يبعد هذه الجماهير عنها . وتبحث عن حل يهودي للمسألة اليهودية كوسيلة للتخلص من الجماهير اليهودية . ولكل هذا ، تكمن داخل صدر اليهودي الغربي المندمج نفسان : نفس

الأوربي المعتز بنفسه ، ونفس اخوانه اليهود الشرقيين (دون أن يكون هناك خيار في ذلك) .

٢ ـ يهود أوربا الشرقية من البورجوازيين الكبار : وهؤلاء مختلفون عن أقرانهم من أثرياء الغرب لأنهم يتأثرون بشكل أكثر مباشرة بحالة اليهود الراهنة .

٣ ـ الطبقة الوسطى : وهي طبقة أكثر ارتباطاً بالدعوة القومية لأن مصالحها تعتمد على السوق التي تستطيع الجماهير اليهودية ارتيادها امتداداً للغة القومية والمؤسسات الثقافية ، وعلى هذا ، فإن هذه الطبقة تُعتَبر سنداً للصهيونية الإثنية وهي لذلك لا تبحث عن حل جذري بل تَقْبل الحلول الليبرالية ، وتدافع عن الثقافة اليهودية بل عن الدولة اليهودية . ولكنها ، ما دامت تحافظ على مواقعها الطبقية ، تبقى خارج الدائرة اليهودية .

٤ ـ البورجوازية الصغيرة المنهارة والبروليتاريا : وهذه طبقة معزولة وتبحث عن سوق يحررها من عزلتها ، ومشكلتها هي "مشكلة شعب منفي يبحث عن مكان يجد فيه أمناً اقتصادياً" ، أي أن هذه الطبقة وحدها هي الشعب العضوي المنبوذ الذي يشكل جوهر المسألة اليهودية .

من هنا كانت الهجرة اليهودية . وقد بدأت الجماهير اليهودية بالفعل تهاجر بأعداد كبيرة إلى الولايات المتحدة . ولكن الهجرة ، كما قال هرتزل من قبل ، لا تحل المسألة اليهودية ، فهي تترك اليهود عاجزين في بلاد غريبة وهم يضطرون إلى التجمع لتسهيل عملية التكيف مع البيئة الجديدة . ولكن التجمع يعزلهم مرة أخرى ويعوِّق عملية التكيف ويفرض عليهم المحافظة على تقاليدهم الاقتصادية السابقة (ميراثهم الاقتصادي) ويتركزون فيها ، ويتحولون بسبب ذلك إلى المراحل الأخيرة من الإنتاج وهو قطاع البضائع الاستهلاكية (أي أنهم يتحولون مرة أخرى إلى ما يشبه الجماعة الوظيفية) . ومن ثم ، فإنهم يظلون عاجزين عن الهيمنة على ظروف الإنتاج ويكونون أول ضحايا الأزمة الرأسمالية ، ولذا فإن حاجة اليهود لتنمية قواهم الإنتاجية المستقلة تظل مسألة قائمة تتطلب حلاً .

ويقترح بوروخوف الحل ، وهو في جوهره الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة حيث تتحول الهجرة إلى استعمار واستيلاء على الأرض . ولكن بوروخوف يضيف ديباجة اشتراكية إذ يصبح الاستيلاء على الأرض هو حصول الشعب اليهودي على قاعدة إستراتيجية وعلى ظروف إنتاج مقصورة عليه وحده وخصوصاً الأرض ، الأمر الذي سيُمكِّنه من أن يتواجد في المستويات الدنيا من العملية الإنتاجية وأن يعيد الهرم المقلوب إلى وضعه الطبيعي على قاعدته . وهذا المطلب تشترك فيه كل الطبقات اليهودية من أعضاء الأمة اليهودية العضوية التي تعاني من عدم السيطرة على ظروف الإنتاج .

ثم يُورد بوروخوف المزيد من الأسباب الدالة على حتمية الحل الاشتراكي الصهيوني للمسألة اليهودية ، أي ضرورة الاستيلاء على أرض واستعمارها حتى تشكل قاعدة للإنتاج . أما بالنسبة للاشتراكية ، فيُورد بوروخوف أن المشروع الصهيوني يحتاج إلى قوى تقوم بتنظيم حركة الجماهير اليهودية المهاجرة وتوجيهها ، وهو أمر مُلقى على عاتق البروليتاريا اليهودية . ولكنه مع ذلك كان يعترف بأن الهدف النهائي للصهيونية هدف بورجوازي ، وهو إيجاد حكم سياسي إقليمي ذاتي ، وإيجاد دولة يهودية يتم دمجها في المجتمع الدولي ، كما أنه كان يدرك أن بناء الدولة لا يمكن أن يتم إلا بأموال بورجوازية وتنازلات سياسية ومساندة دولية (إمبريالية) لا يمكن إلا للبورجوازية اليهودية وحدها أن تحصل عليها . ولكنه ، مع هذا ، كان يجد أن ذلك يشكل خطوة نحو الاشتراكية ، على اعتبار أنه سيُطبِّع ظروف الإنتاج والصراع الطبقي بالنسبة للطبقة العاملة اليهودية ، كما أن دور العمال يمكن أن يتركز في حماية الدولة الصهيونية وفي محاولة فرض سمات تقدمية عليها .

ولكن ، إذا كان المطلوب هو الأرض ، فلماذا فلسطين بالذات (وكان بوروخوف من معارضي مشروع شرق أفريقيا) ؟ يجيب بوروخوف عن هذا السؤال بديباجات اشتراكية مصقولة . فالعمال اليهود ـ حسب قوله ـ ينظرون إلى استعمار فلسطين ونمو البروليتاريا كظاهرتين متلازمتين ومرتبطتين إحداهما بالأخرى ، فالوعي الطبقي "لعمالنا" لا ينطلق من المصالح الأنانية الضيقة التي تتعارض مع مصالح الأمة في مجموعها ، ولذا فهم طليعة الشعب اليهودي . ويضيف بوروخوف الأسباب التالية لضرورة الاستيلاء على أرض فلسطين دون أي أرض أخرى :

١ ـ هذا البلد لا يمثل أي إغراء بالنسبة للمهاجرين من شعوب أخرى ، ولذا فهو لن يجذب سوى المهاجرين الكادحين من اليهود .

٢ ـ يجب أن تكون الأرض التي سيتم الاستيلاء عليها مغرية بالنسبة للرأسمالي اليهودي الصغير والمتوسط بحيث يجد فيه وفي البلاد المجاورة سوقاً لمنتجاتها .

٣ ـ يجب أن يكون هذا البلد متخلفاً شبه زراعي .

٤ ـ يجب أن يكون البلد ذا مستوى ثقافي متدن وذا نمو سياسي منخفض .

ومن وجهة نظر بوروخوف ، فإن فلسطين تتوافر فيها هذه

المواصفات المادية ، فهي بلد شبه زراعي ، كما أن الشعب الذي يقطنها ليس ذا طابع اقتصادي أو حضاري مستقل فهم منشقون ومفتتون ، كما أنهم لم يتبلوروا في كيان اجتماعي متماسك الأمر الذي يجعلهم غير قادرين على التنافس مع رأس المال اليهودي والطبقة العاملة اليهودية . كما يمكن استيعابهم وصهرهم في الشعب اليهودي ، فبإمكانهم الوقوف أمام قوى التقدم الاشتراكية .

وفلسطين ، علاوة على كل هذا ، جزء من الإمبراطورية العثمانية وهو ما يعني أن المستوطنين اليهود سيدخلون حرباً تقوم ضد السلطان التركي المتخلف . وقد كان بوروخوف يتصور أن رأس المال اليهودي سيهاجر إلى " الأرض " بشكل عفوي ، وذلك ليبني هناك صناعة راسخة ، ثم تهاجر في أعقابه آلاف مؤلفة من العمال اليهود .

وعملية الاستيطان هذه هي التي ستحل مرض " الطاقة الفائضة " عند اليهود ، مأساة البروليتاريا اليهودية ومصدر عذابها . ويبدو أن موقف بوروخوف من الجماعات اليهودية في العالم يشبه موقف هرتزل ، فهو يرى ضرورة إفراغ أوربا من فائضها ، ولكن ذلك لن يؤدي بالضرورة إلى تصفية الدياسبورا تماماً . ولذا ، نادى بوروخوف بأن يقوم الصهاينة بالصراع على جبهتين : في الداخل (أي في فلسطين) ضد الأتراك والسكان الأصليين ، وفي الخارج لتحسين أحوال اليهود . وفي عام ١٩١٧ ، وفي خطبة له أثناء انعقاد مؤتمر الفرع الروسي لعمال صهيون في كييف ، عمَّق بوروخوف الديباجات الإثنية ، فأكد أهمية الجوانب الحضارية اليهودية مثل " العودة إلى أرض الآباء " و " أساس النشاط الخلاق " للبعث اليهودي .

ورغم أن كتابات بوروخوف كانت تتسم أحياناً بشيء من الصدق والذكاء ، وخصوصاً إذا كانت في مجال الوصف المباشر ، إلا أن معظم تحليلاته وتفسيراته غير دقيقة . وعلى سبيل المثال ، لم يهاجر رأس المال اليهودي بشكل تلقائي إلى فلسطين وإنما كان يهاجر في فترات الركود الاقتصادي في أوربا وحسب (كما هو الحال دائماً مع رأس المال) ، كما كان ينزح عن فلسطين حينما تتاح له فرصة اقتصادية أفضل خارجها . وهذه الهجرة لم تتم إلا بعد سقوط فلسطين في فلك الإمبريالية الإنجليزية ، ولذا فقد كان رأس المال اليهودي جزءاً من رأس المال العالمي . ولم يهاجر العمال اليهود إلى فلسطين ، كما تصور بوروخوف ، فمعظم المهاجرين كانوا من البورجوازيين أو من البورجوازيين الصغار وهو ما اضطر كثيراً منهم إلى التحول إلى عمال . ومن الواضح أن التطور في روسيا وبولندا لم يكن نحو مزيد من انفصال الطبقة العاملة اليهودية ، فاشتراك اليهود في الثورة البلشفية كان بنسبة عالية جداً تتخطى نسبتهم القومية . كما أن اليهود نجحوا في الاندماج في المجتمع الأمريكي رغم تركُّزهم في مستويات الإنتاج العليا وعدم سيطرتهم على ظروف الإنتاج الخاصة بالمجتمع الأمريكي . ولعل الخلل الأساسي في أطروحات بوروخوف يرجع إلى إصراره على وحدة اليهود القومية بدلاً من رؤيتهم كجماعات مختلفة تخضع لحركيات تاريخية وظيفية ودينية مختلفة .

ولعل أكبر خطأ وقع فيه بوروخوف هو استهانته بالوجود العربي في فلسطين واكتفاؤه بالإشارات العابرة إليه ، وهو في هذا كان ضحية التجريد الصهيوني الذي كان دائماً يشير إلى «الأرض» (أو الأرض المقدسة أو إرتس يسرائيل) التي تنتظر ساكنيها الغائبين آلاف السنين وكأن التاريخ توقَّف كلية . وقد قُدِّر لهذه المشكلة التي كان يُتصوَّر أنها هينة وعرضية أن تترك أثرها العميق لا في الدولة الصهيونية فحسب بل في يهود العالم جميعاً . بل يمكننا أن نقول إن طريقة حسم هذه المشكلة العرضية هي التي ستحدد مصير المستوطنين اليهود في المنطقة .

بيرل كاتزنلسون (١٨٨٧-١٩٤٤)

Berl Katzenelson

صحفي وزعيم صهيوني عمالي ، وابن تاجر روسي . وقع تحت تأثير الجماعات اليهودية الاشتراكية الروسية منذ شبابه ، وتأثر على وجه خاص بفكرة شذوذ الهيكل الاقتصادي لأعضاء الجماعات اليهودية . كان من دعاة الصهيونية الإقليمية ، ولكنه هاجر عام ١٩٠٩ إلى فلسطين ضمن أفراد الهجرة الثانية حيث اشتغل كعامل زراعي في عدة مستوطنات ، كما ساهم في تأسيس عدة تنظيمات زراعية استيطانية (إيماناً منه بدين العمل الذي كان يبشر به صديقه جوردون) . وقد أصبح من أهم الشخصيات الصهيونية بين المستوطنين وفي صفوف الحركة الصهيونية العالمية . وأثناء الحرب العالمية الأولى ، انضم إلى الفيلق اليهودي . وقد أثَّر كاتزنلسون في بن جوريون ونال منه لقب «المعلم» ، واشترك معه في تأسيس حزب اتحاد العمل ثم حزب الماباي فيما بعد . كما ساهم في إنشاء الهستدروت ، وكان ممثلاً للهستدروت ولاتحاد العمل في عدة مؤتمرات محلية ودولية . رأس عام ١٩٢١ أول لجنة للهستدروت تتوجه إلى الولايات المتحدة ، وشارك في تأسيس بنك العمال ومركز شباب الهستدروت ، وأسس صحيفة دافار عام ١٩٢٥ ، ورأس تحريرها حتى وفاته ، كما ساهم في تأسيس دار النشر التابعة

للهستدروت . وقد عارض اقتراحات التقسيم لإصراره على إقامة دولة يهودية خالصة على أرض إسرائيل (فلسطين) . وكان كاتزنلسون يؤمن بأن الصندوق القومي اليهودي هو أهم عنصر في بناء المجتمع العمالي ، وقد عُيِّن مديراً له .

وقد ساعد كاتزنلسون على الهجرة الإحلالية غير الشرعية ، وقاوم **الكتاب الأبيض** الصادر عام ١٩٣٩ . وتعبِّر معظم كتاباته عن فكرة «الاستيطان الصهيوني الاشتراكي» حيث يحاول أن يمزج بين ما يُسمَّى «القومية اليهودية» وتقاليدها من جهة والاشتراكية من جهة أخرى (وذلك انطلاقاً من أفكار سيركين) . وكان كاتزنلسون من أكبر المدافعين عن التقاليد اليهودية ، كما كان من الأصوات العمالية الأولى التي نادت بتنفيذ القوانين الخاصة بالطعام ويوم السبت ، أي أنه كان يحاول المزج بين الصهيونية العمالية والصهيونية الإثنية العلمانية والدينية ، وهي الصيغة التي قُدِّر لها النجاح في نهاية الأمر . وقد نُشرت كتاباته في ١٢ جزءاً في الفترة ٤٦ ـ ١٩٦٠ .

يتسحاق تابنكين (١٨٨٧-١٩٧٣)

Yetzhak Tabenkin

زعيم صهيوني عمالي ، وأحد مؤسسي حركة الكيبوتس الموحَّد ومن أهم منظريها . وُلد في روسيا وتلقَّى تعليماً دينياً في طفولته ثم تلقَّى تعليماً علمانياً في وارسو وفيينا . استوطن فلسطين عام ١٩١٢ وكان من أوائل منظمي الزراعة المسلحة فيها وكان من مؤسسي الهستدروت (١٩٢٠) والماباي (١٩٣٠) . وقد عارض تابنكين الاتفاق المبرم بين بن جوريون والتصحيحيين ، كما عارض قرار التقسيم وطالب بأن يكون الاستيطان في كل إرتس يسرائيل . وحينما انقسمت الحركة العمالية عام ١٩٤٤ ، كان تابنكين أحد مؤسسي حزب المابام . وكان عضواً فى كل مؤتمر صهيوني عُقد بعد الحرب العالمية الأولى حتى عام ١٩٥٩ . وبعد عام ١٩٦٧ ، كان من المطالبين بأن تحتفظ إسرائيل بكل الأرض التي ضُمَّت وأن تصبح جزءاً لا يتجزأ من دولة إسرائيل . له عدة مؤلفات عن الكيبوتس .

حاييم أرلوسوروف (١٨٩٩-١٩٣٣)

Hayyim Arlosoroff

زعيم صهيوني وأحد قادة الحركة الصهيونية العمالية . وُلد في أوكرانيا حيث كان جده حاخاماً بارزاً ، وانتقل مع والديه إلى ألمانيا عام ١٩٠٥ حيث درس الاقتصاد في جامعة برلين وساعد في إنشاء جماعة العامل الفتي . وقد حاول أرلوسوروف مَزْج الأفكار الاشتراكية بالصهيونية في كتيب **الاشتراكية الشعبية اليهودية** (١٩١٩) ، ولفت الأنظار إليه بتقديمه أفكاراً جديدة لتمويل المستعمرات الصهيونية . وقد انتقل أرلوسوروف إلى فلسطين عام ١٩٢٤ ، ومثَّل صهاينة فلسطين في عصبة الأمم ، وزار الولايات المتحدة في هذه الفترة وكتب عن الجماعة اليهودية هناك واتصل بجماعات الطلبة اليهود الأمريكية كممثل للمنظمة الصهيونية العالمية . وقد انتُخب عضواً في اللجنة التنفيذية للمنظمة ورئيساً للإدارة السياسية بها عام ١٩٣١ ، واشترك أرلوسوروف في عقد اتفاق الهعفراه بين المنظمة الصهيونية وحكومة ألمانيا النازية لتسهيل هجرة اليهود الألمان إلى فلسطين . وفي نهاية حياته ، دعا أرلوسوروف إلى اتباع سياسة متشدِّدة في فلسطين خشية ألا يتم تحقيق قيام الدولة الصهيونية بسبب موقف بريطانيا المتقلِّب وغير المأمون نتيجة ظروف الحرب العالمية الثانية . وقد قُتل عام ١٩٣٣ بطريقة غامضة ، فاتهم الصهاينة العماليون بعض الصهاينة التصحيحيين بقتله ، فحُوكموا وأُدين أحدهم . غير أن الدفاع أصر على أن العرب هم الذين قاموا بالحادث . وقد تسبَّب الحادث في المزيد من الانشقاق في الحركة الصهيونية بين العناصر الصهيونية التصحيحية والعناصر الصهيونية العمالية . وقد ادعى التصحيحيون أن الحادث أُلصق بهم ، وطالب مناحم بيجين بفتح باب التحقيق في الموضوع من جديد . وقد نُشرت أعمال أرلوسوروف بعد موته ، وهي تتضمن تحليلات سياسية واقتصادية وتأريخاً للاستعمار في العالم وقطعاً شعرية بالإضافة إلى مذكراته .



١٢
الصهيونية الإثنية الدينية

الصهيونية الثقافية ـ الصهيونية الروحية ـ الصهيونية العلمانية ـ الصهيونية الدينية ـ الصهيونية الإثنيـة (الدينية والعلمانية) ـ الصهيونية الإثنية الدينية ـ مزراحي (حركة) ـ أجودات إسرائيل ـ جوتماخر ـ كاليشر ـ القلعي ـ موهيليفر ـ جلازنر ـ كوك ـ بار إيلان (برلين) ـ لانداو

الصهيونية الثقافية

Cultural Zionism

«الصهيونية الثقافية» مصطلح شائع في الأدبيات الصهيونية . وهو ، مثل كثير من المصطلحات الصهيونية ، غير دقيق ويرادف مصطلح «الصهيونية الروحية» .

وتذهب الصهيونية الثقافية إلى أن المشروع الصهيوني لابد أن يكون ذا بُعْد ثقافي إثني وروحي (بالمعنى العلماني للكلمة) . ونقترح اصطلاح «صهيونية إثنية علمانية» بديلاً لهذا المصطلح ، لأن الصهيونية الإثنية تجعل الإثنوس اليهودي (أي الشعب اليهودي أو روحه) بمنزلة اللوجوس أو المطلق الكامن في النسق .

الصهيونية الروحية

Sprititual Zionism

«الصهيونية الروحية» مصطلح شائع في الأدبيات الصهيونية ، وهو مرادف لمصطلح «الصهيونية الثقافية» . وهو أيضاً ، مثله مثل معظم المصطلحات الصهيونية ، غير دقيق . وتذهب الصهيونية الروحية إلى أن المشروع الصهيوني لابد أن يعبِّر عن روح الأمة اليهودية (أي إثنيتها) . ولذا ، فنحن نشير إليها بمصطلح «الصهيونية الإثنية العلمانية» .

الصهيونية العلمانية

Secular Zionism

نستخدم أحياناً مصطلح «الصهيونية العلمانية» بدلاً من «الصهيونية الإثنية العلمانية» من قبيل الاختصار . وما نعنيه بطبيعة الحال هو المصطلح الثاني .

الصهيونية الدينية

Religious Zionism

«الصهيونية الدينية» مصطلح يشير إلى التيار الصهيوني الذي يرى ضرورة أن يكون المشروع الصهيوني مشروع إحياء ديني ، وأن رسالة الصهيونية هي إحياء اليهودية (لا اليهود) ، ونحن نفضل مصطلح «الصهيونية الإثنية الدينية» لأن هذه الصهيونية تنظر إلى الدين من منظور حلولي عضوي يساوي بين الشعب والإله ، ويجعل الشعب (والإثنية اليهودية) في منزلة الإله . وعلاوة على ذلك ، فإن مصطلح «الصهيونية الإثنية الدينية» يؤكد العلاقة بين هذا التيار الصهيوني وتيارالصهيونية الإثنية العلمانية ، فهما تياران متشابهان في كثير من الأطروحات الجوهرية ، وينحصر الاختلاف في مصدر القداسة التي يتمتع بها الإثنوس أو الشعب اليهودي . ومع هذا نستخدم مصطلح «الصهيونية الدينية» أحياناً من قبيل الاختصار . وما نعنيه بطبيعة الحال هو «الصهيونية الإثنية الدينية» .

الصهيونية الإثنية (الدينية والعلمانية)

Ethnic Zionism (Religious and Secular)

«الصهيونية الإثنية» تيار صهيوني يتعامل مع المادة البشرية اليهودية من منظور الهوية والوعي ومعنى الوجود . وقد ساهم هذا التيار في تهويد الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة عن طريق إسقاط المصطلحات الحلولية العضوية عليها وهي تتفرع إلى اتجاهين أو تيارين : صهيونية إثنية دينية وصهيونية إثنية علمانية . والصهيونية الإثنية الدينية تدور في إطار الحلولية في مرحلة وحدة الوجود الروحية ، أما الصهيونية الإثنية العلمانية فتدور في إطار الحلولية في مرحلة وحدة الوجود المادية (فهي حلولية بدون إله) .

ويرى أصحاب التيار الأول أن الدين اليهودي هو أساس القومية اليهودية ولا يمكن أن تقوم لها قائمة بدونه ، أما أصحاب التيار الثاني فيذهبون إلى أن الدين اليهودي إن هو إلا أحد أبعاد القومية اليهودية . وكلا الفريقين يدعو إلى الإثنية اليهودية ولا يختلفان إلا في مصدر هذه الإثنية : أهو العقيدة اليهودية أم ما يسمونه «التاريخ اليهودي» و«الثقافة اليهودية» .

ويجدر التنبيه إلى أن هناك وحدة بين تياري الصهيونية الإثنية

وتماثلاً في الاتجاه ، فكلاهما يجعل الشعب اليهودي شيئاً مطلقاً مقدَّساً يتسم بالوحدة العضوية . ولكن ، بينما يُفسِّر التيار الإثني الديني هذا التماسك العضوي على أساس ميتافيزيقي (حلول الإله في الشعب) ، يفسر الفريق العلماني التماسك على أساس مادي (العملية التاريخية) أو روح الشعب (أو ما نسميه حلولية بدون إله) . وقد وصل بن جوريون فيما بعد إلى صيغة توفيقية حين صرح بأنه إذا كان الإله قد اختار الشعب فإن الشعب قد اختار الإله . وعلى كل حال ، فإن الحاخام إسحق كوك كان كثيراً ما ينسى صيغته الحلولية ويستخدم الصيغة العضوية دون حياء أو ديباجات . وقد اختتم إحدى مقالاته قائلاً : "ستستحق عودتنا فقط إذا ما رافقت عظمتنا الروحية العودة إلى الجسد من أجل خلق جسم صحيح قوي وعضلات قوية تغلف روحاً ملتهبة" ، وهذه العبارات تليق بنيتشه وآحاد هعام .

ويمكن القول بأن ثمة تقسيماً واضحاً بين تيارات الصهيونية الثلاثة الأساسية . فتتركز مهمة الصهيونية الدبلوماسية ثم العامة (التوطينية) في ضمان الدعم الإمبريالي وتجنيد أعضاء الجماعات اليهودية وراء المُستوطَن الصهيوني وترحيل الفائض منهم . وكانت مهمة الصهيونية العمالية (الاستيطانية) هي توطين هذا الفائض في فلسطين من خلال مؤسسات استيطانية مختلفة ذات طابع زراعي عسكري . وعلى هذا ، فإن لكل صهيونية منها برنامجاً سياسياً واقتصادياً يغطي مجالها ونشاطاتها . أما الصهيونية الإثنية ، بشقيها الديني والعلماني ، فلم يكن يعنيها كثيراً التوجه الاقتصادي أو السياسي ، ذلك أنها كانت تتعامل مع مستوى التعبير والوعي ومعنى الوجود . وقد حدَّدت مجالها بأنه "اليهود" أينما كانوا في الداخل والخارج ، فهم شعب متميِّز ذو تاريخ متميِّز ، وحددت وظيفتها بأنها الإتيان بالعلاج الناجع لمشاكل اليهود الروحية (مشكلة المعنى) ، وخلق الوعي اليهودي ، وتطهير الفكر الصهيوني من المفاهيم الاندماجية كافة ، وتعميق مفهوم الشعب اليهودي بالإصرار على هوية يهودية محددة للمشروع الصهيوني بحيث لا يكون هدفه أن يصبح اليهود شعباً مثل كل الشعوب ، له دولة مثل كل الدول ، وإنما يهدف إلى تعميق الهوية والوعي اليهوديين وإلى إضفاء معنى يهودي على الوجود اليهودي سواء في فلسطين أو خارجها .

والدولة التي ستُؤسَّس ـ من منظور الصهيونية الإثنية ـ يجب ألا تكون دولة يهود وحسب وإنما يجب أن تكون دولة يهودية شكلاً ومضموناً . ويهدف هذا التيار إلى فرض العزلة الإثنية على اليهود في الخارج حتى يمكن تجنيد أعضاء الجماعات اليهودية وراء المُستوطَن وإعطاء المستوطنين في الداخل إطاراً عقائدياً ذا بعد زمني بحيث يمكن إضفاء القداسة على الرموز القومية فتتحول فلسطين إلى مركز روحي (بالمعنى الإثني الديني أو بالمعنى الإثني العلماني) .

كما تَجدُر ملاحظة أن دعاة الخطاب الإثني باتجاهيه الإثني الديني والإثني العلماني ، نظراً لتركيزهم على مشاكل الهوية ، لم يكن لهم فكر سياسي أو اقتصادي مستقل . فقد تركوا هذه الصياغات لبنسكر وهرتزل وبوروخوف وجابوتنسكي وغيرهم من الصهاينة ، وركزوا هم على الديباجات الإثنية أكثر من تركيزهم على الأمور السياسية أو الاقتصادية ، فهم يتحدثون عن لغة الدولة القومية ونوعية القوانين التي ستسود فيها (من منظور إثني) وعلاقتها بالتراث اليهودي ومدى توافق سلوك مستوطنيها مع القيم الإثنية (الدينية أو العلمانية) اليهودية . وقد اهتموا كذلك بالمشاريع الثقافية التي تُوحِّد وعي يهود العالم ، وبعلاقة يهود العالم بالدولة المزمع تشييدها .

ولا يعني هذا أنهم لم يكونوا ملتزمين بالصيغة الأساسية الشاملة (ولا بالإيمان بأزلية معاداة اليهود أو بفكرة الشعب أو الاعتماد على الدول العظمى) . فكل فكرهم ينطلق منه ويفترضه ويستند إليه . وإذا كان آحاد هعام قد تَذبذَب لفترة قصيرة بشأن ضرورة إنشاء الدولة الصهيونية ، إلا أن هذا التذبذب لم يَدُم طويلاً ، كما أنه لم يعارض قط فكرة نَقْل الفائض اليهودي من شرق أوربا إلى فلسطين . وإذا كان ذبح العرب قد سبَّب له بعض القلق لبعض الوقت ، فإنه استمر في دعم المشروع الصهيوني وإسداء النصح لوايزمان في الفترة التي سبقت وعد بلفور . وقد استوطن هو نفسه فلسطين في نهاية الأمر دون أن يبين كيف يمكن تنفيذ المشروع الصهيوني دون التخلص من العرب . أما بالنسبة إلى المتدينين ، فإن الأمر لا يختلف كثيراً . وأثناء ثورة ١٩٢٩ في فلسطين ، اتهم كوك البريطانيين بالتقاعس عن حماية اليهود ، كما اتخذ موقفاً متشدداً أثناء الانتفاضة التي قامت دفاعاً عن البراق (حائط المبكى) .

وبالنظر إلى عدم تَعارُض مجال الصهيونية الإثنية مع مجالات الصياغات الصهيونية الأخرى ، فإننا نجد أن معارك دعاة هذا التيار كانت تدور إما فيما بينهم ، أو بينهم وبين قيادة أحباء صهيون ودعاة الصهيونية الدبلوماسية فيما يختص بالقضايا الدينية والثقافية وحدها . وقد وقع أحد التصادمات بين الإثنيين الدينيين وقيادة جماعة أحياء صهيون عام ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩ ، وهي سنة سبتية يُحرَّم فيها على اليهود زراعة الأرض حسب التعاليم الدينية اليهودية . ولا يسري هذا التحريم إلا بعد عودة اليهود إلى أرض الميعاد واستعادتهم

إياها ، كما أنه لا يسري إن كانت الأرض ملكاً للأغيار . ولكن المستوطنين اليهود استمروا مع هذا في زراعتها رغم ملكيتهم لها . وقد تَطوَّع الحاخام موهيليفر وأفتى بإمكانية بيع الأرض إلى أحد الأغيار ، فتعود إلى غير اليهود ، ويحل لليهود بالتالي زراعتها (وهو أمر استمر حتى الوقت الحاضر إذ تقوم الدولة الصهيونية ببيع أرض إسرائيل كل ست سنوات إلى أحد المواطنين غير اليهود ثم تشتريها منه مرة أخرى بعد انتهاء السنة السبتية !) . وقد حاول المتدينون عزل بنسكر في مؤتمر جماعة أحباء صهيون الذي عُقد في دروسكينكي (١٨٨٧) ، ففشلوا في ذلك ولكنهم نجحوا في تعيين ثلاثة حاخامات في اللجنة التنفيذية .

وقد حدث أيضاً حوار ساخن بين الإثنيين العلمانيين وصهاينة أحباء صهيون التسلليين عندما كتب آحاد هعام إحدى مقالاته "ليس هذا هو الطريق" ليبين أن المتسللين إلى فلسطين فقدوا هويتهم اليهودية واستوعبتهم عملية البقاء المادي وأهملوا عالم الروح والهوية . ثم تَحوَّل هذا الحوار الساخن إلى نقد صريح لمشروع هرتزل وفكره فيما بعد . وقد بلغ رفض آحاد هعام الصيغة الهرتزلية مداه حينما اقترح في مؤتمر منسك (الذي عقده الصهاينة الروس عام ١٩٠٢) الانشقاق عن المنظمة الصهيونية لتأسيس منظمة صهيونية ثقافية مستقلة تدافع عن الخطاب الإثني بين اليهود أينما كانوا .

وقد احتدم النزاع كذلك بين دعاة اتجاهي الخطاب الإثني . ولذا ، فقد اضطر العلمانيون حينما ازداد نفوذ الدينيين في مؤتمر فلنا (١٨٨٩) إلى تأسيس جماعة بني موسى (على غرار المحافل الماسونية) ولكنها حُلَّت عام ١٨٩٧ .

وقد حُسم الصراع بين الصهاينة الإثنيين والصهاينة الذين لا يهتمون كثيراً بالإثنية مع صدور وعد بلفور . ومع استيلاء العناصر اليهودية من شرق أوربا على المنظمة ، وتقسيم العمل بين التوطينيين والاستيطانيين ، وقد أصبحت الهوية اليهودية الرقعة المشتركة بين الجميع ، وتَقبَّل الصهاينة التوطينيون فكرة الهوية اليهودية ما دامت لا تتعارض مع ولائهم لأوطانهم . ولكن الصراع داخل التيار الإثني استمر بين الدينيين والعلمانيين (إذ أن الصراعات الأخرى بين التيارات الصهيونية الأخرى تتم على المستويين السياسي والاقتصادي) . ومن أهم الصراعات التي تدور بين الاتجاهين ، الصراع بشأن الهوية اليهودية (من هو اليهودي ؟) .

وكما أسلفنا ، فقد نشبت الخلافات عدة مرات بين الفريقين الإثني الديني والإثني العلماني ، وتم تعليق الخلاف في برنامج بازل . وأثناء إعداد وثيقة إعلان الدولة (التي يُقال لها وثيقة «إعلان استقلال إسرائيل») ، نشب خلاف بين الصهاينة الدينيين والصهاينة العلمانيين حول عبارة "واضعين ثقتنا في الإله" التي أصر المتدينيون على ذكرها في الديباجة . وقد حُلَّ الخلاف عن طريق صياغة صهيونية مراوغة ، ألا وهي عبارة «تسور يسرائيل» التي تعني حرفياً «صخرة إسرائيل» ، وهي عبارة غامضة تؤدي معنى لا دينياً للادينيين ومعنى دينياً لدعاة الصهيونية الدينية . ويبدو أن الدينيين حاولوا كذلك أن تشير الديباجة إلى الوعد الإلهي لجماعة يسرائيل ولكنهم أخفقوا . ولكي يتم إرضاؤهم ، جاءت الديباجة مبهمة تحمل كل المعاني الممكنة : "إرتس يسرائيل هي المكان الذي وُلد فيه الشعب اليهودي ، وهنا اكتسبت هويتهم الروحية والدينية والسياسية شكلها ، وهنا شيَّدوا أول دولة لهم وخلقوا قيماً حضارية ذات مغزى قومي عالمي ، وأعطوا العالم كتاب الكتب الأزلي" .

والإشارة هنا إلى ميلاد الشعب اليهودي الذي يمكن تعريفه دينياً أو علمانياً ، وإلى هويته التي يمكن تعريفها على أسس روحية (والكلمة تعني في الأدبيات الصهيونية «إثنية لادينية» إذ تجري الإشارة إلى صهيونية آحاد هعام على أنها «صهيونية روحية») أو على أسس دينية أو سياسية عامة . و«كتاب الكتب الأزلي» أي «الكتاب المقدَّس» يُشار إليه باعتباره الكتاب الذي أعطاه الشعب اليهودي للعالم (دون تحديد ما إذا كان جزءاً من فلكلور هذا الشعب أو مُرسَل من الإله) . ونجد في برنامج القدس (١٩٦٨) استمراراً للصيغ المبهمة نفسها ، فإسرائيل قامت على أساس رؤية الأنبياء للعدل والسلام التي يمكن أن تكون مُرسَلة من الإله أو تكون من صنع البشر . كما يشير البرنامج إلى ضرورة الحفاظ على هوية الشعب اليهودي من خلال تشجيع التربية اليهودية والعبرية والقيم الروحية والثقافية اليهودية . ولعل الإشارة إلى التربية اليهودية والعبرية هي في واقع الأمر إشارة إلى التربية الإثنية الدينية والعلمانية .

الصهيونية الإثنية الدينية

Religious Ethnic Zionism

«الصهيونية الإثنية الدينية» تيار صهيوني يتقبل معظم مقولات الصهيونية الأساسية الشاملة بعد إدخال ديباجة إثنية دينية عليها . وحينما ظهرت الصهيونية برفضها العميق لليهود واليهودية تَصدَّى لها كثير من المتدينين (الأرثوذكس والإصلاحيين) ، باعتبارها هرطقة وكُفراً وإلحاداً ونكوصاً . وإذا كان الصهاينة قد أعلنوا عزمهم غزو الجماعات اليهودية ، فإنهم قد قرروا أن يُغيِّروا اليهودية نفسها ويعلمنوها من الداخل حتى ولو لم يعلنوا عن ذلك . ولعل مما يسَّر

هذه العملية عدة عوامل من أهمها أن اليهودية نفسها في أواخر القرن التاسع عشر كانت تمر بأزمة حادة بعد خروجها من الجيتو . فعالم الأغيار في الغرب قد أثبت جاذبيته الشديدة ، كما أن اليهودية كانت قد أجادت التعامل مع العالم من داخل أسوار الجيتو والعزلة ، ولكنها لم تكن بعد قد أجادت التعامل معه في إطار الإعتاق والاستنارة والمساواة .

ولعل زيادة علمنة المجتمع الغربي وانتشار العلم والتكنولوجيا قد جعلا استمرار اليهودية صعباً ، وخصوصاً أن اليهودية الحاخامية كانت قد تجمدت وأصبحت مثل القشرة اليابسة . وقد تهاوت مع اليهودية المؤسسات التقليدية التي ساعدت الحاخامات وأثرياء اليهود على إحكام قبضتهم على جماهير اليهود ، مثل القهال . وقد ساهمت حركة التنوير في خلق جيل جديد من شباب اليهود الذي كان يتحرك بيُسر بين عالم اليهود وعالم الأغيار ويجيد علوم الغرب ، وأصبحت القيادة الحاخامية معزولة عن هذا الوضع الجديد . ومما زاد الأمور سوءاً أن اليهودية نفسها كانت منقسمة بحدة إلى المؤسسة الحاخامية التقليدية والحركة الحسيدية التي اكتسحت شرق أوربا ، وهي حركة حلولية متصوفة تمثل احتجاجاً على وضع اليهود ، وعلى جفاف العقيدة التلمودية . وقد أحست المؤسسة الدينية بأن الوضع آخذ في الانهيار . وربما كان أكبر دليل على ذلك انتشار اليهودية الإصلاحية وما تبع ذلك من زيجات مُختلَطة ، حتى أن الحديث عن اختفاء اليهود كان مطروحاً بين علماء الاجتماع في الغرب .

في هذا السياق ، كان للعقيدة الصهيونية في صياغتها المراوغة (المتمثلة في برنامج بازل) بريقها . فهي ، رغم هجومها على اليهود واليهودية ، قد استخدمت كل الرموز التقليدية من عودة إلى صهيون والأرض المقدَّسة والشعب المقدَّس . ودولة اليهود التي تحدَّث عنها هرتزل تُشبه في نهاية الأمر الجيتو والقهال من بعض الوجوه ، فهي دولة بدون أغيار . وكان أعضاء المؤسسة الدينية يدركون مدى حدة معاداة اليهود في أوربا عامة ، وأكثر من هذا مدى خطورة الاندماج والعلمانية . ولذا ، فلم يكن من العسير عليهم أن يأخذوا بالصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المُهوَّدة (بعد صهينة اليهودية) .

وعلى كلٍّ ، فإن هرتزل نفسه لم يمانع في إنشاء حزب ديني بل رحب به قبل فاته ، وقام بتمويل حزب مزراحي ، حيث أدرك أنه لا تعارض حقيقياً بين صهيونيته الدبلوماسية التي تهدف إلى إخلاء أوربا من يهودها وبين الخطاب الإثني الديني . كما أن دعاة الصهيونية الدبلوماسية وجدوا أنه قد يكون من المفيد استخدام الدين لتجنيد اليهود ، بل إزالة الفوارق بين الصهيونية واليهودية في نهاية الأمر بحيث يتم تهويد الصهيونية وصهينة اليهودية . وقد اتخذ المؤتمر الصهيوني الخامس (١٩٠١) قراراً بتأسيس حركة دينية تُسهم في تثقيف اليهود بروح القومية اليهودية ، أي تُظهر التلاحم الكامل بين القومية والدين .

وقد طوَّر الصهاينة الدينيون هذا البرنامج ، فطرحوا الأفكار الدينية التقليدية كافة بعد تفريغها من بُعدها الأخلاقي وتأكيد بُعدها الإثني ، فأعادوا صياغة فكرة العودة بطريقة تتفق مع متطلبات الاستيطان الصهيوني ، فتم تفسير الاستيطان (أو العودة الجسدية الفعلية إلى فلسطين) الذي كان يُعَدُّ هرطقة من المنظور الديني التقليدي باعتباره مجرد إعداد لعودة الماشيَّح . بل إن فكرة القومية العضوية نفسها تم التعبير عنها من خلال الصيغة الحلولية ، فالصهاينة الدينيون يرون أن اليهود أمة ولكنهم أمة تختلف عن بقية الأمم لأن الإله هو الذي أسسها بنفسه ، فهم يدورون في إطار المفهوم الحلولي الخاص بوحدة التوراة والأمة وأن اليهود كشعب لا يمكنه الاستمرار بدون التوراة . وأن هذه الوحدة ، مع هذا ، لا يمكن أن تأخذ شكلها الكامل خارج فلسطين ، أي أن عناصر الثالوث الحلولي : الأمة والكتاب والأرض لابد أن تلتحم ، وبالتحامها تنبجس عبقرية الأمة كالينبوع الذي تعود له الحياة فجأة ، والذي لا تملك البشرية الخلاص دون فيضه السخي . وهذه الفكرة هي فكرة القومية العضوية نفسها بعد أن اكتسبت ديباجة دينية حلولية .

بل إن مفكري الصهيونية الدينية كانوا من المؤمنين بأن علمانية الصهيونية الظاهرة هي مجرد وهم ، وأنها مجرد إطار ساهم هو نفسه في إحكام قبضة القيم الإثنية الدينية على الوجدان اليهودي ، وأن المشروع الصهيوني سَيسقُط في يد الصهاينة الدينيين . وبهذا ، تكون الصهيونية الدينية قد سوَّغت الصهيونية للمتدينين ولكنها تكون في الوقت نفسه قد قامت بصهينة الدين اليهودي حتى أصبح لا يختلف كثيراً عن الصياغة الإثنية التي طرحها آحاد هعام والتي لا تتعارض بأي شكل مع الصياغة الدبلوماسية التي طرحها هرتزل .

وكما هو مُتوقَّع ، نشب صراع حاد بين الصهاينة الإثنيين الدينيين والصهاينة الإثنيين العلمانيين ، فهم يتحركون في المجال نفسه ، منطقة الوعي وإدراك الهوية ومعنى الوجود . وقد كان الصراع حاداً منذ البداية ، منذ أحباء صهيون ، واستقرت حدته بعد ظهور هرتزل داخل المؤتمرات الصهيونية المختلفة ، وقد هدأت الأمور قليلاً بعد وعد بلفور وتقسيم مناطق النفوذ بين الصهيونية العمالية التي تبنت الصيغة الإثنية العلمانية والصهيونية الدينية التي مُنحت

الإشراف على المدارس الدينية وعلى المحاكم وبعض المؤسسات الأخرى . ومع ظهور أزمة الصهيونية وظهور مشكلة الشرعية داخل المُستوطَن الصهيوني بعد عام ١٩٦٧ ، بدأ الاتجاه الإثني الديني يتغلب على الاتجاه الإثني العلماني حتى بدأ كثير من أعضاء النخبة الحاكمة في إسرائيل يدَّعي التدين ويستخدم مصطلحاً إثنياً دينياً ، وأخيراً ظهر مائير كهانا وهو من أكبر دعاة الصهيونية الإثنية الدينية وهي صهيونية مُفرَّغة تماماً من أي مضمون خلقي أو ديني .

والصهيونية الدينة في الوقت الحاضر هي العمود الفقري لليمين الصهيوني ، والأرثوذكس هم طليعة الاستيطان في الضفة الغربية ودعاة صهيونية الأراضي بعد أن أصبحت الأرض هي مركز القداسة ، وأصبح التنازل عن أي شبر منها كفر وهرطقة (على عكس الأرثوذكس في الماضي الذين كانوا يرون العودة للأرض باعتبارها كفراً وهرطقة) .

وأهم مفكري الصهيونية الإثنية الدينية هما موهيليفر وكوك . وتسيطر المؤسسة الصهيونية الدينية الآن على جمهور ثابت في الشارع الإسرائيلي عن طريق توليها شئون الدين والزواج والطلاق وشبكة واسعة من المدارس والمعاهد الدينية والمؤسسات المالية وحركات الاستيطان التابعة لها .

والمشكلة الكبرى التي تواجهها الصهيونية الإثنية الدينية الآن أن أغلبية يهود العالم الساحقة ليست أرثوذكسية ، كما أنها تعيش في مجتمعات علمانية تحقق لها قسطاً كبيراً من الحرية ، ولذلك يصدمهم سلوك هذه المؤسسة التي تصر على الخطاب الإثني الديني وعلى تطبيق مقولاته ، وتظهر المشكلة دائماً في شكل سؤال : من هو اليهودي ؟

مزراحي (حركة)

Mizrahi

«مزراحي» هو مزج لكلمتي «مركز» و«روحاني» ، وهما كلمتان عبريتان تطابقان في النطق والمعنى مثيلتيهما العربيتين . وقد طرحت الحركة شعار "أرض يسرائيل لشعب يسرائيل حسب شريعة وتوراة يسرائيل" ، كما لُخِّص الشعار في عبارة «توراه وعفوداه» ، أي «التوراة والعمل» ، ومعناها أن على الصهيوني الحق المتدين أن يتعلم الشريعة اليهودية وأن يعمل بنشاط من أجل إعادة بناء إسرائيل .

وقد أُثيرت قضية الدين في المؤتمر الصهيوني الثاني (١٨٩٨) . وكان رد القيادة السياسية (العلمانية) هو أن الدين مسألة شخصية وأن المنظمة الصهيونية العالمية ليس لديها موقف رسمي منه . وقد كان هذا الموقف مقبولاً من المتدينين طالما لم يتوجه المشروع الصهيوني إلا للقضايا السياسية والاقتصادية ، وهي قضايا تقع خارج نطاق الإثنية والعقيدة . ولكن حينما تَقرَّر (بناءً على طلب العصبة الديموقراطية) في المؤتمر الخامس (١٩٠١) أن تُشرف المنظمة على برنامج تربوي يقوم بعملية تعليم اليهود روح القومية (الإثنية) اليهودية بالمعنى العلماني الذي حدده آحاد هعام ودعاة الصهيونية الإثنية العلمانية ، شعر المتدينون بأن هذا قد يؤدي إلى القضاء على اليهودية . وهنا قرر الحاخام يعقوب راينس عام ١٩٠٢ تأسيس حزب ديني قوي داخل المنظمة الصهيونية .

وفي العام نفسه ، عُقد مؤتمر منسك الذي نظمه اليهود الروس وقد تم فيه الاعتراف بالاتجاهين الإثنيين : الديني والعلماني . وحينما اندلع الخلاف بينهما ، تم حسمه عن طريق إقامة لجنتين متوازيتين إحداهما إثنية دينية والأخرى إثنية علمانية . وعندئذ قرَّر الصهاينة المتدينون إنشاء منظمة تُدعَى مزراحي . وقد قرَّرت مزراحي القيام بنشاط ديني داخل المنظمة وفي إطار الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المتهودة (برنامج بازل) ، وهذا بمقتضى القرار الذي صدر في المؤتمر الخامس الذي سمح بتكوين اتحادات مستقلة داخل المنظمة . وعقدت منظمة مزراحي أول مؤتمر لها عام ١٩٠٣ ، وعبَّر فيه بعض المتدينين عن اعتراضهم على قرارات منسك التي تضمنت الاعتراف بالصهيونية الإثنية العلمانية .

وفي عام ١٩٠٤ ، عُقد أول مؤتمر عالمي لحركة مزراحي ضم ١٠٠ مندوب ، وهناك تمت صياغة برنامج الحركة الذي نص على الالتزام ببرنامج بازل وبالتوراة وبتنفيذ الأوامر والنواهي والعودة إلى أرض الآباء والبقاء داخل المنظمة الصهيونية ونشر الوعي الديني الإثني . ثم تم نقل مقر الرئاسة إلى فرانكفورت عام ١٩٠٥ ، وهو العام الذي تم فيه الاعتراف بالمزراحي كتنظيم مستقل داخل المنظمة الصهيونية .

وقد بدأت مزراحي نشاطها التثقيفي الواسع فنقلت نشاطها إلى فلسطين ، وأنشأت أول مدرسة دينية عام ١٩٠٨ . وحينما أُثيرت قضية النشاط الصهيوني الثقافي في المؤتمر العاشر (١٩١١) ، انسحب وفد مزراحي منه ، ولكن تقرَّر بعد ذلك معارضة النشاط الثقافي دون الانسحاب من المنظمة .

وانتقل مركز مزراحي إلى الولايات المتحدة عام ١٩١٣ ـ ١٩١٤ ، فتَوقَّف نشاطها لبعض الوقت في أوربا ولكنها عاودت النشاط مرة أخرى بعد وعد بلفور وأصبح لها فرع استيطاني . وقد تم

تنظيم دار الحاخامية الأساسية والمحاكم الدينية اليهودية التي تسيطر عليها مزراحي ، ثم تم تأسيس عمال مزراحي (هابوعيل هامزراحي) في القدس عام ١٩٢١ ، وأصبح للحركة بالتالي منظمتها الاستيطانية فأقامت أول مستوطنة تعاونية (موشاف) تابعة للحركة عام ١٩٢٥ وأول مستوطنة جماعية (كيبوتس) عام ١٩٣٠ . وتمكنت الحركة من مد نفوذها عن طريق استيعاب أولاد المهاجرين وإيوائهم في المدارس الفنية والزراعية التابعة للحركة . وتتميَّز حركة مزراحي بالمقدرة على التنازل في الأمور الدينية ، وهو ما أتاح التعاون بسهولة بينها وبين الصهيونية العمالية .

ولحركة مزراحي فروع في كل العالم ، ولها تنظيم نسائي وآخر شبابي . وترجمت الحركة نفسها في الداخل إلى أحزاب دينية تتبعها منظمات شبابية ونسائية . والمؤتمر العام للحركة يتكون من مجلس مزراحي العالمي (الذي يمثل يهود الخارج) واللجنة التنفيذية المشتركة لمزراحي وهابوعيل هامزراحي (الذي يمثل يهود الداخل) . ويتبع الحركة في الداخل عدة مدارس ومعاهد تعليمية وجامعة بار إيلان وعدد من المزارع الجماعية ومذابح شرعية ومؤسسات مالية مثل بنك هامزراحي وبنك هابوعيل هامزراحي وشركات بناء مساكن .

وقد اندمج حزبا مزراحي وهابوعيل هامزراحي وكونا حزب المفدال (الحزب الديني القومي) الذي اشترك في كل الحكومات الائتلافية في إسرائيل . وكان الحزب ، حتى عام١٩٦٧ ، قد حصر اهتمامه في استصدار التشريعات التي تمس الجوانب الدينية وحسب . ولكن بعد ذلك التاريخ سيطرت عليه تلك العناصر التي تدافع عن الاحتفاظ بأرض إسرائيل الكاملة ، وهو الأمر الذي أدى إلى توسيع نطاق اهتمام الحزب بحيث أصبح يشمل كل السياسات الداخلية والخارجية . وقد انضم الحزب إلى وزارة الليكود عام ١٩٧٧ و١٩٨١ وأيَّد سياسات مناحم بيجين ، أي أن الحزب القومي الديني أصبح عنصراً أساسياً في اليمين الديني .

اجودات إسرائيل

Agudat Israel

تأسَّست حركة أجودات إسرائيل عام ١٩١٢ كتنظيم ديني يضم جميع الجماعات الدينية الأرثوذكسية في ألمانيا وبولندا وليتوانيا (كمجموعة متحدة) ضد الحركة الصهيونية لمحاولة تغيير بنية ومضمون الحياة اليهودية . كما تصدَّت الحركة للحركات العلمانية الأخرى كافة ، مثل البوند واليهودية الإصلاحية . ويعد بداية متعثرة اتخذ المؤتمر الصهيوني العاشر (١٩١١) قراراً بضم مشاريع ثقافية (علمانية) ضمن برامجها ، مما أدى إلى انسحاب بعض المندوبين الألمان وانضموا لجماعة أجودات إسرائيل ، الأمر الذي أعطاها قوة دفع شديدة .

وقد تكونت الحركة من خلال ثلاثة عناصر أساسية :

١ ـ الأرثوذكسية الجديدة الألمانيةمن أتباع سمسون هيرش ، وهؤلاء كانوا يحاولون تنفيذ كل التعاليم الدينية وإقامة كل الشعائر مع شيء من التكيف مع البيئة غير اليهودية التي يعيش فيهااليهود .

٢ ـ الأرثوذكسية المجرية .

٣ـ الأرثوذكسية البولندية .

وهذان الفريقان الأخيران كانا يضمان العناصر الحسيدية وحاخامات الأكاديميات الليتوانية ، وكانا يعارضان تبني المعارف الغربية . وكان أتباع الأرثوذكسية الألمانية والمجرية يرون أن الجماعات الأرثوذكسية يجب أن تفصل نفسها تماماً عن الجماعات اليهودية غير الأرثوذكسية ، على عكس أتباع الأرثوذكسية البولندية وبعض قيادات الأرثوذكسية الألمانية فكانوا يرفضون هذا الموقف .

وقد أعلنت الحركة أن برنامجها هو توحيد شعب إسرائيل حسب تعاليم التوراة بجميع مظاهر الحياة الاقتصادية والسياسية والروحية . وقد أسس المؤتمر التأسيسي ما يُسمَّى مجلس القيادات التوراتية ، مهمته التأكد من عدم جنوح تنظيم أجودات إسرائيل عن تعاليم التوراة . وأقامت الجمعية فرعاً لها في فلسطين عام ١٩١٩ ، كما أقامت عام ١٩٢٢ حركة عمالية في بولندا لمنع العمال من الانضمام للأحزاب الصهيونية . وقد أخذت الحركة شكلاً عالمياً عام ١٩٢٧ حين افتتحت فروعاً في نيويورك ولندن والقدس . كما عارضت الحركة الاستيطان في فلسطين باعتباره تحدياً للأوامر الإلهية ، ذلك أن تجميع المنفيين لا يمكن أن يتم إلا بمشيئة الإله وفي الوقت الذي يحدده .

وقد قامت الجمعية بنشاط ضد الاستعمار الصهيوني والإنجليزي بالاشتراك مع العرب والمستوطنين اليهود المتدينين ، وقامت بحملة إعلامية ضد الاستعمار الصهيوني إلى أن سقط أحد قوادها (جيكوب دي هان) صريعاً برصاص الصهاينة .

ولم تعترف المنظمة بالمُستوطَن الصهيوني ولا بالحاخامية الأساسية ، وكان لها محاكمها الحاخامية الخاصة ، وطالبت السلطات البريطانية بالاعتراف بها كجماعة دينية يهودية مستقلة ولكن رُفض هذا الطلب .

ومع الثلاثينيات ، شهدت فلسطين وصول أعداد كبيرة من أعضاء الجمعية من بولندا . وقد وجد هؤلاء أن من الصعب عدم

الاشتراك في النشاطات الصهيونية السياسية والاقتصادية ، كما وصل يهود من الأرثوذكس الجدد ومن العناصر العلمانية من ألمانيا .

وقد تم التحول عام ١٩٣٧ في مؤتمر الجمعية إذ تَغلَّب التيار الصهيوني الذي يعارض عودة اليهود إسماً ولكنه يرى مع هذا ضرورة العودة لفلسطين للإعداد لمقدم الماشيَّح . وتعاونت حركة أجودات مع المنظمة الصهيونية ، فظهر مندوبوها أمام اللجنة الملكية (لجنة بيل وشو) وصرحوا بأن وعد بلفور والانتداب يتفقان مع روح الوعد الإلهي بالخلاص ، أي أنها تبنت الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة بعد إلباسها الديباجة الأرثوذكسية .

وفي عام ١٩٤٤ ، أقام حزب أجودات إسرائيل مزرعة جماعية (كيبوتس) بأموال الصندوق القومي اليهودي ، وانضم أعضاء الحزب إلى منظمة الهاجاناه . ثم تعمَّقت العلاقة بهذا الاتفاق الذي صاغه بن جوريون وهو الاتفاق المعروف باسم «اتفاق الوضع الراهن» الذي بموجبه حصلت الحركة الصهيونية على تأييد الصهاينة المتدينين شريطة أن تحافظ الدولة الصهيونية الجديدة على "الوضع الراهن" كما هو في الأمور الدينية . وعشية قرار التقسيم بدأت أصوات مؤيدة لقيام إسرائيل ترتفع أكثر وأكثر داخل معسكر الأجوداه . وقد فسرت قرارات الأمم المتحدة وتعاطف المجتمع الدولي مع اليهود بأنها من مظاهر العناية الإلهية . وبدأ التوجه العام في أوساط اليهودية الأرثوذكسية ينتقل بالتدريج إلى موقف متوازن : الاعتراف الواقعي «دي فاكتو de facto» بالدولة بدون منحها اعترافاً قانونياً «دي جوري de jure» ، أي الرفض الأيديولوجي للدولة والتعامل مع مؤسساتها في آن واحد ، أي أن الدولة الصهيونية لم تعد لها أية دلالة دينية خاصة ، فهي مجرد مؤسسة يحكم عليها بمقدار ما تقرب الشعب إلى الإله والتوراة . واشترك حزب أجودات في المجلس المؤقت وفي العملية السياسية . ومع هذا ، استمرت أجودات إسرائيل في التمحك بالمصطلح الديني الرافض للصهيونية ، ورفضت التحدث عن الدولة فكانت تشير لها بأنها «السلطات اليهودية في فلسطين» .

ويشير عزمي بشارة إلى أنه عندما ثار نقاش بين قيادة أجودات إسرائيل في فلسطين وقيادتها في الولايات المتحدة ، التي عارضت الانضمام إلى الحكومة المؤقتة ، كان تبرير القيادة المحلية لمشاركتها منطلقاً من موقف الضعف ، موقف الأقلية المضطرة إلى الانضمام إلى الحكومة لتأمين مصالحها ـ لكن التطور استبدل منطق الضعف بمنطق القوة ، منطق السلطة والتأثير فيها فيما بعد ، لا لتأمين الحريات الدينية وإنما من أجل فرض الشرائع الدينية على الحياة اليومية للأكثرية العلمانية ، ومن أجل تأمين المصادر المالية لمؤسسات الحركات الدينية من مدارس دينية وجمعيات خيرية ومراكز صحية وغير ذلك .

ثم تزايدت معدلات الصهينة بعد عام ١٩٦٧ حينما أصبح اليهود الأرثوذكس من غلاة المدافعين عن الاحتفاظ بأرض إسرائيل الكاملة ومن دعاة صهيونية الأراضي (انظر : «صهينة العناصر الدينية الأرثوذكسية بعد عام ١٩٦٧») .

وقد ترجمت الحركة نفسها إلى حزب أجودات إسرائيل وعمال أجودات إسرائيل في الداخل ، وينصب اهتمامها على الشئون الثقافية والتربوية . وقد شهد التيار الديني الصهيوني بعض الانقسامات داخل الدولة الصهيونية فتم تأسيس حزب ديغل هتوراه (لواء التوراة) الذي يمثل الطوائف الليتوانية (المتنجديم) ، ويوجد كذلك حزب شاس الذي يمثل السفارد . وقد تحوَّلت حركة أجودات إسرائيل المناوئة للصهيونية إلى حركة عنصرية ذات ديباجة دينية تلعب دوراً خطيراً في تنشئة الأجيال الجديدة في إسرائيل على كره العرب وتفرض عليها الخطاب الإثني الديني . ولا يزال هناك جناح صغير من أجودات إسرائيل يتمسك بموقفه الديني القديم ويناوئ الصهيونية ألا وهو جماعة الناطوري كارتا .

إلياهو جوتماخر (١٧٩٥-١٨٧٤)

Elijah Guttmacher

حاخام صهيوني وُلد في بوزن . درس القبَّالاه وعمل كحاخام في عدة أماكن من بينها جراتز في النمسا (منذ عام ١٨٤٠ إلى تاريخ وفاته) ، حتى أن العديد من اليهود كانوا يحجون إليه . وقد كان جوتماخر من الحاخامات القلائل الذين قاموا بصهينة الفكرة المشيحانية .

رفض جوتماخر فكرة انتظار الماشيَّح ، ودعا إلى توجيه كل الجهود من أجل الإسراع بالخلاص وذلك عن طريق العمل البناء في أرض إسرائيل تمهيداً لمجيء الماشيَّح . وقد أعلن أنه "يجب على الأغنياء من شعبنا أن يشتروا الأرض في فلسطين لتوطين فقراء اليهود هناك ، فتلك المسألة هي حجر الأساس للخلاص الكامل" . وقد كانت فكرة استخدام أموال الأغنياء اليهود لتوطين فقراء اليهود في فلسطين هي الفكرة التي بُنيت عليها جمعية أحباء صهيون التي عارضت الحاخامات الأرثوذكسيين الاندماجيين .

تسفي كاليشر (١٧٩٥-١٨٧٤)
Tzvi Kalischer

حاخام بولندي روسي ، ومن أوائل دعاة الصهيونية . وُلد في مدينة لیسا ، وهي مدينة بولندية ضمتها بروسيا . ومع أن غالبية السكان كانت تتحدث البولندية ، فإن الأقلية الألمانية كانت مهيمنة . وكانت السلطات البروسية تصنف اليهود الذين يتحدثون اليديشية على أنهم ألمان لزيادة عدد الأقلية الألمانية . وكان هذا مصدر غبطة لليهود الذين كانوا ينظرون إلى ألمانيا باعتبارها وطنهم الروحي ، وقد أدَّى ذلك إلى التوتر بين اليهود والبولنديين ، ولذا فقد كانت حركات التحرير البولندية القومية تنظر إلى اليهود باعتبارهم أقلية عميلة . وكانت المقاطعة أيضاً في منطقة حدودية بين يهود ألمانيا المندمجين ويهود اليديشية ، ولذا فقد كانت حياة أعضاء الجماعة اليهودية فيها خليطاً من الحياة التقليدية السائدة في شرق أوربا والحياة اليهودية العصرية السائدة في غرب أوربا . وقد بدأت الحياة الفكرية عند كاليشر مع بدايات اليهودية الإصلاحية ، فهاجمها مدافعاً عن القيم التقليدية ، وخصوصاً فكرة الماشيَّح وأرض الميعاد .

وكتاب كاليشر **السعي لصهيون** (١٨٦٢) هو أول كتاب ظهر في شرق أوربا عن موضوع الاستيطان الزراعي وفلسطين ، وهو مكتوب بالعبرية التقليدية الجامدة .

ينطلق كاليشر من الرؤية الحلولية العضوية ، فيقترح على اليهود أن يطرحوا الفكرة الدينية التقليدية جانباً ويأخذوا بزمام الأمور . وبدلاً من الانتظار السلبي للماشيَّح عليهم أن يعودوا بأنفسهم ، فالعودة لن تتم بهجرة فجائية وخلاص إسرائيل سيأتي بأناة . والخلاص على الطريقة الحديثة سيبدأ بعودة بعض اليهود واستيطانهم الأرض المقدَّسة ، على أن يتم ذلك بدعم الأمم وبموافقتها وبدعم المحسنين من أثرياء الغرب الذي سيحاولون الحصول على براءة من السلطان العثماني . ويمكن أن تُرسَل الصدقات (حالوقاه) لليشوف (المُستوطَن الديني التقليدي في فلسطين) ، ولكن يجب أن تكون مؤسسة هدفها تشجيع الاستيطان في الأرض المقدَّسة يمولها أثرياء اليهود وتقوم بشراء المزارع والكروم وجني ثمارها .

ويثير كاليشر قضية تطبيع الشخصية اليهودية ودمج اليهود في مجتمع الأمم . فبعد الاستيطان سيتحمس المستوطنون للعمل في الأرض بأيديهم ، كما ستعمل سياسة الاستيطان على كسب احترام الأمم الأخرى لليهود ، فهم سيقولون إن أعضاء جماعة يسرائيل لديهم الإرادة أن ينقذوا أرض أجدادهم التي أصبحت قاحلة ومهجورة . ثم يطلب كاليشر في نهاية المقال من اليهود أن يقتدوا بالأغيار "لماذا يضحي شعب إيطاليا وشعوب العالم من أجل أرض آبائهم ونحن لا نعمل شيئاً ؟ لنقتد بالإيطاليين والبولونيين والمجريين [أصحاب القوميات العضوية] الذين ضحوا بكل شيء من أجل الاستقلال" .

إن الإطار هنا زماني دنيوي ، فالعودة ستتم في الزمان وستستخدم آليات زمانية لتحقيق أهداف زمانية كتطبيع اليهود ، وتحسين صورتهم ، والحصول على أرض الأجداد . ولكن كاليشر ، على طريقة الصهاينة الدينيين ، يتدارك ويضيف ديباجة إثنية دينية ، فاليهود يجب أن يكافحوا من أجل أرضهم لأن هدفهم ليس إحياء مجد الأسلاف وحسب وإنما العمل على إحياء مجد الإله الذي اختار صهيون .

ويقول كاليشر أيضاً : "إذا قدَّمنا الخلاص للأرض بهذه الطريقة الدنيوية ، فسوف تظهر لنا علامات الخلاص تدريجياً وسيسمع الإله للمستوطنين وسيسرع بيوم خلاصهم" . وقد تَوصَّل كاليشر إلى صيغة الصهيونيتين ، فقد أدرك من البداية أنه لن يهاجر سوى بعض اليهود وسيبقى الكثيرون في الخارج ، وسيقوم المحسنون الأثرياء منهم بدعم المستوطنين . بل يبدو أن كاليشر اكتشف أيضاً الديباجات العمالية إذ يقول : "وشكل الاستيطان سيكون تعاونياً إذ سيتجمع يهود من روسيا وبولندا وألمانيا [وليس من الغرب المندمج] ويتلقون أجورهم من الشركة اليهودية ويتعلمون الزراعة تحت إشراف معلمين تعينهم الشركة . وبعد أن يتعلم الفرد منهم الزراعة سيُعطَى قطعة من الأرض يزرعها وستموله الشركة وستمول العملية كلها" .

وكتاب كاليشر من الوثائق الصهيونية الأولى التي حاولت تغييب العرب . فبعد أن استوطن فلسطين ، اقترح أن يقوم المستوطنون بتنظيم جماعات حراسة تجمع بين العمل الزراعي والعسكري للدفاع عن النفس . ونجد في كتابات كاليشر الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ونجد الملامح الأساسية للديباجة الإثنية الدينية والعلمانية بل العمالية ، ولكن المشكلة الأساسية بالنسبة له (وبالنسبة لكل الرواد الصهاينة) أنهم كانوا يخلطون بين المشروع الذي يقترحونه ، وهو مشروع استعماري ، وبين مشاريع يهود الغرب لتوطين اليهود . فيهود الغرب لم يكونوا مهتمين بالمشروع الصهيوني إلا كمشروع لإنقاذ شرق أوربا والتخلص منهم . أما المضمون السياسي لهذا المشروع ، فقد كانوا يرفضونه تماماً . كما أن كاليشر لم يدرك حدود الحركة ، فأثرياء الغرب يمكنهم التوسط لدى حكوماتهم أو لدى الدولة العثمانية للإفراج عن اليهود أو رعاية

أحوالهم ، ولكنهم لم يكن في مقدورهم أن يطلبوا من حكوماتهم أن تتوسط لدى الباب العالي ليأذن لليهود باستيطان فلسطين .

وقد وقع هرتزل في هذا الخطأ في البداية ، ولكنه تدارك الأمر وطرح مشروعه على الدول الاستعمارية مباشرةً . وقد ساعدته الظروف التاريخية إذ أن الدولة العثمانية كان قد تقرَّر تقسيمها . وقد قرأ هس عن كتاب كاليشر ، بعد أن كان قد فرغ من مؤلفه ، فنوَّه بـه .

بدأ النشاط العملي عند كاليشر عام ١٨٣٦ بالكتابة إلى عميد الأثرياء اليهود في العالم (روتشيلد) في برلين ليشرح له نظريته الجديدة عن الخلاص دون انتظار الماشيَّح . وحين تأسست جمعية رعاية الاستيطان اليهودي في فلسطين في ألمانيا ، انضم إليها . وفي عام ١٨٦٤ ، كان كاليشر المسئول عن تأسيس اللجنة المركزية لاستعمار فلسطين في برلين . ثم ساهم في إقامة بعض الجمعيات الزراعية الاستيطانية ، كما ساهم في توجيه نشاط الأليانس نحو إنشاء مدرسة زراعية (مكفاه إسرائيل) في فلسطين عام ١٨٧٠ .

يهودا القلعي (١٧٩٨-١٨٧٨)

Yehudah Alkalai

حاخام ورائد من رواد الفكر الصهيوني . وُلد في سيرايفو (في البوسنة والهرسك) والتي كانت جزءاً من الدولة العثمانية آنذاك ، وفي وقت كانت فيه شبه جزيرة البلقان تمور بالصراعات القومية الحادة بين الصرب والبلغار والرومانيين . وكانت يوغسلافيا تُعَدُّ النقطة التي يلتقي فيها السفارد بالإشكناز ، وتقع داخل الدولة العثمانية على مقربة من الإمبراطورية النمساوية وكلتاهما كانت إمبراطوريات تتعدد فيها الجماعات الإثنية والدينية .

عمل حاخاماً للسفارد في زيمون ، وكان متأثراً منذ صباه بالنزعات الصوفية القبَّالية ، فكان من المؤمنين بأن عام ١٨٤٠ ، وهو عام مؤتمر لندن الذي وضع حداً لآمال محمد علي في الاستقلال ، سيكون بداية الخلاص المشيحاني . ولكن النبوءة لم تتحقق ، فاضطر إلى أن يُعدِّل من موقفه من فكرة الماشيَّح .

ولا تتسم كتابات القلعي بالتماسك أو التحدد أو التبلور ، فقد كان يكتب بالعبرية التقليدية ، وهي لغة شديدة الجمود ، كما أن إطاره الفكري كان تقليدياً إلى أقصى حد . ومع هذا ، فإن كتاباته هذه تشكل جزءاً من التراث الفكري الصهيوني في مرحلته الجنينية .

إن نقطة انطلاقه ، شأنه شأن كل الصهاينة الإثنيين الدينيين ، هي رؤية حلولية عضوية تجعل الإله يحل في الشعب والأرض ومؤسساته القومية بحيث يصبح هو مصدر التماسك العضوي بينهما . فاليهود لا يليق بهم أن يُلقَّبوا «يسرائيل» إلا إذا كانوا في أرض يسرائيل ، وبذلك تكون الرؤية الحلولية قد اقترنت بفكرة القومية العضوية السائدة في أوربا خارج إنجلترا وفرنسا .

لهذا ، لم يجد القلعي صعوبة كبيرة في المزاوجة بين الرؤية العضوية العلمانية والرؤية الحلولية الدينية . يذهب القلعي إلى أن اليهود يجب أن يتدخلوا بأنفسهم في مسار الأحداث بدلاً من انتظار عودة الماشيَّح ، ويقوموا بتحديد الطريقة المناسبة للعودة وزمانها . واستناداً إلى بعض النصوص الحلولية وطرق التأويل المختلفة مثل الجماتريا ، يقول القلعي إنه كخطوة أولى "يجب أن نعمل على إعادة اثنين وعشرين ألفاً إلى الأرض المقدَّسة . فهذه تهيئة ضرورية لحلول دلالات أخرى" . فالخلاص لا يمكن أن يتم فجأة ، والأرض يجب أن تُبنَى وتُعَدُّ وتُجهَّز بالتدريج . وحتى يضفي شرعية على رؤيته الجديدة ، فإنه يشير إلى عقيدة الماشيَّح الأول (المسيح بن يوسف) الذي سيشترك في حرب يأجوج ومأجوج وسيحاول تحرير أرض يسرائيل من الكفرة ولكنه سيَسقُط في المعركة ، وبعد هذا سيأتي الماشيَّح الثاني والنهائي (المسيح بن داود) . وهو يفسر وجود الماشيَّح الأول بأنه يعني ضرورة أن يسبق العصر المشيحاني النهائي إعداد دنيوي إنساني . ثم يضيف أنه يجب النظر لرؤية الماشيَّح بن داود على أنها مجاز ، فهي عملية ستأخذ في الأزمنة الحديثة شكل قيادة سياسية ، ولذا سيبدأ الخلاص باليهود أنفسهم ، هؤلاء الذين يجب أن يملكوا زمام أمورهم بأنفسهم ويُعجِّلوا بالنهاية (وهذا الموقف يُعَدُّ من المنظور الحاخامي التقليدي شكلاً من أشكال الهرطقة والتجديف) .

وعملية تغيير متتالية الخلاص التقليدية (الماشيَّح ـ العودة ـ الخلاص) إلى متتالية جديدة (العودة للإعداد لوصول الماشيَّح ـ الماشيَّح ـ الخلاص) هي الطريقة التي لجأت إليها الصهيونية الإثنية الدينية لصهينة أو تحديث اليهودية ، ومن ثم أصبح بإمكان الصهاينة الملحدين أن يُسمُّوا أنفسهم يهوداً إذ أنهم يشاركون في عملية الاستيطان الصهيوني التي أصبحت عملية دينية هدفها الإعداد لمقدم الماشيَّح .

وقد تَوصَّل القلعي لفكرة الصهيونيتين ، فبيَّن أن بعض اليهود الفقراء سيهاجرون إلى فلسطين (صهيونية استيطانية) وسيبقى يهود عديدون في الخارج في أرض الشتات بعض الوقت "لمساعدة المستوطنين الأوائل في فلسطين" ، أي أنه قام بتقسيم يهود العالم حسب الدور الذي سيلعبونه في الحركة الصهيونية . كما أنه تَوصَّل

إلى أهمية إدخال الصيغة الإثنية على الصيغة الصهيونية . ويواكب ذلك بعث اللغة العبرية ، فكل جالية يهودية تتكلم لغة تختلف عن الأخرى ولكل منها عادات مختلفة . وهو يرى أن العبرية يجب أن تكون أساس عملنا التعليمي بمعنى أنها ستكون لغة الدنيا لا لغة الدين كما كان يصر المتدينون .

ثم يقترح القلعي تعيين مجلس من الوجهاء أو الحكماء يأخذ شكل مجلس يهودي عالمي أو منظمة يهودية عالمية للإشراف على عملية الهجرة وللحصول على تصريح من السلطان . ويقترح أيضاً تنظيم شركة على غرار شركات التأمين وشركات السكك الحديدية لاستئجار فلسطين من السلطان . ولا شك في أن هذه الشركة ، بعد أن يعاد تسمية فلسطين باسم «إسرائيل» ، ستثير حماس يهود العالم فيساعدون هذه الشركة بكل وسيلة .

وبعد إدراك ضرورة الحصول على التأييد المالي والسياسي لمشروعه ، سافر القلعي إلى العواصم الأوربية (١٨٥١ ـ ١٨٥٢) ووجَّه النداءات إلى كبار المموِّلين اليهود أمثال مونتفيوري وأدولف كريميه ، ونشر في لندن كتيباً يحمل أفكاره وأسس فيها أيضاً جمعية استيطانية لم تُعمِّر طويلاً .

والتحق القلعي بجمعية استيطان فلسطين التي أسَّسها لورج في ألمانيا وقام بنشاط بارز في صفوفها . وفي عام ١٨٧١ ، زار فلسطين وأسَّس هناك جمعية استيطانية ما لبثت أن توقفت . ثم استقر نهائياً في فلسطين عام ١٨٧٤ . وقد قام بعض أتباعه بعد وفاته مباشرة بشراء أرض بتاح تكفا حيث أُقيمت أول مستعمرة يهودية زراعية في فلسطين . ويُلاحَظ أن القلعي تَوصَّل إلى الصيغة الصهيونية الأساسية ، وإلى معظم الديباجات الإثنية الدينية والعلمانية ، ولكن فكره لم يكن حديثاً بقدر كاف ، فلم يكتشف حتمية الاستعانة بالإمبريالية الغربية لوضع الفكرة الصهيونية موضع التنفيذ ، ولذا ، فقد تَحركَّ داخل نطاق الجماعات اليهودية وحسب ، كما توجَّه إلى أثرياء اليهود وبعض الساسة اليهود في الغرب .

صموئيل موهيليفر (١٨٢٤-١٨٩٨)

Samuel Mohilever

حاخام روسي ، وأحد مؤسسي حركة أحباء صهيون . تلقَّى ثقافة دينية . وتعمَّق في دراسة القبَّالاه والحسيدية وتواريخ الجماعات اليهودية ، كما كانت له معرفة أيضاً بالرياضيات واللغات الروسية والألمانية والبولندية . وقد اشتغل بالتجارة بعض الوقت قبل قيامه بأعماله ومهامه الدينية التي قَبلها كارهاً ، ثم ذاع صيته كعالم تلمودي . وهو من أهم المدافعين عن التعليم اليهودي وممارسة الأعمال اليدوية والزراعة . وقد ساهم موهيليفر في تنظيم الهجرة إلى فلسطين ، وأقنع كلاً من هيرش وروتشيلد بأن يساهما في تمويل ومساعدة الاستيطان اليهودي لفلسطين (التوجُّه إلى أغنياء اليهود هو دائماً الخطوة الأولى في أي عمل صهيوني) .

وقد استمر موهيليفر نشيطاً في حركة أحباء صهيون رغم علمانيتها الواضحة ، وحينما نشب الخلاف بين العلمانيين من أحباء صهيون ومناوئيهم ، عُهد إليه بأن يعمل في أوساط المتدينين ، وسمِّي مكتبه آنذاك «المركز الروحاني» ومنه جاءت كلمة «مزراحي» . وقد كان من الداعين لمؤتمر كاتوفيتش ، وحاول أكثر من مرة الاستيلاء على قيادة أحباء صهيون دون جدوى .

لم يتمكن موهيليفر من حضور المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ولكنه بعث رسالة تؤيد برنامج المؤتمر وتَوجُّهه الدبلوماسي . ويبدو أنه لم يكن يدرك أن الصهيونية قد تَحولَّت من مجرد حركة استيطانية لإنقاذ بعض اليهود إلى حركة استعمارية استيطانية ، أي جزء من المشروع الاستعماري الغربي . ولذلك ، فإن خطابه يتحدث عن ضرورة التدخل لدى الحكومة التركية " لكي تسمح لشعبنا بأن يشتري الأرض ويبني البيوت" . وهو يرى ضرورة التعاون مع العلمانيين لأن وضع اليهود يشبه حال من تلتهم النيران بيته . ولذا ، فهو يَقْبل مساعدة كل من يمد له يد العون . وقد طلب من المؤتمر تقديم الشكر "للمحسن الكبير البارون إدموند دي روتشيلد" الذي أنفق عشرة ملايين فرنك على الاستيطان . وطالب المؤتمر بألا يمس أموال الصدقة التي تُعطَى لفقراء اليهود والقدس بدافع التقوى الدينية . وهو ، بموقفه هذا ، كان يعبِّر تعبيراً دقيقاً عن مشاكل حركة أحباء صهيون التي لم تدرك قط حتمية الاعتماد على الإمبريالية الغربية لوضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ .

ولكنه ، مع هذا ، بدأ يساهم في عملية التحديث بترويض اليهودية ، فطالب بالتعاون مع اللادينيين ودعا إلى العودة للإقامة في فلسطين وشراء الأراضي وتعمير البيوت وزَرْع البساتين وفلاحة الأرض ، بل يشير إلى أن العودة إحدى الوصايا الأساسية في التوراة وأن الحكماء اعتبروا هذه العودة بمنزلة الناموس الإلهي . وقد وجد موهيليفر سنداً لرؤيته التوفيقية هذه في التلمود الذي جاء فيه أن الإله يفضل أن يعيش أبناؤه في أرضهم ، حتى ولو لم يُنفِّذوا تعاليم التوراة، على أن يعيشوا في المنفى ويُنفِّذوا تعاليمها (ولم يذكر الحاخام الصهيوني أن عكس هذا القول أيضاً ورد في التلمود) .

ويذكر في خطابه كذلك أن القومية لا تتناقض مع عقيدة

الماشيَّح ، فالماشيَّح سيأتي ويجمع إسرائيل المشتتة ليسكن أبناؤها في بلدهم بدلاً من أن يظلوا هائمين على وجه الأرض يتنقلون من مكان إلى آخر .

وقد بدأ موهيليفر تلك السلسلة الطويلة من الحاخامات الصهاينة الذين أصدروا الفتاوى لتذليل الصعاب أمام عملية الاستيطان . وحينما واجه المستوطنون اليهود مشكلة حلول السنة السبتية ، كان موهيليفر ضمن الحاخامات "التقدميين" الذين أفتوا بإباحة بيع الأرض للأغيار بيعاً صورياً حتى يتمكن اليهود من زراعتها .

موسى جلازنر (١٨٥٦-١٩٢٤)

Moses Glazner

حاخام صهيوني أرثوذكسي وأحد القادة المؤسسين لحركة مزراحي في المجر ورومانيا . هاجم الأرثوذكس بشدة في المؤتمر التأسيسي لحركة مزراحي ، كما نشر الأفكار الصهيونية بين الدوائر الأرثوذكسية ، وألَّف عدة كتب في الشريعة اليهودية .

هاجر إلى القدس عام ١٩٢٣ ليشارك في النشاطات التعاونية والتربوية لحركة مزراحي ، وتُوفي هناك عام ١٩٢٤ .

ابراهام كوك (١٨٦٥-١٩٢٤)

Abraham Kook

أهم مفكري الصهيونية الإثنية الدينية وأول حاخام أكبر لليهود الإشكناز في فلسطين . وُلد في شمال روسيا ، وتلقى تعليمه الديني في إحدى المدارس التلمودية العليا ، ثم هاجر إلى فلسطين عام ١٩٠٤ واستقر فيها . وقد تَعرَّف كوك إلى تقاليد القبَّالاه وسعى وراء تجارب الإشراق الداخلية ، والواقع أن كتاباته كلها مفعمة بروح قبَّالية وإيمان بالحلول الرباني في الشعب اليهودي . وتتلخص سيرة حياته ونشاطاته القومية الدينية في محاولة تقريب الصهيونية إلى المتدينين وتقريب المتدينين من الصهيونية .

ويأخذ كوك بالصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ويقوم بتهويدها تماماً من خلال ديباجته الدينية الصوفية الحلولية . فهو أولاً يرى أن المنفى حالة غير طبيعية ، على عكس الرؤية التقليدية التي ترى المنفى جزءاً لا يتجزأ من التجربة الدينية عند اليهود فهي أمر الإله والعقاب الذي حاق باليهود نتيجة الذنوب التي اقترفوها . وحسب تصوُّره ، لا يستطيع اليهودي أن يكون مخلصاً وصادقاً في أفكاره وعواطفه وخيالاته في أرض الشتات . فاليهودية في أرض الشتات ليس لها وجود حقيقي .

وكما هو متوقَّع ، لا يرفض كوك اليهودية التقليدية بشكل صريح ، فهو يقوم بترويضها وتحديثها وعلمنتها من الداخل من خلال الديباجات الدينية وذلك عن طريق تغليب الطبقة الحلولية داخل تركيب اليهودية الجيولوجي التراكمي وتجاهُل الطبقة التوحيدية تماماً حتى تتفق اليهودية قلباً وربما قالباً مع الصهيونية . ويطرح كوك رؤية حلولية للأمة اليهودية (حلولية بدون إله تقترب إلى حدٍّ كبير من فكرة القومية العضوية بل تترادف معها) ، فالإله يحل في الإنسان والمادة (الشعب اليهودي والأرض اليهودية) فيوحدهما في وحدة حلولية عضوية ، والقومية الدينية والدين القومي هما في واقع الأمر القومية العضوية بعد أن يحل الإله في المادة ويصبح كامناً فيها تماماً .

يؤكد كوك أن اليهود شعب ، شعب واحد ، واحد كوحدانية الكون (واحدية كونية) . ولكنه شعب من نوع خاص ، فاليهودية دين قومي وقومية دينية . ولذا ، فهو يهاجم دعاة العضوية الذين يتحدثون عن "روح الأمة" أو "روح الشعب العضوي" (بالألمانية : فولكس جايست Volksgeist ، وبالعبرية : رواح ها أما) ويقول إنهم يخدعون أنفسهم ، فما يسري في الأمة ليس قوة طبيعية عضوية وحسب ، وإنما روح الإله نفسه . ولكن كوك يهاجم أيضاً المتدينين التقليديين الذين ينادون بأن مفهوم الأمة حسب العقيدة اليهودية لا علاقة له بالتعريفات القومية العلمانية الغربية الجديدة . يُسمِّي كوك هؤلاء «الانشطاريين» ، فريق منهم يحاول إسقاط العنصر الديني تماماً ، والثاني يحاول إسقاط العنصر القومي تماماً أيضاً ، أما كوك نفسه فيزيل كل الثنائيات ويرى أن ثمة تمازجاً كاملاً بين المطلق والنسبي وبين الخالق والمخلوق وبين القومية والدين ، فكل عامل من عوامل الروح اليهودية يضم بشكل حتمي جميع جوانب نفسية الشعب اليهودي . ومن ثم ، فإن فصل القومية عن الدين تزييف لكليهما ، فثمة مادة إلهية تسري في جماعة يسرائيل تجعل روحها ملتصقة بروح الإله ، بل إن روح يسرائيل وروح الإله شيء واحد (فهما من مادة واحدة) . هذا الإله الذي يكمن داخل الشعب هو مصدر روحهم القومية . ولذا ، يجب على أعضاء هذا الشعب أن يدركوا حقيقة الإله الموجود داخلهم ، ويدركوا من ثم حقيقة قوميتهم ، فروح الإله تسري في الأرض سريانها في الشعب (وهنا يكتمل الثالوث الحلولي وهو نفسه الثالوث العضوي : الأرض والشعب والرابطة العضوية بينهما) . وكل ممتلكات اليهود القومية من أرض ولغة وتقاليد وتاريخ هي عروق تجري فيها روح الإله . ولذا ، فإن أرض إسرائيل ليست شيئاً منفصلاً عن روح الشعب

اليهودي ، إنها جزء من جوهر الوجود اليهودي القومي ومرتبطة بحياة الوجود وبكيانه الداخلي ارتباطاً حلولياً عضوياً .

والوحي المقدَّس لا يمكن أن يكون نقياً إلا في أرض إسرائيل (أما خارجها ، في المنفى ، فهو مُشوَّش ومُلوَّث وغير نقي) . فالتجسد الإلهي من خلال الشعب لا يمكن أن يتم إلا على الأرض المقدَّسة (وفي هذا عودة للوثنية القديمة وللعبادة القربانية المركزية) ، وكلما ازداد تعلُّق الشخص بأرض إسرائيل ، زادت أفكاره طهارة ، والطهارة هنا هي نتيجة التعلق بشيء مادي وهو الأرض وليس نتيجة فعل الخير .

لكل هذا ، تصبح العودة إلى الأرض المقدَّسة هي حل المسألة اليهودية ، فهذا هو مصدر تميُّز اليهودية ولا أمل ليهود المنفى إلا بإعادة زَرْع أنفسهم في فلسطين والاعتماد على ينبوع الحياة الحقيقي المقدَّس الموجود في أرض إسرائيل وحدها . وإن عاد هذا الشعب ظهرت قدسيته الحقيقية ، فهذا هو الطريق الوحيد لإعادة ولادة هذا الشعب (وهكذا يتحول الخطاب الاسترجاعي البروتستانتي والخطاب الاستيطاني الإمبريالي إلى خطاب صهيوني حلولي تجسدي) .

وكما هو الحال مع المنظومات الحلولية ، فبعد أن يتعادل المطلق والنسبي ، والكل والجزء ، والخالق والمخلوقات ، تَرجَح كفة المخلوقات المادية على الخالق ، فينسى كوك الروح الإلهية ويتحدث بدلاً من ذلك عن القومية العضوية دون أية إشارة إلى إله أو دين . ولذلك فهو يشير إلى اليهود في أرض الشتات باعتبارهم جماعة أدارت ظهورها للحياة الطبيعية ولتطوير الأحاسيس ، وأهملت كل ما له علاقة حسية بحقيقة الجسد ، ينقصها الإيمان بقدسية الأرض التي لا تختلف عن قدسية الجسد ، فأخذوا يتحللون بشكل مخيف (وليُلاحَظ أن المرجعية النهائية هنا هي الطبيعة والجسد) . والبعث القومي (الصهيوني) هو الحل ، وبعدها ستقوم الحياة الحسية (الطبيعية) مرة أخرى ، وسينشط الحلم الذي بدأ ينال منه التعب .

ولكن القداسة هنا قداسة كامنة في المادة لا تتجاوزها ، ومن ثم فهي لا تختلف عن القداسة التي يبحث عنها أهارون جوردون وغيره من الصهاينة العماليين الملحدين . ويقتبس كوك من المشناه العبارة التالية : "إن الإيمان يمكن التعبير عنه بقوة الحياة في الزرع ، فالإنسان يمكن أن يبرهن على إيمانه بالحياة الأزلية عن طريق الزراعة" . ثم ينهي كوك مقاله بعبارة دالة : "ستتحقق عودتنا فقط إذا ما رافقت عظمتنا الروحية عودة إلى الجسد من أجل جسم صحيح قوي وعضلات قوية تُغلِّف روحاً ملتهبة" . وهذا الحديث لا يختلف البتة عن حديث داروين أو نيتشه ، كما أنه لا يختلف عن الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية . وفي مثل هذه الأنساق ، تتحول وحدة الوجود إلى علمانية إلحادية صريحة .

في هذا الإطار الحلولي المادي التجسيدي ، يصبح البعث السياسي وإنشاء الدولة اليهودية هو نفسه العصر المشيحاني . ويقدم كوك تاريخاً للدولة اليهودية ولاشتراك اليهود في معترك السياسة الدولية (وهي إشكالية العجز وانعدام السيادة) ، فيلاحظ أن قوى خارجية (وليس الإله) جعلت اليهود يضطرون إلى ترك هذه الحلبة ، ولكن يبدو أن الانسحاب تم أيضاً برضاً تلقائي فقد كان العالم آثماً وقذراً ويتخلل الحياة السياسية فيه الكثير من الآثام . ولكن اليوم الذي سيصبح فيه العالم أكثر لطفاً قد دنا ، ولذا يجب على اليهود أن يهيئوا أنفسهم ليحكموا دولة خاصة بهم . ثم يعطي كوك هذه الدولة طابعاً مشيحانياً حين يقول : "إن تأمين نظام العالم الذي تمزقه الحروب اليهودية يتطلب بناء الدولة اليهودية . وجميع الحضارات ستتجدد بولادة شعبنا من جديد" . ومن الواضح أن هذه الأفكار إعادة إنتاج لفكرة مشاركة الشعب اليهودي للخالق في إصلاح الكون (تيقون) وفي استعادة الخالق لوجوده وكليته الروحية .

وبعد ترويض اليهودية على هذا النحو ، وبعد توليد الإلحاد من وحدة الوجود ، لم يَعُد من الصعب تَبنِّي الصهيونية كعقيدة ، وعقد الزواج بينها وبين اليهودية ، مع افتراض أن اليهودية الحلولية هي التي ستحقق الانتصار النهائي . وقد كان كوك على يقين من أن جيل المستوطنين الصهاينة في فلسطين هو الجيل الذي تتحدث النبوءة عنه وعن أنه ينتمي إلى عصر الماشيَّح ، وأن الرواد (بغض النظر عن علمانيتهم) كانوا ينفذون تعاليم الدين باستيطانهم الأرض في فلسطين . ولتسهيل مهمة الرواد ، حاول كوك أن يصل إلى صيغ دينية يمكن أن تتسع للمتدينين والعلمانيين ، وحاول أن يصبغ الصهيونية بالشرعية الدينية التي كانت تفتقر إليها في نظر الأرثوذكس على الأقل . وقد نادى بالتحالف مع "اللادينيين" لأنه كان على ثقة من أن جميع المستوطنين ، الديني منهم والعلماني ، سيرضخون في نهاية الأمر للصيغة الحلولية ، لأن القومية اليهودية (على حد قوله) قومية مقدَّسة لا يستطيع العلمانيون مقاومة تيارها الأساسي . كما أنه كان يرى أن كل اليهود ، ومنهم العلمانيون ، تسري فيهم روح القداسة رغماً عنهم .

وقد شرح كوك موقفه وتصوره في صورة مجازية تفسيرية شهيرة قال فيها : حينما كان الهيكل المقدَّس قائماً ، كان محظوراً على الأجانب أو حتى على أي يهودي عادي أن يدخل قدس الأقداس ، وكان الكاهن الأكبر وحده هو المُصرَّح له بالدخول مرة

واحدة في يوم الغفران . ومع هذا ، فحينما كان الهيكل في دور التشييد ، كان بإمكان أي عامل مشترك في البناء أن يدخل الحجرة الداخلية مرتدياً الملابس العادية . ومن الواضح أن الهيكل في هذا التشبيه هو الدولة الصهيونية ، والرواد هم العمال (أو لعلهم الصهاينة العماليون) ، أما الكهنة الحقيقيون فهم ولا شك اليهود الأرثوذكس الذين سيسيطرون على الهيكل بعد بنائه . ولتسهيل مهمة البناء ، حاول كوك أن يزيل المصاعب التي تقف في طريق النشاط الاستيطاني ويذللها للمستوطنين اليهود ، فأصدر فتاوى متسامحة تُسهِّل لهم الحياة في فلسطين . وعلى سبيل المثال أصدر فتوى تبيح زراعة الأرض في سنة شميطاه أو السنة السبتية على أن تباع أرض الميعاد بشكل صوري للأغيار ، كما صرَّح بلعب كرة القدم يوم السبت على أن تُباع التذاكر يوم الجمعة .

ويبدو أن كوك ، انطلاقاً من رؤيته العضوية الحلولية ، كان لا يرى مكاناً للعرب ، فهم يقفون خارج دائرة القداسة . فأثناء ثورة عام ١٩٢٩ ، اتهم كوك البريطانيين بالتقاعس عن حماية اليهود ، واتخذ موقفاً متشدِّداً أثناء المعركة التي دارت حول حائط المبكى . وكان كوك قريباً من حركة مزراحي ، ومع هذا فقد حضر مؤتمراً من مؤتمرات أجودات إسرائيل ليعرض وجهة النظر الصهيونية الدينية .

وسافر كوك إلى أوربا عام ١٩١٤ ، لكن الحرب حالت دون رجوعه فعمل حاخاماً في سويسرا ثم في لندن ، وعاد إلى فلسطين عام ١٩١٧ حيث أسَّس مدرسة تلمودية لغة الدراسة فيها هي العبرية وكان يُدرِّس فيها ما يُسمَّى «الفلسفة اليهودية» إلى جانب الشريعة اليهودية . وقد نشر كوك بحوثاً في كل جوانب المعرفة الحاخامية والتصوف اليهودي والفلسفة والشعر ، ونُشرت رسائله في عدة مجلدات ، كما أن له العديد من الفتاوى .

ويمكننا أن نقول إن اليهودية الحاخامية الأرثوذكسية تختفي تقريباً في أعمال كوك وتصبح صهيونية حلولية عضوية تطالب بضم كل أرض إسرائيل وبطرد العرب وبالحد الأقصى الصهيوني . وقد نجحت صيغته في الهيمنة على اليهودية الأرثوذكسية بحيث لم يبق سوى أقلية أرثوذكسية (الناطوري كارتا) هي التي تعارض الصهيونية .

مائير بار إيلان (برلين) (١٨٨٠-١٩٤٩)

Meir Bar Ilan (Berlin)

زعيم صهيوني ديني ، من عائلة برلين ، غيَّر اسمه بعد قيام إسرائيل فصار يُعرَف باسم «بار إيلان» . وُلد في فولوجين (روسيا) وتلقَّى تعليمه الديني هناك ، وساهم في إنشاء حركة مزراحي . وفي عام ١٩٠٥ ، شارك للمرة الأولى كمندوب في المؤتمر الصهيوني السابع . ومنذ ١٩١٠ ، استقر في برلين وأسس مجلة أسبوعية بالعبرية . وفي عام ١٩١١ ، اختير عضواً باللجنة التنفيذية لحركة مزراحي العالمية ثم سكرتيراً عاماً لها عام ١٩١٢ بعد أن افتتحت مكتبها المركزي بالعاصمة الألمانية . وأثناء الحرب العالمية الأولى ، سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهناك قام بدور بارز في النشاط الصهيوني وفي الأوساط اليهودية ، فساهم في تطوير المجموعات المحلية لمزراحي وتولى رئاسة منظمة مزراحي من عام ١٩١٦ إلى عام ١٩٢٦ حيث أصبح رئيساً شرفياً لها . وعمل بار إيلان بنشاط من خلال اللجنة اليهودية الأمريكية المشتركة للتوزيع وغيرها من المنظمات التي عملت على مساعدة اليهود من لاجئي الحرب في شرق أوربا . ثم استقر في فلسطين عام ١٩٢٦ ، وتزعَّم حركة مزراحي العالمية منذ ذلك الحين وحتى وفاته ، فيما عدا بعض الانقطاعات القصيرة . كما شغل عدة مناصب قيادية في المنظمة الصهيونية العالمية ، وكان من دعاة التشدد مع العرب والبريطانيين ، فعارض عام ١٩٣٧ المشروع البريطاني لتقسيم فلسطين ، وانسحب من مؤتمر سان جيمس بلندن عام ١٩٣٩ عندما ظهرت بوادر خطط بريطانية معارضة للصهيونية في نظره . وبعد نشر **الكتاب الأبيض** عام ١٩٣٩ ، نادى بسياسة المواجهة مع السلطات البريطانية في فلسطين ورفض أي تعاون معها . كما كان بار إيلان من أنصار الحرب على مظاهر عدم التدين بين المستوطنين الصهاينة .

وبوصفه خطيباً مُفوَّهاً ، قام بار إيلان بعدة جولات وزيارات للمراكز اليهودية في أنحاء العالم من أجل إلقاء الخطب وعقد الندوات التي تدور حول الدعوة للأفكار الصهيونية . وقد نشر عدة مقالات صحفية ، وألف عدة كتب من بينها : **من فولوجين إلى القدس** ، وهو سيرة ذاتية في جزءين ، و **معلم في إسرائيل** . وقد أسَّس بار إيلان صحيفة **هاتسوفيه** وكان أول رئيس لتحريرها . وقد أُطلق اسمه على إحدى الجامعات في إسرائيل .

صمويل لانداو (١٨٩٢-١٩٢٨)

Samuel Landau

حاخام بولندي الأصل ، وزعيم صهيوني ديني ، ومؤسِّس جماعة عمال مزراحي . نشأ في بيئة حسيدية في بولندا حيث تلقَّى تعليماً دينياً تقليدياً في المدرسة التلمودية وأصبح حاخاماً في سن الثامنة عشرة ، ثم قرأ بنفسه الكتب غير الدينية وانخرط في سلك

حركة مزراحي في بولندا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى . وكتب لانداو عدة مقالات هاجم فيها موقف اليهود الأرثوذكس السلبي من الصهيونية . وفي عام ١٩٢٦ ، هاجر إلى فلسطين حيث تابع نشاطه الصهيوني .

وينطلق لانداو من رؤية حلولية عضوية ، ولذا فإنه يشدِّد في كتاباته على أهمية الاستيطان في الأرض ، فالإقامة في الأرض المقدَّسة هي أحد الأوامر والنواهي (متسفوت) لأن القبس الإلهي لا يؤثر في الشعب اليهودي إلا وهو في أرضه ، أي أنه يدور في إطار الثالوث الحلولي العضوي (الإله ـ الأرض ـ الشعب) . وهو يُطعِّم هذه الفكرة الحلولية العضوية بفكرة العمل وزراعة الأرض وبالديباجات الصهيونية العمالية الأخرى ، ولكنه يبيِّن أنها قيَم مرتبطة في نهاية الأمر بالتوراة والوجود اليهودي المنفصل . كما أنه يشير إلى أن هذه القيم العمالية اليهودية لا علاقة لها بمسألة النظام الاقتصادي أو بالعدالة الاجتماعية وإنما ترمي إلى خلق البدايات الأولى للحياة القومية ، فالبعث القومي هو القيمة المطلقة الحاكمة وما عدا ذلك مجرد تجليات لها .



١٣
الصهيونية الإثنية العلمانية

الصهيونية الإثنية العلمانية ـ جمعية بني موسى ـ العصبة الديموقراطية ـ آحاد هعام ـ فايفل ـ سيمون ـ نامبير

الصهيونية الإثنية العلمانية

Secular Ethnic Zionism

«الصهيونية الإثنية العلمانية» هي «الصهيونية الثقافية» أو «الصهيونية الروحية» وتشير لها أحياناً بـ «الصهيونية العلمانية». وهي اتجاه صهيوني في تيار الصهيونية الإثنية ينطلق من الصيغة الصهيونية الأساسية ويهتم بقضايا الهوية والوعي ومعنى الوجود، ويرى أن المشروع الصهيوني مهما كان توجُّهه السياسي الاقتصادي لابد أن يكون ذا بُعْد إثني يهودي. ومجال الصهيونية الإثنية العلمانية هو كل يهود العالم، ولذا فهي لا تُفرِّق بين المستوطنين الصهاينة ويهود العالم. وتنادي الصهيونية الإثنية العلمانية بأن يتحول المُستوطَن الصهيوني إلى مركز لإحياء الإثنية اليهودية، وترى أن الثقافة اليهودية لا يمكن أن تستمر دون هذا المركز. وفيما يتصل بالعقيدة اليهودية، فإن الصهيونية الإثنية العلمانية ترى أنها قضت نحبها، وأن ما يمكن أن يحقق الاستمرار هو الإثنية اليهودية التي يمكن أن تصبح موضع المطلقية ومصدر القداسة. وخلفية الصهيونية الإثنية هي نفسها خلفية الصهيونية على وجه العموم من تعثُّر عملية التحديث في شرق أوربا إلى وصولها إلى طريق مغلق عام ١٨٨٠، الأمر الذي جعل استمرار حركة التنوير اليهودية صعباً. ويُضاف إلى هذا، الوضع الإثني الخاص ليهود شرق أوربا المتمثل في ثقافتهم اليديشية القديمة نوعاً ما وفي ثقافتهم العبرية الجديدة. ويضاف إلى ذلك أيضاً وضعهم الاقتصادي الوظيفي المتميِّز. كما يجب أن نضع في الاعتبار فكرة القومية العضوية والشعب العضوي (الفولك) التي أثرت في اليهود تأثيراً سلبياً عميقاً بنبذهم، وتأثيراً عميقاً إيجابياً بطرح نموذج الحركة لهم.

ويُعَدُّ المفكر اليهودي الروسي آحاد هعام أهم المفكرين في هذا التيار، كما تعد أفكاره الأفكار الأساسية لهذه المدرسة. ويمكن أن نضم إليه أليعازر بن يهودا (١٨٥٨ ـ ١٩٢٢). كما يُصنَّف مارتن بوبر (١٨٧٨ ـ ١٩٦٥) ضمن أتباع هذا الاتجاه بسبب تقديسه للشعب اليهودي، وبسبب رؤيته الحوارية الحلولية، ولاستخدامه مصطلح الفكر القومي العضوي.

وبسبب اختلاف المستويات، لا يوجد تناقض بين الصهيونية الإثنية العلمانية والتيارات الصهيونية الأخرى، كما أن الصراع لا ينشب إلا بينها وبين أتباع الصهيونية الإثنية الدينية. ويمثل فكر الصهيونية الإثنية العلمانية فريقان، أحدهما في إسرائيل والآخر خارجها. أما الفريق الإسرائيلي فيؤكد مركزية (أو أرستقراطية) الدولة الصهيونية في حياة الدياسبورا بل يتخطى أحياناً حدود الصيغة الآحاد هعامية وينادي بإلغاء أو «نفي» الدياسبورا أو اعتبارها مجرد جسر أو قنطرة. أما الفريق الثاني فهم صهيونيو الدياسبورا (الصهاينة التوطينيون في الخارج)، وهم أكثر اقتراباً من الصيغة الأصلية. وهؤلاء يرون ضرورة وجود مركز ثقافي في إسرائيل حتى يستمد التراث اليهودي أسباب الحياة والاستمرار فيدعم هويتهم اليهودية الآخذة في التآكل في مجتمعاتهم العلمانية، ولكنهم لا يرون أية ضرورة للاستيطان في إسرائيل. والمشكلة بالنسبة إليهم هي، إذن، مشكلة يهودية وليست مشكلة يهود، كما أن الدولة بالنسبة إليهم وسيلة ثقافية وليست غاية، تماماً كما كان الحال مع آحاد هعام.

والواقع أن أغلبية يهود المُستوطَن الصهيوني الساحقة (من أقصى اليمين حتى أقصى اليسار) من أتباع الصهيونية الإثنية العلمانية. وكذلك غالبية أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ممن يناصرون الصهيونية هم من أتباع هذا التيار، وخصوصاً في صياغته التي تتركهم وشأنهم في أوطانهم ولا تطلب منهم الهجرة.

جمعية بني موسى

Bene Moses

«بني موسى» تقابلها في العبرية «بني موشيه». وبني موسى جمعية صهيونية سرية (أسست على غرار المحافل الماسونية) تشكل إحدى جمعيات أحباء صهيون، أُسِّست في روسيا عام ١٨٨٩ في ٧ آذار (تاريخ مولد موسى بحسب تقاليد فلكلور بعض الجماعات اليهودية) واستمرت في نشاطها حتى عام ١٨٩٧. ويعود الفضل في تأسيسها إلى يهوشاوا بارزيلاي الذي

عاد من فلسطين وقد امتلأ استياءً من أحوال المستوطنين من الناحيتين الثقافية والإثنية ، إذ يبدو أنهم كانوا مُستوعَبين تماماً في الأعمال الاستيطانية ولم يطوروا الطابع اليهودي الإثني في المستوطنات . وتعود سرية الجمعية إلى تفكير آحاد هعام النخبوي (الذي تولّى رئاسة الجمعية) . فآحاد هعام كان متأثراً تماماً بنيتشه وإن كان الخطاب النيتشوي يكتسب مصطلحات ونبرة يهودية في حالته . ولذا ، فقد وجد أن هذا البعث الثقافي لا يمكن أن يتم إلا على يد مجموعة من الكهنة التي تكرس حياتها لتحقيق هذا الهدف سواء داخل فلسطين أو خارجها . وهذه المجموعة من الكهنة تصبح بمنزلة المرشدين للأمة بأسرها سواء داخل فلسطين (بين المستوطنين) أو خارجها لتثقيف الأجيال الصاعدة (من التوطينيين) .

وكان كل فرع من فروع الجمعية يتكون من خمسة أشخاص على الأقل ، كما كانت معرفة العبرية أحد شروط الالتحاق بالجمعية . وقد ووُجهت الجمعية بمعارضة من جانبين : الصهاينة العمليين (التسلليين) بزعامة ليلينبلوم وكانوا يرون أن الهدف المباشر والعامل الأساسي هو نقل اليهود وتوطينهم ، وتأتي الأمور الثقافية في المرتبة الثانية . أما الجانب الآخر من جماعات المعارضة ، فقد كانت تشكلها الأوساط الأرثوذكسية إذ عرَّفت الانتماء اليهودي باعتباره انتماءً إثنياً دينياً وليس إثنياً علمانياً (كما فعلت الجمعية) . وقد أسست الجمعية مدارس لتعليم العبرية وداراً للنشر في وارسو وأصدرت مجلة (عبرية) **هاشيلواح** .

وبعد تأسيس المنظمة الصهيونية ، انحلت الجمعية . ومع هذا ، فقد استمر آحاد هعام في التعبير عن فكرها وفي معارضة الصهاينة الذين رفضوا تهويد الصيغة الصهيونية الأساسية بدرجة كافية وتركوها عارية من الديباجات بحيث ظلت الحركة مجرد حركة تنقل اليهود من أوربا .

العصبة الديموقراطية
Democratic Faction

جماعة من المثقفين الصهاينة في المنظمة الصهيونية في الفترة بين ١٩٠١ و١٩٠٣ . وجدوا أن هرتزل ركَّز السلطة كلها في يده وأنه لا يهتم إلا بالأمور السياسية وحدها ، وطالبوا بتوسيع نطاق العضوية والقيادة ، كما طالبوا بالاهتمام بالجوانب الثقافية والاجتماعية . وكان معظم أعضاء هذه العصبة من الطلبة اليهود الذين جاءوا من شرق أوربا وكانوا يدرسون في ألمانيا وسويسرا . وقد تأثر هؤلاء جميعاً بآراء آحاد هعام وبصهيونيته الإثنية العلمانية وبالأفكار الديموقراطية الشائعة آنذاك . وقد كان أعضاء العصبة يدركون التحدي الذي تشكله الحركات الثورية ، ولذا فقد وجدوا أن الحركة الصهيونية لابد أن توسِّع قاعدتها الديموقراطية حتى تستجيب لهذا التحدي . وقد بدأت العصبة بعد المؤتمر الصهيوني الرابع (١٩٠٠) الذي حدث فيه التصادم بين الصهاينة الإثنيين الدينيين والصهاينة الإثنيين العلمانيين ، حيث عارض الدينيون قيام المنظمة بأي نشاط ثقافي (باعتبار أنه سيكون نشاطاً علمانياً) . وقد عقد أعضاء العصبة مؤتمراً عاماً في أبريل ١٩٠١ عشية المؤتمر الصهيوني الخامس في بازل واشترك فيه حاييم وايزمان وليو موتزكين حيث وجه المشاركون النقد لهرتزل بسبب أسلوبه التسلطي وتركيزه السلطة في دائرته الداخلية وتعامله مع الأثرياء والطبقات الحاكمة بين اليهود وغير اليهود ، كما أشاروا إلى إهمال هرتزل الجوانب العملية (الاستيطانية) والجوانب التربوية (الإثنية) في النشاط الصهيوني . وقد تحاشى هرتزل المواجهة معهم لأنه كان يدرك منذ البداية ما لا يدركونه ، وهو أن الصهيونية لن تقوم لها قائمة بالاعتماد على الجهود الذاتية وأنه لابد من الاعتماد على الإمبريالية ، ومن ثم لابد من التفاوض والسعي المستمرين ، ويتطلب هذا بالضرورة تركيز السلطة في يد شخص أو مجموعة صغيرة تتحرك بكفاءة وسرية لعقد الصفقة مع الحضارة الغربية . وفيما يتصل بالجوانب الإثنية ، فإن هرتزل لم يكن يكترث بها لأنه لم يكن يعرف عنها الكثير ، ولذا فإنه لم يمانع فيها ولم يشجعها . والواقع أن صياغته المراوغة ساعدت كثيراً على تَقبُّل الإثنية ، ولكن كان لابد من التخفف منها قليلاً في البداية حتى لا يَفزَع يهود الغرب المندمجون . وقد حاول هرتزل منع مناقشة برنامج العصبة ، ولكنه طرح البرنامج للنقاش بعد أن هدد أعضاء العصبة بالانسحاب من المؤتمر . وحينما تمت مناقشة البرنامج ، صوَّت هرتزل شخصياً لصالحه وتم تبنيه من قبَل المؤتمر . وحين نُشر البرنامج في صيف عام ١٩٠٢ ، فإنه كان يتضمن الدعوة إلى الدراسة العلمية للأحوال الطبيعية في فلسطين وإلى العمل النشيط وأن يكرس الصهاينة أنفسهم للمشروع الصهيوني بكل إخلاص ، وهي قرارات أقل ما توصف به أنها مضحكة إذ لا تمس العملية الأساسية في هذه المرحلة وهي التفاوض مع الدولة العظمى الراعية . وبعد أن عقد الصهاينة الروس مؤتمر منسك (١٩٠٢) واعترفوا بوجود تيارين لهما حقوق متساوية (أحدهما ديني والآخر علماني) ، فقدت العصبة قوتها الدافعة .

والخلاف بين هرتزل والعصبة الديموقراطية خلاف صهيوني نماذجي ، أي أنه اختلاف بين تيارات لا توجد بينها أية خلافات

حقيقية ، وتظل الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة كامنة بشكلٍ صلب في كل رؤاهم وأقوالهم .

آحاد هعام (١٨٥٦-١٩٢٧)

Ahad Ha-am

«آحاد هعام» عبارة عبرية تعني «أحد العامة» . و«آحاد هعام» هو الاسم الذي اشتهر به الكاتب الروسي (وكان يكتب بالعبرية) آشر جينزبرج . ويُعَدُّ آحاد هعام من أهم الكتّاب والمفكرين في أدب العبرية الحديث ، كما يُعَدُّ فيلسوف الصهيونية الثقافية (أي الصهيونية الاثنية العلمانية) بل المؤسس الحقيقي للفكر الصهيوني والذي خرج من تحت عباءته كل المفكرين الصهاينة ، خصوصاً العلمانيين ، ابتداءً من مارتن بوبر وانتهاءً إلى هارولد فيش . وقد نشأ آحاد هعام في عائلة حسيدية في قرية صغيرة بالقرب من كييف ، وكان أبوه عضواً في حركة حبد . تلقَّى تعليماً يهودياً تقليدياً حتى أن معلمه منعه من تعلم الألفبائية الروسية لأن هذا كان يُعَدُّ ضرباً من الهرطقة . ولكنه ، مع هذا ، التحق في نهاية الأمر بمدرسة ثانوية في روسيا . وقد دفعته دراسته الجديدة إلى هَجْر الحسيدية ، ثم تخلَّى بعد ذلك عن كل إيمان ديني وإن كان قد عبَّر عن إعجابه بالحسيدية في إحدى مقالاته ، وذلك بسبب طابعها اليهودي الإثني (أي اليهودية كفلكلور) . ولا شك في أن النزعة الحلولية المتطرفة في الحسيدية قد تركت أثرها فيه وفي بنيان فكره .

وقد استقر آحاد هعام عام ١٨٨٦ في أوديسا للعمل في التجارة ، وأوديسا إحدى المدن الجديدة التي أنشأها القياصرة على البحر الأسود بعد ضمها من الدولة العثمانية في نهاية القرن الثامن عشر وقد أصبحت مركزاً تجارياً مهماً ونشيطاً . وقد تم توطين أعضاء الجماعة اليهودية ، مع غيرهم من الروس البيض ، كعنصر استيطاني يخلق وجوداً أو كثافة سكانية روسية بيضاء ، أي أن اليهود تم توطينهم كروس ، ولذا فقد مُنحوا حقوقاً ومزايا كثيرة . وكانت أوديسا تختلف كثيراً عن جو الشتتل ، كما كانت بعيدة عن مراكز الدراسة الأرثوذكسية ، وكانت مركزاً مهماً لأدب العبرية والفكر الصهيوني في روسيا .

ثقَّف آحاد هعام نفسه بنفسه ، فدرس العلوم وقرأ أدب حركة التنوير وتعلَّم بعض اللغات الأوربية ودرس الفلسفة . فتأثر بالفلسفة الوضعية في روسيا من خلال أعمال المفكر الروسي بيساريف الذي عرَّفه على أعمال جون ستيوارت ميل . وقد تأثر كذلك بفلسفة لوك ، ولكن هربرت سبنسر (المفكر الاختزالي التبسيطي) وفلسفته العضوية الداروينية كان لهما أبعد الأثر في تفكيره ، وكان هو نفسه يَعُد سبنسر (المفكر الاختزالي التبسيطي) أقرب المفكرين إلى قلبه . كما تأثر بفلسفة نيتشه وهردر تأثراً عميقاً ، شأنه في هذا شأن كثير من المفكرين والمثقفين اليهود في عصره . ويتجلى عمق تأثر آحاد هعام بنيتشه في زعمه أن النيتشوية واليهودية صنوان .

ذهب آحاد هعام إلى أن الذي خرج من الجيتو ليس اليهود وحسب وإنما اليهودية نفسها . لقد خرجت إلى عالم حديث يمثل قوة جذب هائلة بهرت اليهود ، الأمر الذي يشكل خطراً حقيقياً على الاستمرارية اليهودية وعلى الهوية اليهودية ، كما يؤدي إلى فقدان اليهود إحساسهم بالوحدة والترابط وإلى ضعف تمسُّكهم بقيمهم وتقاليدهم .

كما خرجت اليهودية ، علاوة على ذلك ، إلى عالم مُشبَّع بالروح القومية العضوية حيث يتعيَّن على الغريب الذي يريد أن يندمج في مثل هذه الحضارة أن يطمس شخصيته وينغمس في التيار الغالب . ولذا ، فإن الاندماج حل أتى من الخارج يهدف إلى خَلْق حياة جديدة تماماً لا علاقة لها بالهوية اليهودية ، وبالتالي فإن الوحدة اليهودية ستتفتت وتنقسم اليهودية إلى أكثر من نوع واحد ، يختلف كل نوع منها باختلاف البلد الذي ينتمي إليه اليهودي . وفي الواقع ، فإن القومية العضوية ترفض الآخر حتى لو أراد الاندماج والذوبان فيها ، ولذا فإن حل الذوبان لم يكن مطروحاً أصلاً في الوسط السلافي أو الجرماني الذي كان يتحرك فيه اليهود (أي أن فكرة الشعب العضوي تُصنِّف الآخر على أنه عضو في الشعب العضوي المنبوذ ، والآخر هنا هو اليهود في المحيط الجرماني والسلافي أي في كل أوربا) .

وقد خرج اليهود واليهودية من الجيتو في لحظة كان الدين اليهودي فيها قد تحوَّل إلى عبء حقيقي ، فأهل الكتاب قد أصبحوا عبيداً للكتاب حتى أصبح عمل هذا الكتاب هو أن يُضعف كل قوى الإبداع الذاتي والعاطفي لدى اليهود ويحطمها . وتحوَّل القانون إلى قانون مكتوب جامد ، وتَوقَّف تَطوُّر اليهود ، واختفى العالم الداخلي تماماً ، وأصيب اليهود بالشلل الحضاري . ولذا ، كان السؤال هو : هل يمكن تطبيع اليهود وتحرير الروح اليهودية من أغلالها لتعود إلى الاندماج في مجرى الحياة الإنسانية دون أن تضحي بالهوية اليهودية وبالطابع الخاص لها ؟

حسب تصوُّر آحاد هعام ، تأخذ المسألة اليهودية شكلين : أحدهما في الشرق ، وثانيهما في الغرب . وقد نجحت المسألة اليهودية في الغرب في إعتاق اليهود ثم في إفقادهم هويتهم اليهودية ، كما نجحت في تعريضهم لمسألة معاداة اليهود الأمر الذي

أعاد اليهودي لعالمه اليهودي لا حباً فيه وإنما هرباً من معاداة اليهود . ولكنه عند عودته وجد العالم اليهودي ضيقاً لا يُشبع حاجاته الثقافية ، بل إن العالم اليهودي لم يَعُد جزءاً من ثقافته (فهو يهودي غير يهودي) . ولذا ، فهو يصبو إلى إنشاء دولة يهودية يستطيع أن يعيش فيها حياة تشبه حياة الأغيار التي يحبها ويحقق فيها لنفسه كل ما يريد من أشياء يراها الآن أمامه ولا يستطيع الوصول إليها . وهو إن لم يستوطنها بنفسه وبقي حيثما يكون ، فإن مجرد وجودها على الأقل سوف يرفع مكانته أينما كان ، فلن يُنظَر إليه نظرة احتقار باعتباره عبداً يعتمد على استضافة أهل البلاد له . إن الدولة اليهودية ، بل مجرد التفكير فيها ، هو شيء يشفيه من مرض نفسي هو الشعور بالضعة ، فمحور المشكلة في الغرب هو الفرد اليهودي المندمج الذي تُسبِّب له معاداة اليهود شيئاً من الإحباط والإحساس بالضعة . أما يهود الشرق فهم على عكس ذلك ، فالمشكلة بالنسبة إليهم ذات شقين : شق مادي وشق ثقافي . لكن دولة هرتزل لن تَحُل أياً من المشكلتين ، فهي لا تكترث أصلاً بالجانب الثقافي . أما فيما يتعلق بالجانب المادي ، فإن آحاد هعام كان يرى استحالة إخلاء أوربا من اليهود الفائضين ، فالدولة اليهودية لن تُوطِّن سوى قسم من اليهود في فلسطين ، وبالتالي فإن حل المشكلة حلاً كلياً أمر غير ممكن . وسيظل الاعتماد على الحلول الأخرى المطروحة ضرورياً (مثلاً : زيادة عدد المزارعين والعاملين بالمهن اليدوية من اليهود) . وفي نهاية الأمر ، فإن حل الشق المادي سيعتمد في الأساس على الحالة الاقتصادية وعلى المستوى الثقافي للأمم المختلفة التي تُوجَد فيها أقليات يهودية .

وإذا كانت الحلول المطروحة لا تُجدي ومحكوماً عليها بالفشل ، فما الحل إذن ؟ يجد آحاد هعام أن الدواء يوجد في الداء نفسه ، أي القومية العضوية بعد تهويدها . ويرى آحاد هعام أن الدين اليهودي رغم جموده الذي سقط فيه كان مهيأً أكثر من أي دين آخر لعملية التحديث ، فهو دين عقلاني جماعي يؤكد أهمية العقل والجماعة (وليس كالدين المسيحي الذي يؤكد أهمية الإيمان والفرد) . كما أن عقيدة التوحيد في نظره هي في جوهرها اكتشاف مبكر لوحدة الطبيعة ولفكرة القانون العلمي والمعرفة العلمية التي تتجاوز الإحساس المباشر . (وما يتحدث عنه آحاد هعام هو في واقع الأمر الواحدية الكونية) ، فهو يشير إلى أن الفريسيين الذين صاغوا اليهودية الحاخامية رفضوا كلاً من الأسينيين (دعاة الروح) والصدوقيين (دعاة المادة) وزاوجوا بينهما (أي وحدوا الروح والمادة وألغوا الثنائية التي تسم الأنساق التوحيدية وأحلوا محلها الواحدية الحلولية الكونية الكامنة في كلٍّ من العبادات الوثنية القديمة والعلمانية الحديثة) ، وهذا هو إنجاز يفنه الأكبر وهو أيضاً ما حفظ اليهودية على مر العصور .

لكن هذا لا يعني بطبيعة الحال العودة إلى الدين ، فآحاد هعام كان ملحداً ، وقد سماه آرثر هرتزبرج «الحاخام اللا أدري» (وهذه مفارقة لا يمكن أن يُوجَد لها مثيل في المسيحية أو في الإسلام ، ولكن التركيب الجيولوجي لليهودية يسمح بها) . وحينما ذهب آحاد هعام إلى فلسطين ورأى أحجار حائط المبكى ، لم تتحرك أية مشاعر دينية داخله ، بل وجدها رمزاً للخراب الذي حاق بالشعب اليهودي . ولم يكن الدين بالنسبة إليه سوى شكل من أشكال التعبير عن الروح القومية اليهودية الأزلية المتجسدة في التاريخ ، وهو وعاء كامن في الذات وليس مقياساً مطلقاً خارجاً عنها ، فالدين اليهودي مجموعة من الأفكار اليهودية تضرب بجذورها في الطبيعة (اليهودية) أو التاريخ (اليهودي) . ولذا ، فإن العودة تكون لهذا المطلق ولهذا المطلق وحده ، أي للذات الإثنية اليهودية مصدر الدين اليهودي والتي ستحل محله ، والتي سيخلع القداسة عليها تماماً كما فعل مفكرو ودعاة القومية العضوية في ألمانيا وشرق أوربا . وهو ، في هذا ، كان متأثراً بهيجل وهردر والمفكرين السلاف والألمان الذين كانوا يرون الإثنية مطلقاً ، وقيمة في حد ذاتها . وكما هو واضح ، فإن آحاد هعام يقف في هذا على الطرف النقيض من التراث الديني اليهودي . وعلى سبيل المثال ، فإن سعيد بن يوسف الفيومي ذكر أن اليهود شعب من أجل التوراة أو بسببها ، وبذلك جعل الشعب أداة ، أما آحاد هعام فيرى أن كل شيء أداة لتأكيد هوية الشعب حتى الدين نفسه .

ويذهب آحاد هعام إلى أن ثمة اتجاهاً عاماً نحو القومية العضوية بدأ يسود بين اليهود في شرق أوربا . فاللغة العبرية لم تَعُد اللسان المقدَّس لليهود وإنما أصبحت لغة الأدب العبري العلماني وبدأت تحل محل الدين كإطار للوحدة . وقد ساهم هو نفسه في هذا التيار وأضفى صبغة علمانية على مفاهيم دينية ، مثل الشعب المختار ، لتصبح مصطلحاً نيتشوياً يُسمَّى «السوبر أمة» أو «الأمة المتفوقة» ، التي تُعلي شأن القوة والإرادة .

وانطلاقاً من هذه المفاهيم العضوية ، طرح آحاد هعام نظريته الخاصة بما يُسمَّى «الصهيونية الثقافية» التي تهدف إلى بَعْث أو تحديث الثقافة اليهودية التقليدية حتى يمكنها التعايش مع العصر الحديث . ويمكن إنجاز ذلك من خلال إطار القومية العضوية . ولذلك ، اقترح آحاد هعام إنشاء

مركز عضوي للفولك (أو الشعب العضوي) اليهودي يمكن أن تؤكد الهوية اليهودية نفسها من خلاله على أسس عصرية . ففي فلسطين يستطيع اليهود أن يستوطنوا وأن يعملوا في شتى فروع الحياة من زراعة وأعمال يدوية إلى علوم طبيعية . ومثل هذا المركز العضوي سيصبح مع مرور الزمن مركزاً للأمة تستطيع روحها أن تظهر وتتطور من خلاله إلى أعلى درجات الكمال التي بوسعها الوصول إليها بشكل مستقل . ومن هذا المركز ستُشع الروح القومية اليهودية العضوية إلى سائر الجماعات اليهودية في العالم فتبعث فيهم حياة جديدة تُقوِّي وعيهم القومي وتُوطِّد أواصر الوحدة بينهم . ومن خلال هذا المركز ستنمو الشخصية اليهودية وستُزال منها الشوائب التي عَلقت بها نتيجة سنوات طويلة من الشتات وستُولِّد شخصية جديدة فخورة بهويتها اليهودية . لكن عملية البعث العضوي هذه لا يمكن أن تتم دفعة واحدة ، وبعملية سياسية بسيطة ، فهي عملية حضارية طويلة بطيئة بطء النمو العضوي . ولا يعترض آحاد هعام على تأسيس دولة يهودية في فلسطين تضم أغلبية يهودية ، ولكنه يرى أن الدولة ستكون تتويجاً لعملية النمو العضوية البطيئة والثمرة النهائية وليس بذرة البدء . بل إن المركز الثقافي سيؤدي إلى قيام رجال في أرض إسرائيل نفسها يستطيعون ، متى حان الوقت ، أن يؤسسوا دولة هناك ، لا تكون دولة يهود وإنما دولة يهودية بالمعنى الحلولي للكلمة ؛ دولة عبرية علمانية . والدولة في هذا الإطار ليست نهاية في ذاتها ، وإنما وسيلة للتعبير عن الذات القومية ، وهي نتاج فعل حضاري بطيء وليس انقلاباً سياسياً مفاجئاً .

وقد كان موقف آحاد هعام من الجماعات اليهودية في العالم ينبع من موقفه العضوي نفسه ، فقد رفض الحل الدبنوفي ورفض فكرة البعث اليهودي في أنحاء العالم المختلفة أينما وُجدت جماعات يهودية (مع تغيُّر مركز اليهودية من بابل إلى الأندلس إلى نيويورك) ، فمثل هذا الرأي تعددي تنوعي . وفي الوقت نفسه ، لم يأخذ آحاد هعام بالموقف الصهيوني المتطرف المبني على تصفية الجماعات ، فقد رأى أن مركزه الروحي ، ودولته اليهودية داخل الإطار العضوي ، ستعمق الوعي الإثني عند أعضاء الجماعات اليهودية وتزيد الفواصل بينهم وبين جيرانهم الأغيار .

ويثير البرنامج الثقافي عند آحاد هعام مشكلتين أساسيتين :

١ ـ فهو لم يتحدث قط عن آليات إنشاء المركز الروحي (الدولة اليهودية) ، كما لم يطرح برنامجاً سياسياً ، بل ترك المسألة غامضة . ولعله ترك هذه الأمور لدعاة الصهيونية العملية والصهيونية الاستيطانية الذين كانوا سيتكفلون بالإجراءات كافة ، وضمنها الاستيلاء على الأرض وطرد سكانها . وعلى كلٍّ كان نيتشه (وكذلك داروين) رابضاً وراء كل سطور كتاباته .

٢ ـ وهناك مشكلة الثقافة التي يطرحها : فقد رفض كل ثقافات اليهود الموجودة بالفعل ، سواء الثقافة اليديشية في شرق أوربا أو التراث السفاردي الذي كان لا يجهله . ولكن هذا أمر لم يسبب له أرقاً ، فقد كان يطرح ما سماه «الثقافة اليهودية» الخالصة بديلاً لكل هذه الثقافات المتعينة .

وقد نزل آحاد هعام إلى ميدان النشاط الصهيوني ، فانضم إلى جماعة أحباء صهيون وأصبح مفكرها الأساسي ، لكنه ما لبث أن انتقد سياسة هذه الجمعية الداعية إلى الاستيطان التسللي في فلسطين وذلك في مقال بعنوان "ليس هذا هو الطريق" . وقد عزَّز مقاله الأول بدراستين نقديتين كتبهما بعد زيارتيه لفلسطين عامي ١٨٩١ و١٨٩٣ . ومن أهم مقالاته الأخرى ، "الدولة اليهودية والمسألة اليهودية" (١٨٩٧) و"الجسد والروح" (١٩٠٤) .

ويُوجِّه آحاد هعام النقد إلى الصهيونية التسللية (التي تُسمَّى «الصهيونية العملية») التي كانت تعتمد على الصدقات والإعانات ، والتي لم تكن ذات تَوجُّه قومي عضوي ولا تهتم بالهوية الإثنية العضوية . فالمشروع الاستيطاني قد تم إفراغه من مضمونه الثقافي العضوي ، فأسقطت المثل الأعلى الصهيوني وحولته إلى مشروع رأسمالي هدفه الربح أو حولته إلى عملية إنقاذ ليهود أوربا في مرحلة التحديث المتعثر ، أي أن أهدافها عملية .

وقد اعترض آحاد هعام أيضاً على الصهيونية الدبلوماسية لدى كلٍّ من هرتزل ونوردو ، أي تلك الصهيونية التي تلجأ للقوى الإمبريالية لتساعدها على إنشاء دولة يهودية يُوطَّن فيها اليهود . فهذه الدولة ، حسب تصوُّر زعماء هذا النوع من الصهيونية ، ستنشأ بين يوم وليلة نتيجة الحصول على براءة من دولة استعمارية . وهي دولة يتحدث سكانها الإنجليزية والألمانية والفرنسية ويتصرف فيها اليهود كأغيار . ويشير آحاد هعام إلى أن صهيونية هرتزل تدعي أنها ستعيد اليهود إلى الهوية اليهودية ، ولكنها في واقع الأمر لا تكترث كثيراً بهذه الهوية ، ولذا فإن صهيونيته هي في جوهرها ضرب من ضروب صهيونية الأغيار التي ستصفي كلاً من اليهود واليهودية ، كما أن دولته تشبه دولة هيرود التي كانت دولة هيلينية فعلاً يهودية اسماً .

ويتجلى عدم اكتراث الصهاينة التسلليين والدبلوماسيين بالمضمون اليهودي للدولة التي يزمعون إنشاءها في قبولهم مشروع شرق أفريقيا واستعدادهم لأن يتحول المشروع الصهيوني إلى مشروع استعماري محض يُنفَّذ في أي مكان من العالم .

وإلى جانب هذه الاعتراضات ذات الطابع الإثني العضوي ، كانت هناك اعتراضات ذات طابع سياسي إستراتيجي . فقد أدرك آحاد هعام منذ البداية أن البرنامج الذي وضعته الصهيونية الدبلوماسية ما هو إلا ضرب من الخيال ويرتطم بالواقع قطعاً في يوم من الأيام ، وأن المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ستثور حتماً في وجه الدولة المزمع إنشاؤها . كما ذهب آحاد هعام إلى أن دويلة اليهود هذه محتوم عليها أن تتحول إلى كرة تتقاذفها الدول الكبرى وتعتمد في بقائها على أهواء الدول الأقوى منها . وقد نبه إلى أن موقع فلسطين الجغرافي ، وكذلك أهميتها الدينية بالنسبة للعالم كله ، يجعلها محط أنظار الجميع ، ويجعل من الصعب ضمان حيادها كما هو الحال مع سويسرا .

وحضر آحاد هعام المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، وهو المؤتمر الوحيد الذي حضره ، واكتشف أن كل طاقات اليهود بدأت تتجه نحو تأسيس دولة صغيرة تصبح ، مرة أخرى ، كرة قدم في أرجل جيرانها الأقوياء . ووجد أن هذا هو إحدى علامات المرض ، وليس النهوض . ولذا ، فقد جلس في أول مؤتمر صهيوني حزيناً في ليلة زفاف (على حد قوله) ، وكتب لأحد أصدقائه خطاباً يخبره فيه أنه اتضح له أن الدمار يستبق البناء : "من يعلم إن كانت هذه ليست العلامة الأخيرة لشعب يحتضر ؟" .

وقد بلغ الصراع بين دعاة البعث القومي العضوي والبعث القومي السياسي أقصاه عام ١٩٠٢ في مؤتمر منسك الذي عقده الصهاينة الروس حين اقترح آحاد هعام إقامة منظمة صهيونية ثقافية (عضوية) مستقلة . وقام آحاد هعام بالعديد من النشاطات ذات الطابع الثقافي الإثني ، فأسس مجلة **هاشيلواح** (اسم نَبْع في القدس تفيض مياهه ببطء) إشارة للعمل الثقافي المرغوب ، وترأس تحريرها بين عامي ١٨٩٦ و١٩٠٣ ، وذلك بعد أن مني ببعض الخسائر في عمله التجاري ، كما ساعد آحاد هعام في تأسيس دار أحياساف للنشر . وقد نجح ، من خلال كتاباته ، في تحرير النثر العبري من الجمود الذي اتسم به أثناء حركة التنوير .

وقد استمر آحاد هعام في تذبذبه حتى نهاية حياته ، فاستقر في لندن عام ١٩٠٨ لمدة أربعة عشر عاماً ، وعمل مندوباً عن شركة ويسوتزكي . ورغم اعتراضه على فكرة الدولة الصهيونية التي تُؤسَّس مباشرةً تحت رايات الإمبريالية الغربية ، فقد لعب دوراً مهماً في الأحداث التي أدَّت إلى صدور وعد بلفور .

وفي عام ١٩٢٢ ، استوطن آحاد هعام فلسطين (في تل أبيب) وأمضى فيها ما تبقَّى من عمره ، وذلك رغم أنه أدرك الجوانب اللا أخلاقية في عمليتي الاستيطان والإحلال الصهيونيتين . وقد كان من أوائل المفكرين الصهاينة الذين بينوا أن العرب ليسوا غائبين . وفي عام ١٩١٣ ، احتج آحاد هعام على مقاطعة العمال العرب (وهو الإجراء الذي أخذ شكلاً مؤسسياً فيما بعد من خلال الهستدروت) . وحينما قتل المستوطنون الصهاينة طفلاً عربياً (وذلك حتى يحولوا فلسطين إلى مركز عضوي للثقافة العضوية اليهودية ، وكما أسلفنا فإن مفهوم الشعب العضوي المتجذر في أرضه يؤدي إلى تحويل الآخر إلى شعب عضوي منبوذ عليه أن يترك هذه الأرض) ، وحينما أدرك أن الاستيطان الصهيوني عملية إحلالية إبادية ، كتب خطاباً مفتوحاً نُشر في جريدة **هآرتس** (٨ سبتمبر ١٩٢٢) أعرب فيه عن حزنه لارتباط اليهود بالدم ، مؤكداً أن تعاليم الرسل والأنبياء أنقذت اليهود من الدمار ، ولكن المستوطنين الصهاينة في فلسطين لا يسلكون مسلكاً يتمشى مع تلك التعاليم . وفي نهاية خطابه ، يستنكر آحاد هعام في غضب واضح : "يا إلهي أهذه هي النهاية ؟ . . . أهذا هو حلم العودة إلى صهيون : أن يُدنَّس ترابها بدم الأبرياء ؟ إن الإله قد أنزل بي العذاب إذ مد في حياتي حتى أرى بعيني رأسي أنني قد حدتُ عن جادة الصواب . . . إذا كان هذا هو الماشيَّح ، فإني لا أود أن أرى عودته !" (وهذا مثال واضح للتناقض بين منطق أو بنية الفكر وبين موقف أو قول صاحب هذا الفكر) .

وقد حُسمت كل التناقضات تماماً مع استيلاء قيادات من يهود شرق أوربا (يهود اليديشية) على المنظمة الصهيونية ، فهؤلاء كانوا يدركون أهمية الديباجات اليهودية لاستدراج الجماهير اليهودية وكسب ودهم للمشروع الصهيوني . ومع صدور وعد بلفور ، حُسمت المسألة تماماً وأصبح المشروع الصهيوني مشروعاً استعمارياً يستخدم ديباجات يهودية ، ومن ثم فقد رُئب الصدع بين الدبلوماسيين ودعاة الثقافة العضوية وبين دعاة البعث القومي السياسي المباشر والبعث القومي العضوي البطيء .

وتتكون أعمال آحاد هعام من أربعة مجلدات نُشرت تحت عنوان **في مفترق الطرق** وتحوي كل كتاباته تقريباً ، ومعظمها مقالات نُشرت في المجلات بدأ هو في جمعها عام ١٨٩٥ وانتهى منه عام ١٩١١ . كما جُمعت رسائله في أربعة أجزاء أخرى . ومع أن المستوطنين الصهاينة كرَّموه باعتباره من أهم رواد الفكر الصهيوني ، فقد كتب لدبنوف عام ١٩٢٣ يخبره عن غربته العميقة في أرض الميعاد ، وحنينه إلى لندن في أرض المنفى ، وأشار إلى هذا باعتباره "اعتلال الروح" .

برتولد فايفـــل (١٨٧٥-١٩٣٧)

Bertold Feiwel

زعيم صهيوني وُلد في مورافيا ودرس القانون في فيينا . تعرَّف إلى هرتزل (وكان أحد الذين عاونوه على تنظيم المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) . وأصبح فايفل رئيس تحرير مجلة **دي فيلت** عام ١٩٠١ ، وقد أكد في مقالاته أن الصهيونية يجب ألا تَحصرُ نفسها في النشاط الدبلوماسي ، وإنما يجب أن تعمل على تجديد الحياة الفكرية والروحية للدياسبورا (الجماعات اليهودية في العالم) . وأسَّس في العام نفسه مع آخرين ، من بينهم مارتن بوبر وليو موتزكين وحاييم وايزمان ، العصبة الديموقراطية ، وذلك إبان المؤتمر الخامس (١٩٠١) .

وأسَّس فايفل ، مع بوبر وتريتش وآخرين ، دار نشر يهودية أصدرت كتاباً عن مذبحة اليهود في كيشينيف عام ١٩٠٣ . وقد قام بترجمة عدة كتب لمؤلفين يهود من وسط أوربا ، من بينها مختارات من الشعر اليديشي نشرت بعنوان **التقويم اليديشي** ، ويُعَدُّ أول من ترجم الشعر اليديشي إلى الألمانية . ثم دخل فايفل عالم المال والبنوك . وقد أمضى فترة الحرب الأولى في سويسرا ، ثم انتقل إلى إنجلترا حيث أصبح من مستشاري وايزمان . وقد ترأس مجلس مديري الصندوق القومي (كيرين هايسود) من ١٩١٩ حتى ١٩٢١ . ولكنه استقال من منصبه بسبب المرض ثم ارتحل عام ١٩٣٣ إلى فلسطين حيث تُوفي .

ليون سيمون (١٨٨١-١٩٦٥)

Leon Simon

رجل دولة بريطاني ، وقائد صهيوني توطيني . كان من تلاميذ آحاد هعام ومن دعاة الصهيونية الإثنية العلمانية ، وهو الذي كتب **سيرة حياة آحاد هعام** وترجم أعماله إلى الإنجليزية . وكان مسئولاً عن الدعاية الصهيونية في بريطانيا . زار فلسطين عام ١٩١٨ ، واشترك في إصدار عدة صحف صهيونية في بريطانيا مع هاري ساخر ، واهتم بالجامعة العبرية . استقر في القدس منذ عام ١٩٤٦ . وبعد عام ١٩٥٣ ، غادر إسرائيل ، ثم استقر في لندن حيث تُوفي عام ١٩٦٥ .

لويـس ناميير (١٨٨٨-١٩٦٠)

Lewis Namier

صهيوني ومؤرخ بريطاني من دعاة الصهيونية الإثنية العلمانية . وُلد في جاليشيا الشرقية واستقر في إنجلترا منذ عام ١٩٠٧ . التحق بالجيش البريطاني مع اندلاع الحرب العالمية الأولى ، وعمل في قسم الدعاية بين عامي ١٩١٥ و١٩١٧ ، وفي الإعلان بين عامي ١٩١٧ و١٩١٨ ، وفي الاستخبارات بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٠ . وعُيِّن عام ١٩٢٠ محاضراً في التاريخ الحديث في أكسفورد . وقد اهتم ناميير بالدراسات التاريخية حتى عام ١٩٢٩ . وفي هذا العام ، أصبح الأمين السياسي للوكالة اليهودية وهو الموقع الذي احتفظ به حتى عام ١٩٣١ . وقد تَسنَّى له أن يعمل مع وايزمان . عاد إلى التدريس في مانشستر بين عامي ١٩٣١ و١٩٣٨ ثم أخذ إجازة بدون مرتب حتى ١٩٤٥ ليعمل مستشاراً سياسياً للمكتب التنفيذي للوكالة اليهودية في لندن . زار فلسطين وإسرائيل عدة مرات ، وقد طرح نفسه غير مرة بوصفه يهودياً قومياً . لقد كان الشعب اليهودي بالنسبة إليه أمة ، كما كان يعتبر الدين مسألة شخصية لا علاقة لها بالولاء للشعب (اليهودي) ولم يكن ناميير متديناً على الإطلاق فقد كان صهيونياً علمانياً ، وقد نال لقب فارس عام ١٩٥٢ .



١٤
الصهيونية الإقليمية

محاولات تضييق نطاق المشروع الصهيوني ـ الصهيونية الإقليمية ـ مشاريع صهيونية استيطانية خارج فلسطين ـ مشروع شرق أفريقيا ـ صهاينة صهيون ـ تشامبرلين ـ زانجويل ـ مشروع قبرص ـ تريتش ـ مشروع مدين ـ فريدمان ـ مشروع أنجولا ـ مشروع ليبيا ـ مشروع الخليج العربي (البحرين والأحساء) ـ مشروع موزمبيق ـ مشروع الكونغو ـ مشروع الأرجنتين ـ مشاريع توطينية أخرى ـ مشروع جبل أرارات ـ نواه ـ ستاينبرج

محاولات تضييق نطاق المشروع الصهيوني

Attempts at Setting Limits to the Zionise Project

في باب سابق بيَّنا أن ثمة صراعاً أساسياً بين شرق أوربا (يهود اليديشية والفائض البشري) وغربها (اليهود المندمجون) . ومع تدفُّق يهود اليديشية على وسط وغرب أوربا ، ظهر المشروع الصهيوني لتحويل سيل الهجرة ، ثم ترجم الصراع نفسه إلى الصهيونيتين : الاستيطانية والتوطينية . والصهيونية التوطينية شكل من أشكال التملص من الصهيونية عن طريق تضييق نطاقها بحيث تصبح مجرد دعم الدولة الصهيونية سياسياً واقتصادياً دون الاستيطان في فلسطين .

والصهيونية التوطينية لم تكن المحاولة الوحيدة لتضييق نطاق الصهيونية ، فهناك محاولتان أخريان : كانت الأولى تهدف إلى الإسراع بعملية تخليص أوربا من فائضها اليهودي عن طريق توطينهم في أي أرض ، دون أي اعتبار للديباجات الصهيونية . أما الثانية فكانت تهدف إلى تخفيف حدة المواجهة مع السكان الأصليين عن طريق تأسيس دولة ثنائية القومية . ويُلاحَظ أن محاولات تضييق نطاق الصهيونية كان يعني التخلي عن بعض عناصر الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة .

الصهيونية الإقليمية

Territorial Zionism

«الصهيونية الإقليمية» ضرب من ضروب الصيغة الصهيونية الأساسية قبل أن تتحوَّل إلى الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة وقبل أن تدخلها أية ديباجات إثنية أو دينية أو أيديولوجية ، فهي تذهب إلى ضرورة تهجير الفائض البشري اليهودي في أوربا إلى أي مكان في العالم حلاً للمسألة اليهودية ، فهي إذن شكل من أشكال الصهيونية التوطينية . وكان الصهاينة الإقليميون يرون اليهود عنصراً استيطانياً أبيض يُوطَّن في أي مكان ، وكانوا يرون المشروع الصهيوني مشروعاً غربياً تماماً وجزءاً لا يتجزأ من التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي الذي يرمي إلى خلق مناطق نفوذ غربية في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية يَبسُط من خلالها سيطرته الكاملة على العالم ، كما يرمي إلى خلق بقع استيطانية تستوعب الفائض البشري اليهودي . وكان العنصر الحاسم في اختيار هذا المكان أو ذاك هو مدى أهميته في سياق المصالح الاستعمارية للدولة الراعية للمشروع التوطيني . ولذا ، فإنهم لم يطالبوا بدولة يهودية مستقلة ذات سيادة ، وتركوا هذه النقطة لتقررها الدولة الراعية التي ستقوم بعملية نقل الفائض البشري . لكل هذا ، كان الصهاينة الإقليميون لا يرون ضرورة تحتم إنشاء هذا الجيب الاستيطاني اليهودي في فلسطين ، بل إن بعضهم كان يشير إلى أن فلسطين بالذات غير مناسبة بسبب وجود العرب فيها .

وقد كان دعاة المشاريع المختلفة لتوطين اليهود خارج أوربا على وعي تام باستحالة تحقيق أيٍّ من هذه المشاريع إلا إذا حظي برعاية قوة استعمارية كبرى تجد فيه فرصتها لتحقيق مصالحها الاستعمارية بشكل أو آخر ، ومن ثم كان هؤلاء الدعاة يحرصون على السعي لدى هذه القوة العظمى أو تلك لضمان أن يتم المشروع التوطيني بموافقتها وتحت رعايتها ، ولم يكن يعنيهم في كثير أو قليل أن يحظى المشروع بموافقة أعضاء الجماعات اليهودية (المادة البشرية المُستهدَفة) ممن كان يُرجَى توطينهم .

ودعاة الصهيونية الإقليمية التوطينية ، من أمثال دي هيرش وتريتش وزانجويل وأضرابهم ، هم في الغالب من اليهود غير اليهود الذين فَقَدوا هويتهم الدينية والإثنية . ولذا ، فإنهم لم يعودوا يشعرون بأي ضرورة لمسألة الحفاظ على ما يُسمَّى «الإثنية اليهودية» . كما أن يهود الغرب بيتهم كانوا يرغبون في تحويل سيل الهجرة اليهودية من بولندا وروسيا بشكل فوري لأي مكان لأنه يهز مواقعهم

الطبقية ومكانتهم الاجتماعية الجديدة ويهدد وجودهم كجزء من النخب المتميِّزة اقتصادياً وسياسياً وحضارياً في مجتمعاتهم الأوربية .

وإصرار هؤلاء الصهاينة على بقعة ما دون غيرها كان دائماً في إطار محاولتهم تأكيد ولائهم لأوطانهم ولمصالحه الاستعمارية . فزانجويل البريطاني (صاحب مشروع شرق أفريقيا) ، كان يدافع في واقع الأمر عن المصالح الإمبريالية الإنجليزية التي كانت تبحث عن مواطنين بيض لتوطينهم في جزء من الإمبراطورية . ولقد انصرف اهتمام زانجويل والإقليميين عن فلسطين لأن بريطانيا كانت قد احتلت مصر في مطلع القرن العشرين ، ولم تكن تستطيع في ظروف التوازن الدولي الدقيق أن تخطط للاستيلاء على فلسطين ، فكان اهتمامها بالمنظمة الصهيونية قائماً على رغبتها في تسخيرها لتنظيم استيطان استعماري في بعض أنحاء الإمبراطورية وحسب . ولكن بتغيُّر الأوضاع في العالم إبان الحرب العالمية الأولى ، وسنوح فرصة تقسيم ممتلكات الإمبراطورية العثمانية ، وقيام الثورة العربية التي هددت المصالح الإمبريالية البريطانية ، بُعث مشروع توطين اليهود في فلسطين ومُنح وايزمان وعد بلفور ، وتَحوَّل الإقليميون عن موقفهم وعادوا إلى صفوف المنظمة الصهيونية بعد أن كانوا قد انسحبوا منها في المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) بعد أن أصبحت مصالحها متفقة مع مصالح الإمبريالية البريطانية .

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن بنسكر في كتابه **الانعتاق الذاتي** وهرتزل في كتاب **دولة اليهود** لم يتقيدا ببقعة معينة لإقامة الدولة المقترحة . ويظهر في يوميات هرتزل أنه لم يكن يتحمس كثيراً في أواخر حياته لفكرة الدولة اليهودية في فلسطين ، خشية أن يثير هذا المكان ، المشحون بالدلالات الدينية والتاريخية ، رغبة لدى المستوطنين في العودة إلى صُوَر الحياة اليهودية التقليدية التي كانت موضع ازدراء من جانب هرتزل ، وهو الأمر الذي قد يبتعد بهم عن أساليب الحياة العلمانية "الحديثة" .

مشاريع صهيونية استيطانية خارج فلسطين

Zionist Settlement Projects outside Palestine

ظهرت مشروعات عديدة لتوطين اليهود خارج فلسطين ، وقد ظهرت هذه المشاريع مع التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي . وكان أول المشاريع التوطينية هو مشروع نونيزدا فونسيكا عام ١٦٢٥ لتأسيس مستعمرة يهودية في كوراساو ، وقد وافق مجلس هولندا على المشروع . وتم توطين اليهود في سورينام في إطار مماثل ، وقد نجحوا في تكوين جيب استيطاني شبه مستقل قضى عليه الثوار من السود والسكان الأصليين . وفي عام ١٦٥٩ ، منحت شركة الهند الغربية (الفرنسية) تصريحاً لديفيد ناسي لتأسيس مستعمرة يهودية في كايين .

وفي عام ١٧٩٠ ، اقترح كاتب بولندي توطين اليهود في أوكرانيا (التابعة لبولندا ـ وكان هذا أحد المطالب الأساسية للحركة الفرانكية) . وفي عام ١٨١٥ ، قدَّم القس البولندي شاتوفسكي اقتراحاً بأن يُوطَّن اليهود في جيب يهودي صغير في آسيا الصغرى يكون قاعدة للدولة الروسية ضد الخلافة العثمانية .

وظهرت مشروعات توطينية أخرى في الولايات المتحدة من أهمها مشروع موردكاي نواه المعروف بمشروع جبل أرارات (١٨٢٦) . وهناك مشروعات صهيونية إقليمية كثيرة مثل مشروع العريش وقبرص ومدين وأنجولا وموزمبيق والكونغو والأحساء والأرجنتين ، ولكن أهمها كان مشروع شرق أفريقيا الذي كان يهدف إلى إنشاء محمية إنجليزية يهودية في شرق أفريقيا كان من المفترض أن تكون تابعة تماماً ، على مستوى الأيديولوجية والديباجة ، اسماً وفعلاً ، للإمبراطورية البريطانية .

وقد ظهرت جماعات صهيونية إقليمية أخرى ، منها جماعة قامت في ألمانيا للاستيطان في الجزء البرتغالي من أنجولا عام ١٩٣١ ، ولكن المشروع فشل لأن الحكومة البرتغالية لم توافق عليه . وقد قُدِّم اقتراح في مؤتمر إفيان (١٩٣٨) لتوطين ١٠٠ ألف يهودي في جمهورية الدومينكان ، ولكن الصهاينة أجهضوا العملية بعد البدء فيها بالفعل . ويمكن أن نضع مشروع بيرو بيجان السوفييتي في هذا الإطار . وقد كان للنازيين في ألمانيا والفاشيين في إيطاليا مشاريعهم التوطينية خارج فلسطين . كما قامت جمعية أخرى في نيويورك وظلت باقية حتى بعد إنشاء الدولة ، وذلك لأنها لم تجرؤ على أن تترك مستقبل "الشعب اليهودي" متوقفاً على إسرائيل وحدها وذلك بسبب صغر مساحتها وموقف جيرانها المعادي منها . ولا توجد بطبيعة الحال أحزاب صهيونية إقليمية في إسرائيل . وقد أصبح مصطلح «تيريتوريال زايونيزم Territorial Zionism» يعني في الوقت الحاضر «صهيونية الأراضي» ، وهي صهيونية من يرفض الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ، ويرفض مقايضة السلام بالأرض .

مشروع شرق أفريقيا

East Africa Project

يُعرَف «مشروع شرق أفريقيا» أيضاً باسم «مشروع أوغندا» وهو الاسم الذي يُطلَق عادةً على الاقتراح الذي تقدمت به الحكومة

البريطانية عام ١٩٠٣ لليهود لتنشئ لهم مقاطعة صهيونية في شرق أفريقيا البريطانية (كينيا الآن ، وليس أوغندا كما هو شائع) في هضبة وعرة مساحتها ١٨ ألف ميل مربع ليست صالحة للزراعة .

ويبدو أن الخطأ في التسمية يعود إلى أن تشامبرلين ، أشار أثناء حديثه عن المشروع مع هرتزل إلى سكة حديد أوغندا ، فتَصوَّر هرتزل أن أوغندا هي الموقع المقترح للاستيطان . وقد تقدَّمت الحكومة البريطانية بالاقتراح في وقت تزايد فيه النشاط الاستعماري الألماني والإيطالي ، وكان الخط الحديدي الذي يربط الساحل الأفريقي وبحيرة فيكتوريا على وشك الانتهاء ، وفي وقت تزايدت فيه هجرة يهود اليديشية إلى إنجلترا . ومن ثم ، سنحت الفرصة لوضع الصيغة الصهيونية الأساسية موضع التنفيذ بتحويل المهاجرين إلى مادة استيطانية تُوطَّن داخل محمية إنجليزية تقوم بحماية الموقع الإستراتيجي الجديد . وقد عرض البريطانيون شرق أفريقيا لا فلسطين ، مكاناً للاستيطان ، لأن الدولة العثمانية كانت حليفة لبريطانيا التي قررت الحفاظ على وحدة الدولة العثمانية لتقف ضد الزحف الروسي ، أي أن تقسيم الدولة العثمانية لم يكن قد تقرَّر بعد . وقد كان المفترض أن تكون المقاطعة محمية خاضعة للتاج البريطاني يحكمها حاكم يهودي ، وكانت ستُسمَّى «فلسطين الجديدة» . وقد أعد مكتب لويد جورج براءة الشركة التي ستقوم بتنمية المنطقة . وكان هرتزل من بين الموافقين على المشروع ، كما أيده نوردو الذي وصف المشروع بأنه "ملجأ ليلي" ، وتزعَّم إسرائيل زانجويل الحركة .

وقد كتبت مجلة **جويش كرونيكل** في ذلك الوقت أن المشروع كان يحظى بتأييد اليهود الروس بدرجة تفوق كثيراً تأييد قيادتهم الصهيونية له ، كما يُلاحَظ أن المستوطنين الصهاينة في فلسطين كانوا من أشد المتحمسين للمشروع . ولكن المندوبين الروس عارضوا المشروع بشدة حينما عُرض على المؤتمر الصهيوني السادس (١٩٠٣)، وكان من المعارضين أيضاً وايزمان وأوسيشكين . وقد سُمِّي المعارضون «صهاينة صهيون» لإصرارهم على تشييد الدولة الصهيونية في صهيون نفسها ، أي فلسطين .

وقد أيَّد اليهود الأرثوذكس المشروع لأن العودة إلى فلسطين شكل من أشكال الهرطقة . وعلى عكس ما يرد دائماً في المصادر والمراجع الصهيونية ، وافق المؤتمر في نهاية الأمر على الاقتراح بأغلبية ٢٩٥ مؤيداً مقابل ١٧٨ معارضاً ، وامتنع ١٤٣ عن التصويت، فأحدث ذلك صدعاً في الحركة الصهيونية ، وحاول شاب يهودي اغتيال نوردو "الشرق أفريقي" في باريس .

وقد تشكَّلت لجنة استطلاعية مُكوَّنة من بريطاني مسيحي ومهندس روسي وصحفي سويسري (اعتنق الإسلام فيما بعد) . وحينما وصلت اللجنة ضللهم المستوطنون البيض وزودوهم بمعلومات خاطئة ، ووجهوهم إلى أراض غير صالحة ، ولذا فقد كان تقرير اللجنة غير إيجابي . وقد حُسم الصراع بأن سحبت الحكومة البريطانية اقتراحها في العام نفسه بسبب معارضة المستوطنين البريطانيين في شرق أفريقيا ، فقد أرسلوا عدة رسائل إلى الصحف والمجلات البريطانية ، من بينها برقية اتحاد المزارعين وملاك البساتين ، وأخرى من لجنة المستوطنين في نيروبي ، وعريضة من أسقف مومباسا ، يحتجون فيها على إدخال اليهود الأجانب "منحطي المنزلة" الذين سيكون لهم أثر سيئ من الناحية الأخلاقية والدينية والسياسية على القبائل الأفريقية ! وقد قام خبراء الشئون الأفريقية (وعلى رأسهم السير هاري جونسون) بشن حملة ضد المشروع ، مبينين أن هذه الأرض ثمينة مُدَّت عليها سكة حديدية . وقد تَطوَّع بعض معارضي المشروع بالإشارة إلى فلسطين كمكان منطقي للاستيطان اليهودي ! ومما هو جدير بالذكر أن بعض اليهود الاندماجيين في بريطانيا عارضوا المشروع أيضاً بسبب دلالته السياسية وبسبب تأكيده مقولة ازدواج الولاء . وحينما انعقد المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) ، رفضت كل مشروعات التوطين خارج فلسطين ، فانشق زانجويل (ومعه أربعون مندوباً) ، وأسَّس الحركة الصهيونية الإقليمية .

ويُعَدُّ مشروع شرق أفريقيا أول بلورة للمشكلة التي تواجهها الجماعات اليهودية في علاقتها بالصهاينة وهو ما يمكن صياغته في الأسئلة التالية : هل أُسِّست الدولة الصهيونية لخدمة اليهود أم أن اليهود في كل مكان هم الذين يجب وضعهم في خدمة الدولة ؟ هل الصهيونية بالفعل حركة إنقاذ ليهود أوربا وغيرهم أم رؤية أيديولوجية لا علاقة لها بإغاثة اليهود أو إنقاذهم ؟ فبينما كانت القاعدة الصهيونية نفسها في شرق أوربا ، بل المستوطنون الصهاينة أنفسهم في فلسطين ، يؤيدون مشروع أفريقيا ، كانت أقلية من الصهاينة تُصر على فلسطين دون غيرها لاعتبارات عقائدية إثنية .

وتشير التواريخ الصهيونية أن مشروع شرق أفريقيا فيه اعتراف ضمني بالهوية المستقلة للشعب اليهودي وأن المشروع كان سيؤدي إلى إنشاء دولة يهودية . ولكن هذه النقطة لم تكن موضع جدال على الإطلاق . وقد جاء في مسودة اتفاقية مشروع الاستعمار اليهودي المقدمة من قبَل الصهاينة صياغات غامضة قد يُفهَم منها أن المقصود إنشاء دولة يهودية ، فكتب أحد موظفي وزارة الخارجية البريطانية

على هامش المادة المقدمة : "إذا تَملَّك اليهود المنطقة فسيعني ذلك عملياً إعطاءهم حكماً ذاتياً محلياً كاملاً بشرط أن يبقى تحت سيطرة التاج البريطاني تماماً" . كما أشار وزير الخارجية البريطاني إلى أن انتخاب رئيس بلدية يهودي لكل مدينة هو أقصى ما يمكن إجراؤه . ولم تذكر المذكرة أي شيء عن منح الجنسية البريطانية لسكان هذه المقاطعة إذ يبدو أن وزارة الخارجية كانت قلقة من أن يستغلها اليهود الروس الذين سيستوطنون شرق أفريقيا كنقطة انطلاق وحسب ، يقفزون منها وبواسطتها إلى بريطانيا بجوازات سفر بريطانية يحصلون عليها في المستعمرة .

وقد حدَّد زانجويل بوضوح شديد الطبيعة الحقيقية لمشروع شرق أفريقيا بقوله : "إن الاستيطان الصهيوني في شرق أفريقيا سيكون وسيلة لمضاعفة عدد السكان البيض التابعين لبريطانيا هناك" .

صهاينة صهيون

Zionei Zion

«صهاينة صهيون» اصطلاح يُستخدَم للإشارة للصهاينة الذين رفضوا مشروع شرق أفريقيا وأصروا على فلسطين (صهيون) باعتبار استحالة وجود صهيونية خارج صهيون .

جوزيف تشامبرلين (١٨٣٦-١٩١٤)

Joseph Chamberlain

رجل سياسة بريطاني ، والمُنظِّر الحقيقي لمشروع شرق أفريقيا ، ومن ثم فهو صاحب أول وعد بلفوري محدد . والواقع أن جوزيف تشامبرلين هو الذي اختار لنفسه منصب وزير المستعمرات عام ١٨٩٥ وظل فيه حتى عام ١٩٠٣ ، فكانت أطول مدة لأي وزير في هذا المنصب .

وقد كان جوزيف تشامبرلين يتميَّز بسعة الخيال والقدرة على الابتكار ، وقد حاول أن يُخرج إنجلترا من عزلتها الدبلوماسية وأن يُقوِّي الإمبراطورية بحيث تصبح مهيمنة كقوة ، وأن يزيد نفوذها تجاه القوى العظمى الأخرى . ولذا ، مدَّ السكك الحديدية ، وحاول إقامة الزراعة في المستعمرات على أساس علمي ، ونظَّم إدارة الإمبراطورية ، واتجه نحو زيادة العنصر البشري الغربي بسبب ما تَصوَّره من التفوق العرْقي عند الغربيين .

وكان تشامبرلين عنصرياً حتى النخاع ، يؤمن بالنظرية الداروينية (مثل معظم أعضاء النخبة السياسية في العالم الغربي في أواخر القرن التاسع عشر) . فكان مؤمناً بأهمية العرْق ، وبأنه يُحدِّد السمات الأساسية للحضارات (أي أنه كان يؤمن بالقومية العضوية) ، ولذا فقد كان يرى ضرورة وضع السياسة الخارجية على أُسس عرْقية علمية واضحة ، وأن تستند إليها التحالفات .

كانت رؤية تشامبرلين للعرْق هرمية . وعلى قمة الهرم كان يتربع الأنجلو-ساكسون (الإنجليز والأمريكان) ، يليهم التيوتون ، أما اليهود فكانوا بطبيعة الحال في قاع الهرم . ومع هذا ، كان تشامبرلين يرى أن بعض الأجناس الدنيئة أقل دناءة من غيرها . فالهنود ، على سبيل المثال ، من الأجناس الدنيئة ، ولكنهم أقل دناءة من السود ، ولذا يمكن تطوير الزنوج وإدخال الحضارة بينهم عن طريق عنصر أجنبي وسيط ، ومن ثم تستفيد الأطراف كافة ، إذ يستفيد الغرب ويستفيد الوسيط الهندي ، بل يستفيد المواطن الأصلي الأسود نفسه! كما لاحَظ تشامبرلين أن الجو لم يكن مواتياً في كثير من المستعمرات لاستخدام الإنسان الأبيض في بناء السكك الحديدية ، ولذا تم استخدام الهنود كمادة بشرية وظيفية في بنائها . وأخيراً ، لاحَظ تشامبرلين أن العنصر الأوربي غير الإنجليزي قد لا يكون مطيعاً بالقدر الكافي ولا يمكن أن ينضوي تحت لواء الإمبراطورية البريطانية كما فعل الأفريكانز (المستوطنون البيض من أصل هولندي في جنوب أفريقيا) . وكان الوضع ، من منظور العنصر البشري الغربي، سيئاً جداً ، ولذا اكتشف تشامبرلين أن اليهود قد يكونون العنصر الذي يحل محل الهنود في عملية الاستيطان كعنصر وسيط ، فهم عنصر أوربي ولكنهم لا يسببون القلاقل مثل الأفريكانز .

وفي عام ١٩٠٢ ، دُعي هرتزل ليدلي بشهادته أمام اللجنة البريطانية للغرباء التي أُنشئت للنظر في مشكلة هجرة يهود اليديشية إلى إنجلترا . فاقترح تحويل الهجرة إلى وطن يهودي مُعترَف به قانوناً، وكان الشاهد الوحيد الذي قدَّم حلاً صهيونياً للمشكلة ، وقد ترك ذلك أثراً عميقاً في السامعين . وبعد عدة أشهر دُعي هرتزل لمقابلة تشامبرلين الذي استمع لوجهة نظره وأدرك إمكانية توظيف الشعب العضوي المنبوذ في المشاريع السياسية والإقليمية الخارجية للحكومة البريطانية ، وطرح عليهم كلاً من قبرص والعريش . ولم يكن اسم هرتزل معروفاً ، فقابل لورد لاندسدون الذي كتب تقريراً عن مشروع العريش الذي اقترحه هرتزل باعتبارها البقعة التي يمكن أن "يُلقى فيها" بيهود أوديسا والإيست إند في لندن ، ولكن كرومر رفض المشروع .

زار تشامبرلين أفريقيا عام ١٩٠٢ ، ثم استقبل هرتزل مرة أخرى وعرض عليه إنشاء مُستوطَن يهودي مستقل في شرق أفريقيا ،

وقد تم ذلك بموافقة بلفور الذي كان رئيساً للوزراء آنذاك والذي سُمِّي وعد بلفور باسمه .

إسرائيل زانجويل (١٨٦٤-١٩٢٦)

Israel Zangwill

روائي إنجليزي وزعيم الصهيونية الإقليمية . وُلد في لندن وكان على رأس النشاط الصهيوني في إنجلترا حينما زارها هرتزل واتصل به ليرتب له اجتماعاً مع قادة الأقلية اليهودية فيها . وكان زانجويل يدرك أن اليهودية ستتحوَّل إذا خرجت من الجيتو ، وأن من غير المعقول الاستمرار في الادعاء بأن الأمور ستسير على منوالها القديم . وتعالج كثير من أعماله الأدبية هذه القضية ، فكتاب **أطفال الجيتو** (١٨٩٢) هو تاريخ أسرة يهودية ، وهو في واقع الأمر تاريخ أسرته هو ، وهي رواية بانورامية تتناول شخصيات يهودية عديدة كلها تبغي الهروب من الجيتو . ومن أهم الشخصيات الشاعر بنحاس ، وهو في الواقع صورة كاريكاتورية ساخرة للشاعر نفتالي إمبر مؤلف نشيد الهاتيكفاه .

من أهم أعمال زانجويل الأخرى **أبناء الجيتو** (١٨٩٢) الذي يُصوِّر بعض الشخصيات التي يمزقها ازدواج الانتماء لعالم الجيتو اليهودي وعالم الأغيار المعاصر . والكتاب دراسات في شخصيات يهودية تترك العقيدة اليهودية ، مثل : دزرائيلي وهايني ولاسال وشبتاي تسفي . وتعالج رواية **حالمو الجيتو** (١٨٩٨) الموضوع نفسه ، فهي تزخر بشخصيات تبحث عن مهرب من الجيتو والقيم الدينية العتيقة التي تهيمن عليه . أما رواية **مآس جيتوية** (١٨٩٣) فتحكي قصة يهودي تزوج من امرأة مسيحية ولكنه لا يملك إلا أن يبقى يهودياً في الخفاء . أما روايته **ملك الشحاذين** (١٨٩٤) فتتناول اليهود السفارد في لندن قبل وصول يهود اليديشية . ومن رواياته الأخرى **كوميديات جيتوية** (١٩٠٧) .

ويتميَّز موقف زانجويل تجاه اليهود بازدواجية غريبة ، فهو من ناحية معجب إلى حدٍّ ما بالجيتو وبشخصياته ، ولكنه من ناحية أخرى يجدها شخصيات ضيقة ومائلة للذوبان في العصر الحديث ، وهو فخور ببعض الجوانب اليهودية في حياته ولكنه يشعر بالخجل تجاه البعض الآخر . ويمكن القول بأن رفضه لليهود واليهودية أكثر عمقاً بكثير من إعجابه ببعض جوانب الشخصية اليديشية .

ورفضه اليهود واليهودية يتجلى في كتابه **الدين المقبل** حيث يعبِّر عن أمله في ظهور ديانة جديدة تمزج الديانتين اليهودية والمسيحية والحضارتين العبرية والمسيحية . وله كتاب آخر ألفه في أخريات حياته هو **عقيدتي** (١٩٢٥) يطالب فيه بيهودية غير يهودية ، حتى يتم التوصل إلى عقيدة عالمية لكل البشر .

ومن أهم مسرحياته ، مسرحية **آتون الصهر** التي يتصور فيها الولايات المتحدة على أنها آتون إلهي للصهر ستذوب فيه كل أجناس أوربا وتندمج ، وتختفي فيه كل الخصوصيات ، وضمن ذلك الخصوصية اليهودية . ومن أهم آليات الصهر ، الزواج المُختلَط (وقد كان زانجويل نفسه متزوجاً من مسيحية) . فكأن الولايات المتحدة هي الترجمة التاريخية النهائية لمثُل عصر الاستنارة التي ستريح الإنسان من عبء التاريخ وتريح اليهود من عبء الهوية . وقد صدرت لزانجويل عدة روايات أخرى ليس لها علاقة كبيرة بالموضوع اليهودي مثل **السيد** (١٨٩٥) وهي قصة صبي مهاجر من كندا ينجح في أن يصبح فناناً شهيراً ، وله أيضاً **عباءة إلياهو** (١٩٠٠) عن أحداث حرب البوير .

وموقف زانجويل يشبه تماماً موقف هرتزل ونوردو ويهود غرب أوربا عامة ، وهو أن اليهود واليهودية يمثلان بالنسبة له مشكلة تتطلب حلاً لا انتماءً إيجابياً يرحب به المرء . وقد ترجم هذا الموقف نفسه إلى صهيونية توطينية ، فقام زانجويل بتقديم هرتزل لاجتماع المكابيين عام ١٨٩٦ في لندن ، وذهب إلى فلسطين عام ١٨٩٧ وحضر المؤتمر الصهيوني الأول في العام نفسه . ولكن توطينية زانجويل كانت عميقة جداً ، ورغبته في التخلص من الفائض اليهودي كانت متبلورة ، ولذا فقد ألقى بكل ثقله خلف مشروع شرق أفريقيا الذي وصفه بأنه سيكون وسيلة لمضاعفة عدد السكان البيض التابعين لبريطانيا . فالاستعمار الاستيطاني بالنسبة إليه يشبه الزواج المُختلَط ، وسيلة للتخلص من اليهود ولتذويبهم في التشكيل الحضاري الغربي . ولذا ، حين رفض المؤتمر السابع (١٩٠٥) المشروع ، انشق زانجويل على المنظمة الصهيونية وأسَّس المنظمة الصهيونية الإقليمية التي كانت تهدف إلى تأسيس إقليم يهودي (ليس بالضرورة في فلسطين) بهدف إنقاذ وإغاثة اليهود خارج أية تصورات قومية يهودية . وقد تحرك زانجويل بحماس في إطار صهيونيته التوطينية ، فطلب العون من أثرياء الغرب المندمجين (لورد روتشيلد ويعقوب شيف) وحاول توطين بعض المهاجرين اليهود ، ولكنه لم ينجح إلا في توطين بضع عائلات في تكساس . وحينما أعلن وعد بلفور ، أصبح زانجويل من كبار المتحمسين له . والواقع أن هذا الوعد جعل المشروع الصهيوني جزءاً من التشكيل الحضاري أو على وجه الدقة التشكيل الإمبريالي الغربي . وطالب زانجويل بتفريغ فلسطين من سكانها في أسرع وقت ، فهو مثل نوردو وجابوتنسكي في عجلة من

أمره ويتمنى اختفاء اليهود حتى يستأنف حياته في غرب أوربا كمواطن عادي . وقد وجَّه زانجويل النقد اللاذع للحكومة البريطانية لفشلها في تنفيذ ما جاء في الوعد بسرعة . ولكنه ، مع هذا ، عاد واكتشف حقيقة الموقف في فلسطين ، ووجد أن المشروع الصهيوني سيرتطم بالسكان الأصليين . ولهذا ، فقد عاد مرة أخرى للحل الإقليمي .

من أهم كتبه التي تضم مقالاته **صوت القدس** (١٩٢٠) ، **خُطب ومقالات وخطابات** (١٩٣٧) ، لكن هذه الكتابات نُشرت بعد موته . وقد قام زانجويل بترجمة أعمال ابن جبيرول من العبرية إلى الإنجليزية .

مشروع قبرص

Cyprus Project

انطلقت الدعوة الأولى لتوطين اليهود في قبرص في عام ١٨٧٨ ، عندما فرضت بريطانيا سيطرتها على الجزيرة رغم إبقائها ، من الناحية الاسمية ، تابعة للدولة العثمانية . فقد نشرت صحيفة **الجويش كرونيكل** آنذاك مقالاً أبرزت فيه المزايا التي تتمتع بها قبرص والتي تجعلها مكاناً ملائماً لتوطين اليهود يكون بمنزلة قاعدة تحظى بالحماية البريطانية .

ومع تزايد حدة النزاع بين بريطانيا والدولة العثمانية حول الجزيرة عام ١٨٩٥ ، ارتفعت في بريطانيا أصوات تدعو إلى إنشاء كيان يهودي في قبرص يكون خاضعاً للحماية البريطانية وخادماً للمصالح الاستعمارية البريطانية في البحر الأبيض المتوسط . ولقيت هذه الدعوة قبولاً لدى الداعية الصهيوني ديفيز تريتش ، الذي سعى إلى عرض الفكرة في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ثم في المؤتمر الثاني (١٨٩٨) ، ولكن هرتزل ، الذي كان متحمساً للمشروع من حيث المبدأ ، نصحه بالتريث حتى تحين فرصة مواتية للبدء في الخطوات العملية ، وأشار عليه بعرض الأمر على جمعية الاستعمار اليهودي ، التي لم تتحمس هي الأخرى للمشروع . إلا أن ذلك لم يثن تريتش عن مسعاه ، فطرح الفكرة مجدداً في المؤتمر الصهيوني الثالث (١٨٩٩) ، حيث قوبلت بمعارضة شديدة ، على أساس أن الانشغال بتوطين اليهود في قبرص قد يعرقل مشاريع الاستيطان في فلسطين . أما هرتزل فلم يجاهر بتأييده للمشروع خوفاً من استفزاز حركة أحباء صهيون ، التي كانت تصر على الاستيطان في فلسطين .

وكان من شأن هذه المعارضة أن تدفع تريتش إلى الاعتماد على جهوده الشخصية ، فألف في برلين عام ١٨٩٩ لجنة لرعاية المشروع كان من بين أعضائها ديفيد ولفسون وأوتو واربورج ، وسافر في العام نفسه إلى قبرص لدراسة الأوضاع هناك ، كما قدَّم مذكرة بالمشروع إلى المندوب السامي البريطاني في الجزيرة ، ركز فيها على المكاسب التي ستجنيها بريطانيا سياسياً واقتصادياً من وراء دعمها للمشروع والدور الذي سيقوم به المستوطنون اليهود في خدمة المصالح البريطانية في منطقة شرق البحر المتوسط .

وفي عام ١٩٠٠ ، نجح تريتش ، بالتعاون مع جمعية الاستعمار اليهودي ، وصندوق الائتمان اليهودي للاستعمار ، في تهجير نحو ٢٥٠ من اليهود الرومانيين والروس إلى قبرص . ولكنهم لم يَطُل بهم المقام هناك ، فسرعان ما سرى التذمر في صفوفهم نظراً لغياب التجانس بينهم وإحساسهم بأنهم أصبحوا أشبه ما يكونون بالعبيد في ظل نظام السخرة الذي فرضه عليهم تريتش دون أدنى اعتبار لآدميتهم أو لتقاليدهم الدينية أو الثقافية ، وهو ما جعلهم يفضلون العودة إلى ديارهم والعدول عن الاستيطان في قبرص . وأثار فشل المحاولة عاصفة من الهجوم على تريتش حيث اتهمه خصومه بالتغرير بالمهاجرين اليهود لتحقيق مآرب شخصية والإقدام على مغامرة غير مدروسة .

إلا أن هذا الفشل لم يقض على المشروع تماماً . ففي عام ١٩٠١ ، طُرحت مجدداً فكرة توطين بعض اليهود في قبرص ، وجاءت المبادرة هذه المرة من جانب هرتزل ، الذي كان يرقب باهتمام مساعي تريتش دون أن يورط نفسه في تأييدها أو معارضتها علناً ، ولكنه وجد فرصة سانحة بعد ما سرت شائعات عن أن بريطانيا تنوي التخلي لألمانيا عن قبرص مقابل الحصول على بعض المستعمرات الألمانية في شرق أفريقيا ، فسارع بإجراء اتصالات مع الحكومة الألمانية لإقناعها بالمنافع التي ستعود عليها من جراء توطين اليهود في قبرص ، حيث إن المستوطنين سيوفرون لألمانيا قاعدة للتوسع الاستعماري في المنطقة العربية ، وسيضمنون تأمين الطريق إلى مستعمراتها في آسيا ، فضلاً عن استعدادهم للقيام بعمليات عسكرية للدفاع عن المصالح الألمانية إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

ولكن هرتزل لم يلبث أن تراجع عن هذا العرض بعدما تبين أن بريطانيا لن تتخلى عن قبرص ، فاتجه بمساعيه مرة أخرى إلى الحكومة البريطانية التي حرص دائماً على إبقاء الأبواب مواربة معها ، وأسفرت هذه المساعي عن عقد اجتماع في عام ١٩٠٢ بينه وبين جوزيف تشامبرلين ، وزير المستعمرات البريطاني آنذاك ، نوقشت خلاله خطط توطين اليهود في قبرص أو العريش . إلا أن الوزير البريطاني أبدى تَخوُّفه من أن الاستيطان اليهودي في قبرص قد يثير

حفيظة سكان الجزيرة ، وأغلبهم مسيحيون أرثوذكس ذوو أصول يونانية ، وهو الأمر الذي قد يُفجِّر بدوره مشاكل مع كل من اليونان، التي تربطها بسكان الجزيرة وشائج قومية وتاريخية ، وروسيا التي تُعَدُّ كنيستها الأرثوذكسية المرجع الروحي لهؤلاء السكان . وقد ألمح تشامبرلين إلى أن حكومته لا تقبل إحلال اليهود محل سكان مسيحيين لهم ارتباطات وثيقة بالعالم الأوربي ، واقترح بدلاً من ذلك أن يكون توطين اليهود في "بقعة أخرى من الممتلكات البريطانية لا يوجد بها سكان مسيحيون بيض" . ولا تخلو هذه النظرة العنصرية الصريحة من مغزى ، فإذا كان فقراء اليهود في أوربا يشكلون فائضاً بشرياً ينبغي التخلص منه بتهجيره ، فإن هذه العملية ينبغي ألا تتم على حساب أحد أطراف العالم الأوربي "الحديث" ، بل يلزم البحث عن كبش فداء من الشعوب الأخرى "المتخلفة" لكي تُصدَّر إليه أزمات أوربا .

ورغم أن بريطانيا رفضت عرض هرتزل ، إلا أن الاتصالات بين هرتزل وتشامبرلين شجعت تريتش على إحياء مشروعه ، فبادر في مطلع عام ١٩٠٣ إلى السعي لدى المندوب السامي البريطاني في قبرص للموافقة على توطين بعض اليهود في الجزيرة ، ولكن بريطانيا كررت رفضها وأكدت مجدداً أن أقصى ما يمكن قبوله هو السماح لليهود بشراء مساحات محددة من الأراضي في قبرص ، على أن يتم ذلك بشكل فردي وبرضا سكان الجزيرة ، وهو ما دفع تريتش ، والحركة الصهيونية عموماً ، إلى صرف الأنظار عن مشروع توطين اليهود في قبرص .

ديفيز تريتش (١٨٧٠-١٩٣٥)

Davis Trietsch

صهيوني توطيني إقليمي . وُلد في درسدن بألمانيا ، وهاجر إلى نيويورك في الثالثة والعشرين من عمره ، وأقام بالولايات المتحدة الأمريكية حتى عام ١٨٩٩ حيث حصل على الجنسية الأمريكية . ثم انتقل إلى ألمانيا وساهم بحماس في الأنشطة الصهيونية ، فشارك منذ عام ١٩٠١ في تحرير المجلة الشهيرة **الشرق والغرب** التي كانت تُعنَى بقضايا اليهودية المعاصرة . وأتاح له مارتن بوبر ـ من خلال رئاسته لصحيفة **دي فيلت** ـ فرصة التعبير عن آرائه ومشاريعه . كما ساهم مع بوبر وآخرين في تأسيس دار نشر صهيونية في برلين عام ١٩٠٢ .

اشترك تريتش في المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، وارتبط اسمه بجهوده الكبيرة في هذا المؤتمر وفي المؤتمرات التالية ، لحمل الحركة الصهيونية على تبنِّي مشروع قبرص الذي كان قد بدأ الدعوة له منذ عام ١٨٩٥ حيث رأى فيه مقدمة لتحقيق هدفه الأعظم وهو مشروع فلسطين الكبرى التي تضم قبرص والعريش فضلاً عن فلسطين . كما دعا تريتش لتعديل برنامج بازل وتوسيعه ليتمشى مع مفهومه الخاص عن هدف الصهيونية ، ولكنه قوبل بمعارضة شديدة، وهو ما دعاه إلى مواصلة مساعيه اعتماداً على جهوده الشخصية .

وعلى الصعيد النظري ، كرس تريتش عدداً كبيراً من المقالات والدراسات لبسط مشروع فلسطين الكبرى . وعلى الصعيد العملي، سعى تريتش إلى عرض مشروع توطين اليهود في قبرص على الحكومة البريطانية التي لم تُبد حماساً كبيراً في ذلك الوقت ، فاتجه إلى طلب المعونة من أثرياء اليهود ، أمثال البارون دي هيرش ، وجمعية الاستعمار اليهودي وصندوق الائتمان اليهودي للاستعمار، ولكنه لم يلق استجابة تُذكَر . ورغم أنه نجح عام ١٩٠٠ في تهجير حوالي ٢٥٠ من يهود روسيا ورومانيا إلى قبرص . إلا أن المحاولة لم تلبث أن منيت بفشل ذريع ، نظراً لعدم تجانس المهاجرين وإحجام بريطانيا وأثرياء اليهود عن دعم المشروع ، وهو ما عرَّض تريتش لهجوم عنيف حدا به إلى الابتعاد عن الساحة السياسية والانصراف إلى العمل الصحفي بل التنصل من مسئولية المغامرة الفاشلة .

ولكنه بادر عام ١٩٠٣ ، بالتعاون مع فرانز أوبنهايمر ، بتأسيس الشركة اليهودية لاستعمار الشرق في برلين . كما أسَّس مع نوسيج مجلة **فلسطين** لتكون لسان حال الشركة . كما واصل ، من جهة أخرى ، اتصالاته بالمسئولين البريطانيين لإقناعهم بتبنِّي مشروع استيطان قبرص ، إلا أن بريطانيا رفضت المشروع خوفاً من إثارة مشاعر المواطنين في قبرص .

وفي عام ١٩٠٥ ، أسَّس تريتش مكتب معلومات الهجرة في يافا لجمع المعلومات عن الهجرة اليهودية والمناطق الملائمة للاستيطان، إلا أنه لم يستمر طويلاً في عمله هذا . وفي عام ١٩٠٦ ، سافر إلى العريش ضمن بعثة شكَّلها لاكتشاف المنطقة ودراسة إمكانية توطين اليهود فيها تمهيداً للتفاوض من جديد مع الحكومة البريطانية للحصول على دعمها وتأييدها للمشروع ، ولكن جهوده هذه آلت هي الأخرى إلى الفشل .

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى ، عمل تريتش في قسم الإحصاء في الجيش الألماني . وفي عام ١٩١٥ ، نشر عدة كتيبات تدعو إلى تعزيز التعاون بين ألمانيا والحركة الصهيونية ، وكان من شأن دعوة كتلك أن تُصعِّد حملة الهجوم عليه من جانب خصومه في الحركة الصهيونية الذين كانوا يرون بريطانيا الحليف الأساسي للحركة .

وقد ظل تريتش حتى نهاية حياته متمسكاً بآرائه الرامية إلى التعجيل بتهجير أعداد كبيرة من اليهود إلى فلسطين وإقامة مشاريع صناعية هناك بدلاً من المشاريع الزراعية التي كانت تنفذها المنظمة الصهيونية ، وذلك لوضع أسس صلبة لقيام فلسطين الكبرى .

ويُعتبَر تريتش مثالاً واضحاً للصهيوني التوطيني الذي كان يرغب في حل مشاكل إخوانه اليهود . وعلى حد تعبيره ، فإن "على الأغنياء من اليهود أن يبحثوا عن مكان ليستقر فيه إخوانهم الفقراء" . وهو ينطلق أساساً من خوفه من موجات هجرة اليهود الفقراء والعمال إلى موطنه الذي اختاره للاندماج ، وبالتالي من خوفه من تَفَجُّر موجة عداء ضد اليهود قد تؤثر فيه هو شخصياً ، فكأن صهيونيته دفاع عن اندماجيته الحقيقية . والواقع أن تريتش لم يفكر قط في الاستقرار في أي من مشاريعه . كذلك لا يمكن إغفال دافع الربح ، فقد كان تريتش صهيونياً نفعياً يرى مشاريعه الصهيونية وسيلة لكسب المال وزيادة ثروته . ومن ثم ، كان تركيزه على أن يكون اليهود والمستوطنون من العمال القادرين .

مشروع مدين

Midian Project

في سياق تطبيق الصيغة الصهيونية الأساسية المتمثلة في حل ما يُسمَّى «المسألة اليهودية» عن طريق نقل اليهود إلى بقعة خارج أوربا لإقامة دولة يهودية فيها تحت رعاية إحدى القوى الاستعمارية ، سعى الرحالة الصهيوني بول فريدمان إلى البحث عن بلاد ضئيلة السكان لتكون مسرحاً لعملية الاستيطان اليهودي ، واختار لهذا الغرض ما يُسمَّى «إقليم مدين» الواقع شمال غربي الجزيرة العربية ، والمتاخم لمدينة العقبة الأردنية ، وعمل على الاتصال بالزعماء اليهود والحاخامات والشخصيات البارزة لتدعيم المشروع . كما تقرَّب إلى جمعية قديما والجمعية الأنجلو يهودية وجمعية الأليانس في باريس وفيينا ، وحاول استمالة البارون دي هيرش لتمويل المشروع . ومن ناحية أخرى ، سعى فريدمان إلى توفير مظلة دولية لمشروعه فقابل اللورد كرومر في لندن عام ١٨٨٩ وأكد له الأخير أن الحكومة البريطانية لن تعرقل خطواته .

وفي عام ١٨٩٠ ، قام بزيارة مصر لدراسة أوضاع أرض مدين والحصول على موافقة الحكومة المصرية على المشروع حيث كان الإقليم خاضعاً لإشراف حاكم مصري في السويس . وبعد عودته إلى برلين ، نشر عام ١٨٩١ كتيباً بعنوان **أرض مدين** وصف فيه أحوال الإقليم واقتصادياته وطبيعة السكان والمناخ ، وعدَّد مزايا الاستيطان اليهودي في تلك الأرض التي زعم أنها كانت في الماضي جزءاً من المملكة اليهودية القديمة . وعمل فريدمان على إرسال الكتيب إلى عدد من السياسيين ورجال الدولة في أوربا لحثهم على ممارسة نفوذهم لإقناع أكبر عدد من اليهود بالهجرة إلى مدين .

وفي عام ١٨٩١ أيضاً ، بدأ فريدمان جهوده العملية لتحويل المشروع إلى واقع ، فقام بتجنيد عدد من اليهود الروس في فرقة عسكرية لتكون نواة لجيش المستوطنين . وابتاع يختاً بحرياً أطلق عليه اسم «إسرائيل» ، وأبحر في نوفمبر من العام نفسه مع المجندين المسلحين الذين بلغ عددهم نحو خمسين شخصاً بالإضافة إلى بحارة اليخت التسعة ، وكان معظم هؤلاء من أعضاء حركة أحباء صهيون .

وما أن وصل فريدمان وجيشه إلى مدين حتى بدأت المشاكل ، إذ ظهرت معارضة شديدة في أوساط الحركة الصهيونية . وفي الوقت نفسه ، اندلع التمرد في صفوف المستوطنين من جراء النظام الصارم الذي فرضه فريدمان . وازدادت حدة الغضب بعد العثور على جثة أحد المستوطنين ملقاة في الصحراء ، فجرى طرد المتمردين من الفرقة ، حيث تاهوا في الصحراء ولقي بعضهم حتفه . وفي آخر الأمر ، لم يتبق من الأتباع سوى تسعة أشخاص . ومع ذلك ، كان يحلو لفريدمان أن يرتدي الزي العسكري ويضع على رأسه التاج الذهبي ويزين صدره بالأوسمة والنياشين ممثلاً دور ملك اليهود في مدين (!) . وتضاعفت المشاكل عندما قرَّرت الحكومة الروسية مقاضاة فريدمان أمام محكمة قنصلية ألمانيا في القاهرة بتهمة التسبب في وفاة أحد رعاياها خلال هذه المغامرة . وقد لجأ فريدمان إزاء ذلك كله إلى محاولة تجنيد بعض اليهود المصريين وإغراء بعض الجنود السودانيين ، إلا أن محاولته لم تُحقِّق نجاحاً يُذكَر . وفي نهاية الأمر ، تدخلت الحكومة العثمانية لتضع حداً للمغامرة الاستعمارية إذ تحسَّست الخطر من هذا المشروع الذي يتم تحت الحماية البريطانية . وهكذا تحركت قوة عسكرية تركية لطرده من الإقليم . وقد فشلت مساعيه لتحريض السكان على القتال ضد الأتراك ، كما فشلت المساعي البريطانية لحمل تركيا على الانسحاب . وطُلب من فريدمان مغادرة البلاد فعاد إلى برلين عام ١٨٩٥ .

وقد زاد فشل المغامرة من هجوم الحركة الصهيونية على فريدمان . والملاحَظ أن هذه الانتقادات انصبت على شخص فريدمان ولم تتعرض لعملية الاستيطان نفسها أو لفكرة اغتصاب أرض يملكها الغير . وكان هؤلاء المعارضون هم أنفسهم الذين أعطوا هرتزل فيما بعد كل تأييدهم حين بدأ الدعوة لمغامرة مماثلة تهدف لاستعمار فلسطين وإقامة "الوطن القومي اليهودي" على أرضها .

بـول فريدمـان (١٨٤٠-١٩٠٠)

Paul Friedmann

صهيوني توطيني . وُلد في ألمانيا لعائلة يهودية كان أحد أفرادها زعيماً للطائفة اليهودية في برلين . وقد اعتنق المذهب البروتستانتي حيناً ، ولكنه عاد إلى اعتناق اليهودية مرة أخرى . قام برحلات متعددة إلى العواصم الأوربية ، واهتم بأحوال أعضاء الجماعات اليهودية في هذه البلدان ولا سيما اليهود الروس ، وتوصَّل إلى الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ومؤداها أن حل ما يُسمَّى المسألة اليهودية لن يتم إلا عن طريق نقل اليهود (باعتبارهم شعباً عضوياً منبوذاً) إلى بقعة خارج أوربا لإقامة دولة يهودية فيها تحت رعاية دولة غربية . ثم مضى إلى أبعد من ذلك ، فقاد في عام ١٨٩١ مغامرة لتوطين عدد من اليهود الروس في «إقليم مدين» الواقع على الشاطئ الغربي لشبه الجزيرة العربية وإقامة دولة يهودية هناك ، فيما عرف باسم «مشروع مدين» . إلا أن المغامرة مُنيت بالفشل الذريع نظراً لمعارضة الدولة العثمانية للمشروع خوفاً من عواقبه الوخيمة على مصالحها ، وإحجام زعماء الحركة الصهيونية والأثرياء اليهود عن دعم المشروع لتشككهم في جديته ، فضلاً عن انفراط عقد المستوطنين أنفسهم من جراء النظام الصارم الذي فرضه فريدمان عليهم ، وهو ما أدَّى إلى مصرع بعضهم ، وكذلك إلى عدم اقتناعهم بشخصية فريدمان نفسه الذي كان يَغلب عليه الإحساس بجنون العظمة .

والواقع أن بول فريدمان يشبه لورانس أوليفانت في كثير من النواحي ، فكلاهما يدور داخل نطاق الفكر الاسترجاعي بعد علمنته تماماً وبعد أن تحوَّل المشروع الاسترجاعي شبه الديني إلى مشروع استيطاني علماني تماماً . وكلاهما صهيوني عملي لا يَقنَع بالتوصُّل للصيغ النظرية وإنما يحاول وضعها موضع التطبيق . وكلاهما يسعى إلى تجنيد المادة البشرية اليهودية (اليديشية) التي كانت لا تزال تفتقد القيادة اليهودية وإدراك حقيقة الإمبريالية الغربية كظاهرة عالمية .

مشـروع انجـولا

Angola Project

بعد فشل مشروع الاستيطان اليهودي في ليبيا ، إثر وقوعها في قبضة الاستعمار الإيطالي ، تطلعت المنظمة الصهيونية الإقليمية إلى مناطق أخرى تَصلُح لتوطين اليهود فيها وسعت للبحث عن قوة استعمارية كبرى تتولَّى توفير الحماية والرعاية لمشاريع الاستيطان . وفي عام ١٩١٢ ، اقترح إسرائيل زانجويل على الحكومة البرتغالية توطين عدد من يهود روسيا وأوربا الشرقية في مستعمرة أنجولا ، ووافق البرلمان البرتغالي على الاقتراح بالإجماع ، إذ رأى فيه فرصة لتوطيد النفوذ الاستعماري في تلك المنطقة التي كان المستوطنون البرتغاليون يحجمون عن الاستقرار فيها رغم أهميتها الحيوية بحكم موقعها المجاور لمناطق النفوذ الألماني والبريطاني . ولكن البرلمان اشترط أن يتوافد المستوطنون اليهود فرادى وليس جماعات ، وأن تظل الحكومة البرتغالية صاحبة اليد العليا في كل ما يتعلق بأمور المنطقة .

وفي عام ١٩١٣ ، أوفدت المنظمة الصهيونية الإقليمية بعثة من الخبراء إلى أنجولا لدراسة الأوضاع فيها ومدى قدرة المستعمرة على استيعاب مستوطنين يهود . وأعدت البعثة تقريراً لعرضه على المؤتمر العام للمنظمة الذي كان مقرراً عقده في سويسرا في عام ١٩١٤ ، إلا أن اندلاع الحرب العالمية الأولى أدَّى إلى إرجاء المؤتمر ، كما أدَّت التطورات اللاحقة على الصعيد العالمي إلى صرف النظر عن المشروع برمته .

مشروع ليبيـا

Libya Project

يرجع الاهتمام الصهيوني بتوطين اليهود في ليبيا إلى مطلع القرن العشرين ، عندما اكتشف هرتزل ما كانت تبيته إيطاليا من نوايا استعمارية إزاء ليبيا ، في إطار مساعيها للحصول على نصيب من تركة الدولة العثمانية في شمال أفريقيا وإيجاد موضع لقدمها هناك ، وبخاصة بعد سقوط تونس والجزائر في قبضة الاستعمار الفرنسي عامي ١٨٣٠ و١٨٨١ ، ثم وقوع مصر تحت الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢ .

وبادر هرتزل عام ١٩٠٤ بتقديم اقتراح إلى ملك إيطاليا ، يرمي إلى تهجير عدد من يهود شرق أوربا إلى طرابلس الغرب لكي يقيموا فيها حكماً ذاتياً في "ظل القوانين والمؤسسات الليبرالية الإيطالية" . وأفاض هرتزل ، كدأبه مع زعماء القوى الاستعمارية الكبرى ، في ذكر المنافع التي ستعود على إيطاليا من جراء هذا المشروع والخدمات التي يمكن أن تؤديها الحركة الصهيونية لإيطاليا ، إلا أن الملك الإيطالي آثر عدم الاستجابة للاقتراح خشية افتضاح أمر الأطماع الإيطالية في ليبيا وما يمكن أن يسببه هذا من مشاكل مع بريطانيا وفرنسا والدولة العثمانية ، فرد على هرتزل بما يفيد عدم قدرة إيطاليا على تقديم الدعم للمنظمة الصهيونية العالمية في هذا الصدد ، واحتج بأن "طرابلس الغرب وطن للآخرين" ولا سلطان لإيطاليا عليها .

وفي أعقاب وفاة هرتزل ، جددت المنظمة الصهيونية الإقليمية بزعامة إسرائيل زانجويل مشروع توطين اليهود في ليبيا . ففي عام ١٩٠٦ أوفد زانجويل لجنة من الخبراء الصهاينة إلى طرابلس الغرب لبحث إمكانية توطين اليهود هناك . وعادت اللجنة بانطباعات إيجابية ضمنتها تقريرها إلى زانجويل الذي أشارت فيه إلى استعداد السلطات العثمانية في ليبيا لقبول فكرة إنشاء مستوطنات يهودية في منطقة الجبل الأخضر بولاية برقة . وفي الوقت نفسه ، أوعزت الحكومة البريطانية إلى قنصلها العام في مدينة تونس ، السير هاري جونستون ، بأن يقترح على زانجويل فكرة إنشاء وطن قومي لليهود في منطقة الجبل الأخضر وإرسال بعثة لدراسة أحوال المنطقة ، مؤكداً له استعداد والي ليبيا العثماني رجب باشا (١٩٠٤ ـ ١٩٠٩) لتقديم سائر التسهيلات لأعضاء البعثة .

وكانت بريطانيا ترمي من وراء ذلك إلى إيجاد قوة تستطيع مواجهة خطر التدخل الإيطالي المحتمل في ليبيا ، بينما وجد الوالي العثماني في الاستيطان اليهودي فرصة لتحسين الأوضاع الاقتصادية السيئة في ليبيا . أما المنظمة الصهيونية الإقليمية ، فقد نظرت إلى اقتراح توطين اليهود في برقة بوصفه مشروعاً مربحاً من الوجوه كافة ، فهو أولاً مشروع يحظى بتأييد اثنتين من القوى الكبرى ، وهما بريطانيا والدولة العثمانية ، وهو ما يضمن له الحماية والتمويل اللازمين لنجاحه . كما أن المنطقة المقترحة للاستيطان في برقة تكاد تخلو من السكان الأصليين ، وهو ما يجعل غلبة النفوذ اليهودي فيها أمراً يسيراً ، وذلك عن طريق جلب أعداد كبيرة من اليهود إلى المنطقة وإجبار السكان الأصليين على الهجرة باتجاه الصحراء ، وخصوصاً أن المنطقة تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وهو ما يُسهِّل عملية جلب اليهود من روسيا ورومانيا . وفضلاً عن هذا ، من الممكن على المستوى الدعائي إيجاد ذرائع لجذب اليهود إلى الاستقرار في برقة حيث كانت هذه المنطقة مأوى لعدد كبير من اليهود في عصر الإسكندر المقدوني والبطالمة . ثم إن هذه العناصر مجتمعة تجعل المشروع أمراً ممكناً على عكس مشاريع الاستيطان الأخرى التي كانت مطروحة آنذاك ، مثل مشروع قبرص ومشروع أوغندا .

وقد سعت المنظمة الصهيونية الإقليمية ، منذ البداية ، إلى تقديم نفسها بوصفها الحارس لمصالح الدولة العثمانية في المنطقة وأبدت استعدادها للقيام "بكل ما فيه خير البلاد العثمانية" ، فعرضت أن يَحصُل المستوطنون اليهود على الجنسية العثمانية وأن يقوموا بدفع ما يلزم من ضرائب ورسوم بشكل جماعي ، وأن تتولى المنظمة إقامة ميناء على الساحل الليبي وإنشاء سكة حديدية وتأسيس ملاحة ، على أن تعمل هذه المؤسسات جميعها تحت سيطرة الدولة العثمانية وفي خدمتها .

وفي عام ١٩٠٨ ، أوفدت المنظمة بعثة من الخبراء الصهاينة إلى طرابلس الغرب حيث التقى أعضاؤها بالوالي العثماني الذي رحب بهم وكلف أحد معاونيه بمصاحبتهم إلى برقة لتذليل أية صعوبات قد تواجههم . وأمضت البعثة ثلاثة أسابيع في برقة أجرت خلالها أبحاثاً مكثفة تركزت على أوضاع المنطقة ومواردها المائية وفرص إقامة مشاريع زراعية بها . وأدرجت البعثة خلاصة بحوثها تلك في تقرير صدر في مطلع عام ١٩٠٩ وأطلق عليه اسم **الكتاب الأزرق** تضمن عدداً من المقترحات العملية التي تهدف إلى توفير احتياجات المنطقة من المياه ، وإنشاء شبكة مواصلات حديثة تربط برقة بغيرها من مدن ليبيا ، وتنظيم الاستيطان اليهودي هناك . وشدد التقرير على ضرورة تحاشي كل ما من شأنه إحراج السلطات العثمانية الراعية للمشروع أو تعكير صفو العلاقات معها ، فاقترح أن يتم جلب اليهود على مراحل وبأعداد صغيرة في أول الأمر ، وعدم المطالبة بالحكم الذاتي منذ البداية . بيد أن الأوضاع العالمية آنذاك سارت على غير ما كان يشتهي واضعو المشروع . فقد شهد عام ١٩٠٩ وقوع انقلاب في الدولة العثمانية أطاح بالسلطان عبد الحميد الثاني ودفع الدولة إلى دوامة من الصراعات والمشاكل الداخلية الحادة التي شغلتها عن الاهتمام بمشروع الاستيطان اليهودي ، فضلاً عن وفاة والي ليبيا العثماني الذي كان من مؤيدي المشروع . وزاد الموقف تعقيداً إقدام إيطاليا عام ١٩١١ على غزو ليبيا واحتلالها ، ولم يلبث العالم بأسره أن اندفع في غمار الحرب العالمية الأولى ، وكان من شأن هذا كله أن يؤدي إلى القضاء على المشروع في مهده .

مشروع الخليج العربي (البحرين والأحساء)
Arab Gulf Project (Al-Bahrain and Al-Ahsaa)

طُرح هذا المشروع عام ١٩١٧ في سياق رسالة وجهها إلى الحكومة البريطانية طبيب يهودي روسي مقيم في باريس ، ويُدعَى م . ل . روتشتاين ، حيث اقترح إقامة دولة يهودية في الجزء الشمالي من منطقة الخليج العربي تشمل البحرين والأحساء ، وذلك عن طريق تشكيل جيش يهودي قوامه ٣٠ ألف مقاتل يتم اختيارهم من شباب اليهود في شرق أوربا ، ويتخذ من البحرين قاعدة له ، وتتولَّى بريطانيا بالتعاون مع حليفتيها فرنسا وروسيا تدريب الجيش وإمداده بالعتاد والأموال والمستشارين العسكريين الأكفاء ، بالقدر الذي يؤهله للانقضاض على منطقة الإحساء وفرض السيطرة عليها وإقامة

نواة الدولة اليهودية فيها . وشدد روثشتاين على ضرورة إعداد الجيش في سرية تامة دون أن يعلم أحد حتى أفراده بحقيقة المهام المنوطة به ، وأن ينهض بتسيير أمور الدولة المقترحة مَجْمَع من الحاخامات .

ولم يدخر روثشتاين وسعاً في إبداء فروض الطاعة والولاء لبريطانيا ، فأشار إلى أن الجيش اليهودي المقترح سيتولى حماية منطقة الخليج من أي خطر يتهددها ، سواءٌ تمثَّل ذلك في شكل هجمات عسكرية تشنها الدولة العثمانية أو ألمانيا أو تمثَّل في شكل ثورات يقوم بها سكان المنطقة العرب ، وعرض روثشتاين استعداد الجيش للمشاركة في القتال خلال الحرب العالمية الأولى إلى جانب بريطانيا وحلفائها والنهوض بأية مهمة توكل إليه . كما أكد أن قيام هذه الدولة يضمن لبريطانيا ولاء يهود العالم أجمع ويهود الدولة العثمانية وألمانيا على وجه الخصوص بحيث يكون هؤلاء عملاء مخلصين يسعون إلى تفتيت جبهة الأعداء من الداخل . وأوضح روثشتاين في الختام أن نفقات إعداد الجيش اليهودي تُعتبَر ديناً تلتزم الدولة اليهودية بسداده فور قيامها وأنه يتعهد شخصياً بذلك .

ورغم هذه الإغراءات المثيرة ، قوبل المشروع بالرفض التام من جانب بريطانيا ، حيث ساق إدوين مونتاجو ، وزير شئون المستعمرات في الحكومة البريطانية الذي كُلِّف بدراسة الموضوع ، عدداً من الاعتبارات التي تدفع بريطانيا إلى عدم تحبيذ الفكرة ، من بينها أن توطين اليهود في منطقة الجزيرة العربية لن يكون موضع ترحيب من جانب السكان العرب ، وهو ما قد يؤدي إلى إثارة مشاكل معقدة لبريطانيا ، فضلاً عن عدم ملاءمة الأماكن المقترحة لإقامة الدولة ، حيث كانت البحرين خاضعة للنفوذ البريطاني ومرتبطة بمعاهدة معها منذ عام ١٨٢٠ . كما كانت الأحساء منذ عام ١٩١٣ تحت سيطرة عبد العزيز بن سعود أمير نجد الذي بادر عام ١٩١٥ بعقد معاهدة تَحالُف مع بريطانيا تعهدت بمقتضاها بحماية بلاده في حالة تعرضها لأي هجوم خارجي .

إلا أن هذه الاعتبارات التي أفصحت عنها بريطانيا كانت تخفي أسباباً أعمق للرفض . فقد أدَّت تطورات الحرب العالمية الأولى آنذاك إلى تفتيت الدولة العثمانية وإبعاد خطر الغزو الألماني عن المنطقة ، ومن ثم فَقَد مشروع الاستيطان اليهودي أحد مبرراته الأساسية ، حيث لم تَعُد بريطانيا في حاجة إلى حارس لمصالحها في المنطقة بعد أن أحكمت هي سيطرتها عليها . كما أن بريطانيا كانت تتوجس خيفة من مغبة الاستعانة بفرنسا وروسيا في تدريب الجيش اليهودي المقترح ، وهو ما قد يؤدي إلى فتح أبواب المنطقة للمنافسة الاستعمارية من جديد . وفضلاً عن هذا وذاك ، فقد كان اهتمام بريطانيا آنذاك منصباً على فلسطين بوصفها مكاناً مقترحاً لإقامة "وطن قومي" لليهود يكون قاعدة استعمارية في تلك المنطقة الحيوية ، وهو ما تمثَّل في صدور وعد بلفور في نوفمبر ١٩١٧ ، والذي كان إعلاناً حاسماً صَرَف النظر نهائياً عن مشروع روثشتاين .

مشـــروع موزمبيـــق

Mozambique Project

بينما كانت المشاريع الصهيونية الرامية إلى توطين اليهود في العريش أو شرق أفريقيا تواجه صعوبات جمة ، كان هرتزل يسعى بدأب للبحث عن مناطق أخرى للاستيطان من خلال عرض خدمات الحركة الصهيونية على القوى الاستعمارية المختلفة لضمان تأييدها للمشروع الصهيوني . ففي عام ١٩٠٣ أجرى هرتزل اتصالات مع رئيس وزراء النمسا ، عن طريق صديقه وليام هشلر ، بغية التوسط لدى الحكومة البرتغالية للسماح بتوطين اليهود في موزمبيق ، وبالفعل عقد هرتزل اجتماعاً مع السفير البرتغالي في فيينا عرض خلاله اقتراحاً بإنشاء شركة استثمارية يهودية تعمل على مساعدة البرتغال في التغلب على أزمتها الاقتصادية وتلتزم بتقديم معونة سنوية لها مقابل حصولها على حق استثمار أراضي موزمبيق وتوطين أعداد من يهود شرق أوربا فيها .

ورغم حدة الضائقة المالية التي كانت تعاني منها البرتغال آنذاك ، فقد آثرت تجاهل الاقتراح خوفاً من عواقب التورط علناً في مشاريع مشتركة مع المنظمة الصهيونية العالمية التي كانت تربطها علاقة وثيقة ببريطانيا ، وهي إحدى القوى الكبرى المنافسة للبرتغال في مجال الاستعمار .

ومن الواضح أن هرتزل لم يكن ينظر إلى مشروع موزمبيق إلا بوصفه إحدى الأوراق التي يمكن استخدامها لحث بريطانيا على تقديم مزيد من الدعم لمخططات الاستيطان الأخرى في قبرص والعريش على المدى القريب ، ولمخطط إقامة دولة يهودية في فلسطين على المدى البعيد . فقد ألمح هرتزل في مذكراته ، في معرض حديثه عن مشروع موزمبيق ، إلى اعتزامه التنازل عنها للحكومة البريطانية نظير "الحصول" على شبه جزيرة سيناء بأكملها مع مياه النيل صيفاً وشتاءً، وربما معها قبرص ، "وذلك كله بلا مقابل" .

مشروع الكونغو

Congo Project

في إطار مساعي المنظمة الصهيونية العالمية لتنفيذ مشاريع الاستيطان اليهودي في ظل حماية إحدى القوى الاستعمارية الكبرى ، وبعد تعثُّر مشاريع التوطين في العريش وشرق أفريقيا وأنجولا وغيرها ، بادر هرتزل في يوليه عام ١٩٠٣ بإجراء اتصالات مع فرانتز فيليبسون ، وهو مستثمر يهودي بلجيكي كان يمتلك احتكارات كبيرة في الكونغو ، بغرض استمالته لتأييد فكرة إقامة دولة يهودية في الكونغو والتوسط لدى ملك بلجيكا لكي تتبنَّى بلاده المشروع . وكعادته في المفاوضات مع قادة القوى الاستعمارية الكبرى ، عرض هرتزل أن تقوم المنظمة الصهيونية العالمية بدفع "جزية سنوية للحكومة البلجيكية" والمشاركة في تخفيف أعبائها المالية مقابل السماح بتوطين عدد من اليهود في الكونغو واستثمار خيرات المنطقة في إطار حكم ذاتي يخضع لإشراف بلجيكا .

ورغم حماس فيليبسون لمشاريع الاستيطان اليهودي عموماً ، إلا أنه رفض اقتراح هرتزل وأحجم عن القيام بأي دور في هذ الصدد . ويرجع ذلك ، فيما يبدو ، إلى تخوفه من أن يؤدي قدوم مستثمرين يهود إلى بروز منافسة تؤثر على مصالحه الواسعة في الكونغو .

مشروع الأرجنتين

Argentina Project

وقع الاختيار على الأرجنتين لتكون البقعة التي تقام عليها أول مستوطنة يهودية في سياق جهود جمعية الاستيطان اليهودي (إيكا) التي أسَّسها المموِّل اليهودي البارون دي هيرش من أجل إعادة توطين يهود أوربا الشرقية في أماكن شتى من القارتين الأمريكيتين ، وتحويلهم إلى قطاع اقتصادي منتج من خلال تعليمهم الزراعة والحرف المختلفة .

وقد بدأ المشروع عام ١٨٩١ بشراء حوالي ٧٥٠ ألف هكتار من أراضي الأرجنتين ، وجلب ما يقرب من ٣٥٠٠ أسرة يهودية للاستيطان هناك ، مع إمدادهم بالآلات الزراعية والخبراء اللازمين لتدريبهم . وأوكلت إلى الكولونيل جولد سميد مهمة الإشراف على تلك المستعمرات اليهودية ، رغم أنه لم يكن يُخفي تحفُّظه على مشاريع توطين اليهود خارج فلسطين ، وكان ينظر إليها بوصفها مجرد خطوات تمهيدية لإقامة الدولة اليهودية على أرض فلسطين .

وقد مرت هذه المستوطنات بفترات من الازدهار ، ولا سيما في عقد الثلاثينيات الذي بلغ فيه الاستيطان اليهودي في الأرجنتين ذروته ، حيث كان هناك حوالي ٢٠ ألف مستوطن يزرعون حوالي ٥٠٠ ألف هكتار من الأراضي الزراعية . إلا أن العقود التالية شهدت تدهور أوضاع المستوطنات نتيجة نقص مساحات الأراضي الصالحة للزراعة وسوء إدارة ممثلي جمعية إيكا وتزايد أعباء الديون على المستوطنين ، وهو ما دفع أغلبهم إلى هجرة المستعمرات والاتجاه إلى الاستقرار في المدن الأرجنتينية الكبرى .

مشاريع توطينية أخرى

Other Settlement Projects

إلى جانب مشاريع التوطين الرئيسية ، مثل تلك التي استهدفت قبرص والعريش وشرق أفريقيا والأرجنتين ، تعدَّدت المساعي الصهيونية ، قبيل عقد المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، وفي أعقابه ، من أجل توطين اليهود في بقاع شتى تحت حماية هذه القوى الاستعمارية أو تلك .

ففي عام ١٨٩١ ، وجَّه ماكس بودنهايمر نداء إلى أثرياء اليهود لإنشاء شركة تعمل على توطين يهود شرق أوربا في منطقة سهل البقاع في شمال لبنان . وقد أدرك بودنهايمر مدى اهتمام بريطانيا بهذه المنطقة ، فتوجه إليها طالباً توفير الدعم والتأييد لهذا المشروع مقابل قيام المستوطنين اليهود بحماية مصالح بريطانيا الحيوية وتأمين مواصلاتها المؤدية إلى مستعمراتها في الهند . ولكن بريطانيا لم تُلق بالاً للمشروع خشية أن يؤدي إلى مواجهة لا مبرر لها مع الدولة العثمانية .

وفي عام ١٨٩٣ ، قام هنري دي أفيجدور بمحاولة أخرى لشراء مساحات من الأراضي في منطقة حوران لتكون قاعدة للاستيطان اليهودي ، ولكن المحاولة مُنيت بالفشل نتيجة معارضة الدولة العثمانية وعدم تحمُّس الزعماء اليهود بالتالي لمشروع لا يحظى بحماية قوة كبرى .

وفي العام نفسه ، قدَّم أفيجدور التماساً إلى السلطان عبد الحميد نيابة عن جمعية أحباء صهيون ، للسماح بتوطين اليهود في منطقة شرق الأردن ، وذلك بعد أن قامت السلطات العثمانية بمنع أعضاء الجمعية من شراء الأراضي في فلسطين أو الاستقرار فيها بشكل دائم . وفي الوقت نفسه ، قام العلامة بوهلندورف ، وهو صهيوني ألماني ، بوضع خطة لتجميع أكبر عدد ممكن من اليهود في شرق الأردن للاستقرار فيها وشن غارات منظمة على سكان المنطقة لحملهم على الرحيل تمهيداً لوضع أساس دولة يهودية هناك . إلا أن

هذه المحاولات الثلاث لم تحظ بقبول الدولة العثمانية التي كانت تساورها مخاوف عميقة من عواقب توطين اليهود في المحيط العربي وما قد يجره ذلك من صراعات لا طائل من ورائها .

ومع تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية ، تسارعت وتيرة المساعي التوطينية الصهيونية وتعدَّدت وجهاتها . فخلال عامي ١٩٠٣ و١٩٠٤ ، حاول هرتزل إقناع السلطان العثماني ، عن طريق مستشاره ، بالموافقة على توطين عدد من اليهود في جنوب العراق ، مقابل ضخ الحركة الصهيونية في خدمة مصالح الدولة العثمانية والمساهمة في حل أزمتها المالية . إلا أن السلطان رفض فكرة الاستيطان الجماعي ، لما يمكن أن تجره من عواقب وخيمة على علاقات الدولة ببريطانيا والعرب على حدٍّ سواء ، ولكنه أبدى موافقته على الاستيطان اليهودي بشكل فردي وفي مناطق مختلفة داخل العراق أو خارجها بشرط حصول المستوطنين على الجنسية العثمانية ، الأمر الذي لم يلق ترحيباً في أوساط الصهاينة الذين كانوا يتطلعون إلى إقامة دولة يهودية وليس مجرد توطين عدة أفراد .

وفي عام ١٩٠٥ ، واصل ديفيز تريتش محاولاته الاستيطانية، بعد فشل مشروعي قبرص والعريش ، فطلب من السلطان العثماني السماح لليهود بالاستيطان في القطاع الساحلي من منطقة أضنه الذي يتاخم الشاطئ السوري . بيد أن السلطان العثماني رفض الفكرة استناداً للمبررات نفسها التي دفعته إلى رفض مشروع جنوب العراق ، وهو ما حدا بتريتش إلى التفكير في جزيرة رودس ، التي كانت تبدو بقعة ملائمة للمشروع الصهيوني نظراً لموقعها على الطريق البحري بين شرق أوربا وفلسطين ، فضلاً عن وجود حوالي خمسة آلاف يهودي في تلك الجزيرة من مجموع سكانها الذي كان يبلغ آنذاك حوالي ٣٠ ألف نسمة . غير أن هذه الفكرة قوبلت مثل سابقتيها بالرفض والتجاهل .

ولابد من الإشارة إلى مشاريع توطين بعض اليهود في أمريكا الشمالية ، وكانت جميعها مشاريع عاطفية ، إذ أن الولايات المتحدة كانت التجربة الاستيطانية الكبرى للإنسان الغربي ، وكانت في حاجة إلى المهاجرين ، ولم يكن هناك أي مبرر لأن تمنح المهاجرين من أعضاء الجماعات اليهودية أرضاً خاصة بهم لإقامة دولة .

ومن أهم مشاريع الاستيطان في الولايات المتحدة تجربة موردكاي نواه المسماة «جبل أرارات» . وهي تجربة لم يبق منها سوى حجر الأساس الموجود في متحف في مدينة بافالو الأمريكية ، في ولاية نيويورك .

مشروع جبل ارارات

Ararat Mount Project

انظر : «موردكاي مائويل نواه» .

موردكاي نواه (١٧٨٥-١٨٥١)

Mordecai Noah

دبلوماسي أمريكي يهودي من رواد الفكر الصهيوني من أصل سفاردي ، وكان أبوه تاجراً جوالاً مفلساً . وقد تيتم وهو بعد طفل ، ولكنه علَّم نفسه بنفسه عن طريق القراءة كما تعلَّم حرفة النحت والتنكيل (أي كسوة المعادن بالنيكل) فعيِّن في وزارة المالية الأمريكية . وفي عام ١٨٠٠ ، بدأ نواه يعمل بالصحافة وأصبح محرراً في جريدة في تشارلستون كتب فيها سلسلة مقالات يحض فيها على الحرب مع إنجلترا .

عُيِّن نواه عام ١٨١٢ قنصلاً في تونس ، وذلك بهدف محاولة تحرير الجنود الأمريكيين الذين أسرهم القراصنة في البحر الأبيض المتوسط ولتقوية مكانة أمريكا في بلاد الشرق . وأثناء خدمته الدبلوماسية ، أرسلت إنجلترا رسالة احتجاج إلى الولايات المتحدة لأنها قامت ببيع بعض الغنائم التي حصلت عليها من إنجلترا في إحدى موانئ الجزائر . وقد بيَّنت الرسالة أن هذا أمر لا يليق بأمة مسيحية ، فكان رد نواه أن الولايات المتحدة لا يمكن تصنيفها على أنها أمة مسيحية ، وتُعَد هذه سابقة لا مثيل لها .

استُدعي إلى الولايات المتحدة بسبب بعض المخالفات المالية . وعند عودته إلى الولايات المتحدة ، عمل نواه في الصحافة كما شغل عدة مناصب في ميناء نيويورك ، وضابطاً في ميليشيا نيويورك . وكتب عدة مقالات ومسرحيات أحرز بعضها نجاحاً كبيراً . وأيَّد نواه ضم المكسيك إلى الولايات المتحدة ، وهاجم الدعوة إلى إلغاء الرقيق .

يرتبط اسم نواه بمشروع صهيوني سماه «أرارات» يُقام في جراند أيلاند في شلالات نياجارا لتوطين اليهود . وقد قدم التماسه هذا عام ١٨٢٠ للمجلس التشريعي الخاص بالولاية . وفي عام ١٨٢٥ ، أرسل نداءه ليهود العالم بأن يتبعوه إلى جبل أرارات («نواه» هو النطق الإنجليزي لكلمة «نوح» ، ومن ثم فإن نواه هو نوح الذي سيقود البقية الصالحة إلى جبل أرارات بعد أن يجتاح الطوفان العالم) .

وبما له دلالته أن الالتماس الذي قدَّمه للسلطات الأمريكية يسبق النداء الذي أطلقه ليهود العالم ، فنواه كان يعرف الأولويات

جيداً . فقد كان يدرك أن المشروع الصهيوني لا يمكن أن تقوم له قائمة بدون معونة المسيحيين ، ولكن المسيحيين في معجمه هم القوة الأمريكية الصاعدة . ولذا ، فقد كان دائماً يتحدث عن ضرورة أن يدرك الأمريكيون أهمية مشروعه وأن يعرفوا أن النبوءات الإنجيلية لا تشير إلى العودة الروحية لليهود وإنما تشير إلى عودتهم الفعلية والحرفية .

وفي عام ١٨٢٥ ، قام نواه بوضع حجر الأساس في كنيسة سان بول في بافالو (وليس في أي معبد يهودي) ، ولم يضع حجر الأساس في الجزيرة نفسها لأنه لم يتمكن من توفير عدد من القوارب يحمله إلى هناك . ولكن دعوته لم تجد أي صدى بين الجماهير اليهودية ، ولم يبق من مشروعه سوى حجر الأساس الذي يوجد الآن في جمعية بافالو التاريخية .

ولم يتوقف نواه عن نشاطه ، إذ ألقى محاضرة عام ١٨٤٤ يطالب فيها بإنشاء دولة يهودية في فلسطين . وقد أرسل الرئيس الأمريكي جون أدامز (١٧٩٧ ـ ١٨٠١) رسالة إلى نواه عبَّر فيها عن أمله في أن يعود اليهود إلى فلسطين . ولكنه أحس أن أمنية صهيونية كهذه قد يُشتمُّ منها أنها معادية لليهود ، ولذا فإنه أضاف قائلاً أنه يتمنى أن يرى اليهود مواطنين في كل مكان في العالم (وهذه دعوة معادية للصهيونية) .

إسحق ستاينبرج (١٨٨٨-١٩٥٧)

Isaac Steinberg

كاتب وسياسي روسي ، وأحد قادة تيار «الصهيونية الإقليمية» . وُلد في لاتفيا لعائلة تجمع بين المحافظة على التقاليد اليهودية والتحمس لأفكار حركة التنوير . تلقَّى في صباه تعليماً دينياً تقليدياً ، ثم درس القانون في جامعة موسكو ولكنه فُصل منها لانخراطه في أنشطة اشتراكية ثورية ، فتَوجَّه إلى ألمانيا وأكمل دراسته في جامعة هايدلبرج حيث حصل على درجة الدكتوراه في القانون وكان موضوع أطروحته «قانون العقوبات في التلمود» .

وترجع علاقة ستاينبرج بالحركة الاشتراكية الروسية إلى عام ١٩٠٦ عندما انضم وهو طالب إلى الحزب الاشتراكي الثوري الذي تَركَّز نشاطه في أوساط الفلاحين الروس . وقد تَبنَّى ستاينبرج الدعوة إلى استخدام العنف الفردي لمواجهة القيصرية انطلاقاً من رفض المفاهيم الماركسية التقليدية بشأن الدور القيادي للطبقة العاملة والشروط الموضوعية للثورة . وبسبب أنشطته في صفوف هذا الحزب ، تَعرَّض ستاينبرج للسجن والنفي خارج روسيا حتى عام ١٩١٠ . وبعد عودته ، واصل أنشطته السياسية والصحفية فكان يشارك في العديد من الدوريات العامة والقانونية فضلاً عن المطبوعات الاشتراكية . وبعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ ، شغل ستاينبرج منصب مفوض القانون (وزير العدل) ، إلا أن ذلك لم يَدُم طويلاً حيث أُقصي من منصبه إثر احتدام الصراع بين الاشتراكيين الثوريين والبلاشفة ، كما تَعرَّض للسجن عدة مرات ، وهو ما دفعه إلى الرحيل عن روسيا عام ١٩٢٣ . وفي الخارج ، استمر ستاينبرج في أنشطته متنقلاً بين برلين ولندن حتى استقر به المقام في نيويورك عام ١٩٤٣ . وقد وضع ستاينبرج عدة مؤلفات عن دوره في الحركة الاشتراكية الروسية وتقييمه للثورة ، وأبرزها كتاب **الجانب الأخلاقي للثورة** (باليديشية ـ ١٩٢٥) ، وكتاب **ذكريات أحد مفوضي الشعب** (بالألمانية ، ١٩٢٩) ، وكتاب **في ورشة الثورة** (بالإنجليزية ، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٥) .

أما اهتمام ستاينبرج بحركة «الصهيونية الإقليمية» فيعود إلى الفترة التي شهدت وصول الحزب النازي بزعامة هتلر إلى السلطة في ألمانيا ، حيث كان يرى أن حماية يهود أوربا أمر لا يحتمل التأجيل إلى أن تتغيَّر السياسة البريطانية بشأن فلسطين . ولذلك ، بادر عام ١٩٣٣ بتشكيل عصبة الأرض الحرة التي تبنَّت فكرة إقامة وطن قومي لليهود في أي مكان خارج فلسطين . وقد سعى ستاينبرج إلى إقناع الحكومة الأسترالية بإقامة مستعمرة يهودية تتمتع بالحكم الذاتي في شمال غربي أستراليا ، إلا أن مساعيه باءت بالفشل فتقدم بخطة مماثلة إلى سلطات سورينام قوبلت هي الأخرى بالرفض التام . وكان من شأن هذه الإخفاقات المتتالية أن ابتعد ستاينبرج تدريجياً عن العمل العام وتَفرَّغ للكتابة . وقد سرد تفاصيل مساعيه هذه في كتابه **أستراليا : الأرض غير الموعودة** (باليديشية ـ ١٩٤٥) .

والواقع أن سيرة ستاينبرج تقدِّم نموذجاً فريداً لتَجاوُر المتناقضات الصارخة ، فهو يهودي أرثوذكسي لم ينج من تأثيرات خلفيته التقليدية المحافظة طوال حياته ، وهو في الوقت نفسه اشتراكي ثوري يشارك بحماس لما يقرب من ثلاثة عقود في حركة سياسية ذات منطلقات علمانية جذرية ، وهو بعد ذلك من أشد أنصار دعوى ما يُسمَّى «القومية اليهودية» بما تنطوي عليه من مضامين عنصرية رجعية . وليس هناك ما يشير إلى تَراجُعه عن أيٍّ من تلك الانتماءات المتضاربة .

١٥
الدولة مزدوجة القومية

الدولة مزدوجة القومية ـ بريت شالوم ـ إيحود ـ إيشتاين ـ كالفارسكي ـ روبين ـ ماجنيس

الدولة مزدوجة القومية
Bi-National State

أدرك بعض زعماء الاستيطان الصهيوني أن المشروع الصهيوني مشروع استعماري استيطاني لا يكترث كثيراً بسكان البلاد الأصليين ، شأنه في هذا شأن أي مشروع مماثل . كما لاحظوا تزايُد المقاومة العربية للاستيطان الصهيوني ، فالأرض ، كما تبيَّن ليست بلا شعب . فحاول هؤلاء تخفيف حدة المقاومة والتوصُّل إلى حل سلمي مع العرب عن طريق طرح مشروع الدولة مزدوجة القومية ، حيث يقتسم العرب والمستوطنون الصهاينة فلسطين ويتعاونان سوياً . ومن أهم هذه الجماعات جماعة بريت شالوم وإيحود .

ويمكن القول بأن هذه الدعوة ، رغم ما فيها من إحساس طيب ، تغفل الطابع الاستيطاني الإحلالي البنيوي للصهيونية .

بريت شالوم
Brit Shalom

«بريت شالوم» عبارة عبرية تعني «عهد السلام» ، وبريت شالوم منظمة يهودية في فلسطين كان لها علاقات وفروع في دول أخرى وكانت تدعو لتعايش سلمي بين الصهاينة والعرب . وكانت المنظمة تتكون أساساً من المثقفين والأعضاء البارزين في التجمُّع الاستيطاني اليهودي في فلسطين . وقد وصلت بريت شالوم إلى قمة نشاطها في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات في القرن العشرين . وتعود بداية بريت شالوم إلى ١٩٢٥ مع افتتاح الجامعة العبرية في القدس ، حيث تكونت حلقة من عدة شخصيات مهمة دعت إلى تغيير في النشاط الصهيوني من الاعتماد على العلاقات مع سلطات الانتداب البريطاني إلى محاولة العمل لخلق علاقات طيبة مع العرب . ولم تصل بريت شالوم إطلاقاً إلى تحديد واضح لأهدافها وبنيتها التنظيمية . فبعض أعضائها كان يعتبرها جماعة بحثية عليها أن تلفت نظر الحركة الصهيونية إلى أهمية المشكلة العربية . ودعا البعض الآخر إلى قيام نشاط دعائي واسع النطاق . وهم ، على أية حال ، ليسوا جماعة جماهيرية . وقد ساعدت أفكار هذه المنظمة على خلق حوارات سياسية ولكنها لم تؤد أبداً إلى أنشطة فعالة .

وكان الهدف الرئيسي لبريت شالوم هو الدعاية لخلق دولة مزدوجة القومية في فلسطين بغض النظر عن التمثيل العددي ، وكان هذا يعني التخلي عن خطة تكوين الدولة اليهودية . وأعرب بعض أعضائها عن اعتقادهم بوجوب تقييد الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

ويبدو أن الصهيونية كانت تمثل ، بالنسبة إلى أعضاء بريت شالوم ، حركة ثقافية أكثر منها سياسية ، ودعا البعض إلى تقوية العلاقات العرْقية التي تعود للأصل السامي بين العرب واليهود . وحاول أعضاء بريت شالوم إقامة مؤسسات للحكم الذاتي يهودية/ عربية من أجل التعاون في الإدارة البلدية والحياة الاقتصادية ، وتطوير الخدمات العربية بمساعدة اليهود . وكانت المنظمة تُصدر جريدة عبرية وكذلك مطبوعات بالعربية والإنجليزية . وقد انتقدت المنظمة بشدة سياسات الهستدروت تجاه العمال العرب .

وقد رفض العرب برنامج بريت شالوم بوصفه دعاية صهيونية متخفية . وكان تأثير الجماعة في المستوطنين اليهود ضئيلاً جداً رغم مشاركة شخصيات مثل صمويل هوجو برجمان وآرثر روبين وحاييم كلفارسكي وجرشوم شولم ومارتن بوبر ويهودا ماجنيس . وقد تَوقَّف نشاط الجمعية تماماً مع أوائل الثلاثينيات .

إيحود
Ihud

«إيحود» كلمة عبرية تعني «الاتحاد» أو «الوحدة» . وإيحود جماعة يهودية دعت إلى إقامة دولة عربية يهودية مزدوجة القومية في فلسطين . وفي عام ١٩٣٧ ، رأت لجنة بيل ، التي عينتها الحكومة البريطانية لتَقصِّي الحقائق بعد اندلاع الثورة العربية الكبرى في فلسطين عام ١٩٣٦ ، أن خطة إقامة كومنولث مزدوج القومية قد صارت خطة مستحيلة التطبيق . وكبديل ، اقترحت اللجنة تقسيم فلسطين . وقد رفض أعضاء جماعة إيحود ، ومن بينهم يهودا ماجنيس ومارتن بوبر وحاييم كالفارسكي وآرثر روبين ، هذه

الخطة . واتفق معهم في الرأي كلٌّ من موسى سميلانسكي وقادة جماعة الحارس الفتي (هاشومير هاتزعير) اليسارية . وفي عام ١٩٤٢ ، تم تكوين جمعية إيحود أو الوحدة التي دعت إلى إقامة فلسطين مستقلة تضم العرب واليهود معاً . وقد انضمت جماعة صغيرة من العرب إلى الجماعة ، بيد أنه تم اغتيالهم الواحد بعد الآخر .

وكانت الجمعية تُصدر دوريات باللغات الرسمية الثلاث في فلسطين ، وكذلك مجلة شهرية . وقد نشب خلاف أساسي بين أعضاء الجماعة من العرب واليهود حول موضوع تحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين . ومع نهاية الحرب العالمية الثانية ، دعت إيحود إلى المفاوضات مع العرب واستمرت في جهودها من أجل الحل ثنائي القومية عام ١٩٤٧ ، وطالب ماجنيس بهذا الحل أمام اللجنة الخاصة للأمم المتحدة حول فلسطين ، وطالب بتحييد فلسطين (مثل سويسرا) مع إعطاء اليهود مقعداً خاصاً في الأمم المتحدة بوصفهم قومية خاصة . ومع صدور قرار التقسيم ، قام كلٌّ من ماجنيس وإيحود بالدعوة إلى إقامة اتحاد سامي يشمل إسرائيل ، بيد أن هذه المحاولة قد فشلت .

إسحق إبشتاين (١٨٦٢-١٩٤٣)

Yithak Epstein

كاتب صهيوني وتربوي ومتخصص في اللغة العبرية . وُلد في بيلوروسيا وترعرع ونشأ في أوديسا . سافر عام ١٨٨٦ إلى فلسطين على نفقة البارون إدموند دي روتشيلد . أمضى ٦ سنوات في مستوطنتي زخرون ياكوف وروش بينا . ثم صار مدرساً وناظراً لمدرسة عامة افتتحت في صفد . وبعدئذ تَنَقَّل إلى مدارس ميتولا وروش بينا ، ثم سافر إلى سويسرا حيث درس في لوزان بين عامي ١٩٠٢ و١٩٠٨ . وبعد حصوله على الشهادة من الجامعة هناك ، سافر إلى اليونان حيث عمل مديراً لمدرسة الأليانس في سالونيكا بين عامي ١٩٠٨ و١٩١٥ ، ثم عاد بعد ذلك إلى سويسرا لإتمام دراسة الدكتوراه في التربية والأدب . وفي عام ١٩١٩ ، عاد إلى فلسطين وعمل مديراً لمعهد لفنسكي للمدرِّسات في تل أبيب حتى ١٩٢٣ . ثم عمل بعدئذ مشرفاً عاماً على مدارس الحركة الصهيونية ومقره القدس . بعد استقالته من منصبه ، كرس حياته للدراسة لغويات العبرية ، خصوصاً الصوتيات . وكان يدعو في نهاية حياته إلى التعاون بين العرب واليهود . واستقال من منظمة بريت شالوم رغم أنه كان أحد مؤسسيها .

حاييم كالفارسكي (١٨٦٨-١٩٤٧)

Hayimm Kalvarsky

أحد قادة الاستيطان الصهيوني في فلسطين . وُلد في بولندا لأسرة إقطاعية ، وكان نشيطاً منذ الصبا في الحركة الصهيونية وحركة أحباء صهيون . درس العلوم الزراعية في جامعة مونبلييه وأسَّس هناك جمعية طلابية باسم «مستقبل إسرائيل» ، واستوطن فلسطين بعد تَخرُّجه ، وعمل في يافا أميناً لجمعية أبناء موسى ، ثم صار مدرساً في المدرسة الزراعية . وبعد عام ١٩٠٠ ، أصبح كبير إداريي المستوطنات اليهودية في الجليل التابعة لجمعية الاستعمار اليهودية حيث أسَّس عدة مستوطنات . قابل هرتزل في أوربا عام ١٩٠٢ وأقنعه بأهمية المستوطنات اليهودية في فلسطين للحركة الصهيونية .

وكان كالفارسكي من دعاة التفاهم والتقارب بين العرب واليهود ، وقد أسَّس بأموال إدموند روتشيلد مدرسة أطفال عبرية عربية في قرية جاعوني قرب روش بينا . ونظم لقاءات بين ناحوم سوكولوف وبعض القادة من القوميين العرب في دمشق وبيروت . ودعاه الملك فيصل الأول عام ١٩١٩ لحضور مؤتمر عموم سوريا لتقديم مقترحات بصدد العلاقات اليهودية العربية .

انضم إلى جميع الجماعات التي كانت تدعو إلى إقامة علاقات عربية يهودية . وفي أخريات حياته ، ساهم في تأسيس جمعية فلسطين الجديدة مع فوزي الحسيني الذي ترأسها .

وعارض كالفارسكي السياسات الصهيونية الرسمية لفشلها في رؤية أهمية العلاقات مع العرب . وقد كان كالفارسكي يعتقد إمكانية قيام دولة فيدرالية كبرى في المنطقة تضم العرب واليهود معاً .

آرثر روبين (١٨٧٦-١٩٤٣)

Arthur Ruppin

عالم اقتصاد واجتماع ، وقائد صهيوني ومنظِّم المستوطنات الزراعية في فلسطين . وُلد في ألمانيا لعائلة فقيرة ، وترك الدراسة في سن الرابعة عشرة . لكنه عمل ودرس حتى حصل على دكتوراه القانون عام ١٩٠٢ .

اشترك في عدة جمعيات يهودية في الفترة بين عامي ١٩٠٢ و١٩٠٥ ، والتحق بالمنظمة الصهيونية العالمية في ١٩٠٥ . وطلب منه ديفيد ولفسون ١٩٠٧ أن يذهب إلى فلسطين ليبحث حالة المستوطنات اليهودية . وكانت تلك المرحلة نقطة تحوُّل في حياته حيث كرَّس كل جهوده بعد ذلك لتطوير المستوطنات اليهودية ،

واستقر في فلسطين حيث ترأس المكتب الفلسطيني للمنظمة الصهيونية في يافا .

طرده أحمد باشا والي الشام وقائد الجيش التركي في سوريا لشكه في أنه يعمل لحساب الحلفاء لكنه رحل إلى إستنبول حيث عمل كحلقة اتصال بين مكتب فلسطين والمكتب الصهيوني التنفيذي في برلين . وعاد روبين إلى فلسطين عام ١٩٢٠ واستقر هناك ، حيث كان مسئولاً عن مكتب المستوطنات ، وأسس عدة بنوك في فلسطين لتمويل حركة الاستيطان .

ساعد في تأسيس حركة بريت شالوم ، وكان من دعاة تأسيس دولة مزدوجة القومية (عربية عبرية) في فلسطين . وبعد الثورة العربية عام ١٩٢٩ ، حارب روبين بشدة من أجل زيادة الهجرة إلى فلسطين وزاد نشاطه في حركة الاستيلاء على الأراضي العربية بكل الطرق . وقد ظل يتأرجح بين موقفيه المتناقضين : محاولة ضمان تنفيذ المشروع الصهيوني عن طريق تصعيد الهجرة الاستيطانية ومحاولة التفاهم مع العرب (ضحايا المشروع الصهيوني) . ومع تَصاعُد الصراع مع العرب ، دوَّن في مذكراته (إبان الحرب العالمية الثانية) أنه يعتقد أن ثمة جنوناً كاملاً قد سيطر على العالم بأسره . وتُوفي آرثر روبين في القدس عام ١٩٤٣ .

يهودا ماجنيس (١٨٧٧-١٩٤٨)

Judah Magnes

حاخام أمريكي إصلاحي ، صهيوني توطيني ، ورئيس الجامعة العبرية . وُلد في الولايات المتحدة لعائلة يهودية من أصل ألماني متأثرة بالتعاليم والنزعات الصهيونية . قام بنشاطات صهيونية فأصبح سكرتيراً لفيدرالية الصهاينة الأمريكيين (١٩٠٥ - ١٩٠٨) ، كما ساهم في تأسيس اللجنة اليهودية الأمريكية . ولكن معظم نشاطاته كانت من النوع التوطيني ، فأصله الألماني ، وكذلك توجُّهه الإصلاحي واندماجه في المجتمع الأمريكي وانتماؤه للطبقة الوسطى ، جعل تبنِّيه مُثُل الصهيونية الاستيطانية أمراً مستحيلاً . ولذا ، فقد كان يرى أن الصهيونية هي بالدرجة الأولى حركة لإنقاذ يهود شرق أوربا وجسر يربط النخبة اليهودية ذات الأصل الألماني في الولايات المتحدة وجماهير المهاجرين من يهود روسيا . وكان يصر دائماً على وجوب تفسير الصهيونية بطريقة تلائم البيئة الأمريكية خارج نطاق النظرية القومية التي كانت سائدة في أوربا . ولذا ، فإننا نجده يشترك في جمع التبرعات لضحايا مذبحة كيشينيف وينظم بعض التظاهرات لصالحهم .

عُيِّن عام ١٩٠٨ حاخاماً لمعبد إيمانوئيل في نيويورك . ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى ، طالب بأن يترجم الإيمان الديني نفسه إلى رفض للحرب واتخاذ موقف سلمي ، فأغضب هذا الكثيرين ، ومنهم المؤسسة الصهيونية التي كانت تسعى للحصول على وعد بلفور ، فاضطر إلى الاستقالة من المعبد ثم من الفرع الأمريكي للحركة الصهيونية (١٩١٥) . وهكذا أصبح يزداد ابتعاداً عن الصهيونية الدبلوماسية والعامة (الاستعمارية) بتأكيدها أولوية الدولة ، كما أصبح يزداد اقتراباً من الصهيونية الإثنية العلمانية التي تركز على مسائل الهوية والوعي . ولذا ، نجد أنه على المستوى الديني يزداد اقتراباً من اليهودية المحافظة . وقد أسس مؤسسة سمَّاها القهال (١٩٠٩) كي تكون إطاراً إدارياً موحَّداً للجماعة اليهودية في الولايات المتحدة بهدف أمركة المهاجرين . وقد نجحت هذه المؤسسة إلى حدٍّ ما في مجال التعليم ومكافحة الجريمة بين المهاجرين بالتعاون مع الشرطة . ولكنها حُلت عام ١٩٢٢ ، ولم تترك أثراً يُذكَر إلا في مجال التربية .

وفي إطار صهيونيته الإثنية التوطينية ، كان ماجنيس يطالب بإحياء الثقافة واللغة العبريتين . ومع نهاية الحرب العالمية الأولى ، دعا إلى تنظيم الجامعة العبرية فقام بجمع التبرعات اللازمة ووضع الإطار الأكاديمي ، واستقر في فلسطين نهائياً عام ١٩٢٢ . وحينما افتُتحت الجامعة عام ١٩٢٥ ، عُيِّن ماجنيس رئيساً لها .

ورغم هذا الحماس للإحياء القومي اليهودي ، كان ماجنيس من القلة الصهيونية النادرة التي تنبهت إلى المخاطر التي تنطوي عليها إقامة الوطن اليهودي ، فقد كان يعرف أن هناك شعباً عربياً فلسطينياً سيُقاوم وأن الدولة التي أُنشئت رغماً عنه ستعيش في حالة حرب دائمة . وقد كرس ماجنيس نفسه للترويج لفكرة التفاهم اليهودي العربي ، ودعا إلى وضع نظام يتسم بالتكافؤ التام بين العرب واليهود ، وطالب بتقييد الهجرة اليهودية إلى فلسطين . وفي مقال تحت عنوان «مثل كل الشعوب» كتبه عام ١٩٣٠ ، حذَّر الصهاينة من أن العرب يشكلون الأغلبية المطلقة في فلسطين . وحيث إن الغاية (مهما سمت) لا يمكن أن تبرر الواسطة (الدنيئة) ، فقد عبَّر عن اطمئنانه إلى (أو عن أمله في) أن اليهود لن تسمح لهم أنفسهم بغزو أرض الميعاد على طريقة يوشع بن نون الذي فتح كنعان (وأباد سكانها) ، والذي ثبَّت دعائم الوجود اليهودي عن طريق السيف . لقد كان ماجنيس من المؤمنين بأن " تأسيس الوطن اليهودي بكبت طموح العرب السياسي أمر غير ممكن ، لأن مثل هذا الوطن سيُؤسَّس على رؤوس الحراب مدة طويلة " . ولذلك ، فقد اقترح

التغلب على الصعاب التي تواجه الصهاينة "باستخدام جميع الأسلحة التي وضعتها الحضارة تحت تصرفهم باستثناء الحراب ، مثل الأسلحة الروحية والثقافية والاجتماعية والمالية والاقتصادية والطبية . . . والأخوة والصداقة" .

وقد ساهم ماجنيس في تأسيس جماعة بريت شالوم (عهد السلام) لتعزيز التفاهم والتعاون بين العرب واليهود ودرء الخطر الناجم عن تنفيذ برنامج بلتيمور الصهيوني . كما ساهم في تأسيس جماعة إيحود (الاتحاد) عام ١٩٤٢ ، التي ضمت عدداً من الأعضاء السابقين في بريت شالوم بالإضافة إلى شخصيات يهودية بارزة مثل مارتن بوبر وإرنست سيمون وسميلانسكي ورؤساء جمعية الحارس الفتى ، كما انضم إلى الجمعية بعض العرب الفلسطينيين . وقد كانت الجمعية تنادي بدولة مستقلة مزدوجة الجنسية ، ولكن جهودها ذهبت سدى بسبب الرفض الشعبي الفلسطيني ولعدم وجود آذان صهيونية صاغية ، وقد عارض ماجنيس قرار تقسيم فلسطين . وفي عام ١٩٤٨ ، أصدر مجلس الجامعة العبرية بياناً أعلن فيه أن الجامعة وهيئة التدريس لا علاقة لهما بنشاطات ماجنيس السياسية الرامية لإنشاء دولة تتسع لليهود والعرب . وقد مات ماجنيس في نيويورك . وقد جُمعت كتاباته وخُطَبه في عدة كتب من بينها **خطب في وقت الحرب ١٩١٧ - ١٩٢١** (١٩٢٣) ، و**حيرة الأزمنة** (١٩٤٦) .

الجزء الثالث

الحركة الصهيونية

١
المنظمة الصهيونية العالمية

المنظمة الصهيونية العالمية : تاريخ ـ الهيكل التنظيمي للمنظمة الصهيونية العالمية ـ الوكالة اليهودية ـ المنظمة الصهيونية العالمية (القسم الأمريكي) ـ اللجنة التنفيذية العالمية لحركة حيروت/ هاتسوهار ـ الكونفدرالية العالمية للصهاينة المتحدين ـ حركة العمل الصهيونية العالمية ـ منظمة مزراحي العالمية (هابوعيل هامزراحي) ـ الاتحاد العالمي للصهيونيين العموميين ـ الاتحاد العالمي لحزب العمال المتحدين/ مابام ـ الاتحاد السفاردي العالمي ـ اتحاد مكابي العالمي ـ ويزو ـ إيموناه ـ المؤتمر اليهودي العالمي

المنظمة الصهيونية العالمية : تاريخ

World Zionist Organization : History

أُسِّست المنظمة الصهيونية العالمية عام ١٨٩٧ في المؤتمر الصهيوني الأول . كان اسمها في البداية «المنظمة الصهيونية» وحسب (ولكن الاسم عُدِّل عام ١٩٦٠ ليصبح «المنظمة الصهيونية العالمية») . وعُرِّفت المنظمة عند تأسيسها بأنها الإطار التنظيمي الذي يضم كل اليهود الذين يقبلون برنامج بازل ويسددون رسم العضوية (الشيقل) ، وقد أنيطت بها مهمة تحقيق الأهداف الصهيونية التي جسدها برنامج بازل وعلى رأسها إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين "يضمنه القانون العام" وهي عبارة تعني في واقع الأمر : "تضمنه القوى الاستعمارية في الغرب" . وكانت المنظمة بمنزلة هيئة رسمية تمثل الحركة الصهيونية في مفاوضاتها مع الدول الاستعمارية الرئيسية آنذاك من أجل استمالة إحداها لتبنِّي المشروع الصهيوني ، وكانت إطاراً لتنظيم العلاقة بين الصهاينة الاستيطانيين والصهاينة التوطينيين ، أي أن تأسيسها كان بداية انتقال النشاط الصهيوني من مرحلة البداية الجنينية التسللية إلى مرحلة العمل المنظم على الصعيد الغربي .

ولتنفيذ مخططها الاستيطاني والتوطيني عملت المنظمة على إنشاء عدد من المؤسسات المالية لتمويل المشروع الصهيوني ، كان من أهمها صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار ، وهو بنك صهيوني تم تأسيسه عام ١٨٩٩ . وقد أشار سوكولوف إلى أن هذا البنك قد أُسِّس على نمط شركة الهند الشرقية وشركة خليج هدسون للفراء في كندا وشركات التعدين في جنوب أفريقيا . وفي عام ١٩٠٣ ، أنشأ الصندوق فرعاً مصرفياً برأسمال قدره ٤٠ ألف جنيه إسترليني ، كما أنشأ فروعاً أخرى في هولندا وفرنسا (وقد عُرف فيما بعد باسم «البنك البريطاني الفلسطيني» ثم عُرف بعد ذلك باسم «بنك ليئومي ليسرائيل» منذ عام ١٩٥١) .

وفي عام ١٩٠١ ، أسَّست المنظمة الصندوق القومي اليهودي (كيرين كايميت) بهدف توفير الأموال اللازمة لشراء الأراضي في فلسطين ونص القانون الأساسي لهذا الصندوق على اعتبار الأراضي التي يشتريها ملكية أبدية للشعب اليهودي لا يجوز بيعها أو التفريط فيها . كما حصلت المنظمة على امتياز مجلة **دي فيلت** لتكون لسان حال المنظمة .

وقد نمت المنظمة الصهيونية خلال سنواتها الأولى . فمع انعقاد المؤتمر الصهيوني السادس عام ١٩٠٣ ، بلغ عدد الأعضاء المشاركين فيه ٦٠٠ عضو ، وازداد عدد الجمعيات الصهيونية إلى ١٥٧٢ جمعية موزعة على بلاد مختلفة . وقد وصل الأعضاء عشية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) إلى مليون عضو . وفي عام ١٩٤٦ ، كان عدد دافعي الشيقل ٢,١٥٩,٨٤٠ (ولكن يجب مراعاة أن عضوية المنظمة بالنسبة لكثير من الصهاينة لا تتجاوز حرفياً دفع الشيقل ، ولا تعني بالضرورة القيام بأي نشاط آخر) .

وقد انتقل مركز المنظمة من عاصمة إلى أخرى . فبعد وفاة هرتزل ، انتقل مكان وجود رئيس المنظمة من فيينا إلى كولونيا ، وهو مقر ديفيد ولفسون في الفترة ١٩٠٥ ـ ١٩١١ ، ثم إلى برلين في ظل رئاسة أوتو واربورج (١٩١١ ـ ١٩٢٠) . وبعد صدور وعد بلفور ، انتقل مركز المنظمة إلى لندن : مركز الثقل الإمبريالي في العالم (وكان ذلك يعني الارتباط بالإمبريالية البريطانية وتوقيع العقد الصامت مع الحضارة الغربية) . وظل مركز المنظمة في لندن إبان رئاسة حاييم وايزمان (١٩٢٠ ـ ١٩٣١) ثم ناحوم سوكولوف (١٩٣١ ـ ١٩٣٥) . ولكن ، في عام ١٩٣٦ ، وبعد استقرار المؤسسات الاستيطانية في فلسطين التي وُضعت تحت حكم الانتداب عام ١٩٢١ ، انتقلت المنظمة إلى القدس وإن ظلت لندن مقر رئيس المنظمة وبعض أعضاء اللجنة التنفيذية .

ولم يخلُ تاريخ المنظمة من الخلافات والصراعات بين التيارات

المختلفة وكذلك الانقسامات والانشقاقات ، فمنذ المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) وحتى عام ١٩٠٥ تبلورت معارضة الصهاينة العمليين (الاستيطانيين التسلليين) الذين طالبوا بالتركيز على البند الأول من برنامج بازل الخاص بتشجيع حركة الاستيطان في فلسطين ، في حين تزعَّم هرتزل تيار الصهاينة الدبلوماسيين (الاستعماريين) الذين ركزوا على تحقيق البند الرابع من البرنامج الصهيوني الخاص بالحصول على «ميثاق» دولي (أي غربي) يتيح الاستيطان اليهودي في فلسطين القائم على القانون وتحت حماية الدول الاستعمارية الكبرى . ومن الجدير بالذكر أن الخلاف بين الفريقين لم يكن خلافاً مبدئياً أو إستراتيجياً بقدر ما كان خلافاً تكتيكياً يرى التركيز على بند دون الآخر من بنود البرنامج الصهيوني . وبالفعل ، تم التوصل في نهاية الأمر إلى صيغة توفيقية تجمع بين الاتجاهين وتتمثل في الصهيونية التوفيقية (أو التركيبية) التي طرحها وايزمان في المؤتمر الصهيوني الثامن (١٩٠٧) ، وقد نجح الصهاينة الاستيطانيون في إحكام سيطرتهم على المؤسسات الصهيونية كافة خلال المؤتمر الحادي عشر (١٩١٣) .

كما ظهرت خلافات عميقة حول إدارة المنظمة وبرز الجناح الديموقراطي الصهيوني (العصبة الديموقراطية) بقيادة حاييم وايزمان وليو موتزكين وفيكتور جيكوبسون ومارتن بوبر وغيرهم من الذين انتقدوا قيادة هرتزل لأنها غير ديموقراطية ولا تكترث بقضية بَعْث الثقافة اليهودية .

وعلى الصعيد نفسه ، وجهت المعارضة التي قادها مناحم أوسيشكين من خلال اللجنة الروسية وعَبَّر مؤتمرها الذي عقد عام ١٩٠٣ إنذاراً لهرتزل بالتخلي عن أسلوبه في إدارة المنظمة وبإلغاء مشروع شرق أفريقيا والتركيز على المشاريع الاستيطانية في فلسطين .

وقد شهدت المنظمة انشقاقات مهمة ، كان أولها انسحاب إسرائيل زانجويل وأتباعه الصهاينة الإقليميين بعد أن رفض المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) مشروع إقامة وطن قومي يهودي في أوغندا وقاموا بتأسيس منظمة مستقلة عُرِفت باسم المنظمة الصهيونية الإقليمية .

كما شهدت المنظمة انقساماً آخر عام ١٩٣٣ حينما انشق غالبية الصهاينة التصحيحيين بزعامة فلاديمير جابوتنسكي عن المنظمة الصهيونية بعد إخفاقهم في حملها على تبنِّي مطلبهم المتمثل في الإعلان بصراحة عن أن الهدف النهائي للحركة هو إقامة الدولة اليهودية . وشكلوا منظمة أخرى تُدعَى «المنظمة الصهيونية الجديدة» .

وبالإضافة إلى ذلك ، كانت المنظمة منقسمة إلى اتجاهات سياسية متباينة : حركة عمال صهيون (وهم الصهيونيون العماليون) وحركة مزراحي (التي تمثل الصهيونية الإثنية الدينية) والصهاينة العموميين . كذلك كان هناك تيار الصهيونية الإثنية الثقافية وعلى رأسه آحاد هعام وأنصاره .

ويجب أن نذكر ، مرة أخرى ، أن هذا الانقسام أو هذه الانشقاقات كانت تتم داخل إطار من الوحدة والالتزام المبدئي . ولذلك ، نجد أن الإقليميين والتصحيحيين عادوا إلى حظيرة المنظمة بعد بضع سنوات ، كما أن أتباع المزراحي الذين انشقوا عام ١٩٠١ تحت زعامة الحاخام إسحق راينس وأسسوا حركة مزراحي ظلوا يعملون داخل إطار المنظمة مع أعضاء عمال صهيون الماركسيين والصهاينة العموميين ذوي الاتجاهات الليبرالية .

وقد شهد انتهاء الحرب العالمية الأولى صدور وعد بلفور والبداية الحقيقية لتطبيق المشروع الصهيوني في فلسطين بفرض الانتداب البريطاني عليها ، وبالتالي بدأ اتخاذ الخطوات لترجمة وعد بلفور على المستوى التنظيمي ، فأكملت المنظمة جهازها المالي بإنشاء الصندوق التأسيسي الفلسطيني (كيرين هايسود) عام ١٩٢١ المختص بتمويل نشاطات الهجرة والاستيطان . كما تحولت اللجنة الصهيونية في فلسطين إلى حكومة في طور التكوين قامت بالإشراف على كل الشئون الاستيطانية والاقتصادية والثقافية للتجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين .

كما أسَّست المنظمة ساعدها التنفيذي المعروف باسم «الوكالة اليهودية» عام ١٩٢٢ ، إذ نص صك الانتداب البريطاني على فلسطين على الاعتراف بوكالة يهودية مناسبة لإسداء المشورة إلى سلطات الانتداب في جميع الأمور المتعلقة بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين . واعترف صك الانتداب بأن المنظمة الصهيونية هي هذه الوكالة . وفي عام ١٩٢٩ ، نجح وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية آنذاك في إقناع أعضاء المؤتمر الصهيوني السادس عشر بضرورة توسيع الوكالة اليهودية بحيث يتشكل مجلسها من عدد من أعضاء المنظمة وعدد مماثل من غير أعضائها (وكان الغرض من ذلك استمالة أثرياء اليهود التوطينيين لتمويل المشروع الصهيوني دون إلزامهم بالانخراط في صفوف المنظمة ، والإيحاء في الوقت نفسه بأن الوكالة تمثل جميع اليهود في العالم ولا تقتصر على أعضاء المنظمة) . وكان من شأن هذه الخطوة أن تعطي دفعة قوية للحركة الصهيونية وتدعم الموقف التفاوضي للمنظمة الصهيونية مع الحكومة البريطانية التي كان يقلقها تصاعد الأصوات الرافضة للصهيونية في أوساط يهود بريطانيا .

وقد ظلت المنظمة وساعدها التنفيذي تُعرَفان بنفس الاسم على النحو التالي : المنظمة الصهيونية/ الوكالة اليهودية ، وذلك حتى عام ١٩٧١ ، إذ جرت في ذلك العام عملية مزعومة وشكلية لإعادة التنظيم بحيث أصبحت المنظمتان منفصلتين قانونياً وتعمل كل منهما تحت قيادة هيئة خاصة (سمّاها أحدهم «المنظمة ذات الرأسين») . ويمكننا أن نستخدم الجزء الأول من الاسم (أي «المنظمة الصهيونية العالمية») للإشارة إلى نشاط المنظمة بين الجماعات اليهودية في العالم من حيث تجنيدهم لدعم المُستوطَن مالياً وسياسياً ، وذلك مقابل تعميق إحساسهم بالهوية اليهودية (وهو نشاط الصهيونية التوطينية الأساسي) . أما حينما تكون الإشارة إلى الجانب التنفيذي أو الاستيطاني ، فإن عبارة «الوكالة اليهودية» هي التي تُستخدَم وحدها .

وحتى عام ١٩٤٨ ، كانت المنظمة الصهيونية/ الوكالة اليهودية هي المسئول عن المشروع الصهيوني بشقيه الاستيطاني (أي المرتبط بالتجمُّع الاستيطاني اليهودي في فلسطين وبنشاطه الاقتصادي والعسكري) والتوطيني (أي المرتبط بالجماعات اليهودية في العالم وبنشاط بعض عناصرها في دعم النشاط الاستيطاني في فلسطين سياسياً ومادياً وضمان استمرار الدعم الإمبريالي له) . كذلك ظلت المنظمة ممثلة للتيار الصهيوني الإثني العلماني وأيضاً للتيار الصهيوني الإثني الديني . ورغم وجود تناقضات أساسية بين الصهاينة الاستيطانيين والتوطينيين ، وكذلك بين الاتجاهات الدينية والعلمانية (وذلك بخلاف التناقضات الفرعية داخل كل فريق) ، فقد ظلت هذه التناقضات محصورة في أضيق نطاق بسبب الحاجة الماسة لدى المستوطنين إلى دعم يهود العالم وبسبب عجزهم عن الحركة بحرية على الصعيد الغربي ، فهم كمستوطنين في فلسطين لم يكونوا يملكون الاتصالات اللازمة للقيام بهذه العملية . وفي الأعوام القليلة السابقة على إعلان الدولة ، كان الصهاينة الاستيطانيون والتوطينيون يشعرون بضرورة وجود هيئة تمثل جميع الصهاينة وتكون المحاور الوحيدة للدولة المنتدبة والأمم المتحدة وهو الدور الذي قامت به المنظمة . ومع تعاظُم نفوذ الولايات المتحدة داخل المعسكر الإمبريالي ، تصاعد نفوذ الصهاينة الأمريكيين وأصبحوا المهيمنين تقريباً على المنظمة الصهيونية . وقبل ذلك بكثير ، كان وايزمان قد اهتم ببناء جسور قوية مع الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك حتى تم انعقاد مؤتمر صهيوني طارئ في نيويورك عام ١٩١٤ تشكلت فيه اللجنة التنفيذية المؤقتة للشئون الصهيونية العامة برئاسة القاضي لويس برانديز زعيم الصهاينة الأمريكيين آنذاك . وقد اتجهت المنظمة عقب الحرب العالمية الثانية إلى نَقْل مركز ثقلها من لندن إلى واشنطن وتم عقد مؤتمر استثنائي في بلتيمور عام ١٩٤٢ صَدَر عنه برنامج بلتيمور الصهيوني الشهير الذي نادى باستبدال كومنولث يهودي بالانتداب البريطاني في فلسطين حتى يمكن تحقيق الوطن القومي لليهود الذي وعد به تصريح بلفور . وقد ضغطت المنظمة داخل الأمم المتحدة من أجل صدور قرار التقسيم عام ١٩٤٧ ، ثم قامت بتأسيس مجلس وطني بعد ذلك ليكون بمنزلة برلمان للدولة الصهيونية المزمع إنشاؤها وإدارة وطنية لحكومة الدولة المرتقبة . وفي مايو عام ١٩٤٨ ، قام ديفيد بن جوريون رئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية/ الوكالة اليهودية والإدارة الوطنية (حيث لم يُنتخَب رئيس للمنظمة الصهيونية بعد أن استقال وايزمان خلال المؤتمر الثاني والعشرين عام ١٩٤٦) بإعلان قيام الدولة الصهيونية .

ولكن قيام الدولة الصهيونية فجَّر التناقضات الكامنة بين الصهاينة الاستيطانيين والصهاينة التوطينيين ، ودخلت العلاقة بين الدولة والمنظمة في أزمة طويلة ومتصاعدة لم تخف حدتها إلا عام ١٩٦٨ . بدأت ملامح تلك الأزمة تتبين مع اقتراب قيام الدولة الصهيونية ، فقد سعى بن جوريون زعيم الصهيونية العمالية الاستيطانية (الذي كان يكن احتقاراً عميقاً للصهاينة التوطينيين باعتبار أن الصهيونية هي الهجرة والاستيطان) إلى اقتحام المنظمة وتسخيرها لخدمة المستوطن . وقد سنحت له هذه الفرصة خلال المؤتمر الثاني والعشرين الذي عُقد عام ١٩٤٦ حينما استقال وايزمان من رئاسة المنظمة وعجز المؤتمر عن انتخاب رئيس بدلاً منه ، ثم قام المؤتمر بتفويض اللجنة التنفيذية الصهيونية ورئيسها بن جوريون ومنحهما الصلاحيات كافة وهو ما كان يعني انتقال خيوط السلطة الحقيقية إلى أيدي الاستيطانيين .

وعندما تم إعلان الدولة ، انتقل كثير من الصلاحيات التي كانت من اختصاص المنظمة إلى الحكومة الإسرائيلية المؤقتة (مثل الدفاع والداخلية والخارجية والمالية والمواصلات والتجارة والصناعة) . وتم استبعاد الصهاينة التوطينيين من إدارة الحكومة المؤقتة التي تم تشكيلها من المستوطنين . وكان رد المنظمة هو المطالبة بمبدأ الفصل بين الحكومة والمنظمة ، أي أن يستقيل من المنظمة أعضاء حكومة المستوطنين الذين كانوا متمسكين بمناصبهم في اللجنة التنفيذية . وكان لهذا صدىً عنيف في سبتمبر عام ١٩٤٨ . وقد انتخب المجلس الصهيوني العام الذي انعقد في العام نفسه لجنة تنفيذية صهيونية موزعة على مركزين أولهما في إسرائيل والآخر في

نيويورك ، ولكن أبا هليل سيلفر رئيس فرع اللجنة في نيويورك سرعان ما استقال (عام ١٩٤٩) نتيجة الضغط الإسرائيلي المتزايد الرامي إلى تحجيم المنظمة وتقليص دورها من خلال المنظمات اليهودية (غير الصهيونية) . وقد حل ناحوم جولدمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي محل سيلفر في رئاسة اللجنة التنفيذية في نيويورك ، وآذن ذلك ببداية جولة جديدة وحاسمة من المواجهة مع الدولة انتهت بخسارة المنظمة .

ولا شك ، كما أسلفنا ، في أن جزءاً كبيراً من الصراع بين المنظمة وإسرائيل كان انعكاساً لتفجُّر التناقضات الكامنة بعد قيام الدولة بين الصهاينة التوطينيين (الذين ينظرون إلى الهجرة باعتبارها عملية برجماتية ذرائعية يقوم بها من يحتاج إليها) والصهاينة الاستيطانيين (الذين ينظرون إلى الهجرة لا باعتبارها مسألة عقائدية فحسب وإنما باعتبارها أمراً أساسياً لتحقيق الهوية اليهودية وضمان استمرار المشروع الصهيوني) . ومع إعلان قانون العودة عام ١٩٥٠ (بكل ما ينطوي عليه من ربط بين الهوية والهجرة) ، أصبح على الصهيوني الذي لا يهاجر أن يسوِّغ موقفه أمام نفسه وأمام يهود الخارج ومستوطني الداخل . وقد انعقد المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون عام ١٩٥١ في القدس بهدف التوصل إلى تعريف للصهيونية يحل محل تعريف برنامج بازل ولتحديد مهام وصلاحيات المنظمة الصهيونية وإطار العلاقة بينها وبين الدولة . وقد أقر المؤتمر ، فيما عرف باسم «برنامج القدس» ، مهمات الحركة الصهيونية باعتبارها : تدعيم دولة إسرائيل وتجميع المنفيين في أرض إسرائيل وتأمين وحدة الشعب اليهودي . وقد دعم هذا التعريف خط إسرائيل مقابل خط المنظمة ، إذ جعل أولى المهام الواردة فيه دعم دولة إسرائيل وهو ما يلمح بقوة إلى مركزية إسرائيل في العمل الصهيوني . أما المهمة الثانية فكانت تجميع المنفيين في أرض إسرائيل أي تأكيد مطالب بن جوريون المستمرة بجَعْل الهجرة إلى إسرائيل الدليل الحاسم على صهيونية أي زعيم أو فرد من أبناء الشعب اليهودي .

وفي الوقت نفسه ، كان هذا التعريف يتسم بقدر كاف من المراوغة ، وهو ما جعله يحظى بإجماع الجميع ، فعبارة «وحدة الشعب اليهودي» قد تعني وحدة روحية (التفسير التوطيني) أو تعني وحدة قومية (التفسير الاستيطاني) ، كما أن عبارة «تجميع المنفيين» قد تشمل اليهود الذين يحتاجون إلى الهجرة الفعلية دون غيرهم ممن لا يعتبرون أنهم في المنفى (التفسير التوطيني) وقد تشمل جميع أعضاء الجماعات اليهودية (التفسير الاستيطاني) .

ولكن ذلك لم يكن يعني نهاية الاحتكاك والتوتر بين المنظمة وإسرائيل ، فقد حاول الصهاينة التوطينيون تأكيد دورهم المستقل . فالهجرة ـ في تصوُّرهم ـ ليست بالضرورة الترجمة العملية الوحيدة للصهيونية ، وفي وسع المنظمة بعد أن قامت بتأسيس الدولة أن تستمر في الدفاع عنها وأن تضطلع بوظائف لا تستطيع الدولة القيام بها ، كما كان بوسعها أن تتكلم باسم إسرائيل في الخارج . ومن هذا المنطلق ، بدأ جولدمان (رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية ـ فرع نيويورك) يتحدث لا عن مبدأ فصل الصلاحيات الذي طالب به الصهاينة الأمريكيون عشية قيام الدولة ولكن عن مبدأ المشاركة بين الدولة والشعب اليهودي ، كما طالب بتحقيق قدر من الخطط الصهيونية وأن تقيّم إسرائيل سلوكها من منظور أهداف المنظمة وأماني الشعب اليهودي . وقد لخصت المعركة نفسها في عدة اقتراحات مثل المطالبة بانضمام ممثل مراقب من المنظمة للحكومة الإسرائيلية ومنح المنظمة مركزاً قانونياً خاصاً بها . وقد اقترح جولدمان أن تصبح المنظمة الممثل الوحيد للشعب اليهودي في إسرائيل وأن يتم كل شيء من خلالها (فلا تنشئ حكومة المستوطنين علاقة مباشرة مع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم) . ويعني كل هذا في نهاية الأمر أن تصبح المنظمة ممثلة للشعب اليهودي خارج فلسطين ، الأمر الذي يعني استقلالها عن حكومة المُستوطَن .

أما بن جوريون فقد وصف المنظمة بأنها بمنزلة السقالة اللازمة لبناء الدولة والتي لم يَعُد لها لزوم الآن ، ولكنه رأى في الوقت نفسه إمكانية استخدامها وتوظيفها كأداة طيعة تسهم في تطويع بقية يهود العالم وتقديم المساعدات السياسية والمالية والبشرية لإسرائيل . ومن هنا ، أقر الكنيست عام ١٩٥٢ قانون وضع أو مكانة المنظمة الصهيونية/ الوكالة اليهودية ، وهو ما عُرف باسم «قانون الحالة أو المكانة» (بالإنجليزية : ستيتاس لو Status Law) . ويشير إليه الدكتور أسعد عبد الرحمن على أنه «القانون التشريعي» أو «القانون الشرعي» . وقد نص القانون على اعتراف الدولة الصهيونية بالمنظمة كوكالة مُخوَّلة السلطات (لا كمنظمة تمثل الشعب اليهودي) تابعة للدولة وتعمل داخل الكيان الصهيوني . والعبارة الجديدة ، تجرد المنظمة من أية صفة تمثيلية وتجعلها مجرد أداة . وقد ورد في القانون عبارات ذات مغزى عقائدي تؤكد انتصار بن جوريون على الصهاينة التوطينيين ، فالقانون يتحدث عن أن الدولة صنيعة الشعب اليهودي بأسره لا صنيعة المنظمة الصهيونية وحدها ، لكن هذه قد تحملت المسئولية الأساسية في إقامة الدولة وتمثِّل طليعة الشعب اليهودي ومساعيه الرامية لتحقيق رؤيا الأجيال في العودة إلى الوطن . كما

قرر القانون أن الواجب الأساسي لكل من المنظمة وإسرائيل هو تجميع المنفيين عن طريق تهجيرهم إلى إسرائيل . وقد حدَّد الميثاق الذي وُقِّع بين المنظمة وإسرائيل عام ١٩٥٤ ، بشكل أكثر تفصيلاً ، العلاقة بين الطرفين ، حيث نص على أن وظائف المنظمة هي : تنظيم الهجرة في الخارج ، ونَقْل المهاجرين وممتلكاتهم إلى إسرائيل ، والتعاون في استيعابهم وفي تشجيع استثمارات رأس المال الخاص فيها ، والتنسيق بين نشاطات المؤسسات والمنظمات اليهودية العاملة في حدود هذه المهام ، على أن يُنفَّذ كل ذلك وفقاً لقوانين إسرئيل وتمشياً مع الأنظمة والتعليمات الإدارية . وكذلك تكوين مجلس للتنسيق بين المنظمة والدولة الصهيونية . وبذلك ، نجح الصهاينة الاستيطانيون في تقليص دور المنظمة تماماً ، وفي استبعادها من نطاق العمل السياسي وتحويلها إلى أداة تنحصر وظيفتها في البحث عن دعم إسرائيل دون الحق في الاشتراك في تخطيط السياسة الداخلية أو الخارجية ودون الحق في تمثيل يهود العالم في جميع المجالات . وهي أداة قد تكون مهمة بحكم تكوين الدولة التي لا يمكنها الوصول إلى الجماعات اليهودية لأن سلطتها تنحصر داخل حدودها ، ولكنها مع هذا تظل أداة أو هيئة مُفوَّضة من قبل حكومة إسرائيل .

مع ذلك ، لم ينته الشد والجذب بين المنظمة والدولة ، وخصوصاً مع انتخاب جولدمان رئيساً للمنظمة عام ١٩٥٦ . وقد تجلَّى ذلك في المؤتمرين الصهيونيين الخامس والعشرين (١٩٦١) والسادس والعشرين (١٩٦٥) ، حيث أكدت المنظمة من جهة ضرورة تجديد حيويتها المفقودة منذ تأسيس الدولة مشددة على أهمية استمرار وازدهار يهود المنفى ليشكلوا الدرع الواقي لإسرائيل والمعين الذي لا ينضب بالنسبة إليها في الخارج ضمن هدف شامل عنوانه تأمين بقاء الشعب اليهودي . ومن جانب آخر ، أصرت إسرائيل على أن القضية الأساسية ليهود العالم (وللمنظمة بالتالي) هي تقوية إسرائيل بالهجرة إليها لا بتهجير الأموال فحسب ، وعلى أساس مركزية إسرائيل في كل الأمور ، فذلك هو الكفيل بضمان بقاء الشعب اليهودي في العالم أجمع .

وبالفعل أُجري تعديل في صيغة برنامج القدس (البرنامج المعتمد للحركة الصهيونية) في المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين (عام ١٩٦٨) حين أُضيفت إليه فقرة تنص على وحدة الشعب اليهودي وعلى مركزية إسرائيل في حياته ، وعلى تجميع الشعب اليهودي في وطنه التاريخي (إرتس يسرائيل) عن طريق الهجرة من مختلف البلدان ، ثم تدعيم دولة إسرائيل والحفاظ على هوية الشعب اليهودي من خلال تشجيع التربية اليهودية واللغة العبرية والقيم الروحية والثقافية اليهودية . كما نص على حماية الحقوق اليهودية أينما كانت . ويؤكد برنامج القدس المعدل الغلبة الحاسمة لإسرائيل على المنظمة . ولكن صيغة هذا البرنامج تتضمن افتراضات أخرى كامنة تتناقض مع الافتراضات الظاهرة . فالمطالبة بحماية الحقوق اليهودية أينما كانت والحفاظ على الهوية اليهودية من خطر الاندماج تتضمنان اعترافاً بأن حالة الشتات حالة نهائية وستستمر في الوقت الحاضر على الأقل . إذن فصيغة البرنامج تقدم تعريفاً أكثر مرونة للصهيونية وتسلِّم بالأمر الواقع ، أي بانقسام الحركة الصهيونية إلى اتجاهين ، توطيني واستيطاني ، لكلٍّ تعريفه الخاص للشعب اليهودي . وقد سُحبت في ذلك العام أيضاً إحدى أهم مهام المنظمة/الوكالة وهي استيعاب المهاجرين اليهود . كما أقر المؤتمر تحويل المنظمة إلى حركة عامة تفتح باب العضوية للمنظمات والهيئات اليهودية القُطرية والدولية التي لا تنتمي إلى الاتحادات الحزبية أو القُطرية الصهيونية ما دامت تقبل برنامج القدس . وقد تخلَّى جولدمان خلال هذا المؤتمر عن رئاسة المنظمة ، الأمر الذي كان يعني سقوط آخر معاقل المقاومة داخل المنظمة أمام السيطرة الإسرائيلية .

ومع ذلك ، جرت مواجهة أخرى بين المنظمة والدولة خلال المؤتمر الصهيوني الثامن عشر (١٩٧٢) حينما تقدَّم بعض الصهاينة الاستيطانيين بمشروع قرار ينص على أن زعماء المنظمات الصهيونية الذين لا يستوطنين في إسرائيل بعد فترتين من الخدمة يفقدون الحق في ترشيح أنفسهم مرة أخرى . وإزاء ذلك ، انسحب كل مندوبي الهاداساه احتجاجاً على الاقتراح . ولم يَعُد وفد الهاداساه المنسحب إلى قاعة المؤتمر إلا بعد أن قرر منظمو المؤتمر أن مشروع القرار المقدم لم يكن دستورياً ، وهكذا فقد جرى تحويله إلى توصية وحسب حتى تتفق كل الأطراف المتنازعة .

وخلال المؤتمر التاسع والعشرين (١٩٧٨) ، طُرحت هذه المسألة ، مرة أخرى ، على أيدي الصهاينة الاستيطانيين وعلى رأسهم آريه دولتسين رئيس إدارة الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية الذي دعا إلى ضرورة هجرة كبار المسئولين الصهاينة إلى الدولة الصهيونية بعد انقضاء مدة محددة من عملهم في المنظمة . وقد أثار ذلك الاحتجاج الشديد من قبل الصهاينة الأمريكيين ، الأمر الذي أدَّى مرة أخرى إلى التوصل إلى حل وسط تحرَّر بموجبه قرار المؤتمر السابق مؤكداً ضرورة الهجرة إلى إسرائيل كواجب على أعضاء الحركة الصهيونية العالمية ولكن دون إضافة نص يُلزم بتحقيق ذلك فعلاً . وقد جاء ذلك بعد فشل مهمة اللجنة العقائدية للمنظمة

الصهيونية التي تشكلت عام ١٩٧٤ لمحاولة إعطاء تفسيرات معاصرة للمبادئ الصهيونية التقليدية وتعريف الصهيوني وتحديد واجباته. كما فشلت اللجنة في حَسْم مسألة ما إذا كان على الصهيوني كي يكون صهيونياً حقاً أن يهاجر إلى إسرائيل. وقد ظل الخلاف مستحكماً بين الصهاينة الاستيطانيين والصهاينة التوطينيين الأمريكيين حيث أصر الأخيرون على أنه إذا كانت الهجرة واجباً مطلوباً على المستوى المثالي النظري فإنها ليست شرطاً لازماً لتحقيق الذات الصهيونية. وفي حين أكدوا مركزية إسرائيل، فقد طالبوا بالتعاون ضمن إطار المشاركة. ورفضوا اعتبار وجودهم في الشتات هامشياً، كما رفضوا إصرار الاستيطانيين على اعتبار اليهود أمة مرتبطة بوطن، واكتفوا بالحديث عن شعب واحد دون ارتباط بوطن محدد.

ولعل من أهم أسباب تآكُل وكالة المنظمة الصهيونية العالمية، وهامشيتها وتبعيتها للدولة، فقدان الصهاينة التوطينيين الشرعية بوجودهم في الخارج. وكذلك، فإن كثيراً من المهمات التي كان يُفترَض أن المنظمة ستكون مسئولة عنها بعد إنشاء الدولة أصبحت تضطلع بها منظمات وهيئات يهودية غير صهيونية (بالمعنى التنظيمي على الأقل)، وخصوصاً في الولايات المتحدة. فمنذ قيام الدولة لم يأت المتطوعون أو المهاجرون إلى إسرائيل من بين صفوف الصهاينة بل جاءوا من بين صفوف الجماعات اليهودية في العالم. وحتى بالنسبة إلى هؤلاء، لا تستطيع المنظمة الادعاء بأنها ساعدت على هجرتهم، فأغلبهم (سواء القادمون من العالم العربي أو ضحايا الحرب العالمية الثانية أو حتى اليهود السوفييت) جاءوا إلى إسرائيل نتيجة ظروف موضوعية طارئة وليس نتيجة دوافع أيديولوجية. كما أن نسبة كبيرة من المعونات التي حصلت عليها الدولة لم تأت من خلال الجمعيات والمنظمات الصهيونية وإنما جاءت من خلال جيوب أعضاء الجماعات اليهودية المتعاطفين مع إسرائيل، الأمر الذي يعني أن المصادر المالية والبشرية أصبحت تقع خارج المنظمة الصهيونية. ومنذ عام ١٩٦٨، وبعد فتح الباب أمام المنظمات والهيئات اليهودية التي تقبل برنامج القدس للانضمام للمنظمة، تزايد اختراق هذه الجهات للإطار التنظيمي للمنظمة مثل: الاتحاد السفاردي العالمي، واتحاد مكابي العالمي والاتحاد العالمي لليهودية التقدمية، والمجلس العالمي للمعابد، وغيرها.

ومنذ عام ١٩٦٧، أصبحت هناك صعوبة في إيجاد أي تمييز حقيقي بين المنظمات الصهيونية والمنظمات اليهودية غير الصهيونية، حتى أن أعضاء هذه المنظمات الأخيرة أصبح يُطلَق عليهم لقب «الصهاينة الجدد»، وخصوصاً منذ مؤتمر قيساريه (ويُعرَف أيضاً باسم «عملية قيساريه») الذي انعقد عام ١٩٨١ بين ممثلي المنظمة الصهيونية العالمية وممثلي قادة الجماعات اليهودية ومنظمات الجباية اليهودية الأعضاء في الوكالة اليهودية ونتج عنه قبول الأعضاء غير الصهاينة برنامج القدس مقابل إعادة صياغة بعض المهام التقليدية لكلٍّ من الوكالة الصهيونية والمنظمة الصهيونية. ومما يُذكَر أن قادة الجماعات اليهودية وزعماء منظمات الجباية يمارسون ضغطاً متزايداً منذ السبعينيات والثمانينيات ليكون لهم قدر أكبر من الرقابة والسيطرة على الوكالة اليهودية وللحد من تسييسها ومن سيطرة المنظمة الصهيونية عليها (وخصوصاً أن عمليات الجباية تواجه صعوبات متزايدة نتيجة عوامل ديموجرافية عديدة تتصل بالجماعات اليهودية)، وكذلك للحد من تزايد احتياجات الجماعات المحلية، الأمر الذي يستدعي توافر قدر أكبر من الموارد المالية لها.

وقد كان أحد أهم التغييرات التي أسفرت عنها عملية قيساريه هو نقل واحدة من أهم مهام المنظمة الصهيونية العالمية (وخصوصاً منذ عملية الفصل الصوري بين المنظمة والوكالة عام ١٩٧١) أي نقل مهمة الإشراف على التعليم اليهودي والصهيوني لأبناء الجماعات اليهودية خارج إسرائيل (النشاط الأيديولوجي للمنظمة) إلى الوكالة اليهودية. وقد تقرَّر بالفعل (عام ١٩٨٨) تكوين هيئة التعليم اليهودية التابعة للوكالة اليهودية لتضم البرامج التعليمية الخاصة بالوكالة (داخل إسرائيل) والمنظمة (خارج إسرائيل)، واتُّخذت خطوات لتنفيذ هذا القرار عام ١٩٩٠. وهذا، في الواقع، يعني تجريد المنظمة الصهيونية العالمية من إحدى وظائفها الأساسية وتقليص أهميتها إلى درجة كبيرة، كما يعني تزايد هامشيتها في حياة الجماعات اليهودية. وبالفعل، نجد أنه، مع فتح بلاد أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي أمام نشاط المنظمات اليهودية والإسرائيلية منذ عام ١٩٩٠، رفض ممثلو الجماعات اليهودية ومنظمات الجباية أن تقوم المنظمة الصهيونية بالإشراف على برامج التعليم بين الجماعات اليهودية في هذه الدول، وأصرت على أن تتولَّى الوكالة هذه المهمة. ولا شك في أن ثمة اتجاهاً قوياً نحو تزايد تهميش المنظمة في ظل أزمة الصهيونية الراهنة المتمثلة في انخفاض وتائر الهجرة اليهودية إلى إسرائيل (قبل فتح أبواب الهجرة أمام اليهود السوفييت منذ عام ١٩٨٩) وإلى تزايد النزوح عنها بتفاقم المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية داخل إسرائيل. كما تتمثل أزمة الصهيونية في التوتر بين إسرائيل والجماعات اليهودية، خصوصاً في الولايات المتحدة خلال حكم الليكود، وذلك نتيجة إثارة قضية ازدواج الولاء

والانتفاضة الفلسطينية والتطرف الديني والموقف من السلام في الشرق الأوسط . وبالإضافة إلى ذلك ، نجد أن عضوية المنظمة الصهيونية لم تتجاوز أبداً نسبة ١٠٪ من مجموع يهود العالم .

وفي محاولة لإحياء وتقوية المنظمة الصهيونية وتقوية علاقتها بيهود العالم ، أطلق آريه دولتسين رئيس إدارة المنظمة/ الوكالة (عام ١٩٨٣) ما يُعرَف باسم «عملية هرتزليا» التي تتضمن إجراء حوارات ولقاءات في إسرائيل بين الجماعات اليهودية لإعادة تقييم ماهية الصهيونية ولتحويل الصهيونية إلى حركة تضم كل يهود العالم ("تحويل الصهيونية من حركة تحرير الشعب اليهودي إلى حركة مسئولة عن استمرار وجود الشعب اليهودي") .

وفي عام ١٩٨٦ ، وضع المجلس الصهيوني العام سلسلة من المعايير عُرفت باسم «متسفوت» ، وهي كلمة عبرية تعني «الأوامر والنواهي» الدينية ، فكأن المبادئ الصهيونية الجديدة هي بمنزلة الأوامر والنواهي الدينية . وتهدف هذه المبادئ أو المتسفوت الجديدة إلى تحديد المهام التي يجب أن يضطلع بها كل من يعتبر نفسه صهيونياً ، وذلك حتى يمكن التمييز بين الأعضاء الحقيقيين للحركة الصهيونية وبين أصدقاء إسرائيل . وهذه المبادئ تقضي بأن يقوم أعضاء المنظمة الصهيونية بالبدء ، هم وأسرهم ، بالهجرة إلى إسرائيل . وحيث إن التعليم اليهودي أكبر ضمان للحفاظ على التراث اليهودي وتفرُّد الشعب اليهودي وتميُّزه ، لذا يجب أن يزوِّد كل صهيوني نفسه وأولاده بتعليم صهيوني مكثف ، وأن يشجع أولاده على الانضمام إلى حركات الشباب الصهيوني بل أن يكون جو المنزل نفسه ذا طابع صهيوني ، ويجب على الصهاينة أن يجعلوا التقويم الصهيوني جزءاً عضوياً من حياتهم اليهودية بالإضافة إلى التقويم اليهودي . ويجب أن تصبح العبرية حلقة الوصل بين إسرائيل والدياسبورا ، ومن الواجب على كل الصهاينة أن يجعلوا العبرية لغتهم . ويجب أن يكون هناك وجود صهيوني في حياة الجماعات اليهودية وخصوصاً في عمليات جمع التبرعات . ويجب أن يؤكد كل صهيوني التزامه بالدفاع عن حرية اليهود الذين يعيشون في ضيق في الهجرة إلى إسرائيل . ويجب على كل المؤسسات الصهيونية والمرتبطة بالحركة الصهيونية أن تجعل المتسفوت (الأوامر والنواهي) الصهيونية جزءاً من دساتيرها وبرامجها .

ورغم استخدام اصطلاح «متسفوت» بكل ما يحمل من رنة دينية صوفية ، فإن هذه المطالب متواضعة للغاية وتحاول التوصل إلى حد أدنى يجمع بين التيار الإثني (الديني أو العلماني) والصهيونيتين التوطينية والاستيطانية . كما تقرَّر أن الالتزام بهذه الأوامر والنواهي يُعتبَر اختيارياً بالنسبة للأعضاء (أي أنها ليست في واقع الأمر «أوامر ونواهي» وإنما «توصيات») . كما أقر المؤتمر الحادي والثلاثون (١٩٨٧) إقامة حركة عالمية لصهيونية تجسيدية (بالعبرية : مجشميم) لتضم منظمات الهجرة وحركات الشبيبة الصهيونية التي ستكون قدوة لسائر أعضاء الحركة من خلال تجسيد جوهر الصهيونية (أي الهجرة) . ولكن هاتين المحاولتين لم تنجحا في إحياء الروح الصهيونية بين أعضاء المنظمة ، وهو ما أدَّى إلى تلاشيهما تماماً بحلول عام ١٩٩٠ وانتهائهما بدون نتيجة .

وخلال المؤتمر الحادي والثلاثين (١٩٨٧) ، نجح ممثلو منظمات الجباية اليهودية في فرض قيود صارمة على النواحي المالية للمنظمة كما تقلصت ميزانيتها إذ كانت الوكالة اليهودية تقوم بتوفير مواردها من ٦٤ مليون دولار عام ١٩٨٦/ ١٩٨٧ إلى ٤٩ مليوناً عام ١٩٩٠/ ١٩٩١ .

ومع انعقاد المؤتمر الصهيوني الثاني والثلاثين (١٩٩٢) كانت المشاكل كلها لا تزال قائمة واستمر الحديث مرة أخرى عن ضرورة توثيق العلاقة بين الصهيونية (في الشتات) وإسرائيل وضرورة تقوية التعليم اليهودي وتعلُّم العبرية ومركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا ، وكأن الخطاب الصهيوني قد تحوَّل إلى ما يشبه التسجيل الممل ، وهذا ما جعل كثيراً من المعلقين الإسرائيليين يطلقون التصريحات السلبية فشبه أحدهم الحركة الصهيونية بالعظام الجافة ، وقال آخر إنه قد حان الوقت لإطفاء الأنوار وليذهب كلٌّ إلى حاله ، وقال ثالث إن هذه ليست حركة صهيونية وإنما هي حركة أحباء صهيون أو حركة متبرعي صهيون . وقد لخص أحد مراسلي الإذاعة الإسرائيلية الموقف كله حين بدأ حديثه عن المؤتمر قائلاً : "هل ما زالت هذه المؤسسة قائمة ؟" ومما يجدر ذكره أنه لم يجر انتخاب أيٍّ من المندوبين الذين حضروا إلى هذا المؤتمر .

ومما سبق ، نرى أن وضع المنظمة أصبح هامشياً بالنسبة لكلٍّ من الدولة الصهيونية والجماعات اليهودية ، وهو ما يثير مرة أخرى الجدل في شأن مبرر استمرار بقائها . وليس مصادفة أن المبرر الرسمي الذي يعطى اليوم لبقاء الوكالة اليهودية هو كونها الهيئة الوحيدة القادرة على أن تشكل قناة لتحويل الأموال من المتبرعين اليهود ، وخصوصاً في الولايات المتحدة ، إلى دولة لا يحق لها جمع مثل هذه التبرعات (الدولة الصهيونية) .

الهيكل التنظيمي للمنظمة الصهيونية العالمية

Organizational Structure of the World Zionist Organization

مرّ هيكل المنظمة الصهيونية بكثير من التعديلات التي اقتضتها ظروف كل مرحلة حتى وصل إلى وضعه الحالي :

ـ المؤتمر الصهيوني : وهو الهيئة العليا للمنظمة الصهيونية (انظر : «المؤتمرات الصهيونية») .

ـ المجلس الصهيوني العام : يتولى مهام المؤتمر في غير أوقات انعقاده ويتخذ كل القرارات اللازمة ، ويراقب تنفيذ القرارات التي اتخذها المؤتمر . وتعكس عضويته تشكيل المؤتمر الصهيوني ، إذ يمثل كل مجموعة حزبية أو محلية خُمس عدد مندوبيها في المؤتمر . ويبلغ عدد أعضائه في الوقت الحالي حوالي ١٤٤ عضواً لهم حق التصويت ، بالإضافة إلى عدد من الأعضاء ذوي الصفة الاستشارية ، ويجتمع مرة كل عام بحيث لا يتجاوز موعد الاجتماع ٣١ مارس من كل عام ، وهو موعد انتهاء السنة المالية في المنظمة الصهيونية

ومع أن مسئولية انتخاب المجلس الصهيوني العام ورئيس المنظمة واللجنة التنفيذية ، والمؤسسات القضائية كافة ، مناطة بالمؤتمر ، إلا أنه حدث مراراً أن فوَّض المؤتمر ذلك للمجلس العام . وقد جرى إقرار دستور المنظمة عام ١٩٦٠ من قبَل المجلس العام وليس المؤتمر . ويتشكل المجلس العام ـ حسب دستور ١٩٦٠ ـ من أعضاء عاملين وأعضاء استشاريين ، ويتم اختيار العضوية العاملة على أساس عددي يساوي ٢٠٪ من أعضاء فريق ما في المؤتمر . أما العضوية المراقبة (ولها حق النقاش دون حق التصويت) ، فإنها من حق الشخصيات الصهيونية البارزة وبعض أعضاء اللجنة التنفيذية السابقين . وتماماً كما أن المؤتمر قد يتخلى عن بعض صلاحياته مؤقتاً للمجلس على أساس التفويض التشريعي ، حدث أن تخلَّى المجلس العام عن الكثير من صلاحياته ـ أثناء الحرب العالمية الثانية مثلاً ـ لمجلس صهيوني داخلي تألف في حينه من واحد وثلاثين عضواً . وأخيراً ، للمجلس الصهيوني بريزيديوم (مجلس رئاسي) خاص به يتكون من الرئيس وستة عشر عضواً يُسيِّرون أعمال المجلس العام ويمثلونه في مختلف المسائل والشئون الداخلية والخارجية .

ـ اللجنة التنفيذية : وعدد أعضائها ٢٥ عضواً في إسرائيل و١١ في الولايات المتحدة (ويُسمَّى «القسم الأمريكي») . واللجنة التنفيذية هي أيضاً المكوِّن الصهيوني في مجلس حكام (أمناء) الوكالة اليهودية والتي تضم عناصر اللجنة التنفيذية للوكالة . وهي مسئولة أمام المؤتمر والمجلس الصهيوني وتقدم لهما تقارير دورية ومقرها الرئيسي في القدس ولها الحق في إقامة فروع لها في الخارج . أما القسم الأمريكي فمقره نيويورك ويُسمَّى : «المنظمة الصهيونية العالمية ـ القسم الأمريكي» . ويلتقي أعضاء الفرعين عدة مرات في السنة في مدينة القدس ، حيث تصاغ السياسات والبرامج . وتدير اللجنة التنفيذية في القدس الشئون اليومية عبر دوائرها المختلفة (الهجرة والاستيعاب ـ هجرة الشباب ـ والشباب والرواد ـ التعليم والثقافة ـ المالية ـ والإدارة) التي يرأسها عضو أو أكثر من أعضاء اللجنة .

وتشرف اللجنة التنفيذية على الأرشيف الصهيوني المركزي وعلى معهد بياليك . ويتبع القسم الأمريكي معهد هرتزل ومطبعة هرتزل ومجلة ميدستريم ودائرة العلاقات بين الجماعات الدينية غير اليهودية ومؤسسة الشباب الأمريكي الصهيوني ودائرة التعليم والثقافة ودائرة الثقافة والتعليم الديني (اليهودي) .

وتتولى اللجنة التنفيذية متابعة نشاط المنظمة اليومي والإشراف على تنفيذ قرارات المؤتمر الصهيوني والمجلس العام ، ومقرها الرئيسي القدس ولها فرع في نيويورك . ويتولى المؤتمر انتخاب اللجنة التنفيذية من بين أعضاء المجلس العام . وتضم اللجنة عدة دوائر وأقسام ، مثل : دائرة الشبيبة والريادة ـ دائرة التربية والثقافة (في الشتات) ـ دائرة الثقافة التوراتية (في الشتات) ـ قسم الخدمات الروحية ـ دائرة التنظيم والإعلان ـ دائرة العلاقات الخارجية ـ دائرة التنمية والخدمات ـ قسم الاستيطان الزراعي (بخلاف دائرة الاستيطان الزراعي التابعة للوكالة اليهودية) ـ قسم الطلبة ـ قسم قيادة الشبيبة ـ قسم الصحافة والعلاقات العامة ـ قسم الجماعات السفاردية ـ قسم التنظيم (كما تضم دائرتي هجرة الشبيبة والهجرة والاستيعاب التابعتين للوكالة اليهودية) ، هذا بالإضافة إلى دائرة الأمور المالية وقسم الموظفين وغير ذلك من الدوائر والأقسام . ويترأس كل قسم عضو من أعضاء اللجنة التنفيذية .

ـ رئيس المنظمة : ينتخبه المؤتمر الصهيوني ، وقد تولَّى رئاسة المنظمة على التوالي كلٌّ من : تيودور هرتزل (١٨٩٧ ـ ١٩٠٤) ، وديفيد ولفسون (١٩٠٥ ـ ١٩١١) ، وأوتو واربورج (١٩١١ ـ ١٩٢٠) . وحاييم وايزمان (١٩٢٠ ـ ١٩٣١) ، وناحوم سوكولوف (١٩٣١ ـ ١٩٣٥) ، ثم وايزمان (١٩٣٥ ـ ١٩٤٦) . وبعد أن قدَّم وايزمان استقالته عام ١٩٤٦ ، بقيت المنظمة بلا رئيس حتى عام ١٩٥٦ فانتُخب ناحوم جولدمان وظل في منصبه حتى عام ١٩٦٨ ، ولم يُجر منذ ذلك الحين انتخاب رئيس آخر ، وربما كان ذلك لتأكيد تبعية المنظمة للدولة ، ولكي تَسهُل قيادتها والهيمنة عليها .

ومع أن الرئيس يستمد سلطاته ـ حسب دستور ١٩٦٠ ـ من

المؤتمر الذي ينتخبه (رئاسة اللجنة التنفيذية والمجلس العام وغير ذلك) ، فإن صلاحيته الفعلية مستمدة من شخصيته . ويعمل الرئيس من خلال اللجنة التنفيذية .

وللمنظمة أيضاً سلطة قضائية متمثلة في محكمة المؤتمر ومدع عام للمنظمة الصهيونية ، ولمحكمة المؤتمر الحق في تفسير الدستور ، وبحث شرعية القرارات الصادرة عن الهيئات الصهيونية المركزية ، وحسم الخلافات بين هيئة صهيونية مركزية وأخرى أو أي فرد باستثناء القضايا المالية (المنوطة بالمفتش المالي ومكتب المسئولين عن الشئون المالية والاقتصادية للمنظمة الصهيونية وهيئاتها وموظفيها) . كما أن من مهام المحكمة معالجة الاعتراضات الخاصة بتأجيل عقد المؤتمر أو المجلس الصهيوني ، والتحقق من انتخابات المؤتمر ومعالجة النداءات أو الالتماسات الصادرة من الهيئات القضائية الإقليمية ، ضد القرارات الخاصة باللجان التي تقرر عدد ممثلي المؤتمر ونظام الانتخابات ، والشكاوى المتصلة بتجاوز الدستور أو بمصالح وهيئة المنظمة الصهيونية . ومن جهة ثانية ، يمثل المدعي العام مصالح المنظمة الصهيونية أمام محكمة المؤتمر ، ويقدم النصح والإرشاد القانوني لكل الهيئات الصهيونية المركزية .

والمؤتمر الصهيوني ـ كما أسلفنا ـ هو الهيئة العليا للمنظمة الصهيونية العالمية ، ويتألف في الوقت الحاضر من المجلس الصهيوني العام واللجنة التنفيذية الصهيونية بالإضافة إلى ممثلي مختلف المنظمات الصهيونية في العالم وضمن ذلك الأحزاب الإسرائيلية وبعض المنظمات اليهودية . وكانت هذه المؤتمرات تُعقَد مرة كل عام خلال الفترة من ١٨٩٧ وحتى ١٩٠١ ، ثم مرة كل عامين خلال الفترة من ١٩٠١ وحتى ١٩١٣ ، وقد توقَّف انعقادها خلال الحرب العالمية الأولى إلى أن عادت للانعقاد مرة كل عامين من عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٣٩ . وبعد الحرب العالمية الثانية ، اتسمت اجتماعاتها بعدم الانتظام ، وإن كانت تُعقد في المعتاد مرة كل أربع أو خمس سنوات في القدس .

ويمثل المؤتمر الصهيوني أعلى سلطة في المنظمة الصهيونية ، فهو الذي يقر التشريعات ويتلقى التقارير والمقترحات من اللجنة التنفيذية والمؤسسات الصهيونية المختلفة ، ويرسم الخطوط العامة لسياسة المنظمة والمؤسسات التابعة لها ، وهو الذي يقرر الميزانية والسياسات المالية وسياسة المنظمة بشأن الهجرة والتعليم اليهودي ، وتظل هذه القرارات والسياسات ملزمة للمنظمة إلى أن يتم تغييرها في مؤتمر لاحق . كما يقوم المؤتمر بانتخاب رئيس المنظمة وأعضاء اللجنة التنفيذية والمجلس الصهيوني العام ورئيس المحكمة العليا الصهيونية والمدعي الصهيوني العام ومراقب الحسابات وغير ذلك من المناصب القيادية والتنفيذية . ويبلغ عدد أعضاء المؤتمر ٥٠٠ عضو ، وإن كان من حق المجلس الصهيوني العام أن يزيد عدد المندوبين قبل انعقاد المؤتمر بعام . فعلى سبيل المثال ، حضر المؤتمر التاسع والعشرين (١٩٧٨) ٦٣٥ مندوباً ، وحضر المؤتمر الثلاثين (١٩٨٢) ٧٥٠ مندوباً وحضر المؤتمر الحادي والثلاثين (١٩٨٧) ٦٥٩ مندوباً .

وقد طرأت عدة تغييرات على تشكيل المؤتمر الصهيوني وكيفية اختيار أعضائه . فقد ضم المؤتمر الأول (١٨٩٧) مثلاً أعضاء متطوعين اختارتهم التجمعات اليهودية المحلية على أسس جغرافية . وفي المؤتمر الثاني (١٨٩٨) ، أُدخل نظام ضريبة العضوية الفردية المسماة «الشيقل» ، على أن تجرى الانتخابات بين الوفود من دافعي الضريبة . وفي المؤتمر الثاني عشر (١٩٢١) ، مُنح أعضاء المنظمة الصهيونية العالمية الذين يعيشون في فلسطين المحتلة امتيازاً خاصاً إذ أصبح لهم الحق في اختيار مندوبين عنهم للمؤتمر بنسبة تعادل ضعف النسب المعمول بها في البلدان الأخرى . ومنذ المؤتمر الحادي والعشرين (١٩٣٩) ، تم الاستقرار على نظام يُخصَّص بمقتضاه ٣٨٪ من إجمالي مقاعد المؤتمر للصهاينة المستوطنين في فلسطين . أما الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد خُصِّص لها ٢٩٪ من المقاعد ، الأمر الذي يدل على ثقل وزنها منذ مرحلة مبكرة في تاريخ الحركة الصهيونية . أما الباقي (٣٣٪) ، فيُقسَّم بين بقية الاتحادات الصهيونية في العالم . وتُشكَّل لجنة خاصة لإقرار كيفية توزيع المندوبين بين هذه الاتحادات ، ويُتَّخذ القرار بعد دراسة نشاطاتها في مجالات مختلفة مثل الهجرة والتربية وجمع التبرعات . وفي عام ١٩٦٠ ، أُلغيت العضوية الفردية في المنظمة الصهيونية العالمية وأصبح التمثيل في المؤتمر الصهيوني يتم على أساس انتخابات نسبية لقوائم تمثل المنظمات الصهيونية والهيئات الدولية والاتحادات الصهيونية القطرية في العالم . أما في إسرائيل ، فيتم توزيع المقاعد المخصصة لها على الأحزاب والكتل الصهيونية طبقاً لما تحرزه هذه الأحزاب والكتل في انتخابات الكنيست السابقة على المؤتمر .

ويتكون المؤتمر الصهيوني من العناصر التالية :

أولاً : اتحادات صهيونية قطرية «فيدرالية» (تيريتوريال زايونيست فيديريشن Territorial Zionist Federation) : وهو اتحاد يضم أفراداً وهيئات ومنظمات وجمعيات محلية داخل رقعة جغرافية محددة خاضعة للجنة إقليمية عليا في البلد المعني . والاتحادات القطرية تأخذ بدورها أشكالاً مختلفة ، فقد تكون اتحادات صهيونية تُنظَّم على أساس العضوية الفردية كما هو الحال في هولندا ، أو فيدراليات

على أساس العضوية الجماعية كما هو الحال في بلجيكا ، أو فيدراليات مختلطة على أساس الجمع بين العضويتين الفردية والجماعية كما هو الحال مع فرنسا . ويبلغ عدد الاتحادات الصهيونية القطرية في الوقت الحالي ٣١ اتحاداً ، أهمها اتحادات الولايات المتحدة وكندا وجنوب أفريقيا وفرنسا وبريطانيا .

ثانياً : الاتحادات الصهيونية الدولية الحزبية (زايونيست وورلد يونيون Zionist World Union) : وهي اتحادات صهيونية تمثل وجهة نظر (حزبية) معيَّنة ولها فروع في خمسة بلاد على الأقل ، وهذه الاتحادات هي :

١ ـ منظمة مزراحي العالمية (هابوعيل مزراحي) .

٢ ـ أرتسينو (إصلاحي) .

٣ ـ اللجنة التنفيذية العالمية لحركة حيروت ـ هاتسوهر .

٤ ـ حركة العمل الصهيونية العالمية .

٥ ـ الاتحاد العالمي لحزب العمال المتحدين ـ مابام .

٦ ـ الكونفدرالية العالمية للصهاينة المتحدين (العموميين سابقاً) .

٧ ـ الاتحاد العالمي للصهيونيين العموميين .

وهذه الاتحادات تمثل اتجاهات عقائدية مختلفة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، وبعضها يرى نفسه امتداداً للأحزاب الإسرائيلية في الداخل . وهو أمر مضحك بطبيعة الحال حيث إن هؤلاء الصهاينة من أعضاء هذه الاتحادات يعيشون في مجتمعاتهم ويخضعون لحركياتهم ولا يربطهم بإسرائيل سوى التبرعات التي يدفعونها والدعم السياسي الذي يقدمونه ، ولعل هذا هو الهدف من هذه الأحزاب الصهيونية الدولية ، فهي الإطار المؤسسي الذي يتم من خلاله جَمْع التبرعات من الصهاينة التوطينيين وتجنيدهم لحساب المستوطنين . وكل أعضاء هذه الاتحادات الصهيونية الدولية الحزبية هم أيضاً أعضاء في الاتحادات الصهيونية القطرية .

ثالثاً : المنظمات الدولية اليهودية (غير الحزبية) جويش إنترناشيونال بوديز Jewish International Bodies ، وهي منظمات يهودية توجد في عدة دول مستقلة ومستعدة لقبول برنامج القدس . وهذه المنظمات هي :

١ ـ المجمع العالمي للمعابد اليهودية والطوائف (أرثوذكسي) .

٢ ـ المجلس العالمي للمعابد اليهودية (محافظ) .

٣ ـ الاتحاد العالمي لليهودية التقدمية (إصلاحي) .

٤ ـ الاتحاد السفاردي العالمي .

٥ ـ اتحاد مكابي العالمي (منظمة رياضية تثقيفية) .

وممثلو هذه المنظمات ليس لهم حق التصويت في المؤتمر في انتخابات مؤسسات المنظمة الصهيونية ولا يقترعون في القضايا الخاصة بالترشيح إلا إذا انضموا للاتحاد الصهيوني القطري .

وقد أُبرم اتفاق بين هذه المنظمات اليهودية والمنظمة الصهيونية تم بمقتضاه منْح كل منظمة الحق في إرسال عدد ثابت من المندوبين للمؤتمر الصهيوني . ولا يحق لأعضاء هذه المنظمات الاشتراك في الانتخابات لإرسال مندوبين لأنهم ليسوا أعضاء في أي اتحاد قطري صهيوني .

رابعاً : منظمة النساء الصهيونية العالمية (ويزو) :

تم عقد اتفاق بين منظمة ويزو والمنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٦٤ ، أصبح من حق ويزو بمقتضاه أن ترسل أربعاً وعشرين مندوبة دون أن تقدم قائمة معيَّنين أو مرشحين ، ولا توجد أية حدود على حقوق مندوبي الويزو في التصويت .

ويُلاحَظ أن الاتحادات القطرية في كل بلد هي المنظمة المظلة التي تضم الفروع التابعة للاتحادات الصهيونية الدولية الحزبية وأحياناً فروع المنظمات الدولية اليهودية وفرع ويزو في هذا البلد .

خامساً : يحضر أيضاً بعض المندوبين بصفة مراقبين مثل أعضاء اللجنة التنفيذية وأعضاء المجلس العام ورؤساء الاتحادات القطرية وممثلي حركات الهجرة .

ويُلاحَظ تناقُص نسبة المشتركين في انتخابات المؤتمر الصهيوني ، وقد عجزت المنظمة والتجمعات الصهيونية في البلدان المختلفة عن إجراء انتخابات لاختيار ممثليهم إلى المؤتمر الصهيوني . ويبدو أنه أصبح من النادر عقد أي انتخابات لاختيار المندوبين إذ تقوم كل الهيئات الصهيونية بتوزيع مقاعد المندوبين فيما بينها حسب صيغة محددة وحسب صفقات تُبرَم بين كل الأطراف ، ولم تُعقَد انتخابات قبل المؤتمر الصهيوني الثاني والثلاثين (١٩٩٢) .

الوكالة اليهودية

Jewish Agency

الساعد التنفيذي (الاستيطاني) للمنظمة الصهيونية منذ عام ١٩٢٢ في أعقاب صدور وعد بلفور وفرض الانتداب البريطاني على فلسطين . نصت المادة الرابعة من صك الانتداب على إقامة وكالة يهودية تكون بمنزلة هيئة استشارية للإدارة وللتعاون معها في المسائل الاقتصادية والاجتماعية المتعلقة بإقامة وطن قومي لليهود وبمصالح السكان اليهود في فلسطين . واعترف صك الانتداب بالمنظمة الصهيونية على أنها هذه الوكالة . ومن ثم ، فإن اسمها يُذكَر مقروناً باسم المنظمة على هذا النحو : «المنظمة الصهيونية العالمية/ الوكالة

اليهودية» ، حيث يُشير النصف الأول من المصطلح إلى المنظمة الصهيونية في علاقتها بالجماعات اليهودية في العالم وفي نشاطها الأيديولوجي والتوطيني، على حين يُشير النصف الثاني إلى نشاطها الاستيطاني الذي يتعامل مع الواقع الفلسطيني بشكل مباشر.

وقد شهدت الوكالة عبر تاريخها محاولات عدة لتوسيع قاعدتها لتضم كل يهود العالم . فلكي تحقق الحركة الصهيونية أهدافها السياسية ، كان من الضروري كسب الدعم المادي والسياسي للجماعات اليهودية في العالم ، وخصوصاً من قبل أثرياء اليهود في أوربا والولايات المتحدة . ومن هذا المنطلق ، سعى حاييم وايزمان إلى إنشاء وكالة يهودية موسعة تضم تحت لوائها اليهود الصهاينة واليهود غير الصهاينة (وبذلك تكتسب الوكالة الصفة التمثيلية لليهود وتستطيع التغلغل في أوساطهم وزيادة مواردها المالية) . وقد أجرى وايزمان مفاوضات في هذا الصدد مع زعماء الجماعات اليهودية غير الأعضاء في الحركة الصهيونية ، وعلى رأسهم لويس مارشال رئيس اللجنة اليهودية الأمريكية وفيلكس واربورج أحد الزعماء البارزين للجماعة اليهودية في الولايات المتحدة . وقد قام فلاديمير جابوتنسكي وناحوم جولدمان بمعارضة مبدأ توسيع الوكالة وضم عناصر غير صهيونية إليها ، وذلك خوفاً من آثار ذلك على البرنامج الصهيوني . ومع ذلك ، وفي عام ١٩٢٩ ، قرر المؤتمر الصهيوني السادس عشر إنشاء الوكالة اليهودية (الموسعة) وإشراك عناصر يهودية غير صهيونية مناصفةً مع الأعضاء الصهاينة يُختارون من ٢٦ بلداً (معظمهم من الولايات المتحدة) . وأصبحت الوكالة اليهودية في فلسطين والمنظمة الصهيونية (رغم أن لهما رئيساً واحداً) هيئتين منفصلتين من الناحية الشكلية ، كما تم إلحاق الصندوق التأسيسي اليهودي بالوكالة بحيث يمثل إدارتها المالية . وبعد تأسيسها بعام واحد ، تهاوت الشراكة بين الصهاينة وغير الصهاينة بسبب نشوب الاضطرابات العربية المقاومة للمستوطنين الصهاينة في فلسطين (وموت لويس مارشال) . وقد استمرت الوكالة اليهودية الموسعة بطريقة شكلية وبقيت السيطرة الفعلية داخل الوكالة للعناصر الصهيونية . ولم يتمكن غير الصهاينة من القيام بأي دور مستقل ، فقد كانوا يفتقرون إلى التنظيم . كما أن نسبة التمثيل غير الصهيوني (الـ ٥٠٪) لم تُمارس عملياً أية ضغوط نتيجة مجموعة معقدة من القواعد التنظيمية ضمنت الأغلبية الفعلية للعناصر الصهيونية . وفي عام ١٩٤٧ ، استقال آخر عضو غير صهيوني من اللجنة التنفيذية للوكالة ، ومن ثم أُعيد توحيد اللجنتين التنفيذيتين للوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية فأصبحتا هيئة واحدة .

ومن المهام الرئيسية للوكالة اليهودية خلال فترة الانتداب تمثيل الحركة الصهيونية ويهود العالم أمام سلطات الانتداب وعصبة الأمم والحكومة البريطانية . كما تضمنت مهامها الأخرى : تطوير حجم الهجرة اليهودية إلى فلسطين بصورة متزايدة ، وكفالة الحاجات الدينية اليهودية ، واسترداد الأراضي في فلسطين كملكية يهودية عامة (وذلك عن طريق الصندوق القومي اليهودي) ، والاستيطان الزراعي المبني على العمل اليهودي ، ونشر اللغة العبرية والتراث اليهودي في فلسطين . ومع أن سلطات الانتداب لم تنظر إلى الوكالة على أنها شريك في الحكم ، إلا أن الوكالة تغلغلت في حياة المستوطنين الصهاينة لتشمل نشاطاتها مختلف جوانب حياتهم . وقد نمت الوكالة حتى أصبحت حكومة داخل حكومة الانتداب لا ينقصها سوى عنصر السيادة لكي تصبح دولة . وكان لها جيش (الهاجاناه والبالماخ) ، وميزانية وجهاز إداري . كما باشرت الوكالة أعمال الحكومات من السياسة الخارجية وتدريب المهاجرين وإعدادهم للهجرة وبناء المستعمرات الزراعية وشراء الأرض ، كما قامت بالدعاية والإحصاء والصناعة والتعليم ، بل كان لها جهاز المخابرات تابع لها .

وبعد أن انتقلت قيادة المنظمة الصهيونية من لندن إلى نيويورك عند انتهاء الحرب العالمية الثانية ، أُنشئ قسم في الوكالة اليهودية في الولايات المتحدة (عام ١٩٤٦) لرعاية مصالح الوكالة في أمريكا ، وخصوصاً للتنسيق والضغط من أجل قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ .

ومن هنا ، نرى أن الوكالة تحوَّلت من مجرد هيئة للتعاون مع إدارة الانتداب البريطاني في فلسطين إلى هيئة كبرى أوجدت إسرائيل وزرعتها زرعاً في الشرق العربي . ومما له دلالة في هذا الصدد أنه عند قيام إسرائيل ، أصبح المجلس التنفيذي للوكالة مجلس الوزراء ، كما أن جهازها الإداري أصبح جهاز الحكومة ، وكان بن جوريون رئيسها فأصبح رئيساً لوزراء إسرائيل ، وكان موشيه شاريت سكرتيراً سياسياً لها فأصبح وزيراً لخارجية إسرائيل ، وهكذا .

وبعد قيام إسرائيل ، تخلت الوكالة عن بعض مهامها للدولة الجديدة . وأصدر الكنيست الإسرائيلي عام ١٩٥٢ قانوناً يحدد وضع المنظمة الصهيونية/ الوكالة اليهودية وينظم العلاقة بينها وبين الدولة الصهيونية (قانون الحالة) . وقد حدد وضع المنظمة/ الوكالة باعتبارها وكالة مفوضة تابعة للدولة يقتصر نشاطها داخل إسرائيل على : الاستيطان ، واستيعاب المهاجرين ، وتنسيق نشاطات

الهيئات والمؤسسات اليهودية التي تعمل في إسرائيل . كما ترك لها النشاطات المتعلقة بحماية ورعاية وتجميع اليهود .

وفي عام ١٩٥٤ ، تم توقيع ميثاق بين الحكومة الإسرائيلية والمنظمة/ الوكالة حدد مهام الوكالة بشكل أكثر تفصيلاً . وقد شملت المهام التالية إلى جانب ما سبق ذكره : الحصول على الأراضي في إسرائيل وتحسينها بواسطة مؤسستي المنظمة الصهيونية والنداء الإسرائيلي الموحَّد/ الصندوق التأسيسي اليهودي ، والمشاركة في إقامة وتوسيع مشاريع التطوير في إسرائيل ، وتشجيع رؤوس الأموال الخاصة ، ومساعدة المشاريع الثقافية ومؤسسات التعليم العالي في إسرائيل ، وتعبئة الموارد وجمع الأموال لتمويل هذه الأعمال .

ورغم ذلك ، حدثت خلافات بين الوكالة والحكومة الإسرائيلية حول مهام وصلاحيات المنظمة/ الوكالة ، وخصوصاً خلال عهد بن جوريون الذي كان يرى أن الوكالة تسخِّر البناء الداخلي من أجل الدبلوماسية الخارجية . كما كان يرى أنها ، بعد قيام الدولة ، قد استنفدت أغراضها وإن لم ينف إمكانية أن تقدم الوكالة خدمات سياسية ومالية وبشرية لإسرائيل شريطة أن تكون خاضعة للدولة وتعمل تحت سيطرتها . كما كان بن جوريون يرى التشديد على مركزية إسرائيل وأن يتمحور العمل الصهيوني حولها . ومما كان يُضعف نفوذ الوكالة ، تضاؤل الهجرة إلى إسرائيل بعد عام ١٩٥١ وإخفاق الوكالة في إقناع يهود الولايات المتحدة وأوربا الغربية المندمجين في الهجرة إلى إسرائيل . وبرغم أنها ساهمت في تهجير واستيعاب ١,٣ مليون يهودي إلى إسرائيل خلال العقدين الأولين لقيام الدولة ، إلا أن أغلب هؤلاء كانوا إما من لاجئي الحرب العالمية الثانية أو من يهود البلاد العربية الذين هاجروا إلى إسرائيل نتيجة ظروف موضوعية طارئة وليس بدافع عقائدي أو نتيجة جهود المنظمة/ الوكالة . وقد كرَّس المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون (١٩٦٨) تبعية المنظمة/ الوكالة للدولة الصهيونية . وظهرت اتجاهات لتحديد العلاقة من جديد بين الحكومة والوكالة اليهودية ، واقترح أن تظل الهجرة من اختصاص الوكالة على أن ينتقل الاستيعاب إلى الحكومة الإسرائيلية . وبالفعل ، استحدثت الحكومة الإسرائيلية وزارة جديدة لاستيعاب المهاجرين عام ١٩٦٨ . وبالتالي ، تم سحب سلطة أساسية كانت تمارسها الوكالة حتى ذلك الحين (لكن الوكالة ظلت مسئولة عن استقبال المهاجرين الجدد وتقديم الخدمات اللازمة لهم تمهيداً لمرحلة الاستيعاب) .

وقد جرت منذ الستينيات أيضاً الدعوة إلى فصل الوكالة اليهودية عن المنظمة الصهيونية ، بدعوى أن الدمج بين المهمات العملية الاستيطانية (الوكالة) والأيديولوجية الدبلوماسية (المنظمة) قد أدَّى إلى إعاقة عمل الهيئتين . كما تمت الدعوة إلى تشكيل وكالة يهودية موسعة من جديد تسمح بربط القوى اليهودية غير الصهيونية بالمنظمة وتوظيفها في خدمة البرنامج الصهيوني . وقد أقر المؤتمر الصهيوني الخامس والعشرون (١٩٦٠) دستوراً جديداً للوكالة اليهودية أُعيد فيه تأكيد فلسفتها وأهدافها ضمن البرنامج الصهيوني . كما أقر توسيع المنظمة/ الوكالة والسماح بعضوية أية هيئة يهودية تلتزم بالبرنامج الصهيوني دون إجبار أعضاء تلك الهيئات على أن يكونوا صهاينة منظمين . وفي عام ١٩٧١ ، أُعيد تنظيم علاقة المنظمة الصهيونية بالوكالة اليهودية بحيث أصبحتا منفصلتين قانونياً وتعمل كل منهما تحت إدارة خاصة . لكن هذا الانفصال يُعَدُّ انفصالاً شكلياً فقط ، فرئيس إدارة المنظمة هو نفسه رئيس إدارة الوكالة والمسئول المالي في الجهازين واحد ، كما أن رؤساء الدوائر ، وبخاصة تلك العاملة في مجال الهجرة والاستيعاب والاستيطان والمحاسبة ، هم أنفسهم من أعضاء الإدارتين . وكذلك فإن الهيكل التنظيمي متماثل في كلتا الهيئتين . وقد كان الغرض من الفصل حماية وضع الإعفاء الضريبي الذي تتمتع به هيئات جباية الأموال اليهودية في الولايات المتحدة ، وخصوصاً النداء اليهودي الموحد التي توجِّه الأموال إلى الوكالة اليهودية من خلال النداء الإسرائيلي الموحد الذي يوفر للوكالة أكثر من ٦٠٪ من ميزانيتها . وكانت قد جرت (عام ١٩٦٠) عملية إعادة تنظيم لفرع الوكالة اليهودية في الولايات المتحدة (الوكالة اليهودية المتحدة لإسرائيل) حيث أُلغت وضعها كوكيل أجنبي ومُنحت إعفاءً من الضرائب كهيئة أمريكية في حين تم تسجيل منظمة أخرى (هي : الوكالة اليهودية ـ القسم الأمريكي) لتكون الوكيل الأجنبي الجديد التي تعمل نيابة عن الوكالة اليهودية ـ القدس ، على أن تقوم الشركة الأمريكية بتحويل الموارد المالية التي تتلقاها من النداء اليهودي الموحَّد إلى إسرائيل . ويبدو أن هذا التغيير كان الغرض منه التمويه والتحايل على القانون الأمريكي حتى يبدو فرع الوكالة اليهودية في الولايات المتحدة وكأنه خاضع لهيئات صهيونية أمريكية وغير خاضع لأية هيئة أجنبية .

ومع ذلك ، خضع نشاط الوكالة في الولايات المتحدة للتحقيق عام ١٩٦٣ حيث ثبت أنها تعيد توجيه أموال الجباية لدعم المؤسسة الصهيونية في الولايات المتحدة وذلك عبر المجلس الصهيوني الأمريكي ، ووفقاً لتعليمات المنظمة/ الوكالة في القدس ولصالح

دولة أجنبية هي إسرائيل . وفي أعقاب التحقيقات ، تم إلغاء المجلس الصهيوني الأمريكي وأُجبرت الوكالة اليهودية ـ القسم الأمريكي (عام ١٩٦٩) على تقديم ميثاق ١٩٥٤ ضمن وثائق تسجيلها كوكيل أجنبي للحكومة الإسرائيلية . وبموجب اتفاق الفصل وإعادة التنظيم (عام ١٩٧١) ، تحددت مهام الوكالة اليهودية ووظائفها وبرامجها على أنها ستكون من النوع الذي تقوم به منظمات معفاة من الضرائب فقط مثل الهجرة والاستيعاب والتعليم ، على أن "تبقى المنظمة الصهيونية ومؤسساتها أدوات للحركة الصهيونية . . . . وستواصل أداء الأعمال والمهمات التي ترد في قانون الحالة والميثاق" . وقد تم إلغاء الوكالة اليهودية ـ القسم الأمريكي وحلت محله المنظمة الصهيونية العالمية ـ القسم الأمريكي كوكيل للمنظمة الصهيونية العالمية في القدس ، في حين صارت الوكالة اليهودية المتحدة لإسرائيل المتلقي الوحيد للأموال المتجهة إلى إسرائيل .

وقد جاءت عملية إعادة التنظيم أيضاً استجابة لمطالب أعضاء الجماعات اليهودية ، ومطالب الأمريكيين على وجه الخصوص ، بزيادة مشاركة يهود الشتات غير الصهاينة في عملية اتخاذ القرارات في الوكالة اليهودية ، وخصوصاً أنهم يشكلون المصدر الأساسي للموارد المالية للوكالة التي زادت بشكل كبير بعد حرب ١٩٦٧ . وبالفعل ، أصبح ٥٠٪ من أعضاء الأجهزة القيادية للوكالة اليهودية (الجمعية التأسيسية ، ومجلس الحكام ، واللجنة التنفيذية) يُعيَّنون من قبل المنظمة الصهيونية (من الأحزاب السياسية الإسرائيلية طبقاً لنسبة تمثيلهم في الكنيست ، ومن التجمعات الصهيونية) . أما نسبة الـ ٥٠٪ الباقية ، فإنهم يُعيَّنون من قبل منظمات الجباية العاملة بين الجماعات اليهودية في العالم ، فيعيِّن النداء الإسرائيلي الموحَّد ٣٠٪ منهم ويعيِّن الصندوق التأسيسي ٢٠٪ . وبهذا ، فإن العناصر التي لا تنضوي تحت لواء الصهيونية ، والذين أصبحوا يُلقَّبون بعد حرب ١٩٦٧ باسم «الصهيونيون الفوريون» أو «الصهيونيون الجدد» ، قد توافرت لهم فرص هيكلية تنظيمية ونفوذ سياسي متزايد .

وقد زادت ضغوط ممثلي هيئات الجباية اليهودية ، وكذلك ضغوط أعضاء الجماعات اليهودية غير الصهيونيين ، خلال السبعينيات والثمانينيات . كما تحقَّق لهم قَدْر أكبر من الرقابة والسيطرة على الوكالة اليهودية ، وذلك نتيجة مجموعة من العوامل : فقد وُجِّهت الاتهامات للوكالة بعدم فاعلية جهازها الإداري المتضخم الذي ضم أكثر من أربعة آلاف شخص ووُصفت بأنها أصبحت "مزرعة للانحراف" . وقد ارتبطت الانحرافات أيضاً بتحوُّل الوكالة إلى حلبة للصراع بين الأحزاب والكتل السياسية الإسرائيلية ، فهناك جزء كبير من ميزانية الوكالة (حوالي نصف مليار دولار سنوياً) يذهب للأحزاب السياسية الإسرائيلية ، في وقت يعمل كلٌ منها على إخضاع الوكالة لنفوذه واستثمارها في الصراع الحزبي لصالحه ، وهذا دليل على تبعية الوكالة للحكومة الإسرائيلية ، بل وتبعيتها للصراعات الحزبية ومناورات الوصول إلى السلطة . ومن ناحية أخرى ، تواجه هيئات الجباية اليهودية في العالم مأزقاً حاداً يتمثل في تناقُص حجم الأموال والتبرعات المحصلة (نتيجة عوامل ديموجرافية خاصة بالجماعات اليهودية في العالم الغربي) وفي تزايد الاحتياجات المحلية للجماعات اليهودية ، الأمر الذي يعني ضرورة تقليص الأموال المخصصة للوكالة اليهودية وإسرائيل ، كما أن قيادات الجماعات اليهودية ومنظمات الجباية تضغط من أجل الرقابة على الوكالة والتدخل في أسلوب إدارتها والمشاركة في وضع سياساتها وبرامجها والحد من تسييس الوكالة ومن سيطرة المنظمة الصهيونية عليها .

وفي عام ١٩٨١ ، عقد مجلس حكام الوكالة اليهودية مؤتمراً في قيساريه في إسرائيل لمراجعة عشرة أعوام من إعادة تنظيم الوكالة اليهودية . وأسفرت نتائج المؤتمر ، الذي عُرف أيضاً باسم «عملية قيساريه» ، عن إعادة صياغة المهام والوظائف التقليدية لكلٌ من الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية باتجاه احتياجات ومطالب ممثلي منظمات الجباية والجماعات اليهودية ، وذلك مقابل تأييدهم برنامج القدس . لكن هذا التأييد ـ على حد قول الحاخام ألكسندر شندلر (أحد قادة اليهودية الإصلاحية) ـ لا يمثل نصراً أيديولوجياً للقضية الصهيونية ، بل كان صنيع مجاملة أكثر منه تعبيراً عن الالتزام الجديد الذي اكتشفوه . وبالإضافة إلى ذلك تم التمييز بين مفهوم «مركزية إسرائيل» الذي قبله الجميع ومفهوم «أولوية أو أسبقية إسرائيل» الذي يجب أن يتحدد في ضوء القضايا والظروف الجديدة التي قد تستدعي توجيه أولوية العمل والاهتمام إلى الجماعات اليهودية خارج إسرائيل لفترة من الزمن (وهو ما يعني في الواقع رفض مفهوم مركزية إسرائيل) .

وقد تضمنت عملية قيساريه نقْل مهام تعليم شباب يهود الشتات من المنظمة الصهيونية ، وهو إحدى مهامها الرئيسية ، إلى الوكالة اليهودية ، وتم التوصل في إطار ذلك (عام ١٩٨٨) إلى خطة لإنشاء هيئة التعليم اليهودية التابعة للوكالة لتضم برامج التعليم الخاصة بالوكالة اليهودية (داخل إسرائيل) والمنظمة الصهيونية (خارج إسرائيل) داخل إطار واحد ، ومن ثم يصبح لقادة الجماعات اليهودية ومنظمات الجباية السلطة الحقيقية في وضع الأولويات والرقابة على

الدوائر وإقرار الميزانيات في مجال التعليم ، وهو ما يعني الانتقاص من أهمية المنظمة الصهيونية . وفي عام ١٩٩٠ ، اتُخذت خطوات لتنفيذ الخطة . وبالإضافة إلى ذلك ، عملت الوكالة على تقليص البرامج التعليمية داخل إسرائيل ، كما قررت عام ١٩٨٨ تحويل سائر مهام استيعاب المهاجرين التي كانت قد احتفظت ببعضها منذ عام ١٩٦٨ إلى الحكومة الإسرائيلية ، وكذلك قررت إيقاف إنشاء أية مستوطنات زراعية جديدة والتركيز على مشاريع للتنمية الإقليمية في النقب والجليل . وقد كان هذا في الواقع يعني وقف إنفاق أموال الجباية ومخصصات الوكالة اليهودية على الاستيطان داخل الأراضي العربية المحتلة وقَصْرها على مشاريع التنمية داخل إسرائيل . كما عكست هذه الخطوة أيضاً انتقال ميزان القوى خلال المؤتمر الصهيوني الحادي والثلاثين (١٩٨٧) إلى المجموعات الصهيونية العمالية واليهودية (المحافظة والإصلاحية) والتي كانت تطالب منذ المؤتمر الثلاثين (١٩٨٢) بوقف عمليات الاستيطان في الضفة وغزة حيث الكثافة السكانية العربية الكبيرة . وقد ساعدت هذه التغيرات على خَفْض موظفي الوكالة من ٢٨٩١ موظفاً عام ١٩٨٦ إلى ١٨١٢ عام ١٩٩٠ . كما قرر قادة الجماعات ومنظمات الجباية أن تنظم الجماعات برامج للهجرة خاصة بها بعيداً عن الوكالة اليهودية ، لكن هذه الخطوة لم تحقق أية نتائج تُذكَر .

وفيما يتعلق بإدارة الوكالة ، سعى قادة الجماعات ومنظمات الجباية اليهودية إلى الحد من تسييس الوكالة . وأصدر مجلس الاتحادات اليهودية الأمريكي قراراً عام ١٩٨٦ يدعو إلى اختيار رؤساء دوائر الوكالة وفقاً لمعايير الكفاءة والتخصص دون اعتبار للانتماءات الحزبية والسياسية ونَقْل سلطة وَضْع السياسات والرقابة الفعلية من اللجنة التنفيذية إلى مجلس الحكام . وفي الوقت نفسه ، مَنْح رئيس اللجنة التنفيذية سلطات إدارية أوسع بحيث يحق له طرد وتعيين رؤساء الدوائر وفقاً لمعايير الكفاءة ، وبالتالي إنهاء الوضع الراهن للدوائر التي وُصفت بأنها إقطاعيات تسيطر عليها شخصيات سياسية حزبية تعمل على دفع مصالح الأحزاب التي تمثلها .

وبالفعل ، اتُخذ عدد من القرارات في هذا الاتجاه عام ١٩٨٨ حيث أقر رئيس مجلس حكام (أمناء) الوكالة ضرورة أن يُمنَح رئيس اللجنة التنفيذية سلطات أوسع للسيطرة على دوائر الوكالة والتنسيق فيما بينها ، كما أعلن مجلس أمناء الصندوق التأسيسي أنه لن يقبل بعد الآن تعيين شخصيات سياسية حزبية لقيادة الوكالة وأنه يفضل شخصية إسرائيلية ذات خلفية قضائية أو أكاديمية أو عسكرية غير منخرطة في الحياة السياسية في البلاد . وبالفعل ، كان ممثلو الجماعات اليهودية ومنظمات الجباية قد أعلنوا رفضهم ، ولأول مرة عام ١٩٨٧ ، شخصية إسرائيلية سياسية كبرى كانت المنظمة الصهيونية قد تقدمت بترشيحها لمنصب رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة . وقد اختير سميحا دينتز (وهو دبلوماسي إسرائيلي) لهذا المنصب . وقد قررت الوكالة وقف تخصيص الموارد المالية للمؤسسات أو المنظمات أو الهيئات استناداً إلى اعتبارات سياسية أو دينية ، على أن تقوم الوكالة بتمويل المشروعات والبرامج مباشرةً وفقاً لأحقيتها وأهميتها .

والوكالة اليهودية يديرها ما يلي :

* المجلس (العام) . ويجتمع مرة في السنة وعدد أعضائه ٣٤٠ عضواً تعيِّن المنظمة الصهيونية نصفهم (١٧٠ عضواً) ويُعيِّن النداء الإسرائيلي الموحَّد في الولايات المتحدة ٣٠٪ (١٠٢ عضو) ويُعيِّن الصندوق التأسيسي (كيرين هايسود) ٢٠٪ (٦٨ عضواً) ، أي أن دافعي التبرعات أصبحوا مساوين للصهاين . ويتلقَّى المجلس العام التقارير من مجلس الحكام (الأمناء) ويقرر السياسات الأساسية ويستعرض الاحتياجات والبرامج ويناقش الميزانية وينتخب الرئيس وأمين الصندوق .

* مجلس الحكام (الأمناء) . وعدد أعضائه٦٢ عضواً بنفس نسبة تمثيل المجلس . وهو يدير شئون الوكالة ويوجه نشاطاتها ويُعيِّن لجنة الميزانية والمالية وكل اللجان الأخرى (مثل لجان حملات التبرعات والاستيعاب والتعليم والإسكان والتصنيع الريفي والتخطيط بعيد المدى وتقرير مراقب الحسابات والأصول والديون) .

* اللجنة التنفيذية . وعدد أعضائها ١٣ عضواً ، وهم : رئيس اللجنة (وهو أيضاً رئيس المجلس "العام") ورئيس مجلس الحكام وأمين الصندوق ورؤساء أقسام الهجرة والاستيعاب وهجرة الشباب والتوفيق الريفي ورئيس النداء اليهودي الموحَّد (كيرين هايسود) وأربع أعضاء من مجلس الحكام (ممن يُعيَّنون من قبل المنظمة) على أن يُعيَّن على الأقل اثنان وما لا يزيد عن ثلاثة من النداء الإسرائيلي الموحَّد) . ويوجد ثلاثة أعضاء بصفة مراقبين . واللجنة مسئولة عن الأعمال اليومية للوكالة ، وخاضعة لرقابة مجلس الحكام .

وأصحاب المناصب الكبرى في اللجنة التنفيذية يتم التعامل معهم في الرواتب على أساس رواتب الوزراء في الحكومة الإسرائيلية ، ويسود التنافس داخل المؤتمر الصهيوني بشأن رئاسة الدوائر والسيطرة على الميزانية .

وتضم الوكالة عدداً من الدوائر ، هي :

١ ـ دائرة الهجرة واستيعاب المهاجرين . وهي من أكبر وأهم

الدوائر، تقوم بتشجيع الهجرة وتنظيمها وتقديم المساعدة للمهاجرين كما تقوم بتوفير القروض لهم ، ولها مكاتب منتشرة في أنحاء العالم الغربي وفي أوربا الشرقية منذ عام ١٩٩٠ .

٢ ـ دائرة هجرة الشباب . وقد تأسست عام ١٩٣٤ بحجة "إنقاذ الأطفال اليهود من النازية" . أما بعد الحرب ، فقد اهتمت هذه الدائرة بنقل الناجين من الحرب إلى فلسطين ، حتى من غير اليهود ، لتأمين المادة البشرية للكيان الصهيوني ، كما اهتمت بتدريب وتعليم أبناء المهاجرين الجدد وتقديم الخدمات الصحية والاجتماعية لهم . وهي تهتم الآن بأبناء الإسرائيليين الفقراء .

٣ ـ دائرة الاستيطان الزراعي . ومهمتها بناء المستوطنات الزراعية وتزويدها بالخدمات الاجتماعية والاقتصادية .

٤ ـ دائرة الشباب والطلائع . وتنحصر مهمة هذه الدائرة بين الشباب اليهودي خارج إسرائيل وتمارس نشاطها بين أكثر من ٢٠٠ منظمة شبيبة يهودية وصهيونية وتنظم الدورات الصيفية والرحلات إلى إسرائيل .

٥ ـ دائرة التعليم . ويتولَّى مسألة التعليم ثلاث دوائر ، اثنتان منها تتبعان المنظمة الصهيونية ، تتولى أولاهما موضوع التعليم اليهودي العام بينما تتولَّى ثانيتهما التعليم اليهودي الديني . وتنحصر مهام الاثنتين بين أعضاء الجماعات اليهودية خارج إسرائيل ، أما الدائرة الثالثة فتعمل في إطار الوكالة اليهودية وتخصص ٨٠٪ من ميزانيتها لمؤسسات التعليم العالي في إسرائيل . أما باقي الميزانية فيخصَّص للمشروعات التعليمية الخاصة بالجماعات اليهودية في الخارج .

٦ ـ دائرة التنظيم . وتعمل هذه الدائرة ، بالتعاون مع المنظمات الصهيونية بالخارج والاتحادات العالمية ذات العضوية بالمنظمة الصهيونية العالمية ، وذلك من أجل زيادة التعاون مع الأحزاب الصهيونية . وهي مسئولة عن متابعة أعمال الهيئات الحاكمة في المنظمة/الوكالة ، ومسئولة عن تنفيذ مقرراتها .

٧ ـ دائرة الإعلام . وقد أُنشئت هذه الدائرة عام ١٩٧٨ . وكان لواء الإعلام التابع لقسم التنظيم يتولَّى هذه المهمة حتى انعقاد المؤتمر الصهيوني التاسع والعشرين عام ١٩٧٨ . ومن مهمات الدائرة ، إطلاع الجماعات اليهودية على نشاط الوكالة وعلى المظاهر المختلفة للحياة في إسرائيل . وتشرف دائرة الإعلام على إصدار عدد من المجلات باللغات العبرية والإنجليزية والفرنسية والإسبانية .

٨ ـ دائرة جيل الامتداد . وقد ظهرت الحاجة إلى إنشاء هذه الدائرة خلال المؤتمر الصهيوني الثلاثين (١٩٨٢) لدواع ائتلافية تتلخص في منح الحزب الديني القومي (المفدال) رئاسة دائرة أخرى بدلاً من دائرة هجرة الشباب التي أُسندت رئاستها إلى حزب العمل بدلاً من حزب المفدال .

٩ ـ دائرة الجاليات اليهودية الشرقية (السفارد) . أنشئت هذه الدائرة عام ١٩٧٢ لتوطيد الصلة بين المنظمة الصهيونية العالمية والجماعات السفاردية ومهاجري الدول الشرقية بالعالم .

١٠ ـ دائرة مشروع ترميم الضواحي . وهو مشروع بدأ عام ١٩٧٧ لإعادة ترميم وتأهيل الأحياء الفقيرة في إسرائيل ، وقد أصبحت أكبر دائرة في الوكالة وخُصِّصت لها ميزانية قدرها ١٠٠ مليون دولار عام ١٩٨٨/ ١٩٨٩ .

وتقدَّر ممتلكات الوكالة اليهودية بملايين الدولارات . فهي تمتلك وتشرف على سلسلة من الشركات والمشاريع الاقتصادية في إسرائيل من بينها بنك ليئومي الإسرائيلي ، وهو أكبر بنوك إسرائيل ، كما تمتلك عدة فنادق وشركات إعداد وتجهيز المستوطنات ونسبة في شركة إنتاج وتنمية الصناعات في المستوطنات التي تسيطر على جميع الصناعات في الكيبوتسات ، كما تمتلك نسباً في شركة طيران العال وفي صحيفة **جيروساليم بوست** وغيرها .

وقد بلغ إجمالي ما أنفقته الوكالة داخل إسرائيل منذ عام ١٩٤٨ نحو ٦,٥ مليار دولار على أقل تقدير ، تم إنفاق ٧٠٪ منها منذ إعادة تنظيم الوكالة عام ١٩٧١ . وقد ساعدت في استيعاب حوالي ١,٧٠٠,٠٠٠ مهاجر بما يزيد على ٥٠٠ مستوطنة تضم ١٥٠,٠٠٠ مستوطن ، كما ساعدت في مجال الإسكان . وقد أسست شركة أميجور للإسكان عام ١٩٧٢ . وتشرف الوكالة على عدد من البرامج لشباب الأحياء الفقيرة . ويُقال إن برامج الوكالة تؤثر في حياة حوالي ٦٠٠ ألف يهودي من سكان إسرائيل (أي ما يزيد عن ربع السكان اليهود) . ولا تمارس الوكالة اليهودية أي نشاط خلف الخط الأخضر ، أي في فلسطين المحتلة عام ١٩٦٧ (أو على الأقل هذا هو الادعاء حسب المنشورات الرسمية) . وتُغطَّى ميزانية الوكالة بالدرجة الأولى من الأموال والتي تُجمَع من الجماعات اليهودية سواء في الولايات المتحدة (بواسطة النداء اليهودي الموحَّد) أو في بقية العالم (بواسطة الصندوق التأسيسي [كيرين هايسود]) . ويقدم النداء اليهودي الموحَّد (عبر النداء الإسرائيلي الموحَّد) ٦٠٪ من ميزانية الوكالة التي بلغت عام ١٩٩٢/ ١٩٩٣ نحو ٤٥٠ مليون دولار . وقد أدَّى تدفُّق اليهود السوفييت على إسرائيل منذ عام ١٩٨٩ إلى خَلْق عجز قدره ٧٥ مليون دولار في ميزانية الوكالة عام ١٩٩٠ وإيقاف كثير من برامجها في إسرائيل . وقد بدأ النداء اليهودي الموحد والصندوق التأسيسي اليهودي ، حملة عام ١٩٩٠

لجمع ٦٠٠ مليون دولار خلال ٣ سنوات لتغطية نفقات الوكالة في مواجهة هجرة اليهود السوفييت . ونظراً لضخامة الهجرة ، اقتصر دور الوكالة على نَقْل المهاجرين إلى إسرائيل في حين تولت الحكومة الإسرائيلية مسئولية استقبالهم واستيعابهم .

المنظمة الصهيونية العالمية (القسم الأمريكي)

World Zionist Organization (American Section)

منظمة تأسست عام ١٩٧١ لتكون وكيلاً للهيئة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية في الولايات المتحدة ، وذلك وفقاً لاتفاق إعادة تنظيم المنظمة الصهيونية العالمية/ الوكالة اليهودية لعام ١٩٧١ . وتعمل المنظمة على تنمية المُثُل الصهيونية واليهودية ، كما تعمل على تشجيع الهجرة إلى إسرائيل وتعليم اللغة العبرية والأدب المكتوب بالعبرية وما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» و«الثقافة اليهودية» ، وأخيراً إيجاد منشورات ثقافية ودينية واجتماعية وفنية وعلمية وغيرها من المنشورات والأعمال التي تتصل بكلٍّ من اليهودية والصهيونية وإسرائيل والموضوعات المتعلقة بها . وتعمل المنظمة على كسب تأييد ودعم الجمهور الأمريكي لهذه الأهداف وللمصالح الصهيونية . وللمنظمة عدة دوائر لتنفيذ هذه الأهداف هي :

- دائرة التعليم والثقافة . وتضم برامج لدراسة التوراة وتعليم العبرية والتعريف بإسرائيل .
- دائرة الثقافة والتعليم الديني . وهي مسئولة عن إعداد مواد تعليمية للمدارس الدينية وتنظيم الحلقات الدراسية للمعلمين .
- معهد تيودور هرتزل . وينظم المحاضرات والبرامج المسائية حول اليهودية والصهيونية وإسرائيل . وتنشر مطبعة هرتزل التابعة للمعهد كتباً ودراسات حول المواضيع نفسها .
- مؤسسة تيودور هرتزل . وهي تنشر مجلة ميدستريم Midstream ، وهي مجلة شهرية مخصصة للقضايا اليهودية والصهيونية .
- دائرة العلاقات بين الجماعات الدينية في المجتمع . وهي تعمل على الاتصال بالمنظمات المسيحية .
- دائرة الإعلام والصحافة التي تنشر النشرات الصحفية .

وهناك ثلاث دوائر خاصة بالشباب تقوم بإعداد الحلقات الدراسية لهم وتنظم لهم الزيارات إلى إسرائيل .

والمنظمة الصهيونية العالمية/ القسم الأمريكي مسجلة كمنظمة دينية معفاة من الضرائب . وهي ، بذلك ، معفاة من تقديم تقرير سنوي علني وفقاً للقانون الأمريكي ، كما أنها تتلقى تمويلها الذي قُدِّر عام ١٩٨٢/ ١٩٨٣ بأكثر من ١٠ ملايين دولار من المنظمة الأم . وهي تقدم المنح إلى المنظمات والمراكز اليهودية والصهيونية في الولايات المتحدة ، وكذلك إلى المنظمات والمراكز القائمة في كندا والمكسيك اللتين تقعان في إطار سلطتها .

اللجنة التنفيذية العالمية لحركة حيروت ـ هاتسوهاور

Executive Committee of Herut Hatzohar World Movement

اتحاد صهيوني دولي غربي . ظل يلعب دور المعارضة في المنظمة الصهيونية العالمية إلى أن تم انتخاب الليكود . وتعمل حركة حيروت العالمية مع منظمة بيتار للشبيبة اليهودية .

الكونفدرالية العالمية للصهاينة المتحدين

World Confederation of United Zionists

أكبر تجمُّع صهيوني غير حزبي خارج إسرائيل . وتشير التقديرات إلى أنه من بين مليون يهودي تقدموا لعضوية المنظمة الصهيونية عام ١٩٧٨ يوجد نحو ٥٥٠ ألفاً ينتمون إلى الكونفدرالية العالمية .

وتمارس الكونفدرالية نشاطها من خلال فروعها المنتشرة بين أعضاء الجماعات اليهودية ، كما تشرف على صندوق المشاريع الإنمائية الذي ينفذ أعمالها في إسرائيل لتسهيل استيعاب المهاجرين الجدد في المستوطنات .

وتنتقد الكونفدرالية بشدة الطابع الحزبي المنغلق الذي يميز أعمال المنظمة الصهيونية ، وتدعو في المقابل إلى "فتح أبواب المنظمة على مصاريعها لمئات الآلاف من اليهود الذين لا يرغبون في التوحد بالحياة الحزبية في إسرائيل بحيث يُسمَح لهم بالانتماء إلى الصهيونية دون أية بطاقات حزبية" .

حركة العمل الصهيونية العالمية

World Labour Zionist Movement

اتحاد صهيوني دولي حزبي أُسِّس عام ١٩٦٨ بعد أن اتحد الاتحاد الدولي (فرع حزب الماباي خارج فلسطين) مع التحالف الدولي لأحدوت هعفودا وبوعالي تسيون . وهي تمثل الاتجاه الصهيوني العمالي في المنظمة الصهيونية العالمية .

ويُلاحَظ أنه ، منذ عام ١٩٧٨ ، بدأت حركة العمل الصهيونية الدولية في التحالف مع منظمات صهيونية أخرى ، مثل أرتسا (الحركة الإصلاحية في المنظمة الصهيونية) وهاداساه ، للحد من

سلطة المؤسسة الدينية داخل المنظمة وداخل إسرائيل . وينتمي إلى حركة العمل العالمية التنظيم النسائي «نعمات» و «المرأة الرائدة» . وتتولى السكرتارية العالمية لجيل الشبيبة في الحركة الإشراف على برامج الصيف والشتاء للشبيبة في الكيبوتسات العمالية .

منظمة مزراحي العالمية (هابوعيل هامزراحي)

World Mizrahi (Ha-poel Ha-Mizrahi)

اتحاد صهيوني دولي حزبي يمثل الصهاينة المتدينين وتتبعه منظمة شبيبة تُسمَّى بني عكيفا تضم حوالي ٦٠ ألف عضو . وتتولَّى منظمة نساء مزراحي العالمية تنظيم النشاطات النسائية ضمن إطار الحركة . ويتولى مركز التعليم الديني التابع للجنة المركزية العالمية لحركة مزراحي الإشراف على التعليم الديني في إسرائيل من رياض الأطفال وحتى أعلى المدارس الدينية . وينظم صندوق أرض إسرائيل النشاطات المالية للحركة . ويُعتبَر الحزب الديني القومي (المفدال) الامتداد التنظيمي لهذه الحركة في إسرائيل . (انظر : «مزراحي») .

الاتحاد العالمي للصهيونيين العموميين

World Union of General Zionists

اتحاد صهيوني دولي حزبي له فروع في ٢٥ دولة ويتبعه تنظيم خاص للشبيبة اسمه «ماسادا» (انظر : «الصهيونية العامة [أو الصهيونية العمومية]») .

الاتحاد العالمي لحزب العمال المتحدين ـ مابام

World Union of Mapam

اتحاد صهيوني دولي حزبي له فروع في ١٧ بلداً في مختلف أنحاء العالم ، وله علاقات نشيطة مع الاتجاهات اليسارية في البلاد التي تعمل فيها فروعه . ويتولى تنظيم الكيبوتس القطري في إسرائيل الإشراف على الندوات والدورات التثقيفية التي يقيمها الاتحاد لأعضائه في إسرائيل . ويقوم تنظيم الحارس الفتي (هاشومير هاتسعير) التابع لمابام بتشجيع الهجرة في أوساط شبيبة الحزب في الخارج . وللاتحاد تنظيم نسائي يحمل اسم «حبيبة رايخ» .

الاتحاد السفاردي العالمي

World Sephardi Federation

منظمة دولية يهودية غير حزبية انضمت للمنظمة الصهيونية عام ١٩٧٢ ، وأنشأت دائرة خاصة بالسفارد داخل المنظمة . ورئيس الاتحاد هو نسيم جاءون (رئيس الجماعة السفاردية في سويسرا) . ويركز الاتحاد نشاطه في حقل التربية (وخصوصاً مساعدة الطلبة المحتاجين) والرفاه والهجرة ومحاولة الوفاء بحاجات اليهود السفارد الدينية .

اتحاد مكابي العالمي

Maccabi World Union

اتحاد صهيوني عالمي يهتم بالرياضة ، وقد سُمِّي باسم يهودا مكابي . تعود جذوره إلى حركات الشباب في أوربا الوسطى والشرقية التي كانت تعبِّر عن فكرة الشعب العضوي وعن البعث القومي المرتبط بإرادة القوة . وقد عبَّر ماكس نوردو عن هذه الفكرة حينما طالب بأن ينتهي عهد اليهودي المترهل ويبدأ عهد اليهودي ذي العضلات . وقد تجمعت كل نوادي المكابي في اتحاد واحد عام ١٩٠٣ حين قام صهيونيان من ألمانيا بتأسيس اتحاد للنوادي الرياضية اليهودية . ثم تكوَّن اتحاد المكابي الدولي عام ١٩٢١ ، ولكنه لم ينضم للمنظمة الصهيونية العالمية رسمياً إلا في أوائل السبعينيات بعد أن اعتمدت المنظمة برنامج القدس المعدل . وكان مقر الاتحاد في فيينا (١٩٢٧) ثم برلين (١٩٢٩) . ورغم أن المقر الرئيسي للاتحاد انتقل إلى لندن بعد ظهور النازي ، إلا أن النازيين لم يمانعوا في نشاط أندية المكابي بل كانوا يشجعونها لأنها تُعد اليهود للهجرة بأن تجعل منهم أعضاء في شعب عضوي لا يختلط بالألمان . وحتى إعلان الدولة الصهيونية ، كانت نوادي المكابي مجرد واجهة يهودية تتحرك من خلفها المراكز والنوادي الطلابية التي توجد في الحركة الصهيونية . وقد انتقلت رئاسة الاتحاد إلى تل أبيب . وللاتحاد حالياً ٣٥ فرعاً إقليمياً في مختلف أنحاء العالم .

ويـزو

WIZO (Women's International Zionist Organization)

«ويزو» اختصار للعبارة الإنجليزية «ومنز إنترناشيونال زيونيست أورجانيزيشن» ، أي «منظمة النساء الصهيونية العالمية» التي أُنشئت في لندن عام ١٩٢٠ كفرع للمنظمة الصهيونية العالمية بهدف توحيد الحركة النسائية الصهيونية في العمل من أجل تدعيم المشروع الصهيوني في فلسطين . وقد جاء تأسيسها خلال المؤتمر الصهيوني الثاني عشر (١٩٢١) وهو أول مؤتمر صهيوني ينعقد بعد انتهاء الحرب

العالمية الأولى وفي أعقاب صدور وعد بلفور ووقوع فلسطين تحت سلطة الانتداب البريطاني . ومن أبرز مؤسسيها فيرا وايزمان وربيكا سيف التي ترأست المنظمة حتى عام ١٩٦٦ . ومنظمة ويزو هي المنظمة الصهيونية الوحيدة التي تعترف بها الأمم المتحدة كمنظمة غير حكومية .

وقد حدَّدت منظمة ويزو مهامها في مجالات التعليم ورعاية الطفولة ومساعدة الشباب وتدريب الفتيات على العمل الزراعي والحرفي والتمريض ، ومساعدة المهاجرات الجدد على الاندماج في التجمع الصهيوني في فلسطين وتشجيع دراسة اللغة العبرية والأدب المكتوب بالعبرية وما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» ، وكذلك إعداد النساء اليهوديات في الشتات للهجرة إلى فلسطين . كما ساهمت ويزو في دعم نشاط المؤسستين الصهيونيتين ؛ الصندوق القومي اليهودي والصندوق التأسيسي اليهودي ، في جهودهما الاستيطانية في فلسطين .

وقد أنشأت ويزو في فلسطين نوادي للأطفال والفتيات ومدارس نسائية زراعية وحرفية ومراكز لرعاية الأطفال . أما بعد تأسيس الدولة الصهيونية ، فلم تتغيَّر مهام المنظمة كثيراً ، وهي تشرف على شبكة من رياض الأطفال والمدارس الابتدائية والزراعية والحرفية ونوادي الشباب ومراكز ونوادي النساء ، وقد فازت قائمتها الانتخابية بأحد مقاعد الكنيست الأول لكنها اندمجت في الماباي ولم تظهر قائمتها الانتخابية مرة أخرى . كما تعمل منظمة ويزو على خَلْق رابطة ثقافية ووجدانية بين الجماعات اليهودية في الخارج وإسرائيل من خلال البرامج التعليمية وتوفير المعلومات حول إسرائيل وتحضير النساء للهجرة إليها .

وتشارك منظمة ويزو في المؤتمرات الصهيونية إذ عُقِد اتفاق بينها وبين المنظمة الصهيونية العالمية (عام ١٩٦٤) أصبح لها بمقتضاه الحق في إرسال ٢٤ مندوبة إلى المؤتمر الصهيوني لهن حق التصويت . كما أن لها عضوية استشارية في المجلس التنفيذي للوكالة اليهودية ، ولها أيضاً عضوية منتسبة في المؤتمر اليهودي العالمي . وهي كذلك ممثَّلة لدى المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة ولدى اليونيسيف . ويجتمع مؤتمرها العالمي كل أربع سنوات ـ غالباً في إسرائيل ـ لمناقشة ميزانيتها وأنشطتها وانتخاب مجلسها التنفيذي . وقد انتقل مركزها الرئيسي إلى تل أبيب بعد الحرب العالمية الثانية . ويبلغ حجم عضويتها ٢٥٠ ألف عضواً منتشرات في عدة دول (فيما عدا الولايات المتحدة) حيث توجد منظمة نسائية ضخمة هي هاداساه . وتضم منظمة ويزو في إسرائيل وحدها نحو ٩٠ ألف عضو . وفي عام ١٩٧٠/ ١٩٧١ ، كان ٤٥٪ من ميزانية منظمة ويزو يأتي من خارج إسرائيل . وبإمكان الدارس أن ينظر لمنظمة ويزو على أنها في واقع الأمر منظمتان : واحدة خارج إسرائيل لجمع التبرعات والأخرى داخل إسرائيل تتلقى هذه التبرعات وتنفقها داخل المجتمع الصهيوني الاستيطاني .

إيمونـــاه

Emunah

منظمة نسائية صهيونية دولية تأسست في إسرائيل عام ١٩٧٧ لتضم الحركة النسائية القومية الدينية الإسرائيلية وجميع المنظمات التي تأسست على أساسها في عشر دول . وتهتم المنظمة بالدرجة الأولى بالبرامج التعليمية والاجتماعية وبتأكيد الميراث الروحي والأخلاقي للشعب اليهودي داخل إطار صهيوني . وفي إسرائيل ، يتركز نشاطها على برامج رعاية الأطفال والأيتام ومدارس مهنية ثانوية وكلية للفتيات وبرامج لمحو الأمية . أما خارج إسرائيل ، فإن هذه المنظمة تعمل على تأكيد استمرار القيم والحياة اليهودية من خلال برامج لتعليم الكبار ، كما تقوم بالدعاية لإسرائيل . وقد أكدت المنظمة خلال مؤتمرها الثاني (عام ١٩٨١) ضرورة الهجرة إلى إسرائيل كواجب ديني على كل عضو .

وفي عام ١٩٨١ ، كانت المنظمة تضم ١٢٠ ألف عضو منتشرات في ١٤ دولة ، وهي ممثَّلة في جميع الهيئات والمنظمات الصهيونية واليهودية الكبرى سواء الإقليمية أو الدولية .

المؤتمر اليهودي العـالمي

World Jewish Congress

منظمة يهودية دولية تضم ممثلين عن الجماعات والمنظمات والهيئات اليهودية في أكثر من ٧٠ دولة تعمل على الدفاع عن الحقوق المدنية والدينية لأعضاء الجماعات اليهودية وعلى حماية مصالحهم وتنمية حياتهم الثقافية والاجتماعية ، كما تعمل على توحيد جهود المنظمات المنتمية إليها على الصعيد السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، كما تعمل المنظمة على تمثيل المنظمات التي تنتمي إليها أمام الهيئات الحكومية والدولية في شأن القضايا التي تهم الجماعات اليهودية في العالم ومعنى هذا أن مجال نشاطها لا علاقة له بالاستيطان الصهيوني . وقد تأسس المؤتمر اليهودي العالمي بمبادرة من المنظمة الصهيونية العالمية حيث رأى زعماؤها (ماكس نوردو وناحوم سوكولوف ولويس برانديز وناحوم جولدمان وستيفن وايز

وغيرهم) أن من المفيد أن تُؤسَّس منظمة عالمية موازية تضم كل اليهود الصهاينة واليهود غير الصهاينة سواء بسواء .

طرحت الفكرة نفسها بدايةً فيما يُسمَّى «لجنة الوفود اليهودية» ، وذلك أمام مؤتمر السلام إذ قامت بتمثيل وتنسيق أعمال مختلف المنظمات والمجموعات اليهودية (ضمن مؤتمر فرساي للسلام عام ١٩١٩) . وحينذاك ، طالبت اللجنة ليس فقط بضمان الحقوق الدينية والمدنية للجماعات اليهودية في معاهدات السلام ، بل طالبت بحقوقهم "القومية" ، كما طالبت بالاعتراف بتطلعات "الشعب اليهودي" ومطالبه "التاريخية" بشأن فلسطين . وقد تقرَّر استمرار اللجنة بعد انتهاء المؤتمر وإسقاط الكلمات الثلاث الأخيرة وأصبحت تُسمَّى «لجنة الوفود اليهودية» . ومع صعود النازية في ألمانيا ، أشرفت اللجنة بالتعاون مع المؤتمر اليهودي الأمريكي على عقد عدة مؤتمرات تحضيرية انتهت بتأسيس المؤتمر اليهودي العالمي عام ١٩٣٦ كمنظمة دولية دائمة تحل محل «لجنة الوفود» ، وذلك خلال المؤتمر الذي انعقد في جنيف بحضور ٢٨٠ مندوباً يمثلون الجماعات والمنظمات اليهودية في ٣٣ دولة . وقد جاء في المبادئ الأساسية للمؤتمر اليهودي العالمي أنه منظمة دبلوماسية سياسية مهمتها العمل في أوساط حكومات العالم باسم الشعب اليهودي وأن هدفها هو العمل من أجل ضمان حق اليهود في المساواة والحفاظ على خصوصيتهم الثقافية والدينية في كل مكان .

وقد انتخب المؤتمر ستيفن وايز لرئاسة اللجنة التنفيذية وناحوم جولدمان رئيساً للجنة الإدارية . وقد اعترفت المنظمة الصهيونية العالمية بالمؤتمر فور تأسيسه ودعت كل الصهاينة للانضمام إليه . وقد بدأ المؤتمر نشاطه بدعوة يهود العالم لمقاطعة ألمانيا النازية اقتصادياً ، ولكن الدعوة فشلت بسبب تعاون المستوطنين الصهاينة في فلسطين ، وكذلك بعض الزعماء الصهاينة ، مع الحكومة النازية . وقد انتقل مركز المؤتمر بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية إلى نيويورك وتأسس مركز مواز في لندن .

أما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فقد قام المؤتمر اليهودي العالمي بدور الوسيط بين إسرائيل وألمانيا لعقد اتفاقية التعويضات ، ووقَّع ناحوم جولدمان عام ١٩٥٢ (ممثلاً عن المؤتمر) على اتفاقية لوكسمبورج للتعويضات التي حصلت إسرائيل بموجبها على تعويضات قُدِّرت بحوالي ٩٠ مليار مارك ألماني .

كما شارك المؤتمر اليهودي العالمي في محاكمات جرائم الحرب النازية ، وكذلك قدَّم الوثائق المهمة وساهم في بلورة المبادئ والمعايير التي استندت إليها محاكمات نومبورج . ومما يُذكَر أن من بين النشاطات التي يهتم بها المؤتمر بشكل خاص تعقُّب مجرمي الحرب من النازيين وذلك بغرض إبقاء ذكرى الإبادة النازية حيةً في أذهان الشباب اليهودي والشباب غير اليهودي أيضاً (على حد قول إسرائيل سينجر السكرتير العام للمؤتمر اليهودي العالمي عام ١٩٨٦) . ويحتفظ المؤتمر بآلاف الوثائق والشهادات الخاصة بالحقبة النازية . وقد تزعَّم المؤتمر اليهودي العالمي الحملة التي شُنَّت ضد كورت فالدهايم السكرتير العام السابق للأمم المتحدة عام ١٩٨٦ بدعوى تورُّطه مع النازية واشتراكه في ارتكاب جرائم الحرب إبان الحرب العالمية الثانية .

كذلك اهتم المؤتمر اليهودي العالمي بقضايا معاداة اليهود وبأوضاع الجماعات اليهودية في العالمين العربي والإسلامي وفي الاتحاد السوفيتي وشرق أوربا . وقد لعب إدجار برونفمان رئيس المؤتمر منذ عام ١٩٧٩ دور الوسيط بين الحكومة الإسرائيلية والحكومة السوفيتية في موضوع هجرة اليهود السوفييت وموضوع إمكان استئناف العلاقات الدبلوماسية بين البلدين . ولا شك في أن رئاسة برونفمان للمؤتمر ، وهو رئيس شركة سيجرام ، أكبر شركة لتقطير الخمور في العالم وصاحب العديد من الشركات الأخرى في مختلف أنحاء العالم (من بينها شركات بترول) ، قد أعطى ثقلاً للجهود الدبلوماسية للمؤتمر اليهودي العالمي على الصعيد الدولي ـ وخصوصاً على مستوى الاتحاد السوفيتي ودول شرق أوربا التي كانت تسعى خلال عهد جورباتشوف إلى فتح مجالات التعاون التجاري والاقتصادي مع العالم الرأسمالي الغربي .

وقد اهتم المؤتمر اليهودي العالمي أيضاً بتنمية العلاقات مع المؤسسات الدينية غير اليهودية والخاصة بالحوار المسيحي اليهودي الذي تمثَّل بشكل خاص في فتح الحوار مع الفاتيكان . وقد شارك المؤتمر في تأسيس اللجنة اليهودية الدولية للتشاور (الحوار) بين الأديان .

وللمؤتمر علاقات وثيقة بالحكومة الإسرائيلية وبالمنظمة الصهيونية العالمية . ولكنه بسبب طابعه الدولي غير الصهيوني ، يتمكن من تقديم الكثير من المساعدات لإسرائيل عبر اتصاله بالحكومات والدول التي لا تستطيع إسرائيل الاتصال بها (الاتحاد السوفيتي قبل انهياره والعالم العربي) أو الاتصال بالجماعات اليهودية في هذه البلاد . وقد تجسدت هذه العلاقة الوثيقة في رئاسة ناحوم جولدمان للمنظمة الصهيونية العالمية ورئاسته للمؤتمر اليهودي العالمي في أواخر الخمسينيات .

ومع ذلك ، فإن هذا الارتباط والتعاون الوثيق لا يعني غياب

الخلافات والتوتر بين المؤتمر اليهودي العالمي من ناحية وإسرائيل والحركة الصهيونية من ناحية أخرى ، وهي خلافات تعكس الأزمة الراهنة التي تعيشها الصهيونية والتوتر القائم بين الجماعات اليهودية في العالم (من جهة) وإسرائيل (من جهة أخرى) حول طبيعة العلاقة بين الطرفين وحول قضية مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا (الشتات) . وقد تزايدت الانتقادات الموجهة إلى إسرائيل وإلى سياساتها التي تنعكس أحياناً كثيرة بشكل سلبي على حياة الجماعات اليهودية في الخارج .

وقد وجَّهت إسرائيل والمنظمة الصهيونية العالمية الانتقاد إلى المؤتمر اليهودي العالمي خلال احتفاله بيوبيله الذهبي عام ١٩٨٦ لتجاهله قضايا الهجرة إلى إسرائيل ومشاكل النزوح عنها وإغفاله تشجيع الشباب اليهودي في العالم الغربي للقدوم إلى إسرائيل للدراسة أو السياحة . أما زعماء المؤتمر اليهودي العالمي فيرون أن مهمتهم الأساسية هي أن يحافظ اليهود في الشتات على هويتهم اليهودية ويمتنعوا عن الاندماج والانصهار فقط ، وبعد ذلك يجب دعوتهم للهجرة إلى إسرائيل . بل يذهب برونفمان ، رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ، إلى رفض مقولة "مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا" فيقول : "إن الأيديولوجيا الصهيونية الكلاسيكية ترفض إمكان أن يكون هناك يهودي آمن ومهمّ في المنفى . وتُعتبَر الحياة في المنفى حياة نفي ، وهي نظرية غريبة عن تفكير معظم اليهود الذين يعيشون في المجتمعات المتحضرة والديموقراطية" . كذلك يعبِّر برونفمان عن مدى ارتباط الجماعات اليهودية في العالم بأوطانهم الأصلية وبمصالحها بقوله : "إن على إسرائيل ألا تتوقع أنها ستكون قادرة على الحصول على تأييد تلقائي من جانب يهود الشتات لكل مواقفها ، وعليها ألا تفترض أن هناك احتمالاً فعلياً لأن يقوم يهود من بلاد الرخاء بالهجرة إلى إسرائيل ، وعليها ألا تتمنى أن يضع يهود العالم إسرائيل على رأس مهامهم وأن يكرسوا لها اهتماماً أكثر مما يكرسون للشئون الاقتصادية والسياسية والأخلاقية للبلاد التي يقيمون فيها . لكن اليهود في الشتات لن يكفوا عن توجيه الانتقادات لإسرائيل ، ولن تعمي قلوبهم مشاعر الذنب لأنهم باقون في المنفى" .

وتُعَدُّ الجمعية العامة السلطة العليا للمؤتمر اليهودي العالمي وتتولى لجنتها التنفيذية والمجلس الحاكم إدارة شئون المؤتمر . وللجنة التنفيذية أربعة أقسام يختص أحدها بأمريكا الشمالية ويختص الثاني بأوربا والثالث بأمريكا الجنوبية والرابع بإسرائيل . وقد أقام المؤتمر معهد الشئون اليهودية عام ١٩٤٠ (مركزه الحالي لندن) ، وللمؤتمر صوت استشاري في المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة وله صوت استشاري في اليونسكو وفي المجلس الأوربي وفي منظمة الدول الأمريكية ، وهو مُمثَّل في مكتب العمل الدولي .



٢
اللوبي اليهودي والصهيوني

اللوبي اليهودي والصهيوني (أو جماعات الضغط الصهيونية)
Jewish and Zionist Lobby

«لوبي Lobby» كلمة إنجليزية تعني «الرواق» أو «الردهة الأمامية في فندق» ، ولذا يُقال مثلاً : "سأقابلك في لوبي الفندق" ، أي في الردهة الأمامية التي توجد عادةً أمام مكتب الاستقبال . وتُطلَق الكلمة كذلك على الردهة الكبرى في مجلس العموم في إنجلترا ، وعلى الردهة الكبرى في مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة ، حيث يستطيع الأعضاء أن يقابلوا الناس وحيث تُعقَد الصفقات فيها ، كما تدور فيها المناورات والمشاورات ويتم تبادل المصالح . وقد أصبحت الكلمة تُطلَق على جماعات الضغط (الترجمة الشائعة للمعنى المجازي لكلمة «لوبي lobby») التي يجلس ممثلوها في الردهة الكبرى ويحاولون التأثير على أعضاء هيئة تشريعية ما مثل مجلس الشيوخ أو مجلس النواب . وفعل «تو لوبي to lobby» يعني أن يحاول شخص ذو نفوذ (يستمده من ثروته أو مكانته أو من كونه يمثل جماعة تشكل مركز قوة) أن يكسب التأييد لمشروع قانون ما عن طريق مفاوضة أعضاء المجلس التشريعي في ردهته الكبرى ، فيعدهم بالأصوات أو بالدعم المالي لحملاتهم الانتخابية أو بالذيوع الإعلامي إن هم ساندوا مطالبه وساعدوا على تحقيقها ، ويهددهم بالحملات ضدهم وبحجب الأصوات عنهم إن هم أحجموا عن ذلك . ويوجد في الولايات المتحدة أكثر من لوبي أو جماعة ضغط تمارس معظم نشاطاتها في العلن بشكل مشروع ، وإن كان هذا لا يستبعد بعض الأساليب الخفية غير الشرعية (مثل الرشاوي التي قد تأخذ شكل منح نقدية مباشرة أو تسهيلات معيَّنة أو منح عقود أو التهديد بنشر بعض التفاصيل أو الحقائق التي قد تسبب الحرج لأحد أعضاء النخبة الحاكمة وصانعي القرار . . . إلخ) .

وتوجد أشكال وأنواع من جماعات الضغط ، فهناك جماعات الضغط الإثنية : مثل اللوبي اليوناني أو اللوبي الأيرلندي ، كما يوجد الآن لوبي عربي . وهناك كذلك جماعات الضغط الدينية ، فهناك لوبي كاثوليكي وآخر علماني . ويوجد جماعات ضغط مهنية وجيلية ونفسية واقتصادية ، فيوجد لوبي للمصالح البترولية وآخر لمنتجي الألبان وثالث لمنتجي البيض ورابع لزارعي البطاطس وخامس لنقابات العمال وسادس لمنتجي التبغ وسابع لصانعي السجائر وثامن لمن يحاربون التدخين وتاسع للعجائز وعاشر للشواذ جنسياً (وهناك بالطبع لوبي لمن يحاربون الشذوذ الجنسي ويدافعون عن قيم الأسرة) . وقد أصبحت جماعات الضغط على درجة من الأهمية جعلت النظام السياسي الأمريكي أصبح يُسمَّى «ديموقراطية جماعات الضغط» ، أي أنه لم يَعُد هناك نظام ديموقراطي تقليدي يعبِّر عن مصالح الناخبين مباشرةً حسب أعدادهم (لكل رجل صوت) ، بل أصبح النظام يعبِّر عن مقادير الضغوط التي تستطيع جماعات الضغط أن تمارسها على المشرِّعين الأمريكيين لتحديد قرارهم بشأن قضية ما بحيث تَصدُر تشريعات وقوانين معيَّنة وتُحجَب أو تُعدَّل أخرى . فالمواطن الأمريكي لم يَعُد يمارس حقوقه الديموقراطية مباشرةً وإنما أصبح يمارسها من خلال هذه الجماعات .

ويُقال إن أهم جماعات الضغط في الولايات المتحدة جماعة المدافعين عن حق المواطن الأمريكي في اقتناء الأسلحة النارية (دون ترخيص) واستخدامها للدفاع عن النفس ، وهو حق يعود للجذور الاستيطانية الإحلالية للولايات المتحدة ، ويشبه "حق" المستوطنين الصهاينة في الضفة الغربية في استخدام الأسلحة لقتل العرب "دفاعاً عن النفس" .

وتشير كلمة «لوبي» ، بالمعنى المحدَّد والضيق للكلمة ، إلى جماعات الضغط التي تسجل نفسها رسمياً باعتبارها كذلك . ولكنها ، بالمعنى العام ، تشير إلى مجموعة من المنظمات والهيئات وجماعات المصالح والاتجاهات السياسية التي قد لا تكون مسجلة بشكل رسمي ، ولكنها تمارس الضغط على الحكام وصناع القرار .

وعبارة «اللوبي اليهودي الصهيوني» في الأدبيات العربية والغربية (في كثير من الأحيان) تشير إلى معنيين اثنين :

١ ـ اللوبي الصهيوني بالمعنى المحدَّد : تشير كلمة لوبي في هذا السياق إلى لجنة الشئون العامة الإسرائيلية الأمريكية (إيباك) ، وهي من أهم جماعات الضغط . ومهمته ، كما يدل اسمه ، الضغط على المشرعين الأمريكيين لتأييد الدولة الصهيونية . ويتم ذلك بعدة سبل ، من بينها تجميع الطاقات المختلفة للجمعيات اليهودية والصهيونية وتوجيه حركتها في اتجاه سياسات وأهداف محددة عادةً تخدم إسرائيل . كما أن اللوبي يحاول أيضاً أن يحوِّل قوة الأثرياء من أعضاء الجماعات اليهودية (وخصوصاً القادرين على تمويل الحملات الانتخابية) ، وأعضاء الجماعات اليهودية على وجه العموم (أصحاب ما يُسمَّى «الصوت اليهودي») إلى أداة ضغط على صناع القرار في الولايات المتحدة ، فيلوح بالمساعدات والأصوات التي يمكن أن يحصل المرشح عليها إن هو ساند الدولة الصهيونية والتي سيفقدها لا محالة إن لم يفعل .

٢ ـ اللوبي الصهيوني بالمعنى العام الشائع للكلمة : وهو إطار تنظيمي عام يعمل داخله عدد من الجمعيات والتنظيمات والهيئات اليهودية والصهيونية تنسق فيما بينها ، من أهمها : مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الكبرى ، والمؤتمر اليهودي العالمي ، واللجنة اليهودية الأمريكية ، والمؤتمر اليهودي الأمريكي ، والمجلس الاستشاري القومي لعلاقات الجماعة اليهودية .

وكل هذه المنظمات لديها ممثلون في واشنطن للتأثير على عملية صنع السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط . ورغم أن هذه المنظمات لديها أنشطة مختلفة ترتبط بالموضوعات الاجتماعية ، فإنها أيضاً تعمل بشكل مباشر في الموضوعات التي ترضي إسرائيل حيث تسعى إلى الضغط على الكونجرس من خلال إرسال الخطابات إلى أعضائه ، وغير ذلك من أشكال الضغط .

وهناك أيضاً عدد من الجماعات الصهيونية التي تسعى إلى كسب تعاطف الرأي العام الأمريكي مع إسرائيل ، والتي ظهرت في بداية الأمر من أجل السعي لإنشاء دولة إسرائيل ثم تأييدها بعد ذلك . ومن هذه المنظمات : المنظمة الصهيونية لأمريكا ، والتحالف العمالي الصهيوني ، والهاداساه ، ومنظمة النساء الصهاينة في أمريكا . وتعمل هذه الجماعات على كسب الرأي العام عن طريق مشروعات متعددة تتراوح بين إنشاء المدارس التي تعلِّم العبرية وإنشاء المستشفيات وإنتاج الأفلام الموالية لإسرائيل وتمويل رحلات الباحثين والسياسيين الأمريكيين إلى إسرائيل .

ومن الناحية التنظيمية ، تتميَّز هذه الجمعيات والمنظمات عن نظيراتها الأمريكيات بكونها تضم عضوية كبيرة ، كما أن أجهزتها تتميَّز بوجود موظفين متميزين ومدربين على العمل في مجالات جماعات الضغط والتأثير . كذلك فإنها قادرة حالياً على تشجيع برامج سياسية واجتماعية غير مرتبطة دائماً بالبرنامج الصهيوني ، كما أنها تملك جماعات متخصصة وقادرة على معالجة مشاكل بعينها وتنمية شبكات للاتصال . وكذلك فإن لديهم بيروقراطية مركزية لها القدرة على الربط الدائم بين اليهود النشيطين سياسياً على مستوى أمريكا كلها عن طريق كل من مؤتمر الرؤساء ولجنة الشئون العامة . هذا بدوره يجعل لدى الجماعات الصهيونية القدرة على الرد الفوري والتعبئة السريعة وبشكل منسق على المستوى القومي ، وذلك عندما تظهر موضوعات تستحق التدخل من جانب هذه الجماعات .

وفي مجال الدعاية والتأثير على الرأي العام الأمريكي ، فإن اللوبي الصهيوني بالمعنى المحدد للكلمة ، وبالمعنى العام ، نجح في جعله موالياً لإسرائيل بصورة عامة . وهذا النجاح لا يرجع فقط إلى الدعاية المنظمة والمؤتمرات وإنما يرجع أيضاً لقدرة اللوبي الصهيوني على عقد تحالفات دائمة مع جماعات المصالح الأخرى مثل العمال والمرأة والمنظمات الدينية وتلك التي تمثل الأقليات الأخرى وجمعيات حقوق الإنسان ، واستخدام هذه الجماعات للتأثير على الرأي العام والكونجرس .

ولا يعمل اللوبي الصهيوني (بالمعنى العام الشائع) بشكل مستقل عن الحركة الصهيونية وإنما ينسق معها . وعندما يُثار موضوع مهم ، فإن قادة مؤتمر الرؤساء ولجنة الشئون العامة يحتفظون باتصال وثيق مع العاملين في السفارة الإسرائيلية في واشنطن ومع المستويات العليا في الحكومة الإسرائيلية . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن كلتا المنظمتين لديها القدرة على تنسيق أنشطتها مع الجماعات الصهيونية على المستوى العالمي من خلال المنظمة الصهيونية .

هذا هو المعنى الشائع ، ولكننا سنطرح معنى ثالثاً غير شائع إذ أننا نذهب إلى أن اللوبي الصهيوني لا يتكون من عناصر يهودية وحسب وإنما يضم عناصر غير يهودية أيضاً ، وهو يضم كل أصحاب المصالح الاقتصادية الذين يرون أن تفتيت العالم العربي والإسلامي يخدم مصالحهم ، وأعضاء النخبة السياسية والعسكرية ممن يتبنون وجهة نظرهم . كما يضم اللوبي الصهيوني كثيراً من الليبراليين ممن كانوا يدعون إلى اتخاذ سياسة ردع نشيطة ضد الاتحاد السوفيتي (سابقاً) ، وكثيراً من المحافظين الذين يرون في إسرائيل قاعدة

للحضارة الغربية وقاعدة لمصالحها ، كما يضم جماعات الأصوليين (الحَرْفيين) ممن يرون في دولة إسرائيل إحدى بشائر الخلاص .

ولا يُوظِّف اللوبي اليهودي الصهيوني عناصر اليهودية والصهيونية وحسب ، وإنما يُوظِّف عناصر ليست يهودية ولا صهيونية (بل قد تكون معادية لليهود واليهودية) ولكنها مع هذا تُوظِّف نفسها دفاعاً عنه وعن مصالحه ، بسبب الدور الذي تؤديه الدولة الصهيونية في الشرق الأوسط وبسبب تلاقي المصالح الإستراتيجية الغربية والصهيونية .

اللوبي اليهودي والصهيوني : الأطروحة الشائعة

Jewish and Zionist Lobby : The Dominant Hypothesis

يُعَدُّ اللوبي اليهودي والصهيوني (بالمعنى الشائع) أداة ضغط فعالة في يد من يمثلون مصالح الدولة الإسرائيلية . ولا يستطيع أي دارس أن ينكر قوة اللوبي الذاتية التي يمكن تلخيص مصادرها فيما يلي :

١ ـ يستند اللوبي اليهودي والصهيوني إلى قاعدة واسعة من الناخبين من أعضاء الجماعة اليهودية .

٢ ـ توجد بين هؤلاء الناخبين نسبة عالية من الأثرياء يُقدَّر أنهم يتبرعون بأكثر من نصف مجموع الهبات الكبرى للحملة الانتخابية للحزب الديموقراطي ، إضافة إلى مبالغ ضخمة لحملات الحزب الجمهوري (انظر : «الصوت اليهودي») .

٣ ـ ازدادت أهمية هؤلاء الناخبين بعد الزيادة الهائلة في كلفة الحملات الانتخابية .

٤ ـ من أسباب قوة اللوبي اليهودي والصهيوني ارتفاع المستوى التعليمي لأعضاء الجماعات اليهودية .

٥ ـ يوجد عدد كبير من المثقفين الأمريكيين اليهود الذين أصبحوا جزءاً عضوياً من النخبة الحاكمة ، فهم أبناء حقيقيون للمجتمع الأمريكي لا يعيشون على هامشه أو "في مسامه" وإنما في صلبه ، وهو ما يجعلهم قادرين على ممارسة الضغط والتأثير بشكل مباشر .

٦ ـ الجماعة اليهودية جماعة منظمة لدرجة كبيرة ، وهذا يجعلها قادرة على مضاعفة قوتها وزيادة نفوذها لدرجة لا تتناسب مع أعداد أعضائها .

٧ ـ ساعد نظام الانتخابات في الولايات المتحدة على أن يلعب اليهود دوراً ملحوظاً في الانتخابات بسبب تركُّزهم في بعض أهم الولايات التي تقرر مصير الانتخابات الأمريكية (نيويورك ـ كاليفورنيا ـ فلوريدا) .

٨ ـ لا يهتم الناخب الأمريكي كثيراً بقضايا السياسة الخارجية ولا يفهمها كثيراً ، ولذا فإن أقلية مثل الجماعة اليهودية عندها هذا الاهتمام بإسرائيل وسياسة الولايات المتحدة تجاهها يمكنها أن تمارس نفوذاً قوياً في تحديد السياسة الخارجية الأمريكية .

والافتراض الكامن في كثير من الأدبيات العربية أن اللوبي اليهودي الصهيوني (بالمعنى الشائع) هو الذي يؤثر في صناع القرار الأمريكي ، بل يرى البعض أنه يسيطر سيطرة تامة على مراكز صنع السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط ، وأنه يدفع هذه السياسة في اتجاه التناقض مع المصالح القومية الأمريكية الحقيقية بما يخدم مصلحة الدولة الصهيونية (وينسب البعض للوبي مقدرات بروتوكولية رهيبة) . وهذا يعني بطبيعة الحال أن اللوبي الصهيوني هو لوبي يهودي وأن اليهود يشكلون قوة سياسية وكتلة اقتصادية موحدة خاضعة بشكل شبه كامل للسيطرة الصهيونية ويتحركون وفق توجيهاتها ، وأن بإمكان أقلية قوامها ٤,٢٪ من السكان أن تتحكم في سياسة إمبراطورية عظمى مثل الولايات المتحدة .

كما يفترض المفهوم أن العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة علاقة عارضة متغيرة وليست إستراتيجية مستقرة ، وأن تأييد الولايات المتحدة لإسرائيل ناجم عن عملية ضغط عليها "من الخارج" تقوم به قوة مستقلة لها آلياتها المستقلة وحركياتها الذاتية ومصلحتها الخاصة ، وليس نابعاً من مصالح الولايات المتحدة أو من إدراكها لهذه المصالح .

ويستند إدراك كثير من المنادين بمقولة قوة اللوبي الصهيوني إلى مجموعة من المقدمات المنطقية المعقولة التي تكاد تكون بدهية ، ومن وجهة نظرهم . فنحن إذا حكَّمنا العقل ودرسنا الواقع بشكل موضوعي لتوصلنا إلى أنه ليس من صالح الولايات المتحدة الأمريكية أن تدخل في معركة مع الشعب العربي ، بل من صالحها أن تتعاون معه في كل المجالات الممكنة ، لأن مثل هذا التعاون سيؤدي إلى استقرار المنطقة العربية وسيعود على الولايات المتحدة بالفائدة . فالعالم العربي يشغل موقعاً إستراتيجياً مهماً ، فهو يقع في وسط أفريقيا وآسيا ، وله امتداد حضاري وسكاني في كليهما ، وهو شريك أوربا في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ويشكل نواة العالم الإسلامي . ولذا فمن صالح الولايات المتحدة أن تكون علاقاتها جيدة مع شعب يشغل مثل هذا الموقع الإستراتيجي ، وألا يزاحمها أحد في مثل هذه المكانة . علاوة على هذا ، يضم العالم العربي نسبة ضخمة من بترول العالم ومن مخزونه الإستراتيجي المعروف ، وهذا البترول ـ كما هو معروف ـ أمر حيوي بالنسبة للمنظومة الصناعية في

الغرب . كما أن الأسواق العربية من أهم الأسواق من منظور تسويق السلع وكذلك استثمار رأس المال . والعلاقة الطيبة بين الدول العربية والولايات المتحدة ستؤدي حتماً إلى تحسين صورتها لا في العالم العربي وحسب بل في العالم الثالث بأسره .

ولكن الولايات المتحدة ، هذا البلد العقلاني الذي تحكمه معايير عملية عقلانية مادية باردة ، لا تسلك حسب هذه المعايير المعقولة البديهية ، فهي تتمادى في تأييد إسرائيل وتقف وراءها بكل قوة وتستجلب على نفسها عداء العرب . مثل هذا الوضع شاذ وغير عقلاني لا يمكن تفسيره إلا بافتراض وجود قوة خارجية ، ذات مقدرة ضخمة ، قادرة على أن تضغط على الولايات المتحدة بحيث تتصرف ، لا بحسب ما تمليه عليها مصالحها الموضوعية ، وإنما حسبما تمليه عليها مصالح هذه القوة ، أي المصالح اليهودية والصهيونية والإسرائيلية التي يمثلها اللوبي اليهودي والصهيوني (بالمعنى الشائع) .

ولكن ما لم يطرأ لمثل هؤلاء على بال هو أن من المحتمل أن الولايات المتحدة لا تدرك "مصالحها" بهذه الطريقة التي يتصورون أنها عقلانية بل لعلها ترى أن "عدم الاستقرار أو عدم الاستقرار المحكوم" (بالإنجليزية : كونترولد إنستابيليتي Controlled instability) أفضل وضع بالنسبة لها ، وأن وضع التجزئة العربية هو ما يخدم "مصالحها" ، وأن إسرائيل هي أداتها في خلق حالة عدم الاستقرار المحكوم هذه ، والخادم الحقيقي "لمصالحها" .

اللوبي اليهودي والصهيوني : تلاقي المصالح الإستراتيجية بين العالم الغربي والدولة الصهيونية

Jewish and Zionist Lobby : The Convergence of the Strategic Interests of the Western World and the Zionist State

مفهوم «المصلحة الإستراتيجية» ليس مفهوماً بسيطاً أو عقلانياً . ومما لا شك فيه أن عملية اتخاذ القرار السياسي في العالم الغربي مركبة لأقصى حد ، فهي تتم من خلال مؤسسات يديرها علماء متخصصون (تكنوقراط) بطريقة "رشيدة" ، بمعنى أنها تتبع إجراءات معروفة ومحددة لا تخضع للأهواء الشخصية ، ولذا لا يُتخذ القرار إلا بعد توفير المعلومات اللازمة وإشراك المستشارين والمتخصصين . ثم بعد ذلك تتم عملية موازنات صعبة ودقيقة بشأن حساب المكسب والخسارة وجدوى القرار وقوة العدو ونقط ضعفه . وعلى سبيل المثال ، حينما قرَّر كيسنجر التخلص من حكم الليندي في تشيلي الذي كان قد وصل إلى سدة الحكم من خلال انتخابات نزيهة ، وأحل محله حكماً عسكرياً شرساً . وحينما قررت الولايات المتحدة دعم الكونترا وهو ما يعني التدخل في الشئون الداخلية لنيكاراجوا وإثارة حفيظة دول أمريكا اللاتينية التي كانت تعلم تماماً أن نظام الساندنيستا ليس نظاماً شيوعياً كما تزعم الولايات المتحدة وإنما نظام وطني ينحو منحى يسارياً . نقول ، حينما قررت الولايات المتحدة أن تفعل ذلك ، فإنها كانت مدركة تماماً أن ثمة خسارة ما ولكن حساب المكسب والخسارة كان واضحاً ، فالعائد السياسي (القضاء على نظم قومية تحاول أن تحرز نمواً اقتصادياً خارج نطاق المنظومة الرأسمالية والهيمنة الأمريكية والغربية) كان أعلى كثيراً من العادم (تدعيم صورة اليانكي القبيح المستغل وترسيخها في الوجدان اللاتيني) . والشيء نفسه ينطبق على قرار غزو بنما والقضاء على عميل مهم للولايات المتحدة ، فنورييجا كان مخلوق أمريكا القبيح . وحينما أرسلت الولايات المتحدة قوتها للقيام بعملية الغزو فإنها كانت مدركة أن العائد الاجتماعي السياسي (القضاء على واحد من أهم مصادر المخدرات ، وبالتالي حل مشكلة المخدرات التي تهدد نسيج المجتمع الأمريكي وأمنه القومي ودعم صورة المؤسسة الحاكمة أمام جماهيرها ، على أنها مؤسسة جادة في عملية محاربة المخدرات) كان أعلى كثيراً في تصوُّرها من العادم (تدخُّل قوة عظمى في شئون دولة صغيرة والقضاء على عميل نافع مفيد) .

ولكن ، إذا كان التكنوقراط يتخذون القرار حسب إجراءات موضوعية ومعايير محسوبة تضمن توظيف الوسائل على أحسن وجه في خدمة الأهداف ، فإن الأهداف الإستراتيجية نفسها لا تحددها اللجان التكنوقراطية ، فهذه العملية تتم على أعلى المستويات وتصبح جزءاً من العقد الاجتماعي الذي يستند إليه المجتمع ككل ، كما أن تغيير هذه الأهداف لا يتم إلا بثورة اجتماعية شاملة . وحساب المكسب والخسارة والعائد والعادم يتم في إطار ما يُسمَّى «مصلحة الدولة العليا» . وهذه المصلحة ليست قضية بسيطة يمكن تحديدها موضوعياً ورياضياً وبشكل إجرائي غير شخصي ، فرؤية أعضاء النخبة الحاكمة لمصالحهم ، والمصالح الفعلية التي يحاولون الحفاظ عليها ، والإطار الرمزي الذي يدركون من خلاله هذه المصالح ، والعقيدة السياسية والدينية التي تستند إليها شرعية النخبة ، تساهم كلها ، بشكل أو بآخر ، في تحديد «مصلحة الدولة العليا» ، فما يرى أعضاء النخبة أنه مصلحة الدولة العليا قد يكون مصلحتهم هم كجماعة أو طبقة ولا يمثل بالضرورة صالح الدولة ككل أو صالح أغلبية أعضاء المجتمع . وما قد يكون رشيداً من وجهة نظر إنسانية عامة قد لا يكون رشيداً من وجهة نظر أصحاب القرار .

وما نود تأكيده هنا أن سلوك دولة عظمى مثل الولايات المتحدة ليس مسألة تتم حسب قواعد رشيدة بسيطة ، وإنما هو نتيجة عملية مركبة تدخل فيها عناصر "ذاتية" وعقائدية ومادية وغير مادية ، قد لا تنضوي بالضرورة داخل إطار الرشد كما نتخيله (وهنا يأتي دور الصور الذهنية وعالم الرموز والتراث المسيحي اليهودي والذاكرة التاريخية . . . إلخ) . وإن لم يكن الأمر على هذا النحو ، فكيف نفسِّر دخول الولايات المتحدة حرباً ضروساً في فيتنام (بعد هزيمة فرنسا فيها) ، وتورطها في هذه الحرب لعشرات السنين ، وإنفاقها بلايين الدولارات وإهدارها دماء عشرات الألوف من الأمريكيين والفيتناميين ، في حرب كان يعرف الجميع أنها خاسرة ، واعترف بذلك ـ فيما بعد ـ مهندس الحرب الحقيقي روبرت ماكنمارا ؟ ولماذا لم تخرج هذه الدولة العقلانية من الحرب إلا بعد تصاعُد المظاهرات في الولايات المتحدة لما يزيد عن عشرة أعوام ؟

وأعتقد أن الغرب قد عرَّف مصلحته الإستراتيجية منذ بداية القرن التاسع عشر بطريقة تجعله ينظر للمنطقة العربية باعتبارها مصدراً هائلاً للمواد الخام (الرخيصة) ومجالاً خصباً للاستثمارات الهائلة (التي تعود عليه وحده بالربح) وسوقاً عظيمة لسلعه (التي ينتجها ويصرفها فيزداد هو ثراءً) ، أو قاعدة إستراتيجية شديدة الخطورة والأهمية (بالنسبة لأمنه هو) إن لم يتحكم فيها قامت قوى معادية (مثل الاتحاد السوفيتي في الماضي) باستخدامها ضده ، ويعبِّر هذا الموقف عن نفسه في مصطلح مثل «الفراغ» الذي كثيراً ما يُستخدَم للإشارة إلى شرقنا العربي وكأن وطننا رقعة أرض أو مساحة لا يقطنها شعب عريق له امتداده الحضاري ، وكأن أوطاننا هي وجود جغرافي رحب مجرد من التاريخ ، أي أننا في الإدراك الغربي مجرد شيء قد يصلح للاستخدام أو الاستعمال .

وحتى حينما نتحول إلى أكثر من مجرد مساحة ، فإن الإدراك الغربي للمنطقة (وهو إدراك تحدده مصلحته كما يراها هو أو كما تراها نخبته الحاكمة ومؤسسات صنع القرار فيه) يرى وطننا العربي على أنه منطقة مأهولة بشعوب وقبائل وأقليات معظمها يتحدث العربية وتدين بديانات مختلفة لا يربطها رابط حضاري أو اجتماعي واحد لكلٍّ مصلحته الاقتصادية ومستقبله السياسي المستقل (وتفتُّتها يُسهِّل عملية تحويلها إلى مادة استعمالية) وتكمن مصلحة الغرب (كتشكيل حضاري نهم يود استغلال الشرق والاستثمار فيه بما يعود عليه هو بالربح وبتوجيهه لما يخدم أمنه) في الحفاظ على عدم الترابط الحضاري أو الاجتماعي في عالمنا العربي . وهذه هي مصلحة الغرب كما يدركها أهله ، وهذا هو الإطار الذي يتم اتخاذ القرار من خلاله .

والمفهوم الصهيوني لعالمنا العربي يتفق تمام الاتفاق مع المفهوم الغربي ، فالصهاينة يشيرون إلى فلسطين باعتبارها «أرضاً بلا شعب» ، وإلى الضفة الغربية باعتبارها «يهودا والسامرة» ، وهي مصطلحات تلغي التاريخ العربي تماماً . وهم يشيرون إلى الشرق الأوسط على أنه «المنطقة» وهو اصطلاح يشبه في كثير من الوجوه اصطلاح «الفراغ» ، فكلاهما يؤكد فكرة أن عالمنا العربي مكان بلا زمان ، وجغرافيا بلا تاريخ ، أو مساحة تسكنها شعوب عديدة متفرقة متناثرة ، والصهيونية في نهاية الأمر وليدة التراث الفكري الاستعماري الغربي في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وهي أداته في المنطقة ، وقد بدأ الاهتمام الغربي بالصهيونية كفكرة منذ القرن السابع عشر ، ولكن الاهتمام الفكري تحوَّل إلى فكر سياسي ثم إلى خطاب سياسي ثم إلى مُخطَّط استعماري ثابت بعد ظهور محمد علي الذي كان يهدد المصالح الغربية لأنه كان قادراً على ملء «الفراغ» في المنطقة إما عن طريق طرح نفسه على أنه القوة الجديدة ، أو عن طريق إدخال العافية على رجل أوربا المريض . ومن هنا كانت فكرة الدولة الصهيونية التي وُلدت داخل الخطاب السياسي الغربي ، ومن هنا الدعم الغربي الحاسم للمشروع الصهيوني ، أداة الغرب في خَلْق الفراغ والحفاظ عليه كوسيلة للدفاع عن أمن الغرب لا عن أهل المنطقة ، وعن مصالح الغرب لا مصالح العرب . ولا يمكن إنكار دور الصهاينة في ترسيخ هذا الإدراك الغربي للشرق الأوسط ، ولكن تظل العلاقة بين الصهيونية والتشكيل الاستعماري الغربي تدور في إطار المصالح الإستراتيجية الثابتة التي تشكلت داخل الحضارة الغربية قبل ظهور الجماعات اليهودية كقوة سياسية فاعلة في الغرب .

هذا هو السر الحقيقي للنجاح الصهيوني في الغرب ، فهو لا يعود إلى سيطرة اليهود على الإعلام ، أو لباقة المتحدثين الصهاينة ، أو إلى مقدرتهم العالية على الإقناع والإتيان بالحجج والبراهين ، أو إلى ثراء اليهود وسيطرتهم المزعومة على التجارة والصناعة ، وإنما يعود إلى أن صهيون الجديدة جزء من التشكيل الاستعماري الغربي ، وإلى أنه لا يمكن الحديث عن مصالح يهودية وصهيونية مقابل مصالح غربية ، وإلى أن الإعلام واللوبي الصهيونيين يمثلان أداة الغرب الرخيصة : دولة وظيفية عميلة للولايات المتحدة تؤدي كل ما يوكل إليها من مهام بنجاح وتنصاع تماماً للأوامر ، ولا توجد سوى مناطق اختلاف صغيرة بينها وبين الولايات المتحدة (لا تختلف كثيراً عن الاختلافات التي تنشأ بين الدولة الإمبريالية الأم والجيوب الاستيطانية التابعة لها ، كما حدث بين فرنسا والمستوطنين الفرنسيين

في الجزائر ، وبين إنجلترا من جهة والمستوطنين الإنجليز في روديسيا والمستوطنين الصهاينة في فلسطين من جهة أخرى) . وتنصرف هذه الاختلافات أساساً إلى الأسلوب والإجراءات لا إلى الأهداف النهائية ، اختلافات يمكن حسمها عن طريق الإقناع والضغط كما يحدث عندما تطلب السعودية صفقة أسلحة ولا ترضى إسرائيل عن ذلك ، أو عندما تريد إسرائيل توسيع رقعة استقلالها قليلاً عن طريق إنتاج سلاح مثل طائرة اللافي ولا ترضى المؤسسة العسكرية الصناعية الأمريكية عن ذلك . فالاختلاف ينصرف إلى التفاصيل لا إلى "المصلحة" وإدراكها ، ومن هنا يمكن إدارة الحوار حسب قوانين اللعبة المتعارف عليها وتتم ممارسة الضغط داخل إطار من التفاهم بشأن المبادئ الأساسية ومن داخل النسق لا من خارجه . ويجب ألا يثير هذا الوضع دهشتنا فتاريخ الحركة الصهيونية ليس جزءاً من «تاريخ يهودي عالمي وهمي» ولا هو جزء من التوراة والتلمود (رغم استخدام الديباجات التوراتية والتلمودية) وإنما هو جزء من تاريخ الإمبريالية الغربية . ولذا فالصهيونية لم تظهر بين يهود اليمن أو الهند أو المغرب وإنما ظهرت بين يهود العالم الغربي ، وهي لم تظهر في العصور الوسطى ، على سبيل المثال ، وإنما في أواخر القرن السابع عشر مع ظهور التشكيل الاستعماري الغربي وبدايات استيطان الإنسان الغربي في العالم الجديد وفي بعض المدن الساحلية في أفريقيا وآسيا .

ويدرك الساسة الإسرائيليون هذه الحقائق إدراكاً كاملاً ، ولذا فهم لا يكفون عن الحديث عن أهمية إسرائيل كقاعدة عسكرية وحضارية وأمنية للغرب ، وأنها ، علاوة على ذلك ، قاعدة رخيصة ، أرخص بكثير من ١٠ حاملات طائرات تبلغ تكاليفها ٥٠ بليون دولار ، كانت الولايات المتحدة ستضطر لبنائها وإرسالها للبحر الأبيض المتوسط وللبحر الأحمر لحماية "المصالح" الأمريكية . إن إسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة "كنز إستراتيجي" (أو دولة وظيفية في مصطلحنا) ، وهذا ما يؤكده المتحدثون الإسرائيليون في واشنطن ، قبل الدخول في أية مفاوضات . وقد جاء في إحدى إعلانات **النيويورك تايمز** (الذي مولته إحدى الهيئات الصهيونية) أنه إذا ما تهددت مصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط فإن وضع قوة لها شأنها هناك يحتاج إلى "أشهر ، أما مع إسرائيل كحليف فإنه لا يحتاج إلا بضعة أيام" . إن هذه العبارة تتحدث عن إجراءات القمع والتأديب ضد العالم العربي وتبين مدى كفاءة الدولة الوظيفية في إنجاز مهمتها ، ولا تتحدث عن نقطة الانطلاق ولا عن الأسباب الداعية للقمع والتأديب وهي أن مصلحة الغرب تتطلب مثل هذا القمع لأنها مسألة مستقرة مفروغ منها في الفكر الإستراتيجي الغربي .

اللوبي اليهودي والصهيوني: أوربا الغربية

Jewish and Zionist Lobby : Western Europe

نذهب إذن إلى أن "سر" نجاح اللوبي اليهودي والصهيوني هو أنه يدور في إطار المصالح الإستراتيجية الغربية وأنه يعرض دولته الصهيونية باعتبارها أداة ، أي أن مصدر نجاحه لا يعود لقوته الذاتية أو لعناصر كامنة فيه ، وإنما بسبب اتفاق مصلحته مع مصلحة الغرب الإستراتيجية . والنموذج السائد في الخطاب التحليلي العربي (الرسمي والشعبي) هو عكس هذا ، فهو يفترض أن نجاح الصهاينة يعود لقوتهم الذاتية ومن ثم يُفسَّر تزايُد الدعم الغربي لإسرائيل على أساس تعاظُم النفوذ اليهودي والصهيوني ، فإن زاد الثاني زاد الأول . ولاختبار هذه الأطروحة الشائعة ، ولتوضيح ضعف مقدرتها التفسيرية ، سنورد بعض الشواهد والقرائن التاريخية والحديثة :

١ ـ أول من دعا لإنشاء دولة يهودية في فلسطين في العصر الحديث هو نابليون بونابرت ، وهو أيضاً أول غاز غربي للشرق العربي في العصر الحديث . ومما يجدر ذكره أن نابليون كان معادياً لليهود ، كما يدل على ذلك سجله في فرنسا . ولا يمكن الحديث عن وجود لوبي يهودي أو صهيوني قوي أو ضعيف حين أطلق نابليون دعوته ، فقد كانت نابعة من إدراكه لمصالح فرنسا الإستراتيجية .

٢ ـ هناك حشد من الساسة البريطانيين (بالمرستون ـ شافتسبري ـ أوليفانت ـ لويد جورج ـ بلفور) دعوا لإقامة دولة يهودية في فلسطين، إما قبل ظهور الحركة الصهيونية بين اليهود أو في غياب لوبي يهودي أو صهيوني . ومما يجدر ذكره أن كل هؤلاء الساسة كانوا ممن يكرهون اليهود ، وبخاصة بلفور ، الذي كان وراء استصدار قانون الغرباء عام ١٩٠٥ لمنع اليهود من دخول إنجلترا ، والذي اعترف بعدائه للسامية ، والذي كان يرى أن اليهود يشكلون عبئاً على الحضارة الغربية ولكنهم جميعاً وجدوا أن ثمة فائدة إستراتيجية تعود على إنجلترا لو أسست دولة صهيونية .

٣ ـ لا شك في أن صدور وعد بلفور هو أهم حدث في تاريخ الصهيونية ودراسة الظروف المحيطة بصدوره . ولذا فهو يزودنا بلحظة نادرة لاختبار نموذج الضغط اليهودي والصهيوني . ولإنجاز هذا سنعقد مقارنة بين "قوة" الجماعتين اليهوديتين في ألمانيا وإنجلترا من منظور مقدرتهما على الضغط :

أ) فمن المعروف أن الوجود اليهودي في ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى كان قوياً جداً ، وكان اليهود يشغلون مناصب حكومية مهمة ، ويوجدون في مواقع اقتصادية ذات طبيعة إستراتيجية ، فكان أهم ثلاثة بنوك يملكها بعض أعضاء الجماعة اليهودية في ألمانيا ، كما كانوا متغلغلين في الإعلام وقيادات الأحزاب السياسية ، وكان منهم كثير من المؤلفين والفنانين . وقد حققوا معدلات عالية للغاية من الاندماج ، وهو ما يسَّر لهم عملية التحرك داخل المجتمع الألماني ، كما أن اليهود الألمان اشتركوا بأعداد كبيرة في الحرب تفوق نسبتهم القومية . والحركة الصهيونية حتى ذلك الوقت كانت حركة ألمانية في توجهها الثقافي ، فكانت لغة المؤتمرات الصهيونية هي الألمانية ، كما كانت برلين مقر المنظمة الصهيونية العالمية . وكان الصهاينة على أتم استعداد لأن يجعلوا مشروعهم الصهيوني جزءاً من المشروع الألماني الاستعماري .

ب) مقابل هذا كانت توجد في إنجلترا جماعة يهودية صغيرة للغاية ليست لها القوة المالية أو الثقافية للجماعة اليهودية في ألمانيا ، وكانت جماعة مندمجة تماماً ومعادية للصهيونية (كان وايزمان والقيادات الصهيونية من شرق أوربا) .

مع هذا نجح الصهاينة في إنجلترا في استصدار وعد بلفور ، رغم ضعفهم وعزلتهم ، بينما فشل صهاينة ألمانيا في ذلك رغم قوتهم وارتباطهم بالمجتمع . ولا يمكن العودة إلى الصورة الإعلامية أو اللوبي الصهيوني وما شابه من نماذج تفسيرية . وإنما علينا أن نعود إلى المصالح الإستراتيجية الإمبريالية الإنجليزية مقابل المصالح الإستراتيجية الإمبريالية الألمانية . أما الإمبريالية الألمانية فكانت متحالفة مع الدولة العثمانية ، ولذا لم يكن هناك مجال لإعطاء أي وعود للصهاينة على حساب هذه الدولة . لكن الوضع كان مختلفاً بالنسبة للإمبريالية الإنجليزية فقد ظل التحالف قائماً بينها وبين الدولة العثمانية حتى اندلاع الحرب ، ولذا حينما صدر أول وعد بلفوري إنجليزي وهو الخاص بمشروع شرق أفريقيا فقد كان وعداً بقطعة أرض خارج الدولة العثمانية . ولكن بعد أن قررت الإمبريالية الإنجليزية تقسيم الدولة العثمانية أصبح من الممكن إصدار وعد بلفور لمجموعة من الصهاينة ليسوا من الإنجليز . وكان على الموجودين في إنجلترا أن يقطعوا علاقتهم مع المنظمة الخاضعة لنفوذ ألمانيا آنذاك ، وكان الوعد هذه المرة وعداً بقطعة أرض داخل الدولة العثمانية . إن وعد بلفور والدعم البريطاني للمشروع الصهيوني لا علاقة لهما بأي لوبي يهودي أو صهيوني قوي أو ضعيف .

٤ ـ إذا نظرنا إلى سياسة كل من إنجلترا وفرنسا في الوقت الحالي تجاه الشرق الأوسط لوجدنا أنها تتفق مع السياسة الأمريكية والتوجه الإستراتيجي الغربي بشكل عام مع اختلافات طفيفة . ويستطيع الباحث المدقق أن يجد أن سياسة إنجلترا أكثر اقتراباً من السياسة الأمريكية وأكثر دعماً لإسرائيل ، وأن السياسة الفرنسية أكثر ابتعاداً وربما اعتدالاً (من وجهة نظر غربية) . ولو حاول تفسير هذا الاختلاف على أساس النفوذ الصهيوني لباءت محاولته بالفشل :

أ) فالجماعة اليهودية في إنجلترا ضعيفة لأقصى حد من الناحية الكمية ، أما من الناحية الكيفية فهي من أكثر الجماعات اندماجاً وهي آخذة في التناقص (إن لم يكن أيضاً الاختفاء) . وعند وقوع مذبحة صبرا وشاتيلا لم يجد التليفزيون البريطاني مفكراً بريطانياً يهودياً واحداً يدافع عن الموقف الصهيوني ، فاضطروا إلى إحضار نورمان بودوريتس رئيس مجلة **كومنتاري** من الولايات المتحدة لتقديم وجهة النظر الصهيونية .

ب) أما في فرنسا فتوجد جماعة يهودية يبلغ تعدادها ٧٠٠ ألف ، وهي جماعة اكتسبت لوناً يهودياً قوياً نوعاً ما بعد هجرة يهود المغرب العربي ، وهي جماعة ذات نفوذ قوي في الإعلام وغيره .

وأعتقد أنه لتفسير موقف كلا البلدين يجب ألا نعود إلى قوة أو ضعف الجماعة اليهودية في كلٍّ منهما وإنما إلى موقف كليهما من التحالف الغربي وإلى رؤية كل منهما له . فإنجلترا أكثر ارتباطاً بالولايات المتحدة من فرنسا داخل هذا التحالف ، بينما تحاول فرنسا أن تحافظ على مساحة من الاستقلال الأوربي لا تهتم بها إنجلترا بالدرجة نفسها ، ولعل هذا هو مصدر اختلاف سياسة البلدين تجاه قضية الشرق الأوسط .

٥ ـ وإذا نظرنا إلى دول مثل هولندا وبلجيكا فلا يمكن تفسير تأييدها لإسرائيل استناداً إلى مقولة اللوبي اليهودي الصهيوني ، فالوجود اليهودي في كثير من هذه البلدان يكاد يكون منعدماً .

اللوبي اليهودي والصهيوني: الاتحاد السوفيتي

Jewish and Zionist Lobby : The Soviet Union

تُثار قضية اللوبي اليهودي والصهيوني (بالمعنى العام) في الاتحاد السوفيتي إذ يذهب البعض أن "اليهود" سيطروا على الاتحاد السوفيتي ، فالثورة البلشفية حسب تصوُّرهم هي "الثورة اليهودية" والشيوعية العالمية والصهيونية العالمية حليفان .

وكما هو الحال دائماً مع النماذج الاختزالية ثمة عناصر في الواقع يمكنها تأييد مثل هذا المفهوم . فمن المعروف أن أعضاء الجماعة اليهودية في الاتحاد السوفيتي كانوا من أكثر الجماعات وجوداً في

مؤسسات الحزب الشيوعي بالقياس إلى نسبتهم القومية ومهندس الجيش الأحمر هو تروتسكي "اليهودي" . كما يمكن أن نشير إلى وجود أعداد كثيرة من اليهود في الإعلام السوفيتي وفي بعض المؤسسات المهمة مثل اتحاد الكتاب وفي الجامعات والمؤسسات البحثية . ولكن هذا الوضع يعادله عدة عناصر من أهمها :

١ ـ أن النسبة العددية لأعضاء الجماعة اليهودية في الاتحاد السوفيتي كانت صغيرة جداً وآخذة في التناقص .

٢ ـ لم يشكل أعضاء الجماعة كتلة متماسكة لها مصالح واحدة . فيهود جورجيا لا تربطهم رابطة كبيرة بيهود أوكرانيا ، بل إن ثمة نقاط اختلاف دينية وحضارية عميقة بينهم .

٣ ـ كان يهود الاتحاد السوفيتي يتمتعون بدرجة عالية من الاندماج يجد تَجلّيه في الزواج المُختلَط وفي اختفاء اللغة والثقافة اليديشية .

٤ ـ اتجه اليهود السوفييت (من خلال عناصر داخلية سوفيتية مثل تركُّزهم في قطاعات اقتصادية مشبوهة ، وخارجية مثل تدخل الحركة الصهيونية) إلى الخروج من الاتحاد السوفيتي وليس البقاء داخله . وقد أدَّى هذا إلى ضعف نفوذهم كجماعة ضغط داخل النظام السوفيتي .

٥ ـ من الأمور التي كانت تعوق اليهود السوفييت عن التأثير في القرار السياسي السوفيتي ، من داخل النظام أو من خارجه ، أن ثمة رفضاً عميقاً لليهودي داخل التشكيل الحضاري الروسي باعتبار أن اليهودي هو الغريب ، وهو رفض يدعمه تركُّز نسبة كبيرة من أعضاء الجماعة في وظائف هامشية وفي السوق السوداء .

٦ ـ من العناصر بالغة الأهمية أنه ليس كل اليهود السوفييت مؤيدين لإسرائيل ، فهناك اليهود المتدينون الذين لا ينظرون إلى الدولة الصهيونية بعين الرضا . كما أن هناك إحساساً ، بين يهود شرق أوربا ، بأنهم يُشكِّلون أقلية قومية شرق أوربية يديشية ، وهي التقاليد التي صاغها دبنوف وحزب البوند .

٧ ـ وفي نهاية الأمر كانت هناك السياسات السوفيتية الرامية إلى تفكيك اليهود (وكل الجماعات الدينية والإثنية) كجزء من النزوع الأممي وتركيز السلطة في يد السوفييت وحكومتهم المركزية وطليعتهم الحزبية !

ودراسة موقف الاتحاد السوفيتي من الجماعات اليهودية والدولة الصهيونية تبين أن المصالح الإستراتيجية للدولة السوفيتية كانت دائماً العنصر الأساسي في تحديد موقفها (انظر : «البلاشفة والجماعات اليهودية» ـ «البلاشفة والصهيونية») .

ويمكن دراسة قضية حيوية مثل الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتي (سابقاً) في السبعينيات باعتبارها مثلاً مصغراً لتوجهات السياسة السوفيتية ، وهل تتحدد هذه السياسة نتيجة ضغط يهودي صهيوني أم نابعة من المصالح السوفيتية ؟ ومن المعروف أن قضية اليهود السوفييت "وحقهم" في الهجرة لم تُثر في بداية السبعينيات بضغط من الإعلام أو اللوبي الصهيوني وإنما تم بضغط من الولايات المتحدة (بمساعدة أعضاء الجماعة اليهودية فيها) . وقد سمح السوفييت في نهاية الأمر بهجرة أعداد كبيرة من اليهود بسبب ضغوط بنيوية داخلية : التخلص من عناصر متمردة ساخطة وعناصر تجارية إن لجأ للعنف في ضربها أثار الرأي العام الغربي عليه . كما أن الضغوط الغربية لعبت دوراً حاسماً إذ ربط الغرب بين التسهيلات التجارية والائتمانية الممنوحة للاتحاد السوفيتي من جهة والموقف السوفيتي من الهجرة اليهودية من جهة أخرى . ولكن مع تراجع هذه السياسات توقفت الهجرة لتفتح أبوابها مرة أخرى في أواخر الثمانينيات مع الانفتاح السوفيتي على الغرب ومع رغبته العارمة في الحصول على مساعدات مالية وتكنولوجيا متقدمة ، فالقرار قرار سوفيتي اتُخذ استجابة لحاجات سوفيتية داخلية ومطالب غربية ، ولا يشكل اليهود في هذه الصفقة سوى المادة التي سيتم نقلها . ومما لا شك فيه أن الإعلام الذي تنشط فيه العناصر اليهودية أو الصهيونية سواء في الاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة لعب دوراً ملحوظاً ، ولكن لا يمكن تفسير سلوك الاتحاد السوفيتي وسماحه بهجرة اليهود السوفييت في السبعينيات ثم وقفه الهجرة في منتصف الثمانينيات ثم فتحه باب الهجرة مرة أخرى في أواخر الثمانينيات إلا في إطار مصالح الاتحاد السوفيتي المتشابكة والضغوط الأمريكية عليه .

ومع هذا ، يُلاحَظ أن أعضاء الجماعة بدأوا يتمتعون بحرية أكبر في الحركة والتعبير عن آرائهم . ولكن هذا لا يعود إلى قوتهم الذاتية وإنما إلى تغيُّر مبدئي وبنيوي في سياسة الدولة السوفيتية جعلها تجد أن من صالحها السماح لليهود بالهجرة والسماح للحركة الصهيونية بالتحرك . وبطبيعة الحال ، فإنه مع تزايد هجرة اليهود من روسيا وأوكرانيا ، ومع انحلال الاتحاد السوفيتي وانقسامه إلى عدة دول ذات سياسات مختلفة ، فمن المتوقع أن تزداد قدرة الجماعات اليهودية على الضغط .

اللوبي اليهودي والصهيوني : الولايات المتحدة الأمريكية
Jewish and Zionist Lobby : The United States of America

يمكن القول بأن كل الأمثلة التي وردت في المدخل السابق مستمدة من تاريخ إنجلترا أو فرنسا أو الاتحاد السوفيتي وأن الولايات

المتحدة حالة مختلفة تماماً وأن النفوذ الصهيوني مُسيطر عليها بشكل لم يحدث من قبل أو بعد . ولذا فلنحاول اختبار نموذجنا التفسيري الأساسي : إن المصالح الإستراتيجية/ الغربية (الأمريكية في هذه الحالة) هي التي تحدد القرار الأمريكي ، وأن الضغوط الصهيونية ـ من خلال اللوبي أو الإعلام ـ ذات أهمية ثانوية ، فهي قد تؤخر القرار قليلاً ، وقد تُعدل شكله ولكنها لا تُحدِّده أو تُعدِّل اتجاهه الأساسي . ويمكننا أن نذكر الأحداث المهمة التالية للبرهنة على مقولتنا :

١ ـ هناك عدد كبير من رؤساء الجمهورية في الولايات المتحدة ممن دعوا لإنشاء دولة يهودية في فلسطين ، حتى قبل أن توجد جماعة يهودية ذات وزن من الناحية العددية والنوعية في أمريكا الشمالية . ويمكن أن نذكر ـ في هذا المضمار ـ الرئيس جاكسون (الذي كان قد لعب دوراً أساسياً في عملية الإجهاز على البقية الباقية من السكان الأصليين في الولايات المتحدة الأمريكية) .

٢ ـ المؤسِّس الحقيقي للوبي الصهيوني في الولايات المتحدة (بالمعنى العام غير الشائع الذي نطرحه) هو وليام بلاكستون (١٨٤١ ـ ١٩٣٥) الصهيوني غير اليهودي ، الذي أرسل عام ١٨٩١ التماساً إلى الرئيس الأمريكي هاريسون يحثه فيه على "إعادة" فلسطين لليهود . وقد وقَّع على هذا الالتماس عدد من الشخصيات المسيحية واليهودية . ولكن كان هناك معارضة يهودية قوية لمثل هذه الاتجاهات الصهيونية ، إما من منظور ديني أو منظور اندماجي . وقد تصاعدت هذه الاتجاهات بين أعضاء النخبة الحاكمة الأمريكية (البروتستانتية) مع تزايُد اهتمام الولايات المتحدة بالشرق الأوسط . فأيَّدت الولايات المتحدة وعد بلفور ، وحنث الرئيس ولسون بوعوده الخاصة بحق تقرير المصير ، لا خضوعاً لأي ضغط صهيوني أو يهودي وإنما لأنه رأى أن مصير الشرق الأوسط لا يمكن أن يُصاغ دون أن يكون للولايات المتحدة دخل فيه ، ووجد أن تأييده لوعد بلفور هو وسيلته لذلك . (وقد فعل ذلك رغم احتجاج عدد كبير من أعضاء الجماعة اليهودية) .

٣ ـ كانت الأقلية اليهودية في الولايات المتحدة في منتصف القرن التاسع عشر أقلية تؤمن باليهودية الإصلاحية التي تشجع الاندماج . وهذه الأقلية كانت تشكل نخبة ثرية مندمجة من أصل ألماني ولذا لم تكن متحمسة لهجرة يهود شرق أوربا الأرثوذكس السلاف «المتخلفين» المتحدثين باليديشية . ومع هذا اتُخذ القرار الأمريكي بفتح أبواب الولايات المتحدة لجميع المهاجرين لأن هذا ما كانت تتطلبه المصالح الأمريكية ، وبالفعل هاجر الملايين من يهود شرق أوربا حتى أصبحوا يُشكِّلون غالبية يهود أمريكا .

٤ ـ في عام ١٩٢٤ قررت الولايات المتحدة أن تحد من عدد المهاجرين بسبب الأزمة الاقتصادية فأصدرت قانون النصاب عام ١٩٢٣ ، ثم قانون جونسون عام ١٩٢٤ ، فانخفض عدد المهاجرين اليهود انخفاضاً ملحوظاً (من ١١٩ ألفاً عام ١٩٢١ ، و٤٩ ألفاً عام ١٩٢٤ إلى ١٠ آلاف عام ١٩٢٥ ، و٢,٧٥٥ عام ١٩٣٢) . وبعد أن كانت الولايات المتحدة تستوعب ٨٥٪ من المهاجرين اليهود أصبحت تستوعب ما يقل عن ٢٥٪ وأحياناً عن ١٠٪ . ويجب أن نُذكِّر أنفسنا بأن القرارات الخاصة بالهجرة في الولايات المتحدة هي قرارات ذات طابع إستراتيجي ، فالولايات المتحدة دولة استيطانية ، وكانت حينذاك لا تزال في طور التشكيل ، وتشكل المادة الاستيطانية الإنتاجية القتالية بالنسبة لها عنصراً إستراتيجياً ، وبالتالي فالقرارات كانت تُتخذ في ضوء المصالح الأمريكية وحدها ، وسواء سعد اليهود بهذا القرار أم ابتأسوا له فهذه مسألة ثانوية تماماً .

٥ ـ أثناء ما يمكن تسميته بالمرحلة النازية (١٩٣٣ ـ ١٩٤٨) رفضت الولايات المتحدة ومعظم بلاد أوربا فتح أبوابها للمهاجرين اليهود (رغم كل التباكي في الوقت الحالي على ضحايا الإبادة) . ويُفسَّر هذا الوضع على أساس حالة الاقتصاد الأمريكي المتردية والخوف من تَسلُّل الجواسيس الألمان ، بل إن القوات الأمريكية بقيادة إيزنهاور رفضت ضرب قضبان السكك الحديدية المؤدية لمعسكرات الإبادة لوقف عملية نقل اليهود إليها . ويُقال في تفسير هذا إن أيزنهاور قائد القوات الأمريكية كان لا يريد تبديد طاقته العسكرية في هذا العمل الجانبي . ومهما كانت التفسيرات التي تُساق فإن القرار كان أمريكياً والمصالح كانت أمريكية .

٦ ـ حينما أُعلنت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ اعترفت الولايات المتحدة بها فوراً ، ولم يكن اللوبي الصهيوني قوياً أخطبوطياً بعد ، حتى باعتراف أولئك الذين يروجون لأسطورة قوته وأخطبوطيته . كما أن اللوبي اليهودي المعادي للصهيونية كان لا يزال قوياً إذ كان يضم عدداً كبيراً من أثرياء اليهود المندمجين ، وهو ما يعني أن مسارعة الولايات المتحدة بالاعتراف لا يمكن تفسيرها إلا على أساس المصالح الأمريكية وليس لها علاقة بالضغوط اليهودية أو الحملات الإعلامية .

٧ ـ حينما تحالفت إسرائيل مع إنجلترا وفرنسا عام ١٩٥٦ وشنت العدوان الثلاثي على مصر ، دون موافقة الولايات المتحدة ، عوقبت أشد العقاب ، إذ أن الإستراتيجية الأمريكية حينذاك كانت أنْ تلعب الإمبريالية الأمريكية دوراً نشيطاً في الشرق الأوسط وتحل محل الاستعمار التقليدي (الإنجليزي والفرنسي) وتملأ هي "الفراغ" الناجم عن انسحابهما منه . والدولة الصهيونية باشتراكها في هذه

المغامرة وقفت ضد المخطط الأمريكي ولذا كان من الضروري تأديبها ، ومن هنا موقف أيزنهاور "النزيه" و"العادل" و"المحايد" .

٨ ـ لم تشن إسرائيل حرب عام ١٩٦٧ إلا بموافقة صريحة من الولايات المتحدة التي وجدت أن من صالحها تصفية حكم عبد الناصر آنذاك ، وعلى كلٍّ ليس بإمكان إسرائيل أن تشن أي حرب أو تدخل أية مغامرة عسكرية إلا بموافقة الولايات المتحدة التي تمدها بالسلاح والدعم والمظلة الأمنية .

٩ ـ شاهدت الفترة من ١٩٦٧ ـ ١٩٧٤ تنامي العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة وذلك قبل أن يُعاد تنظيم إيباك ، وفي فترة حكم نيكسون الذي كان لا يكن حباً خاصاً لليهود .

١٠ ـ حينما حاولت إسرائيل أن تؤكد استقلالها النسبي في الآونة الأخيرة جاءتها الرسالة واضحة من واشنطن ألا تتجاوز حدودها .

أ) وأولى المحاولات الإسرائيلية لتأكيد شيء من الاستقلال كان في حادثة جوناثان بولارد وهو موظف أمريكي يهودي تجسَّس على الولايات المتحدة لحساب إسرائيل ، وكان رد المؤسسة الأمريكية الحاكمة حاسماً ، إذ قُبض على بولارد وأُدخل السجن لمدة عشرين عاماً وأُجري تحقيق في إسرائيل لتحديد المسئولية ، كما أن الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ثارت ثائرتها ضد الدولة الصهيونية . وصرح جيكوب نيوزنر ، أهم عالم تلمودي في العالم ومن زعماء يهود الولايات المتحدة ، أن يهود أمريكا يؤمنون بأرض ميعاد واحدة هي الولايات المتحدة وأن عاصمتهم هي واشنطن وحسب . بل إن موظفاً مدنياً يهودياً يعمل في وزارة الخارجية الأمريكية منذ ٢٥ عاماً سُحب منه تصريحه الأمني (الذي يمكن بمقتضاه أن يطَّلع على وثائق سرية) لأن ثلاثة من أولاده يعيشون في إسرائيل بعد حادثة بولارد وزيادة الاحتياطات الأمنية (**جيروساليم بوست ١١ فبراير ١٩٨٩**) ، ولو حدث شيء مماثل في أي بلد آخر لاتُّهم هذا البلد على الفور بأنه معاد لليهود . ولكن الإعلام الصهيوني لزم الصمت لأن الجميع يعرف أن هذا هو الخط الذي لا يستطيع أحد عبوره ، فهو خط إستراتيجي أحمر راسخ واضح . وقد حاول اللوبي الصهيوني أن يستفيد من قرار بوش بالعفو عن المتهمين في قضية إيران ـ كونترا عند انتهاء مدة رئاسته وحاولوا استصدار عفو عن بولارد ولكن الطلب رُفض . وقد رفض كلينتون أيضاً العفو عن بولارد .

ب) أما الواقعة الثانية فهي إلغاء مشروع طائرة اللافي . فالمؤسسة الحاكمة الصهيونية كانت حريصة كل الحرص على إنتاج هذه الطائرة محلياً في إسرائيل (بعون أمريكي) لأسباب عديدة من بينها تحقيق شيء من الاستقلال الإسرائيلي وتحسين صورة إسرائيل القومية أمام المستوطنين الصهاينة الذين يشعرون باعتماد دولتهم المذل على الولايات المتحدة . كما أن الطائرة لافي كانت تعني أيضاً إنشاء صناعة طائرات محلية تخلق عشرات الوظائف للمهندسين والفنيين الإسرائيليين بأمل أن يحد ذلك بعض الشيء من ظاهرة هجرة العقول من إسرائيل ونزوح عناصر النخبة الفنية منها . ولكن المؤسسة الصناعية العسكرية في الولايات المتحدة وجدت أنه ليس من صالحها السماح لإسرائيل بإنتاج اللافي فأُلغي المشروع رغم المحاولات اليائسة والمريرة لمدة عامين ، ولم ينجح اللوبي الصهيوني أو غيره في أن يؤثر على القرار الأمريكي . وقد تزايد عدد النازحين بالفعل عن الدولة الصهيونية ، كما أنه قلل مقدرة إسرائيل الاستيعابية للمهاجرين الجدد ، وبخاصة من ذوي المؤهلات العالية ، وهو الأمر الذي شكَّل مشكلة خطيرة مع هجرة اليهود السوفييت .

١١ ـ لوحظ أن بعض الإسرائيليين واليهود السوفييت المقيمين في الولايات المتحدة قد أسسوا عصابات تمارس الجريمة المنظمة (المافيا) ولها نشاط في عالم المخدرات والجنس وتزييف النقود . ولم يتردد الكونجرس الأمريكي في إجراء تحقيق في الموضوع ونشر نتائج التحقيق ، وهو ما أساء لصورة اليهود الإعلامية (**جيروساليم بوست ١٩ أبريل ١٩٨٨**) ولكنه فعل ذلك دون تردُّد لأن الجريمة تهدد أمن الولايات المتحدة القومي ، ولم يخش أحد من سطوة الإعلام الصهيوني .

١٢ ـ ثم جاءت حرب الخليج فأثبتت بما لا يقبل أي شك أن الدولة الصهيونية تتحرك داخل إطار المصالح الإستراتيجية الغربية وليس داخل إطار المصالح اليهودية أو الصهيونية الوهمية ، فالدولة الصهيونية قد أُعدت عبر تاريخها للاضطلاع بدور الأداة العسكرية الكفء ، وقد موَّلها الغرب لهذا السبب ، وهذا السبب وحده . ولكن تبيَّن للغرب أن اشتراكها في القتال سيُسبِّب خسارة للمصالح الغربية ، فاسم إسرائيل لا يزال كريهاً لدى الجماهير العربية التي تدرك بفطرتها السليمة طبيعة هذه الدولة الاستعمارية ، ووقوف أي دولة عربية في القتال جنباً إلى جنب مع إسرائيل (حتى ولو كان ضد العراق) كان سيؤدي إلى غضب هذه الجماهير وثورتها ، ولذا طلبت الولايات المتحدة من الدولة الصهيونية أن تتنحى عن دورها التقليدي وأن تلزم القوات الإسرائيلية ثكناتها وأن تتلقى الصواريخ العراقية دون أن تحرك ساكناً . وقد امتثلت الدولة الصهيونية لهذه الأوامر ، وسُمِّي هذا «ضبط النفس» . وسلوك الدولة الصهيونية ـ مرة أخرى ـ يبيِّن مدى ذكاء أهل الحكم فيها ومعرفتهم تماماً بقوانين اللعبة .

ولعل التنازل الوحيد الذي قدمه الأمريكيون للإسرائيليين في هذه الحالة هو اختيار كولونيل يهودي ليترأس طاقم صواريخ باتريوت الذي أُرسل لحماية الدولة الصهيونية من الصواريخ العراقية ، وكان ضمن الطاقم عشرون يهودياً ! وهو تنازل له طابع رمزي وحسب ولا يمتد بأية حال للأهداف النهائية .

١٣ ـ أثناء المعركة الانتخابية الأخيرة للرئاسة الأمريكية ادعى مدير إيباك في مكالمة تليفونية مع أحد المليونيرات اليهود أن كلينتون يقوم باستشارته بشأن المرشحين لمنصب وزير الخارجية (وذلك بهدف تضخيم دور اللوبي) . ولكن المليونير كان قد قام بتسجيل المكالمة وسربها للصحف التي قامت بنشرها ، ويُعدُّ مثل هذا التصريح خرقاً للعقد الاجتماعي الأمريكي الذي يسمح لأعضاء الأقليات بالتعبير عن هويتهم الإثنية بشرط ألا يتناقض هذا مع الصالح الأمريكي العام وأن يأتي الولاء للولايات المتحدة في المقام الأول . وقد اعتذر مدير إيباك عما بدر منه وأكد أن ما قاله في المكالمة التليفونية بشأن تعيين وزير الخارجية لم يكن إلا من قبيل الدعاية للإيباك لحث المليونير اليهودي على أن يجزل العطاء للإيباك ، وقدَّم المدير استقالته بعد ذلك .

إلى جانب هذه الوقائع التاريخية التي تثبت أن المرجعية النهائية هي المصلحة الإستراتيجية الغربية ، يمكننا أن نكتشف بعض جوانب آليات الضغط اليهودي الصهيوني لنرى مدى علاقتها بالمصالح اليهودية والصهيونية المستقلة :

١ ـ يمكن أن نطرح سؤالاً بشأن مدى تأثير الصوت اليهودي في سياسات الولايات المتحدة وانحيازها لإسرائيل . وتبعاً للأطروحة الشائعة ، لابد أن يزيد الانحياز مع تزايُد قوة هذا الصوت ، والعكس صحيح . ولنا أن نلاحظ أن العلاقة بين الدولة الصهيونية والولايات المتحدة أثناء حكم الرؤساء الجمهوريين (نيكسون ـ ريجان ـ بوش) قد توثقت عراها بشكل مذهل ، رغم أن ما بين ٧٠ ـ ٨٠٪ من مجمل الأصوات اليهودية ذهبت للديموقراطيين . وقد لوحظ في انتخابات الكونجرس لعام ١٩٩٤ تقلُّص في عدد الممثلين اليهود إذ انخفض عدد الشيوخ من ١٠ إلى ٩ وعدد النواب من ٤١ إلى ٣٣ ، وهو ما يعني تراجع المقدرة الصهيونية المزعومة على الضغط . ومع هذا لم يتوقع أحد أن تتغيَّر سياسة الولايات المتحدة تجاه إسرائيل ، بل زادت درجة الانحياز كما زاد عدد أعضاء الجماعة اليهودية في مؤسسات صنع القرار . (انظر : «الصوت اليهودي») .

٢ ـ ويمكن أن نثير قضية سيطرة رأس المال اليهودي وهيمنته . ولنا أن نشير هنا إلى أن حجم رأس المال الذي يتحكم فيه بعض أعضاء الجماعات اليهودية يشكل نسبة ضئيلة للغاية بالنسبة لرأس المال الكلي للولايات المتحدة . والمنظومة الرأسمالية ـ كما هو معروف ـ منظومة متكاملة متداخلة ، لها قوانينها وآلياتها التي تتجاوز إلى حدٍّ كبير إرادة الأفراد وأهواءهم . ويمكن أن نضيف هنا أنه على الرغم من ثراء يهود الولايات المتحدة (يوجد ١٤٠ يهودي بين أكثر من ٤٠٠ شخص يُعَدون الأكثر ثراء) فإنه لا يوجد رأس مال يهودي في الصناعات الأساسية (الحديد ـ الصلب ـ السيارات) ، كما أن المصارف الأساسية لا تزال في أيدي الواسب (البروتستانت) . وعلى المنادين بأطروحة السيطرة اليهودية أن يبينوا أن ثمة علاقة طردية بين تزايد رأس المال المتوافر في أيدي اليهود والانحياز الأمريكي لإسرائيل .

٣ ـ وقل الشيء نفسه عن الإعلام وسيطرة اليهود عليه . فثمة وجود يهودي ملحوظ في قطاع الإعلام . ولكن هل تزايد هذا النفوذ أو تراجع في الأعوام العشرين الماضية ؟ وهل زادت نسبة ملكية اليهود لوسائل الإعلام أو قلت ؟ وهل هناك علاقة واضحة بين تزايد الهيمنة اليهودية على الإعلام ومنحنى الانحياز ؟ كل المؤشرات تدل على أن العناصر غير اليهودية التي دخلت مجال الإعلام الأمريكي أعلى بكثير من العناصر اليهودية ، ومع هذا لم يتغيَّر منحنى الانحياز المتزايد .

٤ ـ ويمكن أن نثير قضية أن أعضاء الجماعة اليهودية يلعبون دوراً متميزاً داخل المؤسسات الأمريكية لصنع القرار . وفي تقرير كُتب في السبعينيات ، أُشير إلى أن ٩ , ٢٠٪ من كل أعضاء هيئات التدريس في الجامعات و٨ , ٢٥٪ من مجموع العاملين في الإعلام من اليهود ، وأن هناك بين ٥٤٥ شخصية قيادية حوالي ٤ , ١١٪ من اليهود . وقد تزايد عدد اليهود في إدارة كلينتون الأخيرة (١٩٩٦) وبخاصة في المراكز الحساسة مثل وزير الخارجية ووزير الدفاع وعضوية مجلس الأمن القومي . ويشار إلى كل هذا باعتباره دليلاً على مدى سيطرة اليهود . ولكن عملية صنع القرار في الولايات المتحدة ـ كما أسلفنا ـ عملية مؤسسية في غاية التركيب ، ولا تستطيع أية أقلية واحدة التحكم فيها . كما أن اليهود لا يشكلون الأقلية الوحيدة داخل مؤسسات صنع القرار ، إذ توجد أقليات وجماعات ضغط أخرى كبيرة ومهمة مثل جماعة الضغط الكاثوليكية .

ويمكن تشبيه اليهودي داخل مؤسسات صنع القرار الأمريكية بالموظف الحركي النشيط في إحدى الشركات الكبرى الأمريكية . فهذا الموظف إن أبدى ذكاءً غير عادي في فهم أهداف المؤسسة التي يعمل فيها وأخذ بزمام المبادرة وتحرك نحو تنفيذها ، فلابد أنه

سيترقى ويتحرك نحو القمة ، ولكن حركته الصاعدة تظل في نهاية الأمر محكومة بالهدف المؤسسي الذي يتم تحديده بشكل مؤسسي ، كما أن من الصعب على فرد أو مجموعة أفراد تغييره .

ويمكننا أيضاً أن نستخدم تشبيهاً مستمداً من تجربة أهم الجماعات اليهودية في التاريخ (من منظور تاريخ الصهيونية) ، أي يهود الأرندا ، وهم كبار المموِّلين من أعضاء الجماعة اليهودية الذين لعبوا دور الوكلاء الماليين (أرنداتور) للنبلاء الإقطاعيين البولنديين (شلاختا) في أوكرانيا ، فكانوا أداتهم في استغلال الفلاحين الأوكرانيين . وقد كان للأرنداتور سلطة مطلقة داخل المزرعة التي يقوم بإدارتها . وكان النبيل الإقطاعي الغائب في بولندا يستمع لمشورته ويأخذ بنصيحته . ولكن القرار النهائي كان في يد النبيل الإقطاعي ، كما أن الأرنداتور كان يستمد قوته وسطوته لا من ذاته وإنما من النبيل الإقطاعي ، ولذا رغم هذه القوة والسطوة ، كان استمراره ، بل وجوده ، يستند إلى رضا النبيل الإقطاعي .

٥ ـ ونحب أن نثير قضية مبدئية وهي قضية مصطلح «يهودي» نفسه ، ومدى "صهيونية" هؤلاء اليهود ؟ وهل يَصدُر يهود الولايات المتحدة عن رؤية يهودية وصهيونية لأنفسهم ، أم يَصدُرون عن رؤية أمريكية ؟ . تدل كل المؤشرات على أن يهود الولايات المتحدة قد اندمجوا إلى حدٍّ كبير في المجتمع الأمريكي (رغم كل الثرثرة عن الشخصية اليهودية والجيتو اليهودي) . وحسب دراسات علم الاجتماع الأمريكي تُعَد الأقلية اليهودية من أكثر الأقليات اندماجاً وقبولاً للعقد الاجتماعي الأمريكي وقيم هذا المجتمع البرجماتية . ومنذ أمد طويل عرَّف أحد الزعماء الصهاينة في الولايات المتحدة البرنامج الصهيوني بأنه تداخل صهيونية اليهودي مع أمريكيته ، حتى لا ينفصل الواحد عن الآخر .

ومن المعروف أن عدد اليهود في كليات إدارة الأعمال في الجامعات الأساسية في أمريكا (هارفارد ـ برنستون) حتى منتصف الستينيات كان صغيراً للغاية ، إذ أنه لم يكن بإمكان اليهودي أن يصبح مديراً في الشركات الكبرى (التي تحكم أمريكا) ، كما أن المناصب الوزارية المهمة التي كانوا يتقلدونها كانت دائماً هامشية . ولكن في عام ١٩٧٤ حدث تغيُّر جوهري إذ شهد هذا العام تعيين كيسنجر وزيراً للخارجية الأمريكية ، وعُيِّن شابيرو مديراً لشركة دي بونت للكيماويات . ويبدو أن النخبة الحاكمة في أمريكا قد وجدت أن يهود أمريكا أصبحوا أمريكيين لهم مصالح أمريكية ، أي ليسوا مجرد يهود لهم مصالح يهودية ، وأنه تم دمجهم وأمركتهم تماماً ، بحيث أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الأمريكي خاضعين لحركيات المجتمع الأمريكي (الذي لا يمانع في الحفاظ على بعض معالم الهوية الإثنية ، طالما أنها لا تؤثر في ولاء الشخص وفي سلوكه في رقعة الحياة العامة) .

وقد أثبت يهود أمريكا صدق حدس النخبة الحاكمة . فرغم الهستريا الواضحة في تأييد الدولة الصهيونية (الذي لا يختلف في واقع الأمر عن تأييد المواطن الأمريكي العادي لها إلا في النبرة) فثمة انصراف واضح عن المنظمة الصهيونية وعن التبرع لها وعن حضور مؤتمراتها وانتخاباتها . وقد ظهر ولاء يهود الولايات المتحدة بشكل واضح لا مراء فيه ـ كما أسلفنا ـ في حادثة جوناثان بولارد (حيث جنَّدت المخابرات الإسرائيلية مواطناً أمريكياً يهودياً للتجسس على الولايات المتحدة) إذ ثارت ثائرة المتحدثين باسم يهود أمريكا ضد إسرائيل لأنها تُعرِّض وضعهم داخل مجتمعهم للخطر .

٦ ـ بل يمكن القول بأن هناك عناصر تسبب بعض التوتر بين يهود الولايات المتحدة والدولة الصهيونية ، فالصورة الإعلامية للدولة الصهيونية ليست صورة رائعة طيلة الوقت (حرب لبنان ـ الانتفاضة ـ التشدد الصهيوني ـ بناء المستوطنات) . وكثيراً ما يجد يهود أمريكا ، الذين يعيشون في مجتمع ليبرالي يدَّعي الدفاع عن حقوق الإنسان ، أنه ليس من صالحهم أن يُوحَّد فيما بينهم وبين الكيان الصهيوني ، ولذا تتخذ قيادات الأمريكيين اليهود أحياناً موقفاً مستقلاً عن الدولة الصهيونية وناقداً له . ويُلاحَظ كذلك أن سقوط الإجماع القومي في إسرائيل حول المستوطنات انعكس على الأمريكيين اليهود ، إذ أن ذلك أعطاهم حرية حركة لم تكن متاحة لهم من قبل . فنجد أن حركة السلام الآن لها فروع في الولايات المتحدة بل لها صندوق جباية مستقل عن الصندوق القومي اليهودي . كما أن الصراع بين الدينيين الأرثوذكس واللادينيين يجد صداه بين الأمريكيين اليهود ويقلل التفافهم حول الدولة الصهيونية التي تتحكم فيها المؤسسة الأرثوذكسية التي لا تعترف بهم كيهود .

إذن ثمة عناصر ، داخل المجتمع الأمريكي ، بعضها يزيد من اقتراب الأمريكيين اليهود من الفكرة الصهيونية ، والبعض الآخر يبعدهم عنها . ولكن ، مهما كانت الصورة مركبة ، فإن العنصر الأساسي في تحديد سلوك اليهود السياسي ، سلباً أو إيجاباً ، اقتراباً أو ابتعاداً من الصهيونية ، هو كونهم مواطنين أمريكيين لهم مصالحهم الخاصة والمباشرة التي تفوق ولاءهم السائدي للصهيونية . بل إن تأييد الأمريكيين اليهود لسياسة بلادهم في الشرق الأوسط لا تختلف كثيراً عن تأييد الأمريكيين البروتستانت لها لا في النسبة ولا في الحدة. ولعل يهودية الأمريكي اليهودي تفسر علو النبرة فقط . ومما

يجدر ذكره أن بعض المحللين السياسيين يرون أن التظاهر السياسي لصالح إسرائيل ، وارتفاع النبرة ، هو شكل من أشكال التملُّص اليهودي من الصهيونية . فالأمريكي اليهودي يدفع الأموال للدولة الصهيونية ويمارس الضغط السياسي من أجلها خوفاً منها وليس حباً فيها (حتى يرضي ضميره) فهو يرفض الهجرة الاستيطانية تماماً .

كما أن هناك من المحللين من يذهب إلى أن نفوذ الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة يستند إلى قوة إسرائيل وليس العكس. فاعتماد الولايات المتحدة على إسرائيل في كثير من الأمور الأمنية وحاجتها إليها كقاعدة عسكرية وحاملة طائرات ، يجعلها توسِّع رقعة حركة المنظمات الصهيونية حتى تقوم بعملية تعبئة الرأي العام الأمريكي (بما في ذلك الرأي العام الأمريكي اليهودي) ليساند الولايات المتحدة في دعمها الدائم والمستمر للكيان الصهيوني بما يتضمنه ذلك من دعم مالي قد يبدو باهظاً من منظور الإنسان العادي ولكنه استثمار إستراتيجي جيد من منظور المؤسسة الحاكمة ، الأمر الذي يتطلب عملية قومية سياسية تقوم بها المنظمات الصهيونية على أكمل وجه . كما أن المنظمات الصهيونية تساهم ، عن طريق عمليات جمع التبرعات ، في دفع الفاتورة . والنفوذ الصهيوني ، من هذا المنظور ، ليس سبباً لسياسات الولايات المتحدة وإنما هو نتيجة لهما . ولاستيعاب هذه النقطة ، يمكن مقارنة النفوذ الصهيوني ومدى نجاحه بفشل الجماعات الأيرلندية في جمع الدعم والأسلحة لجيش التحرير الأيرلندي رغم قوة الجماعة الأيرلندية ، النوعية والعددية ، ورغم أن أحد رؤساء الولايات المتحدة (كنيدي) كان من أصل أيرلندي !

اللوبي اليهودي والصهيوني : لم ازدهرت الأسطورة ؟

Jewish and Zionist Lobby : Why has the Myth Prospered?

يمكننا القول بأن تضخيم قوة اللوبي والإعلام الصهيوني وجعلهما مسئولين عن كل ما يحدث في الغرب هي أسطورة قد يكون لها علاقة ما بالواقع ، ولكنها ذات مقدرة تفسيرية ضعيفة لعدم إحاطتها بهذا الواقع ولعجزها عن التمييز بين ما هو جوهري وما هو فرعي فيه . بل يمكن القول بأن هذه الأطروحة الشائعة في أشكالها المتطرفة ، هي امتداد للرؤية التآمرية الاختزالية البروتوكولية (نسبة إلى **بروتوكولات حكماء صهيون**) ، التي تجعل اليهود مسئولين عن كل شيء وتجعل الغرب ضحية للتلاعب اليهودي الصهيوني . وهذا تبسيط للأمور يعمي الأبصار ، فهل يمكن أن يتصور أحد أن التشكيل الاستعماري الغربي الذي حوَّل العالم بأسره إلى ساحة لنشاطه من خلال جيوشه ومخابراته (والآن من خلال عملائه ومخابراته) والذي أسس تشكيلاً حضارياً وبنية اجتماعية ونظاماً سياسياً يهدف إلى استغلال المصادر البشرية والطبيعية للكون بأسره وتوظيفها لصالحه ، نقول هل يمكن أن تُحدَّد سياسات هذا الكيان نتيجة تدخُّل قوة سياسية مثل اللوبي اليهودي الصهيوني ، هل لو أن اليهود اختفوا تماماً ولم يَعُد لهم من أثر ، ولو أن إسرائيل اختفت من على خريطة العالم ، هل ستتغير سياسة الولايات المتحدة وتصبح قوة مسالمة تتصالح مع القوى القومية والداعية للسلام والبناء ، أو أنها كانت ستبحث عن عملاء آخرين وعن أشكال أخرى من التدخل ؟ هذا هو السؤال الذي وجهته مرة للسناتور الأمريكي السابق جيمس أبو رزق (من أصل عربي) وكان رده أنه لا يمكن تخيُّل العالم بدون يهود أو الشرق الأوسط بدون إسرائيل ! والإجابة لا تدل على عجز السناتور أبو رزق عن التخيل بقدر ما تدل على كفاءته النادرة في المراوغة .

ورغم ضعف المقدرة التفسيرية لأسطورة نفوذ اللوبي الصهيوني إلا أنها تزدهر وتترعرع لعدة أسباب نورد بعضها فيما يلي :

١ ـ يروِّج الصهاينة أنفسهم لأسطورة اللوبي ويرسخونها في الأذهان . فكان وايزمان يتصور أن وعد بلفور قد مُنح لليهود بسبب اكتشاف الأسيتون ، وكان اليهود يتصورون أن أول مندوب سامي بريطاني في فلسطين بعد فرض الانتداب ، سير هربرت صمويل ، هو أول ملك يهودي لفلسطين بعد هدم الهيكل ! وقد ألقى أحد الحاخامات في معبد يهودي في واشنطن مؤخراً موعظة بدأها بالعبارة التالية : "الولايات المتحدة لم تَعُد حكومة للأغيار (أي غير اليهود) بل هي إدارة يشارك فيها اليهود بشكل كامل على كل المستويات" . ولا شك في أن الصهاينة يستفيدون من مثل هذه الشائعات والأساطير ، فهي تضفي عليهم أهمية لا يستحقونها ، وتنسب لهم قوة تزيد وزنهم وهو ما يُحسِّن وضعهم التفاوضي . وقد عششت أسطورة اللوبي اليهودي والصهيوني في رؤوس بعض أعضاء النخب الحاكمة العربية ، حتى أنهم يُحدِّدون سياساتهم انطلاقاً منها وتأسيساً عليها .

٢ ـ نجحت الدولة الصهيونية الوظيفية في إنجاز مهمتها باعتبارها قاعدة عسكرية رخيصة وحارساً للمنطقة العربية ، وقد دعَّم هذا من رواج أسطورة اللوبي . ويمكن القول بأن ثمة علاقة طردية بين قوة اللوبي الصهيوني وضعف العرب ، فكلما ازداد العرب ضعفاً وغياباً ازداد اللوبي الصهيوني قوة وحضوراً وزاد تلاحم المصالح الغربية

والمصالح الصهيونية . ولكن لو زادت تكلفة إسرائيل (من خلال المقاومة والمقاطعة والجهاد) لأعادت الولايات المتحدة حساباتها ، ولأصبحت هذه الحسابات أكثر رشداً (من وجهة نظرنا) ولما استمرت الولايات المتحدة في انحيازها ، ولما ازداد منحنى التحيز انحناءً لصالح إسرائيل .

٣ـ تروِّج الحكومة الأمريكية ذاتها لمثل هذه المزاعم البروتوكولية عن اللوبي الصهيوني للإيحاء بأنها ترغب في اتخاذ مواقف أكثر اعتدالاً تجاه القضايا العربية ولكنها لا تستطيع ذلك بسبب اللوبي الصهيوني ، وبذا يصبح الدعم الأمريكي السخي والمستمر لإسرائيل أمراً يتم رغم إرادة الولايات المتحدة وضد رغبتها ، وتصبح هذه القوة العظمى الباطشة مجرد ضحية للنفوذ اليهودي وألعوبة في يد القوة الصهيونية التي لا تُقهَر . وهو يُحسِّن صورتها أمام زبائنها من العرب .

٤ ـ تستفيد النظم العربية من أسطورة اللوبي اليهودي والصهيوني . فهي تبرر الهزيمة العربية إذ تجعلها شيئاً متوقَّعاً ومفهوماً ، كما أن ساحة القتال تنتقل من فلسطين إلى غرف الكونجرس وشوارع واشنطن وباريس حتى يتسنى لهذه الأنظمة العربية ممارسة ضغط يشبه الضغط اليهودي !

إن توافق المصالح ، وتوافق الإدراك الغربي والصهيوني ، هو سر نجاح إسرائيل الإعلامي ومصدر قوة اللوبي الصهيوني وليس العكس ، وهي العوامل التي تحدد في نهاية الأمر السلوك الغربي . فالإعلام واللوبي الصهيوني لا يستمدان قوتهما من كفاءة الصهاينة وإنما من أن إسرائيل وجدت لنفسها مكاناً داخل الإستراتيجية الغربية ، ولأنها جعلت نفسها أداة طيعة رخيصة كفئاً لتحقيق هذه الإستراتيجية . وتحديد القضية على هذا النحو يعني أننا لا نقلِّل من أهمية اللوبي الصهيوني أو من مقدرته على تعبئة الرأي العام الأمريكي لصالح إسرائيل أو من فعاليته في التأثير على صانع القرار الأمريكي (وبخاصة في أمور الشرق الأوسط والصراع العربي ـ الإسرائيلي) . ولكننا مع هذا لا نفسر كل سلوك الغرب على أساسه ، إذ تظل الأولويات الإستراتيجية التي حددها صانع القرار الغربي هي التي تفسر سلوكه . وإدراكنا لهذه الحقيقة سيُعمِّق إدراكنا للواقع وحركياته ويزيد مقدرتنا على التنبؤ والتصدي . إن النموذج التفسيري الذي نطرحه ليس مجرد تمرين أكاديمي ، وإنما هو أمر أساسي في تحديد إستراتيجية التصدي لإسرائيل ، وفي تحديد الأولويات .

وقد ركز الإعلام العربي أثناء إحدى انتخابات الرئاسة الأمريكية على مسألة أن كيتي دوكاكيس زوجة المرشح الديموقراطي آنذاك يهودية ، وأن هذا سيؤدي إلى تزايد نفوذ اللوبي الصهيوني . ولابد أن هذا الموقف شارك فيه بعض صانعي القرار العربي . ويقف هذا على الطرف النقيض من الموقف التركي ، فحين سُئل المتحدث الرسمي التركي عن رأيه في مسألة ترشيح دوكاكيس للرئاسة ، وهو من أصل يوناني ، ومدى تأثير ذلك في الموقف الأمريكي من تركيا إن تم انتخابه ، قال ببساطة إن الولايات المتحدة لها مصالح إستراتيجية ثابتة سيتمسك بها الرئيس المنتخب أياً كان أصله . فهذه المصالح الثابتة هي السبب الحقيقي الكامن وراء دعم الولايات المتحدة لتركيا وهي أيضاً وراء تأييد الولايات المتحدة للدولة الصهيونية ، ولا يمكن تصوُّر أن كيتي دوكاكيس ستؤثر في ذلك الموقف بشكل جوهري! وهذه مقولة غير مريحة بالنسبة لمن استناموا لمقولة أخطبوطية اللوبي الصهيوني ، إذ أنها تعني أن عدونا ليس الأفعى اليهودية الخيالية الميتافيزيقية التي لا يمكن الإمساك بها لأنها خفية رغم أنها في كل مكان (وهذه دعوة مقنعة للاستسلام) وإنما هو العالم الغربي الذي يدافع عن مصالحه الإستراتيجية التي يمكن تعريفها والتصدي لها ومحاربتها في كل مكان .

الصوت اليهودي في الولايات المتحدة

The Jewish Vote in the U. S. A.

«الصوت اليهودي» مصطلح يفترض أن هناك عدداً من الأصوات يدلي بها أصحابها من اليهود في الانتخابات الأمريكية (أو غيرها من البلاد الغربية) سواء القومية لانتخاب رئيس الجمهورية ، أو على مستوى الولاية لانتخاب حاكمها ، أو على مستوى المدينة لانتخاب العمدة أو غيره من القادة . كما يفترض المصطلح أن الناخبين اليهود يتبعون نمطاً واحداً تقريباً في التصويت ، وأنهم دائماً يقفون إلى جانب إسرائيل ويؤيدون الموقف الصهيوني ، وهم بذلك يشكلون أداة ضغط في يد اللوبي الصهيوني . كما يفترض المصطلح أنه كلما ازداد عدد الناخبين اليهود ازداد «الصوت اليهودي» قوة . ومما زاد هذا المفهوم شيوعاً أن بعض الساسة الغربيين أنفسهم يستخدمونه لتفسير سلوكهم الممالئ لإسرائيل وللسياسات الصهيونية إذ يدَّعون أن سلوكهم إنما هو استجابة عملية لضغوط الصوت اليهودي والمصالح الصهيونية ولا يعبِّر عن موقف إستراتيجي مبدئي تمليه عليهم مصالحهم الأمريكية أو الغربية أو على الأقل رؤيتهم لها . وقد دأبت الدعاية الصهيونية على ترويج هذه المقولة وكأنها حقيقة مسلم بها ، وتلوح بها ضد معارضي الصهيونية .

و«الصوت اليهودي» أسطورة لها أساس في الواقع . ومما لا شك فيه أن أعضاء الجماعات اليهودية (أينما وُجدوا) سيكون لهم أثر ما على صنع القرار السياسي ، وخصوصاً في الدول الديموقراطية الغربية . ولكن ، بعد تقرير هذه الحقيقة ، يظل هناك كثير من القضايا الأساسية مثل : ما حجم هذا الأثر ؟ هل هو من القوة بحيث يجب أخذه في الاعتبار ، أو هو من التفاهة بحيث يمكن تجاهله تماماً؟ وإذا كان التأثير قوياً فما مصادر أو أسباب قوته ؟ هل «الصوت اليهودي» قوي بسبب اتفاق مصالح الدولة الغربية مع الدولة الصهيونية ؟ وهل قوة هذا الصوت اليهودي تعود إلى القوة الاقتصادية للجماعة اليهودية أو تعود إلى أسباب أخرى ؟ ونظراً لاختلاف وضع الجماعات اليهودية من بلد إلى آخر ، فسنتناول في هذا المدخل أهم الجماعات اليهودية وهي الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة (ونتناول أوربا الغربية وجنوب أفريقيا وأمريكا اللاتينية في مدخل مستقل) .

يُشار إلى الديموقراطية الأمريكية باعتبارها ديموقراطية جماعات الضغط ، أي أنها ليست مجرد ديموقراطية حزبية على النمط الأوربي حيث يطرح كل حزب برنامجه السياسي وينضم إليه الناخبون ويعبِّرون عن إرادتهم من خلال هذا الإطار الحزبي ، وإنما هي ديموقراطية يعبِّر فيها الناخبون عن آرائهم من خلال كل من الأحزاب وجماعات الضغط التي ينتمون إليها ، وهي قد تكون جماعات ذات طابع إثني تضم المواطنين الذين ينتمون إثنياً إلى أصل واحد ، مثل الأمريكيين من أصل إسباني والأمريكيين من أصل إيطالي . . . إلخ . وقد تكون جماعات مصالح مثل المعوَّقين والمتقدمين في السن والمحاربين القدامى والعاملين في صناعة السلاح . وتحاول هذه الجماعات حماية مصالح أعضائها وتحسين صورتهم في المجتمع عن طريق الضغط على السلطة إما عن طريق التظاهر أو عن طريق غيره من الوسائل ، وإن كانت أهم أشكال الضغط هي الانتخابات ورشوة أعضاء الكونجرس (ولكن استكشاف هذا الجانب الأخير يقع خارج نطاق هذا المدخل) .

ورغم أن اليهود لا يشكلون سوى ٤ , ٢٪ من مجموع الناخبين الأمريكيين ، وهو ما يجعلهم كتلة انتخابية صغيرة نسبياً قياساً بالكتل الأخرى مثل الناخبين من أصل إسباني أو أيرلندي أو الناخبين السود ، فإن ثمة عوامل تجعل قوتهم الانتخابية وتأثيراتهم تفوق بكثير عددهم الفعلي :

١ ـ فاليهود من أكثر الأقليات تركيزاً في المدن ، فهم يوجدون بأعداد كبيرة في بعض المدن ، مثل نيويورك وشيكاغو وميامي (فلوريدا) ، وهو ما يجعل لهم ثقلاً غير عادي . وعلى سبيل المثال ، يشكل اليهود ١٩٪ من كل سكان مانهاتن وبروكلين (وهما أهم قسمين إداريين في مدينة نيويورك) . وهم يشكلون ١٦٪ من كل سكان نيويورك و٣٪ من كل سكانها البيض . وبالتالي ، فإن أي مرشح يتوجه للصوت الأبيض (مقابل الصوت الأسود والإسباني) عليه أن يضع الصوت اليهودي في الاعتبار .

٢ ـ يتركز اليهود في بعض الولايات التي تلعب دوراً حاسماً في انتخابات الرئاسة ، وهذا ما يجعل أهميتهم كجماعة ضغط تتزايد فهم يشكلون ٦ , ١٠٪ من جملة الناخبين في ولاية نيويورك و٩ , ٥٪ في نيوجيرسي و٨ , ٤٪ في واشنطن (العاصمة) و٧ , ٤٪ في ولاية فلوريدا ونسبة كبيرة في ولاية كاليفورنيا . كما يوجدون بأعداد كبيرة في ولاية بنسلفانيا وإلينوي .

٣ ـ يُلاحَظ أن أعضاء الجماعة اليهودية يتمتعون بأعلى مستوى تعليمي في الولايات المتحدة ، وهو ما يؤثر على سلوكهم الانتخابي إذ أنهم يدلون بأصواتهم بنسبة تفوق بمراحل النسبة القومية . وتبلغ هذه النسبة بين اليهود ٩٢٪ (وهي أعلى نسبة على الإطلاق بين أي أقلية في المجتمع الأمريكي) مقابل ٥٤٪ وهي النسبة بين الأمريكيين على وجه العموم ، وهذا يعني تزايد قوتهم الانتخابية . وعلى سبيل المثال ، ذكرنا أن ٦ , ١٠٪ من جملة الناخبين البيض الذين لهم حق الانتخاب في ولاية نيويورك من اليهود . ولكن ، نظراً لحرص الناخبين اليهود على الإدلاء بأصواتهم ، نجد أن نسبتهم الفعلية ، وهي النسبة التي يضعها المرشحون في اعتبارهم ، تصل إلى ما بين ١٦٪ و٢٠٪ .

٤ ـ وتضاعف هذه النسبة فيما يتعلق بانتخابات مؤتمرات الولايات التي يتم عن طريقها اختيار المرشحين لرئاسة الجمهورية . ففي انتخابات مؤتمر الحزب الديموقراطي في نيويورك (انتخابات عام ١٩٨٤) ، بلغت نسبة عدد اليهود نحو ٣٠٪ . وكان ٤١٪ من الأصوات التي أعطيت لمونديل من أصوات اليهود . أما في انتخابات عمدة نيويورك ، فإن أصوات اليهود كانت تشكل ٥٠٪ من الأصوات التي حصل عليها . (ومع هذا لوحظ مؤخراً انصراف الشباب اليهودي في الولايات المتحدة عن الإدلاء بأصواتهم . وقد بينت إحدى الإحصائيات أن عدد الممتنعين عن الاشتراك في الانتخابات قد وصل إلى ما يزيد على مليون عام ١٩٩١ وهو ما يضعف قوة الصوت اليهودي ، وخصوصاً مع زيادة عدد أعضاء الأقليات الأخرى وتزايد إقبالهم على الانتخابات) .

٥ ـ وإلى جانب كل هذا ، يُلاحَظ أن أعضاء الجماعة اليهودية نشطاء

سياسياً ويشتركون في معظم الحركات السياسية ، وخصوصاً الليبرالية واليسارية ، ويؤثِّرون فيها بشكل يفوق عددهم .

٦ ـ تضم الجماعة اليهودية عدداً كبيراً من كبار المثقفين والفنانين ورجال السياسة ، الأمر الذي يزيد من ثقل وأهمية الصوت اليهودي .

٧ ـ تُعدُّ الجماعة اليهودية من أكثر الأقليات ثراء في العالم إن لم تكن أكثرها ثراء بالفعل . ونظراً لنشاطهم السياسي ، فهم يتبرعون للحملات الانتخابية بمبالغ كبيرة يحسب المرشحون حسابها . وربما كانت الجماعة اليهودية ، كجماعة ضغط ، تنفرد بهذه الخاصية إذ أن أعضاء جماعات الضغط الأخرى قد يفوقون اليهود عدداً ولكنهم لا يقتربون بأية حال من إمكاناتهم المالية .

إذن ، لا شك في أن الجماعات اليهودية تمثل قوة ضغط مهمة داخل النظام السياسي الأمريكي . وثمة صوت يهودي تماماً كما أن هناك صوتاً أسود أو صوتاً إسبانياً (وبدايات صوت عربي) . وهذا الصوت اليهودي متعاطف مع إسرائيل والصهيونية . ولكن هذا الصوت اليهودي يظل خاضعاً لحركيات النظام السياسي الأمريكي وللتناقضات التي تتفاعل داخل المجتمع . وما يحدد اتجاهه ، ليس الولاء العقائدي المجرد للصهيونية وإنما استجابة اليهود ، كأمريكيين أو كأمريكيين يهود ، لما يواجههم في مجتمعهم الأمريكي . فأعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة هم أمريكيون يهود أو أمريكيون يؤمنون بالعقيدة اليهودية أو بالهوية اليهودية ، وليسوا يهوداً أمريكيين . وهم ، في هذا ، لا يختلفون عن كل المواطنين في الولايات المتحدة ، فلا يوجد أمريكي خالص سوى فئة الواسب WASP وهي اختصار لعبارة وايت أنجلو ساكسون بروتستانت White Anglo-Saxon Protestant ، أي البروتستانت من أصل أنجلو ساكسوني (وحتى هؤلاء يحمل اسمهم أصلهم العرقي) . أما بقية الأمريكيين ، فهم أمريكيون إيطاليون أو أمريكيون أيرلنديون أو أمريكيون عرب ، ويشار إليهم بالإنجليزية بتعبير «هايفنيتيد أميريكانز hyphenated Americans» أي «أمريكيون بشرطة» (إذ يشار إليهم باعتبارهم «أمريكيين/ يهود ـ أمريكيين/ عرب» وهكذا) . وهذا يعود إلى طبيعة تكوين المجتمع الأمريكي ، فهو مجتمع استيطاني مكوَّن أساساً من مهاجرين ولا توجد فيه تقاليد حضارية ثابتة أو عقائد دينية مستقرة . وكان على المهاجر أن يسقط معظم ثقافته القديمة ويندمج في المجتمع ليصبح أمريكياً ، وإن ظل به ولع لثقافته القديمة فإنه يستطيع أن يعبِّر عن هذا الجانب من شخصيته من خلال بعض جوانب حياته غير المهمة مثل الطعام والاحتفال ببعض الأعياد . لكن هويته الأوربية (القديمة) ، أو ما تبقَّى منها ، يجب أن تظل خاضعة لانتمائه الأمريكي . ومن المعروف أن أعضاء الجماعة اليهودية من المهاجرين كانوا من أكثر المهاجرين تقبلاً للمُثل الأمريكية ، وأكثر تخلياً عن ثقافتهم القديمة الأوربية ، بمعدلات تفوق المهاجرين الآخرين . وهذا يعود إلى عدم تجذُّر اليهود في الثقافة الأوربية في شرق أوربا ، ولذا فهم (على عكس كثير من المهاجرين) لم يأتوا إلى الولايات المتحدة ليجربوا حظهم وإنما ليستقروا ويقيموا . ومن ثم ، فقد كانت نسبة العائدين إلى أوربا من بين المهاجرين اليهود هي أقل نسبة بين مختلف جماعات المهاجرين (ربما باستثناء الأيرلنديين) . وبعد أن استقر يهود شرق أوربا ، وضعوا أنفسهم داخل الإطار الأمريكي وأصبحوا أمريكيين بشرطة (أمريكيين/ يهوداً) بحيث أصبحت إسرائيل بالنسبة إليهم مثل أيرلندا بالنسبة للأمريكيين من أصل أيرلندي . ويجب ملاحظة أن إسرائيل ، بذلك ، أصبحت البلد الأصلي ، أي البلد الذي يهاجر منه الإنسان لا إليه ، لكن فكرة أن إسرائيل هي البلد الأصلي هي فكرة مناقضة للفكرة الصهيونية .

وفي الوقت الحاضر ، يُلاحَظ أن أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، على عكس ما هو شائع ، من أكثر الأقليات اندماجاً وتأمركاً حيث يتبدَّى هذا في تزايد معدلات العلمنة . فقد لوحظ أن عدد اليهود الذين يمارسون شعائر عقيدتهم لا يزيد عن ٥٠٪ ، ووصلت معدلات الزواج المُختلَط في بعض الولايات إلى ما يزيد على ٥٠٪ . ولذا ، فنحن نسميهم «اليهود الجدد» ، فهم مختلفون بشكل جوهري عن يهود أوربا ويهود عصر ما قبل الاستنارة في أواخر القرن الثامن عشر . ولفهم سلوكهم الانتخابي والسياسي الحقيقي ، لابد أن نضعهم داخل سياقهم الأمريكي خارج الأساطير الصهيونية التي يرددها بعض العرب .

على سبيل المثال ، يُلاحَظ أن العلاقة بين الدولة الصهيونية والولايات المتحدة ازدادت عمقاً أثناء حكم الرئيسين الجمهوريين نيكسون وريجان ، وخصوصاً الأخير . ويُلاحَظ كذلك أن سياسات الحزب الجمهوري ، التي تتبنى سياسة المواجهة مع الاتحاد السوفيتي وتصعيد الحرب الباردة ، تلقى صدى في صفوف الصهاينة والدولة الصهيونية المستفيدة من حالة التوتر الدولي والاستقطاب . ويُلاحَظ كذلك أن برنامج الحزب الجمهوري عام ١٩٨٨ يتسم بالتحيز الشديد لإسرائيل من مطالبة بتقوية الأواصر الإستراتيجية معها وتعميق العلاقة الخاصة بها والوقوف ضد إنشاء دولة فلسطين وتأييد إلغاء قرار مساواة الصهيونية بالعنصرية . كما أن الحزب الجمهوري لا

يضم في صفوفه شخصية مثل جيسي جاكسون الذي نجح هو وأتباعه ، ولأول مرة في تاريخ مؤتمرات الأحزاب الأمريكية ، في وضع فكرة الدولة الفلسطينية موضع المناقشة . فإن صدقت مقولة «الصوت اليهودي» كأداة ضغط في يد الصهاينة ، فإن من المتوقع أن يصوِّت اليهود لصالح الجمهوريين بأعداد متزايدة . ومع هذا ، فقد أدلى معظم اليهود بأصواتهم لصالح الحزب الديموقراطي ، بنسبة ٧٠٪ ـ ٨٠٪ من مجمل الأصوات كما حدد بعض المحللين . وفي محاولة تفسير هذا الوضع نجد أن المحللين يسقطون «الولاء الصهيوني» كعنصر محرك ويتوجهون لعلاقة هؤلاء الأمريكيين اليهود بمجتمعهم الأمريكي . فيُلاحَظ أن الحزب الديموقراطي كان دائماً حزب المهاجرين والأقليات وسكان المدن وهو أيضاً الحزب الذي يمثل مصالحهم ويحاول التعبير عن هذه المصالح . ومنذ عام ١٩٣٢ ، حصل مختلف الرؤساء الأمريكيين من الحزب الديموقراطي على ما يزيد على ٧٠٪ من الأصوات اليهودية . وبحسب كثير من المحللين ، لا تزال هذه النسبة هي النسبة القائمة ، ففي انتخابات عام ١٩٨٤ لم يحصل ريجان إلا على ٣٠٪ ـ ٤٠٪ من الصوت اليهودي ، وقد حصل بوش على نسبة أقل . ويُقال إن كلينتون قد حصل على حوالي ٨٥٪ من الصوت اليهودي . فالحزب الجمهوري هو حزب البيض (الواسب) بالدرجة الأولى (من بين المندوبين لمؤتمر الحزب الجمهوري لاختيار مرشح الرئاسة عام ١٩٨٨ ، كان هناك ٢٪ من اليهود مقابل ٦٪ في مؤتمر الحزب الديموقراطي ، وكان هناك ٣٪ من السود مقابل ٢٠٪ في مؤتمر الحزب الديموقراطي) . ورغم أن برنامج الحزب الجمهوري مؤيد للصهيونية وإسرائيل ، فإن البرنامج نفسه يقف ضد إباحة الإجهاض ويطالب بإدخال الصلوات في المدارس ويؤكد ضرورة ترديد يمين الولاء في المدارس . كما أن البرنامج يطالب بإعطاء خصم ضريبي لأولياء الأمور الذي يلحقون أولادهم بمدارس خاصة حتى لو كانت دينية . وهي سياسات محافظة لا تروق للناخبين اليهود واستجابتهم لها هي التي تحدد سلوكهم الانتخابي .

وقد تبدو كل هذه الأمور بالنسبة إلى المراقب الخارجي وكأنها أمور تافهة ، وهي حقاً كذلك من منظور السياسة الخارجية ، ولكنها ليست كذلك من منظور الحركيات الداخلية للمجتمع الأمريكي ونمط التصويت الذي يتبعه أعضاء الجماعة . فمنذ بداية الستينيات والمعركة مستمرة بين دعاة العلمانية وفصل الدين عن الدولة بشكل كامل ومطلق ، بقيادة الجماعة اليهودية من جهة ، وبعض الجماعات الأخرى ذات التوجه الديني من جهة أخرى . ويرى معظم أعضاء الجماعة اليهودية أن مصلحتهم تكمن في تزايد معدلات العلمنة ، وأن هذا هو الضمان الوحيد لحريتهم بل وجودهم . وقد اكتسح هذا التيار المجتمع الأمريكي في الستينيات ، ووصلت عملية الفصل بين الدين والدولة مراحل هستيرية حتى أن ذكر كلمة «الإله» في الكتب المدرسية مُنع ، ومُنعت الصلوات كما مُنعت نشاطات الجمعيات الدينية في المدارس حتى لو أرادت تسجيل نفسها على أنها من جماعات الهوايات أو كرة القدم !

ولكن ، مع بداية السبعينيات ، بدأ رد فعل ضد هذا الاتجاه وبدأت حركة بعث ديني ذات طابع أصولي . والطريف أن هذه الحركة ذات توجه صهيوني بمعنى أن أتباع هذا الاتجاه يرون عدم إمكان أن يتم الخلاص المسيحي إلا بعد عودة اليهود إلى صهيون (فلسطين) !

وقد استفادت الدولة الصهيونية من هذا الوضع ، وهي تعتبر هذه الجماعات جماعات ضغط لصالحها ، بل إن بعض المعلقين السياسيين الإسرائيليين يرون أنها أكثر أهمية من جماعة اليهود كجماعة ضغط باعتبار أن اليهود أقلية توجد خارج المجتمع الأمريكي (المسيحي) حتى ولو كانت مندمجة فيه . أما الجماعات المسيحية الأصولية ، فهي ليست مندمجة فيه وإنما هي جزء عضوي منه تعمل من داخله . ولكن رؤية الأمريكيين اليهود لهذا الموضوع مختلفة عن رؤية الدولة الصهيونية له . فهذه الجماعات الأصولية ، برغم صهيونيتها ، تهدد حرية أعضاء الجماعة وكل ما حققته من مكانة اجتماعية وحراك اجتماعي . ويُقال إن كثيراً من اليهود صوتوا لصالح مونديل عام ١٩٨٤ بسبب اجتماع الإفطار الذي أقيمت أثناءه الصلاة المسيحية وحضره ريجان وذلك إبان انعقاد مؤتمر الحزب الجمهوري في دالاس . وقد حاول الجمهوريون تصحيح خطئهم هذه المرة (عام ١٩٨٨) ، فعقدوا اجتماع إفطار صلاة تعددياً حضره بروتستانت وكاثوليك ويهود . ولكن دونالد هودل وزير الداخلية (وهو مسيحي أصولي) ألقى موعظة في هذا الاجتماع طلب فيها من مستمعيه ، بما في ذلك اليهود ، أن يدخلوا المسيح في حياتهم الشخصية ، فزاد الطين بلة! ويحاول بوش أن يخفف حدة برنامج الحزب الجمهوري الخاص بإدخال الصلوات ويدعو إلى أن تأخذ الصلاة شكل «لحظة صمت» يستطيع الطلبة فيها أن يصلوا أو أن يجلسوا أثناءها في صمت دون صلاة إن شاءوا . ولكن ، مهما حاول الحزب الجمهوري ، فسوف يظل موقفه باهتاً بالقياس إلى موقف الحزب الديموقراطي حيث طالب دوكاكيس بكل حدة بفصل الدين عن الدولة . وربما كان أكبر دليل على ليبراليته وعلمانيته أن

زوجته يهودية . ثم يأتي كلنتون ليعبِّر عن تزايد معدلات العلمنة ويبدأ فترة رئاسته بإباحة الإجهاض ومحاولة إدخال الشواذ جنسياً القوات المسلحة الأمريكية . ونضيف إلى هذا أن سياسات الحزب الجمهوري الداخلية بشأن الإنفاق على مشاريع الرخاء الاجتماعي والتعليم هي سياسات محافظة في حين أن سياسة الحزب الديموقراطي في هذا المضمار ليبرالية . وكما أسلفنا ، يتبنى معظم اليهود مواقف الحزب الديموقراطي الليبرالية .

لكل هذا ، يصوِّت معظم يهود أمريكا للحزب الديموقراطي وليس للحزب الجمهوري ، تعبيراً عن وضعهم كمواطنين أمريكيين لهم حركياتهم الأمريكية الخاصة وليس بوصفهم أعضاء في الحركة الصهيونية أو متعاطفين معها .

ومع هذا ، يجب الإشارة إلى بعض العناصر المهمة التي قد تغيِّر سلوك الناخبين اليهود في المستقبل :

١ ـ يُلاحَظ ، في الآونة الأخيرة ، تزايد تحوُّل اليهود عن الليبرالية واليسار وتبنيهم مواقف محافظة . وربما يعود هذا إلى تزايد اندماجهم وحراكهم الاجتماعي حتى أصبحوا من أعضاء الطبقات الثرية الأمريكية بعد أن فَقَدوا ميراثهم الاقتصادي والحضاري المتميِّز . ويُلاحَظ هذا في مجلة مثل **كومنتاري** التابعة للجنة اليهودية الأمريكية ، فقد كانت من أكثر المجلات ليبرالية ، ولكنها أصبحت مجلة محافظة تدافع عن التسلح والحرب الباردة . وهناك بالفعل جماعة تُسمَّى «المحافظون الجدد» من بينهم إرفنج كريستول ، ونورمان بودورتز (رئيس تحرير **كومنتاري**) ينادون بتحالف سياسي جديد . وربما يعبِّر هذا التغيير في الوضع الطبقي ، والتحول في التوجه السياسي العام ، عن مزيد من تعاطف اليهود مع فلسفة الحزب الجمهوري الاجتماعية واستعدادهم للتصويت لصالحه .

٢ ـ يُلاحَظ أن الحزب الديموقراطي هو حزب السود ، فظهور شخصية مثل جيسي جاكسون هو تعبير عن تزايد نفوذهم . والعلاقات بين اليهود والسود تتسم بالتوتر ابتداءً من منتصف الستينيات . ومع تزايد نفوذ السود داخل الحزب الديموقراطي ، يمكن أن نتوقع تزايداً في انكماش عدد اليهود وفي انصرافهم عن الحزب ليبحثوا عن بدائل أخرى ، أي الحزب الجمهوري .

٣ ـ يُلاحَظ أن البعث الديني في الولايات المتحدة يجد صداه أيضاً في صفوف اليهود الأرثوذكس والمحافظين . ولذا ، لا يساير هؤلاء للمحاولات التي يقوم بها اليهود الليبراليون لزيادة معدلات العلمنة داخل المجتمع الأمريكي ، بل يطالبون بأن تقوم الدولة بتمويل التعليم الديني . وربما يكون لهذا أثره أيضاً في السلوك السياسي والانتخابي لهذه القطاعات من الصوت اليهودي . وهذا الفريق يرى أن زوجة دوكاكيس اليهودية نقطة سلبية محسوبة عليه لا له ، وذلك باعتبار أنها تعبير عن تزايد العلمنة بزواجها المختلط من مسيحي ، وباعتبار أنها ستكون قدوة ومثلاً أعلى للمرأة اليهودية .

كل هذه الاتجاهات داخل الجماعة اليهودية قد تجعل الناخبين اليهود يصوتون للحزب الجمهوري بأعداد متزايدة . ويُلاحَظ مثل هذا الاتجاه بالفعل ، ففي انتخابات ١٩٦٨ صوَّت نحو ٨٣٪ لصالح الديموقراطي هيوبرت همفري ، أي أن ١٧٪ وحسب صوَّتوا لنيكسون ، في حين صوَّت ٣٥٪ لصالحه في انتخابات ١٩٧٢ . وفي انتخابات ١٩٧٦ ، صوت لكارتر ٥٤٪ من اليهود وحسب ، وصوت ٤٥٪ لصالح فورد ، لكن هناك إحصاءً آخر يرى أن العدد كان ٣٣٪ لفورد والباقي لكارتر ، وهو ما يبيِّن أن الإحصاءات غير دقيقة بسبب طبيعة الموضوع . ومع هذا تشير كل الدلائل إلى أن النمط القديم (المتمثل في أن اليهود أقلية ليبرالية تقطن المدن وتصوت للحزب الديموقراطي) قد يطرأ عليه بعض التغيُّر الطفيف ولكنه سيظل النمط السائد .

إن كل العناصر السابقة تجعل من المستحيل الحديث عن «صوت يهودي» توظفه الحركة الصهيونية ببساطة لصالحها ، فالمسألة أكثر تركيباً ، فالصوت اليهودي قادر على التأثير دون شك ، ولكنه لا يتصرف في إطار صهيوني وإنما في إطار أمريكي .

الصوت اليهودي في أوربا الغربية وأمريكا اللاتينية

The Jewish Vote in Western Europe, and Latin America

لا يشذ الصوت اليهودي في دول أوربا الغربية عن هذه القاعدة العامة فهي دول تؤيد إسرائيل من الناحية الإستراتيجية ، وتضم جماعات يهودية تدين بالولاء لأوطانها ، ومن ثم فهي قد تؤيد الدولة الصهيونية وتضغط لصالحها ولكن داخل إطار انتماء أعضائها لأوطانهم وقبولهم للعقد الاجتماعي السائد فيها . ولا يمكن تفسير سياسات الحكومة من منظور مدى تزايد أو تناقص النفوذ الصهيوني أو الصوت اليهودي . ففرنسا ، على سبيل المثال ، حين اتخذت موقفاً معادياً نوعاً ما تجاه إسرائيل أيام الجنرال ديجول وفرضت حظراً على تصدير السلاح لها ، لم يكن هذا بسبب ضعف نفوذ اليهود فيها وإنما بسبب سياسة ديجول التي كانت ترمي إلى إيجاد شخصية مستقلة لأوربا بين الدولتين العظميين . وحينما رفعت فرنسا هذا الحظر ، فلا يمكن تفسير ذلك بتعاظم الصوت أو النفوذ اليهودي . وعلى كلٍّ ، يُلاحَظ أن أعضاء الجماعة اليهودية في فرنسا يُشكِّلون

أقل من ١٪ من مجموع السكان (٧٠٠ ألفاً من نحو ٥٤ مليوناً) . كما أن الجماعة اليهودية لا تتسم بالتماسك الشديد إذ أنها مُقسَّمة إلى يهود سفارد شرقيين من جهة ويهود غربيين من جهة أخرى . كما أن يهود فرنسا مركزون أساساً في باريس وبضع مدن أخرى ، وهو ما يجعلهم قريبين من مؤسسات صنع القرار ، ولكنهم غائبون في الوقت نفسه عن معظم فرنسا . وهذا لا يعني أن الفرنسيين اليهود غير مؤثرين على الإطلاق ، فهم ولا شك ذوو أثر عميق ، وخصوصاً في الإعلام ، ولكن أثرهم ينبع من كونهم فرنسيين .

ويمكن أن نضرب مثلاً آخر بسياسة إنجلترا التي تلتزم بتأييد إسرائيل ، وتؤيد المواقف الأمريكية بشكل شبه كامل . ولو نظرنا إلى الصوت اليهودي لوجدنا أن اليهود لا يشكلون كتلة بشرية كبيرة ، فعددهم لا يتجاوز ٦,٠٪ من مجموع السكان ، وهم ليسوا أقوياء من ناحية النفوذ الاقتصادي ، كما أن أصواتهم موزعة بين عدة دوائر (ولذا لا يمكن الحديث عن دوائر يهودية) . ومع هذا ، بلغ عدد الأعضاء اليهود في البرلمان الإنجليزي عام ١٩٨٣ ثمانية وعشرين عضواً من أصل ستمائة وخمسين ، وهي نسبة تفوق نسبة اليهود إلى عدد السكان . ولكن هؤلاء النواب كانوا يمثلون دوائر لا يُلاحَظ فيها وجود يهودي غير عادي ، أي أنهم انتخبوا باعتبارهم بريطانيين وأعضاء في أحزاب بريطانية . وكان عدد النواب اليهود ستة وأربعين عضواً عام ١٩٧٤ ، أي أنه حدث انخفاض كبيرفي عددهم . ولكن لا يمكن تفسير هذا الانخفاض في إطار حركيات يهودية ، وإنما لابد من العودة إلى حركيات المجتمع البريطاني والجماعة اليهودية فيه .

ولذا ، فإن هذا الانخفاض لا يصلح مؤشراً على تراجع النفوذ الصهيوني ، تماماً كما لا يصلح الحكم على وجود خمسة وزراء يهود في إحدى وزارات تاتشر في عام ١٩٨٦ (وهو أكبر عدد شهدته أية حكومة بريطانية) على أساس تزايد هذا النفوذ . فالموقف البريطاني من إسرائيل موقف إستراتيجي مبدئي لن يتغيَّر بتراجع النفوذ اليهودي ، بل لن يتغيَّر باختفائهم الكامل (وهو الأمر الذي يتوقعه بعض المراقبين) .

يبقى بعد ذلك الصوت اليهودي في أمريكا اللاتينية . ويجب أن نشير ابتداءً إلى أن عدد أعضاء الجماعة اليهودية ضئيل للغاية في كل دول أمريكا اللاتينية . وربما يكون الاستثناء الوحيد هي الأرجنتين حيث يوجد معظم يهود أمريكا اللاتينية فيها ، وهم مركزون أساساً في بوينس أيرس . ومن الملاحَظ عدم وجود دور فعال لهم في تحديد سياسة الأرجنتين الخارجية . فالحكومة العسكرية كانت تؤيد إسرائيل وتشتري منها السلاح وتضطهد أعضاء الجماعة . كما تم انتخاب رئيس جمهورية من أصل عربي (!) . هذا إلى جانب أن الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية تتسم بعدم التجانس ، ومن ثم بعدم التماسك وتوزُّع الصوت اليهودي . كما يُلاحَظ أن النظام السياسي في أمريكا اللاتينية تسوده الرموز الكاثوليكية واللاتينية وهو ما يضعف فعالية النفوذ اليهودي . ولكن ضعف العملية الديموقراطية نفسها في أمريكا اللاتينية قد يجعل الانتخابات السياسية أمراً لا يتمتع بالأهمية نفسها التي يتمتع بها في الولايات المتحدة ، وعلى كلٍّ تتكفل الانقلابات المتكررة بجعل الانتخابات مسألة محدودة الأهمية .



٣
الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة

الصهيونية في الولايات المتحدة ـ الاتحاد الصهيوني الأمريكي ـ الحركة الصهيونية الأمريكية ـ المنظمة الصهيونية الأمريكية ـ هاداساه ـ رابطة الصهاينة الإصلاحيين في الولايات المتحدة ـ أرتسينو ـ مجلس الاتحادات اليهودية وصناديق الرفاه ـ المجلس الاستشاري القومي للعلاقات الطائفية اليهودية ـ اللجنة اليهودية الأمريكية ـ المؤتمر اليهودي الأمريكي ـ بناي بريت ـ عصبة مناهضة الافتراء التابعة لبناي بريت ـ نوادي هليل للطلبة (مؤسسات هليل) ـ مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية الكبرى ـ اللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشئون العامة (إيباك) ـ عصبة الصداقة الإسرائيلية الأمريكية

الصهيونية في الولايات المتحدة

Zionism in the United States

تُطلق الحركة الصهيونية على نفسها اسم «الصهيونية العالمية» و«المنظمة الصهيونية العالمية» . و«الصهيونية ـ كما أشرنا ـ ظاهرة غربية بالدرجة الأولى ، إذ لا يعرفها شعوب آسيا وأفريقيا لسبب بسيط هو أنها لا توجد فيها جماعات يهودية . وقد أصبحت الصهيونية ظاهرة أمريكية بالدرجة الأولى لسببين : أن الولايات المتحدة تضم أكبر وأقوى جماعة يهودية في العالم ، وأن الولايات المتحدة نفسها هي الراعي الإمبريالي للجيب الصهيوني . وفي هذا الباب سنتناول المنظمات الصهيونية المختلفة في الولايات المتحدة .

الاتحاد الصهيوني الأمريكي

American Zionist Federation

«الاتحاد الصهيوني الأمريكي» هو المظلة التنظيمية التي تضم كل المنظمات الصهيونية في الولايات المتحدة ، وقد تم تأسيسه عام ١٩٧٠ بناءً على قرار صادر عن المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين (١٩٦٨) يدعو إلى تقوية الحركة الصهيونية من خلال إنشاء منظمات أو اتحادات صهيونية قطرية في جميع بلاد العالم . وتعود جذور الاتحاد إلى لجنة الطوارئ للشئون الصهيونية التي تأسَّست عام ١٩٣٩ لتوحيد جهود المنظمات الصهيونية للضغط على الحكومة الأمريكية لصالح المشروع الصهيوني في فلسطين . وقد أُعيد تنظيمها عام ١٩٤٣ تحت اسم «مجلس الطوارئ الصهيوني» الأمريكي تحت قيادة أبا هليل سيلفر ، ثم تحولت إلى المجلس الصهيوني الأمريكي عام ١٩٤٩ لتكون الجهة المنسقة للمنظمات الصهيونية الأمريكية .

ويساند الاتحاد الصهيوني الأمريكي المجهودات الصهيونية في ميادين الشئون الطائفية والعامة والتعليم والشباب والهجرة إلى إسرائيل ويعمل على تنمية الاهتمام بما يُسمَّى «الثقافة اليهودية» بين أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة وعلى تعزيز التزامهم بالأهداف الصهيونية كما جاءت في برنامج القدس . كما يعمل الاتحاد على التوجه إلى المجتمع الأمريكي غير اليهودي للدعاية لإسرائيل ، وتأكيد تطابق المصالح الأمريكية والإسرائيلية ، والرد بشكل فعال على النقد الموجه إليها . وأخيراً ، توجيه أعضائه من خلال الحملات الإعلامية فيما يتعلق بالقضايا التي تمس إسرائيل أو الصهيونية .

ويرعى الاتحاد برامج تهدف إلى ربط الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة بإسرائيل . وتشمل هذه البرامج تبادل زيارات رجال الجامعات والتعليم والصحافيين ورجال الأعمال ورجال الدين وغيرهم من فئات المجتمع . كما أن الاتحاد يقيم المؤتمرات والأسواق والمعارض لتشجيع الهجرة إلى إسرائيل . ويهتم الاتحاد بالقطاع الأكاديمي ، فقد أسس مجلساً أكاديمياً صهيونياً هدفه محاولة تجنيد أساتذة الجامعات في جميع أنحاء الولايات المتحدة لحساب إسرائيل والصهيونية .

ويعاني الاتحاد ، مثله مثل غيره من التنظيمات الصهيونية الأمريكية ، من تدهور أهميته وفعاليته بشكل عام . فلم يَعُد هناك أيُّ تمييز حقيقي بين المنظمات الصهيونية وغير الصهيونية في الولايات المتحدة . بل إن الأخيرة تتمتع بخبرة تنظيمية أكبر وقاعدة جماهيرية أوسع ، ولذا أصبحت هي التي تقوم بالدعاية لإسرائيل والدفاع عنها وجمع المال لها والضغط من أجلها ، ذلك إلى جانب تآكل شرعية الصهاينة التوطينيين بسبب عدم هجرتهم إلى إسرائيل وما يدور حول ماهية الصهيونية وتآكل الفكر الصهيوني بوجه عام .

والاتحاد الصهيوني الأمريكي منظمة معفاة من الضرائب وتضم ١٦ منظمة صهيونية في الولايات المتحدة والحركات الشبابية المنبثقة

عنها . وعضوية الاتحاد الصهيوني مفتوحة أيضاً للمنظمات والمؤسسات اليهودية غير الصهيونية . والواقع أن هذه تدخل ضمن مجموعتين إضافيتين من الأعضاء : أولاً ، المنظمات المتنسبة التي تقبل برنامج القدس مع أن أعضاءها ليسوا بالضرورة من الصهاينة . ثانياً ، المنظمات ذات الصلة بالاتحاد ، وهي مؤسسات قومية تعنى برعاية صهيونية ، وقد كانت دائماً تربطها علاقة فعلية بالحركة الصهيونية . وفي عام ١٩٨٣ ، قدَّر الاتحاد حجم عضويته بأكثر من مليون عضو .

والمنظمات الست عشرة الأعضاء في الاتحاد الصهيوني هي : مجلس الشباب الصهيوني الأمريكي ، والعصبة الأمريكية اليهودية من أجل إسرائيل ، ونساء عميت في أمريكا (نساء مزراحي سابقاً) ، وأمريكيون من أجل إسرائيل تقدمية ، وبن تسيون ، ونساء إيموناه ، وهاداساه ، وحركة تأكيد الصهيونية المحافظة (مركاز) ، والحلف الصهيوني العمالي ، وحركة الهجرة في أمريكا الشمالية ، والنساء الرائدات (نعمات) ، واتحاد الصهاينة الإصلاحيين في أمريكا ، والصهيونيون المتدينون في أمريكا ، وحيروت ، والمنظمة الصهيونية في أمريكا ، والحركة الطلابية الصهيونية .

وهناك ثلاث منظمات متنسبة للاتحاد ، هي : الاتحاد السفاردي الأمريكي ، ورابطة آباء الإسرائيليين الأمريكيين ، وعصبة النساء من أجل إسرائيل .

وهناك منظمتان تربطهما صلة بالاتحاد ، هما : المؤسسة الصهيونية الأمريكية للشباب ، والصندوق القومي اليهودي . وفي فبراير ١٩٩٣ ، قرَّر الاتحاد أن يُغيِّر اسمه إلى «الحركة الصهيونية الأمريكية» .

الحركة الصهيونية الأمريكية

American Zionist Mevement

«الحركة الصهيونية الأمريكية» هو الاسم الجديد للاتحاد الصهيوني الأمريكي (منذ فبراير ١٩٩٣) . وهذا الاسم لن يؤدي إلا إلى المزيد من الغموض والتعمية ، لأن كلمة «حركة» في كل الأدبيات السياسية لا تشير إلى تنظيم إقليمي بعينه .

المنظمة الصهيونية الأمريكية

Zionist Organization of America

منظمة صهيونية أمريكية تأسَّست عام ١٨٩٨ باسم اتحاد الصهاينة الأمريكيين ، وذلك في أعقاب انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) . وقد انتُخب ريتشارد جوتهيل والحاخام ستيفن وايز سكرتيراً شرفياً . وقد وُلدت المنظمة ضعيفة وهزيلة ووجدت صعوبة في فرض سلطتها المركزية على المجموعات الصهيونية المنتمية لها ، وذلك نتيجة الخلافات التي نشأت بين القيادة المنتمية إلى البورجوازية اليهودية المتأمركة ذات الأصول الألمانية والقاعدة التي تألفت من المهاجرين اليهود الفقراء القادمين من شرق أوربا ذوي الثقافة اليديشية . وقد اتجهت المنظمة إلى العمل الدعائي الصهيوني وأصدرت عام ١٩٠١ أول مجلة صهيونية أمريكية رسمية باللغة الإنجليزية ثم جريدة يديشية عام ١٩٠٩ ، كما أنشأت معاهد صهيونية . وقد اهتمت بالشباب وبتعليم اللغة العبرية ، ونشطت لصالح الصندوق القومي اليهودي والاتحاد اليهودي الاستعماري ، كما تصدت للعناصر اليهودية الأمريكية المناهضة للصهيونية والمُمثَّلة بشكل أساسي في الحركة الإصلاحية اليهودية .

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى ، انتقل مركز النشاط الصهيوني إلى الولايات المتحدة وتم تأسيس اللجنة التنفيذية العامة المؤقتة للشئون الصهيونية عام ١٩١٤ تحت رئاسة لويس برانديز التي تولَّت الجانب الأكبر من النشاط الصهيوني في الولايات المتحدة خلال فترة الحرب وأسَّست صندوقاً لدعم التجمُّع الاستيطاني اليهودي في فلسطين ولغوث ضحايا الحرب من اليهود في أوربا ، كما كانت صاحبة اقتراح تأسيس المؤتمر اليهودي الأمريكي . ومع انتهاء الحرب ، تقرَّر دَمْج هذه اللجنة مع اتحاد الصهاينة الأمريكيين لتأسيس المنظمة الصهيونية الأمريكية تحت رئاسة لويس برانديز الشرفية لتكون منظمة مركزية يهيمن عليها مكتب قومي وتعتمد على العضوية الفردية . وقد رأى برانديز أن الدور الأساسي للمنظمة هو جَمْع المال من خلال جذب رؤوس الأموال الخاصة لتمويل مشاريع معيَّنة في فلسطين ، كما تشكَّك في مدى فعالية إنشاء الصندوق التأسيسي اليهودي الذي كانت القيادات الصهيونية الأوربية وعلى رأسهم حاييم وايزمان يفضلونه . وقد أدَّى هذا الخلاف ، إلى جانب خلافه الفكري مع وايزمان حول مفهوم الصهيونية ، إلى انسحاب برانديز ومناصريه من المنظمة خلال مؤتمر المنظمة عام ١٩٢١ . وقد ركَّزت المنظمة اهتمامها بعد ذلك في جَمْع المال وإن لم تحرز نجاحاً ملحوظاً في تلك المهمة ، كما عارضت نشاط حملات منظمات الإغاثة اليهودية الأمريكية التي كانت تعمل على توطين اليهود الروس في مناطق القرم وأوكرانيا في الاتحاد السوفيتي . ومن ثم ، شاركت المنظمة في توحيد جهود عمليات الجباية الصهيونية تحت مظلة واحدة هي النداء الفلسطيني الموحَّد عام ١٩٢٤ . ومع ذلك ،

ظلت جاذبية المنظمة ضعيفة وهبط عدد أعضائها من ١٤٩ ألفاً عام ١٩١٨ ، أي بعد وعد بلفور بعام ، إلى ١٨ ألفاً عام ١٩٢٩ . وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية ، شاركت المنظمة في توحيد جهود المنظمات الصهيونية الرئيسية من أجل تأسيس كومنولث يهودي في فلسطين ، ثم في تأسيس صندوق برنامج بلتيمور عام ١٩٤٢ ، كما اشتركت في تأسيس لجنة الطوارئ للشئون الصهيونية عام ١٩٣٩ التي أصبحت لجنة الطوارئ الصهيونية الأمريكية عام ١٩٤٣ (ثم المجلس الصهيوني الأمريكي عام ١٩٤٩) لتكون هيئة منظمة ومنسقة لكبرى المنظمات الصهيونية في الولايات المتحدة . وقد زاد نشاط المنظمة وزادت عضويتها تحت رئاسة أبا هليل سيلفر (١٩٤٥ ـ ١٩٤٧) وإيمانويل نيومان (١٩٤٧ ـ ١٩٤٩) اللذين كانا أعضاء أيضاً في القسم الأمريكي من الوكالة اليهودية خلال عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨ ، كما كانا يعملان على حث الحكومة الأمريكية لإصدار موافقتها على قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ .

وقد تضاءلت أهمية دور المنظمة الصهيونية الأمريكية بعد تأسيس الكيان الصهيوني ، وخصوصاً أن إعلان الدولة نتج عنه تفجُّر التناقض الكامن بين الصهاينة الاستيطانيين والصهاينة التوطينيين ، وأثار الجدل حول دور ومهام كل منهما . ومن أجل تبرير استمراريتها التاريخية ، أعطت المنظمة نفسها لقب «الحد القاطع ليهود أمريكا» ، كما أكدت أنها ساعدت في تأسيس دولة إسرائيل . ويتحدد دورها الآن في الدفاع عن إسرائيل . وتتبنَّى هذه المنظمة سياسات تحالف الليكود الإسرائيلي وتتمسك بالسياسة الإسرائيلية الرسمية ، ويتركز نشاطها الآن في جباية الأموال لإسرائيل والدعاية لها والضغط من أجلها في الولايات المتحدة . وهي ترصد نشاطات الكونجرس الأمريكي والبيت الأبيض والمكاتب الحكومية الأمريكية وتوزع المذكرات المتعلقة بإسرائيل على موظفي الدولة ووسائل الإعلام . كذلك تهتم المنظمة بالتعليم الصهيوني وما يُسمَّى «الثقافة العبرية» ، ولها حركة شبابية تابعة لها تنشط داخل المدارس والجامعات الأمريكية وتنظم زيارة الشباب اليهودي الأمريكي إلى إسرائيل . وللمنظمة نشاط في إسرائيل أيضاً حيث أسَّست بيت المنظمة عام ١٩٥٣ ومجمع كفار سيلفر للمدارس في عسقلان عام ١٩٥٥ وهما يقدِّمان خدمات ثقافية وتعليمية .

وتعاني المنظمة الصهيونية الأمريكية ، مثلها مثل غيرها من التنظيمات الصهيونية ، من تآكل أهميتها وفعاليتها ، فمنذ عام ١٩٦٧ لم يَعُد هناك ما يُميِّز المنظمات الصهيونية عن المنظمات غير الصهيونية من حيث العمل من أجل إسرائيل والدعاية لها وجباية الأموال والضغط من أجلها . بل إن المنظمات غير الصهيونية ، التي تتمتع بخبرة تنظيمية أكبر وقاعدة جماهيرية أوسع ، تقوم بهذا الدور بقدر أكبر من الكفاءة والفعالية .

والمنظمة الصهيونية الأمريكية منظمة معفاة من الضرائب ، ويقدَّر حجم عضويتها حالياً بنحو ٤٥ ألف عضو بعد أن كان ١٦٥ ألفاً عام ١٩٥٠ . وهي تُصدر مجلة فصلية ونشرة أسبوعية إعلامية .

والمنظمة الصهيونية الأمريكية إحدى التنظيمات الصهيونية ، وهي عضو في الكونفدرالية العالمية للصهاينة المتحدين العموميين (وهي خلاف الفرع الأمريكي للمنظمة الصهيونية العالمية) ، كما تختلف عن الاتحاد الصهيوني الأمريكي .

هاداساه

Hadassah

«هاداساه» كلمة عبرية تعني «شجرة الآس» أو «شجرة الريحان» ، وتُستخدَم الكلمة للإشارة إلى اسم الملكة التوراتية إستير . وهاداساه منظمة نسائية صهيونية أمريكية أسَّستها هنريتا زولد عام ١٩١٢ حين قرَّرت هي ومجموعة من السيدات من أعضاء حلقات بنات صهيون الدراسية أن تتوسع لتصبح منظمة قومية . وهي تعتبر الآن أكبر منظمة نسائية صهيونية في العالم إذ يقدَّر عدد أعضائها بنحو ٣٧٠ ألف عضو . وعند تأسيسها ، حددت منظمة الهاداساه أهدافها بتنمية التعليم اليهودي والصهيوني في الولايات المتحدة من جانب ، وتحسين الأوضاع الصحية للتجمُّع الاستيطاني اليهودي في فلسطين من جانب آخر . وقد بدأت هاداساه ، في سبيل ذلك ، بالتمريض وتدريب الممرضات في فلسطين . وقد بدأت نشاطها في فلسطين على نطاق ضيق عام ١٩١٣ ، ولم يتسع نشاطها إلا عام ١٩١٨ عندما اشتركت مع المنظمة الصهيونية الأمريكية واللجنة اليهودية الأمريكية للتوزيع المشترك في إرسال الوحدة الطبية الصهيونية الأمريكية إلى فلسطين والتي أصبحت تُسمَّى فيما بعد «منظمة هاداساه الطبية» . ومنذ ذلك الحين ، ساهمت الهاداساه في إنشاء المراكز الصحية والمستشفيات والوحدات العلاجية ومراكز رعاية الطفل ، كما قامت بافتتاح مركز الهاداساه الطبي بالجامعة العبرية عام ١٩٣٦ . وكذلك وضعت هاداساه البرامج التعليمية وافتتحت المدارس والمراكز للتعليم المهني ولتدريب الممرضات ، كما تعاونت بشكل وثيق مع الصندوق القومي اليهودي حيث تعهدت منذ عام ١٩٢٦ برعاية عشرين مشروعاً خاصاً للصندوق كل ثلاث سنوات . وساهمت هاداساه ، بالفعل ، في استصلاح وزراعة مئات

الآلاف من الدونمات وفي زراعة ملايين الأشجار . وقد وصفت الهاداساه نفسها بأنها "شريك أساسي للصندوق القومي اليهودي" ، كما أنها تعتبر نفسها "أكبر مساهم فرد [فيه] في العالم" .

وتُعَدُّ هاداساه ، بين المنظمات الصهيونية في العالم ، أكبر مساهم في مجال تهجير الشباب . وقد أنفقت منذ عام ١٩٣٥ وحتى عام ١٩٧٠ نحو ٦٠ مليون دولار في هذا المجال وعملت على توطين واستقرار ١٣٥ ألف شخص في فلسطين . وهي تُعَدُّ المنظمة الصهيونية الرئيسية (في الولايات المتحدة) العاملة في مجال تهجير الشباب وتوفر نحو ٤٠٪ من الميزانية اللازمة لذلك سنوياً .

وفي الولايات المتحدة ، يتركز نشاط منظمة الهاداساه في المجال التعليمي والتثقيفي حيث تقوم بوضع برامج لتعليم ما يُسمَّى «التراث والتاريخ اليهوديان» وكذلك تعليم اللغة العبرية ، كما تقوم بتزويد الجمهور الأمريكي بالمعلومات عن إسرائيل وتطوُّرها وأمنها . وكان أعضاء الهاداساه يقومون ، قبل تأسيس الدولة الصهيونية ، بجولات دعائية في الولايات المتحدة في محاولة لتهيئة الأذهان لتقبُّل الفكرة الصهيونية وإقناع الناس بالأسباب التي تكمن وراء اهتمام يهود العالم بأرض فلسطين بالذات . أما الآن ، فإنهم يقومون بالدعاية لإسرائيل وجمع المال لبرامج المنظمة ومشاريعها في الدولة الصهيونية . وتقوم هاداساه برعاية برنامج الشئون الصهيونية الذي يعمل على تنمية المصالح الصهيونية من خلال التعليم والدعاية والتنسيق مع المنظمات اليهودية والصهيونية الأخرى التي تنتمي إليها الهاداساه . وتهتم الهاداساه بشكل خاص بالشباب ، ولها حركة شبابية تابعة لها هي هشاحر (الفجر) تقدم من خلالها برامج متنوعة عن الهوية اليهودية في إطار صهيوني داخل مخيماتها الصيفية ونواديها المفتوحة طوال السنة . وتنظم هاداساه حلقات التدريب على القيادة ، كما تنظم برامج إسرائيلية ورحلات صيفية للشباب إلى إسرائيل . وتقوم هاداساه بتدريب الشباب اليهودي في الجامعات الأمريكية على تكوين مراكز صهيونية داخل حرم الجامعات والتصدي للجماعات المناهضة لإسرائيل والصهيونية والمتعاطفة مع القضية الفلسطينية .

والهاداساه مسجلة كمنظمة دينية (رغم أنها لا علاقة لها بالدين) ، وهو ما يعفيها من تقديم تقرير سنوي علني ، وهي أيضاً معفاة من الضرائب . ويُعَد المجلس القومي الهيئة العليا في الهاداساه ويجتمع مرتين في السنة للنظر في القرارات السياسية الكبرى ، أما القرارات السياسية الثانوية فيتخذها المجلس التنفيذي . ولحماية وضع الإعفاء من الضرائب ، تقوم هيئة موازية لهاداساه ومتحدة معها هي رابطة هاداساه للإغاثة الطبية بتوجيه الأموال إلى المشاريع الإسرائيلية ، وذلك في حين أن منظمة هاداساه تتولَّى النشاط داخل الولايات المتحدة . ومنظمة هاداساه عضو في الاتحاد الصهيوني الأمريكي ومرتبطة بالمنظمة الصهيونية العالمية عبر الاتحاد الكونفدرالي العالمي غير الحزبي للصهيونيين المتحدين ، كما أنها عضو في مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية الكبرى ولها صفة منظمة غير حكومية في هيئة الأمم المتحدة وصفة مراقب في البعثة الأمريكية للأمم المتحدة .

وقد قررَّت منظمة هاداساه عام ١٩٨٣ أن تصبح منظمة دولية بعد أن ظلت حتى ذلك التاريخ منظمة أمريكية ، الأمر الذي يسمح لها بإنشاء مجموعات خارج الولايات المتحدة يتم ربطها برابطة هاداساه للإغاثة الطبية لتوجيه الأموال عبرها إلى إسرائيل . وقد وصل حجم ما تنفقه الهاداساه من أموال عام ١٩٨٢/ ١٩٨٣ إلى نحو ٤٩ مليون دولار .

رابطة الصهاينة الإصلاحيين في الولايات المتحدة

Association of Reform Zionists of America

«رابطة الصهاينة الإصلاحيين في الولايات المتحدة» منظمة صهيونية أمريكية تأسَّست عام ١٩٧٧ واختصارها «أرتسا ARTZA» ، من عبارة عبرية معناها : إلى الوطن . ويُعَدُّ ظهورها في الولايات المتحدة من أهم التطورات على الإطلاق في تاريخ المنظمة الصهيونية إذ تمثل اليهود الإصلاحيين الذين كانوا من المعادين للصهيونية منذ ظهور الاتجاه الإصلاحي (وهو موقف أخذ يتآكل بعد تأسيس الدولة الصهيونية) . ومنذ عام ١٩٧٣ ، أصبح إثراء وتقوية دولة إسرائيل (بوصفها المثل الأعلى النابض للقيم اليهودية الأزلية) أحد أهداف اليهودية الإصلاحية في الولايات المتحدة .

وفي عام ١٩٧٣ ، انضم الاتحاد العالمي لليهودية التقدمية (الذراع الدولي للحركة الإصلاحية) إلى المنظمة الصهيونية العالمية كهيئة يهودية دولية (غير حزبية) أي أنها لا تتمتع بجميع الحقوق والامتيازات . وعندئذ فكرت القيادات الإصلاحية في تكوين منظمة صهيونية يحق لها العضوية الكاملة لتمثل اهتمامات الحركة الإصلاحية داخل المؤسسة الصهيونية . ومن ثم ، تأسَّست رابطة الصهاينة الإصلاحيين عام ١٩٧٧ وأصبح لها عضوية كاملة في المنظمة ، أي أن الرابطة أصبحت اتحاداً صهيونياً دولياً حزبياً ، وقد تم إرسال تسعة مندوبين عنها لهم حق التصويت إلى المؤتمر الصهيوني

التاسع والعشرين (١٩٧٨) . وتتوجَّه هذه المنظمة توجُّهاً صهيونياً غربياً توطينياً كاملاً ، ومن بين أهدافها الدفاع عن أمن إسرائيل ومساعدة من يود الهجرة من الأمريكيين كأفراد وجماعات صغيرة ، وتشجيع السياحة إلى دولة إسرائيل ، وتحسين نمط الحياة في إسرائيل ، وكذلك تشجيع تطوُّر اليهودية الإصلاحية الإسرائيلية .

وتحرص رابطة الصهاينة الإصلاحيين على أن يكون لها اتصال دائم بالبيت الأبيض ووزارة الخارجية الأمريكية والكونجرس ، وذلك لكي تؤمن الالتزام الأمريكي قبَل إسرائيل ، كما تقوم بالدعاية لصالح الحكومة الإسرائيلية .

وتنتمي رابطة الصهاينة الإصلاحيين إلى اتحاد الجماعات الدينية العبرية الأمريكية ، وهي المنظمة الأم لليهودية الإصلاحية ، كما أنها عضو في الاتحاد الصهيوني الأمريكي ومُمثَّلة في لجنته التنفيذية ، وهي كذلك عضو في مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية الكبرى ، وفي القسم الأمريكي الشمالي من المؤتمر اليهودي العالمي . وقد زادت عضويتها من ٩٥٠٠ عام ١٩٧٧ إلى ٧٠ ألف عضو في منتصف الثمانينيات .

وقد انضمت رابطة الصهاينة الإصلاحيين إلى الروابط الصهيونية الإصلاحية المماثلة ، والتي تأسَّست في كلٍّ من كندا وبريطانيا وجنوب أفريقيا وأستراليا وهولندا ، لتكوِّن عام ١٩٨٠ الرابطة الدولية للمنظمات الصهيونية الإصلاحية واختصارها «أرتسينو Artzeinu» ومعناها بالعبرية «أرضنا» . وقد اعترفت المنظمة الصهيونية بها رسمياً .

ارتسينو

ARZENU; World Reform Zionists

انظر : «رابطة الصهاينة الإصلاحيين في الولايات المتحدة» .

مجلس الاتحادات اليهودية وصناديق الرفاه

Council of Jewish Federations and Welfare Funds

منظمة مظلية أمريكية تعمل كهيئة مركزية تنسق جَمْع الأموال والتخطيط لأكثر من مائتي اتحاد يهودي وصندوق رفاه تخدم ٨٠٠ تجمُّع يهودي يضم أكثر من ٩٥٪ من أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة وكندا . وقد بلغ مجموع ما جمعه مجلس الاتحادات عام ١٩٧٨ نحو ٤٧٤ مليون دولار أمريكي ، زادت إلى ٥٨١ مليون عام ١٩٨١ ، ووصلت إلى ٧٢٠ مليون دولار عام ١٩٨٧ .

تأسَّس مجلس الاتحادات عام ١٩٣٢ لتنسيق عمليات جَمْع الأموال التي تقوم بها الاتحادات اليهودية المحلية المختلفة وتخصيصها للاحتياجات المحلية للجماعة وكذلك لاحتياجات الجماعات اليهودية المنكوبة في الخارج (وإن ظل العمل الداخلي هو الأساس) . وقد تطوَّر المجلس خلال الأربعينيات والخمسينيات إلى وكالة تخطيط مركزية للاتحادات تشرف على الميزانية وعلى تخصيص الأموال والتفتيش . وهي تقدِّم للاتحادات القيادة والنصح والتمثيل ، وتُعتبَر منبراً لتبادل الخبرات ووضع الخطط للأهداف العامة للاتحادات واحتياجاتها وبرامجها . ومن الخدمات المهمة التي يقدمها مجلس الاتحادات ، مؤتمر الميزانية للمدن الكبرى الذي يضم ٢٩ من أكبر الاتحادات اليهودية والذي يقوم بتقديم الأموال لأغلبية المنظمات اليهودية الأمريكية المحلية والقومية (مثل اللجنة اليهودية الأمريكية وعصبة مناهضة الافتراء) ، وذلك بعد تحليل ودراسة برامجها وميزانياتها لتقديم المخصَّصات لكل منظمة .

وقد حرص مجلس الاتحادات اليهودية ، منذ البداية ، على تخصيص جزء من موارد الاتحادات إلى التجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين ثم إلى إسرائيل بعد عام ١٩٤٨ . وقد بدأ مجلس الاتحادات ، منذ الأربعينيات ، في تنسيق ثم توحيد حملات الجباية مع النداء اليهودي الموحد الذي أصبح يتلقَّى وحده ما بين ٥٠٪ و٦٠٪ من أموال حملات الجباية الموحدة ويذهب أغلبها إلى إسرائيل عبر النداء الإسرائيلي الموحَّد ثم الوكالة اليهودية ، ويخصَّص بعضها أيضاً لدول أخرى عبر لجنة التوزيع المشتركة . ويخصَّص نحو ٣٠٪ من أموال الجباية للاحتياجات الداخلية للجماعات اليهودية في الولايات المتحدة وعلى رأسها التعليم والصحة . ونظراً لدور مجلس الاتحادات اليهودية في جَمْع مبالغ ضخمة من الأموال وصلت إلى نحو ٧٢٠ مليون دولار عام ١٩٨٧ ، فإنه يُعتبَر في واقع الأمر شريكاً للوكالة اليهودية ، وهذه حقيقة تكرَّست منذ إعادة تنظيم الوكالة عام ١٩٧١ وتخصيص ٥٠٪ من المواقع في أجهزتها القيادية لمنظمات الجباية اليهودية غير الصهيونية .

وإلى جانب أن مجلس الاتحادات يُعَد أحد أهم مصادر الدعم المالي لإسرائيل ، فإنه يعمل أيضاً على تكريس الدعم الأمريكي لإسرائيل والتأكيد على أنها الحليف الوحيد المعتمد لأمريكا في المنطقة . وينسق مجلس الاتحادات نشاطه في هذا المجال بالدرجة الأولى مع المجلس الاستشاري لعلاقات الجماعة اليهودية القومية . كذلك يقوم مجلس الاتحادات اليهودية بعقد اجتماعات مع الإدارة الأمريكية وأعضاء الكونجرس يحضرها رؤساء اتحادات المدن الكبرى لبحث القضايا الخاصة بإسرائيل وغيرها من الشئون الخارجية .

وتُعتبَر الجمعية العامة لمجلس الاتحادات "أكبر تجمُّع سنوي للحياة اليهودية المنظمة في أمريكا" يشترك فيه أكثر من ألفين من التجمعات اليهودية والمجموعات الصهيونية الكبرى في الولايات المتحدة ، وهو منبر مهم للنشاط السياسي الموالي لإسرائيل تُعقَد خلاله الحلقات الدراسية وتقدَّم الأبحاث الخاصة بإسرائيل والشرق الأوسط واللوبي العربي في الولايات المتحدة وغير ذلك من المواضيع . ومما يدل على أهمية هذا الحدث وثقل مجلس الاتحادات داخل الجماعة اليهودية ، حرص الزعماء السياسيين (الإسرائيليين والأمريكيين) على حضور جمعيته العامة والاتصال بالقيادات اليهودية .

ويواجه مجلس الاتحادات اليهودية ، مثله مثل غيره من المنظمات اليهودية ومنظمات جباية الأموال ، مشكلة نضوب مصادر الموارد المالية ، وربما كان هذا أحد الأسباب الأساسية وراء قيام مجلس الاتحادات اليهودية بالضغط من أجل أن يكون لممثلي الجماعات اليهودية ومنظمات الجباية في الوكالة اليهودية دور أكبر في وضع سياستها والرقابة عليها . وقد انتقد مجلس الاتحادات أداء الوكالة بشدة وأصدر قراراً عام ١٩٨٦ يدعو إلى اختيار رؤساء الدوائر في الوكالة على أساس الكفاءة والتخصص دون اعتبار للانتماءات السياسية أو الحزبية وترشيد أدائها والحد من تسييسها . وكان المجلس قد أسَّس قبل ذلك بعدة سنوات لجنة الوكالة اليهودية لتكون منبراً لزعماء الاتحادات اليهودية الأمريكية خاصاً بمناقشة وتقييم نشاط الوكالة اليهودية .

المجلس الاستشاري القومي للعلاقات الطائفية اليهودية

National Jewish Community Relations Advisory Council

منظمة يهودية أمريكية تأسَّست عام ١٩٤٤ كمجلس تطوعي لوَضْع سياسات وأعمال الوكالات والمنظمات في مجال الدفاع عن اليهود وتنسيق علاقات الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة . وكانت الفترة الواقعة قبل هذا العام قد شهدت تكاثراً في المنظمات اليهودية لمواجهة النشاط المنظم المعادي لليهود في الولايات المتحدة . ومع تَزايُد التنافس وازدواجية المهام فيما بينها ، أصبح من اللازم إيجاد هيئة منظمة ومنسقة لنشاطها ، وتم تأسيس المجلس الاستشاري لهذا الغرض . ولكن لم يتم إضافة كلمة «يهودية» إلى اسم المجلس إلا عام ١٩٦٨ . ويضم المجلس ١١ منظمة يهودية قومية و١١١ منظمة محلية مُمثَّلة فيه ، من بينها : اللجنة اليهودية الأمريكية ، والمؤتمر اليهودي الأمريكي ، والبناي بريت ، وهاداساه . وقد وجد المجلس صعوبة في تنفيذ مهامه ، وفي منْع ازدواج المهمات ، نظراً لقوة المنظمات القومية المُمثَّلة فيه والتي ترفض التخلي عن حريتها في العمل المنفرد . وقد سبق أن انسحب من المجلس كلٌّ من اللجنة اليهودية الأمريكية والبناي بريت عام ١٩٥٢ احتجاجاً على قرار المجلس بوقف قيامهما بالنشاط القانوني والتشريعي وإسناد ذلك إلى المؤتمر اليهودي الأمريكي دون سواه ، وقد عادتا عام ١٩٦٥ إلى المجلس بعد أن تم تأكيد استقلالية المنظمات المُمثَّلة في المجلس . ومع ذلك ، يلعب المجلس دوراً بالغ الأهمية كمستشار للسياسة وكواضع لها . وتضم الوثيقة السنوية الكبرى للمجلس الاستشاري خطة البرنامج المشترك لعلاقات الجماعة اليهودية ، كما تضم جميع الموضوعات التي تُدرج في برنامج أعمال وكالات علاقات الجماعة اليهودية ومن بينها القضايا الاجتماعية والسياسية والعلاقات بين المجموعات والعداء لليهود . وتعطي الخطة أفضلية متزايدة للموضوعات والبرامج المتصلة بإسرائيل . ويتبنى المجلس سياسات الحكومة الإسرائيلية وينتقد أيَّ تحالف أمريكي مع الدول العربية أو بيع أسلحة أمريكية لها ، كما أنه يؤكد توافق المصالح الأمريكية والإسرائيلية ويعمل على ترسيخ هذا المفهوم وبناء الرأي العام الأمريكي على أساسه ، وكذلك يعمل على التصدي للأصوات المناصرة للعرب وللقضية الفلسطينية ، وخصوصاً داخل الجامعات .

وبعد حرب عام ١٩٧٣ ، أقام مجلس الاتحادات اليهودية ، ومعه اللجنة اليهودية الأمريكية والمؤتمر اليهودي الأمريكي وعصبة مناهضة الافتراء ، قوة عمل تابعة للمجلس الاستشاري لدعم البرامج الخاصة بإسرائيل لدى وكالات علاقات الجماعات اليهودية ، وخصوصاً البرامج المتصلة بوسائل الإعلام .

ويحذر المجلس من خطورة الإفصاح بشكل علني عن الاختلاف في الرأي بشأن السياسات الإسرائيلية لأن ذلك يشكل عامل خطر يهدد القدرة على التأثير بصورة فعالة في السياسة الرسمية ، ويدعو إلى حصر هذه الخلافات داخل منبر المجلس الاستشاري .

ويعقد المجلس الاستشاري مؤتمرات لإعداد خطط البرامج المشتركة ، وتُعتبَر هذه المؤتمرات منبراً للسياسيين الإسرائيليين والأمريكيين .

والمنظمات اليهودية القومية الإحدى عشرة الأعضاء في المجلس الاستشاري القومي لعلاقات الجماعة اليهودية هي : اللجنة اليهودية الأمريكية ـ والمؤتمر اليهودي الأمريكي ـ وعصبة مناهضة الافتراء ـ وهاداساه ـ ولجنة العمال اليهودية ـ وقدامى المحاربين اليهود

ـ والمجلس القومي للنساء اليهوديات ـ واتحاد الجماعات الدينية العبرية الأمريكية ـ واتحاد الجماعات الدينية اليهودية الأرثوذكسية ـ والمعابد اليهودية المتحدة في أمريكا ـ والعصبة النسائية القومية لليهودية المحافظة ـ ومنظمة النساء الأمريكيات لإعادة التأهيل من خلال التدريب .

اللجنة اليهودية الأمريكية

American Jewish Committee

من أقدم المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة . تأسَّست عام ١٩٠٦ بغرض الدفاع عن الحقوق المدنية والدينية للجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ، والعمل على تحسين أوضاعهم والمطالبة بمساواتهم اجتماعياً واقتصادياً وتعليمياً مع احتفاظهم بشخصيتهم اليهودية ، ومواجهة مختلف أشكال معاداة اليهود أو التمييز الديني . كما اهتمت اللجنة بالدفاع عن الحقوق المدنية والدينية للجماعات اليهودية خارج الولايات المتحدة وبالمساهمة في إغاثة ضحايا الكوارث والاضطرابات العرْقية والطائفية والحروب من اليهود في العالم .

وقد أسَّس اللجنة اليهودية الأمريكية نخبة من البورجوازية اليهودية الأمريكية المندمجة ذات الأصول الألمانية أمثال لويس مارشال وجاكوب شيف وأوسكار ستراوس وماير سولزبرجر وجوليوس روزنفالد . وقد انصب اهتمامهم في السنوات الأولى على مساعدة مئات الألوف من يهود شرق أوربا الفقراء الذين تدفَّقوا على الولايات المتحدة والعمل على سرعة استيعابهم داخل المجتمع الأمريكي وتعليمهم وصَبْغهم بالصبغة الأمريكية . كما شاركت اللجنة في عمليات غوث الجماعات اليهودية في شرق أوربا ودول البلقان ، وساهمت عام ١٩١٤ في تأسيس لجنة المعونة اليهودية الأمريكية التي كوَّنت صندوقاً لغوث ضحايا الحرب من اليهود . وقد كانت اللجنة أيضاً أهم عضو في لجنة التوزيع المشتركة ، كما قادت الاتجاه الذي أدَّى إلى إلغاء اتفاقية التجارة الروسية الأمريكية عام ١٩١١ احتجاجاً على قيام روسيا بالتمييز ضد اليهود الأمريكيين الراغبين في دخولها . وفي عام ١٩١٦ ، انضمت المنظمة إلى المؤتمر اليهودي الأمريكي بعد أن اشترطت أن يكون تشكيل هذا المؤتمر بصفة مؤقتة ولغرض محدَّد هو تمثيل يهود الولايات المتحدة في مؤتمر فرساي للسلام ، وذلك على أن يتم حله بعد ذلك حيث كانت اللجنة تخشى أن يتحول المؤتمر اليهودي الأمريكي إلى منظمة دائمة ومنافسة لها وهو ما حدث بالفعل . وفي مؤتمر السلام ، ساهم ممثلو اللجنة بشكل فعال في ضمان حقوق الجماعات اليهودية وغيرها من الأقليات في اتفاقيات السلام . وخلال العشرينيات ، ساهمت اللجنة في الحملة الناجحة ضد جريدة هنري فورد **ديربورن إنديبندنت** بعد أن قامت هذه الجريدة بنشر بروتوكولات حكماء صهيون وروجت لفكرة المؤامرة اليهودية الشيوعية ضد الولايات المتحدة (ونجحت الحملة في انتزاع اعتذار علني من هنري فورد عام ١٩٢٧) .

ولابد لنا أن نشير هنا إلى أن نشاط اللجنة اليهودية الأمريكية في المجالات السابق ذكرها لم يكن بدافع إنساني فحسب بل كان نتيجة القلق المتزايد من قِبَل اليهود الأمريكيين من أعضاء البورجوازية من آثار هجرة يهود اليديشية على مكانتهم الاجتماعية وأوضاعهم الطبقية حيث كانت المدن الأمريكية تكتظ بالمهاجرين الجدد وكانت معدلات الجريمة تزداد بها بالإضافة إلى ما جلبه المهاجرون الجدد من أفكار اشتراكية وراديكالية أدَّت إلى إثارة قلق البورجوازية الأمريكية (كما أثارت اتهامات هنري فورد) ، وذلك بالإضافة إلى اختلاف الميراث الديني والثقافي اليديشي للمهاجرين عن ميراث البورجوازية اليهودية المتأمركة ذات الأصول الألمانية . ومن هنا ، كان حرصهم على سرعة استيعاب المهاجرين في المجتمع الأمريكي من ناحية ، ومن ناحية أخرى تحسين أوضاعهم في أوطانهم الأصلية .

وقد حكمت هذه الاعتبارات موقف اللجنة اليهودية الأمريكية من الصهيونية والمشروع الاستيطاني اليهودي في فلسطين . وحتى عام ١٩٤٦ ، ظلت اللجنة تُعرَف بأنها أبرز منظمة يهودية أمريكية غير صهيونية وتؤكد أن الهوية اليهودية هي هوية دينية أو هوية ثقافية على أكثر تقدير وترفض مقولة «القومية اليهودية» أو «الشعب اليهودي» أو فكرة إقامة دولة يهودية ، فقد كانت ترى أن مثل هذه المقولات تثير مسألة ازدواج الولاء بالنسبة لليهود الأمريكيين وتشكِّك في انتمائهم الأمريكي . ومع ذلك ، أيَّدت اللجنة الاستيطان اليهودي في فلسطين باعتباره يمثل حلاً للمسألة اليهودية ويساعد على تحويل جزء من هجرة يهود اليديشية بعيداً عن الولايات المتحدة . ومن هذا المنطلق ، وافقت اللجنة اليهودية الأمريكية على وعد بلفور مع تأكيد ما نص عليه الوعد من أن إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين لن يهدد الحريات التي يتمتع بها اليهود في الدول الأخرى . كما لعب قادة اللجنة ، وخصوصاً لويس مارشال ، دوراً مهماً في تأسيس الوكالة اليهودية الموسعة . واشتركت اللجنة في إرسال المساعدات إلى المستوطنين الصهاينة في فلسطين من خلال لجنة المعونة اليهودية ، أهم أعضاء لجنة التوزيع المشتركة وعضو النداء

اليهودي الموحَّد التي كانت تتعاون في العمل تحت إشراف المنظمة الصهيونية العالمية . كما عارضت اللجنة الكتاب الأبيض البريطاني عام ١٩٣٩ . وفي الوقت نفسه ، اتخذت اللجنة اليهودية الأمريكية موقفاً معارضاً لمفهوم قومية الدياسبورا المتضمن في كلٍّ من برامج المؤتمر اليهودي الأمريكي والمؤتمر اليهودي العالمي الذي عارضت اللجنة تأسيسه . كما رفضت برنامج بلتيمور عام ١٩٤٢ ، وانسحبت عام ١٩٤٣ من المؤتمر اليهودي الأمريكي الذي انعقد لمناقشة الأزمة في أوربا بعد أن صوَّتت ضد إقامة كومنولث يهودي في فلسطين ، وأعربت عن أملها في تأمين مستقبل الجماعات اليهودية عن طريق الاعتراف العالمي من خلال الأمم المتحدة ، بحقوق الإنسان وحمايتها .

وقد وجدت اللجنة أن نفوذها يتقلص داخل الجماعة اليهودية خلال الأربعينيات نتيجة مواقفها وكذلك نتيجة انتهاجها أسلوب العمل الهادئ البعيد عن الإثارة والضجة في مواجهة مصير الجماعات اليهودية في ألمانيا وأوربا في ظل السيطرة النازية . وعلى عكس المؤتمر اليهودي الأمريكي ، رفضت اللجنة القيام بحملة مناهضة للنازية واسعة النطاق داخل الولايات المتحدة كما رفضت عقب صعود النازية إلى ألمانيا تنظيم حظر تجاري ضد ألمانيا بدعوى أن ذلك قد يهدد وضع يهود ألمانيا .

ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية ، غيرت اللجنة اليهودية الأمريكية موقفها من التعاون مع الصهيونية إلى تأييدها تماماً والعمل من أجلها بشكل علني . فمن ناحية ، رأت أن المسألة اليهودية لن تُحل إلا عن طريق إقامة الدولة الصهيونية ، ومن ناحية أخرى أصبح إقامة كيان صهيوني يمثل قاعدة للمصالح الرأسمالية والإمبريالية الغربية في تلك المنطقة الحيوية من المشرق العربي يحظى بتأييد الولايات المتحدة مركز الثقل الإمبريالي الجديد بعد الحرب ، أي أن تأييد اللجنة للمشروع الصهيوني وإسرائيل كان من منطلق الانتماء الأمريكي بالدرجة الأولى وهو يندرج تحت ما نصفه بالصهيونية التوطينية . ولذلك ، وبرغم تأييد اللجنة قرار التقسيم عام ١٩٤٧ ، وتشجيعها الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، ومساندتها عمليات الدعاية الصهيونية ، وعملها منذ عام ١٩٤٨ على كَسْب الدعم المادي والدبلوماسي الأمريكي لإسرائيل ، إلا أنها رفضت دعوى بن جوريون بضرورة هجرة الشباب اليهودي الأمريكي إلى إسرائيل . وقد أكدت اللجنة التمييز بين مصالح إسرائيل ومصالح الجماعات اليهودية في العالم ، وأصرت على ضرورة وضع أُسس للعلاقة بين الطرفين . ومن هنا ، صَدَرَ عام ١٩٥٠ التصريح المشترك لبن جوريون والصناعي الأمريكي جاكوب بلاوستاين رئيس اللجنة اليهودية الأمريكية (١٩٤٩ ـ ١٩٥٤) والذي أكد أن إسرائيل تمثل مواطنيها فقط وتنطق باسمهم وحدهم . كما انسحبت اللجنة عام ١٩٥٢ مع عصبة مناهضة الافتراء من الصندوق اليهودي الموحَّد بسبب معارضتها تخصيص قدر كبير من المساعدة لإسرائيل . أما بعد حرب ١٩٦٧ ، فقد زاد نشاط التيار المناصر لإسرائيل بشكل حاد داخل اللجنة اليهودية الأمريكية ، وهو تحوُّل طرأ على أغلب المنظمات اليهودية الأمريكية . ورغم أن اللجنة ليست جماعة ضغط (لوبي) مسجلة رسمياً إلا أنها تقوم بالضغط لصالح إسرائيل عن طريق العمل الهادئ والاتصال الفعال بالشخصيات البارزة والمجموعات المهمة في المجتمع الأمريكي . وتعتمد في فعالية أساليبها على ثقل ونفوذ أعضائها ، فرغم أن اللجنة تُعَد منظمة صغيرة نسبياً (٥٠ ألف عضو) إلا أنها لا تزال منظمة «نخبة» كما أنها قريبة من دهاليز القوة بحكم ارتباطات قيادتها ووضعها الطبقي . ومن هنا ، فهي تركِّز مجال نشاطها داخل الذراع التنفيذي للدولة ، وخصوصاً البيت الأبيض ووزارة الخارجية ، في حين تترك الكونجرس للجنة الإسرائيلية الأمريكية للشئون العامة (إيباك) فيما يُعَدُّ تقسيماً غير رسمي للعمل بين المنظمتين . ويُعَد هذا أحد الأسباب التي حالت دون انضمام اللجنة إلى مؤتمر رؤساء كبرى المنظمات اليهودية الأمريكية حيث بقيت في وضع مراقب فقط حتى لا تتخلى عن حرية العمل التي منحتها لها علاقتها بالفرع التنفيذي .

ويتبين بأس اللجنة اليهودية الأمريكية من خلال اجتماعاتها السنوية التي تحضرها شخصيات أمريكية ويهودية وإسرائيلية بارزة ، من بينهم رؤساء أمريكيون سابقون ووزراء وأعضاء في الكونجرس . وتحدد اللجنة خلال هذا الاجتماع برامجها وقراراتها السياسية التي توزعها على رجال السياسة ووسائل الإعلام والمنظمات الأخرى .

وتُعتبَر اللجنة خزاناً فكرياً (بوتقة تفكير) للنشاط المناصر لإسرائيل حيث تقوم بإعداد الدراسات وإجراء استطلاعات الرأي العام بشأن عديد من الموضوعات وخصوصاً معاداة اليهود ، وكذلك لتبيِّن اتجاهات الرأي العام الأمريكي خلال الأزمات أو القضايا الخلافية التي تمس إسرائيل مثل حرب لبنان والانتفاضة وبيع الأسلحة لدول عربية . وللجمعية شبكة واسعة من المجلات والمنشورات والمذكرات من أهمها مجلة **كومنتري Commentary** (تعليق) وهي أشهر دورياتها و **برزنت تنس Present Tense** (الزمن المضارع) وهي مجلة تُصدر كتاباً سنوياً يُسمَّى **أمريكان جويش ير بوك American Jewish Year Book** (الكتاب السنوي اليهودي الأمريكي) يُعتبَر

مرجعاً جامعاً عن حياة الجماعة اليهودية في أمريكا الشمالية . ذلك بالإضافة إلى المنشورات والمذكرات المرتبطة بمناسبات محدَّدة التي تُصدرها دوائر اللجنة وأقسامها المختلفة والتي تقدم موقف اللجنة إزاء الأحداث والقضايا الجارية ويتم توزيع بعضها على وسائل الإعلام وعلى السياسيين والمنظمات التي تمثل الأقليات والمجموعات النسائية وعلى نقابات العمال والكنائس وأعضاء ومناصري اللجنة اليهودية الأمريكي .

ويتبيَّن من مجلات ومطبوعات اللجنة مواقفها المتشددة إزاء قضايا الشرق الأوسط . فمجلة كومنتري التي كانت أميل إلى الليبرالية ، وتُعَد الآن منبراً للمحافظة الجديدة في الولايات المتحدة ، تدعو على صفحاتها إلى ضرورة التدخل العسكري الأمريكي في الخليج كحل لأزمة الطاقة وإلى ضرورة استناد الإستراتيجية الإسرائيلية إلى أسلحة نووية . كما أنها تهاجم الأفراد والمنظمات اليهودية التي تنتقد إسرائيل مثل بريرا والأصدقاء الأمريكيين للسلام . وأيَّدت اللجنة بحماس الاجتياح الإسرائيلي للبنان . كما تهاجم اللجنة المقاطعة العربية وتُنبِّه إلى خطورتها الاقتصادية ، وتهاجم كذلك صفقات السلاح مع الدول العربية ، مثل صفقة طائرات الأواكس إلى السعودية (١٩٨١) . وتُقدِّم كثير من منشورات ومذكرات اللجنة المواقف الرسمية للحكومة الإسرائيلية تجاه القضايا الخاصة بالشرق الأوسط .

إلا أن ذلك لا يعني غياب التوتر والخلاف بين اللجنة اليهودية الأمريكية وغيرها من المنظمات اليهودية من جانب ، وإسرائيل من جانب آخر ، وخصوصاً خلال حكم الليكود حيث تسببت بعض سياسات الحكومة الإسرائيلية في إحراج أعضاء الجماعة اليهودية وفي إثارة استيائهم ، مثل : مذابح صبرا وشتيلا خلال حرب لبنان ، وقضية الجاسوس بولارد التي أثارت مسألة ازدواج ولاء اليهود الأمريكيين ، وتورُّط إسرائيل في فضيحة إيران كونترا وأسلوب معالجتها للانتفاضة الفلسطينية وقضايا السلاح . وكانت اللجنة قد أصدرت عام ١٩٨٠ وثيقة تنتقد سياسة الاستيطان الإسرائيلية في الضفة الغربية وغزة وتحذِّر من آثار تلك السياسة على صورة إسرائيل .

كذلك قامت اللجنة اليهودية (التي تتبع المؤسسة القومية للعلاقات الإنسانية) برعاية دراسات علمية واجتماعية مهمة خارج البرامج الخاصة بإسرائيل ، كما تشارك في الحوارات بين الأديان . كذلك ساهمت في تأسيس عدد من المعاهد ومراكز الأبحاث والدراسات . واللجنة اليهودية الأمريكية منظمة معفاة من الضرائب ولها مكاتب في كلٍّ من إسرائيل وفرنسا والبرازيل والمكسيك .

المؤتمر اليهودي الأمريكي

American Jewish Congress

منظمة يهودية أمريكية انبثقت عن المؤتمر اليهودي الأمريكي الأول الذي انعقد في فلادلفيا عام ١٩١٨ بهدف حماية الحقوق الدينية والمدنية للجماعات اليهودية داخل الولايات المتحدة وخارجها ، ومحاربة كل أشكال التمييز ضدهم ، وكذلك مساندة إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين . وتعود فكرة تأسيس المؤتمر إلى عام ١٩١٥ حينما تزعَّم لويس برانديز وستيفن وايز وغيرهما من اليهود الأمريكيين الصهاينة أو المتعاطفين مع الصهيونية الدعوة إلى تشكيل مؤتمر يهودي أمريكي ليكون هيئة مظلِّية ذات طابع ديموقراطي وقومي تتألف من المنظمات اليهودية القائمة وليكون بديلاً عن اللجنة اليهودية الأمريكية التي كانت موضع انتقاد بسبب هيكلها وسياستها النخبوية المناهضة للديموقراطية وكذلك بسبب رفضها للصهيونية . وقد أيَّد المؤتمر فكرة أن يقوم المؤتمر اليهودي الأمريكي بتأسيس المنظمات الصهيونية الأمريكية واليهودية المتعاطفة معها والتي كانت تمثل جماهير المهاجرين اليهود القادمين من شرق أوربا والمتأثرين بالصهيونية وبالمقولات الخاصة بالشعب اليهودي والقومية اليهودية ، وذلك في حين عارضت هذه الفكرة مجموعة أخرى من المنظمات اليهودية وعلى رأسها اللجنة اليهودية الأمريكية التي كانت تمثل البورجوازية اليهودية الأمريكية المندمجة ذات الأصول الألمانية . ولم يتم تشكيل المؤتمر إلا بعد أن تم الاتفاق على أن يكون ذلك بصفة مؤقتة ولهدف محدد هو إرسال وفد إلى مؤتمر فرساي للسلام يعمل على ضمان حقوق الجماعات اليهودية وحقوق غيرهم من الأقليات في معاهدات السلام ، وكذلك المطالبة بالاعتراف بتطلعات الشعب اليهودي وبمطالبه التاريخية (فيما يختص بفلسطين) طبقاً لوعد بلفور ، وتأكيد تحويل فلسطين إلى كومنولث يهودي ، على أن يتم حل المؤتمر بعد ذلك . ولكن أنصار المؤتمر اليهودي الأمريكي نجحوا في تحويله إلى منظمة دائمة عام ١٩٢٢ تحت زعامة الحاخام ستيفن وايز ، ولكنها لم تتحوَّل قط إلى مظلة واسعة القاعدة بديلة عن اللجنة اليهودية الأمريكية كما كان يتطلع مؤسسوها .

وقد اكتسب المؤتمر اليهودي الأمريكي شعبية واسعة بين الجماهير اليهودية خلال الثلاثينيات والأربعينيات ، حيث تزعَّم الحملات والتظاهرات المناهضة للنازية وشارك في تنظيم الحظر

التجاري ضد البضائع والخدمات الألمانية . وقد هاجم المؤتمر الكتاب الأبيض البريطاني عام ١٩٣٩ ، ولعب دوراً مهماً في تنظيم المؤتمر اليهودي الأمريكي عام ١٩٤٣ الذي أقر مبدأ الكومنولث اليهودي في فلسطين كما تزعَّم الجهود الرامية إلى تأسيس المؤتمر اليهودي العالمي عام ١٩٣٦ وعمل حتى عام ١٩٤٨ على فرض القضية الصهيونية على الساحة الأمريكية . ولابد من الإشارة إلى الدور الذي لعبه ستيفن وايز في إفشال المقاطعة اليهودية المنظمة والتلقائية للبضائع الألمانية حتى يتم توقيع معاهدة الهعفراه بين الصهاينة الاستيطانيين والنظام النازي .

أما بعد الحرب العالمية الثانية وإقامة الدولة الصهيونية ، فقد وجَّه المؤتمر اليهودي الأمريكي جُل اهتمامه إلى قضايا الحقوق والحريات المدنية في الولايات المتحدة وأصبح أكثر انشغالاً بمشاكل فقراء اليهود السود وغير ذلك من القضايا الاجتماعية والسياسية التي تهم التيار الليبرالي الأمريكي . واستمر المؤتمر اليهودي الأمريكي في دفاعه عن إسرائيل وإن تضاءل هذا الالتزام مع انشغاله بالقضايا الطائفية والأهلية الأخرى . وينص برنامج المؤتمر لعام ١٩٨٣ على ضرورة تنمية دَعْم الولايات المتحدة لاحتياجات إسرائيل الأمنية ، والتصدي للدعاية العربية ، وإظهار العرب باعتبارهم العقبة أمام السلام ، وعلى ضرورة محاربة المقاطعة العربية ومحاربة معاداة اليهود ، والعمل من أجل هجرة اليهود السوفييت . ويقوم المؤتمر اليهودي الأمريكي بالدعاية لإسرائيل في الأوساط السياسية والإعلامية ، كما يؤكد أهمية إسرائيل بالنسبة إلى المصالح الأمريكية الإستراتيجية الحيوية . وللمؤتمر برامج لتشجيع السياحة في إسرائيل وترتيب سفر مسئولين أمريكيين إليها . كما أن من برامجه عَقْد ندوات حوار بين اليهود الأمريكيين والإسرائيليين تضم شخصيات سياسية وثقافية مهمة من كلا الطرفين . ويعمل المؤتمر اليهودي الأمريكي عن كثب مع مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية الكبرى في إعداد كثير من مذكرات الشرق الأوسط والبيانات العامة . كما يهاجم المؤتمر الأفراد والمجموعات اليهودية وغير اليهودية المتعاطفة مع القضية الفلسطينية ، مثل : مجلس الكنائس القومي ، وناعوم تشومسكي ، ولجنة الأصدقاء الأمريكيين للخدمات . كما يعمل على ترويج فكرة التهديد العربي وسيطرة النفط العربي على الولايات المتحدة ، ويتعاون مع عصبة مناهضة الافتراء واللجنة اليهودية الأمريكية من أجل دَفْع الكونجرس للموافقة على التشريع المناهض للمقاطعة العربية . ومع ذلك ، فإن المؤتمر اليهودي الأمريكي يُعَدُّ من المنظمات اليهودية الأمريكية الأقل ميلاً إلى تكييف مواقفها مع المصالح الإسرائيلية إذا ما تعارض ذلك مع مبادئها وسياستها الليبرالية . وقد رفض المؤتمر ، مثلاً ، التحالف مع اليمين المسيحي (الإنجيلي) الجديد في الولايات المتحدة الذي يؤيد إسرائيل ويدعمها وهو ما أقدمت عليه منظمات يهودية أخرى .

والمؤتمر اليهودي الأمريكي مسجل كمنظمة دينية معفاة من الضرائب ، وهذا يعفيه من تقديم تقرير سنوي علني . وتصل عضويته إلى ما بين ٤٠ و٥٠ ألف عضو . وقد تحوَّل المؤتمر عام ١٩٣٨ من عضوية المنظمات إلى العضوية الفردية . وهو من مؤسسي المجلس الاستشاري القومي لعلاقات الجماعة اليهودية وعضو فيه ، ويعقد مؤتمراً كل عامين تحضره شخصيات إسرائيلية وأمريكية مرموقة . وتشمل منشوراته **جودايزم Judaism** (اليهودية) وهي مجلة فصلية تركز على الأبحاث العلمية اليهودية ، و**كونجرس منثلي Congress Monthly** وهي المجلة الشهرية للمؤتمر التي تنشر مقالات عامة مع الاهتمام بالموضوعات الخاصة بإسرائيل ونشاط الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة .

بناي بريت
B'nai B'rith

«بناي بريت» عبارة عبرية معناها «أبناء العهد» . وبناي بريت واحدة من أقدم وأكبر المنظمات اليهودية ، تأسَّست عام ١٨٤٣ كهيئة يهودية أخوية على غرار الجمعيات الماسونية بهدف "توحيد الإسرائيليين للعمل من أجل تنمية مصالحهم العليا ومصالح الإنسانية" ، وكان شعارها "المعاملة الطيبة والحب الأخوي والتوافق بين اليهود" . وقد نمت بناي بريت نمواً كبيراً حتى أصبح لها فروع في ٤٥ دولة تضم نحو ٥٠٠ ألف عضو .

وقد اهتمت بناي بريت منذ تأسيسها بتقديم الخدمات الاجتماعية والإنسانية إلى الجماعات اليهودية داخل الولايات المتحدة وخارجها فأسَّست المستشفيات وملاجئ للأطفال والعجزة . كذلك عملت المنظمة على الدفاع عن حقوق الجماعات اليهودية في روسيا وشرق أوربا وعلى غوث ضحايا الكوارث والاضطرابات الطائفية والعرْقية من اليهود في هذه البلاد ، كما قامت منذ عام ١٨٦٨ بدعم نشاط الأليانس إسرائيليت يونيفرسل .

كذلك شاركت البناي بريت في عمليات استيعاب يهود شرق أوربا الذين تدفقوا على الولايات المتحدة ابتداءً من عام ١٨٨١ فوضعت برامج للغوث وأنشأت المدارس التجارية والحرفية كما أنشأت فصولاً لصبغ القادمين الجدد بالصبغة الأمريكية . انضمت

بناي بريت إلى صندوق البارون دي هيرش في جهوده الرامية لإعادة توزيع المهاجرين الجدد على مختلف أنحاء الولايات المتحدة وتوطينهم في المستعمرات الزراعية ، وذلك بعد أن اكتظت بهم المدن الأمريكية الرئيسية . كذلك نشطت بناي بريت في مجال محاربة معاداة اليهود . وفي سبيل ذلك ، أسَّست عام ١٩١٣ عصبة مناهضة الافتراء التي عملت على محاربة أشكال التمييز الديني والعنصري كافة .

كما اهتمت المنظمة بتنظيم النساء والشباب ، فأسَّست نساء بناي بريت عام ١٨٩٧ ومنظمة شباب بناي بريت عام ١٩٢٤ . وفي عام ١٩٢٣ ، أنشأت المنظمة مؤسسة هليل للبناي بريت لتقديم خدمة دينية وثقافية واجتماعية للشباب اليهودي داخل الجامعات والكليات الأمريكية ؛ كما أسَّست قسماً للتعليم اليهودي للكبار (عام ١٩٤٨) يضم برامج لدراسة اليهودية وتعليم العبرية ويُصدر مجلة فصلية بعنوان **جويش هيريتيج** Jewish Heritage (التراث اليهودي) .

ومع نمو المنظمة ، تأسَّست لها فروع خارج الولايات المتحدة كان أولها في برلين عام ١٨٨٢ ، ثم لحقتها فروع أخرى في أوربا وجنوب أفريقيا وأستراليا وغيرها . وفي عام ١٨٨٨ ، تأسَّس أول محفل للبناي بريت في فلسطين كان أول سكرتير له إليعازر بن يهودا الذي ترجم دستور وطقوس بناي بريت إلى العبرية . وبعد تواجدها في فلسطين ، بدأت بناي بريت في المساهمة في النشاط الاستيطاني اليهودي في البلاد ، فأنشأت رياض الأطفال والمكتبات والمستشفيات وأقامت مستوطنة بالقرب من القدس وبيت ضيافة لاستقبال المهاجرين الجدد . وبعد إعلان وعد بلفور ، بدأت المنظمة تتحرك من الناحية العملية (رغم عدم الارتباط الرسمي) باتجاه الأهداف الصهيونية ، فشاركت في المؤتمر القومي حول فلسطين الذي دعت إليه المنظمة الصهيونية الأمريكية عام ١٩٣٥ . وفي عام ١٩٤٣ ، كانت بناي بريت وراء قرار المؤتمر الأمريكي اليهودي الذي طالب بكومنولث يهودي في فلسطين . كما تعاونت مع المنظمة الصهيونية لتعبئة الرأي العام الأمريكي ضد **الكتاب الأبيض** البريطاني عام ١٩٣٩ وضد فرض قيود على الهجرة اليهودية إلى فلسطين . كما قامت المنظمة بمعاونة الصندوق القومي اليهودي بشراء الأراضي وإقامة المستوطنات في فلسطين ، وبدعم معهد التخنيون في حيفا . وفي عام ١٩٤٧ ، طالبت بناي بريت الرئيس الأمريكي ترومان بتأييد توصية لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين بشأن التقسيم . أما بعد إعلان قيام إسرائيل ، فقد ساعدتها المنظمة منذ السنوات الأولى وذلك بتقديم إمدادات طبية وملابس ومعدات والمساهمة في إنشاء المكتبات وتشجير الغابات وكذلك تشجيع السياحة لها ، كما قامت بتجنيد العمال الفنيين من الولايات المتحدة وكندا لإسرائيل . ومنذ إصدار سندات إسرائيل وهي تساهم بنشاط بارز في توزيعها . وتقوم المنظمة بالضغط على صناع القرار في الولايات المتحدة لصالح إسرائيل . كما أنها تلعب دوراً أساسياً وخاصاً من خلال عصبة مناهضة الافتراء في خنق أية اتجاهات معادية للصهيونية عن طريق اتهامها بأنها معادية لليهود .

وأقام أحد كبار العاملين السابقين في البناي بريت دعوى ضد المنظمة عام ١٩٦٨ متهماً إياها بأنها تقوم بأنشطة سياسة وشبه سياسية لصالح دولة أجنبية هي إسرائيل فيما يُعَد انتهاكاً للقوانين الفيدرالية الأمريكية الخاصة بالمؤسسات الخيرية المعفاة من الضرائب وبالقوانين الخاصة بالوكالة الأجنبية .

وقد لعبت بناي بريت دوراً أساسياً في تأسيس مؤتمر رؤساء كبرى المنظمات اليهودية الأمريكية عام ١٩٥٤ ، كما كانت من مؤسسي المؤتمر العالمي للمنظمات اليهودية .

عصبة مناهضة الافتراء التابعة لبناي بريت

Anti-Defamation League of B'nai B'rith

منظمة يهودية أمريكية تأسَّست عام ١٩١٣ لتكون ذراع بناي بريت في محاربة معاداة اليهود ومحاربة التميز الديني والعنصري في الولايات المتحدة . وقد بذلت المنظمة جهودها منذ تأسيسها في إصدار التشريعات التي تحمي اليهود من التمييز أو الإساءة إلى حقوقهم المدنية ، سواء في مجالات التعليم أو العمل أو السكن ، وعملت أيضاً على محاربة السخرية مما يُسمَّى «الشخصية اليهودية» في المسارح ووسائل الإعلام ، وكذلك محاربة التنظيمات والحركات العنصرية في الولايات المتحدة . واهتمت المنظمة أيضاً بتنمية العلاقات اليهودية ـ المسيحية وتنمية العلاقات بين اليهود والسود ، كما ساهمت في إصدار قانون الحقوق المدنية الأمريكي عام ١٩٦٤ .

وقد تبنَّت العصبة موقفاً مؤيداً للدولة الصهيونية منذ تأسيسها عام ١٩٤٨ وأكدت ضرورة تعزيز موقف الولايات المتحدة المناصر لها وضرورة إبراز جوانب التماثل في القيم والنشأة بين البلدين . ومع ذلك ، لم تتبن العصبة مفهوم الشعب اليهودي الذي هو جوهر العقيدة الصهيونية ، كما لم تؤكد مركزية إسرائيل أو وجود رابطة عضوية بين اليهود الأمريكيين وإسرائيل ، وظل دعمها لإسرائيل يتم في إطار التمييز بين الإسرائيليين والجماعة اليهودية في الولايات المتحدة مع تركيز أولويات العمل على محاربة العداء لليهود والتمييز

وعلى ضمان المساواة للجميع في الولايات المتحدة . وفي عام ١٩٥٢ ، انسحبت العصبة (مع اللجنة اليهودية الأمريكية) من الصندوق اليهودي الموحَّد ، وذلك بسبب معارضتها تخصيص قدر كبير من المساعدة لإسرائيل . وقد تأكل هذا الموقف تدريجياً باتجاه الدفاع عن إسرائيل إلى أن أصبح هذا محور أعمالها ولب برامجها بعد حرب ١٩٦٧ ، حتى أنه غلب على دورها الأصلي وهو محاربة العداء لليهود في الولايات المتحدة ، بل أصبح التركيز الحالي هو الافتراض بأن العداء للصهيونية يعادل العداء لليهود ، ومن ثم فإن أيَّ انتقاد لإسرائيل يُعَد نوعاً من العداء لليهود . ويتبين لنا هذا التحول من خلال مقارنة برنامج وأهداف العصبة عام ١٩٦٦ وعام ١٩٨٠ حيث لا يرد ذكر لإسرائيل في الأهداف المطروحة عام ١٩٦٦ إلا في عبارة تتعلق بالمقاطعة العربية جاءت في الباب السادس "تأمين سلامة اليهود في الخارج" . أما في أهداف عام ١٩٨٠ ، فلإسرائيل باب منفصل يحتل المكان الثاني في سلسلة الأهداف بعد "محاربة العداء للسامية (اليهود)" .

ولا تكتفي العصبة بإلصاق تهمة معاداة اليهود بالعناصر والجماعات المناهضة لإسرائيل والصهيونية بل تلصقها أيضاً بالعناصر المؤيدة للعرب أو المتعاطفة مع الفلسطينيين . بل ذهبت العصبة إلى أبعد من ذلك خلال السبعينيات حينما وصفت عدم المبالاة بالقضايا والمشاكل التي تهم اليهود ، وعدم التعاطف معها ، "بصفة العداء الجديد للسامية [لليهود]" .

ورغم أن أقصى اليمين الأمريكي هو العدو التقليدي للعصبة ، إلا أنها أصبحت تهاجم اليسار الأمريكي أيضاً بسبب انتقاده لإسرائيل وتعاطفه مع القضية الفلسطينية ، كما أصبحت تتهمه بالاشتراك مع أقصى اليمين في معاداة اليهود وإسرائيل وفي العداء ضد مصالح الغرب والولايات المتحدة وضد الأفكار والنظام الديموقراطي . كما اتجهت العصبة في الوقت نفسه إلى تأييد اليمين البروتستانتي (الإنجيلي) الجديد بسبب موقفه المدافع عن إسرائيل ، وذلك برغم أن هذا الموقف يتناقض مع ارتباطها التقليدي بالتيار الليبرالي في حين أنها تتجه إلى مهاجمة قطاعات مهمة من مؤسسة الكنيسة البروتستانتية الأكثر ليبرالية ، مثل المجلس القومي للكنائس ، لدفاعه عن الحقوق الفلسطينية . كذلك تهاجم العصبة المجموعات السياسية أو المنظمات الإنسانية أو مؤسسات الأبحاث والدراسات التي تناصر العرب أو تلك التي تؤيد سياسات لصالح دول عربية ، مثل صفقات السلاح الأمريكية لبعض الدول العربية . وقد ذهب ناثان بيرلميوتر (المدير القومي للعصبة) إلى اعتبار بيع طائرات الأواكس للسعودية في الثمانينيات انعكاساً لمعاداة اليهود في الولايات المتحدة .

وتوجِّه العصبة هجومها أيضاً إلى المنظمات والأفراد اليهود من رافضي الصهيونية أو منتقدي إسرائيل وسياستها . ففي عام ١٩٧٠ مثلاً ، اتخذت العصبة موقفاً مناهضاً من الصحفي الإسرائيلي يوري أفنيري عند زيارته الولايات المتحدة بسبب موقفه المعارض للمفاهيم التقليدية للصهيونية واليهودية ، كما حذَّرت المنظمات اليهودية والمجموعات الطلابية اليهودية في الجامعات من التعامل معه أو دعم نشاطه خلال وجوده في البلاد . كما تعمل العصبة على التصدي للمواد الإعلامية أو الأعمال الفنية السينمائية التي قد تُسيء إلى إسرائيل . ففي عام ١٩٨٣ ، على سبيل المثال ، هاجمت العصبة فيلم كوستا جافراس «حنه ك . » الذي يعالج القضية الفلسطينية ، كما هاجمت الفيلم الوثائقي «نساء محاصرات» الذي يتناول حياة نساء فلسطينيات في مخيمات اللاجئين . بل إنها ، في بعض الأحيان ، تهاجم بعض الأفلام الأمريكية (مثل «اختيار صوفي») لأنه يحيد عما تتصور أنه الصورة الدقيقة لليهود .

وتعمل العصبة على تبرير وتوضيح السياسات الإسرائيلية التي قد تثير الجدل بين الرأي العام الأمريكي مثل حرب لبنان (١٩٨٢) وإبراز أن هذه السياسات لا تخدم صالح إسرائيل وحسب وإنما تخدم أيضاً المصالح الأمريكية في نهاية الأمر . ومع هذا ، تقوم الرابطة أحياناً بتوجيه النقد إلى الدولة الصهيونية حينما تسبب الحرج للجماعة اليهودية في الولايات المتحدة . وفي عام ١٩٧٧ مثلاً ، انتقدت الرابطة سياسة الاستيطان الإسرائيلية حيث قال رئيسها آنذاك : "إن إعلان حكومة الليكود عن إقامة مستوطنات جديدة يمكن أن يبعد الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة عن الجماهير ، وبذلك يضعها في وضع يلحق الضرر بقدرتها على التأثير في الإدارة الأمريكية" .

ولتحقيق أغراضها ، تقوم العصبة بمراقبة ورَصْد الأفراد والجماعات والمنظمات المعادية لليهود والمعادية لإسرائيل والصهيونية ، كما تقوم بجَمْع البيانات والمعلومات عنهم ومراقبة جميع النشاطات المتصلة بإسرائيل والشرق الأوسط في الولايات المتحدة من خلال مكاتبها المنتشرة في جميع أنحاء البلاد . وتقوم بتزويد جهاز الاستخبارات الإسرائيلية بنتائج عمليات المراقبة عن طريق المستشارين والسفارة الإسرائيلية ، وكذلك الاستخبارات الأمريكية عن طريق مكتب التحقيقات الفدرالية (اف . بي . آي) .

ومنظمة عصبة مناهضة الافتراء مسجلة كمنظمة دينية ، وهذا

يعفيها من تقديم تقارير سنوية علنية كما ينص القانون الأمريكي . وهي ، كذلك ، معفاة من الضرائب . وتعيِّن بناي بريت أغلب أعضاء الأجهزة القيادية بها ، كما تعيِّن أعضاء مكاتبها المنتشرة في جميع أنحاء الولايات المتحدة ، ولها فرع في كلٍّ من القدس وباريس .

نوادي هليل للطلبة (مؤسسات هليل)

Hillel Foundutions

تضم منظمة هليل التابعة لجمعية البناي بريت (أبناء العهد) المراكز والنوادي الطلابية التي توجد في معظم جامعات الولايات المتحدة . وعادةً ما يدير هذه النوادي مدير يتقاضى راتباً ويساعده بعض الطلبة . وفكرة نوادي هليل هي أساساً تقليد لفكرة مماثلة توصَّل إليها واعظ بروتستانتي رأى ضرورة الوصول إلى الشباب المسيحي فكوَّن هذه النوادي . ثم رأى الدكتور تشوتسي بولدوين (وهو أستاذ دراسات إنجيلية مسيحي) أن الشباب اليهودي هو الآخر منصرف عن عقيدته ، فبدأ بالاتصال بالمؤسسة الحاخامية وحثها على ضرورة تأسيس نوادي هليل . وتنظم نوادي هليل برامج ثقافية واجتماعية ودينية وحواراً دينياً . ومثل معظم المنظمات اليهودية ، أصبحت نوادي هليل واجهات يهودية للمنظمة الصهيونية ، ولذا نجد أنها تركز على تذكير الرأي العام الأمريكي بالإبادة النازية لليهود وعلى تشجيع الهجرة والدفاع عن وجهة النظر الإسرائيلية .

مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية الكبرى

Conference of Presidents of Major American Organizations

منظمة يهودية أمريكية تُعرَف عادةً باسم «مؤتمر الرؤساء» . ومؤتمر الرؤساء هذا هيئة تمثيلية لـ ٣٧ منظمة يهودية أمريكية تمثل وجهة نظر هذه المنظمات بشأن المسائل الخاصة بإسرائيل وبغيرها من القضايا الدولية . وهي تنشط داخل الأوساط السياسة الأمريكية من أجل تحقيق الأهداف الصهيونية .

نشأت هذه المنظمة بشكل غير رسمي (عام ١٩٥٥) مع انعقاد مؤتمر ضم رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية الكبرى من أجل فحص تلك الموضوعات التي تتعلق بإسرائيل وكذلك تلك القضايا التي تحظى باهتمام خاص بين أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة . وفي عام ١٩٦٠ ، قرَّر المؤتمر تغيير طبيعته غير الدائمة والدورية وأن ينظم نفسه على أُسس مستمرة ومستقرة وأن يُعطي لإجراءاته صفة الرسمية . ومن ثم ، تم تكوين جهاز إداري كما أدرجت له ميزانية ثابتة . وفي عام ١٩٦٦ ، قرَّر الأعضاء أن يكوِّنوا هيئة تمثيلية للمنظمات عوضاً عن هيئة لرؤسائها ، فكان ناحوم جولدمان أول رئيس لها .

ورغم أن مؤتمر الرؤساء لا يشكل جماعة ضغط من الناحيتين القانونية والعملية ، إلا أنه يمكن اعتباره بمنزلة ذراع دبلوماسي للوبي الصهيوني الرسمي (اللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشئون العامة) في الولايات المتحدة . ويعمل المؤتمر على تحقيق عدد من المهام والوظائف الأساسية في هذا الإطار .

١ ـ التنسيق بين مواقف أعضاء الجماعة اليهودية في العالم وبشكل خاص في إسرائيل (التي تحظى بالأولوية المطلقة في قائمة أعمال المؤتمر) ، وبذلك فإنها توفر منبراً داخلياً لأعضاء الجماعة لمعالجة هذه القضايا .

٢ ـ التخلص من الخلافات بين أعضاء الجماعة تجاه مواقفهم من إسرائيل وتجاه غيرها من القضايا الدولية بشكل هادئ يسعى إلى تحقيق الإجماع فيما بينهم ، وخصوصاً أن شرعية ونفوذ المؤتمر نابعة من كونه ناطقاً باسم الجماعة اليهودية وممثلاً سياسياً لها ، وهذه الوظيفة لها أهمية عندما يحدث اختلاف بين المنظمات اليهودية الأمريكية حول الموقف من بعض السياسات الإسرائيلية (وخصوصاً تلك التي حدثت تحت قيادة الليكود ، مثل حرب لبنان) . ويحرص المؤتمر على عدم الإفصاح العلني عن أيِّ خلاف أو انشقاق بل يعتبر ذلك من علامات الخيانة . والواقع أن هيكيلية المؤتمر تُسهِّل هذا النهج حيث تتكون عضويته من الزعامات الراسخة والمعروفة للمنظمات التي تشترك في المصالح بشكل عام ، وبالتالي ينشأ الإجماع . وقد وُجِّهت انتقادات إلى المؤتمر باعتباره يعمل على خَنْق آراء المعارضة داخل صفوف الجماعة ، وخصوصاً تلك التي تنتقد السياسات الإسرائيلية . ومن المفارقات ذات الدلالة المهمة أن ألكسندر شندلر (الرئيس السابق للمؤتمر الأمريكي لرؤساء المنظمات اليهودية الكبرى) ، الذي كان من أشد مؤيدي الدولة الصهيونية وممن يرفضون أي احتجاج يهودي علني ضدها ، تحوَّل إلى منتقد علني لإسرائيل في فترة حكم الليكود ودعا إلى تبنِّي هوية مستقلة عن هوية إسرائيل ، كما دعا إلى الحرص على ألا تتحول الحركة الصهيونية إلى تابع للكنيست .

٣ ـ يقوم المؤتمر بتفسير موقف الجماعة اليهودية وتبليغه إلى كلٍّ من الحكومة الأمريكية وصانعي السياسة ووسائل الإعلام والحكومة الإسرائيلية والدول والهيئات الدولية الأخرى .

٤ ـ يقوم المؤتمر بمحاولة التأثير في موقف الحكومة الأمريكية والجمهور الأمريكي وتبليغ هذا الموقف للحكومة الإسرائيلية .

٥ ـ يقوم المؤتمر بدور المفسِّر للآراء الإسرائيلية لدى الحكومة الأمريكية .

ويتبنَّى المؤتمر موقف الحكومة الإسرائيلية تجاه القضايا الكبرى ، ويركز على نشر وجهة نظر مفادها أن أمن وقوة إسرائيل يمثل مصلحة كبرى للسياسة والإستراتيجية الأمريكية . ولإنجاز ذلك ، يقوم المؤتمر بنشر الوثائق وعَقْد المؤتمرات المؤيدة لإسرائيل وعقد لقاءات خاصة مع القادة السياسيين الأمريكيين والعالميين ومع قادة الجماعات اليهودية في الدول الأخرى ، وذلك بالإضافة إلى الاحتفاظ بعلاقات وثيقة مع رجال الإعلام الأمريكيين . كما يسعى المؤتمر ، في بعض القضايا ، إلى الضغط على الكونجرس الأمريكي عن طريق استنفار اليهود الأمريكيين (من خلال المنظمات المشتركة في المؤتمر) لكي يقوموا بإرسال الخطابات والبرقيات إلى نوابهم في مجلسي النواب والشيوخ بحيث يطلب منهم اتخاذ مواقف تتفق مع المصلحة الإسرائيلية . كذلك يشرف المؤتمر على شن الحملات الإعلامية والتحضير للتظاهرات ، كما يشرف على عقد المؤتمرات الصحفية .

وفي حين تُركِّز اللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشئون العامة على الكونجرس ، يُركِّز المؤتمر على الفرع التنفيذي بما في ذلك الرئيس الأمريكي .

ويتم اختيار رئيس للمؤتمر كل عامين تقريباً ، وعادةً ما يكون المرشح لهذا المنصب رئيساً لإحدى المجموعات المنتمية إلى المؤتمر . ويجري تمويل مؤتمر الرؤساء من الرسوم والتبرعات التي يدفعها أعضاء الفئات المنتمية إليه . وقد بلغت ميزانيته عام ١٩٨٢ نحو ٣٥٠ ألف دولار .

والمنظمات المنتمية للمؤتمر الأمريكي لرؤساء المنظمات اليهودية الكبرى هي :

المؤتمر اليهودي الأمريكي ـ ومجلس الاتحاد الأمريكي لعمال إسرائيل ـ واللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشئون العامة ـ والاتحاد الصهيوني الأمريكي ـ وبناي بريت ـ وهاداساه ـ ولجنة العمال اليهودية ـ وقدامى المحاربين اليهود ـ والمنظمة الصهيونية للعمال في أمريكا ـ ومنظمة مزراحي الأمريكية ـ واللجنة الاستشارية للعلاقات الطائفية القومية ـ واتحاد الطوائف العبرية الأمريكية ـ واتحاد الطوائف اليهودية الأرثوذكسية ، والمعبد اليهودي المتحد في أمريكا ، والمنظمة الصهيونية في أمريكا ، ونساء مزراحي الأمريكيات ، وعصبة مناهضة الافتراء ، ونساء بناي بريت ، وبني تسيون ، والمؤتمر المركزي للحاخاميين الأمريكيين ، ونساء إيموناه في أمريكا ، وصهيونيو حيروت ، والصندوق القومي اليهودي ، والمؤسسة اليهودية لإعادة الإعمار ، والاتحاد الصهيوني للعمال ، واللجنة القومية لعمال إسرائيل ، والمجلس القومي للنساء اليهوديات ، والمجلس القومي لإسرائيل الفتاة ، والاتحاد القومي لأخوات الهيكل ، ومجلس الإنعاش اليهودي القومي ، ومجلس الشباب اليهودي الأمريكي الشمالي ، والنساء الرائدات ، والجمعية العامة الحاخامية ، والمجلس الحاخامي الأمريكي ، ومنظمة النساء الأمريكيات لإعادة التأهيل من خلال التدريب ، والعصبة النسائية اليهودية المحافظة ، ودائرة العمال ، والمنظمة الصهيونية العالمية ـ القسم الأمريكي .

اللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشئون العامة (ايباك)

American Israel Public Affaris Committee (AIPAC)

«اللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشئون العامة» (بالإنجليزية : أمريكان إسرائيل بابليك ريليشنز كوميتي American Israel Public Relations Committee واختصارها «ايباك AIPAC») هي منظمة أمريكية يهودية تأسَّست عام ١٩٥٤ بغرض التأثير في السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط بحيث تتفق هذه السياسة مع المصالح الإسرائيلية والصهيونية . وهذه المنظمة مسجلة كجماعة ضغط (لوبي) رسمية للقيام بمهمة الدعاية لدعم إسرائيل باسم الطائفة اليهودية الأمريكية ، وهي في تقدير البعض من أقوى جماعات الضغط في الولايات المتحدة ومن أكثرها تأثيراً على الإطلاق .

وتعود جذور هذه المنظمة إلى عام ١٩٥١ حينما قرر أشعياء كفن ، عضو المجلس الصهيوني الأمريكي ، بعد التشاور مع الزعماء الإسرائيليين آنذاك (أبا إيبان وموشيه شاريت وتيدي كوللك) ، تكوين لوبي صهيوني هدفه المباشر (آنذاك) زيادة المساعدة الاقتصادية الأمريكية لإسرائيل . وفي عام ١٩٥٤ ، تكوَّنت اللجنة الصهيونية الأمريكية للشئون العامة ثم تغيَّر اسمها عام ١٩٥٩ إلى «اللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشئون العامة» لكي تعمل من أجل سياسات أمريكية أكثر تأثيراً في الشرق الأدنى لتحقيق تسوية سلمية للصراع العربي الإسرائيلي . وقد سُجلت هذه اللجنة في الكونجرس الأمريكي وفقاً لقوانين جماعات الضغط (اللوبي) المحلية ، وهي القوانين التي تسمح للجماعات المختلفة التي يكون لها وجهات نظر أو مصالح معيَّنة ، أن تعرض وجهة نظرها على أعضاء الكونجرس ولجانه .

وتقود اللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشئون العامة حملات

الضغط من أجل دَعْم مواقف الحكومة الإسرائيلية وتعمل على تقوية التحالف الإسرائيلي الأمريكي ومَنْع قيام تحالفات بين الولايات المتحدة والعالم العربي يمكن أن تضر بإسرائيل . وهي تعمل أيضاً على تأكيد أهمية إسرائيل الإستراتيجية بالنسبة للولايات المتحدة والغرب ، وعلى تأكيد قدرتها التي لا تُضاهَى على حماية المصالح الأمريكية سواء في ردع التوسع السوفيتي (فيما سبق) أو في التصدي للإرهاب الدولي أو في مواجهة أية أشكال جديدة من الأخطار التي قد تظهر في هذه المنطقة الحيوية من الشرق الأوسط بعد سقوط المعسكر الاشتراكي . كما تؤكد أن إسرائيل مثل الولايات المتحدة دولة ديموقراطية ، وبالتالي فهي موضع ثقة في حين أن جيرانها العرب شعوب متخلفة ومستبدة تحكمها نظم غير مستقرة . وكذلك ، فإنها تؤيد التشريعات التي تعطي الولايات المتحدة (بمقتضاها) المنح والمعونات لإسرائيل وتضغط من أجل زيادة هذه المعونات بشكل مطرد ومن أجل تحويل القروض والهبات وكذلك من أجل رفع العلاقات الاقتصادية بين إسرائيل والولايات المتحدة إلى مستوى الندية وإحلال التعامل التجاري محل المساعدة . ومن جهة أخرى ، فإنها تعارض التشريعات التي يتم بمقتضاها توجيه المساعدات أو المنح الأمريكية إلى الدول المعارضة لمصالح الدولة الصهيونية . كما أنها تقود الحملات ضد صفقات السلاح مع الدول العربية وضد المقاطعة العربية وضد منظمة التحرير الفلسطينية .

وبالنسبة لآليات عملها داخل الكونجرس ، تقدم الايباك تقريراً لكل عضو بالكونجرس عن كيفية التصويت لصالح إسرائيل وتزود الأعضاء بالبيانات والوثائق الخاصة بالمواضيع التي تُعرَض على الكونجرس والتي تهم إسرائيل وتدعم وجهة نظرها ، كما أنها تعزز ذلك بالمكالمات الهاتفية والزيارات الشخصية والتودد إلى معاوني أعضاء الكونجرس الذين يقومون بدور مهم وراء الستار من أجل سياسات معيَّنة ومن أجل عَرْض مواقف خاصة وإجراء اتصالات لممثليهم . وتركِّز الايباك أيضاً على الأعضاء الذين ينتمون إلى اللجان الرئيسية للمساعدات الخارجية أو السياسية ، وعلى غيرهم من الأعضاء النافذين . وهي تحتفظ بقائمة أسماء أعضاء مجلس الشيوخ والنواب الملتزمين بالتصويت وفقاً لتعليمات اللوبي الصهيوني حيث ينال هؤلاء الثناء الفوري في منشورات اللوبي كما يتم تكريمهم في المؤتمرات وفي حفلات العشاء وتُنشَر عنهم التقارير الإيجابية على ناخبيهم في ولاياتهم . وتساهم اللجنة بشكل غير مباشر في تمويل حملاتهم الانتخابية من خلال لجان العمل السياسي المؤيدة لإسرائيل . وقد برزت لجان العمل هذه ـ كقوة سياسية مهمة في الولايات المتحدة ـ في أعقاب إصلاحات قانون الانتخاب الفدرالي عامي ١٩٧٤ و١٩٧٦ والذي حدد مبلغ التبرعات الفردية للمرشحين السياسيين بألف دولار . وتستطيع مجموعات الأفراد تكوين لجنة عمل سياسي لها الحق في التبرع بمبلغ ٥٠٠٠ دولار لكل مرشح في انتخابات واحدة . ولذلك ، أخذ العديد من موظفي الايباك وأنصارهم في تأسيس عدد كبير من لجان العمل السياسي تشكَّل أغلبها عام ١٩٨٠ . وتتراوح التقديرات حول عدد اللجان المؤيدة لإسرائيل ما بين ٣٣ و٥٤ لجنة ، من أهمها اللجنة القومية للعمل السياسي . ولا تحمل هذه اللجان ما يشير من قريب أو بعيد إلى إسرائيل أو إلى الشرق الأوسط أو السياسة الخارجية . والواقع أن ذلك يعكس حرص قادة الجماعة اليهودية على عدم إثارة التلميحات إلى «المال اليهودي» أو الاتهامات بشراء السياسيين (أنفقت هذه اللجان خلال انتخابات عام ١٩٨٤ نحو ٤,٢٥ مليون دولار على مرشحي الكونجرس) . وتقوم الايباك من خلال هذه اللجان أيضاً بالضغط على أعضاء الكونجرس الذين لا يؤيدون إسرائيل أو يتعاطفون مع القضايا العربية ، وهي تعمل على إحباط فرصهم في الانتخابات . وقد نجحت الايباك ، بالفعل ، في إسقاط بعض أعضاء الكونجرس مثل شارلز بيرسي الذي عارض صفقة بيع طائرات لإسرائيل عام ١٩٨٢ وبول فندلي الذي التقى بياسر عرفات وتبنَّى موقفاً متعاطفاً مع القضية الفلسطينية ، وغيرهما .

وبالإضافة إلى ذلك ، تقدِّم الايباك مساعدات أخرى لأعضاء الكونجرس (مثل كتابة الخطابات الرسمية) ، كما أنها تقوم بإجراء بحوث لهم . وتُعتبَر النشرة الدورية التي تصدرها اللجنة ، **نير إيست ريبورت Near East Report** (تقرير الشرق الأدنى) من أكثر النشرات نفوذاً بين أعضاء الكونجرس فيما يتعلق بالشرق الأوسط .

وتقوم الايباك بإعلام أعضاء القطاع السياسي (النشيط) في الجماعة اليهودية عن الموضوعات المطروحة أمام الكونجرس ، وذلك لكي يقوم كل منهم بالكتابة إلى هذا العضو والتبرع في حملته الانتخابية إذا أثبت سلوكاً موالياً لإسرائيل . وتنسق الايباك حملات الضغط مع اللجنة اليهودية الأمريكية وعصبة مناهضة الافتراء والمؤتمر اليهودي الأمريكي ، بالإضافة إلى المؤتمر الأمريكي لرؤساء المنظمات اليهودية الكبرى . ولكن هناك على ما يبدو قَدْر من التوتر والخلافات والمنافسة بين المنظمات اليهودية الثلاث الأولى من ناحية ، والايباك من ناحية أخرى ، حول تحديد المهام ورسم السياسات . فقد اتهمت هذه المنظمات منظمة الايباك في خطاب نُشر على صفحات **النيويورك تايمز** بتبنِّي مواقف لا تتفق وإجماع

الجماعة اليهودية المنظمة ، وطالبوا بضرورة تشاور الايباك معهم قبل الإعلان عن مواقفها بشأن القضايا العامة . كما تردَّد أن المنظمات الثلاث تتجه نحو تكوين مجموعة ضغط أخرى (ولكن ذلك تم نفيه) . وقد تعرَّضت الايباك كذلك للهجوم في بعض وسائل الإعلام الأمريكية بسبب نفوذها السياسي المتزايد سواء في الانتخابات التشريعية الأمريكية أو فيما يتعلق بالسياسة الخارجية الأمريكية الخاصة بالشرق الأوسط . وقد أدَّى هذا الهجوم إلى استقالة المدير التشريعي للايباك وكذلك جميع هيئة تحرير نير إيست ريبورت ، وربما يؤدي ذلك أيضاً إلى تحجيم نفوذها في المستقبل .

وتعقد الايباك مؤتمرات سنوية تجمع الأعضاء العاملين وقادة الجماعة وممثلي المجموعات المستهدفة وعشرات السياسيين وكبار الشخصيات الإسرائيلية والأمريكية ، وتعرض من خلال المؤتمر مواقفها السياسية والأولويات الراهنة للعمل . وتبلغ ايباك برنامجها للسلطتين التشريعية والتنفيذية في الحكومة الأمريكية وللمؤتمرات السياسية (على المستوى القومي) للحزبين الجمهوري والديموقراطي التي تنعقد قبل انتخابات الرئاسة الأمريكية كل أربع سنوات حيث تحرص ايباك على أن يكون لها موقف محايد من الحزبين وذلك بهدف الحصول على تأييد أيٍّ منهما .

وقد وسعت الايباك مجال نشاطها خارج النطاق التشريعي التقليدي لمحاولة التأثير في المؤسسات والجماعات الأمريكية المتعاطفة مع القضية الفلسطينية مثل الطلبة والكنائس البروتستانتية الليبرالية والأقليات وخصوصاً السود . ففي حرم الجامعات أعدت الايباك الحلقات الدراسية الحرة بهدف تدريب وتنظيم الطلبة المناصرين لإسرائيل وتنسيق نشاطهم لمواجهة العناصر الجامعية المناهضة لإسرائيل أو المناصرة للفلسطينيين ، وذلك عن طريق نَعْتهم بالتطرف والراديكالية وبمناهضة الولايات المتحدة وكذلك عن طريق نَعْتهم بمعاداة اليهود واليهودية . كما أنشأت الايباك برنامج التقارب المسيحي اليهودي وتعمل على تحسين العلاقات وإيجاد أرض مشتركة مع منظمات السود ومع منظمات الأقليات الأخرى ممن تخشى الايباك من أنهم آخذون في الميل إلى معاداة إسرائيل نتيجة تحوُّلهم نحو العالم الثالث . ولمواجهة ذلك ، تعمل الايباك على إظهار أن الأقليات مضطهدة في العالم العربي التي تحكمها نظم متخلفة ومستبدة ، وعلى تأكيد أن السود لن يكسبوا الكثير من وراء إعطاء جهدهم ودعمهم لمساندة الفلسطينيين . وتنظر ايباك بقلق تجاه تزايد نشاط اللوبي العربي ، وذلك من خلال مختلف أجهزته ومنظماته في الولايات المتحدة . ورغم أنها تسلِّم بعدم فعالية اللوبي العربي بسبب افتقاره للقدرات التنظيمية والقاعدة الشعبية والأصوات ، إلا أنها عيَّنت عام ١٩٨٢ موظفاً متفرغاً ليقوم بمهمة رصد وتحليل اللوبي العربي بصفة دائمة وتطوير سُبل مجابهته .

واللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشئون العامة تضم في لجنتها التنفيذية رؤساء ثمان وثلاثين منظمة يهودية أمريكية كبرى ولها جهاز دائم للعمل . وقد بلغت ميزانيتها المعلنة عام ١٩٨٠ مبلغ ١,٣ مليون دولار لتمويل هذا الجهاز . ويجري تمويل الايباك عن طريق الرسوم التي يدفعها الأعضاء (٤٤ ألف عضو) والهبات . وهي بوصفها لوبي يتعين عليها أن تقدم تقارير مالية فصلية كل ثلاثة أشهر إلى وزير الخارجية وإلى رئيس مجلس النواب . والمنصب الرئيسي داخل الايباك هو المدير التنفيذي ، أما منصب رئيس اللجنة فيشغله في العادة رجل ثري ذو نفوذ . كما أنه يحظى باحترام الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة وينتمي إلى إحدى مؤسساتها أو منظماتها المهمة .

عصبة الصداقة الإسرائيلية الأمريكية

American-Israel Friendship League

منظمة أمريكية معفاة من الضرائب . تأسَّست عام ١٩٧١ ، وتعمل من أجل تعزيز العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل . وهي تضم مجموعة من الأمريكيين من ذوي المصالح والمعتقدات المتباينة وإن كانوا يشتركون في الإيمان بوجود مصالح وقيم مشتركة بين البلدين .

وتقوم المنظمة بالدعاية للدولة الصهيونية من خلال تنظيم الرحلات إلى إسرائيل ، وإعداد برامج لتبادل الطلبة بين البلدين ، وكذلك لتبادل الكُتَّاب والعلماء والفنانين والرياضيين ورعاية البرامج الثقافية عن إسرائيل في المدارس الأمريكية ولعقد المؤتمرات وإصدار وتوزيع النشرات التي تُبرز أوجه التماثل بين الولايات والمتحدة وإسرائيل ، كما تعمل المنظمة على التقريب بين الجماعات اليهودية والجماعات غير اليهودية في المجتمع الأمريكي (مثل الأمريكيين ذوي الأصول الإسبانية والمؤسسة الدينية المسيحية) وكسب تأييدهم لإسرائيل .

٤
الجباية الصهيونية

جمع التبرعات (أو الجباية) الصهيونية ـ الصندوق القومي اليهودي (كيرين كاييمت) ـ صندوق تأسيس فلسطين (كيرين هايسود) ـ النداء الإسرائيلي الموحَّد ـ النداء اليهودي الموحَّد ـ الشركة الاقتصادية الإسرائيلية ـ الصندوق الإسرائيلي الجديد ـ يهودية دفتر الشيكات ـ يهود النفقة

جمع التبرعات (أو الجباية) الصهيونية

Zionist Fund-Raising

«جمع التبرعات» هو الترجمة العربية الحرفية والمباشرة لعبارة «فند ريزنج fund raising» الإنجليزية . ولأن هذه العملية ليست عملية محايدة أو بسيطة وإنما تتسم بالقسر والإكراه في بعض الأحيان ، وبالغش والخداع (فيما يتعلق بالأهداف) في معظم الأحيان ، فإننا نجد أن لفظ «جباية» قد يكون أقرب للدقة وأكثر تفسيرية . ومن هنا ، فنحن في هذه الموسوعة نستخدم الاصطلاح الأول تارة والثاني تارة أخرى حسب ما يمليه السياق .

وقد اعتمدت الحركة الصهيونية منذ نشأتها على التبرعات التي تجمعها من أعضاء الجماعات اليهودية للعالم . وترى الأدبيات الصهيونية أن عمليات الجباية تقوِّي الروابط العاطفية بين إسرائيل واليهود الأمريكيين ، ومن هنا فإن شعار النداء اليهودي الموحد الأكثر شهرة (نحن واحد) يحث اليهود على تأكيد تضامنهم بواسطة العطاء . فالتبرعات لا يُنظَر لها باعتبارها مجرد إحسان بل بوصفها "نوعاً من المشاركة في دولة إسرائيل ، وخصوصاً من قبَل اليهود العلمانيين والمندمجين التي تمثل حملة النداء اليهودي الصلة الوحيدة بينهم وبين روحانية إسرائيل ومركزيتها" على حد تعبير إيرفينج بيرنشتاين نائب الرئيس التنفيذي للنداء اليهودي الموحَّد .

وهذا الخطاب الصهيوني المراوغ يخبيء داخله الكثير ، ولذا فلنحاول فك شفرته . إن اليهودي العلماني المندمج هو اليهودي الذي يعيش في العالم الغربي ، وخصوصاً في الولايات المتحدة ، وهو يعيش سعيداً في وطنه لا يود الهجرة منه . ولكنه يتمتع بدخل مرتفع ، ولابد من الاستفادة من هذا الوضع . ولذا ، يَطرح الصهاينة شعار "نحن واحد" ، ولكنه يُطرَح بحذر شديد وبكثير من التحفظات التي تجعله شعاراً رناناً دون محتوى . فالمطلوب من عضو الشعب اليهودي الواحد أن يُبقي الصلة «الروحانية» مع إسرائيل دون الهجرة إليها . وبهذه الطريقة ، يستطيع اليهودي المندمج في الغرب أن يظل في وطنه الحقيقي ويشعر بالانتماء إليه وفي الوقت نفسه يُسمِّي نفسه صهيونياً ، وبهذه الطريقة يمكن جَمْع التبرعات منه .

ولكن الكثير ممن يدفعون هذه التبرعات لا يفهمون المضمون السياسي لتبرعاتهم وإنما يدفعون الأموال باعتبار أنها إحسان (صدقة) ، أي عمل خيري ، أو مساهمة في مشروع ثقافي وليس مساهمة في عملية استيطانية إحلالية . ويلعب الخطاب الصهيوني المراوغ دوراً أساسياً في ذلك ، فما يهم الصهاينة هو تبرعات يهود العالم لا انتماؤهم أو إدراكهم السياسي . وقد ذكر ريتشارد كروسمان (الزعيم العمالي البريطاني) أن وايزمان لم يكن لليهود المندمجين سوى الاحتقار ، ولكن كان لديه استعداد دائم لجَمْع أموالهم من أجل مشروعه الصهيوني .

ويدفع الكثيرون التبرعات خشية التشهير بهم من قبَل الحركة الصهيونية ، وبسبب الإحساس بالذنب لأنهم لا يهاجرون إلى الوطن القومي (وهؤلاء هم الذين يُطلَق عليهم اصطلاح «يهود النفقة») .

ومهما كان الأمر ، فإن التبرعات أصبحت القناة الوحيدة التي يعبِّر معظم اليهود عن علاقتهم بإسرائيل من خلالها . ولذلك ، اقترح أحدهم تسمية صهاينة الخارج (التوطينيين) «متبرعو صهيون» .

ومع هذا ، لوحظ مؤخراً أن عمليات الجباية تواجه مشكلة نضوب المصادر المالية فعلى سبيل المثال لوحظ أن حصيلة ما جمعه الصهاينة من تبرعات في الثلاثة شهور الأولى من عام ١٩٩٥ لم يزد عن ١٤٣ ألف دولار (بالقياس إلى ٢,٥ مليون في الفترة نفسها عام ١٩٩٤ و٦,٥ مليون عام ١٩٩٣) . وقد انخفضت التبرعات في الولايات المتحدة بحوالي ٤٠٪ . ولا يختلف الموقف كثيراً في بريطانيا وفرنسا وأمريكا اللاتينية للأسباب التالية :

١ ـ لعل من أهم الأسباب ما يُسمَّى «ظاهرة موت الشعب اليهودي» ، أي تناقص أعداد أعضاء الجماعات اليهودية نتيجة

انخفاض التكاثر الطبيعي بينهم وتَزايُد معدلات الاندماج ، وهو ما يعني تناقص عدد المتبرعين .

٢ ـ يساهم تزايُد الاندماج في انصراف أعضاء الجماعات اليهودية عن دفع التبرعات أو دفعها لمنظمات غير يهودية لأن المشروع الصهيوني يصبح شأناً لا علاقة له بهم .

٣ ـ تركت مشاكل التضخم والكساد الاقتصادي أثراً سلبياً في المتبرعين اليهود .

٤ ـ أدَّى التضخم إلى تزايد الاحتياجات الداخلية للجماعة اليهودية وخصوصاً في مجال الرعاية الصحية والتعليم وبيوت العجزة .

٥ ـ مما زاد الوضع تفاقماً ، سياسات حكومة ريجان التي قطعت العون عن البرامج الصحية والتعليمية للفقراء والأقليات . وقد ترك هذا أثراً سلبياً جداً في عمليات تمويل برامج الرفاه اليهودية في الولايات المتحدة إذ أصبحت في حاجة إلى اعتمادات أكبر تحتِّم استقطاعها من التبرعات التي تُجمَع (وتبلغ نسبة ما تنفقه الجماعات اليهودية على نفسها في الوقت الحاضر ثُلثي التبرعات التي تقوم بجَمْعها) .

٦ ـ لوحظ أن ١٪ من كبار المتبرعين يدفعون ٢٥٪ من كل التبرعات . وأن ١٠٪ من كبار المتبرعين يدفعون ٨٠٪ منها ، أي أن صغار المساهمين من الجماهير اليهودية لم يعودوا يتبرعون للدولة الصهيونية تقريباً . وقد لوحظ أن كبار المتبرعين هم عدة أفراد تم استئناسهم واستيعابهم ، ولكن هذا يعني أيضاً أن المنظمات الصهيونية واليهودية أصبحت معتمدة عليهم تماماً لاستمرار بقائها ، ومن ثم فإنها تواجه أزمات مالية حادة حينما يمتنعون لسبب أو آخر عن دَفْع تبرعاتهم . ومن الملاحَظ أن هؤلاء المتبرعين من كبار السن ومن الأجيال القديمة ، أي أنهم في الغالب ذوو خلفية أوربية ، أو من أبناء المهاجرين ، الأمر الذي يعني وجود رابطة عاطفية «بالوطن القديم» وبالهَوية القديمة . ويترجم هذا نفسه إلى ارتباط بالمنظمات اليهودية والصهيونية باعتبارها منظمات تعبِّر عن هذه الهوية ، وإلى تبرعات لها . هذا على عكس أبنائهم المتأمركين المندمجين الذين لا تربطهم رابطة قوية بالمؤسسات اليهودية ، ومن ثم فإنهم لن يستمروا في التبرع للمنظمات اليهودية والصهيونية . وحيث إن كبار المتبرعين مسنون ، فإن رحيلهم سيؤدي إلى تسارع نضوب المصادر المالية الحالية . ويُلاحَظ أن من أهم مصادر التمويل ، في الوقت الحالي ، التركات التي يوصي بها كبار المتبرعين للمنظمة الصهيونية . ومع أن مثل هذه التركات تحل كثيراً من المشكلات ، إلا أنها في نهاية الأمر «تبرُّع أخير» لن تليه تبرعات أخرى .

٧ ـ يُلاحَظ عدم ظهور متبرعين شباب إما لتباعدهم عن حياة الجماعة ومؤسساتها أو نتيجة تحوُّل نسبة متزايدة من الشباب اليهودي من الأعمال التجارية المربحة إلى المهن ذات الدخل المحدود .

٨ ـ تواجه صناديق الجباية الآن صعوبات في تجنيد متطوعين للقيام بحملات التبرعات .

٩ ـ أدَّت السياسات الإسرائيلية (وخصوصاً في عهد الليكود) إلى نفور كثير من المتبرعين : فهناك حرب لبنان وتورُّط إسرائيل في فضيحة إيران ـ كونترا وفضيحة بولارد ، وأسلوب إسرائيل في معالجة الانتفاضة ، وقد أدَّى كل هذا إلى إحراج أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة ، ومن ثَمَّ إحجامهم عن التبرع .

وقد خلق ذلك مأزقاً حاداً حول كيفية تقسيم الموارد المتوافرة بين احتياجات الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة التي تشهد تزايداً مطرداً وبين احتياجات إسرائيل . والآن ، تتجه النية إلى تقليص المبالغ المخصصة لإسرائيل وخصوصاً أن هناك شعوراً متزايداً بأن أمن إسرائيل أصبح مضموناً بعد معاهدة السلام مع مصر ، كما أن هناك تزايداً في الخلافات حول السياسات الإسرائيلية ، وخصوصاً خلال حكم الليكود ، وقد ظلت الجماعة تحرص على التبرع بسخاء في فترات الأزمات .

ومما يجدر ذكره أن تبرعات يهود العالم في الماضي كانت تغطي نسبة مئوية لا بأس بها من نفقات الدولة الصهيونية ، ولكن هذه التبرعات لا تزيد في الوقت الحالي عن ١,٥٪ من ناتج إسرائيل القومي ، كما لا يتجاوز العائد من بيع سندات إسرائيل النسبة نفسها ، وهو ما يعني تزايد اعتماد المستوطن الصهيوني على الولايات المتحدة .

ومن التطورات الجديدة في عالم التبرعات الصهيونية ظهور صناديق لجمع التبرعات لصالح الحركات الإسرائيلية التي ترفض سياسة الضم والتوسع والقمع (الصهيونية) بدرجات متفاوتة ، ومن أهم هذه الصناديق الصندوق الإسرائيلي الجديد .

الصندوق القومي اليهودي (كيرين كاييمت)

Jewish National Fund (Keren Kayemet)

بالعبرية «كيرين كاييمت» وهو إحدى أقدم مؤسسات المنظمة الصهيونية العالمية وذراعها المالي لشراء الأراضي في فلسطين . ترجع فكرة إنشائه إلى المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) حين اقترح عالم الرياضيات اليهودي الحاخام الليتواني هيرمان شابيرا إنشاء صندوق قومي يهودي قائم على التبرع الطوعي بهدف شراء الأراضي في

فلسطين . ولكن هذا الاقتـراح لم يحظ بأيٍّ دعم حتى المؤتمر الصهيوني الخامس (١٩٠١) حينما تقرَّر (وبتأييد من هرتزل) إنشاء الصندوق القومي اليهودي ليكون "وديعة للشعب اليهودي" لا يُستعمَل إلا لشراء أو تخليص الأراضي في فلسطين لتظل "ملكاً للشعب اليهودي إلى الأبد" لا يجوز بيعها أو رهنها . ويقوم الصندوق باستصلاح الأراضي وتأجيرها لمدة ٤٩ عاماً قابلة للتجديد ولا يجوز تأجيرها لغير اليهود أو استخدام عمالة غير يهودية لزراعة هذه الأراضي وصيانتها . وقد تحدَّد مقر الصندوق في فيينا .

قام الصندوق بشراء أول مساحة من الأراضي له في فلسطين عام ١٩٠٥ ، وبدأ أولى تجاربه في التشجير عام ١٩٠٨ بزراعة ما سُمِّي «غابة هرتزل» . ثم أقام الصندوق أول كيبوتس على أراضيه في داجانيا جنوبي طبرية . وقد استدعى هذا النشاط وضع الإطار القانوني المناسب للصندوق . ولذلك تم تسجيله عام ١٩٠٧ كشركة بريطانية باسم «الصندوق القومي اليهودي المحدود» ، وسرعان ما تحوَّل الصندوق إلى الذراع الوحيدة لجباية الأموال من أجل شراء الأراضي في فلسطين .

ومع صدور وعد بلفور ووقوع فلسطين تحت سلطة الانتداب البريطاني ، اتسع نشاط الصندوق . وفي عام ١٩٢٠ ، وضع المؤتمر الصهيوني الذي انعقد في لندن خطة شاملة لتنظيم وتمويل الهجرة والاستيطان اليهوديين في فلسطين ، حيث تقرَّر إنشاء الصندوق التأسيسي اليهودي كأداة لتمويل عمليات الاستيطان في فلسطين على أن يتفرغ الصندوق القومي اليهودي لشراء الأراضي وأن تُخصَّص له نسبة ٢٠٪ من حصيلة الصندوق التأسيسي لهذا الغرض . وفي ذلك العام أيضاً ، أصدرت إدارة الانتداب البريطانية تنظيماً جديداً سهَّل عملية تحويل ونَقْل ملكية الأراضي وإزالة العقبات التي كانت تعترضها . وإزاء هذه التطورات ، ومع انتقال مقر الصندوق إلى القدس عام ١٩٢٢ ، زادت ملكية الصندوق من الأراضي بشكل كبير حيث قفزت من ١٦,٣٦٦ دونماً عام ١٩٢٠ (أي بعد ١٩ سنة من تأسيسه) إلى ٢٧٨,٦٢٧ دونماً عام ١٩٣٠ ، ووصلت إلى ٩٣٦,٠٠٠ دونم في مايو ١٩٤٨ أو نحو ٣,٥٥٪ من إجمالي مساحة فلسطين و٥٤٪ من إجمالي الأراضي المملوكة للتجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين والتي كانت تضم ٨٥٪ من مستعمراته ومؤسساته الاستيطانية .

وقد أدَّى ذلك إلى تحويل كثير من الملاك العرب إلى معدمين وأجراء ، كما أدَّى إلى ازدياد سوء الأحوال الاقتصادية للعرب الفلسطينيين ، وخصوصاً أن قانون الصندوق كان يشترط عدم استخدام عمالة غير يهودية على أراضيه ، وهذا الشرط العنصري كان ضرورياً لتفريغ فلسطين من سكانها الأصليين وتحقيق أهداف الاستعمار الاستيطاني الإحلالي بها . كما كان تطبيقاً لما دعا إليه هرتزل عام ١٨٩٥ حينما قال : "إننا سنحاول دَفْع السكان إلى الخروج عن طريق إيجاد فرص عمل لهم في الدول المجاورة ، وفي الوقت نفسه إغلاق أبواب العمل أمامهم في بلدنا" .

وقد اهتم الصندوق القومي اليهودي في بداية الأمر بشراء الأراضي لأغراض الاستيطان الزراعي ، ثم أصبحت الاعتبارات الأمنية والسياسية أكثر أهمية مع تزايد الرفض العربي للاستيطان اليهودي ثم صدور تقرير لجنة بيل عام ١٩٣٧ التي أوصت بتقسيم فلسطين وما أعقب ذلك من إصدار **الكتاب الأبيض** لعام ١٩٣٩ والذي فَرَض قيوداً على شراء اليهود للأراضي . ومع ذلك ، نجح الصندوق في زيادة ملكيته من الأراضي بمقدار الضعف تقريباً خلال الفترة بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٦ حيث زادت من ٤٧٣ ألف دونم إلى ٨٣٥ ألف دونم ، أي أن نصف مساحة الأراضي التي كان يمتلكها عند إعلان الدولة حصل عليها خلال هذه الفترة وحدها . وقد تركَّزت أغلب هذه الأراضي في المناطق الحدودية وكذلك داخل المناطق المخصصة للعرب والتي كان محظوراً على اليهود شراء الأراضي بها . وقد ساهم ذلك في تحديد حدود الدولة اليهودية التي نص عليها قرار التقسيم عام ١٩٤٧ .

وإذا كان الصندوق القومي اليهودي قد نجح في خَلْق حقائق جديدة على أرض فلسطين تدعم المشروع الصهيوني إلا أنه لم ينجح في نهاية الأمر في سوى امتلاك ٣,٥٥٪ من أراضيها . ولم يتم "تخليص" ما تبقَّى من الأراضي إلا عن طريق القوة الجبرية والاحتلال العسكري المدعوم من قبل القوى الاستعمارية والإمبريالية .

وبعد إقامة الدولة الصهيونية ، انتقلت ملكية أغلب الأراضي التي تم إفراغها من سكانها ومالكيها العرب إلى الصندوق القومي اليهودي بحيث أصبح يمتلك عام ١٩٥٠ نحو ٢,٣٧٣,٦٧٦ دونماً وصلت إلى ٣,٥ مليون دونم عام ١٩٦٠ ، أي ١٧٪ من إجمالي مساحة الدولة . وفي عام ١٩٥٣ ، وافق الكنيست الإسرائيلي على قانون الصندوق القومي في إسرائيل الذي أجاز تسجيل الصندوق في إسرائيل كشركة مساهمة . وفي عام ١٩٥٤ ، حصلت الشركة الإسرائيلية المساهمة الجديدة على جميع الموجودات والديون الخاصة بالصندوق القومي اليهودي الذي كان قد سُجِّل في إنجلترا عام ١٩٠٧ . ومع ذلك ، لم تتم تصفية الشركة البريطانية حيث كانت

هذه الشركة تمتلك أراضي خارج حدود الدولة أي في الضفة الغربية وغزة . وقد كانت تصفيتها تعني ضياع هذه الأراضي . ولذلك ، فإن هناك منذ عام ١٩٥٤ شركتين تحملان الاسم نفسه تقريباً ، والفارق الوحيد هو أن كلمة «محدودة» ملحقة باسم الشركة البريطانية .

وقد حدَّد القانون الأساسي للشركة الإسرائيلية أهدافها بأنه شراء أو استئجار أو مبادلة أو تأجير الأراضي والغابات وحقوق الملكية والحقوق في أراضي الآخرين وأية حقوق مشابهة ، فضلاً عن الممتلكات غير المنقولة من أيِّ نوع في المنطقة المحددة (وهذه إشارة إلى دولة إسرائيل وأية مناطق تقع تحت سلطة حكومة إسرائيل) أو في أي جزء منها بهدف توطين اليهود في تلك الأراضي والممتلكات . ومن الملاحَظ أن وصف المنطقة المحدَّدة كما جاء في هذه الفقرة يضع في الاعتبار احتمالات التوسع الإسرائيلي في المستقبل ضم أراض عربية جديدة إلى الدولة ، وهو ما حدث بالفعل بعد حرب ١٩٦٧ حيث امتد نشاط الصندوق إلى الأراضي الواقعة تحت الاحتلال الإسرائيلي .

ونظراً لتبعية الصندوق للمنظمة الصهيونية العالمية ، فقد كان من الضروري تنظيم علاقته مع الحكومة الإسرائيلية . وقد تم هذا باتفاقية وُقِّعت عام ١٩٦١ نصت على أن "الصندوق سوف يواصل أعماله بين اليهود في كلٍّ من إسرائيل وبلاد الشتات كوكالة مستقلة تابعة للمنظمة الصهيونية العالمية وذلك بهدف جباية الأموال وتخليص الأرض والقيام بنشاطات إعلامية وتربوية صهيونية وإسرائيلية" .

وقد احتفظ الصندوق بشروطه العنصرية الخاصة بتأجير الأراضي لليهود فقط وحَظْر استخدام عمالة غير يهودية (أي عربية) وإن كان هذا الشرط الأخير يُنتهَك بشكل مستمر حيث تُستخدَم العمالة العربية في كثير من المستوطنات والأراضي المملوكة للصندوق . وقد وصف وزير الزراعة الإسرائيلي عام ١٩٧٤ هذه الانتهاكات بأنها "سرطان" وحذر من استمرارها .

وقد انتقل نشاط الصندوق بالتدريج من مجال شراء الأراضي إلى استصلاحها وبناء الطرقات ومساعدة المستوطنات الجديدة وضمن ذلك حفر الآبار وبناء السدود وشبكات الري والتشجير ، كما يتعاون مع المؤسسة العسكرية الإسرائيلية في بناء قرى الناحال الحدودية وتطوير المناطق ذات الأهمية الأمنية والإستراتيجية . وقد تركَّز نشاط الصندوق بشكل خاص في منطقة الجليل حيث الكثافة السكانية الفلسطينية القصوى بغرض تنفيذ الإستراتيجية الإسرائيلية الرامية إلى تهويد الجليل . وقد ساهم الصندوق في إقامة ١٠٠ مستوطنة في الجليل في الفترة بين عامي ١٩٧٧ و١٩٨١ . وبعد حرب ١٩٦٧ ، قام الصندوق بشراء مساحات كبيرة من الأراضي في الضفة الغربية ، وذلك من خلال شركة هيمنوتاه التابعة له والتي تأسَّست عام ١٩٣٨ في لندن وسُجِّلت في رام الله عام ١٩٧١ . ويشارك الصندوق في المخطط الصهيوني لتهويد القدس والضفة الغربية . وقد اعتمد الصندوق تاريخياً على أساليب شتى لجباية الأموال مثل بيع الأشجار في فلسطين ، والطوابع البريدية ، وتسجيل أسماء كبار المتبرعين فيما كان يُعرَف باسم «الكتاب الذهبي» وكذلك من خلال «الصندوق الأزرق» الذي كان يوضع في بيوت أعضاء الجماعات اليهودية ويستعمل لجمع التبرعات . أما الآن ، فإن المصادر الرئيسية لدخله هي "مقابل إيجار عقارات يملكها وأشغال تعهدتها الوكالة اليهودية والحكومة الإسرائيلية" . ومن بين هذه المصادر ، التبرعات والهبات العامة أو المعطاة لأغراض محددة من قبَل أعضاء الجماعات اليهودية في العالم .

ويُعَد الصندوق مؤسسة مالية ضخمة حيث قُدِّر مجموع موجوداته عام ١٩٨٠ بأكثر من ١٤٨ مليون دولار . وللصندوق شركات تابعة عديدة وله كذلك أسهم في شركات مختلفة ، وقد بلغت ميزانيته عام ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ مبلغ ٤٧٤ مليون دولار .

وللصندوق فرع في الولايات المتحدة مسجل كشركة مساهمة معفاة من الضرائب وهو يعمل كذراع للصندوق في جباية الأموال الإقليمية .

صندوق تأسيس فلسطين (كيرين هايسود)

Palestine Foundation Fund (Keren Hayesod)

اسمه بالعبرية «كيرين هايسود» وهو الإدارة المالية الرئيسية للمنظمة الصهيونية العالمية . أنشيء عام ١٩٢٠ عندما واجهت الحركة الصهيونية مشكلة تمويل مشروعها الاستيطاني في فلسطين بعد صدور وعد بلفور . وقد تضمَّن قرار إنشائه التزام كل يهودي أياً كان موقفه من الصهيونية بدفع ضريبة سنوية بحد أدنى معين للمساهمة في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين على أن يقوم الصندوق بتوظيف التبرعات والمساهمات المالية المختلفة في استثمارها في مشروعات إنتاجية لا تستهدف الربح في المقام الأول . ومن بين أهم مؤسسيه حاييم وايزمان وفلاديمير جابوتنسكي وإسرائيل سيف . وقد سُجِّل الصندوق عام ١٩٢١ كشركة بريطانية ، وظل مقره في لندن حتى عام ١٩٢٦ حين انتقل إلى القدس . وفي عام ١٩٢٥ ، انضم

الصندوق التأسيسي إلى الصندوق القومي ، ومع تأسيس الوكالة اليهودية الموسعة عام ١٩٢٩ أصبح الكيرين هايسود ذراعها المالية الأساسية .

وقد ظل الصندوق المموِّل الأساسي لنشاطات الوكالة اليهودية في فلسطين في ميادين الاستيطان والتعليم والخدمات الصحية والأمن وشراء الأسلحة ، كما مارس دوراً واضحاً في تمويل الهجرة غير الشرعية بعد القيود التي فرضتها بريطانيا عام ١٩٤٠ على حجم الهجرة اليهودية إلى فلسطين . كذلك شارك في تمويل عدد من المشاريع الاقتصادية مثل شركات المياه والكهرباء والملاحة والطيران والبناء والبنوك الإسرائيلية قبل عام ١٩٤٨ .

وبعد قيام إسرائيل ، سخَّر الصندوق موارده لتمويل استيعاب المهاجرين الجدد ، وساهم في الفترة بين عامي ١٩٤٨ و١٩٧٠ في استيعاب ١,٤ مليون مهاجر وكذلك تأسيس ٥٢٥ مستوطنة زراعية و٢٧ مدينة تطوير .

وقد ساهم الصندوق أيضاً ، أثناء حرب عام ١٩٦٧ وبعدها ، في جمع التبرعات اليهودية التي انهمرت على إسرائيل حيث اسفرت الحملة الواسعة عن جمع ١٥٠ مليون دولار . كما قام بحملة مماثلة خلال حرب ١٩٧٣ أسفرت عن جَمْع ٢٧٣ مليون دولار . وقد تراوح إيراده السنوي منذ ذلك الحين بين ١٠٠ و١٥٠ مليون دولار . ووصل حجم ما جَمَعه منذ عام ١٩٢٠ وحتى ١٩٧٨ نحو ٣,١٩٩ مليار دولار . وقد استجاب الصندوق لنداء الحكومة الإسرائيلية عام ١٩٧٧ للمشاركة في مشروع إعادة تأهيل واسعة النطاق لإحياء المهاجرين الفقراء في إسرائيل والتزم بتخصيص مبلغ ٢٠٠ مليون دولار لهذا المشروع تم جَمْعه خلال خمس سنوات .

وتواجه جبايات الصندوق التأسيسي مشاكل داخلية عديدة تؤثر في أنشطتها وأعمالها ونتائجها مثل الانخفاض الكبير في عدد المتطوعين للقيام بحملات الجباية نتيجة تزايد معدلات الاندماج بين الجماعات اليهودية ، وتآكل الفكر الصهيوني ، وانخفاض التعاطف مع إسرائيل نتيجة سياستها تجاه النزاع العربي الإسرائيلي ، وخصوصاً بعد حرب لبنان ومذابح صبرا وشتيلا ثم معالجتها للانتفاضة الفلسطينية ، كما أن توقيع معاهدة السلام مع مصر قد خلق إحساساً بأن أمن إسرائيل مضمون وأن إسرائيل لم تَعُد تحارب من أجل مشاكل أساسية بل من أجل التوسع . وبالإضافة إلى ذلك ، هناك إحساس متزايد لدى الجماعات اليهودية بأن مشاكل إسرائيل الاقتصادية غير قابلة للحل وأن أموال الجبايات لن تفيد . كذلك تواجه الجماعات اليهودية في الدول الأوربية (مثل الولايات المتحدة) تغيرات ديموجرافية مهمة وتزايداً في مشاكلها واحتياجاتها الداخلية ، الأمر الذي يستدعي تكريس جهود أكبر لمواجهتها . ويضاف إلى كل هذا ظهور مصاعب اقتصادية في الدول المختلفة ، الأمر الذي يقلل استعداد الأفراد لتقديم التبرعات ، ذلك إلى جانب التنافس الشديد بين المنظمات المختلفة التي تجمع أموالاً لأغراض مختلفة .

والصندوق التأسيسي اليهودي يُعرَف منذ عام ١٩٤٨ باسم «كيرين هايسود (النداء الإسرائيلي الموحَّد)» . ويعمل الصندوق التأسيسي في أكثر من ٦٩ دولة فيما عدا الولايات المتحدة التي تُعَدُّ مجالاً للنداء اليهودي الموحَّد . وقد اكتسب الصندوق صفة الشركة الإسرائيلية بموجب القانون التأسيسي للصندوق الصادر عن الكنيست عام ١٩٥٦ . ويعمل رئيس الصندوق التأسيسي كعضو في اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية ، في حين يترأس رئيس النداء الإسرائيلي الموحَّد اللجان التابعة لمجلس حكام (أمناء) الوكالة اليهودية .

النداء الإسرائيلي الموحد

United Israel Appeal (Keren Hayesod)

منظمة صهيونية لجمع التبرعات ، أسسها عام ١٩٢٥ باسم «النداء الفلسطيني الموحَّد» جماعة من الصهاينة الذين انسحبوا من لجنة التوزيع المشتركة التي لم تكن تُرسل أية تبرعات إلى المستوطنين الصهاينة في فلسطين . وظلت المنظمة تقوم بجَمْع التبرعات حتى أواخر عام ١٩٢٩ حينما قرَّرت الوكالة اليهودية أن يقوم الصندوق التأسيسي اليهودي بحملته الخاصة لجباية الأموال تحت اسم الحملة الفلسطينية الأمريكية . وفي عام ١٩٣٠ ، انضم الصندوق التأسيسي إلى لجنة التوزيع المشتركة للقيام بحملة مشتركة باسم النداء اليهودي الموحَّد استمرت لمدة عام . ثم تكررت الحملة مرة أخرى عامي ١٩٣٤ و١٩٣٥ ، وبذلك تحوَّل النداء الفلسطيني (منذ عام ١٩٣٥) إلى مجرد شبح ليس له وجود حقيقي . وفي عام ١٩٣٥ ، تقرَّر بعث النداء الفلسطيني الموحَّد إلى الحياة مرة أخرى بعد أن توقَّف نشاط النداء اليهودي الموحَّد نتيجة قلة التبرعات التي كان يجمعها . وقد تكوَّن النداء الفلسطيني الموحَّد هذه المرة من الصندوق القومي اليهودي والصندوق التأسيسي اليهودي (وحدهما) على أن يقتسم الصندوقان حصيلة التبرعات .

وبسبب الحاجة إلى مبالغ أكبر ، انضم النداء الفلسطيني الموحَّد (عام ١٩٣٩) ولجنة التوزيع المشتركة لتأسيس النداء اليهودي الموحَّد ليكون المنظمة الرئيسية لجباية الأموال لكل منهما . وعندئذ توقَّف

النداء الفلسطيني تماماً عن جباية الأموال وأصبح المستفيد الأكبر من أموال النداء اليهودي الموحَّد . وفي عام ١٩٥٠ ، غيَّر النداء الفلسطيني اسمه إلى النداء الإسرائيلي الموحَّد . أما في عام ١٩٥٣ ، فقد استقل الصندوق القومي اليهودي عن النداء الإسرائيلي الموحَّد ، وأصبح النداء الإسرائيلي الموحَّد هو الصندوق التأسيسي اليهودي . ويشكل النداء/ الصندوق ، مع لجنة التوزيع المشتركة ، منظمة النداء اليهودي الموحَّد حيث يحصل على ٨٠٪ من الأموال التي يجمعها النداء اليهودي الموحَّد سنوياً .

وبينما أصبح الصندوق التأسيسي اليهودي المنظمة الرئيسية لجباية الأموال بين الجماعات اليهودية في العالم ، أصبح النداء اليهودي الموحَّد يتولى ذلك الدور في الولايات المتحدة .

ويقوم النداء الإسرائيلي الموحَّد بتقديم مخصصاته من التبرعات (التي يتلقاها من النداء اليهودي الموحَّد) إلى الوكالة اليهودية التي تحولها بدورها إلى إسرائيل بعد أن يحتفظ بنحو ٤٪ للنفقات الإدارية . وقد تلقَّى النداء الإسرائيلي عام ١٩٨٥ من النداء اليهودي الموحَّد ٣٢٤ مليون دولار .

وبالإضافة إلى ما يتلقاه النداء الإسرائيلي الموحَّد سنوياً من النداء اليهودي الموحَّد ، يتلقَّى أيضاً دعماً من الحكومة الأمريكية منذ عام ١٩٧١ حيث تلقَّى منها في الفترة بين عامي ١٩٧٢ و١٩٧٦ ما يقرب من ١٢١ مليون دولار من أجل إعادة استيطان اليهود السوفييت في إسرائيل . وقد بلغ إجمالي ما وصله من الحكومة الأمريكية حتى عام ١٩٨٥ نحو ٣٠٨ ملايين دولار .

والنداء الإسرائيلي الموحَّد مُسجَّل في الولايات المتحدة كمنظمة معفاة من الضرائب . ومنذ إعادة تنظيم الوكالة اليهودية عام ١٩٧١ ، أصبح النداء الإسرائيلي ممثَّلاً في أجهزتها القيادية بنسبة ٣٠٪ ويقوم بالمشاركة في وضع وتحليل ميزانية وبرامج الوكالة ومراقبة عملية إنفاق وتخصيص الموارد المالية .

وحتى عام ١٩٨٦ ، كانت البنية الأساسية للنداء الإسرائيلي الموحَّد تضع المنظمة تحت سيطرة المؤسسة الصهيونية الأمريكية . ولكن ، مع تزايد الانتقادات الموجهة للوكالة اليهودية بشأن أدائها وكفاءتها ، وكذلك الصعوبات المتزايدة في جباية الأموال نتيجة التحولات الديموجرافية في الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة وتزايد احتياجاتها المحلية ، أصبحت هناك ضغوط لكي يكون لأعضاء الجماعة والاتحادات اليهودية (وهي أكبر مصدر للأموال للنداء اليهودي الموحَّد ومن ثم النداء الإسرائيلي) دور أكبر في الرقابة على الوكالة اليهودية . ومن ثم ، تقرَّر عام ١٩٨٦ توسيع مجلس مديري النداء الإسرائيلي الموحَّد وتخصيص المقاعد الإضافية لممثلي الاتحادات اليهودية ولقيادات الجماعة اليهودية غير الصهاينة بحيث أصبح لهم الأغلبية داخل المجلس . وسيزيد هذا بلا شك قبضة رقابة النداء الإسرائيلي على الوكالة اليهودية .

ويجب التمييز بين النداء الإسرائيلي/ كيرين هايسود (الصندوق التأسيسي) والنداء الإسرائيلي الموحَّد ش . م . وهو الاسم الجديد للوكالة اليهودية في إسرائيل .

النـــداء اليهـــودي المـــوحد

United Jewish Appeal (Keren Hayesod)

ويُطلَق على هذه المنظمة أيضاً اسم «الجباية اليهودية الموحَّدة» . والنداء اليهودي الموحَّد منظمة يهودية أمريكية تأسست عام ١٩٣٩ لتكون الأداة الرئيسية لجباية الأموال لكل من النداء الفلسطيني الموحَّد (الذي أصبح عام ١٩٤٨ النداء الإسرائيلي الموحَّد) واللجنة اليهودية الأمريكية المشتركة للتوزيع ، وذلك لصالح الكيان الصهيوني والنشاط الاستيطاني اليهودي ، ولمساعدة الجماعات اليهودية في العالم ـ لكن جُل نشاطها ينصب على القسم الأول فحسب .

وتعود بدايات هذه المنظمة إلى عام ١٩٣٠ ، عندما قام كلٌّ من لجنة التوزيع المشتركة والصندوق التأسيسي اليهودي بتوحيد جهودهما لجباية الأموال والقيام بحملة موحَّدة تحت اسم النداء اليهودي المتحالف ، ولم يستمر هذا الجهد المشترك سوى عام واحد بسبب قلة ما تم جمعه . وتكررت المحاولة عامي ١٩٣٤ و١٩٣٥ تحت اسم النداء اليهودي الموحَّد ولكنها توقفت أيضاً بسبب قلة التبرعات وفشل محاولة تجميع كل التنظيمات اليهودية في تنظيم واحد . وفي عام ١٩٣٨ ، وصل عدد الهيئات اليهودية التي تجمع التبرعات في الولايات المتحدة ٩٩٢ هيئة تعمل لحساب النداء الفلسطيني الموحَّد ولجنة التوزيع المشتركة إلى جانب ١٥٦ صندوق إنعاش يهودي تخصِّص مواردها لتنظيمات أخرى . وبحلول عام ١٩٣٩ ، واستجابة لتصاعد الأزمة في أوربا ، انضمت لجنة التوزيع المشتركة والنداء الفلسطيني الموحد وهيئة خدمة اللاجئين القوميين (التي كانت تُسمَّى آنذاك صندوق لجنة التنسيق القومية) لتأسيس النداء اليهودي الموحَّد . وهكذا تشكلت أكبر هيئة لجباية التبرعات في الولايات المتحدة . وفي عام ١٩٤٨ ، جمع النداء اليهودي الموحَّد ما يقرب من ٢٠٠ مليون دولار . وبعد تأسيس إسرائيل ، أصبح النداء اليهودي الموحَّد يضم كلاً من النداء الإسرائيلي الموحَّد/ الصندوق التأسيسي (الكيرين هايسود) ولجنة التوزيع المشتركة . ويتلقى النداء

اليهودي الموحد ما بين ٥٠٪ و٦٠٪ من مجموع التبرعات المحصلة عبر الحملة المركزية الموحدة مع الاتحادات اليهودية وصناديق الإنعاش التي تُخصِّص النسبة المتبقية للاحتياجات والخدمات المحلية للجماعة اليهودية . وتُقسَّم حصيلة التبرعات على النحو التالي :

يخصِّص النداء اليهودي ٨٠٪ من حصيلة التبرعات للنداء الإسرائيلي الموحَّد/ الصندوق التأسيسي ، ويخصص من المبلغ المتبقي ١٠٪ أو ١٢٪ للجنة التوزيع المشتركة و٣٪ لرابطة نيويورك للأمريكيين الجدد وخدمة هياس المتحدة .

ويقوم النداء الإسرائيلي الموحَّد بتسليم حصته للوكالة اليهودية التي تخصِّصه لإسرائيل كما تنفق لجنة التوزيع المشتركة ٣٢٪ من حصتها في إسرائيل والجزء الآخر يخصص للجماعات اليهودية في العالم .

وقد تأسَّست عام ١٩٦٧ جمعية تابعة باسم صندوق الطوارئ الإسرائيلي تذهب كل حصيلته إلى إسرائيل . وقد بلغ مجموع التبرعات التي جمعها النداء اليهودي الموحَّد حتى عام ١٩٨٠ نحو ١,٥ مليار دولار أرسل معظمها إلى إسرائيل إما مباشرة أو عن طريق غير مباشر . وتحصل الأحزاب على حصص بشرط ألا يكون لها جبايتها الخاصة . وقد بلغ نشاط النداء اليهودي ذروته في جباية المال في أعقاب حرب ١٩٧٣ حيث تم جَمْع ٦٦٠ مليون دولار . وبحلول عام ١٩٧٩ ، انخفضت جبايات الحملة المركزية بمقدار ٢٧٪ ، وهي تبلغ الآن حوالي نصف مليار دولار سنوياً . فصغار المساهمين من الجماهير اليهودية لا يتبرعون للدولة الصهيونية تقريباً . وقد لوحظ أن كبار المتبرعين هم عدة أفراد تم استئناسهم واستيعابهم في المنظومة الصهيونية لأسباب غير عقائدية ، فمعظم كبار المتبرعين من كبار السن أي أن خلفيتهم أوربية وعندهم حينئذ "البلد القديم" والهوية القديمة . كما أن كثيراً منهم يظن أن تبرعاته من قبيل الإحسان (الصدقة) . ولكن ما يهمنا هنا أن كون المتبرعين مسنين يعني أن رحيلهم سيؤدي إلى تسارع نضوب المصادر المالية الحالية . ويُلاحَظ أن من أهم مصادر التمويل في الوقت الحالي التركات التي يوصي بها كبار المتبرعين للمنظمة الصهيونية . ورغم أن هذه التركات تحل كثيراً من المشاكل إلا أنها في نهاية الأمر "تبرع أخير" لن تليه تبرعات أخرى .

والنداء اليهودي الموحَّد هيئة خيرية معفاة من الضرائب وفقاً للقانون الأمريكي ، وذلك رغم أنها تُعتبَر بالفعل ذراع الحكومة الإسرائيلية لجباية الأموال . وهذا دليل على العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل ، قاعدتها في الشرق الأوسط . ومع ذلك ، فإن أموال النداء تستخدم كأداة للضغط على إسرائيل إن أرادت أن تتخذ موقفاً مستقلاً عن الخط الإمبريالي .

ويدير النداء اليهودي الموحَّد مجلس أمناء من ٤٣ عضواً يختار أغلبهم لجنةُ التوزيع المشتركة والنداء الإسرائيلي الموحَّد ومجلس الاتحادات اليهودية . ولتعزيز قدرته على جباية الأموال من قطاعات متخصِّصة من أعضاء الجماعة ، أنشأ النداء اليهودي الموحَّد عدة عناصر تنظيمية أساسية هي قسم النساء الذي أُسِّس سنة ١٩٤٦ (ويُقال إن ٢٠٠ ألف امرأة تشارك في نشاطه لجباية التبرعات) ، ومجلس قيادة الشباب الذي أُسِّس عام ١٩٧٧ ويعمل على تنمية الانتماء الديني الثقافي اليهودي لدى الشباب من خلال المؤتمرات والحوارات والبعثات إلى إسرائيل ، ومجلس الحاخاميين الذي تأسس عام ١٩٧٢ لتعزيز دعم القيادة الحاخامية لحملات النداء اليهودي (المحلية والقومية) الحاخامية من خلال التربية والالتزام الشخصي ولاستغلال الموارد الحاخامية لمصلحة النداء اليهودي وإسرائيل ، ثم مجلس الهيئة التعليمية الذي أُسِّس عام ١٩٧٥ ودائرة البرامج الجامعية التي أُسِّست سنة ١٩٧٠ وكلاهما يهدف إلى بلورة التزام يهودي داخل الجامعة الأمريكية .

الشركة الاقتصادية الإسرائيلية
Israel Economic Corporation

شركة أمريكية تأسَّست عام ١٩٢٦ باسم الشركة الاقتصادية الفلسطينية على يد مجموعة من أثرياء اليهود الأمريكيين ، على رأسهم لويس برانديز وهربرت ليمان ولويس مارشال وفليكس واربورج ، بغرض تنمية البنية الاقتصادية للتجمع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين وتشجيع أثرياء اليهود الأمريكيين وغيرهم على استثمار أموالهم في مشاريع تجارية وصناعية وزراعية في فلسطين . وكان لويس برانديز قد انسحب من المنظمة الصهيونية الأمريكية عام ١٩٢١ احتجاجاً على فكرة تكوين الصندوق التأسيسي اليهودي لتمويل المشاريع الاقتصادية في فلسطين بدلاً من تشجيع الاستثمار الخاص بها (ولهذا ، فقد كان برانديز من أوائل المؤيدين لتأسيس هذه الشركة التي تهدف إلى جني الأرباح) . وقد ضمت الشركة الأصول التي كانت مملوكة للشركة التعاونية الفلسطينية واللجنة اليهودية الأمريكية للتوزيع المشترك في فلسطين .

وقد ساهمت الشركة في تأسيس أكثر من ٩٠ مشروعاً في فلسطين ، ثم في إسرائيل فيما بعد ، من بينها صناعات الكيماويات والورق والبلاستيك ومنتجات الموالح . كذلك ساهمت الشركة في

تمويل خط أنابيب إيلات ـ حيفا وتمويل عمليات التصدير والاستيراد .

وقد وصل دَخْل هذه الشركة عام ١٩٨٢ إلى ١٤,٤ مليون دولار ، وتشمل موجوداتها مشاريع مالية ومصرفية وصناعية وسياحية وتكنولوجية متقدمة ، بالإضافة إلى مشاريع هندسية وإنمائية ومشاريع شحن وتسويق .

منظمة سندات دولة إسرائيل

State of Israel Bonds Organization

منظمة يهودية تهدف إلى "توفير الأموال على نطاق واسع من أجل تنمية دولة إسرائيل اقتصادياً ببيع سندات دولة إسرائيل في الولايات المتحدة وكندا وأوربا الغربية وغيرها من دول العالم" . وقد كان الغرض المباشر من تأسيسها عام ١٩٥١ تدبير الموارد المالية للحكومة الإسرائيلية لمواجهة تدفُّق مئات الآلاف من المهاجرين الجدد على الكيان الصهيوني . وقد عقد بن جوريون اجتماعاً عام ١٩٥٠ مع تسعة وخمسين زعيماً يهودياً أمريكياً لبحث وضع إسرائيل الاقتصادي وضرورة إيجاد قناة أخرى للتمويل غير التبرعات "التي لم تَعُد كافية لمواجهة حاجات إسرائيل الاقتصادية بعيدة المدى" . وقد تقرَّر أن تقوم إسرائيل بإطلاق حملة لقرض شعبي في الولايات المتحدة كوسيلة للحصول على المبالغ اللازمة . ولإنجاز ذلك ، تم تأسيس الشركة المساهمة الأمريكية المالية والإنمائية لإسرائيل التي أصبحت تُعرَف باسم «منظمة سندات دولة إسرائيل» . ومن بين الشخصيات اليهودية الأمريكية التي كانت بمنزلة القوة المحركة وراء تأسيس هذه المنظمة ، هنري مورجنتاو (الابن) وزير الخزانة الأمريكية الأسبق ورئيس النداء اليهودي الموحَّد آنذاك والذي نجح في الحصول على موافقة الحكومة الأمريكية على فكرة إنشاء المنظمة .

ومنظمة سندات إسرائيل هي شركة استثمار تدار كمصلحة تجارية ، ولذلك فهي غير معفاة من الضرائب . وهي تبيع سندات إسرائيل بفائدة تتراوح بين ٤٪ و٧٪ ويُستحق تسديدها خلال خمسة عشر عاماً . ويتم تحويل حصيلة بيع هذه السندات إلى وزارة المالية الإسرائيلية حيث تصبح جزءاً من ميزانية إسرائيل للتنمية . وتعمل المنظمة عن كثب مع الحكومة الإسرائيلية التي تقوم بإبلاغ المنظمة بحجم احتياجاتها ، وخصوصاً في حالات الطوارئ ، كما تتعهد المنظمة بجباية المبلغ .

وقد تم حتى الآن بيع سندات بما قيمته ستة بلايين دولار وتسديد ما قيمته ثلاثة بلايين دولار . وقد ذهبت هذه المبالغ نحو تنمية القطاعين الزراعي والصناعي في إسرائيل واستغلال الموارد الطبيعية وتطوير ميناءي إيلات وحيفا وبناء ميناء أشدود وخط أنابيب البترول وإقامة محطات الكهرباء والمرافق السياحية ومجمع للبترو كيماويات وغير ذلك من المشاريع الإنمائية .

وقد بيعت سندات إسرائيل في أكثر من ٣٥ دولة ، ولكن ٨٥٪ منها (منذ تأسيس المنظمة) بيعت في الولايات المتحدة وحدها . والمنظمة تستهدف السوق الأمريكية كلها ولا تقتصر فقط على أعضاء الجماعة اليهودية ، وهي تعرض السندات على المستثمرين اليهود بوصفها أقوى وأقصر وسيلة للارتباط بإسرائيل وسكانها ومستقبلها . أما لغير اليهود ، فهي تؤكد أنها "توسِّع مشتريات إسرائيل من المنتجات الأمريكية" ، وبالتالي فإنها تؤمِّن الأعمال وفرص المبادلة التجارية للأمريكيين ، وذلك بالإضافة إلى أنها تدعم اقتصاد إسرائيل .

وتعتمد المنظمة في بيع سنداتها على نفس أساليب منظمات جباية الأموال ، أي الحفلات الاجتماعية والبعثات إلى إسرائيل والاجتماعات والندوات . كما أنشأت المنظمة نادي رئيس الوزراء الذي يضم كبار مشتري السندات حيث يتم تكريمهم بتقليدهم الأوسمة . كذلك حرصت المنظمة على التوجه إلى عالم الشركات ، فأنشأت في أوائل السبعينيات برنامج سندات إسرائيل للشركات واشترت عدة شركات أمريكية عام ١٩٨٢ بما قيمته ١٦٠ مليون دولار من سندات المنظمة . والمقر الرئيسي للمنظمة في مدينة نيويورك ، ولها مكاتب في مدن أخرى .

الصندوق الإسرائيلي الجديد

New Israel Fund

تم تأسيس هذا الصندوق عام ١٩٧٩ . وهو معفي من الضرائب . ويُشكِّل هذا الصندوق محاولة من جانب العناصر الساخطة والمعتدلة داخل الحركة الصهيونية لإنشاء شبكة تبرعات خاصة بها تقوم بتمويل الجماعات ذات الاتجاهات السياسية المماثلة داخل إسرائيل ، ولا يموِّل الصندوق أية نشاطات صهيونية خارج الخط الأخضر ، ويرسل اعتمادات إلى منظمات مثل هيئة الحقوق المدنية في إسرائيل . ويؤيد الصندوق جماعة السلام الآن . ويمكن النظر إليه على أنه الجباية اليهودية الموحَّدة الخاصة بالجمعيات التي تحاول التملص من الصهيونية مثل الأجندة اليهودية الجديدة .

يهودية دفتر الشيكات

Checkbook Judaism

«يهودية دفتر الشيكات» مصطلح شائع في الأوساط اليهودية الدينية وغير الدينية في الولايات المتحدة ، وهو يشير إلى أن كثيراً من يهود الولايات المتحدة قد فَقَدوا انتماءهم الديني الحق ، ولم يعودوا يؤمنون بالعقيدة الدينية وإنما يتمسكون ببعض الرموز الإثنية تعبيراً عن هويتهم الدينية ، ويتصورون أن إسرائيل هي كنيسهم وأن رئيس وزرائها هو حاخامهم الأكبر . وبالتالي ، يأخذ الإيمان بالنسبة لهم شكل الانتماء إلى المنظمات الصهيونية ، ويصبح الطقس الأكبر في هذه العبادة هو دفع المعونات والتبرعات للدولة الصهيونية ، أي أن هذا النوع من الانتماء اليهودي يعبِّر عن نفسه من خلال دفتر الشيكات ، وهو أمر لا يختلف كثيراً عن التحول عن عبادة الإله الواحد إلى عبادة العجل الذهبي (وهذا هو رأي كثير من الحاخامات الذين يرفضون هذا الاتجاه) .

يهـود النفقــة

Alimony Jews

«يهود النفقة» مصطلح وضعه أحد الحاخامات ليصف به يهود الولايات المتحدة الذين ابتعدوا عن يهوديتهم تماماً واندمجوا في مجتمعهم ، ولكنهم مع هذا يحاولون الإصرار على هويتهم اليهودية ، أو على بقايا منها ، ويخافون أن يُشهَّر بهم أو أن يُشار إليهم على أنهم مندمجون منعدمو الهوية ، كما يرون أن الطريقة المُثلى العملية لتحقيق هذه الأهداف هي دَفْع تبرعات للدولة الصهيونية التي تطاردهم للحصول على أموالهم . ولكنهم ، في واقع الأمر ، مضطرون إلى دفع التبرعات حتى لا يُشهَّر بهم ، فالدافع إلى الدفع ليس الحب وإنما خشية الفضيحة . وبالتالي ، فإن يهود الولايات المتحدة مثلهم مثل من طلّق زوجته (أي يهوديته) ويود أن يكسب سكوتها بدفع النفقة المفروضة عليه حتى يمكنه أن يستمر في حياته الجديدة .

وقد استخدم آرثر هرتزبرج صورة عكسية تماماً ، إذ قارن علاقة يهود الولايات المتحدة بإسرائيل بعلاقة الرجل بعشيقته ، يغدق عليها الأموال ويشتري لها أحلى الثياب ويضاجعها ، ولكنه لا يسكن معها ويعود إلى زوجته أم أولاده ، أي الولايات المتحدة . وسواء أكان ما يدفعه اليهودي هو النفقة للزوجة المطلقة أو النقود للعشيقة ، فإن العلاقة ليست كاملة بأية حال ويدخل فيها عنصر نفعي ، الأمر الذي يستبعد الولاء الكلي . وقد لاحَظ بن جوريون نفسه أن صهيونية يهود الولايات المتحدة ليست إلا غطاء لمعدلات الاندماج المرتفعة بينهم .



الجزء الرابع

الصهيونية والجماعات اليهودية

١
موقف الصهيونية وإسرائيل من الجماعات اليهودية في العالم

العداء الصهيوني لليهود ـ مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا ـ أسبقية (أو أولوية) إسرائيل في حياة الدياسبورا ـ نفي الدياسبورا ـ تصفية الدياسبورا واستغلالها ـ غزو الدياسبورا

العداء الصهيوني لليهود
Zionist Anti-Semitism

الصهيونية ، شأنها شأن العداء لليهودية ، هي إحدى تجليات الرؤية المعرفية العلمانية الشاملة ، وقد تبلورت الأفكار الصهيونية والمعادية لليهود في أوربا في القرن التاسع عشر ، وهي الحقبة التاريخية التي تبلورت فيها النظرية العرْقية الغربية الخاصة بالتفاوت بين الناس بسبب الاختلاف بينهم في خصائصهم التشريحية والعرْقية والإثنية ومن ثم نجد أن الرؤية الكامنة في كل من الصهيونية ومعاداة اليهود واحدة . وأن كثيراً من مقولات الصهيونية هي مقولات عرْقية معادية لليهود .

ويرى الصهاينة أن معاداة اليهود ظاهرة طبيعية ورد فعل طبيعي وحتمي لوجود اليهود كجسم غريب في المجتمعات المضيفة . وقد نشأت صداقة عميقة بين حاييم وايزمان وريتشارد كروسمان (الزعيم العمالي البريطاني) حين اعترف هذا الأخير بأنه "معاد لليهود بالطبع" . وقد كان تعليق وايزمان على ذلك : لو قال كروسمان غير ذلك فإنه يكون إما كاذباً على نفسه أو كاذباً على الآخرين . وقد وصف المفكر الصهيوني جيكوب كلاتزكين العداء لليهود بأنه دفاع مشروع عن الذات . وقد ميَّز هرتزل بين العداء الحديث لليهود وبين التعصب الديني القديم ، ووصف هذا العداء الحديث بأنه "حركة بين الشعوب المتحضرة" تحاول من خلالها التخلص من شبح يطاردها من ماضيها . بل يرى الصهاينة أن هذه المعاداة هي أحد ثوابت النفس البشرية ، فهي تشبه المطلق الأفلاطوني أو المرض المستعصي . وقد عبَّر شامير عن معاداة البولنديين لليهود ، فأشار إلى أنهم يرضعونها مع لبن أمهاتهم . ويعادل شامير بذلك بين الفعل الأخلاقي والفعل الغريزي البيولوجي ، وهو ما يبين أنه يدور في إطار الحلولية بدون إله ، وهذا ما يفعله أيضاً نوردو ووايزمان وهتلر . فقد وصف وايزمان معاداة اليهود بأنها مثل البكتيريا التي قد تكون ساكنة أحياناً ، ولكنها حينما تسنح لها الفرصة فإنها تعود إليها الحياة ، وهكذا لا يميِّز الصهاينة بين الأشكال المختلفة لمعادة اليهود وإنما يرونها كلاً عضوياً واحداً يتكرر في كل زمان ومكان ، كما يرون عدم جدوى الحرب ضد هذه الظاهرة باعتبارها أحد الثوابت وإحدى الحتميات .

والموقف الصهيوني من اليهود ، كما أسلفنا ، لا يختلف في أساسياته عن موقف المعادين لليهود :

١ ـ فكلا الموقفين يَصدُر عن الإيمان بأن اليهود شعب عضوي له عبقريته الخاصة وأن ثمة جوهراً يهودياً هو الذي يميز اليهودي عن غيره من البشر ، وأن هذا الجوهر لا يتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان ، فاليهود دائماً يهود . ومن هنا ، فإن تَصرُّف اليهودي كالأغيار هو تَصرُّف مصطنع لا يعبِّر عن اندماجه في مجتمعه وتمثُّله قيمه وإنما يعبِّر عن ازدواجية في الذات . ومهما يكن ما يبديه اليهودي من ولاء لوطنه ، فهو ولاء مشكوك فيه . ومن هنا يحارب الصهاينة وأعداء اليهود ضد اندماج أعضاء الجماعات اليهودية في مجتمعاتهم . وقد نادى الصهاينة بضرورة رفض "سم الاندماج" أو "الهولوكوست الصامت" . وكذلك ، فإن المعادين لليهود يرون أن اليهودي المندمج يقلد الأغيار كالببغاء ، فهو شخصية خطرة غير أصيلة تهدد نسيج المجتمع ، وهو خطر حتى دون أن يدري . ولهذا كان النازيون يتعاملون مع الصهاينة فقط لإصرارهم على هويتهم اليهودية .

٢ ـ يرى الفريقان أن اليهود شعب عضوي لا يمكن أن يهدأ له بال إلا بأن يستقر في الأرض التي يرتبط بها برباط أزلي عضوي . ومن هنا ، يرفض المعادون لليهود ، وكذلك الصهاينة ، الكفاح من أجل إعطاء اليهود حقوقهم السياسية والمدنية الكاملة في أوطانهم ، وبالتالي فلابد من "هجرة" اليهود إلى فلسطين أو "طردهم" إليها . ومهما كان المصطلح أو المسوغ ، فإن الحركة المثلى المقترحة واحدة ، وهي نقل اليهود من أوطانهم الفعلية إلى وطنهم القومي العضوي الوهمي . والواقع أن فكرة «الشعب العضوي» تحوي أيضاً فكرة «الشعب العضوي المنبوذ» ، وهي أساس تحالف الصهاينة والمعادين لليهود فكلاهما يهدف إلى إخلاء أوربا منهم .

٣ ـ إذا كان اليهود يشكلون في رأي الصهاينة ، كلاً عضوياً يعبَّر عنه في الإنجليزية بكلمة «جوري Jewry» ، فإنهم مترابطون ترابطاً عضوياً لا فرق فيه بين الكل والجزء . ولذا ، يتحدث الصهاينة عن «العبقرية اليهودية» باعتبارها تعبير الجزء عن الكل . وهم أيضاً يرون أن الهجوم على أية جماعة يهودية هو هجوم على الشعب اليهودي بأسره ، بغض النظر عن الظروف التاريخية . ويتبنى أعداء اليهود النظرة نفسها ، فهم يرون تماثل الجزء والكل ، وحينما يرتكب مجموعة من اليهود جرماً معيناً أو ينتشر بينهم الفساد ، فإن هذا يَصلُح أساساً للتعميم على كل اليهود . وفي الواقع ، فإن الحديث عن جرائم اليهود يشبه تماماً الحديث عن عبقريتهم .

٤ ـ تبنَّى الصهاينة كثيراً من مقولات المعادين لليهود في الغرب ، وكثيراً من صورهم الإدراكية النمطية ، وتزخر الكتابات الصهيونية بالحديث عن الشخصية اليهودية المريضة غير الطبيعية والهامشية وغير المنتجة التي لا تجيد إلا العمل في التجارة . بل إن ماكس نوردو ، ومن بعده هتلر ، طبَّق الصورة المجازية العضوية لا على معاداة اليهود بل على اليهود أنفسهم ، فقد شبههم بالكائنات العضوية الدقيقة التي تظل غير مؤذية على الإطلاق طالما أنها في الهواء الطلق ، لكنها تُسبِّب أفظع الأمراض إذا حُرمت من الأكسجين ، ثم يستطرد هذا العالم العنصري ليحذر الحكومات والشعوب من أن اليهود يمكن أن يصبحوا مصدراً لمثل هذا الخطر . وقد ذكر يهودا جوردون أن تفوُّق اليهودي المستنير يكمن في أنه يعترف بالحقيقة ، أي يَقْبل اتهامات المعادين لليهود . وقد قال برنر : " إن مهمتنا الآن هي أن نعترف بوضاعتنا منذ بدء التاريخ حتى يومنا هذا " فاليهود شعب نصف ميت يعيش بقيم السوق ، لا يمانع في حياة كحياة النمل أو الكلاب ، مصاب بطاعون التجول " ـ ويمكن أن نجد عبارات مماثلة أو أكثر قسوة في الأدبيات الصهيونية . ومن هنا ، يؤمن الصهاينة بضرورة تطبيع الشخصية اليهودية حتى تتفق مع نمط الشخصية غير اليهودية الطبيعية السوية .

٥ ـ لا يقل عداء الصهاينة لليهودية عن عدائهم لليهود ، فقد رفضوا العقيدة اليهودية وحاولوا علمنتها من الداخل (انظر : «الرفض الصهيوني لليهودية») .

ومع هذا ، يرى بعض الصهاينة أن معاداة اليهود بين الأغيار هي وحدها التي أدَّت إلى بقاء الشعب اليهودي ، أي أن عضوية الشعب أو مصدر تماسكه العضوي ليس شيئاً جوانياً (الهوية اليهودية ـ التراث اليهودي) وإنما شيء براني : عداء اليهود . ولكل هذا ، فإن الصهاينة يعتبرون أعداء اليهود حلفاء طبيعيين لهم وقوة إيجابية في نضالهم «القومي» لتهجير اليهود من أوطانهم . ولذا ، كان تيودور هرتزل على استعداد للتعاون مع فون بليفيه وزير الداخلية الروسي ، كما تحالف فلاديمير جابوتنسكي مع الزعيم الأوكراني بتليورا الذي ذبحت قواته آلاف اليهود بين عامي ١٩١٨ و١٩٢١ ، وتعاون الصهاينة مع النازيين داخل ألمانيا وخارجها . ويتحالف الصهاينة في الوقت الحالي مع الجماعات الأصولية المسيحية في الولايات المتحدة والمعروفة بعدائها العميق لليهود . بل إن المؤسسة الصهيونية تستخدم أحياناً وسائل المعادين لليهود لحَمْل اليهود على الهجرة ، كما حدث في العراق عام ١٩٥١ حين ألقى العملاء الصهاينة بالقنابل على المعبد اليهودي في بغداد . وعلى كلٍّ ، فقد صرح كلاتزكين بقوله : " إنه بدلاً من إقامة جمعيات لمناهضة المعادين لليهود الذين يريدون الانتقاص من حقوقنا ، يجدر بنا أن نقيم جمعيات لمناهضة أصدقائنا الراغبين في الدفاع عن حقوقنا " .

وقد استمرت ظاهرة معاداة الصهيونية لليهود بعد تأسيس الدولة الصهيونية ، بل يُلاحَظ أنها ازدادت حدةً وتبلوراً بين أعضاء جيل الصابرا (أي أبناء المستوطنين الصهاينة المولودين في فلسطين) . فهؤلاء ينظرون إلى «يهود المنفى» (أي يهود العالم) من خلال مقولات معاداة اليهودية وصورها النمطية . ويزخر الأدب الإسرائيلي بأعمال أدبية تَصدُر عن رفض ثقافي وأخلاقي بل وعرْقي عميق ليهود الخارج .

ومع هذا ، يمكن القول بأن الصهاينة ، بجميع اتجاهاتهم ، قد أساءوا تقدير مقدار قوة معاداة اليهود ومدى استمرارها . إذ تصوَّروا أن عداء اليهود سيستمر في التفاقم حتى يضطر كل يهود العالم أو معظمهم للهجرة إلى فلسطين . وغني عن القول أن هذه النبوءة لم تتحقق ، ولا يوجد احتمال لتحققها في المستقبل القريب . فالأغلبية العظمى من يهود العالم هاجرت إلى الولايات المتحدة ولا تزال متجهة إلى هناك . ولم يتجه اليهود إلى فلسطين إلا في الفترة بين عامي ١٩٣٠ و١٩٤٠ حينما كانت كل الأبواب الأخرى موصدة دونهم . أما في الفترة من عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٦٠ ، فقد هاجر يهود البلاد العربية في ظل ظروف خاصة لا علاقة لها بعداء اليهود ولكنها ناجمة بالدرجة الأولى عن التوتر مع الدولة الصهيونية . كما أن هجرتهم إلى الدولة الصهيونية لم تكن بالضرورة نتيجة حركة طرد من المجتمعات العربية بقدر ما كانت حركة جذب من مجتمع آخر يتاح لهم فيه تحقيق قدر أكبر من الحراك الاجتماعي . والواقع أن عداء اليهود ظاهرة آخذة في الاختفاء برغم ادعاءات الصهاينة ، وبرغم أوهام بعض أعضاء الجماعات اليهودية . وقد لاحظ أحد

المراقبين أنه على الرغم من أن المناصب المهمة كافة متاحة أمام يهود الولايات المتحدة ، فإن ما يُقدَّر بنحو ثلث عددهم يجهل هذه الحقيقة وينكرها . وقد علق برنارد أفيشاي على هذا الوضع فذكر أن سارتر قال إنه حينما لا يكون هناك يهود فإن أعداء اليهود يخترعونهم كضرورة ملحة . أما بالنسبة ليهود أمريكا ، فقد انقلبت الآية ، فحينما لا يوجد أعداء لليهود ، فإن اليهود يخترعونهم كضرورة ملحة أيضاً . ولعل أكبر دليل على ضمور ظاهرة معاداة اليهود ، ارتفاع معدلات الزواج المُختلَط والاندماج بين أعضاء الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة وروسيا السوفيتية وأمريكا اللاتينية وكندا وجنوب أفريقيا وإنجلترا وفرنسا ، أي في أية بقعة من العالم يوجد فيها يهود .

أما بوروخوف ، مؤسس الصهيونية العمالية ، فقد تنبأ بأن المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة سيمرون بالتجربة نفسها التي مروا بها في المجتمعات الأوربية إذ سيتركزون على قمة الهرم الإنتاجي ، وبالتالي سيصبحون مرة أخرى محط كراهية الجماهير وقد يتم طردهم . ورغم أن اليهود تركزوا في الولايات المتحدة ، في قمة الهرم الإنتاجي ، فلم ينجم عن ذلك أية معاداة لليهود وذلك بسبب الطبيعة الطبقية والسياسية للمجتمع الأمريكي الذي يَتقبَّل بناؤه أية عناصر بشرية جديدة طالما ثبت نفعها وقدرتها على الإسهام في الإنتاج . وقد تغيَّرت طبيعة الهرم الإنتاجي نفسه في الولايات المتحدة بحيث لا توجد سوى نسبة ضئيلة من العمالة في الزراعة ، كما أن الصناعة نفسها قد تحولت بحيث أصبحت تتطلب مهارات هندسية عالية وتجعل العاملين فيها مختلفين تماماً عن أعضاء الطبقة العاملة التي تتركز في قاعدة الهرم التقليدي . ويُلاحَظ كذلك أن حجم الخدمات الاقتصادية أصبح ضخماً ، الأمر الذي يعني أن قاعدة الهرم ليست بالضرورة أكثر أهمية من قمته أو أكثر ضخامة منها .

أما آحاد هعام ، مؤسس الصهيونية الثقافية ، فقد تنبأ بأن الدولة الصهيونية ستشكل مركزاً يساعد اليهود على الاحتفاظ بهويتهم أمام هجمات أعداء اليهود وإغراء الاندماج . ولكن ها هو ذا المركز قد تأسَّس وليست له علاقة كبيرة بيهود العالم . فيهود الولايات المتحدة يصوغون هويتهم ويتمتعون بحياتهم الاستهلاكية العلمانية دون الرجوع إلى الدولة الصهيونية العبرية . وقد ادعت الصهيونية ككل أنها ستؤسس دولة تحمي أعضاء الجماعات اليهودية ضد هجمات أعداء اليهود ، ولكن ثبت أنها عاجزة عن ذلك تماماً . وحينما اقتربت قوات روميل من الإسكندرية ، لم يفكر أعضاء المُستوطَن الصهيوني آنذاك في كيفية حماية يهود الإسكندرية ، وإنما فكروا في الانتحار . والدولة الصهيونية لا يمكنها في الوقت الحاضر حماية يهود كومنولث الدول المستقلة (الاتحاد السوفيتي سابقاً) . وفي ٨ سبتمبر ١٩٨٨ ، صرح شامير بأن إسرائيل لا يمكنها أن تحارب العالم بأسره ، وقارن بين الشيوعية العالمية والصهيونية العالمية قائلاً : إن الاتحاد السوفيتي ركز جل قواه على بناء الدولة الاشتراكية ، ولم يهتم ببناء الاشتراكية في العالم بالدرجة نفسها ، وقد كان يفضل دائماً مصلحة الدولة السوفيتية على مستقبل الحركة الشيوعية في العالم . وهو يرى أن الدولة الصهيونية ستحارب ضد معاداة اليهود ، ولكنها لن تصبح القوة العظمى في تلك الحرب التي ستقوم بها المنظمات اليهودية "فنحن بلد صغير" على حد قوله . ومع ذلك ، فإن من الضروري أن نضيف أن الدولة الصهيونية تزيد من حدة ظاهرة عداء اليهود بسبب لجوئها إلى العنف والإرهاب في تصفية حساباتها . ولا شك في أن مشاعر الاستياء نحو اليهود ستتزايد بعد الانتفاضة ، وبعد عمليات القمع الرهيبة التي تقوم بها الدولة التي تُسمِّي نفسها «يهودية» ، وخصوصاً أن أعداداً كبيرة منهم قد قرنوا أنفسهم بهذه الدولة وتوحدوا بها منذ عام ١٩٦٧ .

مركزيـــة إســـرائيل في حيـــاة الدياســـبورا

Centrality of Israel in the Life of the Diaspora

«مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا» عبارة تعني أن مركز الحياة اليهودية في العالم بأسره هو إسرائيل (فلسطين) . وتضفي الرؤية اليهودية الدينية على إرتس يسرائيل صفة محورية في حياة اليهود ، فكان على اليهودي أن يحج ثلاث مرات في العام لتقديم القرابين للإله في الهيكل القائم في القدس . وقد قام الصهاينة بعلمنة هذه العقيدة فنادوا بضرورة أن تصبح الدولة الصهيونية مركز حركية الجماعات اليهودية في العالم ، وأن تكون الدولة الصهيونية الملجأ الوحيد لليهود ، وبأن تقوم وحدها بالدفاع عنهم ، وقالوا إن الحروب التي يخوضها المستوطنون الصهاينة إنما تهدف إلى الدفاع عن كل يهود العالم . ويرى الصهاينة أن الدولة الصهيونية هي التي تساعد يهود العالم في الحرب ضد خطر الاندماج وفي الحفاظ على الهوية اليهودية ، وأنها هي التي تضمن استمرار التراث اليهودي وتطوُّره ، وتحسن صورة اليهود أمام الأغيار ، فبدلاً من صورة اليهودي التاجر والمرابي والجبان تأكدت صورة اليهودي باعتباره المقاتل الشرس وبذا يستعيد اليهودي احترامه لنفسه بعد أن فقده بسبب آلاف السنين من النفي . وتقوم المنظمة الصهيونية بإشاعة هذه الرؤية فتبيِّن مدى مشاركة الجماعات اليهودية في بناء إسرائيل

ودعمها والالتفاف حولها ، ومدى تَحمُّسهم أثناء الحروب الإسرائيلية المتتالية ، وذلك حتى يشعروا بأنهم جزء من إسرائيل وحتى يتعمق لديهم الإحساس بازدواج الولاء .

وفكرة مركزية إسرائيل عند بعض الصهاينة الأوائل من دعاة الصهيونية السياسية كانت تعني ضرورة تَساقُط الأطراف تماماً (أي تصفية الدياسبورا) . ولكن دعاة الصهيونية الإثنية ، الدينية والعلمانية ، يذهبون إلى أن مركزية إسرائيل هي مركزية ثقافية بالدرجة الأولى . ولكن دبنوف ، وبعده دعاة ما يُسمَّى «قومية الدياسبورا» (أو القومية اليديشية) ، عارض هذه الفكرة طارحاً بدلاً منها فكرة المركز الثقافي المتنقل من عاصمة إلى أخرى بحسب مدى ازدهار الجماعات اليهودية حضارياً وثقافياً ، فالمكان الأكثر حضارة وثقافة هو الذي يشكل المركز . ولكن هذا المكان ليس بالضرورة فلسطين أو إرتس يسرائيل (فقد يكون الأندلس أو بابل أو روسيا أو الولايات المتحدة) ، غير أن الصهيونية تحارب مثل هذه التعددية .

وقد ازداد مفهوم مركزية إسرائيل أهميةً بعد ظهور الصهيونية التوطينية التي تُسمَّى «صهيونية الدياسبورا» . وبعد إحجام الجماهير اليهودية عن الهجرة إلى أرض الميعاد ، يصبح الإيمان بمركزية إسرائيل بديلاً للاستيطان الفعلي ، فهو يُشبع الحنين اليهودي إلى صهيون دون أن تُترجَم هذه العاطفة إلى سلوك أو فعل . وقد أصبح تأكيد مركزية إسرائيل حجر الأساس الآن في البرنامج الصهيوني في الولايات المتحدة .

وتفترض مركزية إسرائيل هامشية أعضاء الجماعات ، وضرورة تصفيتها ، أو على الأقل تحويلهم إلى أداة تُستخدَم . ولكن واقع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم يُثبت زيف هذا المفهوم ، كما يثبت أن هذا المفهوم ينتمي إلى عالم الأحلام والأماني وربما الأوهام ، إذ أن الدولة الصهيونية لا تؤثر كثيراً في الحياة الثقافية أو حتى الدينية للأمريكيين اليهود . والواقع أن أعضاء الجماعات اليهودية قد يتحدثون قولاً عن مركزية إسرائيل ، ولكنهم يسلكون حسبما تمليه مصلحتهم ورؤيتهم عليهم . وغني عن القول أن الدولة الصهيونية لا يمكنها أن تدافع عن أعضاء الجماعات اليهودية ولا أن تُحسِّن صورتهم العامة ، إذ أن ما يحدد هذه الصورة هو أداؤهم داخل مجتمعاتهم . بل إن الدولة الصهيونية ، بسبب مركزيتها التي تزعمها لنفسها ومرجعيتها اليهودية التي تدعيها لنفسها ، تُلحق الأذى والضرر باليهود كما حدث أثناء حادثة الجاسوس جوناثان بولارد وكما يَحدُث حالياً في مواجهة الانتفاضة حيث يظهر جنود الدولة اليهودية وهم يكسرون أذرع الأطفال .

ولو كان القول الصهيوني بشأن مركزية هذه الدولة في حياة أعضاء الجماعات اليهودية حقيقة يمكن أن يقبلها المرء ، لكان من حقه أن يرى سلوكها الشرس تعبيراً عن السلوك اليهودي بشكل عام ، ولكان من حقه أيضاً أن يرى أن غزوات الصهيونية وصولاتها وجولاتها إنما تعبِّر عن طموحات اليهود أينما كانوا . ومن هنا ، يحرص كثير من أعضاء الجماعات الآن على الاحتفاظ بمسافة بينهم وبين الدولة الصهيونية ، بل على تأكيد مركزية الدياسبورا .

أسبقية (أو أولوية) إسرائيل في حياة الدياسبورا

Primacy of Israel in the Life of the Diaspora

«أسبقية (أو أولوية) إسرائيل في حياة الدياسبورا» مصطلح صهيوني جديد تم سكه مؤخراً ليحل محل مصطلح «مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا» ، وهو مصطلح أقل جذرية من سابقه ، وهذا ما يدل على أن الصهيونية الاستيطانية في فلسطين قد بدأت تشعر بضعفها في مواجهتها مع الجماعات اليهودية (في الولايات المتحدة) ومع الصهيونية التوطينية بشكل عام . ولذا ، بدلاً من الإصرار على مركزية إسرائيل (وهو ما يعني تبعية الأطراف للمركز) ، يكتفي الفكر الصهيوني بتأكيد أسبقيتها أو أولويتها . وهذه العبارة مثل جيد على الخطاب الصهيوني المراوغ وعلى محاولة إخفاء طبيعة الخطاب وأهدافه . فالأسبقية أو الأولوية تعني مرة أخرى مركزاً وأطرافاً . ومهما يكن الأمر ، فإن ظهور المصطلح هو في حد ذاته دليل على التغيُّرات العميقة التي طرأت على علاقة إسرائيل بالجماعات اليهودية في العالم ، وعلى تغيُّر موازين القوى لصالح الأخيرة .

نفي الدياسبورا

Negation of the Diaspora

«نفي الدياسبورا» ترجمة عربية حرفية وشائعة للمصطلح الصهيوني «نجيشن أوف ذي دياسبورا negation of the diaspora» (وهو بدوره ترجمة للمصطلح العبري «شليلات هجولاه») ، ونفضل التعبير عنه باصطلاح «تصفية الدياسبورا واستغلالها» .

تصفية الدياسبورا واستغلالها

Liquidation of the Diaspora

«تصفية الدياسبورا واستغلالها» عبارة تعني أن وجود الجماعات اليهودية في العالم هو وجود مؤقت ، هامشي ومرضي ، يجب تصفيته ، وأنه إن لم يتسن تصفيته يمكن على الأقل توظيفه في

خدمة الدولة الصهيونية انطلاقاً من الإيمان بمركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا . والصهيونية تفترض أن أعضاء الجماعات اليهودية لا يحيون حياة يهودية كاملة لأنهم يعيشون خارج وطنهم القومي ، كما أنهم يعانون من شذوذ الشخصية وهامشية الحياة إذ لا جذور لهم في الحضارات المختلفة لأنهم شعب عضوي لا تستطيع حضارة الآخر أن تعبِّر عن جوهره المتميِّز . والسبيل الوحيد إلى التعبير عن هذا الجوهر هو الوطن القومي والتربية القومية . فالصهيونية ، بحسب تصوُّر كلاتزكين ، هي «رفض الدياسبورا» لأنها "لا تستحق البقاء" . وهذه النغمة الصهيونية من أكثر النغمات تكراراً ؛ فالحاخام موردخاي بيرون ، كبير حاخامات الجيش الإسرائيلي ، وصف الشتات بأنه «لعنة إلى الأبد . . لعنة دائمة» ، ولم يستثن من ذلك حتى العصور الذهبية المختلفة ليهود الشتات . كما أشار بن جوريون إلى الشتات على أنه «غبار إنساني متناثر» ، ووصفه كلاتزكين بأنه «دمار وانحلال وضعف أبدي» .

وانطلاقاً من ذلك ينظر الصهاينة إلى موروثات أعضاء الجماعات على أنها بلا قيمة ولا تستحق الحفاظ عليها ، بل تجب تصفيتها لأنها تجسِّد هامشية اليهود وشذوذهم وقيمهم غير القومية (غير العضوية) التي يجب التخلص منها . ومن ثم ، فإننا نجد إشارات إلى أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم من عَبَدة الإله الكنعاني بعل . يعيشون في بابل عبيداً لشهواتهم المادية الرخيصة (قدور اللحم) ، ومن هنا الحديث عن ضرورة غزو الجماعات .

ولكن المشكلة الأساسية هي أن التراث اليهودي هو أساساً مجموعة من موروثات الجماعات اليهودية المختلفة ، وبدونها لا توجد هويات يهودية من أي نوع . بل إن هذه الموروثات قد وجدت طريقها إلى الوطن القومي ، والإسرائيليون لا يزالون يجدون هويتهم من خلالها . وبعد أربعين عاماً من إعلان الدولة ، بدأ كثير من جيل الصابرا يبحث عن جذوره في تراث يهود اليديشية أو في تراث إسبانيا وليس في التراث اليهودي الخالص الذي لا وجود له إلا في كتابات الصهاينة .

وثمة صيغ صهيونية أقل حدة ترى أن الموروث الثقافي لأعضاء الجماعات قد تكون له أهمية ، ولكنها أهمية ثانوية بالقياس إلى إنجازات اليهود الحضارية في فلسطين تحت حكم دولة مستقلة . وانطلاقاً من هذا ، يمكن استغلال أعضاء الجماعات اليهودية بدلاً من تصفيتهم ، ويمكن توظيفهم في خدمة الدولة الصهيونية بدلاً من نفيهم . بل إن المفكر الصهيوني العمالي أهارون ديفيد جوردون اقترح أن تكون علاقة يهود العالم بالدولة الصهيونية مثل علاقة الدول الاستعمارية بالمستعمرات ، أي علاقة يستفيد منها طرف واحد ويدفع الآخر الثمن . فالجماعات اليهودية ، من هذا المنظور ، هي مجرد وسيلة تستخدم للوصول إلى الغاية الصهيونية ، أو جسر يُستخدَم للعبور إلى أرض الميعاد ، أو لبنة تُستخدَم في بناء الدولة الصهيونية .

وقد كانت الصيغة الأولى الجذرية (أي التصفية الكاملة) هي السائدة حتى عهد قريب . وفي إطار ذلك ، كانت الدعوة إلى اللغة العبرية ورفض اليديشية ، وفي نهاية الأمر القضاء عليها . كما تم التعاون مع النازيين وإبرام معاهدة الهعفراه معهم ، ووُجِّهت الدعوة إلى يهود العالم للهجرة بأعداد كبيرة إلى المركز اليهودي . وقد تم بالفعل تصفية (نفي) كل الجماعات اليهودية في العالمين العربي والإسلامي ، ولم يبق سوى جماعات يهودية صغيرة في أوربا وجماعة واحدة كبيرة في الولايات المتحدة . ورغم المحاولات الدائبة من قبَل الصهاينة لتصفية الجماعات اليهودية في الغرب ، إلا أن إنجاز هذه العملية لم يكن ثمرة جهود الصهاينة وإنما كان في واقع الأمر نتيجة ظاهرة تاريخية عالمية واسعة هي الاستعمار الاستيطاني الغربي ، إذ كانت كل العناصر اليهودية المهاجرة تتجه إلى الدول الاستيطانية الجديدة ، وخصوصاً الولايات المتحدة ، واتجهت قلة منهم إلى فلسطين التي تم الاستيطان فيها من خلال آليات الاستعمار الاستيطاني الغربي ، ولم تكن الصهيونية أو اليهودية سوى الديباجة .

وقد ظلت الدعوة إلى نفي الدياسبورا واستغلالها قائمة حتى عام ١٩٤٨ . ولكن بعد إنشاء الدولة وتزايد اعتمادها على الولايات المتحدة وعلى يهود العالم تخلَّى الصهاينة عن الصيغة المتطرفة وتم تبنِّي صيغة معدَّلة مقلَّصة ، ومن ثم أصبحت الدولة الصهيونية لا تهدف إلى نفي الجماعات وتصفيتها وإنما تنظر إليها باعتبارها مصدر دعم مادي وسياسي ومعنوي ، أي قبلت ما نسميه «الصهيونية التوطينية» . ولذا ، فإن الآلة الصهيونية تركز كل همها على جمع التبرعات . وقد زوَّد أعضاء الجماعات اليهودية الدولة الصهيونية بنحو ٢٥٪ من كل مواردها المالية في السنين الأولى . ولكن ، مع زيادة حجم الميزانية الإسرائيلية ، ومع التضخم ، نجد أن أعضاء الجماعات لا يزودونها إلا بـ ٣٪ من مواردها . كما أن جمع الأموال أصبح يسبب نوعاً من الجفاء تجاه الصهيونية ونوعاً من الضيق بالكيان الصهيوني . بل إن المنظمات الصهيونية في الخارج تحتفظ بقدر كبير من الأموال التي تجمعها لتمويل نشاطاتها هي . كما أن أعضاء الجماعات بدأوا يثيرون قضايا مثل كيفية إنفاق هذه التبرعات ، فيم

كثير منهم على إنفاقها في الرفاه الاجتماعي وليس في الحرب ، على حين أن فريقاً منهم يرفض أن تُنفَق أية تبرعات على المُستوطَنات في الضفة الغربية . وقد طُرحَت مؤخراً صيغة جديدة للتعاون بين الصهيونية وأعضاء الجماعات اليهودية ، تشكل تراجعاً صهيونياً . فهذا المشروع يركز على القدرات المهنية والفكرية لأعضاء الجماعات انطلاقاً من القول بأن العقول هي رأسمال عصر العلم ، تماماً كما كانت النقود رأسمال عصر الصناعة . ولذا ، فإن هذا المشروع يهدف إلى أن تكون إسرائيل أول المجتمعات في عصر الفضاء وأكثرها تركيباً من الناحية التكنولوجية والعلمية والثقافية ، وتتحول بذلك إلى قوة عظمى صغيرة تُنتج التكنولوجيا وتُصدِّرها ، فتحل مشكلة ميزان المدفوعات وترفع مستوى مواطنيها ، وتسد الهوة الاجتماعية الإثنية داخل المجتمع الصهيوني ، ثم تضمن في النهاية استمرار وجود الهوة الكيفية بينها وبين جيرانها .

ولذا ، لن يُطلَب من أعضاء الجماعات اليهودية أن يهاجروا وإنما سيُطلَب منهم إقامة مشاريع ذات طابع كيفي متميِّز في إسرائيل . وسيكون بوسع المساهمين في هذه المشاريع قضاء أوقات أطول في إسرائيل والمساهمة بكفاءتهم العلمية والتكنولوجية دون أن يهاجروا بالفعل . كما يمكنهم أيضاً المساهمة في استيراد وتسويق السلع الإسرائيلية . بل يمكن أن يتحولوا إلى وكلاء يتقاضون عمولة كبيرة تستخدم لتمويل المشاريع المختلفة . وغني عن القول أن هذه مهمة يمكن أن يقوم بها أيضاً أي إنسان يطمع في تحقيق الربح ، فهي لا تتصل بالضرورة بالهوية اليهودية أو بوحدة الشعب اليهودي كما لا تتصل بالعلاقة الخاصة بين دياسبورا يهودية في المنفى ومركز يهودي في فلسطين !

غـــــزو الدياســـــبورا

Conquest of the Communities (Diaspora)

«غزو الدياسبورا» مصطلح صهيوني يعني ضرورة الهيمنة الصهيونية على كل الجماعات اليهودية في العالم شاءت أم أبت ، وذلك باعتبار أن الدولة الصهيونية هي المركز والجماعات اليهودية هي الأطراف ، وهذا ما يُطلَق عليه «مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا» . وبناءً على نصيحة ماكس نوردو ، أعلن هرتزل في المؤتمر الصهيوني الثاني (١٨٩٨) ضرورة غزو الحركة الصهيونية للجماعات اليهودية . والواقع أن الحركة الصهيونية لا تهدف إلى تهجير العرب من فلسطين إلى المنفى وحسب ، وإنما تهدف أيضاً إلى تهجير اليهود من المنفى إلى فلسطين . ولكن حينما أعلنت الحركة الصهيونية برنامجها بشأن الوطن القومي وتجميع اليهود ، أي تهجيرهم ، قوبلت الدعوة بالرفض من جانب جميع المنظمات اليهودية في العالم . ووجد الصهاينة أنفسهم معزولين في جزيرة صغيرة ، وذلك على حد قول وايزمان أثناء محادثاته مع الحكومة الإنجليزية لإصدار وعد بلفور ، أي أنهم وجدوا أنفسهم مفتقرين إلى قاعدة جماهيرية . ولحل هذا الوضع ، تبنَّى الصهاينة إستراتيجية حل المشكلة من أعلى (أي من ناحية المصالح الإمبريالية) وليس من أسفل (من ناحية الجماهير اليهودية) . ومعنى هذا أنهم قرَّروا غزو الجماعات من خلال القوى الاستعمارية العظمى . فقدموا أنفسهم منذ البداية باعتبار أن بإمكانهم لعب دور الوسيط بين القوى الاستعمارية من جهة واليهود من جهة أخرى ، وذلك لتجنيدهم وتوطينهم في الموقع الجغرافي الذي يهم تلك القوى . وقد أخبر هرتزل القس هشلر (الذي كان يساعده في جهوده الصهيونية) بأنه لا يمكنه فرض شروطه على اليهود إلا إذا نال قسطاً من الشرعية من إحدى الدول العظمى حتى يَقبَله اليهود . وبالفعل ، فحالما وافقت إنجلترا على المشروع الصهيوني (١٩١٧) اكتسبت الصهيونية شرعية هائلة أمام الجماهير اليهودية في الغرب فاضطرت إلى الاعتراف بها . وهذا ما حدث أيضاً في الولايات المتحدة حيث اتجه النظام الأمريكي اتجاهاً مماثلاً للصهيونية برغم معارضة اليهود ، فاكتسبت المنظمة الصهيونية الشرعية التي تحتاج إليها وفرضت هيمنتها في نهاية الأمر على الجماعة اليهودية . ومن ثم ، يصر الصهاينة على أن يُنظَر إلى المشروع الصهيوني في ضوء المصالح الإمبريالية ، وكان القاضي الأمريكي اليهودي برانديز يؤكد لليهود أن صهيونية اليهودي الأمريكي لا تتعارض البتة مع أمريكيته . وبذا حقَّقت الصهيونية أولى خطوات عملية غزو الجماعات . ويُلاحَظ أن ثمة تماثلاً بين الطريقة التي إتبعتها الحركة الصهيونية في غزو الجماعات اليهودية وبين طريقتها في غزو فلسطين ، أي الاعتماد على القوى الاستعمارية الخارجية . وقد قال الزعيم الصهيوني أهارون جوردون : إن الأقليات في الخارج يجب أن تكون بمنزلة مستعمرات للوطن الأم .

وقد أخذت محاولات فرض مركزية إسرائيل أشكالاً مختلفة أكثر دهاء أو أكثر إرهابية (حسبما تمليه الظروف) . فبعد عام ١٩٤٨ ، أعلنت الدولة الصهيونية نفسها دولة للشعب اليهودي بأسره ، داخل حدودها وخارجها ، بكل ما يُفهَم من هذا من مركزية . ويصدر المسئولون الصهيونيون والإسرائيليون من التصريحات ما يفترض مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا

وارتباطهما العضوي . فيصرح مندوب إسرائيل في هيئة الأمم بأن مستقبل يهود إسرائيل ويهود أمريكا لا ينفصلان . وكتب بن جوريون عن "وجود رابطة لا تنفصم عراها بين دولة إسرائيل والشعب اليهودي . . . رابطة الحياة والموت . . . ووحدة المصير والغاية" . بل إن بن جوريون يدَّعي أنه عندما يقول يهودي ليهودي آخر "حكومتنا" فإن ذلك يعني حكومة إسرائيل وأن "عامة اليهود في مختلف الدول ينظرون إلى الشعب الإسرائيلي باعتبار أنه يقوم بتمثيلهم" .

وتأخذ محاولات فرض مركزية إسرائيل شكلاً عنيفاً صريحاً كما حدث في العراق حينما زرع عملاء صهاينة متفجرات في المعبد اليهودي في بغداد حتى يفر يهود العراق إلى المركز الإسرائيلي . وقد حدث شيء مماثل عام ١٩٩٠ حينما نجح الصهاينة في إقناع الولايات المتحدة بأن توصد أبوابها دون المهاجرين اليهود السوفييت حتى يضطروا إلى الهجرة للمركز الإسرائيلي الذي اتضح انصرافهم عنه ، وعدم إقبالهم عليه (انظر : «التهجير [الترانسفير] الصهيوني لأعضاء الجماعات اليهودية») .

ولا تتوقف عملية غزو الجماعات على الهيمنة على الجماعات اليهودية نفسها ، إذ أخذت الصهيونية (وهي عقيدة سياسية لا دينية) تَقرِن نفسها باليهودية (وهي عقيدة سماوية) وتتوحد بها ، كما تمت صهينة العقيدة اليهودية بشكل تام (هي في جوهرها عملية علمنة) . وقد تم إنجاز هذه العملية بكفاءة عالية جداً حتى أن معظم أعضاء الجماعات ، وخصوصاً من الأجيال الجديدة ، يتصوَّرون الآن أن الصهيونية هي اليهودية ولا فرق بينهما .

ويهيمن الآن الجهاز الصهيوني على معظم المؤسسات اليهودية في العالم ، إذ تغلغلت في النشاط الخيري والتربوي وفي أوجه الحياة كافة . وتحاول الصهيونية قصارى جهدها أن تُوظِّف إمكانات أعضاء الجماعات لصالحها ، مالية كانت أو علمية أو سياسية لتحولّهم إلى أداة لها .

وقد اختفى المصطلح تقريباً في الأدبيات الصهيونية مع أنه مفهوم كامن فيها ، ويرجع هذا إلى عدة أسباب من بينها إذعان أعضاء الجماعات اليهودية واستبطانهم المصطلح الصهيوني بشكل شبه تام . كما ظهر عقد صامت بين الدولة الصهيونية ويهود العالم تم بمقتضاه تقسيم العمل بين الصهيونية التوطينية أو صهيونية الخارج (صهيونية الدعم والضغط السياسي) والصهيونية الاستيطانية أو صهيونية الداخل (صهيونية الاستيطان والقتال) . ولكن الأهم من هذا أن الاعتراف الغربي بالصهيونية دعم مركز الصهيونية بين يهود الغرب المندمجين ، وبدأت المعارضة الصريحة للصهيونية تبدو وكأنها معارضة لسياسات الحرب العالمية الأولى التي اتبعتها الحكومات الغربية . والواقع أن الشرعية الاستعمارية التي اكتسبتها الصهيونية أدَّت إلى حسم قضية ازدواج الولاء بالنسبة لليهودي الغربي ، وحينما يؤيد المواطن الأمريكي اليهودي الصهيونية ، فهو إنما يساند المصالح الإستراتيجية لبلاده ، ومن ثم فلا يوجد فرق كبير بينه وبين المواطن الأمريكي غير اليهودي الذي يؤيد المشروع الصهيوني إلا في الدرجة والشكل .

ومع هذا ، نجد أن أعضاء الجماعات اليهودية يقاومون هذا الغزو إما بالرفض الصريح وهذه هي الأقلية ، وإما بالتملص عن طريق إعلان الولاء للدولة الصهيونية ودفع التبرعات لها ورفض الهجرة إليها . والرد الصهيوني على ذلك يأخذ أشكالاً حادة ، كأن يُتَّهم اليهود والرافضون للصهيونية بأنهم معادون لليهود كارهون لأنفسهم ، أو أن يُفرَض عليهم الخلاص الجبري . ولا يمكن إدراك المعنى الكامل لمفهوم غزو الجماعات إلا في إطار مفاهيم صهيونية أخرى مثل نفي الدياسبورا وهامشيتها .

هذا ويُلاحَظ ، بعد الانتفاضة واهتزاز الشرعية الصهيونية ، وكذلك قيام إسرائيل بدور الخفير في المنطقة ، أن الجماعات اليهودية بدأت تفصح عن معارضتها لإسرائيل والصهيونية ، وزاد الحديث عن مركزية الدياسبورا بدلاً من مركزية إسرائيل .



٢
موقف الجماعات اليهودية من الصهيونية

موقف الجماعات اليهودية من الصهيونية ـ مركزية الدياسبورا ـ قومية الدياسبورا ـ القومية اليديشية ـ دبنوف ـ ليبرمان ـ جيتلوسكي ـ نيوزنر ـ ستون

موقف الجماعات اليهودية من الصهيونية
Attitude of the Diaspora to Zionism

تروِّج الدعاية الصهيونية لصورة مفادها أن الأغلبية العظمى من يهود العالم تؤمن بالعقيدة الصهيونية ، وتؤازر الدولة الصهيونية وتقف وراءها صفاً واحداً . وقد يكون هناك شيء من الحقيقة السطحية والمباشرة في هذا القول ، فرغم أن يهود إسرائيل لا يشكلون إلا نسبة ضئيلة من يهود العالم لا تتجاوز الثُلث بأية حال فإن الحركة الصهيونية قد هيمنت على معظم المؤسسات اليهودية في العالم ، ومنها كثير من الجمعيات اليهودية الأرثوذكسية والإصلاحية التي يوجد بينها وبين الصهيونية تَناقُض من ناحية العقيدة . فاليهودية الأرثوذكسية ترى أن اليهود شعب بالمعنى الديني وحسب وليس بالمعنى العرْقي كما يتصورَّ الصهاينة . أما اليهودية الإصلاحية فترى أن اليهود ليسوا شعباً أساساً وإنما جماعة دينية يؤمن أفرادها بالعقيدة نفسها . وقد أصبح منْ يرفضون الصهيونية بشكل علني وعقائدي أقليةً هامشيةً لا يُعتد بها ولا يُسمَع لها صوت .

ولكن ، رغم ذلك ، ليست العلاقة بين الجماعات اليهودية والحركة الصهيونية علاقة طيبة دائماً . والمعروف أن الحركة الصهيونية لاقت مقاومة شديدة عند ظهورها من أغلبية أعضاء الجماعات اليهودية في العالم واضطرت إلى «غزو الدياسبورا» ، أي لجأت إلى أنواع من العنف لقهرها والسيطرة عليها ، وهذا ما تم بالفعل مع منتصف الخمسينيات . ولكن حتى بعد أن حققت الحركة الصهيونية ذلك ، رفض أعضاء الجماعات اليهودية ـ في الممارسة العملية ـ الخضوع للأوامر والنواهي الصهيونية . فهم ، على سبيل المثال ، يرفضون الهجرة إلى إسرائيل «وطنهم القومي» الوهمي ، وهم قد يقبلون الصهيونية اسماً وشكلاً لكنهم يرفضونها فعلاً وعملاً . وهذا ما نسميه «التملص اليهودي من الصهيونية» . كما أن اهتمام أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ينصب على موروثهم الثقافي من المجتمع الذي يعيشون في كنفه ، فيهود الولايات المتحدة على سبيل المثال يهتمون بموروثهم الأمريكي اليهودي ويتعلمون اللغة الإنجليزية ويضعون مؤلفاتهم الدينية والدنيوية بها ، كما أنهم لا يدرسون العبرية إلا في مراكز خاصة لدراسة اليهودية يعاني خريجوها من البطالة لعدم وجود اهتمام كاف بهذه الدرسات . وهذا الوضع هو تعبير عن رفض ضمني كامن للمفاهيم الصهيونية الخاصة بنفي الدياسبورا وبمركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا ، وهي مفاهيم تؤكد أن يهود العالم مجرد أداة لتحقيق الهدف الصهيوني ، وأنهم يمثلون هامشاً يدور حول المركز «القومي» الصهيوني أي الدولة الصهيونية .

وحتى في إطار الخضوع الظاهري الكامل لإسرائيل ، تنشأ مشاكل عدة بين يهود العالم من الصهاينة واليهود غير الصهاينة من جهة وإسرائيل من جهة أخرى . ولعل أهم هذه القضايا هي تلك التي أُثيرت منذ عام ١٩٤٨ عن مدى حق أعضاء الجماعات ، على مستوى العالم ، في توجيه النقد إلى إسرائيل . فالدولة الصهيونية تحاول أن تكون علاقتها بيهود العالم علاقة هيمنة ، فتتلقى منهم العون والمساعدات والتأييد دون أن يكون لهم حق التدخل في شئونها . ولكنهم ، في نهاية الأمر ، رفضوا الهجرة إليها وآثروا البقاء في «المنفى» ، وما يقدمونه هو تكفير عن عدم مساهمتهم في تحقيق رؤية الخلاص والمثل الأعلى الصهيوني . أما يهود العالم ، فيرون المسألة بشكل مختلف ، إذ كيف يُطلَب منهم قبول قرارات سياسية إسرائيلية لم يشتركوا في صياغتها ، أو تأييد هذه القرارات دون اعتراض ؟ وإذا كان لدى الدولة الصهيونية استعداد لأن تتلقى نقودهم بصدر رحب وحماس زائد ، فيجب أيضاً أن يتسع صدرها لانتقاداتهم التي تَنصبُّ في الغالب على مسائل محدَّدة .

وأولى المسائل المهمة التي يثيرها يهود العالم أن الصهيونية وعدتهم بأن تؤسِّس دولة يهودية تسمح لليهود بالتحكم في مصائرهم مستقلين عن مجتمع الأغيار . ولكن هؤلاء ، حين ينظرون ، يرون دولة مصابة بأزمة اقتصادية مزمنة وصل فيها التضخم في وقت من الأوقات إلى معدلات قياسية . ورغم أن التضخم تمت السيطرة عليه ، فإن حجم مديونية هذه الدولة يجعل

المواطن فيها من أكثر المواطنين مديونية في العالم ، حيث تصل إلى ٦,٢٠٠ دولار بالنسبة إلى الشخص الواحد . ويُلاحَظ كذلك تَناقُص معدل النمو الاقتصادي . وقد أدَّى كل ذلك إلى الاعتماد المتزايد والمذلّ على الولايات المتحدة .

وقد ادعت الصهيونية أن اليهود مصابون بشتى أمراض المنفى ، مثل الهامشية والطفيلية وانقلاب الهرم الإنتاجي ، وأنها ستقوم بتحويلهم إلى شعب منتج يعمل بيديه . ولكن هذه النبوءة لم تتحقق إذ أن عدد اليهود في الدولة الصهيونية الذين يشتغلون بأعمال إنتاجية في الوقت الحالي يبلغ ٢٣٪ ، وكانت النسبة ٢٤٪ قبل عام ١٩٤٨ . وقد تزايد قطاع الخدمات وتَضخَّم في المجتمع الإسرائيلي وفي الجيش نفسه .

ومن القضايا التي يثيرها يهود العالم من المؤمنين باليهودية ، مشكلة معدلات العلمنة المتزايدة في الدولة اليهودية التي لا تسودها القيم اليهودية ، فكثيراً ما يجدون أن بعض مبعوثي الدولة اليهودية لم يقرأوا التوراة في حياتهم قط ، ولم يذهبوا إلى معبد يهودي . وتضطر الدولة التي يقال لها «يهودية» إلى أن تعطي دورات مكثفة في الدين اليهودي لبعض مبعوثيها إلى الخارج حتى لا ينكشف السر ، فهم لا يعرفون كيف تُقام الصلوات اليهودية ولا يدرون شيئاً عن السلوك الواجب اتباعه في المعبد اليهودي .

ويشير هؤلاء المتدينون أيضاً إلى أن الدولة اليهودية ، التي كان من المفترض أن تكون مثلاً أعلى يُحتذَى ، أصبحت ذات توجُّه استهلاكي حاد يُقبل سكانها على استهلاك السلع الغربية بشغف شديد . وهي ، علاوة على هذا ، دولة تنتشر فيها الجرائم والمخدرات والدعارة ، كما أصبحت ترتع فيها الجريمة المنظمة ، وأصبح الجهاز الحكومي لا يتمتع بسمعة طيبة بسبب فضائحه المالية المتتالية .

وحينما تتهم الدولة الصهيونية أعضاء الجماعات اليهودية بأنهم آخذون في الاندماج ، بل في الانصهار والتلاشي ، يشيرون هم بدورهم إلى حياة إسرائيل العلمانية ، ويؤكدون أن الإسرائيليين هم الذين يفقدون هويتهم اليهودية بالتدريج ، وأنهم هم الذين سيندمجون تماماً في حضارة الأغيار . بل إن بعضهم يرى أن ما يحدث في إسرائيل هو ظهور قومية جديدة إسرائيلية لا علاقة لها باليهودية ، وبالتالي لا علاقة لها بهم .

ويثير يهود العالم قضية أساسية أخرى يبدو أنها دون حل في الوقت الحاضر ، وهي أن المؤسسة الدينية الأرثوذكسية في إسرائيل ترفض الاعتراف باليهود الإصلاحيين والمحافظين كيهود ، وهم يشكلون مع اليهود اللا أدريين والملحدين ما يزيد على ٨٠٪ من يهود العالم الغربي ، في حين لا يشكل الأرثوذكس إلا أقلية صغيرة . وتأخذ القضية شكلاً حاداً ، كلما أثارت المؤسسة الدينية الأرثوذكسية في إسرائيل قضية تغيير قانون العودة حتى يصبح تعريف اليهودي هو من تهوَّد حسب الشريعة ، أي على يد حاخام أرثوذكسي وحسب .

ويرى بعض المفكرين الدينيين اليهود أن ظهور الدولة الصهيونية قد أدَّى إلى انهيار اليهودية وتآكُلها من الداخل ، فأصبحت الدولة هي دين يهود العالم ، ومصدر القيمة المطلقة لهم ، كما أصبح جمع التبرعات من أهم الشعائر «الدينية» . وهم يرون أن اليهودي العادي قد أصبح يُفرغ أية شحنة دينية داخله عن طريق النشاط الصهيوني ، وهو نشاط دنيوي بالدرجة الأولى .

ويثير يهود العالم قضية أساسية أخرى ، وهي : هل الدولة اليهودية مجرد دولة تخدم مصالحها بغض النظر عن مصالح اليهود ، أو هي دولة يهودية تضع مصالح يهود العالم في الاعتبار؟ وقد أثيرت القضية مؤخراً بكل حدة بسبب التعاون الوثيق بين الحكومة الصهيونية وحكومة الأرجنتين العسكرية . وقد قام شامير ، باعتباره وزيراً لخارجية إسرائيل ، بزيارة الأرجنتين في الأيام الأخيرة للنظام العسكري ، وقد ثبت أن هذا النظام ، المشهور بميوله النازية المعادية لليهود ، كان يقوم بتعذيب معارضيه ، واليهود منهم على وجه الخصوص . ومع هذا ، فقد استمر النظام الصهيوني في الحفاظ على علاقاته بالنظام العسكري في الأرجنتين . وكانت السفارة الإسرائيلية ترفض التدخل لصالح المعتقلين السياسيين اليهود . وثمة حقيقة مهمة تدعو إلى التساؤل : إن أحد أهداف الدولة اليهودية هو توفير الأمن والحماية لليهود ، ومع ذلك فإن أعضاء الجماعات اليهودية يشعرون بأن أمنهم قد تزعزع بسبب الأحداث في الشرق الأوسط وأن الجو الذي يعيش فيه اليهود في عدة بلاد قد تحوَّل من جو آمن إلى جو قلق مشحون . وفي الواقع ، فإن كثيراً من المؤسسات اليهودية تحتاج الآن إلى حراسة مسلحة . وقد صرح شامير مؤخراً بأن الدولة الصهيونية لا يمكنها أن تضطلع بمسئولية حماية أعضاء الجماعات اليهودية إذ أنها مشغولة بحماية وبناء نفسها .

ويشير اليساريون اليهود في العالم إلى علاقات إسرائيل بالنظم العسكرية في أمريكا اللاتينية ، فهي من أكبر موردي السلاح إليها ، كما أن علاقاتها السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية مع نظام جنوب أفريقيا محل انتقادهم ، إذ كيف يتأتى لدولة يهودية متمسكة بالقيم اليهودية أن تتحول إلى حليف لكل قوى القمع والإرهاب في العالم؟ ويضطر الليبراليون أيضاً إلى الاحتفاظ بمسافة بينهم وبين

الكيان الصهيوني حينما يقوم بعمليات وحشية تفوح رائحتها مثل صابرا وشاتيلا . وقد حاولت الصهيونية أن تحل مشكلة سلوكها العنصري والإرهابي بأن قلّصت مجال هذه العنصرية وجعلتها مقصورة على مكان واحد فقط هو فلسطين ، فهي ليست عنصرية كونية على الطريقة النازية بل عنصرية مقصورة على بؤرة واحدة (فلسطين) ، وعلى شعب واحد . ولذا ، تستطيع العقيدة الصهيونية أن تتخذ ديباجات اشتراكية في الاتحاد السوفيتي ، وديباجات رأسمالية ليبرالية في العالم الغربي ، وديباجات فاشية في أمريكا اللاتينية ، ويمكنها في النهاية أن تمارس وحشيتها كاملة في فلسطين دون أن تسبب حرجاً كبيراً لمناصريها في الخارج . ومع هذا ، نجد أن اندلاع الانتفاضة قد غيَّر هذه الصورة ، فقد أصبح الاحتفاظ بالازدواجية صعباً واضطر يهود العالم إلى شجب الأعمال الوحشية التي تمارسها إسرائيل .

ومن القضايا التي تثير بعض التوتر بين أعضاء الجماعات اليهودية والدولة الصهيونية ، هجرة عدد كبير من مواطني الكيان الصهيوني إلى الولايات المتحدة واستيطانهم فيها . ويبلغ عدد المهاجرين ٦٠٠ ألف ، أكثر من نصفهم من مواليد إسرائيل (فلسطين) ، أي من جيل الصابرا ، ومن هنا يتم طرح السؤال التالي : هل من الواجب أن تقوم المؤسسات اليهودية بتقديم المساعدة لهؤلاء المهاجرين باعتبارهم يهوداً أم تجب مقاطعتهم باعتبارهم خونةً مرتدين ؟

ويمكن القول بأن واحداً من أكبر أشكال فشل الدولة الصهيونية في الهيمنة الفعلية على أعضاء الجماعات اليهودية في العالم أنه بعد مرور ما يزيد على مائة عام على الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، وبعد مرور نحو أربعة عقود على إنشاء الدولة الصهيونية ، وبعد الحملات المكثفة ، بل الهستيرية ، التي تهدف إلى إقناع أعضاء الجماعات بالهجرة إلى فلسطين انطلاقاً من إيمانهم الديني القوي ، والتي تؤكد لهم أن هذه الهجرة هي السبيل الوحيد إلى الحفاظ على وطنهم القومي ، أي إسرائيل ، بعد كل هذا لم تقابل المنظمة الصهيونية والدولة الصهيونية كثيراً من النجاح ، الأمر الذي فرض عليهما أن تطرحا جانباً في الآونة الأخيرة تلك المنطلقات العقائدية الصهيونية وتطرحا بدلاً منها شعارات مادية استهلاكية . فإسرائيل ، حسب الحملات الدعائية الجديدة ، ليست أرض الميعاد ولا مسرح الخلاص ، وإنما هي بلد تتوافر فيه أسباب الراحة المادية للمهاجر حيث يمكنه أن يمتلك بيتاً واسعاً كبيراً بشروط ائتمانية سهلة ، وبالتقسيط المريح ، أو يمكنه أن يجد فرصاً أحسن للعمل أو الاستثمار . بل تم تعديل الأسطورة الصهيونية نفسها ، فبدلاً من الإصرار على اليهودي الخالص ، اليهودي مائة في المائة ، تم الاعتراف بالأمريكي اليهودي ، أي اليهودي الذي ينتمي إلى وطنه الأمريكي انتماءً كاملاً ، ويعتز بتراثه الإثني ما دام هذا الاعتزاز لا يتناقض مع انتمائه الأمريكي . ولا يختلف الأمريكي اليهودي في هذا عن الأمريكي الإيطالي أو الأمريكي البولندي . وداخل هذا الإطار ، تصبح إسرائيل مثل إيطاليا وبولندا أي «مسقط الرأس» الذي أتى منه المهاجر . ولكن المفارقة تكمن في أن هذه الأسطورة تقف على النقيض من الأسطورة الصهيونية ، لأن «مسقط الرأس» هي البلد الذي يهاجر منه اليهودي ، على عكس «صهيون» أو «أرض الميعاد» فهي البلد الذي يعود إليه . وهكذا تحوَّلت الأسطورة الصهيونية إلى نقيضها من خلال محاولتها التكيف مع الوضع الأمريكي . وهذا هو أحسن تعبير عن مدى ارتباط أعضاء الجماعات بأوطانهم ، وعن حقيقة موقفهم المتعيِّن من الصهيونية الذي يتجاوز التصريحات الساخنة والشعارات النارية الصهيونية .

مركزية الدياسبورا
Centrality of the Diaspora

«مركزية الدياسبورا» عبارة تعني الإيمان بأن الحياة الحضارية والسياسية لأعضاء الجماعات اليهودية تتشكل خارج فلسطين ، وبأن علاقتهم بإسرائيل قد تكون مهمة ولكنها ليست أهم شيء في حياتهم إذ أن لديهم مصالحهم وثقافتهم وحركياتهم الاجتماعية المستقلة عن الدولة الصهيونية . وبالتالي فلابد أن تكون العلاقة بين الدولة وبين الجماعات اليهودية علاقة متكافئة . ولا يرد هذا المصطلح في الكتابات الصهيونية أو اليهودية ، ولكنه افتراض كامن في كتابات دبنوف الذي يستخدم مصطلح «قومية الدياسبورا» . ولا يمكن تفسير سلوك أعضاء الجماعات إلا في إطار هذا المفهوم . وتُعَدُّ استجابة يهود الولايات المتحدة لحادثة بولارد دليلاً جيداً على الإيمان بمركزية الدياسبورا وبانفصال أعضاء الجماعات عن المركز الصهيوني المزعوم . كما أن المصطلح يتجلى في بعض التصريحات مثل تصريح مدير عام منظمة إيباك الصهيونية : "إذا كانت إسرائيل هي مركز العالم اليهودي ، فنيويورك هي إذن مصدر وجوده" . أما الحاخام جيكوب نيوزنر ، فقد أكد بلا مواربة أن أمريكا أفضل من القدس بالنسبة إلى يهود الولايات المتحدة ، وأنه إذا كانت هناك أرض ميعاد فإن اليهود الأمريكيين يعيشون فيها بالفعل على نحو لا يمكن أن يتاح

لهم في إسرائيل . ومن الثابت أن إسرائيل لا تلعب دوراً رئيسياً من الناحية الثقافية والدينية في حياة الأمريكيين اليهود . ومع ضعف صورة الدولة الصهيونية وتراجع نفوذها، وخصوصاً بعد الانتفاضة، فإن من المُتوقَّع أن يحقق أعضاء الجماعات قدراً أكبر من الاستقلال ويؤكدوا بالتالي أهميتهم ومركزيتهم بشكل أكبر .

قوميــــة الدياســـبورا

Diaspora Nationalism

«قومية الدياسبورا» مصطلح شائع في الكتابات الصهيونية واليهودية، وهو يشير إلى أن الجماعات اليهودية تشكل شعباً واحداً وقومية يهودية لها مركز واحد . ولكن هذا المركز لم يكن هو فلسطين في سائر اللحظات التاريخية، وإنما كان ينتقل بانتقال القيادة الفكرية لليهود . فهو مرة في بابل، وأخرى في الأندلس، وثالثة في ألمانيا أو في روسيا، ولعله الآن في الولايات المتحدة أو إسرائيل .

ويتفق مفهوم قومية الدياسبورا مع الفكر الصهيوني في عدة نقاط، من أهمها أن اليهود يكوِّنون شعباً واحداً وأن له تراثاً واحداً . ولكن قومية الدياسبورا تختلف عن الصهيونية في قبولها تعددية المركز، وفي رفض فكرة مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا، أي الجماعات اليهودية . وقد يبدو هذا الاختلاف سطحياً، ولكنه في الواقع اختلاف جوهري إذ أن تعددية المركز تعني أن الدولة الصهيونية ليست مسألة ضرورية أو حتمية أن اليهود يمكنهم التعبير عن هوياتهم أينما وُجدوا . كما أنه يعني أن تراث يهود العالم تراث يستحق الحفاظ عليه، وأن الشعار الصهيوني الداعي إلى تصفية الدياسبورا ونفيها شعار معاد لليهود . ويُعتبر كلٌ من المؤرخ الروسي اليهودي سيمون دبنوف والكاتب الروسي اليديشي حاييم جيتلوسكي من أهم دعاة قومية الدياسبورا .

وعلى مستوى البنية الفكرية الكامنة، تعني قومية الدياسبورا بالنسبة إلى هذين الداعيين قومية يهود اليديشية أو القومية اليديشية باعتبارها قومية يهودية شرق أوربية يمكن التعبير عنها من خلال إطار الدولة متعددة القوميات (على نمط الإمبراطورية الروسية والدولة السوفيتية والإمبراطورية النمساوية المجرية) . وبالفعل، نجد أن قومية الدياسبورا أصبحت، على مستوى الممارسة، هي حق يهود اليديشية في التعبير عن هويتهم الثقافية وفي الحفاظ على تراثهم ولغتهم داخل إطار الدولة متعددة القوميات . ولذا، فإن مصطلح «قومية الدياسبورا» ليس دقيقاً البتة، وقد يكون من الأدق الإشارة إلى «القومية اليديشية الشرق أوربية» أو «القومية اليهودية الشرق أوربية»، وعلى كلٍّ فقد تهاوى هذا المفهوم بتزايد معدلات الاندماج بين يهود الاتحاد السوفيتي ويهود الولايات المتحدة .

ويوجد تيار داخل الفكر الصهيوني يميل إلى قبول صيغة معدلة من قومية الدياسبورا، إذ يذهب بعض الصهاينة إلى أن تراث الدياسبورا مهم ويجب الحفاظ عليه ولكنهم يصرون، مع هذا، على أن مركز الثقافة اليهودية يجب أن يظل في فلسطين . ولعل صيغة مثل هذه هي التي تحكم العلاقة بين الجماعات اليهودية في العالم وفي إسرائيل، فإسرائيل تَقَبل الآن وجودهم في المنفى باعتبارها حالة نهائية، وتَقَبل إسهاماتهم الحضارية كشيء يستحق المحافظة عليه . وفي المقابل، يَقبل يهود العالم مركزية إسرائيل في حياتهم الثقافية ويستمدون منها شيئاً من هويتهم، وهذا ما يُطلَق عليه «الصهيونية التوطينية»، وهي صهيونية يؤمن بها اليهودي في الغرب، حتى يحافظ على هويته التي يهددها المجتمع الاستهلاكي بالهلاك ودون أن يُضطر إلى الاستيطان في إسرائيل .

القوميــــة اليديشــية

Yiddish Nationalism

انظر : «قومية الدياسبورا» .

سيمون دبنوف (١٨٦٠-١٩٤١)

Simon Dubnow

مؤرخ روسي يهودي، والمُنظِّر الأساسي لفكرة قومية الدياسبورا، ذلك المفهوم الذي طُرح كأحد حلول المسألة اليهودية . وُلد في مقاطعة موجيليف في روسيا، وتلقَّى تعليماً دينياً تقليدياً إلا أنه تخلى عن ممارسة الشعائر الدينية في سن مبكرة، كما حصل على قدر من التعليم العلماني في المنزل وأتقن العبرية والروسية إلى جوار اليديشية لغته الأصلية . وفي الفترة ١٨٨٠ ـ ١٩٠٦، انتقل بين عدة مدن روسية من أهمها أوديسا التي كانت تُعتبر آنذاك مركزاً للبعث الثقافي للجماعة اليهودية في روسيا وانضم هناك إلى دائرة آحاد هعام (فيلسوف الصهيونية الثقافية، أي الإثنية العلمانية)، ثم استقر في بطرسبرج حيث عمل بتدريس ما يُسمَّى «التاريخ اليهودي» الذي أصبح اهتمامه الرئيسي . وقد أصدر عدة أعمال في هذا المجال شملت دراسة في تاريخ الجماعات اليهودية في شرق أوربا، ودراسة موجزة لتاريخ الجماعات اليهودية وتاريخ الحسيدية .

تأثر دبنوف بكل من فكر الاستنارة، والفكر المادي للاستنارة؛ تأثر بوضعية أوجست كونت وليبرالية جون ستيوارت

ميل ، فرفض اليهودية من حيث هي فكرة تتناقض مع الفردية والحرية والتفكير العلمي ، وطرح جانباً مقولات مثل «رسالة الشعب المقدَّس» و«الارتباط الأزلي بأرض الميعاد» إذ وجد أنها لا تفسر وضع الجماعات اليهودية في العالم ، وتبنَّى بدلاً من ذلك منهجاً يأخذ في الاعتبار المعطيات المادية (البيئية والحسية) ويؤكد التفاصيل والأشياء المتعينة والقراءة المتعينة للتاريخ وينظر إلى اليهود واليهودية باعتبارهما ظواهر اجتماعية وتاريخية . لكن تأثير الفكر المعادي للاستنارة يتبدَّى في اهتمامه بالبُعد الخاص والعضوي والروحي في الظواهر الإنسانية . وقد تأثر دبنوف بفلسفة فختة في تأكيده العنصر الروحي في القومية ، وبفكر إرنست رينان في تأكيده العنصر الذاتي فيها . كما تأثر بمفاهيم المؤرخ الفرنسي فولي الذي عرَّف القومية بأنها (أولاً وقبل كل شيء) مجموعة من الأفراد الذين ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أمة ، وقال إن جوهر الأمة هو وعيها . وكذلك تأثر دبنوف بفكر المفكر والمؤرخ الأدبي تابين الذي اعتبر القيم الروحية لأي شعب إنما هي نتاج تطلعاته وظروفه الخاصة . وقد تَبنَّى في نهاية الأمر المفهوم العضوي للأمة الذي طرحه كلٌّ من رينان وتابين والذي أصبح جزءاً من الخطاب السياسي الغربي في القرن التاسع عشر . ولذا ، فرغم أن رفضه اليهودية انطلاقاً من رؤيته العلمية المستنيرة ، إلا أنه عاد وقَبلها انطلاقاً من الفكر المعادي للاستنارة باعتبارها تعبيراً إيجابياً عن الروح القومية للشعب اليهودي .

ومن الأفكار الأساسية التي أثرت في دبنوف بشكل جوهري فكرة دولة القوميات ، أي الدولة الإمبراطورية التي تضم عدة قوميات لكل منها هويتها ولغتها بل تاريخها المستقل ، بحيث تحتفظ كل جماعة أو أقلية قومية بقدر من الحكم الذاتي (وخصوصاً في الأمور الثقافية والدينية) وتشارك في صنع القرار السياسي من خلال مؤسسات الدولة الواحدة والتمثيل السياسي . وكانت هذه الفكرة مطروحة في كل من الإمبراطورية الروسية والإمبراطورية النمساوية المجرية كنموذج سياسي يمكن أن يضمن للإمبراطوريات الاستمرار دون أن يكون هذا الاستمرار ، بالضرورة ، على حساب الشعوب والقوميات التي تعيش داخل حدودها ، وهو نموذج يختلف عن نموذج الدولة القومية المركزية الذي شاع في إنجلترا وفرنسا وهولندا وفي أوربا الغربية بشكلٍ عام .

وقد لاقت دولة الأقليات صدى في نفس دبنوف لأنها تستند إلى معطيات تاريخية متعينة (شعوب قومية قائمة بالفعل ودولة حديثة) وهو ما يجعله ، وهو المفكر العلمي المستنير ، قادراً على قبولها . فهي ، مع علميتها ، تقبل قدراً من الخصوصية دون أي استدعاء للغيبيات . وقد كانت هذه الازدواجية ضرورية لدبنوف ، فقد لاحظ أن خصوصية يهود اليديشية لا تكمن في يهوديتهم "العالمية" التي تستند إلى عناصر ثابتة ومطلقة وإنما في يديشيتهم الخاصة والنابعة من وضعهم كأقلية داخل التشكيل السياسي والحضاري الشرق أوربي . ولذا ، فإن كل الحلول التي يطرحها نابعة من تَصوُّره أن يهود شرق أوربا يشكلون ظاهرة اجتماعية تشترك في الخصائص مع الظواهر المماثلة دون أن تفقد بالضرورة خصوصيتها .

ينطلق دبنوف ، على عادة كثير من مفكري أوربا في القرن التاسع عشر ، من طرح رؤية للتاريخ الإنساني تُقسِّمه إلى مراحل ، فتَطوُّر الإنسانية هو أساساً تَطوُّر من المادية إلى الروحية ومن البساطة الخارجية إلى التعقيد الداخلي . وهو يُقسِّم النماذج القومية إلى ثلاثة نماذج : النموذج القَبَلي ، والنموذج السياسي الإقليمي أو النموذج المستقل ، والنموذج الحضاري التاريخي أو النموذج الروحي . وهذه النماذج مترابطة بشكل عضوي ، بمعنى أن كل أمة لابد أن تمر من خلال المراحل أو النماذج الثلاثة . والنموذج القَبَلي ، حسب تصوُّر دبنوف ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالطبيعة ، في حين أن النموذج السياسي أقل ارتباطاً بها . أما النموذج الروحي فهو مستقل عنها إلى حدٍّ بعيد . وهذا الابتعاد التدريجي عن الطبيعية يتضح أكثر ما يتضح في علاقة كل نموذج قومي بالأرض . فالأرض ، بالنسبة إلى النموذج الأول ، تمثل جزءاً جوهرياً من كيانه وبيئته ، أما بالنسبة إلى النموذج الثالث فهي لا تعني شيئاً على الإطلاق ، لأن كيانه ووجوده يستندان أساساً إلى الوعي بالذات التاريخية . ويؤمن دبنوف بأن الشعب اليهودي «شعب روحي» ينتمي إلى النموذج الثالث من القوميات ، ولذا فهو في غنى عن الأرض والدولة (على عكس الصهاينة الذين يصرون على عودة اليهود إلى الطبيعة وإلى الأرض ، كما يصرون على تأسيس الدولة اليهودية) .

والتاريخ اليهودي حسب تصوُّر دبنوف قد مرّ بالمراحل الثلاث . فالقبائل العبرانية تجمعت في كيان قومي في فلسطين على رقعة واحدة من الأرض وتحت حكم دولة موحدة . وقد فقد اليهود أولاً الدولة ثم بعد ذلك الأرض . ورغم ذلك ، فقد حافظوا على كيانهم الحضاري الروحي المستقل ، وعلى وعيهم بذاتهم كجماعة مستقلة . ولكن لماذا يحتفظ اليهود باستقلالهم ؟ يقول دبنوف : إن هذا ليس معجزة تاريخية ، فأوضاع اليهود الفريدة هي التي خلقت كيانهم الفريد ، فهم يشكلون أمةً لا دولة ولا أرض لها ، ولذا ، فقد أُعفوا من مسئولية الحكم والاضطرار إلى اللجوء للعنف والقسر ، إذ

أن الدولة الحاكمة هي وحدها التي تجد نفسها مضطرة إلى ذلك . بل على العكس من هذا ، وجد اليهود أنفسهم مرغمين على تطوير العناصر الروحية في حضارتهم وتراثهم لتُحرِّرهم من عبء السلطة السياسية ، فهم أمة الروح (على حد قول آحاد هعام) .

ويُفرِّق دبنوف بين الأنانية القومية والفردية القومية ، ويرى أن القومية اليهودية يجب عليها أن تعرف حدودها وألا تطمع في الاستيلاء على أرض الآخرين ، ولكن يجب عليها في الوقت نفسه أن تتخطى الاندماجية بأن تحاول تمجيد ذاتها دون أنانية وبأن تحاول تطوير الذات اليهودية وملامحها المستقلة . ولكن مستقبل الأمة اليهودية لا يتوقف على أية رسالة سرمدية تنقلها للعالم ، بل يعتمد أساساً على مدى نجاحها في تطوير شخصيتها الحضارية المستقلة . وهذه الشخصية ليست شخصية ثابتة متقولبة تعبِّر عن فكرة جوهرية أزلية ، وإنما هي شخصية كانت ولا تزال في حالة تَطوُّر وتَغيُّر دائمين ، أي أن دبنوف يقف على الطرف النقيض من الصهاينة الذين يخلعون صفة الأزلية على الشخصية اليهودية ويرون أنها تجسيد لرسالة اليهود السرمدية التي تتخطى حدود التطورات التاريخية وتعلو عليها .

والمُلاحَظ أن مقدمات دبنوف التحليلية رغم ديباجتها الإنسانية والتاريخية الواضحة ، صهيونية حتى النخاع ، ولا تختلف كثيراً عن مقدمات فيلسوف الصهيونية الثقافية آحاد هعام . فكلٌّ منهما ، شأنه شأن كل صهيوني ، يفترض وجود أمة يهودية لها شخصية متميِّزة ووضع فريد بين الأمم ، وأن ثمة تاريخاً يهودياً عالمياً ، وأن ثمة وحدة عالمية بين جميع الجماعات اليهودية في العالم تفصلها عن التشكيلات التاريخية التي توجد فيها هذه الجماعات (وهذه المقدمات هي نفسها مقدمات الفكر الصهيوني ، وبالتالي لم يكن مفر من أن يصل إلى نتائج صهيونية) . ولكن دبنوف لا يتحدث في واقع الأمر عن القومية اليهودية وإنما عن القومية اليديشية أو عن السمات القومية الخاصة بيهود شرق أوربا الذين كانوا يُشكِّلون ما يقرب من ٨٠٪ من يهود العالم ، لكن تجربتهم التاريخية لم تكن سوى تجربة تاريخية واحدة ضمن عشرات التجارب التاريخية الأخرى لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم . والخطأ الذي يرتكبه دبنوف لا يكمن في تزييف الحقائق وإنما يكمن في مستوى التعميم ، فهو يتحدث عن الجزء (يهود اليديشية) باعتباره الكل (يهود العالم) . ولعل هذا يعود إلى أن كل أوربا ، عبر تاريخها ، تتحدث دائماً عن اليهود بشكل مطلق ، وعن اليهود "ككل" ، وعن اليهود "في كل زمان ومكان" ، وعن "التاريخ اليهودي" . ولذا ، فإنه لم يستطع الإفلات من الخطاب الغربي - اليهودي وغير اليهودي . كما أن أوربا (في القرن التاسع عشر) كانت تظن نفسها مركز العالم وكان يُشار إلى ما هو غربي بوصفه عالمياً (وحتى الآن نتحدث نحن أنفسنا عن الرأي العام العالمي ونحن نعني في واقع الأمر "الرأي العام الغربي") . ويمكننا أن نضيف إلى كل هذا ضخامة الجزء اليديشي مقابل ضآلة ما تبقَّى من الكل اليهودي .

ولكن الدارس المدقق سيجد أن ثمة عناصر أساسية في رؤيته جعلته يُعدِّل مستوى تحليله ويتخلى عن مستوى التعميم الخاطئ . فهو يختلف عن الصهاينة في أنه يرى أن تراث يهود الدياسبورا ، أي يهود العالم خارج فلسطين ، لا يُشكل انحرافاً عما يُسمَّى "التاريخ اليهودي الواحد الحقيقي" ، أي تاريخ اليهود في فلسطين . وعلى هذا ، فإنه لا يذهب إلى أن كل اليهود مرتبطون بمركز واحد هو فلسطين ، بل إنه يرى أن التاريخ اليهودي إن هو إلا تاريخ الدياسبورا . ولهذا ، فإن النسق الدبنوفي نسق متعدد المراكز لا يتسم بالعضوية الصارمة والتجانس والواحدية . فهو يؤكد وجود وحدة بين الجماعات اليهودية المتناثرة في العالم ، لكن هذه الوحدة لا تعني عدم التنوع ، فالحضارات اليهودية تختلف باختلاف الظروف التاريخية والجغرافية التي تنشأ فيها . وهو لهذا ، يرى أن مركز هذه الحضارة أو الحضارات كان وسيظل متغيِّراً يتنقل من بلد إلى آخر . فهو مرة يكون في بابل ، ومرة أخرى يكون في الأندلس ، وفي المرة الثالثة في روسيا ، فالبلد الذي تزدهر فيه الحضارة اليهودية أكثر من البلدان الأخرى تنتقل إليه القيادة الفكرية . ومن هنا ، فإنه لا يفترض وجود مركز واحد وحيد (أزلي ثابت) في فلسطين ، بل يفترض وجود مراكز متغيِّرة متنوعة متساوية في الأهمية ، وهو يتحدث في واقع الأمر عن أقليات يهودية مركز ديناميتها الحضارية هو البلد الذي توجد فيه ، ولذا فيهود أوربا في رأيه أوربيون أولاً وأخيراً ولا وجود لهم خارج تراثهم الأوربي . وإذا أصرَّ دبنوف بعد كل هذا على أن هذا البلد هو مركز كل الأقليات اليهودية ، فإن هذا من قبيل اختلاط الخطاب . كما أن دراسته التاريخية ليهود روسيا وبولندا لم تركز قط على تبعيتهم في مرحلة من المراحل ليهود الأندلس أو فرنسا ، ولم تُبيِّن كيف تولوا قيادة كل الأقليات اليهودية في العالم ، ذلك لأنها دراسة في أوضاعهم ومؤسساتهم الثقافية والإدارية التي لا يمكن فهمها إلا في إطارها السلافي الشرق أوربي . كما أن الحلول التي يطرحها لمسألة يهود شرق أوربا اليديشية لا تنبع من فكرة القومية اليهودية العامة ، وإنما من فكرة القومية اليديشية الشرق أوربية . ولذا ، فهو حينما يرفض اندماج اليهود ، فإنه لا يفعل ذلك باسم

جوهر يهودي عالمي أزلي وإنما باسم هوية يديشية متعينة توجد في الزمان والمكان . ومن هنا ، فإنه يرفض فكرة الدولة اليهودية المستقلة ، كما يرفض إحياء اللغة العبرية (لغة الهوية اليهودية العالمية المزعومة) ويطالب بدلاً من ذلك بإحياء اليديشية (لغة يهود شرق أوربا) لأنها اللغة التي عرفوها ، وبأن يحقق يهود اليديشية هويتهم الخاصة من خلال إطار الدولة متعددة القوميات .

وتتجلَّى دقة مستوى التحليل لدى دبنوف ، وتخليه عن فكرة اليهودية العالمية ، في تحليله وضع اليهود في عصره . لقد لاحظ تفكك الجماعات اليهودية في أوربا وروسيا بالذات ، ولاحظ الهجرة اليهودية المتجهة إلى الولايات المتحدة وإلى غيرها من الدول ، كما لاحظ أخيراً معدلات الاندماج المرتفعة . ولكل هذا فإنه تنبأ بأن يهود اليديشية سيتحولون إلى يهود روس ، ومعظم يهود العالم سينتقلون إلى الولايات المتحدة ، حيث سيكون بوسعهم تطوير شخصيتهم اليهودية الأمريكية في الدياسبورا الجديدة ، لأن مجتمع الولايات المتحدة مجتمع أقليات مهاجرة لكل منها تراثها الحضاري الخاص بها والمستقل عن التراث الحضاري المشترك للأمة الجديدة .

ورغم الدينامية الهستيرية التي تتصف بها الصهيونية وتنظيماتها العديدة ، فإن التطور التاريخي أثبت زيف الأطروحات الصهيونية وصدق تحليلات دبنوف . وقد كان دبنوف واعياً تماماً بهذا ، ولذا فقد وصف الصهيونية بأنها "مجرد صيغة مُجدَّدة لعقيدة انتظار الماشيِّح نُقلت من عقول القبَّاليين المتنشية إلى عقول الزعماء الصهاينة الساسيين" . وقد تَبنَّى البلاشفة في روسيا (في نهاية الأمر وبعد تخبُّط لعدة سنوات) الصيغة الدبنوفية الداعية إلى البعث اليديشي فتم تأسيس مقاطعة بيروبيجان ، ثم تصاعدت عملية دمج وترويس يهود اليديشية حتى تحوَّلوا إلى يهود روس . كما اتجه أكثر من ٨٥٪ من المهاجرين الروس ، ثم السوفييت ، إلى الولايات المتحدة . ولا يزال هذا هو الاتجاه الأساسي لحركة هجرة اليهود السوفييت . وبعد استقرارهم في الولايات المتحدة ، نجح يهود اليديشية (لبعض الوقت) في الاندماج في مجتمعهم الجديد دون أن يفقدوا هويتهم .

ولكن حركيات المجتمعين الأمريكي والسوفيتي (والمجتمع الغربي ككل) تؤدي إلى تَصاعُد معدلات الدمج والزواج المُختلَط وانصهار واختفاء أعضاء الجماعات اليهودية . لكن دبنوف لم يتنبأ بهذا التطور الأخير ، وكان من الصعب عليه أن يفعل ذلك في نهاية القرن التاسع عشر . وعلى كلٍّ ، فإن إحدى السمات الأساسية في المجتمعات العلمانية الحديثة ، مجتمعات ما بعد الصناعة والأيديولوجيا ، هي تَصاعُد معدلات الترشيد والعلمنة التي تؤدي إلى تَساقُط الخصوصيات الدينية (بل الإنسانية) بحيث يندمج الجميع في حركة المجتمع المحكومة الآلية .

وقد اشترك دبنوف بشكل نشيط في عدد من النشاطات الخاصة بالجماعة اليهودية في روسيا ، فأيَّد جهود العناصر اليهودية في جمعية تنمية الثقافة في روسيا لفَتْح مدارس يهودية ، وطالب بتشكيل نظام يهودي للدفاع عن الذات بعد مذابح كيشينيف التي وقعت عام ١٩٠٥ ، كما أيَّد المشاركة اليهودية في انتخابات عام ١٩٠٥ واشترك في العام نفسه في نشاط الجمعية من أجل الحقوق الكاملة والمتساوية للشعب اليهودي ، وفي عام ١٩٠٦ أسس «حزب الشعب اليهودي» ذا التوجه القومي العضوي الذي استمر حتى عام ١٩١٨ . وظل دبنوف معارضاً لحزب البوند بسبب سياسته الاشتراكية والماركسية ، وذلك برغم وجود اتفاق بنيوي في الرأي . وقد وُجِّهت إليه الدعوة في بداية الثورة البلشفية للاشتراك في اللجان المختلفة لإعداد بعض المطبوعات حول المسألة اليهودية . وقد غادر دبنوف روسيا عام ١٩٢٢ واستقر في برلين . وباعتلاء هتلر السلطة ، رحل دبنوف إلى ريجا (عاصمة ليتوانيا) حيث قتل على يد شرطي ليتواني .

أهارون ليبرمان (١٨٤٩-١٨٨٠)
Aharon Lieberman

كاتب روسي يهودي وُلد في ليتوانيا ، تلقَّى تعليمه في إحدى المدارس التلمودية العليا (يشيفا) ، وكان من دعاة حركة الاستنارة اليهودية ، كما كان عضواً في الحركات الثورية السرية في فلنا . وقد مثَّل ليبرمان (داخل حركة الاستنارة اليهودية) التيار المطالب بالجمع بين التحول الاجتماعي والاقتصادي والاحتفاظ بالانتماء القومي اليهودي متأثراً بالفكر الشعبوي الروسي ، فرفض المفهوم القائل بأن التحديث ينطوي على نفي ما هو قومي . وبرغم هجومه على المدارس اليهودية التقليدية ومدرسيها ، إلا أنه رفض محاولات القيصر نيقولا الأول الرامية إلى فَرْض نظام تعليمي روسي حديث على الأطفال اليهود وطالب بأن ينظم أعضاء الجماعة اليهودية مدارسهم الحديثة الخاصة بهم حيث يتم تدريس اللغتين الروسية والعبرية . وقد اعتبر ليبرمان أن العبرية هي لغة اليهود القومية الحقة ، أما اليديشية فما هي إلا رطانة ألمانية . وقد هاجم ليبرمان بشدة فكرة أن يتولَّى أثرياء اليهود قيادة عملية التغيير وهي الفكرة التي دعا إليها كثير من دعاة التنوير اليهود ووجَّه هجومه اللاذع للبورجوازية اليهودية .

وفي عام ١٨٧٥ ، اضطر ليبرمان ، بسبب نشاطه الثوري ، إلى الفرار إلى لندن حيث انضم إلى دائرة الثوريين الروس ، والتحق بواحدة من أهم المجلات الروسية الثورية في ذلك الحين (فبيريد) ، ونشر بها مقالات عديدة في الفترة بين عامي ١٨٧٥ و١٨٧٦ . ورغم أن نبرته الثورية والأممية أصبحت أكثر وضوحاً وقوة ، إلا أن ليبرمان ظل يؤكد الجانب الإثني (الذي يُقال له «قومي» في مصطلحه) ، وطالب بتضامن الجماهير اليهودية واعتبر أن "التاريخ اليهودي" والتعاليم اليهودية قد مهَّدت الطريق أمام اليهود ليكونوا الممثلين الطبيعيين للاشتراكية الثورية . وهذا اللجوء إلى الرموز الدينية أو التاريخية كان في الواقع من سمات الحركة الشعبوية الروسية ، وكان يهدف إلى تعبئة الجماهير وكسب تأييدها للقضايا الثورية . كما طالب بضرورة إيجاد إطار تنظيمي مستقل لأعضاء الجماعة اليهودية يعمل داخل الإطار الأوسع للحركة الثورية الروسية .

وقد هاجم ليبرمان المثقفين اليهود المتروِّسين بشدة ، واعتبرهم نخبة منفصلة عن الجماهير اليهودية وبعيدة عن حقيقة أوضاعهم . كما اعتبر أن أكثر العناصر قدرة على تأسيس حركة ثورية بين الجماهير اليهودية هي العناصر القريبة من هذه الجماهير والمرتبطة بعالمها ، ورأى أن طلبة المدارس التلمودية العليا (اليشيفا) هم أكثر العناصر المؤهلة لهذا الدور . وهذا أيضاً أحد الأسباب التي دفعته للاهتمام باللغة العبرية باعتبارها أفضل أداة للعمل بين طلبة المعاهد التلمودية وتجنيدهم للعمل الثوري وتدريبهم لكي يصبحوا من القيادات الثورية اليهودية . وفي عام ١٨٧٦ ، أصدر بياناً بالروسية والعبرية مُوجَّهاً للشباب اليهودي في روسيا بشكل عام ولطلبة المدارس التلمودية العليا بشكل خاص هاجم فيه البورجوازية اليهودية وحمَّلها مسئولية الشقاء والاضطهاد اللذين تعاني منهما الجماهير اليهودية ، كما ناشد المثقفين من الشباب اليهودي الانضمام للجماهير الكادحة . وبالتالي ، يُعَدُّ ليبرمان من أوائل من نادوا بالعمل الدعائي الثوري بين الجماهير اليهودية الكادحة على غرار حركة "الذهاب إلى الشعب" التي أطلقتها الحركة الشعبوية الروسية في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن التاسع عشر والتي كانت مُوجَّهة لجماهير الفلاحين الروسية . وقد اتخذ ليبرمان خطوات عملية في هذا الاتجاه حينما شارك عام ١٨٧٦ في تأسيس الاتحاد الاشتراكي العبري في لندن على أن يقوم هذا الاتحاد بتنظيم نقابة عمالية تضم العمال من المهاجرين اليهود القادمين من روسيا وشرق أوربا . إلا أن هذا المشروع لم ينجح بعد أن تَسبَّب هجوم ليبرمان على المؤسسة الدينية اليهودية وقيادات الجماعة اليهودية في لندن في ابتعاد كثير من الجماهير العمالية عن الاتحاد . وقد أدَّى ذلك ، بالإضافة للخلافات الداخلية ، إلى انهيار الاتحاد في العام نفسه .

وفي عام ١٨٧٧ ، أصدر ليبرمان جريدة باللغة العبرية لاقت قبولاً كبيراً لدى دعاة التنوير الراديكاليين ، ولكنه تَعرَّض أيضاً لانتقادات حادة من جهات عدة حيث رأى البعض (داخل الدوائر الراديكالية) أن هجومه الشرس على المؤسسة الدينية وتأييده فكرة الأممية سيؤدي إلى تباعد الجماهير اليهودية ، بينما أكدت بعض الآراء الأخرى أن جريدته بعيدة عن الاشتراكية وذات تَوجُّه قومي (أي صهيوني) بدليل أن ليبرمان اختار لإصدارها اللغة العبرية (لغة الأرستقراطية الدينية) بدلاً من اللغة اليديشية (لغة الجماهير الكادحة) . كما أن اقتباساته الكثيرة من التراث الديني اليهودي في كتابة مقالاته دليل آخر على هذه النزعة المتعالية . وقد أغلقت الجريدة ، قبل صدور العدد الرابع ، نتيجة المشاكل المالية وتزايد الانتقادات لها من جميع الجهات .

وفي عام ١٨٧٨ ، أُلقي القبض على ليبرمان في فيينا بتهمة الإقامة في البلاد تحت اسم مستعار ورُحِّل إلى خارج البلد . ثم أُلقي القبض عليه مرة أخرى في ألمانيا (عام ١٨٧٩) حيث حُوكم بتهمة المشاركة في تأسيس منظمة سرية وسُجن لمدة تسعة أشهر . وفي عام ١٨٨٠ ، انتقل إلى لندن مرة أخرى . وقد راودته في هذه الفترة فكرة الانضمام إلى منظمة إرادة الشعب الإرهابية ولكنه لم يُقدم على ذلك نظراً لشكوكه حول مدى التزامها بمبدأ الثورة الاشتراكية التي ستتخطى المرحلة البورجوازية .

وفي تلك الآونة ، ارتبط ليبرمان عاطفياً بسيدة متزوجة لم تبادله المشاعر نفسها ، وسافر وراءها إلى الولايات المتحدة حيث مات منتحراً عام ١٨٨٠ بعد أن أطلق الرصاص على نفسه أثناء زيارته لها في منزلها .

ورغم تأكيد ليبرمان أهمية اللغة العبرية قياساً إلى اللغة اليديشية ، إلا أن كثيراً مما طرحه مهَّد الطريق أمام بلورة الأساس الفكري لحزب البوند فيما بعد . ومع هذا ، يمكن القول بأن تأرجحه بين اللغة العبرية من جهة والتوجه إلى الجماهير اليديشية من جهة أخرى هو تعبير عن أحد التناقضات الأساسية الكامنة في حركة الاستنارة (بين النزعة الاندماجية الثورية والنزعة القومية الانعزالية ، أي الصهيونية) وربما لو عاش ليبرمان مدة أطول لحسم التناقض لصالح أحد الطرفين .

هاييم جيتلوسكي (١٨٦٥-١٩٤٣)
Hayyim Zhitlowsky

كاتب يهودي كان يكتب باليديشية والروسية ، وهو من كبار مفكري ما يُسمَّى «قومية الدياسبورا» . وُلد في روسيا ، وتلقى تعليماً علمانياً ، ثم انخرط في سن مبكرة في الحركات الاشتراكية والثورية الروسية . وقد ظل جيتلوسكي بعيداً عن أي اهتمام خاص بأوضاع الجماعات اليهودية في روسيا إلى أن تدهورت أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية بشكل حاد في الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، مع تعثُّر التحديث في روسيا وتزايد الاضطهاد الموجَّه ضدهم (وضد غيرهم من الأقليات) فيما أصبح يُعرَف باسم «المسألة اليهودية» . وقد دفعه ذلك إلى البحث عن حلول لهذه المسألة وإلى إيجاد صيغة تجمع بين الاشتراكية والخصوصية القومية . وبعد أن كان جيتلوسكي يرى في الاندماج حلاً لمشاكل يهود روسيا ، أصبح رافضاً له . وقد احتك بحركة أحباء صهيون وتأثر بها ، ولكنه لم يقبل الحل الصهيوني ، وأصدر عام ١٨٨٧ دراسة بالروسية عنوانها **أفكار حول المصير التاريخي لليهودية** تضمنت نقداً كاملاً للرؤية الصهيونية للتاريخ . وقد ذهب جيتلوسكي في هذه الدراسة إلى أن اليهود تحولوا ، بعد سقوط الهيكل عام ٧٠م ، من أمة تناضل من أجل العدل الاجتماعي والقيم الإنسانية العليا إلى أمة من الوسطاء والطفيليين تستغل عمل الآخرين . وفي حين أن جيتلوسكي كان يرى أن الاندماج حل طبيعي بالنسبة إلى يهود الغرب (غرب أوربا ووسطها) ، فإنه كان يرى أن الأمر مختلف بالنسبة إلى أعضاء الجماعة اليهودية في شرق أوربا (روسيا وبولندا بالأساس) فهم يشكلون قومية شرق أوربية لغتها اليديشية (قومية يديشية) ، وتتحدد هويتها على هذا الأساس الإثني المحلي الروسي ، أي أنها أقلية قومية ضمن الشعوب والأقليات القومية في روسيا القيصرية . ومن هنا ، كان جيتلوسكي مؤمناً بأن البعث القومي اليهودي ممكن في «الدياسبورا» أو «الشتات» داخل إطار اشتراكي .

وقد قوبلت دراسة جيتلوسكي بالهجوم الشديد من قبَل دبنوف رغم اتفاقهما في المنطلقات . كما اتهمته الصحافة ، وخصوصاً المكتوبة بالعبرية ، بمعاداة اليهود .

وفي عام ١٨٨٨ ، انتقل جيتلوسكي إلى برلين ثم إلى زيوريخ وبرن حيث حصل على درجة الدكتوراه عام ١٨٩٢ ، وأصدر في العام نفسه كتابه **من يهودي إلى اليهود** يناشد فيه المفكرين والقادة اليهود أن يتحالفوا مع الجماهير ليحلوا مشاكلهم الاقتصادية على أساس ثوري . ودعا إلى إعادة توطين اليهود في الأرض وإلى اشتغالهم بالزراعة ، فهذا الإجراء "سيضع نهاية لانحطاطهم الأخلاقي الناتج عن اشتغالهم بالتجارة" على حد قوله . كما طالب بأن يسعى أعضاء الجماعة اليهودية لا إلى تحقيق المساواة في مجال الحقوق المدنية وحسب ولكن أيضاً إلى تحقيق المساواة في مجال ما سماه "حقوقهم القومية" ، أي حقوقهم كأقلية قومية .

وقد ساهم جيتلوسكي في تأسيس الحزب الاشتراكي الثوري الروسي في المنفى عام ١٨٩٣ ، وشارك في تحرير جريدته ، كما أسَّس اتحاداً يهودياً اشتراكياً يُصدر مطبوعاته باليديشية .

وكتب دراسة عام ١٨٩٧ بعنوان **لماذا اليديشية ؟** نشرت عام ١٩٠٠ أكد فيها ضرورة أن تكون اليديشية اللغة القومية لأعضاء الجماعات اليهودية . وقد أكد هذا الرأي أثناء حضوره المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) . وقد رفض جيتلوسكي الصهيونية باعتبارها حركة برجوازية رجعية ذات ارتباط وثيق بالتيارات الدينية الأرثوذكسية وبأثرياء اليهود . وبعد انضمامه لحزب البوند عام ١٨٩٨ ، كتب مقالاً في صحيفة تحت عنوان "الصهيونية أم الاشتراكية ؟" أكد فيه أن الاشتراكية هي الإطار الأمثل الذي تستطيع الجماعة اليهودية من خلاله تحقيق ذاتيتها واستقلالها الثقافي والحضاري كأقلية قومية في ظل دولة متعددة القوميات . وبعد مذابح كيشينيف في روسيا (عام ١٩٠٣) ، نادى جيتلوسكي بضرورة وجود مركز إقليمي .

وفي زيارته الأولى للولايات المتحدة (عام ١٩٠٤) ، شارك في تحرير جريدة **داس فولك** الإقليمية . وفي سلسلة من المحاضرات ، هاجم جيتلوسكي فكرة بوتقة الانصهار (أي أن ينصهر كل المهاجرين إلى الولايات المتحدة في بوتقة قومية واحدة) ، ودعا إلى ضرورة أن يحتفظ المهاجرون اليهود وغيرهم من الأقليات المهاجرة إلى الولايات المتحدة بتراثهم الحضاري الخاص في إطار مجتمع متعدد القوميات . وأكد أن اللغة أساس الحياة الثقافية لأي شعب ، وبالتالي فإن الحفاظ على اللغة والثقافة اليديشية سيحمي اليهود من الاندماج ، ولن يهدد تخليهم عن العقيدة الدينية بقاءهم واستمرارهم القومي .

وعاد جيتلوسكي إلى أوربا عام ١٩٠٦ ورشح نفسه للانتخابات في روسيا وانتُخب بالفعل ، لكن الحكومة ألغت انتخابه بسبب نشاطه الثوري . وفي عام ١٩٠٨ ، ترأس جيتلوسكي مؤتمر تشيرنوفتس اليديشي . وفي العام نفسه ، عاد مرة أخرى إلى الولايات المتحدة حيث استقر بشكل دائم في نيويورك ، وقام بتحرير مجلة شهرية عبَّر فيها عن آرائه . كما انضم إلى دائرة العمال بهدف نشر تعليم اللغة اليديشية بين العمال اليهود .

وفي عام ١٩١٤ ، ذهب إلى فلسطين ، لكنه تركها بعد شهرين بعد أن وجد هناك معارضة شديدة لليديشية . غير أنه تأثر بحركة عمال صهيون وانضم إليها عام ١٩١٧ ، كما شارك في الحملة الرامية لإقامة الفيلق اليهودي خلال الحرب العالمية الأولى وفي تجنيد المتطوعين له . ولكنه عاد ليرفض الصهيونية تماماً في أعقاب الانتفاضة العربية عام ١٩٢٩ .

وبرغم انتقاده للماركسية والبلشفية ، اتجه جيتلوسكي إلى التقارب مع الدولة السوفيتية في أعقاب صعود النازية في ألمانيا ، ودافع عن محاكمات موسكو عام ١٩٣٦ .

وقد أيَّد جيتلوسكي تأسيس إقليم بيروبيجان في الاتحاد السوفيتي كتجسيد لفكرة الإقليم اليهودي الذي يتيح للجماهير اليهودية التعبير عن ثقافتهم وتقاليدهم الخاصة في إطار قومي ومحتوى اشتراكي .

جيكوب نيوزنر (١٩٣٢-)

Jacob Neusner

عالم ومؤرخ أمريكي يهودي تلقَّى تعليمه في كلية اللاهوت اليهودية (المحافظة) ، ودرس في جامعة كولومبيا وجامعة براون . من أهم مؤلفاته كتاب **تاريخ اليهود في بابل** (خمسة أجزاء ، ١٩٦٥ ــ ١٩٧٠) و**التقاليد الحاخامية عند الفريسيين** (١٩٧١) ، و**اليهودية في عصر علماني** (١٩٧٠) . وله دراسات مهمة في التلمود . ويُعَدُّ من أهم علماء التلمود في العصر الحديث .

ويُعَدُّ نيوزنر من أهم المفكرين الأمريكيين اليهود الذين يدافعون عن الوجود اليهودي خارج فلسطين (فيما يُسمَّى «قومية الدياسبورا») ، ولذا فهو يرفض المفهوم الصهيوني لإسرائيل باعتبارها المركز الروحي ليهود العالم . وينطلق نيوزنر من تعريفين للشعب اليهودي أحدهما ديني وثقافي والآخر سياسي وقومي . وهو يرى أن الدولة اليهودية قد يكون لها مركزية في حياة اليهود (الزمنية التاريخية) ، ولكنها لا مركزية لها في حياة اليهود المتعينة كأناس "يعيشون ويعانون ، يولدون ويموتون ، يفكرون ويشكون ، يربون أطفالهم ويقلقون عليهم ، يحيون ويعملون . فما دام اليهود بشراً يعيشون في ظل ظروف إنسانية مستقلة ، فلا الصهيونية ولا دولة إسرائيل يمكنها أن تكون محور حياتهم" . كما أكد الحاخام نيوزنر أن الصهيونية ليس لديها ما تقوله بالنسبة لقضايا الحياة الثابتة الخالدة ، لأنها (أي الصهيونية) لم تثر قط مشكلة الوجود اليهودي كما عبَّرت عنها اليهودية .

ورفض الحاخام نيوزنر الصهيونية في كتابه المعنون **اليهودية الأمريكية** (١٩٧٢) عميق للغاية إذ يرى أن الصهيونية أخذت تصبح تدريجياً بديلاً زائفاً عن الدين اليهودي ، فاستولت على الخطاب الديني اليهودي وعلى رموز اليهودية الدينية ، ولذا يعتقد الكثيرون أن الصهيونية واليهودية هما شيء واحد . ونتيجة هذا ، يفشل كثير من يهود أمريكا في ممارسة أي نوع من أنواع التسامي الديني والتجاوز الروحي للعالم المادي ، ذلك لأنهم يركزون كل اهتمامهم على قطعة أرض لا يعيشون فيها . . . . وثمة فارق شاسع بين أن يحلم المرء بأرض توجد في السماء في نهاية الزمان وأن يحلم ببلد بعيدة كل ما فيها خير "ولكن ، مع هذا ، بإمكان الإنسان أن يذهب إليها إن أراد" ، أي أن صهيون بالنسبة ليهود أمريكا لم تَعُد حلماً دينياً وإنما أصبحت تذكرة ذهاب وعودة إلى إسرائيل لمدة أسبوعين .

ويبدو أن حدة رفض نيوزنر للفكرة الصهيونية عن مركزية إسرائيل آخذة في التزايد كما يتضح في مقاله الغاضب المنشور في **الواشنطن بوست** في ١٠/ ٣/ ١٩٨٧ بعد وقوع فضيحة بولارد ، فقد أكد بلا مواربة أن الوقت قد حان للقول "إن أمريكا أفضل من القدس بالنسبة لليهود ، وإن كانت هناك أرض ميعاد فإن اليهود الأمريكيين يعيشون فيها ويشعرون بالسلام والأمن على نحو لا يمكن أن يُتاح لهم في إسرائيل . فاليهود في الولايات المتحدة طائفة مقبولة تجري مع التيار الرئيسي للحياة الأمريكية ، وينتمي سبعة أعضاء في مجلس الشيوخ الأمريكي ، أي ٧٪ من أعضاء المجلس لطائفة تشكل ٢٪ من مجموع السكان" . لكل ذلك ، دعا نيوزنر الجميع لطي المسألة وتساءل : "أين يفضل أن يعيش اليهودي ؟" والسؤال خطابي استنكاري . فالمقال يقرِّر بما لا يدع مجالاً للشك أن اليهودي الأمريكي يعيش حياة يهودية كاملة في الولايات المتحدة ، وأن الدولة اليهودية لا تشكل مركزاً روحياً بالنسبة له .

ورغم هذا الموقف الحاد ، فإن نيوزنر يُسمِّي نفسه صهيونياً ، ولا ندري بأي معنى من المعاني يمكن أن يهاجم مفكر المفاهيم الصهيونية الأساسية بهذه الحدة ويستمر في تسمية نفسه صهيونياً . ولكن رؤية قومية الدياسبورا أو ما نسميه نحن «الصهيونية التوطينية» ، مثلها مثل الرؤية الاندماجية ، قد تم استيعابها هي الأخرى داخل إطار صهيونية الدياسبورا ، وهذا ما كان يعنيه الحاخام نيوزنر نفسه حينما تحدَّث عن مركزية الدولة الصهيونية في الحياة السياسية لليهود وحسب ، وهامشيتها في حياتهم الروحية أو الحقيقية ، فهو بذلك قد قسَّم حياة اليهود والشتات إلى قسمين : قسم سطحي «صهيوني» يعبِّر عن نفسه من خلال دفع التبرعات

والضغط السياسي . والقسم الآخر ، وهو الكيان اليهودي الحقيقي ، ويقع خارج نطاق الرؤية الصهيونية ويشمل حياة اليهودي في معظم أبعادها .

ويمكننا أن نقول إن الرؤية السائدة في وجدان معظم يهود العالم هي هذه الصهيونية التوطينية التي تأخذ شكل سلوك سياسي سطحي صهيوني ، وسلوك حياتي عميق لا علاقة له بالصهيونية ، وبالتالي بإمكان يهودي من نيويورك أن يذهب للاجتماعات الصهيونية المختلفة وأن يرفع علم إسرائيل على سيارته ويرسل شيكه إلى الجباية اليهودية الموحَّدة وأن يضع نجمة داود في سترته ويرسل خطاباً لممثله في الكونجرس الأمريكي يطلب منه أن يتخذ موقفاً ممالئاً لإسرائيل (وهذا هو الجانب السياسي من حياته) ، ولكنه في الوقت نفسه يندمج في مجتمعه الأمريكي اندماجاً كاملاً ويتبنَّى المُثُل الأمريكية ويركب السيارة الفارهة ويعيش في الضواحي ، كما يمكنه أن يُطوِّر هويته (الأمريكية) اليهودية داخل إطار الحضارة الأمريكية نفسها فيدرس العبرية أو اليديشية . وإن كان كاتباً ، فإنه يكتب قصة أو قصيدة أمريكية ذات ملامح يهودية أمريكية محددة دون أن تكون للصهيونية أية مرجعية في حياته .

إ . ف . ستون (١٩٠٧-١٩٨٩)

I. F. Stone

كاتب وصحفي أمريكي يهودي ، عمل صحفياً ومراسلاً لعدد من المجلات والصحف الأمريكية منذ عام ١٩٢٢ ودرس الفلسفة في جامعة بنسلفانيا .

ويُعَدُّ ستون من المؤمنين بأن الجماعات اليهودية خارج فلسطين لها تراثها وهويتها وإسهاماتها الحضارية وبوجوب الحفاظ على هذا الوضع وتدعيمه . وهو ينظر نظرة قاتمة إلى ما يسميه قومية ليليبوت (بلاد الأقزام في رواية مغامرات جلفر) ويعني بها إسرائيل (أو الصهيونية) ، وهي قومية ضيقة الأفق إذا ما قورنت بما يسميه «قومية الشتات» بنظرتها العالمية (و«قومية الشتات» في مصطلحنا هي عبارة عن الانتماءات الثقافية والإثنية المختلفة لأعضاء الجماعات اليهودية والتي تختلف باختلاف الزمان والمكان) . ويؤكد ستون أن القومية الأولى ثمرة الاهتمام الضيق بالمصلحة القَبَلية ، أما الثانية فتنبع من رؤية إنسانية . وقد ألقَى ستون نظرة شاملة على منجزات الشتات (أي أعضاء الجماعات اليهودية في العالم) ، فوجد أن الفترات التي ازدهرت فيها حياة اليهود مرتبطة بحضارات ذات رؤية تعددية ، سواء في الفترة الهيلينية (في الإسكندرية) ، أو الفترة التي سادت فيها الحضارة العربية في الأندلس (وشمال أفريقيا) ، أو في العصر الحديث في غرب أوربا والولايات المتحدة . وهو يرى أن ازدهار حياة اليهود في الشتات وإسهاماتهم الحضارية ظاهرة إيجابية جديرة بالحفاظ عليها وتدعيمها . ولذلك ، فبدلاً من المطالبة بتصفية الوجود اليهودي في الاتحاد السوفيتي أو تهجير اليهود إلى أرض الميعاد ، وبدلاً من التهييج ضد الاتحاد السوفيتي ، يقترح حث الاتحاد السوفيتي على القضاء على معاداة اليهود وعلى مَنْح اليهود السوفييت الحقوق الخاصة بالاستقلال وحرية التعبير التي يمنحها لغيرهم من الأقليات المختلفة . ويؤكد ستون أن الصهاينة لم يتفقوا معه في المنهج لأن الصهيونية تزدهر مع الكوارث اليهودية ، فبدون هذه الكوارث لن تقوم لها قائمة . ثم يهاجم ستون الدولة الصهيونية لاضطهادها الفلسطينيين وإنكارها حقوقهم . ومن أهم مؤلفات ستون كتاب **محاكمة سقراط** .



٣
الرفض اليهودي للصهيونية

الرفض اليهودي للصهيونية والتوحد الكامل معها ـ الاتحاد المركزي للمواطنين الألمان من أتباع العقيدة اليهودية ـ حاخامات الاحتجاج ـ اليهودية الاستيطانية ـ المقاومة العربية اليهودية للصهيونية ـ التملص اليهودي من الصهيونية ـ عدم الاكتراث اليهودي بالصهيونية ـ الناطوري كارتا (نواطير المدينة) ـ بريرا ـ الأجندة اليهودية الجديدة

الرفض اليهودي للصهيونية والتوحد الكامل معها

Jewish Rejection of Zionism and Total Identification with It

«الرفض اليهودي للصهيونية» هو المقابل العربي للمصطلح الإنجليزي «جويش أنتي زايونيزم Jewish Anti-Zionism» ، وهو مصطلح أساسي ، فعن طريقه يمكننا أن نُصنِّف هؤلاء اليهود الذين يرفضون الصهيونية قلباً وقالباً بشكل جوهري ومبدئي . ولكن ثمة نقطة قصور أساسية في المصطلح وهو أنه يفترض أن اليهود ينقسمون إما إلى صهاينة أو رافضين لها ، أي أنه يقودنا إلى ضرب من الثنائيات المتعارضة البسيطة ، والتي تفصلنا ببساطتها عن الواقع . ولذا قد يكون من الأفضل أن نتجاوز هذه الثنائيات فندرك الواقع من خلال مقولات ومصطلحات تحليلية وتصنيفية أكثر دقة وتركيبية .

ويمكننا إنجاز هذا لو نظرنا إلى الرفض اليهودي للصهيونية باعتباره يُشكِّل أحد أطراف مُتصل مستمر طرفه الآخر هو القبول اليهودي غير المتحفظ للصهيونية والتعاطف بل التوحد الكامل بها وتوجد بين الطرفين المتعارضين ظلال كثيرة . وإذا كان رافضو الصهيونية أقلية والمدافعون عنها أقلية ، فأغلبية يهود العالم الساحقة توجد بينهما . فهناك «عدم الاكتراث اليهودي بالصهيونية» وهناك «التملص» منها وهناك «الصهيونية النفعية» وهكذا .

و«الرفض اليهودي للصهيونية» هو عكس «التعاطف اليهودي مع الصهيونية» . أما «التملص اليهودي» من الصهيونية أو «عدم الاكتراث اليهودي» بها ، فهما أشكال إما مخففة أو كامنة من الرفض اليهودي . وهذا الرفض يستند إلى أساسين : أساس علماني (ليبرالي أو اشتراكي أو إثني) أو أساس ديني .

وتاريخ الرفض اليهودي للصهيونية يبدأ مع تاريخ الصهيونية نفسها . وقد جاء في **موسوعة الصهيونية وإسرائيل** أن المنظمات اليهودية الرئيسية "كافة" قد اتخذت من الصهيونية موقفاً معارضاً أو موقفاً غير صهيوني (أي غير مكترث) . وقد دفعت المعارضة اليهودية القيادة الصهيونية لنقل مقر انعقاد المؤتمر الأول (١٨٩٧) من ميونخ إلى بازل . وأعلنت اللجنة التنفيذية لمجلس الحاخامات في ألمانيا ، عشية انعقاد المؤتمر ، اعتراضها على الصهيونية على أساس أن فكرة الدولة اليهودية تتعارض مع عقيدة الخلاص اليهودية . كما اتخذت المنظمتان اليهوديتان الرئيسيتان في إنجلترا (مجلس مندوبي اليهود البريطانيين ، والهيئة اليهودية الإنجليزية) مواقف مماثلة . وأعرب مؤتمر الحاخامات الأمريكيين المركزي عن معارضته التفسير الصهيوني لليهودية باعتبار أن الصهيونية تؤكد الانتماء القومي . وعارض حاخام فيينا (مسقط رأس هرتزل) فكرة إنشاء دولة يهودية لأنها فكرة معادية لليهود وتُرجع كل شيء إلى العرْق والقومية . وقد تبنت اللجنة اليهودية الأمريكية موقفاً مناهضاً للصهيونية عام ١٩٠٦ ، ثم انتهجت نهجاً غير صهيوني استمر حتى أواخر عام ١٩٤٠ . وعندما صدر وعد بلفور أعلن ٢٩٩ يهودياً أمريكياً رفضهم في الحال ، في عريضة موجهة إلى الحكومة الأمريكية ، وقعوا عليها ، على أساس أن ذلك يروج لمفهوم الولاء المزدوج . وفي ٤ مارس سنة ١٩١٩ ، بعث جوليوس كان ، عضو الكونجرس الأمريكي عن كاليفورنيا ، ومعه ٣٠ يهودياً أمريكياً بارزاً ، رسالة إلى الرئيس وودرو ويلسون يحتجون فيها على فكرة الدولة اليهودية . وأعرب أكثر الموقعين على هذا الاحتجاج عن أنهم يعبِّرون عن رأي أغلبية اليهود الأمريكيين ، وكتبوا يقولون : إن إعلان فلسطين وطناً قومياً لليهود سيكون جريمة في حق الرؤى العالمية لأنبياء اليهود وقادتهم العظماء . واستطرد البيان يقول : إن دولة يهودية لابد أن تضع قيوداً أساسية (على غير اليهود) فيما يتعلق بالجنس ، وأكد أن توحيد الكنيسة والدولة في أية صورة سيكون بمنزلة قفزة إلى الوراء تعود إلى ألفي عام . وأعرب جوليوس كان وغيره (ممن وقعوا على الاحتجاج) عن أملهم في أن ما كان يُعرَف في

الماضي بالأرض الموعودة يجب أن يصبح أرض الوعد لكل الأجناس والعقائد .

وكما أن مصطلح «صهيونية» مصطلح مختلط الدلالة ، فإن مصطلح «رفض الصهيونية» أو العداء لها يتسم بالصفة نفسها :

١ ـ ففي بعض الأحيان ، يُطلَق على اليهودي الذي يقف ضد التوسعية الصهيونية أو ضد قمع الدولة الصهيونية للفلسطينيين مصطلح «معاد للصهيونية» .

٢ ـ ويُستخدَم المصطلح نفسه للإشارة لنعوم تشومسكي الذي قرر أن السياسات الإسرائيلية والصهيونية ليستا بالضرورة مترادفتين ، ومن ثم يستطيع أي يهودي أن يشجب السياسات الإسرائيلية والتصدي لها دون أن يتخذ موقفاً معادياً للصهيونية بالضرورة ، ومع هذا صُنِّف تشومسكي معادياً للصهيونية رافضاً لها .

٣ ـ أما ألان سولومونوف ، وهو شخصية أمريكية يهودية شهيرة ، فيطالب إسرائيل بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية وأن تنشئ دولتين ، واحدة فلسطينية والأخرى إسرائيلية ، ولكنه رفض أن يتم تطبيق اصطلاح «صهيوني» أو «معاد للصهيونية» عليه . بينما نجد أن إدموند هاناور (مؤسس جماعة سيرش) يطالب بالمطالب نفسها ، ويُسمِّي نفسه مع هذا «معادياً للصهيونية» .

٤ ـ يرى الصهاينة أن العداء اليهودي للصهيونية إنما هو شكل من أشكال كُره اليهودي لنفسه .

ونحن نذهب إلى أن اليهودي الذي يرفض الصهيونية هو اليهودي الذي يرفض الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة .

والرفض اليهودي للصهيونية ينقسم إلى قسمين أساسيين : ديني وعلماني :

١ ـ الرفض الديني :

أ) الرفض الأرثوذكسي : يرى بعض اليهود الأرثوذكس ورثة اليهودية الحاخامية (انطلاقاً من رؤيتهم الدينية) أن العودة إلى أرض الميعاد لا يمكن أن تتم إلا بعد ظهور الماشيَّح المخلِّص في آخر الأيام على أن يقوم هو بقيادة شعبه اليهودي . وبناءً على ذلك ، تكون الحركة الصهيونية ، بمحاولتها اتخاذ خطوات عملية (مادية علمانية) لإقامة وطن قومي يهودي ، إنما تدخل في أخص خصوصيات الإرادة الإلهية ، أي أنها نوع من التجديف والهرطقة ، وتأسيس أية دولة علمانية في فلسطين على يد اليهود هو خرق للتعاليم التوراتية . إن الشعب اليهودي ليس شعباً مثل كل الشعوب وإنما هو أمة من الكهنة ، كما أن العهد المبرم بينهم وبين الرب عهد ديني من نوع خاص وليس عهداً قومياً كما يتخيل الصهاينة . ويرى هؤلاء الأرثوذكس ضرورة الإبقاء على اليديشية لغةً للتعامل اليومي ، فالعبرية هي اللسان المقدَّس . وقد قامت جماعة أجودات إسرائيل بالوقوف في وجه الصهيونية . ومن أهم الشخصيات الأرثوذكسية المعارضة ، جيكوب دي هان وناثان بيرنباوم . لكن التيار الصهيوني ، اكتسح جماعة أجودات إسرائيل ، شأنها شأن كثير من الجماعات الدينية اليهودية ، ولم يبق الآن من ممثلي هذا التيار سوى نواطير المدينة وجماعات أخرى متفرقة في أنحاء العالم .

ب) الرفض الإصلاحي :

تَصدُر اليهودية الإصلاحية عن شكل جديد من أشكال الحلولية ، وهو ما نسميه «حلولية شحوب الإله» إذ يرون أن الإله قد حل لا في الأمة اليهودية ولا في الأرض اليهودية ولا حتى في التاريخ اليهودي وإنما في روح التقدم والعصر ، ولذا فهم يرون أن اليهود ليسوا شعباً وإنما أقليات دينية ، وأن الماشيَّح ليس شخصاً وإنما عصر مشيحاني تتحقق فيه كل قيم التقدم والعدالة وهو ليس مقصوراً على اليهود وحدهم . ولذا ، فإن اليهودية الإصلاحية تقف ضد الصهيونية بشراسة لأن الصهيونية تصر على أن موضع الحلول هو الشعب اليهودي والأرض .

ومن أهم الشخصيات اليهودية المعادية للصهيونية على أساس إصلاحي ، كلود مونتفيوري ، والحاخام إلمر برجر . وقد حدث تغيُّر جوهري على اليهودية الإصلاحية ، إذ اكتسحها التيار الصهيوني ، وتمت صهينتها من الداخل ، وأصبحت مُمثَّلة في المنظمة الصهيونية العالمية . كما تم تعديل كتاب الصلوات الإصلاحي بحيث أصبح يضم إشارات وعبارات صهيونية .

وكان دعاة اليهودية المحافظة في بداية الأمر من رافضي الصهيونية . وبسبب تَماثُل بنيتها وبنية الصهيونية (الشعب مركز الحلول) ، تمت صهينة اليهودية المحافظة تماماً وبسرعة ، وتشبهها في ذلك اليهودية التجديدية .

٢ ـ الرفض العلماني .

أ) الرفض الليبرالي : يؤمن الليبراليون بمُثُل عصر الاستنارة ، ووجوب فصل الدين عن الدولة ، وأن اليهود ليسوا شعباً وإنما أقلية دينية ، وأنهم ليسوا أمة من الكهنة وإنما مواطنون عاديون يتجه ولاؤهم إلى الدولة التي يعيشون فيها ، وأن اليهود ليس لهم تاريخ مستقل وإنما يشاركون الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها تجاربهم التاريخية . فتاريخهم فرنسي في فرنسا ، وإنجليزي في إنجلترا ، واللغة التي يجب أن يتحدثوا بها هي لغة الوطن الذي يعيشون فيه . وعلى هذا ، فإن حل المسألة اليهودية لن يتأتى إلا عن طريق مزيد من

الاندماج . بل إنهم يعتبرون الحركة الصهيونية عقبة كأداء تقف في طريق الاندماج السوي . ومعظم الذين يشكِّلون هذا التيار هم من أعضاء الطبقات الوسطى في أوربا الغربية والولايات المتحدة والذين لم يجدوا صعوبة اقتصادية أو حضارية في الاندماج . ومن أهم الرافضين للصهيونية على أساس ليبرالي إدوين مونتاجو وهانز كون وموريس كوهين .

وقد تسبَّب إعلان دولة إسرائيل وصداقتها للعالم الغربي الرأسمالي في تَساقُط الجمعيات التي تعبِّر عن هذا الاتجاه ، ولم يبق منها سوى جمعيات متفرقة مثل المجلس الأمريكي لليهودية ، الذي يخضع الآن بعض الشيء للنفوذ الصهيوني ، وهو ما اضطر الحاخام برجر للاستقالة منه وتكوين جمعية صغيرة مستقلة تحت اسم «بديل يهودي للصهيونية» .

ب) الرفض الاشتراكي : يَصدُر الرفض الاشتراكي اليهودي للصهيونية عن تَصوُّر أن اليهود أقلية دينية وأن ما يسري على كل الأقليات يسري عليهم ، وأن حل المسألة اليهودية يكون عن طريق حل المشاكل الاجتماعية والطبقية للمجتمع ككل . وقد كان هذا هو الحل الأكثر شيوعاً بين صفوف الشباب اليهودي في روسيا وبولندا وبين صفوف العمال اليهود ، الأمر الذي جعل الوجود اليهودي في صفوف الحركات الثورية في شرق أوربا وروسيا أمراً ملحوظاً (وقد أفزع هذا أثرياء اليهود في الغرب أمثال روتشيلد ، فساهموا في تمويل الحركة الصهيونية ليحولوا الشباب والعمال عن طريق الثورة) . وقد هُزم هذا التيار في الأربعينيات والخمسينيات بعد ظهور دولة إسرائيل ، لكنه بدأ في الظهور مرة أخرى في الغرب خصوصاً بعد أن ظهرت بوضوح الطبيعة الاستعمارية للدولة الصهيونية . ويُلاحَظ أن قطاعات كثيرة من اليسار الجديد في الغرب تعادي إسرائيل رغم (أو بسبب) وجود كثير من الشباب اليهودي الساخط على قيم المجتمع الرأسمالي الاستهلاكي الذي تمثله الدولة الصهيونية في العالم الثالث .

وقد ضم تيار الرفض الاشتراكي اليهودي للصهيونية عبر السنين عدداً كبيراً من المفكرين اليهود البارزين ، مثل : روزا لوكسمبرج وليون تروتسكي وإليا إهرنبورج وكارل كاوتسكي . وفي السنوات الأخيرة ، ضمت القائمة ماكسيم رودنسون وإسحق دويتشر وبرونو كرايسكي . ولا يزال عدد كبير من المنظمات اليسارية في أوربا والولايات المتحدة ، التي تضم في صفوفها أعداداً كبيرة من اليهود ، تنتهج موقفاً مناهضاً للصهيونية والاستعمار .

جـ) الرفض من منظور قومية الدياسبورا : يرفض دعاة قومية الدياسبورا الصهيونية لأنهم يرون أن اليهود يكوِّنون أقليات قومية لها هويات مستقلة خارج فلسطين . وحين يتحدث دعاة قومية الدياسبورا عن اليهود ، فهم يشيرون لا إلى أقلية قومية أو حتى إلى أمة قومية ، ولكنهم في واقع الأمر يشيرون إلى أقلية إثنية . وحيث إن معظم دعاة هذا الاتجاه كانوا يتحدثون باسم غالبية يهود العالم ، وهم يهود اليديشية ، فإنهم يتحدثون في العادة عن القومية اليديشية التي تكونت هوية أعضائها تحت ظروف خاصة .

ولكن ، إلى جانب هذا التيار ، بدأ يظهر تيار مماثل بين يهود أمريكا يرى أن هويتهم الحقيقية هي هوية أمريكية يهودية تستحق الحفاظ عليها ، ومن ثم ينبغي عدم تصفيتها أو إخضاعها للدولة الصهيونية .

د) وهناك أخيراً حبيب شيفر الذي يرفض الصهيونية باعتبارها مؤامرة شيوعية وعلى أساس أن الدولة الصهيونية هي أداة في يد الاتحاد السوفيتي لتخريب العالم الحر . وغني عن القول أن مثل هذه الدعاوى قد تهاوت تماماً في الوقت الحاضر .

هذه هي التيارات الأساسية في الرفض اليهودي للصهيونية . ويمكن القول من ناحية التطور التاريخي بأن العداء اليهودي للصهيونية كان قوياً للغاية حتى إعلان وعد بلفور ، حين تم توقيع عقد بين الحضارة الغربية والصهاينة الذين ادعوا تمثيل الشعب اليهودي ، وقد أُزيل بالتالي احتمال ازدواج الولاء . ومع إعلان الدولة الصهيونية دولة وظيفية في خدمة الاستعمار الغربي ، أصبح من العبث معارضتها بل أصبح من المنطقي تبنِّي العقيدة الصهيونية باعتبارها العقيدة التي تُدخل اليهود في نطاق الحضارة الغربية وتُوظِّفهم لصالحها ، وهذا ما حدث لمعظم يهود العالم الغربي ومنظماتهم . لكن المقاومة اليهودية للصهيونية ، مع هذا ، لم تنته تماماً ، فقد بدأت تظهر شخصيات وتنظيمات جديدة معارضة للصهيونية أو متملصة منها ، من أهمها بريرا والأجندة اليهودية الجديدة .

الاتحاد المركزي للمواطنين الألمان من أتباع العقيدة اليهودية

Central-Verein Deutscher Staats-Burger Judischen Glaubens

منظمة يهودية ألمانية أُسِّست في برلين عام ١٨٩٣ بهدف كفالة المساواة المدنية والاجتماعية بين اليهود وغيرهم من الرعايا الألمان . وقد عملت المنظمة على توحيد اليهود الألمان كافة في إطار تنظيمي واحد بغض النظر عن تباين انتماءاتهم السياسية أو تصوراتهم الدينية ، كما سعت إلى تعزيز الانتماء الألماني في أوساط اليهود .

وقد اعتبرت المنظمة أن يهود ألمانيا يشكلون جماعة دينية لا جماعة قومية وأنهم جزء لا يتجزأ من الأمة الألمانية ، كما كانت ترى أن حل مشاكل اليهود الألمان يجب أن يتم في إطار الدولة الألمانية وليس بالانفصال عنها . ومن هذا المنطلق ، عارضت المنظمة النزعات الانعزالية في أوساط اليهود ، واتخذت موقفاً مضاداً من المشروع الصهيوني ، وخطط تهجير اليهود إلى فلسطين وتوطينهم هناك . إلا أن هذا الموقف كان يفتقر إلى التماسك والصلابة حيث شاركت المنظمة في أعمال الوكالة اليهودية ، كما ساهمت في تمويل مشاريع الاستيطان اليهودي في فلسطين من خلال منظمة التأهيل والتدريب (أورت) واللجنة الأمريكية اليهودية المشتركة للتوزيع وجمعية الاستيطان اليهودي (إيكا) . ولكن يُلاحَظ أن نشاط بعض هذه الجمعيات كان نشاطاً يهودياً توطينياً يهدف إلى تحويل هجرة يهود اليديشية من أوربا إلى أماكن متفرقة من العالم ، وليس إلى فلسطين بالضرورة ، لأن هؤلاء المهاجرين كانوا يهددون مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية . ولذا ، فالنشاط التوطيني هنا ليس ذا مضمون صهيوني ، وخصوصاً أن هذه الجمعيات كانت تحاول أيضاً المساهمة في عملية دمج المهاجرين اليهود في مجتمعاتهم .

وقد كرست المنظمة جل طاقتها لمواجهة حملات العداء لليهود ، ونشر الكتابات الرامية إلى التعريف باليهودية ، كما كانت تقوم بتمويل ومؤازرة الدعاوى القانونية ضد التشهير باليهود أو باليهودية . وبعد وصول هتلر إلى السلطة عام ١٩٣٣ ، اتجهت المنظمة إلى تقديم الاستشارات القانونية والاستثمارية لليهود الألمان .

وقد تغيَّر اسم المنظمة في عام ١٩٣٥ ليصبح «الاتحاد المركزي لليهود في ألمانيا» ، ثم تغيَّر ثانيةً عام ١٩٣٦ ليصبح «الاتحاد المركزي اليهودي» ، ثم تم حلها في عام ١٩٣٨ وجرى دمجها في منظمة المجلس الموحَّد لليهود الألمان .

ويُلاحَظ أن النازيين كانوا لا يفضلون التعامل مع الاتحاد المركزي للمواطنين الألمان بسبب اتجاهاته الاندماجية إذ أن النازيين يؤمنون بالشعب العضوي الذي لا يمكن أن يندمج فيه أعضاء الشعوب . ولذا ، ومن وجهة نظرهم ، كان دعاة الاندماج بين الألمان اليهود هم الأعداء الحقيقيون الذين يزيفون الواقع ويودون التسلل في صفوف الألمان بهدف تخريبهم من الداخل ، هذا على عكس الصهاينة الذين يؤمنون مثلهم بفكرة الشعب العضوي اليهودي ، ومن ثم يقفون ضد الاندماج . ولكل هذا ، كان النازيون يؤثرون التعامل معهم .

حاخامات الاحتجاج

Protest Rabbis

استخدم هرتزل مصطلح «حاخامات الاحتجاج» عام ١٨٩٧ ليصف به مجموعة من الحاخامات الألمان الذين احتجوا على انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول وحذروا قيادات الطائفة اليهودية والحاخامات من الاشتراك . وقد نجم عن الاحتجاج الأول تغيير مكان انعقاد المؤتمر الذي كان قد خُطِّط له أساساً أن ينعقد في ميونخ . وبعد أن فشل حاخامات الاحتجاج في منع انعقاد المؤتمر الأول ، نشروا مقالاً مؤداه أن الصهيونية تناقض آمال اليهود .

ونظراً لانفصال هرتزل (وبقية أعضاء القيادة الصهيونية) عن الدين اليهودي ، وعدم إدراكهم كثيراً من مفاهيمه ، فإن هذا الهجوم كان يمثل مفاجأة كاملة بالنسبة إليهم . فكتب نوردو يتحدث عن خيانة الحاخامات وكيف أنهم "يجب أن يحافظوا على حب اليهود لشعبهم ولإرتس يسرائيل" . وقد كان نوردو يجهل أن الحب التقليدي لصهيون هو حب ديني لا يترجم نفسه إلى عودة جسدية حرفية بل يحرِّم مثل هذه العودة ، وأنه يختلف تماماً عن الحب القومي العلماني لأرض الأجداد الذي يُترجم نفسه إلى استيطان .

اليهودية الاستيطانية

Settler Judaism

«اليهودية الاستيطانية» مصطلح يعني أن اليهودية قد تم علمنتها تماماً واستيعابها في المنظومة الصهيونية حتى أصبح أعضاء الجماعات اليهودية يظنون أن اليهودية هي الصهيونية وأن أهم عمل ديني يهودي هو الاستيطان ، وبخاصة في الضفة الغربية . وقد نحت المصطلح بعض أعضاء الجماعات اليهودية من المعارضين لعملية دمج اليهودية بالصهيونية والتوحيد بينهما .

المقاومة العربية اليهودية للصهيونية

The Resistance of Jewish Arabs to Zionism

تباينت مواقف يهود الأقطار العربية تجاه الصهيونية ، ووصل الأمر ببعضها حد مقاومة هذه الحركة . وإذا كان طبيعياً أن تجد الصهيونية من يؤيدها وسط هؤلاء ؛ فإن من الطبيعي ، أيضاً ، أن يعارضها آخرون منهم ، وأن يناصبوها العداء ؛ بعضهم بسبب فكره الماركسي ، المعادي للصهيونية ، أصلاً ؛ والبعض الآخر لوعيه بأن الصهيونية ستجلب على اليهود عداء العرب ، وتضرب مصالح اليهود في الأقطار العربية ، التي طالما ظلَّلهم التسامح الذي سادها .

لعل أهم المنظمات التي أسسها يهود من الأقطار العربية، وعملت على محاربة الصهيونية، "عصبة مكافحة الصهيونية" في العراق؛ و"الرابطة الإسرائيلية لمكافحة الصهيونية" في مصر.

وما أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)، حتى صعَّدت الإدارة الأمريكية جهودها الرامية إلى التعجيل بإقامة الدولة اليهودية. وفي العراق سمحت حكومته بتشكيل أحزاب سياسية؛ وهو ما حدا باللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي (السري)، أواسط سنة ١٩٤٥، إلى طلب ترخيص لحزب سياسي علني، باسم "حزب التحرر الوطني"؛ فيما كلفت اللجنة المركزية أعضاء يهود في الحزب الشيوعي بالعمل من أجل تأسيس منظمة جماهيرية لمكافحة الصهيونية. وكان اليهود يشكلون في العراق أقلية نشيطة، اقتصادياً وسياسياً وثقافياً؛ الأمر الذي أهَّلهم لاحتلال موقع متميِّز في المجتمع العراقي.

أما الأعضاء الذين كلفوا من قبل اللجنة المركزية للحزب، فهم: يهودا صديق؛ ويوسف هارون زلخة؛ ومسعد قطّان؛ وإبراهيم ناجي؛ ويعقوب فرايم؛ ونعيم شوع؛ ويوسف زلوف. حيث عقدوا عدة اجتماعات، صاغوا خلالها برنامجاً سياسياً، ونظاماً داخلياً لعصبة مكافحة الصهيونية، التي طلبوا ترخيصاً لها من الحكومة العراقية. وما إن حصلوا عليه، حتى تألفت هيئة إدارية للعصبة، ترأسها يوسف هارون زلخة؛ فيما ترأس هيئة الرقابة يهودا صديق.

وقد كان يهود العراق في أمسّ الحاجة إلى توثيق صلاتهم بالشعب العراقي، وتحقيق اندماجهم فيه، وإقناعه بانعدام الصلة بين يهود العراق والحركة الصهيونية.

أصدرت العصبة عدة كراسات؛ كما عمدت إلى نشر برنامجها، جماهيرياً؛ وعقدت اجتماعات ومؤتمرات جماهيرية حاشدة في مقرها، بالكرخ، أحد أحياء العاصمة العراقية، بغداد؛ وأصدرت جريدتها **العصبة**، عن دار الحكمة للطباعة، المملوكة للعصبة نفسها. ونشرت هذه الجريدة سلسلة مقالات، شرحت أهداف العصبة، سرعان ما جمعتها قيادة العصبة، وأصدرتها في كتاب، حمل عنوان **نحن نكافح في سبيل من؟ وضد من نكافح؟**. وفيه فصلت اليهودية عن الصهيونية، "المرتبطة بالاستعمار العالمي، وعلى رأسه الاستعمار الأمريكي". مؤكدة أنه "ليس لليهود قضية منفصلة عن قضايا شعوبهم". واعتبر الكتاب الصهيونية "عميلاً للإمبريالية، وأداة لها"؛ ورأت في "الفاشية والصهيونية توءمين لبغيٍ واحدة، هي العنصرية". وأكدت أن الصهيونية إنما تهدف إلى دق إسفين بين اليهود والعرب، بما يصرف هؤلاء وأولئك عن النضال الوطني. ويعلن الكتاب عداء العصبة للوطن القومي اليهودي، لأنه "يُفرِّق بين اليهود ومواطنيهم في الوطن الواحد، ولأنه يستهدف شطر فلسطين العربية عن جسم البلاد العربية، وإفناء شعبنا العربي". ورغم أن الصهيونية تتلون أمام اليهود، بما يرضي فريقاً منهم، إلا أن دينها "نفاق ورياء، وقوميتها عنصرية اعتدائية، واشتراكيتها انتهازية". ورأى الكراسة أن الصهيونية تطمع، فقط، في إغراق الأسواق بالبضائع، لتضرب الصناعة الوطنية، وتسيطر على التجارة. أما تبنِّي الاستعمار للصهيونية، فلأنها أداته في قلب الوطن العربي. واعتبرت العصبة غياب الديموقراطية عن الأقطار العربية عاملاً منشطاً للصهيونية في هذه الأقطار. وطالبت بضرورة إشراك المنظمات الشعبية في الكفاح من أجل طرد الاستعمار البريطاني، الذي أوجد الصهيونية في فلسطين.

حين حلَّت الذكرى الثامنة والعشرون لصدور وعد بلفور (٢/ ١١/ ١٩٤٥)، أصدرت العصبة بياناً، ضمَّنته استنكارها هذا الوعد. وأضاف البيان أن "الاستعمار يستطيع أن يتكرم بفلسطين، مئات المرات، طالما أنها ليست بلاده، وطالما أنه يجد في ذلك ربحاً له ومغنماً". واعتبر البيان غاية الاستعمار وعميلته الصهيونية من "وعد بلفور"، تحويل "نضال العرب، الموجَّه ضد الاستعمار، نحو جماهير اليهود، وبذلك تخلق منهم حاجزاً يختفي وراءه الاستعمار، ولو كان المستعمرون يعطفون، حقاً، "على اليهود لعاملوهم معاملة طيبة في أوربا". وأكد بيان العصبة "أن حل المشكلة اليهودية يتم بحل مشكلة البلدان التي يعيش فيها اليهود. أما [حل] فلسطين، فهو فضلاً عن أنه لا يحل المشكلة اليهودية، فهو اعتداء صريح غاشم على حقوق الشعب العربي". ودعت قيادة العصبة في بيانها المواطنين "إلى النضال من أجل استقلال فلسطين، استقلالاً تاماً، وتأليف حكومة ديموقراطية عربية فيها، ومنع الهجمة الصهيونية إلى فلسطين؛ وإيقاف انتقال الأراضي إلى الصهاينة". وهي أهداف الحركة الوطنية الفلسطينية نفسها آنذاك.

في فبراير ١٩٤٦، تقرَّر إرسال لجنة تحقيق أنجلو ـ أمريكية إلى فلسطين، لبحث إمكانية استيعابها مئة ألف مهاجر يهودي جديد؛ فأصدرت العصبة بياناً، ذكَّرت فيه بما كانت رددته، قبلئذ، من "أن مشكلة فلسطين يجب أن تُفصَل عن المشكلة اليهودية، لأن المشكلة الأولى ما هي إلا مشكلة شعب يناضل في سبيل حريته واستقلاله". وتساءل بيان العصبة: "فإذا كانت المشكلة اليهودية لا تربط بمشاكل الشعوب المناضلة الأخرى، فلماذا ـ إذن ـ تربط بمشكلة الشعب

الفلسطيني العربي المناضل ؟ !" . يردف البيان ، مؤكداً " . . . وأن قضية فلسطين لا تحتاج إلى تحقيق" . وزود البيان بقرار سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين القاضي بالسماح ، شهرياً ، بهجرة ألف وخمسمائة يهودي إلى فلسطين . وشددت العصبة في بيانها على "أن العرب لا يمكن أن يحصلوا على حرياتهم واستقلالهم ، إلا بالاعتماد على أنفسهم ، وبالتعاون مع قوى الشعوب المعادية للظلم والاستعمار" . وطالب البيان رؤساء الحكومات العربية بالعمل على رفع قضية فلسطين إلى مجلس الأمن الدولي ، لإلغاء الانتداب ، ومنحها استقلالاً تاماً .

في الوقت نفسه ، بادرت العصبة إلى إرسال مذكرتين ، أولاهما إلى رؤساء الحكومات العربية ، وثانيتهما إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية ؛ نددت فيهما باللجنة الأنجلو ـ أمريكية ، بعد أن اعتبرتها ستاراً مهلهلاً "يختفي وراءه الاستعماران البريطاني والأمريكي ، بقصد القيام بهجوم جديد ، لدعم الصهيونية ، وتثبيت أقدام الاستعمار في فلسطين ، وباقي البلاد العربية" .

في السياق نفسه ، أصدرت العصبة بياناً "إلى الجماهير العربية" ، ندَّدت فيه بقرار الكونجرس الأمريكي السماح لمئة ألف يهودي بالهجرة إلى فلسطين . ونبهت العصبة إلى مؤامرة بريطانية ترمي إلى تقسيم فلسطين . وأكدت عجز اللجنة الأنجلو ـ أمريكية "عن إصدار حكم يمس جوهر القضية . . . إلغاء الانتداب البريطاني ، وتأليف حكومة وطنية ديموقراطية في فلسطين" . وانتهى بيان العصبة إلى "أن حل قضية فلسطين لن يتم إلا عن طريق توحيد نضال الشعوب العربية ، واعتمادها ـ بالدرجة الأولى ـ على كفاحها الوطني المشترك ، وعلى رفع قضية فلسطين إلى مجلس الأمن . . . " .

بمجرد صدور بيان اللجنة الأنجلو ـ أمريكية ، شاركت العصبة ، أواخر مايو ١٩٤٦ الحزب الشيوعي العراقي وحزب التحرر الوطني [تحت التأسيس] ، في تنظيم مظاهرة حاشدة ، ندَّدت بهذا البيان الاستعماري ، واصطدمت بقوات الجيش العراقي ، وهو ما دفع الحكومة العراقية إلى تعطيل صحيفة العصبة لمدة سنة . فوجهت العصبة مذكرة إلى رئيس جمعية الصحفيين في بغداد ، رأت فيها أن "للاستعمار والصهيونية دخلاً ، قد حمل السلطات على إصدار قرار التعطيل . . . لغرض إيقاف الحملة الوطنية المثارة ، اليوم ، في سبيل فلسطين العربية" ؛ وأن هذا التعطيل "معناه تكميم أفواه الشعب . معناه تجريده من أداة فعالة ، توجه نضاله . معناه ترك البسطاء من أبناء شعبنا فريسة الدعايات الأجنبية .

في يونيه ١٩٤٦ ، اعتقلت الحكومة العراقية قادة العصبة ؛ لكن بعد أن حرثت العصبة عميقاً في الحياة السياسية والفكرية للمجتمع العراقي ، فكشفت أغراض اللجنة الأنجلو أمريكية ، وطالبت بانتزاع قضية فلسطين من أيدي الحكومات البريطانية ، ونقلها إلى مجلس الأمن ، ودعت إلى إغلاق الحدود في وجه الجيش البريطاني ، المتنقل بين العراق وفلسطين ، وعملت على أن يُنظِّم الدفاع عن فلسطين على أساس شعبي ، "يعتمد على قوانا الداخلية ، وعلى حقنا الدولي" ؛ ونبذ "حُسن الظن بالمستعمرين" ، أو انتظار حل مشاكلنا الوطنية على أيدي "لجانهم التحقيقية ، وموائدهم المستديرة" . كما دأبت العصبة على دعوة المنظمات الشعبية الديموقراطية في الأقطار العربية إلى مؤتمر يوحد جهودها "من أجل تحرير فلسطين والبلاد العربية" . ولطالما لجأت العصبة إلى عقد مؤتمرات جماهيرية حاشدة ، لتعبئة الشعب العراقي في هذا الصدد . كما ألغمت الاستعمار البريطاني في أهم قاعدة اجتماعية يستند إليها ، وهي الأقليات الدينية والعرْقية . لذا كان طبيعياً أن تحتل صحيفة العصبة المكان الأول بين الصحف العرْقية ، من حيث المادة وكمية المطبوع . فضلاً عن أن العصبة قدمت القضية الفلسطينية إلى الشعب العراقي "بشكل علمي واقعي" ؛ وعرَّت الصهيونية ، وفضحت أغراض الاستعمار ، وروابطه بالصهيونية .

بيد أن محكمة عراقية أصدرت حكمها بالسجن المؤبد على يوسف هارون زلخة ، مدعية أنه إنما يترأس عصبة للكفاح من أجل الصهيونية لا ضدها . فيما كانت الحكومة العراقية تعجل بتهجير زهاء مائة وثلاثين ألف يهودي من العراق إلى فلسطين المحتلة ، مقابل عشرة دنانير عن كل مهاجر يصل إلى هناك ، تدخل جيوب متنفذين في الحكومة العراقية .

في السياق نفسه تكوَّنت ، في مصر ، أواسط سنة ١٩٤٦ ، "الرابطة الإسرائيلية لمكافحة الصهيونية" ، بمبادرة من منظمة "إيسكر" الشيوعية المصرية السرية ، حيث كلفت "قسم اليهود" في المنظمة بتأسيس هذه الرابطة ، بعد تعاظُم الخطر الصهيوني ، والتهاب القضية الفلسطينية ، وهو ما تطلَّب تنظيماً جماهيرياً ، يؤكد انفصال الدين اليهودي عن الصهيونية ، الحركة السياسية الموالية للاستعمار ، ومن هنا عداء الصهيونية لليهود ، فضلاً عن عدائها للحركات الوطنية . كما يناضل هذا التنظيم ضد الصهيونية ولأن هذا التنظيم سيحصر نشاطه في الوسط اليهودي المصري ، لذا كان طبيعياً أن يقوم على أكتاف اليهود . هكذا تأسست "الرابطة الإسرائيلية لمكافحة الصهيونية" . ولخصت أهدافها "في محاربة العنصرية ،

ومكافحة الاستعمار ، وربيبته الصهيونية" . وشدَّدت على أن جماهير اليهود تعادي الصهيونية . ودعت الرابطة إلى "تكتيل جميع العناصر الوطنية المخلصة ، لتحطيم الاستعمار ، وقهر الصهيونية ، وإيجاد شرق عربي حر مستقل ، يظلله التسامح ، وجو الأخاء المطهر من العنصرية العصبية المقيتة ، التي لن يكسب من ورائها سوى الغاصب المحتل" .

ضمت اللجنة التأسيسية للرابطة في عضويتها : عزرا هراري (أمين السر) ؛ ومارسيل إسرائيل ؛ وإدوار متالون ؛ وهانزين كاسفلت ؛ وإدوارد ليني .

رأت الرابطة أنها بمناهضتها للصهيونية "تخدم المصالح الحقيقية للطائفة اليهودية المصرية" وقد وقعت الرابطة بين مطرقة الحكومة المصرية المستبدة ، وسندان الصهيونية النشيطة في مصر . مع ذلك ، نجحت الرابطة في إصدار كراسة واحدة ، في يونيه ١٩٤٦ . وفي مايو ١٩٤٧ اعتقلت حكومة محمود فهمي النقراشي المصرية أعضاء اللجنة التأسيسية للرابطة ، وأفرجت عنهم ، بعد ٤٨ ساعة .

في الكراسة عددت الرابطة أهدافها ، في :

"١) الكفاح ضد الدعاية الصهيونية التي تتعارض مع مصالح كل من اليهود والعرب .

٢) الربط الوثيق بين يهود مصر والشعب المصري ، في الكفاح من أجل الاستقلال والديموقراطية .

٣) العمل على حل مشكلة اليهود المشردين" .

رغم عمر الرابطة القصير ، إلا أنها نجحت في إلقاء حزمة أضواء على طبيعة الصهيونية ، وروابطها الحميمة بالاستعمار ، وخطرهما على الحركات الوطنية العربية وعلى جموع اليهود ؛ كما أوضحت الرابطة أن الدولة اليهودية ستساعد على تثبيت أقدام المستعمرين في المنطقة ، وتربط اليهود بعجلة الاستعمار ، وتصبح الدولة رأس الرمح الاستعماري ضد شعوب البلاد العربية" .

وأدانت الرابطة الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، التي تعارضها أغلبية الشعب الفلسطيني ، وتؤدي "بإخواننا اليهود إلى أن يعيشوا في جو حرب أهلية في فلسطين" . وأعربت الرابطة عن ثقتها في أن "فلسطين الحرة المستقلة ستشترك ـ عن طيب خاطر ـ مع الدول الديموقراطية الأخرى ، في إيواء اليهود المشردين" . واقترحت الرابطة حلاً لمسألة المشردين اليهود ، مؤداه "إعادتهم إلى البلاد التي طردتهم منها ـ الفاشية" ، واستقبال من يُرفَض منهم في سائر الأقطار .

كما ندَّدت الرابطة بالإرهاب الصهيوني في فلسطين ، ووصفته بالفاشية ، وبأنه موجَّه ضد الجماهير اليهودية ، ولحساب المستعمرين ؛ الذين وجدوا فيه ذريعة لاستمرار قمعهم للشعب الفلسطيني . ورأت الرابطة في "تكوين جبهة موحدة مع الحركة التحريرية العربية في سبيل فلسطين حرة مستقلة ديموقراطية . . . طريق الخلاص الوحيد للجماهير اليهودية في فلسطين" .

وفيما يتصل بالتأييد الذي تلقاه الصهيونية في أوساط اليهود المصريين ، قدمت الرابطة تفسيراً طبقياً . ذلك أن أغلب يهود مصر ينتمون إلى الطبقات المتوسطة ؛ "فصاحب الخدمة اليهودي ، والتاجر الصغير ، والمستخدم ، الذين يقاسون شظف العيش ، كثيراً ما يقعون فريسة للدعاية الصهيونية ، التي تجعلهم يحلمون بالهرب من حياتهم الصعبة ، ليعيشوا في فلسطين . . . [إضافة إلى] ضغط أصحاب الأعمال الصهيونيين ، أو المجندين للصهيونية" . ولا ترى الرابطة من سبيل أمام يهود مصر إلا "الانضمام إلى الحركة الوطنية المصرية ، والتضامن التام معها ، في سبيل تحقيق جميع أهدافها ، إذ لا تختلف مصالح الجماهير اليهودية ، بتاتاً ، عن مصالح الشعب المصري ، عادةً" .

أما العداء لليهودية ، فترى الرابطة أنه سلاح في أيدي أعداء التقدم والحرية . وأن المشكلة اليهودية أصبحت ، اليوم ، ذات ثلاثة جوانب متمايزة : أولها مشكلة الأقليات اليهودية في أرجاء العالم ؛ وثانيها يهود فلسطين ؛ وثالثها اليهود الذين لا مأوى لهم . وأنكرت الرابطة على اليهود حق إقامة دولة خاصة بهم . وأكدت أن العداء لليهودية لا يتقدم إلا حيث تتراجع الديموقراطية . واتهمت الرابطة الصهيونيين "بصرف اليهود عن الكفاح ضد عدوهم الأول ـ ألا وهو الفاشية" . ورأت "أن سلام الأقليات اليهودية لن يُكفَل ، إلا بالتحالف مع القوى الديموقراطية ، التي بتحقيقها للحرية والرفاهية لكل الشعب ستحقق بهذا الحرية والرفاهية لليهود" .

وانتهت الرابطة في كراستها إلى أن "الطريق الوحيد الذي يجب أن يسلكه يهود فلسطين هو التفاهم مع العرب ، والاتحاد معهم، لتحرير فلسطين من نير الاستعمار" . ذلك "أن فلسطين مستقلة ديموقراطية هي الوحيدة التي تستطيع أن تضمن للسكان اليهود حياة رغدة ، حرة ، ومثمرة" .

ما كان لنشاط الرابطة أن يستمر دون رد فعل عنيف من الحركة الصهيونية في مصر ، التي استقرت بالبوليس المصري وببعض البلطجية ، وعمدت إلى طرد الشيوعيين اليهود من نادي مكابي القاهرة . وفي السياق نفسه ، اجتمعت الجمعيات الصهيونية في مصر ، واعتمدت ميزانية مقدارها عشرة آلاف جنيه ، لمحاربة الشيوعيين اليهود في مصر وأنشطتهم المتزايدة .

تصاعدت المواجهة بين الصهيونيين والشيوعيين اليهود ، ولجأ الأخيرون إلى نشر مقالات في يومية **صوت الأمة** القاهرية الوفدية ، ومنها كشف انتساب البورجوازية اليهودية في مصر للصهيونية . كما ألقت هذه المقالات الضوء على " أوكار الصهيونية في مصر " ؛ وفي مقدمتها "مكابي القاهرة" ، مقر النشاط التخريبي والدعوة للصهيونية . حيث تعلو جدرانه شعارات تدعو للهجرة إلى فلسطين "الوطن القومي لليهود" ؛ وتشيد بالصهيونية ، باعتبارها حركة وطنية .

في مجال كشف "الأوكار الصهيونية" ، نشرت **صوت الأمة** حلقة أخرى ، خصصتها لكشف "شركة الإعلانات الشرقية" ، باعتبارها وكراً صهيونياً . وكانت الشركة تصدر صحيفتين بالفرنسية (**لابورص ؛ و البروجريه**) ؛ وصحيفتين أخريين بالإنجليزية (**الإجيشيان جازيت ؛ و الإجيشيان ميل**)" . وعادت ملكية الشركة لبعض الصهاينة والإنجليز . وجعلت مهمتها الدفاع عن الاستعمار والصهيونية ، ومهاجمة الوطن والوطنيين المصريين ، حتى وصفتهم "بأنهم جماعة من الرعاع" . ولطالما أثارت خوف الأجانب "من الحركة الوطنية في مصر" . وأدانت صحف هذه الشركة "الحركة الوطنية العربية في فلسطين بأنها حركة رجعية" . وألقى مقال **صوت الأمة** الضوء على احتكار هذه الشركة للإعلانات في مصر ، وهو ما أوقع عدداً كبيراً من الصحف والمجلات المصرية تحت سيطرة هذه الشركة .

تطور الصراع بين اليهود الصهيونيين وخصومهم اليهود الشيوعيين إلى الاشتباك بالأيدي ، غير مرة ، وفيها سالت الدماء . ونفى الرأسمالي اليهودي المصري الكبير ، رئيس مكابي القاهرة ، كليمان شيكوريل ، إلى **صوت الأمة** أن يكون المكابي وكراً للصهيونية . وإن لم يعلن شيكوريل معاداته للصهيونية ، على نحو ما فعل خصومه الشيوعيون اليهود .

ونشرت **صوت الأمة** مقالاً آخر ، تناول استخدام المدارس الأجنبية ، والسفارة البريطانية في بث السموم الاستعمارية ، بينما يستخدم الصهاينة المدارس اليهودية في نشر دعاياتهم ، وجَمْع التبرعات ، ويديرون من نواديهم المؤتمرات ضد الشعب الفلسطيني . وقد تبع هذا مقال آخر ، كشف النقاب عن لجنة تكوَّنت من كبار المالين اليهود المناصرين للصهيونية في مصر ، تحصل جنيهاً مصرياً واحداً من كل يهودي قادر ، لحساب الأنشطة الصهيونية .

في أواسط يونيو ١٩٤٧ ، أبلغت وزارة الشئون الاجتماعية المصرية سكرتير الرابطة ، عزرا هراري "بعدم الموافقة على تكوين الرابطة ، لأسباب تتعلق بالأمن العام" كأن مكافحة الصهيونية تخل بالأمن المصري ، بينما النشاط الصهيوني يدعمه ويعززه .

في مايو ١٩٤٨ ، ألقت سلطات الأمن المصرية القبض على كل اليهود المصريين المعادين للصهيونية ، وأبعدت النسبة الأكبر منهم عن البلاد ، فانحسر الأساس الجماهيري للرابطة ، وكفت عن الحركة .

التملص اليهودي من الصهيونية

Jewish Evasion of Zionism

«التملص من الصهيونية» هو محاولة أعضاء الجماعات اليهودية التظاهر بالولاء للصهيونية وإعلان ذلك ودفع التبرعات وكتابة الخطابات للضغط من أجل إسرائيل ، ولكن الموقف المعلن ليس له علاقة كبيرة بسلوكهم السياسي أو الثقافي المتعين . وقد وصف آحاد هعام هذا الموقف بقوله : إن موقف أعضاء الجماعات اليهودية من الشتات سلبي من الناحية الذاتية ، إيجابي من الناحية الموضوعية . وتعود هذه الظاهرة إلى أن الصهيونية ، بعد وعد بلفور ، أحكمت قبضتها على أعضاء الجماعات اليهودية حتى أصبحت كما لو كانت حركة شعبية كاسحة ، بعد أن كانت حركة أقلية . ولذا ، فإن هناك انطباعاً لدى الكثيرين بأن كل اليهود صهاينة وأن حركات رفض الصهيونية بين الجماعات اليهودية أصبحت ضعيفة كسيحة .

ولكن الصورة الحقيقية غير ذلك ، فثمة مقاومة يهودية خفية للصهيونية تأخذ شكل تملُّص يأخذ بدوره عدة أشكال :

١ ـ توجيه النقد للدولة الصهيونية واتهامها بعدم الالتزام بمنظومة القيم التي يؤمن بها اليهودي الذي يوجه النقد (الأرثوذكسية ، العلمانية ، الاشتراكية . . . إلخ) .

٢ ـ رفض المفهوم الصهيوني الخاص بمركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا وطرح مفهوم مركزية الدياسبورا بدلاً من ذلك .

٣ ـ رفض الهجرة إلى إسرائيل . وهذا هو أهم أشكال التملص .

وقد رأى بن جوريون ضرورة التفرقة بين الصهاينة الحقيقيين الاستيطانيين الذين يهاجرون ويستوطنون فلسطين لبناء الوطن القومي ، والصهاينة الزائفين التوطينيين الذن يتظاهرون بالولاء ، واقترح تسميتهم «أصدقاء صهيون» حتى يظل مصطلح «صهيوني» مصطلحاً ذا دلالة .

عدم الاكتراث اليهودي بالصهيونية

Jewish Indifference to Zionism

عبارة «عدم الاكتراث بالصهيونية» هي ترجمتنا لعبارة «نان زايونيزم Non-Zionism» ، والتي تعني حرفياً «اللا صهيونية» (مقابل «التعاطف مع الصهيونية» ، و«رفض الصهيونية») . وقد اخترنا هذه العبارة لأن اليهودي إن لم يكن منتمياً إلى الصهيونية ولا متعاطفاً معها ، ولا رافضاً لها ولا متملصاً منها ، فإن هذا يعني في واقع الأمر أنه يعتقد أن الصهيونية لا تعنيه أصلاً ، شأنه شأن أي مواطن غير يهودي في بلده . وحيث إن الأمر لا يعنيه ، فهو غير مُطالَب بتحديد موقف منها . والواقع أن كثيراً من كبار المفكرين والأدباء اليهود غير مكترثين بالصهيونية (ولا باليهودية) . ويمكن اعتبار عدم الاكتراث بالصهيونية أحد أشكال التملص منها .

الناطوري كارتا (نواطير المدينة)

Naturei Karta

«نواطير المدينة» أو «حُرَّاس المدينة» ترجمة للعبارة الآرامية «ناطوري كارتا» ، وهي منظمة يهودية دولية معادية للصهيونية ، وقد جاء في التلمود أن حاخامين من حاخامات اليهود ذهبا إلى فلسطين للتأكد من أن كل مدينة من مدنها تضم مدرسة وبيت عبادة حيث يتعلم الأطفال الشريعة ، وسألا أهل إحدى المدن عن حراس المدينة (ناطوري كارتا) فأتى سكان المدينة بالشرطة ، فقال الحاخامان : "هذان ليسا حرس المدينة ، هذان مخربا المدينة (بالآرامية : ماخريفي كارتا) ، فحراس ونواطير المدينة الحقيقيون هم الذين يُصلُّون في بيوت العبادة ويدرسون التوراة ويعلمونها للأطفال" . ونواطير المدينة جماعة دينية يهودية أرثوذكسية من أكثر الجماعات عداءً للدولة الصهيونية ، وقد ارتبطت كلمة «أرثوذكسية» في الخطاب الصحفي والإعلامي الشائع بتأييد التوسع والاستيطان والعنصرية الصهيونية ، وهذا يدل على مدى سطوة الإعلام الصهيوني الذي يحدِّد معنى الكلمات ويفرض الدلالات . فاليهودية الحاخامية الأرثوذكسية ظلت ترفض الصهيونية حتى عهد قريب ، وهو رفض ينطلق من عدة أفكار (أو عقائد) جوهرية في العقيدة اليهودية . وما حدث هو أن العقيدة اليهودية تمت صهينتها من الداخل ، بينما ظل أعضاء جماعة نواطير المدينة متمسكين بمبادئهم الدينية ، والعقيدة الدينية (على عكس العقيدة العلمانية) لا تتغيَّر ولا تخضع لموافقة أو رفض الأغلبية ، ولذا إن انضمت الأغلبية الساحقة من الأرثوذكس للصهيونية ذات الديباجة الأرثوذكسية وذات المضمون العلماني ، فهذا لا يغيِّر من الأمور شيئاً .

ولكن الإعلام الغربي الصهيوني (العلماني) يصر على أن يستخدم كلمة «أرثوذكسي» بمعنى «متشدد» أو «متعصب» للإشارة إلى هؤلاء اليهود الأرثوذكس الذين تخلوا عن أرثوذكسيتهم وانسحبوا من المعارضة الدينية وانضموا للمعسكر الصهيوني العلماني .

ويرى أعضاء نواطير المدينة أن الصهيونية لا تمثل استمراراً للتراث الديني اليهودي أو تنفيذاً لتعاليم اليهودية وإنما رفضاً لها وانسلاخاً عن التراث الديني ، بل إن الصهيونية من منظور الناطوري كارتا هي أخطر المؤامرات شيطانية ضد اليهودية . ولعل الفكرة الأساسية التي يرتكز إليها الرفض الأرثوذكسي للصهيونية هي فكرة الشعب اليهودي بالمفهوم الديني ، فالشعب اليهودي بالنسبة لأعضاء هذه الجمعية ليس شعباً بالمعنى المُتعارَف عليه ، وإنما هو أساساً جماعة دينية ظهرت إلى الوجود منذ ثلاثة آلاف عام . ويستمد هذا الشعب وجوده من ميثاقه مع الخالق وهو ميثاق دائم لا يمكن فهمه . وحسب هذا الميثاق ، يلتزم كل اليهود بالتوراة وتعاليمها التي يقوم الحاخامات بتفسيرها كلٌّ في جيله . ورغم أن عقائد اليهود تشير إلى أنهم "شعب الله المختار" ، إلا أن الهدف من هذا الاختيار ـ حسب أحد التفسيرات الدينية ـ ليس تمكين اليهود من السيطرة على العالم وإنما العكس ، فقد اصطفى الإله اليهود ليقوموا على خدمته في الدنيا ، وهم بهذه الطريقة يقومون على خدمة الجنس البشري بأسره . وقد تم اختيار اليهود لا لأنهم شعب متعجرف أو جماعة منتصرة ، وإنما لأنهم أكثر الناس تواضعاً وسلاماً . بل إن الاختيار يفرض على اليهود واجبات أكثر مما يمنحهم من حقوق . فترى الشريعة اليهودية أن هناك سبعة قوانين أساسية ملزمة لكل البشر كي يصبحوا بشراً (شريعة نوح) ، وهناك عشرة قوانين (الوصايا العشر) ملزمة لأتباع الديانات التوحيدية (الإسلام والمسيحية) ، ولكن اليهودي وحده عليه الالتزام بالأوامر والنواهي (متسفوت) ، وهذه القوانين ملزمة لكل منْ وُلد لأم يهودية أو اعتنق اليهودية .

انطلاقاً من هذا الإيمان بإنسانية مشتركة وخصوصية دينية مستقلة يؤكد أعضاء جمعية نواطير المدينة أن اليهودية تبغض سفك الدماء بل تنادي بتحاشي ذلك بأي ثمن . بل يؤكدون أن العقيدة اليهودية تحض اليهودي على عدم المشاركة في السلطة الدنيوية وعلى رَفْض حمل السلاح . فعلى اليهود أن يتركوا مثل هذه الأمور للدولة التي يعيشون في كنفها . وهم يشيرون إلى واقعة يوحنان بن زكاي ،

الحاخام اليهودي مؤسس حلقة يفنه التلمودية الذي آثر أن يستسلم للرومان أثناء حصارهم للقدس على أن يقاومهم . وكان بذلك يهدف إلى إنقاذ اليهودية ، ولم يكترث من قريب أو بعيد بالدولة اليهودية . وحسب رأي أعضاء جماعة الناطوري كارتا ، يعود الاستمرار اليهودي إلى الإصرار على أن اليهودية عقيدة دينية وليست حركة قومية . وتشير أدبيات الجماعة إلى الصراع الذي نشب بين الأنبياء والدولة العبرية ، وخصوصاً أثناء حصار البابليين للقدس ، إذ كان النبي إرميا يحرض على الاستسلام والتخلي عن السلطة السياسية حتى يمكن إنقاذ الهيكل من الخراب ، فألقته السلطة السياسية في السجن . وبعد السبي إلى بابل طلب إرميا من اليهود أن يعبِّروا عن ولائهم للدولة التي يعيشون في كنفها .

على العكس من هذا يرى الصهاينة أن اليهود إن هم إلا شعب مثل كل الشعوب يجب أن يحملوا السلاح ويلجأوا للعنف حتى يستعيدوا احترامهم لأنفسهم واعتزازهم بها ، وأن يكون عندهم جيوش وبحرية وطيران وعلم خاص بهم ، كما يؤمن الصهاينة بأن اليهود يجب ألا يخضعوا إلا للقانون العلماني ، أما القانون الديني فيجب أن يطويه النسيان . بل إن الصهاينة ينكرون الطبيعة المقدَّسة للتوراة وينظرون إليها (وإلى الكتب الدينية اليهودية الأخرى) باعتبارها نوعاً من أنواع الفولكلور الذي يجب الحفاظ عليه باعتباره فلكلوراً وحسب .

وتتحول فكرة الاختيار الديني عند الصهانية إلى أفكار عنصرية سياسية ، فيصير العنصر اليهودي عنصراً متفوقاً ، ويمنح هذا التفوق اليهود حقوقاً معينة تَجبُّ حقوق الآخرين ، ولذا يصبح من حقهم الاستيلاء على فلسطين وطرد العرب . وبدلاً من أن يخضع اليهودي لقوانين ديانته ، فإن عليه أن يخضع للقوانين العلمانية السائدة بغض النظر عن اتفاقها مع القوانين الأخلاقية أو عدم اتفاقها .

وإذا كان نواطير المدينة يرون أن اليهودي يكتسب هويته من خلال أداء الشعائر الدينية ، فإن الصهاينة يرون أن الإنسان من الممكن أن يبقى يهودياً بشكل عام حتى لو لم يمارس أياً من هذه الشعائر مثل الامتناع عن العمل يوم السبت أو الالتزام بقوانين الطعام (مثل عدم أكل لحم الخنزير) أو اتباع التشريعات الخاصة بالزواج ، بل حتى إن أنكر وجود الإله . واليهودي الخيِّر لم يَعُد هو اليهودي التَقي الذي يتبع تعاليم دينه وينفذها وإنما هو اليهودي الذي يدفع بسخاء للدولة الصهيونية . وليس هناك ما يبعث على الدهشة من هذا الوضع فمؤسسو الحركة الصهيونية رفضوا الدين اليهودي ولم يلتزموا قط بتعاليمه أو قيمه الأخلاقية . وإذا كان المتدينون ينظرون إلى اللغة العبرية باعتبارها لغة دينية يَحرُم استخدامها في الشئون الدنيوية ، فإن الصهاينة جعلوها لغة الحديث اليومية في المُستوطَن الصهيوني ثم جعلوها اللغة الرسمية للدولة .

وفيما يخص علاقة اليهودي بأرض الميعاد ، يؤكد نواطير المدينة أن اليهودي المتدين يتجه بعواطفه وقلبه لهذه الأرض (صهيون ، أو إرتس يسرائيل ، أو أرض الميعاد المقدَّسة) وخصوصاً مدينة القدس ، فهم يذكرونها في صلواتهم عدة مرات كل يوم . ولقد تلا اليهود هذه الصلوات آلاف السنين ، ولكن هذه الصلوات لا علاقة لها بالصهيونية أو بفكرة العودة الصهيونية . فنفي اليهودي من أرض الميعاد هو من الأوامر الربانية التي لا يمكن مخالفتها أو التمرد عليها ، ولذا لا يملك اليهودي المتدين إلا أن يستمر في صلواته إلى أن يستجيب الإله لدعائه ويأمر بعودة اليهود .

فالماشيَّح المُنتظَر هو وحده القادر على إقامة الدولة ، وحين يعود سيؤسس مملكة الكهنة والقديسين . أما الصهاينة فهم يحاولون التعجيل بالنهاية (دوحيكات هاكتس) ويدعون إلى العودة بقوة السلاح دون انتظار مشيئة الإله . ولذا ، فدولة إسرائيل في نظر نواطير المدينة ثمرة الغطرسة الآثمة لأنها قامت على يد نفر من الكافرين الذين تمردوا على مشيئة الإله ، وهي خيانة للشعب اليهودي الذي تأسَّس كجماعة دينية في سيناء (لا في أرض الميعاد) . لكل هذه الأسباب يرفض نواطير المدينة دولة إسرائيل وكل مؤسساتها، بل يرفضون زيارة الحائط الغربي (حائط المبكى) لأن القدس تم فتحها بالقوة .

وتدَّعي الصهيونية أنها تحمي أمن اليهود بعد أن تعرَّضوا للإرهاب في الشتات آلاف السنين ، وأنها بعثت الروح العسكرية في اليهود مرة أخرى لهذا السبب . وتبين أدبيات الناطوري كارتا أن عدد اليهود الذين قُتلوا في الأعوام القليلة الماضية ـ في حروب إسرائيل ـ يفوق كثيراً عدد اليهود الذين قُتلوا في أي مكان آخر . إن أمن اليهود يكمن في إمكانية تَصالُحهم مع الدول التي يعيشون بين ظهرانيها (كما قال النبي إرميا منذ أكثر من ٢٥٠٠ سنة) ، ولهذا فإن تصوُّر أن الدولة الصهيونية ذات الجيوش الصهيونية يمكنها أن تحمي اليهود هو تصوُّر خاطئ من أساسه . بل إن الجيتو الصهيوني الكبير يحتاج إلى دعم يهود المنفى لحماية أمنه أكثر من احتياج يهود المنفى إليه .

وتذهب أدبيات نواطير المدينة إلى أكثر من هذا ، إذ يوجهون الاتهام للحركة الصهيونية بأنها حركة معادية لليهود ، فالدولة الصهيونية تدَّعي أنها دولة كل اليهود ، وأن اليهودي يتوجه بولائه للدولة اليهودية وحدها وليس للدولة التي يعيش فيها ، وبالتالي

فهي تخلق لليهود مشكلة ازدواج الولاء وتدعم الاتهامات المعادية لليهود . ولأن الصهيونية تزدهر بازدهار معاداة اليهود ، فهي تُرَوِّج لها . بل إن الصهيونية تحاول أن تُقَوِّض وضع اليهود أينما وُجدوا حتى تضطرهم للهجرة إلى إسرائيل . ومن الحقائق غير المعروفة التي يحاول نواطير المدينة تعريف الناس بها أن الصهاينة تعاونوا مع النازيين حتى يقضوا على يهود شرق أوربا باعتبار أن جماهير شرق أوربا اليهودية كانت القاعدة العريضة التي يستند إليها الرفض الديني للصهيونية ، ووجود مثل هذا الرفض على مستوى جماهيري واسع كان سيسحب من الصهيونية أية شرعية .

وقد نجحت جماعة نواطير المدينة في الإفلات من براثن الصهيونية لأنها غلَّبت الطبقة التوحيدية داخل العقيدة اليهودية على الطبقة الحلولية التخصيصية الوثنية التي تجعل اليهود وحدهم مركز اهتمام الإله ، وتمسكت بالحل الحاخامي لمشكلة الحلول .

١ ـ فعلى سبيل المثال ، فصلت اليهودية الحاخامية العقيدة اليهودية عن الأرض المقدَّسة ، وهو ما يعني عدم حلول الإله في أرض بعينها ، فهو مفارق للعالم .

٢ ـ تمسكت اليهودية الحاخامية بمسألة أن اختيار اليهود أمر منوط بتنفيذهم الشريعة ، وهو ما يعني أن الذات اليهودية لم تَعُد مقدَّسة من خلال الوراثة (وهو أمر مألوف في الأنساق الحلولية) . وإنما تُكتَسب القداسة من خلال ما يقوم به اليهودي من أفعال أخلاقية .

٣ ـ جعلت اليهودية الحاخامية العودة (وتأسيس الدولة) مسألة منوطة بالأمر الإلهي ولا دخل للبشر فيها .

وقد أصر نواطير المدينة على هذه العناصر كلها ، وهو ما يعني أنهم يؤمنون بفصل الخالق عن المخلوق ، كما أكدوا عنصر الإنسانية المشتركة بين اليهود والأغيار ، وهو عنصر موجود في التلمود وإن كانت بعض التفسيرات تتعمد إغفاله . وتمسُّك نواطير المدينة بالطبقة التوحيدية هو الذي عصمهم من السقوط في الوثنية الصهيونية العلمانية ، أي الترجمة الحديثة للطبقة الحلولية التقليدية .

وجماعة نواطير المدينة جماعة دولية تضم اليهود المتدينين في الولايات المتحدة وفي كل أنحاء العالم الذين يعارضون الصهيونية ودولتها . وكانت الجماعة جزءاً من حركة أجودات إسرائيل الأرثوذكسية التي قامت عام ١٩١٢ في شرق أوربا محاولةً تجميع اليهود الأرثوذكس من أجل معارضة الاتجاهات العلمانية خصوصاً الصهيونية . وبعد صدور وعد بلفور قدمت أجودات إسرائيل احتجاجاً إلى عصبة الأمم ضد الهيمنة الصهيونية على اليهود في فلسطين ، كما أنهم رفضوا الانضمام إلى القاعد ليومي أو اللجنة القومية (الكيان السياسي الصهيوني الذي كان من المفترض أن يمثل كل يهود فلسطين) . وقد حاربت جماعة أجودات إسرائيل الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية بكل ضراوة . وفي عام ١٩٢٧ ، طلبت بشكل رسمي من عصبة الأمم أن تبلغ سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين أن يكون لليهود المتدينين الحق في ألا ينضموا لهذه اللجنة وأن يكون لهم كيانهم السياسي المستقل . وقد قُبل طلبهم بشأن عدم الانضمام ورفض الشق الخاص بالاستقلال .

ولكن موقف الأجودات تحوَّل بالتدريج إلى المصالحة مع الصهيونية ، وانتهى بهم الأمر إلى مناصرتها والاندماج فيها . وقد تم هذا عن طريق تعديل متتالية الخلاص ، فالمتتالية التقليدية هي : نفي ـ انتظار الماشيَّح ـ عودة الماشيَّح إلى فلسطين في آخر الأيام ـ عودة الشعب تحت قيادته . وقد عُدِّلت المتتالية لتصبح كما يلي : نفي ـ انتظار الماشيَّح ـ عودة مجموعة من اليهود للاستيطان في فلسطين للإعداد لعودة الماشيَّح ـ عودة الماشيَّح في آخر الأيام ـ عودة الشعب تحت قيادته .

وبدأت أجودات إسرائيل تتحدث عن وعد بلفور (بل عن الانتداب البريطاني) باعتبار أنه من وحي الوعد الإلهي لليهود ثم اعترفت بشرعية العمل الصهيوني وقامت بجمع التبرعات لصالح المنظمات العسكرية الاستيطانية الصهيونية مثل الهاجاناه (وفيما بعد شارك ممثلو أجودات إسرائيل في أولى حكومات المُستوطَن الصهيوني) .

وبسبب هذه المواقف الموالية للصهيونية ، انشق عن حركة أجودات إسرائيل بعض الأعضاء الذين قدموا إلى فلسطين عام ١٩٣٥ وافدين من ألمانيا وبولندا ، وشكَّلوا تكتُّل حيفرات حاييم الذي أصبح فيما بعد يُدعَى «ناطوري كارتا» . ومن المعضلات الجوهرية التي يواجهها نواطير المدينة أنهم يعارضون فكرة التنظيم نفسها ، فهم يرون أنفسهم جماعة دينية ، وبالتالي فهم ينظرون إلى فكرة التنظيم السياسي باعتبارها فكرة غريبة بل معادية لهم (على عكس الصهاينة الذين قاموا من البداية بتنظيم أنفسهم تنظيماً دقيقاً واستغلوا الضغوط الدولية والمناورات السياسية خير استغلال) . ومع هذا ، بدأت الجماعة في نهاية الأمر نشاطها فاتهمت حركة أجودات إسرائيل بأنها ، مثل حركة المزراحي (الصهيونية الدينية) ، تمالئ الصهيونية . وأصدرت (منذ عام ١٩٤٤) صحيفتها الخاصة وأخذت تشكل مجتمعها الخاص المستقل عن الكيان الصهيوني والقائم على التدين والزهد من جهة ، والقطيعة مع المُستوطَن الصهيوني من جهة أخرى .

ولنواطير المدينة نمط حياتهم الاجتماعي والاقتصادي الخاص .

ونساء نواطير المدينة زاهدات في الملبس والمظهر الخارجي والمساحيق ، وهن لا يتبرجن ويلبسن الملابس البسيطة (فهن يكتفين بالطهارة الروحية ، على حد قول الحاخام هيرش - سكرتير عام الجمعية) كما يكرسن حياتهن لأسرهن . أما الرجل ، فإنه يدرس التوراة والتلمود ويرعى أسرته ويمارس الحرف المتاحة له . ويرتدي رجال نواطير المدينة القمصان البيضاء بدون أربطة العنق والمعاطف السوداء والقبعات ذات الحواف العريضة (التي كانت شائعة في شرق أوربا) ولا يشذبون لحاهم أو سوالفهم الطويلة . وتتقيد الجماعة ككل بأسلوب الحياة بين يهود اليديشية في بولندا وروسيا . والحي الذي يقطنون فيه في القدس هو حي مائة شعاريم (المائة بوابة) . أما في تل أبيب ، فهم يوجدون في حي بناي براك ، وفي نيويورك يتركزون في بروكلين في حي وليامزبرج . وغداة إعلان قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ ، قامت الجمعية بإرسال رفضها قيام الدولة إلى الأمم المتحدة . وخلال معركة القدس ، دعت الجمعية إلى هدنة وإلى تدويل القدس حتى يتم فصلها عن الكيان الصهيوني . وبلغ الأمر ببعض أعضائها أن أعلنوا صراحةً رغبتهم في العيش تحت الحكم الأردني . وقد أرسل الحاخام هيرش برقية إلى الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة يطلب بموجبها أن تعلن الأمم المتحدة أن حي المائة شعاريم إمارة مستقلة على غرار إمارة موناكو .

ولا تعترف جماعة نواطير المدينة بالدولة الصهيونية حتى الوقت الحاضر ، ويقوم أعضاؤها بتنكيس الأعلام والصيام في يوم إعلان تأسيس الدولة الصهيونية . وهم ينظمون المظاهرات والاحتجاجات السياسية ضدها . وتتبنَّى جماعة ناطوري كارتا موقفاً إيجابياً من منظمة التحرير الفلسطينية ومن حقوق العرب في فلسطين وتعلن أن أعضاءها على استعداد لأن يعيشوا كأقلية دينية تحت حكم حكومة فلسطينية تضمن حقوقهم السياسية . وتتعرض الجماعة - كما هو متوقع - لمضايقات كثيرة ومتواصلة من السلطات الصهيونية حيث تقوم الشرطة الإسرائيلية بين الفينة والأخرى بمداهمة حي المائة شعاريم (بكلابها وهراواتها) لاعتقال بعض أعضاء الجماعة وخرق حرمات منازلهم ، هذا بالإضافة إلى أن الحكومة الصهيونية تحاول تقليص حدود الحي بقصد خَنْقه وحَصْر خطره .

وقد بدأت جماعة الناطوري كارتا في الآونة الأخيرة في إعادة تنظيم نفسها وزيادة نشاطها وتكثيفه ، كما بدأت تتعامل مع وسائل الإعلام والمنظمات الدولية المختلفة بشكل أكثر كفاءة ، فأصبح لها مراقب في هيئة الأمم المتحدة . وقد قامت بدور فعال أثناء مناقشة قرار هيئة الأمم الخاص باعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية ، كما أنها تقوم الآن بدور تربوي واسع في صفوف اليهود وغير اليهود . وهي تدعو لإسقاط دولة إسرائيل وإقامة دولة فلسطينية في كل الأراضي الفلسطينية وتدويل القدس . وللجمعية نواطير المدينة مجلس إداري يتكون من سبعة رجال لهم القرار في إدارة شئون الجماعة في الحياة الدنيوية والدينية . ويبلغ عدد أعضاء الجمعية حوالي ٦٠ ألفاً ، وأكبر تَجمُّع لهم في بروكلين في نيويورك ، كما توجد جماعات صغيرة في لندن وأنتويرب ومونتريال وفي القدس .

بريرا

Breira

«بريرا» كلمة عبرية تعني «الاختيار» ، و«بريرا» جماعة يهودية أمريكية تحاول التملص من الصهيونية ، أطلقت على نفسها هذا الاسم للرد على الشعار الإسرائيلي «إين بريرا ein briera» (أي «لا اختيار») . وقد ازدهرت هذه الجمعية في منتصف السبعينيات . وكانت تضم في صفوفها تحالفاً بين اليهود المتدينين (محافظين وإصلاحيين وأرثوذكس) واليهود غير المتدينين . ورغم أن أعضاء بريرا كانوا يسمون أنفسهم صهاينة ، ويتبنون كثيراً من المواقف الصهيونية ، ويؤكدون حق إسرائيل في البقاء ، إلا أن الصهيونية التي كانوا يؤمنون بها كانت صهيونية توطينية مخففة (صهيونية الإحسان والإنقاذ والحفاظ على الهوية اليهودية أينما وُجدت) تؤمن بمركزية الدياسبورا (الجماعات اليهودية في العالم) في الولايات المتحدة وغيرها من الدول . وهم ، لهذا السبب ، كانوا يحاولون الحفاظ على مسافة بينهم وبين الدولة الصهيونية ليضمنوا استقلالهم الثقافي . كما أنها كانت صهيونية دخلت عليها قيم دينية وأخلاقية جعلت من المستحيل على أعضاء بريرا تَقبُّل سياسات إسرائيل دون تساؤل . وقد كان أعضاء هذه الجمعية يشجعون الاتجاهات المعتدلة داخل إسرائيل وينشئون علاقات مع من يُطلَق عليهم «الحمائم» ، كما أنهم كانوا يؤيدون حق تقرير المصير للفلسطينيين . ولكل هذا ، لم تكن المؤسسة الصهيونية سعيدة بوجود هذه المنظمة ، بل قضت عليها في نهاية الأمر .

الأجندة اليهودية الجديدة

New Jewish Agenda

منظمة أمريكية يهودية تأسَّست عام ١٩٨٠ ، وهي من أهم المنظمات اليهودية المتملصة من الصهيونية بعد أن حُلَّت جماعة بريرا . وجماعة الأجندة اليهودية الجديدة من المنظمات التي يُقال لها

«تقدمية» ، ولذا نجد في برنامجها كل السياسات التقدمية الممكنة . وتزعم المنظمة أنها تَصدُر عن مفهوم «تيقون عولام» أي «إصلاح العالم» ، وهو مفهوم قبَّالي حلولي يعني أن إصلاح العالم وتجميع شرارات الإله المتناثرة (أي ذاته) لا يمكن أن يتم إلا بمساعدة الشعب اليهودي . ومن يتصفح برنامج المنظمة يدرك على التو أنه لا علاقة له لا بالقبَّالاه ولا بالتراث اليهودي ، وأنه إن كان يعبِّر عن أية حلولية فهي حلولية بدون إله أي حلولية المجتمعات العلمانية ، إذ أن محرري برنامج أو أجندة الجماعة قد حولوا أنفسهم إلى مطلق يقرر كل القيم . والواقع أن القيم التي قرروا تبنيها هي القيم السائدة في الأوساط اليسارية التقدمية في الولايات المتحدة .

ومع هذا ، يبدأ البرنامج بالديباجات القومية الإثنية المعتادة التي تضفي عليه الشرعية اليهودية اللازمة ، فبعد الحديث عن التيقون عولام يتحدث أصحاب البرنامج عن إيمانهم بوحدة التاريخ اليهودي ووحدة المصير اليهودي ، ثم يبدأ بعد ذلك الابتعاد التدريجي عن الحلولية التقليدية . فالأجندة اليهودية الجديدة تهتم ببقاء الشعب اليهودي وازدهاره . ولكن من الواضح أنها لم تُحوِّله إلى مطلق ، فهو شرط الحياة وحسب ولكنه ليس هدفها ، وهو الأساس المادي ولكنه ليس الهدف النهائي . وبعد هذا التعريف المبدئي ، يذهب البرنامج إلى ضرورة أن تتقرَّر الأجندة من خلال "أخلاقياتنا" اليهودية ، ومن خلال إمكانيات يهود الولايات المتحدة الإبداعية (لا من خلال أعدائنا) . وانطلاقاً من هذه النقطة ، تؤكد الأجندة البُعْد الروحي في حياة اليهود وضرورة بَعْث مؤسسة الصدقة (حالوقة) التراحمية . ثم يؤكد البرنامج أهمية ألا يتم تجنيد قيادات الجماعة اليهودية بناءً على وضعهم المالي . فمثل هذا الوضع أمر معاد لليهودية . والواقع أن طرح القضية على هذا النحو هو رسالة موجهة للقيادة الصهيونية في الولايات المتحدة التي تضم كثيراً من رجال الأعمال والصناعة . ثم يتوجَّه البرنامج بعد ذلك إلى أساس العلاقة مع إسرائيل ، فيقرِّر أن كل اليهود مسئولون الواحد منهم عن الآخر (فالمسئولية مُتبادَلة) ، ومصير الشعب اليهودي في أي مكان من العالم مرتبط بمصير اليهود في المكان الآخر لكن الارتباط هنا يعني الاستقلال وعدم التماثل . ومن هنا ، يجب أن يهتم كل فريق بمصير وأمن الآخر بل بتوجُّهه الأخلاقي . ومعنى ذلك أن يهود العالم ويهود إسرائيل يجب أن يتعاملوا ، الواحد منهما مع الآخر ، على قدم المساواة . ورغم هذا الارتباط ، فإن البرنامج يؤكد الاستقلال إذ أن القرارات الخاصة بإسرائيل وسياستها لابد أن يتخذها الإسرائيليون أنفسهم ، تماماً كما ينبغي أن تُتخَّذ القرارات التي تؤثر في حياة الجماعات اليهودية من جانب أعضاء هذه الجماعات . فهم ، إذن ، يرفضون مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا ، ويرفضون المفهوم الصهيوني الخاص بتصفية الدياسبورا واستقلالها . ولذا ، فإن الأجندة تؤيد حق اليهود السوفييت في الحصول على حقوقهم الثقافية ، وهو مطلب غير صهيوني ينبني على استمرار وجود اليهود السوفييت في بلدهم وعدم هجرتهم .

وترى الأجندة ضرورة الدخول في حوار ديموقراطي بل صراع بين يهود العالم وإسرائيل ، وأن من واجب كل فريق أن ينبه الآخر إلى نقط قوته ونقاط ضعفه ، ومعنى ذلك أن من حق يهود العالم توجيه النقد لإسرائيل . بل إن الأجندة ترى أن توجيه مثل هذا النقد ليس حقاً ولكنه واجب .

وفي مجال توجيه النقد لإسرائيل ، أكدت الأجندة حق الإسرائيليين في تقرير المصير وضرورة الحوار والاعتراف المتبادل بين الإسرائيليين والفلسطينيين . وبعد هذا ، تطالب الأجندة بكل شيء يُوصَف بأنه تَقدُّمي على وجه الأرض (أو في العالم الغربي على وجه التحديد) : انسحاب إسرائيل من الأراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ - إنهاء الاحتلال وسياسة الضم والتوسع - وقف الاستيطان - المفاوضات المباشرة - إنهاء التمييز العنصري ضد السفارد والدروز والمزراحي والعرب - المساواة بين النساء والرجال - إنهاء احتكار المؤسسة الأرثوذكسية للحياة الدينية في إسرائيل - إنهاء التمييز ضد الشواذ جنسياً وضد المسنين - حرية الصحافة - الاهتمام بالبيئة - تأكيد أن دستور البلاد مبني على الاعتراف بحقوق كل المواطنين .

وعلى صعيد السياسة الخارجية ، وجهت الأجندة النقد لإسرائيل لأنها تدعم النظم الفاشية في أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا ولأنها تورِّد السلاح لهم . كما تطالب الأجندة بضرورة نزع السلاح على مستوى العالم بأسره وبوقف عسكرة الاقتصاد العالمي ، وتدين الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية . . . إلخ . وقد انضمت جماعة الأجندة اليهودية الجديدة إلى الفيدرالية اليهودية .

٤
شخصيات ومنظمات يهودية معادية للصهيونية

عائلة مونتاجو ـ جودمان ـ كوهين ـ سوننفلد ـ فرومكين ـ وولف ـ بيرنباوم ـ دوشينسكي ـ كوهين ـ دي هان ـ تايتلباوم ـ كون ـ منوهين ـ بلاو ـ فيسمندل ـ بيرجر ـ شبير ـ رودنسون ـ ليليتال ـ بيتشوفسكي ـ لين ـ ميزفنسكي ـ برينر ـ هاناور

عائلة مونتاجو
Montagu Family

عائلة يهودية إنجليزية من رجال المال والسياسة ، من أصل سفاردي . وقد كانت عائلة مونتاجو تعارض الحركة الصهيونية من منظور اندماجي . وفي عام ١٨٥٣ ، أسَّس صمويل مونتاجو (١٨٣٢ - ١٩١١) البنك التجاري : صمويل مونتاجو وشركاه الذي ساهم من خلال نشاطه في مجال المبادلات المالية في جعل لندن المركز الرئيسي للمقاصة في سوق المال العالمي . وقد ظلت الخزانة تستشيره في العديد من الشئون المالية . وقد حصل صمويل عام ١٩٠٧ على لقب «بارون» ، وكان عضواً في البرلمان .

واهتم صمويل مونتاجو بالشئون اليهودية ، فسافر إلى فلسطين وروسيا والولايات المتحدة ، إلا أنه ظل معارضاً للصهيونية بشدة . وقد كان ولداه الاثنان لويس صمويل مونتاجو (١٨٦٩ - ١٩٢٧) وإدوين صمويل مونتاجو (١٨٧٩ - ١٩٢٤) من معارضي الصهيونية أيضاً . وقد عارض إدوين ، الذي احتل عدة مناصب سياسية مهمة ، وعد بلفور .

وقبل صدور الوعد بأسابيع قليلة ، كتب إدوين مذكرة نبه فيها إلى ما ينطوي عليه وعد بلفور من كراهية لليهود وعداء لهم ، وبيَّن أنه لا يمكن الحديث عن أمة يهودية أو جيش يهودي . وقد كانت الحركة الصهيونية في ذلك الوقت قد بدأت محاولتها ، التي كُللت بالنجاح في نهاية الأمر ، من أجل إنشاء فيلق يهودي يضم المهاجرين اليهود من شرق أوربا ، يحارب إلى جانب القوات البريطانية لتأكيد الوجود اليهودي المستقل . وقد قال مونتاجو إن تأسيس مثل هذه الفرقة يعني أن أخاه وابن أخيه سيضطرون إلى الخدمة العسكرية جنباً إلى جنب مع أناس لا يفهمون اللغة الوحيدة التي يتكلمانها (الإنجليزية) . ثم أشار مونتاجو إلى أن العودة التي يتحدث عنها الدين اليهودي لا يمكن أن تتم إلا تحت إشراف العناية الإلهية . وأضاف بعد ذلك متهكماً أن بلفور وروتشيلد ليسا هما المسيح المخلِّص . ويعترف مونتاجو بأن فلسطين تحتل مكانة خاصة في قلوب اليهود ، ولكن هذا ينطبق أيضاً على المسيحيين ، بل إن الأراضي المقدَّسة (حسب تصوُّره) تلعب دوراً أكثر مركزية في الرؤية المسيحية . كما بيَّن مونتاجو أن أعضاء الوزارة البريطانية والصهاينة ينظرون إلى فلسطين من زاوية ضيقة تركز على حقبة واحدة من تاريخ فلسطين ، بمعنى أنها تتجاهل الحقب غير اليهودية المختلفة والتي تشمل الجزء الأكبر من تاريخ فلسطين (ويشير مونتاجو في مذكرة ، أخرى إلى عروبة فلسطين وإلى تاريخها العربي الطويل) . وفي نهاية المذكرة ، يضع مونتاجو النقط على الحروف فيقول : "حينما يكون لليهودي وطن قومي ، فسوف يَنتُج عن ذلك على وجه اليقين أن يزداد الاتجاه نحو حرماننا من حقوق المواطنة الإنجليزية . ستتحول فلسطين إلى جيتو العالم" . ومعنى ذلك أن من يعادون اليهود والصهاينة يحاولون حَصْر اليهود داخل جيتو قومي مُوسَّع ، ولكنه جيتو محاط بأسوار عالية تفصل الحضارة والشخصية اليهودية عن عالم الأغيار . واقترح مونتاجو حرمان كل صهيوني من حق التصويت بدلاً من حرمان اليهود البريطانيين من جنسيتهم ، وأضاف أنه يميل إلى التعامل مع المنظمة الصهيونية بوصفها منظمة غير شرعية تعمل ضد المصلحة الغربية الإنجليزية .

وقد أدَّت ضغوط إدوين مونتاجو (وغيره) على الوزارة البريطانية إلى تعديل النص الأصلي لوعد بلفور ، بحيث لا تصبح الدولة اليهودية المزمع إنشاؤها دولة كل يهود العالم وإنما دولة من يرغبون في الهجرة إليها . كما أعرب شقيقه عن أنه لا يعتبر اليهودية أكثر ديانة . ويُعتبر موقف عائلة مونتاجو من الحركة الصهيونية تعبيراً عن بعض الاتجاهات بين أعضاء الجماعات اليهودية المندمجين التي رفضت الصهيونية واعتبرتها تعبيراً عن عقلية الجيتو في خلطها بين الدين والقومية . كما رأت أن اليهود لا يشكلون سوى أقليات دينية يعتنق أعضاؤها الديانة اليهودية وينتمون ، مثلهم مثل غيرهم من المواطنين ، إلى دولتهم القومية التي هي مصدر ثقافتهم ومركز

ولائهم . وقد رأى هؤلاء أن الصهيونية تشكل عقبة في طريق الاندماج السوي .

ومثل هذه العائلات كانت مُمثَّلة في مجلس مندوبي اليهود البريطانيين والهيئة اليهودية الإنجليزية التي عارضت الصهيونية ووعد بلفور . وقد تهاوت المعارضة على أساس اندماجي بعد صدور وعد بلفور ، إذ لم يَعُد هناك مجال لازدواج الولاء لأن المشروع الصهيوني أصبح مشروعاً غربياً ، بل مشروعاً استعمارياً إنجليزياً على وجه التحديد يخدم مصالح الوطن الأم .

موريتز جودمان (١٨٣٥-١٩١٨)

Moritz Gudemann

حاخام وعالم ألماني منذ سنة ١٨٩٤ ، وهو كبير حاخامات فيينا . له أعمال بارزة ضمن الإسهامات الثقافية لليهود ، وبصفة خاصة في تاريخ التربية والثقافة عند أعضاء الجماعة اليهودية في الغرب في العصور الوسطى ، مبنية على أثر البيئات غير اليهودية في الجماعات اليهودية .

وحينما كتب تيودور هرتزل كراسته المعنونة **دولة اليهود** ، تصوَّر أن ثلاثة أشخاص قد يضعون فكرته موضع التنفيذ من بينهم جودمان (والآخران هما : دي هيرش وروتشيلد) . فأرسل هرتزل أول خطاب إلى جودمان عام ١٨٩٥ باعتباره واحداً من أهم المدافعين عن اليهودية ، ولكن جودمان خيب ظنه إذ أنه كان من المدافعين عن اندماج اليهود في حضارات البلدان التي يعيشون في كنفها اندماجاً لا يؤدي بالضرورة إلى الانصهار . وحينما ظهرت كراسة هرتزل ، أصدر جودمان كتيبه **اليهودية القومية** (عام١٨٩٧) للرد عليه ، وفيه حاول جودمان أن يثبت عدم وجود ما يُسمَّى بالشعب اليهودي . وقد طرح السؤال التالي على الصهاينة : من الأكثر اندماجاً : اليهودي الذي يحتفظ بشعائر دينه ويندمج في المحيط الحضاري أم اليهودي (أي الصهيوني) الذي يخرقها كلها ليحتفظ بهوية إثنية لا أساس لها ؟ وقد هاجمه هرتزل ونوردو بشراسة ، فكلاهما لم يكونا يكترثان بالدين اليهودي بقدر ما كانا يهتمان بالهوية اليهودية وبتحقيقها باعتبارها وسيلة لإفراغ أوربا من اليهود .

هرمان كوهين (١٨٤٢-١٩١٨)

Hermann Cohen

فيلسوف ألماني يهودي من أتباع الفيلسوف كانط ، ومؤسِّس مدرسة فلسفية تُسمَّى مدرسة ماربورج للكانطية الجديدة . تلقَّى تعليماً دينياً حديثاً ليصبح حاخاماً ، ولكنه عدل عن رأيه وحصل على الدكتوراه وقام بالتدريس في جامعات ألمانيا .

كان كوهين متأثراً بتفكير موسى بن ميمون العقلاني ، وكان اندماجياً قليل الاهتمام بالعقيدة اليهودية ، فقد كان يرى أن ثمة ترادفاً بين المسيحية واليهودية (وقد قال لأحد أصدقائه مرة : "ما تسميه المسيحية أسميه أنا يهودية الأنبياء") . ولذا ، كان يَنصبُّ قدر كبير من اهتمامه على تقديم قراءة جديدة لأعمال كانط . وكان كوهين يرى أن العلاقة بين الخالق والإنسان تبادلية ، فالخالق مصدر القانون ، والإنسان مصدر الإحساس بالواجب . وكان يذهب إلى أن الإله فَرْض منطقي يلزم عن القول بوجود مَثَل أعلى للعالم ينبغي تحقيقه .

وبعد أن عُيِّن كوهين أستاذاً في الجامعة ، اضطر إلى أن يتخذ موقفاً من اليهود واليهودية بعد هجوم المؤرخ ترياتشكه على اليهودية إذ نشر كتاباً بعنوان **كلمة عن يهوديتنا** (١٨٧٩) ذكر فيه أن اليهودية هي الديانة القومية لعنصر قَبَلي قومي غريب ، وأن فلاسفة اليهود الذين يُبشرون بتعاليم تبدو حديثة ، باصطلاحات معاصرة ، يُبشرون في الواقع بتعاليم يهودية خاصة ، ويبرزون المفاهيم الدينية اليهودية الخالصة من خلال التعلق بالفلسفات الكبرى ، ويهاجمون المسيحية من خلالها . فنشر كوهين كتاباً في العام التالي بعنوان **اليهودية : اعتراف** يرد فيه عليه . وقد أعلن كوهين في هذا الكتاب أن يهود ألمانيا تم دمجهم تماماً في المجتمع الألماني ، وليس ثمة ازدواج في الولاء . بل إنه كان يرى أن ثمة تبادلاً اختيارياً بين العقيدة اليهودية والحضارة الألمانية ، وهو الاتجاه نحو العالمية وإسقاط الجوانب الشخصية . بل كان يرى أن الدولة هي أداة هذا الاتجاه نحو العالمية والإنسانية العامة (وهو بهذا يبيِّن مدى استيعابه فكر الاستنارة الأممي الطبيعي . وهو الاتجاه الذي وصل إلى قمته النظرية عند هيجل وإلى قمته التطبيقية عند هتلر في الدولة النازية) . وفي عام ١٨٨٨ ، قال أحد المدرسين الألمان إن التلمود يقرر أن الشرائع التوراتية لا تنطبق إلا على العلاقات بين اليهود ، أي على العلاقات بين بعضهم والبعض الآخر وليس على العلاقات القائمة بين اليهود والأغيار ، ومن هنا فإن التلمود يصرح لليهود بسرقة الآخرين وخداعهم . وهنا حاول كوهين أن يوفق بين فكرة الشعب المختار الانعزالية وفكرة العصر المشيحاني في صيغتها العالمية التي تؤكد وحدة البشر ونزوع الإنسان نحو الكمال فألَّف كتاباً بعنوان **الحب الأخوي في التلمود** . وقد وجد كوهين أن الحلقة التي تربط المفهوم الأول بالثاني هي ذلك المفهوم الخاص باعتبار الخالق حامياً للغرباء ، فرسالة يسرائيل ، أو مهمتها

الروحية ، تبدأ من حقيقة اختيارها . ولأن الإله محب من البداية للغرباء ، فإن اختيار يسرائيل لا يهدف إلى عزلهم وإنما هو شيء مُوجَّه نحو وحدة الجنس البشري وإنشاء مملكة الرب في الأرض . والهدف الأساسي من وجود الشعب اليهودي هو إشاعة المُثُل الأخلاقية للفكر التوحيدي في العالم بأسره . وهي المُثُل التي طوَّرها الأنبياء اليهود الذين ساعدوا الدين على التحرر من الأسطورة والسحر . ومن الواضح أن كوهين يرفض الرؤية الحلولية ، وبالفعل نجده يؤكد في كتاباته أن الخالق كيان فريد يختلف بشكل مطلق عن كل المخلوقات (ومع هذا يؤكد كوهين أن اليهودية تعتبر الإنسان شريكاً للإله في عملية الخلق) .

ويمثل شتات اليهود جانباً إيجابياً في قَدَرهم ، إذ أنهم بذلك يصبحون أداة ربانية لتحقيق غاية التاريخ النهائية ، وهي توحيد كل البشر . والماشيَّح رمز انتصار الخير وتَحقُّق الرغبة الإنسانية في الكمال ، ومن ثم فهو ليس ذا مضمون قومي ، كما هو الحال في اليهودية الحلولية . لكل هذا ، عارض كوهين في مقاله **الدين والصهيونية** (عام ١٩٢٤) الفكر الصهيوني باعتبار أنه يمثل نكوصاً وردَّة عن النزعة المثالية العالمية . ويمثل فكر كوهين محاولة مُخلصة لتخليص اليهودية من الطبقة الحلولية مع أنها تركت رواسب مختلفة في كتاباته مثل حديثه عن الرسالة الخاصة لجماعة يسرائيل ، كما أن ثمة خلطاً محدوداً بين المطلق والنسبي . ومن أهم أعماله كتاب **دين العقل - من مصادر اليهودية** . وقد أثرت كتاباته في فرانز روزنزفايج ومارتن بوبر وجوزيف دوف وسولوفايتشيك .

يوسف سونفلد (١٨٤٨-١٩٣٢)

Yosef Sonnenfeld

كبير حاخامات اليهود الأرثوذكس في فلسطين إبان فترة بداية الانتداب البريطاني وحتى وفاته عام ١٩٣٢ . وُلد في المجر ، ومات أبوه وهو صغير . وعارض رغبة زوج أمه في تعليمه تعليماً علمانياً في صغره ، وأصر على الانخراط في سلك الحاخامية اليهودية . وقد حصل سوننفلد على شهادة ترسيمه حاخاماً وهو في السادسة عشرة من عمره ، ثم التحق بحلقة الحاخام الشهير أبراهام شاح وسافر عام ١٨٧٣ مع معلمه إلى فلسطين ليحيا ويستقر .

كان عدواً لا يهدأ للصهاينة ودعاواهم العلمانية . وقد رفض منصب حاخام القدس بعد تنحية الحاخام شموئيل سالانت . كما حارب النفوذ الصهيوني في المدارس اليهودية ، وحارب ضد سيطرة الصهاينة على التجمع اليهودي في فلسطين . التقى الحاخام سوننفلد بالملك حسين (ملك الحجاز) لطمأنته ، والإعراب عن رغبة السكان اليهود الصادقة في التعاون والسلام وحسن الجوار مع أصدقائهم وجيرانهم العرب .

وأصدر الحاخام سوننفلد عام ١٩٢٩ بياناً يدعو فيه السكان العرب إلى العيش في سلام وحب مع اليهود مؤكداً لهم رغبة اليهود في التعبد بإخلاص وفي الحياة الدينية الخالصة في الأرض المقدَّسة ورفض المشاركة في أية إدانة صهيونية عامة للانتداب لأنه كان مقتنعاً بأن الاستفزازات الصهيونية المُتعمَّدة للعرب هي سبب القلاقل . أرسل عام ١٩٣١ تحياته كالعادة إلى المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس داعياً للعيش في سلام على الأرض المقدَّسة .

إسرائيل فرومكين (١٨٥٠-١٩١٤)

Israel Frumkin

صحفي روسي يهودي وُلد في روسيا البيضاء . سافر إلى فلسطين مع أبويه وعمره ٩ سنوات ، تزوج ابنة مؤسس صحيفة **هافاتزيليت** ، ثاني الصحف العبرية . وبعد ما أصبح رئيساً لتحريرها ، استمر في هذا المنصب مدة ٤٠ عاماً . كان ناقداً لاذعاً للمستوطنين اليهود الأوائل ، كما نقد فسادهم المالي والأخلاقي مطالباً بإصلاح حركة التوطين ولكنه غيَّر موقفه مع وصول دفعات جديدة من المستوطنين عام ١٨٨٢ إذ أصبح عدواً لدودا لحركة أحباء صهيون وكذلك هرتزل وآحاد هعام فيما بعد ، وعارض بشدة الحركات التوطينية مع إيضاح طابعها العلماني غير الديني .

ومع تزايد نجاحات الحركة الصهيونية وجذبها العديد من المؤيدين الأوربيين والغربيين ، بدأ توزيع جريدته في التراجع حتى توقفت عام ١٩١٠ . وموقف فرومكين يلقي الضوء على اختلاف طبيعة الهجرة اليهودية إلى فلسطين قبل بعد الحركة الصهيونية . فمعارضته انحلال المستوطنين اليهود المادي والأخلاقي تحوَّلت إلى معارضة كاملة لفكرة الاستيطان اليهودية مع الصهيونية . ولذا ، نجد أن دوائر المعارف والموسوعات اليهودية والصهيونية تُقلِّل الكلام عنه جداً ، رغم أهميته التاريخية .

لوسيان وولف (١٨٥٧-١٩٣٠)

Lucien Wolf

صحفي ومؤرخ بريطاني يهودي ، كرس حياته للدفاع عن حقوق اليهود في البلاد التي يعيشون فيها (أي أن موقفه مع الحقوق اليهودية كان موقفاً معارضاً للموقف الصهيوني) . كتب كثيراً من

المقالات للمجلات البريطانية اليهودية وغير اليهودية . وكان وولف عضواً في اللجنة الأجنبية المشتركة التي أسستها الهيئة اليهودية الإنجليزية ومجلس مندوبي يهود بريطانيا . وقد حاول قصارى جهده أن يجد حلاً للمسألة اليهودية أينما ظهرت ، وتركزت جهوده على روسيا ورومانيا . ولكن يُلاحَظ أن وولف كان دائماً يبحث عن حل للمسألة اليهودية خارج إطار الصهيونية . ولذا ، فقد كرَّس حياته للدفاع عن حقوق اليهود في أوطانهم . وقد أصدر مؤتمر السلام (١٩١٩) اتفاقية الأقليات الخاصة بالحقوق العرْقية والدينية للأقليات نتيجة جهوده ، وهي معاهدة تهدف إلى ضمان حقوق اليهود المدنية والدينية في بلادهم . تَعاوَن وولف مع كثير من الوفود اليهودية في مؤتمر السلام ما دامت تتحرك خارج أي إطار صهيوني . وقد استمر وولف في نشاطه بعد الحرب العالمية الأولى باعتباره ممثل اللجنة الأجنبية المُشتركة والأليانس وجماعة الاستعمار اليهودي .

عارض وولف النشاط الصهيوني وكتب مقالة بعنوان "الخطر الصهيوني" (١٩٠٤) نشرها في مجلة **تايمز** . وقد تَعاوَن وولف مع زانجويل في المنظمة الصهيونية الإقليمية . كما أسَّس جمعية التاريخ اليهودي في إنجلترا ، وكتب مؤلفاً يفند فيه الحجج التي أتت في **البروتوكولات** ، وله كتاب عن يهود المارانو .

نيثان بيرنباوم (١٨٦٤-١٩٣٧)

Nathan Birnbaum

كاتب سياسي نمساوي يهودي . وُلد في فيينا لعائلة حسيدية . تعرَّف إلى مُثُل حركة الاستنارة ، فتخلَّى عن العقيدة اليهودية وتَبنَّى الحلول الصهيونية ، واشترك في تأسيس منظمة شبابية هي منظمة قديما (١٨٨٢) . وفي عام ١٨٨٤ ، صدر أول أعداد مجلته **الانعتاق الذاتي** (سميت باسم كراسة بنسكر) ، وكان هو ناشر المجلة ومحررها وطابعها . وقد بلور بيرنباوم الفكرة الصهيونية قبل ظهور هرتزل ونشر كتاباً عن المسألة اليهودية عام ١٨٩٣ بعنوان **البعث القومي للشعب اليهودي في أرضه كوسيلة لحل المسألة اليهودية** .

تَعاوَن بيرنباوم في بداية الأمر مع المنظمة الصهيونية العالمية ، وحضر المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) . ومن المعروف أنه أول من استخدم كلمة «صهيونية» بمعناها الحديث (في مجلة **الانعتاق الذاتي** عام ١٨٩٠) . وقد عرَّف الصهيونية بأنها حركة ترى أن القومية والعرْق والشعب شيء واحد ، وهي الدعوة التي جعلت السمات العرْقية اليهودية قيمة نهائية مطلقة بدلاً من الدين اليهودي ، وخلَّصت اليهودية من المعتقدات المشيحانية . ولذا ، فإن الصهيونية حركة للدفاع عن مصالح العرْق اليهودي . ولكن بعد عام ١٨٩٧ ، ظهرت مشاكل بينه وبين التعريف الهرتزلي للأمة اليهودية ، إذ أن هرتزل (وهو يهودي غير يهودي) كان يرى أن العداء لليهود هو مصدر تماسك اليهود ومصدر هويتهم . أما بيرنباوم ، فكان يرى أن الهوية اليهودية لها قيمة في حد ذاتها وأن وجود اليهود في أنحاء العالم ليس أمراً سلبياً ، وأن الثقافة اليهودية أمر يستحق التطوير (ومن هنا كانت محاضرته في المؤتمر الصهيوني الأول عن الصهيونية كحركة ثقافية) . وهو ، لهذا السبب ، كان يرى أنه لا تَعارُض بين محاولته البحث عن وطن للفائض البشري اليهودي وولائه لوطنه كيهودي مندمج . ولهذا السبب ، رشَّح بيرنباوم نفسه للبرلمان النمساوي كصهيوني عام ١٩٠٧ (وخسر في الانتخابات) . وقد تطوَّر موقفه هذا بالتدريج إلى أن أصبح من رافضي الصهيونية وأصبح من دعاة القومية اليديشية (قومية الدياسبورا) كحل للمسألة اليهودية . ولذا ، نجده يؤكد أهمية الإسهامات الحضارية اليديشية وأهمية الحفاظ على هويتهم ، فدافع عن اليديشية (مقابل العبرية) ودعا إلى مؤتمر تشيرنوفيتس ١٩٠٨ الذي نادى بأن اليديشية هي اللغة اليهودية القومية ، تماماً مثل العبرية .

ولكنه كما تجاوز الصهيونية ، واكتشف قصورها واختزاليتها ، اكتشف أيضاً أن الدعوة للقومية اليديشية أمر لا يكفي إذ اكتشف أن اليهود ليسوا جماعة عرقية أو إثنية وإنما هم جماعة دينية ، وأن جوهر الوجود اليهودي هو العقيدة اليهودية . وهذا ما يُفرِّق بين اليهودي والوثني ، ويُفرِّق بين الحياة السعيدة في العالم الرباني ووحشية الوثنية وأنانيتها . وقد كان اكتشاف بيرنباوم لحقيقة العالم الحديث ووحشيته وماديته اكتشافاً فجائياً غيَّر مجرى حياته تماماً ، فاكتشف ما تصوَّر أنه المعنى الحقيقي لتاريخ العالم : نضال قوى الخير الرباني لهزيمة عالم الوثنيين . كما اكتشف أن الغرض من الوجود اليهودي هو الإبقاء على النور الإلهي مشتعلاً . ولذا ، يجب أن يكرِّس اليهودي نفسه لخدمته كما فعل منذ بداية التاريخ . لكل هذا ، اتجه بيرنباوم لليهودية الأرثوذكسية وانضم لجماعة أجودات إسرائيل وأصبح رافضاً تماماً للصهيونية .

وقد تَعمَّق هذا التيار عند بيرنباوم إلى درجة أنه كان يرى ضرورة عزل أعضاء الجماعات اليهودية عن العالم الوثني . ولذا ، نادى بإنشاء مستعمرات لليهود (سماهم «عوليم» أي «الصاعدون») خارج المدن الكبيرة ، يمارس فيها اليهود الزراعة والحرف ، ويمارسوا شعائرهم ويحافظوا على لغة اليهود وزيهم وثقافتهم .

ولبيرنباوم عدة مؤلفات من أهمها **الاعترافات** (١٩١٧) ، كما

نشر ابنه سولومون بيرنباوم مختارات من كتاباته بالإنجليزية بعنوان **الجسر** (١٩٥٦) .

يوسف دوشينسكي (١٨٦٧-١٩٤٨)

Yosef Dushinsky

حاخام أرثوذكسي معاد للصهيونية ، وُلد في المجر . أسس مدرسة حاخامية في جالانتا عام ١٨٩٥ ، وزار فلسطين للمرة الأولى عام ١٩٣٢ . وقد تُوفي الحاخام الأكبر سونفلد أثناء زيارته ، فعُرض عليه منصب حاخام القدس لكنه رفض وعاد لتشيكوسلوفاكيا ، ثم عاد وقَبل المنصب تحت ضغط حاخام فلنا وغيره من كبار الحاخامات عام ١٩٣٣ . وبدأ نشاطه ضد الدعاية الصهيونية فوراً . شهد عام ١٩٣٦ أمام لجنة بيل ضد الصهاينة ، وطلب رفع وصايتهم عن حياة اليهود ، وأدان نظرة الدول إليهم باعتبارهم ممثلين لليهود . طلب عام ١٩٤٦ من اللجنة الأنجلو أمريكية الخاصة أن يسمحوا لليهود بالعيش في سلام ودعة للعبادة في الأرض المقدَّسة وليس لإقامة دولة . ورفض ، أمام اللجنة الخاصة للأمم المتحدة ، إقامة الدولة الصهيونية التي اعتبرها الخطر الأول على يهود العالم . وطلب أن تُترك القدس (على الأقل) حرة مقدَّسة . واحتج علناً على تصرفات الصهاينة غير الأخلاقية ، وأدان تجنيدهم النساء ، بل دعا كل النساء حتى للانتحار بدلاً من ارتكاب المعاصي الأخلاقية . وحرَّم على طلابه حتى الاعتراف بدولة إسرائيل . وقد قابل الكونت برنادوت في محاولة لإطلاع الأمم المتحدة على رفض اليهود للدولة الصهيونية .

موريس كوهين (١٨٨٠-١٩٤٨)

Morris Cohen

فيلسوف أمريكي يهودي . وُلد في روسيا ولكنه هاجر مع أسرته إلى الولايات المتحدة وهو بعد في الثانية عشرة . درس في سيتي كوليج ، وحينما التحق بهارفارد درس مع وليام جيمس وجوشيا رويس (فلاسفة البرجماتية) . عُيِّن أستاذاً للفلسفة في سيتي كوليج في نيويورك عام ١٩١٢ واستمر في التدريس فيها حتى عام ١٩٣٨ ثم أصبح أستاذاً للفلسفة في جامعة شيكاغو بين عامي ١٩٣٨ و١٩٤٠ ، كما أصبح رئيساً للرابطة الفلسفية الأمريكية (١٩٢٨) .

تركَّز اهتمام كوهين على فقر الطبقات العاملة ، وليعمق رؤيته لهذه القضية درس فلسفة القانون . واكتشف أن الموقف الرجعي المحافظ الذي يتخذه كثير من القضاة الأمريكيين نابع من فكرة القانون الطبيعي بينما ذهب هو إلى أن القانون هو نتاج تطوُّر تاريخي إنساني . ولكن أهم كتبه هو **العقل والطبيعة : مقال في معنى المنهج العلمي** (١٩٣١) . كما كتب دراسة أخرى في الموضوع نفسه بعنوان **مقدمة للمنطق والمنهج العلمي** (١٩٣٤) بالاشتراك مع إرنست ناجل . أما **أساس المنطق** (١٩٤٥) ، فهو عن علاقة المنطق بالعلوم . وقد امتدت اهتمامات كوهين لتشمل الأخلاق ، فكتب دراسة بعنوان **معنى التاريخ البشري** (١٩٤٧) حيث يقدم رؤية للتاريخ باعتباره دورات من النمو والانحلال وليس خطاً مستقيماً . وذهب إلى أن التاريخ دائري ، إلا أن الحق سينجح في تأكيد نفسه من وقت لآخر ، أي أن الدائرية ليست كاملة . وقد عبَّر عن آراء مماثلة في مجموعة مقالاته **عقيدة الليبرالي** (١٩٤٦) .

وقد بيَّن كوهين كيف هيمنت أفكار القومية العضوية (التي تقف على الطرف النقيض من القومية الليبرالية) ، وكيف عبَّرت عن نفسها من خلال الفكر الصهيوني . ويذهب كوهين إلى أن فلسفة الاندماج الليبرالية تعود إلى الفيلسوف إسبينوزا الذي بيَّن أن اليهود ، مثل سائر الجماعات الإنسانية الأخرى ، يرتبطون بوشائج المعاناة ، وأن الأم كلما ازدادت استنارة وأزالت القيود المفروضة على اليهود ، سيتبنى هؤلاء عادات الحضارة الغربية ، وبذا ستُحل المسألة اليهودية . ولكن عملية تحرير اليهود وإعتاقهم لم تبدأ إلا في القرن التاسع عشر . ورغم أن اليهود تبنوا مُثُل الليبرالية العقلانية ، إلا أن تحريرهم الكامل لم يتم ولم يُمنَحوا حقوقهم كافة إلا مع نهاية القرن التاسع عشر ، ولذلك فقد اعتنق بعض اليهود مُثُل القومية الرومانتيكية التي بدأت في ألمانيا كرد فعل لمُثُل الثورة الفرنسية الليبرالية العقلانية المستنيرة . وقد أدَّى هذا بدوره إلى انتشار الفكر الصهيوني الذي يستند إلى مقولات النظرية العرْقية . ولكن الصهاينة ، بدلاً من أن يُنصِّبوا الجنس التيوتوني جنساً أسمى ، يضعون اليهود في المكانة المتفوقة نفسها باعتبارهم الشعب الذي له «روحه» الفريدة التي لا يمكن أن تعبِّر عن نفسها إلا في فلسطين ومن خلال اللغة العبرية .

وقد صدرت بعد وفاته مجموعة مقالات بعنوان **تأملات يهودي تائه** (١٩٥٠) وهي مجموعة مقالات قصيرة عن اليهودية .

يعقوب دي هان (١٨٨١-١٩٢٤)

Yakov De Hann

أستاذ قانون دولي ورجل دين يهودي هولندي . وُلد لأسرة متوسطة متعلمة من اليهود الأرثوذكس حيث كان والده معلماً .

تَخرَّج في مدرسة المعلمين حيث أظهر مقدرة فائقة في الشعر ونُشرت أشعاره في العديد من الصحف الهولندية وقدرته الأوساط الأدبية . وقد أعجبته الطبيبة يوهانا فان مارسيفين ، وهي غير يهودية ومن أسرة غنية ، وتحوَّل هذا الإعجاب إلى حب فتزوجا . وقد قامت زوجته الغنية بتمويل دراساته الجامعية حتى تَخرَّج حيث عمل بعدئذ محاضراً في الجامعة . انضم دي هان للاشتراكيين الديموقراطيين ، وسافر إلى روسيا ضمن وفد حزبي ، وعند عودته ألف كتاباً عن أحوال المعتقلين السياسيين في سجون القيصر . وقد كانت رحلته تلك سبباً في تَحوُّل مجرى حياته تحوُّلاً عميقاً ، فقد تأثر كثيراً بمذابح اليهود ورفع تقريره للقصر الملكي الهولندي . لكنه وجد استهزاء من جانب المستشارين اليهود .

تراجع دي هان عن الاشتراكية وانفصل عن زوجته وعاد إلى اليهودية وأصدر عام ١٩١٨ كتاب **الأنشودة اليهودية** الذي تلقفته الدعاية الصهيونية ، فهاجر إلى فلسطين باعتباره أول هولندي صهيوني يهاجر إلى هناك عام ١٩١٩ . وعمل دي هان في فلسطين مراسلاً لجريدة هولندية تَصدُر في أمستردام ، كما عمل أيضاً لجريدة **ديلي إكسبريس** اللندنية . وكان يلقي محاضرات في كلية القانون التابعة للحكومة في القدس حين تَعرَّف إلى الحاخام الأرثوذكسي سونتفلد وعرف وجهة النظر الأرثوذكسية اليهودية المتدينة في الصهيونية العنصرية العلمانية المتعصبة . وشيئاً فشيئاً غيَّر دي هان انتماءه السياسي والعقائدي وأصبح من أعداء الصهيونية والمتحدث باسم اليهودية الأرثوذكسية وأجودات إسرائيل (التي كانت حينذاك معادية تماماً للصهيونية من منطلق ديني) ، وانبرى للدفاع عن حقوق العرب في أرضهم . وقد أرسل عشرات العرائض والدعاوى لعصبة الأمم رافضاً حق الصهاينة العلمانيين في التحدث باسم الجماعات اليهودية كلها وحصل في النهاية على حق أن يعتبر كل يهودي متدين نفسه خارج نطاق الوكالة اليهودية ، وضمن ذلك حق رفض دفع الضرائب .

وقد أثارت مواقفه المتوالية ضد الصهيونية ونشاطه الفعال ضد الاستيطان الصهيوني استياء المؤسسة الصهيونية ، فبدأت الصحف الصهيونية مثل **هآرتس** في مهاجمته بعنف ، ودعته بالخائن ، وأعلنت أنه عنصر خطر ينبغي التخلص منه . بيد أن هذا الهجوم المادي والمعنوي لم يثنه عن عزمه وعن كراهيته وعدائه للصهيونية التي كان يراها الخطر الأكبر على اليهودية بل على القيم الإنسانية كلها . ونظَّم الصهاينة مقاطعة شاملة لمحاضراته في الجامعة الأمر الذي دعا دي هان إلى الاستقالة . وكان رد دي هان على هذه الاعتداءات قوياً وحكيماً ، فقد نظم اجتماعاً شديد الأهمية بين الشريف حسين ملك الحجاز والأمير عبد الله أمير إمارات شرق الأردن والملك فيصل ملك العراق وبين كبار الحاخامات اليهود الأرثوذكس . وقد صعَّد هذا الهجوم الصهيوني ضد اليهود الأرثوذكس عامة ودي هان على وجه الخصوص . وقد تلقى دي هان العديد من التهديدات بالقتل ما لم يترك فلسطين فوراً . بل إنه تنبأ بموته حين قال لمراسلين صحفيين فرنسيين "سوف ترون ، سيقتلني الصهاينة ، فهذا ديدنهم" .

وفي ٢٩ يونيه عام ١٩٢٤ ، كتبت إحدى الجرائد الصهيونية محذرة : "إن الخائن دي هان سيرحل إلى لندن ليخطب أمام مجلس العموم البريطاني ويحطم طموحات اليهود القومية" . وفي ٣٠ يونيه عام ١٩٢٤ ، تم اغتياله بالفعل ، وثبت تَقاعُس المستشفى الذي نُقل إليه عن إنقاذه ، وكذلك فقد تغاضت قوات الشرطة المكلَّفة بحمايته عن القيام بواجبها ، وكان الصهاينة من الوقاحة بحيث إنهم اتهموا العرب بقتله وأرجعوا اغتياله إلى علاقة جنسية شاذة بينه وبين أحد العرب .

ومما يجدر ذكره أن **موسوعة الثقافة اليهودية** لا تذكر دي هان رغم أهميته الأدبية الكبرى في الأدب الهولندي المعاصر ، فقد أثارت روايته الأولى جدلاً واسعاً لأنها دخلت منطقة محرمة حول العلاقات الشاذة بين الرجال في المدارس الداخلية . وعلى أساس هذه الرواية ، كان الصهاينة يبنون اتهامهم له بالشذوذ والتورط في علاقات شاذة مع العرب . وبعد مرور خمسين عاماً من مقتل دي هان ، اعترف الصهاينة بتدبير اغتياله ، وبذا كان الحاخام دي هان أول الضحايا اليهود الذين اغتالهم الصهاينة .

يوئيل تايتلباوم (١٨٨٧-١٩٧٩)

Joel Teitelbaum

كبير حاخامات الفرقة الحسيدية المسماة «ساتمار» وجماعة نواطير المدينة الأرثوذكسية . وُلد في رومانيا داخل أسرة حاخامات عريقة . وقد تيتَّم صغيراً ، ورُسِّم حاخاماً وعمره ١٧ عاماً . وقد أسَّس مدرسة حاخامية في ساتمار (رومانيا) عام ١٩٠٦ . كان الحاخام تايتلباوم ، منذ البداية ، عدواً لدوداً للصهيونية ، وكان يرى أنها مصدر كل الموبقات والشرور . وقد سُجن في معسكرات الاعتقال النازية وهرب وأُعيد اعتقاله عدة مرات ، ونجح في النهاية في الهرب إلى سويسرا ثم ذهب إلى فلسطين لفترة قصيرة . وفي فلسطين ، طالب يهود العالم بإدانة الصهيونية وطرقها المخادعة

والدنيئة ودعا إلى التنصل منها تماماً . ثم ارتحل إلى الولايات المتحدة حيث استقر هناك منذ عام ١٩٤٦ وحتى وفاته . وأسَّس قرية حسيدية في وليامزبرج وهي ضاحية من ضواحي نيويورك ، وأطلق عليها اسم قرية يوئيل . وقد لاقى الحاخام وفرقته الأمرَّين من قِبَل سلطات نيويورك للحصول على التصريح بإقامة قريتهم تلك حتى نجحوا في ذلك . وكان الحاخام يُدين الصهيونية في كتاباته دائماً ، كما كان يصفها بالخداع والكذب وبأنها ستؤدي بيهود العالم إلى الدمار والهلاك المادي والروحي . وحذَّر غير مرة من الحروب العدوانية التي تَشنُّها الدولة الصهيونية . وكان الحاخام لا يعترف بالدولة الصهيونية ويحرض على مقاطعتها . ولأنه حاخام القدس ، فقد كان يزور فلسطين من وقت لآخر ولكنه كان يرفض أن يستقل القطارات التي تحمل رموز الدولة الصهيونية .

وقد أصدر الحاخام تايتلباوم كتاباً دينياً من ثلاثة أجزاء : يختص الجزء الأول ببعض المحظورات التي وردت في التلمود ومن أهمها ألا يثور اليهود ضد الأمم وألا يهاجروا هجرة جماعية إلى الأرض المقدَّسة . والجزء الثاني يختص بالحياة في الأرض المقدَّسة وبيَّن فيه أنه لا يوجد أي إصرار في التوراة على ذلك . والجزء الثالث كان عن استخدام العبرية كلغة تَخاطُب ، وقد أدان ذلك بل حرَّمه معلناً أن هذا تدنيس للسان المقدَّس .

وقد أصدر تايتلباوم كذلك كتاباً دينياً حول حرب ١٩٦٧ فأدانها وأنكر أن انتصارات القوات الصهيونية هو من قبيل المعجزات . وقاطع تايتلباوم حزب أجودات إسرائيل الديني لتخليه عن معارضة الصهيونية ودخوله الحكومة والكنيست .

هانز كون (١٨٩١-١٩٧١)

Hans Kohn

مؤرخ أمريكي يهودي درس الدكتوراه في جامعة براغ ، واستقر في فلسطين عام ١٩٢٥ ولكنه تركها عام ١٩٣٤ ، ثم استقر في الولايات المتحدة حيث عمل أستاذاً للتاريخ في كلية سميث كوليج من عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٦٢ وفي سيتي كوليج في نيويورك .

ويدور اهتمام كون حول فكرة القومية ، وأهم أعماله هي : **فكرة القومية** (١٩٤٤) ، و **عصر القومية** (١٩٦٢) ، و **مقدمة للدول القومية** (١٩٦٧) . وله كتاب عن بوبر وهايني وآحاد هعام ، واختياره لهذه الشخصيات يدل على قلقه من الفكرة الصهيونية ، وهو قلق عبَّر عنه في دراسته **صهيون وفكرة اليهودية القومية** .

ويقول كوهن في دراسته هذه : "لا توجد حضارة عظيمة لم تتأثر بالحضارات الأخرى أو تقتبس منها ، سواء في مجال الدين أو في مجال اللغة أو القوانين أو العادات . وهكذا كان اليهود ، فقد بلغوا درجة عالية من الامتياز بعد أن تركوا فلسطين واختلطوا بالشعوب الأخرى ، ومن هنا ظهرت بينهم أسماء المشاهير أمثال هايني وماركس وبرجسون . وعلى حد قوله ، فإن العودة للأصل ليست بالضرورة شيئاً إيجابياً يزيد من درجة الإبداع . فالفرنسيون لم يضرهم كثيراً تخليهم عن لغتهم الأصلية الغالية وتبنيهم لغة الغزاة الرومان . بل إن مصدر التشريع الأوربي كله هو القانون الروماني ، وهو قانون فُرض فرضاً من الخارج على أوربا ولم ينبع من داخلها .

ويبيِّن هانز كون أن ثمة تيارين متعارضين داخل اليهودية : تيار قومي وآخر معاد للقومية ، وأن التوراة جاء فيها أن زعماء الشعب اليهودي ذهبوا إلى النبي صمويل وطلبوا منه أن يُنصِّب عليهم ملكاً ، أي أنهم كانوا يطلبون أن يكونوا مثل كل الأمم وأن تكون لهم حكومة مثل كل الحكومات ودولة مثل كل الدول . وحينما رفض النبي أن يفعل ذلك ، أخبره الإله أن يساير اليهود لأنهم بإصرارهم على أن يكونوا مثل كل الشعوب الأخرى لم يرفضوا صمويل وإنما رفضوا الإله نفسه ، فهم يودون أن يكونوا خدماً للدولة بدلاً من أن يقوموا على خدمة الإله . وقد أسَّس اليهود دولتهم بالفعل ، ولكن الأنبياء أخذوا منها موقف المعارضة ، فقام إرميا بالهجوم عليها كما قام عاموس بإعادة تفسير فكرة الشعب المختار حسب أسس جديدة ، فالاختيار حسب تفسيره لا يعني أن الإله منح اليهود حقوقاً خاصة ، ولا يعني أن انتصارهم على الآخرين أمر أكيد ، وإنما يعني أن الإله سيُنزل بهم أشد العقاب إذا ارتكبوا أية خطايا حتى ولو كانت عادية "إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم" (عاموس ٣/ ٢) . بل إن عاموس كان راديكالياً في تفسير فكرة أرض الميعاد نفسها ، فحسب رؤيته لا يوجد أي فرق بين جماعة يسرائيل والأجناس الأخرى . إن مساعدة الإله لليهود على الخروج من أرض مصر ليست مقصورة على اليهود ، فالإله يساعد كل الشعوب ولا يميِّز بين شعب وآخر . وقد جاء في سفر أشعياء هذه الرؤية العالمية الشاملة لمستقبل يضم كل البشر "في ذلك اليوم تكون سكة من مصر إلى آشور فيجيء الآشوريون إلى مصر والمصريون إلى آشور ويعبد المصريون مع الآشوريين . . . مبارك شعبي مصر وعمل يدي آشور وميراثي إسرائيل" (أشعياء ١٩/ ٢٥) .

ويذكر كون أيضاً في مجال تقديم رؤية اندماجية للتاريخ

اليهودي حادثة بفنه ، وذلك حين قام الحاخام يوحنان بن زكاي بالهرب من القدس أثناء حصار الرومان لها وأقام مدرسة تلمودية في يفنه وذلك حتى يضمن ألا يباد كل الفقهاء والحاخامات ، ولا يبقى منهم أحد يحمل مشعل الشريعة وينقلها ويفسرها للشعب بعد سقوط القدس . وبهروبه هذا ، تخلَّى يوحنان بن زكاي عن فكرة الدولة اليهودية ، وأثبت أن الدولة في تاريخ اليهود ليست سوى ظاهرة عرضية وأن اليهودية كدين وكتراث حضاري ظاهرة فريدة مستمرة تضرب بجذورها في عالم الروح اليهودية . ومن الواضح أن الهدف من هذه القراءة للتاريخ اليهودي هو إثبات أن الرؤية الصهيونية لليهود واليهودية متناقضة مع تجربة اليهود التاريخية ومع القيم الأخلاقية والدينية التي تدافع عنها اليهودية كدين .

ويَظهَر التناقض بين الصهاينة والاندماجيين بشكل جلي في موقفهم من معاداة اليهود . فبينما يرى الصهاينة أنه مرض أزلي أو جرثومة حتمية خبيثة يصاب بها كل الأغيار في كل زمان ومكان ، يؤكد هانز كون أن الاندماجيين ينظرون إليها بشكل عقلاني على أنها مرض اجتماعي يتغيَّر بتغير الظروف . وبالتالي ، إذا ازدادت المجتمعات الإنسانية استنارة وعقلانية خفَّ خطر معاداة اليهود .

ويثير كون قضية تَعارُض الصهيونية مع حقوق اليهود ، فالصهيونية لا تطالب بالحرية الفردية لليهود وإنما تطالب بالاستقلال الجماعي لهم وبحقهم في الهجرة ، وهذا أمر يتنافى مع التقاليد الليبرالية التي لا تتعامل إلا مع الأفراد كأفراد ولا تتعامل إلا مع حقوق الأفراد داخل أوطانهم . وبالتالي ، فإن الطرح الصهيوني لقضية الحقوق اليهودية يضر بهذه الحقوق وبحقوق كل يهودي يرغب في البقاء في وطنه وفي الحصول على حقوقه السياسية والمدنية .

ولم تُنشر أيٌّ من الموسوعات اليهودية التي تناولت مؤلفات كون وفكره إلى موقفه من الصهيونية ككل واكتفت بالحديث عن كتاباته الأكاديمية العامه . وقد نشر كون سيرته الذاتية **الحياة في ثورة عالمية** (١٩٦٤) .

موشيه منوهين (١٨٩٣-١٩٨٢)

Moshe Menuhin

مفكر يهودي مناهض للصهيونية ووالد عازف الكمان العالمي يهودا منوهين . وُلد عام ١٨٩٣ في روسيا من عائلة حسيدية شهيرة ، ثم هاجر إلى فلسطين ليعيش في كنف جده . تلقَّى تعليمه الأولي في المدارس التلمودية بالقدس ثم أكمل تعليمه الثانوي في مدرسة هرتزليا الصهيونية في تل أبيب . ثم ذهب إلى نيويورك حيث أتم دراساته الجامعية هناك عام ١٩١٧ . وقد تأثر في هذه الفترة بآراء آحاد هعام ومارتن بوبر ويهودا ماجنيس ، ومن ثم أعلن معارضته وعد بلفور والصهيونية الدبلوماسية (الاستعمارية) التي رآها مجرد تزييف لليهودية ، وخطراً داهماً على البشرية ينذر دائماً بحمامات دم . ومن ثم ، فقد رفض العودة إلى فلسطين واستقر في كاليفورنيا .

وقد سافر منوهين مع أسرته لدول عديدة وتَقابَل مع عدة سياسيين مهمين في بلدان مختلفة ، وعبَّر مراراً وتكراراً عن أسفه وقلقه بشأن الوضع المتدهور في الشرق الأوسط . وعن حزنه لآلام ومتاعب سكان فلسطين من العرب الذين يُطرَدون من ديارهم . انضم منوهين إلى المجلس الأمريكي لليهودية لعدة أعوام ، وكان من محركي فكرة معارضة القومية اليهودية التي قادها برجر وعبَّر عن هذه المعارضة في كتابه **انحطاط اليهودية في عصرنا** (١٩٦٩) ، ولكنه استقال من المجلس الأمريكي لليهودية بعد أن تخلَّى عن سياسة معارضة الصهيونية عام ١٩٦٧ . وشارك منوهين في تأسيس منظمة "بدائل أمريكية يهودية للصهيونية" ، ولكنه استقال منها عام ١٩٧٢ لضعف تأثيرها وقلة حيلتها على حد قوله . واستمر مناهضاً شديداً للصهيونية التي رآها خطراً محدقاً بالعالم أجمع وباليهود ، حيثما كانوا ، بصفة خاصة . وأكد منوهين أن الصهيونية تتعارض مع انتماء اليهود القومي في البلاد التي ينتمون إليها ، ومن ثم فإنها تشكل عقبة في سبيل أن يحيوا حياة طبيعية منتجة سواء على المستوى العملي أو على المستوى النفسي ، وعبَّر منوهين عن هذه الآراء في كتابه **فساد الصهيونية اليهود** (١٩٧٤) .

وقد شرح منوهين الفرق بين الصهيونية واليهودية مستخدماً التقليد اليهودي الشهير في مقارنة الكاهن بالنبي حيث قال : "لقد كان لدى الشعب اليهودي كهنة وأنبياء ، وكان الكهنة [دعاة الحلولية الوثنية] على الدوام أبواق القوميين والسياسيين . أما الأنبياء وأتباعهم [دعاة الفكر التوحيدي] فقد كانوا يؤمنون بالنزعة الإنسانية العالمية والعدالة والإنصاف والرقي الأخلاقي" .

امرام بلاو (١٩٠٠-١٩٧٤)

Amram Blau

مؤسس حركة ناطوري كارتا ، وُلد في القدس لأسرة يهودية وحارب ضد الحاخام الصهيوني كوك منذ شبابه ، وأدان المدارس التي أقامها الصهاينة لتعليم العبرية الحديثة والتعاليم العلمانية . نجح

بالمشاركة مع الحاخام سونتفلد في الحصول على موافقة حكومة الانتداب على الفصل بين اليهود الأرثوذكس والصهاينة . وعندما لاحَظ أن ثمة تقارباً بين حركة أجودات إسرائيل والصهاينة ، انفصل عنها وأدان قادتها واتهمهم بالتواطؤ مع المارقين الصهاينة من أجل المال والجاه والسلطة ، وأنشأ حركة الناطوري كارتا لحماية قداسة المدينة المقدَّسة (القدس) . وتظاهرَ عام ١٩٤٨ مع ٦٠٠٠ من اليهود احتجاجاً على قرار التقسيم وضد فكرة دولة إسرائيل التي رفضها حتى قبل أن تنشأ . وفي هذه المظاهرة ، قامت القوات الصهيونية بإطلاق النار على المتظاهرين فجرحت العديد منهم . وعندما قامت دولة الصهاينة ، رفض الحاخام بلاو الاعتراف بها ورفض الخضوع لقوانينها وتظاهر ضدها ، وقامت الحكومة الإسرائيلية باعتقاله وسجنه عشرات المرات .

أرسل عام ١٩٧٤ رسالة إلى الرئيس نيكسون من أجل فَصْل القدس عن دولة الصهاينة أو على الأقل إيجاد حل لمشكلة اليهود الأرثوذكس .

ميخائيل فيسمندل (١٩٠٣-١٩٥٧)

Micheal Weismandel

حاخام أرثوذكسي شهير من المجر . زار فلسطين لأول مرة عام ١٩٣٥ . بدأ رحلته لإنقاذ اليهود من الاضطهاد النازي منذ عام ١٩٣٨ ، فعمل في هذا الاتجاه بشكل منقطع النظير طوال الفترة ١٩٤٢-١٩٤٤ . وكان قد عقد اتفاقاً مع فيسلنكي نائب أيخمان لإنقاذ يهود سلوفاكيا مقابل رشوة تقدَّر بمبلغ ٥٠ ألف دولار . كما أرسل رسائل عديدة تضمنت خطة لرشوة القيادة النازية كلها لإنقاذ اليهود من الإبادة . وكان الحاخام فايسمندل أول من فضح للعالم أهوال معسكرات الإبادة النازية بل أرسل للحلفاء خريطة المعسكر والسكك الحديدية المؤدية له من أجل قصفها بالطيران . وقامت القيادات الصهيونية بإعاقة خطة الحاخام فايسمندل . كما قام الحاخام الأمريكي ستيفن وايز بمظاهرة دعائية في نيويورك أثارت قضية رشوة القيادات النازية ، الأمر الذي حدا بهذه القيادات إلى إنكار تَعامُلها مع فايسمندل والمُضي قدماً في خطة الإبادة .

وقد أصدر فايسمندل كتابه الشهير **من الأعماق** الذي أثبت فيه بالوثائق والبراهين تواطؤ القيادات الصهيونية مع النازي من أجل المساعدة على هجرة اليهود إلى فلسطين وكذلك من أجل الحصول على الأموال من الحلفاء . وعارض فايسمندل إقامة دولة إسرائيل بكل قوته وخطب ضدها في الأمم المتحدة وفي وزارة الخارجية الأمريكية حيث كان قد استقر في الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٦ .

إلمر بيرجر (١٩٠٨-١٩٩٦)

Elmer Berger

حاخام أمريكي ويهودي اندماجي إصلاحي من أهم الشخصيات المعادية للصهيونية والرافضة لها . وُلد في كليفلاند ونُصِّب حاخاماً عام ١٩٣٢ . وساهم مع غيره من الإصلاحيين عام ١٩٤٣ في تكوين منظمة المجلس الأمريكي لليهودية ، وهو تنظيم يهودي معاد للصهيونية رأسه في البداية ليسنج روزنولد كان يهدف إلى تشجيع يهود الولايات المتحدة على الاندماج واعتبار اليهودية عقيدة (فقط) لا علاقة لها بالانتماء القومي . وعارض المجلس الجهود الرامية إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين أو في أي مكان . وقد شغل بيرجر منصب المدير التنفيذي للمجلس منذ إنشائه حتى عام ١٩٥٥ ثم انتُخب عام ١٩٥٥ نائباً للرئيس .

وقد عارض بيرجر ، بشجاعة ، قيام الدولة اليهودية في فلسطين ، وأعرب عن اعتقاده بأن الصهاينة قد استغلوا قلق اليهود الأمريكيين مما حدث في أوربا على يد هتلر للوصول إلى أغراضهم . كما أنه يرى أن الصهيونية تهدف إلى قلب الدين إلى مبدأ سياسي . وكان بيرجر من أوائل من نددوا بالعنصرية الصهيونية ، وقد صاغ مصطلح «إزالة الصبغة الصهيونية عن إسرائيل» معرباً عن أمله في إقامة دولة تضم اليهود والمسلمين والمسيحيين في سلام . وقام الحاخام بيرجر بزيارات متعددة للأقطار العربية . وفي عام ١٩٦٤ ، أحرز بيرجر أعظم انتصاراته في إطار صراعه ضد الصهيونية ، وذلك عندما حصل بالاشتراك مع البروفسور ميليسون على رفض رسمي من وزارة الخارجية الأمريكية لمقولة "القومية اليهودية" وذلك في إطار خطاب من فيلبس تالبوت ينص على أن هذا المفهوم ليست له قيمة قانونية في نطاق نصوص القانون الدولي .

وبعد حرب ١٩٦٧ ، كثَّف الحاخام بيرجر جهوده ضد الصهيونية واتهم إسرائيل بأنها المعتدية وبأنها دولة عنصرية . وكان الانتصار الذي حققته إسرائيل عام ١٩٦٧ قد غيَّر موقف العديد من أعضاء المجلس الأمريكي لليهودية ، فاتهمه بعضهم بالتطرف في مصادقة العرب الأمر الذي حدا بالحاخام بيرجر إلى تقديم استقالته من المجلس عام ١٩٦٨ . وقد أدَّت هذه الاستقالة إلى تضاؤل نفوذ المجلس وانتهائه فعلياً بعد فقدانه قوته المحركة . بيد أن الحاخام بيرجر استمر في مناهضته الصهيونية ودعاه بعض أعضاء المجلس الذين يتفقون معه في الرأي إلى تأسيس منظمة بديلة . وفي عام ١٩٦٩ ،

أسَّس مع هؤلاء الأعضاء منظمة «بدائل أمريكية يهودية للصهيونية» وانتُخب رئيساً لها ، وهي منظمة تؤكد القيم الإنسانية العالمية الموجودة في الديانة اليهودية ، وتطرحها مقابل الدعاوى العنصرية التي تقول بوجود الشعب اليهودي ووجود رابطة روحية بينه وبين إسرائيل . وتركز المنظمة في دعايتها على فضح فكرة "الولاء المزدوج" الكامنة خلف هذه المقولة الصهيونية . وتضم المنظمة حوالي ١٥٠٠ عضو وتَصدُر نشرة **تقرير بدائل أمريكية يهودية للصهيونية** يحرر الحاخام بيرجر معظم مادتها بالاشتراك مع مزفنسكي .

كما يشارك الحاخام بيرجر بانتظام في جميع المؤتمرات الدولية المعارضة للصهيونية . وتنظم المنظمة المؤتمرات المناهضة للصهيونية ، بيد أن قدرتها المادية المحدودة تمنعها من التأثير الفعلي في الساحة الأمريكية السياسية . وقد كتب بيرجر العديد من الكتب المناهضة للصهيونية .

ويمثل الحاخام بيرجر وغيره من اليهود مناهضي الصهيونية في الولايات المتحدة ما يمكن أن ندعوه «مؤسسة الرجل الواحد» ، وهو المثال الذي نراه يتكرر مع غيره ، مثل : شيبر وهاناور ولين ، وهي تلك المؤسسة التي تُصدر نشرات وتنظم مؤتمرات وتعقد ندوات يحضرها عدد محدود ، وخلف كل هذا النشاط يقف فرد واحد يؤدي خروجه عنها أو موته لإنهاء المنظمة أو المؤسسة .

من أهم مؤلفات برجر : **الورطة اليهودية** (١٩٤٥) ، و **تاريخ متحيز لليهودية** (١٩٥١) ، **من يعرف أفضل من هذا فعليه أن يعلن ذلك** (١٩٥٥) ، **مذكرات يهودي معاد للصهيونية** (١٩٧٦) ، **اليهودية أم الصهيونية** (١٩٨٦) ، **السلام لفلسطين** (١٩٩٣) ، والكتاب الأخير هو أهم كتبه العلمية ويضم تحليلاً لبعض الوثائق الرسمية الصهيونية والإسرائيلية .

حبيب شيبر (١٩١٣-)

Haviv Schieber

مواطن إسرائيلي هاجر إلى الولايات المتحدة في منتصف الستينيات . وهو مناهض عنيد للصهيونية ويعتبر نفسه لاجئاً سياسياً في الولايات المتحدة . وقد أسَّس عام ١٩٦٨ منظمة «لجنة دولة الأراضي المقدَّسة المعادية للصهيونية» التي تهدف إلى إقامة دولة متنوعة السلاح في الأراضي المقدَّسة بفلسطين تسمح بتعايش كل الأديان في سلام . ولأجل تحقيق ذلك ، تهدف اللجنة إلى اجتثاث الصهيونية من المنطقة . والواقع أن شيبر هو المنظمة أساساً ومقرها في فيرفاكس بولاية فرجينيا . وعن طريق منظمته هذه ، يقوم بإرسال خطابات تحث الحكومة الأمريكية على رفض المطالب الإسرائيلية وتدعوها إلى تَبنِّي مواقف ضد إسرائيل . وتعقد اللجنة المؤتمرات من أجل تحقيق أهدافها ، مثل مؤتمر عام ١٩٨٢ الذي دعت فيه إلى خَلْق حكومة الأراضي المقدَّسة في المنفى . وشيبر يعتبر نفسه متطرفاً يمينياً ، وقد أعرب غير مرة عن اعتقاده بأن إسرائيل ألعوبة في يد السوفييت لهدم الديموقراطية الأمريكية وتقويضها . وقال إن من الأفضل إرسال الأموال والدعم العسكري الذي ترسله الولايات المتحدة لإسرائيل إلى السلفادور مثلاً . وغني عن القول أنه مع سقوط الاتحاد السوفيتي سقط شيبر نفسه ، أو لعله يبحث الآن عن قضية جديدة يتبناها .

مكسيم رودنسون (١٩١٥-)

Maxime Rodinson

مفكر ماركسي ومستشرق فرنسي من أصل يهودي . وُلد في باريس عام ١٩١٥ ، وكان أبوه أحد مؤسسي اتحاد نقابات العمال اليهود في باريس . تلقَّى تعليمه الابتدائي في باريس ثم عمل كصبي تشهيلات قبل التحاقه بقسم اللغات الشرقية الحية في السوربون حيث درس اللغات السامية والإثنوجرافيا وعلم الاجتماع . خدم في الجيش الفرنسي في سوريا أثناء الحرب العالمية الثانية ، وبقي لمدة ٧ سنوات في لبنان حيث عمل كمدرس في مدارس إسلامية ثانوية وكموظف في الإدارة الفرنسية في سوريا ولبنان ، وفي هذه الفترة قام بزيارات متعددة لمختلف دول الشرق الأوسط . انضم للحزب الشيوعي الفرنسي عام ١٩٣٧ ، وتعرف إلى الشيوعيين والماركسيين واليسار العربي إبان إقامته في المنطقة . أصدر نشرة **الشرق الأوسط** الشهرية السياسية عامي ١٩٥٠ و١٩٥١ ، وذلك بعد عودته لفرنسا عام ١٩٤٧ . وترك الحزب الشيوعي الفرنسي عام ١٩٥٨ ، ولكنه استمر في صفوف اليسار الماركسي يعمل مديراً لقسم الشرق الأوسط في المعهد التطبيقي للدراسات العليات بالسوربون . له مؤلفات عديدة حول الإسلام والعروبة والمسألة اليهودية ، من بينها : **الإسلام والرأسمالية** (١٩٦٦) ، و **إسرائيل والرفض العربي** (١٩٦٨) ، و **الإسلام والماركسية** (١٩٧٢) ، و **إسرائيل واقع استعماري** (١٩٧٣) ، و **العرب** (١٩٧٩) ، و **محمد** (١٩٧٩) ، و **شعب يهودي أم مسألة يهودية** (١٩٨١) .

ويذهب رودنسون إلى أن المنطق الصهيوني منطق إحلالي يقوم على الإحلال القسري للسكان (العرب) بغيرهم (اليهود) ، ومن ثم

فهو عدواني واستعماري وعنصري ، وهذا يعني أن الدولة الصهيونية دولة لخدمة الاستعمار ارتبطت - كحركة - بالاستعمار البريطاني منذ نشأتها ثم بالإمبريالية الأمريكية فيما بعد .

والعنصرية التي تقوم عليها الفكرة الصهيونية ودولة إسرائيل تؤدي إلى سيادة القيم الإسبرطية أي قيم المحاربين الدائمين ، وهو المنطق الذي يحكم قادة إسرائيل . وهو يرى أن هذا المنطق نفسه قد أوصل المشروع الصهيوني إلى طريق مسدود ، فلا يمكن تخيل بشر في حالة استنفار دائم . وتلجأ إسرائيل إلى المغامرات العسكرية وذلك لتهدئة حالة التهيج والاستنفار المستمرين بين المستوطنين وتنفيس الطاقة العدوانية لديهم . وهذا ، بدوره ، يخلق توترات جديدة ويزيد الاستنفار والتهيج ، وهكذا في حلقة مفرغة مدمرة . ومن ثم ، فإن التناقضات الداخلية تأكل الدولة الصهيونية من الداخل والمنظمات الصهيونية تتخبط في صراعات داخلية مدمرة .

ويرى رودنسون أن الصهيونية هي نتيجة ظاهرة معاداة اليهود ، ويشير إلى أن معظم اليهود في أوربا كانوا في طريقهم للاندماج ، ثم جاءت النازية لتقدم فرصة نادرة للحركة الصهيونية وتبث الروح فيها .

وقد لعب رودنسون دوراً مهماً في تقريب وجهات النظر وتسهيل الحوار بين منظمة التحرير الفلسطينية وبعض الجماعات المعتدلة واليسارية في إسرائيل ، وذلك من منطلق إيمانه بالقيم الإنسانية العامة . بيد أنه لا يرى نفعاً كبيراً من هذا الحوار في أحسن الأحوال . فالحوار يفيد فقط في إطار الإستراتيجية العامة للطرفين المتحاورين ، لكن القادة الإسرائيليين أفهموا شعبهم أن الفلسطيني حيوان يسير منتصب القامة ، وأن الفلسطينيين من جانبهم يرفضون الحوار مع الإسرائيليين . ويرى رودنسون أن الغربيين يتأثرون كثيراً بما يحدث في إسرائيل أكثر مما يحدث في الدول العربية حيث لا يأبهون بما يحدث في هذه البلاد كثيراً أو لا يأبهون بها على الإطلاق ، فلا تزال المشاعر العنصرية وآثارها السياسية تطغى على حياة الغربيين . ويضرب رودنسون مثالاً لذلك بتزايد نمو الأحزاب العنصرية والنازية في الغرب الأوربي ، ولذا فهو لا يعتقد في أطروحات غياب الإعلام العربي وتغيير الحالة الذهنية الغربية . . . إلخ . لأنه يرى أن المسألة أعقد كثيراً من ذلك وترجع إلى الطبيعة العنصرية الأساسية في بنية الحضارة الغربية .

ألفريد ليلينتال (١٩١٦-)

Alfred Lilienthal

محام يهودي أمريكي معاد لإسرائيل والصهيونية . وُلد عام ١٩١٦ ، وحصل على درجة البكالوريوس من جامعة كورنل عام ١٩٣٤ ودرجة الدكتوراه في القانون من كلية الحقوق بجامعة كولومبيا عام ١٩٣٩ . وقد عمل في وزارة الخارجية الأمريكية في الفترة من ١٩٤١ - ١٩٤٣ ، وخدم في الجيش الأمريكي في الفترة من ١٩٤٣ - ١٩٤٥ في منطقة الشرق الأوسط ، ثم عاد لمنصبه في وزارة الخارجية في الفترة بين عامي ١٩٤٥ و١٩٤٧ . وكان ليلينتال مستشاراً قانونياً لوفد الولايات المتحدة في مؤتمر سان فرانسيسكو الخاص بميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ . واستقال من وزارة الخارجية عام ١٩٤٧ وعمل بالمحاماة في العاصمة واشنطن منذ عام ١٩٤٧ .

وقد جذب ليلينتال الانتباه بمقال له نشرته مجلة **ريدرز دايجست** عنوانه "راية إسرائيل ليست رايتي" (١٩٤٩) عبَّر فيه عن رفضه لفكرة الدولة اليهودية وأثار قضية الولاء المزدوج الذي تفرضه إسرائيل على اليهود الأمريكيين . وكانت تلك الفكرة موضوع كتابه الأول **ما ثمن إسرائيل ؟** (١٩٥٤) .

وثمة موضوعات أساسية متكررة في أطروحات ليلينتال هي :

١ - الولاء المزدوج وآثاره على اليهود الأمريكيين سواء على المستوى النفسي أو على المستوى العملي .

٢ - الخطر الكامن على مصالح الولايات المتحدة نتيجة التأييد الأعمى للسياسات الإسرائيلية وعدم الاهتمام بالمنظور العربي أو بوجهة النظر العربية ، وهي الفكرة التي عبَّر عنها في كتابه **وهكذا يضيع الشرق الأوسط** .

٣ - التأثير غير المحدود الذي تمارسه الصهيونية على صناع القرار في الولايات المتحدة وفي وسائل الإعلام ، وما يترتب على ذلك من مخاطر على الأمن والسلام العالميين . وقد عبَّر ليلينتال عن هذه الفكرة بوضوح في كتابه **حلقة الوصل الصهيونية** (ويحمل عنواناً فرعياً هو : **ما ثمن السلام ؟**) الذي صدر عام ١٩٧٨ . وقد أصدر ليلينتال كتابين آخرين بالإضافة لما سبق هما : **الوجه الآخر للعملة** (١٩٦٥) ، و **هؤلاء هم أصدقائي** (١٩٦١) . ويدعو ليلينتال إلى اعتراف الولايات المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية وإلى تدخل اليهود الأمريكيين بشكل فعال من أجل إنهاء الصهيونية في الشرق الأوسط وقيام دولة مسالمة في فلسطين تجمع المسلمين واليهود والمسيحيين والعبرانيين على حد تعبيره "ولكن بدون صهيونية" .

جيكوب بيتشوفسكي (١٩٢٥-)

Jacob Petuchowsky

حاخام يهودي إصلاحي اندماجي . وُلد في برلين وتعلّم في كلٍّ من برلين وإنجلترا واسكتلندا والولايات المتحدة الأمريكية التي هاجر إليها عام ١٩٤٨ . حصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت ورُسِّم حاخاماً . عمل حتى ١٩٥٥ في ويست فرجينيا وبنسلفانيا ثم عاد للتدريس في المعهد اليهودي للدين ، وأصبح عام ١٩٦١ عضواً في هيئة تدريس كلية الفلسفة والدين في كلية أنطاكية بولاية أوهايو ، ثم عمل في الفترة من ١٩٦٣ - ١٩٦٤ كحاخام أول ومدير للدراسات اليهودية للكلية اليهودية بها .

ويُعَدُّ بيتشوفسكي كاتباً لاهوتياً شهيراً غزير الإنتاج ، وفي كتابه **منذ سيناء وحتى الآن : وجهة نظر جديدة في التوراة** (١٩٦١) ، أوضح الرابطة العضوية القوية بين اليهودية الإصلاحية والتقليد اليهودي الأصيل . فاليهودية الإصلاحية - حسب وجهة نظره - إن هي إلا تشكيل متطور من أشكال هذا التقليد . وعلى هذا الأساس ، يعادي الحاخام بتشوفسكي الصهيونية معاداة لا هوادة فيها ، وأصدر عام ١٩٦٦ كتابه **إعادة النظر في صهيون** حيث نبذ الدعاوى الصهيونية حول القومية اليهودية ، كما أنكر أن تكون الصهيونية ناطقة بلسان كل اليهود ، وأكد أن التقاليد اليهودية الحقة لا تتفق مع الصهيونية ورفض بشدة محاولات تلك الدولة (إسرائيل) التأثير على البنية الإجمالية للحياة اليهودية في الولايات المتحدة .

مارك لين (١٩٢٧-)

Mark Lane.

محام يهودي ، وعضو مجلس نواب ولاية نيويورك سابقاً . اشتهر على مستوى الولايات المتحدة نتيجة دعاواه بأن لي هارفي أوزوالد ليس القاتل الحقيقي للرئيس كنيدي . وعاد لدائرة الضوء مرة ثانية عام ١٩٧٨ بعد الانتحار الجماعي الذي قامت به حركة جيم جونز الدينية في جويانا بأمريكا اللاتينية ، حيث كان لين محامي جونز .

ومنذ عام ١٩٨٠ ، ركز لين اهتمامه على الشرق الأوسط وأسس منظمة المجلس القومي للشرق الأوسط وذلك في ممفيس بولاية تنسي . وتهدف المنظمة إلى تعريف الجمهور الأمريكي بالمشكلة الفلسطينية ، وذلك من أجل تغيير سياسة الولايات المتحدة إزاء منظمة التحرير الفلسطينية . وقد أعرب لين عن إيمانه بأن كفاحه من أجل الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني هو كفاح ضد معاداة اليهود ، لأن الدولة اليهودية هي أقل الأماكن أمناً بالنسبة لليهود ، ويرفض لين الدعاوى الصهيونية حول حقوق اليهود التاريخية والتوراتية في فلسطين ويرى أن إسرائيل دولة توسعية إمبريالية طردت العرب من ديارهم ، ومن ثم فإن الإسرائيليين هم نازيون جدد ليس إلا .

وقد حاول لين أن يجتذب لمنظمته بعض الشخصيات السياسية المعتدلة مثل أندرو يونج سفير الولايات المتحدة السابق لدى الأمم المتحدة . ورغم فشله في هذا ، فقد نجح في أن يفتتح فرعين لمنظمته ، الأول في كلية أنطاكية بولاية أوهايو والآخر في جامعة أنديانا في مدينة أنديانا بوليس .

ويدعو لين إلى إيقاف شحنات السلاح الأمريكية لإسرائيل ومشاركة منظمة التحرير في مؤتمر السلام الدولي ، ومن ثم إقامة دولة ديموقراطية علمانية على كامل التراب الفلسطيني . وقد أدان بشدة عدوانية وقسوة أريل شارون ومناحم بيجين والمذابح التي ارتكبتها إسرائيل في لبنان ، وقارنها بما حدث على يد النازيين مؤكداً رؤيته لإسرائيل كدولة نازية المحتوى .

ونستطيع أن نضع لين في إطار أولئك اليهود الرافضين للصهيونية من منطلق أخلاقي عقلاني منطقي ، مثله مثل ألفرد ليلينتال وميزفنسكي .

نورتون ميزفنسكي (١٩٣٢-)

Norton Mezvinsky

أستاذ تاريخ بجامعة كونتيكت . وُلد عام ١٩٣٢ بولاية أيوا ، وتخرَّج في جامعة أيوا ثم أكمل دراساته العليا بولاية ويسكونسين ، وعمل بالتدريس في هارفارد وجامعات أمريكية أخرى . وفي عام ١٩٨٣ ، أصبح عضواً مشاركاً في مركز دراسات الشرق الأوسط بهارفارد .

يُعتبر ميزفنسكي واحداً من أنشط اليهود المناهضين للصهيونية . عمل بين عامي ١٩٦٦ و١٩٦٧ مديراً تنفيذياً للمجلس الأمريكي لليهودية ، وهو المنصب الذي كان إلمر بيرجر يشغله حتى عام ١٩٥٥ . ويقوم ميزفنسكي بإلقاء المحاضرات ضد إسرائيل والصهيونية ، ويهاجم بشدة أنشطة دولة إسرائيل والأسس النظرية للصهيونية . وقد ساهم ميزفنسكي في تحرير المرجع المهم **وثائق عن إسرائيل بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣** ، و **قراءات نقدية للصهيونية** (١٩٧٥) . كما شارك بعدة مقالات في العديد من الكتب والدوريات والمجلات والأبحاث المهتمة بالقضية الفلسطينية . ويعتبر

ميزفنسكي تلميذاً للحاخام بيرجر ، فمعاداته للصهيونية تنبني على أساس القيم الدينية الاندماجية والدفاع عن القيم الإنسانية - وذلك على الرغم من أن عائلته لها انتماء صهيوني قوي ورغم تأثره في شبابه بالفكر الصهيوني . وقد اشتهر ميزفنسكي في أواسط السبعينيات كمنظِّر معاد للصهيونية .

ليني برينر (١٩٣٧-)

Lenni Brenner

صحفي أمريكي يهودي ماركسي تروتسكي الاتجاه . وُلد في بروكلين عام ١٩٣٧ ونشرت مقالاته في العديد من الصحف والمجلات . وهو من العناصر النشيطة المعادية للحرب والمناهضة للصهيونية ومن دعاة الحقوق المدنية في أمريكا .

في عام ١٩٨٣ ، نشر برينر كتابه المهم **الصهيونية في عصر الديكتاتورية** الذي تُرجم للعربية ونُشر عام ١٩٨٥ . وتتبع أهمية الكتاب من أنه يوضح التواطؤ الصهيوني مع النازية والفاشية وغيرها من الحركات الشمولية في أوربا بالوثائق والأدلة ، وبالتالي فإنه يثبت كذب الادعاء الصهيوني القائل بأن الصهاينة يمثلون اليهود في أنحاء العالم كافة ، كما يوضح الطابع العنصري والعرْقي للحركة الصهيونية وتصرفاتها العملية النفعية التي أدَّت إلى مصرع مئات الألوف بل الملايين من البشر من اليهود وغيرهم في سبيل الوصول إلى غايتها : أموال اليهود الألمان ومادتهم البشرية الاستيطانية . ويوضح الكتاب أن الإرهابيين الذين تعاملوا مع النازي من قبل هم حكام إسرائيل اليوم ، ويبين للقارئ سهولة التوحد بين الصهيونية والنازية لأن الأساس البنيوي واحد .

ونشر برينر عام ١٩٨٤ كتابه الثاني **الستار الحديدي : تاريخ الصهيونية التصحيحية** . وهو يفضح في هذا الكتاب علاقات عصابتي إرجون وشتيرن بالنازي وتطورهما الإرهابي الحقيقي .

ويرتكز رفض برينر للصهيونية على منظومة اجتماعية أيديولوجية ترى أن الصهيونية حركة تعمل في خدمة قوى الاستعمار العالمي ، وهي إحدى أطروحات الماركسيين الأساسية . ونرى في كتب برينر أن الجانب المعلوماتي والوثائقي متوفر بينما الجانب التحليلي محدود بعض الشيء بسبب هذا الالتزام العقائدي الذي يؤدي إلى محدودية الرؤية . بيد أنه من المهم أن نذكر في هذا الصدد أن معاداة برينر للصهيونية ، رغم ارتكازها على أطروحات ماركسية تروتسكية ، لا تعني أن كل اليسار الأمريكي التروتسكي يؤيد هذه الأطروحات .

إدموند هاناور (١٩٣٨-)

Edmund Hanauer

أستاذ علوم سياسية سابق ومن أنشط اليهود الأمريكيين المعادين للصهيونية . كان أحد أعضاء المجلس الأمريكي لليهودية ثم انفصل عنه مع انفصال الحاخام إلمر بيرجر وكان قد تَعرَّف إلى الحاخام بيرجر أثناء عملهما المشترك في المجلس الأمريكي لليهودية . وبعد الانفصال ، اشترك مع بيرجر في منظمة «بدائل أمريكية يهودية للصهيونية» . ولكنه ، مع عام ١٩٧٢ ، أسَّس منظمته الخاصة ، وهي منظمة «البحث عن العدل والمساواة في فلسطين» والمعروفة اختصاراً باسم «سيرش» (أي «البحث») ، وهذه المنظمة مقرها في بوسطن وتصدر نشرة شهرية تُدعَى «نشرة أخبار فلسطين» . ويشرك هاناور في المؤتمرات والندوات واللقاءات المعادية للصهيونية على طول الولايات المتحدة وعرضها ، ويكتب بكثرة في كل الدوريات المناهضة للصهيونية . كما أنه يشرف على تحرير نشرة جمعيته .

والمنظمة لها مكتب في واشنطن منذ ١٩٧٥ ، ولها علاقات جيدة مع منظمة التحرير الفلسطينية . ويدعو هاناور ومنظمته إلى اشتراك يهود أمريكا في الضغط على الحكومة الأمريكية من أجل اتخاذ سياسة غير منحازة في الشرق الأوسط من أجل تسوية شكلية وعادلة للمشكلة . والله أعلم .



